المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ
مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرّج أحاديثه
خادم الكتاب والسنّة
محمّد علي الصّابوني

المجلّد الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشّاميّة
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الفهرس العام

فهرس المجلد الأول

فهرس المجلد الثاني

فهرس المجلد الثالث

فهرس المجلد الرابع

فهرس المجلّد الخامس

بعون الله تعالى تم انتهاء الكتاب

مقدمة التفسير

بقلم

الشيخ محمد علي الصابوني

الحمد لله منزل الكتاب، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على السراج المنير، المنزَّل عليه قول الإله العلي الكبير ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ سيدنا محمد البشير النذير، الذي ختم الله ببعثته رسالة الأنبياء والمرسلين، فكان ذلك ختام مسك، كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية، فكمل الدينُ، وتمت النعمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فحين كنت في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ أستاذاً باحثاً أحقق بعض كتب التراث، قدم عليَّ أخ فاضل تركي، يحمل معه مجلدات ضخمة مخطوطة، لقريبٍ له من علماء الأتراك، توفي رحمه الله قبل زمنٍ ليس بالبعيد، عرض عليَّ هذه الأسفار الكبيرة، التي خطَّها المؤلف بيده، ثم أدركته الوفاة قبل أن تجد النور، وطلب مني أن أبحث له عمن يطبع هذا الكتاب على نفقته من المحسنين، لأن المؤلف ترك لهم هذه المخطوطات «ثروة علمية» ثم عاجلته المنيَّة قبل طباعتها، فتصفحت تلك المجلدات فوجدتها كتاباً كاملاً في علم التفسير، وثروة علمية لا يستهان بها في تراثنا الإسلامي، بذل

المؤلف جهداً كبيراً في إخراجه في سنين عديدة، وفي زمنٍ عصيب، طغت فيه المادية، ونجم فيه النفاق، وطلع قرن الشيطان، فنفخ في أنصاره وأتباعه، فحاربوا الدين وأهله، وقضوا على الخلافة الإسلامية، التي كانت رمز قوة المسلمين، وتماسكهم واتحادهم، وتعاون معهم شياطين أوروبا وأمريكا، وأرادوا بعملهم المنكر أن يقضوا على الإسلام، ويقوّضوا دعائمه، ولكنَّ الإسلام كان أقوى منهم وأرسخ، لأن الإسلام يستمد قوته من القوي المتين، ربِّ العزة والجلال، فهو القادر الذي ينصر رسله وجنده المؤمنين، ولهذا بقي للدين عزته وقوته، وظهر من يكافح عنه ويناضل، ورجع أعداء الإسلام بالخيبة والخسران، من الصهاينة، والعلمانيين، والملاحدة. وفي هذا العصر المتأجج بالفتن، المشحون بالمتناقضات، قيَّض الله لهذا الدين، من يحميه من العلماء العاملين، فظهر شيوخ أجلاء، وقفوا في وجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام، ينافحون عنه ويكافحون، منهم الشيخ الجليل العلامة الشيخ «مصطفى الخيري الحصني المنصوري» فقد بذل جهداً كبيراً لخدمة القرآن العظيم، وأخرج هذا التفسير الميسَّر النافع، اختاره من أمهات كتب التفسير وسمّاه «المقتطف من عيون التفاسير» أخرجه باللغة العربية خدمة للإسلام والمسلمين وهو بحق اسم على مسمًّى، فهو شذرات وزهرات يانعة من رياض علم التفسير، وقد عرضتُه على الأخ الوجيه المحسن، الشيخ «عبد الله أبو الحسن» من وجهاء أهل جدة السعوديين، الذي يحرص دائماً على نشر ثقافة القرآن، ويهتم بالمخطوطات العلمية الدينية، فكلفني جزاه الله خيراً بالعمل على طباعته والعناية به، ليخرج بالوجه الأنيق المناسب للعصر، تقبَّل الله عمله، وأجزل مثوبته، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خادم الكتاب والسُّنة

الشيخ محمد علي الصابوني

ترجمة المؤلف

بقلم أحد معاصريه
الأستاذ إبراهيم طاير

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسولنا وشفيع ذنوبنا محمد ﷺ وآله وأصحابه الطيّبين الطاهرين أجمعين، إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه ترجمة مختصرة لفضيلة المرحوم الشيخ مصطفى الخيري الحصني المنصوري مؤلف كتاب «المقتطف في التفسير» رحمه الله تعالى، وجعل الجنة مسكنه ومأواه.

ولد الأستاذ الشيخ «مصطفى بن ميمش بن الحسين» في مدينة حصن المنصور واسمها الآن «آدي يامان» مركز الولاية في الأناضول سنة ١٣٠٧ هـ ودرس العلوم الابتدائية والرشيدية بمحل ولادته، وكان أبوه طباخاً محباً للعلم وأهله، وقد حرص على أن يكون ابنه من أهل العلم، ولذلك لم يعلمه صنعة الطبخ، بل آثر أن ينفق عليه ليكون من العلماء، فأرسله إلى مدينة «عنتاب» فتعلّم اللغة العربية وبرع فيها، على يد أستاذ زمانه الشيخ «عبد الله خواجه». ثم رحل إلى استانبول بإشارة بعض أساتذته والتحق بمدرسة الواعظين، فدرس فيها سنتين، ثم انتسب إلى مدرسة القضاة، وبعد تكميل تحصيله في مدرسة القضاة، دُعي للخدمة العسكرية الوطنية في صنف المدافع «طوبجي» وفي الحرب العالمية الأولى اشترك في المحاربات في «جاناق قلعه» وسائر جبهات الحرب في «ماكدونيا» وفي

العراق، وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى سُبي مع كثير من أفراد العسكر، وجال في ممالك عديدة عدة سنين أسيراً.

وبعد خلاصه من الأسر، عُيّن مدرساً في مدرسة النواب في مدرسة «شمسني» فدرَّس فيها ثماني سنوات، خمس سنين في القسم الثانوي، وثلاث سنوات في القسم العالي، درّس فيها اللغة العربية، والفارسية، وعلم الفقه، وعلم الأصول، والفرائض، وأصول الصكّ، وأحكام الأوقاف.

وفي زمن اشتغاله بالتدريس ألَّف كتابه «المقتطف في الفقه» سنة ١٩٢٢ م ثم نقل إلى دار الإفتاء في مدينة «صوفيا» ببلغاريا، وفي فترة اشتغاله بدار الإفتاء في هيئة الديوان العالي الشرعي ابتدأ بتأليف كتابه «المقتطف في التفسير» واشتغل به سنين عديدة وطويلة، حتى انتهى منه، وله كتاب «لغة الطب» وعلم الحال لأطفال المسلمين، ومجموعة الفوائد بالتركي والعربي، وكتابه المقتطف في الفقه مطبوع.

كان الأستاذ الحاج مصطفى الخيري الحصني المنصوري عالماً فاضلاً، ومرجعاً في علم الفقه، وكان زاهداً ورعاً، قوي الجسم، بسيماً، قليل الكلام والمنام، مداوماً على صلاة الجماعة في الأوقات الخمس، يشتغل بالمطالعة دائماً وكان محباً للفقراء وطلاب العلم والمساكين، ويكتب ويتكلم باللغات الثلاث: التركية، والعربية، والفارسية.

توفي رحمه الله سنة ١٣٩٠ هـ ودفن في «استانبول» في مقبرة «قوزلو» عن عمر يناهز /٨٢/ الثانية والثمانين، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إبراهيم طاينر

تفسير البسملة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للملابسة عند صاحب الكشاف، وعند البيضاوي للاستعانة، والقول بالاستعانة أولىٰ، إذْ فيه من الأدب، وإظهار العبودية، ما ليس في المصاحبة، وهذا المعنىٰ أُمِرَ بِهِ المسلِم بقوله تعالىٰ: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتعلَّقتِ الباءُ بمحذوف، وهو هنا ما جُعلت التسميةُ مبدأً له، والأولىٰ تقديرُ المتعلق مؤخّراً، ليفيد قصد الاهتمام باسمه تعالىٰ، وليكون أوقع في التعظيم، وأدلَّ على الاختصاص، وأوفق للوجود، فإن اسمه تعالىٰ مقدَّمٌ على القراءة، كيف لا وقد جُعل آلةً لها من حيثُ إنَّ الفعل لا يتمُّ ويُعتدُّ به شرعاً، ما لم يُصدَّر باسمه تعالىٰ، لقوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأُ فيه ببسم الله فهو أبترُ»[1]، وتقديرُه: «بسم الله أقرأُ» وهذا وما

---

(١) أخرجه ابن ماجه في النكاح بلفظ «كل أمر ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» رقم ١٨٩٤ ورواه أحمد في المسند ٢/٣٥٩، وابن حبان في صحيحه رقم ٥٧٨، ومعنى «أبتر» أي مقطوع، ناقص من الخير والفضيلة، وأمّا الرواية التي أوردها المصنّف فهي من إخراج الحافظ الرّهاوي.

بعده مقولٌ على ألسنة العباد، ليعلموا كيف يُتبرك باسمه تعالىٰ، ويُحمد علىٰ نعمه، ويُسأل من فضله.

والاسم لغةً: علامة للشيء، وعرفاً: اللفظُ الموضوع لمعنى، مفرداً كان أو مركَّباً، والمرادُ بالاسم هنا: ما قابل الكناية واللَّقَب، فيشمل الصفاتِ، ليدلَّ على أن التبرُّك والاستعانة بجميع أسمائه تعالىٰ، وقد تكون الأسماء كثيرةً والمسمّى واحداً، لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1].

والاسم إن أُريد به اللفظ فغير المسمى، لأنه يتألف من أصوات مقطعة ويختلف باختلاف الأمم، والمسمى لا يكون كذلك، وإن أُريد ذات الشيء فهو المسمَّى، لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿تبارَكَ اسمُ ربك﴾ و﴿سبِّحْ اسمَ ربك﴾ المرادُ به اللفظُ، لأنه كما يجب تنزيهُ ذاته وصفاته عن النقائص، يجب تنزيهُ الألفاظ الموضوعة لها عن الرَّفثِ، وسوء الأدب.

وإنما لم يقل «بالله» لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه، وللفرق بين اليمين والتيمن[2]، ولم تكتب الألف لكثرة الاستعمال، وطُوِّلت الباءُ عوضاً عنها، قال عمر بن عبد العزيز لكاتبه: طوِّلِ الباء، وأظهر السين، ودوِّر الميم، تعظيماً لكتاب الله عزَّ وجلّ.

﴿ٱللَّهِ﴾ اسم عَلَم خاص لله تعالى، تفرَّد به سبحانه، ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار، دليله قوله تعالىٰ: ﴿هل تعلمُ له سَمِيًّا﴾[3]؟ وهو عَلَمٌ على المعبود بحق، واختير لفظ الجلالة من بين سائر الأسماء، لكونه أشهر في الألسن، وأدور في الاستعمال، ولكونه مستجمعاً لجميع

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٢) التيمُّنُ: أي التبرك بذكر اسمه جلَّ وعلا.

(٣) سورة مريم، آية: ٦٥.

الصفات الفاضلة، يصلح للتبرك بذكره، وكما تاهت العقول في ذاته وصفاته، لاحتجابها بنور العظمة، تحيرت أيضاً في اللفظة الدالة على الذات، والجمهور على أنَّ لفظ «الله» عربي، اسمُ عَلَمٍ مرتجل، من غير اعتبار أصلٍ منه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من الرحمة، والرحمة رقةُ القلب والانعطاف، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها، والرحمٰن من الصفات الغالبة، حيث لم يُطلق على غيره تعالى، وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم أو هما بمعنى واحد، كما قاله الجوهري، وهما صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تشملان النعم، حسية أو معنوية، وإفرادهما بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة، وتقديم الرحمٰن لأنه باختصاصه به تعالى، صار حقيقياً بأن يكون قريناً للاسم الجليل.

«فصل»

البسملة آية من القرآن، أُنزلت للفصل بين السور، وقال الشافعي آية من كل سورة ما عدا براءة، فحرّم قراءتها على الجنب، والحائض، والنفساء، وهذا لو قصد التلاوة، ومذهب الجمهور أنها من القرآن، ولم تجز الصلاة بها، نظراً إلى شبهة خلاف مالك، لأنه ادَّعى عدم تواتر كونها قرآناً.

وَرَدَ الأمر بقراءة البسملة في مواضع من القرآن، كقوله سبحانه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ والبسملة تجب عند الذبح، ورمي الصيد، والإرسال إليه، ولكن يقوم مقامها كلُّ ذكرٍ خالص، ولا يأتي بالرحمن الرحيم عند الذبح، لأن الذبح ليس بملائم للرحمة، لكن في الجوهرة لو قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو حسن، وفي ابتداء الفاتحة في كل ركعة، قيل: تجب قراءتها لكن الأصحَّ أنها سنة، ويسنُّ في ابتداء الوضوء، والأكل،

وفي كل أمرٍ ذي بال، وتكره عند كشف العورة، أو في محل النجاسة، وعند شرب الدخان ونحوه، فمعنى «ذي بال» أي شريفٍ يُهتم به.

وفي هذا الوصف فائدتان: إحداهما رعاية تعظيم اسم الله، بأن يبتدأ به في الأمور المعتدّ بها.

والأخرى كل أمرٍ يخطر بالبال، وفي هذا إظهار عظمة الله تعالى، وحثٌ على التبري عن القوة إلا بالله[1]، نعم التسميةُ على الحرام حرامٌ، ومكروهةٌ في المكروه، إن لم يكن استخفافاً، وإن قصده والعياذُ بالله كَفَر.

---

(١) لهذه اللفظة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» سرٌّ من أسرار العظمة الربانية، والكمالات القدسية، ما يجعلها شعاراً للمسلم في جميع شؤون الحياة، يلتجىء بها إلى الله، ويحتمي بها من شرِّ كل ذي شرّ، فإن فيها ثلاثة أسماء من أسماء الله الحُسنى «الله» «الرحمٰن» «الرحيم» ولهذا رغَّبنا الرسول ﷺ أن نقولها في كل أمرٍ من أمورنا الدينية والدنيوية، تبركاً وتيمّناً باسمه تعالى.. روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان راكباً على دابة، وخلفه بعضُ أصحابه، فعثرت بالنبي ﷺ، فقال الذي كان رديفه: تَعِسَ الشيطانُ، فقال له النبي ﷺ: «لا تقل تَعِسَ الشيطانُ فإنك إذا قلت ذلك تعاظم وقال: بقوّتي صرعتُه، وإذا قلت «بسم الله» تصاغر حتى يصير مثل الذبابة»!!
قال الحافظ ابن كثير: وهذا من تأثير بركة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ولهذا تستحبُّ في أول كل قولٍ وعمل، فتستحب في أول الخطبة لحديث «كل أمر لا يُبدأ فيه بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فهو أجذم»، وتستحب البسملة في أول الوضوء لحديث «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وتستحب عند الذبيحة لقوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه﴾ وأوجبها بعضهم، وتستحب عند الأكل لقوله ﷺ للغلام «قل بسم الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»، وتستحب كذلك عند الجماع، لما في الصحيحين «لو أنَّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنِّبنا الشيطان، وجنِّبِ الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدَّر بينهما ولد، لم يضرَّه الشيطان أبداً».
فالمشروع ذكر اسم الله في ذلك كله تبركاً وتيمُّناً واستعانة به تعالى على التقبُّل والإتمام» اهـ. من تفسير ابن كثير بشيء من الإيجاز.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مكية وآياتها سبع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

السورة: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها، وقد ثبتت أسماء جميعها بالأحاديث والآثار، والحكمة في التسوير، ليكون أنشط للقارىء، وأبعث على التحصيل، ولأن الجنس إذا انطوى تحته أنواعٌ كان أحسن مع أن في ذلك تحقيقَ كون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله، والفاتحة في الأصل صفة جعلت اسماً لأول الشيء، وفاتحةُ الكتاب سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن الكريم، وتسمى: «أم القرآن» لأنها مبدأه، فكأنها أصلُه، ولذلك يسمى أساساً، وتسمى سورة الكنز، والوافية، والكافية، والشافية، وسورة الحمد والشكر والدعاء، لاشتمالها على ذلك، والسبع المثاني لأنها سبع آيات بالاتفاق ولأنها تكرر في الصلاة، وتثنى بسورة أخرى، والأكثرون على أنها مكية، بل من أول ما نزل من القرآن، وهو المروي عن علي، وابن عباس، وأكثر الصحابة، وعن مجاهد أنها مدنية، وصح

أنها مكية لقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾[1] وهو مكيٌّ بالنصّ.

روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبعُ المثاني[2]».

الحمدُ: هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل، وقالوا في تحقق الحمد خمسة أمور:

١ ـ محمود به. ٢ ـ محمود عليه. ٣ ـ حامد. ٤ ـ محمود. ٥ ـ ما يدل على اتصاف المحمود بصفة.

وتعليقُ الحمد أولاً باسم الذات للإيذان بأنه عزَّ وجلّ هو المستحق له بذاته ووصف بصفة الكمال للتنبيه على استحقاقه له باعتبار الصفة أيضاً.

والفرقُ بين الحمد والمدح من وجوه:

١ ـ الحمد يختص بالثناء على الفعل الاختياري لذوي العلم، والمدحُ في الاختياري وغيره.

٢ ـ صدور الحمد عن علمٍ لا عن ظن، والمدح أعم.

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٥٧ باب فاتحة الكتاب، والترمذي رقم ٣١٢٣ في تفسير القرآن، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري ٧/ ١٢٠ باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ولفظه عن أبي سعيد بن المعلّىٰ رضي الله عنه قال: «كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيتُه فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلّي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال لي: ألا أعلّمك سورةً هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد!! ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلتُ يا رسول الله: ألم تقل: لأعلمنّك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن؟ قال: ﴿الحمد لله رب العالمين...﴾ هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه» وانظر جامع الأصول ٨/ ٤٦٥.

٣ ـ في الحمد من التعظيم وهو أخص بالعظماء وأكثر إطلاقاً على الله تعالىٰ، والمدحُ ليس كذلك.

٤ ـ الحمد مأمورٌ فيه، والمدحُ ليس كذٰلك.

٥ ـ المدحُ يكون قبلَ الإحسان وبعده، والحمد لا يكون إلا بعده.

٦ ـ المدحُ قد يكون منهياً عنه، والحمدُ مأمورٌ به وواجبٌ على العبد، والشكر أيضاً مغاير للحمد فإن الشكر ثناء عليه تعالى بسبب إنعام وصل إليه، والحمد ليس كذلك، فهو أظهر عبودية[١].

والحمد من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، والتعريف فيه للجنس، والمحلى بلام الجنس في المقامات الخطابية يتبادر منه الاستغراق، وهو الشائع لا سيما في المصادر، والحمد في الحقيقة كله له تعالى، إذ ما من خير إلا وهو موليه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[٢].

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الربُّ: في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، وصف به الفاعل مبالغةً كالعدل، وسُمّي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ويطلق أيضاً على السيد، والمنعم، والمصلح، والصاحب، والمعبود، وأنه حقيقة في التربية، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً، كربِّ الدار، وهذا ونحوه جوازه مخصوصٌ بزمانه، وما في الصحيحين من أنه ﷺ قال: «لا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي ومولاي» فقد قيل إن النهي فيه للتنزيه.

والعَالَمُ: اسمٌ لما يُعلم به كالخاتم، غلب فيما يعلم به الصانع جلَّ وعلا من المصنوعات، وهو من العلامة لأنه علامة لموجده وإنما جَمَعه

---

(١) انظر تفسير القاضي البيضاوي «أنوار التنزيل» الجزء الأول ص ٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

ليشمل ما تحته من الأجناس، يقال عالم الأفلاك، وعالم النبات، وعالم الإنس والجن، ويطلق على المجموع كما في قولنا: العالَم بجميع أجزائه محدث، وإنما ورد بالياء والنون تغليباً للعقلاء، وبعضهم خصَّ العالمين بذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: هم الإنس والجن. لقوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾[1].

وفي الرب معنى التربية والتهذيب للعوالم العاقلة الناطقة، والإلهام بالنافع للعوالم غير الناطقة، فعناية الله عزَّ وجلّ للعالمين جميعاً، ومن تأمل في مخلوقاته تعالى وتفكر في صنعه، ظهرت عظمة باريه وشمول تربيته للعوالم كلها، لأن آثار تربيته واضحة المنار، وساطعة الأنوار، فسبحانه من ربٍّ لا يُضاهى، ومَنَّانٍ لا يُحصى كرمُه ولا يتناهى.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تشملان النعم الحسية والمعنوية، وذكرهما هنا تعليل للحمد، فالرحمٰن يشير إلى التربية بالوسائط، والرحيم يشير إلى التربية بلا واسطة، والرحمٰن ينبىء بالنعم المادية، والرحيم بالمعنوية، وإيرادهما ههنا يدل على أن التسمية ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لما أعادهما.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ المالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء، والمَلِك المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين في الملك، وقرىء بهما، والقراءتان صفة لله تعالىٰ، الأولى إشارة إلى الفضل الكبير ويعضده قوله تعالىٰ: ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾[2] والثانية قراءة أهل الحرمين ويعضده قوله تعالىٰ: ﴿لمن المُلْكُ اليومَ﴾؟

واليوم عبارة عمَّا بين طلوع الشمس وغروبها، وفي الشرع بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا مطلق الوقت، إذ ليس عند ربنا

---

(١) سورة الفرقان، آية: ١.

(٢) سورة الانفطار، آية: ١٩.

صباحٌ ولا مساء، والتعبيرات المختلفة بالنظر إلى حال المخاطب، ولم يقل «يوم القيامة» ترجيحاً للعموم، ومراعاةً للفاصلة، ولكونه أدخل في الترغيب والترهيب، وتخصيصُ اليوم بالإضافة مع أنه مالك الأشياء في جميع الأوقات، إمَّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرده بإجراء الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين المُلَّاك والأملاك كلها، ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿لمن المُلْكُ اليوم﴾[1]؟ ويوم الدين، يوم الجزاء ومنه «كما تَدِينُ تُدان»، ومنه الحديث المرسل عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «البرُّ لا يبلى، والإثمُ لا يُنسى، والديّانُ لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان»[2]، والدينُ المطلق في اصطلاح أهل الإسلام والقرآن: الإسلام. أما سائر المذاهب فلا يسمّى ديناً إلا مقيَّداً، كدين اليهود، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[3]، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى، من كونه موجداً للعالمين، رباً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه تعالى حقيقٌ بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات، لا يستأهل لأن يُحمد، فضلاً عن أن يعبد.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصفه بصفاتٍ عظام تميز بها من سائر الذوات، تعلق العلم بمعلوم معيّن، فخوطب بذلك، أي يا من هذا شأنه، نخصك بالعبادة

---

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق قال ابن حجر في الفتح ٨/١٥٦: وهو مرسل رجاله ثقات، وأخرج البخاري طرفاً منه تعليقاً فقال: والدينُ: الجزاء في الخير والشر، كما تدين تُدان، انظر تفسير سورة الفاتحة.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩.

والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، ومن عادة العرب التفنن في الكلام، والعدول من أسلوب إلى آخر، تنشيطاً للسامع، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس كقوله تعالىٰ: ﴿والله الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِير سَحَاباً فَسُقْنَاهُ﴾[1]. وقُدّم المفعول للتعظيم والاهتمام به، والدلالة على الحصر، والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه، ووصلةٌ بينه وبين الحق، وتكرير الضمير للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب، والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبَّد أي مذلَّل، والعبودية أدنى منها، وقيل: العبادة فعل ما يرضى به الله، والعبودية: الرضاءُ بما فعل الله تعالى، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعل العبادة إلا لله تعالىٰ، لأنه هو المستحق لذلك لا غيره، لأنه مولي أعظم النعم، من الحياة، والوجود وتوابعهما، ولذا يحرم السجود لغيره تعالى، وهي تستعمل بمعنى الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[2]، وبمعنى الدعاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتي﴾[3] وبمعنى التوحيد ومنه قوله تعالى: ﴿ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[4] وكلها متقاربة المعنى.

وقدّمت العبادةُ، لأن تقديم الوسيلة، قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى، والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً، والاستعانة تابعة للمستعان فيه، وقد

---

(١) سورة فاطر، آية: ٩.

(٢) سورة يٓس، آية: ٦٠.

(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

قيل: لما كان المسؤول هو المعونة في العبادة، وهو المناسب لحال الحامد، كأنه قيل: وإياك نستعين في ذلك، لذا كان وجه الترتيب واضحاً.

والاستعانةُ: طلب المعونة في أمرٍ من الأمور، والمراد بها في الآية: طلب المعونة في المهمات كلها، ولهذا لم يخصصها هنا بل ورد اللفظ بالعموم ﴿وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ أي على أمور الدنيا والدين.

والضمير في الفعلين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ للقارىء ولجماعة الحاضرين، من المؤمنين الموحدين، أدرج عبادته في عبادتهم، وخلط حاجته ضمن حاجتهم، لعلها تقبل ببركة دعاء المؤمنين، ولذا شُرعت صلاة الجماعة، وفُضّلت على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

وأمرنا المولى جلَّ وعلا أن نكون مع الصادقين، وأن ننخرط في سلكهم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ولهذا السر جاء التعبير في سورة الفاتحة بصيغة الجمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما ورد في دعاء القنوت بصيغة الجمع أيضاً «اللهم اهدنا فيمن هديتَ، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت...»الخ. وتخصيص العبادة والاستعانة بالله عزَّ وجلّ أصلٌ من أصول الإسلام. لقد كان المسلمون الأولون يعبدون الله تعالىٰ مخلصين له الدين، ويستعينون به، ففازوا بما أدهش العالم، فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة، ولم يحسنوا العبادة والاستعانة، فضعفوا وذلُّوا، وذهبت ريحهم.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية: دلالةٌ بلطف على ما يوصل إلى البغية وقيل: هي الدلالة الموصلة إليها، لأنه لا يقال مهدي إلاّ لمن اهتدى إلى المطلوب وهي تستعمل في الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إلى صِراط الجَحيم﴾[1] على نهج التهكم، والأصل أن يعدى باللام أو إلى كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكمْ من يَهْدِي إلَى الحَقِّ؟ قُلِ الله

(١) سورة الصافات، آية: ٢٣.

يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾[1]، وهدايةُ الله تعالىٰ لا تكاد تنحصر، منها أنفسية، ومنها آفاقية، وهي الأدلة المودعة في كل فرد من أفراد العالم، وإما تنزيلية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ وفي قوله جلَّ وعلا: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

ومنها الهداية الخاصة، وهي كشف الأستار عن قلب العبد المهدي، بالوحي وهو خاصٌّ بالأنبياء صلوات الله عليهم، أو بالإلهام والمنامات الصادقة، وهو يشمل الأنبياء، والأولياء، والصالحين، فقد ألهم الله أم موسى أن تلقي ولدها في اليمِّ ﴿فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمِّ﴾ أي البحر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الملهمين، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه»[2].

أقسام الهداية

وقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان أربع هدايات:

١ ـ **هداية الفطرة**: فإن الطفل عندما يصل الثدي إلى فمه يُلهم امتصاصه.

٢ ـ **هداية الحواس**: وهي متممةٌ للأولى، ويشارك الحيوانُ فيها الإنسان، فبالحواس يهتدي إلى أسباب عيشه كلٌّ من الإنسان والحيوان ﴿أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدَىٰ﴾.

٣ ـ **هداية العقل**: وهي خاصة بالإنسان، وبالعقل يُصحَّح غلط الإنسان.

٤ ـ **هدايةٌ الدين**: فقد يغلط العقل في إدراك المصلحة كما تغلط

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٦٨٣ في مناقب عمر، وقال: حديث حسن.

الحواس، فيحتاج إلى هداية الدين، لترشد الناس - في ظلمات الأهواء - إلى الطريق المستقيم.

والمطلوب في الآية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إما الزيادة كما قال سبحانه ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ وإما الثبات على الهداية، كما فسَّرها عليٌّ رضي الله عنه ﴿اهدنا﴾ أي ثبتنا، وكما ورد في الحديث الشريف: «اللهمَّ يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك»(١).

والصراطُ المستقيم: هو الطريق الذي لا التواء فيه، ولا اعوجاج، وهو جسر بين العبد والرب، ممدود على متن الشهوات المغرية: الفسقُ، والجهلُ، والبدع، والرذائل الدنيئة، والهداية هي: الاستقامة على ما ورد به الشرع الشريف، علماً، وعملاً، وخُلُقاً. وللتذكير بذلك قيل: ﴿الصراط﴾ ولم يقل السبيل، ولا الطريق، وإن كان الكل واحداً، فمن قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أراد: أرشدنا إلى الاستقامة على امتثال أوامرك، واجتناب نواهيك، والسُنَّةُ الإلٰهية في هذا الكون أن يظهر الشيء مجملاً، ثم يتبعه التفصيل تدريجاً، وما مَثَلُ الهداية الإلهية إلاّ مثل البذرة، والشجرة تنبت شيئاً فشيئاً ثم تصبح شجرة باسقة.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من الأول، وفائدتُه التنصيصُ على أن طريق المسلمين، هو المشهود عليه بالاستقامة، لأنه جُعل كالتفسير والبيان، بأن الصراط المستقيم هو طريق المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسولَ فأولئك معَ الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين﴾ بشهادة ما قبله من قوله تعالى: ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾.

والإنعام: إيصالُ النعمة إلى الغير من العقلاء، فلا يقال أنعم على فرسه، ولذا قيل: النعمة نفع الإنسان من دونه بغير عوض، ونِعَمُ الله تعالى

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٤ وأحمد في المسند ٤/ ١٨٢.

وإن كانت لا تُحصى كما قال الله تعالى: ﴿وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾[1] منقسم إلى قسمين: دنيوية، وأخروية، والأول قسمان: وهبي، وكسبيٌّ، والوهبي قسمان: روحاني كنفخ الروح فيه، وإشراقه بالعقل، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه من الصحة، وكمال الأعضاء، والكسبيُّ: تزكيةُ النفس من الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والمَلَكات الفاضلة، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم، وفي بناء «أنعمتَ» للفاعل استعطافٌ، فكأن الداعي يقول: أطلبُ منك الهداية إذ سبق إنعامك، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا.

سبحان الله ما أكرمه، كيف يعلمنا الطلب، فيجود بالفضل على كل من طلب!!.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الذين جمعوا بين النعمة المطلقة، التي هي نعمة الإيمان، وبين نعمة السلامة من الغضب والضلال، والعدولُ من إسناد الغضب والإضلال إليه تعالىٰ كما أسند الإنعام، جرى على نهاية الآداب التنزيلية، في نسبة النعم والخيرات إليه تعالى، دون أضدادها.

والضلالُ: هو العدول عن الصراط السويِّ، ضلَّ الرجل: إذا انحرف عن الطريق المستقيم، أو أخطأ في سلوك الجادة. والمراد بالمغضوب عليهم: اليهودُ، وبالضالّين: النصارى، لما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهودُ مغضوب عليهم، والنصارى ضُلَّال»[2] أخرجه الترمذي، ورواه أحمد في المسند، وحسَّنه ابن حبان، وصحَّحه ابن جرير، وقال ابن أبي حاتم: لا أعرف فيه خلافَ المفسرين.

فمن زعم أن الحمل على ذلك ضعيف ـ لأن منكري الخالق

---

(١) سورة النحل، آية: ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في قصة إسلام عدي بن حاتم، في تفسير سورة الفاتحة رقم ٢٩٥٤.

والمشركين أخبث ديناً منهما ـ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، إن كان قد بلغه ما صحَّ عن رسول الله ﷺ فليس بعد كلام الرسول مقال لأحد «ولا عطر بعد عروس» وإلاَّ فقد تجاسر على تفسير كتاب الله، مع الجهل بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام!!.

ولا مانع أن نعمِّم الحكم، فنقول الآية كما وضَّحها عليه الصلاة والسلام يراد بها «اليهود والنصارى» ولكنَّ حكمها عام يشمل كلَّ ضالٍ وكافر ومشرك، من أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

(آمين): اسم فعل أمر بمعنى: استجب دعاءنا، وليست من القرآن بالاتفاق ولهذا لم تكتب في المصحف، ولكنْ يُسنُّ ختم السورة الكريمة بها، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا: آمين، فمن وافق قولُه قولَ الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»[1] وفي رواية أخرى «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإن من وافق تأمينُه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم ٤٤٧٥.

سُورَةُ البَقَرَة

مدنية وآياتها مئتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ قيل: إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنأخذ من ظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وعن أبي بكر الصديق أنه قال: في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن أوائل السور، وعن علي: إن لكل كتاب صفوة، وصفوةُ هذا الكتاب حروفُ التهجي. وقيل هي أسماء السور، وقال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، فلما نزل ﴿المص﴾ قرأ النبي ﷺ هذه الحروف استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى تعرُّف ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم النبي ﷺ بالقرآن، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتصرت عليها كما رويت عن ابن عباس أنه قال: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي القرآن منزلٌ من الله بجبريل على محمد ﷺ.

فصل

الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطَّعة

الحكيم إذا خاطب من كان محل الغفلة، أو مشغول البال، يقدّم على المقصود شيئاً غيره، ليلفت نظر المخاطب إلى كلامه، وذلك المقدّم

قد يكون كلاماً «كاسمع» وقد يكون صوتاً كمن يصفر خلف إنسانٍ ليلتفت إليه، وقد يكون بالتصفيق بيده!!

وكلّما كان المقصود أهم، والغفلة أتم، كان المقدَّم أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: «أزيدُ» والبعيد بيا فيقال «يا زيدُ» والغافل يُنبَّه بـ «ألاَ» فيقال: ألاَ يا قوم، ألاَ يا زيدُ، كما قال الشاعر:

أَلاَ يَـا حَمْـزُ لِلشُّـرُفِ النّـواءِ ... وَهُـنَّ مُعَقَّـلاَتٍ بِـالفِنَـاءِ

فيحسن من الحكيم أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إنَّ تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يُفهم معناها، تكون أتمَّ في التنبيه، وإذا كان المقدَّم مفهوماً فالسامع يظن أنه كل المقصود، فيقطع الالتفات عنه؛ وهذا هو السرُّ في افتتاح بعض السور الكريمة، بهذه الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿المصٓ﴾ و﴿وحمعٓسق﴾ و﴿كهيٓعص﴾ و﴿وحمٓ﴾ و﴿الرٓ﴾ و﴿قٓ﴾ وأمثالها من الحروف المقطعة، التي وردت في تسع وعشرين سورة، وكلها مكية إلا البقرة، وآل عمران.

قال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، ويوصي بعضهم بعضاً بعدم استماعه، كما قال سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون﴾ فلما نزل ﴿المصٓ﴾ و﴿كهيعص﴾ وقرأها النبي ﷺ استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى معرفة ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم القرآن بآياته البينات، مما اضطَّرهم إلى سماعه، وهذا من أحد أسباب الحكمة في افتتاح السور بالحروف المقطعة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «ذلك» إشارة إلى القرآن الموعود إنزاله. بقوله تعالىٰ: ﴿إنّا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً﴾[1] والإشارة به للتعظيم، والكاف

---

(١) سورة المزمل، آية: ٥.

للخطاب، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للتنويه بعلو شأنه.

والمعتبر في أسماء الإشارة هو الإشارة الحسيّة، فإن أشير بها إلى ما يستحيل إدراكه نحو ﴿ذلكم الله﴾ أو إلى محسوسة غير مشاهدة نحو ﴿تلك الجنة﴾ فلتصييره كالمشاهد، وتنزيلُ الإشارة العقلية منزلة الحسيّة، لا تخلو عن لُطف ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مصدرٌ سمي به المفعول مبالغة، كالخلق للمخلوق، من الكَتْب الذي هو ضم الحروف، وأصله الضم والجمع، ومنه الكتيبة للعسكر، ويطلق الكتاب على المنزل، وعلى المكتوب، وكتب أي حَكَم وأوجب، ومنه ﴿كتب عليكم الصيامُ﴾ وكتب القاضي النفقة أي قضى بها، والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام، وهو اسم من أسماء القرآن، فالمعنى: إنَّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، الحقيق بأن يخص باسم الكتاب، لغاية تفوقه على بقية الأفراد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق أي لا ريب فيه أنه من عند الله تعالى، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، والشك سبب الريب ومبدأه، كما أن العلم مبدأ اليقين، والشك، تردد بين الشيئين، والريب استعمل في معنى الشك لأنه يزيل الطمأنينة. نَفَىٰ سبحانه وتعالى الريب مع كثرة المرتابين، على معنى أنه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر، في كونه وحياً من الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً، ألا ترى كيف جوّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[1]!؟.

وقيل: إنه على الحذف، كأنه قيل لا فيه سببُ الريب، لأن الأسباب التي توجب الريبة في الكلام التلبيسُ، والتعقيد، والتناقضُ، والدعوى العارية عن البرهان، ونحو ذلك، وكلٌّ ذلك منتفٍ عن كلام الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر هدى، والمراد هنا اسم الفاعل أي هادٍ للمتقين، واختصاصُ الهداية بهم، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كانت دلالة الكتاب عامة لكل ناظر، من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال الله تعالىٰ: ﴿هدى للناس﴾ والاتقاء من الوقاية، وهي فرط الصيانة من المكروه، والتقية والتقوى اسم منه، قال الشاعر:

خـلِّ الـذنـوبَ كبيـرهـا وصغيـرهـا ذاك التقـى
لا تحقـرنَّ صغيـرةً إن الجبـالَ مـن الحصـى

مراتب التقوى

وللتقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التبرؤ من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وألزَمَهُمْ كلمةَ التقوى﴾[1].

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم به، وهو المتعارف في الشرع.

الثالثة: أن ينزه سرَّه عن كلّ ما يشغله عن الله تعالى، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حقَّ تُقَاتِهِ﴾[2].

وهدايةُ الكتاب شاملة لأصحاب هذه المراتب جميعاً. وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ جملةٌ برأسها ﴿وذلك الكتابُ﴾ جملةٌ ثانية ﴿ولا ريب فيه﴾ جملة ثالثة ﴿وهدى للمتقين﴾ جملةٌ رابعة، جيء بها متناسقة من غير حرف عطف، ومتآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، وهذا أرسخ قَدَماً في البلاغة.

فإن قيل: لو كان الكتاب هادياً لكان هدىً للكفار أيضاً؟ أجيب بأن عدم هدايته إياهم، لتمردهم ولعدم تدبرهم فيه، كرجلٍ يغمض عينيه

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه، هل ينقص ذلك من قدر بصره؟ وكما قال القائل:

والنجـــم تستصغـــر الأبصـــارُ رؤيتَـــه
والـــذنـــبُ للطـــرف لا للنجـــم فـــي الصغـــر

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصُ ما ذُكر من الإيمان، والصلاة، والإنفاق، لإظهار شرفها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات، ولفظ «الذي» يصح للعاقل وغيره، والذين لا يستعمل إلا للعقلاء خاصة، وليس «الذين» جمع الذي، بل فيه زيادة لزيادة المعنى، ولذا جاء بالياء أبداً في اللغة الفصيحة، التي عليها التنزيل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والإيمانُ من الأمن، ثم استعمل في التصديق، واستعماله بالباء لتضمنه معنى الاعتراف، وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورةً أنه من دين النبي ﷺ، كالتوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها، وهل هو كافٍ في الإيمان أو لا بدَّ من الإقرار للمتمكن منه؟ الحقُّ هو الثاني، لأنه تعالى ذمَّ المعاند أكثر ممّا ذم به الجاهل المقصّر، والإيمان مجموع ثلاثة أمور: «التصديقُ، والإقرار، والعمل بموجبه» فمن أخلَّ بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلَّ بالإقرار فهو كافر، ومن أخلَّ بالعمل فهو فاسق و﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مصدر وصف به للمبالغة، والمراد به الشيء الخفي الذي لا يدركه الحسُّ، ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسمٌ لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله تعالى: ﴿وعنده مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ﴾[1] وقسمٌ نصب عليه دليلٌ، كالصانع وصفاته، والنبوة، واليوم الآخر، ونحو ذلك، وهو المراد

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ههنا وإمّا بمعنى الغيبة أي يؤمنون بالله، والجنة، والنار، والملائكة، والصراط، والميزان، وإن لم يروها بمعنى أي غائبين عن الناس وعن المؤمنين، والفرق بين الغيب والغائب، فالغائب من لا يراك ولا تراه، والغيب من لا تراه وهو يراك، فالله تعالى غيب لا غائب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاةُ: أصلها الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيهم إنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لهم﴾[1] أي ادع لهم، وقيل: من صَليتُ العود بالنار إذا لينته، وفي الشرعِ: اسم لأفعال مخصصة، من قيام، وركوع، وسجود، وقعود، وإنما سميت بها لاشتمالها على الدعاء، وإقامتها عبارة عن تعديل الأركان، وحفظها أن يقع زيغ في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها، من أقام العود إذا قوّمه وعدّله، وهو المروي عن ابن عباس[2]، وعنه ﷺ أنه قال: «الصلاةُ عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين»[3] والمراد هنا الصلاة المفروضة كما روي عن ابن عباس، أو الفرائض والنوافل، فمن راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال إلى الله تعالى، دخل في من مدحهم الله بقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، وجُعلت عمادَ الدين، لأنها جامعة لأنواع العبادات، النفسانية، والبدنية، من الطّهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف على العبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمٰن، وقراءة القرآن، والتكلم بكلمة الشهادة، والصلوات على النبي ﷺ

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) قال ابن عباس: إقامتها الإتيانُ بها على الوجه الكامل، من الخشوع والاطمئنان، وأداء فرائضها، وسننها وآدابها، والمحافظة عليها في أوقاتها، رواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) في سنن الترمذي ٥/ ١٣ «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذِروةُ سَنَامه الجهاد» وانظر الحديث في مسند أحمد ٥/ ٢٣١.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزقُ: هو ما ينتفع به، ويستعمل بمعنى المرزوق، وهو ما ساقه الله تعالى إلى عباده، سواءً كان حلالاً أو حراماً، مأكولاً أو مشروباً، أو ملبوساً أو غير ذلك، وقال المعتزلة: الحرام ليس برزق، والظواهر تشهد بانقسام الرزق إلى الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾[1] ولو لم يكن الحرام رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، لحديث: «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حرَّم الله عليك من رزقه»[2] والحرام رزقٌ من الله تعالى، ولكن يُتأدب في نسبته إلى الله تعالى، والمراد هنا الرزق الحلال، لأنه في معرض وصف المتقين.

والإنفاقُ: صرفُ المال إلى وجوه المصالح والخيرات، ويروى عن ابن عباس أن المراد بها الزكاة، وعن ابن مسعود: نفقة العيال، وقيل: نفقة الجهاد، ورجح كونها للزكاة المفروضة، اقترانُها بالصلاة. وتقديم المفعول ﴿ومما رزقناهم﴾ للاهتمام، وإدخال «مِنْ» التبعيضية للكفّ عن التبذير، بأن ينفق ماله كلّه، ويترك نفسه وأهله دون نفقة.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، وفي ذلك ترغيب أهل الكتاب في الإيمان، والإنزالُ

---

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن ماجه في الحدود رقم ٢٦٤٢ في قصة عَمْرو بن قُرَّة، وفيه أنه أتى الرسولَ ﷺ فقال يا رسول الله: «إن الله قد كتب عليَّ الشِّقوةَ، فما أراني أُرزق إلاَّ من دُفِّي بكفِّي، فَأْذَنْ لي في الغناء؟ فقال له ﷺ: لا آذنُ لك، ولا كرامة، كذبتَ أي عدوَّ الله، لقد رَزَقَك الله طيِّباً حلالاً، فاخترتَ ما حرَّم الله عليك من رزقه..» الحديث.

والتنزيل في اللغة: نقل الشيء من مكان عالٍ إلى ما دونه، ويطلق العلو في الأمور المعنوية مجازاً كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد﴾ ومعنى إنزال القرآن أن جبريل عليه السلام سمع كلام الله تعالى ونزل به وأدّاه، ولا نعرف صفة تلقي النبي ﷺ الوحي من جبريل، لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء، ولكن الله تعالى أخبر عن تكليمه للبشر بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ منَ المُنْذرين﴾[2]، ووصفه لنا الرسول ﷺ في جوابه لمن سأل عنه فقال: «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فينفصم عني، وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[3].

وقال الحكماء: إن نفوس الأنبياء قدسية، فتقوى على الاتصال بالملأ الأعلى، فينتقش فيها من الصور ما ينتقل إلى الحسّ فيرى كالمشاهدة، وهو الوحيُ على رسل الله. ولا خلاف بين العلماء من أن المنزَّل هو اللفظُ والمعنى، لا مدخل للمخلوق في شيءٍ ممَّا يتعلق بالقرآن الكريم، سوى إيصال جبريل عليه السلام، يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿لا تُحَرّكْ بِهِ لسَانَكَ لِتَعْجَلَ به. إنّ عَلينَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ﴾[4].

﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراةُ والإنجيل وسائر الكتب السالفة، والإيمان بها جملةً فرضٌ، وبالقرآن تفصيلاً فرضُ عين على كل مؤمن

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي رقم ٢، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف كان يأتيك الوحي؟ الحديث.

(٤) سورة القيامة، آية: ١٦ ـ ١٧.

بحيث لا ينكر شيئاً من القرآن والمراد بالإيمان بالكتب السالفة أنها منزلة منه تعالى على رسله الكرام لإرشاد الأمم، لا أنَّ أحكام تلك الكتب باقية.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ والآخرة تأنيث الآخر، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى، غلَبتا على الدارين، فجرتا مجرى الأسماء، والإيقان: إتقان العلم بالشيء، بنفي الشك، والشبهة عنه، بالاستدلال، ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى، واليقينُ من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية، وهو نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، ولا يعتد بما دون اليقين في الإيمان، ويعرف اليقين بآثاره في الأعمال، ولم يقل «هم يؤمنون» دفعاً للتكرار، وفي تقديم الصلة تعريضٌ بأهل الكتاب، فإن اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزلٍ من الصحة، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة، من حيث اتصافهم بها، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ درجتهم في الصلاح ﴿على هدى﴾ في تنكير هدى إشارة إلى عظمته كأنه قيل: على هدىً لا يُبلغ كنهه، ولا يُقادر قدرُه، وإيراد كلمة «على» المفيدة للاستعلاء، بناءً على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى، بحال من يعتلي الشيءَ ويستولي عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، أي هم على هدى كائن من عند الله تعالى، وهو شامل لجميع أنواع هدايته وفنون توفيقه وإنما ذكر الرب، لما فيه من المناسبة الواضحة، لأنه تَعالى لمَّا كان ربَّهم، ناسب أن يهيىء لهم الأسباب لسعادة الدارين، فهو سبحانه الموفق لهم، والمفيض عليهم من بحار لطفه وكرمه، وإن توسطت هناك أسباب مادية، هي كلها من توفيق الله.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير اسم الإشارة ﴿أولئِكَ﴾ لمزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه على أن اتصافهم بتِلك الصفات الجليلة، يقتضي كل واحدة من الفضيلتين: التمكن من الهدى، والفوز بالفلاح، والفلاح في أصل اللغة: الشقُّ والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يُفلح» أي يُقطع ويُشقُّ، فكأن العبد انفتح له الظفر، وشق أمامه الطريق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

لمَّا ذكر الله تعالى خاصة عباده، بصفاتهم التي أهَّلتهم للهدى والفلاح، عقَّبهم بأضدادهم العتاة، الذين لا ينفع فيهم الهدى، والتي لا تغني عنهم الآيات والنذر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكفروا بآياته، وكذبوا رسوله محمداً ﷺ يتساوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار، ولهذا قال بعده ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سواء أخوَّفتهم يا محمد من عذاب الله، أم لم تخوفهم فإنهم لا يؤمنون، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، والمراد بهم أناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم، أو هي للجنس تتناول من صمَّم على الكفر ومات عليه، والكفر في اللغة: السترُ، ويسمى الزارع كافراً لأنه يستر الحب في الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي الزُّرَّاع، وسمي الكافر كافراً لأنه يستر نعمة الله ويخفيها، والكفر في الشرع: إنكار الضروريات من الدين مما اشتهر عند الخاصة والعامة، كإنكار الصلاة وتحريم الخمر ونحوهما، والكافرون أقسام: منهم من يعرف الحق وينكره عناداً، ومنهم من لا يعرف ولا يريد أن يعرف، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إن شرَّ الدوابِّ عندَ الله الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون﴾[1] فهؤلاء كلما صاح فيهم

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

الحقُّ نفروا وأعرضوا، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا عقولهم في فهم الحق، ومنهم من مرضت نفسه، واعتلَّ وجدانه، فلا يذوق للحقِّ لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، وهذا القسم كثير في كل زمان ومكان، لأنهم اتبعوا الهوى، واتباعُ الهوى يعمي الإنسان.

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، والختمُ: الكتْمُ، سُمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه، كالختم على الكتب والأبواب، وليس المراد به القفل على قلوبهم، بل إحداث حالةٍ تجعلها ـ بسبب تماديهم في الغيّ وإعراضهم عن منهج النظر الصحيح ـ بحيث لا يؤثّر فيها الإنذار، ولا ينفذ فيها الحق كما قال تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾. ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ عطفٌ على ما قبله داخل في حكم الختم، أي ختم على قلوبهم وختم على سمعهم، بدليل قوله سبحانه ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[1] والسمع يطلق على العضو الحامل للقوة السامعة، وهو المراد هنا إذ هو المختوم عليه ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ أي وجعل على أبصارهم غطاء، يحجب عنهم رؤية نور الحق، فلا يبصرون هدى، ولا يفقهون ولا يعقلون.

وللإنسان بصرٌ وبصيرة، فالبصرُ يُبصرُ بهِ الأضواءَ، والبصيرةُ هي القوةُ العاقلة التي يُدرك بها الحقائق، ويعرف بها المنافع من المضار، ونورُ البصيرة أكمل من نور البصر، ولهذا قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[2] ثم ختم الآية بقوله سبحانه:

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر لا ينقطع، بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾.

لما ذكر تعالى صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر بعدها صفات المنافقين، وهم الصنف الثالث من البشر، أشرُّ خلق الله، لأنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وهم أخبث الكفرة، لأنهم خلطوا بالكفر الاستهزاء والخداع، ولذا طوّل تعالى في بيان خبثهم وطغيانهم، وفجورهم واستهزائهم، وضرب لهم الأمثال، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من النفاق والضلال، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الناسُ، اسم جمعٍ لإنسان، مأخوذ من الأنس ضد الوحشة، لأنسه بجنسه من البشر، كما قالَ الشاعر:

وما سُمِّي الإنسانُ إلاَّ لأُنسِهِ ... ولا القلبُ إلاَّ أنه يتقلَّب

أي ومن الناس فريق ضُلاَّل، يقولون بألسنتهم آمنا بالله، وبما أُنزل على رسوله من الآيات البينات، وصدَّقنا بالجزاء والحساب، والبعث والنشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليسوا بصادقين في دعوى الإيمان، لأنهم يقولون تمويهاً على المؤمنين واستهزاءً، والمراد باليوم الآخر يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والجزاء.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يعملون عمل المخادع لله وللمؤمنين، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، والخِداعُ: أن يوهم صاحبه بخلاف ما يضمره له من المكروه، ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، ونسبةُ الخداع إلى الله تعالى: ﴿يُخَادعونَ الله﴾ إما على طريق الاستعارة التمثيلية أي يعملون عمل المخادعين لله، شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر، بحال رعيةٍ تخادع السلطان، والله سبحانه لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية، وإما أن يكون المراد خداعهم للرسول أي يخادعون رسول الله، ونُسب إلى الله إبانةً لمكانته عنده تعالى، فمخادعته كأنها مخادعة لله لأنه رسوله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] ولهذا سفَّه صنيعهم، وأزرى بعقولهم فقال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم، يظنون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله والمؤمنين، وما دروا أنهم يضحكون على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحسُّون بذلك، ولا يفطنون له، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم، لفقدان الشعور والإحساس، ونفيُ الشعور نهايةُ الذم، لأن من لا يشعر البديهي المحسوس، مرتبته أدنى من مرتبة الحيوان.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ أي في قلوبهم شكٌّ ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، والجملة وردت مورد الدعاء أو الخبر.

قال عبد الرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، وقرأ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

والمرضُ: أصله ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حدِّ الاعتدال،

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٥.

ويوجب الخلل في أفعاله، ويطلق على مرض القلب، ممَّا يخلُّ بكمال الإنسان، كالحسد، والنفاق، وسوء الاعتقاد، وغير ذلك، ولا شك أن قلوب المنافقين ملأى من تلك الخبائث، ومرضُ القلب أخطر من مرض الجسد، لأن مرض البدن يُشفى بالدواء، ومرضُ القلب لا يشفيه إلاّ نار الجحيم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع، يصل ألمه إلى قلوبهم.

قال ابن عباس: كلُّ شيء في القرآن أليم فهو بمعنى موجع[1]. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب كذبهم على النبي والمؤمنين في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم غير مؤمنين، وترتيب العذاب على الكذب، للإشعار بنهاية قبحه، وللتنفير عنه، فإنه صفة غير المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾[2] والكذبُ: هو الإخبار بأمر على خلاف ما هو عليه، وهو حرام لأنه من الكبائر، وقد علَّل به سبحانه استحقاق العذاب، حيث ترتَّب عليه.

وكلُّ مقصودٍ محمود يمكن التوصلُ إليه بالصدق، فالكذب فيه حرامٌ، لعدم الحاجة إليه، ويباح في أمور صرَّح بها الحديث الشريف وذلك في ثلاث مواطن: «في الحرب، وإصلاح ذات البين، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها»[3] فينبغي أن يقابل المفسدة المترتبة على الصدق، فإن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) أشار المصنف إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي عن أسماء بنت يزيد في كتاب البر رقم ١٩٣٩ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدِّث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة، والكذب ليصلح بين الناس» وفي البخاري ٥/ ٢٢٠ في الصلح «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» ومعنى حديث الرجل امرأته لإرضائها، كأن يكون=

كانت المفسدة في الصدق أشد ضرراً فله الكذب، وإن كان عكسه أو شَكَّ حرم الكذب.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ شروع في تعديد بعض قبائحهم، وأعمالهم الشنيعة، و«إذا» ظرف زمان، وهي تدخل في الأمر المحقَّق، أو المرجح وقوعه، وإذا جاءت مع الماضي كان معناها المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي حين مجيء النصر في المستقبل، والمعنى: وإذا قال بعض المؤمنين لأولئك المنافقين: لا تسعوا في الأرض بالفساد، بإثارة الفتن، والصدِّ عن سبيل الله، والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين، وإطلاع الكفار على الأسرار، وأمثال ذلك ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نحن مقصورون على الإصلاح، ليس شأننا الإفساد أبداً، وهذا إمَّا ناشىءٌ عن جهلٍ مركب، حيث اعتقدوا الفساد صلاحاً، فأصرُّوا واستكبروا، وإمَّا جارٍ على عادتهم في الكذب لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] والصلاح يتناول جميع أقسام البِرّ، كما أن الفساد يتناول جميع أنواع الإثم، فمن عمل بغير أمر الله فهو مفسد، ولهذا ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

= عند إنسان زوجتان، فتقول إحداهما: إنك تحبُّ ضرتي أكثر مني، فيقول لها: لا، بل أنت أغلى عندي منها، ويكون غير صادقٍ في هذا الكلام، فأباحه الشرع لاستدامة الحب بين الزوجين، لئلا تنقلب حياته إلى جحيم، إن أخبرها أنه يحبُّ فعلاً زوجته الأخرى أكثر منها، ولا يجوز أن يستعمل الكذب معها في جميع الأمور، فتنبه والله يرعاك.

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ والجملة دالة على سخطٍ عظيم، حيث صُدّرت بحرفَيْ التأكيد «ألاَ» المنبّهة، و«إنَّ» المؤكدة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل «هم» والاستدراك «ولكنْ» وكلٌّ ذلك للردّ عليهم أبلغ ردٍّ، أي ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يُحسّون، لانطماس نور البصيرة فيهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب محمد ﷺ، وأخلصوا إيمانكم وطاعتكم لله.

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة؟ يريدون بذلك الصحابة الكرام، وإنما نسبوهم إلى السفه، مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد، والرزانة والوقار، لمنتهى غبائهم، حيث نسبوا قلة العقل إلى أولئك العقلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وأرادوا بذلك تحقير شأنهم، فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء[1].

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ردَّ الله عزَّ وجلّ أبلغ ردٍّ،

---

(١) نسبوهم إلى السَّفه سخرية وتهكماً، لأنهم كانوا يعدُّون المؤمنين مجانين، لاتّباعهم لرسول ﷺ، وقد كان معظم أصحاب النبي ﷺ فقراء وضعفاء، وبعضهم كان من الموالي والعبيد، ومن غير العرب، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وكان المشركون والمنافقون يسخرون منهم ويهزؤون، وكان أبو جهل إذا رآهم قال لجماعته: أتاكم ملوك الدنيا، فلذلك كانوا يسمونهم سفهاء.

(٢) لننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات «ألاَ» التي تفيد التنبيه والتحذير، و«إنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثم =

وجُهّلوا أشنع تجهيل، حيث جعلت الجهالة والسفاهة مقصورة عليهم، فإن الجاهل بجهله، الجازم بخلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتم جهالةً من المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر، وتنفعه الآيات والنُّذُر، وإنما ختمت الآية بـ«لا يعلمون» والتي قبلها بـ«لا يشعرون» لأنه أكثر مطابقةً لذكر السفه، لأن الوقوف على أمر الدين، والتمييز بين الحق والباطل، مما يفتقر إلى نظرٍ وتفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والعناد، فإنما يُدرك بأدنى تفطن وتأمل، فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما هو بيانٌ لطريقة المنافقين، حسب تباين المخاطبين، لأن معنى الآية الأولى: ومن الناس من يتفوّه بالإيمان، نفاقاً للخداع، وهنا عند ملاقاتهم للمؤمنين، لدفعهم عن أنفسهم، فقد ضمُّوا إلى الخداع الاستهزاءَ، ولهذا قيّده باللقاء هنا، أي إذا رأوا المؤمنين وصادفوهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة، نفاقاً ومصانعة. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم في الكفر، المماثلين للشياطين في التمرد والعناد، قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ

= تعريف الخبر «السفهاء» ثم ختمت بالاستدراك «لكنْ» لتسجّل عليهم غاية السفه والجهالة في صنيعهم المنكر ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ ولما كان الفساد يدرك بالبديهة، دون جهد وتعب قال هناك ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ ولما كانت خفة العقل وسفه الرأي، يحتاج إلى نظر وتفكر قال هنا: ﴿ولكنْ لا يعلمون﴾ فما أدقَّ التعبير القرآني المعجز!.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي إنما نسخر ونستهزىء بالمؤمنين، بإظهار الإيمان لهم، لنكسب وُدَّهم، قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم، بإمهالهم ثم بالنكال بهم، والاستهزاء في اللغة: السخريةُ والاستخفاف، وأصله من الخفة، لأن من كان خفيف العقل، سخر واستهزأ من غيره، سمَّى تعالى جزاءهم باسم الاستهزاء على سبيل المقابلة.

قال الحافظ ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم، مخرج خبره عن فعلهم، الذي استحقوا العقاب عليه في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فالأول ظلمٌ، والثاني عدلٌ، فهما وإن اتفق لفظهما لكنَّ معناهما مختلف، وإلى هذا وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر، فأخبر تعالى أنه يستهزىء بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال، وقد وجه ابن جرير هذا القول ونصره، لأن المكر، والخداع، والسخرية، على وجه اللعب والعبث، منتفٍ عن الله عزَّ وجلّ بالاجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، فلا يمتنع ذلك[1].
﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ كالبيان له، أي يزيدهم ويقوّيهم، من مدَّ الجيش وأمدَّه: إذا زاده وقوّاه، وقيل: لفظ مدَّ في الشرّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ وأمدَّ في الخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ والمراد به هنا الأول الذي هو معنى الشرّ، أي نزيدهم في ضلالهم وكفرهم، يتخبطون ويتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى طريق، ولا يعرفون الهدى، ولا يبصرون الرشد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤.

لأن الله تعالى طبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، ونسبةُ المدِّ إلى الله تعالى حقيقةٌ يقينية، لأن جميع الأشياء مستندةٌ من حيثُ الخلق إلى الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي لمَّا جاوز الماء الحدَّ، وبلغ رؤوس الجبال، حملناكم في السفينة، وإنما أضيف الطغيان إليهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لأنه فعلهم، ومعنى «يَعْمهون» أي يتردّدون في أمور آخرتهم، لا في كفرهم لأنهم مصرُّون عليه، ومعتقدون أنه الحق، وأصل العمه: التردُّدُ والتحيُّرُ، والعَمَهُ يكون في البصيرة، كما أن العمى يكون في البصر، كما قال سبحانه: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي أولئك الأشقياء السفهاء، هم الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، فنبذوا الهدى وأخذوا الضلالة، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ أي فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، بل خابوا وخسروا، وما كانوا راشدين في صنيعهم، لأن الغرض من التجارة الربح، فإذا ضيَّع الإنسان رأس المال مع الربح، فهذا أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء، بل هو أخسر الخاسرين، لأنه فقد جميع الثروة. شبَّه تعالى تركهم الإيمان وأخذهم الكفر، بإنسانٍ اشترى بضاعة، فدفع فيها ثمناً كبيراً، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارته، واشتد حزنه، كمن اشترى قطعة نحاس، ظنها جوهرة شريفة بكلِ ما يملك، فإذا عرضها على أهل الصنعة، وظهر زيفُها، خاب سعيُه، وفات أملُه، فأصبح من النادمين.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ضرب تعالى مثلاً للمنافقين، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق فقال جل شأنه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي حالتهم العجيبة، التي تشبه المثل في الغرابة، كمثل شخص أوقد ناراً، ليستضيء بها ويستدفىء، فما اشتعلت تلك النار حتى انطفأت، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله، فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المضيئة، أطفأها الله بالكلية، فخمدت النار، وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أي وتركهم في ظلماتٍ كثيفة، بعضُها فوق بعض، يتخبطون فلا يهتدون إلى الطريق، ولا يرون ما حولهم.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي هؤلاء المنافقون كالصُّمِّ لا يسمعون خيراً، وكالبكم - أي الخُرس - لا يتكلمون بشيء ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فهم لا يرجعون عن الضلال إلى الهدى، وفي الآية تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أي هم كالصم والبكم والعمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس. وجمع الظلمات لتعددها في الواقع، ظلمةُ الكفر، وظلمةُ النفاق، وظلمةُ سَخَط الله تعالى، وظلمةُ عقابه السرمدي، أي وتركهم في ظلمات حالكة لا يبصرون ما حولهم، متحيرين، كالتائهين عن الطريق وهم خائفون[1].

---

(١) أشار تعالى إلى أن حال المنافقين العجيبة، وهي اشتراؤهم الضلالة - وهي عبارة عن ظلمة الكفر والنفاق - بالهدى الذي هو النور الفطري، المؤيد بما يشاهدونه من دلائل الحق، كحال من استوقد ناراً حتى كاد ينتفع بها، فأطفأ الله تعالى تلك النار، وتركهم في ظلمات يتخبطون، لا يعرفون طريق النجاة، والتشبيه في غاية الإبداع، لأنهم =

والصَّمَمُ: داءٌ في الأذن يمنع السمع، والبَكَمُ: داءٌ في اللسان يمنع الكلام، والعمى: عدمُ الرؤية لما من شأنه أن يُبصر، وُصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم، لما أنهم سدُّوا مسامعهم، عن الإصاخة لما يُتلى عليهم من الآيات، وأبوا أن يتلقوها بالقبول، ولم ينطقوا بألسنتهم بها، ولم يجتلوا بصائرهم بما شاهدوا من المعجزات، وأصرّوا على ذلك، فصاروا كفاقدي تلك المشاعر، وهذا من التمثيل البليغ[1]، ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي فهم لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، متحيِّرون لا يدرون كيف يرجعون!؟.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

= بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

قال ابن القيم رحمه الله: تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضىٰ السياق لمطابقة أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإنه النار فيها إشراقٌ وفيها إحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية!! ثم تأمل كيف قال: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل!! وتأمل كيف قال: ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ووحَّد النور، فإن الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة ومتعددة، والحقُّ هو صراط الله المستقيم، الذي لا طريق يوصل سواه!!.

(١) لا يمكن حمل الآية على ظاهرها، فالمنافق والكافر له سمع وبصر، وقدرة على الكلام، ولكنَّ الآية على التشبيه، أي هم كالصمِّ لا يسمعون خيراً، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فالآية على التشبيه البليغ، وهذا معنى قول ابن عباس: لا يسمعون الهدى ولا يعقلونه، وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٧.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين أي كمثل أصحاب صيِّب أي أصحاب مطر، وهو تمثيل إثر تمثيل، ليعمَّ البيان، فإنَّ تفننهم في فنون الكفر والضلال، حقيق بأن يضرب في شأنهم الأمثال، والصيِّبُ: من الصَّوْب، وهو شدةُ الانسكاب، وهو المطر النازل بشدة الذي له وقع وتأثير، يطلق على المطر والسحاب، وتنكيره لما أنه له وقع وتأثيرٌ شديد هائل، والسماء: ما نشاهده فوقنا كقبة زرقاء، محيطة بالأرض من الفضاء الواسع، ويطلق على كل ما علاك فأظلَّك كسقف البيت، وتعريفه باللام للإيذان بأن انبعاث الصيِّب، ليس من أفقٍ واحد، فإن كل أفق من آفاقها سماء، فالمعنى أنه صيِّبٌ عام، نازل من غمامٍ مطبق، آخذٍ بالآفاق ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ أي في الصيب يعني المطر ظلماتٌ، فظلماته تكاثفه بتتابع القطرات، وظلمة غمامه، مع ظلمة الليل وجَعَله محلاً لها مع المبالغة، لشدته تهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته، ظلمات الليل والغمام، والرعدُ: هو صوت يُسمع من السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرقُ: هو ما يلمع من السحاب، من بَرق الشيءُ بريقاً أي لَمَع، والتنوينُ للتفخيم والتهويل، كأنه قيل: ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف، وقيل: الرعد والبرق يحدث عند احتكاك أجرام الهواء، وهذا قول أهل الهيئة وجميع ما يظهر من الآثار العلوية والسفلية، من إرادة الإلَه الواحد القهار. قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وعن ابن عباس قال: سألوا النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ من الملائكة موكل بالسحاب»[1] الحديث والمراد به الإشارة إلى أن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١١٧ ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهودُ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: مَلَك من الملائكة، موكَّلٌ بالسحاب، معه مخاريقُ ـ أي آلة ـ من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمع؟ قال: زجرُه بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر، قالوا: صدقتَ... وذكر تمام الحديث.

هذه المظاهر الكونية، تقع بفعل ملَكٍ موكّلٍ بالسحاب، وأما حقيقة الرعد والبرق والصاعقة، وأسباب حدوثها، فليس من مباحث القرآن الكريم، لأنه من العلوم الطبيعية، وحوادثُ الجو لا تتوقف على الوحي، وإنما تذكر الظواهر الطبيعية، لأجل الاعتبار والاستدلال ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيّب، وهو وإنْ حُذف لفظُه، وأقيم الصيّبُ مقامه، لكنَّ معناه باق، ويمكن أن يكون هذا إيماءً إلى فرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح، على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصابع ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي من أجل الصواعق، والصاعقة قصفة رعد هائل، تنقضُّ معها شقة نار، لا تمرُّ بشيء إلاّ أتت عليه، من الصَّعْق وهو شدة الصوت، وتطلق على كل هائل مسموع، صَعِقَ من باب تَعِب، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تقْتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبلَ ذلك»[1] . ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الحَذَرُ: شدةُ الخوف والتوقي من الضر ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ﴾ علماً وقدرة ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، ولا يخلّصهم الخداع والحيل. شبَّه شمول قدرته تعالى لهم بإحاطة المحيط في استحالة الفوت، والجملة منبهةٌ على أن ما صنعوا من سد الآذان لا يغني عنهم شيئاً، ووضعُ الكافرين موضع الضمير للإيذان بأن ما دَهَمهم بسبب كفرهم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ يقرب، وكاد من أفعال المقاربة، يستعمل لتقريب الفعل يعني لمقاربة الخبر من الوجود، فقولنا كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعله لكنه ما فعله ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي يأخذها بسرعة، والخطفُ: الأخذُ بسرعة، واختطف وتخطَّف مثله ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ كل: اسم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم ٣٤٤٦ باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم من طرق متعددة، وانظر جامع الأصول ٤/ ٣٢٠.

موضوع لاستغراق الأفراد أو لعموم أجزاء الواحد، ولا يستعمل إلا مضافاً لفظاً أو تقديراً، وتفيد التكرار بلحوق «ما» المصدرية الظرفية، كلما أتاك زيد فأكرمه والمفعول محذوف بمعنى كلما نوَّر لهم ممشىً مشوا فيه، بخطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، والمشي جنس الحركة فإذا اشتدَّ فهو السعي، فإذا زاد فهو العَدْوُ، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعَدْو، للإشعار بعدم استطاعتهم له ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي خفي البرقُ واستتر، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حِراصٌ على المشي، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ﴿قَامُواْۚ﴾ أي وقفوا في أماكنهم، مترصدين لخفقة أخرى ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لو من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وكلمة لو لتعليق حصول أمرٍ هو الجزاءُ، بحصول أمرٍ هو الشرطُ، لما بينهما من الدوران وفائدة هذا الشرط إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم، مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب مشروط بميشئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى ﴿لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، لذهب بهما، ولكن لم يشأ لما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليلٌ وتقريرٌ لمضمون الآية، الناطقة بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم، أي إن الله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، فإذا أراد أن يذهب بحواسهم، أو يهلكهم عن بكرة أبيهم، لا يقف في وجهه شيء، لأنه قادر على كل شيء. والمراد من قدرة الباري نفيُ العجز عنه، والقديرُ أبلغ من القادر، وهو الفاعل لما يشاء على ما تقتضيه الحكمةُ، والمقتدرُ يقاربُه لكنْ قد يوصف به البشر[١].

---

(١) شبَّه الله عزَّ وجلّ حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وما وصلوا إليه من الخزي والافتضاح، بحال من أخذته السماء في ليلةٍ مظلمةٍ، وكان في صحراء=

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

لمَّا عدَّد تعالى فرق البشر، من المؤمنين، والكفار، والمنافقين، وبيَّن صفاتهم وأحوالهم، وما تميَّزوا به من سعادة أو شقاوة، وضرب للمنافقين الأمثال، ووضَّح لهم طرق الضلال، أعقبه بذكر الأدلة والبراهين، على وحدانية رب العالمين، وعرَّفهم بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه، فأقبل عليهم بالخطاب بقوله ﴿يا أيها الناسُ﴾ وهو خطاب عام لجميع الفئات، هزّاً لهم إلى الإصغاء، وتنشيطاً لهم واهتماماً بأمر العبادة[1]، والنداء فيه تكريم وتشريف للبشر، حيث يخاطبهم ربُّ العزة والجلال، بما يسعدهم في الحال والمآل، ولهذا جاء الخطاب بهذه الصيغة الجليلة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي يا معشر

= مفزعة، وانهمر عليه المطر بشدة وغزارة، ومع المطر رعدٌ قاصف، وبرق خاطف، يكاد يذهب ببصره، من شدة ضوئه ولمعانه، وأصبح يكابد شدائد وأهوالاً، خوفاً من الصواعق المحرقة، والرعد الهائل، والبرق الخاطف، أضاعت هذه الأهوال رشده، فأصبح يضع أصابعه في أذنيه، لينجو من هذه الكوارث والبلايا، ولينجو من الموت الذي ينتظره، ولكن هيهات أن يدفع عنه هذا شبح الموت أو خطر الصواعق، ويا له من تمثيلٍ عجيب، رائع في الإبداع والتمثيل!!.

(١) قال البيضاوي في تفسيره ١٨/١: لمَّا عدد تعالى فِرَق المكلَّفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بقوله تعالى: ﴿يا أيها﴾ لاستقلاله بأوجه عديدة من التأكيد، لأن كل ما نادى الله به عباده، أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق أن يُنادى لها بالآكد الأبلغ. اهـ.

البشر، اعبدوا ربكم العظيم الجليل، الذي خلقكم من العدم، وربّاكم بأنواع النعم، وخلق آباءكم وأجدادكم، ومن سبقكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي راجين أنتم بعبادتكم لربكم، أن تدخلوا في سلك المتقين، الفائزين بالهدى والرضوان في جنات النعيم. والآية تدلُّ على أنَّ الطريق إلى معرفة الله، واستحقاقه للعبادة، هو النظر في خلقه وصنعه، فإن كل ما في الكون ناطق بعظمة الله، شاهد على ألوهيته ووحدانيته، ويا شقاوة من أنكر وجود الله، وكل ما حوله من مخلوقات، شاهدة على وجوده ووحدانيته، كما قال القائل:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ　　　تدلّ على أنه واحد

وبدأ تعالى بتذكيرهم بنعمة الخلق، ثم أعقبها بتذكيرهم بنعمة الرزق، فقال تقدست أسماؤه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعل لكم الأرض مهاداً وقراراً، تفترشونها وتستقرون عليها كالبساط المفروش(1)، تنامون عليها وتبنون وتسكنون، ولو كانت نتوءات وارتفاعات كلها لما أمكن العيش ولا البناء عليها، فهي مع كرويتها فيها سهول واسعة، صالحة للزراعة والسكنى والاستقرار فوق سطحها، فسبحان من بسطها وكوّرها!! والأرضُ مؤنثة جمعها أرضون، وأراضي، ولم يقع في القرآن جمعها لثقله، وكل ما أسفل فهو أرض، والفراشُ: ما يفرش أي ما يبسط لينام عليه

(1) جعلُ الأرض فراشاً من باب التشبيه أي جعلها كالفراش لكم، تنامون عليها وتزرعون وتسكنون، وليس في الآية ما يدلُّ على أنها مسطَّحة غير كروية، فإن كروية شكلها مع عظم حجمها، يجعلها كأنها مستوية منبسطة، ولنضرب مثلاً، القبةُ بالنسبة إلى النملة، ترى كل طرف منها مستوياً، فاتساع جرم الأرض يجعلها كأنها منبسطة، وهي كروية قطعاً، كما نبَّه علماؤنا السابقون على ذلك، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها» والأدلة الوافية فيها.

﴿والسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ البناء مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبةً، وإرادة الفلك المخصوص غير بعيدة، نظراً إلى القدرة الإلٓهية، وقدَّم سبحانه حال الأرض، لما أنَّ احتياجهم إليها، وانتفاعهم بها أكثر، وإذا تأملت في هذا العالم، وجدته كالبيت المعدِّ فيه كل ما يُحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطةٌ كالفراش، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وما فيها من أنواع الحيوانات والنباتات مهيأة لمنافعه، فهذه جملة دالة على أن العالم مخلوق بتدبيرٍ كاملٍ، وحكمةٍ بالغة، دالة على خالقه وصانعه ﴿وأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد من السماء جهة العلو، والسحاب، فالمطر ينزل من السحاب ومنه إلى الأرض[1] والمعروف أن الشمس إذا طلعت أثارت من البحار بخاراً رطباً فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء تكاثف، فإذا كان البرد لم يكن قوياً اجتمع وتقاطر، فالمجتمعُ سحابٌ والمتقاطر مطرٌ، فإن كان قوياً كان ثلجاً أو بَرَداً، وعلى هذا يراد بالنزول: نشأتُه من أسباب سماوية، وإنزالُه من السماء الحقيقية بعيدٌ، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبلٍ عالٍ، ويرى السحاب أسفل منه، فإذا نزل من ذلك الجبل، رأى المطر نازلاً على البشر، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً، كان النزاعُ فيه من باب العناد، على أنَّ من انجاب عن عين بصيرته سحابُ الجهل، رأى أنَّ كل ما في هذه الأرض، نازل من سماء القدرة الإلهية، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[2] فالكلُّ فعلُ الله وتدبيرُه ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ أي

---

(١) هذا أمرٌ قطعي بنص آيات القرآن ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلِّفُ بينه ثم يجعله ركاماً فترى الوَدْق - أي المطر - يخرج من خلاله﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أنزلتموه من المزنِ أم نحن المنزلون﴾ والمزنُ جمع مُزنة وهي السحابة، وإنما قال سبحانه: ﴿من السماء﴾ لأن كل ما علاك فأظلّك فهو سماء.

(٢) سورة الحِجر، آية: ٢١.

فأخرج لكم ربكم بذلك المطر، أنواع النبات والثمر، وأخرج لكم الحبوب والفواكه والخضار، رزقاً منه تعالى لكم، وجعلها سبباً لحياتكم ومعاشكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره، ولا تشركوا به شيئاً، من صنم، أو بشرٍ، أو حَجَر، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الشركاء «الأنداد» الذين اتخذتموهم من دون الله، لا يخلقون ولا يرزقون، وأن الله وحده هو الرزّاق ذو القوة المتين. والنِدُّ في اللغة: هو المثيلُ والنظيرُ، وسمَّى تعالى ما يعبدون من دون الله أنداداً، مع أنها لا تماثل الله عزَّ وجلَّ ولا تشابهه، سخريةً وتهكماً بهم، فإنهم لمَّا عبدوها من دون الله، وسمَّوْها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها قادرة على الخلق والرزق، فكأنها تماثل الله في الربوبية والألوهية، وهذا نهاية الذم والتقبيح لهم، وفي ذلك يقول موحِّد الجاهلية «زيد بن نُفَيل»:

أَرَبّاً واحداً أمْ ألفَ ربٍّ ... أَدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ
تركتُ اللاَّتَ والعُزَّى جميعَاً ... كَذَلكَ يفعلُ الرجلُ البَصِيرُ

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

وبعد أن ذكر تعالى أدلة الإيمان والتوحيد، في مخلوقاته ومصنوعاته، أبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان، وأوضح برهان، ليثبت لهم صدق رسالة محمد ﷺ، وليقتلع من قلوبهم جذور الشك والريب، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي إن كنتم أيها الناس في شك وارتياب، من أمر هذا القرآن، المعجز في نظمه وتشريعه وبيانه، الذي أنزلناه على خاتم الأنبياء، عبدنا ورسولنا محمد ﷺ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدة

من مثل هذا القرآن، في حسن النظم، والفصاحة والبيان، والأمرُ هنا من باب التعجيز، كقول إبراهيم في محاجته للنمرود: ﴿فإنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾ ومعنى «فأتوا» أي هاتوا وجيئوا، وإنما أضاف العبد إلى نفسه ﴿على عبدنا﴾ تشريفاً له وتعظيماً، وتنبيهاً على أنه عليه السلام هو الكامل في العبودية.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم من الإنس والجن، واستعينوا بمن شئتم غير الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله، إلاَّ الله ربُّ العالمين، لأنه كلامه وهو الذي أنزله على خاتم المرسلين ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم، أنه من نظم محمد، وأنه كلام مختلقٌ من عند البشر[1]. كأنه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم، كونه من كلام البشر، فأتوا بمثله، لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه مصاقع الخطباء، من العرب أرباب الفصاحة والبيان، والسورةُ: طائفة من القرآن الكريم أقلها ثلاث آيات، والتنكير في «سورة» للتبكيت والتخجيل أي ائتوا بسورة أيّ سورة، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً، تنشيطُ القارىء، وتسهيلُ الحفظ، والترغيبُ في تلاوته، إلى غير ذلك من

(١) لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وما سافر إلى بلدةٍ لأجل التعلم، وما كانت بلدة مكة بلد العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم أتى عليه السلام بهذا القرآن المعجز من عند ربه، برهاناً على صدق نبوته، مشتملاً على أقاصيص الأولين، ومخبراً عن بعض الغيوب، كقوله سبحانه: ﴿الۤم غلبت الروم﴾، وقوله: ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ ونحو ذلك مما حدث ووقع كما أخبر، ثم إن القرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الدينية والدنيوية، فمن أين لرسولِ الله ﷺ وهو أميٌّ أن يعرف هذا كلَّه، ثم إن هذه الآية ونحوها دلالة على إعجاز القرآن، لأنه عليه السلام تحدى مصاقع العرب، وفرسان البلاغة، على أن يأتوا بسورة واحدةٍ من مثله، فعجزوا وانقطعوا، فثبت بذلك إعجاز القرآن، ولا يزال القرآن يتحدى الأولين والآخرين، فكيف يكون من كلام أميٍّ من البشر، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما زعم المشركون؟!.

الفوائد ﴿من مثله﴾ أي بسورة كائنة من مثله، في علو الرتبة، وسمو الطبقة، والنظم الرائق، والبيان البديع، وحيازة سائر الإعجاز، وقد فارقت أساليب القرآن أساليبهم، ولذا عجزوا عنه، واعترفوا بفضله حتى قال الوليد في وصف القرآن: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطَلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإن أصله لمغدق، وما يستطيعه البشر»، ولأنه معجزٌ في نفسه قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1] أي معيناً وسنداً وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الدعاءُ: النداءُ والاستعانةُ، لأن الشخص إنما يُنادَىٰ ليستعان به، ومنه قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾[2]؟ أي استعينوا بمن شئتم من الإنس والجن غير الله تعالى.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي إذا عجزتم عن الإتيان بمثل سورةٍ منه، مع استعانتكم بالفصحاء والبلغاء، وعباقرة الأرض، ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي فاتقوا نار جهنم، التي وقودها وحطبها الذي تُشعل به، ليس كنار الدنيا من الفحم والحطب، وإنما وقودها البشرُ وحجارة الكبريت ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هيأها الله وأعدَّها لكل كافر فاجر، لا يؤمن برب العالمين[3].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٠.

(٣) قال الحافظ ابن كثير ١/٦٣: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم، بأن يأتوا بمثل سورةٍ من القرآن فعجزوا، تحداهم متفرقين ومجتمعين، وذلك أكمل في التحدي وأشمل، ثم أخبر خبراً قاطعاً جازماً، غير خائف ولا مشفق، أنهم لن يستطيعوا بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ و«لنْ» لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى حيث أخبر تعالى أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحدٍ، والقرآنُ كلام الله خالق كل شيء!؟ ومن تدبر القرآن وجد فيه من =

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه لأعدائه، الكفرةِ المكذبين، ذكر ما أعدَّه لأوليائه المؤمنين المتقين، على طريقة القرآن باقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، فقال عزَّ سلطانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بشرهم بأن لهم حدائق وبساتين في جنان الخلد، تجري من تحتها قصورها ومساكنها أنهار الجنة، والبشارةُ هي الخبر السارُّ، الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، والمأمور بالتبشير هو الرسول ﷺ، وتقديمُ الوعيد على الوعد، لأن الوعيد كالدواء، والوعدُ كالغذاء، فيقدَّم الدواء لينتفع بعده بالغذاء، وعطفُ العمل على الإيمان، للإشعار بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين، فإن الإيمان أساسٌ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء لأساسٍ لا بناء عليه، والصالحات جمع صالحة، وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسَّنه، وتأنيثها على تأويل الخصلة، ثم كون مناط البشارة مجموع الأمرين، لا يقتضي انتفاء البشارة بالإيمان المجرد كما رأى المعتزلة، على أن مفهوم المخالفة ظنيٌّ، لا يعارضُ النصوصَ الدالة على أن الجنة جزاء الإيمان، وفي الآية دليل على أن العمل خارجٌ عن مسمَّى الإيمان، لأن الأصل أنَّ الشيء لا يُعطف على نفسه، ولا على ما هو داخل فيه، والجنة مخلوقة لقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهي

= وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرةً وخفية، من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح، في غاية نهايات الفصاحة والبيان، فثبت بذلك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

مراتب شتى، ودرجات متفاوتة، على حسب تفاوت الأعمال، كما ورد في الحديث الشريف: «في الجنة مائةُ درجة، ما بين كلّ درجةٍ ودرجةٍ، كما بين السماء والأرض، والفردوسُ أعلاها درجة، فإن سألتم الله فاسألوه الفردوس»[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي كلما أُعطوا عطاءً وأطعموا طعاماً من ثمار الجنة، وفواكهها الشهية، قالوا: هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم لنا قبل هذه المرة، قال الحسن: يُرزقون الثمرة، ثم يُرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، فتقول له الملائكة: كلْ يا عبد الله، فاللونُ واحد والطعم مختلف. وقال ابن عباس: ليس في الجنة مما في الدنيا سوى الأسماء[2] ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي جيء لهم بتلك الثمار، متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفةً في الطعم والمخبر ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور العين، مطهرات من القذر والدنس، والحيض والنفاس، والبول والغائط، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً، عُرُباً أَتْرَاباً﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون في الجنة، يعيشون في الجنة مع أزواجهم في هناءٍ خالد، دون زوال أو انقطاع. روى **مسلم في صحيحه** عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بالُ الطعام يا رسول الله؟ قال: جُشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد، كما تُلهمون النَّفَس»[3] أي يُلهمون

---

(١) أخرجه الترمذي في باب صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وهو حديث صحيح.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿رُزقنا من قبلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح، لأن عامة أهل الجنة من الفقراء، وهم لم يشبعوا من الطعام في الدنيا، فكيف يشبعون من الفواكه والثمار؟.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٠.

التسبيح بدون تعب ولا جهد، لأن الجنة ليس فيها تكليف، فيصبح حال المؤمن في الجنة كالملائكة، وتكون العبادة طبعه وذوقه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

لمّا مثّل الله حال المنافقين وعُبّاد الأصنام، في الوهن والضعف ببيت العنكبوت، وأخس قدراً من الذباب، قالت الجهلة من الكفار: الله تعالى أعلى وأجلُّ من أن يضرب الأمثال، ويذكر الذباب والعنكبوت[1]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحي أن يمثّل بها لحقارتها، ولا يخفى على أحد أن التمثيل ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود، في معرض الأمر المشهود، لإدراك الحقائق الخفية، ولذا شاعت الأمثال في الكتب السماوية، كما مثّل في الإنجيل غلَّ الصدر بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمعُ من قُراد، وأطيشُ من فراشة، وأعز من مخ البعوض، فيمثّل الحقير بالحقير، كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثَّل أعظم من كل عظيم، والحياءُ: تغيير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم، بين الوقاحة، التي هي الجرأة على

(١) في قوله تعالى: ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ سورة الحج، وفي قوله في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً...﴾ الآية.

القبائح، وبين الخجل الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً؛ واشتقاق الحياء من الحياة، فإنه انكسارٌ يعتري القوة البشرية، فيردُّها عن أفعالها، وإذا وصف الباري تعالى كما جاء في الحديث: «إنَّ ربكم حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صِفْراً»[1] فالمراد به أنه تعالى يستحيي أَن لا يجيب دعاءه، ويردّه خائباً دون عطاء.

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه لا يستنكف عن ضرب الأمثال أيَّ مثلٍ كان، بأيّ شيءٍ كان، صغيراً كان أو كبيراً، لاشتمالها على الحكمة وإيضاح الحق، و«ما» هنا للتقليل فيصدق بأدنى شيء ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي فما دونها في الصغر والحقارة، قاله الكسائي وأكثر المحققين، أو فما هو أكبر منها كالذباب والعنكبوت، لأنه لا شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها[2]، وفي الحديث الشريف «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، لما سقى كافراً منها شربة ماء»[3].

والبعوضُ: صغارُ البقِّ من عجيب خلق الله، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف يغوصُ في جلد الفيل، والجاموس، والإنسان، وقرصته مؤلمة فقد ينقل مرض «الملاريا» من إنسان إلى إنسان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾أي فأمّا المؤمنون الصادقون فيعلمون أن هذا المثل حقٌّ، لأن الله حقٌّ لا يقول إلا الحق، فيتفكرون في هذا المثل العجيب، ويوقنون أن الله خالق الصغير والكبير، وأنه تعالى يضرب الأمثال بما شاء من المخلوقات فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي وأما الكافرون الجاحدون،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٥٦ وحسَّنه الترمذي، وأخرجه أبو داود في باب الدعاء رقم ١٤٨٨ وزاد الترمذي: صُفْراً خائبتين.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٦٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣٢١ وابن ماجه رقم ٢٤١٠.

فيهزؤون ويسخرون، ويقولون: ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة؟ فيزدادون كفراً وضلالاً بإنكار أن يكون هذا المثل من عند الله، والاستفهامُ إمَّا لعدم العلم، أو للإنكار، وكلٌّ منهما يدل على الجهل دلالة واضحة كما قال القائل:

ومَـنْ قَـالَ للمِسْـك أَيْـنَ الشَّـذَا ... يُكَـذِّبُـه ريحُـهُ الطَّيِّـبُ

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل الكفار الذين يَعْمون به، فينكرون أنه من عند الله، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحقُّ، لأن الغرض من ضرب المثل هو: التذكُّر والاعتبارُ، كما قال سبحانه ﴿وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيزداد المؤمنون هدى، والكافرون ضلالاً، وفي الآية ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وما يُضل بهذا المثل الوارد في القرآن، إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الرحمن، وهم أهل الزيغ والضلال، من الكفرة والمنافقين. وأصلُ الفِسق: الخروجُ عن الشيء من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت، والفاسقُ في الشرع: الخارجُ عن طاعة الله عزَّ وجلّ، فيشمل الكفر وما هو دونه، وله درجات:

الأولى: السفه والخفة وهو أن يرتكب المعصية، معتقداً قبحها، لغلبة الشهوة على قلبه.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكاب المعصية، غير مبالٍ بها ولا مكترث.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إيَّاها، مستحلاً لها، فإذا شارفَ هذا المقام، خلع ربقة الإيمان من عنقه، كمن يشرب الخمر معتقداً حلَّها أو يستحلُّ الربا، وما دام في الأوليين لا يُسلب عنه اسم المؤمن.

ثم فصَّل تعالى صفات هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ النقضُ: فسخُ التركيب من الأمور الحسية، من بناءٍ، أو

حبلٍ، أو عهد، أي ينقضون كل عهدٍ وميثاق، من الإيمان بالله، والتصديق برسله، والعمل بشرائعه، من بعد ما وثَّقوه على أنفسهم، من الالتزام والقبول، كاليهود والنصارى جحدوا صفات محمد، المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، وكتموا بيان الحق حسداً وبغضاً ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي قطعوا ما أمرهم الله به من عبادة الله، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وصلة الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي بأنواع البغي والفساد، وإثارة الفتن، وإشعال نار الحروب كما حكى تعالى عن اليهود: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ وأمثال ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي خسروا سعادتهم في الآخرة، حيث عرَّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبَّد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وآخرته، وقصرُ الخسران عليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الأسلوب هنا أسلوب تقريع وتوبيخ ورد بطريق التعجيب، و«كيف» اسم استفهام، وهي هنا للاستخبار، منضماً إليه الإنكار والتعجيب، والمعنى: أخبروني على أيِّ حالٍ تكفرون بالله؟ ونِعَمُه عليكم لا تتناهى، وقدرته في خلقكم عجيبة؟ ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ﴾ أي وقد كنتم في العدم، نُطفاً وأخلاطاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، لا حياة لكم ولا وجود، فأخرجكم إلى الدنيا أحياء، بنفخ الأرواح فيكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله وحده، للحساب والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ، وكونُ الإماتة من دلائل القدرة

ظاهر، وأما كونها من النعم على البشر، فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية الأبدية، التي هي النعمة العظمى.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم ذكر تعالى برهاناً على الفضل والإنعام فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي خلق لكم ومن أجلكم، جميع ما في الأرض، من بحار وأنهار، ونباتٍ وأشجار، ومعادن ومناجم، لتنتفعوا بها في أمور دنياكم، ولتعتبروا بها على أنه سبحانه هو الخالق الرازق، وهذه النعم المشاهدة تذكِّر بالمنعم جلَّ وعلا، وتشوّق النفوس، وتبعث الهمم على البحث والنظر، في كل ما خلق الله في هذا الكون، من مخلوقات وعجائب، ليشكر الإنسان ربه، ويستفيد بما أودعه الله فيها من منافع، تحقق له العيش الكريم على ظهر هذه الأرض، والمسلمون في العصور الأخيرة، صاروا وراء الأمم في العلوم الكونية، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها، فجاء الأجنبي يتخطفها من أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم يصيح بهم منبهاً ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ولكنهم صمٌّ عميٌ لا يعقلون، إلاَّ من رحم الله تعالى، فمتى يستيقظون؟! ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قصد إليها بإرادته قصداً سوياً أي قصد إلى خلقها بعد خلق الأرض ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ أي صيَّرهنَّ وخلقهنَّ سبع سموات، محكمة البناء، واسعة الأرجاء، من غير عوج ولا فطور ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ أي وهو سبحانه عالم بكل ما خلق وأوجد، لا تخفى عليه خافية، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك، قادر على إعادتكم بعد الموت؟ ورد لفظ الاستواء في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى التمام والكمال، كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿ولمَّا بلغ أشدَّه واستوى﴾ أي كمل ورشد.

الثاني: بمعنى العلوّ والارتفاع، وذلك إذا عُدّيت بـ«على» كقوله سبحانه: ﴿الرحمنُ على العرشِ استوَىٰ﴾ وقوله سبحانه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي علوتم على ظهورها.

الثالث: بمعنى القصد إذا عُدّيت بـ«إلى» كما في هذه الآية ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد إليها.

قال ابن كثير رحمه الله ١/ ٧١: ﴿ثم اسْتَوىٰ إلى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إلى السماء، والاستواء هنا متضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدّي بإلى، فسوَّاهن أي خلق السماء سبعاً، وتفصيلُ هذه الآية في سورة السجدة، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لتكفُرونَ بالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فَقَالَ لها ولِلأرضِ ائتيَا طَوْعَاً أو كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ﴾[1].

ودلالة خلق السموات على قدرة الله عزَّ وجلّ من وجوه:

أولاً: أنها واقفة معلَّقة بقدرة الله بدون عمد.

ثانياً: أنه ليس فيها صدوع ولا شقوق.

ثالثاً: أنها طبقات بعضها فوق بعض.

رابعاً: أنها واسعة محكمة البناء كما قال سبحانه: ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والمراد من السموات هذه الأجرام العلوية، وهي سموات سبعٌ، بعضها فوق بعض، محكمة البناء، ممتدة الأرجاء، وليست سديماً أو دخاناً كما يقول علماء الهيئة، قال تعالى عنها: ﴿وَبَنَيْنَا فوقكُمْ سَبْعَاً شِدَادَاً﴾ وقال تعالى: ﴿أفلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وزَيَّنَّاهَا وَمَالَها من فُرُوجٍ﴾[2]؟ فسبحان من رفعها بقدرته، وخلقها بحكمته، وجعلها سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها غافلون!!

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧١.

(٢) سورة ق، آية: ٦.

«ذكرُ قصة بدء الخليقة»

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

تعدادٌ لنعمة ثالثة تعمُّ الناس كلَّهم، فإنَّ خلق آدم وتكريمه، وتفضيله على الملائكة، بأن أمرهم بالسجود له، إنعامٌ يعمُّ ذريته جميعاً، فالإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ذكر تعالى هنا قصة آدم ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الخليفةُ من يخلف غيره وينوبُ منابه[1]، والمراد به هنا آدم عليه السلام، والمعنى: اذكر حين قال ربك لملائكته: إني متخذ في الأرض وخالق فيها خليفةً من البشر، في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم، وهذا قول ابن مسعود، وقيل: المراد آدم وذريته أي قوماً يخلف بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وفائدةُ قوله تعالى ذلك للملائكة، أربعةُ أمور:

الأول: تعليم المشاورة للعباد في أمورهم، وقد قيل: أعقلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب.

الثاني: تعظيم شأن آدم، فقد بشَّر بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه.

الثالث: إظهار فضله الراجح كما أشار إليه بقوله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

الرابع: بيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره كما في قصة خلق آدم وذريته.

---

(١) كما قال موسى لأخيه هارون ﴿اخلفني في قومي﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ أي قالت الملائكة على سبيل الاستعلام والاستفسار عن الحكمة: يا ربنا كيف تخلق من يفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء بالبغي والاعتداء؟! ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي ونحن ننزّهك عما لا يليق بك من صفات النقص، ونحمدك في جميع الأحوال، ونعظّم أمرك، ولا نعصيك في حالٍ من الأحوال ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي قال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمونه، من الحكمة في خلقه وخلق ذريته، ففيهم أنبياء وفضلاء يُصلحون في الأرض ولا يفسدون، وهنالك مصالح لا تعرفونها.

فإن قيل: كيف عرفت الملائكة أن ذرية آدم يفسدون في الأرض، حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟.

فالجواب: أن الملائكة رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض، لأن الجنَّ خلقوا قبل البشر، فقاسوا الإنس على الجن، في العصيان والفساد. وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ أخبرهم بما تفعله ذرية آدم، من التحاسد والتباغض، وقتل بعضهم بعضاً، وإفسادهم في الأرض، فقالوا على سبيل الاستفسار عن الحكمة، لا على سبيل الاعتراض على حكم الله: ﴿أتجعلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي علّمه الله أسماء الأشياء كلها، ما كان منها وما سيكون، وخواصَّ هذه المسميات، وعلّمه أصول العلوم، وقوانين

الصناعات، وأسماء آلاتها مما يحتاج إليها ذرية آدم بطريق الإلهام، هذا فرس، وهذا بعير، وهذه سيارة، وهذه طيارة الخ مما لم يكن في علم الملائكة.

قال ابن عباس: علَّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة، وأسماء الأشياء كلها.

وقال مجاهد: علَّمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء من أسماء الأشياء، كما علَّمه أسماء الملائكة والذرية. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ثم عرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي ترونها، إن كنتم صادقين في أنكم أحقاء بالخلافة من آدم وذريته؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: ننزهك يا ربنا عما لا يليق بك من صفات النقص، ونقرُّ ونعترف بعجزنا وضعفنا، فليس عندنا من العلم، إلاَّ ما علمتنا إياه، إنك أنت العليم بكل أمر، الحكيم في خلقك وتدبيرك، والحكيمُ هو: المحكم لمصنوعاته حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. والحاصلُ إن الله تعالى أظهر فضل آدم، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصَّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور، وأسندوا العلم إلى علام الغيوب.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي قال الله لآدم: أعلمهم يا آدم وأخبرهم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن إدراكها ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي فلما أخبرهم آدم بكل الأسماء، وخصائصها، ومنافعها، والحكمة منها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أخبركم بأني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما تخفونه في نفوسكم؟.

روي أنه تعالى لمَّا خلق آدم عليه السلام، ورأت الملائكة خلقته العجيبة، قالوا: لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منَّا. وهذه الآيات تدلُّ على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله، وأنه شرط في الخلافة في الأرض، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ هذا من باب عطف القصة على القصة، أي واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، سجود تحيةٍ وتكريم، لا سجود عبادةٍ وتذلُّل، فإن العبادة لا تكون إلاَّ لله عزَّ وجلَّ، وهذه هي النعمة الرابعة العامة لجميع البشر، فإن سجود الملائكة لآدم، فيه تعظيم له وتكريمٌ لذريته، فإن آدم عليه السلام لمَّا أنبأهم بالأسماء، وعلَّمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداءً لحقه، واعتذاراً عما قالوا فيه، وكان السجود ـ في الحقيقة ـ لله تعالى، وجُعل آدم كالقبلة للملائكة، تفخيماً لشأنه، حين رأوا فيه من بدائع العلم ما لم يعرفوه، ومن الاستعداد الروحي ما يؤهّله للخلافة في الأرض ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي سجدت الملائكة له جميعاً غير إبليس، امتنع عن السجود، وتكبَّر عن امتثال أمر الله، حسداً لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وكان في علم الله من القديم من الكافرين، والاستثناء هنا منقطعٌ، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصّ الصريح الواضح في سورة الكهف ﴿وإذْ قُلْنَا للملاَئِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ منَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة الله بامتناعه عن السجود لآدم، وإنما كُلِّف بالسجود بأمرٍ خاصٍ من الله تعالى ﴿قَالَ مَامَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، حتى قال الحسن البصري: والله ما كان إبليس من

الملائكة طرفة عين، ولأنه خلق من نار، والملائكةُ خلقوا من النور، ولأنه أبى واستكبر، والملائكةُ لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون، والملائكةُ لا نسل لهم، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، بل يخلقهم الله خلقاً استقلالاً، بخلاف الجن فإنَّ لهم ذريةً ونسلاً، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ من دُوني وهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ فكل هذه الدلائل تشير إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن[1].

سُئل الإمام الشعبي: «هل لإبليس زوجة؟ فقال: ذاك عرسٌ لم أشهده، قال ثم أخذت أقرأ القرآن بإمعان، حتى قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فعلمت أنه لا يكون لإبليس ذرية، إلا إذا كان له زوجة، فقلت: نعم له زوجة». وهذا استدلال لطيف.

والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبارُ طلبُ ذلك بالغطرسة والإباء، وقد أُدمج في معصية إبليس أربع معاصٍ:

١ ـ مخالفة أمر الله.
٢ ـ والاستكبار عن التنفيذ.
٣ ـ وتحقير آدم عليه السلام.
٤ ـ ومفارقة الجماعة.

وأول معصيةٍ وقعت كانت بسبب الكبر والتكبر.

ومثل المتكبر كمثل رجل فوق قمة الجبل، يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً، كما قال الشاعر:

مَثَلُ المُعْجَبِ في خُيلاَئهِ ... مَثَلُ الوَاقِفِ في أعلَىٰ جَبَلْ
يُبْصرُ النَّاسَ صِغَاراً وهو في ... أَعْيُنِ النَّاسِ صغيرٌ لم يَزَلْ

---

(١) انظر تفصيل الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء»، ص: ١٦٨.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ هذا تذكير لنعمةٍ أخرى، موجبة للشكر، مانعةٍ من الكفر، وفي قوله تعالى: ﴿اسكن أنتَ وَزوجُكَ﴾ ولم يقل: إنَّ لكما الجنة، لأن في علمه تعالى أنهما يُخرجان منها، بسبب المخالفة، وقال للمؤمنين: إن لهم الجنة لمَّا لم يكن لهم خروج، والسكنى من السكون وهو اللبثُ والإقامةُ، دون السكون الذي هو ضد الحركة، وتخصيصُ الخطاب بآدم عليه السلام، لأن المرأة تابعةٌ للرجل في السكنى والمعيشة بمنطق الفطرة، والمراد بالزوج «حواء» عليها السلام، وإن لم يتقدم لها ذكر، وهذه الآية تدل على خلقها قبل دخول الجنة، والجنةُ هي دار الثواب، لأن اللام للعهد، ولا عهد لغيرها، وفي مكانها ثلاثة أقوال:

١ ـ **أنها في الأرض**: وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني، واحتج بأن خلقه عليه السلام كان في الأرض.

٢ ـ **أنها بستان في السماء**: وهو قول الجبائي بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾.

٣ ـ **أنها جنة الخلد**: وهو قول الجمهور، بدليل أنها المعهودَة عند الذكر، فمتى سمع الإنسان الجنة، تبادر إلى ذهنه جنة الخلد، التي وُعد بها المتقون، وهذا هو الحقُّ الذي لا مناص عنه(١).

---

(١) القول الفصل في هذا أنها جنة الخلد، كما ذهب إليه الجمهور، حيث وصفها تبارك وتعالى في سورة طه بأوصاف، لا تصدق إلا عليها، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ =

وقال أبو منصور الماتريدي في التأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان، كان آدم وزوجته منعَّمين فيها، وليس علينا تعيينها.

﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمارها ونِعَمها أكلاً واسعاً رافهاً، من غير جهد، ولا تعب، يُقال: هو في رَغَدٍ من العيش، أي في سعةٍ من الرزق، وفي سعادة ورفاهية ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيْ من أيِّ مكانٍ أردتما منها، وإنما وجَّه الخطاب لهما تعميماً للتشريف والتكريم، وإيذاناً بتساويهما في التنعم، فإن «حواء» أسوة له في الأكل، بخلاف السكنى فهي له تبع.

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ أي لا تأكلا منها، وإنما علَّق النهي بالقرب منها، مبالغةً في تحريم الأكل، ووجوب الاجتناب بالكلية، كقوله سبحانه ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي احترسوا من الزنى ودواعيه، من الخلوة، والنظر، والمصافحة، والاختلاط إلى غير ما هنالك، فإن القرب من الشيء، يورث ميلاً نحوه، يأخذ بمجامع القلب، كما ورد «حبّك الشيء يُعمي ويُصِمُّ»[1] فينبغي ألاَّ يحوم العاقل حول ما حرَّم الله، مخافة أن يقع فيه، واختلف في الشجرة فقيل: هي الكرمةُ ـ أي العنب ـ وقيل: هي شجرة التين، والأولى عدمُ التعيين، فإن الله تعالى لم يعينها لنا، ولا جزم لأحدٍ بدون دليل ساطع، من كتاب أو سنة. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المنهي عنه، الذي يكون سبباً للظلم. والظلمُ المخلُّ بالعصمة،

= تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ. وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَىٰ﴾ ومهما كان الإنسان منعماً في الدنيا، لا بدَّ له أن يجوع، ويعطش، ويَعْرَىٰ، ويصيبه حر الشمس، ولا يصدق ذلك الوصف إلا على جنة الخلد دار المتقين، فهي التي لا جوع فيها ولا عطش، ولا حرَّ ولا نصب، لأنها دار السرور والحبور.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الهوى رقم ٥١٣٠ وأحمد في المسند ١٩٤/٥ عن أبي الدرداء مرفوعاً، وروي موقوفاً، والموقوف أشبه كما قاله المحققون، ومعنى الحديث أن من الحب ما يعمي الإنسان عن طريق الرشاد، ويصمُّه عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحبُّ على قلبه، أعمىٰ بصرَه وبصيرتَه، ومن الحبِّ ما قَتَلَ!!.

هو ما لا يكون مصحوباً بعذرٍ كالنسيان، وآدمُ إنما أكل من الشجرة ناسياً للأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] وهذا بالنسبة إلى مقام آدم يعتبر معصيةً وتقصيراً، وهو من باب «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين» ولا حاجة إلى القول، بأن ما وقع من آدم، كان قبل النبوة كما يدعيه المعتزلة، فإن منصب النبوة يستدعي عدم الغفلة أو التقصير، والظلمُ في اللغة: وضعُ الشيء في غير موضعه، فإذا وُضع في غير موضعه كان صاحبه ظالماً، وإن وُضع في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه، كان الشخص أظلم، كمن يمنع ابنته من العفاف والحشمة، ويأمرها بالسفور والفجور، كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتكمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنَاً﴾[2].

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ أي أوقعهما في الزلّة، وحملهما على الزلّة، وهي مخالفة الأمر حيث أكلا من الشجرة، والزلّةُ: من الزَّلل وهو عثور القدم، يُقال: زلَّتْ قدمُه أي زَلِقتْ، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة، زلَّ الرجل إذا أتى ما ليس له إتيانه، وأزلّه غيرُه: سبَّب له ذلك، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها﴾ وإزلالهما قوله لهما على ما حكى القرآن: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾[3] وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَىٰ﴾[4]؟

واختُلف في كيفية توصل إبليس إليهما على أقوال:

١ ـ أنه دخل عليهما ابتلاءً من الله تعالى بطريق الوسوسة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٠.

٢ ـ أن إبليس أغواهما مباشرةً بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والمقاسمة تدل على المشافهة.

٣ ـ أنه قام عند باب الجنة، وتمثَّل لهما بصورة مَلَكٍ ناصح فناداهما، فأغوى حواء، ثم أغوى آدم.

وقالت طائفة من العلماء: إن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أُخرج منها، وإنما أغوى آدم بالوسواس.

قال في التأويلات: لا نقطع القول بلا دليل، والعلمُ عند الله، فالله تعالى طرد إبليس من مكان قدسه لكفره، ولكن لم ينزع عنه قوة الإغواء لحكمة الابتلاء، والوسوسةُ: القولُ الخفي، وهو حديث النفسِ والشيطانِ، فيقال لما يقع في النفس من عمل الشر: وسواسٌ، ولما يقع من عَمل الخير: إلهامٌ.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم، والتعبيرُ يؤذن بالفخامة أي بالمكان العظيم الذي كانا فيه. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطابُ لآدم وحواء وإبليس، اهبطوا حال كونكم أعداء، الشيطان عدو لكم، فكونوا أعداء له، كما قال سبحانه: ﴿إنَّ الشَّيْطانَ لكمْ عدو فَاتَّخِذُوه عَدُوّاً إنَّما يدعُو حِزْبَه ليكونُوا من أَصْحَابِ السَّعِير﴾[1] ولفظ عدوٌّ يُطلق على الواحد والجميع، والهبوطُ: النزولُ والانحدار من أعلى إلى أسفل، كما في هبوط الحَجَر، وإذا استعمل في الإنسان فهو على سبيل الاستخفاف، ولم يشترط بعضهم فيه سوى الانتقال من شريف إلى ما دونه كقوله سبحانه: ﴿اهبطوا مصراً﴾. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي ولكم في الأرض موضعُ استقرارٍ، وتمتع بالعيش، وانتفاع بنعيم الحياة، إلى وقت انتهاء آجالكم، والحينُ: مقدارٌ من الزمن قصيراً كان أو طويلاً، والمراد به هنا زمن الموت، والله تعالى خلق الأرض وما فيها للبشر، والإسكانُ في الجنة إنما كان موقتاً

---

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

لآدم وحواء، ومقدمةٌ للنزول إلى الأرض، وفي هذه الآية تحذير عظيم عن المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يَرنو بعيْنَيْ راقدِ ... ومشاهداً للأمرِ غير مكابدِ
تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنانِ ونيلَ فَوْزِ العَابدِ
أنَسِيتَ أنَّ الله أخرجَ آدَمَاً ... منها إلى الدُّنْيَا بذنْبٍ واحدِ؟

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه، ألهمه إيَّاها، فتلقَّاها بالأخذ والقبول والعمل بها، وهذه الكلمات التي ألهمها هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، وقيل: هي «سبحانك اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا مرويٌّ عن مجاهد وابن مسعود.

والتلقّي هو القبول عن فِطنةٍ وفهم، ومعناه الإقبال على الأمر، والقبول له، وأصله من استقبال الناس بعض الأحبة، إذا قدم بعد غياب طويل ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي قبل ربه توبته، ورجع عليه بالرحمة والتوفيق، لأنه تعالى واسع الرحمة للعباد، كثير التوبة على من تاب وأناب. وفي الجمع بين الوصفين «التواب» و«الرحيم» وعد بليغ بالقبول والإحسان، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) وإنما اكتفى بذكر آدم، لأن حواء تَبَعٌ له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء، في أكثر مواقع الكتاب والسنة، واعلم أن التوبة أصلُها الرجوع، وإذا أُسندت إلى العبد، كانت عبارةً عن مجموع أمورٍ ثلاثة:

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

١ ـ العلمُ بالخطأ أي معرفة ضرر الذنب.
٢ ـ النَّدمُ على ما فعل وهو تألُّمُ القلبِ.
٣ ـ العزمُ على عدم العودة إلى المعصية.

وإذا أُسندت إلى الله تعالى، كان معناها القبول، والرجوع على العبد بالعفو والغفران، وذكرُ «الرحيم» إشارة إلى أن قبول التوبة، ليس بواجب على الله تعالى، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ كرَّر الأمر بالهبوط للتأكيد، ولبيان أن إقامة آدم وذريته تكون في الأرض لا في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إِلى حِينٍ﴾.

وقيل: ليس هناك تكرار، لاختلاف المقصود، لأن الأول دلَّ على أن هبوطهم إلى دار البلاء للعداوة «بعضكم لبعضٍ عدوٌّ» والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف، فمن اهتدى نجا، ومن ضلَّ هلك. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «إمَّا» مركَّبة من «إنْ» الشرطية، و«ما» المزيدة للتأكيد، والمعنى: إن يأتكم مني هدىً بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، للهداية والسعادة، فمن تبع الهدى منكم نجا وفاز، ولا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة، لأن مقصدهم ليس إلاَّ طاعة الله، ونيل رضوانه، وذلك مما لا ريب في حصوله بمقتضى الوعد الكريم، وأمَّا في الدنيا فقد يصيب المؤمن خوف أو حزن، لأنها دار الابتلاء، والآخرة هي دار التشريف والجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا

قسيم الأول ومقابلٌ له، كأنه قيل: ومن لم يتَّبع الهدى، بل كفر وكذَّب، فهو مخلَّد في الجحيم. والآيةُ في الأصل: العلامةُ، ويُقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى آياتٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ للمؤمنينَ. وَفي خلقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون﴾[1] والمراد بالآيات هنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الكتب المنزَّلة، أو القرآن الكريم. والمراد بأصحاب النار أهلها، ولفظُ الصحبة يدلُّ على الاقتران والملازمة، فكأنَّ الكفار مُلَّاكٌ لها، هي مقرُّهم وهي سكناهم، لا يخرجون منها أبداً، وكلُّ ما كان في القرآن الكريم من «أصحاب النار» فالمراد به أهلها، إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾[2] فالمراد به خزنتُها.

وفي الآية دلالةٌ على أن الجنة مخلوقة، وأنها في جهةٍ عالية، والتوبة عند الله مقبولة، وأن متَّبع الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، والكفار فيه مخلدون، وأن غير الكافر لا يُخلَّد، والإخبارُ بهذه الأحوال، من خلق آدم، ومناظرته مع الملائكة، وما حدث من إبليس اللعين، في هذه القصة العجيبة، معجزةٌ تدلُّ على صدق نبوة محمد ﷺ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[3].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾.

(١) سورة الجاثية، آية: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣١.

(٣) سورة ص، آية: ٦٧ ـ ٧٠.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ «يا» حرف نداء متضمن معنى التنبيه، و«بني» جمع ابن وهو مخصوص بالذكور، وإذا أُضيف عمَّ الذكور والإناث، فيكون بمعنى الأولاد، وهو المراد هنا، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني يا أولاد ويا ذرية آدم، و«إسرائيل» لقب «يعقوب» عليه السلام، ومعناه بالعبرية صفوة الله، أضافهم تعالى إلى هذا اللقب، حثاً لهم وتحريكاً على الطاعة كقولك: يا ابن الرجل الصالح أطع الله تعالى، لأن الطبائع تميل إلى اقتفاء أثر الآباء، بناءً على أن الحسنة في نفسها حسنة، ومن بيت النبوة أحسن، والسيئة سيئة ومن بيت النبوة أسوأ. ومعنى الآية: يا أولاد النبي الصالح يعقوب، اذكروا ما أنعمتُ به عليكم وعلى آبائكم، من نعم جليلة لا تُعدُّ ولا تحصىٰ، والمراد بالذكر هنا: هو التفكر في هذه النعم، والقيام بشكرها وحقوقها، لا مجرد التفوه بها باللسان، فهو من ذكر القلب والفكر، الذي هو ضدُّ النسيان. وتقييد النعمة بهم ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ لأن الإنسان غيورٌ وحسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى به على غيره، حملته الغيرةُ والحسدُ على الكفرانِ والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه، حمله حبُّ النعمة على الرضى والشكر، وقيل: أراد ما أنعم الله به على آبائهم من إنجائهم من الغرق، ومن طغيان فرعون وجبروته، ومن المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحجر، إلى آخر ما هنالك من النعم، ولكنَّ العموم في اللفظ أحسن، كما يقول ابن عطية لتشمل الأجداد والأحفاد.

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ أي أدُّوا عهدي وافياً تاماً، ذلك العهد الذي عهدته إليكم، من الإيمان بمحمد ﷺ، وطاعة الله، وطاعة رسوله، أوفِ لكم بما عاهدتكم عليه، من حسن الثواب، ودخول الجنة.

﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي خافونِ دون غيري من الخلق، في جميع الأمور والأحوال، وخافون في ترك الوفاء دون غيري، ومعنى الرهبة: المخافةُ الشديدة مع تحرز واضطراب. والآية متضمنةٌ للوعد والوعيد، دالةٌ على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألاَّ يخافَ إلاَّ الله عزَّ

وجلّ، كما قال سبحانه: ﴿الَّذينَ يُبَلِّغونَ رسالاتِ الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله﴾[1].

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أي وصدِّقوا يا بني إسرائيل، بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد، مصدِّقاً لما معكم في التوراة، من أمور التوحيد والنبوة، فالقرآن العظيم مطابق للكتب الإلٓهية في الدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة، والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، وهو الكتاب الخاتم. ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ أي لا تكونوا أول جاحد ومكذِّب بالقرآن، ولا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول مؤمن به، والخطابُ للموجودين في عصر النبي ﷺ من علماء أهل الكتاب، فإنهم كانوا أهل النظر في معجزاته، والعالمين بشأنه، والمبشّرين بزمانه كما قال تعالى: ﴿الَّذينَ آتيناهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وإنَّ فَريقاً منهُمْ ليكتمُونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي البينات، التي في كتابكم من أوصافه ﷺ بتغييرها أو تحريفها، عوضاً يسيراً من حطام الدنيا الفانية ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق. بيّن تعالى لهم أن حظوظ الدنيا - وإن عَظُمت - فإنها قليلةٌ مسترذلة، بالنسبة لما يفوتهم من حظوظ الآخرة.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ اللَّبْسُ: الخَلْطُ، يُقال: لَبَسْتُ الأمرَ أي خلطته حتى يشتبه بغيره، والمعنى: لا تخلطوا الحقَّ المنزل من الله، بالباطل الذي تخترعونه، حتى يشتبه أحدهما بالآخر، ولا

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

تكتموا صفات محمد ﷺ الموجودة في كتابكم التوراة، وأنتم تعلمون عاقبة جريمة الكتمان[1].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي أدوا ما افترض الله عليكم، من أداء الصلاة، ودفع الزكاة للمستحقين، وصلوا مع المصلين من أمة محمد، وعبَّر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود، لأنه لا ركوع في صلاتهم. والمراد بالصلاة في الآية صلاة المسلمين وزكاتهم، فإن غيرهما كأنَّها لا صلاة ولا زكاة. والزَّكاةُ: من زكا الزرعُ إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركةً في المال، وينمّي في النفس فضيلة الكرم، وتُطَهِّر المالَ من الخُبث، والنَّفسَ من البُخل[2]، كما قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3] واستدل بعض العلماء من الآية: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ على وجوب الجماعة، وكذا الأحكام الشرعية تدلُّ عليه، من أن تاركها لغير عذرٍ تُردُّ شهادتُه، ويرى بعضهم أنها سنة مؤكدة، وأقوى السنن المؤكدة هي سنةُ الفجر، ومع ذلك رُخِّص في تركها لإدراك الجماعة، لأن ثواب الجماعة أعظم من فضيلة ركعتَيْ الفجر، لأنها تفضل الفرض منفرداً بسبع وعشرين ضعفاً، لا تبلغ ركعتا الفجر ضعفاً واحداً منها[4].

---

(١) لَبَس الأمر من باب ضرب خَلَطه، وفي البخاري عن عائشة مرفوعاً «المتشبع بما لم يُعط كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ» والمتشبع هو الذي يظهر أنه شبعان وليس كذلك، شبَّهه بلابس ثوبيَ زور، وهو المرائي الذي يلبس ثياب الزهاد، وباطنه مملوء بالضلال.

(٢) قرن الله سبحانه الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما، فالصلاة حقُّ الله عزَّ وجلّ، والزكاة حقُّ العباد، ولا يكمل الإيمان إلا بأداء حق الله تعالى وحق عباده، وقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة قبل فرض الصيام مما يوحي بأهميتها.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٤) انظر إعلاء السنن ٧/ ٤.

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾ الخطابُ هنا لأحبار اليهود ورؤسائهم، يقول لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتعجيب من حالهم: أتَدْعون النَّاسَ يا معشر اليهود إلى فعل الخير، وعمل الصالحات، وتتركون أنفسكم فلا تذكِّرونها بطاعة الله، والإيمان برسوله!؟ والحال أنكم تتلون التوراة وتقرؤونها، وفيها الوعيد لمن ترك البِرَّ، وخالف قولُه عملَه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تفطنون وتدركون، أن ذلك قبيح فترجعون عنه، أم أنكم لا عقل لكم؟ والبِرُّ بكسر الباء: اسمٌ جامعٌ لكل الطاعات، والأعمال الصالحة، الموجبة للثواب، وضدُّه الإثم، وفي الحديث الشريف: «البرُّ حُسْنُ الخُلق، والإثمُ ما حَاكَ في صدركَ، وكرهتَ أن يَطَّلع عليه النَّاسُ[(١)]». عن ابن عباس: أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع الرسول ﷺ ولا يتبعونه. ثم هذا التوبيخ وإن كان خطاباً لبني إسرائيل، إلاَّ أنه معروف من حيث المعنى، أنه لكل واعظٍ يأمر ولا يأتمر، فهو كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للناس.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم من ترك الرياسة، والإعراض عن المال، بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ أي استعينوا على قضاء حوائجكم بالصبر على المكاره، وانتظار الفَرَج، توكلاً على الله، وبالصلاة

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠.

التي هي عماد الدين، والتوسل بالصلاة لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسية والبدنية، من الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومناجاة الرحمن، وقراءة القرآن، وقد روي أنه ﷺ كان إذا حَزَبه ـ أي أهمَّه ـ أمرٌ فَزِع إلى الصلاة[1] وإنما خصَّ الصبر والصلاة بالذكر، لأن بالصبر تُنال كل فضيلة، والصلاةُ تنهى عن كل رذيلة. ﴿وإنَّها لَكَبِيرَةٌ﴾ أي وإن الصلاة لشاقةٌ وثقيلة ﴿إلاَّ عَلَى الخَشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المخبتين، الذين صفت نفوسهم لله، وإنما لم تثقل عليهم، لأنهم يتوقعون ما أعدَّ الله لهم من الأجر بمقابلتها فتهون عليهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم، وأن معادهم إلى ربهم يوم الدين. والظنُّ في الأصل: الحُسْبانُ، ويأتي بمعنى اليقين كقوله سبحانه: ﴿وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ فظنّوا أنَّهم مُوَاقِعُوها﴾[2] أي أيقنوا بدخولها والوقوع فيها وإنما فُسِّر الظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأن قوله: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ معطوف على قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ والشكُّ في الآخرة كفرٌ، فلا ينفع الظنُّ بل يجب فيه القطع، ولذا فُسِّر باليقين. وكأنَّ النكتةَ في استعمال الظنِّ المبالغةُ، في أنَّ من ظنَّ لقاءَ الله لا يشقُّ عليه، فكيف بمن يتيقَّنه؟

> ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ...﴾ الآية، كرَّر تبارك وتعالى التذكير للتأكيد، ولربط ما بعده من الوعيد، والمعنى: يا أولاد النبيِّ الصالح «يعقوب» عليه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١ والنسائي في المواقيت باب ٤٦.

(٢) سورة الكهف، آية: ٥٣.

السلام: اذكروا فضلي وإنعامي عليكم بصنوف النعم، حيث نجَّيْتُ آباءكم من طغيان فرعون وجبروته، وفضَّلتهم على العالمين في زمانهم، وفي تفضيل الآباء شرفٌ للأبناء! وهذا التفضيل لمؤمنيهم الصالحين، أما العصاة والفجرة فقد مسخوا قردةً وخنازير. ولا يصح أن يُفهم أن تفضيلهم كان على جميع الخلق، لأن الله تعالى يقول عن أمة محمد ﷺ ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس﴾[1] فذلك التفضيل يختص بعالم زمانهم، كما نقول: شوقي أشعر الشعراء أي في زمانه، وليس معناه أنه أشعر من حسان والبحتري، وجرير.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب «يوم القيامة» وما فيه من الحساب والعذاب، إن لم تؤمنوا وتتوبوا اليوم، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي لا تقضي نفسٌ عن نفس شيئاً من الحقوق، وتنكيرُ النفس للتعميم، فهو يوم عصيب، يفرُّ فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ أي لا تُقبل شفاعةُ أحدٍ من البشر في نفسٍ كافرةٍ بالله أبداً لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[2] فالمرادُ بالشفاعة هنا الشفاعةُ في الكفار، وتمسَّكَ المعتزلةُ بالآية في نفي الشفاعة للعصاة، وهو مردودٌ، لأن المنفي الشفاعة في الكفار، وقد قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[3] ونقول أيضاً: إن النفي مخصوص بما قبل الإذن لقوله تعالى: ﴿ولا تَنفعُ الشَّفاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمنْ أَذِنَ لهُ﴾[4].

كان اليهود يزعمون أن آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فيأَّسهم الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٣٧ وأبو داود في باب الشفاعة رقم ٤٧٣٩ وهو حديث صحيح.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٣.

وقنَّطهم من تلك الشفاعة بقوله: ﴿ولا يُقْبَلُ منْهَا شَفَاعَةٌ﴾ فهي إذاً خاصة بمن كفر بالله ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يُقبل من نفسٍ كافرةٍ فديةٌ، كما قال سبحانه: ﴿إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْ أنَّ لهمْ ما في الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ منهمْ﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصرٌ ينجيهم ويخلّصهم من عذاب الله.. وفي الآية أعظم تحذيرٍ عن المعاصي، لأن اللفظ جاء بلفظ العموم، فهي مخاطبةٌ للكل، يعمُّ كل من يحضر في ذلك اليوم، وفيها إبطال أصل من أصول الكفرة وهو تقديم الفدية وشفاعة الشافعين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، حين نجَّيْتُ آباءكم من بطش فرعون وأشياعه العتاة، وعدُّوها نعمةً لأنكم نجوتم بنجاة آبائكم، وأصل «آل»: أهل، لأن تصغيرها «أُهَيْل» ولا يستعمل لفظ «آل» إلاَّ فيما فيه شرف وخطر، كالملوك والعظماء، فلا يقال: آلُ الحجّام وآل الإسكاف. ومعنى ﴿يَسُومُونَكُم﴾: يذيقونكم، من سَامَهُ إذا أذاقه، أي ينكّلون بكم، ويذيقونكم أشد أنواع العذاب وأفظعه وأسوأه، ثم فسّر هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد، ويستبقون الإناث على قيد الحياة، لاستعمالهن في الخدمة، وسبب هذا الذبح أن فرعون خاف على ذهاب ملكه من بني إسرائيل ـ لرؤيا رآها في منامه ـ فأمر بذبح الذكور، وترك الإناث على قيد الحياة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[2]. وقوله

(١) سورة المائدة، آية: ٣٦.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١/ ٩٣: إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ـ أي أفزعته ـ

تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاءُ: الاختبارُ والمحنةُ أي وفيما حلَّ بآبائكم من العذاب المهين، من التسليط والذبح، محنةٌ واختبار عظيم من جهته تعالى، ليتميَّز البَرُّ من الفاجر، والبلاءُ يطلق على الخير، والشر، كما قال سبحانه: ﴿ونَبْلُوكم بالشرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلينَا تُرْجَعُون﴾[1] فالله يختبر عباده تارة بالمحنة، وتارةً بالمنحة ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ﴾ والكلُّ فعلُه جلَّ وعلا. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبدَ من خيرٍ أو شر، اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر الله على مَسَارِّه، وأن يصبر على مضاره، ليكون من الناجحين في الاختبار.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي واذكروا يا بني إسرائيل أيضاً حين فلقنا لكم البحر، وفصلنا بين بعضه وبعض، حتى صارت فيه طرقٌ ومسالك لتمشوا عليها، اثنا عشر طريقاً، بعدد الأسباط، لكل سبطٍ طريق ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى، والتقدير: فرقنا بكم البحر، وتبعكم فرعون وجنوده، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا فرعون وقومه، وأنتم تشاهدون ذلك، وكان ذلك الغرق يوم عاشوراء، كما دل على ذلك الحديث الصحيح أنه ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة المنورة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله، فنحن نصومه!! فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله وأمر بصيامه»[2].

= رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط في مصر، إلاَّ بيوت بني إسرائيل، ومضمون هذه الرؤيا أن زوال ملك فرعون يكون على يدي رجلٍ من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكرٍ يولد من بني إسرائيل.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم رقم ٢٤٤٤ ورواه البخاري ٤/ ٢١٤ ومسلم رقم ١١٣٠ بنحو رواية أبي داود.

فائدة التذكير بالنِّعَم

وفائدة هذا أن هلاك العدو نعمةٌ، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى، فذكَّرهم تعالى بذلك ليشكروه. روي أن جبريل عليه السلام نزل بالعشيِّ، وقال لموسى: أَخرجْ قومك ليلاً، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنكُمْ مُتَّبعُونَ﴾[1] فخرج بهم، فلحقهم فرعون وجنوده بعد طلوع الشمس، وهو قوله تعالى: ﴿فأتبعوهم مُشْرقِينَ. فلمَّا تَرَاءَىٰ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ موسَىٰ إنَّا لمدركُونَ. قال كلاَّ إن معيَ ربِّي سَيَهْدين﴾[2] فلما أتى البحر، أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق فصار لهم طريقاً يابساً فسلكوه، فلما وصل فرعون رآه منفلقاً، فقال لجنده: انظروا كيف أن البحر انفلق بأمري، وجمد هيبةً مني!! فاقتحمه هو وجنوده، فغشيهم ما غشيهم من الغرق والبلاء في لجة البحر. وهذه من الآيات الملجئة إلى معرفة الخالق جلَّ وعلا، وتصديق موسى عليه السلام، ثم إن بني إسرائيل بعد ذلك قالوا لنبيهم: ﴿اجْعَلْ لنَا إلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[3] وعبدوا العجل في غيبة موسى، وقالوا لرسولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتَّى نَرَىٰ الله جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم على درجةٍ من الغباء لا يحسدون عليها، وهم في معزل عن الفطنة والذكاء، ولذلك مسخهم الله إلى قردة وخنازير ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة التالية:

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة الدخان، آية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ هذا تذكيرٌ لهم ثالث، بنعمة العفو بعد عبادة العجل، أي واذكروا حين وعدنا نبيكم موسى أن نعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ـ وهو الميقات الذي حدَّده الله له ـ وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون وقومه ﴿ثُمَّ اتَخَذْتُمُ العِجْلَ من بعدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، حين ذهب لميقات ربه، وأنتم معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم بارتكاب تلك الجريمة الشنيعة.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي عفونا عنكم حين تبتم، ولم نستأصلكم على ذلك العمل القبيح، لكي تشكروا ربكم على ذلك الصفح والإنعام، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة والعبادة، ولكنْ هيهات أن يرجع المجرم عن ضلاله، فإن الطبع يغلب التطبع!!.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تذكير لهم بنعمة إنزال التوراة وهي النعمة الرابعة، أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي أيضاً عليكم، حين أعطيت نبيكم موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، الجامعة بين كونها كتاباً منزلاً، وحجة واضحة، تفرق بين الهدى والضلال، لكي تهتدوا بتدبر الكتاب، والعمل بأحكامه، والتفكر في آياته.. سمَّى تعالى الكتاب «فرقاناً» لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ هذا توضيح وبيان لطريقة وكيفية العفو عنهم، بعد عبادتهم للعجل، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي لقد ظلمتم

أنفسكم حقاً بعبادتكم للعجل، وعرضتموها لعذاب الله ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي فاعزموا على التوبة، والرجوع إلى خالقكم العظيم، الذي خلقكم بريئاً من التفاوت، والعيب والنقصان، ومعنى «البارىء» الخالق المبدع، للخلق ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتلْ البريءُ منكم المجرم، وفي هذا بيانٌ لحكمٍ من شريعة موسى، بأنه لا تُقبل توبةُ المرتد حتى يُقْتل، كما أن القاتل عمداً، لا تُقبل توبتُه إلا بتسليم نفسِهِ، إلى أولياء القتيل ليقتلوه، وجاءت شريعتنا الإسلامية بالعفو أو القصاص. وذكرُ «البارىء» في الآية، وهي بمعنى الخالق المبدع الحكيم، للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، حيثُ تركوا عبادة خالقهم العليم الحكيم، إلى عبادة البقر، الذي هو مَثَلٌ في الغَبَاوة، فلذا أُمروا بالقتل. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي نزولكم عند أمر الله، ورضاكم بحكم الله، في تنفيذ حكم القتل بمن عبد العجل، خير لكم عند الخالق العظيم، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، ثم إنه طُهرة من الشرك، ووصلةٌ إلى الحياة الأبدية التي أعدَّها الله للمؤمنين الصادقين. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في الآية حذفٌ تقديره: ففعلتم ما أُمرتم به من القتل، فتاب عليكم ربكم وقَبِل توبتكم، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، واسع التوبة. وإنما لم يقل «فتاب عليهم» مع أنَّ الضمير للقوم الذين كانوا في زمن موسى وعبدوا العجل، وإنما قال ﴿فتاب عليكم﴾ لأنه هذه النعمة أُريد بها التذكيرُ للمخَاطَبين لا لأسلافهم، فإن النعمة على الآباء نعمةٌ على الأبناء، وفي الآية التفاتٌ من ضمير الغائب إلى المخاطب، وهو من المحسنات البديعة، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهمْ بريح طَيِّبَةٍ﴾[1] فتدبر روائع القرآن.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ بعد أن ذكَّرهم تعالى بالنِّعَم التي أفاضها عليهم، بيَّن لوناً من ألوان طغيان اليهود وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يُعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم، حين طلبوا من نبيهم رؤية الله علانية وجهاراً!!.

قال الطبري: «لمَّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً، يعتذرون إلى ربهم من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَه سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾[1] وقالَ لهم: صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم، ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلبْ لنا أن نسمع كلام ربنا!! فقال: أفعلُ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغَمَامُ، حتى تغشَّىٰ الجبلَ كلَّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: «أُدنوا ـ وكان موسى إذا كلَّمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرب دونه بالحجاب ـ ودنا القومُ حتى إذا دخلوا في الغَمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعاً...»[2] ومعنى ﴿جهرةً﴾ أي علانيةً، وأصلُ الجهر: الظهورُ، ومنه الجهرُ بالقراءة في الصلاة، تقول: رأيت الأميرَ جهرةً وجهاراً أي رأيته معاينةً غير مستتر بشيء، قال ابن عباس: ﴿جهرةً﴾ أي عياناً، ومعنى الآية: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى، لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل، فقلتم لنبيكم موسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ أي لن

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير ١/٩٧ مع شيء من الاختصار.

نصدِّقك يا موسى بأنَّ ما نسمعه كلام الله، حتى نرى الله علانية، قال هذا خيارِكُم لفرطِ العناد والتعنت ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم صاعقةٌ من السماء ـ وهي نار محرقةٌ كالصواعق الرعدية ـ حتى احترقوا وماتوا، وهمدت أجسامهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ما حلَّ بكم من العذاب، حيث لم يموتوا دفعة واحدة، وإنما يسقط الواحد ميتاً، ثم يتلوه الآخر وهو يراه، وكانت مدة الموت أو الصعقة يوماً وليلةً كما ذكر المفسرون. مات هؤلاء السبعون ـ وهم خيار بني إسرائيل ـ لأنهم تمردُّوا على نبيهم، فطلبوا رؤية الباري جلَّ وعلا عياناً، فأهلكهم الله تعالى، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يمت، وإنما غُشي عليه بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)] فلما ماتوا قام موسى يبكي، ويناشد ربه ويدعوه ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكتَ خيارهم!! كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفةُ قَالَ ربِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا...﴾[(٢)]؟ فمازال يدعو ربه ويتضرَّع إليه، حتى أحياهم الله له، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، لتشكروا ربكم على نعمة الإحياء بعد الموت، والحياة بعد الفناء، وإنما قيَّد تعالى البعثَ بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُم﴾ لزيادة التوضيح والتأكيد، على أنه موتٌ حقيقي، ولدفع ما عساه يُتوهَّمُ أن بعثهم كان بعد إغماء، أو بعد نوم، كما ذهب إليه بعضهم أنه أصابهم إغماء، ثم أفاقوا بعد الرجفة، فإنَّ هذا القول ضعيفٌ، يردُّه النصُّ الواضح «مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ»[(٣)] فالصحيح أنهم ماتوا ثم أحياهم الله عزَّ وجلّ بدعوة الكليم موسى عليه السلام، واستغاثته بربه.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٣) ذكر تبارك وتعالى أمثلةً على إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع: =

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

هذا تذكير لهم بنعمة أخرى، في طيِّها نِعَمٌ عديدة، من تظليل الغمام، وإكرامهم بالشراب الحلو السائغ «المنّ» والإنعام عليهم بالطعام اللذيذ الشهي، لحم الطير، المسمَّى بالسَّلوى، بدون جهد منهم ولا تعب، حين وقعوا في أرض التّيه، في الصحراء الشاسعة المحرقة، بسبب معصيتهم لنبيّهم، وقولتهم الشنيعة، حين أمرهم أن يدخلوا أرض الجبارين، ويقاتلوا قومها فقالوا: ﴿يا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ ندخُلَهَا أَبَدَاً مَا دَامُوا فيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1] فكان جزاؤهم أن عوقبوا بالضياع أربعين سنة، يتيهون في الأرض، مشرَّدين كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فإِنَّهَا مُحَرَّمةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُون في الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾[2].

يقول تعالى مذكِّراً لهم بنعمته: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أي سترناكم يا بني إسرائيل بالسحاب من حرّ الشمس، وجعلناه لكم كالظُلَّة، يقيكم لفح الشمس المحرقة، حين كنتم في أرض التّيه، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ أي وأكرمناكم بأنواعٍ من الشراب والطعام، من غير كدّ

= الأول: في هذه الآية التي معنا ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾. الثاني: في قصة البقرة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾. الثالث: في قصة الألوف المؤلفة الذين خرجوا فراراً من الموت ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾. الرابع: في قصة عزير ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾. الخامس: في قصة إبراهيم لما طلب من ربه أن يطلعه على كيفية الإحياء للخلقِ ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾؟ وكلها آيات باهرة على قدرة رب العالمين في الإحياء للخلقِ بعد الموت.

(١) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٦.

ولا تعب، **والمنُّ**: هو ممَّا منَّ الله به عليهم، كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، **والسَّلوىٰ**: هو طير يشبه السُّمَّاني لذيذ الطعم، وقد عدَّ رسول الله ﷺ الكمأة من المنِّ، فقال ﷺ فيما رواه عنه البخاري: «الكَمْأَةُ من المَنِّ، وماؤها شفاءٌ للعين»[1] ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أي وقلنا لهم حين كانوا في أرض التيه: كلوا من لذائذ نعم الله، ممَّا هيأه لكم من أنواع الطيبات، من الحلال اللذيذ ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ في الكلام حذفٌ واختصار، وهذا من ضروب الإبداع البياني، على حدّ قول البلغاء: «البلاغةُ الإيجازُ» والمحذوف أصلُه: فظلموا بأن كفروا هذه النعم، وما ظلمونا بالكفر ولكنْ ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم، والظلمُ قاصرٌ عليهم، وهذا ما أفادته صيغة القصر ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا ربهم ويشكروه، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.. ومن هنا تتبيَّنُ فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعنُّتهم، مع ما كانوا معه من الشدَّة في أسفاره وغزواته، منها «عام تبوك» في ذلك القيظ، والحر الشديد، والجهد المضني، لم يسألوا خرق عادة، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، ولكنْ لما أجهدهم الجوعُ، سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما عندهم، فجاء قدر مبرك الشاة ـ أي قليلاً لا يجاوز حجم قعود الشاة ـ فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كلَّ وعاء كان معهم، وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ١٣٧/١٠ ومسلم في الأشربة رقم ٢٠٤٩ والترمذي في الطب رقم ٢٠٦٨ باب الكمأة والعجوة.

الإبل، وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في متابعة الرسول ﷺ[1].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم وقت قولنا لآبائكم: ادخلوا بلدة بيت المقدس ـ بعد خروجكم من التيه ـ ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي كلوا من طعام القرية وثمارها، أكلاً واسعاً هنيئاً، والرَّغَدُ في اللغة: سَعةُ العيش، يقال: القومُ في رَغَد العيش، إذا كانوا في رزق واسع ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي وادخلوا باب البلدة ساجدين لله، شكراً على خلاصكم من التيه، ادخلوه خاشعين تائبين متواضعين لله عزَّ وجلّ ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ أي وقولوا: رجاؤنا يا ربُّ أن تحطَّ عنا ذنوبنا، وحِطَّة: كلمة استغفار، مثل قول المسلم: استغفر الله، بدليل قوله بعده: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أي نمحو عنكم ذنوبكم، ونكفّر سيئاتكم ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي سنزيد المحسنين ثواباً، وندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والمراد بالقرية هي بيت المقدس في قول الجمهور، ويدل عليه قول الله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: لمَّا خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع «يوشع بن نون» أُمروا أن يدخلوا باب البلد سُجَّداً، شكراً لله تعالى، على

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٠١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢١.

ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردِّ بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التّيه والضلال، وأن يقولوا عند دخولهم «حِطَّةٌ» أي احطط عنا خطايانا، فبدَّلوا أمر الله لهم، ودخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - رافعي رؤوسهم، واستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعيرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه، بفسقهم وهو خروجهم عن طاعة الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً بسبب فسقهم، قال ابن عباس: «كلُّ شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[1] ولم يقل: فأنزلنا عليهم، وإنما قال ﴿على الذين ظلموا﴾ زيادة في التقبيح، ومبالغة في الذمّ والتقريع، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِر لكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبةٌ في شعرة»[2].

وفي رواية الترمذي: «حنطةٌ في شعيرة» وكلُّ هذا منهم على سبيل السخرية والاستهزاء - لعنهم الله - فاستحقوا غضب الله ولعنته، وقد روي أنه مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً في ساعة واحدة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١، أقول: الأستاه جمع سَتِه: مقعدُ الرجل، قال في الصحاح: الاستُ: العَجُزُ، وقد يراد به حلقةُ الدُّبر، وأصلها سَتَهٌ جمعه أستاهٌ، كجملٍ وأجمال، ورجلٌ أستَه إذا كان كبير العجز. اهـ.
فاليهود اللعناء بدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين، دخلوا يزحفون على أدبارهم سخرية واستهزاءً ويقولون: حبة في شعيرة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، وزادوا بقولهم: حبة في شعيرة.

(٢) البخاري ٦/ ٣١٢ في الأنبياء.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ويسقيهم، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه وتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فجرى لكلٍ منهم عين ماء خاص، يأخذون منه حاجتهم لئلا يختصموا ويقتتلوا، وكان موضوع السقيا آية باهرة، ومعجزةً ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك كفروا وجحدوا!!.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فيه تذكير لهم بنعمة أخرى جليلة، غير التظليل والإطعام، «استسقى» أي طلب السقيا لقومه، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب لكم نبيكم موسى السقيا من الله عزَّ وجلّ، لمَّا عطشتم في أرض التيه ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أي قلنا له: اضربْ بالعصا التي معك أيَّ حجرٍ كان[1]، تتفجر منه بقدرتنا عيون الماء، فضربه: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ أي فانشقَّتْ وسالت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد الأسباط لئلا يتنازعوا. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي علمت كل قبيلة وكل جماعة مكان شربهم، فلا يشركهم فيه غيرهم، وإنما قال: ﴿مشربهم﴾ ولم يقل: عينهم، للإشارة إلى معجزة

---

(١) حكى المفسرون أقوالاً كثيرة، في الحجر الذي ضربه موسى فتفجرت منه العيونُ ما هو؟ وكيف وصفُه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال، والذي يكفي في فهم معنى الآية، أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصمّ، الذي ليس من شأنه الانفجار بعيون الماء، وبهذا تكون الآية أوضح، والبرهان أسطع، وتتحقق المعجزة، حتى قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في الحجة، وأبينُ في القدرة.

أخرى، حيث حدث مع انفجار الماء جداول جرت بالماء كالعيون التي تجري على سطح الأرض، وقلنا لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله تعالى من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء العذب الذي فجَّره لكم ربكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تعتدوا وتطغوا في الأرض بأنواع البغي والإفساد، يُقال: عَثِيَ يَعْثَى، ويعثو[1] إذا أفسد في الأرض، وأصل العثو: شدّةُ الإفساد، فيكون قوله تعالى ﴿مفسدين﴾ تأكيداً للنهي، أي لا تفسدوا في الأرض إفساداً بأنواع البغي والعدوان.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

هذا تذكير لليهود بجناية أخرى لأسلافهم، وكفرانهم نعمة الله عزَّ وجلّ، واليهود هم اليهود، جهلاء مكابرون معاندون، سواء في ذلك السلف «الآباء» أو الخَلَف من الأبناء، فالحية لا تلد إلاَّ حية، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى، وأنتم في الصحراء في أرض التيه، تأكلون من المنِّ والسلوى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي على نوعٍ واحدٍ من الطعام، وهو المنُّ والسلوى، وكنَّىٰ عنهما بطعام واحد وهما

---

(١) انظر الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

طعامان، لأنهم أرادوا أنه لا يختلف ولا يتبدل، فهو غذاؤهم في كل يوم، وقد كانوا أصحاب مزاج فاسد، كرهوا «المنَّ» وهو طعام حلو يشبه العسل، وكرهوا «السلوى» وهو أطيب أنواع لحوم الطير، وطلبوا بدلهما العدس، والثوم، والبصل، ولا غرابة في ذلك، فإنَّ من فسد عقلُه فسد مزاجُه، فالبصلُ عندهم أطيب من العسل، والعدس أطيب من اللحم، ولهذا طلبوا من نبيهم ما يوافق مزاجهم حين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمناه وكرهناه، ونريد ما تخرجه لنا الأرض من أنواع البقول، ثم وضَّحه وبيَّنه بقوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

أما البقل: فهو كل ما تنبته الأرض من الخضرة كالجرجير، والكُرَّاث، والنَّعنع، والنبتة الحمقاء «الرِّجلة».

وأمَّا القثاء: فيعني بها القثَّة التي هي من فصيلة الخيار، وقيل: هو الخيارُ.

وأمَّا الفوم: ففسره بعضهم بالحنطة، وفسَّره بعضهم بـ«الثوم» وهو أشبه بما بعده، فإن الثُّوم يشاكل البصل، وبدليل قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، قال الرازي: الثومُ أوفقُ للعدس والبصل من الحنطة، واستدل الإمام القرطبي ببيت شعرٍ لحسان، يهجو به أعداء الإسلام حيث يقول:

وأنْتُم أُنَاسٌ لِئَامُ الأُصُولِ   طَعَامُكُم الفُومُ والحَوْقَلُ[1]

أي طعامكم الثومُ، والبصلُ.

وأما العدس: فهو معروف ومشهور، وهو من أنواع الحبوب التي تطبخ، ومنه «شوربة العدس».

وأما البصل: فهو البصل المعروف، ذو الرائحة الكريهة، الذي قال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٤٤٥.

فيه النبي الكريم «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربَّن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه الإنسُ»[1].

يا لهم من حمقى جهلاء!! فضَّلوا الثوم والبصل، على اللحم والحلوى التي تشبه العسل، ولهذا قال لهم نبيُّهم منكراً عليهم هذا الانحراف في الذَّوق: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟ أي أتستبدلون الخسيسَ بالنفيس، وتؤثرون البصل والثوم على المنِّ والسلوى؟ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا أيَّ بلدٍ من البلدان، لتروا فيه ما تحبون وتشتهون!! والمراد بقوله ﴿مصراً﴾ أي بلداً من البلاد أيَّ بلدٍ كان، لأنها جاءت بالتنوين، ولو كان المراد بها «مصر» المعروفة التي هي مسكن فرعون لجاءت بغير تنوين، كما قال سبحانه: ﴿ونَادَىٰ فرعونُ في قومِهِ قالَ يا قومِ أليسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وهذهِ الأنْهارُ تَجْرِي من تَحْتِي..﴾[2]؟

قال ابن كثير: والحقُّ أن المراد بقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ماسألتم﴾ مصرٌ من الأمصار ـ أي بلد من البلاد ـ كما رُوي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك، لأن موسى عليه السلام يقول لهم: «هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيز ـ أي نادر ـ بل هو كثير، ففي أيِّ بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار، أن أسأل الله فيه»[3] وبعد أن حكى سبحانه كثيراً عن سفاهات اليهود وجرائمهم، وعن تعنتهم وطغيانهم، أخبر عمَّا أذاقهم إياه من أنواع الذل والهوان، وما حكم به عليهم من السخط والغضب فقال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان، وضُرب عليهم الصَّغار

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الأطعمة رقم ١٨٠٧ والنسائي في المساجد ٢/ ٤٣ ورواه البخاري بلفظ «من أكل ثوماً وبصلاً فليعتزل مسجدنا» ٩/ ٤٩٨ في الأطعمة.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٠٥.

والخزي، وأحاط بهم ذلك، كإحاطة القُبَّة بمن ضُربت عليه، مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأزمان أذلاء، من فقر النفس وشُحّها، فلا ترى ملّةً من المِلَل أحرص منهم على المال، ولا على الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[1] والمسكنةُ: الفاقةُ والخشوعُ. وهذا وصف ملازم لهم، لا ينفك عنهم أبداً، كما أن الذلَّ لا يفارقهم، إلا في بعض فترات، وهي التي عبَّر عنها القرآن بقوله سبحانه: ﴿إلاَّ بحَبْلٍ من الله وحَبْلٍ منَ النَّاسِ﴾[2]. وإنما أورد اللفظ بضمير الغائب ﴿وضُرِبَتْ عَليهِمُ﴾ للإشارة إلى أن ذلك الذل والهوان والصغار، راجعٌ إلى جميع اليهود إلى يوم القيامة وليس في أسلافهم فحسب ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الذلُّ والغضب والسَّخطُ، بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة، من كفرهم بآيات الله التنزيلية والتكوينية ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي وقتلهم أنبياء الله ورسله، ظلماً وعدواناً، كقتلهم لزكريا ويحيى، وغيرهما من أنبياء الله، وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا، واتباع الهوى، والغلوُّ في العصيان.

قال ابن مسعود: «كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيٍّ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»[3] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الجزاء والعقوبة، بسبب عصيانهم وطغيانهم، وتمردهم على أحكام الله.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٢، ونصُّها ﴿ضُربت عليهم الذلةُ أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾ أي بعهد من الله وعهدٍ من الناس، كما تفعل أمريكا اليوم في احتضان هؤلاء الخنازير، والدفاع عنهم بشتى الوسائل، وستزول أمريكا بإذن الله كما زالت روسيا، لأن نهاية الطغيان والجبروت لا تدوم، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(٣) تفسير ابن كثير ١٠٦/١.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هم المؤمنون الذين صدَّقوا برسالة محمد ﷺ، وتمسكوا بشريعته ودينه. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ هم اليهود أتباع موسى عليه السلام، وسموا «هوداً» لأنهم تابوا بعد عبادة العجل، و«هاد» في اللغة بمعنى تاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1] أي تبنا ورجعنا. ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ جمع نَصْران كسكارى جمع سكران، بمعنى نصراني، سمّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح، وهم أتباع عيسى عليه السلام. ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم قوم على الفطرة، لا دين لهم يتبعونه ويقتفونه، يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم قوم تركوا اليهودية والنصرانية ووحَّدوا الله، والصابىءُ في اللغة: من ترك دينه إلى دين آخر، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ، وبعضُ الصابئين عبد الملائكة. ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾أي من آمن منهم في زمانه، إيماناً صادقاً خالصاً، دون أن يشوبه شيء من الشرك، وعمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا كقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣١.

توضيح وبيان للآية الكريمة

أخبر تبارك وتعالى أن أهل الملل والأديان، كلٌّ من آمن منهم بنبيه، وبكتابه في زمانه، إيماناً صادقاً، وعمل صالحاً دون أن يشرك بالله شيئاً، فإن أجره لا يضيع عند الله، وهو يوم القيامة ناج من عذاب الله، وأنه يدخل الجنة مع المؤمنين، فاليهودي الذي تمسك بشريعة موسى في زمانه، والنصراني الذي تمسك بشريعة عيسى في زمانه، والذي مات على الفطرة وهو يؤمن بالله، كلٌّ هؤلاء يدخلون الجنة، لأنهم في زمانهم كانوا مؤمنين موحّدين، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يُقبل من اليهودي أو النصراني أن يتمسك أحدهم بدينه، بل من شروط دخول الجنة الإيمانُ بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، لأن كل دين قبله نُسخ، وانتهى العمل به، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ من الخَاسِرِينَ﴾(١) نعم من آمن من أهل الأديان بنبيه في زمانه، فهو من أهل الجنة، لا يضيع من عمله شيء، وأما بعد مجيء الإسلام فلا يقبل الله من أحدٍ إلاّ الإسلام، وإلاَّ الإيمان برسالة محمد عليه السلام، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار»(٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

بعد أن ذكّر تعالى بني إسرائيل بالنعم الجليلة التي أنعم بها عليهم،

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٤٠.

أخبر ببيان ما حلَّ بهم من نقم ونكبات، جزاءً لهم على كفرهم وعصيانهم، وتمردهم على أوامر الله عزَّ وجلّ!! ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخذنا منكم العهد المؤكَّد، الموثَّق بأنواع المواثيق، على العمل بما في التوراة، فلما جاءكم موسى بالكتاب المنير، رفضتم العمل به ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي رفعناه حتى صار كالمظلَّة فوقكم، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي اعملوا بما في الكتاب بجدٍ وعزيمة، وادرسوه ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه، فهو الكتاب الذي به سعادتكم، ونجاتكم من شقاء الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا المعاصي وما يسخط الله، ولتكونوا في زمرة المتقين. روي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة، ورأوا ما فيها من التكاليف، ثقلت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع جبل الطور، فاقتلعه ورفعه فوق رؤوسهم، حتى أصبح كالظلة عليهم، وقيل لهم: إمَّا أن تطبّقوا أحكام التوراة، وإما أن نسحقكم بهذا الجبل[1]، فأذعنوا ورضخوا، ثم عادوا ونكسوا، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

أي ثم نكثتم وأعرضتم عن الميثاق بعد قبوله، فلولا فضل الله عليكم بتوفيقكم للتوبة، ورحمته بقبولها والعفو عن الزلة، لكنتم من الهالكين الخاسرين في الدنيا والآخرة، وهذه هي الجناية الأولى التي تحدثت عنها الآيات، ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من مسخ وتشويه في الصورة والشكل، إلى قردة بسبب ما فعلوا من جرائم وعصيان، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) وهذا ما أشارت إليه سورة الأعراف: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنهم ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ آية: ١٧١.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل، ما فعلنا بمن عصى أمرنا من أسلافكم، حين خالفوا أمر الله، واصطادوا يوم السبت، وكان محرَّماً ذلك عليهم، فمسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً، مع الذلة والهوان ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي فجعلنا هذا المسخ عقوبة زاجرة، لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وعظةً وذكرى لكل عبد صالح، صادق الإيمان، متَّقٍ للرحمن.

إلـــى الله يُـــدْعَـــىٰ بـــالبَـــرَاهِيـــنِ مَـــنْ أَبَـــىٰ

فَـــإِنْ لـــم يُجِـــبْ نَـــادَتْـــهُ بِيـــضُ الصَّـــوَارِمِ[1]

المسخ حقيقيٌ لا معنويٌّ

لقد كان مسخهم قردةً مسخاً حقيقياً، تغيَّرت صورهم من صورة بشر، إلى صورة قردة وخنازير، وقد فصَّلتْ سورةُ الأعراف، قصة هؤلاء المعتدين في السبت، وذكرت أنهم مسخوا إلى قردة حقيقةً، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنهُ قلْنَا لهمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ هلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ من ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله؟ مَنْ لَعَنَه الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ منهُم القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾[3] فهذه النصوص صريحة على أنهم مسخوا إلى قردة وخنازير، وعلى ذلك جمهور المفسرين، وهو الصحيح، وما روي عن بعض المفسرين أن المسخ كان معنوياً لا صورياً مردود، كما

---

(١) الصوارم جمع صارم وهو السيف، أي من لم تنفعه الموعظة والبرهان، فليس له علاج إلا بالسيف الصارم.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٦٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٠.

قال الحافظ ابن كثير والصحيح أنه كان للصورة، وروي عن قتادة أن القوم لما اصطادوا وخالفوا أمر الله، صاروا قردةً تتعاوى، لها أذنابٌ، بعد ما كانوا رجالاً ونساءً، وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ مسخهم قردةً بمعصيتهم، ثم هلكوا، ولم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يكن لهم نسل. ويؤيد هذا القول ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل النبيﷺ فقال يا رسول الله: القِرَدةُ والخنازيرُ أهي ممَّا مُسخ؟ فقال النبيﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يُهْلِك قوماً، أو يعذب قوماً، فيجعلَ لهم نسلاً!! وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»[1] أي كانوا قبل مسخ بني إسرائيل، فدلَّ ذلك على أن الذين مُسخوا ليس لهم نسل، وأن القردة الموجودين ليسوا من المسخ[2].

قصة أصحاب البقرة

ثم ذكر تبارك وتعالى قصة أصحاب البقرة، كنموذجٍ عن تمرد بني إسرائيل على أنبيائهم، ومعاندتهم وعصيانهم ومخالفتهم لأوامر الرسل، وكبيانٍ على قدرة الله عزَّ وجلّ في إحياء الموتى، وأن الله يبعث من في القبور. وخلاصة القصة أن بني إسرائيل كان فيهم شيخ موسر، قَتَله ابن أخيه طمعاً في ميراثه، ثم احتمله فطرحه على باب المدينة ليلاً، ولما أصبح الصباح جاء يطالب بدمه، ويزعم أن أهل البلدة قتلوه، حتى كاد يقع بينهم قتال بسبب القتيل، ثم أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها، حتى يحيا ويخبر عن قاتله وإلى هذه القصة العجيبة تشير الآيات الكريمة، وهي قوله تعالى:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب القدر رقم ٣٣.

(٢) انظر البحث مفصلاً في تفسير ابن كثير ١/ ١١٠.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين قال لكم نبيكم موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ وذلك بعد أن قُتل بينكم قتيل، ولم تعرفوا قاتله ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ أي أتهزأُ وتسخرُ منا يا موسى؟ نسألك عن القاتل، فتقول لنا: اذبحوا بقرة؟ ما دخلُ البقرة بالقتيل؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أستجير بالله أن أكون في زمرة الساخرين، المستهزئين بالناس، فإن السخرية بالناس جهل وسفهٌ!! وعبَّر بالاستعاذة ﴿أعوذ بالله﴾ استعظاماً لما أقدموا عليه، من رميه عليه السلام بهذه العظيمة المنكرة، فإن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله، وفي مقام الإرشاد يكاد يكون كفراً، فكيف يليق ذلك بنبيٍّ من الأنبياء الكرام؟! ولو كانوا أذكياءَ لفهموا مغزى كلامه عليه السلام، فإنه وضَّح لهم أن هذا ليس من عنده، وإنما هو أمر الله ﴿إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولم يقل لهم: إنني آمركم أن تذبحوا بقرة، ولكنهم أناس جهلاء، مشاغبون معاندون، لا يعرفون قدر الرسل!!.

ولمّا تحقق لهم أنه عليه السلام جادٌّ في كلامه، غير ساخر ولا عابث.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟ أي ادع لنا يا موسى ربك، حتى يبين لنا ما هي هذه البقرة؟ ما سِنُّها؟ ما صفتها المميزة لها عن غيرها؟ وهذا تعنّتٌ منهم وعناد، ولو امتثلوا الأمر فذبحوا أي بقرةٍ لأجزأتهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم كما قال ابن عباس[1] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي قال لهم موسى: إن هذه البقرة التي أمركم الله بذبحها ﴿لا فَارِضٌ﴾ أي ليست كبيرة مسنة هرمة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي وليست صغيرة فتية ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي فنفِّذوا أمر الله، ولا تكثروا الجدل، ولا تتعنَّتوا وتتشدَّدوا، فيشدّد الله عليكم.

قال ابن كثير: الفارضُ: الهرمةُ التي لا تُولد، والبِكرُ: التي لم تلد إلاَّ ولداً واحداً، والعَوَانُ: النَّصَفُ ـ أي الوسط ـ التي بين ذلك، التي قد وَلَدت، ووَلَد ولَدُها[2].

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟ لم يمتثلوا الأمر، وعادوا إلى الجدل والتعنت، فطلبوا من موسى أن يدعو ربه، حتى يخبرهم عن لونها، بعد أن أخبرهم عن سنّها!! أي هل لونها أبيض، أم أسود، أم أصفر؟ نريد أن تخبرنا عن لونها بقولٍ قاطع. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي قال لهم موسى: إن ربي يقول إن هذه البقرة صفراء اللون، شديدة الصفرة، حسنة المنظر، تسرُّ كلَّ من رآها، ولفظ «فاقع» من صفات الألوان، وهو وصف خاصٌّ بالصُّفرة، كما نقول: أسود حالكٌ، وأبيض ناصع، وأصفر فاقع أي شديد الصُّفرة، قال الطبري: وهو نظير النصوع في البياض[3]. وكان يكفي هذا البيان لهم، ولكنهم كانوا مغرمين بالتعنت والجدل، والمعاندة لأوامر الله، فرجعوا يطلبون من نبيهم أن يسأل ربه، عن علامةٍ خاصة تعرف بها، لأن هذه الأوصاف عندهم غير كافية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١١٣.

(٣) مختصر الطبري ١/ ٩٧.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي يوضح لنا وصفاً خاصاً بها يميّزها من غيرها، وكأنهم أحسُّوا بمقت المعصية، فاعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً، وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي تشابه علينا البقر، والتبس أمره علينا، فلم ندر ما هي البقرة المأمور بذبحها، وسنهتدي إن شاء الله إلى معرفتها، وفي الحديث «إنما أُمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لمَّا شدَّدوا شدَّد الله عليهم، وايمُ الله لو أنهم لم يستثنوا - أي يقولوا إن شاء الله - لما بُيّنت لهم آخر الأبد»[1] وما تشابه عليهم البقر، إلاَّ لأنهم أغبياء من جنس البقر!!.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، وجملة ﴿تثير الأرض﴾ صفة لذلول داخلة في النفي، ومعنى إثارة الأرض حراثتها لإلقاء البذر فيها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي وليست لسقاية الزرع، وإنما هي للدرِّ والنسل، لا للحراثة والسقاية ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لون جلدها، فهي صفراء كلُّها حتى قرنها وظلفها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي في هذا الوقت جئتَ بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالٌ في أمرها، وفي قولهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ إساءة أدبٍ مع رسولهم، كأنه ما كان يخبرهم بالحقِّ قبل ذلك، والآن قال لهم الحقَّ، أي الآن صدقتَ، وكان يكفيهم أن يقولوا: الآن عرفناها تمام المعرفة، ولكنهم كانوا غير راشدين في تعبيرهم، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة الجامعة لكل الأوصاف، فاشتروها بثمنٍ غالٍ جداً، فذبحوها وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة، أو ضنّاً بذبح البقرة، فإنهم كانوا يعبدون البقر، كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ١١٤.

العِجْلَ﴾ أي امتزج بدمائهم حبُّ عبادة العجل، وهو الذَّكرُ من البقر، فمن أجل ذلك ما كادوا يقدمون على ذبحها، وفي هذا ذمٌّ لهم، لأن غرضهم لم يكن إلا التعنت، والشغب على نبيِّ الله موسى الكليم عليه السلام[1].

قصة البقرة

وقصة هذه البقرة على ما رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل، كان صالحاً، ووُلد له ابن، وكانت له عجلة ـ بقرة فتية ـ فأرسلها لترعى في الحقل، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبيُّ قالت له أمه: إن أباك كان قد استودعَ الله لك عجلة، فاذهب فخذها، فذهب فلما رأته البقرة حنَّت إليه حتى أخذ بقرنيها ـ وكانت مستوحشة ـ فجعل يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أُمروا بها، فاشتروها بثمن غالٍ[2].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه أول القصة، وهي من المؤخر لفظاً، المقدَّم معنى، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة، للكشف عن القاتل[3]، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ

---

(١) اختار الطبري أنهم ما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، ورجح ابن كثير رواية الضحاك عن ابن عباس، أنهم أرادوا ألاّ يذبحوها، لأنهم ما كانوا يريدون إلا التعنت، ومع هذا البيان وهذه الأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وانظر ابن كثير ١/ ١١٥.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٤٨.

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ١/ ٧٣، وهذه الواقعة «قتل النفس» جرت قبل =

﴿نَفۡسٗا﴾ بداية ذكر القصة أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم شخصاً، والخطاب لليهود المعاصرين لزمن النبي ﷺ، يذكِّرهم بفعل أسلافهم، وأضيف القتل إليهم لرضاهم بفعل أولئك، وهذا على طريقة العرب في إسناد الأشياء إلى القبيلة، إذا وُجد من بعضهم سكوت أو رضى بما حدث ﴿فَٱدَّٰرَٰءۡتُمۡ فِيهَاۖ﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم في شأنها، إذ كلٌّ واحد من الخصماء صار يدفع التهمة عن نفسه، وينسبها لغيره، والدَّرءُ: معناه الدفعُ، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾[1] أي يدفع عنها الحدَّ ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ أي مظهرٌ لا محالة ما تكتمونه من أمر القتل، لا يتركه مستوراً مكتوماً، لا يُعرف من هو القاتل؟

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ أي فقلنا لكم على لسان نبينا: اضربوا القتيل ببعض البقرة، أيَّ بعضٍ كان، يحيا القتيلُ ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في الآية شيء محذوف، تقديره: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة السياق ﴿كذلك يحيى﴾ أي كما أحيا الله هذا القتيل أمام أبصاركم، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روي أنهم لمّا ضربوه ببعضها، قام بإذن الله، وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان لابن عمه، ثم سقط ميتاً فأُخذ وقُتل، ولم يُورَّث قاتل بعد ذلك. ثم إن موسى عليه السلام أمرهم بضربه ببعضها، وما ضربه بنفسه نفياً للتهمة، كيلا يُنسب إلى السحر أو الحيلة ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي ويريكم دلائله على كمال قدرته، لكي تعقلوا وتتبصَّروا، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس بعد موتها، قادرٌ على إحياء الأنفس كلها. وفي هذه القصة تعليم من الله

= أمرهم بذبح البقرة ـ كما بيَّنا ـ وإن وردت في الذكر بعده، والسرُّ في ذلك التشويقُ إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، والتكرير في التوبيخ والتقريع، لأن كل واحد من قتل النفس، والاستهزاء بموسى عليه السلام، والاعتراض على أمر الله، جناية عظيمة تستحق كمال التوبيخ.

(١) سورة النور، آية: ٨.

لعباده، بترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله، والتحذير من كثرة السؤال، والاعتبار بما يرى الإنسان من دلائل كمال القدرة.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطابٌ لأهل عصر النبي ﷺ من أحبار اليهود، والقسوةُ: عبارةٌ عن الغِلَظ مع الصلابة كما في الحجر الصَّلد، و«ثم» لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها، كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] والمعنى: ثم صلبت قلوبكم يا معشر اليهود وغلظت، فلا يؤثّر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد رؤية تلك المعجزات الباهرات، ومنها معجزة إحياء القتيل ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي فهي في قساوتها مثل الحجارة، بل أشدُّ منها قسوة، كقسوة الحديد ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي إن من الأحجار ما تتدفّق منها الأنهار بالماء الزلال، الذي به حياة الناس والنبات، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ أي ومن الحجارة لما يتصدَّع إشفاقاً من عظمة الله، فينبع منه الماء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي ومن الحجارة ما يتصدَّع ويتردَّى من أعالي الجبال، خوفاً من الله عزَّ وجلّ، فالحجارة تلينُ وقلوبكم لا تخشع ولا تلين ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى رقيب على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلب، وجفاء الطبع.

ترقَّىٰ سبحانه في بيان التفضيل على الحجارة، التي تتأثر تأثراً بليغاً، بما يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجُّر الأنهار.. ثم على الحجارة المتأثرة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١.

تأثراً ضعيفاً، يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، يعني بها العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها من غير منفعة الناس، وهي التي تتفتّت وتهبط خشية من عظمة الله، كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لرَأَيْتَهُ خَاشِعَاً مُتَصَدِّعَاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾(١) فالحجارة تتأثر وقلوب هؤلاء لا تتأثر أصلاً، فهي أشدُّ قسوة من الحجارة!!

فإن قلت: إن الحجارة جماد فكيف تخشى وتتأثر؟

فالجواب: أن مذهب أهل السنة أن الله تعالى أودع في الحيوانات والجمادات حسّاً لا يعرفه الناس، فلها تسبيح وخشية لا ندركه نحن، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ﴾(٢). والخشيةُ: خوفٌ يشوبه تعظيمٌ وإكرام، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعثَ، إني لأعرفه الآن»(٣).

ثم بعد أن ذكر تعالى عناد اليهود، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان لأوامر الرحمن، نبّه تعالى المؤمنين إلى بعض جرائمهم وقبائحهم، لئلا يطمعوا في إيمانهم وهدايتهم فقال سبحانه:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٧ والترمذي في المناقب رقم ٣٦٢٤.

الخطابُ لرسول الله ﷺ والمؤمنين، والاستفهام للاستبعاد وإنكار الواقع، كما في قولك: أتضرب أباك؟ لا لإنكار الوقوع، فقوله تعالى: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾؟ أي أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فترجون وتطمعون أن يؤمن اليهود لأجل دعوتكم، وضمير الغيبة ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ لليهود المعاصرين له ﷺ لأنهم هم المطموع في إيمانهم ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي والحال أنه كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يسمعونه بيّناً جلياً ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي ثم يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل الباطل، من بعد ما فهموه وضبطوه، كتحريفهم نعت النبي ﷺ وآية الرجم، والتحريفُ يصدق على تحريف الألفاظ، والمعاني، بالحذف، والزيادة، والنقصان، وهي واقعة في كتب اليهود والنصارى كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[1] وممّا يؤيد وقوع التغيير، وأنها لم تبق كيوم نزلت، وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها وتكاذبها، ومصادمة بعضها ببعض، فإنها في زماننا أربعة أناجيل، وقد تضمَّن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما يدركه الإنسان بداهة أنه ليس من كلام الله تعالى مطلقاً، فهل أنزل الله على عيسى إنجيلاً واحداً أم أربعة أناجيل؟ وكذلك التوراة التحريف فيها أشد وأفظع، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فالتحريف عندهم مستمر، على حسب الأزمان والأهواء، لأن الله تعالى ما تكفَّل بحفظ كتاب، إلاَّ هذا القرآن العظيم!! ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مفترون مبطلون، والمراد أن أحبار هؤلاء وعلماءهم، كانوا على هذه الحالة، فما طمعكم بِجُهّالهم؟ وقيل: المرادُ بكلام الله:

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤١.

الوحيُ المنزَّلُ على رسول الله ﷺ، وقد كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرّفونه قصداً، ليدخلوا في الدين ما ليس منه، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي وإذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحقِّ، وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإذا اختلى بعضهم ببعض، وانفردوا عن المؤمنين ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؟ أي قال بعض أحبارهم توبيخاً لهم عاتبين على من نافق: أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة، من نعت رسول الله وصفته ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم، في ترك اتباع الرسول، مع العلم بصدقه؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليست لكم عقول تدركون بها هذا الخطأ الفاحش؟ وهذا من تمام الحكاية عنهم. وإنما عبَّروا عن الحديث بالفتح ﴿بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنه سرٌّ مكنون، لا يقف عليه أحد، وهم وحدهم يعرفون ذلك من أخبار التوراة.

قال تعالى ردّاً عليهم، وتوبيخاً لهم على إجرامهم ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود، المحرّفون لكلام الله، والكاتمون لأوصاف رسول الله، أن الله جلَّ وعلا، عالمٌ بما يخفونه وما يعلنونه، ومطَّلعٌ على أحوالهم، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية؟ فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!.

وقدَّم السرَّ على العلانية، لأن مرتبة السرِّ مقدمةٌ على مرتبة العلن، إذْ ما من شيءٍ يُعلن، إلاّ وهو قبل ذلك مضمرٌ في القلب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

لمَّا ذكر تعالى علماء السوء، من اليهود الذين حرَّفوا وبدَّلوا كلام

الله، ذكر العوام الذين قلّدوهم بدون عقل، ونبّه أنهم في الكفر والضلال سواء، العامة والعلماء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي من اليهود جماعة عوام جهلاء، جمع أمي وهو الذي لا يعرف القراءة والكتابة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها، ويتحققوا بأنفسهم بما فيها، ولذلك يقلّدون الأحبار، ويصدّقونهم بما يقولون، بدون عقل ولا فهم ﴿إِلاَّ أَمَانيَّ﴾ جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدّره الإنسان في نفسه والمروي عن ابن عباس أن الأماني: المواعيد التي سمعوها من أحبارهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، والتمني: هو الكلام المتمنى به بقوله ليت لي كذا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنُّ والتقليد، فأنى يرجى لهم الإيمان على قواعد اليقين!؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ شدّةُ عذاب، وهي كلمة تحسُّرٍ وهَلَكة، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «الويلُ وادٍ في جهنم»[1] ومعناه أن في جهنم موضعاً يتبوأ فيها من جُعل له الويلُ[2] وهو في الأصل مصدرٌ لا فعل له، وإنما ساغ

(١) أخرجه الترمذي ولفظه: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

(٢) لا يراد أنه في اللغة موضوع لاسم وادٍ في جهنم، وإنما يُراد أن من قال الله تعالى فيه «ويلٌ» فقد استحق مقراً من النار، وثبت له ذلك، مثل قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لكل هُمَزة لُمَزة﴾ و﴿فويلٌ للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾.

الابتداء به نكرة، لأنه دعاء، كأمثالِهِ من وَيْح، وَوَيْس[1]، فإذا أضيف نصب نحو ويلَكَ، ووَيحَك، وإذا فصل رُفع «ويلٌ له» وهذا دعاء عليهم بالهلاك ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني المحرَّف، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد كقولك كتبته بيميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إعظاماً لشأنه، وتمكيناً في قلوب أتباعهم، و«ثم» للتراخي الرتبي، فإن نسبة المحرَّف إلى الله عزَّ وجلَّ أشدُّ شناعة من نفس التحريف، روي أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مكانتهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان به ﷺ فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيَّروها ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثَمَنًا﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ فإنه وإن جلَّ قليل، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح لتعليله ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من السُّحْت وهذا يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف للديانه، بل إنما فعلوه طلباً للمال، ويدل أيضاً على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، واليهود جنوا ثلاث جنايات:

١ ـ تغيير صفة النبي ﷺ.

٢ ـ الافتراء على الله تعالى.

٣ ـ وأخذ الرشوة، فهدّدوا بكل هذه الجنايات بالويل والثبور.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي قال اليهود لن ندخل النار إلا أياماً

---

(١) وَيْسٌ: كلمة تستعمل في موضع رأفة واستملاح، يقال: وَيْسَه ما أملحه، وَوَيْساً له. اهـ المعجم الوسيط.

قلائل، هي مدة عبادتنا للعجل، ولا نخلّد في نار جهنم، ومرادهم بقولهم: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ أي محصورة قليلة، روي أنهم قالوا إنما نُعذَّب بعدد أيام عبادة العجل، أربعين يوماً[1]، وكنَّى بالمعدودة عن القليلة، لأن العرب ـ لعدم علمهم بالحساب ـ تصوّروا القليلة ميسّرة العدد، والكثيرة متعسرة، فقالوا: شيء معدودٌ أي قليل ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ وعداً بما تزعمون، فإنَّ ما تدَّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قويّ، ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾ جواب شرط مقدر، أي إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلْف في خبره محالٌ، وإظهار الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية ﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقوعه، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون للمبالغة في التوبيخ، وقولهم المحكي وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له ﴿أم تقولون﴾ «أم» منقطعة بمعنى «بل» أي بل أتقولون على التقرير والتقريع ثم قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لمّا فتح خيبر، أهديت له شاة فيها سمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود، فجُمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا: صدقتَ، قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً...» الحديث وانظر تمامه في فتح الباري على البخاري ٦/ ٢٧٢.

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً، ودهراً طويلاً، على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، ويختص «بلى» بجواب النفي لأنها تقع تصديقاً للنفي، ولا يقع للمثبت أصلاً، ولهذا قيل بلى في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ لأنه في قوة بلى أنت ربنا، ولو قالوا، نعم لكفروا، لأنه في قوة نعم لستَ ربنا، فإنَّ «نعم» يقع تصديقاً للإيجاب والنفي، في الخبر والاستفهام، ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والكسب استجلاب النفع، وتعليقُه بالسيئة للتهكُّم على طريق فبشرهم بعذاب ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله، وهذا إنما يصح في شأن الكافر، ولذا فسرها السلف بالكفر، وتحقيقُ ذلك، أن من أذنب ذنباً ولم يُقلعْ عنه، استجرَّه إلى معاودة مثله، وانهماكه فيه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إليها مستحسناً لها، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غشَّاها وغطَّاها الإجرام والضلال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾أي فهم في نار جهنم دائمون فيها أبداً، فأنى لهم الخروج منها بعد أربعين كما زعموا؟[1]

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا فُتحت خيبر أُهديت للرسول ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود!! فجُمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلانٌ، قال: كذبتم بل أبوكم فلان!! قالوا صدقتَ وبررت، فقال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً!! ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على هذا؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرّك!!» أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ١٩٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وضع تعالى الإيمان في مقابلة السيئة، والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة، للمقارنة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار، أي وأمّا المؤمنون الصادقون، الذين قدّموا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لا تمسهم النار، بل هم مخلَّدون في رياض الجنة، يُسرُّون فيها ويحبرون.

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ (٨٣) ﴾.

شروع في تعداد بعض آخر، من جرائم وقبائح اليهود، حيث نقضوا الميثاق، وأزهقوا الأرواح، وطغوا في الأرض بالإفساد، واعتدوا على حرمات إخوانهم المؤمنين بالبغي والعدوان ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي اذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا على أسلافكم العهد الموثّق المؤكّد غاية التأكيد، وقلنا لهم ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على إرادة القول أي قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا ﴾ إخبارٌ في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿لا يُضارَّ كاتب﴾ وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء، فهو يخبر عنه، وهو متعلق بمضمر تقديره وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، والإحسانُ: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وفسره ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] والوالدان تثنية والد، يطلق على الأب، والأم. ودلت الآية على

---

(١) هذا طرف من حديث جبريل المشهور، وفيه: فسأله جبريل: قال: «فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..» الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، وانظره بتمامه رقم ٨.

الحث على برّ الوالدين، والآياتُ والأحاديث في ذلك كثيرة، وناهيكَ احتفالاً بهما أن الله تعالى قرن ذلك بعبادته، لأن أعظم أنواع النعم نعمة الوجود، وهي نعمة الحفظ في وقت الصغر ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عطفٌ على الوالدين، والقربى مصدر كالرُّجْعىٰ، وهو قرابة الرحم والصلب، أي أحسنوا إلى ذي القربى، وقال الله تعالى: ﴿وآتِ ذا القُربىٰ حَقَّهُ﴾ يريد المحاويج منهم، قدَّمهم لأنهم أحق بالمعروف، عن سلمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرحم صدقةٌ، وَصِلة»[1] وفيه دليل على وجوب النفقة على المحارم ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، ومعناه في الأصل الانفراد، ومنه الدُرَّةُ اليتيمة، وهو الذي مات أبوه وهو صغير حتى يبلغ الحلم، وفي الحديث الشريف: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى»[2]. ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ والمسكين من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه من الحراك، وأثخنه من التقلب وهو أشد فقراً من الفقير، فالفقير الذي له بلغةٌ من العيش، والمسكين الذي لا شيء له أصلاً عند أكثر أهل اللغة، وهو قول أبي حنيفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ وعند الشافعي الفقير أسوأ حالاً، واحتج بقوله: ﴿أمَّا السفينة فكانت لمساكين﴾، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حَسَناً، وسمَّاهُ حُسْناً للمبالغة، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، والظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق، والقول الحسن مع المؤمنين والكفار لأن موسى أمر بالرفق مع فرعون، وكذا الرسول ﷺ أُمر بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا أمكن التوصل إلى الغرض باللُّطْف، لم يحسن سواه مع الجميع

(١) أخرجه النسائي في الزكاة ٥/ ٩٢ والترمذي رقم ٦٥٨ وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٣ في الأدب، وأبو داود رقم ٥١٥٠ وزاد البخاري: وفرَّج بينهما شيئاً.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ يريد بهما ما فُرض عليهم في ملتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على طريقة الالتفات، ولعلَّ الخطاب مع الموجودين في عهد رسول الله ﷺ على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتم وثمَّ للاستبعاد، فيكون توبيخاً لهم بالارتذاذ بعد الانقياد، وهو أشنع في العصيان من الأول ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ يريد من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي أنتم قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء، والطاعة، وأصل الإعراض الذهاب والانصراف عن الشيء، احتقاراً له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ نعى عليهم إخلالهم بموجب الميثاق، المأخوذ منهم في حقوق العباد، إثر بيان ما فعلوا بالميثاق، المأخوذ منهم في حقوق الله تعالى أي اذكروا وقت أخذنا ميثاقكم في التوراة، وقلنا ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ أي تريقونها بقتل بعضكم بعضاً، وإنما جعل قتل الرجل نفسه، لأنه يوجب القصاص، وقيل معناه: لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أي لا يخرج بعضُكم بعضاً من داره، ولا يتعرض بالإجلاء عن الوطن، والتعبير عن ذلك للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ أي قبلتم ذلك الميثاق، واعترفتم بلزومه، خلفاً بعد سلف، والإقرارُ: ضد الجحود ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ توكيد كقولك: أقرَّ فلانٌ شاهداً على نفسه، وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم، أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزومه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، ويهود بني النضير، فقد كانوا فريقين، حَالفت بنو قريظة الأوسَ، وحالفت بنو النضير الخزرج ـ والأوسُ والخزرجُ سكان المدينة من العرب ـ فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كلُّ فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من المتاع والأثاث والمال، وذلك حرام عليهم بنص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، افتكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، فذلك قوله تعالى موبخاً لهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي ثم أنتم يا معشر اليهود، بعد إقراركم بالميثاق، تقتلون إخوانكم في الدين، وتطردونهم من ديارهم، من غير التزام بالميثاق ومن غير مراعاةٍ لأوامر الله في التوراة ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تتعاونون على قتلهم وطردهم من أوطانهم بالبغي والظلم، والإثمُ: الذنبُ الذي يستحق فاعله الذمَّ واللوم، وفي الحديث الشريف «الإثمُ ما حاك في صدركَ وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»[1] والعدوانُ: الظلمُ، ومجاوزة الحد

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠ ولفظه عن =

في المعاصي ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ أي وإن وقعوا في الأسر في أيدي حلفائكم، استنقذتموهم بدفع المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي وإخراجهم من أوطانهم حرام عليكم، فكيف تستبيحون القتل والإخراج، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي الأعداء؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؟ بفداء الأسارى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال، والإجلاء، والمظاهرة، مع أن من قضية الإيمان ببعضه، الإيمان بالباقي، لكون الكلّ من عند الله تعالى، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب، أو إلى ما فعلوه من القتل والإجلاء ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوانٌ يقال: خَزِيَ خِزياً: ذلَّ وهان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خزيٌ كائن في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ هو الخلود في جهنم، كما أن معصيتهم أشدُّ المعاصي، ولعل بيان جزائهم بطريق القصر، لقطع أطماعهم من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار بأنه لا أثر له أصلاً ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد أي والله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، لا يغفل عن أفعالهم من القبائح، التي من جملتها هذا المنكر.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها، وإن ما ذكر من الكفر ببعض الكتاب، إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم، لما يعود منهم من بعض المنافع الدنيوية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم، والأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ أي المعهود وهذا في الآخرة، ولأنهم قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات.

= النوّاس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم؟ فقال: «البِرُّ حُسْن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك..» الحديث.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ شروع لبعضٍ آخر من جناياتهم، وهذا من النعم التي أفاض الله تعالى عليهم فقابلوها بالكفر، واللام في «لقد» جواب قسم محذوف، أي والله لقد أعطينا موسى الكتاب، ولا تكاد اللام ترتبط إلاَّ مع «قد» لأنها مظنة التوقع، والمخاطب إذا سمعها توقَّع وقوع ما صُدِّر بها من الخبر، ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المراد من الإتيان إنزال التوراة عليه، ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعناه وأردفناه، يقال: قَفَاه إذا اتبعه، وقَفَّاه به: إذا أتبعه إياه ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد موسى ﴿ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلَنَا تَتْرَى﴾[1] وهم داود وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى بالعبرية معناه المبارك، ومريم في لغتهم العابدة، وقال القرطبي: معناه خادم الرب ﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، أو الحجج الواضحات، الدالة على نبوته، وأفرده عن الرسل لأنه من أولي العزم، وصاحب كتاب، وإضافته إلى أمه، رداً على اليهود زعموا أن له أباً ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قويناه ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي بالروح المقدسة الطاهرة، أراد به «جبريل» عليه السلام، ووصفها به لطهارته عن مسِّ الشيطان، أو لكرامته على الله تعالى، وإطلاق «روح القدس» على جبريل شايع[2]، والقُدُس:

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٤٤.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: والدليل على أن «روح القدس» هو جبريل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿قل نزَّله روح القُدُس من ربك بالحقِّ﴾ وقوله ﷺ: «اللهمَّ أيِّدْ حسان بروح القُدس كما نافح عن نبيك» وحديث «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها...» الحديث.

الطهارةُ والبركةُ، والتقديسُ التطهير، قال مجاهد والربيع: القُدُس من أسماء الله تعالى، كالقدُّوس، وخصَّ عيسى بذكر التأييد، لأنه تعالى خصه به من وقت صباه، إلى حال كبره، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾(١) ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من أولئك الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبُّه من الحق الذي لا يحيد عنه، والهوى مقصور من هويته إذا أحببته، ثم أطلق على ميل النفس إلى شيء مذموم، فيقال: اتَّبع هواه، وهو من أهل الهوى، وقال الشعبي: «ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلاَّ وذمَّه» ولم يوضع إلاَّ موضع الشر، فلا يقال: فلانٌ يهوى الخير، بل يقال يحب الخير، وعبَّر عن المحبة بالهوى، للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم، هو المخالفة لأهوائهم، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يَهْوَون كذَّبوه، أو قتلوه، والرسولُ فعول بمعنى مفعول جمعه رسل بضمتين، وهو من بعث بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبيُّ: من بعث لتقرير شريعة سالفة ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبّرتم عن اتباعه، والمراد التوبيخ، ومتعلق «استكبرتم» محذوفٌ أي عن الإيمان بما جاء به من عند الله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ونحوه ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى ونحوهما، وإيثار صيغة المستقبل في القتل لاستحضار صورته الهائلة، أو للإيماء إلى أنهم بعدُ على تلك النية الخبيثة، حيث همُّوا بما لم ينالوه من جهته ﷺ وسحروه وأرادوا سمّه. وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ونسب القتل إليهم لرضائهم به وقيل: إنه ﷺ قُتل حقيقةً بالسمِّ الذي وضعوه في الشاة، على ما جاء في الصحيح بلفظ «وهذا أوانُ وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم»(٢).

---

(١) سورة المائدة، آية ١١٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢١٩/٤ وحديث السمّ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ١٩٥/٦ ولفظه: لمَّا فُتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ.. الحديث، وفي رواية للبخاري في كتاب الهبة: «فما زلتُ أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ» أي أثر هذه الأكلة في أقصى فم النبي ﷺ جمع لَهَاة وهي أقصى الفم.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ للنبي ﷺ استهزاء، بيانٌ لفنٍ آخر من قبائحهم، على طريق الالتفات إلى الغيبة، إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، والقائلون هم الموجودون في عصره ﷺ ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف أي هي مغشّاة بأغطية، لا يصل إليها ما جاء به ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[1] قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ردٌّ لما قالوا، والمعنى: أنها خُلقت على الفطرة، والتمكن من قبول الحق، ولكنَّ الله تعالى خذلهم بكفرهم، فأبطل استعدادهم، كما قال الله ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم﴾[2] واللعنُ: أشد ما يعبر الله به عن غضبه، فالملعون هو المحروم من لطفه وقد يكون بمعنى الإبعاد عن درجة الأبرار، وهو المراد في حديث الاحتكار، والمراد للمحلِّل، والمحلَّل الخساسةُ لا حقيقة اللعن، لأن النبي ﷺ قال «إني لم أُبعث لعَّاناً»[3] واللعنُ لا يكون إلا لكافر، وعلى غير معيَّن كالظالمين ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ «ما» مزيدة للمبالغة في التقليل، أي فإيماناً قليلاً يؤمنون، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، وقيل: أراد بالقلة العدم قاله الزمخشري.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٥.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٩ في البرّ، ولفظه: «قيل يا رسول الله: ادع على المشركين، قال: إني لم أُبعث لعَّاناً، وإنما بعثتُ رحمة».

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي القرآن الكريم، وتنكيره للتفخيم ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الكائن من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة، أي مصدق فيما يختص بالنبوة وصفاته عليه السلام المذكورة في التوراة وصارت تلك الأوصاف كالمؤكدة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي مِن قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون ويسألون اللهَ الفتح والنصرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، المنعوت في التوراة، وقيل: يستفتحون بمعنى يستخبرون عنه ﷺ هل ولد مولود صفته كذا وكذا!؟ نقله الراغب وغيره[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ تكرير للأول ﴿مَّا عَرَفُوا۟﴾ من الحق ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حسداً وخوفاً على زوال الرياسة، لأنهم يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل، فلما بعثه الله تعالى من العرب، عظم ذلك عليهم، وحسدوه وكفروا به ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللام للعهد، أي عليهم، ووضعُ المظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد، وكتمان أمر الرسول ﷺ صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذكرهم.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) عن ابن عباس قال: كان اليهود يستفتحون ـ أي يطلبون النصر ـ على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، قبل مبعثه، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا في التوراة، حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من العرب، وليس منهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ انظر تفسير ابن كثير ١/١٢٩.

﴿بِئْسَمَا﴾ ما نكرة بمعنى شيء أي بئس شيئاً ﴿اشْتَرَوْا بِهِ﴾ باعوا به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بمنزلة المثمن ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بمنزلة الثمن، وهو المخصوص بالذم، لأن أنفسهم الخبيثة لا تشترى أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه ﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وهو علة لأن يكفروا والمعنى: بئس شيئاً باعوا به أنفسهم كفرهم بسبب البغي الكائن ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة، والبغيُ في الأصل: الظلمُ والفساد، وقد يراد به الخروج على السلطان، بغى أي سعى بالفساد والمراد هنا: الحسدُ، يدلُّ عليه أنّ كفرهم كان لمجرد العناد، وهو نتيجة الحسد لا للجهل ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ مترادف ومتكاثر، للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق ﷺ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العصاة فإنه طُهرةٌ لذنوبهم، وسبب إذلالهم لما أن كفرهم كان مبنياً على الحسد والاستهانة بمن أنزل عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ من جانب المؤمنين لليهود ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني الكتب المنزلة بأسرها ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة يعنون بها ما نزل على بني إسرائيل، ويدسُّون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وفيه إيماء أن عدم إيمانهم بالقرآن، لبغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، استغراباً للكفر بالشيء بعد العلم بحقيته، وقوله تعالى ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ المراد به بما سواه من الكتب الإلهية، والمقصود به هنا القرآن الكريم خاتمة

الكتب السماوية ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي مع أن القرآن هو الحقُّ، الموافق لما معهم في التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدِّقاً لما معهم من كلام الله، لأن كتب الله المنزلة، يُصدِّق بعضها بعضاً في الأصول، كالتوحيد، والإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وتقريعاً: إن كنتم حقاً مؤمنين بما في التوراة، فلم كنتم تقتلون رسل الله، مع أن قتلهم من أعظم الجرائم عند الله؟ وهل يقدم مؤمن على قتل نبيٍّ من أنبياء الله؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءكم نبيكم موسى بالحجج الباهرات، والمعجزات الساطعات، الدالة على صدقه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، والآية إبطال لقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وللتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى عليه السلام، عادتهم في ذلك الكذبُ والعدوان، والظلم والطغيان «ومَنْ يُشابهْ أبَهُ فما ظَلَم»!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم، العهد المؤكَّد الموثَّق بالأيمان، على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقهم جبل الطور قائلين ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي خذوا هذه الأحكام بعزمٍ وحزم، واسمعوا سماع قبولٍ وطاعة، وإلاّ طرحنا عليكم الجبل فسحقناكم به ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك، فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب

المؤكَّد، مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزات، بمثل هذه العظيمة، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان بما فيها؟ ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي خالط حب العجل قلوبهم، وامتزج بدمائهم، لفرط شغفهم به ومحبتهم له كما يدخل الصِّبْغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وتعلق قلوبهم بالوثنية ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل!! والأسلوب ورد بصيغة التهكم، فالإيمان يدعو إلى التقوى، لا إلى الكفر وعبادة البقر، والغرض من الآية القدح في صحة دعواهم الإيمان، ولهذا قال بعده ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان، فبئس هذا العمل والصنيع، فمن ادَّعى أنه مؤمن، ينبغي أن يكون فعلُه مصدِّقاً لقوله، وإلاَّ لم يكن مؤمناً!!.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الآية توبيخ لليهود، على دعواهم الكاذبة، أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لهم دون سائر الخلق، فأمر الله رسوله أن يدعوهم إلى تمني الموت، إن كانوا صادقين في تلك الدعوى، فأحجموا وظهر كذبُ دعواهم، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كانت لكم الجنة خاصة، لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي خاصة بكم دون سائر الخلق، كما قلتم ﴿لن يَدْخُلَ الجنة إلاَّ من كان هوداً﴾[1]

(١) سورة البقرة، آية: ١١١.

﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فاطلبوا من الله أن يميتكم، واشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، فإن من أيقن بدخول الجنة، اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار.

قال تعالى ردّاً على كذبهم وافترائهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا، ولن يطلبوا ذلك بحالٍ من الأحوال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي والله عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك. وهذه الآية الكريمة من المعجزات، لأنها إخبار بالغيب، وكان الأمر كما أخبر، فلم يقع من أحد من اليهود، الذين كانوا في عصره عليه السلام، أنه تمنى الموت، ولو تمناه لمات، كما جاء في الحديث الصحيح «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار»[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ أي ولتجدنَّ يا محمد اليهود، أشدّ الناس حرصاً على الحياة، لمعرفتهم بذنوبهم وإجرامهم، فلا تكاد تجد يهودياً يحبُّ الموت ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي ولتجدنهم أحرص من المشركين على الحياة، لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار، والمراد بالمشركين هنا مشركو العرب كفار مكة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، والمراد بالألف هنا الكثرة أي يتمنى أن لا يموت، وأن يعيش في الدنيا خالداً مخلَّداً ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي ومهما عمِّر وطالت حياته، فليس ذلك بمبعده ولا منجيه من عذاب الله ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ البصيرُ: العالمُ بكنه الشيء، أي واللهُ عالم بخفيات أعمالهم، وهو مجازيهم بها لا محالة، وفيه وعيد شديد لليهود، مع القطع بخلودهم في النار.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن النبي ﷺ مرفوعاً، ورواه أحمد في المسند وانظر كمال الحديث في تفسير ابن كثير ١٣١/١ قال ابن كثير: ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاّ مات.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾.

أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، من كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌّ لله، لأن الله أرسله بالوحي على رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، والعدوُّ ضدُّ الصديق، يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، والمثنَّى والجمع، و «جبريل» اسم مَلَك كان ينزل بالوحي على رسل الله المقربين، فهو الأمين على وحي السماء كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1] روي أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتحنونه، فقالوا: يا محمد نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها وأجبتنا عنها اتَّبعناك!! فأخذ عليهم العهد على ذلك، وقال لهم: سَلُوا عمَّا شئتم!! فسألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه، فقال: لحوم الإبل وألبانها، وسألوه كيف يأتي الولد له شَبَهٌ بأبيه أو بأمه؟ فقال: إذا علا - أي سبق - ماء الرجل ماءَ المرأة كان له شَبَهٌ بأبيه وكان ذكراً، وإذا علا ماء المرأة كان له شبه بأمه وجاءت به أنثى، وقالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: بقيت واحدة إن أجبتنا عنها اتبعناك، أخبرنا من يجيئك بالوحي من الملائكة؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل؟ ذاك عدُوُّنا، لأنه ينزل بالحرب، والقتال، والعذاب، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والخصب والمطر لاتبعناك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿قل من كان عدواً لجبريل...﴾[2] الآية. وهناك روايات أخرى، اتفقت كلُّها أن الآية نزلت بسبب قول اليهود:

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٩٣.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي، وقال: الترمذي: حسن غريب، وانظر الروايات في تفسير ابن كثير ١/ ١٣٤.

«جبريل عدونا، وميكائيل صديقنا» فأنزل الله الآيةَ ردّاً عليهم ذلك الضلال والبهتان، ثم قال تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين، نزَّل هذا القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله تعالى وإذنه وتيسيره، وخصَّ القلب بالذكر، لأنه موضع العقل، وموطن العلم، ومحل الفهم والحفظ، كما أنه عليه السلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك قال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنه ﷺ كان يعتمد على حفظ القرآن عن ظهر قلب، والقلب هو محل الثبات والحفظ. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية والإرشاد، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم، والبشرى أكثر ما تستعمل في الخير، ولا تجيء في الشرِّ إلاَّ مقيَّدة، كقوله سبحانه: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾(١) وقوله: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾(٢) ومقصدُ هذه الآية تشريف جبريل عليه السلام، وذمُّ من عاداه.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي من عادى الله عزَّ وجل، وملائكته الأبرار، ورسله الأطهار، فهو كافر عدوٌّ لله ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أي ومن كان عدواً على وجه الخصوص لجبريل وميكائيل، خصَّهما بالذكر مع دخولهما في لفظ ﴿وملائكته﴾ تشريفاً لهما، وتفخيماً لشأنهما(٣)، فإنهما من سادة الملائكة؛ ومن الرؤساء الكبراء كمحمد وإبراهيم في الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ دفعٌ لليهود بالكفر، فإن معاداة أحد الملائكة، أو أحد الأنبياء، كفر بجميع الملائكة والرسل، لأنهم جميعاً مرسلون من عند الله، فمن كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الجميع، وكذلك من عادى بعضهم عادى الجميع.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٨.

(٣) هذا كما يقوله أهل البيان من باب «ذكر الخاص بعد العام» للتعظيم والتشريف.

﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ ﴾ المراد بالبينات: الواضحات الدلالة على معانيها، والمعنى: لقد أنزلنا إليك يا محمد آياتٍ واضحات، دالات على صدق نبوتك، فإنك أميٌّ وهذا الكتاب الذي جئتهم به معجز، فنبوتك واضحة صادقة، لا تحتاج إلى برهان آخر غير القرآن ﴿ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي ما يجحد بها وينكرها إلاّ المتمرّدون من الكفرة، الخارجون عن الطاعة، الممعنون في الضلال.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر محذوف، تقديره: أكذَّبوا بالآيات وهي في غاية الوضوح؟ وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ ﴾ وهم الذين كانوا يقولون قبل مبعثه عليه السلام: لئن خرج النبيٌّ لنؤمننَّ به، ولنخرجنَّ المشركين من ديارهم وأوطانهم، وأصلُ النَّبذِ: الطَّرحُ والإلقاء، ثم استعمل فيما يُنسى ويُهمل، من أمور الدين الهامة. كقول الشاعر:

إنَّ الـذيـنَ أمـرتَهـم أن يَعْـدِلـوا　　　نَبَـذُوا كتـابَـكَ واستَحلُّـوا المَحْـرمـا

والمراد أن اليهود أخلفوا العهود، ولم يلتزموا بها، مع أنها موثَّقةٌ بالأيمان المغلَّظة ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يصدّق بالتوراة التي أنزلت عليهم، فضلاً عن الإيمان بالقرآن العظيم، فلذلك

ينقضون العهود، ولا يفون بالمواثيق، وهذا في غاية الذمِّ لهم، والتشنيع عليهم، لأنهم لا يعدُّون نقض المواثيق ذنباً يؤاخذون عليه!!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ذمَّهم تعالى على نقض العهود، التي أُمروا في التوراة بالوفاء بها، ثم ذكر طرفاً آخر من إجرامهم، وهو تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ، المذكور صفته في كتبهم، وقد أُمروا باتباعه، ومؤازرته، ونصرته، وكانوا ينتظرون بعثته بفارغ الصبر.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولمَّا جاءهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وهو الرسول الأمين المرسل من عند الله عزَّ وجلَّ بالكتاب المعجز ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي مصدِّقاً للتوراة، وموافقاً لها في أصول الدين، ومقرِّراً لنبوة موسى عليه السلام وإنما ذكر في الآية ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ أي مرسل من عند الله، لإفادة مزيد تعظيمه، إذ قدرُ الرسول على قدر المرسِل وهو الله رب العالمين جلَّ جلاله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي طرح علماؤهم وأحبارهم التوراة، والمراد بهم اليهود الذين كانوا في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، طرحوا التوراة لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ، فجحدوا وأصرُّوا على إنكار نبوته ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ هذا مثلٌ يضربُ لمن يستخفُّ بالشيء فلا يعمل به، أي جعلوه نسياً منسياً، والعرب تقول: جعل هذا الأمر وراء ظهره، ودَبْر أذنه، إذا لم يلتفت إليه أصلاً ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من صفات ودلائل نبوته شيئاً، شبَّههم بمن لا يعلم، إذ فعلوا فعل

الجاهل الغبيّ، فهم يتجاهلون عناداً، فقد كفروا على علمٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وهذا أقبح الكفر، وأعظم الضلال.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أخبر تعالى عن اليهود أنهم قوم مجرمون، يهجرون كتاب الله، ويلقونه وراء ظهورهم، ويتَّبعون ما تلقي إليهم الشياطين، من كتب السحر والشعوذة، وهذا حالهم مع رسالات الله وأنبيائه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ معنى «تتلو» أي تحدّث وتروي، من التلاوة بمعنى القراءة، أي سلكوا طرق السحر والشعوذة، التي كانت تحدثهم بها الشياطين، في عهد ولاية سليمان عليه السلام ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي وما كان نبيُّ الله سليمان عليه السلام ساحراً، ولا كفر بتعلمه السحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين علَّموا الناس طرق السحر، حتى فشا أمره بينهم، فنسبه اليهود إلى السحر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تبرئةٌ من الله تعالى لسليمان، والمراد بالكفر هنا: «السحر» فإن اليهود - لعنهم الله - نسبوه إلى السحر، والسحرُ والعمل به كفرٌ، أو مؤدٍّ إلى الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي ما سحر ولا كان

ساحراً، إنما هو رسول، فعبَّر عن السحر بالكفر، لينبه على أنه كفر، وأن من كان نبياً فهو معصوم عنه.

روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان» في الأنبياء، قال بعض اليهود: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يزعم أن «سليمان» كان نبياً!! والله ما كان إلاَّ ساحراً، فأنزل الله ﴿وما كفر سليمان﴾[1] الآية.

فصل في السحر

واعلم أن السحر من قبيل التمويه والخداع، كما قال سبحانه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2] وهو في عُرف الشرع: كلُّ أمرٍ خفي سببه، وجرى على غير حقيقته، كما أخبر سبحانه عن سحرة فرعون أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[3] يعني موَّهوا عليهم، حتى ظنوا أن الحبال والعصيَّ تسعى، والساحر لا تقبل توبتُه ولا يستتاب، بسعيه في الأرض بالفساد، وقد عدَّه رسول الله ﷺ من الكبائر فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي - أي الهرب - يوم الزحف، وقذف المحصنات، المؤمنات الغافلات»[4].

والسحر ليس من الخوارق، لأنه مما يترتب على الأسباب، كالإسهال

---

(١) زاد المسير تفسير ابن الجوزي ١/ ١٢٠.

(٢) سورة طه، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١١٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الوصايا ٥/ ٢٩٤ ومسلم في الإيمان رقم ٨٩.

بعد شرب المسهل، وكالشفاء بعد تناول الدواء، ولم تجر سُنَّةُ الله تعالى بتمكين الساحر من فلْقِ البحر، وإحياء الموتى، وشفاء الأعمى، وغيرها من معجزات الرسل، صوناً لمنصب النبوة الجليل، وإنما السحر له ضرر وتأثير بإرادة الله عزَّ وجلّ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإذْنِ الله﴾ و«حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف»[1] كما ورد في الحديث الشريف.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ «هاروت» و «ماروت» اسم لملكَيْن من ملائكة الله، أنزلهما الله إلى الأرض بصورة البشر، ابتلاءً منه سبحانه للناس، وتمييزاً بين السحر والمعجزة، لئلا يغتر بالسحر الناس، إذ السحرة كثرت في ذلك الزمان، فأرسلهما الله ليعلّما الناس خطر السحر، وطريق التخلص من السحر، ومعنى الآية: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكَيْن بمملكة «بابل» من أرض الكوفة بالعراق ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إنَّ الملكَيْن لا يعلّمان أحداً من الناس السحر، حتى يبذلا له النصيحة ويقولا له: إن هذا الذي نصفه لك، إنما هو امتحانٌ من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار بعباد الله، ولا تكفر بسببه والعمل به، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس نجا، ومن تعلّمه ليؤذي به العباد هلك وضلّ، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي يتعلمون منهما من السحر، ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله بينهما التباغض والنشوز، بعد أن كانت المودة والمحبة بينهما، وهذا على حسب جري العادة الإلهية، من خلق المسببات عقب حصول الأسباب ابتلاء، ولهذا قال بعده ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما يستطيع هؤلاء السحرة، الإضرار بأحد من الخلق، إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وبإرادته وتمكينه، فقد يحدث الضرر وقد لا يحدث، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلمهم السحر، إنما يحصلون على الضرر

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود رقم ١٤٦٠ والحديث روي مرفوعاً وموقوفاً.

لا على النفع، لأن تعلم ما لا ينفع سفهٌ وجهالة، وهو غير نافع في الدارين، لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش أو المعاد ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واستبدلوا به السحر، أن من آثر السحر على كتاب الله، ليس له حظٌ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم عقل وفهم، لما عرّضوا أنفسهم للهلكة، ولما باعوها بما لا يزيدهم إلاَّ تباراً. أما الحكمة من تعليم الملكين للناس السحر، فهو أن السحرة كثروا في ذلك الوقت، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، وربما زعم بعضهم أنهم أنبياء يوحى إليهم، فبعث الله الملكَيْن ليعلّما الناس وجوه السحر، حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن هؤلاء المدعين للنبوة سحرة لا أنبياء، وكل هذا من ابتلاء الله للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(1).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾.

بعد أن ذكر تعالى الوعيد لليهود، أتبعه بالوعد، على عادة القرآن الكريم، في الجمع بين عنصري الترهيب والترغيب.

فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود، الذين تعلموا السحر ليفتنوا به الناس، آمنوا إيماناً صادقاً بالرسول والكتاب، وخافوا عذاب الله فكفُّوا عن الغي والضلال ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، ولأكرمهم الله بأنواع الكرامة، والمثوبة، والمثابةُ، والثواب بمعنى واحد،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

وهو الأجر والجزاء الحسن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان لهم فهم وإدراك، وهذه الجملة جارية على الأسلوب المعروف في فنون البيان، من أن العالم بالشيء إذا لم ينتفع بعلمه، يُنزَّل منزلة الجاهل به، ويُنفى عنه العلم كما يُنفى عن المتعامي البصر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصُّوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر، من ضروب خبثهم وشرهم، وهو ما يضمرونه للنبي والمؤمنين من الحسد والحقد والبغضاء، وتمني زوال النعمة، وما كانوا يقولونه من كلمات السبِّ والشتيمة، يتظاهرون بأنهم يريدون بها الخير والتكريم، كقولهم «راعنا» يقصدون بها الرعونة، التي هي الجهلُ والحمقُ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال هذه الكلمة سداً للذريعة، بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي يا أيها المؤمنون لا تقولوا في خطابكم للرسول: راعنا ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي قولوا عوضاً عنها: انتظرنا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا سماع قبول، فأطيعوا أمر الله وأمر رسوله، ولا تكونوا كاليهود الذين قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولليهود الكفار، الذين توصلوا بقولهم المذكور «راعنا» إلى شتم الرسول ﷺ عذابٌ وجيع، يصلُ وجعُه إلى قلوبهم!.

وكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ في معناها الأساسي أصلها من «الرعاية» وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرَّفها اليهود اللعناء فجعلوها كلمة مسبَّة من

«الرعونة» وهي الجهل والحمق، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون إرادة الرعونة، فلذلك نهي عنها المسلمون. روي أن «سعد بن عبادة» رضي الله عنه سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجلٍ منكم، يقولها لرسول الله عليه الصلاة والسلام، لأضربنَّ عنقه!! قالوا: أولستم تقولونها لنبيكم؟ فنزلت الآية ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ونُهي عنها المؤمنون، قطعاً لتدليس اليهود الخبثاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما يحبُّ الكافرون من اليهود والنصارى، ولا المشركون الوثنيون من العرب «عبدةِ الأوثان» أن يتنزَّل عليكم يا معشر المؤمنين شيء من الخير، لشدة بغضهم وحسدهم لكم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي والله سبحانه يمنح فضله ونعمته ـ ومنها النبوة والرسالة ـ لمن شاء من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان، فلا يظن اليهود والنصارى أنهم أحقُّ بالنبوة من العرب لأنهم أهل كتاب، ولا يظن المشركون أنهم أحقُّ بالوحي من محمد ﷺ لأنهم أغنياء وهو فقير، كما كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] وقولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.
(٢) سورة سبأ، آية: ٣٥.

روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد، يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه؟ ما يقول ذلك إلاّ من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلاّ من كلام محمد!؟ فأنزل الله عزَّ وجل الآية مبيناً الحكمة من النسخ بقوله:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي ما نبدِّل حكمَ آيةٍ فنغيّره بآخر، على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي أو نمحها من قلبك يا محمد ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأت بما هو أصلح وأنفع لكم أيها المؤمنون، في العاجل أو الآجل، إمَّا برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

ونسخُ الآية بيانُ انتهاء التعبد بقراءتها، أو نسخُ الحكم المستفاد منها، وكلُّ ذلك مبنيٌّ على علم وحكمة، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ أي ألم تعلم أيها المؤمن العاقل، أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسانٍ للعباد؟.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في شؤون الخلق، له ملك كل ما في السمٰوات والأرض، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وما لكم أيها المؤمنون وليٌّ يرعى شؤونكم، ولا ناصر ينصركم غير الله تعالى، فهو نعم الناصر والمعين، والمقصود من الآية التسكينُ لقلوب المؤمنين، بأنَّ الله وليُّهم وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلاّ عليه، ولا يصحُّ الالتجاء إلاّ إليه، ولا ينبغي للمؤمن أن يصغي إلى أقاويل أهل الكفر والضلال، في أمر نسخ الآيات والأحكام، فإن مقتضى الإيمان بعلم الله، وقدرة الله، وحكمة الله، الإيقان والجزم بأنه تعالى لا يفعل بهم إلا ما هو خير لهم. ثم حذَّر تعالى المؤمنين، من مجاراة اليهود في تعنتهم واقتراحاتهم على أنبيائهم ورسلهم فقال سبحانه:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي بل أتريدون

يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم، كما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود، الذين قالوا لرسولهم موسى: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» فتضلُّوا كما ضلُّوا؟ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ومن يختر الكفر بدل الإيمان، ويستبدل الضلال بالهدى ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فقد عدل وجار عن الطريق المستقيم، وضلَّ طريق الهدى الموصل إلى جنات النعيم. والغرضُ من الآية توصية المسلمين بالثقة برسول الله ﷺ وترك الاقتراح عليه بشيء من الأمور، فالأصل في المسلم الإذعان والتسليم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أخبر تعالى عمَّا يضمره أهل الكتاب للنبيّ والمؤمنين، من ضروب الكيد، والحسد، والبغضاء، وتمني زوال النعمة عن المسلمين، وذلك ليحذروهم ويجتنبوا طريقهم، فليس عند أعداء الله «اليهود والنصارى» إلاَّ كل خبث وسوء وكيد للمؤمنين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبَّ وتمنى كثير من اليهود والنصارى، أن يصرفوكم عن الإيمان والتوحيد، وأن يجعلوكم من بعد إيمانكم كفاراً، مرتدين عن دينكم، بعد أن هداكم الله للدين الحق ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسداً منهم لكم، منبعثاً من نفوسهم الخبيثة التي تكرهكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أنكم على هدى، وأن دين الإسلام هو الحق، والحسدُ: تمني زوال النعمة عن المحسود، وهو مرض قلبي

خطير، يعصف بدين المرء، كما قال المصطفى ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ، والبَغضاءُ، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعَر، ولكنْ تحلق الدِّينَ»[1] ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ العفوُ: تركُ عقوبة المذنب، والصفحُ: تركُ تأنيبه، والمراد ترك المقابلة، والإعراض عنهم، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت، لا العفو على وجه الرضا، ولذلك لم يأمر سبحانه بذلك على الدوام، بل علّقه بغاية، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم، وفيه إشعارٌ بالانتقام من الكفار، ووعدٌ للمؤمنين بالنصرة، وتهديد لمن يخالف أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم، إذا حان حينه، فهو تعليلٌ لما قبله.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطف على ﴿فاعفوا﴾ كأنه أمرهم بالصبر، والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة، لأنها تدفع عنهم ما يكرهون ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة، وصدقة، وغيرهما. أيْ أيَّ شيءٍ من الخيراتِ تقدمون لأنفسكم ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ثوابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عملٌ، وهو وعد للمؤمنين، وعبّر عن «علمه» تعالى بالبصر، لأن أعمال البشر كلها كالمبصرات، بالنسبة إلى علمه سبحانه وتعالى، حيث يعلم الصغير والكبير، والفتيل والقطمير.

ثم أخبر تعالى عن عقائد اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود، وكلٌّ منهم يلعن الآخر، وفي ذلك يقول سبحانه:

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٥١٢.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، جمع الله بين قولَيْ الفريقين ثقةً بفهم السامع، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارىٰ عَلَى شَيْءٍ﴾ فكلٌّ منهما يكفِّر الآخر، ولمّا كانت أقوالهم كلها كاذبة باطلة، في ادعائهم أن الجنة خاصة بهم، جمع الله أقوالهم، وردَّ عليهم جميعاً، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي تلك مزاعمهم، ورغباتهم الفاسدة، وشهواتهم التي يتمنونها، وليس لها في الواقع ظلٌّ من الحقيقة ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أي قل لهم تسفيهاً وتكذيباً لما زعموه: أحضِرُوا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة لليهود، أو للنصارى؟! وفي هذا تسفيهٌ للفريقين في مزاعمهم الباطلة.

ثم قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي بلى يدخل الجنة، من استسلم وخضع لله، وأخلص نفسه لرب العالمين، لا يشرك به شيئاً، وليس الأمر كما تزعمون، أن الجنة لا يدخلها إلا اليهودي أو النصراني!! والوجه يُطلق ويراد به ذات الإنسان، كقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإنما عبَّر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر والحواس، وموضع السجود، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء،

والمراد بإسلام الوجه: الإقبال على عبادة الله، وجعل توجهه إليه سبحانه بجملته وبالكلية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مع تسليم نفسه، وإخلاصه لربه، مؤمنٌ مصدِّقٌ متَّبعٌ لرسول الله ﷺ، فلا بدَّ في كل عبادةٍ صادقة من أمرين هامين: الإخلاص لله، وأن يكون عمله موافقاً لطريقة رسول الله ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي فله ثواب عمله عند ربه، لا يضيع منه شيء، والعندية للتشريف، وإظهار مزيد اللطف بالعبد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا خوف عليهم في الآخرة، ولا يعتريهم حزن ولا كدر، لأنهم في نعيم مقيم، في دار الخلد والكرامة.

ثم أخبر تعالى عن ضلال اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض في الدنيا، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي قال اليهود عن النصارى: ليسوا على دين صحيح معتدٍّ به، مقبولٍ عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل مقالتهم: ليس اليهود على دين صحيح، مقبول عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي والحال أن كلاً من الفريقين، يقرأ التوراة والإنجيل، ويعلم أن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، من لوازم الإيمان، فقد كفَّر بعضهم بعضاً عن علم، لا عن جهل ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال الوثنيون الجهلة «مشركو العرب» مثل قول أهل الكتاب، قالوا: إن دين الإسلام باطل، ومحمد ليس برسولهم، فقد اجتمعت آراء أهل الضلال على مذهب واحدٍ، يقولون لأهل كل دين: ليسوا على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله يحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويُظهر الحقَّ ويُزهق الباطل. روي في سبب نزول هذه الآية، ما رواه ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: «لمَّا قدم أهلُ نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود - أي أكابر علمائهم - فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم يا معشر النصارى على شيء من الدين، وكفر

بعيسى وبالإنجيل، وقال قسيس من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفر بموسى وبالتوراة، فأنزل الله عزَّ وجلّ ﴿وقالتِ اليهودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلَى شَيْءٍ..﴾ الآية[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ عام لكل من فعل ذلك، في أي مسجد كان، وإن كان سبب النزول في مسجد مخصوص، ومما يدلُّ على أنه عام في سائر المساجد، إطلاقه ذلك، واختلف في سبب النزول، فقال الحسن وقتادة: نزلت في بختنصَّر المجوسي، خرَّب بيت المقدس، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه، وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي العرب، لأنهم منعوا المسلمين، عن ذكر الله في المسجد الحرام، وظاهرُ الآية العمومُ، وخصوصُ السبب لا يمنعه ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ كنَّى بذكر الله تعالى، عما يحصل في المساجد من الصلاة، ومجالس العلم المأذون بفعلها، ومدارسة القرآن، واليهود كانوا سبباً لتخريب بيت المقدس، بعصيانهم، وقتلهم الأنبياء عليهم السلام، ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي، فيؤول إلى الخبر، أي لا أحد أظلم من ذلك، واستشكل بأن هذا اللفظ ﴿ومن أظلم﴾ قد تكرَّر في القرآن والكلام خرج مخرج المبالغة، في التهديد والزجر ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ أي عمل في خرابها بالهدم، أو بتعطيلها من العبادة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ أي ما كان ينبغي

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠.

لهم أن يدخلوها إلاّ بخشيةٍ، وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو إلاّ خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، وفيه وعد للمؤمنين بالنصرة، وتخليص المساجد من الكفار، وقد أنجز الله وعده، ونصر عبده ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم، أشد ممّا لهم في الدنيا.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له سبحانه الأرض كلُّها، لا يختص به مكان دون مكان، فإنْ مُنِعْتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ ففي أيِّ مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي هناك جهته التي أمركم بها، ورضيها لعباده، وفي هذا تسلية للمؤمنين بجعل الذكر، والصلاة في جميع الأرض، وفي الحديث الصحيح «وجعلت لـيّ الأرضُ مسجداً وطهورا»[1]. و﴿ثَمَّ﴾ بالفتح اسم إشارة إلى مكان مبني على الفتح، ولا يتصرف سوى الجر بمن فيقال: مِنْ ثَمَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته، يريد التوسعة على عباده، فلذا وسَّع عليكم القبلة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. عن ابن عمر قال كان ﷺ يصلي وهو مقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[2].

---

(١) هذا طرفٌ من حديث أخرجه البخاري ١/ ٣٧٠ في التيمم، ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ ولفظه: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً. .» إلى آخر الحديث.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٧٠٠ ورواه البخاري رقم ١١٠٥ وليس فيه جملة «وفيه نزلت ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله﴾ وروى الترمذي روايةً أخرى في سبب نزول هذه الآية، فأخرج عن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، في ليلةٍ مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلَّى كلُّ رجل منا على حِياله ـ أي تلقاء وجهه ـ فلمَّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجهُ الله﴾» سنن الترمذي ٥/ ١٨٨.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لمّا قالت اليهود: «عزير ابنُ الله» والنصارى «المسيحُ ابنُ الله» ومشركو العرب «الملائكة بناتُ الله» ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه، والحاجة، وسرعة الفناء، والسببُ في ضلالهم أن أرباب الشرائع المتقدمة، كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه هو السبب الأول، ثم ظنّتِ الجهلةُ منهم أن المراد منه معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كُفِر قائله، ومُنع منه مطلقاً، حسماً لمادة الفساد.

والنصارى في التسمية فريقان ١ ـ منهم من قال: عيسى حقيقةً ولدُ الله ٢ ـ ومنهم من قال: اتخذه ولداً، كإبراهيم خليل الله، فنفى الله تعالى الأول بقوله ﴿لم يلد﴾ والثاني بقوله ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ ولهذا قال بعد ذلك ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ردٌّ لما قالوه، واستدلال على فساده والمعنى: تقدَّس اللهُ وتنزَّه عمّا قاله أولئك السفهاء تنزهاً بليغاً، فإنه تعالى خالق جميع ما في السموات والأرض، التي من جملتها: الملائكةُ، وعزيرٌ، والمسيح ابن مريم، فكيف يكون له ولد، وكلٌّ ما في الكون خلقه وعبيده؟ ثم إن الولد يكون عن حاجة، ولا بدَّ أن يشبه أباه، وكل ذلك ممتنع على الله عزَّ وجلّ، فإنه الغنيُّ المطلق، المنزَّه عن مماثلة المخلوقات، ولمّا كانت الدعوى خطيرة، بدأ الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزَّه الله كلَّ التنزه، عن مثل تلك المزاعم الباطلة الكاذبة، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي كلٌّ ما في السموات والأرض، منقادٌ لأمر الله، لا يستعصي شيء منهم، على مشيئته وتكوينه.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقها ومبدعها على غير مثالٍ سابق، وهذه حجةٌ ثانية لإبطال مقالتهم الشنيعة، فإذا كان الله مبدع الأشياء كلها،

وليس له مثيل ولا شبيه من مخلوقاته، وقد خلق السمٰوات والأرض ـ وهي أعظم من خلق الإنسان ـ فكيف لا يقدر على خلق عيسى، من أم بدون أب؟ ولهذا قال بعده ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي وإذا أراد إيجاد شيء من الأشياء، حصل من غير امتناع ولا مهلة، لأنه سبحانه يقول له كن فيكون، أي أُحدثْ فيحدثُ، من غير تأخر ولا تباطؤ، وفي الآية تقرير لمعنى الإبداع، وتلويح لحجةٍ أخرى، وهي أنه تعالى لو أراد الولد ـ وتنزَّه الباري عن ذلك ـ لما احتاج إلى ما زعموه من اتخاذ زوجة!!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال جهلة المشركين وهم كفار مكة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ لولا بمعنى هلاَّ، أي هلاَّ يكلمنا الله مشافهة، أو تأتينا بحجة ساطعة على صدق نبوتك؟! والأول منهم استكبار، والثاني جحود وعناد، فقد بلغوا من العتوّ، أن يطلبوا مرتبة المفاوضة الإلهية، دون وساطة مَلَك أو رسول، ومن الجحود والعناد أن يعتبروا جميع ما جاءهم به الرسول ﷺ من المعجزات الساطعات، والآيات البينات، من قبيل الأساطير، ولهذا يطلبون معجزات أخرى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الباطل الشنيع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الماضية، كقولهم ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لهمْ آلِهَةٌ﴾(١) و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ ينزِّلَ عَلَيْنَا مائِدَةً﴾(٢)؟ ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا البهتان ﴿تَشَٰبَهَتْ

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١٢.

﴿قُلُوبُهُمۡۘ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم، في العَمَىَ والعناد، والتشابُه: أن يُشبَّه كل واحد من الشيئين بالآخر، كقول الشاعر:

رقَّ الـزُّجـاجُ وَرَقَّـتِ الخَمْـرُ   فَتَشَـابهـا فَتَشَـاكَـلَ الأمـرُ
فكـأنـه خمـرٌ ولا قَـدَحٌ   وَكـأنَّـه قَـدَحٌ ولا خَمْـرُ

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي وضَّحناها لقومٍ يطلبون اليقين الصادق، لا يعتريهم شبهة ولا عناد، وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك، الخفاء في الآيات، وإنما قالوه عُتُوّاً أو عناداً، والمراد من الآيات، الآيات القرآنية، الدالة على نبوته ﷺ، وما جاءهم به من المعجزات الباهرات، وفي تعريف الآيات وجمعها، وإيراد التبيين مكان الإتيان، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى: إنهم اقترحوا آيةً فذَّة، ونحن قد بيَّنَّا الآيات العظام، لقوم يطلبون الحقَّ واليقين، وإنما لم يتعرض لردِّ قولهم ﴿لَولاَ يُكَلمُنَا الله﴾ إيذاناً بأنه منهم أشبهُ بكلام الأحمق، وجوابُ الأحمق السكوت.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ملتبساً ومؤيداً به، وفُسِّر الحقُّ بالقرآن، وبالإسلام، وبقاؤه على عمومه أولى، والمعنى: نحن يا محمد أرسلناك بالشريعة النيِّرة، والدين القويم، وبالهدى الساطع، والحق المبين ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ أي تبشر المؤمنين بجنات النعيم، وتنذر الكافرين بعذاب الجحيم، وأكثر ما يستعمل الإنذار في التخويف، والبشارة بالخبر السارّ ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي ولست يا محمد مسؤولاً عن أصحاب النار إن لم يؤمنوا، بعد أن أدَّيت الأمانة، وبلغت الرسالة!! والجحيمُ: المتأجّجُ من النار، وفي التعبير عنهم «بأصحاب الجحيم» دون قوله عن الكفار والمشركين، للإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم، لا يُرجى منهم خير ولا إيمان، وفي الآية وعيد شديد لأولئك المجرمين.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

بعد أن بيَّن تعالى ضلالات أهل الكتاب والمشركين، نبّه رسوله ﷺ إلى أن اليهود والنصارى أعداء ألداء لدين الإسلام، لن يرضوا عن أحدٍ من المسلمين، حتى ينسلخ عن دينه، ويتبع دينهم الأعوج.

فقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ أي ولن يرضى عنك اليهود والنصارى، مهما تودَّدت لهم، حتى تترك الإسلام الواضح النيِّر، وتتبع دينهم الباطل المحرَّف، وفي الآية مبالغةٌ في إقناط الرسول عليه الصلاة والسلام من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتَّبع ملَّتهم وهذا أمر مستحيل، فكيف يتَّبعون هم ملَّته؟ قال الله عزَّ شأنه ذلك له، لأنه عليه السلام كان شديد الحرص على إيمانهم، حيث كان يتلطف معهم ليسلموا، فأخبره تعالى أنهم لن يرضوا عنه، ما دام مستمسكاً بالإسلام، حتى يدخل في دينهم، ويترك دينه الحنيف، وإنما وحَّد الملَّة، مع أن ملَّة اليهود، غير ملَّة النصارى، فكان السياق يقتضي أن يقال: حتى تتَّبع ملَّتهما، للتنبيه على أن الكفر ملَّةٌ واحدة، ومعنى الملَّةِ: الدينُ، وهي خاص لا تُستعمل إلا في الشرائع، فلا يقال: ملة العصر، ولا ملَّة الدهر ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وهذا صريح في أن ما وقع كان جواباً لما قالوه: ﴿كُونُوا هُودَاً أو نَصَارىَ تَهْتَدُوا﴾ أي قل رداً عليهم: إنَّ هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى الحقُّ، ليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوىً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي آراءهم الزائفة، الصادرة عنهم بشهوات أنفسهم، وأمَّا ما شرع الله لهم، على لسان الأنبياء، فقد غيَّروه وبدَّلوه، وفي صيغة الجمع ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾

إشارة إلى كثرة الاختلاف بينهم ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحتُه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جواب القسم، أي من جهته العزيزة ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أمرك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عِقابه، وهذا من باب التَّهييج والإلهاب، وإلاَّ فأنى يتوهم إمكان اتباعه ﷺ لملَّتهم؟ وقيل: الخطابُ للرسول والمراد به أمته[1]، لأن من عادات الناس أن يوجّهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجةً بينهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام، وقيل هم أصحاب النبي ﷺ والكتابُ: القرآنُ، وقيل المؤمنون عامة ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاةِ اللفظ، عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب، وتلاوته ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بكتَابهم، دون الأشرار المحرفين لكتاب الله، فإنهم بمعزلٍ عن الإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي ومن يكفر بالكتاب المنزَّل، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فخسروا سعادة الدارين.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

تقدَّم تفسير هذه الآيات، ومعنى تفضيلهم على العالمين، أن بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وتمسكوا بالتوراة، هم أفضل عالمي زمانهم،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ١/١٦٨: وفي الآية تهديدٌ ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة ـ عياذاً بالله من ذلك ـ فإن الخطاب مع الرسول، والأمرُ لأمته، وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله تعالى ﴿حتى تتَّبع ملَّتهم﴾ حيث أفرد الملة، على أن الكفر كلّه ملّةٌ واحدة.

لا أنّهم أفضل العالمين على الإطلاق، لقوله تعالى في أمة محمد ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ﴾ وإنما كرّر النداء لبني إسرائيل، وأمرهم بذكر النعم، مبالغة في النصح والتذكير، وإيذاناً بأنه مضمون القضية، والمقصود من القصة، حتى لا يغفلوا عن طاعة الله.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

الابتلاء في الأصل: التكليفُ بالأمر الشاق، ومعناه: الامتحان والاختبار، مشتق من البلاء كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ فيه تقديم المفعول على الفاعل، للاهتمام بشأن المبتلَىٰ أي المختبر، وهو إبراهيم أبو الأنبياء، الذي يقرُّ جميع أهل الأديان بفضله، والمعنى: اذكر يا محمد حين اختبر اللهُ عبده ورسوله إبراهيم الخليل، وامتحنه بأنواع من الامتحان الشاق، والمراد بالكلمات هنا ما ابتلاه به من وجوه المحن، وكلّفه من أنواع التكاليف الشرعية، منها: فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، وصبره على قذفهم له بالنار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أُمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه، ومحاجة نمرود في الله، فهذا أصحُّ ما نُقل عن ابن عباس، في الكلمات التي امتحنه الله بها، كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور[1] ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتى بهن على وجه الكمال والتمام، وقام بهنّ حقّ القيام. قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ والابتلاء إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور، وأمّا من العليم الخبير، فإنه لإظهار الطائع من العاصي. حكى الله سبحانه عن

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٢٥.

إبراهيم أموراً، فإنَّ إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضله جميع أهل الملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله، ومتشرفين بأنهم من أولاده، وأهل الكتاب أيضاً مقرون بفضله ومتشرفون بأنهم من أولاده، ويدَّعون أنهم على دينه وملته، فبيَّن اللهُ عزَّ وجلّ أن هدى الله هو ما عليه الرسول ﷺ من التوحيد، والإسلام، الذي هو مِلة إبراهيم، وأن ما يدَّعيه أهل الكتابين أهواءٌ زائفة، ودعاوى كاذبة، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والجعل بمعنى التصيير، أي إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدي بك البشر، والإمام اسم لمن يؤتم به، وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يُبعث بعده نبيٌّ، إلا كان من ذريته، مأموراً باتّباعه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ خبرٌ في معنى الطلب، وكان أصله: واجعل يا رب بعض ذريتي أئمة، عدل عن صيغة الأمر مراعاةً للأدب، والذرية نسلِ الرجل، من الذر بمعنى التفريق، والمرادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الآباءُ والأولاد، أصلها الأولاد الصغار، ثم عمت الكبار. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة، لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه دليل على عصمة الأنبياء، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة، والمتبادر من العهد الإمامة، وليست هي هنا إلاَّ النبوة، وعبَّر عنها به، للإشارة إلى أنها أمانة الله تعالى، لا يقوم بها إلا من شاء الله من عباده، والمتبادر من «الظالم» الكفر، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَالكَافِرونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الثريا وليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه بكونه أمناً، وهذا صفة جميع الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿هَدْيَاً بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ والمراد الحرم، لأنه لا يُذبح في الكعبة ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي مرجعاً يثوب إليه الزوّار ويرجعون، من ثاب يثوب إذا رجع، وقال ابن عباس: ﴿مَثابَةً﴾ ملجأ، والتاء فيه للمبالغة كالعلاَّمة ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمَاً آَمِناً﴾ أو يأمن حاجُّه من عذاب الآخرة من حيث إن الحجَّ يهدم ما قبله، ولا يؤخذ الجاني، الملتجىء إليه، حتى يخرج وهذا مذهب أبي حنيفة، كمن قتل أو سرق في الحل، ثم دخل الحرم فإنه لا يؤذى حتى يخرج، فيؤخذ، ويجوز إرادة العموم بالأمن في الدنيا والآخرة ولم يذكر للناس هنا إشارة إلى العموم، حتىٰ الحيوانات والنباتات، ولا يمكن أن يكون المراد، الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم، لأنا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً قد يوجد القتل المباح، قال الله تعالى ﴿وَلاَ تُقَاتِلوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتّى يُقاتِلُوكُم فيه فَإنْ قَاتَلوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ عن ابن عباس قال: قال ﷺ يوم فتح مكة «إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى، إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلاَّ ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا تُلتقط لقطته إلاَّ لمَنْ عرَّفها، ولا يُختلى خلاه[1]، فقال العباس يا رسول الله إلاَّ الإذخر، فإنه لِقَيْنِهمْ ولبيوتهم، فقال: «إلاَّ الإذخِر»[2] ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ

---

(١) لا يُختلى خلاه: الخَلَىٰ: الرطب من المرعىٰ، أي لا يُقطع نباته الرطب.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ٤/ ٤٠ ومسلم برقم ١٣٥٣ في الحج أيضاً باب تحريم مكة وصيدها، والقيْنُ: الحدَّادُ والصائغ، أي يحتاج إليه الحداد، ويحتاج إليه الناس لسقوف البيوت.

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ على إرادة القول، أي وقلنا اتخذوا مصلّى عند مقام إبراهيم أي صلُّوا فيه، والخطابُ لأمة محمد ﷺ و«من» للتبعيض، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدميه، الذي وقف عليه حين رفع قواعد البيت، وفي فتح الباري: المقامُ من عهد إبراهيم لزيق البيت إلى أن أخَّره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه[1] وقيل: «مقام إبراهيم الحرم كلُّه»، والقول الأول أولى، لحديث جابر رضي الله عنه، فقد روى جابر أنه ﷺ لمّا فرغ من طوافه، عمد إلى مقام إبراهيم، فصّلى خلفه ركعتين، وقرأ ﴿وَاتَّخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ أي أمرناهما ووصيناهما وقلنا لهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ بأن طهِّرا، يريد طهِّراه من الأوثان، والأنجاس، وما لا يليق به، وإضافةُ البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف، كناقة الله، وتوجيه الأمر ههنا إليهما لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام، فإن ذلك قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيتِ﴾[3] وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً، بمعزل من مقام الخطاب، والظاهر أن هذا بعد بلوغه وتمام البناء ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله، والمراد كل من يطوف من حاضر وباد، وقال ابن جبير: المراد الغرباء ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، والمعتكفين فيه، وفي سورة الحج ﴿والقَائِمِينَ﴾ والمراد المقيمون، وغاير بينهما جرياً على عادة العرب، من تفننهم في الكلام ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي المصلين جمع راكع، وساجد أي أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند قوي.

(٢) هذا طرف من حديث جابر بن عبد الله في بيان حجة النبي ﷺ رواه مسلم في كتاب الحج رقم ١٢١٨ وفيه: فجعل المقام بينه وبين البيت، أي صلى خلف مقام إبراهيم، وكان يقرأ في الركعتين ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه.. » الحديث.

(٣) سورة الحج، آية: ٢٦.

فإنَّ عبادة غير المؤمنين، من قبيل تلويثه وتدنيسه، كما قال سبحانه: ﴿وما كانَ صلاتهم عند البيتِ إلاّ مُكاءً وتصْدِيَةً﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا﴾ يريد البلد أو المكان، وهو إشارة إلى الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بَوادٍ﴾[2] أي اجعل هذا المكان القفر ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي أهله، أي اجعل أهله آمنين، طلب من الله نعمة الأمان، لأنها أعظم أنواع النعم، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلاّ بها، وهل الأمن من الجبابرة، أو من الخسف، أو من القحط، فيه أقوال للعلماء، واختلف في أن مكة هل كانت آمنة قبل دعوة إبراهيم، أو صارت بدعوته آمنة؟ فقيل إنها كذلك أبداً لقوله ﷺ: «إن الله حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض»[3] الحديث، وقال آخرون: إنها صارت أمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام بدليل قوله ﷺ: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمتُ المدينة»[4]. ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ خصهم بالدعاء إظهاراً لشرف الإيمان، ومراعاةً لحسن الأدب، وفيه ترغيب لقومه بالإيمان، كما أن حكايته ترغيبٌ وترهيبٌ لقريش وغيرهم وقولُه ﴿من الثمرات﴾ أي من أنواعها، بأن تجعل بقربٍ منه قُرىً، يحصل فيها ذلك كالطائف، أو يجيء من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية،

---

(١) سورة الأنفال آية: ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

(٣) الحديث تقدَّم بكماله وهو في الصحيحين، وانظر صفحة ١٥٢ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٣٦٢ في كتاب الحج باب فضل المدينة.

في يوم واحد. قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أيضاً ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾أي متاعاً قليلاً، وزماناً قليلاً، فأرزقه في الدنيا، إلى منتهى أجله، وذلك قليل بالنسبة للآخرة، لأنه ينقطع، ونعمةُ المؤمن في الدنيا، موصولةٌ بالنعمة في الآخرة ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي أُلْجِئُهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ لكفره، وتضييعه ما متعه به من النعم، والاضطرار: ضدُّ الاختيار، وهو أن يُكْره على الشيء من غير اختياره، كمن اضطر لأكل الميتة أو لحم الخنزير، والمضطر هو الذي لا يملك الامتناع عمَّا اضطُر إليه، والمراد به هنا الإلجاء إلى دخول النار الموقدة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر نارُ الجحيم. قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فنبَّهه تعالى على أن الرزق رحمةٌ دنيوية، شاملة للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، بخلاف النبوة والإمامة فإنها نعمة خاصة لا تكون إلاَّ لمن آمن بالله، واستقام على شرعه المبين.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي اذكر يا محمد ذلك الحدث العجيب، وقت رفع إبراهيم، وولده إسماعيل، قواعد البيت العتيق، ورفعُ القواعد كنايةٌ عن البناء، وأتى بصيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حكايةً عن الماضي، وهو وجه معروف في أساليب البيان، لاستحضار الصورة الماضية، وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان الآن بالبناء، وهما يدعوان الله عزَّ وجلّ بهذه الدعوات المباركات ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي تقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت يا رب السميع لدعاء من

دعاك، العليم بأحوالنا ونيَّاتنا. وشرفُ البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إيَّاه بيته، لا لفضل أحجاره عن سائر الأحجار، وقد أفصح عن هذا المعنى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه حين قال عند استلامه للحجر الأسود، وتقبيله له: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبِّلكَ ما قبَّلتُك»[1]!! وهذا غاية ما يقصده المخلصون.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصَيْنِ لك، من أسلم وجهه أي أخلص القصد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص، والثبات عليه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصا الذرية بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي عرِّفنا وعلِّمنا مواضع نسكنا، وشرائع متعبداتنا في الحج، والنسك في الأصل: غايةُ العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة، والبعد عن العادة، ومناسكُ الحج عباداته، وقيل: مواضعُ العبادات، كمنى، وعرفات، ومزدلفة، والمعنى: علّمنا كيف نعبدك؟ وأين نعبدك؟ وبماذا نتقرب إليك؟ أجاب الله دعاءهما، وبعث جبريل عليه السلام، فأراهما المناسك، فقال أعرفت يا إبراهيم؟ فقال نعم، فسمي ذلك عرفة، والموضع عرفات ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وتب علينا يا رب، واعف عمَّا فرط منا، فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لا يخيب من دعاك، و «تَوَّابٌ» من صيغ المبالغة، أُطلق عليه تعالى لكثرة توبته على عباده، وكثرة قبوله توبة المذنبين، وهو تعليلٌ للتوبة، ومزيد استدعاء للإجابة، وإذا أراد العبد أن يُستجاب له، فلْيدعُ اللهَ عزَّ وجلّ بما يناسبه من أسمائه وصفاته، كما جاء في دعاء إبراهيم الخليل.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي ربنا وابعث في هذه الأمة المسلمة،

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح مسلم في كتاب الحج رقم ١٢٧٠.

رسولاً من أنفسهم من العرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المجيد ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلم الأمة الإسلامية - وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة - القرآن العظيم، والسُنّة النبوية المطهرة، فالمراد بالحكمة السنة المطهَّرة، لأن بها تكميل نفوس المؤمنين، وإذا قرنت الحكمة بالقرآن، أريد بها سنته ﷺ المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك وعبادة الأوثان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيزُ» أي الغالبُ الذي لا يُقهر ولا يُغلب «الحكيمُ» أي الذي لا يفعل إلاَّ ما تقتضيه المصلحة والحكمة. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فبعث محمداً ﷺ من ذريتهما، وختم به الرسالات السماوية، فلم يبعث من ذريتهما غير النبي عليه السلام، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمّي التي رأت حين وضعت بي، أنه قد خرج منها نور ساطع، أضاءت له قصور الشام»[(١)].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم ، وقصة بنائه للبيت العتيق، منار الإيمان والتوحيد، ذكر بعده سفه من خالف دينه وشرعه، وهو أبو الأنبياء وإمام الموحدين.

فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم، وملته الحنيفية السمحة، إلاَّ من استخفَّ نفسه،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة مرفوعاً، ١٢٨/٤.

فأهانها وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة والإمامة في الدنيا ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية. والآية بيانٌ لخطأ رأي من يرغب عن ملَّته، فإنَّ من كان خليلَ الرحمٰن، ومشهوداً له بالتقى والصلاح في الدارين، كان حقيقاً بالاتّباع، لا يرغب عنه إلاَّ سفيهٌ ومتسفهٌ، والتأكيد باللاَّم في قوله «لَمِنَ» لأن أمور الآخرة خفيَّةٌ عند المخاطبين، ولذا أكَّد الجملة بمؤكدين «إنَّ» و «اللام» لينبه تعالى على تحقُّق خلوصه في الصلاح في الآخرة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك، وأخلصْ دينك لله واستقم، ومعنى الإسلام: الانقيادُ والخضوع، ولا يراد به إحداث الإسلام والإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون قبل النبوة وبعدها، فهم مسلمون قبل أن يتنزَّل عليهم الوحي، يدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[1] أي آتيناه هداه وصلاحه من الصغر، وإنما المراد به الخضوع والانقياد ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال: استسلمتُ لأمر الله، وخضعتُ لحكمه، وأيقنتُ وأخلصتُ لوجهه، وإضافةُ الرب للعالمين لا لنفسه، للإيذان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن بشمول ربوبيته تعالى لجميع الخلق، لا لنفسه وحده.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصَّى الخليلُ أبناءه باتباع ملة الإسلام، وكذلك وصَّى يعقوب بنيه بها أيضاً، والتوصيةُ: هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاحٌ وقربة، وتتضمن هنا معنى الأمر، أي أمر إبراهيم بنيه بالاستمساك بالإسلام. فإن قيل: لمَ وصَّىٰ ولم يأمرهم؟ فالجواب أنَّ الوصية أوكد، لأنها أكثر ما يكون عند خوف الموت، وفي ذلك الوقت يكون قبولها أقرب، وإنما خصَّ بنيه لأنهم كانوا أئمة يُقتدى بهم. ثم فصل الوصية التي أوصى بها فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي أعطاكم

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دينُ الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ والمراد من الأمر الثبات على الإسلام[1]، لأن الإسلام كان حاصلاً لهم، وإنما أدخل حرف النفي ﴿فلا تموتُنَّ﴾ للدلالة على أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، يجب أن يحذروه غاية الحذر، وما مزجَ بهذه الوصية وصيةً أخرى، لشدة الاهتمام بها.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

روي أن اليهود قالوا لرسول الله ألستَ تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وهذا انتقالٌ عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية، والمراد بحضور الموت حضور أسبابه[2]، أي ما كنتم حاضرين حين احتضاره عليه السلام، فلم تدَّعون ما تدَّعون؟! ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على

---

(١) هذا النهي ﴿فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ إنما ورد بصيغة الحصر، للمبالغة في التحذير من الموت على غير الإسلام، والمراد به الثبات على الإسلام، أي اثبتوا على الإسلام، ولا تفارقوه أبداً، حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، وقد تكرر هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ﴾ كنايةٌ غريبة لطيفة، فقد شبَّه الموت بمسافر غائب، لا بدَّ أن يرجع إلى أهله، ويقدم على ذويه، فإذا رجع من السفر، حضر عندهم، ولذا يقال في الدعاء: «واجعل الموتَ خير غائبٍ ننتظره».

الثبات عليهما، وكان هذا بعد أن دخل مصر، ورأى فيها من يعبد النار، فخاف على ولده، فحثَّهم على ما حثَّهم عليه، ﴿قَالُوا۟ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أعيد ذكر الإله لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وعد إسماعيل من آبائه لأنه كالأب لقوله ﷺ «عم الرجل صِنوُ أبيه»[1] والمعنى: قالوا نعبد إلَهك، وإله آبائِك المتفقة على وجوده تعالى وألوهيته، ووجوب عبادته ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ بدل من إلَه آبائك، وفائدتُه التصريحُ بالتوحيد ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبودية، ومنقادون لأمره ونهيه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ كلَّ أمةٍ تُجزى بعملها، ولا تحمل وزر غيرها، فقال: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ يعني إبراهيم، ويعقوب، وما بينهما من الأمم الموحّدة، ومعنى ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي مضتْ، وأصله صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ أي لكلٍّ أجرُ عمله، والمعنى: إنَّ انتسابكم إليهم، لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ أي ولا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تُثابون بحسناتهم، فالمراد تخييب المخاطبين، وقطع أطماعهم عن الانتفاع بحسنات الأمة، وما قيل أي «لا تؤاخذون بسيئاتهم» ممَّا لا يليق بشأن الأنبياء. كيف وهم منزهون من كسب السيئات، فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم؟.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٦٢ وهو طرف من حديث طويل وله قصة، فقد روى الترمذي أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضباً، فقال له رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة ـ أي فيها بشاشة ـ وإذا لقونا لقونا بغير ذلك!! فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّ وجهه، وقال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجلٍ إيمانٌ، حتى يحبَّكم للهِ ورسوله، ثم قال: «يا أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، إنما عمُّ الرجل صنوُ أبيه» ومعنى الصنْو المثيلُ والشبيه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ شروعٌ في بيان إضلال أهل الكتاب، إثر بيان ضلالهم في أنفسهم، أي قالوا للمؤمنين ﴿كُونُوا هُودَاً أَوْ نَصارَى﴾ أو للتنويع لا للتخيير، ومعنى الآية قالت اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب للأمر، أي إن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ خطاب للرسول ﷺ أي قل لهم على سبيل الردّ، وبيان ما هو الحق، لا نكون كما تقولون، بل نكون على ملة إبراهيم عليه السلام، أي نحن أهل ملته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الباطل إلى الحق، والحنيفُ: المائل عن كل دين باطل، إلى الدين الحق، مأخوذ من الحنَف وهو الميلُ عن الضلال، وضدُّه الجَنَفُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدَّعون اتباعه وهم مشركون.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين أي قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقاً وإرشاداً لهم. ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن، قدَّم ذكره لأنه الكتاب المحفوظ الذي جاء مصدقاً لغيره ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ من الصحف المنزلة من عند الله كما أنَّ القرآن، منزَّل إلينا، والأسباط جمع سِبْط وهو الحافد، يريد بها حفدة يعقوب، وأبناءه، وذريتهم،

واختلف الناس في أولاد يعقوب أخوة يوسف، هل كانوا أنبياء أم لا؟ والصحيح الثاني، أنهم غير أنبياء، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألّف فيه، لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه السلام، ينافي النبوة قطعاً، وليس في القرآن ما يدلُّ على نبوتهم[1] ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة، والإنجيل، أفردهما بالذكر، لما أن الكلام مع اليهود والنصارى، ولكون أهل الكتاب حرَّفوا، وادَّعوا أنهما نزلا كذلك، ، اهتمَّ بشأنهما فأفردهما، بالذكر ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ من الآيات والمعجزات، وهو تعميم بعد التخصيص ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن ببعض، وتكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ للهِ تعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون، أي إسلامنا لأجل طاعة الله، لا لأجل اليهود والنصارى.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أي فإن آمن اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي آمنوا إيماناً مثل إيمانكم به، من الإذعان، والإخلاص، وعدم التفريق بين الرسل الكرام، بأن يؤمن الإنسان بالبعض ويكفر بالبعض ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ إلى الحق، وإن لمجرد الفرض، والكلام من باب الاستدراج مع الخصم، حيث يراد تبكيته، يعني نحن لا نقول إننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولكن إن حصلتم شيئاً مساوياً لما نحن عليه من الإيمان، فقد اهتديتم، ومقصودنا هدايتكم ليس إلاَّ، والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام، علم أن الحق ما عليه المسلمون لا غير ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الإيمان، أو عمّا تقولون لهم، بأن أخلّوا بشيء من ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي فما هم إلا في خلاف وعداوة، فإن كل واحد من المتخالفين في شَقٍّ غير شقّ

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٤٨٧: ولم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم، لهذه الآية ﴿والأسباط﴾ وهذا لا يدل عليه، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يُقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، فالله عزَّ وجلّ أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، وكل سبطٍ من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان بني إسرائيل، وما فعلوه مع يوسف من الحسد، وإلقائه في الجب، وكذبهم على أبيهم، يدل على أنهم ليسوا أنبياء!!.

الآخر، والتنوين للتفخيم، أي هم مستقرون في خلاف عظيم، والجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم في ذلك، ولما دلَّ الشقاق على العداوة العظيمة، عقَّب ذلك بتسلية النبي ﷺ وتفريح المؤمنين بالنصر، فقال ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعدٌ لهم بالحفظ، والنصر على من ناوأهم، وهو ضمانٌ من الله تعالى، لإظهار دين الإسلام، لأنه تعالى إذا تكفل بشيء أنجز وعده، وهو إخبار بالغيب وقد أنجز وعده، ونصر عبده، والمراد سيكفيك كيدهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان، بل بالأفعال ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي أنه تعالى يسمع ما يبدون، ويعلم ما يخفون، وهو معاقب لهم على ما يضمرونه من الشر.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة من الصبغ وهو ما يلوَّن به الثياب، أي صَبَغنا اللهُ صبغة، وهي «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فإنها حِلْيةُ المؤمن، كما أن الصبغ حلية المصبوغ، وسماه صبغة لأنه تداخل قلوبهم، تداخل الصبغ بالثوب، وإضافته إلى الله تعالى للتشريف، والإيذان بأنها عطية منه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن من الله صبغة وديناً، فهو استفهام بمعنى النفي ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي للهِ الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَٰبِدُونَ﴾ شكراً لها ولسائر نعمه.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

أتجادلوننا في دين الله؟ وتدَّعون أن دينه الحقُّ، هو اليهودية والنصرانية؟ والمحاجة: المجادلةُ والمغالبة في إقامة الحجة، والهمزة للإنكار.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي في شأن الله، وفي أمر دينه، فتزعمون أن دينكم هو الحقُّ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه؟! وهذه الآية ردٌّ على اليهود، حيث قالوا: الأنبياء كلهم من بني إسرائيل، فلو كنت يا محمد نبياً لكنت منَّا، وما هو إلا من باب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحسُدونَ النَّاسَ عَلَى ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له تعالى بقومٍ دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. أي والحالُ أنه لاوجه للمجادلة أصلاً، لأنه تعالى ربُّنا وربكم، نشترك جميعاً في كوننا عباده تعالى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يحتمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي موحّدون، نخلصه بالإيمان والطاعة دونكم، والإخلاص جعلُ الشيء خالصاً لله، والمخلص هو الذي يأتي بالعمل الصالح لا يريد به رياءً ولا سمعة ويقابل الإخلاص الرياءُ، وعلاماته الكسلُ عند العبادة وحب الثناء على العمل.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؟ يعني أتزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم الأعوج ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد نفى الله الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إبراهيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرانِياً﴾ واحتج عليهم بقوله: ﴿مَآ أُنْزِلَتِ التَّورَاةُ والإنجيلُ إلاّ مِنْ بعدِهِ﴾ وهؤلاء الرسل المذكورون أتباعه في الدين، فكيف تدَّعون له ولهم، ما نفى الله تعالى عنهم، فما ذلك إلاّ جهلٍ وضلال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ ثابتة ﴿عِندَهُۥ﴾ كائنة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفيَّةِ، والبراءة من اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لهم أي هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون، فيعاقبكم بذلك.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مرَّ تفسيرهُ، وهو تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع، من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم.

وقيل: الخطابُ فيما سبق لهم، وفي الآية هُنَا لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾.

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين، واليهود، والمشركين، وإنما قال المنافقون لمجرد الطعن في الإسلام والاستهزاء، لا لاعتقادهم حقية القبلة، والمشركون كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، وليرجعنَّ إلى دينهم أيضاً، واليهود كانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقاً لهم بالدِّين، فلما تحوّل يئسوا، وقالوا قد عاد إلى طريقة آبائه وذلك القول المحكي، لم يصدر عن كل فردٍ من تلك الطوائف، بل عن سفهائهم وأشقيائهم، المعتادين للخوض في الفساد، وفائدة الإخبار به توطين النفس، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه، أقطع للخصم، والعلم به قبل الوقوع يكون معجزة، وقال القفَّال: هذه الآية نزلت بعد تحويل القبلة، ويؤيده ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال: «لمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً،

وكان ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل اللهِ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فقال السفهاء وهم اليهود ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ أيْ أيُّ شيء صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾[1] والقبلة من الاستقبال والمراد بها ههنا «بيت المقدس» ووصفها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي مستمرُّون على التوجه إليها، لتأكيد الإنكار، ومدارُ هذا الإنكار بالنسبة إلى اليهود، زعمهم استحالة النسخ، وكراهتهم مخالفته ﷺ لهم ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية، وإنما العبرة بامتثال أمره، لا بخصوص المكان، لأن الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده ولا يمنع اختلاف المصالح، بحسب اختلاف الجهات، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيْهَا، إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يتبع الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين حين كانوا بمكة، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس، ليتميَّزوا من المشركين، فلَّما هاجروا إلى المدينة، أمروا بالتوجه إلى الكعبة، ليتميَّزوا من اليهود ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما توجبه الحكمة، وتقتضيه المصلحة والتوليةُ هدايةٌ يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل القبل، كذلك الجعل البديع ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً وعدولاً، والوسطُ في الأصل اسم المكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة، لوقوعها بين طرفي إفراطٍ وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، ولما كان العباد لا يحيطون إلاَّ بالظاهر، أقام الفقهاء الاجتناب عن الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، مقياس الأفضلية، وسمَّوه عدالةً في إحياء الحقوق أي جعلناكم أمةً وسطاً بين الأمم،

---

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ١/٥٠٢.

لتمسُّككم بالخصال الحميدة ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب الله لكم من الحجج، وما أنزل عليكم من الكتاب، أنه تعالى أوضح السبل، وأرسل الرسل، فبلَّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وتشهدوا بذلك يوم القيامة على الأمم.

طريقة أداء الشهادة

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق، على لسان نبيه الصادق. أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير!! فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾» والوسط: العدل[1]. ثم يُسأل الرسول ﷺ عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ وهذه الشهادةُ وإن كانت لهم، لكنْ لما كان الرسول كالرقيب، المهيمن على أمته، عُدِّي بعلى ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي وما شرعنا ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي الكعبة المشرفة فإنه ﷺ كان يصلي إليها بمكة، ثم لمَّا هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس، وقال ابن عباس: كانت قبلته بمكة «بيت المقدس» إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه، والمعنى: إن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٤٨٧ والترمذي رقم ٢٩٦١ ولفظ البخاري «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبَّيك وسعدَيك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!! فيقول من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ والوسطُ: العدلُ الذي تُقبل شهادتهُ» اهـ.

وما جعلنا قبلتك بيت المقدس، لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي إلاَّ لنمتحنَ النَّاسَ، فنعلم من يتَّبعك في الصلاة إليها، ممن يرتدُّ عن دينك؟ فإن قيل: كيف قال ﴿إلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ وهو لم يزل عالما؟ أجيب عن هذا ونحوه أنه باعتبار التعلق أي ليتعلق علمنا به موجوداً، أو ليعلم رسولنا والمؤمنون، فالتغيير على المعلوم لا على العلم، ونبين هذا بمثال، وهو أن المِرآة الصافية، إذا عُلّقت في موضع، ثم عبر عليها زيد لابساً ثوبه الأبيض، ظهر فيها في ثوبه الأبيض، ثم إذا عبر عليها عمروٌ في ثوب أسود يظهر فيها كذلك، فهل يقع في ذهن أحدٍ أنَّ المرآة تغيَّرت؟ فعلمُ الله تعالى أعلى، لأن المرآة ممكنة التغير، وعلمُ الله لا يتغيّر[1] ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إنْ هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة، أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً فمعنى كبيرة أي شاقة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي هداهم إلى معرفة سر أحكامه الشرعية، المبنية على الحِكم والمصالح، وهم المهديُّون الثابتون على الإيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إليها، لما روي في الصحيح أنه ﷺ لمَّا توجه إلى الكعبة، قالوا: كيف من مات قبل التحويل من إخواننا[2]؟ فنزلت الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم، ولا أعمالهم الصالحة التي فعلوها، وهو تقريرٌ للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عزَّ وجلّ بهما، يقتضي أن لا يضيع عملهم، والرأفةُ: عبارةٌ عن إيصال النعم الصافية من الآلام، والرحمة أعم منه.

---

(١) خلاصة هذا أن علم الله تعالى لا يتبدل ولا يتغير، فهو سبحانه عالم بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، فقوله تعالى: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر علمنا لعبادنا المؤمنين، فيعرفوا الحقيقة وينكشف لهم ما كان خفياً عنهم، وإنما أسنده إليه تعالى تشريفاً لرسوله والمؤمنين، وهذا الأسلوب شائع في لسان العرب يقولون: فتح عمرُ العراقَ، وجبىٰ خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٦٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ أي قد رأينا يا محمد تردُّد وتصرّف نظرك جهة السماء، انتظاراً للوحي، وكان ﷺ يتوقع من ربه أن تُحول القبلة إلى الكعبة، لأنها قبلة آبائه، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل، عن وجهه إلى وجه آخر ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ﴾ فلنمكننَّكَ من استقبالها ولنجعلنك تلي جهتها، وهذا الوعد كان قبل الأمر، لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد، ﴿ تَرۡضَىٰهَاۚ ﴾ أي تحبها وتتشوق إليها، وليس في اللفظ ما يدل على أنه ﷺ كان يطلب قبلةً معيَّنة ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم، وتخصيص التولية بالوجه لأنه أشرف الأعضاء وبه يتميز الإنسان، والتولية إذا كانت متعدية إلى واحد فمعناه الصرف أي اصرفْ وجهك ﴿ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾ نحوه، والشطرُ جزءُ الشيء، وهو في الأصل لما انفصل عن الشيء، ويأتي بمعنى الجهة، والحرامُ أي المحرَّم فيه القتالُ، أو الممنوع عن الظَّلَمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة، لأنه ﷺ كان في المدينة، والبعيدُ يكفيه الجهةُ، بخلاف القريب، عن ابن عمر قال: «بينما الناسُ بقباء في صلاةِ الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه قرآنٌ، وقد أُمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة[1]، وخص الرسول ﷺ بالخطاب، تعظيماً له، وإيجاباً لرغبته، ثم عمَّم الحكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ١/ ٤٢٤ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٦ والترمذي رقم ٣٤١ في باب ما جاء في ابتداء القبلة.

فقال: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ أي من برّ أو بحر، من شرقٍ أو غرب، وأردتم الصلاة ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ أي توجهوا نحو البيت الحرام وفائدة تعميم الأمكنة على ما ذهب إليهِ البعض، دفع توهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أي التحويل ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ لعلمهم بأن الرسول ﷺ لا يأمر بالباطل، إذْ هو المبشر به في كتبهم ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عالم بجميع ما يعمله العباد، وسيجازيهم عليه، وفيه وعدٌ ووعيد للفريقين.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾ أي ولئن جئتهم بكل حجة قاطعة، والآية برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، وأن التوجه إليها هو الحق ﴿ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: إنهم ما تركوا قبلتك، لشبهةٍ تزيلها الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ مسوقة لقطع أطماعهم، أي ولست يا محمد متبعاً قبلتهم أبداً، قيل إن قبلة الطائفتين في الأصل بيت المقدس، وعيسى عليه السلام لم يصلِّ جهة الشرق حتى رفع، وإنما كانت قبلته بيت المقدس، ثم بعد رفعه شرع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشرق، واعتذروا بأن المسيح فوض إليهم تشريع الأحكام، وذكروا أن في الشرق أسراراً ليست في غيره، وأن المسيح حين صُلب استقبل الشرق، وقال ابن القيم: إنَّ قبلة الطائفتين الآن، لم تكن قبلةً بوحيٍ بل بمشورة، وليس في التوراة الأمر بذلك، والسَّامرة منهم يصلُّون إلى طورهم بالشام قرب بلدة نابلس، وهذان القولان ـ إن صحَّا ـ لأشكل القول بأنه تعالى لم يخصص كل شريعة بقبلة ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع

الشمس، ولا يُرجى توافُقهم كما لا يُرجى موافقتهم لك، لتصلبهم في الهوى وعنادهم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ مرَّ تفسيره، أي لئن اتَّبعتَ أهواءهم فَرَضاً ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه تحذير عن متابعة الهوى، ولقد بولغ في التأكيد، أولاً بالقسم، وإنَّ التحقيقية ﴿إِنَّكَ﴾ واللام في خبرها، وتعريف الظالمين، والجملة الاسمية، وفي هذه المبالغة تعظيمُ أمر الحق، والتحريض على اقتفائه، والتحذير عن متابعة الهوى، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء، وقيل: الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ والمراد أمته.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علماءهم، إذ هم العمدة في إيتائه، وقيل: أراد بهم مؤمني أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي الرسول ﷺ وإن لم يسبق ذكره، لدلالة الكلام عليه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم، يروى أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم والله وأكثر، نزل أمينُ السماء جبريل، على أمين الأرض محمد بنعته، فعرفته كما وصفه تعالى بالتوراة، وأمَّا ابني فلا أدري ما كان من أمه، فقد تكون قد خانتني فيه!! فقال له عمر: وفَّقَك الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي وإن جماعة من رؤسائهم وأحبارهم، ليخفون الحقَّ ولا يعلنونه، ويكتمون صفة محمد المذكورة عندهم في التوراة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون حقيقة الأمر، ولكنهم فجرة يكابرون ويعاندون، وفي الآية تنبيه على كمال شناعة من يكتم الحقَّ، وأنه لا يليق بالعلماء الكتمان.

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٠٠ نقلاً عن القرطبي.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد، من أمر القبلة، ومن خبر الأحبار والرهبان، الذين يعرفون محمداً بصفته في التوراة والإنجيل، هو الحقُّ القاطع، واليقين الساطع، فلا تكوننَّ من الشاكِّين فيما أخبرناك عنه. والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أمته، يقال: امترى في الشيء أي شكَّ فيه.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي ولكل أمة من الأمم، قبلةٌ ومنهاج يسير عليها أصحاب الملل، يتوجهون بها إلى الله - على زعمهم - فتوجهوا يا معشر المؤمنين إلى ما أرشدكم إليه ربكم، من أمر القبلة والدين ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي سارعوا إلى فعل الخيرات ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي في أي مكانٍ أو موضع، تكونون فيه بعد موتكم، من أغوار الأرض، أو قُلَل الجبال، أو أعماق البحار، يجمعكم الله للحساب، وإن تفرَّقت أجسادكم وأبدانكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر من الأمور مهما كان، فلا تشكُّوا في قدرة الرحمٰن.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي من أيّ مكانٍ خرجتَ للسفر، تأكيد لحكم التحويل، وتصريح بعدم تفاوت الأمر، في حالتَيْ السفر

والحَضَر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صلّيتَ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ هذا الأمر ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بذلك.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته؛ وجريُ العادة الإلهية على أن يُولّى كلُّ أهل ملة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين، فإن القبلة لها شأن عظيم، والنسخ من مظان الفتنة، فبالحري. أن يؤكد أمرها، ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ متعلق بمحذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك لئلا يبقى لأحد عليكم حجة، كاحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأنه يتبعنا في قبلتنا، والمشركين بأنه يدَّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة، إلا المعاندين منهم، فإنهم يقولون: ما تحوَّل إلى الكعبة إلاَّ ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، والحجةُ: الدليلُ والبرهان، كأن من أقامها يقصد إثبات الحكم بها، فتقسم إلى حجة ناهضة يثبت بها الحق، وحجة داحضة[1]، يُموَّه بها الباطل ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، لأنهم لا يقدرون على نفع ولا ضُرّ ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ أي وخافوني فلا تخالفوا أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتي إياكم إلى الكعبة المشرفة قبلة أبيكم إبراهيم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولإرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم، وعن علي: تمامُ النعمة الموت على الإسلام.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

---

(١) الحجة الداحضة يعني الباطلة كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿وَالَّذينَ يُحَاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجيبَ له، حُجَّتُهمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ متصل بما قبله أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، كما أتممتها بإرسال رسولٍ منكم، فإنَّ إرسال الرسول، نعمة لا تكافئها نعمة، لما فيه من الشرف لهم، فإنَّ البعثة منهم وفيهم، أقرب إلى قبول قوله، والانقياد له فيما كان سبباً لسعادة الدين والدنيا ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ صفة ثانية للرسول، كاشفة لكمال النعمة، يعني القرآن، وذلك من أعظم النعم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوته ﷺ لأن تلاوة الأميّ، الآيات الخارجة عن طوق البشر، واشتمالها على المصالح التي ينتظم بها أمر المعاش والمعاد، أقوى دليل على نبوته ﴿ وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾ يحملكم على ما تصيرون به مطهّرين من دنس الشرك وقبيح الأعمال ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة، وإنما وسَّط بينهما التزكية، للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة بانفرادها مستوجبة للشكر، وهو السر في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات، وأخرى بالكتاب، وثالثاً بالحكمة، رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ أي ما لا سبيل لكم إلى معرفته إلاّ بالوحي، وهو تخصيصٌ بعد التعميم، مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم، لا يدرون ماذا يصنعون.

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة والعبادة ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالمغفرة والثواب، واذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، كمثل الحيِّ والميت»[١] فالمعنى: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ أي أجازيكم بها، وعبَّر بالذكر للمشاكلة، ولأنه نتيجته، والذكرُ يكون باللسان، وهو أن يسبّحه، ويحمده،

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/١٧٥ في الدعوات، ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٧٧٩.

ونحو ذلك، ويكون بالقلب، وهو أن يتفكر في عظمة الله، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح مثل الطاعات والصلاة ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ بجحد النعم، وعصيان الأمر، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه، تنشيطاً لهم، وحثاً على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ عن المعاصي، وحظوظ النفس، وعلى الأمور الشاقة على النفس، التي من جملتها معاداة الكفرة، المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي وبأداء الصلاة التي هي أهم أركان الإسلام، فبالصبر تنالون كلَّ فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنُّصرة، وإجابة الدعوة، ومعنى المعيَّة: الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة.

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ عطف على استعينوا ﴿لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقتل في سبيل نصرة دين الله ويموت شهيداً، وسبيلُ الله: كلُّ ما أمر الله تعالى به من الخير فهو سبيله، كالجهاد، والحج، وطلب العلم ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ﴾ أي هم أموات ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ بل هم أحياء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ ما حالهم؟ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يُدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن البصري أن الشهداء أحياء عند ربهم، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح بالنعيم، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون، غدُوّاً وعشيّاً، فيدخل إليها الألم والوجع، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها، تبقى بعد الموت درَّاكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء، لاختصاصهم بالقرب من الله، ومزيد البهجة والكرامة، قال أبو السعود رحمه الله: رأيت

في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، أني أزور قبور شهداء أُحُد رضي الله عنهم وأنا أتلو هذه الآية، متفكراً في أمرهم، وفي نفسي أن حياتهم روحانية، فبينما أنا على ذلك، إذْ رأيتُ شاباً منهم قاعداً في قبره تام الجسد في أحسن ما يكون من الهيئة، فنظرتُ إلى وجهه فرأيته ينظر إليَّ مبتسماً، كأنه ينبهني على أن الأمر بخلاف رأيي!! فسبحان من علت كلمته، وجلّت حكمته[1] واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد، ولكنا لا ندركها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وبأن الحياة الروحانية ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم، وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، وأنها من خصائص الشهداء .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم، هل تصبرون على البلاء، وتستسلمون للقضاء؟ وهل تشكرون فيما تحبونه وتصبرون فيما تكرهونه؟ وفيه إيماء إلى أنَّ المقصود من هذه الحياة الابتلاء، واللام جواب القسم، تقديره والله لنبلونكم، والخطاب للمؤمنين أي لنعاملنكم معاملة المختبر ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه، ليخفّف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه، ليوطّنوا عليه نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له، وليعلموا أنه شيء يسير، له عاقبة حميدة،

---

(١) انظر هذه الرؤيا في إرشاد العقل السليم «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠ .

والجوعُ: القحطُ وعدم حصول القوت ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي وشيء من نقص الأموال بموت المواشي ونحوه، ونقص الأنفس كموت الأصحاب والأحباب، ونحو ذلك، ونقص الثمرات أي ثمرات الحرث والأشجار، بحيث لا تغلُّ الحدائق والمزارع ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه البشارة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ المصيبة ما يصيب الإنسانَ من مكروه، في النفس، أو في الأهل، أو في المال، قليلاً كان أو كثيراً طفيء سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» فقيل أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم، كلُّ شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرِدِ الله به خيراً يُصِبْ منه»[1] يعني يبتليه بالمصائب، حتى يأجره على ذلك، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ أُؤْجُرْني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلاَّ آجَرَه الله في مصيبته، وأخلفَ له خيراً منها»[2] وليس الصبر والاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب، والمصيبةُ إذا كانت من قبل الله، يجب الصبر عليها كالأمراض، ووفاة بعض الأولاد، وأما إذا جاءت من الظلمة، فالصبر عليها غير واجب، بل إن أمكن أن يدفع ذلك ولو بالمقاتلة، والمبشَّر به محذوفٌ، دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ «أولئك» إشارة إلى الصابرين، والأجر لمن صبر عليها وقت إصابتها، كما في الحديث: «إنما الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى»[3] والصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التَّزكيةُ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المرضى ١٠/ ٩٣ ومالك في الموطأ ٢/ ٩٤١.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنائز رقم ٩١٨ وفيه قالت: أم سلمة فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان، من رواية أنس قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة =

والمغفرةُ، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي هم المهتدون للحق والصواب، والفائزون بمطالبهم الدينية والدنيوية، فإن من نال رأفة الله ورحمته، لم يفته مطلب.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما جبلان بمقربةٍ من البيت الحرام، لهما مكانة جليلة في شريعة الإسلام، ولهذا قال: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه، ومناسك حجه، التي تعبَّدنا الله بها، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وكلُّ ما تعبَّدنا الله به من أمور الدين فهو من الشعائر، كالطَّواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والأذان، والإقامة، وغير ذلك ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي فمن قصد بيت الله، للحج أو للعمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، أي بين الصفا والمروة ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ومن فعل خيراً، سواءً كان فرضاً أو نفلاً، فإن الله شاكر له طاعته، ومجازيه عليها أفضل الجزاء، فإنه سبحانه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال، فلا يُنقص من أجورهم شيئاً. وظاهر الآية: ﴿فلا جُناحَ عَلَيهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، مع أنه من أركان الحج أو واجباته، ولهذا أشكل على عروة بن الزبير فهمُ الآية، حتى سأل خالته «عائشة» أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: يا خالة، ما أرى بأساً على من ترك السعي بين الصفا والمروة!! فقالت له: بئسما قلتَ يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرتَ، لقال الله تعالى: فلا جناح عليه أن لا يطَّوف بهما،

= تبكي عند قبرِ على صبيٍّ لها فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي ـ ولم تعرفه ـ فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت النبي تعتذر إليه وقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبرُ عند الصدمة الأولى.

ولكنَّ أهل الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة لصَنَمَيْنِ: أحدهما على الصفا يسمى «إسافاً» والثاني على المروة يسمى «نائلة» فلما دخلوا في الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأنه فعل الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج، وتخبر أنهما من شعائر الله، وأنه ينبغي أن يكون السعي بينهما للرحمن لا للأوثان، قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما[1]. وعن عاصم بن سليمان قال: قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية!! فهذا هو السرُّ في نفي الحرج.

أما الحكمة من السعي بين الصفا والمروة، فهي لإحياء ذكرى قصة «هاجر» أم إسماعيل عليهما السلام، فإنه لمَّا تركها إبراهيم عليه السلام مع طفلها الرضيع في الصحراء - قبل بناء البيت العتيق - وعطشت وعطش ابنها، أغاثها الله بماء زمزم، بعد أن سعت بين جبل الصفا، وجبل المروة عدة مرات، وهي تبحث عن الماء، لتنقذ حياتها وحياة وليدها، فبعث الله إليها «جبريل» عليه السلام، فضرب برجله الأرض، ونبع منه ماء زمزم، وقال لها: إن لله ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه، فجعل الله أفعالها وسعيها طاعةً لجميع المكلفين، ليعلم الناس أن الله تعالى لا يضيع أجر الصابرين، وهذا هو السرُّ في مشروعية الطواف بين الصفا والمروة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

---

(١) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري ٣٩٨/٣ وصحيح مسلم كتاب الحج رقم ١٢٧٧.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ﴾ نزلت في أحبار اليهود الخائنين، وهي عامة في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والمعنى: إن الذين يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الساطعات الواضحات، التي تدل على صدق محمد ﷺ في أمر النبوة والوحي ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي من بعدما أوضحناه لكل الناس، في كتب الله المنزَّلة على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور، كما قال سبحانه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[1] فالمراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ أي أولئك المجرمون، الكاتمون لأوصاف الرسول عليه السلام، المحرِّفون لأحكام التوراة والإنجيل ﴿يَلۡعَنُهُمُ الله﴾ أي يطردهم ويُبعدهم من رحمته، ويذيقهم أليم نقمته. ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي يلعنهم أهل السماء والأرض، الملائكة، والمؤمنون، وجميع الخلائق من الإنس والجن، حتى البهائم والدواب، فكما أن العالم المبلِّغ لشريعة الله، يستغفر له كل شيء، حتى الطير في الهواء، والحيتان في الماء، كما ورد به الحديث الشريف، فكذلك الكاتمون لوحي الله، يلعنهم كل شيء في السمٰوات والأرض.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي إلا الذين تابوا عن الكتمان، وندموا على ما صنعوا من العصيان ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي وأصلحوا ما أفسدوه بالتدارك، ببيان حقوق الحقِّ والخلق، ومن ذلك أن يصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الدين الحق «دين الإسلام» ﴿ وَبَيَّنُواْ﴾ أي أظهروا للناس حقيقة ما أنزل الله في كتبه المقدَّسة، لتتمَّ توبتهم من التحريف والكتمان ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي فأولئك التائبون الصادقون، أقبل توبتهم، وأشملهم برحمتي الواسعة، فأنا الرب الجليل، واسع التوبة، عظيم الرحمة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

قال ابن كثير: والآية وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل، من الدلالات البيّنة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب، من بعدما بينه الله تعالى لعباده، في كتبه التي أنزلها على رسله[1]، ولهذا جاء في الحديث «من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين كفروا بالله، وماتوا ولم يتوبوا كأمثالِ هؤلاء الكاتمين، واستمروا على الكفر، حتى داهمهم الموت، وهم على تلك الحالة الشنيعة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي استقرَّ عليهم اللعن والطرد، من الله والملائكة وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ومعنى اللعن: الطردُ والإبعادُ من رحمة الله عزَّ وجلّ، فالكافر يلعنه أهل السماء والأرض، لأنه مفسدٌ مخرّبٌ لنظام الله، حائد عن الصراط المستقيم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في نار الجحيم، وفي إضمارها تفخيم لشأنها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع، لا يخفُّ عنهم طرفة عين، كما قال سبحانه: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[3] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يُمهلون أو يُؤجّلون،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥١ وأبو داود رقم ٣٦٥٨ وفي رواية أبي داود «ألجمه الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».

(٣) سورة الزخرف، آية: ٧٥.

بل يلاقيهم العذاب من حين مفارقة الروح للجسد، فهم في سكرات الموت معذبون، وفي القبر يرون أشد العذاب، وفي الآخرة لهم نار الجحيم، وهذه الصفات الثلاثة للعقاب: الخلود، وعدم الإمهال، وعدم التخفيف، تشير إلى يأس الكفار من الخروج من نار الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾[1].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لنعم الله، وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بذكر أدلة الوحدانية، وأتى بالبراهين الساطعة الدالة على وجود الإله الخالق، المدبر الحكيم فقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة أيها الناسُ إله واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا هو جلَّ وعلا، المتصف بالرحمة التامة، المفيض أنواع النعم على العباد، وفي الآية تقرير للتوحيد، فإنه تعالى حيث كان المولي لجميع النعم، صغيرها وكبيرها، وكان كلُّ ما سواه مفتقراً إليه في وجوده وإمداده، تحققت وحدانيته بلا ريب، وانحصر استحقاق العبادة فيه وحده جلَّ وعلا.

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿الٓم. الله لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٩٦ والترمذي في الدعوات رقم ٣٤٧٢ وقال: حديث حسن.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

روي عن عطاء أنه قال: أنزل على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، فقال الكفار بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ أي كيف يكفيهم إله واحد؟ حيث كان عندهم حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية. أي إن في إبداع السمٰوات والأرض، بما فيهما من عجائب الصنعة، ودلائل القدرة، بما يعجز عن فهمها عقول البشر، وإنما جمع السمٰوات لأنها طبقات منفصل بعضها عن بعض، بخلاف الأرض، والآيةُ في السماء هي: ارتفاعها بغير عمد، وما يرى فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والمجرات، وحركة هذه الكواكب ودورانها، كما قال سبحانه ﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والآية في الأرض ما يرى فيها من الجبال، والبحار، والمعادن، والأنهار، والنباتات، والثمار، والأشجار ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، ويمضي النهار فيعقبه الليل، ويأخذ هذا من هذا، فأحياناً يطول الليل ويقصر النهار، وأحياناً يقصر الليل ويطول النهار، حسب الأمكنة والأوقات، وحسب قرب البلاد وبعدها عن القطب الشمالي، أو خط الاستواء، فالبلاد القريبة من القطب الشمالي، أيامُها الصيفية أطول، وليلُها أقصر، من أيام البلاد البعيدة عنه، وهكذا يتعاقب الليل والنهار، لتحصل مصالح العباد، لأن انتظام أحوال البشر، بسبب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب الراحة والنوم يكون في الليل

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٥.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ أي والسفن الضخمة الكبيرة، التي تسير في البحر، وتجري على سطح الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال، بما فيه تحصيل مصالح الناس، من أنواع البضائع والسِّلع التجارية، والآيةُ في هذه السفن، هي تسخيرها وجريانها على وجه الماء، مع ضخامتها وما تحمله على ظهرها من أثقال، والماء خفيف لطيف، فكيف حمل هذه السفن الضخمة على سطحه ولم تغص فيه، مع أن الحصاة الصغيرة لو طرحناها في الماء لنزلت إلى قعره؟ فسبحان من سيَّرها بقدرته، وأجراها برحمته، لتنقل ذرية بني آدم، من قطر إلى قطر ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1] ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وما أنزله الله من المطر، من السحاب الذي يعلو في السماء، فينزل قطراتٍ قطرات، به حياة البلاد والعباد، وبه إنعاش البشر، وإخراج النبات والأرزاق، والآية في إنزال المطر، أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع، من حيوانٍ، ونبات، وشجرٍ، وثمر، ولولاه لما عاش إنسان ولا حيوان ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2] ثم نزوله عند وقت الحاجة بمقدار المنفعة كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[3] فلو زاد على القدر المطلوب، لأهلك الحرث والنسل، وخرَّب ودمَّر، كما يحدث في بعض الأوقات من السيول المدمرة وسمَّى تعالى السحاب سماءً، لأن كلَّ ما علاك فأظلَّك فهو سماء كما قال أهل اللغة، والمطر إنما ينزل من السحاب، بنص القرآن العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[4] والودقُ: هو المطر

---

(١) سورة يس، آية: ٤١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٣) سورة المؤمنون آية ١٧.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٨.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على «أنزل» أي وما نشر وفرّق في الأرض، من كل ما يدبُّ عليها من إنسان، وحيوان، وهوام، وزواحف، المختلفة في أشكالها، وألوانها، وأحجامها، والدابة تجمع الحيوان كلّه «الفيل، والبعير، والغزال، والشاة، والزواحف» وغيرها مما لا يحصى من أنواع الدواب، وكلها من مخلوقات الله، كما قال سبحانه: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ، إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1) والآية فيها اختلافُ الأصوات، والأشكال، والألوان، والأحجام، فمنها المنتصب القامة كالإنسان، ومنها الذي يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها الذي يمشي على أربع كالبعير وسائر الحيوانات ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها، جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ليّنةً وعاصفة، عقيماً وملقّحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(2) ومنها رياح تأتي بالخير والمطر وهي رياح الرحمة، ومنها ما يأتي بالعذاب والبلاء، كرياح الهلاك والتدمير ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾(3) وفي تصريف الرياح تربيةٌ للنباتات، وبقاء للحيوانات، ولو أمسك الله الرياح ساعة، لأنتن ما بين السماء والأرض، والريح جسم لطيف وهي مع ذلك في غاية الشدة والقوة، تقلع الأشجار والصخور، وتخرّب البنيان والدور ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي والسحاب المذلّل بين السماء والأرض بقدرة الله، يسير حيث شاء الله، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، ثم يصبه على الأرض قطراتٍ قطرات، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية الواسعة، يبقى معلقاً بين

---

(1) سورة النور، آية: ٤٣.

(2) سورة النور، آية: ٤٥.

(3) سورة الذاريات، آية: ٤١ ـ ٤٢.

السماء والأرض، فكيف حمل السحاب هذه الملايين من الأطنان من الماء؟ ثم قال تعالى: ﴿ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة، دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة، وختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يتفكرون بعقولهم في دلائل وجود الله ووحدانيته، ويدركون عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فيعرفون الخالق من آثار الخلق، والمبدع من بدائع الصنع.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، من دلائل القدرة والوحدانية، ومن عجائب المخلوقات، التي بثَّها سبحانه في هذا الكون، ثمانية أنواع، تنبيهاً على ما فيها من العظات والعبر، فإن المتفكر في هذه الأمور، يقطع بأنها من صنع إله قادرٍ، مدبّر حكيم، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لآيَاتٍ لقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة والحماقة، أن يعبد غير الله، من الأوثان والأصنام، ويجعلها أشباهاً ونظراء مع الله، كأنها تخلق وترزق، وهي حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من دعاها ممن دحاها ﴿ يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ أي يعظّمونهم ويطيعونهم ويخضعون لهم، كحب المؤمن لله، فيسوُّون بين محبة الله ومحبة الأوثان، كأنهم في المنزلة سواء، وهذا عين الزيغ

والضلال، إذ كيف يُسوّى بين الإله والحجر؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي وحب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد، لأن محبتهم لله لا تنقطع، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض موهومة فاسدة، ولذلك كان المشركون يعدلون عن آلهتهم إلى الله عند الشدائد، ويعبدون الصنم زمناً ثم يعبدون غيره ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي ولو رأى الظالمون الذين عبدوا غير الله، حين يشاهدون العذاب الأليم، المعدَّ لهم يوم القيامة، أن القدرة كلَّها لله وحده، لا ينفع ولا يضرُّ غيره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله أليم شديد!! وجواب «لو» محذوف للتهويل أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولاستعظم الإنسان ما حلَّ بهم من العذاب.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي حين تبرأ المتبوعون من الأتباع، والرؤساء المضلون من الأنصار الأشقياء الذين قلَّدوهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي وعاينوا عذاب الله الشديد، وتقطعت بينهم روابط المحبة والألفة، وانقلبت إلى عداء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي وتمنى الأتباع لو أن لهم عودة ورجعة إلى الدنيا، ليتبرأوا من أولئك الزعماء الذين أضلوهم، كما تبرءوا هم منهم في ذلك الموقف العصيب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي كما أراهم الله العذاب، فذاقوه وعاينوه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة، ندامات شديدة، وحسرات تتبعها زفرات، تتردَّد في صدورهم، وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، لأنهم في عذاب سرمدي في نار جهنم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ نزلت في المشركين الذين حرَّموا على أنفسهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والخطابُ عام يشمل جميع البشر. والمعنى: كلوا يا معشر الناس ممَّا أحلَّه الله لكم مما في الأرض ﴿حَلالاً طَيِّباً﴾ أي حال كونه حلالاً مستطاباً في نفسه، غير ضار للأبدان والعقول، والمراد بالطيب الحلال الذي أباحه الله لعباده ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ ﴾ أي ولا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيّنه لكم من المنكرات والفواحش، والخُطُواتُ جمع خُطْوة وهي ما بين قدمي الماشي، يقال: اتَّبع خُطُواته: إذا اقتدى به ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة.

﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ بيانٌ لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، والسوء والفحشاء ما أنكره العقلُ، واستقبحه الشرع، وقيل: السّوءُ يعمُّ القبائح، والفحشاء ما يجاوز الحد من الكبائر ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ كقولكم هذا حلالٌ، وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز إسناده عليه ومعنى: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به، والقول على الله تعالى بغير علم، من أعظم أصول المحرمات، فإنه أصل الأديان الباطلة، ومنشأ تحريف الأديان المحرَّفة، كما فعل اليهود والنصارى في شرائعهم، ومن عموم الجهل أن أكثر المسلمين لا يشعرون بهذا، فيقولون: هذا حرام، هذا حلال، هذا مندوبٌ أو مكروه من غير معرفة ولا دليل، والتحليل والتحريم حقُّ الله وحده، كما نبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الكَذِبَ﴾ وقد أمر الله بالتَّثَبُّتِ والرجوع إلى أهل العلم عند عدم المعرفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين، على وجه النصيحة والإرشاد: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والإرشاد، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والفساد ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من العقائد والعبادات، أُمروا باتباع القرآن فجنحوا إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ الاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، أي أيتّبعون آباءهم ولو كانوا أغبياء سفهاء؟ ليس لهم عقل، يردعهم عن الغيّ والضلال، ولا بصيرة تنير لهم طريق الهدى والخير!؟.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ هذا مثلٌ ضربه للكفار، في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الواضحة، أي ومثل هؤلاء الكفار، العُمي عن هداية الله، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي لا تفهم مراده، ولا تدرك غرضه، إنما تسمع النداء والصوت، دون أن تفهم الكلام والمراد، والمعنى: إنَّ الكفرة لانهماكهم في التقليد، لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلىٰ عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر، فهم في ذلك كالبهائم، التي يُنعق عليها، وهي لا تسمع إلاّ دويّ الصوت، ولا تفهم ما تحته[1]، يُقال: نعق الراعي: إذا صاح بغنمه

(١) ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الروعة والإبداع، فمثّل لهم في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الساطعة، بمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت، دون أن تفهم المراد والكلام، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة، لا تفهم ولا تعقل ما يُقال لها، يسمعون القرآن ويصمُّون عنه الآذان، فمثلهم كمثل من يصيح بالماشية، يمر النداء على آذانهم يسمعونه ولا يفقهونه.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً لأن طرق التعقل هو التدبر في مبادىء الأمور المعقولة، وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله، ومشاهدة حججه، فإذا كانوا صماً، بكماً، عمياً، فقد انسدَّ عليهم أبواب التعقل، وطرق الفهم بالكلية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لمَّا وسَّع الأمر على الناس كافة، وأباح لهم ما في الأرض، سوى ما حرَّم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا، وأمرهم أن يقوموا بحقوق النعم، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تخصونه بالعبادة، وتقرُّون أنه تعالى مُولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلاَّ بالشكر له، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يقول: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربُه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك»[1].

(١) أخرجه مسلم في الزكاة رقم ١٠١٥ والترمذي في التفسير رقم ٢٩٩٢.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي أكلها والانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، وأُبِيحَ من الميتة: السمكُ، والجراد، للحديث الشريف قال ﷺ: «أحلّت لنا ميتتان، ودمان: السمكُ والجراد، والكبدُ، والطحال»[1] وحكمةُ تحريم الميتة، أنَّ الدم يكون ضاراً، وإذا احتبس دمه فيفسد، وتفسد العضلات ويحصل منه ضرر عظيم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي مسفوحاً لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وكانت العرب في الجاهلية، تجعل الدم في مصارين ثم تشويه وتأكله، فحرَّم الله تعالى ذلك ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه كالتابع له، وقد أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وحكمة تحريم الخنزير للضرر والاستقذار، لملازمته للقذارات، وأما كون لحم الخنزير ضاراً، فهو مما يثبته الطب الحديث ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي رفع به الصوتُ عند ذبحه للصنم، والإهلالُ: أصلهُ من رؤية الهلال، فقد جرت العادة أن يُرفع الصوتُ بالتكبير، إذا رؤي الهلالُ، لذلك سمي إهلالاً، أي وما ذبح للأصنام، وهذا حرام لسببٍ ديني محض، لا لأجل الصحة والنظافة، والمراد قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزَّى، وكانوا يرفعون أصواتهم بذكرهما ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ألجىء وأُخوِج إلى أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ متجاوزٍ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعد مقدار الحاجة، والإباحةُ للاضطرار فيقدر بقدر ما تندفع الضرورة، واستدل بعموم الآية على جواز أكل المضطر ميتة الخنزير والآدمي خلافاً لمن منع ذلك ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل، بل يأثم بترك التناول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلذا أسقط الحرمة في تناوله، وقيل: الحرمةُ باقية إلا أنه يسقط الإثم لاضطراره، كما هو الظاهر من تقييد عدم الإثم، والمغفرةُ إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه تعالى ستر عيبه، ثم رآه مفلساً فرحمه، وإذا ذكرت بعد الرحمة، يكون معناها أنه تعالى رأى عجزه، فترك عقابه، وستر ذنبه.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الأطعمة من حديث ابن عمر مرفوعاً رقم ٣٣٥٧.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

نزلت في رؤساء اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله تعالى من صفة الرسول ﷺ طمعاً في حطام الدنيا، وحفاظاً على رياستهم الموهومة التي كانوا يتسلطون بها على رقاب الناس، فيأكلون أموالهم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي يخفون صفة النبي المذكورة في التوراة ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون به عوضاً حقيراً من حطام الدنيا مقابل هذا الكتمان ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي أولئك الأشرار الفجار، إنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، شبَّه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، برضَفٍ من جهنم يأكلونه يوم القيامة، زيادة في التقبيح لهم والتشنيع عليهم، بتصويرهم بصورة من امتلأ بطنه من السُّحْتِ، فأردى به في نار جهنم، وسُمي مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، وجاء به القرآن، كقوله تعالى في آكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[1] وهكذا يلتقي الكاتمون مع آكلي أموال الأيتام في الإجرام ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يكلمهم سبحانه كلام رضى كما يكلم المؤمنين، بل كلام سخط وغضب، كقوله سبحانه في الكفار ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ فالمنفيُّ هنا هو كلام اللطف والرضا، لا كلام الغضب والسخط، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾؟ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى لهم في العقوبة والنكال فقال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهّرهم من دنس الذنوب، يوم يتطهر المؤمنون من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي استعاضوا عن الهدى بالضلالة، وأخذوا الكفر بدل الإيمان، والعذاب بدل المغفرة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؟ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟! وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الفجار، على اقتحام النار مع ما نالهم من غضب الله وسخطه.

ثم بيَّن تعالى سبب هذا السخط والعذاب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه، بسبب أن الله أنزل كتابه «التوراة» بالحقِّ، فكتموا وحرَّفوا ما فيه طمعاً في حطام الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وإن اليهود والنصارى الذين اختلفوا في تأويل التوراة وتحريفها، وتحريف الإنجيل، لفي خلافٍ بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

> ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الخطاب لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» الذين اختلفوا في كتابهم اختلافاً كبيراً، صاروا بسببه في جدالٍ وشقاق، ومن أسباب شقاقهم خوضهم في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة المشرفة، وادعت كل

طائفة أن البِرَّ هو التوجه إلى قبلته، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعملُ الصالحات، مقصوراً على أمر القبلة، أن تتوجهوا في صلاتكم جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يُهتم بشأنه، والذي ينال به الإنسان رضى ربه، هو بِرُّ من آمن بالله وحده، إيماناً بريئاً من شائبة الضلال والإشراك، وآمن باليوم الآخر، وبجميع الملائكة، والكتب، والرسل الكرام، من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي وأعطى المال على محبته له، وشحّه به، ذوي القرابة منه، فإنهم أولى بالمعروف، وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين المعدمين الذين لا مال لهم، وفي الحديث الشريف «أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال يا رسول الله: أيُّ الصدقة أعظم أجراً عند الله؟ قال: أن تَصَدَّق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان»[1] ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي وأعطى المال أيضاً لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله، سُمّي به لملازمته للطريق، فكأنه ولد منه، وهو الغريب الذي فقد ماله، وللسائل المحتاج الذي يسأل المال بدافع الحاجة، وفي فكِّ الأسرى والأرقاء لتخليصهم من الرق، وهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿وفِي الرِّقَابِ﴾ أي فكِّ الرقاب، فهذا هو البرُّ ببذل الأموال على وفق مراد الله، في المصارف المذكورة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدى الصلاة المفروضة عليه، التي هي أهمُّ أركان الإسلام، ودفع زكاة ماله إلى المحتاجين، فأدى حقَّ الله وحقَّ عباده ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، والعهد هنا عام يشمل حقوق الحق، وحقوق

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة مرفوعاً رقم ١٠٣٢.

الخلق ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي والصابرين على الشدائد والمكاره، في الأنفس والأموال، وحين اشتداد القتال، وهو منصوب على المدح، لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال، و﴿البأساء﴾ المراد بها: الفقرُ والفاقة، و﴿الضراء﴾ المراد بها: المرضُ ومصائب البدن ﴿وحِينَ البَأْسِ﴾ أي وقت اشتداد الحرب في المعركة، ومجاهدة العدو، ومنه حديث: «كنا والله إذا حمي الوطيس، واشتدَّ البأس، واحمرَّتِ الحَدَقُ نتقي برسول الله ﷺ»[1]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف، هم الصادقون في إيمانهم، والكاملون في خشيتهم لله، والفائزون بمرتبة التقوى. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها تصريحاً أو تلويحاً، فإنها ـ بكثرتها ـ منحصرة في ثلاثة أشياء: ١ ـ صحة الاعتقاد. ٢ ـ وحسن المعاشرة. ٣ ـ وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وآتى المالَ على حبه﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ إلى آخر الآية. ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق نظراً إلى إيمانه، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق، ومن عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٧٦ ولفظه عند مسلم «قال البراءُ: كنَّا والله إذا احمرَّ البأس ـ أي اشتدت الحرب ـ نتَّقي برسول الله ﷺ، وإنَّ الشجاع منّا للذي يُحَاذي به».

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية التي يبتنى عليها أمر المعاش والمعاد ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم عند مطالبة صاحب الحق، والوجوب بالنسبة إلى الحكام، أو القاتلين، ﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي بسبب قتلهم، عُدّي القصاصُ بفي لتضمنه معنى المساواة، إذ معناه أن يُفعل بالإنسان مثل ما فَعَل، والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المساواة بين القتلى ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر، أي الحرُّ مقتولٌ بالحرِّ، ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي والعبد يُقتل بالعبد، ولا يُقتل به الحرُّ، والأنثى تُقتل بالأنثى ولا يُقتل بها الرجل، فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به، ولا تعتدوا بقتل غير القاتل، والآية نزلت رداً على عدوان أهل الجاهلية، فقد كانوا إذا كان لبعضهم قوة وفضل، وقُتل عبدٌ منهم قالوا: لا نقتل به إلاّ حراً، وإذا قتلت أنثى قالوا: لا نقتل بها إلاّ رجلاً، وإذا قُتل واحد قالوا لا نقتل به إلاّ اثنين أو خمسة، فنزلت الآية تأمر بقتل الجاني فقط دون العدوان.

يروى أن واحداً قتل إنساناً من أشراف العرب، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال: إحدى الثلاث، قالوا: ما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً، وظلموا بمثل ذلك، فلما بعث الله الرسول ﷺ أوجب رعاية العدل، وسوّى بين العباد ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أيُّ شيءٍ من العفو، وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام، في إسقاط القصاص، والمراد من الأخ ولي المقتول، وفيه الإشارة إلى أن الأخوة الإسلامية لا تنقطع بالقتل ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فليكن اتباع أو فالأمر اتباع والمراد به وصية العافي بأن يطالب الدية بالمعروف من غير تعنيف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان، وهو أن لا يمطل ولا يبْخسْ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو وأَخْذِ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع،

فشرعة العفو تسهيل على القاتل، وشرعة الدية تنفيع لأولياء المقتول ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف فتجاوز بأن قتل غير القاتل، أو بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُۥ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما في الدنيا بالاقتصاص بما قتله بغير حق، وإما في الآخرة بعذاب النار.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرَّف القصاص ونكَّر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة النفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصَّ من القاتل، سلم الباقون ويصير ذلك سبباً لحياتهم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يا ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص، فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر، لا يحصل له ذلك التأمل، فلهذا أخصَّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولي الألباب[1]، واللبُّ: العقل الخالص من الشوائب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون محارم الله، وتزجرون عن العدوان وسفك الدماء.

---

(١) اتفق علماء البيان على أن الآية الكريمة: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات الفصاحة والبيان، ونُقل عن العرب في هذا المعنى قولهم «القتلُ أنفى للقتل» وفضل الآية عليه من وجوه: ١ ـ قلة الحروف. ٢ ـ الاطراد في الآية، إذ في كل قصاص حياة، وليس كل قتل أنفى للقتل، فإن القتل ظلماً أدعى للقتل. ٣ ـ خلو الآية من التكرار اللفظي، بخلاف حكمة العرب. ٤ ـ عذوبة اللفظ في الآية. ٥ ـ الطباق بين لفظ «القصاص» و«الحياة» إلى غير ما هنالك من الفوارق التي تجدها في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية القصاص سبباً للحياة، والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزم الحياة، وانظر بقية الوجوه البيانية، في كتاب الإتقان للسيوطي.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي حضر أسبابه، وظهرت أماراته ومعنى حضر الموت أي أشرف على الموت وصار في النزع ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً، وقيل: مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله عنه أن مولىً له أراد أن يوصي، وله سبعمائة درهم فمنعه، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ والخيرُ المال الكثير[1]، وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصي، فسألت كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ فإن هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك[2]، والظاهر أن الكثرة غير مقدرة، بل تختلف باختلاف حال الرجل، وكثرة عياله، وذهب الزهري أن الوصية مشروعة، قلَّ أو كثر المالُ ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ مرفوع بكُتب وكان هذا الحكم في بدء الإسلام، ثم نسخ عند نزول آية الموارث، بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كلَّ ذي حقّ حقّه، ألاَ لا وصية لوارث»[3] والحديث تلقته الأمة بالقبول، فانتظم في سلك المتواتر، في صلاحية النسخ، على أن التحقيق أن الناسخ هي آية المواريث وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون، وإليه ذهب الأكثرون ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي حق على المؤمنين الذين يتقون.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ غيّره من الأوصياء والشهود ﴿ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ ﴾ أي إثم التبديل ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ على

---

(١) رواه البيهقي وجماعة عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

مبدّله، لأنه هو الذي حاف وخالف الشرع وإيثار الجمع للإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدِّل بغير حق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي توقع وعلم، والمراد بالخوف الظنُّ الغالبُ الجاري مجرى العلم ﴿جَنَفًا﴾ أي ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف في الوصية ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي وبين الموصَى لهم، بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول، وقيل هذا في حياة الموصى أي فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه، وحمله على الصلاح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضارّان في الوصية فتجب لهما النار»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الوصايا رقم ٢١١٧ وزاد في آخره ثم قرأ عليَّ أبو هريرة =

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بيان لحكم آخر، وتكرير النداء لإظهار الاعتناء بهم ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ الصيام لغةً: الإمساكُ، ومنه يقال للصمت: صومٌ، لأنه إمساك عن الكلام، وشرعاً: إمساك عن أشياء مخصوصة، على وجه مخصوص، والمراد به صيامُ شهر رمضان، خُصَّ هذا الشهر بهذه العبادة، لأن فيه إنزال القرآن، وأضيفت فيه هداية الرحمٰن، وحصل فيه الظفر ببدر بنصر العزيز المنَّان، وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ أي فرض عليكم صومه كما فرض ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ من الأنبياء والأمم، وعن ابن عباس ومجاهد أنهم أهل الكتاب، وفيه توكيد الحكم، وترغيب على الفعل، وتطييب للنفس، فإنَّ الأمور الشاقة إذا عمَّت طابت وسهل عملها، والمماثلة في أصل الوجوب، وقد كتب الصوم على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادة، وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه على الذين من قبلنا، إشعارٌ بوحدة الدين في أصوله ومقصده، ويروى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى، ثم غيَّروه فتركه اليهود، إلاَّ صوم يوم من السنة، زعموا أنه اليوم الذي أُغرق فيه فرعون، وزاد النصارى فيه حتى بلغ خمسين، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى زمن الربيع ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ أي لعلكم تنتظمون به في زمرة المتقين، فالصوم إنما فُرض لمنفعتنا، لأنه يعدُّنا للسعادة، وإعدادُ الصيام نفوسَ الصائمين بتقوى الله سبحانه من وجوه:

١ ـ أعظمها أن الصوم أمرٌ داخلي، موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب لأحدٍ عليه، إلاَّ لله سبحانه وتعالى، وهو سرٌّ بين العبد وربه، فإذا ترك الصائم شهوته ولذته، مدة شهر، امتثالاً لأمر ربه، ملاحظاً عند

= ﴿من بعد وصيةٍ يُوصَىٰ بها أو دَيْنٍ غير مضار. .﴾ الآية وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

عروض كل رغبة جسدية، من أكلٍ نفيس، وشراب لذيذ، وزوجة فاتنة، أنه لولا اطلاع الله عليها، لما صبر على ترك تلك الشهوات، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة «ملكة المراقبة» لله تعالى، والحياء منه أن يراه حيث نهاه، وهذه المراقبة الدائمة من كمال الإيمان، كما جاء في الحديث القدسي: «يَدَع طعامَه وشهوتَه من أجلي» وهي أكبر وسيلة لسعادة الروح، فهل يُقدم من تُلابس هذه المراقبة قلبَه، على غشّ الناس ومخادعتهم؟ كلا!! إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي، لأن الصوم ربى نفسه.

٢ ـ ومن الوجوه الاجتماعية، أن الصائم عندما يجوع، يتذكر الفقير الذي لا يجد قوتاً، فيحثُّه التذكر على الرأفة والرحمة بعباد الله، فيمدُّ إليهم يد العون والإحسان.

٣ ـ ومن الوجوه أيضاً أن الصوم يُصفّي نفس الإنسان، ويهذّب لسانه وسلوكه، وينقل الإنسان من «حيوانية» الأرض، إلى «ملائكية» السماء، فيجعله كالملائكة الأبرار الأطهار، الذين ليس لديهم ميل إلى المخالفة والعصيان، ومن أجل ذلك شُرع الصيامُ.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي هذا الصيام أيامُه معدودات، وهي أيام قلائل، فلم يفرض الله على عباده صيامَ الدهر، حتى لا يشقَّ عليهم، وإنما جعله شهراً واحداً في السنة، رأفة ورحمة بهم، وأحد عشر شهراً يتقلبون في لذائذ الطعام، والشراب، والمتعة الجسدية، فما أرحم الله عزَّ وجلّ بعباده؟!.

متى شُرع الصيام؟

عن عائشة قالت: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان

ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه»[1] وكانت فريضة رمضان في السنة الثانية من الهجرة، قبل غزوة بدر، لسبع عشرة خلت من رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضرُّه الصومُ، ويعسر معه، أو يخاف من الصوم زيادة المرض، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء بأنَّ من سافر أثناء اليوم لم يُفطر، ولهذا أُوثر على قوله «أو مسافراً» فمعنى الآية: من كان عند دخول رمضان مريضاً، أو مشتغلاً بالسفر فعلاً، فأفطر فعدة من أيام أخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب، وأكثر العلماء على تقييده بما يلزمه العسر غالباً، وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدة أيام المرض، أو السفر، من أيام أخر، إن أفطر، فالمريض والمسافر إن شاءا صاما، وإن شاءا أفطرا، ومذهب الظاهرية وجوب الإفطار وهو غريب ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هي قدر ما يأكله كلَّ يوم، وهي نصف صاع من بر، أو صاع من غيره، وكان ذلك في بدء الإسلام، لما أنه قد فرض عليهم الصوم، وما كانوا متعودين له، فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نُسخ، كما روي عن سلمة بن الأكوع قال: «لمَّا نزلت ﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ كان من شاء منَّا صام، ومن شاء أفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فصارت هذه الآية ناسخةً للتخيير»[2] ومن الناس من لم يقل بالنسخ، وفسرها بأن المراد يصومونه على جهدهم، لأن الإطاقة أدنى درجة المكنة، والقدرة على الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيءَ إلاّ إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمل به مشقة شديدة، قالوا: والآية نزلت في الشيخ الكبير، والعجوز الهرمة، وقيل معناه: «لا يُطيقُونَهُ» فأضمر «لا» لقراءة حفصة كذلك ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية، قاله

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رقم ٥٤٠٤ في كتاب التفسير.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٥٠٧ ومسلم رقم ١١٤٥ في الصيام.

مجاهد، أو جمع بين الإطعام والصوم، قاله ابن شهاب ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ عند ربه ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي والصوم خير لكم من الفدية، أو من التأخير إلى أيام أخر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة والأجر العظيم!!.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتُدىء فيه نزول القرآن الكريم، وإلاَّ فإنَّ القرآن نزل في جميع شهور السنة، في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأمَّا ابتداء نزوله فكان في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه على وجه الخصوص لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقيل: نزل جميع القرآن من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم نزل مفرَّقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهو مروي عن ابن عباس ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي أنزله الله هداية للناس بما فيه من الإيجاز والإعجاز، وبما فيه من الآيات الواضحات، التي تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فهو كتاب فريد، معجز في بيانه، واضح في أحكامه، جمع الله فيه الحلال والحرام، والحِكَم والأحكام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن حضره الشهر[1]، ولم يكن مريضاً أو مسافراً، فليصم شهر رمضان، فإن الله ما فرض صيامه إلاَّ لتذكيرنا بنعمة القرآن، التي هي أجلُّ النعم بعد نعمة الإيمان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضاً مرضاً يشقُّ عليه، أو مسافراً سفراً طويلاً شرعياً، فأفطر بسبب المرض أو السفر، فعليه صيام أيام أُخَر، بعدد الأيام التي أفطرها، ولا يشترط في السفر أن يكون على الدواب أو الأقدام، بل يحقُّ له

---

(١) المراد بقوله سبحانه: ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ هو حضور الشهر أي من حضره دخول الشهر، وهو حي غير ميت، ومقيم غير مسافر، فعليه أن يصومه، وليس معنى «شهد» أنه رأى الهلال وشاهده بنفسه، فإن الصوم يجب برؤية شاهد عدل لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» فتنبَّه والله يرعاك. الصابوني.

الإفطار ولو كان بالسيارة أو الطائرة، بشرط أن تزيد المسافة على تسعين كيلو متراً، وهي مقدار ثلاثة أيام على الدواب مع الاستراحة، وهي المسافة التي تقصر فيها الصلاة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ أي يريد الله أن ييسّر عليكم ولا يُعسِّر، فلذلك أباح لكم الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي ولتكملوا عدة صيام الأيام التي أفطرتم فيها، بسبب السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أي ولتحمدوا ربكم، على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا الله على فضله وإحسانه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ سببها أن قوماً من الأعراب قالوا يا رسول الله: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ـ أي ندعوه سراً ـ أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية، أي إنني مع عبادي، أسمع دعاءهم، وأعلم حالهم، وأعرف تضرعهم، وأقضي حوائج السائلين، فأنا قريب منهم، وفي الصحيح: «إنَّ الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته»[1] ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ أي أجيب دعاء من دعاني، إذا كان عن إيمان، وصدق طلب.

قال ابن كثير: والمراد من هذا أنه تعالى لا يُخيِّب دعاء داعٍ، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه[2]، وفي الحديث الشريف: «ما على ظهر الأرض من رجلٍ مسلمٍ، يدعو الله عزَّ وجلّ بدعوةٍ، إلاَّ آتاه الله إيَّاها، أو كفَّ ـ أي صرف ـ عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[3] ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ أي فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه، من الإيمان والطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهمَّاتهم، ولْيثبتوا على إيمانهم،

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان، وانظره في جامع الأصول ٤/ ١٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٤.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند، ورواه الترمذي رقم ٣٥٦٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب وزاد فيه «فقال رجل من القوم: إذاً نُكثِرُ، قال اللهُ أكثر».

في أن ربهم سميع مجيب، راجين إصابة الرشد والسداد، وإنما وردت آية الدعاء ضمن آيات الصيام، للتنبيه على أن هناك أوقاتاً للإجابة، منها يوم الجمعة، ووقت السحر، وعند فطر الصائم، كما جاء في الحديث الشريف: «إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُردُّ»[1]!! فينبغي للداعي أن يحرص على الأوقات الفاضلة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر آيات الدعاء، شرع في بيان تتمة الأحكام التي تتعلق بالصيام، فقال سبحانه:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيح لكم يا معشر الصائمين جماع النساء في ليالي رمضان، ولفظة «أُحِلَّ» تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، روي أن المسلمين كانوا إذا دخل المساء، أُحلَّ لهم الأكل والشربُ والجماع، إلى أن يصلُّوا العشاء أو يناموا، ثم إن جماعةً من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم، منهم «عمر بن الخطاب» جاء إلى امرأته فأرادها، فقالت له: قد نمتُ، فظنَّ أنها تعتلُّ فوقع بها، ثم تحقق أنها كانت قد نامت، فجاء إلى رسول الله ﷺ يشكو

---

(١) أخرجه البيهقي كما في الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٨٩ ورواه الترمذي بلفظ: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم».

أمره، وجاء رجال كذلك فاعترفوا بما صنعوا واعتذروا، فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيح لكم طيلة الليل في رمضان، معاشرة النساء وجماعهن، والرَّفثُ: كنايةٌ عن الجماع، وأصله قول الفُحش وإنما ذكره هنا بلفظ الرفث، استقباحاً لما وُجد منهم قبل الإباحة، قال الزجَّاج: الرفثُ كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قُبلةٍ، ولمسٍ، وملاعبةٍ، وجماع؛ قال الشاعر:

ويُرِيْنَ من أُنْسِ الحديث زوانياً وبهنَّ عن رَفَث الرجال نِفار

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أي هنَّ سكنٌ لكم وسِترٌ، وأنتم سَكَنٌ لهنَّ وسِترٌ[1]، وهو استئنافٌ يبيّن سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن، لكثرة المخالطة وشدّة الملابسة، ولمّا كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه، شُبِّه باللباس، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب والاختيان أبلغ من الخيانة، ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لمَّا تبتم مما اقترفتموه ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره أي ما فعلتم قبل الرخصة، فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم

---

(١) قال ابن عباس: أراد الله به الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجلّ كريمٌ حليم يكني، فكلٌّ من الزوجين سكنٌ للآخر.

أقول: الآية جاءت في غاية الروعة والإبداع في تصوير «العلاقة الجنسية» وسلكت ـ بطريق الاستعارة ـ مسلكاً أفاض عليها البهاء والجمال، فقد شبَّه المرأة باللباس، الذي يزيّن الإنسان، ويستر قبحه، ولولا اللباس لبدت سوءة الرجل، فكان منظره قبيحاً تنفر منه الطباع، فالمرأة ستر للرجل وسكن له، تزيّنه وتكمّله وتجمّله، والرجل ستر للمرأة، يزيّنها ويجمّلها ويسترها، وهما حالة الجماع كأنهما روحان حلاَّ في جسد واحد، بثوب واحد، فستر كل منهما الآخر، فانظر إلى روعة البيان في تصوير القرآن ﴿هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال الشاعر:

إذا ما الضجيعُ ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباساً

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ أي بعد نسخ التحريم، آن يئين، كحان يحين وزناً ومعنىً ﴿باشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم، وهو أمر إباحة وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنى به عن الجماع لالتصاق بشرتهما ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدَّره الله لكم من الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يبدو معه من غلس الليل، بخيطين: أبيضَ، وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان الخيط الأسود، لدلالته عليه، عن عدي بن حاتم قال: لمَّا نزلت ﴿حتى يَتَبَيَّنَ لكُمْ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود﴾ عمدت إلى عقال أسود، وعقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي وجعلتُ أنظر في الليل، فغدوت على رسول الله ﷺ وذكرتُ له ذلك، فقال: إنما ذلك سواد الليل، وبياض النهار[1] وفي تجويز المباشرة إلى الفجر، دلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم من أصبح جنباً ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان آخر وقته، وإخراج الليل عنه ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القربة، والمراد بالمباشرة: الوطء، وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد، وأن الوطء فيه حرام ومفسد له، لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه اللهُ عزَّ وجل»[2] ﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة، المشتملة على إيجابٍ، وتحريم، وإباحة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حدود وضعها الله تعالى لعباده وقيل يجوز أن يراد بحدود الله محارمه لأن الأوامر تستلزم النواهي، والحدُّ بمعنى المنع والحاجز بين الشيئين ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى أن يُقرب الحدُّ الحاجز

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤/ ١١٤ ومسلم رقم ١٠٩١ في الصوم.

(٢) أخرجه البخاري في التراويح ٤/ ٢٢٦ ومسلم في الاعتكاف رقم ١١٨٣.

بين الحق والباطل، لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، وهو أبلغ من قوله ﴿لا تعتدوها﴾ وقال ﷺ «ألا وإنَّ لكلِ ملِكٍ حِمىً، ألاَ وإن حِمَى الله محارِمُه»[1] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على أحكام الشرع ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ولما ذكر الله سبحانه الصيام: عقَّبه بالنهي عن أكل الحرام، المفضي إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، والمرادُ من الأكل ما يعمُّ الأخذ والاستيلاء، والمراد بالباطل الحرام ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ الإدلاء: الإلقاء، أي لا تتوصلوا بالخصومة فيها إلى الحكام على وجه الرشوة ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾ بالرفع إليهم ﴿فَرِيقٗا﴾ طائفة ﴿مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق، عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جَلَبَةَ خَصْمٍ بباب حُجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضهم أن يكون

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ١١٧ وأوله: إن الحلال بيِّنٌ وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات. .» الحديث ورواه مسلم رقم ١٥٩٩.

ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي له على ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ سأله معاذ وثعلبة فقالا، يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد، ثم ينقص فنزلت الآية، وكان هذا سؤالاً على وجه الفائدة، أي ما سبب اختلافها؟ ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ فأمر الله تعالى أن يجيب، بأن الحكمة الظاهرة في ذلك، أن تكون معالم للناس، يوقّتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات، والمواقيت جمع ميقات من الوقت، استعير للمكان، وكان الجواب مبنياً على الحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام، المذكرة لنعمة الله تعالى، وهي أن يكون معالم للناس، يوقّتون أمورهم الدينية والدنيوية، ولو كان الهلال مدوراً كالشمس، لم يكد يتيسر التوقيت به، والحكمة الباطنة لم يذكرها لأنه لم يطلع عليه كل أحد، وهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، فإن السؤال عن الحكمة لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم[2] ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ رُوي عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب البيوت، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَل بَابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت[3] ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ إذ ليس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/ ٢١٢ ومسلم في الأقضية رقم ١٧١٣.

(٢) يسمى هذا في علم البديع «الأسلوب الحكيم» فالصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله عن الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر حتى يصبح بدراً منيراً، فَصَرفهم تعالى إلى ما هو أهمُّ من هذا الأمر الظاهر، وكأنه يقول لهم: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن كيفية بدئه صغيراً دقيقاً ثم اكتماله في منتصف الشهر، فاعرفوا الحكمة من ذلك.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٤٩٤ ومسلم في التفسير رقم ٣٠٢٦.

في العدول برٌّ فباشروا الأمور من وجوهها[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تظفروا بالهدى والبر، فإن من اتقى الله تعالى، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار الإلهية حسب تقواه، وإتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجلِ يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[2] قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وقيل معناه الذين يتوقع منهم القتال دون غيرهم من المشايخ والولدان والنساء ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو بالمُثْلة، أو نحو ذلك. وعن بُرَيْدة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ، أو سريةٍ،

---

(١) إنما كانوا يتحرجون من الدخول من الباب، حتى لا يحول سقف الباب بينهم وبين السماء، وهذا جهل منهم بحقائق الدين وتشريع الله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٢١ ومسلم في الإمارة رقم ١٩٠٤.

أوصاه بتقوى الله في خاصته، ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: أُغزُوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَنْ كَفر بالله، أُغْزُوا ولا تغلُّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً»[1] الحديث، فلا يقتل الشيوخ والنساء منهم قياساً عليهم بتلك العلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يريد بهم الخير، وهو تعليل للنهي، ونهيٌ عن العدوان.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في حِلٍّ وحرم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء، وهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها. رُوي أنَّ المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل، وخاف المسلمون أن لا يُوفُّوا لهم، ويقاتلوهم في الحرم والشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة وقد فعل ذلك من لم يسلم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يُفتن بها الإنسان، كالإخراج من الوطن، أصعب من القتل لدوام ألم النفس بها، وقيل: شركهم في الحرم أشد من قتلكم إياهم فيه، لأنه ارتكاب القبيح لدفع الأقبح ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فإنهم هتكوا حِرمة المسجد، فاستحقوا أشد العذاب، فلا تبالوا بقتالهم، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل ذلك جزاؤهم، يُفعل بهم مثل ما فعلوا، لأنهم كَفرةٌ فَجَرة، لا يتورَّعون عن انتهاك محارم الله.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، واستدل به بعض المفسّرين على قبول توبة القاتل العمد، لأن الكفر أعظمُ من القتل، والله يغفره لمن تاب وأناب.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له، ليس

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٣١ والترمذي في السير رقم ١٦١٧ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦١٢ وهو حديث طويل وفيه أحكام كثيرة.

للشيطان فيه نصيب، والمراد من الفتنة: الشركُ على ما هو المأثور، ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلاّ الإسلام، أو السيف، لقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أو يُسْلِمُونَ﴾ بخلاف الكتابي فأمهلهم الله بحرمة تلك الكتب من القتل ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا وأسلموا فلا تعتدوا عليهم، إذ لا يحسن الظلم إلا لِمن ظلم، وتسميةُ الجزاء بالعدوان للمشاكلة[1]، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2].

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته، فقيل لهم: هذا الشهر بذاك الشهر، وهتكه بهتكه، فلا تبالوا به ﴿ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ احتجاج عليه أي كل حرمة يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله، فادخلوا عليهم عنوة، واقتلوهم إن قاتلوكم ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ سمى مقابلته بأنه اعتداء لشبهها بالمقابل به في الصورة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخِّص لكم ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

---

(١) معنى المشاكلة: الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالعدوان ظلمٌ، ورد العدوان ليس بظلم بل هو عدل محض، وإنما جاء اللفظ ﴿فاعتدوا عليه﴾ بطريق المشاكلة، ومثله قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في الجهاد، فإنه إذا قيّد الإنفاق بذكر «سبيل الله» فالمراد به في طريق الدين، لأن سبيلَ الله هو دينه، فكل ما أمر الله تعالى في دينه من الإنفاق، فهو داخل في الآية، سواءً كان إنفاقاً في حجة، أو عمرة، أو جهاد، أو في الزكاة، والكفارات، أو على العيال والأقارب وغير ذلك، إلاّ أن الأقرب في هذه الآية، أن يُراد بالإنفاق في الجهاد لتقدم ذكره ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بالبخل عن الإنفاق في جهاد الأعداء، أو بالكفّ عن الغزوِ والإنفاق، فإن ذلك يُقوّي العدوَّ، ويسلّطهم على إهلاككم، ويؤيده ما رُوي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا أعزَّ اللهُ الإسلام، وكثر أهله، رجعنا إلى أهلينا وأموالنا، فقال بعضنا لبعض سراً: إنَّ أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يرد علينا ما قلنا، فكانت التهلكةُ تركَ الغزو»[1]. والمراد لاتوقعوا أنفسكم في الهلاك، واستدل بالآية على تحريم

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٧٦ وأبو داود رقم ٢٥١٢ وله قصة بديعة ذكرها المحدِّثون، ونحن نذكرها لما فيها من العظة والعبرة، حيث كانت في غزوة هامة غزاها جماعة من سادات الصحابة، لبلاد الروم، ولنستمع للرواية كما في سنن الترمذي عن «أسلم أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم، فخرج لهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صفِّ الروم، حتى اقتحم صفوفهم ودخل فيهم، فصاح الناس: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: (يا أيها الناسُ، إنكم لتتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لمَّا أعزَّ الله الإسلام، وكثُر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرّاً: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يردُّ علينا ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ «فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً ـ أي مسافراً ـ في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم» يعني في القسطنطينيَّة، وهي التي تسمى اسطنبول)، وانظر جامع الأصول ٢/ ٣٢.

الإقدام على ما يخاف فيه تلفُ النفس ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويج بمساعدتهم ومعونتهم، وأمره بالإحسان مطلقاً، يدخل فيه الإعانة بالمال، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن الذكر، والإحسان خلاف الإساءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين فيثبتهم ويرضى عنهم.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدي لأدائهما، وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم، من العوارض المخلة بذلك، من الإحصار ونحوه، والعمرة سنة على الراجح لقوله ﷺ: «الحجُّ جهادٌ، والعمرةُ تطوعٌ»[1] وإتمامهما أداؤهما بشرائطهما، بلا توانٍ ولا نقصان، فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي منعتم، يُقال: حصره العدو، وأحصره، إذا حبسه ومنعه من المضي، وكل منع من عدوّ أو مرضٍ أو غيرهما فهو إحصار، لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كُسِر، أو عَرِجَ، فقد حلَّ، وعليه حجةٌ أخرى»[2] قوله فقد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك رقم ٣٠٢٣ وأخرج الترمذي عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: حديث حسن، وروي عن ابن عباس الوجوب.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الحج رقم ٩٤٠ وأبو داود في المناسك رقم ١٨٦٢ وحسَّنه الترمذي.

حلَّ أي جاز له أن يحلَّ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فعليكم أو الواجب ما استيسر، والسينُ ليست للطلب، والمعنى: إن المحرم إذا أُحصر وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدي يتيسر عليه، من بدنة، أو بقرةٍ، أو شاة، حيث أحصر عند الأكثر ولا يتحلل قبل الذبح، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ حَلْقُ الرأس كناية عن التحلُّلِ، والخطاب للمحصرين لأنه أقرب، وحمل الكثيرون بلوغ الهدي محله، على ذبحه حيث يُحصر ويتحلَّل فيه، لما روي عن ابن عمر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر ﷺ وحلق رأسه»[1] ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحةٍ أو قمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روى الشيخان عن كعب بنِ عُجْرة، قال: «أتى رسول الله ﷺ عليَّ، وأنا أوقد تحت قدر لي، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: أيؤذيك هوامُّ رأسك؟ قال: قلت نعم، قال: فاحلقْ، وصمْ ثلاثة أيامٍ، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة، لا أدري بأيِّ ذلك بدأ» النسكُ واحدتها نسيكة أي ذبيحة، وأعلاها بدنة، وأوسطها بقرة، وأدناها شاة، ولم يبين محل الفدية، والظاهر العموم في المواضع كلها وهو مذهب الإمام مالك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي فإذا لم تُحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة، قبل الانتفاع بتقربه بالحج في شهره، وقيل: من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع، شكراً لله للجمع بين النسكين، فهو كالأُضحية ويذبح يوم النحر عند أبي حنيفة، وعند الشافعي دمُ جبر يذبحه إذا أحرم. ولا يأكل منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٤/٨.

وثامنه وتاسعه، فلا يصح في النحر وأيام التشريق لكون الصوم منهياً فيها، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعمال الحج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ أي هذه مجموع عشرة أيام، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة، فإنها يطلق لها ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة، محافظة على العدد[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة، إذ لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام، في حق أهل مكة، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي من كان من الحرم مسافة القصر، وعند مالك أهل مكة، وللمسجد الحرام إطلاقان: أحدهما نفس المسجد، والثاني الحرم كله، وإرادة المعنى الأخير في الآية هنا هو قول أكثر أئمة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه، وخصوصاً في الحج ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، وارتكب مناهيه، والعقابُ هو مجازاة المسيء على إساءته.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

(١) لمَّا جاز أن يتوهَّم متوهمٌ التخيير بين الثلاثة في الحج، والسبعة إذا رجع إلى وطنه، أزيل ذلك بالجملة بقوله سبحانه: ﴿تلك عشرة﴾ وأكَّد ذلك بقوله ﴿كاملة﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته، كقولك البرد شهران ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات بين الناس، هي شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة عندنا، وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وعند الشافعي تسعة بليلة النحر، لأن الحج يفوت بطلوع الفجر من يوم النحر، وعند مالك كل ذي الحجة، عملاً بظاهر لفظ الأشهر ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي أوجبه على نفسه بالإحرام والتلبية، أو بالإحرام والنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع أو ذكره عند النساء أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب، لقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[1] أو التنابز بالألقاب لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإيمَانِ﴾ وقال ابن عمر ما نهى الله تعالى عنه المحرم في حال الإحرام ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولامراء ولا خصومة مع الخدم والرفقة، يقال: جادل إذا اشتدت خصومته ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أيامه، حرَّم تعالى الرفث، والفسوق، والجدال، على قصد النهي للمبالغة، وللدلالة على أنها حقيقٌ بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح فإن زيارة البيت المعظم، والقرب بها إلى الله تعالى، من موجبات ترك الأمور المذكورة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجَّ ولم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمُّه»[2] ثم حث على الخير عقيب النهي فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيجزي به خير الجزاء، فالخير أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسق البِرَّ والتقوى، ومكان الجدال الوفاقَ وحسن الأخلاق ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في أهل اليمن، كانوا يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فيكونون كَلاًّ ـ أي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/٢٢ ونصُّه الكامل «سباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر» وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

عَالةً ـ على الناس، فأمروا أن يتزودوا، ويتَّقوا الإبرام في السؤال»[1].
﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾ أي خافوا من عقابي أي أخلصوا في التقوى لله عزَّ وجلَّ ﴿ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فإن قضية العاقل خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى، ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى، فلذلك خصَّ أولي الألباب بهذا الخطاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا، والجناح: الإثم ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي عطاءً ورزقاً منه تعالى، يريد الربح بالتجارة لما روي عن ابن عباس قال: «كانت عُكاظُ، ومجنةُ، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فلمّا كان الإسلام فكأنهم تأثموا بأن يتّجروا في المواسم، فنزلت»[2] ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ ﴾ أي دفعتم منها بكثرة، من أفضتُ الماء إذا صببته بكثرة، وإنما سمي الموقف «عرفة» لأنه نُعِتَ لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر، فلما أراه قال: عرفت، والناس يتعارفون فيها، وعرفات للمبالغة في ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية، والتهليل، والدعاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح، وقيل المشعر الحرام هو مزدلفة، وإنما سمي مشعراً لأنه معَلم العبادة، ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه وما يقرب منه، فإنه أفضل، وإلا فمزدلفة كلها موقف، إلاّ وادي محسّر ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي كما علمكم وكما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي الهدي ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٤٦/١ وأصله في صحيح البخاري، ٣٠٣/٣ بلفظ «كان أهل اليمن يحجُّون فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فنزلت الآية».
(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج ٤٧٣/٣ وأبو داود رقم ١٧٣٢ في الحج أيضاً.

لا تعرفون كيف تذكرونه، وتعبدونه، وتؤمنون به، عن ابن عباس قال: «إن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة من ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، فكلاهما قالا: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة»[1].

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع ـ أي مزدلفة ـ وسائر الناس، يقفون بعرفة، ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمروا بأن يساووهم، وأن يفيضوا من عرفات ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر، وينعم عليه، عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البرَّ ليس بالإيضاع»[2] أي بالسير السريع الشديد.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج، وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره، وبالغوا فيه، كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخر، وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم، وقفوا

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٣٢ باب التلبية والتكبير غداة النحر.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٢٢ وأحمد في المسند ١/ ٢١١.

بمنى، بين المسجد والجبل، يذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فيقول بعضهم: أبي كبير الجفنة، رحب الفناء، كان يقري الضيف، وكان كذا وكذا، يعُدُّ مفاخره، ويتناشدون الأشعار في ذلك، وغرضهم الشهرةُ والسمعةُ ﴿ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ بل أكثر ذكراً من ذكر آبائكم، لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم، اذكروه بالتسبيحات والدعوات ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ تفصيلٌ للذاكرين أي من الناس من لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا ولا يريد شيئاً سواها، وهو المراد بقوله ﴿ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي اجعل إيتاءنا في الدنيا خاصة، يعني الجاه والغنى، والمشركون كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلاً، وغنماً، وعبيداً، ولم يطلبوا نعيم الآخرة، لأنهم ينكرون البعث ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾ من نصيب، فهو بيان لحاله في الآخرة، أنه ما كان يبتغي بحجِّه ثوابَ الله، وإنما همُّه في نيل حطام الدنيا، ولذلك فَقَد نصيبه من نعيم الآخرة.

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾ يعني الإيمان والأعمال الصالحة، والصحة، والكفاف، وتوفيق الخير، والعلم، والنصر، والعافية ﴿ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ ﴾ المغفرة، والرحمة، والثواب، والجنة ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ بالعفو والمغفرة، وعن الحسن معناه احفظنا من الذنوب المؤدية إلى النار، وعن علي: الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ أي لكل منهم نوع نصيب، من جنس ما كسبوا، أو مما دعوا به، نعطيهم منه ما قدرناه، وتسمية الدعاء كسباً لما أنه من الأعمال ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحة بصر.

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي كبِّروه أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار، وغيرها في أيام التشريع، روي عن ابن عمر: «أنه كان يكبّر بمنى تلك الأيام جميعاً، فيسمعه أهل المسجد، فيكبِّرون ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ منى»(1) ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ ﴾ أي استعجل النَّفر ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في تمام يومين، أي بعد النحر، والمراد فمن نفر في ثاني أيام التشريق قبل الغروب بعد رمي الجمار ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ باستعجاله ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ ﴾ أي النفر حتى رمى في اليوم الثالث ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والمراد التخيير بين التعجل والتأخر، ولا يقدح في أفضلية الثاني، وإنما ورد بنفي الإثم تصريحاً، لرد أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فيه ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ لمن اتقى المحظورات أو اتقى فيما بقي من عمره، ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات، أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء والحساب، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق، وهو تأكيد للأمر بالتقوى، وموجب للامتثال به، فإن من علم الحشر والمحاسبة والجزاء، كان ذلك من أقوى الدواعي عنده إلى ملازمة التقوى والمراد بقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ أنه حيث لا مالك سواه، ولا ملجأ إلا إياه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

(1) أخرجه البخاري في العيدين ٢/ ٤٦١ من فتح الباري ولفظه: «كان عمر يكبِّر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبّرون، ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ مِنى تكبيراً».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس في شأن التقوى إلى حزبين، وفيه تحذير من الاغترار بظاهر القول، أي ومنهم من يروقك كلامه، ويعظم موقعه في نفسك، لما تشاهد فيه من لطف الأداء، وحلاوة اللسان، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الدنيا فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علّام الغيوب، الذي لا يخفى عليه سريرة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يحلف، ويقول: اللهُ يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني، من محبتك ومن محبة الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد العداوة والجدل للمسلمين في الباطن، وفي الآية إشارة إلى أن شدة الخصومة مذمومة، وهي من صفات المنافقين، لأنهم يحبون الدنيا فيكثرون الخصومة عليها وفي الحديث الشريف: «تجدون من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[(١)] والآية نزلت في الأخنس بن شُرَيق الثقفي، كان حلو الكلام والمنظر، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ منه، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ فمرَّ بزرعٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعَقَر الحُمُرَ، وارتد عن الإسلام، وهذه الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات، ونزولها في الأخنس لا يمنع من العموم[(٢)].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أسرع جاهداً ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف بالظلم، حتى يخرِّب الزرع والبهائم، والنسلُ: كل ذات روح، والمراد به نتاج الحيوان ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ لا يرتضيه ويكره ويبغض كل مفسد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ١٠/ ٣٩٥ ومسلم في البر والصلة رقم ٢٥٢٦.

(٢) نزلت في الأخنس، كان منافقاً كذاباً، يخدع الناس بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، وهي عامة في كل منافق، كما قال القائل:

يُعطيك من طَرَف اللِّسانِ حَلاوةً ... ويَرُوغ فيك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم والتكبر عن قبول الحق ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي كافيه جهنم، جزاءً وعذاباً ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ المهادُ: الفراشُ أي بئس الفراش نار الجحيم، والتعبير به للتهكم، وفي الآية ذم لمن يغضب إذا قيل له: اتق الله، روي عن ابن مسعود أنه قال: إن من أكبر الذنب، أن يقول الرجل لأخيه: اتّق الله، فيقول: عليكَ بِنفسك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ يبيعها ويبذلها في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى يقتل في سبيل الله، فصار كالبائع، والله تعالى كالمشتري، والثمن ثواب الله ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ طلباً لرضاه، وهذا كمال التقوى ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء، وكلّفهم بالجهاد، فعرَّضهم لثواب الشهداء، ومن رأفته أن النفس والمال له، ثم يشتري ملكه بملكه فضلاً منه[1].

---

(١) نزلت هذه الآية في قصة صُهَيْب الرومي رضي الله عنه، فإنه لمّا هاجر إلى المدينة المنورة، لحقه رجال من قريش يريدون منعه، فنزل عن راحلته، ونَثَر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم رجلاً ـ أي لا أخطىء الرمي ـ والله لا تصلون إليَّ، حتى أرمي بما عندي من السهام، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي حتى ينكسر، ثم افعلوا بي ما شئتم!؟ قالوا: جئتنا صعلوكاً ـ أي فقيراً ـ لا تملكُ شيئاً من المال، وأنت الآن ذو مالٍ وفير!! قال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلّهم على ماله بمكة فذهبوا فأخذوه، ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلما وصل المدينة كان الوحي قد سبقه بالخبر، فدخل على رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ربح البيع يا صهيب، ربح البيع، فنزلت الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٢١٠ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ السِلم بالكسر الإسلام، والاستسلام، والطَّاعة، وكافة بمعنى جميعاً، والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملةً، ظاهراً وباطناً، ورُوي عن ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، لمَّا أسلموا أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام، وواجب في التوراة، فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم أن يدخلوا في شرائع الإسلام، ولا يتمسكوا بالتوراة المنسوخة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ بمخالفة ما أُمرتم به وبوساوسه فيما زيَّن لكم ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ظاهر العداوة، فإن قلتَ: إنا لا نرى هذه العداوة! قلت إن الله تعالى بيَّن عداوته لنا، وأنه أغشُّ عباد الله لعبيد الله، وأنه كيف خدع آدم حتى أكل من الشجرة.

﴿ فَإِن زَلَلۡتُم ﴾ أي انحرفتم عن الدخول في الإسلام أي ملتم وضللتم، وأصل الزلة: السقوط ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ الآيات والحجج، الشاهدة على أنه الحق، الموجبة للدخول في الإسلام ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين، ولا ينتقم إلا بالحق.

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي، أي ما ينتظر هؤلاء المتبعون خطوات الشيطان ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالمعنى اللائق به، منزَّهاً

عن مشابهة المحدثات، وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة، كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلَّة كقلَل جمع قُلَّة، وهي ما أظلك[1] ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ أي السحاب الأبيض، وإنما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة، فإذا أتى منه العذاب كان أفظع وأوجع ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي وتأتيهم الملائكة الذين وكّلوا بتعذيبهم ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وتمَّ أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لتيقنِ وقوعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد، في الدنيا والآخرة، فيجازيهم عليها بالثواب أو بالعقاب، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد من أهل الخطاب، والمراد بالسؤال تبكيتهم بذلك، وتقريرٌ لمجيء البينات، لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم، كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، يقول لمن حضر: سله كم أنعمتُ عليه؟ وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات، لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله تعالى: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة شاهدة على الحق، دالة على صدق رسول الله ﷺ وأهل الكتاب أعرف بالمعجزات، وكيفية دلالتها على الصدق، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي آيات الله، فإنها سبب الهدى، الذي هو أجلُّ النعم، وتبديلها بالتحريف،

---

(١) الظُلَلُ جمع ظُلَّة وهي ما أظلَّك من فوقك كالسحاب والغمام، والتنكير فيها للتهويل فإنها في غاية المهابة والهول، لما لها من الكثافة التي تغمُّ النفس.

والتأويل الزائغ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه، وتمكّن من معرفتها، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي حُسّنت في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّنُ على الحقيقة هو الله تعالى، أو الشيطان بالأشياء الشهية، والوسوسة الخفية. ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلالٍ، وعمّار، وصهيب، أي يسترذلونهُمْ، ويستهزئون بهم، على رفضهم الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، والآيةُ نزلت في أبي جهل وأضرابه، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: في رؤساء اليهود ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ هم الذين آمنوا، وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأنهم أعرضوا عن الدنيا زهداً فيها، لكونها مخلة بتوجههم إلى جناب القدس، ﴿فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم في أعلى العلّيين وأولئك في أسفل السافلين، ولأنهم في كرامة، وأولئك في مذلة ومهانة ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في الدارين ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة، وابتلاءً أخرى، أو يرزق أولياءه المؤمنين في الآخرة، رزقاً واسعاً رَغَداً، لا زوال له ولا انقطاع.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي كان الناس على الفطرة وعلى

---

(١) سورة البقرة، آية: ٧٥.

الإيمان، فاختلفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنزل مع كل واحدٍ كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن معهم كتاب، فالمعنى أنزل جنس الكتاب مقدار مصاحبته للنبيين حيث كان كل واحد منهم يأخذ الأحكام إما من كتاب يخصه أو من كتاب من قبله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ علة للإنزال المذكور، أي ليحكم الله بما أنزله في كتابه بين عباده ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التَبَسَ عليهم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب المنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف، سبباً لاستحكامه، والمراد من الذين أوتوه «اليهود والنصارى» واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ أي الدلالات الواضحة على صدق الكتاب ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم، لحرصهم على الدنيا والرياسة، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتاب ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه، وفي إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً ما لا يخفى من التفخيم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره وبإرادته ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الحق، الذي لا يضلُّ سالكه، ويصل به إلى طريق السعادة والنجاة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ نزلت في غزوة الخندق، حين أصاب

المسلمين ما أصابهم، من الشدة والخوف، والبرد وسوء العيش، وأنواع الأذى، حتى بلغت القلوبُ الحناجر، والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي والحال لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به، من الأحوال الهائلة التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدة، وهو متوقع ومنتظر ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي أصابتهم الشدة، من الخوف والفاقة ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي الآلام والأمراضُ ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما دهمهم من الأهوال والأفزاع[1] ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي انتهى أمرهم من الشدة، إلى حيث اضطرهم إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى ـ والمؤمنون المقتدون بآثاره ﴿مَتَىٰ﴾ أي متى يأتي ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ طلباً وتمنياً له، واستطالة لمدة الشدة، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على تقدير القول أي فقيل لهم: إن نصر الله قريب، فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك، فإن نصر الله قريب، فلا تيأسوا من الفرج[2]، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول إلى نصرة الله، والفوز بالكرامة، برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والأهوال.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ شروع في بيان الأحكام، لأن من عادة القرآن الكريم أن يكون بيان التوحيد، والوعظ، والأحكام مختلطاً، ليكون كل واحد مقوياً للآخر، ومؤكداً له. روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في

---

(١) هذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل ـ مع علو منزلتهم في الصبر والثبات ـ قد استبطأوا نزول النصر، كان ذلك دليلاً على أن الشدة قد بلغت منتهاها، وأن الأمر في غاية الهول.

(٢) روى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة: فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، ثم يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه ـ أي ما يصرفه ـ والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

«عمرو بن الجموح» وكان شيخا كبيراً وله مال كثير، فقال يا رسول الله: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت الآية ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أصناف أموالهم ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خيرٍ كان، ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع المال ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ للإيذان بأن الأهمَّ بيان المصارف، وليس في السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم، وحق المعلِّم فيه أن يكون كطبيب رفيق، يتحرى الشفاء، طَلَبه المريضُ أم لم يطلبه، ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عَليه، بيَّن الأمرين وهذا من الأسلوب الحكيم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي المحتاجين منهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولم يتعرض للسائلين وفي الرقاب، إما اكتفاءً بما ذكر في مواضع أخر، وإمَّا بناءً على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنه شامل لكل خير، وفي أي مصرفٍ كان، فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق، فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدِّم الأول والأول ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي فإنَّ الله يعلم ما تفعلونه من الخير، ويوفي ثوابه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢١٧)﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم جهاد الكفار، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي والقتال شاق عليكم، مكروه طبعاً، وهذا الكره من حيث نفور

الطبع، لما فيه من مؤنة المال، ومشقة النفس، وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، لأن هذا ينافي الإيمان، وذلك ككراهة الشارب للدواء البشع ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به فإن الطبع يكرهه، وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم، ولفظة «عسى» توهم الشك مثل لعلَّ، وهو من الله يقين، والمعنى: إن الغزو فيه إحدى الحسنتين: إما الظفر والغنيمة، وإمَّا الشهادة والجنة، وربما كان الشيءُ الشاق سبباً للمنافع الجليلة، كشرب الدواء المر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهُوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه، وهو يُفضي بها إلى الردى، ومن ذلك ترك الجهاد مع الأعداء، فإن فيه الذل، وضعف الأمر، وسبي الذراري، ونهب الأموال، وخروج الوطن من اليد، وإنما ذكر «عسى» الدال على عدم القطع، لأنه لمَّا كانت النفس قابلة لعكس ما تهوى، لم يقطع بأنها تكره ما هو خير لها وتحب ما هو شر لها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم وما هو شر لكم، وحُذِفَ المفعولُ للإيجاز ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم، به، لأنه تعالى لا يأمركم إلا بما علم أن فيه خيراً لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه، لأنه تعالى لا ينهاكم إلاَّ عما هو شرٌّ لكم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية في جمادى الآخرة، ليترصدوا عيراً لقريش فيهم «عمرو الحضرمي» وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا العير وكان ذلك غِرَّة رجب، وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحلَّ محمد الشهرَ الحرام، وعيّر بذلك أهلُ مكة من كان بها من المسلمين، وعنَّف المسلمون عبد الله وأصحابه فيما صنعوا، فعظم ذلك على أصحاب السريَّة، وقالوا يا رسول الله: لا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام، أهو حلال

أم حرام؟ ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي إثم كبير، وفيه تقريرٌ لحرمة القتال في الشهر الحرام، والأكثرون أن هذا الحكم منسوخ، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلوا المُشْرِكِينَ﴾ فإن المراد من الأشهر الحرم أشهر معينة، أبيح للمشركين السياحة فيها ﴿وَصَدٌّ﴾ صرفٌ ومنع ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام وما يوصل العبد إلى الله تعالى من الطاعات ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي بالله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وصدٌّ عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد الحرام ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأً وبناءً على الظن، ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أي ما فعلوه من الإخراج، والصدّ عن الإسلام، وما يعذبون به المسلمين ليكفروا ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي من قتل الحضرمي ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم، وإصرارهم على الفتنة في الدين ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ الحقّ إلى دينهم الباطل، إخبار عن دوام عدواة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها تحذيراً للمؤمنين عنهم ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم ذلك ، وإشارة إلى تصلّب المؤمنين في الدين، كأنه قيل: أنّى لهم ذلك؟! ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الحق، تحذير من الارتداد أي ومن يفعل ذلك بإضلالهم، أو الخوف من عداوتهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام، وفيه ترغيب إلى الرجوع إلى الإسلام ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالارتداد، والموت عليه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي أعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية، لبطلان ما تخيّلوه من الفوائد، يقال: أحبط الله عمله أي أبطله ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كسائر الكفرة لا يخرجون من النار أبداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت في أصحاب السرية، لمَّا ظُنَّ بهم أنهم إنْ سَلِموا من الإثم، فليس لهم أجر ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرَّر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، فكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء، إشعاراً بأن العمل غير موجب، ولا قاطع لدخول الجنة، سيما والعبرة بالخواتيم، والهجرة هي الخروجُ من أرض إلى أرض، والمجاهدة أصلها من الجهد وهو المشقة لنصرة الدين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوه خطأ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب لهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

روي أن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل مع نفر من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتِنَا يا رسول الله في الخمر، والميسر؟ فإنهما مذهبةٌ للعقل، ومسليةٌ للمال؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الخمر مصدر خَمَره أي سَتَره، سمي به لتغطيتها العقل، والتمييز والخمر النيء من ماء العنب، إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وهو حقيقةٌ في كل مسكر، لما في الصحيحين «كلُّ مسكر خمرٌ»[1] ومن أنكر حرمة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة ١٠/٣٥ ومسلم رقم ٢٠٠٣ في الأشربة أيضاً ولفظه «كل مسكرٍ خمرٌ، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها، لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة» وانظر الروايات في جامع الأصول ٥/٩٨.

الخمر، فقد كفر لجحوده الكتاب، إذْ سمَّاه الله، رجساً، والرجسُ محرم العين فيحرم ولو قطرة والحق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الشراب المتخذ من العنب وغيره كيفما كان، وبأي اسم سُمّي، متى كان بحيث يسكر حرامٌ، وقليله ككثيره، ونجاسته غليظة، ويحد شاربه لما ورد في الصحيح «كل شراب أسكر فهو حرام»[1] والأحاديث فيه متضافرة، والميسر من اليُسْر سمّي به، لأنه أخذ المال بيُسر، من غير كدٍّ ولا تعب وقد كان لأهل الجاهلية عشرة أزلام أي أقداح: الفذُّ، والتوأمُ، والرقيب، والحِلْس، والنافس، والمسبل، والمعلى، والمنيح، والسفيح، والوغد، فلكل منها نصيب من جَزُور ينحرونها، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً؛ فللفذِّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، ولا سهم للمنيح، والسفيح، والوغد، ويجعلونها في خريطة، ويضعونها على عدل عندهم، ثم يجلجلها ـ أي يخلطها ـ ويدخل يده فيخرج باسم رجل زلماً ـ قدحاً ـ فمن خرج له نصيب من ذوات الأنصباء، أخذ نصيبه، ومن خرج له من تلك الثلاثة التي لا نصيب لها، غرم ثمن الجزور، مع حرمانهم، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بها، وفي حكمه أنواع القمار، من النرد، والشطرنج وغيرهما[2] ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن الخمر مسلبة للعقول، التي هي قطب الدين والدنيا، مع كون كل منهما متلفة للأموال، ومسببة للتخاصم والتشاتم، وقول الزور، والمقاتلة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة ٤١/١٠ ولفظه: عن عائشة قالت: سُئل رسول الله ﷺ عن ـ البِتْع ـ وهو نبيذُ العسل، وكان أهل اليمن يشربونه ـ فقال رسول الله ﷺ «كلُّ شرابٍ أسكَرَ فهو حرامٌ».

(٢) ومن القمار المحرَّم، ما انتشر في هذا الزمان باسم «أوراق اليانصيب» ولو كان القصد منها جمع المال للمؤسسات الخيرية، كالمستشفيات، والمدارس، وصندوق الإعانات الخيرية، فالشأن فيها جميعاً شأن الجزور في الجاهلية فهو حرام، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والانتحار، وترك المأمور، وفعل المحظور، وفي تقديم إثمه ووصفه بالكبير، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهي كسب الطرب واللذة، وتشجيع الجبان، وتسخية البخيل، وأخذ المال باليسر في الميسر[1]، ونصَّ على غلبة الأول بقوله ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما، أعظم من المنافع المتوقعة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم، وماذا يتركون؟ ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي أنفقوا ما تيسَّر من أموالكم، وما فضل عن حاجتكم، وكان التصدق في أول الإسلام بالفضل فرضاً، فإذا كان الرجل صاحب زرع، أمسك قوت سنة، وتصدق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2] وقيل: هو في صدقة التطوع، إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لتبين قدره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية، وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى، واضحة المدلول، لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتفكروا فيها، وتقفوا على مقاصدها، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا المصالح المنوطة بها.

---

(١) المنافع في الخمر مادية، وليست منافع صحيّة أو روحية، فقد كانوا يبيعون الخمر بأثمانٍ غالية، فيربحون منها مرابح خيالية، وليس في الخمر أي منافع بدنية، اللهم إلاَّ تلك التصورات والأوهام، التي عبّر عنها شعراء الجاهلية:

وَنَشْرَبُها فتتركنا مُلُوكاً ... وأُسْداً لا يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ

أي تجعلهم الخمرة كأنهم ملوكٌ وشجعان لا يغلبهم أحد، والجنون فنون.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٩٤ ومسلم رقم ١٠٣٤.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين، فتأخذوا بالأصلح والأنفع منهما، وتجتنبوا ما يضرُّكم ولا ينفعكم، أو لتتفكروا في الدنيا وزوالها، والآخرة وبقائها، وهو المروي عن ابن عباس والحسن ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إن الذين يأكلونَ أموالَ اليَتامى ظُلماً﴾ الآية، تحرَّج المسلمون تحرجاً شديداً، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، فاشتد ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم، خير من مجانبتهم[1] ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم على وجهٍ ينفعهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، الذي هو أقوى من العلاقة النسبية، ومن حقوق الأخوة، وموجبها، المخالطةُ بالإصلاح والنفع أي أن تخالطوهم في الطعام والمسكن، وفي الآية دليل خلط مال الولي بمال اليتيم، والتصرف فيه بالبيع والشراء، إذا وافق الإصلاح، وعلى أنه لا بأس بتأديب اليتيم، وفيها دلالة على جواز الاجتهاد، لأن الإصلاح يعلم بالاجتهاد ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ وعيدٌ ووعد، لمن خالطهم لإفسادٍ وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء الله لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة، ولكنه يسَّر عليكم الدين فلم يكلفكم ما يشق عليكم، والعَنَتُ: شدة المشقة، والضرر، وأصله حمل الإنسان على مشقةٍ لا تُطاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «عزيزٌ» أي غالبٌ على أمره، حكيم أي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة، ولهذا لم يكلفكم بما لا تطيقون.

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧١ والنسائي ٦/٢٥٦ ولفظه عن ابن عباس قال: «لمَّا نزل ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ ونزل ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فإذا فَضَل من طعام اليتيم وشرابه شيءٌ، حُبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قل إصلاح لهم خيرٌ..﴾ الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم».

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوجوا يا معشر المسلمين بالمشركات الوثنيات، اللواتي ليس لهن دين سماوي، حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر، ولا يدخل بالمشركات هنا اليهوديات والنصرانيات، لأنَّ لهن حكماً خاصاً لقوله تعالى: ﴿وَطَعامُ الذينَ أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ وطعامُكُمْ حِلٌّ لهم، والمُحْصَناتُ من المؤمناتِ والمحصَنَاتُ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلكُمْ﴾ أي العفيفات من الكتابيات[1] ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأمةٌ مملوكة مؤمنة، خير وأفضل من حرة مشركة كافرة، لا تؤمن بالله ورسوله، ولو أعجبتكم المشركة بحسنها وجمالها ومالها، فالإيمان أساسٌ في الزواج ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من الإنكاح، والمراد بهم الكفار على الإطلاق، أي لا تزوجوا المشركين بالمؤمنات، سواء كنَّ حرائر أو إماءً ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ ويتركوا ما هم فيه من الكفر، واستدل بها على اعتبار الولي في النكاح مطلقاً، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالكافر ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذلّ المملوكية ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ مع ما له من الحرية ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين

---

(١) هذا الحكم بشرط أن يكون للزوج المسلم، السلطة الكاملة على أولاده، وأن يكونوا تبعاً له عند الفراق، كما هو في النظام الإسلامي، أمّا إذا خاف أن يتبعوا أمهم كما هو الحال في النظام الغربي والأمريكي، أو كان للأم الكتابية السلطة على تربية الأولاد، فيحرم الزواج بها خشية ضياع الأولاد، وتعريضهم للتنصُّر على يد أُمّهم النصرانية، فتدبَّر الأحكام والله يرعاك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يَدۡعُونَ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق، فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم والمقصود أن المؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة، ويجتنب ما يُفضي إلى العذاب، مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد الحق، والعمل الصالح، الموصلَيْنِ إليهما، ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ بتوفيق الله تعالى، وتيسيره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ المشتملة على الحكم الرائعة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها، فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ روي عن أنس أنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت ـ أي لم يساكنوها في بيت واحد ولم يخالطوها ـ فسأل أصحاب النبيّ ﷺ النبي عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»[1] أي اصنعوا كل شيء من الملاعبة والمضاجعة إلا

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض ٢٤٦/١ وتتمته: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ أن يدعَ من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه، فجاء أُسَيْد بن حُضير، وعَبَّاد بن بشر فقالا «يا رسول الله: إن اليهود تقول: كذا، وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجه رسول =

الجماع، والمحيض مصدر بمعنى الحيض، كالمعيش بمعنى العيش، وأصله: السيلان، يُقال: حاض السيل وفاض ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي إنه شيءٌ مستقذر، مؤذٍ لمن يقربه، لأنه دم منتن، خارج من مجرى البول ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا مجامعتهن في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ولا تجامعوهنَّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، وهو تأكيد لحكم الاعتزال، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن ـ أي جماعهن ـ لا عدم القرب منهن، أو عدم مؤاكلتهنَّ ومجالستهن، كما كان يفعل اليهود ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا انقطع عنهن دم الحيض، وتطهَّرن بالماء، فأتوهنَّ في المكان الذي أحلَّه الله لكم، وهو القُبُل ـ الفرج ـ مكانُ الذرية والنسل، لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي التائبين من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض، والإتيان في غير المأتيِّ، وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهير.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم، شُبِّهن بها تشبيهاً، لما يُلقى في أرحامهنَّ من النُّطَف بالبذور، والحرثُ: إلقاء البذر في الأرض ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فأتوهن في مكان الزرع، وهو كالبيان لقوله ﴿فأتُوهُنَّ من حيثُ أمرَكُمُ اللهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أيِّ جهةٍ شئتم، باركةً، أو مستلقيةً، أو مضطجعة، بعد أن يكون المأتيُّ واحداً، وهو موضع الحرث، لا مكان الفرث، قال مجاهد: كيف شئتم، وقال الضحاك: متى شئتم، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها في قُبُلها، جاء الولدُ أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[1] وعن أبي

= الله ﷺ حتى ظننَّا أن قد وجد عليهما ـ أي غضب ـ فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لَبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما» رواه مسلم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/١٤٣ ومسلم في النكاح رقم ١٤٣٥.

هريرة قال: قال ﷺ: «ملعون من أتى امرأةً في دُبُرها»[1] وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا لأن الله نص على ذكر الحرث ـ الزرع ـ فلا يحل العدول عنه إلى غيره ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فعل الخير، والعمل الصالح، ومنه التسمية وطلب الولد المؤمن، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إنْ يُقَدّرْ بينهما ولد في ذلك، لم يضرَّه الشيطانُ أبداً»[2] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ أي أيقنوا أن مرجعكم إليه بالبعث، فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم، وفي هذا تذكير وتحذير.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ عُرْضةً: أي حاجزاً ومانعاً، والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله، سبباً مانعاً عن فعل الخير ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي من أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فتتعلّلوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله، وأريد أن أبرَّ بيميني، بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم، فيكون الله كأنه السبب المانع عن فعل البِرّ والخير والإصلاح بين الناس. قيل: إنها نزلت في الصدّيق رضي الله عنه لمّا حلف ألاّ ينفق على مسطح، لخوضه في حديث الإفك، وقيل: نزلت في ابن رواحة حين حلف ألا يكلِّم خَتَنَه،

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٦٢ ورواه الترمذي رقم ١١٧٦ بلفظ قال ﷺ: «لا ينظر الله عزَّ وجلّ إلى رجلٍ أتى رجلاً أو امرأة في دبرها».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/٢٢٨ فتح الباري.

وروي عن عائشة أن المعنى: لا تكثروا الحلف بالله، في كل حق وباطل، فتبتذلوا اسمه الأعظم في كل كثير وحقير، إذا أردتم لأنفسكم البِرَّ.. فيكون الغرض النهي عن كثرة الأيمان ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع أيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم نيّاتكم، فحافظوا على ما كلفتموه، ولا تكثروا الحلف بالله، فإنه ضربٌ من الجرأة على الله تعالى.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار، والمراد به في الأيمان ما لا عقد معه ولا قصد، وقد اختلف فيه، فقال أبو حنيفة: هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، فإنه لا قصد فيه إلى الكذب، وعند الشافعي هو قول العرب: لا والله، وبلىٰ والله، مما يؤكِّدون به كلامهم، عن عائشة رضي الله عنها هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله[1]. ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقتادة ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن يعاقبكم، بما اقترفته قلوبكم، من إثم القصد إلى الكذب باليمين، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة، تربصاً للتوبة، والحليم المتأني الذي لا يعجّل بالعقوبة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٧/٢٠٧ موقوفاً على عائشة، ورواه أبو داود مرفوعاً، وإذا ثبت هذا مرفوعاً فهو القول الفصل، لأنه لا عطر بعد عروس، ويكون معنى الآية: لا يؤاخذكم الله بما جرى على لسانكم، من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به الحلف، وإنما يقصد تأكيد الكلام.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ الإيلاءُ: القَسَمُ والحلف، وفي عرف الشرع الإيلاءُ: اليمينُ على ترك الوطء، روي أن الإيلاء في الجاهلية، كان طلاقاً، وإذا كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوج بها غيره فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيّماً، ولا ذات بعل، والغرض منه مضارة المرأة، فأزال الله ذلك ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي لهم أن ينتظروا أربعة أشهر، من غير مطالبة بفيء أو طلاق، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك، وحكمه أنه إن رجع إليها في المدة بالوطء صح الفيء وحنث، ولزمته كفارة اليمين، وإذا مضت الأربعة بانت بتطليقةٍ بائنة ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا عن اليمين بالحنث في الأشهر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر للمولي ما قصد بالإيلاء من الإضرار بالمرأة.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ أي صمموا قصد الطلاق وأجمعوا عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بما جرى منهم من الطلاق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم، وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ يريد بها المدخول بهن، من ذوات الأقراء ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾خبر في معنى الأمر، مفيد للتأكيد، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فيخبرُ به موجوداً متحققاً ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ تهييجٌ وبعثٌ لهن على

التربص، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرْنَ أن يقمعْن أنفسهنّ، ويجبرنها على التربص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي يتربصن مدة ثلاثة قروء - أي حِيَضٍ - لقوله ﷺ «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1] والقرء: اسمٌ يقع على الحيض، والطهر، وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقراء، اختلف الفقهاء على قولين: **أحدهما**: هو الحيض، رُوي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، **القول الثاني**: أنه الأطهار يروى ذلك عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة وهو مذهب مالك والشافعي، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد والحيض، استعجالاً في العدة، وإبطالاً لحق الرجعة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي فلا يجترئن على ذلك، فإن قضية الإيمان منافية له قطعاً، وهذا وعيدٌ شديد، لتأكيد تحريم الكتمان ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل كعم وعمومة، أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً، كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة، والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى النكاح، والرجعة إليهن ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ في زمان التربص، والحكمةُ في إثبات الرجعة، أنَّ الإنسان لا يدري هل تشق عليه مفارقته أولا، فجعل الله ذلك للتجربة، وهذا التدريج يدل على كمال رحمته تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ أي الأزواج ﴿إِصْلَٰحًا﴾ لما بينهم وبينهنَّ، وإحسانا إليهن، ولم يريدوا مضارتهن بتطويل العدة، وليس المراد به شرطية الإصلاح بصحة الرجعة، بل هو الحث عليه، والزجر عن قصد الإضرار ﴿وَلَهُنَّ﴾ عليهم من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق، التي يجب مراعاتها، ويتحتم المحافظة عليها، فقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهنَّ ضرباً غير

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، ولفظه عند الترمذي ١/ ٢٢٠ قال ﷺ في المستحاضة: «تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها. .» الحديث.

مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»[1] الحديث، وقوله «لا يوطئن فرشكم» معناه: لا يأذنَّ لأحد أن يتحدث إليهن، وليس المراد بوطء الفرش الزنا، ولو كان المراد ذلك لوجب الحد لا الضرب ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي زيادة في الحق، لأن حقوقهم في أنفسهن، وحقوقهن في المهر والكفاف، وترك الضرار، ونحوها، أو مزية في الفضل، لما أنهم قوّامون عليهن، يخصّون بفضيلة الرعاية والإنفاق، والدرجةُ يعبّر بها عن المنزلة الرفيعة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام، ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه.

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ هو بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد به الرجعي، أي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرجعة: مرتان أي اثنان، وإيثار لفظ، مرتان، للإيذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة، لا دفعة واحدة، والجمع بين تطليقتين، وثلاثة، بدعةٌ في طهر واحد، لأنه تعالى أمرنا بالتفريق، ومعنى الآية: إن عدد الطلاق الذي

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع ٢/٨٨٦ وهي خطبته ﷺ المشهورة التي حدَّد فيها الحقوق والواجبات العامة والخاصة وهو واقف في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، وهي من جوامع الكَلِم.

لكم فيه رجعة إلى أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة لكم بعد التطليقتين ﴿فَإِمْسَاكُۢ﴾ أي فالحكم بعدها إمساك لهنَّ بالرجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي بحسن عشرة ولطف معاملة، والمعروفُ: هو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ هو أن يؤدي إليها جميع حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، روي أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: «التسريح بإحسان»[1] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور فإنَّ ذلك منافٍ للإحسان ﴿شَيْـًٔا﴾ أي نذراً يسيراً، فضلاً عن الكثير، ثم استثنى الخلع فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه، من موجب الزوجية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بمشاهدة بعض الأمارات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لا على الزوج في أخذ ما افتدت، ولا عليها في إعطائه، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إنَّ ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، والله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعتُ جانب الخباء، فرأيته أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً، وقال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقةً لي، فإن ردَّتْ عَليّ حديقتي طلقتها!! قال ﷺ: ما تقولين؟ قالت: نعم يا رسول الله، وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما»[2] وهو أول خلع في الإسلام

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي رزين الأسدي.

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير الطبري، ورواه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٤٦٤ بأوجز من هذا بدون قصة رفع الخباء، ولفظه بعد جملة أكره الكفر في الإسلام، فقال لها رسول ﷺ: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال له الرسول ﷺ: اقبل الحديقة، وطلّقها تطليقة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد هذا الطلاق، أي إن طلّقها بعد اثنتين، فلا تحل له من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوج غيره، واتفق الأئمة على أنه لا بدَّ من الإصابة لما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة رفاعة القُرَظي إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن رفاعة طلّقني فبتَّ طلاقي، وإني نكحتُ بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب، فقال لها الرسول ﷺ: تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا، حتى يذوق عُسَيْلتكِ، وتذوقي عُسَيلته»[1] والحكمة في هذا الحكم، الردعُ عن التسرع إلى الطلاق، والعود إلى المطلقة الثلاث، والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل مكروه لما رُوي عن ابن مسعود أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المحِلَّ، والمحلَّل له»[2] ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ على الزوج الأول والمرأة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد بعد المدة ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما شرعه الله من حقوق الزوجية، ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي أحكامه المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بهذا البيان اللائق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم، وتخصيصهم بالذكر للإشادة بهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والتعاليم الإلهية.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٣٦١ ورواه الترمذي رقم ١١١٨.
(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ٣/ ٤٢٨.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، فإنَّ الأجل كما يُطلق على المدة يطلق على منتهاها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ أي فراجعوهن من غير إضرار، أو خلُّوا سبيلهن من غير إضرار، والإمساك مجازٌ عن المراجعة، والتسريح بمعنى الإطلاق، مجازٌ عن الترك، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صوره، اعتناءً بشأنه، ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه. أي لا تراجعوهنَّ إرادة الإضرار بهن، وكانوا يضارونها لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ متعلق بـ﴿ضراراً﴾ أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإمساك المؤدي إلى الظلم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ بتعريضها للعقاب والعذاب، وفوَّت على نفسه منافع الدين، من الثواب على حسن المعاشرة، ومنافع الدنيا من عدم رغبة النساء به، لاشتهاره بفعل القبيح ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة ﴿هُزُوًاۚ﴾ أي مهزوءاً بها، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلِّق ثم يقول: لعبتُ، فنزلت. نهى تعالى عن الهزء، وأراد ما يستلزمه من الأمر بضدّه أي جدُّوا في الأخذ بها، وارعوها حقَّ رعايتها، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهزلُهُنَّ جِدٌّ: النكاحُ، والطلاقُ،

والرَّجْعةُ»(1) ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة الرسول، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ القرآن، والسنّة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن المحافظة على أوامره، والقيام بحقوقه الواجبة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تَذَرون فاحذروا من جزائه وعقابه، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، دَلَّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ففي الآية الأولى معناه المشارفة أي مقاربة انقضاء العدة، وفي الآية الثانية انتهاء العدة ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ العضْلُ: الحبسُ والتضييقُ، وفي الشرع المنع، يقال: عَضَل فلان ابنته إذا منعها من التزوج، والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، أو للأولياء في عضلهنَّ لبناتهنَّ أن يرجعن إلى أزواجهن، أو الخطاب للناس كافة، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق، فلا يقع فيما بينكم عضل، ﴿أَن يَنكِحۡنَ﴾ من أن ينكحن، وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ أي لا يمنعونهنَّ من الرجوع إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي بما لا يكون مستنكراً شرعاً، ومروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ، أو بما دون مهر المثل، ليس من باب العضل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصّل من الأحكام ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه، خوفاً من عقابه، فالمواعظ إنما تنجع فيهم، أمَّا الذين لا يؤمنون بلقاء الله، فلا يخيفهم إنذار ولا تحذير ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ أي التمسك بأوامر الله، واجتناب نواهيه، أفضل لكم وأطهر، من الوقوع في الآثام، والتعرض لعذاب الرحمن ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي والله عزَّ وجلّ يعلم ما هو أصلح لكم من الشرائع والأحكام، وما فيه لكم من النفع والصلاح، وأنتم لا تعلمون ذلك، فدَعُوا رأيكم وهواكم، وامتثلوا أمر ربكم تفلحوا.

---

(1) أخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ والترمذي رقم ١١٨٤ في الطلاق، وصححه الحاكم.

﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ ﴾ الحديث هنا عن الأمهات المطلقات، بدليل السياق والسِّباق، والتعبير عنهن بالوالدات دون «المطلقات» لاستعطافهن نحو أولادهن، فلا ينبغي أن يضيع الطفل، نتيجة نزاع الوالدين، وافتراق الزوجة عن الزوج، فليس للطفل جناية في هذا الأمر، فالمرأة وإن طُلّقت هي والدة وأم، لا ينبغي أن تفرِّط في ولدها، وهو خبر بمعنى الأمر، أي الواجب على الأمهات، سواءً كنَّ مطلّقات أو غير مطلقات، أن يرضعن أولادهن ﴿ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ ﴾ أي عامين تامين، والتأكيد بقوله ﴿كاملين﴾ لبيان أن التقدير تحقيقيٌ لا تقريبي، فأكثر مدة للرضاع سنتان كاملتان ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ ﴾ أي لمن شاء من الوالدين إتمام الرضاعة، ولا زيادة على هذه المدة، وفي الآية دلالة على جواز النقص، إذا استغنى الطفل بالطعام عن حليب أمه، ويجب على المطلَّقة إرضاعه، إذا لم يقبل الولد إلاَّ ثدي أمه، أو لم يجد الأب له ظئراً ـ أي مرضعةً ـ ترضعه، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، فإن أرضعت المطلَّقة وليدها وجب لها أجرٌ على الرضاعة، كما سيأتي في قوله سبحانه: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾[1]

(١) سورة الطلاق، الآية: ٦.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الوالد ـ الذي ينتسب إليه الأولاد[1] ـ الإنفاق على الأمهات المطلقات، وكسوتهن، بما هو مشروع ومتعارف، بدون إسرافٍ ولا تقتير، ليقمن بخدمة الأولاد خير قيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يُكلَّف العبد بما لا يطيقه ولا يستطيعه، ولهذا تكون النفقة بقدر الطاقة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي لا ينبغي أن تقع المضارة بين الزوجين، فيضرَّ أحدهما الآخر، بسبب الولد، فترفض الأم مثلاً إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وأن يضارَّها الأب فينتزع منها الولد ـ مع رغبتها في إرضاعه ـ ليغيظ أحدهما صاحبه، وإضافة الولد إليها تارة ﴿والدةٌ بولَدِها﴾ وإليه أخرى ﴿وَلاَ مولُودٌ لَهُ بولَدِهِ﴾ فيه استعطاف لهما عليه، وتنبيه لهما على أن هذا الطفل، جدير بأن يتفقا على استصلاحه، والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يكون ضحيةً لنزاعهما، الرجل أبوه، والمرأة أمه، فهو ابن كلٍّ منهما، ومن حقهما الإشفاق عليه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالوارث وارث الولد، وهو التفسير المأثور عن عمر، وابن عباس، ومجاهد، أي وعلى وارث الصبي كالجد، والأخ، والعم، الإنفاق على المرضع المطلَّقة، والقيام بحقوقها، مثل ما على والد الطفل من النفقة والسكنى، وقال الشافعي: المراد وارث الأب، وهو الصبيُّ أي ثمن المرضعة من ماله، ولا نزاع فيه، وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبي مال ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط، لاحتمال الإقدام على ما يضرُّ بالولد، بأن تملَّ المرأة من الإرضاع، أو يبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ في شأن الولد من الفطام قبل الحولين، أو يشاوران أهل النظر، ليستيقنا أن الفطام قبل الحولين، لا يضرُّ بالولد، ومعنى الفِصال: الفطام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في

---

(١) لم يقل تعالى: وعلى الوالد، وإنما قال: ﴿وعلى المولود له﴾ لينبّه إلى أن النسب للأب دون الأم فالأولاد جميعاً ينتسبون إلى أبيهم، وهذا الحكم عند الفقهاء يسمى «إشارة النصّ».

ذلك، واعتبر اتفاقهما، لما أن للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية لصلاح الطفل ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم أي تطلبوا من يرضعهم، يقال: أرضعت المرأة الطفل، واسترضعتُها إيَّاه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم ولا حرج عليكم، أن تطلبوا مرضعة لأولادكم غير الأم، إذا عجزت عن إرضاعه أو استنكفت، وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع لولده، ويمنع الأم من الإرضاع، وهو مذهب الشافعي وعند أبي حنيفة أن الأم أحقُّ برضاع ولدها لقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ وليس للأب أن يسترضع غيرها، إذا رضيت أن ترضعه، والآية محمولة على إذا عجزت أو امتنعت عن الإرضاع، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا دفعتم للمرضع ما اتفقتم عليه من الأجر، فإنها إذا لم تُكرم لا تهتم بالطفل، ولا تعتني بإرضاعه، والتسليم ندبٌ لا شرط للجواز، وقوله: ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه المتعارف بطيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم عليها، وهو حثٌّ وتهديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي والذين يموتون وتُقبضُ أرواحهم بالموت، فإن التوفّي هو القبضُ، يقال: توفَّيتُ مالي من فلان أي أخذته، فمن مات استوفى عمره كافياً وافياً ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي ويتركون زوجاتهم من بعد وفاتهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على هؤلاء الزوجات، أن ينتظرن ويمكثن في العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام، حداداً على أزواجهن، ورعاية لحقوقهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما

الحامل فعدتها وضع الحمل، لقوله سبحانه: ﴿وَأُولَاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والسرُّ في هذا لئلا تختلط الأنساب، وتضيع الحقوق، ولعل المقتضى لهذا أن الجنين في غالب الأحوال، يتحرك لأربعة أشهر، وزيد عليه العشر استظهاراً لجلية الأمر، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام، أو المسلمون جميعاً ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزوج، وسائر ما حُرّم على المعتدة، عن أم عطية قالت: «كنا نُنْهىٰ أن نُحدَّ على ميّتٍ فوق ثلاث، إلا على الزوج أربعة أشهر وعشراً، ولا نكتحل، ولا نتطيب، ولا نلبس ثوباً مصبوغاً»[1] ، الحديث وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي الوجه الذي لا ينكره الشرع، وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع، فعليهم أن يكفوهنّ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فلا تعملوا خلاف ما أُمرتم به، والخبيرُ هو العالم بكنه الشيء، الذي يعلم عواقب الأمور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ التعريضُ والتلويحُ إيهامُ المقصود، بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وهو ضد التصريح، مثل أن تقول لها: إنك لجميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام، الموهم أنه يريد نكاحها، ولا يصرح

---

(١) أخرجه البخاري ٩/٤٣٣ في الطلاق، ومسلم رقم ٩٣٨ باب وجوب الإحداد وأبو داود رقم ٢٣٠٢ في الطلاق أيضاً، وللحديث بقية.

بالنكاح، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أي أضمرتم وسترتم في قلوبكم، فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهنَّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي لا تواعدوهن بالنكاح في السر ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ هو أن تُعرِّضوا ولا تُصرّحوا ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي ولا تعزموا عقدة النكاح حتى تنتهي العدة، وفي النهي عن مقدمة الشيء، نهيٌ عن الشيء أبلغ، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة غايته ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما نهيتهم عنه ﴿فَٱحْذَرُوهُۚ﴾ أي احذروا عقابه وعذابه بالاحتراز منه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل، خشيةً من الله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على عصيانكم أوامره، وفيه دليل على حرمة تصريح خطبة المعتدة من الوفاة، والمعتدة من الطلاق كذلك من باب أولى.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعية عليكم من مهر، وهو الأظهر وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس، إذا كان الفراق أروح من الإمساك ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تجامعوهن، اتفقوا على أن المراد بالمسيس، في هذه الآية: الدخولُ، وإنما كنى به تأديباً للعباد ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ﴾ أي إلاَّ أن تفرضوا لهنَّ فريضة، فالمعنى: أنه لا تبعية

على المطلَّق بمطالبة المهر أصلاً، إلا إذا كانت ممسوسة، فلها المهر ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي ادفعوا لهن المتعة، والمتعةُ والمتاعُ: ما ينتفع به انتفاعاً غير باق، ولهذا قيل للدنيا: متاع، وظاهر الأمر الإيجاب، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، والحكمةُ في إيجابها جبراً لإيحاش الطلاق وتقديرها مفوَّضٌ إلى رأي الحاكم، ويؤيده قوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الذي له سَعَة ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الضيّق الحال ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي ما يليق بحال كل منهما المتعة، بالنظر إلى حال المطلّق إيساراً وإعساراً والمتعة درعٌ وملحفةٌ وخمار على حسب حاله، ولا تجب المتعة إلا لهذه، ويستحب لسائر المطلقات، وقال الشافعي لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ﴾ ﴿مَتَٰعًۢا﴾ أي تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ أي حق ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم، بالمسارعة إلى الامتثال، وإنما سُمُّوا «محسنين» ترغيباً وتحريضاً على البرِّ والإحسان.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي حال كونكم مسمين لهن عند النكاح مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهنَّ نصف ما سميتم من المهر، وهذا صريح في أنَّ المنفيَّ في الصورة السابقة، إنما هو تبعةُ المهر ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي فلهن النصف في كل حال، إلاَّ حال عفوهن، فإنه يسقط بعد وجوبه ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي يترك الزوج ما يعود إليه من نصف المهر، الذي ساقه إليها كاملاً، تكرماً منه وتفضلاً، وهو التفسير المأثور، كما أخرجه البيهقي بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً، وبه قال جمع من الصحابة[1] وقيل: الولي الذي يلي عقد

---

(١) مستند هذا القول أن الذي بيده عُقدة النكاح حقيقةً: هو الزوجُ، فإن بيده العقد والإبرام، والنقض والطلاق، وقد رُوي عن شريح أنه قال: سألني عليٌّ عن الذي بيده عُقدة النكاح؟ فقلت: هو وليُّ المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وروي عن النبي ﷺ مرفوعاً «وليُّ عقدة النكاح الزوجُ» وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٦/١.

نكاحهن إذا كانت المرأة صغيرة، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يؤيد الوجه الأول فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى، روي أنَّ جُبَيْر بن مطعم تزوج امرأةً، وطلَّقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصَّداق، وقال: أنا أحقُّ بالعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا الإحسان والجميل الذي بينكم، والخطاب للرجال والنساء بطريق التغليب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم، من التفضل والإحسان.

﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها، من غير إخلالٍ بشيء منها، ولعل الأمر بها، في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد، لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها[1]، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي المتوسطة بينها، والوسطى تأنيث الأوسط، وهي صلاة العصر، وعليه الجمهور، ويدل عليها ما رُوي، عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «ملأ الله قلُوبهم وبيوتَهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»[2] ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَـٰنِتِينَ﴾ أي مطيعين خاشعين، وقيل: هو السكوت، ويدل على ذلك ما روي عن زيد

---

(١) إنما وردت آية المحافظة على الصلوات، ضمن آيات الزواج والطلاق، لأن الصلاة أعظم منبّه للمؤمن، للمحافظة على أوامر الله، واجتناب نواهيه، ودفع الحقوق كما قال سبحانه: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فبالصلاة يحفظ الإنسان حقوق الله وحقوق العباد.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ٦/٧٦ ومسلم رقم ٦٢٧ وزاد في بعض الروايات: ثم صلاَّها بين المغرب والعشاء.

ابن أرقم، قال: «كنّا نتكلم في الصلاة، يكلّم أحدنا أخاه في حاجته، حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت»(١).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ أي فصلوا راجلين جمع راجل، وهو الماشي على رجليه، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب أي فصلوا راجلين أو راكبين، حسبما تقتضيه الحال، ولا تُخِلُّوا بها ما أمكن وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي، بل يؤخر الصلاة، لأن الرسول ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق، وظاهر الآية جواز الصلاة ماشياً عند الضرورة، والدين يسر لا عسر، والمقامات مختلفة، والميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك لا يترك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ أي فصلُّوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كتعليمه إياكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من كيفية الصلاة، حالتَيْ: الخوفِ، والأمن، على الوجه الذي شرعه لكم، وعلمكم إيّاه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ عودٌ إلى بيان بقية الأحكام، المفصّلة فيما سلف ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي يوصون،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٩٨/٨ قال ابن حجر في الفتح: وأصحُّ ما دلَّ عليه حديث الباب، أن المراد بالقنوت: السكوتُ، والمراد به السكوتُ عن كلام الناس، لا مطلق الصمت، لأن الصلاة لا صمتَ فيها، بل جميعها قرآنٌ وذكر. اهـ.

أو عليهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع زوجاتهم بعدهم حولاً كاملاً ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ منصوب بيوصون ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي من غير إخراج لهن من المسكن، والمعنى: يجب على الذين يتوفون، أن يوصوا قبل الاحتضار، لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً، بالنفقة والسكنى من تركته، وكان ذلك أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(١) ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول، ومضيّ العدة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ لا ينكره الشرع كالتزيّن، والتطييب، وترك الحداد، والتعرض للخطاب، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، يعاقب من خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي واجب على الأزواج أن يمتّعوا المطلقات، بقدر استطاعتهم، بالمعروف الذي شرعه الله، وعرفه الناس، جبراً لوحشة الطلاق، والمتعة لكل مطلَّقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض، لعموم لفظ المطلقات، وهذه المتعة إمَّا واجبة، إن لم يذكر لها مهر، أو مندوبة إن كان لها مهر مقدر ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي هي حقٌّ واجب، وأمر لازم على المؤمنين الصادقين، المتقين لله عزَّ وجلّ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح الشافي، الذي يوجّه القلوب نحو المودة والمحبة، يبين الله لكم آياته الشرعية، الدالة على الحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تعقلوا وتتفهّموا حكمة ربكم، في تشريع هذه الأحكام، وتعملوا بمقتضاها.

---

(١) هذا الحكم منسوخ بالآية السابقة ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ رحمةً من الله تعالى، وتخفيفاً عن عباده، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، فالآية وإن كانت متقدمة في التلاوة، لكنها متأخرة في النزول.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ هذه رؤية القلب، وليست رؤية بصرية، أي ألم تعلم، ويصل إلى سمعك أيها الإنسان، خبر أولئك القوم، الذين خرجوا من أوطانهم وهم ألوف مؤلفة؟ قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، وقيل: أربعون ألفاً ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي خوفاً من الموت، وفراراً منه ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ أي فأماتهم الله عزَّ وجلّ ثم أحياهم، ليكون ذلك أعظم برهان، على قدرة رب العالمين في إحياء البشر بعد موتهم! وقصة هؤلاء ـ كما قال الضحاك ـ هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، وتركوا ديارهم وأوطانهم، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» عليه السلام، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقاموا أحياء ينظرون، ثم ماتوا بعد انتهاء آجالهم.

وقيل: إنهم جماعة وقع فيهم وباء الطاعون، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى الصحراء، فنزلوا وادياً واسعاً، حتى ملأوه، فأرسل الله إليهم ملكين، صاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم[1]. ﴿ إِنَّ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٠٦/١: وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حَذَرٌ من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. اهـ.

﴿اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنه سبحانه لذو إحسانٍ وإنعام على الناس، حيث أحياهم ليعتبروا، وقصَّ عليكم حالهم لتستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه كما ينبغي، بل يكفرون ويجحدون، وفائدة القصة: تشجيع المسلمين على الجهاد، وحثهم على التوكل والاستسلام.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين الكفار، من أجل إعلاء كلمة الله، لا لحظوظ النفس والغنائم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؟ أي من ذا الذي يبذل ماله في سبيل الله، طلب رضوانه؟ والقرضُ في اللغة: القطعُ، سُمّي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه للفقير، واقتراضُ الله تعالى، مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل، طلباً للثواب الآجل، والمراد ههنا الجهاد، الذي هو عبارةٌ عن بذل النفس، والمال، في سبيل الله عزَّ وجلّ، ابتغاءً لمرضاة الله، أو المراد مطلق العمل الصالح، وهذا تلطف منه تعالى، في استدعاء عباده إلى أعمال البرِّ ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾[1] أي خالصاً لوجه الله، لا يطلب من ورائه مديحاً، ولا عطاء من أحد، ولا يكون القرض حسناً إلاَّ بشرائط: ١ ـ أن يكون من الحلال. ٢ ـ ومن أجود المال. ٣ ـ خالصاً لوجه الله تعالى. ٤ ـ بطيب النفس. ٥ ـ لا رياء فيه ولا سمعة ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾

---

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله!! فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطاً لي ـ أي بستاناً ـ فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء إلى البستان ولم يدخل فيه، فناداها يا أم الدحداح، قالت: لبّيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجل!! فقالت: ربح بيعك، وخرجت منه مع أولادها» رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٠٦.

فيضاعف جزاءه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرةً لا يقدِّرها ولا يعلم مقدارها، إلا الله سبحانه، وإنما أبهم الله ذلك، لأن ذكر المبهم في باب الترغيب، أقوى من ذكر المحدود، والضعفُ: مثلُ الشيء في المقدار، مثل العشرة ضعفها عشرون ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقتّر على بعض، ويوسّع على بعض، حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم، كيلا يبدّل حالكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ألم يصل إليك خبر القوم من بني إسرائيل؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو شمعون من نسل هارون عليهم السلام ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أقمْ لنا أميراً ننهض معه للقتال، وسببُ طلبهم ذلك على ما في بعض الآثار، أنه لمَّا مات موسى، خلفه يوشع، ثم خلفه كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم ظهر لهم عدوٌّ، وهم عمالقة قوم جالوت، وظهروا عليهم، وأسروا من أبنائهم، وضربوا عليهم الجزية، وأخفوا توراتهم، ثم أرسل الله تعالى إليهم شمعون، فقالوا إن كنت صادقاً فابعث لنا مَلِكاً، وكان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة أنبيائهم، وكان الملك يسير بالجموع، والنبيُّ يقيم أمره ويرشده ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ هذا استفهام شك بمعنى لعلكم ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ مع ذلك الملك

﴿أَلَّا نُقَٰتِلُوا۟﴾ أي لا تَفُوا بما قلتم، وتجبنوا عن القتال معه ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ كأنهم قالوا: عدم القتال غير متوقع منا، وإنما لم يصرحوا به تحاشياً عن رد كلام نبيهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أيُّ غرض لنا في ترك القتال، وقد عَرَض لنا ما يوجبه، من الإخراج عن الأوطان، والبعد عن الأولاد، وكان العمالقة أخذوا ديارهم، وسَبَوْا أولادهم، قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الجبن والهَلَع ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فلما فُرض عليهم القتال، نكل أكثرهم عن الجهاد، وتخلفوا بعد مشاهدة العدو، إلا قليلاً منهم، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلم هؤلاء الناكثين العهد، وسيجازيهم عليه، والآية وعيد لهم على توليهم عن القتال، وتنافي أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ شروعٌ في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام، وبينهم من الأقوال والأفعال، أي قال لهم نبيهم بعد ما أوحى الله إليه: إن الله قد ملَّك عليكم طالوت، و«طالوت» اسم عبري كداود، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب عليهم السلام ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي كيف يكون ملكاً

علينا؟ والحال أننا أحقُّ بالمُلْك منه، لأننا من أولاد الملوك، وهذا منهم تعنُّتٌ واعتراض على أمر الله ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ أي وهو عدا عن ذلك فقير لا يملك المال، الذي يجمع القلوب حوله، فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ أي قال لهم نبيهم، لما استبعدوا تملّكه عليهم لفقره: إن الله عزَّ وجلّ قد اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: سعة العلم، وقوة الجسم، وقد خصه الله منهما بحظٍ وافر، والعمدة في اختيار الرجال، وفور العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ثم تمم كلامه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ لأنه سبحانه مالك الملك، فله أن يؤتيه من يشاء من عباده، وهذه تدل على بطلان من يقول من الشيعة: إن الإمامة موروثة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ يوسّع على الفقير ويغنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصطفيه للملك، وفي اختياره تعالى ﴿واسع عليم﴾ من حسن المناسبة ما لا يخفى، حيث نبَّه فيما سبق على سعة العلم، وبسطة الجسم.

ومن ثمَّ طلبوا من نبيّهم آيةً، على اصطفاء الله لطالوت، فأجابهم إلى ذلك ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ الصندوق، يريد به صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه بين يديه، فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرُّون، ولهذا قال: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي في التابوت السكونُ والطمأنينةُ، والوقار، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، والله ينصر الحق ببعض ما شاء من آياته ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه، وعمامة هارون، وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي حال كونه محمولاً للملائكة(١)، ثم قرَّر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم،

---

(١) قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته =

إن كانوا ممن يؤمن ويبصر بعين الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في نزول التابوت على هذا الوصف، لآية عظيمة على اصطفاء الله لطالوت، ليكون ملكاً عليهم، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ في هذه القصة إيجاز، يدل عليه السياق ويدركه العالم، وهو: فاتفق بنو إسرائيل، على أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له وانقادوا، وتهيئوا لغزو عدوهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما خرج طالوت بالجيش، وانفصل عن بلده لقتال العمالقة، وجاوز الديار، وكانوا ثمانين ألفاً، فيهم المؤمن والمنافق، والشجاع والجبان، أخذ بهم في أرضٍ قفرة، لا ظلَّ فيها ولا ماء، فأصابهم حر وعطش شديد، أراد أن يختبر صبرهم وطاعتهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي قال لجنوده: إن الله مختبركم بنهر من ماء ـ وهو نهر بين الأردن وفلسطين ـ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فمن شرب من مائه، فلا يصحبني في هذه الحرب ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي ومن لم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي، أراد بذلك أن يختبر طاعتهم

= بين يدي طالوت، والناس ينظرون، فكان ذلك علامةً لهم على اصطفاء طالوت للملك، والإمارة عليهم.

وصبرهم على تحمل المكاره والشدائد، فإنما يعرف الرجال وقت الشدة، ومعنى ﴿يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه، قال ابن قتيبة: يقال: لم أطعم خبزاً، ولا ماءً، ولا نوماً. واستثنى من ذلك من أخذ بيده حفنة ماء، ليبلَّ عطشه، وينقع غُلَّته، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ الغُرفةُ: هي الحفنة التي تحصل في الكف من الماء، أي إلا من اغترف بيده، قليلاً من الماء فشربه، فلا حرج عليه، لأنه يخفّف العناء، ولا يُذهب العطش، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما سواه، فيصلح لخوض غمار الحرب، ومن غلبت شهوته في الماء، وعصا الأمر، فهو في الشدائد أحرى بالعصيان، فلا يصلح للحرب، قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فشربوا من ماء النهر وأفرطوا، إلاَّ فئةً قليلة منهم صبروا على العطش.

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقَّى معه أربعة آلاف[1] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والحر، ورأوا كثرة عدوهم، اعتراهم الخوف والضعف، فقال فريق منهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء، مع قائد جيشهم «جالوت» فنحن قلة قليلة، وهم كثرة كثيرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الصادقون، الذين يعتقدون لقاء الله، وهم الصفوة من العلماء الأبرار ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس النصر عن كثرة العدد، فكثيراً ما غلبت الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة، بإرادة الله ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالحفظ والرعاية والتأييد، فالمراد بالمعية هنا: معية نصره تعالى وتوفيقه.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٠.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ولما ظهروا أمام أعدائهم الكثيرين، أمام طالوت وجنوده، وشاهدوا العدو، بما هم عليه من العَدد والعُدَد، وأيقنوا أنهم غير مطيقين لقتالهم ﴿قَالُوا﴾ جميعاً متضرعين إلى الله تعالى، متبرئين من الحول والقوة ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والمراد حبس النفس على القتال، وعلى مقاساة شدائد الحرب، والإفراغ الصبُّ، يُقال: أفرغتُ الإناء إذا صببت ما فيه، وهو أبلغ من «أنزل علينا صبراً» ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في ميدان القتال، وثباتُ القدم: عبارة الرسوخ عند المقارعة، وعدم التزلزل وقت المقاومة ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بقهرهم وهزمهم، ووضع «الكافرين» موضع ضميرهم، للإشعار بعلة النصر عليهم، لأن قوم جالوت كانوا عَبَدة أصنام، وقد راعوا في الدعاء ترتيباً بديعاً، حيث قدّموا سؤال إفراغ الصبر، ثم تثبيت القدم، ثم النصر الذي هو الغاية.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي استجاب الله دعاءهم، فصبروا وثبتوا ونُصِروا ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بنصر الله وتأييده ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل البطل «دواد» ـ وكان في ضمن جيش طالوت ـ قتل رأس الطغيان «جالوت» واندحر جيشه ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة، ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة في

شخص قبله، بل كانت النبوة في سِبْطٍ، والمُلْكُ في سِبْط ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ تعليمه إياه من صنعة الدروع وكلام الطيور، وسياسة الملك وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس بنصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لأفسدوا في الأرض ولفسدت الأرض بشؤمهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل، واللام للاستغراق ومن جملتهم الرسول ﷺ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الفضل، بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة، خلا عنها غيره وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في مراتب الكمال، وقيل: التفضيل بالشرائع ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفصيل للتفضيل المذكور، أي كلَّمه الله تعالى من غير سفير، وهو موسى عليه السلام على جبل الطور، ومنهم آدم عليه السلام، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ونبينا ﷺ في المعراج، حتى وصل سدرة المنتهى وبينه

وبين موسى بون بعيد ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ بأن فضّله على غيره من وجوه متعددة، وهو الرسول ﷺ، فإنه خص بالدعوة العامة، والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العَلَمُ المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحلَّت لِيَ الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيّون»[1] ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات الظاهرة كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي بالروح المقدسة، وهي روح عيسى، وقيل بجبريل، وخص عليه السلام بالتأييد، لإفراط اليهود في التحقير، والنصارى في التعظيم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل من الأمم المختلفة لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ من جهة أولئك الرسل، جاءتهم المعجزات والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً، ثم بيَّن الاختلاف ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك لا ارعواء لهم عنه، فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم، فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم واختيارهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الاختلاف والشقاق ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وما نبض منهم عرق من التطاول والتعادي لما أن الكل تحت ملكوته تعالى، فالتكرير ليس للتأكيد بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجباً لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي من الأمور الوجودية والعدمية فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً، لا اعتراض عليه في ملكه

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٥٢٣ والترمذي في السير رقم ١٥٥٣.

وفعله، وفيه دليل بيِّنٌ على أن الحوادث تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً، إيماناً أو كفراً، وعلى أن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤) ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ ما أوجبنا عليكم إنفاقه وهو المروي عن الحسن وقيل يدخل فيه الفرض والنفل، وهو المروي عن ابن جريج واختاره البلخي ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ ولا مودة ولا صداقة حتى يغنيكم والخلة بمعنى الخصلة وزناً ومعنى جمعه خلال ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ للكافرين وأما المؤمنون فلهم الشفاعة بإذنه تعالى ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يريد التاركون للزكاة، فوضع «الكافرون» موضعه تغليظاً وتهديداً كقوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ مكان من لم يحج، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار، لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ والله سبحانه يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقيبه الوعد والوعيد، ويجمع علم التوحيد، وعلم الأحكام، والقصص، لئلا يوجب الملال، وهذا أحسن في الترغيب، كما أن الإنسان إذا انتقل من بستان إلى بستان آخر، يشرح به صدره، يكون أسعد وأبهج.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة لا غيره، وهو واحد، أحد، فرد صمد، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ والحياة فيه سبحانه صفة موجودة حقيقة، قائمة بذاته تعالى، لا تعلم حقيقتها كسائر صفاته، الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة للقيام أي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، والقائم بذاته والمقوم لغيره ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَةُ: فتورٌ يتقدم النوم، ويقال لها: النعاس، أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس قال: «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربُّه يا موسى يسألونك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلثاه نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام، لسقطت السماوات والأرض فهلكن، كما هلكت الزجاجتان في يديك»[1] فأنزل الله على نبيه آية الكرسي. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكاً، وتصرفاً، يتصرف فيهما كما يشاء، وهو تقريرٌ لقيُّوميته، واحتجاج على تفرده في الألوهية، ولم يقل «من في السماوات والأرض» للتنبيه على أن كل المخلوقات، مسخرون في قبضة قدرته، وقهره، وهم في ذلك كالجمادات، التي لا قدرة لها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى ﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، وهذا استفهام انكاري ﴿ يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا إذا أذن له الباريء جلَّ وعلا، ولا يظنّ أحد أن الشفاعة تحويل القَدَر، بمعنى أنَّ الله تعالى يريد تعذيب شخص، فتنقذه الشفاعة، فهذا غير لائق بكبرياء ذاته عزَّ وجل، بل الشفاعةُ مظهرٌ لتكريم الشافع، ودليلٌ على إذنه تعالى ورضائه، كما في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣١٦/١ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ـ الميزان ـ ويرفعه، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ـ أي أنوار وجهه ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي إلا أن يأذن الله بذلك، فالمعنى: لا يشفع أحد إلاّ بإرادته ورضائه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما أمامهم من أمور الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة، لا يغيب عنه شيء من أحوال الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلوماته يقال أحاط بالشيء علماً: إذا علمه بوجوده، وجنسه، وحقيقته، وقدره، وعطفه على ما قبله، لما أنهما جميعاً دليل على تفرده بالعلم الذاتي، الدال على وحدانيته تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلموه وهم الأنبياء عليهم السلام، ليكون دليلاً على نبوتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الكرسي ما يُجلس عليه، والكلام مساق على سبيل التمثيل لعظمته تعالى[1]، وشأنه، وسعة سلطانه، وإحاطة علمه وأكثر السلف الصالح فوّضوا علمه إلى الله تعالى ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ولا يُثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظ السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه، ذو العظمة والجلال، الكبير المتعال. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عِزّه وجلاله، الذي يُستحقر بالإضافة إليه كلُّ ما سواه أخرج مسلم وأحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي»[2]. وأكثر الأحاديث في هذا الباب، حجة لمن قال إن بعض القرآن يفضل على بعض، فمنع منه الأشعري والباقلاني لاقتضائه نقص المفضول وأجازه إسحق بن راهويه وكثير من المتكلمين، وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلٰهية، دالة على أنه تعالى موجود، واحد

---

(١) فسّر ابن عباس الكرسي بأنه العلم كما حكاه عنه ابن جرير، وابن كثير، وقال ابن كثير: وفسّره بعضهم بالعرش، والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين ١/ ٢٥٥٦ عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. الحديث.

أحد، واجب الوجود، القائم بنفسه، المقيم لغيره، المنزَّه عن التحيز والحلول، المبرأ عن التغير والفتور، مالك الملك والملكوت، متعالٍ لا يدركه الوهم، عظيم لا يحيط به الفهم.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ الإكراه: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، يقال: أكرهته على الأمر: أي حملته عليه قهراً وقَسْراً والمعنى: لا إجبار ولا إكراه لأحدٍ، على الدخول في الإسلام ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ تميَّز الإيمان من الكفر، بالآيات الواضحة، فالإيمان رشدٌ، يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ، يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ بالشيطان والأصنام، وكلِّ ما عُبد من دون الله ﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ بالتوحيد، وتصديق الرسل ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ ﴾ تمسَّك ﴿ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ من الحبل الوثيق، والمراد بالعروة الوثقى هنا: الدين الحقُّ، الذي جاء به خاتم المرسلين، وهو دين الإسلام، شبَّه المستمسك بدين الإسلام، بالمستمسك بالحبل المحكم، وهو تشبيه تمثيلي، والوثقىٰ: تأنيث الأوثق أي الأشد ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم ونيّاتهم، ولما كان الكفر والإيمان ممَّا ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسن ختم الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النطق، و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل النية والمعتقد.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي الله جلَّ وعلا ناصر المؤمنين، ومتولي

أمرهم ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وحّد تعالى «النور» لوحدة الحقّ، وجمع «الظلمات» لتعدّد فنون الضلالات، وإنما سمّى الكفر بالظلمات، لأن الظلمة تحجب الأبصار، كذلك الكفر يحجب البصيرة، حتى لا يدرك الإنسان حقائق الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ أي والكافرون المكذّبون لرسل الله، أولياؤهم وأنصارهم الشياطين الغاوون ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي يخرجونهم بالوساوس وإلقاء الشُّبَه، من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والضلال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي أولئك الأشقياء الكفار، هم أهل النار وأصحابها، لا يخرجون منها أبداً، بسبب تمردهم في الطغيان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ تعجيبٌ للسامع، وتنبيه لأمر هذا الكافر، الذي بلغ به الكفرُ والطغيانُ، إلى درجة الحماقة، أن يجادل ويخاصم «إبراهيم» عليه السلام في وجود الله ووحدانيته، زاعماً أنه لا ربّ في الوجود، غير «النمرود» وهو «نمرود بن كنعان» ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي لأجل أن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره، وأورثه كبره، على إنكار وجود الله، فقابل الفضل والإحسان، بالكفر والطغيان، وهذا أقبح الكفر، وأظلم الظلم، لأنه وضع الكفر بنعم الخالق موضع الشكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي حين قال له إبراهيم عليه السلام ـ أثناء المحاورة والمناظرة ـ إن ربّي هو الذي ينشىء الحياة والموت في الأجساد، فيحيي ويميت، وهو وحده رب العالمين ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ

﴿وَأُمِيتُ﴾ أي فقال له ذلك الأحمق السفيه: وأنا أيضاً أحيي وأميت، فدعا النمرود برجلين، كان قد حكم عليهما بالقتل، فأخرجهما من السجن، فأمر بقتل أحدهما ثم قال: هذا أمتُّه، وأمر بإطلاق سراح الآخر، ثم قال: وهذا أحييته!! ولما رأى إبراهيم حماقته، وشغبه في الدليل، عدل إلى برهانٍ آخر، أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجد ذلك الشقي مجالاً للتمويه ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي قال له إبراهيم: إذا كنت تدّعي الربوبية، وأنك تحيي وتُميت، كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كل يوم من المشرق، وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك، واجعلها تطلع من المغرب، وتغرب من المشرق، ولو مرة واحدة، حتى نرى آثار ربوبيتك!! ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي فأصبح مبهوتاً متحيراً ذلك الشقي، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الخلق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم، ولا يلهمهم الحجة والبيان، في مقام المناظرة، لقد كان إبراهيم رائعاً وبارعاً، في إفحام خصمه، فلم يلتفت إلى إبطال مقالته الأولى حين سمع جوابه الأحمق ﴿أنا أحيي وأميت﴾ بل انتقل مباشرة إلى مثالٍ آخر، لا يستطيع اللفَّ والدوران حوله، ليبهته ويُلقمه الحجر، ولهذا بُهت الذي كفر، وهذا من قوة ذكاء الخليل إبراهيم عليه السلام، وقوة حجته وبيانه!.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

هذا من باب عطف القصة على القصة، وكأنه يقول: هل رأيتَ مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت مثل الذي مرَّ على قرية؟ ولهذا عطفها على القصة السابقة، والغرضُ التعجيب في الحالتين: من صنيع النمرود، واستغراب الرجل الصالح «عزير» إعادة الحياة إلى المدينة المخرَّبة على أهلها، وكلتا القصتين فيها إشارة إلى قدرة رب العالمين، في الإحياء والإماتة. قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ جمهور المفسرين على أنه «عزير» الذي زعم اليهود، أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ لأن الله أماته في الدنيا ثم أحياه، فقالوا: إنه ابن الله، والمعنى: ألم يصل إلى سمعك، ويبلغك خبر الرجل الذي مرَّ على مدينة بيت المقدس، بعد أن خرَّبها «بختنصَّر» المجوسي ودمَّرها على أهلها؟ ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أعاده كهيئته يوم موته، عاقلاً فاهماً مستعداً للاستدلال ﴿قَالَ﴾ أي قال له بعد بعثه ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه تعالى، ويطّلع في تضاعيفه على أمر آخر، من بدائع قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهراً طويلاً، من غير تغيّر ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظن والتقريب ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي مكثت مدة طويلة وهي مائة سنة ﴿فَانظُرْ﴾ لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير في هذه المدة ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ليتبيَّن لك ما ذُكر، من اللبث المديد، وتطمئن به نفسك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك لنجعلك آية للناس، الموجودين في هذا القرن ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي عظام الحمار، لتشاهد كيفية الإحياء ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي نردُّها إلى أماكنها من الجسد، فنركّبها تركيباً لائقاً بها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يُستر الجسد باللباس، روي أنه نودي أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تتجمعي، فاجتمع والتصق كل عضو بما يليق به، ثم انبسط عليه اللحم، ثم الجلد، ثم خرج منه الشَّعْرُ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو ينهق ﴿فَلَمَّا

﴿تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي اتضح اتضاحاً تاماً ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين ﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطاف قُدّمت بين الدعاء، مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿أَرِنِي﴾ من الرؤية البصرية ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها، وإنما سأله لينقل من مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة عين اليقين، وفي الخبر «ليس الخبر كالمعاينة» روى محمد بن إسحق أن سبب السؤال، منازعة النمرود إياه في الإحياء حيث رد عليه السلام عليه لمَّا زعم أن العفو إحياء، وتوعَّده بالقتل إن لم يُحْيِ الله الميت بحيث يشاهده فدعا عليه السلام حينئذ ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أو ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء، حتى تسألني إراءته؟ قال عزَّ وجلّ وهو أعلم بأنه عليه السّلام أثبت الناس إيماناً وأقواهم يقيناً، ليجيب بما أجابه، فيكون ذلك لطفاً للسامعين، فيعلموا غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أيّ كيفية شئت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت ما سألت ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ بانضمام العَيان إلى الإيمان، وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة، وهذا لا ينافي منصب النبوة أصلاً، ويدل على ذلك ورود السؤال بلفظ «كيف» فهو لا يشكُّ أنه قادر، ولكنه سأل عن الكيفية، والطمأنينةُ إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب بالشك، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة ﴿قَالَ فَخُذۡ﴾ أي إن أردت فخذ ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ قيل هي طاووس، وديك، وغراب، وحمامة، وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان واجمع

لخواص الحيوان، ولسهولة تأتّي ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ صار يصور ويصير لغتان، بمعنى قطّعه أو أماله، أي أملهن أو قطعهن واجمعهن ﴿إِلَيْكَ﴾ لتتأملها حتى تعلم بعد الإحياء، أن جزءاً من الأجزاء لم ينتقل من موضعه الأول، أمره تعالى بأن يذبحها، ويفرّق أجزاءها، ويمسك رؤوسها، ثم أمره بأن يجعل أجزاءها على الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ساعيات، والحكمةُ في سعيهنَّ دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة، لأنها لو طارت لتوهم متوهمٌ أنها غير تلك الطيور. روي أنه عليه السلام نادى، فجعل كل جزء منهن يصير إلى صاحبه، حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤوسهنَّ، فانضمت كل جثة إلى رأسها، فعادت كل واحدة منهن، إلى ما كانت عليه من الهيئة ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعاله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في وجوه الخيرات، من الواجب والنفل قيل: المراد هنا الإنفاق في الجهاد، لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف، وأما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك، وإنما تُجزى الحسنةُ بعشر أمثالها ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبّة والحب اسم جنس للحنطة ونحوها، مما يكون في السنبل ﴿أَنۢبَتَتْ﴾ أخرجت تلك الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي ساقاً تشعب منها سبع شعب ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنباتُ إلى الحبة، لمّا كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء النباتُ، والمنبت على الحقيقة هو الله، والمعنى أنه يخرج منها ساق، يتشعب منها سبع شعب، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو

تمثيل لا يقتضي وقوعه، وقد يكون في الذرة والدخن وفي البر في الأراضي المغلة ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ تلك المضاعفة، أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بفضله، على حسب حال المنفق، من إخلاصه، وتعبه، وإيقاع الإنفاق في أحسن مواقعه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الجود والفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان لكيفية الإنفاق الذي بيّن فضله بالتمثيل المذكور ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي ما أنفقوه ﴿مَنًّا﴾ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، مننتُ عليه أي عددت له ما فعلت له من الصنائع، نهى الشارع تعالى عنه، ومن هنا يقال: «المَنُّ أخُ المنِّ» أي الامتنان أخ القطع، ويقال إذا صنعتم صنيعة فانسوها ﴿وَلَا أَذًى﴾ الأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه، فيقول كم تسأل، وقد بليتُ بك، وأمثال ذلك، وقدّم المنّ لكثرة وقوعه، وهذه الآيات نزلت في عثمان رضي الله عنه فإنه جهّز جيش العسرة بألف بعير، وألف دينار، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المنّ والأذى ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثواب إنفاقهم حسبما وعدهم في التمثيل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردٌّ جميل يُردُّ به السائل، من غير إعطاء شيء،

مثل قوله يرزقك الله ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل، إذا وُجد منه ما يثقل على المسؤول من الإلحاح وغيره ﴿خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ لكونها مشوبة بضر ما يتبعها ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقات العباد، وإنما أمرهم لمصلحةٍ تعود إليهم، ولا حاجة له إلى منفق يَمُنُّ ويؤذي ﴿حَلِيمٞ﴾ عن معاجلته بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بيّن، بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي لا تضيّعوها، والصدقةُ: ما يخرجه الإنسان من ماله، على وجه القُربة ﴿بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَٱلَّذِي﴾ أي إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي مراءاةً لهم وسمعة، ليروا نفقته، ويقولوا عنه إنه سخيٌّ، والرياء إظهار الجميل ليراه الناس ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ أي كإبطال المنافق الذي لا يريد به رضاء الله تعالى، ولا ثواب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالله حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ مثل من لا ينفق لوجه الله ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ كمثل حجر كبير أملس ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ يسير ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر شديد دافق، عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ نقياً من التراب فالصفوان والتراب إنفاقهُ، والوابل كالرياء والمنِّ والأذى، يحبط عمل هذا ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا، ولا يجدون له ثواباً والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلى ما ينفعهم، وفيه تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لطلب رضاه ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذله لوجه الله، فقد ثبَّت نفسه على الإيمان والإخلاص، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق، تزكية النفس عن البخل، وحب المال الذي هو رأس كل خطيئة، والمعنى ومثل هؤلاء في زكائها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بموضع مرتفع، خصَّها بذلك لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً ومنظراً، للطافة هوائها، وعدم كثافته ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلَيْ ما كانت تُثمر قبل، فالتشبيه للكثرة، وحاصلُ هذا التشبيه أن نفقات هؤلاء، زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت الإخلاص، وجيد المال ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي رُشَاشٌ خفيف، وهو مطر ضعيف القطر، يكفيها للطافة هوائها، وارتفاع مكانها فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن تكون لوجه الله، زاكية عند الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويعلم نيتكم فيها، وهو ترغيب في الإخلاص، وتحذير من الرياء ونحوه.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم﴾ والهمزة لإنكار الوقوع ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنهما أشرف الفواكه وأحسنهما، لما فيهما من الغذاء والتفكه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جريُ الأنهار من تمام حسنها، وسببٌ لزيادة

ثمرتها ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي تحتوي سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن والشيخوخة، وهي مظنة الاحتياج إلى منافعها، لأنه إذا أصابه الكبر، عجز عن الاكتساب، وكثُرت حاجاتُه ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ صغار ولا قدرة لهم على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ريح ترتفع بتراب نحو السماء كالعمود، والعرب تسميه أيضاً الزوبعة. روى البخاري عن ابن عباس قال: «قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم!! فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله عزّ وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَهُ»[1]، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، الجاري في الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ في التوحيد والدين ﴿ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كي تتفكروا فيها فتنتبهوا بها، وتعملوا بموجبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجيّده، كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٢٠٢.

تنفقوا مما تحبون﴾ وفيه دليل على وجوب الزكاة في أموال التجارة، وعلى إباحة الكسب، وعلى أن المال ينقسم إلى طيّب، وخبيث ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحب، والثمر، والمعادن وغير ذلك، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلمٍ يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان، أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة»(١). ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ﴾ تيممته أي قصدته، والخبيثُ الرديء الخسيس ﴿مِنْهُ﴾ أي من المال الخبيث ﴿تُنفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق، عن البراء بن عازب قال: نزلت فينا كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بالقِنْوِ فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فسقط البسر أو التمر فيأكل، وكان أناس مما لا يرغب الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشو فيعلّقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»(٢). وعن علي قال: نزلت في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التَّمر فيصرمه ـ أي يقطعه ـ فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي والحال أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته، في أيِّ وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلاّ وقت إغماضكم فيه، وهو عبارة عن المسامحة، من قولك: أغمض فلانٌ عن بعض حقه، إذا غض بصره كأنه لا يبصر، وأصله من الغموض وهو الخفاء ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع علمهم به، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأن الله تعالى ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد على نعمه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٥ ومسلم رقم ١٥٥٣ باب فضل الغرس والزرع.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٢٨.

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ قيل: إبليس، وقيل: شياطين الإنس والجن، وكلٌّ من منع فعل الخير والإحسان.

ولما رغَّب الله تعالى الإنسان في الإنفاق حذَّره بهذا من وسوسة الشيطان ﴿ يَعِدُكُمُ ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون، قالوا في الخير وعَدَه وعداً، وعِدَةً، وفي الشر وعَدَه وعيداً، فالمصدرُ فارق ﴿ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ في الإنفاق، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدّقين، فيقول لهم: لا تنفقوا، فإن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. ﴿ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ أي يُغريكم على البخل ومنع الصدقات ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ في الإنفاق على لسان نبيكم ﴿ مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَفَضۡلٗاۗ ﴾ أي وأن يخلفكم أفضل مما أنفقتم ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق ﴿ عَلِيمٞ ﴾ بما تنفقونه فيجازيكم عليه.

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ الحكمةُ: تحقيق العلم، وإتقان العمل، والمراد بها علم القرآن والسنة، وروي عن ابن عباس قال: إنها النبوة. وهي في الأصل مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم، أو عملٍ، أو قول، ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها ﴿ مَن يَشَآءُۚ ﴾ من عباده بموجب سَعَة فضله، وإحاطة علمه ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أي ومن يؤته الله الحكمة، والإظهار في موضع الإضمار للاعتناء بشأنها ﴿ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ إذ جمع له خير الدارين، أخرج الطبراني عن أبي أمامة مرفوعاً: «إنَّ لقمان قال لابنه: يا بنيَّ عليك مجالس العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض

الميت بوابل المطر»[1] وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَد إلا في اثنتيْن: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلَّطه على هَلَكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها»[2] وهذا بالنسبة إلى حملة العلم الشرعي الذي جاء به حكيم الأنبياء ﷺ، لا ما وضعه الفلاسفة اليونان في وقت كثرت فيه الأوهام ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي وما يتعظ بما قص من الآيات ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إلا ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم، واتباع الهوى وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة.

> ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في طاعة أو معصية في سبيل الله ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، متعلق بالمال أو بالأفعال، كالصلاة والصيام ونحوهما، والنذر عقد القلب على شيء والتزامه على وجه مخصوص ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي يجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يوفون بالنذور، وغير ذلك مما ينتظمه من أنواع الظلم ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من بأس الله، ويمنعهم من عقابه، وفيه وعيد عظيم لكل ظالم.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ سئل رسول الله ﷺ هل صدقة السر أفضل، أم صدقة العلانية؟ فنزلت، والمراد من الصدقات على ما ذهب إليه جمهور

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً، وأمثال هذا كثير من حِكَم لقمان.

(٢) أخرجه البخاري ١/١٥٣ في العلم، ومسلم رقم ٨١٦.

المفسرين صدقات التطوع أي إن تُظهروا الصدقات ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعم شيئاً إبداؤها إن لم تكن رياءً أو سمعة، ويُستحب إخفاؤها للخائف من الرياء، والكبرياء، والإبداء أفضل في الصدقات المفروضة، وأما التطوع فالإخفاء أفضل، وهي التي أريد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي تعطوها خفية ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء لحث المتصدق على أن يتحرى موضع الصدقة، فيميز الفقراء من غيرهم، فإذا عجز بعض الناس عن الكسب، لآفة في فكره، أو علة في بدنه، فيجب على الأغنياء الأخذ بيده شكراً لله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فالإخفاء خير لكم من الإبداء. عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: يا رسول الله: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرّ إلى فقير[1]، ثم قرأ الآية: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أصل التكفير: السترُ والتغطيةُ، فتكفير السيئات دفع العقاب ورفعه عن الإنسان، بثواب أو بتوبة، حتى تصير بمنزلة ما لم يُعْمَل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بما تفعلونه، فهو ترغيب في الإسرار.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي لايجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد على المحاسن، والنهي عن القبائح، بما أوحي إليك من الآيات ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذُكِّر، ويختار الخير ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ التفات إلى خطاب المكلفين، لزيادة هزّهم نحو الامتثال ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أي شيء تنفقون ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فنفعه الديني

(١) الحديث رواه أحمد، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٠.

لأنفسكم، لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا على الفقراء، ولا تؤذوهم ولا تنفقوا من خبيث أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ وطلب ثوابه، أي وليس نفقتكم إلا لابتغاء وجهه، فما بالكم تمنُّون بها؟ وقيل: نفيٌ في معنى النهي ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، روي أن الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قالت: كنتُ صغيرة فكبَّرتني، وكنتَ حارسي فالآن أنا حارسك، وكنت فانياً فأبقيتني!! وروي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصى عليك، ولا توعي فيوعى عليك[1]» والمعنى: أنفقي ولا تشحّي فيجازيك بالتقتير ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقتكم شيئاً مما وعد.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ بيَّن تعالى في هذه الآية أشد الناس استحقاقاً للصدقة فقال ﴿للفقراء﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٤٠ عن أسماء قالت: قلت يا رسول الله، مالي مالٌ إلاَّ ما أدخلَ عليَّ الزبير، أفأتصدَّقُ؟ قال: «تصدَّقي، ولا تُوعي فيوعي الله عليكِ» ورواه مسلم رقم ١٠٢٤ والترمذي رقم ٦٧٢.

﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أحصرهم الجهاد في سبيل الله فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم بالجهاد ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ الكسب والتجارة، وهم أصحاب الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صُفَّة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ وعن سعيد بن جُبير: هم قوم اصابتهم الجراحات في سبيل الله فصاروا زمنى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال وهو من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه، مع القدرة على تعاطيه ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أي تعرف فقرهم ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من صُفرة الوجه، ورثَاثَة الحال، وأثر الجهد، وقد كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى بالناس «يخرُّ رجال من قيامهم في صلاتهم، لما بهم من الخصاصة، وهم أهل الصفة»[1] والخطاب لكل من له حظ من الخطاب، والسيما: العلامةُ التي يُعرف بها الشيء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إلحافاً هو أن يلازم المسؤولَ حتى يعطيه، والمعنى: لا يسألون شيئاً وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم يُلِحُّوا، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غنى النفس»[2] وعن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش أو كدوحٌ، قيل: ما يغنيه يا رسول الله؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب»[3] ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده ويجازي عليها فهو ترغيب في التصدق لا سيما على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين

---

(١) أخرجه أبو نعيم عن فضالة بن عُبيدة، ويؤيده قول أبي هريرة: إنْ كدتُ لأخرُّ من الجوع.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٣١ ومسلم في الزكاة رقم ١٠٥١.
(٣) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٦٢٦ والترمذي رقم ٦٥٠ والنسائي ٥/ ٩٧ في الزكاة.

ومعلنين، يعني يعمُّون الأوقات بالصدقة، فالمراد بالليل والنهار جميع الأوقات، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المخبوء لهم في خزائن الفضل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، أو أريد بالأكل الانتفاع، كما يقال: فلان أكل ماله كلَّه، والربا في اللغة مطلق الزيادة، وفي الشرع هو فضل مال خالٍ عن العوض في المعاوضات. عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكِلَه وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[(١)] ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلاّ قياماً كقيام المصروع الذي يتخبطه الشيطان ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي الجنون يقال: مُسَّ الرجلُ فهو ممسوس إذا جُنّ، وأصله اللمس باليد، وسمي به لأن الشيطان قد يمس الرجل فيحدث الجنون، وفي الحديث: «ما من، مولود يولد، إلاَّ والشيطان يمسُّه حين يولد فيستهل صارخاً»[(٢)]، أي يصيح أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع، فيكون نهوضهم وسقوطهم، كالمصروعين، لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٥٩٨ باب لعن آكل الربا وموكله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٣٨ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ وتتمة الحديث: فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان إياه، إلاَّ مريم وابنها.

فأثقلهم فصارو مخبَّلين، ينهضون ويسقطون، تلك سيماهم عند أهل الموقف ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح بناءً على ما فهموه، أن البيع إنما حل لأجل الكسب، وذلك في الربا متحقق فكذبهم الله بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحلُّ والحرمةُ ضدَّان، فأنى يتماثلان؟ فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيَّع درهماً، فلا يقال إن عوضه هو الإمهال، لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ وزجر ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي ذكر الرب تأنيس لقبول الموعظة، إذ فيه إشعار بإصلاح أمر عبده، أي فمن بلغه وعظ من الله وزجر عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ واتعظ وانتهى بلا تراخ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي ما تقدم فلا يؤاخذ فيما مضى، وليس عليه رد ما سلف، لأنه أخذه قبل نزول التحريم، فأما من لم يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ والسلفُ: المتقدِّم وكلُّ شيء قدمته أمامك فهو سلف ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه، إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا إذ الكلام فيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من عاد ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ ماكثون أبداً لكفرهم بالاستحلال.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه والمحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ينميها ويزيدها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويزداد كل يوم جاهُ المتصدق، وذكره الجميل، وميل القلوب إليه، وذلك أفضل من المال ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر، المصرّ على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله ورسله وبما جاءهم منه، ومن جملتها تحريم الربا ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ على الوجه الذي أُمروا به ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ عطفهما على ما يعمُّهما، لفضلهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الموعود لهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من آت ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ في الظاهر ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم عقابه ﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا تركاً كلياً، نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مالٌ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقالت قريش: والله ما نعطي الربا في الإسلام، وقد وضع الله تعالى عن المسلمين، واختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ بقضية الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿وذروا ما بقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ فقالوا نتوبُ إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الحقيقة كاملي الإيمان، فإن دليل كماله امتثال المأمور به.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٣٨ فقد ذكر هذه القصة من رواية زيد بن أسلم والسُدِّي.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ما أُمرتم به من الاتقاء وترك الربا ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به وقيل: فأذنوا أي فأيقنوا. وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو كحرب المرتدين على الأول. وقيل هذا تهديد لا حرب، وجمهور المفسرين على الأول روي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من أكل الربا مع الإيمان بحرمتها بعد ما سمعوا من الوعيد ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ تأخذونها تماماً ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان فلما نزلت قالت ثقيف: نتوب إلى الله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا من كان عليهم دين، وقالوا: أخّرونا إلى أن نتدارك الغلات فأبوا أن يؤخّروهم، فأنزل الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي إن كان غريم من غرمائكم ذو إعسار، فالحكم إنظاره وإمهاله إلى يساره ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ بحذف إحدى التائين برؤوس أموالكم على من أعسر بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم، لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وفيه تحريض للتصدُّق على المُعْسرين.

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال ﷺ: «من سرَّه أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفِّس عن معسر، أو ليضَعْ عنه»(1) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا

---

(1) أخرجه الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٣٩ وروى الإمام أحمد في المسند روايةً أخرى، أنَّ أبا قتادة كان له دَيْنٌ على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خَزِيرةً ـ حساء فيه لحم ودسم ـ فناداه فقال: يا فلان، اخرج فقد أُخبرتُ أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيِّبك عنّي؟ فقال: إني معسرٌ وليس عندي شيء، قال: آللهِ إنك معسرٌ، قال: نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نفَّسَ عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل عرش الله يوم القيامة».

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي تُعطى جزاءها كاملاً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو تضعيف عقاب، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وعاش ﷺ بعدها إحدى وعشرين يوماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان حال المداينة، فإنه تعالى لمَّا بالغ في الوصية، بحفظ المال الحلال عن التلف، لأنه سبب لمصالح المعاش والمعاد، حثَّ على الاحتياط في أمر الأموال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: داينتُه إذا عاملته نسيئةً معطياً أو آخذاً، قال ابن عباس: لمَّا حرم الله الربا أباح السلف، وقيل: المراد بها كل ما يؤجل من المعاوضات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ

﴿مُّسَمًّى﴾ معلوم بالأيام والأشهر، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «من أسلم في تمر، ففي كيل معلوم، أو وزن معلوم، إلى أجل معلوم»[1] وفي رواية «من أسلف» ومعناهما واحدٌ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي الدين، لأنه أوثق وأدفع للنزاع، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود، والأمر للندب، وعليه الجمهور، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾ بيان كيفية الكتابة المأمور بها وقال ﴿بَّيْنَكُمْ﴾ للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين، باختيار كاتب فقيه ديّن، حتى يكتب ما هو متفق عليه، من غير زيادة ولا نقصان ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي كاتب مأمون على ما يكتب وفيه دليل على أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدّلاً بالشرع ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي لا يمتنع أحد من الكُتَّاب أن يكتب كتاب الدين ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي مثل ما علّمه الله تعالى كتابة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة، كقوله تعالى: ﴿وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ﴾ ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة التي أمر بها ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولا يكون المملي إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود عليه، وعلى ثبوته في ذمته، فيكون ذلك إقراراً على نفسه والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي المُدِينُ على الكاتب، جَمَع ما بين الاسم الجليل، والنعت الجميل، للمبالغة في التحذير ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ وإن كان حقيراً، بَخَسه أي نقصه، والبخسُ أعمُّ من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات ويشمل أيضاً الغل والغش والحيل ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ صرح بذلك لزيادة الكشف والبيان ﴿سَفِيهًا﴾ أحمق أو جاهلاً بالإملاء أو مبذراً لماله ومفسداً لدينه ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي صبياً أو شيخاً خَرِقاً

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب السلم ٤/٣٥٥ ومسلم في المساقاة رقم ١٦٠٤ ورواية البخاري عن ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: من أسلف في تمر. . .» الحديث.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بنفسه لخَرَسٍ كما روي عن ابن عباس، أو لما هو أعم منه، من الجهل باللغة، وسائر العوارض المانعة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ أي متولي أمره وإن لم يكن له خصوص الوليِّ الشرعي، فيشمل القيم والوكيل والمترجم ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بين صاحب الحق والمولى عليه فلا يزيد ولا ينقص ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شاهدان على الدين، والأمرُ للندب، أو للوجوب على الخلاف في ذلك ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ من الرجال المؤمنين، والحريةُ والبلوغ شرطٌ مع الإسلام، إذ الكلام في معاملتهم، أما إذا كانت المداينة بين الكفرة، أو كان من عليه الحق كافراً، فيجوز استشهاد الكافر ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. روي عن عائشة أنها قالت: قال ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا مجلودٍ حداً، ولا ذي غِمْرٍ على أخيه، ولا القانع لأهل البيت، ولا ظنِّين في ولاءٍ ولا قرابة»[1] أراد بالخيانة: الخيانة في الدين والأمانة، ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي لأجل أن تذكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت الشهادة، بأن نسيتها، لأن الغالب على طباع النساء النسيان ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل، لئلا تضيع الحقوق، وقيل: نزلت الآية حين كان الرجل يطوف بالقوم، فيدعوهم إلى الشهادة، فلا يتبعه أحد منهم ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ ولا تملُّوا ولا تضجروا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي الدين أو الحق من كثرة مداييناتكم ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق أو الدين ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ أي كثيراً، أو مختصراً قليلاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون، أو الوقت الذي اتفق الغريمان على

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الشهادات رقم ٢٢٩٩ وقال: حديث غريب، ومعنى ذي الغِمْر: أي ذي الحقد، والقانع لأهل البيت: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم مثل الأجير، والخادم، تردُّ شهادته للتهمة بانتفاعه منهم، والظَّنِينُ هو المتَّهم بسبب قرابة أو ولاء.

تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾أي ذلك الكتبُ والتسجيل ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه سبحانه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأثبت لها، وأعون على إقامتها، لأن الكتابة تذكر الشهود ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي وأقرب من انتفاء الريب، للشاهد، والحاكم، وصاحب الحق، فإنه قد يقع الريب في المقدار، والصفة، والأجل، والشهود، وإذا رجعوا إلى المكتوب، زال ذلك الريب ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ أي إلاّ أن تكون المعاملة يداً بيد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما بينكم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي لا بأس أن لا تكتبوها، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، ولكثرته بين الناس، فلو كُلّفوا فيه الكتابة والإشهاد، لشقَّ ذلك عليهم، ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ الأمر في هذه الآية للاستحباب، عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، أو لا يُعطى الكاتب حقه، ويحمل الشاهدُ مؤنةَ مجيئه، ونحو ذلك ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نهيتم عنه أو الضرار ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ مأثم وخروج عن الطاعة، لاحقٌ بكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بجميع مصالح عباده، كرر لفظ الجلالة لتربية المهابة، وللتنبيه على استقلال كل جملة بمعنى، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعدٌ باستمرار التعليم، والثالثة وعد ووعيد وتعظيم لأمر الله تعالىٰ.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين أو متوجهين إليه ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ فالذي يُستوثق

به رهان، واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر، ومع وجود الكاتب وعدمه، وقد صح أن الرسول ﷺ رهن درعه عند يهودي بعشرين صاعاً من شعير، أخذه طعاماً لأهله، والرهن ما وضع عند إنسان مقابل ما أخذ منه ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض وعليه الجمهور، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان، فلم يتوثق بالكتابة، والشهادة، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ وهو المديون، وإنما عبر عنه بذلك لحمله على الأداء ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دَيْنه، سمّاه أمانة لائتمانه عليه، بترك الارتهان ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في الخيانة، وإنكار الحق ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود أو المديونون، والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ الإثم أسند إلى القلب لأنه رئيس الأعضاء، وكأنه قيل تمكّن الإثم في نفسه، وأشرف مكانه، ألا ترى أن أصل الحسنات الإيمانُ، وأصل السيئات الكفرُ، وهما من أفعال القلوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم به.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه، لأنه الخالق لهما ولما فيهما ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ بأن تظهروه للناس، بالقول أو بالفعل ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من السوء أو العزم به ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ بأن تكتموه منهم، ولا يندرج فيه مالا

يخلو عنه البشر من الوساوس، وأحاديث النفس، التي لا عقد ولا عزيمة فيها وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[1] إذ التكليف بحسب الوسع ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب، والجمهورُ على أن الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة ثابتة في العزم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ وقوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ ولأن أعظم المؤاخذات إنما يكون بأفعال القلوب، كاعتقاد الكفر والبدع ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته بفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، قدَّم المغفرة رحمة منه للعباد، ترغيباً لهم في المسارعة إلى موجباته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى لرسوله ﷺ على صحة إيمانه، وأنه جازم في أمره غير شاك، والمراد إيمانه بذلك إيماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع مافيه من الشرائع والأحكام المذكورة، وفائدة هذه الأخبار أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مُدح به رسوله ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحده من غير شريك له، وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله، لتأكيد الإشعار لما بين إيمانه ﷺ المنبىء عن المشاهدة والعيان، وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان، من التفاوت البيِّن والاختلاف الجلي، كأنهما متخالفان من كل وجه، أي كل واحد منهم آمن بالله ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من حيثُ إنهم عباد مكرمون، معصومون ومطهَّرون، «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون». ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ من حيث مجيئهما من عند الله تعالى، على وجه يليق

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤٧٨/١١ ومسلم رقم ١٢٧ في الإيمان، وأبو داود رقم ٢٢٠٩ باب الوسوسة في الطلاق، وهذه رواية أبي داود، وفي البخاري «ما لم يعملوا به أو يتكلّموا» بصيغة الجمع.

بشأن كل منهما، وإنما لم يذكر ههنا الإيمان «باليوم الآخر» لاندراجه بكتبه ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي يقولون: لا نفرق بينهم بل نؤمن بالكل، قيدوا به إيمانهم تحقيقاً للحق، وتخطئةً لأهل الكتاب، حيث أجمعوا على الكفر بالرسول ﷺ واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام ﴿ وَقَالُواْ﴾ هو حكاية لامتثالهم بالأوامر، إثر حكاية إيمانهم ﴿ سَمِعْنَا﴾ بآذان قلوبنا، وعلمنا صحته وتيقنا أن كل تكليف ورد بواسطة الرسول ﷺ إلينا حقٌّ ﴿ وَأَطَعْنَا﴾ أمرك وقبلناه عن طوع، واجتنبنا عن نهيك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نطلب غفرانك ذنوبنا، وتقديمُ السمع والطاعة على طلب الغفران، لِمَا أن تقديم الوسيلة أدعىٰ إلىٰ الإجابة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بالموت والنشور، وفيه إقرار بالبعث والحساب والجزاء.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تَسَعُ قدرتها، فضلاً ورحمة وتيسيراً عليها لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ فهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شر، لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وهو للترغيب في المحافظة على موجب التكليف، والتحذير عن الإخلال بها، قال الله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وعن الحسن أن ذلك على تقدير الأمر، أي قولوا في دعائكم ذلك، فهو تعليم لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم، أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان والخطأ من تفريط، وقلة

مبالاةٍ، والمعاصي كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً مؤد إلى الهلاك، فتعاطي المعاصي خطأً أيضاً، لا يبعد أن يفضي إلى العقاب ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عطف على ما قبله، والإِصْرُ: العهد، والذنب والمراد به التكاليف الشاقة من نحو قتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، وهو ما كلفه على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية استعفاء عن العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليها، قيل: هو الفرقة والقطيعة، وقيل: هو المسخ والخسف ونحو ذلك ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا وآثار ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل ولم يؤت في هذه الجمل الثلاث بلفظ ربنا لأنها نتائج ما تقدم، فجاء فاعف عنا مقابلاً بلا تؤاخذنا، واغفر لنا مقابل: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾ وارحمنا مقابل: ﴿ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به﴾ ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي مالكنا وسيدنا وناصرنا ومتولي أمورنا ونحن عبيدك ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، والمراد به عامة الكفرة، حكى عن المؤمنين هذه الأدعية بصيغة الجمع، لأن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد، كان للهمم تأثيرات ولحصوله تلميحات. عن ابن مسعود: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه» كفى بمعنى أغنى أو بمعنى دفع.

وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيها الله تعالى من كنزه الذي تحت العرش فتعلموها وعلموها نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي من رواية أبي ذَرٍّ مرفوعاً.

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ووفقنا للعمل الصالح والقول المصيب، واجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء أسماعنا، وضياء أبصارنا، ونزهة أرواحنا، ويسر لنا إتمام ما قصدناه فلا تجعل لنا مانعاً عما أردناه، وسهل بتوفيقك ما نويناه، وصل وسلم على خير خلقك محمد وعلى آله الواقفين على أسرار كتابك، وأصحابه الفائزين بحكم خطابك.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة»

* * *

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

مدنية وآيتها مئتا آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تُسمَّى هي والبقرة بالزهراوين، وتسمى الأمان والكنز، وقد ورد في فضلهما أحاديث كثيرة. سبب نزول هذه السورة الكريمة، وفد نصارى نجران، فقد روى محمد بن إسحق قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فخاصموا في عيسى عليه السلام، فقال لهم ﷺ: ألستم تعلمون أن الله تعالى حيٌّ لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قيّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه تعالى صوَّر عيسى في الرحم، وحملته أمّه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويُحْدِث، وربنا منزَّهٌ عن ذلك كله؟ قالوا: بلى، ثم قالوا يا محمد: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا»[(١)].

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/٣٧٦ وهي من رواية محمد بن إسحق.

﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ القرآن منجماً ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي نزَّله محقاً في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبساً بالعدل في أحكامه، وبالصدق في أخباره ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أي لما قبله من الكتب السالفة، وفائدة التقييد بها، حثُّ أهل الكتاب على الإيمان به ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ تأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعةً ووجاهة، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابة، ويتفاحش حال من كفر به شناعة.

﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ من قبل القرآن، والتصريح به للمبالغة في البيان ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ أي أنزلهما هداية للناس، والمراد بالناس الأمم الماضية، من حين نزولهما إلى زمان نسخهما ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ يريد به جنس الكتب الإلَهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل، ذكر ذلك ليعمَّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، أو المعجزات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها من المعجزات ﴿ لَهُمۡ ﴾ بسبب كفرهم ﴿ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ وهو وعيد، جيء به إثر تقرير التوحيد، زجراً عن الكفر والعصيان ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم، ولم يقل المنتقم، لأنه أبلغ منه، إذ لا يقال صاحب سيف إلا لمن يكثر منه القتل، لا لمن معه سيف.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم، وهو كالدليل على كونه تعالى حياً قديراً، مالكاً لكل الأشياء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ تصويركم من الصور المختلفة المتفاوتة في الخلقة، أبيض أو أسود، حسناً أو قبيحاً، كاملاً أو ناقصاً، والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، أي يصوركم وأنتم في الأرحام مُضَغ، وفيه من الدلالة على بطلان زعم ربوبية عيسى،

وهو في جملة أبناء الأرحام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره ما يعلمه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة، ولذلك يخلقكم على نمط بديع، كرر الجملة للدلالة على نفي الإلٰهية عن غيره تعالى، توكيداً لما قبلها، ومبالغة في الرد على من ادعى إلٰهية عيسى عليه السلام، ثم أتى بالحكمة لأن خلقهم على ما ذكر من النمط البديع، أثرٌ من آثار تلك القدرة الباهرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ شروع في إبطال شُبه الضالين، ولام الكتاب للعهد، أي القرآن الكريم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أحكمت عبارتها، لظهورها ووضوحها ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصلُه، تُردُّ إليها غيرها في الأحكام، والعرب تسمي كل جامع يكون مرجعاً أماً ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أُخَر جمع «أخرى» مؤنث آخر، ومتشابهات صفة لمحذوف أي محتملات لمعان متشابهات، لا يمتاز بعضها من بعض، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، وحكمة ورود المتشابهات، إظهار فضل العلماء فيها، والتشويق على أن يجتهدوا في تدبرها، واختبار للإيمان بالغيب ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق، قال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره، معرضين عن المحكمات، لا تحرِّياً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى، بل

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلوهم بالتشكيك والتلبيس، ومتى أوقعوا تلك الفتنة، صار بعضهم مخالفاً للبعض، وذلك يفضي إلى التقاتل، والهرج، والمرج، فذلك هو الفتنة ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ هو أن يأخذ ظاهر المتشابه، ويحمّل لفظه أحد المحتملات التي توافق أغراضه الفاسدة، ويقرر البدعة والباطل، ويؤوّل حسبما يشتهي[1] ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والحال لا يهتدي إلى تأويله إلا الله، والوقف لازم عند الجمهور على قوله: ﴿إلاَّ الله﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مزالّ الأقدام، ومداحض الأفهام، والمراد بالعلم «العلم الشرعي» المقتبس من مشكاة النبوة، فإن أهله هم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالمتشابه، وهو ثناء عليهم بالإيمان واعتقاد الحقيقة بلا تكييف، وهذا قول أكثر المفسرين ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله تعالى، لا مناقضة ولا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب، إشارة إلى سر إنزال المتشابهات، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية، والإيصال إلى معارج الكمال، وقد قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك، وليظهر فضل العلماء، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد به من الأحكام الفقهية، فينالوا بذلك المدارج العالية، وذلك من التربية والإرشاد ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن، وحسن النظر، للاهتداء إلى تأويله، لما أنهم قد تجردوا عن الأهواء الزائغة.

---

(١) التأويلُ: كشف المراد عن المشكل من الآية، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿يخرج الحيَّ من الميّت﴾ إنه أريد به إخراج الفرْخ من البيضة كان تفسيراً، وإذا قلنا: يراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو بالعكس كان تأويلاً؛ فالتأويل بيان المراد من اللفظ غير الظاهر منه، مشتقٌّ من آل، يؤل، أولاً ومآلاً: إذا رجع، وأما التفسير فهو توضيح المعنى المراد، فتنبَّهْ والله يرعاك.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي قولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق، إلى اتباع المتشابه بتأويل فاسد لا يرضيك، والزيغ إنما هو ثمرة لما يحدث في القلب، بسبب اختيار الإنسان ما يوافق له، فإن كانت تلك الداعية الكفر فهي: الخذلانُ، والإزاغة، والختم، والطبع، وغيرها، وإن كانت تلك الداعية الإيمان فهي: التوفيقُ، والرشادُ، والهداية، والسَّداد، والتثبيت، والعصمة وغيرها، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[1] ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحقّ والإيمان ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك ﴿ رَحْمَةً ﴾ واسعة تزلفنا إليك، للثبات على الحق، وسؤال ذلك، إشارة إلى أنه منه تعالى فضلٌ محض، من غير شائبة وجوب عليه تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الهبةُ: العطيةُ الخالية عن الأعواض والأغراض، أي أنت المتفضل بالعطاء والإحسان.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه، فحذف المضاف تهديداً لما يقع فيه ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي أن يُرتاب في وقوعه، ومقصودُهم من هذا كمال افتقارهم إلى الرحمة، والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة بالآخرة، فإنها المقصد والمآل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فإن الإلٰهية تنافيه، وإظهار الاسم الجليل، لابراز كمال التعظيم، والميعاد مصدر ميمي بمعنى الوعد، أي لا تخلف وعدك.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم/٣٥١٧/ وقال: هذا حديث حسن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى دين التوحيد والحق، شرع في بيان من كفر به، والموصول عام في الكفرة ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي لن تنفع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ التي أعدُّوها لدفع المضار، وجلب المصالح ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الذين يتناصرون في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، والمعنى: لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً من الإغناء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأبُ: استمرار الشيء على حالة واحدة، يقال: هو دائب يفعل كذا، إذا استمر في فعله، أي دأب حال هؤلاء الكفرة، في تكذيب الحق، وعدم النجاة من عذاب الله، كحال آل فرعون، من دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل عاد وثمود ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيان وتفسير لدأبهم، كأنه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل كذبوا الخ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، ولم يجدوا محيصاً، فيكون هؤلاء الكفرة كحالهم أيضاً والذنب: الإثمُ يُستعمل فيما بين الرب والعبد، والجُناحُ بين الله والناس، وبين الناس والناس ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذة، وتنبيهٌ على أن لهم عذاباً مؤخراً، سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ رُوي عن ابن عباس أن يهود أهل المدينة، قالوا لمَّا هُزم المشركون يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأميُّ، الذي بشَّرنا به موسى عليه السلام، وأرادوا التصديق؛ ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة له أخرى، فلما كان يوم أحد شكُّوا وقالوا: لا والله ما هو به، فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ عن قريب، فالمراد من الموصول اليهود، وقيل: الآية في مشركي مكة وهي من دلائل النبوة، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، فقتل وأجلى ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ المستقر، وهو غاية حشرهم.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أي فرقتين، وأجمع المفسرون على أن المراد بهما رسول الله وأصحابه، ومشركو مكة ﴿ ٱلْتَقَتَا ۖ ﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم المؤمنون، لكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان، الجهاد في سبيل الله، مدحاً لهم، وإيذاناً بأنه المدار في تحقيق النصر ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي فئة أخرى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ وإنما لم توصف هذه الفئة، لإسقاطهم عن درجة الاعتبار ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ أي ترى الفئة الأخيرة الفئة الأولى ﴿ مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين ﴿ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ ﴾ رؤية ظاهرة معاينة، رُوي عن سعيد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المؤمنين، فسألوه كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشرة، قالوا: ما كنا نراكم إلاَّ تضعفون علينا!! أراهم الله تعالى كذلك مع قلَّتهم، ليهابوهم، ويجتنبوا قتالهم، فئة الكفار كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وهم شاكو السلاح، وفيهم صناديد قريش، ومن الإبل سبعمائة بعير، ومائة فرس، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم سبعون بعيراً، ومن الخيل فرسان فقط، وكان ذلك اليوم في السابع عشر من شهر رمضان، سنة اثنتين من الهجرة النبوية ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ ﴾ يقوي

من غير توسط الأسباب المعتادة ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ بعونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أراد نصرته، كما أيّد المؤمنين في بدر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل أو التكثير، وغلبة القليل على الكثير ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعبرةً عظيمة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر والعقول السليمة، التي تستفيد من الدلائل الإلهية.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بيانٌ لحقارة شأن الحظوظ الدنيوية، وتزهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة، الذين يتعززون بها، والمراد بالناس الجنسُ، والمزين هو الله تعالى عند الجمهور، وإنما زينها للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جعلْنَا مَا عَلى الأَرْض زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهم﴾ الآية، وعن الحسن: المزيِّنُ هو الشيطان، لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ﴾ والتزيين للشهوات، يُطلق ويراد بها حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة، وأن يراد به الحض على تعاطي الشهوات، وهو مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته منزلة الأمر بها، وكلامُ الحسن محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي المشتهيات، سمَّاها شهوات مبالغةً، وإيماء إلى أنهم انهمكوا

في محبتها، حتى أحبُّوا شهوتها، والشهوةُ نزوع النفس وتَوَقَانُها إلى ما تريده ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وإنما بدأ بهنّ لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»[1] ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ لأن حبهم فطرةٌ وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء في الفتن، واللفظ يشمل البنات أيضاً، بطريق التغليب ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مأخوذ من القنطار للتأكيد، كقولهم بدرة مبدرة أي منضم بعضها على بعض ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلّمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أَسَامَ الدابةَ إذا أرسلها للمرعى، والخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والرهط ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الزرع مصدر، من مفعول ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يتمتع بها في الدنيا أياماً قلائل، وهي زائلة وفانية ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ أي المرجع وحسن المنقلب، وهي الجنة دار المتقين.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المجمل للناس، مبالغة في الترغيب أي هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي بما هو خير، وإبهام الخير لتفخيم شأنه، والتشويق إليه ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي مما فُصّل من تلك المستلذات، المزينة لكم، لأن نِعَمَ الدنيا مشوبة بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونِعَمُ الآخرة خالية عن المضار، وباقية ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يدخل في هذا كل من اتقى الشِّركَ والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهة عن الدنس والقذر الحسّي، والمعنوي ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي رضوان عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رضاء الله تعالى، وقد نبه الله سبحانه بهذه الآية على نعمه، فأدناها نعم الدنيا،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/١١٨ ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٤٠.

وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم، فيثيب أو يعاقب، وبصير بأحوال الذين اتقوا، ولذا أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: مَنْ أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ المراد بها الصغائر والكبائر ﴿وَقِنَا﴾ بفضلك ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي أجرنا من عذاب جهنم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي أعني بهم الصابرين على الإيمان، والطاعات، والمصائب ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وإخلاص النية ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ المداومين على الإيمان والطاعة، المواظبين على العبادات ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ الأسحار جمع سَحر، بفتح الحاء أواخر الليالي، وخص الأسحار لأنها وقت إجابة الدعاء، لأنه وقت الخلوّ والنفسُ أصفى، والروحُ أجمع، سيَّما للمتهجّدين!!.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيَّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، عبَّر عنه بالشهادة إيذاناً بقوته في إثبات المطلوب، فشبَّه سبحانه تلك الدلائل، بشهادة الشاهد في البيان ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالإقرار لما عاينوا من عظيم قدرته ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة شهدوا بالإيمان ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ مقيماً للعدل في جميع أموره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر للتأكيد، أي لا معبود بحق إلا الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يعني أنه العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام، الذي هو التوحيد والتدرُّع بشريعة الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله وإخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم اليهود، والنصارى والذي اختلفوا فيه الإسلام، كما يشعر به السياق، والتعبير عنهم بهذا العنوان، زيادة تقبيح لهم، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، ثم اختلافهم في دين الإسلام حيث قال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون، واختلافهم في التوحيد، فثلَّث النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي بعدما علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلاّ حسداً بينهم، وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الناطقة بوحدانيته، أو بأي آية كانت من آياته تعالى وبحججه ودلائله، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي فإنه تعالى سريع الحساب يأتي حسابه عن قريب، ويتم بسرعة.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك فيه، بعدما أقمت الحجج،

والضمير للذين أوتوا الكتاب من وفد نجران ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت نفسي، وقلبي، وجملتي لله وحده، وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه، لأن الجدال إنما يكون في أمرٍ خفي، والذي جادلوا به أمر مكشوف، وهو الدين القويم الذي ثبتت صحته ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أنا وأتباعي على الإسلام ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي وقل لليهود والنصارى عامة ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي الوثنيين من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما فعل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجبه، أم أنتم على كفركم، وإصراركم على العناد؟ وفي ذلك تعبير لهم بالمعاندة، وقلة الإنصاف، وتوبيخ بالبلادة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ أي اتصفوا بالإسلام، والدين الحق ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فقد أصابوا الرشد، حيث خرجوا من الضلالة إلى الهدى ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي لن يضرُّوك شيئاً فإنك رسول، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وقد بلغت ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أيَّ آية كانت، فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقيقة الإسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ سوى الأنبياء عليهم السلام، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو أسلوب تهكم وسخرية.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها من البر والإحسان، فلهم اللعنة والخزي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة، وفيه تقبيح لصنيعهم، حيث رفضوا حكم التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابهم المنزل من عند الله وإضافته إلى اسم الله الجليل لتشريفه، وتأكيد وجوب المراجعة إليه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ روي أن رجلاً وامرأةً من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم ليس عليهما الرجم، فقال ﷺ بيني وبينكم التوراة فأبيا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي خدعهم في زعمهم ذلك قولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقولهم: إن الله وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه.

﴿فَكَيْفَ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال بما سيحيق بهم من الأهوال أي فكيف يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ لجزاء يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا

شك في وقوعه ووقوع ما فيه. روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت، من غير نقص أصلاً كما يزعمون وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم وأصله يا الله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ مالك جنس الملك بحيث يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، من غير مشارك فيه وهو نداء ثان أي يا مالك الملك ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ مفعوله محذوف أي من تشاء إيتاءه إياه ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ أي ممن تشاء نزعه منه وهذا بيان لبعض وجوه التصرف، الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق لاختصاصها به تعالى، المُلْكُ، والمالُ، والجاه، الكل لا يحصل إلاّ من الله عز وجل، أمّا تكثير المال، فقد نرى الرجل في غاية الكياسة، لا يحصل له مع الكدّ الشديد قليل من المال، ونرى الأبله الغافل، قد يحصل له من الأموال ما لا يُحصى، وأما الظفر فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وعند هذا يظهر قوله تعالى: ﴿تُؤتي الملك من تشاء﴾ ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ أن تعزه في الدنيا ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بالإدبار والخذلان ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي ما تفعله الخيرُ كله، لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئتك، والخير والشر بيده تعالى، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، لرعاية الأدب، ونبّه على أن الشر بيده، بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما سبق، والشر غير مقصود بالذات بل إنما قضاها الله تعالى لحكمة ومصلحة، ألا ترى أن الحجامة، والجراحة، وشرب الدواء الكريه ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة، يُعدُّ خيراً لا شراً، وكلُّ قضاء الله تعالى من هذا القبيل.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ ﴾ الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان، ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء، لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب، أي تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ ﴾ إخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات والنباتات من موادها، مثل إخراج الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والفرخة من البيضة، والإنسان الحيّ من النطفة، وعكس ذلك، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، وعكسه، والأكثرون على الأول، وهو للحقيقة أقرب ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يعرف الخلق مقداره، وإن كان معلوماً عنده، ولمَّا بيَّن سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز منه تعالى، نبَّه المؤمنين على أنه لا ينبغي أن يوالوا أعداء الله تعالى.

فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين، لقرابة بينهم، أو لصداقة ونحوهما، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، فإن قيل: إن المحبة للقرابة خارجة عن الاختيار؟ قلنا: المراد هنا ما يقتضيه الإسلام، من بغض وحبّ شرعيين، يصح التكليف بهما، وقد كرر هذا النهي في القرآن، وحمل الموالاة على ما يعمُّ الاستعانة بهم في الغزو، وجوّز بعضهم الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق، ومن الناس من استدلَّ بالآية، على أنه لا يجوز جعلهم عمالاً ولا استخدامهم في أمور الديوان، وكذا أدخلوا في الموالاة المنهيّ عنها السلام، والتعظيم، والتوقير في المجالس ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء، والتعبير عنه بالفعل، للاستهجان بذكره ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي ليس من ولايته أو دينه، وتنوين شيء للتحقير، أي ليس في شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، أو الدين، لأن موالاة المتضادَّيْن مما لا تكاد تدخل في الخاطر، كما قال القائل:

تَــوَدُّ عَــدُوّي ثــم تَــزْعُــم أَنَّنــي صَدِيقُكَ لَيسَ النَّوْكُ عنكَ بِعَازِبِ

النَّوكُ: الحُمْقُ والجنونُ. وقال آخر:

إذَا وَالَـىٰ صَـدِيقُـك مـن تُعَـادِي فَقَـــدْ عَـــاداكَ وانقطَـــعَ الكَـــلاَمُ

الموالاة خلافُ المعاداة وهي من الولى وهو القرب ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ استثناء مفرغ كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال، إلاّ حال اتقائكم ﴿مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا من جهتهم، أمراً يجب اتقاؤه، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة، وإبطان المعاداة، مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، من غير أن يستحل حراماً من المحرمات، كنقل أخبار المسلمين إليهم، والاستعانة بهم، والآيةُ دليل على مشروعية التقية،

وعرَّفوها بمحافظة النفس، والمال، والعرض، من شر الأعداء، وعدَّ قوم من باب التقية، مداراة الكفار، والفسقة، والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها، لحديث «إنَّا لنبَشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»[1] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي عقاب نفسه وفيه تهديد عظيم، حيث علّق التحذير بنفسه أي ذاته المقدسة، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى حكمه، وإلى جزائه تعالى فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ ما في قلوبكم، ومن جملتها موالاة الكفرة، وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيؤاخذكم بذلك ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من باب إيراد العام بعد الخاص، تأكيداً له وتقريراً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبذلك يكمل وجه التحذير، فكأنه سبحانه قال: ويحذركم الله عقابه لأنه متصف بالعلم الذاتي، محيط بالمعلومات كلها، فلا تجترئوا على عصيانه، وموالاة أعدائه، إذ ما من معصيةٍ إلا وهو مطَّلعٌ عليها، وقادر على العقاب لمن فعلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿مُّحْضَرًا﴾ تجد جزاءها محضراً بأمر الله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي وما فعلته ﴿تَوَدُّ﴾ وتتمنى يوم ذلك ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي بينها وبين ما عملت من السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ الأمدُ: غاية الشيء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب تعليقاً عن أبي الدرداء ١٠/٥٢٧ بلفظ: «إنَّا لَنَكْشِرُ - أي نبتسم - في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» ويؤيد هذا حديث عائشة: استأذن على النبي رجل، فقال: «ائذنوا له فبئس أخو العشيرة، فلمَّا دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلتَ ما قلتَ ثم ألنتَ له في القول؟ فقال: أيْ عائشة، إن شرَّ الناس منزلةً عند الله، من تركه الناسُ اتّقاء فُحْشه» رواه البخاري.

ومنتهاه، والمراد هنا الغاية الطويلة، والمسافة البعيدة كما في قوله تعالى: ﴿ياليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ كُرِّرَ للتأكيد والتذكير، ذكره أولاً للمنع عن موالاة الكفار، وهنا للحثّ على عمل الخير، والمنع عن عمل الشر ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أفاد أن تحذيره تعالى، من رأفته بهم، ورحمته الواسعة. ولمّا زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله كما قالت اليهود ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالت النصارى: إنما نعبد المسيح حباً لله وقال المشركون: إنما نعبد الأصنام حباً لله.

نزل في حقهم قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء بحيث يحملها على ما يقربها إليه، أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله ﴿يحببكم الله﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم، فيقرِّبكم من جنابه عزَّ وجل ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ﴿والله غفور رحيم﴾ لمن يتحبَّب إليه بطاعته، واتباع نبيه، فيغفر له ويرحمه.

﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله تفلحوا وتسعدوا ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن قبول الطاعة ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ لا يرضى عنهم، ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم، وللدلالة على أن التولي كفر، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، وإن محبة الله تعالى مختصة للمؤمنين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢١٤.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لمَّا بين الله تعالى، أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز برضوانه ومغفرته منوط باتباع الرسول ﷺ، شرع في تحقيق رسالته، وكونه من أهل النبوة، ثم نص على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله وحده، والمراد بآل إبراهيم: إسماعيل، وإسحق والأنبياء من أولادهم الذين من جملتهم النبي ﷺ والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ يعني ذرية واحدة، متسلسلة، بعضها يتشعب عن بعض في التقى والصلاح والدين ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، كقوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ أي اذكر وقت قول امرأة عمران واسمها «حنَّة» روي أنها كانت عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، إذ رأت طائراً

يطعم فرخه، فحنَّتْ إلى الولد وتمنته، فقالت: اللهم إنَّ لكَ عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً، أن أتصدَّق به على بيت المقدس، فيكون من خَدَمته، فحملت وقالت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وكان هذا النذر مشروعاً عندهم في الغلمان ﴿مُحَرَّرًا﴾ مخلصاً للعبادة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ أي ما نذرته، وهذا في الحقيقة استدعاء الولد، إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا طلب رضاء الله تعالى والإخلاص في دعائه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات، ومن جملتها تضرعي ودعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات، التي من زمرتها ما في ضميري من النية.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي فلما ولدت المولود وكان أنثى، قالت على وجه التحسر والاعتذار، مظهرة الأسى والحسرة:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وهذا الكلام ليس من قبيل الإخبار، بل تحسرت إلى مولاها، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهبت، فإنّ دائرة علمها لا تحيط بما فيها من جلائل الأمور، أو اعتذار آخر منها ببيان أن الذكر ليس كالأنثى، في المزية وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل من ذلك ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وإنما ذكرت ذلك لربها، تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أجيرها بحفظك، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي ذكر «ذريتها» رمز إلى طلب بقائها، وطلب التناسل منها، والإعاذةُ: الالتجاء إلى الغير، يقال عاذ فلان بفلان إذا استجار به ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي من شر الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلاَّ والشيطان يمسُّه حين يولد،

فيستهلُّ من مسِّه صارخاً إلاَّ مريم وابنها»(1) فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الغلام الذَّكَر، ﴿رَبُّهَا﴾ مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي تقبلها قبولاً حسناً ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ربَّاها تربية كاملة بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بأمورها، وضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت مبالغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، أي غرفة في المسجد يصعد إليها بسلم. روي أنه عليه السلام كان يأتيها بطعامها وشرابها، كل يوم، وكان لا يدخل عليها إلاَّ وحده، وإذا خرج أغلق عليها الأبواب، وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس أو نوعاً منها غير معتاد فيتعجب: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ أي من أين لك هذا الرزق، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آتٍ في غير حينه؟ والآية دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعني من الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/٣٣٨ وفي تفسير سورة آل عمران، ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ باب فضل عيسى ﷺ.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: في ذلك المكان أو الوقت، روي عن الحسن قال: لمّا وجد زكريا عند مريم ثمر الصيف في الشتاء وسألها أنى لك هذا؟ قالت: هو رزق من عند الله، طمع زكريا في الولد، وقام واغتسل، ثم ابتهل في الدعاء لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ مباركة صالحة وطلبه بلفظه الهبة لأن الهبة إحسان محض، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقر، فكأنه قال: أعطني ذرية من غير طريقٍ معتاد، والمراد من الذرية الولد الواحد ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أراد كثير الإجابة، وهو تعليل لما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة، وفي ذلك اقتداء بجدّه الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الحمدُ للهِ الذي وَهَبَ لي على الكِبَر اسمَاعيلَ واسحقَ إنَّ ربِّي لَسَميعُ الدعاءِ﴾[1] .

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمع للتعظيم ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى، سمي بذلك، لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، حتى لم يقم بمعصية قط، وفيه تلميح أن في الصلاة إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وإنما سمي عيسى بذلك، لأنه خُلِق بكلمة «كن» من دون سبب عادي، ويحيي أول من آمن بعيسى عليه السلام، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ﴿وَسَيِّدًا﴾ فسره ابن عباس بالكريم، وأصل معنى السيد من يسود قومه، ويكون له أتباع وأنصار، ثم أطلق على كل فائق في الدين، فإنه عليه السلام كان سيد قومه، وله أتباع منهم ﴿وَحَصُورًا﴾ هو

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٩.

الذي لا يقرب النساء، مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس، ومن فسَّره بأنه كان عنيّناً فباطل، إذ العِنَّةُ عيبٌ لا يجوز على الأنبياء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ناشئاً منهم، وكائناً من عدادهم، والمراد من الصلاح صلاح الدين.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لم يخاطب المَلَك المنادي له، بل جرى على نهج دعائه السابق، مبالغة في التضرع والمناجاة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾؟ استبعاد من حيث العادةُ واستعظام للقدرة، لشكٌّ منه، وفيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير (وأنّى) بمعنى كيف، أي: كيف يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن، وأثَّر فيَّ وكانت له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ أي لا تلد، من العقر وهو القطعُ من الأولاد، قال ذلك مع سبق لدعائه، وقوة يقينه بقدرة الله، استعظاماً لقدرته تعالى ﴿قَالَ﴾ أي الرب تعالى ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء أن يفعله، من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي علامة أعرف بها الحَبَل، وإنما سألها استعجالاً للسرور، ليتلقى تلك النعمة بالشكر ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أن لا تقدر على تكلم الناس، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة، لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاءً لحق النعمة، وإنما خص «الناس» للإشارة إلى أنه غير ممنوع من الذكر، والتسبيح ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يد، أو رأس، قال جمهور المفسرين: عُقد لسانهُ عن تكليم الناس خاصة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحُبْسة، أي ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ﴾ من الزوال إلى الغروب ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وفي أصل اللغة أبكر: إذا خرج للأمر في أول النهار، ومنه بكَّر وابتكر، إذا تكلَّف الخروج في بداية الصباح.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ كلَّموها شفاهاً كرامة لها، والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها، وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة، وتطهيرها عما يُسْتقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات، وتبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آيةً للعالمين، والمراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ وهذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه السلام، وهي من باب التربية الروحانية، بالتكاليف الشرعية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك حين تقبّلك من أمك، حيث ربّاكِ، ورزقك من أرزاق الجنة ﴿ وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من الحيض والنفاس، أو من الذنوب ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قيل المراد بالاصطفائين واحد والتكرير للتأكيد، وقيل: الأول لخدمة بيت المقدس، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي أديمي الطاعة ﴿وَٱسْجُدِى﴾ تقديم السجود على الركوع ليقرن بالراكعين، والواو تفيد الاشتراك لا الترتيب ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المصلين، وكانت رضي الله عنها مقدمة

على الطاعات والعبادات، متبتلة إليه عز وجل، مستعدة لفيضان الروح عليها.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، من قصة حنَّة أم مريم، وزكريا، ومريم ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نلقيه إليك خفياً، والوحيُ يُطلق على الإشارة الخفية، ومنه قوله تعالى: ﴿فأوحَى إليهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعشِيّاً﴾ وعلى الإلهام الذي يقع في النفس، وهو أخفى من الإيماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَيْنَا إلى أمِّ مُوسَى﴾ ويُطلق على ما يكون غريزة دائمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحَى ربُّكَ إلى النَّخْلِ﴾ وعلى الإعلام في الخفاء كما قال سبحانه: ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعض﴾ ووحي الله على أنبيائه، وهو ما يلقيه عليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم، وهو صلة بين عالم الغيب والشهادة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَان لبَشرٍ أن يكلمهُ الله إلاَّ وَحْيَاً أو مِنْ وَرَاءِ حجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَا يَشَاءَ..﴾[1] الآية. وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم أي عند الذين اختلفوا في تربية مريم، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً، فإن أمثال هاتيك الحوادث، إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمُ السماع محَّققٌ فبقي المعاينة، فنفيت في هذه الآية. ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ وهي قداحهم التي طرحوها في النهر، أو هي الأقلام التي يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركاً ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ روي أن حنَّة لمَّا حملت مريم إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، قالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم، فقال لهم زكريا عليه السلام: إني أحقُّ بها، عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نُقرِعَ بيننا، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا، ورست أقلام غيره، فتكفلها زكريا ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

---

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها وتكرير ﴿وما كنت لديهم﴾ للدلالة على نبوته ﷺ، فإنه لم يكن حاضراً في الحالين، فمن أين عرف بذلك؟ لا شك أنه كان بطريق الوحي الإلهي.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ بدل ﴿إذ قالت﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض، وهذا شروع في قصة عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي بعيسى، والمراد بالكلمة قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ باعتبار أنه خلق من غير أب بل بواسطة «كن» ﴿مِنْهُ﴾ أي كائنة منه تعالى، فالمعنى قال جبريل لمريم يا مريم: إن الله يبشرك من عنده ببشرى، وهي ولد يولد منك، من غير بعلٍ، وذلك الولد ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وهو من الألقاب المشرّفة، كالصدِّيق، والفاروق، أصله المشيح بالعبرانية، ومعناه المبارك كقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل من المسيح، وإنما قال ابن مريم إعلاماً لها أنه يولد من غير أب، إذ الأولاد تنسب إلى الآباء، ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب، وفيه رد على النصارى فيما زعموه من بنوّته لله تعالى، ومن كان منسوباً لوالدته كيف يكون إلّهاً، أو ابن إلّه؟ ولم يذكر الله امرأةً باسمها في كتابه العزيز إلاّ مريم لهذه الحكمة ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والتقدم على الناس ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة، وعلو الدرجة، والوجيهُ: ذو الجاه، وهو القوة والمنعة والشرف ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً، وكهلاً[1].

---

(١) ذكر علماء اللغة أن المولود ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا وُلد فهو وليدٌ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، وإذا استغنى عن اللبن فهو فطيم، فإذا نبتت أسنانه فهو مثغر، فإذا قارب عشر سنين فهو ناشيء، فإذا قارب الحلم فهو مراهق، فإذا احتلم فهو غلام، فإذا ظهر شاربه فهو فتى، ثم ما بين الثلاثين إلى الأربعين هو شاب، ثم كهلٌ إلى أن يبلغ الستين، ثم إذا جاوزها فهو هرمٌ.

والمقصود بيان التسوية بين الكلامين، والمهدُ: مقرُّ الصبي حال رضاعه، وكان كلامه في المهد ساعة واحدة، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، قاله ابن عباس[1] وقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه، وجُوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم، دالة على براءة ساحتها، وتكليمُه كهلاً بعد نزوله من السماء، بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين[2] وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها مدة طويلةً من الزمن، كما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وإنما ختم بكونه من الصالحين، لأن مقام الصالحين في مراتب الأنبياء أعظم المراتب، وذكر أحواله المختلفة إرشاداً إلى أنه بمعزل عن صفة الألوهية.

﴿قَالَتۡ رَبِّ﴾ متضرعة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ أي من أين يكون ﴿لِي وَلَدٞ﴾ على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله تعالى ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾؟ أي لم يصبني رجل، والمسيسُ هنا كناية عن الوطء، وهذا نفي عام للتزوج وغيره، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إيراد «يخلق» ههنا مكان «يفعل» هناك، لِمَا أن ولادة العذراء، من غير أن يمسَّ بها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر، فكان الخلق المنبيء عن الاختراع أنسب بهذا المقام، ولذلك عقب ببيان كيفية الخلق فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والمراد من هذا الجواب، بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب، لأنه أمر ممكن في نفسه، كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث بعض الحيوانات على غير سبيل التولد، كحدوث الفأر عن المدر، والحيات عن

---

(١) كان أوَّلُ كلامه عليه السلام قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب. .» وتكلَّم ببراءة أمه.

(٢) واختلف في زمن رسالته، فقيل: كانت في الصِّبا، والمشهور أنه كان ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، لإكمال دعوته، فيكسر الصليب، ويقتل الدَّجَّال، ويحكم بشريعة الإسلام، كما ورد ذلك في كتب الصحاح، صلوات الله عليه، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الشعر المتعفن، والعقارب عن الأراضي الملوّثة، والذباب عن الباقلاّء، إلى غير ذلك.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة وكان عليه السلام أحسن الناس خطاً في زمانه، أو جنس الكتب الإلَهية ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه، قاله ابن عباس، وقيل: سنن الأنبياء ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إنما ذكر الإنجيل، لكونه معلوماً عند الأنبياء أنه سينزل، وقيل: علمُهُ موهبةٌ إلَهية[1] ﴿وَرَسُولًا﴾ أي يجعله رسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إلى كلهم، وتخصيص بني اسرائيل لخصوص بعثته إليهم، واليهود في أمره فرقتان: فرقة ترميه بأقبح ما رمت وهم أكثرهم، يرمونه بأنه ابن زنى، وفرقة يصدِّقون بمواعظه أنه لم يخالف التوراة، ويعتقدون أنه عابدٌ من عُبّاد بني إسرائيل وليس برسول ﴿أَنِّىٓ﴾ أي ناطقاً بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بمعجزة واضحة وإنما قاله وجاء بآيات، لأن الكل دلَّ على شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة

(١) كما وهب الله خاتم المرسلين، العلم الواسع دون معلِّم ﴿وعلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أصوّر وأقدّر ﴿لَكُم﴾ لأجل تحصيل إيمانكم ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ الهيئة: الصورة المهيأة أي مثل صورة الطير، والمراد بالخلق التصوير لا الإيجاد ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للهيئة المقدرة وذكر الضمير هنا مراعاة للمعنى، كما أنّث في المائدة مراعاةً لِلَّفظ ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ حياً طيّاراً كسائر الطيور ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ بأمره تعالى، نبه به على أن إحيائه من الله تعالى لا منه، ولكن بسبب النفخ فيه، وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه بنفخة جبريل من غير أب، ذُكِرَ أن بني إسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت ـ جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم ـ أن يخلق لهم خفاشاً، فلما فعل قالوا: ساحر، ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ والأكمه: هو الذي ولد أعمى ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ وهو مرض يحدث في الجسم، يسبب للمريض حكّاً مؤلماً، يقال له: الوَضَحُ، ولم تكن العربُ تنفر من شيء نفرتها منه، وتخصيص هذين الأمرين، لأنهما ممّا أعيا الأطباء، وكان الغالب على زمان عيسى الطب، فكان إبراؤهما معجزةً له، ودليلاً على صدقه، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا، حيث كان الغالب عليهم السحر وكان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ كرر بإذن الله، دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس أفعال البشر ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ بالمغيّبات من أحوالكم التي لا تشكوّن فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام، حكاه الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم تكن أسباباً عادية كما يفعله الأطباء ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مصدّقين للحق غير معاندين، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم موفقين للإيمان انتفعتم بذلك البيان الساطع، بظهور الخوارق من العادات.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي جئتكم ملتبساً بآية، ومصدّقاً بالتوراة، ومعنى تصديقه الإيمان بجميع ما فيه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ أي

وجئتكم لأحلَّ لكم ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ في شريعة موسى كالشحوم، والتروب والسمك، ولحوم الإبل، والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه السلام، وقيل: إن الإنجيل لم يخص أحكاماً، ولا حوى حلالاً وحراماً، ولكنه رموز وأمثال، ومواعظ وزواجر ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم وضحه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فإنها دعوة الحق، المجمع عليها فيما بين الرسل، أي أطيعوني فيما أدعوكم إليه، وكان عليه السلام يصلي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير، ويقول بالختان، إلاَّ أن النصارى غيَّروا ذلك بعد رفعه، فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وصلوا نحو المشرق، وأحلوا لحم الخنزير، وحملوا الختان على ختان القلب وغير ذلك.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ تحقق كفرُهم عنده تحقق ما يدرك

بالحواس، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد استعير هنا للعلم بلا شبهة، والمراد بالكفر إصرارهم عليه، وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به، وقد صح أنه لقي من اليهود ـ قاتلهم الله ـ شدائد كثيرة، عن ابن عباس قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى ويستهزئون به، ويقولون: يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم ويسخرون منه، وكانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به، في التوراة، فلما أظهر الدعوة اشتد ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه وكفروا به، أي فلمَّا أحسَّ كونه صادراً منهم ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف أي ملتجئاً إلى الله، وقيل معناه: من ينصرني مُنهياً نصره إلى الله؟ كأنه طلب منهم أن ينصروه لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجل: خاصته، من الحَوَر وهو البياض الخالص، سمي به أصحاب عيسى لخلوص نيتهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أنت يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وإنما طلبوا شهادته تأكيداً لإيمانهم، وإيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تضرعوا إلى الله عز وجل، مبالغة في إظهار أمرهم ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ في كل ما يأتي به من أمور الدين ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحسَّ منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة، والمكر في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة، ولا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾(١) أي جازاهم

---

(١) المكر في الأصل الخداعُ، وإذا نُسب إلى الله سبحانه، فالمراد به استدراج العبد الكافر والعاصي في غفلته، حتى يوقعه في الهلكة، كما قال سبحانه: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ تشبيهاً لذلك بالخداع، فتنبه والله يرعاك!!.

على مكرهم، حين رفع عيسى عليه السلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله، حتى قُتِل. روي أنهم قصدوا قتله، فدخل عيسى بيتاً فيها روزنة - أي طاقة - فرفعه جبريل من تلك الروزنة، فدخل الرجل الخبيث الذي أراد قتله البيت، فألقى الله عليه شَبَهَهُ، فخرج يخبرهم بأنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلم يلتفتوا إلى قوله، ثم اختلفوا وقالوا: وجهه وجه عيسى، وبدنه بدن صاحبنا، فإذا كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر للظالم والفاجر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك، ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض وزعم النصارى أن الله تعالى، أماته سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء والصحيح كما قاله القرطبي أن الله رفعه من غير وفاةٍ ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محل كرامتي، ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم وقصدهم الخبيث ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في التوحيد وهم أهل الإسلام، دون الذين كذبوه من اليهود والنصارى، روي هذا عن قتادة والربيع، وقيل: هم النصارى، والمراد من الاتباع مجرد الاتباع والمحبة ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بدين التوحيد ونبوة عيسى، أي يعلونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتّبعوه من آمن بنبوته، من المسلمين والنصارى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ غاية للجعل، وأما بعدها فيفعل الله بهم ما يشاء ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة وغلب المخاطب على الغائبين ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إثر رجوعكم إليَّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أتباعك ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ما نعين يمنعونهم من عذابنا في الدارين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما أرسلت به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بما

فرضتْ عليهم، وشرعتْ لهم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم كاملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرحمهم، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متجاوزون الحدود.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به، وإنما أضاف التلاوة إلى ذاته تعالى لأنه بأمره ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه، أو المشتمل على الحكم، يريد به القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي حاله وشأنه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأن آدم عليه السلام، وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب، وهذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، فقد روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تحقِّر صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله قال: أجل هو عبد الله ورسوله، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ أحداً من غير أب، فأبوه هو الله، وهو ابنه لا عبده، فقال ﷺ إن آدم ما كان له أب ولا أم، فكذا حال عيسى ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، فإن إنكار خلق عيسى بلا أب، ممن يعترف بخلق

آدم بغير أب وأم، مكابرةً وعناد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي صِرْ بشراً فصار، وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال، ثم إن الظاهر أن عيسى خلقه سبحانه من مريم، بجلعها قابلة لذلك ومستعدة له.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا هو الحق، الذي أخبرتك به من نبأ عيسى، لا ما يزعمه النصارى من ألوهيته ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع، وفي هذا الأسلوب فائدتان: **إحداهما**: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب ليزداد ثباته، فيكون نوراً على نور، **والثاني**: أن السامع يتنبه بهذا وينزجر عما يورث الامتراء.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلك في شأن عيسى من النصارى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الآيات الموجبة للعلم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلموا بالرأي والعزم ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه، وأعزَّة أهله، وفي تقديمهم على النفس، مع أن الرجل يخاطر بنفسه من أجلهم، ويحارب دونهم، للإيذان بكمال أمنه ﷺ عليهم، وأنه لن يصيبهم شائبة من الأذى، لثقته بأنه على الحق ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل ونتضرع إلى الله أن يهلك الكاذب منا، والبهلةُ: الدعاءُ باللعنة ثم شاعت في مطلق الدعاء، كما يقال: فلان يبتهل إلى الله تعالى في حاجته، إلا أنه هنا يفسر باللعن، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة الله على الكاذبين، ولمّا قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي معه وعلي خلفها[1]، وقال ﷺ: إذا أنا دعوتُ

---

(١) لما أنزل الله هذه الآية: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسَناً، وحُسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢١٠.

فأمّنوا، فقال أسقف نجران يا معشرَ النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك اليوم، قال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة أسلموا، فأبوا فقال ﷺ: أناجزكم أي أحاربكم فقالوا: لا نحارب، ولكن نصالحكم على أن ندفع لكم كل عام ألفي حلة، وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك، قال بعض العارفين: إنَّ لمباهلة الأنبياء، تأثيراً عظيماً، لاتصال نفوسهم بروح القدس، وتأييد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله تعالى، ولذا خاف النصارى، وقبِلوا دفع الجزية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما قص من نبأ عيسى ومريم ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ دون ما ذكروه من أكاذيب النصارى واليهود، والقصص من القَصِّ وهو تتبع الأثر، قصصت الخبرَ قصاً حدَّثتُ به على وجهه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق، تأكيداً للرد على النصارى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه، في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الألوهية.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن التوحيد، وقبول الحق الذي جاءك من عند الله، بعدما عاينوا تلك الحجج النيّرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع المظهر ليدل على أن الإعراض عن التوحيد، إفسادٌ للدين، والاعتقاد، المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت في وفد نصارى نجران ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلمُّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي كلام، وإطلاقها على ذلك من باب المجاز ﴿سَوَآءٍ﴾ عدل،

قاله ابن عباس: أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخَلْقُ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة، ونخلص فيها ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له، في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار، فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون أربابا!؟ ولمَّا نزلت هذه الآية، قال عدي ابن حاتم: «ما كنا نعبدهم يا رسول الله» فقال ﷺ: «أمَا كانوا يحلّلون لكم، ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال نعم، فقال ﷺ هو ذاك»؟[1]. قال ابن جريج: أي لا يطع بعضُنا بعضَا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن موافقتكم بعد عرضكم عليهم، فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة، وإنما أبوا عناداً ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا﴾ أي أنصفوا واعترفوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم، انظروا إلى ما روعي في هذه القصة، من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة، حيث بيَّن تعالى أولاً أحوال عيسى، وما تواردَ عليه من الأطوار، المنافية للإلَهية، فلما ظهر عنادهم، دُعوا إلى المباهلة، بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها، دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى، وسائر الأنبياء من التوحيد، ثم لما ظهر عدم إجدائه أمروا أن يجهروا بالإيمان ﴿قولوا بأنا مسلمون﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة بنحوه ٥/ ٢٦٠.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي دين إبراهيم، لأن في ذاته ليس فيه مجادلة، روي أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ نصارى نجران، وأحبار اليهود، فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلاَّ يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية، أي فقل لهم ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ أي إن اليهودية والنصرانية، إنما حدثتا بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة، فقد كان بين موسى وإبراهيم قرابة ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، وقيل ألفا سنة ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعقلون بطلان قولكم؟.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ ها، للتنبيه وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، نُبهوا بها على حالتهم التي غفلوا عنها، أي أنتم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الأشخاص الحمقى ﴿ حَٰجَجۡتُمۡ ﴾ أي جادلتم ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ أي في شأن عيسى، وفي التوراة والإنجيل ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾؟ من أمر إبراهيم، ولا ذكر لدين إبراهيم في كتابكم قطعاً ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي والله يعلم الحقَّ، وأنتم جاهلون به ثم كذَّبهم بقوله:

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان، من أنَّ إبراهيم عليه السلام، ما كان موجوداً عند نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة ﴿ مُّسۡلِمٗا ﴾ مؤمناً منقاداً لله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ تعريض بأنهم المشركون، لإشراكهم بالله عزيراً، والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملَّة إبراهيم.

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أولى أفعل تفضيل أي أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ من أمته، وكانوا على شريعته في زمانه وبعده ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي والنبي محمد ﷺ الذي جاء بالحنيفية السمحة، كما قال

سبحانه: ﴿ثمَّ أوحَيْنَا إليكَ أن اتَّبِعْ ملَّة إبراهيم حَنِيفاً..﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ﴾ أي والمؤمنون من أمة محمد ﷺ فهم الجديرون بهذا الفضل، وكونُ المتبعين لإبراهيم في زمانه أولى الناس به ظاهر، وكون نبينا ﷺ أولاهم لموافقة شريعته لشريعة إبراهيم[1]، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيَّتهم له فيما جاء به ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى لإيمانهم، كما هو شأن الولي، ولم يقل «وليهم» تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى ولياً لعباده، وهو الإيمان.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ الطائفةُ: فرقة من الناس وأقلها ثلاثة، والمشهور أنها نزلت، حين دعا اليهود حذيفة، وعمَّاراً، ومعاذاً، إلى اليهودية ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كلمة لو تفيد التمني[2] ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ جملة

---

(١) في الحديث الشريف «إن لكل نبيٍّ ولاةً من النبيّين، وإن وليي أبي وخليلُ ربي - يعني إبراهيم - ثم قرأ ﷺ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين﴾» سنن الترمذي ٥/ ٢٠٨.

(٢) جواب «لو» محذوفٌ تقديره: ودَّت إضلالكم لو يضلونكم لسُرُّوا وفرحوا بذلك.

حالية جيء بها للدلالة على رسوخ المخاطبين، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم، وفيه الإخبار بالغيب، إذ لم يتهود مسلمٌ ولله الحمد ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، وعذابهم يضاعف بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وفي نفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل، ودلت على نبوته ﷺ أو لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها؟ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون بالمعجزات أن القرآن حق، والإخبار بما يكتمون في أنفسهم معجز.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بتحريفكم، وإبراز الباطل في صورة الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت الرسول ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تكتمونه؟

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هم رؤساؤهم وأحبارهم، قالوا لأتباعهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل على المؤمنين ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أول النهار ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي واكفروا به آخره، وقولوا لهم: إنا آمنا به بادي الرأي، من غير تأمل فيه، فوقفنا على خللٍ فيه فرجعنا عنه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإيمان به، أو يشكُّون فيه، ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم[1]، وهذا نوعٌ آخر من تلبيسات اليهود.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، أي وقالوا أيضاً ولا تصدّقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ وافق ﴿دِينَكُمْ﴾ قال الله تعالى:

---

(١) هذه مكيدة دبَّرها اليهود، ليلبِّسوا على الضعفاء أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، ليظن الناس أن في الدين عيباً وخللاً فيرتدّوا عنه!!.

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال، والجملة اعتراض ﴿أَن﴾ بأن ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل، والمعنى لا تقرّوا بأن يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم ﴿أَوْ﴾ بأن ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ أي المؤمنون يغلبوكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة، لأنكم أصح ديناً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم؟ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ رد وإبطال لما زعموه، أي يجعل رحمته بالنبوة مقصورة على ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وفيه دليل على أن النبوة بالاختصاص لا بالاستحقاق ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل الفضل نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب المقام.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال، بعد بيان خيانتهم في الدين ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي ومن أهل الكتاب من بحيث إن تأمنه ﴿بِقِنطَارٍ﴾ أي مال كثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ المراد منه مال قليل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء اليهودي، استودعه رجل ديناراً فجحده وخانه، وقيل: أشد الناس في الخيانة اليهود لأن مذهبهم أنه يحل لهم أخذ مال من خالفهم في الدين، بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناء مفرغ أي إلاّ وقت دوامك قائماً على رأسه، مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي ذلك الصنيع بسبب

قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من لم يكونوا على ديننا، عتابٌ وذم، وقد ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم[1].

﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفوه، أي بلى عليهم فيه إثم، لكنْ ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بالرسول ﷺ وبالقرآن، وبأداء الأمانات إلى من ائتمنه عليها ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي اجتنب الكفر، والخيانة، ونقض العهد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يحبهم ويكرمهم، وهذه الآية من الجوامع، لأن الطاعة محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، والوفاء بالعهد مشتملٌ عليهما، والتقوى: هي الاجتناب عن المناهي، وفعل الأوامر الطاعات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه، من الإيمان، والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترؤس، والارتشاء، ونحو ذلك، أخرج البخاري عن ابن أبي أوفى «أن رجلاً أقام سلعة له في

---

(١) رُوي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: «إنَّا نُصيب في غزونا من أموال أهل الذمة: الدجاجةَ، والشاة، فقال ابن عباس: وماذا تقولون؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأسٌ، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدّوا الجزية، لم تحلَّ لكم أموالهم، إلا بطيب أنفسهم» انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٢.

السوق، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية[١]»، وأخرج أحمد وابن جرير عن عدي بن عمرة قال: كان بين امرىء القيس، ورجلٍ من حضرموت خصومة، وارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بيِّنتك وإلاّ فيمينه!! قال يا رسول الله: إن حلف ذهب بأرضي، فقال ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة، ليقتطع حق أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان[٢]»، فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني تركتها، فنزلت الآية[٣]، وقيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وحكم الأمانات، ولا مانع من تعدد سبب النزول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ من نعيم الجنة، بسبب ذلك الظلم والفجور ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرهم كلام أُنس وملاطفة، والظاهر أنه كناية عن غضبه تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنَّ من سَخِط على غيره، أعرض عنه، وعن التكلم معه، والالتفات نحوه وفي قوله: ﴿يوم القيامة﴾ تهويل للوعيد ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهّرهم من الآثام بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ لجماعة هم المحرّفون

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢١٣.

(٢) أخرج طرفاً منه البخاري في كتاب التفسير بلفظ: «من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرىء مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».

(٣) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٣.

ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَيّ بن أخطب ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته، فيميلونها عن المنزَّل إلى المحرَّف أو يعطفونها بشبه الكتاب واللَّيُّ: الفتلُ، لويتُ الحبلَ، فتلتُّه، ولوى رأسه أماله، والمراد تحريفهم له، كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ[1] ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي المحرَّف ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والحال أنه ليس منه في نفس الأمر من كلام الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذباً ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وبيانٌ لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والحال أنه ليس من عند الله في اعتقادهم أيضاً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله، والتعمد فيه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صحَّ، وما استقام لأحد، وإنما قال «البشر» إشعاراً بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة، إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآمر بالتوحيد، والناهي عن الشرك ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة التي ينطق بها النبيون ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر، بعدما شرَّفه الله تعالى بما ذُكر، وعرَّفه الحق، وأطلعه على شؤونه العالية ثم يقول: ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) المراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرَّفة، فهم يصرفون الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، ويتلاعبون في كلام الله عزَّ وجل باللَّيِّ والتحريف.

تكذيبٌ وردٌّ على عَبَدة عيسى، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي والسيد النجراني: قالا يا محمد أتريد أن نعبدك، ونتخذك رباً؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فنزلت هذه الآية[1] ﴿وَلَٰكِن﴾ يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقول: كونوا ربَّانيِّينَ، والربانيُّ منسوبٌ إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل، والألف والنون للمبالغة، ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الباء للسببية، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب، ودراستكم له، والغرضُ أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يُعتدُّ بأحدهما بدون الآخر.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ عطف على ثم يقول: أي وما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ثم يأمر الناس ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكةً كانوا أو أنبياء، لأن مهمة الرسول الدعوة لعبادة الله وحده ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي اذكر وقت ذلك، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوه على أنفسهم أن يؤمن كل رسول بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بِنصرته، وقيل: إنما أُخذ الميثاقُ من النبيين في أمره ﷺ خاصة، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٥.

قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلاَّ أخذ العهد عليه في محمد ﷺ لئن بعثه الله وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنه، فيأخذ العهد على قومه[1]، ثم تلا الآية ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى بعد أخذ الميثاق للتأكيد ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ بما ذكر ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أي أقبلتم عهدي، وسمي إصراً لأنه يشدُّ ويعقد ﴿ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ ﴾ أي فليشهد بعضكم لبعض بالإقرار ﴿ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي على إقراركم هذا.

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عما ذُكر من العهد والميثاق ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ التوكيد بالإقرار، ونقض العهد بعد قبوله ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمرِّدون، الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥) ﴾.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾؟ عطف على الجملة المتقدمة أي أيتولون فيبغون غير دين الله، بعد أخذ هذا الميثاق المؤكد؟ ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾ جملة حالية، أي كيف يطلبون غير دينه، والحال وله أسلم ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجان ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أي طائعين ومُكْرَهين، لا يُقال كيف قيل أسلم، مع أن الأكثر من الإنس والجن كفارٌ؟

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦.

لأن كل من فيهما منقادٌ وخاضع لجلال الله، في تكوينه ووجوده، والطوعُ: الانقيادُ بسهولة، والإكراه ما كان ذلك بمشقة وإباءٍ من النفس ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفيه وعيد أي فيجازيهم على أعمالهم.

﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان ولذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنا ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن الكريم لما أنه منزل عليهم أيضاً بتوسيطه ﷺ وإنما قدمه على المنزل على سائر الرسل، لأنه المعرف له، والعُمْدةُ عليه ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مقرون له بالألوهية والربوبية، نؤمن بجميع رسل الله، ولا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى، كدأب المشركين، والمدعين للتوحيد مع إشراكهم من أهل الكتاب ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ذلك، بل يردُّ أشدَّ رد ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الواقعين في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع الأعمال الصالحة، لأن الله لا يقبل عملاً من كافر.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ إلى دين الحق ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ هم جماعة من المنافقين، أبو عامر وأصحابه في اثني عشر رجلاً لحقوا بقريش

فنزلت الآية فيهم، وهو استبعاد لأن يهديهم الله عز وجل، فإن الحائد عن الحق، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي وقد شهدوا أن الرسول حق لا شك في رسالته ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات الدالة على صحة نبوته ﷺ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق إلى الحق ما داموا مختارين الكفر ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم، اللعنةُ من الله والملائكة، وجميع الخلائق، مؤمنهم وكافرهم، وبرِّهم وفاجرهم، فالمراد به العموم، لأن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، ولكنه لا يعرف الحق.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو النار وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ وأصلحوا ما أفسدوا، وقيل: أي أصلحوا باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق، بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لعصيانهم، ويتفضل عليهم باللطف والإحسان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال عطاء: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً برسول الله ﷺ والقرآن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ ملءُ الشيء مقدار ما يملؤه ﴿ وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أي فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، والكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، وقيل: معناه لو بذله في الدنيا ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ في دفع العذاب عنهم أو تخفيفه.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ البِرُّ: الإحسانُ وكمالُ الخير، أي لن تبلغوا حقيقة البر، الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا الرضى، والجنة ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وقيل: لن تنالوا ثواب البِرّ، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وكان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى، روي عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يشتري الحلوى يتصدق بها، فنقول له: لو اشتريت لهم طعاماً كان أنفع لهم فيقول: أنا أعرف الذي تقولونه، ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن ابن عمر يحب السكر والحلوى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من أي شيء كان محبوباً أو غيره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم بحسبه، وفيه تحذير من إنفاق الرديء، والترغيب في إنفاق الجيِّد المحبوب.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعومات ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي حلالاً لهم، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث قال الله تعالى: ﴿لا هنَّ حِلٌّ لهم﴾ روي أنه حين قال رسول الله ﷺ: أنا على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً له ﷺ وتكذيباً لهم ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وكان قد حرم لحوم الإبل وألبانها، وسبب تحريم ذلك، ما روي عن ابن عباس أن يعقوب كان به «عِرْقُ النِّسا» فنذر إن شفاه الله ألاَّ يأكل أحب الطعام إليه، فحرمها على نفسه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل، وأحبَّ الشراب ألبانُها ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم، لظلمهم وبغيهم، عقوبة وتشديداً، بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هَادُوا حرَّمنا﴾ الآية. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أمر له ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم، الناطق بصحة ما يقول، في أمر التحليل والتحريم ﴿فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في دعواكم. روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك؛ لم يجرأوا أن يخرجوا التوراة وبُهتوا، ورجعوا صاغرين.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي اخترع ذلك، بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، قبل نزول التوراة، ومعنى الافتراء: الابتداع والاختلاق، والكذبُ إذا كان عن قصد يكون إفكاً، والإفك إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء إذا كان بحضرة المقول يكون بهتاناً، وهو الكذب الذي يبهت سامعه أي يدهش له، وهو أفحش الكذب ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المفترون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾لأنفسهم، ولأشياعهم بإضلالهم، وإنما قيّد بالبعدية للدلالة على كمال القبح.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي ثبت صدقه تعالى، في أن كل الطعام كان حلاً

لبني إسرائيل إلاَّ ما حرم إسرائيل ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب، في التوحيد، والاستقامة في الدين، وتعريضٌ بشرك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، هو المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، رُوي عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة فنزلت الآية، والمراد بالأولية بحسب الزمان. أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وُضع للناس، فقال: «المسجد الحرامُ، ثم بيت المقدس..»[1] الحديث. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي البيت الذي ببكة، وهي لغة في مكة، من بكَّه إذا دقَّه، فإنها تدق أعناق الجبابرة، أو لازدحام الحجيج فيها ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع، لمن حجه واعتمره، وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هادٍ لهم إلى الجنة دار المتقين.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٩٠ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٠ ولفظه عن أبي ذرّ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: المسجدُ الحرام، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ، فأينما أدركتك الصلاةُ فَصَلِّ».

وفضله على سائر مساجد الأرض ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي منها مقام إبراهيم، ومن الآيات أثر القدم في الصخرة، وإبقاؤه مع كثرة الأعداء ألوف السنين، ومنها زمزم والحطيم، والصفا والمروة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ هذه آية أخرى، وهي أمن الداخل للحرم بدعوة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه، فلا يحركه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو وجدتُ فيه قاتل الخطَّاب ما مسسته حتى يخرج منه» وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل في الحل، فالتجأ إلى الحرم، لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يُطعم ولا يُسقى، حتى يضطر إلى الخروج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي استقرَّ له عليهم فرض الحج، أي قصده وزيارته، فيجب الحج في أول أوقات الإمكان ويكره تأخيره تحريماً، لقوله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»[1] ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فُرض الحج على القادر المستطيع له، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، ويؤيده ما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال: «لمَّا نزلت هذه الآية، قام رجل فقال يا رسول الله: ما السبيلُ؟ قال: الزادُ والراحلة»[2] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يراد بـ «مَنْ كَفَر» من لم يحجَّ، تشديداً وتأكيداً لوجوبه، ولقد حازت الآية الكريمة كمال الاعتناء بأمر الحج، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق، و أبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، وسُلك فيها مسلك التعميم، ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبَّر عن تركه بالكفر وجعل

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ وتتمته «فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها الرجل ثلاثاً، فقال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم لوجبتْ، ولَمَا استطعتم».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج رقم ٨١٣ وله طُرُق يقوّي بعضُها بعضاً.

جزاءه استغناءه تعالى، المؤذن بشدة المقت، وعظيم السخط، تنبيهاً على وجوبه وفرضيّته على المؤمنين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم اليهود والنصارى، خوطبوا بها مبالغة في تقبيح حالهم، في كفرهم بالقرآن الكريم، لأن معرفتهم بالآيات أقوى ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق رسول الله تعالى فيما يدعيه؟ والاستفهام للتوبيخ، والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في الكفر، كأنه قيل: هاتوا عذركم إن أمكنكم ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والحال أنه تعالى مطلع على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمر ﷺ بتوبيخهم والتكرير للمبالغة ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ ﴾ أي تصرفون، والصدُّ: المنعُ، يقال: صدَدتُه أي منعته وأهلُ الكتاب كانوا يعرضون عن سلوك سبيل الله، ويُضلون الناس عنها ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الطريقة الموصلة إلى الله تعالى، وهي طريقة الإسلام ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ كانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، ويحتالون لصدِّهم عنه ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ أي السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ أي باغين، طالبين لها اعوجاجاً، بأن توهموا أن فيه عوجاً عن الحق، عِوجاً بكسر العين في الدين[1] ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ أي عالمون بأنها سبيل الله، والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد لهم، ولمَّا كان المنكر في الآية الأولى كفرهم، ختمها بقوله: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ولمَّا كان في هذه صدِّهم،

---

(١) العِوَجُ: بكسر العين يكون في الدين والطريق، وبالفتح «عَوَج» في الخِلْقة، يقال: في ساقه عَوَجٌ، وفي دينه عِوَج، وانظر الصحاح للجوهري.

قال الله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادِّين فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ خطاب للأنصار على ما يقتضيه سبب النزول، ويدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللفظ، خاطبهم الله تعالى بنفسه، بعدما أمر رسوله ﷺ بخطاب أهل الكتاب، إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله تعالى، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحق وجماعة عن زيد بن أسلم قال: «مرَّ شمَّاس بن قيس اليهودي، على جماعة من أصحاب النبي ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس يتحدثون، فغاظه من ألفتهم، فأمر شاباً معه من اليهود فقال: اجلسْ معهم وذكّرهم يوم بعاث ـ وكان هذا اليوم يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ـ وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وغضبوا وقالوا: السلاح، السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلقٌ كثير، فوصل الخبر إلى الرسول ﷺ، فجاء فيمن معه من المهاجرين، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام؟» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد لهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا واستغفروا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين، قد أطفأ الله عدو الله شماس فنزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾[1] قال جابر: ما رأيت

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٩٧ وصفوة التفاسير ١/٢١٧.

يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم، والمراد من الفريق، بعضٌ غير معين، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم، للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، وقوله تعالى: ﴿يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ فيه تثبيت المؤمنين وإظهار لشناعة الكفرة المجرمين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاري وتعجيب من حالهم بعد أن اجتمع لهم من الأسباب الداعية إلى تثبيت الإيمان، الصارفة لهم عن الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، ونبوة رسوله ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ ﷺ يعلمكم الكتاب، ويزكيكم، بتحقيق الحق وإزالة الشبهة، والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر، وعندهم من الدواعي ما يأباه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ الاعتصام التمسك أي ومن يتمسك بدينه، أو يلتجىء إليه في جميع أموره، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله في دفع شر الكفار ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى، حتى كأنه حصل، والتنوين للتفخيم، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق، والاهتداء إليه هو الاعتصام به، لكن أُبرز في معرض الجواب، للحث على الاستمساك به والترغيب فيه، أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى داود، ما من عبدٍ يعتصم بي من دون خلقي، وتكيده السموات والأرضُ، إلاَّ جعلتُ له من ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوق من دوني، إلاَّ قطعت أسباب السماء بين يديه، وأَسَخْتُ الأرض من تحت قدميه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ كرر الخطاب بهذا العنوان تشريفاً لهم ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع في القيام بالواجب، والاجتناب عن المحارم، كقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يُطاع فلايُعصى ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا ينسى، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله تعالى، أي لا تموتون على حال من الأحوال، إلاَّ حال تحقق إسلامكم، وثباتكم عليه، وذكر بعض المحققين، أن الإسلام هنا لا يُراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأدى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة «اللهم من أحييتَه منَّا فأحيِهِ على الإسلام، ومن توفَّيتَه منَّا فتوفه على الإيمان».

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه، روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، لحديث «كتابُ الله هو حبل الله الممدودُ، من السماء إلى الأرض»[١] استعار له الحبل، من حيث إن التمسك به، سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل، سببٌ للسلامة عن التردي في الهلاك ﴿ جَمِيعًا ﴾ أي مجتمعين عليها ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ولا تتفرقوا عن الحق، بوقوع الاختلاف بينكم كما كنتم في الجاهلية ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام، المؤدي إلى التآلف، وزوال الشقاق والخلاف ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي في الجاهلية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام، وقيل: أراد سبحانه ما كان بين الأوس والخزرج، التي تطاولت العداوة بينهما مائة وعشرين سنة ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي وكنتم على

---

(١) هذا طرف من حديث مشهور أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٤٠٩ والترمذي في المناقب.

طرف حفرة من جهنم، إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت، والشفا: هو الطرفُ في اللغة، أي وكنتم مشرفين على أن تقعوا في نارجهنم لكفركم ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القرآن الكريم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى، وازديادكم فيه.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير، بعدما أمرهم بتكميل النفس، ليكونوا هادين ومهديين، على ضد أعدائهم، الذين هم ضالون مضلون ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل، وقد اتفق العلماء على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الكفايات، وقد سئل ﷺ مَن خيرُ الناس؟ قال: «آمَرُهم بالمعروفِ، وأنهاهُم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلُهم للرحم»[1] وقوله: ﴿منكم﴾ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من عظائم الأمور، التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٦.

تعالى، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، فإنَّ من لا يعلمها، يوشك أن يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، ويُغلظ في مقام اللين، ويلين في مقام الغلظة، وقيل: «مِنْ» بيانية، فالمعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾ الآية. ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، لأن الجهاد فرض كفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً ـ هو ما ليس فيه رضاء الله، من قول أو فعل، والمعروف ضده ـ فليغيرّه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ـ معناه فليكرهه بقلبه ـ وذلك أضعف الإيمان»[1] أي أضعف ثمرات الإيمان. وقيل على الأمراء باليد، وعلى العلماء باللسان، وعلى العوام بالقلب ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل محبوب، وفي الحديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[2] بفتحتين يُطلق على جماعة الإبل يعني ثوابه أكثر من ثواب صدقات الإبل النفيسة.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ بالعداوة ﴿ وَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ في الديانة، بالتأويلات الزائغة، وكتم آيات الله الناطقة بالرسالة، وتحريفها بحطام الدنيا الدَّنيَّة، كاليهود والنصارى، حيث تفرقوا فرقاً كثيرة، وكفَّر بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق، الموجبة لاتحاد الكلمة، والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول، أصول العقيدة، وأما في الفروع فهو رحمة لما رُوي «اختلاف أمتي رحمة» رواه البزار، وعزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى كتاب الحجة، والحقُّ أن المراد منه اختلاف الصحابة، ومن شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتدّ بهم من علماء الدين، الذين ليسوا بمبتدعين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وعيد شديد للذين تفرقوا، وفي الحديث الشريف:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ٤٩.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب قتال الخوارج رقم ٤٧٥٨.

«مَنْ فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1].

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ بياض الوجه وسواده، كنايتان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه، وقيل: يوسم أهل الحق، ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ ابتدأ بحال الفريق الثاني، لِمَا أن المقام مقام التحذير، فيقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ الهمزةُ للتوبيخ والمراد بهم جميع الكفار من أهل النار، وقال الحسن: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ الشديد الموصوف بالعظيم، والأمر للإهانة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وصيغة المستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد عليَّ يوم القيامة رهطٌ من أمتي، فيُجْلون عن الحوض ـ أي يطردون ـ فأقول: يا رب أصحابي!! فيقول: إنه لا علم لكَ بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم»[2].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي في الجنة، عبَّر عن ذلك بالجنة، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، كما ورد في الحديث الشريف «لن يُدخل أحدَكُم عملُه الجَنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله!! قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منهُ وفَضْل»[3]. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الفتن ١٣/٥ بلفظ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتةً جاهلية» ومسلم رقم ١٨٤٩ في الإمارة بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٤١٣/١١ ومسلم في الطهارة رقم ٢٤٧ وفي رواية في الصحيحين بعده: فأقول «سُحْقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي» انظر جامع الأصول ٤٦٩/١٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٥٢/١١ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ شيئاً فشيئاً وإسناد التلاوة إليه تعالى مما لا يخفى من العناية بالتلاوة والمتلو عليه ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ إذ يستحيل الظلم منه، لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق وفيه تعريض بأن الكافرين هم الظالمون، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون﴾ ونفي الشيء لا يقتضي إمكانه، فقد يُنفى المستحيلُ، كما في قوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ التعبير بما للتغليب، أي له ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي أمورهم، فيجازي كلاً بعمله.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كان ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث، والمعنى: خلقتم خير أمة، وهذا قول جمع من المفسرين، وإن كانت ناقصة فالمعنى: كنتم في علم الله، أو صرتم خير أمة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت لهم، والخطابُ قيل لأصحاب النبي خاصة، وقيل: إنه عام وهو الصحيح ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «أعطيتُ ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نصرُت بالرعب، وأعطيتُ مفاتيح الأرض، وسميت بأحمد، وجُعل الترابُ لي طهوراً، وجُعلتْ أمتي خيرَ الأمم»[1] وقال عمر رضي الله عنه «يا أيها الناسُ من سرَّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤدّ الشرط» وأشار بذلك، إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن الكفر، وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به تعالى، وهو يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، فلو أخلَّ بشيء منه لم يكن مؤمناً، وإنما أخّر الإيمان مع تقدمه وجوداً ورتبةً للاهتمام به، لأنه من وظيفة الأنبياء ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إيماناً صادقاً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مما هم فيه من الكفر، وليس ﴿خيراً﴾ هنا أفعل تفضيل، بل هو لبيان أن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن يُلقى في النَّارِ خيرٌ﴾؟ ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قيل: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وهؤلاء مع كفرهم فاسقون متمردون، خارجون عن طاعة الله.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي ضرراً يسيراً، كطعنٍ وتهديد أي لن يضروكم ضرراً ما إلا أذىً باللسان أو الطعن ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتولية الأدبار كناية عن انهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينصرهم عليكم، أو يدفع بأسكم عنهم، وفي هذه الآية، دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ، لكونها من الإخبار بالغيب، الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع، وبني قريظة، حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم يتحقق لهم بعد ذلك راية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٤ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خيرَ الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» يريد تنقذونهم من النار.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ ألزمت على اليهود الذلة، وقد أذلهم الله ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ حيثما وُجدوا وصُودفوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بعهد الذمة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا به مستوجبين للغضب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم، إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ظلماً وطغياناً، والتقييد ﴿بغير حق﴾ للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى.

﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ الضمير لأهل الكتاب جميعاً، سِيقَتْ لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مستقيمة على طاعة الله، ثابتة على أمره، والقائمةُ: المستقيمة العادلة، من أقمتُ العودَ فقامَ بمعنى استقام ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعاته، واحدته إِنى بوزن مِعَى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلون، عبَّر عن تهجُّدهم بتلاوة القرآن، لأن التلاوة أهم الأركان في صلاة القيام، حيث تطول الصلاة لطول

القراءة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسجُدُونَ﴾ أي في حال صلاتهم وقيامهم وسجودهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ صفة أخرى للأمة أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تحقيقاً لمخالفتهم لليهود، لأنهم مع ضلالهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن سبيل الله ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن، وأحسن المسارعة المبادرة بالرغبة والاختيار، لأن من رغب في الأمر سارع فيه، وصيغة المفاعلة للمبالغة، ولم يعبر عنها بالعجلة، لأن العجلة التقدم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، والمسارعة مقبولة، وضد العجلة الأناة، وضد المسارعة الإبطاء، وهو مذموم، لقواه تعالى: ﴿وإنَّ منكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

وصفهم الله بخصائص، ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون في الخيرات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الجميلة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عداد الذين صلحت عند الله حالهم، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ما آمَن به إلاَّ شرارنا.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كائناً ما كان ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يحرموا جزاءه البتة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو «أهلُ التقوى».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد به عموم الكفار، لأنهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال والأولاد حيث قالوا ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ وكانوا يعيّرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾ يسيراً، والمراد من الإغناء الدفعُ، وإنما خصَّ الأموال والأولاد بالذكر، لأن الإنسان يدفع العذاب عن نفسه تارة بالفداء

بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون مخلدون في عذاب جهنم.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة مفاخرةً وسُمعة، ورياء وعُجباً، بقصد الثناء، والإشارةُ للتحقير ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الدنيا الزائلة ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي بردٍ شديد ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ﴾ زرع ﴿قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ عقوبة على كفرهم، والمراد من التشبيه، الإشارة إلى عدم الفائدة، في الدنيا والآخرة، لأنه إن كان إنفاقهم في عداوة الإسلام، لم ينتفعوا بها، لأنه انقلب الأمر عليهم، وإن كان لمنافع الآخرة، فإن الكفر مانع من الانتفاع بها، فثبت أن جميع نفقات الكفار وصدقاتهم، لا فائدة لهم بها في الدارين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الله عزَّ وجلَّ والضميرُ للمنفقين أي ما ظلمهم بضياع نفقاتهم، وإهلاك الحرث ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما استحقوا به العقوبة الشديدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والقرابةِ، والصداقة، والحلف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وقال مجاهد: نزلت في قوم

من المؤمنين، كانوا يوالون رجالاً من المنافقين، فنهوا عن ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا﴾ الخ وهي صفة المنافقين ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أحواله، ويُطلعه على أسراره، ثقةً به، مأخوذ من بطانة الثوب، لأنه يلي البدن[1] ﴿ مِّن دُونِكُمْ﴾ أي كائنة من غير المسلمين، ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي لا يقصِّرون لكم في الفساد، وأصل الخبال: الفسادُ الذي يلحق الإنسان، فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون، ويُستعمل في الشر والفساد مطلقاً، فالمعنى: أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنَّوا عَنَتكم، وهو شدة الضرر والمشقة أي تمنوا شدَّةَ ضرركم، في دينكم ودنياكم، لفرط بغضهم لكم ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ ﴾ البغضاء أشد البغض، كالضُّرّ مع الضراء ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات البغض والعداوة من فلتات ألسنتهم، لأنهم لشدة بغضهم لكم، لا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونه من البغض لكم، أكبر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين والمنافقين، أو قد أظهرنا لكم الآيات الدالة التي يتميز بها الولي من العدو ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مابيِّن لكم، أي إن كنتم عقلاء، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ ﴾ أي أنتم أولاء خاطئون في موالاة اليهود والمنافقين ﴿ تُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من القرابة أو الصداقة ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب كونكم مسلمين ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطِلهم، أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً

---

(١) البطانة يراد بها خواصُّ الرجل، وأصدقاؤه الذين يبوح لهم بسرّه، مأخوذ من بطانة الثوب، تشبيهاً لذلك الصاحب والصّديق بالبطانة التي تكون داخل الثوب، وهي استعارة لطيفة.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تحسراً وتأسفاً، حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً[1] ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم، حتى يهلكوا به، والمراد به ما يغيظهم من قوة الإسلام وعِزّ أهله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما في قلوبهم من البغضاء والحسد، والمراد ﴿بذات الصدور﴾: الخواطرُ القائمة بالقلب.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ بيانٌ لتناهي عداوتهم إلى حدّ الحسد، أي ما ينالكم من خير وظفر، ومنفعة ورخاء ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي يحزنهم ويغيظهم ذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من شدة وجدب، وبلاءٍ وهزيمة ﴿ يَفْرَحُوا ﴾ يبتهجوا ويشمتوا ﴿ بِهَا ﴾ بإصابتها، فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟ ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله فتكفُّوا عن موالاتهم، وسائر ما حرَّم الله تعالى عليكم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ شَيْئًا ﴾ أي شيئاً من الضرر، وهذا تعليمٌ من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو، بالصبر والتقوى، يقال: كادَهُ كيداً، خَدَعه ومكَرَ به، وهو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى ﴿ مُحِيطٌ ﴾ علماً فيجازيكم بما أنتم أهله، ويجازيهم على نفاقهم وإجرامهم.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

---

(١) عضُّ الأنامل عادةُ العاجز النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، أمام ما عرض له من مصاعب ومتاعب، فيعض على أصابعه تحسراً وأسىً، وهذا من مجاز الأمثال.

﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ ﴾ أي اذكر للمؤمنين وقت غدوك، ليتذكروا ما وقع فيه، من عدم الصبر والتقوى، فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى، لا يضرهم كيد الكفرة، والمراد به خروجه ﷺ إلى أحد، وكان ذلك من منزل عائشة رضي الله عنها ﴿ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ أي من عند أهلك ﴿ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ تنزلهم وتهيّىء لهم ﴿ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ ﴾ مواقف وأماكن للقتال ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوالكم، وعليم بنياتكم، وفيه إيذانٌ بأنه قد صدر عنهم من الأقوال والأفعال، ما لا ينبغي صدوره.

روي أنه اجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان، فلما سمع ﷺ خروجهم استشار أصحابه، فقال أكثر الأنصار يا رسول الله اخرج بنا إليهم، لئلا يعيِّرونا أنا جُبُنًّا عنهم، فلم يزل الناس به حتى دخل ولبس لأمَتَه - لباس الحرب - فخرج بألفٍ، فلما قاربوا عسكر الكفرة، انخذل «عبد الله» بن أبي بثلث الناس ومضى ﷺ حتى نزل الشِعْبَ من أُحد، فجعل ظهر عسكره إلى أحد، وتَعَبأ للقتال، وأمَّر على الرماةِ «عبد الله بن جبير» وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: ادفعوا عنا بالنَّبْل، لا يأتونا من خلفنا، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ووقع القتال، فأعانهم الله تعالى حتى هزموا الكفار، فلما رأى الرماة انهزام الكفار طمعوا وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مواقعهم، فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكرُّوا عليهم وكان ما كان.

﴿ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، همُّوا بعد انخزال ابن سلول بالرجوع، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ، والظاهر أنه ما كانت عزيمة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ ﴾ أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على أحدٍ غيره.

﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل، وبدرٌ ماء

بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدراً فسمي به، وكانت وقعة بدر في يوم الجمعة، في السابع عشر من رمضان، في الثانية من الهجرة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بالذلة هو ضعف الحال، بقلة العَدَد، والعُدَد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ، والصبر على طاعاته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون ربكم على ما أنعم الله به عليكم من النصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لِنَصَرَكم، أي إذْ نصركم في وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذٍ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، إشعارٌ بأنهم كانوا كاليائسين من النصر، لضعفهم وقلتهم، وقوة العدوّ وكثرتهم ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ وفي التعبير بعنوان الربوبية لإظهار العناية بهم، والإشعار بعلة الإمداد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ للنصرة.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعدها أي بلى يكفيكم، ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى، حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم، فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تصبروا على القتال، وما أمرتم به، وتتقوا ربكم في ما حذَّركم منه من مخالفة رسوله ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من

ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر فارت القِدرُ، إذا غَلَت، ومنه: «إن شدة الحر من فور جهنم» يطلق على الغضب، ثم إنه استعير للسرعة، وَوُصف بهذا إيذاناً بتحقق سرعة الإمداد ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ في حال إتيانهم ولا يتأخرون عن إتيانهم ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ من التسويم وهو إظهار علامة الشيء، والمراد معلّمين أنفسهم أو خيلهم، عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر، عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، واختلف المفسرون في إمدادهم فقال ابن جرير: وعدهم بثلاثة آلاف، ثم وعدهم بخمسة آلاف في غزوة أحد، ولكن لم يقع ذلك، لعدم وقوع الشرط بالأمور الثلاثة: وهي الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب الكفر، وقد ثبت بالنص أنهم أمدّوا يوم بدر بألف، كما في سورة الأنفال، وأما يوم «أحد» فالدلالة على أنهم لم يُمدوا، لأنهم لو أمدّوا لم ينهزموا، وإنما قدَّم لهم الوعد بنزول الملائكة، لتقوية قلوبهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد لبيان أن الأسباب الظاهرة، بمعزِلٍ من التأثير، وأن حقيقة النصر مختص به عزَّ وجل، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي ما جعل الله إمدادكم لشيء من الأشياء، إلا للبشرى لكم، بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي بالإمداد، وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا يومئذ القتال، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بتمكين الله تعالى لهم من رقاب الأعداء، على أن مجرد القتال، لا يستدعي النصر، بل لا بد من انضمام ضعف المقاتلين وأمور أخرى، وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى، لا من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغالب فيما قضى به ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾،

والمعنى لقد نصركم الله يومئذ ليقطع أي يهلك وينقص ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي طائفة منهم، بقتل وأسر، وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم سبعون، وأسر سبعون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يخزيهم والكبتُ: شدةُ الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وقيل: الكبتُ الإصابة بمكروه ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ غير فائزين، والخيبةُ الحرمانُ بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة الظفر، ونقيضُ اليأس الرجاءُ.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ لمَّا شُجَّ وجهُ الرسول ﷺ كان يقول: كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم؟ فأنزل الله هذه الآية[1]، وعن ابن عمر قال: قال ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، والعن الحارث بن هشام»، فنزلت هذه الآية والمعنى: ليس لك من أمر هؤلاء شيء، يعني لا تقدر أن تجبرهم على الإيمان، ولا على التوبة، ولا تمنعهم عنها، ولا تقدر أن تعذبهم، فإن الأمور كلها بيد الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أو يكبتهم﴾ والمعنى: إن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي جزاءً لظلمهم قد استحقوا التعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، فله الأمر كله لا مدخل لأحد في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مشيئةً مبنيةً على الحِكَم، والمصالح ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه عدلاً منه، وتقديم المغفرة للإيذان بسبق رحمته تعالى على غضبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

(١) هذه الآية في قصة أحد، وقد وردت اعتراضاً في ثنايا الحديث عن غزوة بدر، وذلك لمّا كُسرت رباعيته ﷺ، وشُجَّ وجهُه الشريف، قال صلوات الله عليه: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدّم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾ الآية، وانظر صفوة التفاسير.

﴿رَّحِيمٌ﴾ لعباده المتقين، وتخصيصه بالذكر ﴿غفور رحيم﴾ إشارة إلى ترجيح جهة الإحسان، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خاطبهم بوصف الإيمان، لأنهم أهل للاستفادة من الخطاب، وتذكيراً لهم بما هو أصلح وأنفع في أمر الدنيا والدين ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ المراد من الأكل الأخذ ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ ضعف الشيء: مثله، وليست هذه الحال لتقييد المنهي عنه، بل لمراعاة الواقع، فقد روي أنه كان الرجل يُربي إلى أجل، فإذا حلَّ قال للمديون: زدني في المال، حتى أزيدك بالأجل، فيفعل عند كل أجل هكذا، فيستغرق الشيء الطفيفُ ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه من الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين للفلاح، واقتران الرجا بالتقوى، يفيدان أن يكون العبد بين الخوف والرجا، فهما جناحان يطير العبد بهما إلى منازل القدس، ومعارج الفضل والكمال.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي احترزوا من أكل الربا ونحوه، من المعاصي

المفضية إلى دخول النار ﴿ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ﴾ هُيِّئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي غير النار التي يدخلها عصاة المؤمنين، وفيها إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر وفيها تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعَرَض للعصاة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين، بالنار المعدة للكافرين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم، وإيراد لعل في الآيتين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ بادروا وأقبلوا عطف على أطيعوا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام، والتوبة، والإخلاص، وقيل: إلى الهجرة، والجهاد، والظاهر العموم لأن اللفظ عام ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض، إذا أرادوا المبالغة، فليس المقصود تحديد عرضها بل هو كناية عن السعة، بما هو واردٌ على تصور السامعين ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وإنما أضيفت إليهم، لأنهم المقصودون بالذات.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، ومفعول ﴿ينفقون﴾ محذوف، ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرَّة أو مضرَّة، والمعنى: لا يخلون عن إنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وافتتح بذكر الإنفاق، لأنه أشقُّ شيء على النفس، وأدلُّه على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال، للحاجة إليه في مجاهدة العدوّ، ومواساة المسلمين ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الممسكين عليه، الكافين عن إمضائه مع القدرة

والغيظُ: هيجان الطبع عند رؤية ما يكرهه أو ينكره[1] ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس، ويدخل تحته هؤلاء، أو العهد فتكون للكاظمين للغيظ، والإحسان إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضر عنه، فالأول هو المراد بقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، والمال، وأما دفع الضرر فهو إما في الدنيا فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه، دالة على جميع جهات الإحسان، ولما كانت هذه الخصال إحساناً ومن فعلها فهو محسن، ذكر الله تعالى ثوابه بقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ فهو أعظم درجات الثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فعلةً بالغةً في القبح، كالزنى، والقتل، والتعري عن الثياب ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أتوا ذنباً أيَّ ذنبٍ كان، وقيل: الفاحشةُ الكبيرة، وظلمُ النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تذكَّروا وعيده وحقَّه العظيم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم، وإلاَّ فطلب المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء، قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى الاستغفار ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا رب العزة والجلال، والمراد وصفه تعالى بسعة الرحمة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة، والإشعار بأن الذنوب وإن جلَّت، فإن عفوه تعالى أجلُّ أي هل تعرفون أحداً يقدر على غفر الذنوب، غير من وسعت رحمتُه كلَّ شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على

---

(١) روى البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين ـ من آل البيت ـ جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجَّه، فرفع رأسه إليها وهو مغضب، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ فقال لها: قد كظمتُ غيظي، قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوتُ عنكِ، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبي فأنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى.

ذنوبهم غير مستغفرين والإصرارُ: المداومة في المعصية، ولا يقال في الخير أصرَّ أي ولم يصروا على ما فعلوه من الذنوب[1] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون قبح فعلهم، والوعيد عليه، والتقييد بذلك، لما أنه قد يُعذر من لا يعلم الأمر، إذا لم يكن عن تقصير في تحصيله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون بالصفات الحميدة ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ستر لذنوبهم كائنة من جهته تعالى لتوبتهم ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ عرضها السماوات والأرض ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المغفرةُ، والجناتُ، والتعبيرُ ههنا بالأجر، مشعرٌ بأنه مستحق بمقابلة العمل، لمزيد الرغبة في الطاعة، والزجر عن المعاصي، وفي هذه الآيات دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات: «المتقين، التائبين، والمصرّين» والمغفرة تكون للصنفين الأولين دون المصرّين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

---

(١) في الحديث الشريف: « ما من عبدٍ مؤمنٍ يذنب ذنباً، فيقوم ويتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له، ثم قرأ ﷺ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله...﴾ » الآية أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت رجوع إلى تفصيل بقية القصة ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع سنَّها الله في الأمم المكذبة، ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بأقدامكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ فَٱنظُرُواْ﴾ تأملوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي آخر أمرهم، الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، واعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، فالعاقل من اعتبر بغيره.

﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هذا إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، يهتدي ويتعظ به المتقون، والمراد أنه هدى وبيان لجميع الناس، لكن المنتفع به المتقون، لأنهم يهتدون به.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل، والجراحات والوهنُ: الضعفُ أي ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله عما نالكم، ولا تحزنوا على من قتل ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون فإنكم على الحق، وقتالكم لله سبحانه، وقتلاكم في الجنة، وإنهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، وهو تصريح بالوعد والغلبة، وحكى القرطبي أنهم لم يخرجوا بعد ذلك للغزو، إلاَّ ظفروا في كل غزوة في عهده ﷺ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾متعلق بالنهي، أي لا تهنوا إن رسخ إيمانكم، وإن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القَرْحُ: بالفتح والضم الجِراحُ ﴿ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ يوم بدر ويوم أحد، فإن المسلمين نالوا منهم، وانتصروا عليهم، قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرّفها ﴿ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ والأيام يراد بها الأوقات، لا الأيام العرفية، وهي أيام الظفر الجارية فيما بين الأمم، والمداولةُ نقل الشيء من واحد إلى آخر، ومن كلامهم: «الأيام دُوَل»، أي تنقل من أمة إلى أمة والمعنى: لا يدوم مَسَارُّها، ولا مضارُّها، فيوم علينا، ويوم لنا، وفيه تسلية للمؤمنين ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطف على علة محذوفة، كأنه قيل: نداولها

بين الناس، لتكون حِكَماً وفوائد، وليعلم، والكلام من باب التمثيل، أي يعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين، الثابتين على الإيمان من غيرهم، والعلم فيه مجاز عن التمييز، أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنينَ على ما أنتم عَلَيْهِ حتَّى يميزَ الخَبِيثَ من الطَّيِّب﴾ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد أي يكرم أناساً منكم بالشهادة، وهم شهداء أحد، رُوي عن عكرمة أنه قال: لمَّا أبطأ على النساء الخبرُ، خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقتولان على دابة، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: زوجك وابنك!! فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، ثم قالت يتخذ الله من عباده شهداء، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم، وابتلاءً للمؤمنين، ولو كان النصر دائماً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان، لأنهم يعرفون أنه الحق وقيل: المراد بالظالمين المنافقين، كابن أُبيّ ابن سلول، ومن تبعه، الذين فارقوا جيش الإسلام، ورجعوا ولم يقاتلوا.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، إن كانت الدولة عليهم، وأصل التمحيص: تخليص من كل عيب، يقال: محصت الذهب إذا أزلت خبثه ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، ومعنى الآية: إنْ قَتَلكم الكافرون فهو شهادة، وتطهير لكم، وإن قتلتموهم أنتم، فهو استئصال لهم وشفاء لصدوركم.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار، والخطاب للذين انهزموا يوم أحد ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي والحال أنه لم يتبيَّن المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون على ما ينالهم في ذات الله؟ ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين يتحملون أقسى الشدائد نصرة لدين الله، والمراد من الآية أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر، أي الجمع بينهما.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين، لم يشهدوا غزوة بدر، فالمراد بالموت، الموت في سبيل الله، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنيها، ولا يرد أنَّ في تمني الموت غلبة الكفار، لأن قصد المتمني الوصول إلى كرامة الشهداء لا غير، وكان المتمنون ألحّوا على الرسول ﷺ في الخروج إلى غزوة أحد، ثم ظهر خلاف ذلك منهم ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شِدَّته ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له، حين قُتل من قُتِل من إخوانكم، وهو عتاب في حق من انهزم، وتوبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسبَّبوا لها، ثم جبُنوا وانهزموا عنها.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ محمد اسم علم لنبينا ﷺ سمَّاه به جده عبد المطلب لرؤية رآها، قال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد كان المشركون يسمونه «مذمَّماً» لأنه عاب دينهم، وحقَّر أصنامهم، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: ألم تروا كيف صرف الله

لعن قريش، وشتمهم لي، يشتمون مذمَّماً وأنا محمد!! روي أنه لمَّا رمى ابن قمئة رسول الله ﷺ بحجر، فكسر رباعيته، وشجَّ وجهه، وذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ فقال عدوُّ الله: قد قتلتُ محمداً، وصرخ صارخ ألاَ إن محمداً قد قُتل، فجعل الرسول ﷺ يدعو المؤمنين: إليَّ يا عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه، حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، فارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنَّ رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت الآية أي وما محمد إلا رسول، قد مضت من قبله الرسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، فعليكم أن تتمسكوا بدينه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن المقصود من بعثة الرسل، تبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾؟ إنكار لارتدادهم عن الدين، بخلّوه ﷺ بموتٍ أو قتل، وليس المراد ارتدادهم حقيقة، وإنما هو تغليظ عليهم، فيما كان منهم من الفرار، فما ارتد أحد يومئذ من المسلمين، إلا من كان من المنافقين ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ مجاز عن الارتداد، وهو في الأصل الرجوع القهقرى ﴿ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ من الضر، وإنما يضر نفسه، بتعريضها للسخط والعذاب ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ المراد بالشاكرين: الثابتين الطائعين.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى: إن لكل نفسٍ أجلاً مسمًّى في علمه تعالى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، بالإحجام عن القتال، أو الإقدام عليه، وفيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال لإعلاء كلمة الله ﴿ كِتَٰبًا ﴾ أي كتب الله تعالى كتاباً ﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾ موقتاً بوقتٍ معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر، وظاهر الآية يؤيد

مذهب أهل السنة، القائلين بأن المقتول ميتٌ بأجله ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك، أقبلوا على الغنائم وخلوا مكانهم، فانتهز المشركون ذلك، وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا، نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه إياه، كما في قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ إعلاء كلمة الله ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها، حسبما جرى به الوعد الكريم، والآية وإن نزلت في الجهاد، لكنَّ حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المراد إمَّا المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وإما جنس الشاكر، وهم داخلون فيها دخولاً أوّلياً، وتصدير الجملة بالسين وإبهام الجزاء، من التأكيد، والدلالة على فخامة الجزاء ما لا يخفى.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلام ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، حيث لم يستنُّوا بسنن الربانيين، المجاهدين بنبيهم، مع أنهم أولى بذلك منهم، حيث كانوا خير أمة أُخرجت للناس «كأين» فيها معنى التكثير بمعنى كم ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ المراد من النبي هنا الرسول ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي كثير من الأنبياء، قاتل معه جموع كثيرة، والربيُّ المنسوب إلى الرب، أي قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، العلماءُ والعابدون أو أتباع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ الوهنُ: العجز والضعف أي فما عجزوا وما جبنوا، ولم تضعف همتهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أثناء القتال، فإن كون ذلك في سبيله عزَّ وجل، ممّا يقوّي قلوبهم، ويزيل وهنهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن الجهاد أمام الأعداء ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما خضعوا لعدوهم وأصله من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه، ليفعل به ما يريده ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فينالهم الضرر ليعظم قدرهم، وهم الذين يصبرون على مقاساة الشدائد في سبيل الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي قول المجاهدين الفعلية ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي ما

كان قولهم عند الشدائد والآلام، إلا أن قالوا ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي صغائرنا ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ أي تجاوزنا عن الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لأنفسهم ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب، بتقوية قلوبنا أو وثبِّتْ أقدامنا على دينك الحق ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي على الكفار، وقولُهم هذا، كالتتميم لبيان صلابتهم في الدين والمقصود من الآية الكريمة حكايةُ ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم، لتقتدي هذه الأمة بهم، وفيه من التعريض بالمنهزمين، وكيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب ثباتهم ودعائهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ النصرة والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو الجنة، والنعيم المخلد فيها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي يحب أهل الفضل والإحسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به، وقيل المراد بهم أهل الكتاب حيث كانوا يقولون: لو كان نبياً لما غُلب، وإنما هو رجل حاله كحال غيره، يومٌ له ويومٌ عليه، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي يرجعونكم إلى أول أمركم، وهو الشرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي غير فائزين بشيء من الدنيا والآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم، بل الله ناصركم ومولاكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة، لأنه القوي القادر الذي لا يُغلب، والناصر في الحقيقة لأوليائه وأحبابه المتقين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ السين لتأكيد الإلقاء، والرعبُ: الخوفُ والفزع، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه من كفار قريش، وفي الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر»[1] يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، من مسيرة شهرٍ بيني وبينهم، يريد ماقذف الله في قلوبهم من الخوف، يوم أحد، حتى تركوا القتال ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة، سُميت به لوضوحها وإنارتها ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مسكنهم الذي يأوون إليه في الآخرة النار لا مأوى لهم غيرها ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بئست جهنم مسكناً ومأوى للظالمين، وإنما وضع الظاهر للتغليظ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون، وفي جعلها مثواهم، بعد جعلها مأواهم، نوع رمز إلى خلودهم فيها، فإن المثوى مكان الإقامة الدائمة.

---

(١) طرف من حديث شريف رواه البخاري ١/٣٦٩ ومسلم رقم ٥٢١ وأوله: «أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر..» الحديث، وانظر جامع الأصول ٨/٥٢٩.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزل ﴿وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدَهُ﴾ ووعدُه إياهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، بقوله تعالى: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ وقال ﷺ للرماة: لا تبرحوا عن هذا المكان، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً، من حسَّه إذا أبطل حسَّه، وقوله تعالى ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه، وتقييد صدق وعده تعالى، بوقت قتلهم بإذنه، صريح في أن الموعود هو النصر العملي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم، وملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمره ﷺ يعني اختلاف الرماة بعد انهزام المشركين ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم الثغر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من انهزام المشركين والغنيمة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين انهالوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي كفَّكم عنهم حتى تحولت الحال ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب، ليظهر ثباتكم على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً لما علم من ندمكم، والمراد بالعفو هنا عدم العقوبة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنوين للتفخيم أي ذو منٍّ وفضلٍ عظيم على عباده المؤمنين.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، والإصعاد الذهاب في الأرض، أصعد ذهب أينما توجَّه ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا يقف أحد لأحد، ولا ينتظره، ولا يلتفت إلى ما وراءه، وهو غاية انهزامهم، يقال: فلان لا يلوي على شيء أي لا يعطف ولا يلتفت إليه ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول إليَّ يا عبادَ الله، أنا رسول الله، وإيراده بعنوان

الرسالة، لتعظيم شأنه ﷺ توبيخ للمنهزمين ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي من ورائكم يقال جئت في آخر الناس وأخراهم فالمعنى كان ﷺ يدعوهم وهو واقف في آخرهم ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم، والتعبير بالإثابة من باب التهكم على حد قولهم: «تحيةُ بَيْنِهِمْ ضربٌ وجيع» ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي غمّاً على غمٍّ[1]، بالقتل، والجراح، وظفر المشركين، والإرجاف بقتل النبي ﷺ وفوت الغنيمة، فالتنكير للتكثير ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ أي فجازاكم على عصيانكم غماً متصلاً بغم، لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة، عقوبة لكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم، وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾.

---

(١) هذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام الطبري أن المعنى: غمّاً على غمّ، فتكون الباء بمعنى «على» ورجح هذا القول ابن القيم والحافظ ابن كثير، وقيل المعنى: جازاكم على صنيعكم غماً بسبب غمكم الرسول ﷺ ومخالفتكم أمره، فيكون ذلك عقوبةً لهم، وجزاءً وفاقاً على ما أدخلوه من الغمِّ على رسول الله ﷺ، ولعل هذا الرأي أظهر والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطف على فأثابكم، والخطاب للمؤمنين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي اعتراكم ﴿أَمَنَةً﴾ مصدر كالمنعة ﴿نُّعَاسًا﴾ وذلك أن المشركين لما انصرفوا يتوعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوا كرَّتهم، وكانوا تحت السلاح متأهبين للقتال، فأنزل الله عليهم أمنة، فأخذهم النعاسُ، وهو النوم الخفيف، وفائدة النوم أن السهر يوجب الضعف والكلاَل، والنوم يفيد عودة القوة والنشأة ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ فيه إشعار بأنه لم يغش الكل. عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشّاه النعاسُ يوم أحد، سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه[1] ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هم المنافقون أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمُّهم إلاَّ همُّ أنفسهم وطَلَبُ خلاصها ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي والحال أنهم يظنون به تعالى غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعده من النصر والظفر نصيب قط ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي إن الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، وغلبةُ الكفار على المسلمين ليس بنصر، لأن النصر ما كانت عاقبتُه سليمة، والمسلمون وإن انهزموا في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة، فإن حزب الله هم الغالبون، وأما قول الكفار: «لو كان هذا رسول الله لما سُلِّط عليه الكفارُ» فهذا ظن فاسد، لأن الله يبتلي عباده بما شاء، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يقولون مظهرين النصرة، مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم، أو إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ كما وعد محمد ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي لما غُلبنا، ولَمَا قُتل من قُتل منا في هذه المعركة، عن الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله تعالى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٠٨.

علينا النوم، فما منا رجلٌ إلاَّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول: «معتب بن قشير» ما أسمعه إلا كالحُلُم «لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ههنا» فحفظتُها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية[1] ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي لو لم تخرجوا إلى أُحُد، وقعدتم في المدينة ﴿لَبَرَزَ﴾ لخرج لسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في تلك المعركة ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم ولم تنفعه الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يردُّ ولم ينجُ منه أحد ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، وهو علة لفعل مقدر، كأنه قيل: فَعَل ما فَعَل لمصالح جمة وليبتلي الخ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه من مخفيات الأمور، ويُذكر الصدرُ مع الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ والقلب مقر الإيمان، والفؤاد مشرق المشاهدة، واللبُّ مقام التوحيد وعلى هذا تؤول ليبتلي إسلامكم، وليمحِّص إيمانكم، وربما يقال: عبَّر بذلك للتفنُّن بناءً على أنَّ المراد بالجمعين واحد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي السرائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، والجملة حال أي فعل ما فعل والحال أنه تعالى غني عن الابتلاء، محيط بخفيات الأمور، وفيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي هربوا منكم فهو خطاب لمن كان مع الرسول ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع الرسول ﷺ وجمعُ أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي إنما كان السبب في انهزامهم، أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، وهي الخطيئة، وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب التي هي المخالفة لأمر النبي ﷺ وترك المركز، والحرص على الغنيمة، والذنب يجر الذنب، كما

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٢٧.

أن الطاعة تجر الطاعة، لأن مخالفة أمره ﷺ سبّب لهم الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم لتوبتهم واعتذارهم، أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون وكان المتولون أكثر القوم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين، وهم القائلون: ﴿لو كَانَ لَنا مِنَ الأمرِ شيءٌ ما قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ وإنما ذكر كفرهم صريحاً، لمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وفيه دليل على أن الإيمان ليس عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، بل هو تصديق وقول وعمل ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في المذهب، أي قالوا لأجلهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها قال الزجاج: إذا ههنا لمجرد الوقت، أي حين ضربوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ جمع غاز وإنما لم يقل: أو غَزَوْا، للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو لم يغزوا ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ بل كانوا يبقون أحياء بمضمونه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى قوله عزّ وجل: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرة وغمّاً، وحزناً في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل، أي هو سبحانه المؤثر في الحياة والممات وحده، من غير أن يكون للإقامة

والسفر، مدخل في ذلك، فإنه تعالى يحيي المسافر والمحارب، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهم لأسباب السلامة والراحة، ولا محيص عما قدَّر الله، وفيه المنع عن التخلف عن الجهاد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا المنافقين، وترغيب لهم في الطاعة، لأن ابتلاء الله كعلمه، يستعمل في القرآن للمجازاة على العمل، ولا حاجة للهِ عزَّ وجلّ للامتحان والاختبار.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي في سبيله وأنتم متلبسون به فعلاً ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسَم والمعنى: إن السفر، والغزو في سبيل الله، ليس ممَّا يجلب الموت، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فَمَا تنالون من المغفرة والرحمة بالموت، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها، وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وفيه تعزية لهم وتسلية عما أصابهم في سبيل الله، وقدم القتل على الموت، لأنه أكثر ثواباً، وأعظم عند الله كما قال الشاعر:

فإنْ كانت الأبدان للمَوْت أنشِئت ... فقتلُ امرىءٍ بالسيف ـ والله ـ أفضَلُ

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾على أي وجهٍ اتفق هلاككم، حسب تعلق الإرادة الإلَهية ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ الرحيم الواسع الرحمة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلاً منكم بعمله، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والباء متعلق بـ«لنتَ» قُدّمتْ للقصر، و«ما» مزيدة للتأكيد، والتنوين للتفخيم، أي

فبرحمة عظيمة كائنة من الله تعالى ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي كنتَ ليّنَ الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق والتلطف، بعدما كان منهم ما كان، أفاد الكلام فائدتين: إحداهما: شجاعتُه ﷺ **والثانية**: رِفقه حيث ثبت حتى كرَّ عليه أصحابه، ثم ما زجرهم ولا عنّفهم على الفرار، بل آساهم في الغم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافياً في المعاشرة ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه، وفي الكلام حذفٌ، أي لو كنت كذلك ولم تلن لهم ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ولم ينتظم أمر ما بعثت به من إرشادهم إلى صراط مستقيم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفى الله عنهم ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقه سبحانه، إتماماً للشفقة، وإكمالاً للبِرِّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاور فيه استظهاراً لرأيهم، وتطييباً لنفوسهم، وتمهيداً لسُنَّة المشاورة للأمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرهُم فِي ٱلأَمرِ﴾ قال ﷺ: أما إنّ الله ورسوله لَغَنيّان عنها، ولكنّ الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً»[1]. وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ إلاّ هُدُوا لأرشد أمرهم»[2] ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عقيب المشاورة على شيء، واطمأنت به نفسك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فاعتمد عليه وثِقْ به، وفوِّضْ أمرك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح، أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وهو عندنا على الله سبحانه، ولا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى، وفي الحديث: «اعقلها وتوكل»[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، لأنه سبحانه الملجأ الأعظم، الذي لا تنقضي الحاجة إلا عند بابه.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل.

(٢) رواه الطبري في تفسيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥١٩ وسببه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أُطلق ناقتي وأتوكَّل؟ فقال له ﷺ: «اعقِلها وتوكَّلْ» وانظر مع الأصول ١١/ ٧٩٢.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم، سيقت لإيجاب التوكل عليه تعالى، والترغيب لطاعته والتحذير عن معصيته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ويمنعكم معونته ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر بطريق المبالغة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد خذلانه تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد بهم جنس المؤمنين، لأن الأمر كله لله، ولا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي وما صحَّ لنبيٍّ ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال: غل، من المغنم: إذا أخذه خفية عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة فُقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها[1]. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يأتي بالذي غلَّه بعينه، يحمله على عنقه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكَرَ الغلول فعظَّمه، وعظَّم أمره، حتى قال: «لا أُلْفَيَنَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغَاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك...»[2] الحديث ولعل السر في ذلك، أن يفضح به على رؤوس

(١) الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي في التفسير ٥/ ٢١٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ١٢٩ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٣١ وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٦.

الأشهاد، زيادة في عقوبته ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، خيراً أو شراً، قليلاً أو كثيراً، وضع الكسب موضع الجزاء، تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو نقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ رضاء الله، أي سعى في تحصيله، بفعل الطاعات، وترك المنكرات ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ﴾ أي غضب عظيم كائن ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى، والمراد بمن ﴿اتَّبع رضوان الله﴾: المؤمنون، والمراد بمن ﴿باء بسخطٍ من الله﴾: المنافقون، وهم الذين باؤوا بسخطِ الله وغضبه، وقيل: الأول فيمن لم يغلَّ، والثاني فيمن غلَّ، والقول الأول أصحُّ وأظهر ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيره ذلك بيان لحال من باء بسخط ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ونظير هذه الآية: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾.

﴿هُمْ﴾ عائد على الموصولين باعتبار المعنى ﴿دَرَجَاتٌ﴾ طبقات متفاوتة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ في علمه تعالى وحكمه، شُبِّهوا في تفاوت الأحوال بالدرجات، إيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم، ويجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم وتفضل وأحسن على المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة للناس لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم، لا مَلَكاً ولا جنيّاً، والامتنان بذلك إما لحصول الأنس فيسهل التلقّي، وتزول

الوحشة والنفرة الطبيعية التي تكون بين الجنسين المختلفين ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن، ويطهّرهم من رجس الكفر والعصيان، ويعلمهم آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة التي جاء بها سيد المرسلين وهي الحكمة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر، لا شبهة في كونه ضلالاً.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للتقرير والتقريع، والواو عاطفة على ما سبق من قصة أُحد، ولمَّا ظرف بمعنى «حين»، والمرادُ من المصيبة ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين، وجعل ذلك مثلين بجعل الأسر كالقتل، لأنهم قادرون على قتلهم، والمعنى: أحِين أصابكم من المشركين، نصف ما أصابهم منكم، جزعتم ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ وقلتم من أين أصابنا هذا، وقد تقدم الوعد بالنصر؟ وكونُ مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم، ممَّا يهوِّن الخطب، ويورث السلوة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ تبكيتٌ لهم ببيان أن ما نالهم إنما هو من جهتهم، بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة، فالوعدُ بالنصر كان

مشروطاً بالثبات والطاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة، والخذلان عند المخالفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين، يريد يوم أحد ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه لمخالفتكم الأمر ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالعلم التمييز أي يميّز أهل الإيمان من أهل النفاق.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ إعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سِلك المنافقين، والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الإيمان، والذين أظهروا النفاق، وفيه تطييبٌ لأنفس المؤمنين، بإزالة مرارة التقريع، أي أنه سبحانه قادر على نصركم بعد فلا تيأسوا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا وهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه حيث انصرفوا يوم أُحُد ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عنا العدوَّ، بتكثير سوادنا، أو ادفعوا عن أهليكم وبلدكم، إن لم تقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُوا۟﴾ مستهزئين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يُسمَّى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لانخذالهم، وكلامُهم هذا واعتذارهم على وجه الدغل، أمارات ظهرت منهم، وهو مؤذنٌ بكفرهم، فإنَّ تقليل سواد المسلمين تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ المعنى: يتفوهون بقولٍ لا وجود له، فإنهم أظهروا فيه أمرين: الأول عدم العلم بالقتال، والآخر الاتباع على تقدير العلم، وقد كذبوا فيهما، حيث كانوا عالمين به، غير ناوين للاتباع، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصغير لشأنهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض من المكر والخديعة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ المراد بهم «عبد الله بن أبيّ»، وأصحابه ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأجلهم، يريد من قُتل يوم أحد من جنسهم وأقاربهم ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ أي قالوا قاعدين عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ كما لم نُقتل، وفيه

إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال، حين انخذلوا وأغووهم ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين على دفع القتل عمن كُتِبَ عليهم، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم، والقعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، والحذر لا يدفع شيئاً من القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ كلام مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه، ويحذّرون الناس منه، هو أجلُّ المطالب عند المؤمن، نزلت هذه الآيات في شهداء أحد[1]، الذين قتلوا في تلك المعركة، وفيهم

---

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾» الآية رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٢٠.

«حمزة بن عبد المطلب» عم الرسول ﷺ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ مستمرون على ذلك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى بالقرب والشرف ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ﴾ أي مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، إلا أن المعنى هنا هو الفرح التام ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ أي بإخوانهم المؤمنين، الذين لم يُقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين، إذا ماتوا أو قُتلوا كانوا أحياء، حياة لا يكدرها خوف ولا حزن، وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وامتداح لمن يتمنى لإخوانه، مثل ما أنعم الله عليه.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد، وليتعلق به قوله بنعمة ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وتنكيرهما للتعظيم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منهم إما الشهداء وإما كافة أهل الإيمان، للإشعار بأن كل مؤمن يستحق الأجر، وليس مخصوصاً بالشهداء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ صفة مادحة للمؤمنين أي أطاعوا الله ورسوله ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ بامتثال الأوامر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ الجراحات ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ الجمع بين الوصفين، للمدح والتعليل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى ابن إسحق وغيره، أن أبا سفيان وأصحابه، لمَّا انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء، ندموا وهمُّوا بالرجوع، فبلغ الأمرُ رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهبهم، فخرج بسبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه قرح فتحاملوا، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا فنزلت الآية، وهذا من المعجزات،

لأن المسلمين قد انهزموا، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين، يحصل في قلب الغالب قوةٌ وشدة، وفي قلب المغلوب خوفٌ وخشيةٌ، والحال أنه عز وجل قلب القضية ههنا، فهو معجز خارقٌ للعادة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا نزلت هذه الآية في «غزوة بدر الصغرى»، وذلك أن أبا سفيان حين أراد أن ينصرف، قال يا محمد موعدُنا موسم بدر القابل، فقال ﷺ إن شاء الله، فلما كان القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل حرَّ الظهران، فألقى الله تعالى الرعب في قلبه، ولقي «نعيم ابن مسعود»، فقال له أبو سفيان: إني واعدٌ محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب لا يصلحنا، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا فيزيدهم جرأة، فالْحَقْ المدينة فثبِّطْهم، ولك عندي عشرةٌ من الإبل، فأتى نعيم المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فواللهِ لا يفلتُ منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي»، فخرج ومعه سبعون، وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ففي هذا نزلت الآية ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أي فخافوهُم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت يقينهم بالله سبحانه وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاناً ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه هو تعالى: وفي الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبي الله ونعم الوكيل»(١).

---

(١) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ١/ ٤٤٠ وفي صحيح البخاري ما يؤيّده، فقد روى عن ابن عباس ٨/ ١٧٢ أنه قال: ﴿حسبُنا الله ونعم الوكيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناسُ ﴿إن النَّاسَ قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم، فزادهُمْ إيماناً وقالوا حسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾.

﴿فَانقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي العافية والسلامة والثبات على الإيمان، وطاعة الله ورسوله ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي ربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وكان في أيام الموسم، اتجروا وربحوا ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ من كيد عدوّ، وجراحة، وقتالٍ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجرأتهم وخروجهم إلى وجه العدو طلباً لرضاء الله، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضَّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وحفظهم عن كل ما يسؤهم، مع إصابة النفع، وفيه تحسير لمن تخلَّف عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبطين، والخطابُ للمؤمنين ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي المنافقين، والقاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ، وقيل: المعنى «يخوّفكم بأوليائه» وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، فجاهدوا مع رسولي، والخطابُ للقاعدين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله، على خوف الناس، ويستدعي الأمن من شر الشيطان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذان بأصالته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه، والمراد بالموصول أما المنافقون قاله مجاهد، وإمَّا قوم من المرتدين قاله علي الجبائي وإمَّا العموم قاله الحسن ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً، حرصاً عليه، وشدة رغبتهم فيه، ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفي دون إلى ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية أي لن يضروا أولياء الله ضرراً ما ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ لما هم فيه من الانهماك في الكفر، وتمادي طغيانهم، وموتهم على الكفر وصيغةُ الاستقبال ﴿يريد الله﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، ويرجع إلى دوام منشأ هذا المراد وهو الكفر، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه، ولهذا وضع اشتروا موضع بدلوا ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ لمَّا جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالشدة والألم، والآية تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ خطاب للرسول ﷺ أو لكل من يحسب، والإملاء والإمهالُ: إطالةُ العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطِّوَل ـ أي الحبل ـ ليرعى كيف شاء ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ تعليل لما قبلها، واللام في (لهم) لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة، والآية حجة لأهل السنة، في عدم وجوب الأصلح ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع، مع الإهانة

والتحقير لتكبُّرهم عن طاعة الله، ولمَّا تضمن الإملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزز، وصف عذابهم بالإهانة، ليكون جزاؤهم وفاقاً لعملهم، والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المروي عن مقاتل، وقيل في بني قريظة قاله عطاء.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين، ووعيد المنافقين، والمراد بالمؤمنين المخلصون، والمراد بما هم عليه: اختلاطُ بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء الأحكام الدنيوية عليهم ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط، بل يوحي إلى الرسول ﷺ بأحوالهم، ويبتليهم بالتكاليف التي لا يقدر عليها إلا الخُلص، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله، حتى يعزل المنافق من المؤمن، وتعلق التمييز بالخبيث إشعار برداءة ذلك الجنس، فإن الملقى من الشيئين هو الأدون واختلفوا بما يحصل التمييز، فقيل: بالمحن والمصائب، وقيل بإعلاء كلمة الله، وقيل بالوحي، ولهذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ تمهيد لبيان المَيْزِ الموعود وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، والإظهار في الموضعين لتربية المهابة، فالمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين، على الاختلاط بالمنافقين، بل يخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلبهم، ولكنه تعالى يجتبي لرسالته من يشاء، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، واجتباء الله تعالى لرسله، تخصيصه إياهم بفيض إلهيّ، بلا سعي من العبد ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ سوق النظم الكريم، للإيمان بالرسول ﷺ، ولكنه ورد بالتعميم للإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ ﴾ بكل ما جاء به ﷺ حق الإيمان ﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ النفاق أو المخالفة في الأمر والنهي ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بيان لحال البخل، ووخامة عاقبته أي لا يظنن أولئك البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم، ولا يمدون يد العون للفقراء والمساكين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إيراد ما بخلوا به، بعنوان إيتاء الله إياهم من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله تعالى، والبخلاء يمنعون حقوق الله كالزكاة، والفطرة، والأضحية، والنفقات، أو بحكم المروءة نحو الصدقة والهدية، وأشد البخل الإمساك عن نفسه، بأن لا يأكل، أو لا يلبس، أو لا يتداوىٰ، وهذا البخل يسمى شحا[1] ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾عظيم ﴿لَّهُمْ ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم، ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الكلام عند الأكثرين على ظاهره[2] أي سيكون هذا الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقال بعضهم: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وله ما فيهما مما يتوارث به أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه، ولا ينفقون في سبيله تعالى، أو أنه تعالى يرث منهم ما يمسكون بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من المنع والبخل، فيجازيكم على ذلك.

---

(١) هذا أبشع أنواع البخل، أن يبخل من الإنفاق على نفسه، كما قال الشاعر في شخص يدعى عيسى:

يُقَتِّـرُ عِيسَـىٰ عَلَـىٰ نَفْسِـهِ ... وَلَيْـسَ بِبَـاقٍ وَلاَ خَـالِـدِ
فَلَـوْ يَسْتَطِيـعُ لتَقْتِيـرِهِ ... تَنَفَّـسَ مِـنْ مِنْخَـرٍ وَاحِـدِ

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً كبيراً ضخماً ـ يطوّقه فيأخذ بلهزمتيه ـ أي شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون. .﴾ الآية.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قاله اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوه على سبيل الطعن والاستهزاء[1]، وظاهر الآية يدل على أن القائلين هذا

(١) روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنْحاص» كان من علمائهم وأحبارهم، فقال له أبو بكر: اتَّقِ الله وأَسْلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال له فِنْحاص: والله يا أبا بكر، ليس لنا من حاجةٍ إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنَّا ما استقرض منا!! فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص، فَشَجَّهُ شجَّةً عنيفة، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربتُ عنقك يا عدوَّ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، وجاء أبو بكر فأخبر =

كانوا جماعة، ومعنى الآية: أنه تعالى سمع مقالتهم ولم يخف عليه أمرهم، وأنه عز وجل أعدَّ لهم ما يكفيهم من العذاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه أي لا نهمله ولا ننساه لأنه كفر بالله، واستهزاء بالقرآن وقرنه تعالى بقوله ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ إيذاناً بأنهما أخوان في العظم، وتنبيهاً على أنَّ من اجترأ على قتل الأنبياء، لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة هذا القتل إلى هؤلاء، باعتبار رضائهم بقتل أسلافهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في اعتقادهم أيضاً، وننتقم منهم بسبب هذا القول ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره، والحريق بمعنى المُحْرِق، والذَّوقُ: إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والأمور العقلية، فيقال: ذقتُ الشقاءَ، ومرارةَ العيش.

﴿ذَلِكَ﴾ شهادة إلى العذاب المذكور ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء، والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من الكفر والمعاصي، عبَّر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والله تعالى ليس بمعذب لعبيده، والتعبير عن ذلك بنفي الظلم، لكمال نزاهته تعالى عن ذلك، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى، أو الصيغة هنا للنسبة، أي لا يُنسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم، ولا يقع منه ظلمٌ لأحد أصلاً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ المراد من الموصول جماعة من اليهود، ككعب بن الأشرف، ومالك بن حُيَيٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي أمرنا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي بأن لا نصدِّق أحداً ممن ادعى الرسالة ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا

= الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فنحاص تلك المقالة، فنزلت الآية تصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء..﴾ الآية. من تفسير ابن الجوزي ١/ ٥١٤.

﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ القربان أصله مصدر كالرجحان، وهو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، والمراد به هنا تقديم شيءٍ تأكله النار، من كبشٍ، أو حبّ، أو طعام، قيل كانت بنو إسرائيل يذبحون الشاة فيضعونها وسط بيتٍ والسقفُ مكشوف، فيدعو نبيهم في البيت وبنو إسرائيل في الخارج، فتنزل نار فتأكله، وقيل إن هذا الشرط كذبٌ على التوراة، من كذب اليهود ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تبكيتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ في قولكم إنّا نؤمن بما جاء به، فإنّ زكريا ويحيى وغيرهما قد جاؤوكم بما قلتم، فما لكم لم تؤمنوا بهم، حتى اجترأتم على قتلهم؟ بيّن الله عز وجل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل العناد، لا على سبيل الاسترشاد، ولذلكَ لم يسعف مطلوبهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية النبي ﷺ، إثْر ما أوحي إليه ما يحزنه من مقالات الكفرة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني فإن كذَّبك هؤلاء الكفار، فلا يهولنَّك أمرهم يا رسول الله، فقد فعلت الأمم السالفة بأنبيائهم كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور كالرسول، يقال زبرت الكتاب: أي كتبته ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾أي الكتاب الهادي، وهو القرآن العظيم، المنيرُ لطريق الحق والهداية والسعادة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا يدل على أن الأرواحَ لا تموت بموت الأبدان، لأن ذائق الشيء، لا بد أن يكون باقياً حال حصول الذوق، ولفظ «كل» يقتضي الشمول، بدليل قوله تعالى ﴿فَصَعِقَ مَنْ في السَّمَاواتِ ومَنْ في الأرْضِ إلاّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء فالمعنى: لا يحزنك تكذيبهم، فمرجع الخلق إلى الفناء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم، خيراً كان أو شراً، تاماً وافياً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وقت قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية، إشارة إلى

أن بعض أجورهم، تصل إليهم قبل ذلك اليوم، وفي الحديث الشريف «القبر إما روضةٌ من رياض الجنة، أو حُفرةٌ من حُفر النيران»[1] وقال ﷺ: «إذا مات الرجلُ عُرض عليه مقعدهُ بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدُك حتى يبعثك اللهُ يوم القيامة»[2] وهذه الأحاديث الشريفة تثبت الحياة في القبر ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بَعُدَ عنها، والزحزحةُ في الأصل: تكريرُ الزحّ، وهو الجذبُ بعجلة ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوزُ: الظفرُ بالبُغية فاز، يفوز: نجا وظفر بمراده ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لذاتها وزخارفها وشهواتها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المتاعُ: كلُّ ما ينتفع به، كالطعام، واللباسِ، وأثاث البيت، مما يُباع ويُشترى، وقد شبهها سبحانه بالمتاع إشارة إلى رداءتها، والغرورُ: الخداع، غرته الدنيا أي خدعته بزينتها وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي متاع بلاغٍ إلى انتهاء الأجل.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن، جوابُ قسم محذوف، وفيه تسلية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، عما سيلقونه من جهة الكفار من المكاره، ليوطّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويقابلوه بالصبر والثبات ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق، وما يصيبه من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخائف ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، عبَّر عنهم بذلك، للإشعار بمدار الشقاق، وهو الكيد والحسد ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والطعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، وصدٌّ من أراد الإيمان وهجر المؤمنين، والافتراء على الله وعلى الرسول ونحو ذلك ﴿وَإِن

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٢.
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/١٩٣ ومسلم رقم ٢٨٦٦.

﴿تَصۡبِرُواْ﴾ على تلك الشدائد والمصاعب عند ورودها ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي تتمسكوا بتقوى الله وطاعته، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب، ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي ممَّا يجب العزم عليه من الأمور، التي ينبغي أن يعزمها كل أحد، لما فيها من كمال المزية والشرف.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ بيان لبعض إذايتهم، وهو كتمانهم ما فيه من الشواهد على نبوته ﷺ، أي اذكروا وقت أخذه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى، ذكروا بعنوان «أوتوا الكتاب» مبالغةً في تقبيح حالهم، ورمزاً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ الضمير للكتاب، وهو جواب القسم، ينبىء عنه أخذ الميثاق، كأنه قيل لهم: بالله لتبيِّنُنَّه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتظهرون ما فيه من الأحكام والأخبار، والتي من جملتها أمر نبوته ﷺ ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ نهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان، إما للمبالغة في إيجاب المأمور به، وإما لبيان المأمور به أو بالكتمان المنهي عنه، بإلقاء التأويلات الزائغة، والشبهات الباطلة ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثّق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، وفيه من الدلالة على أنه يجب على العلماء، أن يبينوا الحق للناس، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد، من تسهيلٍ على الظلمة، أو تطييب نفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ بالكتاب الذي أُمروا ببيانه، ونُهوا عن كتمانه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ شيئاً تافهاً حقيراً من حُطام الدنيا وأعراضها ﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ الخطاب له ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ بما فعلوا، روي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو، تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم، فإذا قدم رسول الله اعتذروا إليه، وحلفوا له، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية[1]، والفَرَحُ: لذَّةٌ تحصل في القلب بنيل المراد يستعمل في معان أحدها البطر كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يحبّ الفَرِحينَ﴾ الثاني الرضاء وعليه قوله سبحانه: ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ والثالث السرور وعليه قوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ أي يحبون أن يحمدهم الناس، لأنهم كانوا يفرحون بما فعلوا، من إظهار الإيمان، وقلوبهم قاسية بالكفر والعداوة ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ تأكيد له، والفاءُ زائدة قال الزجاج: إذا طالت القصة، تعيد حسب ما أشبهها توكيداً، فتقول: لا تظنَنَّ زيداً إذا جاءك وكلَّمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً وتوضيحاً ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه، لأن لباس الزور لا يبقى، ويكشف حال صاحبه، ويفتضح، والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والآية للتنبيه على بطلان آرائهم، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون

---

(١) أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم ـ وهو أمير المدينة ـ قال لبوابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذبنَّ أجمعون!! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ اليهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب..﴾ الآية، وانظر فتح الباري ٨/ ٢٣٣.

بما صنعوا من عذاب الآخرة، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية، ولذلك كان فرحهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم لا غاية له في المدة والشدة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له خاصة دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقوبتهم كيفما يشاء.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في إنشائهما في ذاتهما وصفاتهما، التي تحار فيه العقول ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما وتفاوتهما ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة عظيمة، دالة على وحدته، وكمال علمه، وعلى عجائب شؤونه تعالى، وفيه رمز إلى أن الآيات الظاهرة ـ وإن كانت كثيرة في نفسها ـ إلا أنها قليلة في جنب ما خفي عنها في خزائن الغيب ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول السليمة، المتفكرين في بدائع صنائع الخالق جل وعلا، الممتثلين لقوله سبحانه: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع، دليل قوي على الصانع المجيد ﴿الذي أتقن كلَّ شيءٍ خَلقَهُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى، في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكر الله، حين أيقنوا بأن كل ما سواه، فائض

منه وعائد إليه[1] ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً، في جميع الأحوال، وليس المراد الدوام الحقيقي لاستحالته، بل في غالب أحوالهم، لا يغفلون عنه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات، لما رُوي عن ابن عباس «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وأصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكر إنما يكون بالقلب والروح وهو لا يمكن إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا فإنه سبحانه خصَّ التفكر في الخلق، ونهى عن التفكر في الخالق، لعدم الوصول إلى كنه ذاته، وصفاته، وقد رُوي عن عبد الله بن سلام قال: «خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله[2]»، قدَّم الذكر على التفكر، للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية، ما لم يتنور بنور ذكر الله، أي يتفكرون في إبداعهما، بما فيهما من عجائب المصنوعات، ولطائف الحِكَم، ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته وقدرته وعلمه، لأن عظم آثاره تدل على عظم مبدعها، كما قيل:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدُل على أنَّهُ واحِدُ

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ أي يقولون ذلك، وهذا إشارة إلى السماوات والأرض، متضمنة لضرب من التعظيم، أي ما خلقت هذا المخلوق البديع عبثاً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون مداراً لمعايش المخلوقات،

---

(١) الذكر على أقسام: ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالأركان، وذكر بالجَنَان يعني القلب، فالذكر باللسان إنما يكون بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وحمد الله، والثناء عليه بشتى صيغ الذكر، والذكرُ بالأركان أن تصير الجوارح والأعضاء مشتغلةً بالعبادات، منتهيةً عن المنهيات، والذكر بالقلب أن يتفكر المؤمن في دلائل القدرة والوحدانية، ويتفكر في مخلوقات الله، ليستدل بها على عظمة الخالق جلَّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً..﴾ الآية.

(٢) أخرجه أبو نُعيم في الحلية، وانظر الفتح الكبير ٢/ ٣٥.

ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عما لا يليق بك من الأمور، التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي احمنا من نار جهنم، كأنهم قالوا: فكَّرنا في خلقك، وعرفنا سرك، وأطعنا أمرك، ونزَّهناك عما لا ينبغي، فقنا عذاب النار، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية، وبيان لسببه، وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع، وتأكيدها لإظهار كمال اليقين بمضمونها، يقال: أخزاه الله، أي أبعده، وأهانه، وقيل: فضحه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المراد بالظالمين الكفار، وضع المظهر موضع المضمر، للدلالة على أن ظلمهم، تسبَّب لإدخالهم النار، فالمعنى: ما للظالمين نصيرٌ من الأنصار.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ حكاية دعائهم المبني على الدليل السمعي، بعد حكاية دعائهم المبني على التفكر في الأدلة العقلية، وفي تنكير المنادي تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: القرآن، والأول أظهر وأشهر، وإيثاره على الداعي، للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة، وتبليغها إلى الداني والقاصي، لأن النداء برفع الصوت، ومعناه نداء منادٍ، كما يقول: سمعتُ زيداً، أي سمعتُ قوله ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي لأجل الإيمان، وهذا أصل بديع، يُصار إليه للمبالغة، في تحقق السماع، وللإيذان بوقوعه بلا واسطة ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ بأن آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بمالككم ومبلّغكم إلى الكمال ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع[1] ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي صغائرنا، وإنما ذكروهما للتأكيد، أي

---

(١) في هذه الآيات، تعليمٌ من الله لعباده، كيف يدعونه ويبتهلون إليه، وتكرير «ربنا» من باب التضرع، وإظهار كمال الخشوع، وهو مما يوجب حسن الإجابة.

غطِّ ذنوبنا فلا تظهرها بالعقاب عليها ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ أي اقبض أرواحنا في جملة الأبرار وبصحبتهم وزمرتهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبُّون لقاء الله تعالى، والأبرار جمع البار، وهو الصالح الكثير البر الصادق في قوله وفعله.

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ أي على ألسنة رسلك، جَمَع الرسل مع أن المنادي الرسول ﷺ وحده، لما أن دعوته ﷺ منطويةٌ على دعوة الكل، وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله، والله لا يخلفُ الميعاد، لأن مرادهم أن يقولوا اجعلنا ممن له الوعد، وقيل: هو من باب اللجوء إلى الله تعالى، ويقصدون بذلك التذلل لربهم ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ﴾ بأن تعصمنا عمَّا يوقعنا في الخزي في ذلك اليوم، قصدوا بذلك وعده تعالى بقوله: ﴿يومَ لا يُخزي الله النبيَّ والَّذين مَعَهُ﴾ والخزيُ: الذل والهوان، والإخزاء هو الإذلال بما فيه فضيحة أو عار ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، والميعاد: الوعدُ، وهذه الدعوات ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد، بل من أن لا يكونوا من جملة الموعودين، بتغيير الحال، وسوء الخاتمة.

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ دعاءهم، وصيغةُ الماضي للإيذان بتحقق الإجابة ﴿ أَنِّي ﴾ أي بأني، الباء للسببية، كأنه قيل: فاستجاب لهم ربهم لسبب أني ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم ﴾ أي سُنَّتي مستمرةٌ على ذلك، والمراد الإشعار بأن مدار الاستجابة، أعمالهم التي قدَّموها، لا مجرد الدعاء، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين، بالأعمال الحسنة لا بصفات العاملين ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ ﴾ بيان للعامل، وتأكيد لعمومه ﴿ بَعۡضُكُم ﴾ أي

الذكور والإناث كائن ﴿مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾ لأنهما من أصل واحد، ولاتفاقهما في الدين والعمل، روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلتُ يا رسول الله ما أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى الآية[1] ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ تفصيل لأعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح، والتعظيم، والمعنى: فالذين هاجروا من الأوطان من أجل الدين ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله، ومن أجله، وهو متناولٌ لكل أذية نالتهم، بالشتم والضرب والتحقير، ونهب الأموال، فالهجرة كائنة في آخر الزمان، كما كانت في أول الإسلام ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفار في سبيل الله ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في الجهاد ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جواب قسم محذوف أي واللهِ لأكفرنَّ ﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لأمحونّها وأسترها بالمغفرة، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا ما عبَّر عنه الداعون بقولهم: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ وتفسير له ﴿ثَوَابٗا﴾ مصدر مؤكد أي أثيبهم بذلك إثابة ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ تفضلاً منه تعالى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الجزاء يختص به جلَّ وعلا، ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٣٢.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ بالتجارة والكسب، بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا، والخطاب لكل أحدٍ ممن يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ والمراد به غيره، والمعنى: لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، والحظّ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم.

روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء، فنزلت الآية.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ذلك التقلب، متاعٌ يتمتعون به يسيراً في الدنيا ويفنى، أو قليل في جنب ما أعد الله للمؤمنين ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي ما مهَّدوا لأنفسهم، عن عمر بن الخطاب قال: «جئتُ رسول الله ﷺ فإذا هو على حصير، ما بينه وبينه شيء، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيتُ، فقال: ما يبكيكَ يا عمر؟ قلت يا رسول الله: إن كسرى وقيصر على فُرُش الديباج والاستبرق، وأنت رسول الله تنام على الحصير؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أولئك أقوامٌ عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا»[1].. الحديث.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين ﴿ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ وإيراد التقوى للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصي ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ النُّزُلُ: ما يُعدُّ للنَّازل والضيف، من طعام، أو شراب ونحوها ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ لكثرته ودوامه كائن ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من متاع الدنيا، لقلته وسرعة زواله، والتعبير عنهم بالأبرار

---

(١) هذا طرف من حديث رواه الشيخان، وانظر كامل الحديث في فتح الباري ٨/٦٥٨.

للإشعار بأن الصفات المذكورة من أعمال البر، كما أنها من التقوى، التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، وقدَّم الإيمان بالقرآن، لأنه آخر الكتب الإلهية، ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بجميع كتب الله ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار معنى من ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يغيّرون كتبهم، ولا يكتمون صفته ﷺ لأجل الرياسة، والمتاع القليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم بما عُدَّ من صفاتهم الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي المختص بهم الموعود بقوله تعالى ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد به التشريف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه لجميع الأشياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ختمت السورة بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاق الطاعة، وتكاليف الدين، وما يصيبكم من الشدائد في الدنيا ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أي غالبوا أعداء الله، بالصبر في مواطن الحرب، أو على مخالفة الهوى والمعاصي، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أي أقيموا الثغور رابطين، مترصدين ومستعدّين للغزو، وفي الحديث الشريف: «رباطُ يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها»(1) الرباط مصدر رابط إذا أقام في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو، وعن سلمان «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإذا مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله» يعني يكتب له أجر رباطه إلى يوم القيامة، وفيه فضيلة مختصة للمرابط لما

---

(1) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ١١ في الجهاد، ومسلم رقم ١٨٨٠ وتتمته «وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوحةُ يروحها العبد في سبيل الله ـ أي رجوعه من الغزو ـ أو الغدوةُ، خير من الدنيا وما عليها» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٧١.

جاء في صحيح مسلم «كلُّ ميت يُختم عليه عمله إلا المرابط[1] » ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تنتظموا في زمرة المفلحين، الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكروب.

«تمَّ تفسير سورة آل عمران والحمد لله رب العالمين»

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي رقم ١٦٢١ وأمَّا رواية مسلم ٣/ ١٥٢٠ فهي بلفظ «رباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإنْ مات جرى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأُجْري عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّان».

سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنية وآيها مائة وسبعون وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب يعمُّ بني آدم، لأن الناس اسم جمع، دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ المعروف عند أهل اللسان تغليب المذكر على المؤنث، ولو لم تدخل الإناث في ذلك، لما شاركن في الأحكام، لثبوت أكثرها بمثل هذه الصيغة، أي خافوا ربكم وعقابه في مخالفة أوامره ونواهيه، والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال، وكذا وصف الرب بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ لأن خلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع، لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها وذلك من دواعي الاتقاء، ومن موجبات الانقياد لجميع أوامره ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ من أصل واحد، وهو آدم عليه السلام، وكان قبل آدم الملائكةُ والجنُّ، وأما البشر فكلهم من آدم، وهو أول مخلوق منهم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ مسوق لتقرير وحدة المبدأ،

وتفصيل ما أُجمل أولاً، والمراد من الزوج «حواء» فقد خُلقت من ضلع من أضلاع آدم، كما ورد في الحديث: «إن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»[1] ولعلَّ الفائدة في خلقها من ضلع، إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حياً من حي، لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر أن يخلق حياً من جماد، وقيل: المعنى وخلق من جنسها، وهو كقوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ وهو اختيار أبي مسلم، والقولُ الأول أقوى، لكي يصح قوله تعالى: ﴿خَلَقَكم من نَفْسٍ واحدة﴾ ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو مسلم، لكان الناس مخلوقين من نفسين، وهو خلاف النص، وخلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة ﴿وَبَثَّ﴾ فرّق ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ آدم وحواء بطريق التوالد ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ كثيرة، والمراد من الرجال والنساء الذكور والإناث، لا البالغين والبالغات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكرير للأمر، وتذكيرٌ لبعض آخر من موجبات الامتثال، فإن السؤال باسم الجلالة، يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، وأصل تساءلون: تتساءلون، فحذفت إحدى التائين تخفيفاً ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي واتقوا الأرحام فصِلُوها ولا تقطعوها، وقد قرن سبحانه الأرحام باسمه، على أن صلتها بمكان منه تعالى وفي الحديث: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[2] وهذا يحتمل أن يكون إخباراً، وأن يكون دعاءً وعن أنس «من سرّه أن يبسط له في رزقه» أي يكثر رزقه «ويُنسأ» أي يُؤخّر «له في أَثَره» أجله «فلْيصلْ رحمه»[3] وفي الآية والأحاديث، دليل على تعظيم حق الرحم، والنهي عن قطعها، وللصلة درجات وأدناها ترك المهاجرة، ووصلها بالكلام، ولو كان بالسلام

---

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٨ والبخاري ٩/ ٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٥٠ ومسلم في البرّ رقم ٢٥٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٤٨ ومسلم في البِرّ رقم ٢٥٥٧ وأبو داود في الزكاة رقم ١٦٩٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ حافظاً مطّلعاً على ما يصدر عنكم، من الأفعال والأقوال، وهو وعد ووعيد.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ الخطاب للأولياء والأوصياء، والمراد بإيتائها تركها سالمة غير متعرض لها بسوء، لا الإعطاء بالفعل، فإنه مشروط بالبلوغ والرُّشد، وقيل: الإعطاء بالفعل أول بلوغهم قبل أن يزول هذا الاسم ورجح غير واحد الوجه الأول، لقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ الآية، فإنه كالدليل على أن الآية في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ أي ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم، بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم، بالأمر الطيب الذي هو حفظها، عبر بذلك تنفيراً عما أخذوه، وتصويراً لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل، فحقُّ الأولياء أن يكونوا في المعاوضات عاملين لليتيم لا لأنفسهم ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ أي لا تأكلوها مضافة إلى أموالكم، وظاهر هذا النهي عدم جواز أكل شيء من أموال اليتامى، وقد خُصَّ من هذا مقدار أجر المثل، عند كون الولي فقيراً بقوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروف﴾ والمراد بالأكل مطلق الانتفاع، وعبَّر عنه بذاك، لأنه أغلب أحواله، ومعظم المقصود منه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أكل أموالهم ﴿كَانَ حُوبٗا﴾ أي ذنباً، ثم وصفه بقوله: ﴿كَبِيرٗا﴾ للمبالغة وتهويل أمر المنهي عنه، كأنه قيل إنه من كبار الذنوب العظيمة.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ شروع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه، أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء، إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، وذلك أنهم كانوا يتزوجون بهن طمعاً في مالهن، ويسيئون المعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن، أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة عن هذه الآية، فقالت: «يا بنَ أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها، من غير أن يُقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهنَّ، إلا أن يُقسطوا لهن في صداقهن..»[1] والإقساط العدل والإنصاف، والمراد بالخوف العلم، عبَّر عنه بذلك، إيذاناً بكون المعلوم مخوفاً ومحذوراً، وفي الآية دليل لجواز نكاح اليتيمة، وهي الصغيرة، إلا عند خوف الجور، والمراد بما طاب لكم: ما مالت له نفوسكم، وقيل: ما حلّ لكم، والتعبير عن الأجنبيات بهذا العنوان، فيه من المبالغة في الاستمالة إليهن، والترغيب فيهن، ما لا يخفى ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾ معناه الإذن لكل ناكح، أن ينكح أيَّ عدد من الأعداد المذكورة. روي أن «غيلان بن سلمة الثقفي»، أسلم وتحته عشر نسوة، فقال ﷺ له: «أمسك أربعاً، وفارق باقيهن»[2] وروي عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمتُ وعندي ثمان نسوة، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: اختز منهن أربعاً»[3] وأجمع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ بين هذه الأعداد أيضاً[4] كما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٣٩ فتح الباري.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٢٨ وابن ماجه رقم ١٩٥٣ في النكاح أيضاً.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق رقم ٢٢٤١ وهو حديث حسن، وانظر جامع الأصول ١١/ ٥٠٦.

(٤) الحكمة في جواز التعدد، أن الرجل بمقتضى قوته، وبدافع شهوته الطبيعية، قد لا يكتفي بامرأة واحدة، وبخاصة في حالة الحيض والنفاس، فقد لا يستطيع أن يكبح =

خفتم في حق اليتامى ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فاختاروا واحدة وذروا الجمع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من السراري مهما كان العدد، لأن الاستمتاع بهن بطريق التسري، لا بطريق النكاح ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اختيار الواحدة، أو التسري ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ العولُ: الميلُ، من قولهن: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار، والمراد هنا الميل المحظور، المقابل للعدل، أي ما ذكر من اختيار الواحدة، أو التسري، أقرب من أن تميلوا ميلاً محظوراً.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي أعطوا النساء التي أمرتم بنكاحهن ﴿صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ جمع صدقة بفتح الصاد وضم الدال، وهي كالصداق بمعنى المهر ﴿نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: فريضة من الله تعالى، لأنها مما فرض الله في الديانة، والتعبير عن الإتيان بالنحلة، مع كونها واجبة، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا، وطيب الخاطر، كأنه قيل: أعطوهنَّ مهورهنَّ عن طيب أنفسكم وقال الكلبي: عطيةً من الله تعالى، والنِّحلةُ: العطيةُ، والخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وهذه عادة كثير من العرب اليوم، وهو حرام كأكل الأزواج شيئاً من مهور النساء، بغير رضاهن ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ يعني النساء المتزوجات ﴿لَكُمْ﴾ يعني للأزواج ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ يعني من المهر ﴿نَفْسًا﴾ أي فإن وهبن لكم شيئاً من الصَّداق، عن طيب نفس، من غير أن تضطروهن إلى البذل بسوء معاملتكم، ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي فخذوا ذلك الشيء، وتصرفوا فيه، تملكاً ﴿هَنِيٓـًٔا

= جماح شهوته، وأن يظل مدة عشرة أيام، أو أربعين يوماً مجتنباً لممارسة الجنس، فلئلا ينحرف بارتكاب فاحشة الزنى، أباح له الإسلام التزوج بامرأة أخرى، ثم إن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أكثر الحالات والبلاد، وذلك داعية إلى انحراف المرأة إذا ما حرمت نعمة الأمومة، وفي ذلك بلايا وكوارث تحل بالمجتمع؛ فلهذه الأسباب وغيرها كان إباحة التعدد علاجاً وافياً لبعض الحالات الاضطرارية، أما في الغرب فالرجل كل يوم يجد من يقع في أحضانها بطريق الرذيلة ليقضي شهوته البهيمية.

﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان من هَنُؤَ الطعامُ ومَرُؤَ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: الذي يلذه الآكل، والمريء ما يُحمد عاقبته.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الخطاب للأولياء، نهوا عن أن يؤتوا المبذرين، من اليتامى الذين لا رُشد لهم أموالهم، مخافة أن يضيعوها، وإنما أضيفت إليهم وهي لليتامى، تنزيلاً لها منزلة أموالهم الخاصة، فكأن أموالهم عين أموالهم، مبالغةً في حملهم على المحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي بها قوام حياتكم، وصف اليتامى بأنهم سفهاء، باعتبار خفةِ أحلامهم، واضطراب آرائهم، لما فيهم من الصغر، وعدم التدرب، وأصل السفه: الخِفَّةُ، يُقال: تسفهت الريح الشجر أي أمالته، وقوله قياماً أي تقومون وتنتعشون بها، يعني قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم وفي الآية إشارة إلى مدح المال، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، وكان السلف يقولون: المالُ سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله تعالى عليه، خير من أن أحتاج إلى الناس، وفي الحقيقة لا يمكن القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، إلا بواسطة المال، وبه يتمكّن من جلب المنافع ودفع المضار، وسمى الله تعالى في القرآن الخير للمال، فقال: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ وأمر بحفظ الأموال فقال:

﴿ولا تبذِّرْ تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾[1]. ثم قال: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ أي اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وترتبحوا، وتحصلوا من نفعها ما تحتاجون إليه، حتى تكون نفقاتهم وكسوتهم من الأرباح، لا من صلب المال، ولذلك قال: «فيها» ولم يقل: «منها» ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ أي كلاماً تطيب به نفوسهم، كأن يقول الولي لليتيم مالُكَ عندي، وأنا أمين عليه، فإذا بلغتَ ورشدت، أعطيتك مالك، وقال ابن عباس هو مثل أن يقول إذا ربحتَ فعلتُ بك ما أنت أهله.

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، أي واختبروا مَنْ عندكم من اليتامى، بتتبع أحوالهم، في الاهتداء إلى ضبط الأموال، وحسن التصرف فيها، وجربوهم بما يليق بحالهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾ أي حتى إذا بلغوا سنَّ البلوغ، لأنه يصلح عنده النكاح، والبلوغ يكون بخمسة أشياء، ثلاثة منها يشترك فيها الذكور والإناث، وهي: الاحتلام، والسنُّ، ونباتُ شعر العانة، واثنان يختصان بالأنثى، وهما: الحيضُ، والحمل، ولم يختلف العلماء فيها إلاَّ في السن، فقال الشافعي: خمسة عشر سنة، وهو قول أبي يوسف ومحمد ورواية عن أبي حنيفة وعليه الفتوى عند الحنفية، وهذا قول أكثر أهل العلم، وعند مالك سبعة عشر سنة ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم ﴾ أي شاهدتم، وتبينتم، وعرفتم، وقال مجاهد: أحسستم ﴿ مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أي اهتداءً إلى وجوه التصرف، من غير عجز وتبذير وصلاحاً في المعاملات ﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، وظاهر الآية الكريمة أنه لا يدفع أموالهم إليهم ولو بلغوا ما لم يؤنس منهم الرشد ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين مبادرين كبرهم، بأن تسرعوا في إنفاقها وتقولوا: ننفق كما نشتهي، قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا، والإسرافُ: التباعد

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

عن الاعتدال في أمور المال[1]، أو في أمور الدنيا، والمبادرةُ: المسارعة وتصح المفاعلة فيها بأن يبادر الولي أكل مال اليتيم، واليتيمُ يبادر نزعه منه، وأصلها من البدار وهو الامتلاء ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي ومن كان من الأولياء والأوصياء غنياً فليكفَّ نفسه عن أكلها، وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى، إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته الضرورية، وأجرة سعيه وخدمته، وفيه ما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها، واختلف العلماء في حكم هذه الآية: فروي عن عمر، وابن عباس، أنه يأخذ على وجه القرض، فإن أيسر قضاه، وقال قوم: لا ضمان عليه، بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله، لما روي عن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم، فقال ﷺ: كل من مال يتيمك، غير مسرف ولا متأثّلٍ مالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله[2]. رُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى، بمنزلة مال اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن احتجتُ أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ بعدما راعيتم الشرائط المذكورة ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها، فإنه أنفى للتهمة، وأبعد من الخصومة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً، فلا تخالفوا ما أُمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حُدَّ لكم، والحسيبُ بمعنى المحاسب، أو الكافي، قال ابن جبير: لا شاهد أفضل من الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سرف المال إنفاقه في غير منفعة وإن كان قليلاً، قال مجاهد: «لو أنفقتَ درهماً في معصية الله كنت مسرفاً، ولو كان لرجل مثل جبل أبي قبيس ذهباً فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً» وأخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب أنه قال: إياكم والبطنة من الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السَّرف، وإن الرجل لن يهلك حتى يُؤثر شهوته على دينه. وقال طبيب العرب ابن كلدة: المعدةُ بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدنٍ ما اعتاد.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧٢ والنسائي ٦/ ٢٥٦.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ شروع في بيان أحكام المواريث، والمراد بالأقربين: المتوارثون منهم ﴿ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ إيراد حكمهنَّ على الاستقلال، للاعتناء بأمرهن، والإيذان بأصالتهن في استحقـاق الإرث، ولإبطال حكم الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: إنما يرث من يحارب، ويذبُّ عن الحَوْزة والمراد من الرجال، الذكورُ كباراً أو صغاراً، ومن النساء البناتُ مطلقاً ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل مما ترك، وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الـورثة، كآلات الحرب للرجال، فالآية تفيد أن لكل فريق حقاً في التركة ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي مقطوعاً بأمر الله عزّ وجل وحكمه.

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ أي قسمة التركة، ﴿ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرث، لكونه محجوباً، أو من ذوي الأرحام والقرينة على ذلك ذكر الورثة قبل ذلك ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾ من الأجانب ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ أي أعطوهم شيئاً من المال المقسوم، وهو أمر ندبٍ كُلِّف به البالغون من الورثة، تطييباً لقلـوبهـم، وتصـدقـاً عليهـم وأمـا إذا كـان الـورثـة صغـاراً فليـس إلاّ قـول المعروف، بأن يقول الولي: إني لا أملك هذا المال، وهو لهؤلاء الضعفاء

﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعو لهم، ويعتذر من ذلك، ولا يمنَّ عليهم.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه، في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف، بعد وفاتهم، والمقصود من الأمر، أن لا يضيعوا اليتامى، حتى لا تضيع أولادهم، وإن راعوا الأمر، حفظ الله أولادهم ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ذلك ﴿وَلْيَقُولُوا۟﴾ لليتامى ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وإنما أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية، مراعاة للمبدأ والمنتهى، ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم، بالشفقة وحسن الأدب، ومحاسن الأفعال، والقولُ السديد: هو الموافق للشرع والعقل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ وإنما علق الوعيد على الأكل ظلماً، لأنه قد يؤكل على وجه الاستحقاق، كالأجرة، والقرض، فلا يكون ظلماً ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي ملأ بطونهم ما يجرُّ إلى النار ويؤدي إليها، وفي حديث الإسراء قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافرُ كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، فيقذف في أجوافهم حتى تخرج من أسافلهم، ولهم خوار وصراخ، فقلت يا جبريل: من هؤلاء قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»[1] ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً هائلة، يقال: صلى النار قاس حرها وصليته شويته وأصليته وصلّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار ألهبتها، روي أنه لما نزلت هذه الآية، ثقل ذلك على الناس، واحترزوا عن مخالطة اليتامى وأموالهم، فشقَّ ذلك على اليتامى، فنزل قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ الآية.

---

(١) هذا طرف من حديث الإسراء الطويل أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١) ﴾.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾ شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب﴾ الآية، أي يأمركم ويعهد إليكم وعَدَل عن الأمر إلى الإيصاء، لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام، وطلب الحصول بسرعة ﴿ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ أي ميراث أولاد كل واحد منكم، ﴿ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ أي للذكر منهم حظ مثل حظ الأنثيين، والبداية ببيان حكم الذكر، لإظهار مزيته، وإيثار اسمي الذكر والأنثى، للتنصيص على استواء الكبار والصغار في الاستحقاق، من غير دخل للبلوغ والكبر، كما هو زعم الجاهلية، حيث كانوا لا يورثون الأطفال والنساء، والمراد حال الاجتماع، وأما في حال الانفراد، فالابن يأخذ المال كله ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ ﴾ أي إن كان الأولاد نساء خُلَّصاً ليس معهن ذكر، ﴿ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ أي نساءً زائدات على اثنتين ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ المتوفى ﴿ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي امرأة واحدة، ليس معها أخ ولا أخت ﴿ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ ﴾ مما ترك ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ ﴾ أي لأبوي الميت ﴿ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿ إِن كَانَ لَهُۥ ﴾ أي للميت ﴿ وَلَدٞۚ ﴾ أو ولد الابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، غير أن الأب في صورة الأنوثة، بعدما أخذ فرضه المذكور، يأخذ ما بقي بالعصوبة ﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ ﴾ ولا ولد ابن ﴿ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ فحسب ﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ ﴾ مما ترك، والباقي للأب، هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين، أما إذا كان معهما ذلك، فللأم ثلث ما بقي

بعد فرض أحدهما، لا ثلث الكل فإنه يفضي إلى تفضيل الأم على الأب، مع كونه أقوى منها في الإرث، وذلك خلاف وضع الشرع، فقد أخرج البيهقي عن عكرمة قال: أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين، فقال زيد: للزوج النصف وللأم ثلث ما بقي، وللأب بقية المال، فأرسل إليه ابن عباس أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال: لا، ولكنْ أكره أن أفضّل أماً على أب ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي عدد ممن له إخوة، سواء كانت من جهة الأبوين، أو من جهة أحدهما، وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، أو مختلطين، وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي سدس التركة لا الثلث ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه، فلا تُقسم التركة إلا بعد إخراج الوصية، وسداد الديون عن الميت. ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ الجملة مؤكدة لأمر القسمة، والآباء والأبناء عبارة عن الورثة، الأصول والفروع، والخطاب للمورّثين، وتوجيه ذلك أنه تعالى بيَّن القسمة، وكانت الأنصباء مختلفة، والعقول لا تهتدي إلى كمية ذلك، فربما يخطر للإنسان أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع وأصلح، كما تعارفه أهل الجاهلية، حيث كانوا يورّثون الرجال الأقوياء، ولا يورثون الصبيان والنسوان، فأنكر الله تعالى عليهم، ما عسى أن يخطر ببالهم من هذا القبيل، وأشار إلى قصور أذهانهم، فكأنه قال: إن عقولكم لا تحيط بمصالحكم، فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم، في عاجلكم وآجلكم، فاتركوا تقديركم بعقولكم، وكونوا مطيعين لأمر الله تعالى، فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فرض ذلك فريضةً من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي بالمصالح والرتب ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قضى وقدَّر، والخَبَرُ عن الله تعالى بمثل هذه الألفاظ، كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان، أي لم يزل موصوفاً بهذه الصفات.

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ أي زوجاتكم ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، منكم كان أو من غيركم، من بطنها أو من صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل، لأن لفظ الولد ينتظم الجميع، والباقي لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ على ما فصل من التفصيل ﴿ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ من المال، والباقي للورثة ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ متعلق بكلتا الصورتين والكلام فيه مر آنفاً ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أي للزوجات، تعدَّدن أو لا ﴿ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ﴾ على التفصيل المتقدم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ فُرض للرجل ضعف ما فُرض للمرأة، كما في النسب لاحتياجه إلى المال أكثر منها ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ ﴾ المراد بالرجل: الميتُ ﴿ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ هي في الأصل مصدر بمعنى الكَلال وهو الإعياء، ثم استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد، لضعفها بالنسبة إلى قرابتهما، وتُطلق على من لم يُخلِّف والداً ولا ولداً، وعلى ما ليس بوالد ولا ولد، ﴿ أَوِ امْرَأَةٌ ﴾ أي امرأة تورث كذلك ﴿ وَلَهُ ﴾ أي للرجل أو لكل منهما ﴿ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ من

الأم فقط، وعلى ذلك عامة المفسرين، وأخرج غير واحد عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ «وله أخ أو أخت من أمه» وإن كانت هذه القراءة شاذة، إلا أن كثيراً من العلماء استند إليها، بناءً على أن الشاذة من القراءة إذا صح سندها كان كخبر الواحد في وجوب العمل به ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي الأخت والأخ ﴿السُّدُسُ﴾ مما ترك، من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأن الإدلاء على الميت بمحض الأنوثة ﴿فَإِن كَانُوٓا﴾ أي الأخوة والأخوات من الأم، والتذكير للتغليب ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ﴾ يقتسمونه بالسوية، والباقي لباقي الورثة، وهذا مما لا خلاف فيه لأحد من الأمة ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي من غير ضرار لورثته، فلا يقر بحق ليس عليه، ولا يوصي بأكثر من الثلث، فالدين هنا مقيد كالوصية، كأنه قال: أو دين يوصي به وعن ابن عباس أن الإضرار بالوصية من الكبائر، لحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار»[1] الحديث ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي يوصيكم الله بذلك وصية، والتنوين للتفخيم ونظير ذلك (فريضة من الله) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما دبره لخلقه من الفرائض ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا يَغْتَرَّنَّ المضار بالإمهال.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الوصايا رقم ٢١١٨ وأبو داود في الوصايا كذلك رقم ٢٨٦٧ ولفظ الترمذي: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة «من بعد وصية يوصى بها أو دينٍ غيرَ مضار».

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود التي لا يجوز مجاوزتها وأطلقت عليها الحدود لشبهها بها من حيث إن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، التي من جملتها ما فصل ههنا ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ﴾ دخول الجنة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمر به الأحكام، ولو في بعض الأوامر والنواهي، وقال ابن جريج: من لا يؤمن بما فصل سبحانه من المواريث، وحكي مثله عن ابن جبير ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ شرائعه المحدودة في جميع الأحكام استحلالاً ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ هائلة عظيمة لا يُقادر قدرها ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ ولعل إيثار الإفراد ههنا ﴿خالداً فيها﴾ واختيار الجمع هناك ﴿خالدين فيها﴾ للإيذان بأن الخلود في دار الثواب، بصفة الاجتماع، أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب، بصفة الإفراد أشد في استجلاب الوحشة ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ﴾ عظيم ﴿مُّهِينٌ﴾ أي مذلٌّ له أي وله عذاب جسماني، وعذاب آخر لا يعرف كنهه، وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه. وفي ختم آيات المواريث بهذه الآية، إشارة إلى عظم أمر الميراث، ولزوم الاحتياط، وعدم الظلم فيه، لحديث «من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله، قطع الله ميراثه من الجنة»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ «من فرَّ من ميراث وارثه، قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة» سنن ابن ماجه، أبواب الوصايا رقم ٢٧٣٥ باب الحيف في الوصية.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام، المتعلقة بالرجال والنساء، واللاتي جمع التي على غير قياس، وقيل هي صيغة موضوعة للجمع، والفاحشةُ: الفعلةُ القبيحة، يراد بها الزنا، لزيادة قبحه، أي والنساء اللاتي يُفعلن الزنا، أي يزنين ﴿ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ ﴾ أي فاطلبوا أن يشهد عليهن، بإتيانهنَّ الفاحشة، أربعة منكم أي من رجال المؤمنين وأحرارهم، ويشترط في هذه الشهادة العدالة، والذكورة، واشترط الأربعة في الزنا تغليظاً على المدعي، وستراً على العباد ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ عليهن بالإتيان ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ ﴾ فاحبسوهن عقوبة لهن ﴿ فِي ٱلۡبُيُوتِ ﴾ واجعلوها سجناً عليهن ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ ﴾إسناد التوفي إلى الموت، باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك، والكلام على حذف المضاف، والمعنى: حتى يقبض أرواحَهُنَّ الموت ﴿ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ أي مخرجاً من الحبس، بما يشرعه من الحد لهن وكان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام، فنسخ بالحد.

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ ﴾ هما الزاني والزانية، وقال ابن زيد: أراد بهما البكران، ويؤيد ذلك كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد، وبذلك يندفع التكرار ﴿ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ بالتوبيخ والتقريع ﴿ فَإِن تَابَا ﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب الإيذاء ﴿ وَأَصۡلَحَا ﴾ أعمالهما ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ ﴾ أي اصفحوا عنهما، وكفوا عن أذاهما ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا ﴾ مبالغاً في قبول التوبة ﴿ رَّحِيمًا ﴾ واسع الرحمة، والخطاب هنا للحكام.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ ﴾ أي إن قبول التوبة ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وليس به الوجوب، إذ لا يجب على الله تعالى شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني أنه يكون لا مَحَالة، كالواجب الذي لا يُترك وقيل «على» بمعنى «عند» وعليه الطبري أي إنما التوبة عند الله ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ ﴾ المراد بالسوء المعصية، صغيرة أو كبيرة ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ أي يعملون السوء ملتبسين بها سفهاً، وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً، بل عدم التفكر في العاقبة، كما يفعله الجاهل ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ فإنه صريح في أن وقت الاحتضار، هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(١)]. وفي الإتيان بثم إيذان بسعة عفوه تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا وعد بالوفاء بما وعد أولاً فلا تكرار ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم والحكمة، فيبني أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة.

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ﴾ على الله ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ جمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها، لا لجميع أنواعها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ بأن شاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا ﴿ قَالَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٣١ وأحمد في المسند رقم ٦١٦٠ والحاكم في المستدرك ٤/٢٥٧ من حديث ابن عمر، وهو حديث حسن.

﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي هذا الوقت الحاضر، ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي وليس قبول التوبة لهؤلاء العصاة، ولا للذين يموتون كفاراً، وذكر هؤلاء، مع أنه لا توبة لهم رأساً، مبالغة في بيان عدم قبول توبة، المسوّفين ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الفريقين ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً، والإعتادُ: التهيئة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ هذا نهي عن أعمال الجاهلية. روي عن ابن عباس أنه قال: كان إذا مات قريب رجل، يلقي ثوبه على امرأته، أو على خبائها فيمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حَبَسها حتى تموت فيرثها، وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها، فنهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الخطاب للأزواج، والعضلُ: الحبس والتضييقُ، أي ولا أن تضيقوا عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من الصَّداق، بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ المراد بالفاحشة هنا: النشوزُ وسوء الخلق، قاله الضحاك وابن عباس.

وقال الحسن: إن المراد بها الزنا، وفي الآية إباحة الخلع عند النشوز، لقيام العذر، بوجود السبب من جهتهنَّ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

خطاب للذين يسيئون العشرة معهن، والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة، والمراد ههنا: النَّصفة في المبيت، و النفقة، والإحسان في المقال، والفعل، ونحو ذلك ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي كرهتم صحبتهنَّ، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك، فلا تفارقوهن، بمجرد كراهة النفس، واصبروا على معاشرتهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ كالولد الصالح، أو الإلفة والمحبة، وبذلك قال ابن عباس ومجاهد، والمعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهنَّ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً، وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة، وتعميم الإرشاد ولذا استدل بالآية، على أن الطلاق مكروه ومبغوض عند الله.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ أيها الأزواج ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ إقامة امرأة ترغبون فيها ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي امرأة ترغبون عنها، بأن تطلقوها ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ أي أعطى أحدكم ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات التي تريدون أن تطلقوها وتجعلوا مكانها غيرها ﴿قِنطَارًا﴾ أي مالاً كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾ أي من القنطار ﴿شَيْـًٔا﴾ يسيراً فضلاً عن الكثير ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ مسوق للتفسير عن المنهي عنه، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويُدهشه، وقد يستعمل في الفعل الباطل، ولذلك فسر ههنا بالظلم، وكان في الجاهلية إذا أراد أحدهم أن يتزوج امرأة، بَهَت التي تحته بفاحشة، حتى يُلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ إنكار بعد إنكار، وقد بولغ فيه، حيث وُجّه الإنكار إلى كيفية الأخذ، إيذاناً بأنه مما لا سبيل له إلى التحقق ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي على أيِّ حالٍ تأخذونه، والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن، أحوالٌ منافية له، من الخلوة، والاستمتاع بهن بالمغازلة والمعاشرة الزوجية، قال ابن عباس: «الإفضاءُ في هذه الآية: الجماعُ، ولكنَّ الله كريم يكْني» وهذه كناية لطيفة ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا

غَلِيظًا ﴾ أي عهداً وثيقاً وهو ما أوثق الله عليهم بقوله: ﴿فإمساك بمعروف﴾ وما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله»(١).

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ شروع في بيان من يحرم نكاحها من النساء مبالغة في الزجر عنه، حيث كان ذلك ديدناً لهم، فقد كان الرجل في الجاهلية، إذا توفي عن امرأته، كان ابنه أحقّ بها من نفسها، إن شاء أن ينكحها إن لم تكن أمه، أو يُنكحها من شاء، فلما مات أبو قيس،

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه مسلم في خطبة حجة الوداع، رقم ١٢١٨.

قام ابنه حصن، فورث امرأته، ولم ينفق عليها، ولم يورثها من المال شيئاً فأتت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ارجعي لعلَّ الله ينزل فيك شيئاً، فنزلت ﴿ولا تنكحوا﴾ الآية، واسم الآباء ينتظم الأجداد، فتثبت حرمة ما نكحوها نصاً وإجماعاً، والمعنى: ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم بعقد صحيح، ودخل بها ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لمن نكح كأنه قيل: أيَّ امرأةٍ كانت ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فإنه موجب للعقاب، إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه، حيث إن الإسلام يهدم ما قبله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ بيان لكون المنهي عنه في غاية القبح، وأنه لم يزل في حكم الله موصوفاً بذلك، وقد كان هذا النكاح يسمى في الجاهلية «نكاح المقت» أي مبغوض ومستحقر ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقاً ذلك النكاح المشؤوم ومما يدل على فظاعة أمره، ما أخرجه أحمد والحاكم، والبيهقي عن البراء، قال: لقيتُ خالي ومعه الراية، قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوَّج امرأة أبيه من بعده، فأمرني أن أضرب عنقه، وآخذ ماله[1].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ليس المراد به تحريم ذواتهن، بل تحريم نكاحهن، والأمهات تعم الجدات وإن علون، والبنات تتناول بناتهن، وإن سفلن، والأخواتُ يتضمن الأخوات الشقيقات أو من الأب، أو الأم، والعمةُ كل أنثى ولدها من ولد والدك، والخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك، قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبعدى، وكل امرأة حرَّم الله نكاحها بالنسب فحرمتها مؤبدة ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ والرضاعة بفتح الراء والرِّضاعة بالكسر، معناها مصُّ الثدي، وشرعاً مصُّ الرضيع من ثدي الآدمية في المدة، وهي سنتان، وقد نزَّل الله سبحانه الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أمّاً للرضيع ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾

---

(١) أخرجه أحمد، والحاكم، والبيهقي من حديث البراء بن عازب، المسند ٤/ ٢٩٢.

والمراضعة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه، وقد قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1] وظاهر الآية أنه لا فرق بين قليل الرضاع، وكثيره في التحريم ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة، والمراد بالنساء الزوجات المنكوحات على الإطلاق، سواء كنَّ مدخولاً بهنَّ أو لا، وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة وهنَّ محرماتٍ بمجرد العقد، لكنْ يُشترط أن يكون النكاح صحيحاً، ويدخل في لفظ الأمهات الجدات من قبل الأب والأم، وإن علون ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ الربائب جمع ربيبة وهي ولد المرأة من زوج آخر، لأنه يربيه غالباً كما يربي ولده، وإن لم يكن ذلك أمراً مطرداً وهو المعنى في الحجور، والحجور جمع حجر بالفتح والكسر، وهو في اللغة حضنُ الإنسان، وقالوا فلان في حجر فلان أي كنفه وَمَنَعَتِه، وهو المراد في الآية، ووصف الربائب بكونهن في الحجور، خارج مخرج الغالب، وليس بشرط، وفائدته تقوية علة الحرمة، كما أنها النكتة في إيرادهن باسم الربائب، دون بنات النساء ويدخل في الحرمة بنات الربيبة، والربيب، وإن سفلن ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ اللاتي صفة للنساء وهي للتقييد، إذ ربيبة الزوجة غير المدخول بها ليست بحرام، ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر، وهي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أصلاً أي بأمهات الربائب ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي فلا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح الربائب، إذا فارقتموهن أو متن، وفيه إشارة إلى أن المعتبر في الحرمة، هو الدخول لا غيره ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي زوجاتهم جمع حليلة، سميت الزوجة بذلك لحلها للزوج، وكذا يقال للزوج: حليلٌ، إذْ كلٌّ منهما حلالٌ لصاحبه، ثم يراد بالأبناء الفروع، فتحرم حليلة الابن السافل على الجد الأعلى، وكذا ابن البنت وإن سفل ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ لإخراج

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٩/ ١٤٠ ومسلم في الرضاع رقم ١٤٤٧.

الأدعياء من التبنّي ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ المراد به جمعهما في النكاح، لا في ملك اليمين، روي أن رجلاً سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتهما آية وهي قوله تعالى: ﴿إلاَّ ما ملكت أيمانكم﴾ وحرَّمتهما آية، فأما أنا فلا أحب أن أضيع ذلك»[1] فرجح علي التحريم، وعثمان التحليل، وقول علي أظهر، ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، لقوله ﷺ: «لا تُنكح العمة على ابنة الأخ، ولا ابنة الأخت على الخالة»[2] لأن ذلك يفضي إلى قطيعة الرحم، ولا فرق بين كونهما أختين من النسب، أو الرضاعة ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي ساتراً لذنوب عباده، يغفر لهم ما حصل قبل التحريم، رحيماً بعباده ولذلك لم يعاقبهم.

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هنَّ ذوات الأزواج، أحصنهنَّ التزوج عن الوقوع في الحرام، والإحصان ورد في القرآن بأربعة معان: **الأول**: التزوجُ كما في هذه الآية، **الثاني**: العِفَّة كما في قوله: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ **الثالث**: الحرية، كما في قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات﴾ **الرابع**: الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿فإذا أحصِنَّ﴾ أي أسلمن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ أي حرمت عليكم المحصنات، إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فتحل بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً، وفرضها فرضاً، وهو تحريم ما حرم الله تعالى من النساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي أحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾ أي بيَّن لكم تحريم المحرمات، أي إحلال ما سواهن، إرادة أن تبتغوا النساء ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ بأن

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح رقم ١٤٠٨ وفي رواية أخرى «نهى رسول الله ﷺ أن يجمع الرجلُ بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها».

تصرفوها إلى مهورهن ﴿ مُّحْصِنِينَ ﴾ أي أعِفَّاءَ متزوجين بطريق شرعي ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ السفاح: الزنا من السفح وهو صبُّ الماء، وسمي الزنا به لأنه لا غرض له إلا الصب فقط لتفريغ الشهوة، وفي الآية دليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسمَّ، وأنَّ غير المال لا يصلح مهراً، وقال بعض الشافعية: يجوز النكاح على ما ليس بمال، ويؤيده «اذهبْ فقد ملكتها بما معكَ من القرآن» وروى البخاري عنه قال جاءت امرأةٌ فقالت يا رسول الله: إني وهبتُ نفسي لك، فقام رجل فقال زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة؟ فقال: «هل عندك ما تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلاَّ إزاري، فقال ﷺ: هل معك شيء من القرآن؟ قال: نعم، سورة كذا، وكذا، قال ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن»[1] قيل: الحديثُ يدل على جواز تعليم القرآن صداقاً، لأن الباء تقتضي المقابلة في العقود، وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: لا يكون التعليمُ مهراً، والتعليم ليس له ذكرٌ في الخبر، فيجوز أن يكون مراده ﷺ زوجتك تعظيماً للقرآن، ولأجل ما معك منه ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ أي استنفعتم بالنكاح من النساء، والسين للتأكيد لا للطلب، **قال الحسن ومجاهد:** معناه ما انتفعتم وتلذَّذتم بالجماع بنكاح صحيح ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن إنما سمي أجراً لأنه بدل المنافع ﴿ فَرِيضَةً ﴾ بمعنى مفروضة أي فريضةً فرضها الله عليكم ﴿ وَلَا جُنَاحَ ﴾ أي لا إثم ﴿ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ ﴾ من الحط عن المهر، أو الإبراء منه ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ أي الشيء المقدر، وقيل: الآية في المتعة، وهي النكاح إلى أجل معلوم، من يوم أو أكثر وإلى ذلك ذهبت، الشيعة الإمامية، ولا نزاع عندنا في أنها أُحِلَّت ثم حُرِّمت، وكان هذا في ابتداء الإسلام، وأنه ﷺ لم يكن أباحها وهم في بيوتهم، وإنما أباحها لهم في أوقات الضرورات، حتى حرَّمها عليهم في آخر الأمر، تحريم تأبيد، لما رُوي عن علي كرَّم الله وجهه قال: «نهى رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/ ١٥١.

عن متعة النساء..»[1] الحديث. وعن سَبرة الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنَّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة..»[2] الحديث. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، من الصحابة ومن بعدهم، واحتج الجمهور على حرمة المتعة بوجوه: **أولاً**: إن الوطء لا يحل إلا في الزوجة أو المملوكة لقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أيْمَانهُم﴾[3] والمرأة المتمتع بها ليست مملوكة، ولا زوجة، لانتفاء لوازم الزوجية كالميراث، والعدّة، والطلاق، والنفقة فيها. **ثانياً**: إنه تعالى قال: ﴿مُحصِنِينَ﴾ والإحصان لا يكون إلا في النكاح الصحيح، **ثالثاً**: وقال تعالى: ﴿غيرَ مسافحين﴾ والمتعةُ لا يراد بها إلا سفحُ الماء، فكان سفاحاً، ولذا تجد المتمتِّع بها، في كل شهر تحت سافح، وفي كل سنة بحِجرِ ملاعب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع لهم، ومن ذلك النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٧/٣٦٩ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٧ ولفظه كما في الصحيحين أن علياً قال لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٠٦ وأبو داود رقم ٢٠٧٢ في كتاب النكاح.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥ و٦.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ المراد بالطَّوْل: الغِنَى والسَّعة، وبذلك فسره ابن عباس ومجاهد وأصله الفضلُ والزيادةُ ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ حرائر المسلمات، بدليل مقابلتهن بالمملوكات، فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ أي فلينكح ما ملكته أيمانكم ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي من الإماء المسلمات، والفتى: العبدُ، والأمةُ فتاة والمعنى: ومن لم يستطع سعةً في المال، يبلغ بها نِكاح الحرة، فلينكح أَمَةً، وظاهر النظم الكريم، يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع، كما ذهب إليه الشافعي للشرط المذكور في الآية الكريمة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ﴾ جملة معترضة جيء بها لتأنيسهم بنكاح الإماء، ببيان أن مناط التفاضل، ومدار التفاخر، هو الإيمان دون الأحساب والأنساب، على ما نطق به قوله تعالى: ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والمعنى: إنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم في الإيمان، ورب أَمَة يفوق إيمانها إيمان الحرائر، فليكنْ هو مطمح نظركم ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي لا تستنكفوا من نكاح الإماء فكلكم بنو آدم، ودينكم دين الإسلام وهو تحذير عن التعيير بالأنساب ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ ﴾ إعادة الأمر لزيادة الترغيب ﴿ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أي واذ وقفتم على جلية الأمر فانكحوهن بإذن مواليهن، وهذا الإذن شرط لجواز نكاح الأمَة فلا يجوز بلا إذن، والمراد بعدم الجواز عدم النفاذ، مثل ذلك نكاح العبد، فقد قال النبي ﷺ «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر»(1) والعهرُ الزنا ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي أدوا إليهن من غير مماطلة وإضرار ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ أي حال كونهن عفائف عن الزنا ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ أي غير مجاهرات بالزنا ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ الأخدانُ: الأصدقاء على الفاحشة أي مسرَّاتٍ به، وكان الزنا في الجاهلية منقسماً إلى سرٍّ، وعلانيةٍ، وكانوا يحرّمون ما ظهر منه،

---

(1) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٧٨ والترمذي رقم ١١١٢ في كتاب النكاح.

ويستحلُّون ما خفي، ويقولون: لا بأس به، ولتحريم القسمين نزل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بطن﴾ ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ بالأزواج، وذهب كثير من العلماء، إلى أن المراد من الإحصان: الإسلامُ، لا التزوج ﴿ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ ﴾ أي فعلن فاحشة الزنا، وثبتَ ذلك ﴿ فَعَلَيۡهِنَّ ﴾ فثابت عليهن شرعاً ﴿ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ أي الحرائر الأبكار ﴿ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ أي الحدّ الذي هو جلدُ مائة، فنصفُه خمسون جلدة، ولا رجم عليهن، لأنه لا يُتنصف، ويُجلد العبد للزنا خمسينَ جلدةً، ولا فرق بين المتزوج وغير المتزوج، وعُلم هذا بدلالة النصّ، وقال بعضهم: يُجلد كالحر لعموم قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ الآية والآية المنصِّفة في الإماء، والصحيحُ الأول ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي نكاح الإماء ﴿ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ ﴾ أي لمن خاف الزنا بسبب غلبة الشهوة عليه، وهو مأثور عن ابن عباس، وهو شرط آخر، لجواز تزوج الإماء عند الشافعي، ومذهب الإمام الأعظم ليس بشرط، وإنما هو إرشاد للأصلح ﴿ وَأَن تَصۡبِرُواْ ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء ﴿ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ ﴾ من نكاحهن، وإن رُخّص لكم فيه، لما فيه من تعريض الولد للرقّ، ولأن حقَّ المولى فيه أقوى، فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر، والمولى يقدر على استخدامها كيفما يريد، في الحضر والسفر، وعلى بيعها للحاضر والباد، وفي ذلك مشقة عظيمة على الأزواج، ولا يكاد يتحمل ذلك غيور ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ ﴾ فيغفر لمن لم يصبر ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ مبالغ في الرحمة، لذلك رخّص لكم في نكاحهن.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ أي يريد الله أن يبين لكم ما خفي عنكم من

مصالحكم، ومحاسن أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ أي يرشدكم ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والصالحين أي مناهج من تقدَّمكم منهم، لتقتفوا أثرهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويوفقكم للتوبة، ويتجاوز عنكم ما أصبتم، قبل أن يبين لكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بالأشياء، فيعلم ما شرع لكم من الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ مراعٍ في جميع أفعاله الحكمة والمصلحة.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يوفقكم لما فيه صلاح دينكم ودنياكم ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني الفسقة، لأنهم يدورون مع شهواتهم البهيمية، من غير تحاشٍ عنها، فكأنهم بانهماكهم فيها امتثلوا أمرها، واتَّبعوها، قال ابن عباس: إنهم الزناة، وقيل: إنهم اليهود، والمجوس، والعموم أولى لكل من سار في طريق الشهوات والمحرَّمات ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾ عن الحق، بموافقتهم على اتباع الشهوات، واستحلال المحرمات ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على الندرة، من غير استحلال.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي في أمر التكاليف، فلذلك شرع لكم الشرعة الحنفية، السمحة السهلة، ما لم يخفف عن غيرها من الأمم ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي في أمر النساء، عاجزاً عن مخالفة هواه، حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ شروع في بيان بعض الحرمات، المتعلقة بالأموال والأنفس، والمراد من الأكل التصرفات، وعبَّر به لأنه معظم المنافع، والمراد بالباطل ما يخالف الشرع، كالربا، والقمار، والبخس، والظلم ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أي إلا أن تكون التجارة، تجارة صادرة عن تراضٍ كائن منكم، والمراد من التراضي، مراضاة العاقِدَيْنِ فيما تعاقدا عليه، وقت الإيجاب والقبول، والآية تدل على جواز البيع بالتعاطي، والبيع الموقوف، إذا وجدت الإجازة، لوجود الرضا، وفي الحديث الشريف «أطيبُ الكسبِ كسبُ التجار، الذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا وَعَدوا لم يُخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يَذِمُّوا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا»[١] والمراد بالتراضي انتقال المال بطريق شرعي، سواء كان تجارةً، أو إرثاً، أو هبةً، أو غير ذلك، وهو من استعمال الخاص وإرادة العام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالانتحار[٢]، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة، ويؤيده ما رُوي عن عمرو بن العاص في قصة التيمم[٣]، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، وقيل: المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدةٍ، وعبر بذلك للمبالغة في الزجر، جَمَع في التوصية بين حفظ النفس، والمال، الذي هو شقيقها، من

---

(١) أخرجه الأصبهاني عن معاذ بن جبل مرفوعاً، والبيهقي في الشعب، وانظر نصَّ الحديث في المتجر الرابح للدمياطي ص ٦٣٥.

(٢) قال ﷺ: «من تردَّىٰ من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم، يتردَّىٰ فيها، خالداً مخلَّداً فيها أبداً. .» الحديث رواه مسلم.

(٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «لما بعثني النبي ﷺ عام ذات السلاسل، احتلمتُ في ليلة شديدة البرد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيمَّمتُ ثم صليتُ بأصحابي صلاة الصبح، فلمَّا قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فضحك ﷺ ولم يقل شيئاً». أخرجه أحمد وأبو داود.

حيث إنه سبب قوامها، رأفة بهم، ورحمة، كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر، ونَهَى ما نهى، لفرط رحمته تعالى بكم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي يفعل ما نهى الله عنه بقتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ يدل على فظاعة قتل النفس، وبعد منزلته في الفساد ﴿عُدْوَٰنًا﴾ أي معتدياً ظالماً، إفراطاً في التجاوز عن الحد ﴿وَظُلْمًا﴾ وإتياناً بما لا يستحقه لا خطأً ولا قصاصا، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله إياها ونحرقه بها، والتنوين للتعظيم أي ناراً شديدة هائلة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه، لأن الله تعالى لا يعجزه شيء.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ﴾ أي كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، والكبيرةُ: ما كبُر وعَظُم من الذنوب، وهي كل ذنب رتب الشارع عليه الحدَّ، أو صرَّح بالوعيد فيه، **وقال الواحدي**: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدٌّ يعرفها العباد به، أخفى الله تعالى ذلك عن العباد، ليجتهدوا في اجتناب المنهي، رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى، وليلة القدر وساعة الإجابة، وفي الحديث الشريف «ألاَ أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور . .» الحديث[1] وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هُنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات»[2] أي البريئات من الزنا وروى ابن جبير عن ابن عباس أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعمائة أقرب منها

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ١٨٢ في الشهادات، ومسلم في الإيمان رقم ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٢٩٤ في الوصايا ومسلم رقم ٨٩ في الإيمان، والنسائي ٦/ ٢٥٧.

إلى السبع ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ﴾ أي نغفر لكم ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا﴾ هو الجنة ﴿كَرِيمٗا﴾ أي حسناً مرضياً مع الكرامة والإعزاز.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي عليكم، لمَّا نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، عقبه بالنهي عما يؤدي إليه من الطمع في أموالهم، على سبيل الحسد، لتطهر أعمالهم الظاهرة والباطنة، والمعنى: لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من المال، والجاه، فإنه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، وعدم الرضى بما قسم الله لهُ وهي قسمة صادرة من حكيم خبير، كما قال الشاعر:

وأظلمُ خَلْقِ الله مَنْ بات حاسداً ... لمن بات في نَعْمائِهِ يتقلَّبُ

وقيل: لمَّا جعل الله في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين، قالت النساء: نحن أحوج لأن يكون لنا سهمان لأنَّا ضعفاء، وهم أقوياء، وأقدر على طلب المعاش منا، فنزلت، وهذا هو الأنسب بتعليل النهي بقوله سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ فإنه صريح في جريان التمني بين فريقي الرجال والنساء، والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معيَّن المقدار، مما أصابه بحسب استعداده، عن أم سلمة قالت: قلتُ يا رسول الله يغزو الرجالُ ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولا تتمنوا ما فضل اللهُ به

بعضكم على بعض..﴾[1] ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس وأسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفد، وهو يدل على أن النهي عنه هو الحسد، وفي الأثر: لا يتمنينَّ أحدكم مال أخيه، ولكنْ ليقل: اللهمَّ ارزقني مثله، وأعطني ما يكون صلاحاً لي في ديني ودنياي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ ولذلك جعل الناسَ على طبقات، ورفع بعضَهم على بعض درجات، حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم، بموجب المشيئة المبنية على الحِكمَ والمصالح وقال ابن عيينة: لم يأمر سبحانه بالمسألة إلا ليعطي ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بينهم وبين المورث من العلاقة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هم موالي الموالاة، أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية، فيقول: دمي دَمُك، ترثني وأرثك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك بقوله سبحانه ﴿وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض﴾ ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الضمير للموالي، أي من التركة عند عدم الورثة، وفي رواية عن ابن عباس أخرجها البخاري والنسائي أنه قال في الآية «كان المهاجرون لمّا قدموا المدينة، يرث المهاجرُ الأنصاريَّ، دون ذوي رحمه، للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلمّا نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لم يزل سبحانه عالماً بجميع الأشياء جليّها، وخفيّها، فيجازي كلاً حسب فعله، وفيه وعد ووعيد.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٤٧.

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي شأنهم القيام عليهن، بالأمر والنهي، قيام الولاة على الرعية، وعلَّل ذلك بأمر وهبيّ، وكسبيّ فقال سبحانه: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء، بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة، ولذلك خُصُّوا بالنبوة، والإمامة، والولاية، ووجوب الجهاد والجمعة، ونحوها ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ ﴾ أي وبسبب إنفاقهم من أموالهم، وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم، واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته، ومنعها من الخروج، وأن عليها طاعته، واستدل بها أيضاً مَنْ جَعَل للزوج الحجرَ لزوجته في نفسها ومالها، فلا تتصرف فيه إلا بإذنه، لأنه سبحانه جعل الرجل قوّاماً، وهو الناظر على الشيء الحافظُ له ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ منهن ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ أي مطيعات لله تعالى، قائمات بحقوق الأزواج ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ أي حافظات لما يجب عليهن حفظه، في حال غيبة الزوج، من الفروج والأموال وقيل: المراد حافظات لأسرار أزواجهن، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرتَ إليها سرَّتْكَ، وإذا أمرتها أطاعتكَ، وإذا غبتَ عنها حفظتكَ في مالكَ ونفسها، ثم قرأ ﷺ ﴿الرجال قوامون﴾[1] الآية»

---

(١) أخرجه البيهقي وابن جرير الطبري، وأخرجه أبو داود رقم ١٦٦٤ في الزكاة بلفظ «ألا =

﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ بحفظ الله إياهن وأمره إياهن بحفظ الغيب، وكتم أسرار أزواجهن ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ عصيانهنَّ، وترفعهنَّ عن مطاوعة الأزواج، من النشز وهو المكان المرتفع، وهو خطاب للأزواج، وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهن، أي تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ فانصحوهنَّ بالترغيب والترهيب، وقولوا لهن: اتقين الله، وارجعن عما أنتنَّ عليه، واعلمن أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ في المراقد ولا تباشروهن، فيكون كنايةً عن الجماع، وقيل: أن يعتزل عنها إلى فراش آخر ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ ضرباً غير مبرّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مترتبة، ينبغي أن يتدرج فيها، قيل: للزوج أن يضرب المرأة على أربع: ١ ـ ترك الزينة والزوج يريدها، ٢ ـ وترك الإجابة إذا دعاها إلى فراشه، ٣ ـ وترك الصلاة والغسل من الجنابة، ٤ ـ والخروج من البيت إلاّ لعذر شرعي. وتحمل أذى النساء، والصبر عليهن، أفضل من ضربهن ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ بترك النشوز، وانقدن لما أوجب الله عليهن من طاعتكم ﴿ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ بالتوبيخ والإيذاء، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وحاصل المعنى: إذا استقام ظاهرهن وأطعنكم فلا تعلوا عليهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فاحذروه، فإنه تعالى أقدر عليكم على من تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم، ويتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند طاعتهن لكم[1].

= أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته» وانظر الحديث في جامع الأصول ٢/ ١٦٣.

(١) انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا، ونرعى شؤونهن، وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها، حيث أمرنا بالوعظ، ثم بالهجران، ثم بالضرب ضرباً رفيقاً من غير إيذاء، ثم ختم الآية بصفة العلوّ والكبر، لينبه تعالى العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها، وإنه تعالى عون الضعفاء، وملاذ المظلومين!!.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكام، وقيل: لأهل الزوجين، أي وإن خشيتم مخالفة وعداوة بين الزوجين فابعثوا أيها الحكام رجلاً وسطاً، يصلح للحكومة والإصلاح من أهله، وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب، فلو نصبا من الأجانب جاز، والخوف ههنا بمعنى العلم أي إن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة، بحيث لا يقدر الزوج على إزالته، فابعثوا لفضّ النزاع حكماً من أهله، وحَكَماً من أهلها، وللحكمين حق التوفيق أو التفريق بين الزوجين، لما رُوي أنّ رجلاً وامرأةً جاءا إلى علي كرم الله وجهه، فأمر أن يبعث رجلاً حكماً من أهله، ورجلاً حكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تَجمْعا تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا تفرقا، قالت المرأة: رضيتُ بكتابِ الله تعالى، بما عليَّ فيه ولي، وقال الرجل: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبتَ واللهِ، حتى تقرَّ بمثل الذي أقرّتْ به[1].

قال ابن العربي في الأحكام: إنهما قاضيان لا وكيلان، فإن الحَكَم، اسم في الشرع له ﴿ إِن يُرِيدَآ ﴾ الحكمان ﴿ إِصْلَٰحًا ﴾ أي بين الزوجين، وتأليفاً، وكانت نيتهما صحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى ﴿ يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة، والألفة، والمودة، أي إن قصدا الإصلاح وزوال الشقاق، أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أنّ من أصلح نيته فيما يتحراه، أصلح الله مبتغاه، وعدم التعرض لذكر الفراق، للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي أن يحدث صدوره عنهما، وأن الذي يليق بشأنهما هو إرادة الإصلاح ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ يعلم كيف يرفع الشقاق، ويوقع الوفاق، وفيه من الوعيد، للحكمين والزوجين، في سلوك ما يخالف طريق الحق والإصلاح.

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم، والبيهقي في السنن.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب، إثْر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج، وقدم الأمر بما يتعلق بحقوق الله، لأنها المدار الأعظم ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإشراك، جليّاً أو خفياً، وهذا النهي إشارة إلى الأمر بالإخلاص، فكأنه قيل: اعبدوا الله مخلصين له العبادة، روي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة فقال يامعاذ: هل تدري ما حقُّ العباد على الله، إذا فعلوا ذلك؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم»(١) ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أي أحسنوا بهما إحسانا ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي أحسنوا إلى ذي القرابة ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ من الأجانب ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الذي قرب جواره وقيل: الذي له مع الجوار قربٌ واتصال بنسب ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي البعيد. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ما زال

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٣٩٨/٨ ومسلم في الإيمان رقم ٤٨ والترمذي رقم ١٨ في الإيمان أيضاً.

جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننتُ أنه سيورثه»[1] أي سيحكم جبريل بميراث أحد الجارين من الآخر، وفي الحديث الشريف: «واللهِ لا يؤمنُ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جارهُ بوائقه»[2] يعني شرَّه وأذاه. والجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق: حقُّ الجوار، وحقُّ القرابة، وحقُّ الإسلام، وجارٌ له حقان: حقُّ الجوار، وحق الإسلام، وجار له حقٌ واحد: حقُّ الجوار، وهو غير المسلم من أهل الكتاب.. ويُبدأ بالأقرب فالأقرب ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو الرفيق في السفر، وقيل: الرفيقُ في أيِّ أمرٍ من الأمور، كتعلم، وصناعة، وسفر، ومن قعد بجنبك في مسجد، أو في مجلس لما فيه من العموم، وروي عن علي كرَّم الله تعالى وجهه ﴿والصاحب بالجنب﴾ المرأةُ، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عند الله تعالى، خيرهم لجاره[3]. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو الضيف، فقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[4]. قيل: إكرامه تلقيه بطلاقة الوجه، وتعجيل قِراه، والقيام بنفسه في خدمته ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ العبيد، والإماء والإحسان إليهم. أن لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يؤذيهم، وأن يعطيهم من الطعام والكسوة، ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً، يأنف عن أقاربه وجيرانه، وأصحابه، ولا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم تكبراً، وإنما خص الله هذين الوصفين في هذا الموضع، لأن المختال قلَّما يقوم برعاية الحقوق، أخرج الطبراني عن ثابت ابن قيس قال: «كنتُ عند

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/٣٦٩ ومسلم في البرّ والصّلة رقم ٢٦٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ١٠/٣٧١ ومسلم في الإيمان رقم ٤٦ باب تحريم إيذاء الجار.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة رقم ١٩٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٠/٣٧٣ ومسلم رقم ٤٧.

رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية، فذكر الكبر وعظَّمه، فبكى ثابت فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال، حتى إنه ليعجبني أن يحسن شِرَاكُ نَعْلي!! قال ﷺ: فأنت من أهل الجنة، إنه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك، ورحلك، ولكنَّ الكبرَ سفهُ الحق، وغمط الناس»[1] أي احتقارهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بما في أيديهم ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ فيأمرونهم به مقتاً للسخاء ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الغنى، والعلم، فهم أحقاء بكل ملامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي أعددنا لهم ذلك، وضَعَ المظهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه، فهو كافر لنعم الله، ومن كان كافراً لنعم الله، فله عذاب يهينه، كما أهان النعم بالبخل والإخفاء، وسبب نزولِ الآية ما رُوي عن ابن عباس أن حلفاء كعب بن الأشرف من اليهود، أتوا رجالاً من الأنصار، فقالوا لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، فإنكم لا تدرون ما يكون لكم؟ فنزلت الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة، وإنما شاركوهم في الذم والوعيد، لأن البخل والسرف، طرفا إفراط، وتفريط، وهما سواء في القبح، واستجلاب الذم ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي للفخار، لا لوجه الله العظيم المتعال ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه تعالى وثوابه، وهم اليهود ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إبليس وأعوانه التابعين له والرفقة الأشرار ﴿لَهُۥ قَرِينًا﴾ أي صاحباً في الدنيا

---

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه، وفي رواية أبي داود أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ ـ وكان رجلاً جميلاً ـ فقال يا رسول الله: «إني رجل حُبِّب إليَّ الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحد بِشراك نعل ـ أي رباط النعل ـ أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر: من بَطِر الحقِّ، وغَمَط الناس» أي لم يقبل الحق، واحتقر الناس، وانظر جامع الأصول ١٠/ ٦١٥.

كما في قوله تعالى: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ ﴿فَسَآءَ﴾ فبئس الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ لأنه يدعوه إلى المعصية المؤدية إلى النار، وفي الآية تنبيه على أن الشيطان حملهم على ذلك، وزيَّنه لهم، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بأن يُقرن بهم الشيطان في النار كقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن نُقيِّضْ له شَيْطاناً فهو لهُ قَرِينٌ﴾[1] .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ﴾ أيْ أيُّ وبالٍ وضرر يحيق بهم ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ﴾ ابتغاء وجه الله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من فضله من الأموال؟ المراد توبيخهم على الجهل بمكان المنفعة، وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعمله العرب في كلامهم، كما يقال للمنتقم: ما ضرَّك لو عفوتَ؟! ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم، تنبيهاً على سوء بواطنهم، وأنه تعالى مطلع على ما أخفوه في أنفسهم، فيجازيهم به.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ ﴾ المثقال من الثقل ومعناه المقدار والوزن، أي إن الله لا يظلم مقدار ذرة، وهي النملة الحمراء الصغيرة، وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في الغبار، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة، فقد ذكر سبحانه الذرة، لأنها أقل شيء مما يدخل في نَظَر البشر ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ أي يضاعفها

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

أضعافاً كثيرة والمراد يضاعف ثوابها، كما في الحديث: «أن تمرة الصدقة يربيها الرحمن حتى تصير مثل الجبل»[1] ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ أي يعطي صاحبها من عنده، على سبيل التفضل، زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاءً جزيلاً وهو الجنة دار المتقين.

﴿فَكَيْفَ﴾ حال هؤلاء الكفرة ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ يوم القيامة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من قبائح الأعمال، وهو نبيهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا خاتم النبيين ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق الأنبياء، وعلى العصاة من أمتك، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن، فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أُنزل!! قال: نعم، فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال: حسبك الآن، فنظرت فإذا عيناه تذرفان»[2].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، والإشارة لبيان شدة هول القيامة ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ أي الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، من الكفرة والعصاة، يودون في ذلك اليوم لمزيد شدته ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يودون أن يدفنوا، وتُسوّى الأرضُ بهم، وأنهم لم يُبعثوا ولم يُخلقوا، أو يكونوا تراباً كما في قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ وجواب لو محذوف لظهوره أي لو تسوى لسُرُّوا واستراحوا من العذاب ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرون على كتمانه، لأن جوارحهم تشهد عليهم، روى الحاكم وصححه عن ابن عباس أنهم إذا قالوا: ﴿والله رَبِّنَا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، ولفظُه «مَنْ تصدَّق بعدْل ـ أي قيمة ـ تمرةٍ من كسبٍ طيِّبٍ، ولا يقبل اللهُ إلاَّ الطيِّبَ، فإنَّ الله يقبلُها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدُكم فُلُوَّه ـ أي فرسه ـ حتى تكونَ مثلَ الجبل».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٢٥٠.

ما كنَّا مشْرِكينَ﴾ ختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم، فيتمنون أن تُسوَّى بهم الأرض»[1] وقال الحسن: إنها في مواطن: ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون، ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وفي موطن يعترفون كقوله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ وآخر تلك المواطن أن يُختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ لما نُهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى، نُهوا ههنا عما يؤدي إليه من حيث لا يحتسبون، روي في سبب نزول هذه الآية عن علي رضي الله عنه قال: صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدَّموني، فقرأت: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون﴾ فخلطت فيها، فنزلت هذه الآية[2]. وكانت الصلاة صلاة المغرب كما ذكر المفسرون، والمراد بقربها القيامُ إليها، إلا أنه نهى عن القرب مبالغةً، والمعنى لا تصلُّوا في حالة السكر، حتى تعلموا قبل الشروع ما تقرؤونه، والمراد من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وروى نحوه ابن كثير ١/ ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٦ وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو داود في الأشربة «باب في تحريم الخمر» والحاكم وصححه.

السكر: السكرُ من الخمر، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ولفظ السكر حقيقة فيه، وما قيل: إنه السكر من النوم والنعاس فبعيد ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على وأنتم سكارى، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى، ولا في حالة الجنابة، والجنُبُ: يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، والواحدُ، والتثنيةُ، والجمع، لجريانه مجرى المصدر واشتقاقه من المجانبة وهي المباعدة، وقيل: للذي يجب عليه الغسل جنب، لأنه يجتنب الصلاة، ودخول المسجد، وقراءة القرآن حتى يتطهر ﴿إِلَّا عَابِرِي﴾ مجتازي ﴿سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي ولا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال، إلا حال كونكم مسافرين، وقيل: إن رجالاً من الأنصار، كانت أبوابهم في المسجد، وكانت تصيبهم الجنابة، ولا يجدون ممرّاً إلا في المسجد، فرُخّص لهم ذلك، وبه قال الشافعي، والمشهور منع دخول الجنب المسجد مطلقاً ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة حالة الجنابة، والاغتسال أن يغسل بدنه كله، من فرقه إلى قدمه، كما حُكي في غسل النبي ﷺ أنه كان يتوضأ ثم يفيض الماء على سائر جسده[1]. وفي الآية الكريمة رمزٌ إلى أنه ينبغي للمصلي أن يحترز عما يلهيه، ويشغل قلبه، وأن يزكي نفسه عما يدنّسها، لأنه إذا وجب تطهير البدن، فتطهير القلب عن خاطر غير طاهر أولى ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ شروع في تفصيل ما أجمل في الاستثناء، والمراد من المرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقاً، سواء كان بتعذر الوصول إليه، أو بتعذر استعماله، فإن الواجد له عند التعذر كالفاقد، والذي تقرر في الفقه، أن المريض

---

(١) روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه، ثم يُفرغ بيمينه على شماله، فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء ويُخلّل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يُفيض الماء على سائر جسده» متفق عليه.
وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «بلُّوا الشعر، وأنقُوا البشرة، فإن تحت كل شعرة جنابة».

الذي يخاف إذا استعمل الماء أن يشتد مرضه يتيمم، ولم يشترط الفقهاء خوف التلف لظاهر النص، وهو بإطلاقه يبيح التيمم لكل مريض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي أو كنتم على سفرٍ ما، طال أو قَصُر ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هو المكان المنخفض من الأرض، والمجيء منه كناية عن الحدث، لأن المعتاد أن من يريد قضاء الحاجة يذهب إليه، ليواري شخصه عن أعين الناس، ولا يجلس في مكان مرتفع، وفي ذكر «أحد» دون غيره، إيماء إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة، وهو أدب الإسلام، أي وإن جاء أحد منكم من الغائط ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يريد سبحانه أو جامعتم النساء، إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع، لأنه مما يُستهجن التصريح به، وهو المروي عن علي، وابن عباس، ومجاهد، ولفظ اللمس، والمسّ، وردا في القرآن بمعنى الجماع، فيكون إشارة إلى الحدث الأكبر، وعن ابن مسعود والنَّخعي والشعبي أن المراد بالملامسة هنا: التقاء البشرتين، سواء كان بجماع أو بغير جماع، ووجه هذا القول أن اللمس حقيقةٌ في اللمس باليد، وأما من حمله على الجماع فمجازٌ، والأصل حمل الكلام على الحقيقة، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء، وقال مالك وأحمد: إن كان اللمس بشهوة ينقض، وإلاَّ فلا، ومذهب أبي حنيفة لا ينقض ولو بشهوة، لأن المراد بالآية الجماع دون اللمس باليد ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ وهذا هو السبب في الحقيقة، وهو فقدان الماء، كأنه قيل: أو لم تكونوا مرضى، أو مسافرين، بل كنتم فاقدين للماء ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فاقصدوا عند عدم وجود الماء، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، فتيمموا به بشرط أن يكون طاهراً، والصعيدُ: وجهُ الأرض تراباً أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه، وقال الزجاج: لا أعلم خلافاً بين أهل اللغة في أن الصعيد وجه الأرض، والطيبُ: الطاهر، وقال بعضهم: هو الترابُ المنبتُ دون السبخة، والتيمم لغةً: القصدُ، والمعنى فتعمَّدوا واقصدوا، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، وهذا دليل واضح على جواز التيمم بالحجر والصخر، وإن لم يكن عليه تراب،

وإلى ذلك ذهب أبو حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف والشافعي وأحمد: إنه لا يجوز التيمم، إلاّ أن يعلق باليد شيءٌ من التراب، لتقييد المسح به في المائدة بقوله سبحانه: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ وكلمة «من» للتبعيض ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي وجوهكم وأيديكم إلى المرفقين، لما روى أبو داود أن رسول الله ﷺ تيمَّم ومسح يديه إلى مرفقيه، كما رُوي عن جابر «التيمم ضربتان: ضربةٌ للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين» هذا مذهب الشافعي والجمهور، ويشهد لهم القياسُ على الوضوء، والمراد استيعاب هذين العضوين بالمسح، كما في الوضوء، وهو ظاهر الرواية، وجه الظاهر أن التيمم قائم مقام الوضوء، ولهذا قالوا يخلِّل الأصابع، وينزع الخاتم، ليتمَّ المسحُ، وحكم المحدث، والجنب، والحائض، والنفساء واحد، وهو ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين، ومن قال: إن التيمم للجنب لا يصح فهو مخطىء، فإن الآية كالصريح في جواز تيمم الجنب، على أن الأحاديث ناطقة بذلك، فقد أخرج البخاري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لم يصلِّ في القوم، فقال يا فلان: «ما منعك أن تصلي؟ فقال: يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء، فقال ﷺ: عليك بالصعيد فإنه يكفيك»[1] وعن عمار قال: «أجنبت فلم أجد ماءً، فتمرغت في الصعيد، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال ﷺ: إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وكذا اليمين على الشمال، وظاهر كفيه ووجهه»[2] ففي الحديث دلالة على أن المحدث

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ١/ ٣٧٩ باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، وفي كتاب الأنبياء، وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب المساجد رقم ٦٨٢ والنسائي في الطهارة ١/ ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٣٨٥ في التيمم، ومسلم في كتاب الحيض باب التيمم رقم ٣٦٨ والنسائي في الطهارة ١/ ١٧٠.

والجنب في التيمم سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسَّر الأمر عليكم، ورخَّص لكم في التيمم وهو تعليل للترخيص والتيسير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حال اليهود، والتحذير عن موالاتهم، روي عن ابن عباس أنها نزلت في بعض أحبار اليهود، كانوا إذا تكلم رسول الله ﷺ لوَّوا لسانهم، وعابوه، ويأتون رأس المنافقين «عبد الله بن أبي» ورهطه يتآمرون معهم على الإسلام، والمراد من الكتاب التوراة، و«من» للتبعيض أي حظاً يسيراً من علم التوراة ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ بيان لمناط التشنيع، ومدار التعجيب، كأنه قيل: ماذا يصنعون حتى ينظروا إليهم؟ فقيل: يأخذون الضلالة ويتركون ما أُوتوه من الهداية، بإنكارهم نبوته ﷺ بعد ما علموا وتيقنوا بحقّية دينه، وأنه هو المبشَّر به في التوراة ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ أي لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق، والتعبير بصيغة المضارع في الموضعين، للإيذان بالاستمرار التجددي، أي هم مستمرُّون دائبون في إرادة ذلك، وفي ذلك أيضاً تقبيح لهم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوتهم وما يريدون بكم، لتكونوا على حذرٍ منهم، ومن مخالطتهم، فلا تلتفتوا

إليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ في جميع أموركم ومصالحكم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً لكم على أعدائكم، فثقوا به، واكتفوا بولايته ونصرته، ولا تتولوا غيره، ففي الآية وعدٌ ووعيد، وترغيب وترهيب.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيان للموصول الأول أي من هؤلاء اليهود فريق مجرمون خبثاء، مفسدون في الأرض ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي يبدّلون كلام الله، ويحرّفونه قصداً وعمداً، كما يحرّفون الكلام عن مقصده الأساسي فيشتمون الناس باسم التحية، ويتظاهرون بالمحبة والوئام، وهذا من خبثهم وفجورهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، والمراد أنهم مع ذلك التحريف، يقولون في كل أمر مخالف لأهوائهم، عناداً وتحقيقاً للمخالفة ﴿سَمِعْنَا﴾ أي فهمنا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر، قالوا في الظاهر: سمعنا، وقالوا في الباطن: عصينا، وقيل: إنهم كانوا يظهرون ذلك عناداً واستخفافاً ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي يقولون ذلك في أثناء مخاطبته ﷺ، وهو كلام ذو وجهين: محتمل للشر، بأن يحمل على معنى: اسمع حال كونك غير سامع كلاماً أصلاً، وهو دعاء عليه بالصَّمم أو الموت، ومحتملٌ للخير، بأن يحمل على اسمع منا غير سامع كلاماً مكروهاً، وهم يضمرون في أنفسهم المعنى الأول ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي ويقولون هذا أيضاً ﴿راعنا﴾ وهي كلمة مسبة وشتيمة، من الرعونة وهي الحُمقُ ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي فتلاً بها أي يفتلون ما يضمرونه من الشتم، إلى ما يظهرونه من التوقير ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أي قدحاً فيه بالاستهزاء، أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين كما فَعَل الخبثاء حين دخلوا على الرسول ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا محمد، أي الموت عليك، وأظهروا أنهم يريدون السلام عليه، وكانوا يقولون لو كان نبياً حقاً، لأخبر بما قلنا له، فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم، من العداوة والبغضاء، فكان ذلك دلالة على نبوته ﷺ، لأن الإخبار عن الغيب معجز ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ إذا سمعوا شيئاً

من أوامر الله تعالى ﴿قَالُوا۟﴾ بلسان المقال ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول، مكان قولهم سماع الرد ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم عصينا ﴿وَٱسْمَعْ﴾ مكان قولهم اسمع غير مسمع ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم راعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم هذا ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وأنفع من قولهم ذلك ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعدل في نفسه وأصوب ﴿وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ولكن لم يقولوا ما ينفع، بل قالوا ما يضرُّ، ولذلك أبعدهم الله عن الهدى، وطردهم من رحمته، بسبب كفرهم وعنادهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به، وهو الإيمان ببعض الرسل والكتب، ويجوز أن يُراد بالقلة العدم، ثم عقَّب ذلك بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف فقال سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟﴾ إيماناً شرعياً ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي بالذي أنزلناه من عندنا على رسولنا من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي مصدِّقاً للتوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي من قبل أن نمحو ما خطَّه الباري في صحائف الوجوه، فنجعلها كخفِّ البعير، أي نطمس منها الحواس من أنفٍ، وعينٍ، وحاجبٍ، فتصبح كالأدبار، وهو تشويه لمحاسن الوجه ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي نخزيهم بالمسخ، كما أخزينا به أصحاب السبت، فقد مسخهم الله إلى قردة وخنازير، قال المبرد:

إنه منتظر، ولا بدَّ من طمسٍ ومسخٍ في اليهود، قبل قيام الساعة، وقد جرت عادةُ الله سبحانه مع اليهود، بأن ينتقم من أخلافهم لرضاهم بما صنعت أسلافهم، وقيل: هذا الوعيد كان متوجهاً إليهم، لو لم يؤمن أحد منهم، وقد آمن جماعة من أحبارهم، فلم يقع، ورُفع عن الباقين، وقيل: كان الوعيد أحد الأمرين، كما ينطق قوله تعالى: ﴿أو نلعنهم﴾ فإن لم يقع الأمر الأول، فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان، وفي كل زمان ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإيقاع شيء ما أراده، وحَكَم به وقضاه ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً واقعاً في الحال، أو كائناً في المستقبل لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ كلام مستأنف، لتقرير ما قبله من الوعيد، فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون، من التحريف والتدليس، ويطمعون في المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿يأخذون عَرضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ويقولُونَ سَيُغْفر لنَا﴾[1] والمراد من الشرك: الكفرُ، أي لا يغفر الكفر لأنه ذنب كبير لا ينمحي عنه أثره، ويغفر ما دونه من الذنوب ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما دون الشرك، وإن كانت كبيرة مع عدم التوبة، تفضلاً وإحساناً، لكن لا لكل أحد بل ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له، وذهب المعتزلة إلى أنه لا فرق بين الشرك وما دونه من الكبائر، في أنهما يُغفران بالتوبة، ولا يُغفران بدونها، فهم قد أخطأوا الفهم الصحيح، لأن مساق النظم الكريم، لإظهار عظم جريمة الكفر، ببيان استحالة مغفرته، دون غيره من الذنوب، ولو شرطنا التوبة، لم يظهر بينهما فرق، ولم يحصل المقصود من الزجر عن الكفر، وفيه ردٌّ أيضاً على الخوارج، الذين زعموا أن كل ذنب شرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي ومن يشرك بالله أيَّ شرك كان ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي ارتكب ما تُستحقر دونه الآثام، فلا تتعلق به المغفرة قطعاً، وقد استبشر

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٩.

الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الآية، وقال علي بن أبي طالب: «ما في القرآن آيةٌ أحبُّ إليَّ من هذه الآية: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء...﴾»[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ تعجيب من حالهم، المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقالت اليهود: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويدخل في الآية، من زكَّى نفسه، وأثنى عليها لغير غرض صحيح، أي يزكُّون أنفسهم بزكاء العمل، أو بزيادة الطاعة والتقوى، فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله تعالى، فلهذا قال الله: ﴿فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وقال هنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتدُّ بها، دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان، من حُسْن وقبح، وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يُعاقبون بتلك الفعلة القبيحة، ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿فَتِيلًا﴾ أي أدنى ظلم، وهو الخيط الذي في شق النواة، يُضرب به المثل في القلة والحقارة، كالنقير للنقرة التي في ظهرها، والقطمير وهو قشرتها الرقيقة، وهذه الأشياء «الفتيل، النقير، القطمير» تُضرب أمثالاً للشيء التافه الحقير.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله، وأزكياء عنده، وأن ذنوبهم مغفورة، ولشناعة هذا الافتراء، أكَّده تعالى بما ينبه على شناعة وقبح هذا الأمر فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي لا يخفى كونه إثماً، من بين آثامهم الكثيرة، وذنباً يستحقون عليه أشدَّ العقاب.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٣٧ وقال: هذا حديث حسن غريب. أقول: إنما استبشر المسلمون بهذه الآية، لأن المؤمن إذا مات على الإيمان، فله أملٌ بدخول الجنة، مهما كثرت وعظمت ذنوبه، لأن الله تعالى يغفر كل ذنب إلاَّ الشرك، فلم ينقطع الرجاء من الرحمة والغفران.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تعجيبٌ من حالٍ أخرى لليهود، زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم، والآيةُ نزلت، ـ كما روى ابنُ عباس ـ في كعب بن الأشرف، من رؤساء اليهود، خرج إلى مكة في سبعين راكباً من اليهود، ليحالفوا قريشاً بعد غزوة أحد، على محاربة رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعبٌ على أبي سفيان، فأحسن مثواه، وقال أبو سفيان لكعبٍ: إنك تقرأ الكتاب، ونحن أمّيون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقاً، نحن أم محمد؟ قال: ما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحاج، وننحر الجزور، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ونصل الرحم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، فقال: أنتم أهدى منه سبيلاً، فأنزل الله في ذلك الآية ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾(١).. والجبتُ في الأصل صنمٌ، ثم استعير في كل معبود غير الله تعالى، والطاغوتُ يطلق على كل باطل، من معبود أو غيره، ورُوي عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبتُ: الساحرُ، والطاغوتُ: الشيطانُ، ومعنى الإيمان بهما: أي أنهم يصدّقون بألوهية الأوثان والشيطان، وكل ما عُبد من دون الرحمن ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص: ٨٩، وجامع البيان للطبري ٨/ ٤٦٨.

أي لأجلهم وفي حقهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكفار من أهل مكة ﴿أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي أقوم ديناً، وأرشد طريقة، من محمد وأصحابه، يفضّلون الكفار على المسلمين، ولفظ ﴿من الذين آمنوا﴾ ليس من كلام القائلين، بل من جهة الله تعالى، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئةً لمن رجَّح عليهم المتصفين بأقبح القبائح، وإنما قال اليهود الضالون: أهدى من محمد وأصحابه، فوصف الله الرسول وأصحابه بالإيمان إشادة بهم وتكذيباً لأعدائهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون المبعدون في الضلالة ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم ﴿وَمَن يَلۡعَنِ﴾ أي يبعده ﴿ٱللَّهُ﴾ من رحمته ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً، يمنع عنه العذاب، وفيه تنصيص على حرمانهم من نصرة قريش، ووعد المؤمنين بأنهم المنصورون ثم شَرَعَ في تفصيل بعضٍ آخر من قبائحهم فقال سبحانه:

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي بل ألهم نصيب من الملك؟ والمراد جحد ما تدعيه اليهود، من أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أحداً أو الرسول ﷺ وأتباعه، كما روي عن ابن عباس ﴿نَقِيرًا﴾ أي ما يوازي نقيراً، وهو النقرةُ في ظهر النواة، وهو مثلٌ في القلة والحقارة، وهذا توضيحٌ وبيان لشحهم وبخلهم، فإذا بخلوا بالنقير وهم ملوك، فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء؟ ويجوز أن تكون الهمزة لإنكار الواقع، على معنى: ألهم نصيب وافر من الملك، حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين، وقصور مشيدة كالملوك، فلا يؤتون مع ذلك نقيراً، كما تقول لغني لا ينفق على أبيه الفقير، ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئاً؟

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ انتقال من توبيخهم بالبخل، إلى توبيخهم بالحسد، الذي هو أقبح الرذائل، والإشارة إلى الرسول ﷺ والمؤمنين، فإن اليهود كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم، فلما خصَّ الله تعالى

العرب، فبعث محمداً ﷺ منهم، ولم يبعثه من بني إسرائيل، حسدوهم، أي بل أتحسدونهم ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني النبوة، والكتاب، وازدياد العز والنصر، يوماً فيوماً ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ إلزام لهم بما هو مسلم عندهم، أي إن حسدوا الناس على ما أوتوا، فقد أعطينا أسلافكم مثل هذا فليس الإيتاء ببدع منا، لأنا قد آتينا من قبل هذا ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي جنسه، والمراد به التوراة، والإنجيل، والزبور ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وإتقان العلم والعمل ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم﴾ مع ذلك ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، فكيف يستبعدون نبوته ﷺ؟ وكيف يحسدونه عليها؟ وتكرير الإيتاء للتفصيل والإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة، والمراد ﴿بآل إبراهيم﴾ أنبياء ذريته ووصفُ الملك بالعِظَم، وتنكيره التفخيمي ﴿مُلْكاً﴾ من تأكيد الإلزام، وتشديد الإنكار ما لا يخفى.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي من هؤلاء اليهود الحاسدين وآبائهم ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بما أوتي آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُ﴾ ولم يؤمن به، ولم يكن في ذلك توهين أمره، فكذلك لا يوهن كفرُ هؤلاء أمرك، وفيه تسلية للرسول ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي ناراً مسعَّرة موقدة إيقاداً شديداً، يُعذَّبون بها أي إن لم يُعجَّلوا بالعقوبة، فقد كفاهم ما أعد الله لهم من سعير جهنم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي هؤلاء الكفار، من اليهود والنصارى، والوثنيين، الذين أنكروا وحدانية الله، وكذبوا رسله ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي

سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة، وسوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد، وتنوب عنها السينُ، كقوله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ وقد تذكر للوعد، كما في قوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وكثيراً ما تفيد هي والسين توكيد الوعيد، وتنكير «ناراً» للتفخيم، أي يدخلون ناراً هائلة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي احترقت وتلاشت، من نضج الثمرُ واللحم نُضجاً، إذا أدرك ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق، جلداً جديداً مغايراً للمحترق صورة، وإن كانت مادته الأصلية موجودة، بأن يُزال عنه الإحراق، فلا يقال: إن الجلد الثاني لم يعص؟ وهذا السؤال مما لا يكاد يسأله عاقل، فضلاً عن فاضل، ذلك لأن عصيان الجلد وتألمه وتلذذه غير معقول، لأنه من حيث ذاته لا فرق بينه وبين سائر الجمادات، فالحق إن العذاب على النفس الحساسة، بأي بدنٍ حلّت، وفي أيّ جلد كانت، وكذا يقال في النعيم ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم ذوقه ولا ينقطع، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق، ليس لبيان قلته، بل لبيان إحساسهم في كل مرة بالعذاب، كإحساس الذائق بالمذوق، وللإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، ولعلَّ السِرَّ في تبديل الجلود، مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب، مع إبقاء أبدانهم على حالها؟ أن الإنسان ربما يتوهم زوال الإدراك بالاحتراق، ففي النضج والتبديل نوع إياس لهم، وتجديد حزن على حزن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده، مما أوعد به أو وعد، ولا يمانعه أحد ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد ذكر سوء حال الكفرة، ذكر تعالى حسن حال المؤمنين، تكميلاً للترهيب والترغيب، أي إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الحسنة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وفي السين تأكيد للوعد، وفي اختيارها هنا واختيار سوف في آية الكفر ما لا يخفى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ الأبدُ: الدهرُ الطويل، الذي ليس بمحدود، أي سندخلهم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، مخلّدين فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا

يخرجون منها، ولهم مع ذلك النعيم زوجات مطهرات من الأقذار، من الحيض، والنفاس، والبول، والغائط، وأمثال ذلك، لأن الجنة دار السرور والحبور ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تخترمه الشمس، وسَجْسَجاً[1] لا حرَّ فيه ولا قَرّ، وفيه الإشارة إلى النعمة الدائمة التامة، رزقنا الله التفيؤ فيه، والظليلُ صيغة مشتقة من لفظ الظلّ للتأكيد، كما هو عادتهم في نحو قولهم: يومٌ أيوم، وليلٌ أليل، وإنما خاطبهم به، لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظلُّ عندهم من أعظم أسباب الراحة، والظليلُ: كنايةٌ عن الراحة، فلا شمس في الجنة، قال الله تعالى: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾[2]، ولمَّا شرح الله تعالى بعض أحوال الكفار عاد إلى ذكر التكاليف الشرعية، التي كلف بها عباده المؤمنين، منها أداء الأمانات، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة الله وطاعة رسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وهو خطاب يعمُّ حكمه المكلفين، كما أن الأمانات تعمّ جميع الحقوق، المتعلقة بذممهم، من حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، سواءً كانت فعلية، أو قولية، أو اعتقادية وعموم الحكم لا ينافي خصوص السبب[3]، روى البخاري عن عبد الله بن

---

(١) السَّجْسَجُ: اللطيفُ المعتدلُ، الذي لا حرَّ فيه ولا برد. اهـ الوسيط في اللغة.

(٢) سورة الدهر، آية: ١٣.

(٣) روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، طلب مفتاح الكعبة =

عمر أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1] أي مال عن الحق ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إذا قضيتم بين الناس في الخصومات ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ أي بالإنصاف والسوية، وهذا أمر للولاة بإيصال الحقوق إلى أصحابها، وينبغي للحاكم أن يسوي بين الخصمين في خمسة: في الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق إلى مستحقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف، وهو المأمور به، من أداء الأمانات، والعدل في الحكومات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم، فهو وعد ووعيد.

وبعد أن أمر الولاة بالعدل، أمر الرعية بالطاعة فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة، أمر الناس بطاعتهم، بعدما أمرهم بالعدل، تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق، وأمَّا أمراء الجور، فبمعزل من استحقاق العطف على الله ورسوله، وإعادة الفعل اعتناءً بشأنه ﷺ، وإيذاناً بأن له ﷺ استقلالاً بالطاعة، لم تثبت لغيره، وأمَّا

= من «عثمان بن طلحة» فصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وصلى بها ركعتين، فلما خرج أمر علياً أن يردَّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وأن يعتذر إليه، فقال له عثمان: آذيتَ وأكرهت ثم جئت تترفق!! فقال: لقد أنزل الله فيك قرآناً يتلى، وقرأ عليه الآية، فكان ذلك سبب إسلامه، وقال له الرسول ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبرٌّ» وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٢٨.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١/٨٤ باب علامات المنافق، ومسلم في الإيمان أيضاً رقم ٥٨.

أولو الأمر فقد شرط فيهم أن يكونوا مسلمين، وأن يكونوا متمسكين بشرع الله، ولهذا قال: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ الخطاب عام للمؤمنين والشيء خاص بأمر الدين، بدليل ما بعده، والمعنى: فإن تنازعتم أيها المؤمنون، أنتم وأولو الأمر منكم، في أمرٍ من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ أي إلى سنته، ووجوب الطاعة لهم ما داموا على الحق، فلا تجب طاعتهم فيما خالف الشرع فقد قال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[1] ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ متعلق بالأمر الأخير، إذ هو المحتاج إلى التحذير، وجواب الشرط محذوف، أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فردُّوه إلى الله والرسول، فإنَّ الإيمان بهما يوجب ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد والطاعة لأمر الله ورسوله ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم وأصلح عاجلاً ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي عاقبةً ومالاً.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) طرف من حديث أخرجه البخاري في المغازي ٨/٤٧ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٤٠ وله قصة وهي كما في البخاري «بعث الرسول ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا حطباً وأوقدوا ناراً، فأوقدوها فقال: ادخلوها، فهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي من النار، فقال ﷺ: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إلى يوم القيامة، لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعةُ في المعروف».

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ وتعجيب له، أي ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ زعم يُطلق بمعنى القول والظن، وأكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً، أو فيه ارتياب، والمراد به هنا مجرد الادعاء، وظاهر الآية يدل أنها نزلت في بعض المنافقين، أرادوا أن يتحاكموا إلى بعض أهل الطغيان، ولم يريدوا التحاكم إلى النبي ﷺ ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو التوراة، ووصفوا بهذا الادعاء لتأكيد التعجيب، ببيان المباينة بين دعواهم، وبين ما صدر عنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ رُوي عن ابن عباس قال: حادثة وقعت في قتيل بين بني قُريظة وبني النضير، وكان بعضهم يريد التحاكم إلى الرسول ﷺ، فأبى المنافقون منهم إلا التحاكم إلى أبي برزة الكاهن الأسلمي، فانطلقوا إليه فسألوه فقال: أعظموا اللقمة، فقالوا: لك عشرة أوساق، فقال لا بل ما مائة وسق، فأنزل الله فيهم[1] ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الضمير راجع إلى الطاغوت ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الآية في حكم التعجيب، فإنَّ اتباعهم لمن يريد إضلالهم، أعجب من كل عجب وقوله: ﴿ضلالاً بعيداً﴾ أي إضلالاً بعيداً، أي مستمراً إلى الموت، والمعنى يريدون أن يتحاكموا إلى الشيطان، وهو في صَدَد إرادة إضلالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك الزاعمين للإيمان ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن من الأحكام ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ﴾ أبصرت أو علمت ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ الزاعمين للإيمان والتصديق به، وإظهار المنافقين في مقام الإضمار، للتسجيل عليهم بالنفاق ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً.

---

(١) وذكر الحافظ ابن كثير وغيره، أن الآية نزلت في خصومةٍ وقعت بين يهودي، ورجل من الأنصار منافق «بشر» يزعم الإيمان، فقال له اليهودي: تعالَ نتحاكم إلى محمد، فقال له المنافق: لا، بل تعال نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» الذي سمّاه الله بالطاغوت.. وانظر صفوة التفاسير ١/ ٢٨٥.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي كيف يكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ نكبة تظهر نفاقهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ماعملوا من الجنايات، التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عن حكمك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ للاعتذار عما صنعوا ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي حالفين لك ﴿بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ إلى الخصوم ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بينهم، ولم نرد بالمرافعة إلى غيرك، عدم الرضا بحكمك، فلا تؤاخذنا بما فعلنا، وفي هذه الآيات دلائل على أن من ردَّ شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمر الرسول ﷺ فهو خارج عن الإسلام كما حَكَم الصحابة بارتداد مانعي الزكاة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، وفنون المكر والخديعة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم للمصلحة، ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وَجَلٍ وحذر ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي ازجرهم بلسانك، وكفَّهم عن النفاق والكيد والكذب ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي قل لهم خالياً، لا يكون معهم أحد، لأنه أدعى إلى قبول النصيحة، ولذا قيل: النصيحة بين الملأ تقريع ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ مؤثراً يبلغ فيهم ويؤثر، ليكون لهم رادعاً، ولنفاقهم زاجراً.

> ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٦٥)﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل، لشيء من

الأشياء ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمر الناس بأن يطيعوه ويتبعوه، لأن طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، و«من يطع الرسول فقد أطاع الله» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق وعرّضوها إلى العذاب ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك، من غير تأخير، مستغفرين الله من ذنوبهم، متوسلين إليك للتنصل عن جناياتهم، ولم يزدادوا جناية بسترها بالأيمان الفاجرة ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي واستغفرتَ لهم، وإنما أتى به على طريقة الالتفات، تفخيماً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن من حق الرسول، أن يقبل اعتذار التائب، وإنْ عظم جرمُه ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم، متفضلاً عليهم بالرحمة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم[1] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يستحقون اسم الإيمان في السر والحقيقة ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي يتحاكموا إليك، وإنما جيء بصيغة التحكيم، إيذاناً بأن اللائق بهم، أن يجعلوه حكماً بينهم، ويرضوا بحكمه، مع قطع النظر عن كونه حاكماً بأمر الله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ﴾ عطف على مقدَّر ينساق إليه الكلام، أي فتقضي بينهم، ثم لا يجدوا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي ضيقاً مما حكمتَ به ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه، من غير تردّد ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي ينقادوا لك انقياداً، بظاهرهم وباطنهم، يقال: سلَّم نفسه لله وأسلمها: إذا جعلها

---

(١) إن الله تعالى لما أرسل ﷺ بالدين الحق، ومنحه الحجة وأعطاه كل ما ينبغي له من الحكمة، والبراهين القاطعة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بأحسن الطرق ولم يؤمنوا مع كل هذا، فلم يبق له إلاّ أن يُقسم لهم، فأنزل الله تعالى عليه أنواعاً من القسم، ولهذا كثرت في أوائل سور التنزيل، وفي السبع الأخير خاصة، وهذا هو السرُّ من القسم في القرآن الكريم.

خالصة له، وحكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإن قضاء شريعته قضاؤه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم، وهذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين، وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل حين عبدوا العجل ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي المكتوب عليهم لضعف إيمانهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون من المؤمنين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ما يؤمرون من متابعة الرسول ﷺ، والانقياد إلى حكمه، ظاهراً وباطناً ﴿لَكَانَ﴾ فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم على الحق والثواب، وأبعد لهم عن النفاق والضلال.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم﴾ أعطيناهم ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً كبيراً جليلاً، لا يعرف أحد مبدأه، ولا منتهاه.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يصلون بسلوكه إلى عالم القدس، ويدخلون به جنان النعيم، وفي الأثر: «من عمل بما علم، أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم».

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بالانقياد لأمره ونهيه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ باتباع شريعته، والرضاء بحكمه، بالانقياد التام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المطيعون الذين علت درجتهم شرفاً وفضلاً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بما تقصر العبارة عن تفصيله وبيانه ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للمنعم عليهم، وفي الحديث الشريف: «المرء مع من أحبَّ»[1] وقال النبي ﷺ لأبي ذرّ: «أنت مع من أحببتَ» يعني أنت تكون مع محبوبك في الآخرة. وأخرج الطبراني والضياء المقدسي وحسَّنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وإني أذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفتُ أنك رفعتَ مع النبيِّين، وخشيت أن لا أراك، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول...﴾ الآية[2]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ الصِدِّيقُ: صيغة مبالغة بمعنى: المبالغ في الصدق، والإخلاص، في الأقوال، والأفعال، والشهداء جمع شهيد، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله، وهم المقتولون بأيدي الكفار من المسلمين، والصالحون الصارفون أعمارهم في طاعة الله، وأموالهم في مرضاته سبحانه، فالمنازل أربعة بعضها دون بعض ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ الرفيقُ: الصاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لينُ الجانب، واللطافةُ في المعاشرة وهو كالصديق، في استواء الواحد، والجمع فيه.

---

(١) حديث «المرء مع من أحبَّ» أخرجه البخاري في الأدب ١٠/ ٤٦١ وله قصة وهي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال: وما أعددتَ لها؟ قال: لا شيء إلاّ أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: أنت مع من أحببتَ!! وفي رواية: «المرء مع من أحبَّ» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت!! قال أنسٌ: «فأنا أحبُّ النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إياهم» ورواه مسلم رقم ٢٦٤١ في البر.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٥.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظم الأجر، ومزيد الهداية، والإشارة إلى فضلهم ومزيتهم ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الفضل العظيم كائن من الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاء من أطاعه وبالعُصاة والمطيعين، ومن يصلح لمرافقة هؤلاء، ومن لا يصلح لمرافقة الصالحين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، وخذوا عدتكم من السلاح، واحترزوا منهم، ولا تمكنوهم من أنفسكم ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ فاخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة، وهي الجماعة من الرجال، فوق العشرة، أي انفروا جماعات متفرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين جماعةً واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاقُ لفظها، وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لمعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين، والمبطئون المنافقون، الذين تخلفوا عن الجهاد، من بطَّأ بمعنى أبطأ، أو ثبَّطوا غيرهم كما ثبَّط ابن أبيّ يوم أحد، أي وإن منكم لمن يتثاقل ويتخلف عن الجهاد ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل، وهزيمة ﴿قَالَ﴾ أي المبطّىء فرحاً لصنعه ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ بالقعود ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاضراً في المعركة، فيصيبني ما أصابهم.

﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ ﴾ كفتح وغنيمة كائن ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ تعالى، وفي نسبة الفضل إلى الله، دون إصابة المصيبة، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ندامةً على تثبيطه، وتحسراً على فواته، وقوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومفعوله، الذي هو قوله: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ﴾ الخ، لئلا يُفهم من كلامه أن تمنّيه لمعية المؤمنين لنصرتهم، بل هو للحرص على المال ﴿ كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي آخذ من الغنيمة حظاً وافراً، فالفوز العظيم الذي عناه، هو حطامُ الدنيا.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قدم الظروف على الفاعل للاهتمام به ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يشرون مضارع شرى، ويكون بمعنى باع، واشترى، من الأضداد، أي فليقاتل المخلصون، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية، الذين تركوا الدنيا واختاروا الآخرة، أُمروا بالثبات على القتال، وعدم الالتفات إلى تثبيط المبطئين ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهذا وعدٌ له بالأجر العظيم، سواءٌ استُشهد أو انتصر، ترغيباً في القتال، وتكذيباً لقولهم: ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ وإنما قال: ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ للتنبيه على أن المجاهد، ينبغي أن يثبت في المعركة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق، وإعزاز الدين ولا يحدّث نفسه بالهرب، ولذا لم يقل فيُغْلَبْ أو يَغْلِب.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمأمورين بالقتال مبالغة في التحريض ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لكم غير مقاتلين، والمراد لا عذر لكم في ترك المقاتلة ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر، ومن أيدي الكفار. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هم المسلمون الذين بقوا بمكة، مستذلين لضعفهم عن الهجرة، وإنما ذكر الولدان، مبالغةً في الحث، وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين، بحيث بلغ أذاهم الصبيان، والتعبيرُ بالولدان على طريق التغليب، ليشمل الذكور والإناث .
﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالشرك، الذي هو ظلمٌ عظيم، وبأذية المؤمنين وقوله تعالى: ﴿الظالم أهلُها﴾ وصفٌ للقرية، إلا أنه أسند إلى أهلها، فَوُقِّرتْ عن نسبة الظلم إليها، تشريفاً لها، والمراد بها مكة ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرنا، وينقذنا من أعدائنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم، كانوا يدعون الله بالإخلاص، فاستجاب الله دعاءهم حيث يسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة، ثم فتح مكة على يدي رسول الله ﷺ فتولاهم ونصرهم حتى صاروا أهلها. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كلامٌ مبتدأ، سيقَ لترغيب المؤمنين للقتال ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فالله وليهم وناصرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي الشيطان، الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟﴾ أي فقاتلوا يا أولياء الله ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي الكفار، فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل في سبيل الرحمٰن، ومن يقاتل في سبيل الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه غرور، لا يؤول إلى محصول، فكيف بالقياس إلى قدرته عزّ وجلّ؟.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، فقيل لهم: أمسكوا أيديكم وكفُّوا عن قتال المشركين، فلم يَحِنْ وقتُه، واشتغلوا بعبادة الله تعالى. قال الكلبي: إن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كانوا يلقون من مشركي مكة أذى شديداً قبل الهجرة، فيشكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: ائذن لنا يا رسول الله في قتال هؤلاء الكفرة، فقد كنَّا في عزَّة ونحن مشركون، فلمَّا آمنَّا صرنا أذلة!! ويقول لهم الرسول ﷺ كفُّوا أيديكم فإني لم أومر بذلك[1]، فهو قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ ﴾ أي كفُّوا أيديكم عن القتال ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ واشتغلوا بما أُمرتم به، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة، كان قبل فرض الجهاد ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ فلما هاجروا إلى المدينة وأُمروا بالقتال، كرهه بعضهم، لكن لا شكاً في الدين، بل خوفاً من الموت، بموجب الطبيعة البشرية ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم، كما يخشون الله أن يُنزل عليهم بأسه، والمراد بهم المنافقون

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٣٨.

أو ضعفاء الإيمان، ولا يصدر هذا عن صحابي كريم ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي أشد خشيةً من المؤمنين لربهم الذين هم أهل خشية الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت، لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى، بل على طريق تمنٍ للتخفيف ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حذراً من الموت، والظاهر أنهم ما تفوهوا به، لكن قالوه في أنفسهم، فحكى الله عنهم، بدليل أنهم لم يوبَّخوا على هذا السؤال ﴿قُلْ﴾ تزهيداً لهم فيما يؤملونه ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي جميع ما يُستمتع به في الدنيا، تافهٌ قليل، سريع الزوال، بل أقلُّ مِنْ قليل بالنسبة إلى ما في الآخرة[1] ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي ثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من ذلك المتاع القليل وإنما قيل ﴿لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ حثاً لهم على تقوى الله ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم، والفتيلُ: هو الخيط الذي في شق النواة، وهو مثل في القلة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ في الحضر أو السفر، أو في البَرِّ أو في البحر ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ الذي لأجله تكرهون القتال، وتحبون القعود عنه، وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم، لشدة تباعدهم عن أسباب الموت، كأنهم في الهرب منه، وهو مجدٌّ في طلبهم، لا يفتر لحظة عنهم إلى أن يدركهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل﴾ ولأن الحذر لا ينجي من القدر ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي في قصور أو حصون مرتفعة، والبروجُ البيوت على أطراف القصر، من تبرجت المرأة إذا ظهرت ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ نزلت في المنافقين واليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان وكفروا، أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا، منذ قدم هذا الرجل ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ فالمعنى: إن تصبهم نعمة

---

(١) يدل عليه قوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ ـ يعني البحر ـ فلْينظر بمَ يَرجع» رواه مسلم.

ورخاء، نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جدبٍ وغلاء، أضافوها إليك متشائمين، كما حُكِيَ عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه﴾ الآية ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي كل واحدة من النعمة والبلية، من جهة الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، لا خالق سواه، فهو وحده النافع الضار، أمر ﷺ بأن يردَّ زعمهم الباطل، ويلقمهم الحجر، ببيان أن الخير والشرَّ بتقدير الله تبارك وتعالى من غير أن يكون له مدخل في وقوع شيء منهما ثم قال تعالى تقبيحاً لهم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ اليهود والمنافقين المحتقرين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أي يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ أي كلاماً يوعظون به، وهو تعيير لهم بالجهل، وتقبيحٌ لحالهم، والمعنى أيُّ شيء حصل لهؤلاء، لكَيْ يفهموا نصوص القرآن الناطقة بأن الكلَّ من عند الله تعالى؟.

ثم وضَّح تعالى الأمر فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الخطاب عام لكل سامع، أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان، فمن الله تعالى تفضلاً منه وكرماً، وما أصابك من بلية ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها، وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، لقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب عبداً نكبةٌ إلاَّ بذنب»[1] وهو لا ينافي قوله سبحانه ﴿قل كل من عند الله﴾ فإن الكُلَّ منه تعالى إيجاداً، غير أن الحسنة إحسان، والسيئة مجازاة وانتقام، ثم اعلم أن المراد بالحسنة والسيئة: النعمةُ والبلية، لا الطاعة والمعصية ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ بيانٌ لجلالة منصبه ﷺ، ومكانته عند الله تعالى، بعد بيان

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٥٢ في التفسير، ولفظه «لا يصيب عبداً نكبةٌ ـ أي مصيبة ـ فما فوقها أو دونها إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ ﷺ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم﴾».

بطلان زعمهم الفاسد، في حقه ﷺ أي مرسلاً لكل الناس، وفيه ردٌّ على من زعم اختصاص رسالته ﷺ بالعرب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي حسبك أن الله تعالى شاهد على صدق نبوتك.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ أي من أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنه ﷺ مبلغ لأمره ونهيه، فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه، ولمَّا قال هذا قال المنافقون: ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ ينهى أن يُعبد غير الله، ثم هو يريد أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى إلهاً، فنزلت لبيان أن طاعته طاعة له تعالى، لأنه مبلغ عن الله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة وأعرض عنها ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الضمير للمنافقين كما روي عن ابن عباس والحسن ﴿طَاعَةٞ﴾ أي أمرنا طاعة، ورفعُها للدلالة على الثبات ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي خرجوا من مجلسك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي دبَّر جماعة من رؤساء المنافقين، أمراً غير الذي أمرتهم به، وهو الخلاف والعصيان لما تأمرهم به ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ أي خلاف ما قلت لهم، من طاعة الله وطاعة رسوله، والتبييتُ من البيتوتة لأن الأمور تدبَّر بالليل، ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي تجافَ عنهم، ولا تبال بهم وبما صنعوا، ولا تتصدَّ للانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في

الأمور كلها وفوض أمرك إليه تعالى، وثق به ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي قائماً بتدبير شؤونك، فيكفيك مضرتهم. وينتقم لك منهم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي أفلا يتأملون في معانيه، ويتبصرون ما فيه؟ وفي الآية إنكارٌ واستقباحٌ لعدم تدبرهم القرآن، أي أفلا يتدبرون القرآن، ليعلموا كونه من عند الله، بمشاهدة ما فيه من الشواهد الدالة على صدق الرسول ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ كما يزعمون ﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع، إذ لا علم بالأمور الغيبية لغيره سبحانه، وحيث كان كلها مطابقاً للواقع، تعيَّن كونه من عند الله تعالى.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤) مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ ﴾ أي المنافقين وبعض ضعفاء الإيمان ﴿ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ أي خبر من الأخبار، عن المؤمنين بالظفر والغنيمة، أو النكبة والهزيمة، ممَّا يوجب الأمن أو الخوف ﴿ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي أفشوه، والباء مزيدة، والكلام مسوقٌ لبيان جنايةٍ أخرى من جنايات المنافقين، وذلك أنه إذا غزت سرية من المسلمين أخبروا الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم، كذا وكذا، فأفشوه بينهم من غير أن يكون لهم خبر، وكان إذاعتهم له مفسدة على المسلمين، يذيعونه قبل أن يتحققوا منه، فيعود

ذلك وبالاً على المؤمنين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ذلك الأمر الذي جاءهم ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم كبار الصحابة، البصراء في الأمور ﴿لَعَلِمَهُ﴾ أي لعلم تدبير ذاك الأمر الذي أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي يستخرجون علمه عن جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه من المعاني، يقال: استنبط الفقيه المسألة: إذا استخرجها باجتهاده وفهمه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الخطاب للطائفة المذكورة أي لولا فضله تعالى عليكم ورحمته، بإرشادكم إلى طريق الحق الذي هو المراجعة في مظان الاشتباه إلى الرسول وإلى أولي الأمر الواقفين على أسرار الكتاب والراسخين في معرفة الأمور ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعملتم بآرائكم الضعيفة أو بآراء المنافقين، ولم تهتدوا إلى الصواب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم أولو الأمر، المستنيرة عقولهم بأنوار الإيمان، بواسطة الاقتباس من مشكاة النبوة، وفيه إنكار على كلٍّ من يحدث بكل ما سمع قبل تحققه، وفي الحديث الشريف: «كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمع»[1] يعني لو لم يكن للرجل كذب، إلاّ تحدّثه بكل ما سمع، بشيء لم يعلم صدقه.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو جواب شرط محذوف، أي إن لم يقاتلوا وتركوك وحدك، فقاتل في سبيل الله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي لا يضرك فخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد، فإن الله ناصرك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حثهم على القتال، ورغبهم فيه، وذكّرهم أنهم آثمون بالتخلف ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وعد منه سبحانه محقق الإنجاز، وقد كان كذلك، فقد روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى، فلما بلغ الميعاد دعا ﷺ الناس

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة ١/ ١٠ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، وأبو داود في الأدب رقم ٤٩٩٢.

إلى الخروج فكرهه بعضهم، فنزلت فخرج ﷺ مع جماعة من أصحابه، حتى أتى موسم بدر، فكفاهم الله سبحانه بأس العدو، وألقى الله تعالى الرعب في قلب أبي سفيان، فلم يخرج ولم يكن القتال يومئذ، وانصرف ﷺ بمن معه سالمين ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من الذين كفروا ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي تعذيباً، وأشدُّ بطشاً ونكالاً، والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ الشفاعة: هي التوسط بالقول، في وصول شخص إلى منفعة من المنافع، وكون التحريض الذي فعله ﷺ من باب الشفاعة ظاهر، فإن المؤمنين تخلصوا بذلك من مضرة التثبيط، وتعيير العدو، وفازوا بالأجر الجزيل، وربحوا أموالاً جسيمة بسبب ذلك، وكان معهم أموال التجارة فباعوها، وأصابوا خيراً كثيراً ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب في الخير الواقع بها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة، ومنها الشفاعة في حد من حدود الله تعالى، والقصاص، ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها، مساوٍ لها في القدر، من غير أن ينقص منه شيء، والتعبير بالكفل قيل: للتفنن، وقال بعضهم: إن الكفل غلب في الشر، فجزاء الحسنة يضاعف، وأما الكفل فهو المثلُ المساوي، فمن جاء بالسيئة لا يُجزى إلا مثلها، وفي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر عليه، وقيل إنه المجازي أي يجازي على كل شيء.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ التحية مصدر حيّىٰ تحية وأصلُها الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاء، وكانت العرب تقول عند اللقاء: حيّاك الله[1]، أي أطال الله حياتك، فأبدلها الإسلام بالسلام قال الله تعالى

---

(١) أما التحية بقول الإنسان: أهلاً وسهلاً ومرحباً، أو كيف أصبحتم، فسنة عند لقاء الإخوان، لكن ينبغي أن يكون هذا بعد السلام.

﴿تحيتهم فيها سلام﴾ والتحيات لله أي البقاء لله، ومعنى الآية: إذا سلَّم عليكم أحد من المسلمين، فردُّوا عليه بأحسن مما سلَّم ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي بتحية أحسن منها، بأن تقولوا «وعليكم السلام ورحمة الله» إذا اقتصر المسلم على الأول، وبأن تزيدوا «وبركاته» إن جمعها المسلم، وهي النهاية لانتظامها فنون المطالب، التي هي السلامة عن المضار، ونيل المنافع ودوامها. أخرج البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن رجلاً سلَّم عليه، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال عروة: ما ترك لنا فضلاً، إن السلام قد انتهى إلى وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي أجيبوها وردّوا عليه بمثل ما سلَّم، ووجوب رد التسليم على الكفاية، والدليل ما أخرجه البيهقي: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلِّم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يردَّ أحدهم» ولو سلَّم يهودي، أو مجوسي، فلا بأس بالردّ، ولكن لا يزيد، ولا يسلم ابتداءً وعن الحسن وقتادة أنهما قالا في الآية: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ للمسلمين ﴿أو ردُّوها﴾ لأهل الكتاب[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم، ومن جملتها ما أمرتم به من التحية، فحافظوا على مراعاتها، رَوَىٰ مسلم عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

---

(١) قال الفقهاء: يكره السلام في مواضع: على مصلٍّ، وتالٍ للقرآن، وذاكر لله، ومحدّث، وخطيب، ومكشوف عورة، وعلى مغنٍّ، ومتغوّط، وعلى الكافر، والفتاة الأجنبية، وحكم النساء مع النساء، كحكم الرجال مع الرجال، يسلم بعضهن على بعض، أما سلام الرجل على النساء، فإن كنَّ جمعاً جالسات، فيستحب أن يسلم عليهن، إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة، لما رُوي عن أسماء بنت يزيد قالت: «مرَّ علينا رسول الله ﷺ فسلَّم علينا» أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٤٥ ولفظه «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا. .» الحديث، ورواه أبو داود في الأدب رقم ٥١٩٣.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) ﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليجمعنكم، والجمعُ بمعنى الحشر، ولهذا عُدّي بإلى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة، سميت القيامة لقيام الناس من قبورهم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في يوم القيامة أو في الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، والمعنى: لا أحد أكثر صدقاً منه تعالى في وعده وكلامه.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار، والخطاب فيه معنى التوبيخ ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ أي أيُّ شيءٍ كائن لكم في أمرهم وحالهم، تفترقون ﴿فِئَتَيْنِ﴾ رُوي عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناسٌ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتان: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله الآية[١]. ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردّهم إلى الكفر ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي أتريدون هداية من أضلَّه الله؟ وهو توبيخ لهم على زعمهم هداية المنافقين، الذين أضلهم الله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي ومن يخلق الله فيه الضلال، كائناً من كان، فلن تجد سبيلا من السبل لهدايته وفلاحه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٥٦/١ وتتمة الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنها طيبةٌ تنفي الخَبَثَ، كما تنفي النارُ خَبَثَ الفضة».

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ودوا أن تكفروا ﴿كَمَا كَفَرُوا۟﴾ أي مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أي فتكونون مستوين في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان حالهم ما ذُكر فلا توالوهم ولا تصادقوا منهم أحداً ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي حتى يؤمنوا ويحقّقوا إيمانهم، بهجرة كائنة لله تعالى، لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان والهجرة الصحيحة ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من الحل والحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين، أسراً وقتلاً ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم مجانبة كلِّية، ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرةً أبداً، كما يشعر بذلك المضارع الدال على الاستمرار والتكرير المفيد للتأكيد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من قوله سبحانه فخذوهم واقتلوهم، أي إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم، وهم بنو مدلج، فقد رُوي عن الحسن أن «سُراقة بن مالك المدلجي» قال: لمَّا ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر، قال سراقة بلغني أنه ﷺ يريد أن يبعث «خالد بن الوليد» إلى قومي، من بني مدلج فأتيته، فقلتُ بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فأخذ

رسول الله ﷺ بيد خالد، فقال اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد، فهم الذين حالفوا رسول الله ﷺ وصالحوه[1] ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي أو الذين جاؤوكم كافِّين عن قتالكم وقتال قومهم، فقد استثنى تعالى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان: أحدهما من لحق بالمعاهدين، والآخر من جاء محايداً، لا يريد قتال المسلمين، ولا قتال قومه المشركين ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ والحَصَرُ الضيق والانقباض ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي من أن يقاتلوكم وهم «بنو مدلج» وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين، ولا يريدون قتال المشركين لأنهم أقاربهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ببسط أيديهم، وتقوية قلوبهم، وإزالة الرعب عنها ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ببسط ذلك ولم يكفوا عنكم، والمقصود من ذلك الامتنان على المؤمنين ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الصلح، فانقادوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً، أي فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم، بالأسر أو بالقتل.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق، وهم أناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى كفار قريش فيرتكسون إلى الأوثان، ليأمنوا المسلمين، وليأمنوا قومهم، وهم قوم من أسد، وغطفان، وبنو عبد الدار ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي قُلبوا فيها أقبح قلب، وكانوا فيها شراً من كل عدوّ وشرير ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجهٍ ما ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي ولم يكفوا أنفسهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

---

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير ٥٤٦/١ وفي القصة: فصالحهم خالد على أن لا يُعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريشٌ أسلموا معهم، فنزلت ﴿إلاّ الذين يصلون إلى قوم﴾ الآية.

أي تمكنتم منهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ حجة واضحة في أخذهم وقتلهم لظهور عداوتهم، ووضوح كفرهم وخباثتهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ﴾ أي ما صحَّ له وليس من شأنه ﴿أَن يَقۡتُلَ﴾ بغير حق ﴿مُؤۡمِنًا﴾ فإن الإيمان زاجرٌ عن العدوان ﴿إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ أي إلا على وجه الخطأ، فإنه ربما يقع دون قصد ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي فعليه إعتاق نسمة لوجه الله تعالى، عبّر عن الكل بالجزء ﴿مُّؤۡمِنَةٖ﴾ محكوم بإيمانها وإن كانت صغيرة ﴿وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ أي مؤداة إلى ورثته، يقتسمونها كسائر المواريث، والديةُ على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه فيسقطوا الدية، سُمي العفو عنها صدقة، حثاً عليه، وتنبيهاً على فضله ﴿فَإِن كَانَ﴾ أي المقتول خطأ ﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ كفار محاربين ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ولم يعلم به القاتل، لكونه بين أظهر قومه ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ أي فعلى قاتله الكفارة، دون الدية: إذ لا وراثة بينه وبين أهله، لأنهم محاربون، فتجب الكفارة للعصمة وهي الإسلام، ولا تجب الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول المؤمن ﴿مِن

﴿قَوۡمِۢ﴾ كفرة ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ أي عهد موثق ﴿فَدِيَةٞ﴾ أي فعلى قاتله دية ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ من أهل الإسلام إن وُجدوا وقيل: إلى أهله الكافرين للعهد، واستدل بالآية على أن دية الذمي كدية المسلم ﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ كما هو حكم سائر المسلمين، وكونه فيما بين المعاهدين، لا يمنع وجوب الدية، وهذا منتهى العدالة والاعتراف بالمواثيق والعهود ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي رقبة ليحررها، أو لم يجد الثمن ﴿فَصِيَامُ﴾ فعليه صيام ﴿شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ لم يتخلل بين أيامها إفطار، ولو أفطر يوماً ولو بعذر، كالمرض والسفر، استأنفه لانقطاع التتابع بالفطر، والعذرُ يمكن الاحتراز عنه، لأنه قد يجد شهرين لا عذر فيهما ﴿تَوۡبَةٗ﴾ أي شرع لكم ذلك توبة أي قبولاً لها، وفيه إشارة إلى التقصير بترك الاحتياط ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي توبة كائنة من الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بجميع الأشياء ﴿حَكِيمٗا﴾ في كل ما شرع وقضى من الشرائع والأحكام.

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا﴾ لمَّا بين الله تعالى حكم القتل خطأ، عقَّب ذلك ببيان القتل عمداً، واقتصر ههنا على حكمه الأخروي ﴿مُّتَعَمِّدٗا﴾ أي قاصداً قتله عالماً بإيمانه ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ الذي يستحقه بجنايته ﴿جَهَنَّمُ﴾ وقوله تعالى ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ حال كأنه قيل: فجزاؤه أن يدخل جهنم خالداً فيها أي ماكثاً طويلاً إلى حيث شاء الله تعالى ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي انتقم منه ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أي أبعده عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ في جهنم ﴿عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ لا يُقادر قدرُه، لارتكابه أمراً عظيماً، ففي الحديث الشريف «كل ذنب عسى الله تعالى أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»[1] وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة، كُتِبَ بين عينيه يوم القيامة، آيسٌ من رحمة

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم رقم ٤٢٧٠ ورواه النسائي ٧/ ٨١ وهو حديث حسن.

الله»[1] تمسكت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية، في خلود من قتل المؤمن عمداً في النار، وأجاب بعض المحققين، بأن ذلك خارج مخرج التغليظ في الزجر، فقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿كتب عليكمُ القصاص في القتلى﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ شروع في التحذير عما يوجب الندم، من قتل من لا ينبغي قتله، ومن قلة المبالاة في الأمور ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي سافرتم للغزو على ما يدل عليه النباق والسياق والضرب كناية عن الإسراع في السير ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾[2] أي فاطلبوا بيان الأمر، ولا تتعجلوا فيه بغير تدبر، وتحققوا ليتبين لكم المؤمن، من الكافر ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ

---

(١) أخرجه ابن عدي والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٨.

(٢) روى أحمد والترمذي عن ابن عباس قال: مرَّ رجل من بني سُليم على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلَّم عليهم، قالوا: ما سلَّم عليكم إلا ليتعوذ منكم ـ أي ليتخلص منكم ـ فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله. . .﴾ الآية، سنن الترمذي ٥/ ٢٢٤. وروىٰ السدي أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني سُليم، فلقوا رجلاً منهم مع غنم له، فأقبل عليهم فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فشدَّ عليه أسامة فقتله واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فحزن حزناً شديداً وقال: قتلوه من أجل الغنم، فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السيف، فقال ﷺ: هلاَّ شققت عن قلبه!! الحديث.

﴿إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حيَّاكم بتحية الإسلام، والمعنى: ولا تقولوا لمن أظهر لكم ما يدلُّ على إسلامه، أو لمن ألقى إليكم الاستسلامَ والانقيادَ ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ وإنما فعلتَ ذلك خوف القتل، بل اقبلوا منه ما أظهره، وعاملوه بموجبه، والاقتصارُ على ذكر تحية الإسلام، للمبالغة في النهي والزجر، والتنبيه على كمال ظهور خطئهم، ببيان أن تحية الإسلام، كانت كافية في الانزجار عن التعرض لصاحبها، فكيف وهي مقرونة بكلمة الشهادة؟ ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تطلبون ماله، الذي هو حطام الدنيا السريع النفاد ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾ تعليل للنهي، أي فعند الله مغانم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله لأخذ ماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام، تفوهتم بكلمتي الشهادة، فحصَّنتم بها دماءكم وأموالكم، فمنَّ الله عليكم بالإيمان، فقيسوا حاله على حالكم ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ فاطلبوا بيان هذا الأمر، وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم، من قبول ظاهر الحال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفيتها ﴿خَبِيرٗا﴾ مطلعاً أتم اطلاع، فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجاتهم في الجهاد، روى البخاري عن ابن عباس: هم القاعدون عن بدر، ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وفائدة التقييد الإيذان بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم، والإشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتي من الحسنى ﴿غَيۡرُ أُوْلِي

﴿ٱلضَّرَرِ﴾ الضررُ: المرضُ، والعِللُ التي لا سبيل معها إلى الجهاد، كالعمى، والزمانة، أو نحوهما، وفي معناها العجز عن الأهبة ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إنفاقاً فيما يوهن كيد الأعداء ﴿وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ حملاً لها على الكفاح عند اللقاء ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيله ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ من المؤمنين غير أولي الضرر ﴿دَرَجَةٗۚ﴾ لا يقادر قدرها، وهذا التصريح بما أفهمه نفى المساوات فإنه يستلزم التفضيل، ودرجةً منصوب على المصدر لتضمنها التفضيل، كأنه قيل: فضَّلهم تفضيله واللائق بهم ﴿وَكُلّٗا﴾ أي وكل واحد من الفريقين: المجاهدين، والقاعدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المثوبة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ وهي الجنة، والجملة اعتراضٌ جيء به تداركاً لما عسى يوهمه تفضيل أحدهما على الآخر، من حرمان المفضول، وإنما التفاضل في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ مصدر مؤكد أي أجراً لأعمالهم. ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بدل من أجراً بدل الكل، مبين لكمية التفضيل أي درجات كائنة ﴿مِّنۡهُ﴾ تعالى ﴿وَمَغۡفِرَةٗ﴾ أي ومغفرة عظيمة ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ أي ورحمة واسعة، كرَّر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه، تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه، والمراد بالتفضيل الأول، ما خوَّلهم الله عاجلاً في الدنيا من الظفر والغنيمة، والذكر الجميل، وبالثاني ما أنعم الله عليهم في الآخرة، من الدرجات العالية، هذا حكمُ ما بين المجاهدين وبين القاعدين، وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين في الأجر والمنزلة، لما رواه مسلم عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال: إنَّ بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حَبَسهمُ المرضُ»(١)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة رقم ١٩١١ وأخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٣٤ بلفظ «إن قوماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً، إلاَّ وهم معنا، حبسهم العذرُ» وزاد في رواية أبي داود: قالوا يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذرُ».

واحتج بالآية من فضَّل الغنى على الفقر، بناءً على أنه سبحانه فضَّل المجاهدين بأموالهم على القاعدين، وقدَّمهم على المجاهدين بأنفسهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة، إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ التوفي هنا قبض الروح، والمراد من الملائكة ملكُ الموت وأعوانه، وقيل: المراد به مَلَك الموت فقط، وهو من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، والتحقيق أنه لا مانع من نسبة التوفي إلى الله تعالى، وإلى ملك الموت وإلى أعوانه، وفي القرآن الكريم: ﴿الله يتوفى الأنفسَ﴾ و﴿قُل يتوفاكم مَلَكُ الموتِ﴾ و﴿توفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة، واختيار مجاورة الكفار، ولمَّا خرج المشركون إلى بدر، خرجوا معهم، فقتلوا مع الكفار، فنزلت الآية في حقهم ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة للمتوفَّينْ لتقاعدهم عن نصرة الله ورسوله ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا۟﴾ متعللين بما يوجب التقصير ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي في أرض مكة، عاجزين عن القيام بواجب الدين، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم، وإبطالاً لتعللهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾؟ إلى بلدٍ آخر منها تقدرون فيه على إقامة الدين، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة، فأكذبهم الله تعالى، فقد كانوا متمكنين من المهاجرة والخروج في سبيل الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين

شرحت حالهم الفظيعة ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مسكنهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الفريضة المحتومة، فقد كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام أو لنفاقهم ونصرتهم أعداء الله تعالى على خير أحباء الله عزَّ وجل ﴿وَسَآءَتْ﴾ أي بئست جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ أي مصيرهم ومسكنهم، وفي الآية إشارة إلى وجوب المهاجرة، من موضعٍ لا يتمكن الرجل من إقامة دينه، بأي سبب كان.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء منقطع، أي إلا الذين عجزوا عن الهجرة وضعفوا ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي لكنْ من كان منهم عاجزاً مستضعفاً كالرجال المسنين، والنساء والأطفال الصغار، والمراد التسوية بين هؤلاء في عدم الإثم والتكليف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما يتوقف عليه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المستضعفين ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذكر بكلمة الإطماع، ولفظِ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن، ويترصد الفرصة، ويجب طلب العفو، رجاءً وطمعاً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده، يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وقد كان ﷺ يدعو للضعفاء الذين منعهم المشركون من الهجرة فيقول في دعائه: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيَّاش بن ربيعة المستضعفين بمكة، قال ابن عباس: «كنتُ أنا وأبي، ممن عَذر الله تعالى، يعني من المستضعفين»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٢٥٥ قال ابن حجر: أراد بذلك حكاية الآية: ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ فهو من الولدان، وأمُّه من المستضعفين.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ترغيب في المهاجرة، وتأنيس لها ﴿ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ أي يجد فيها متحولاً ومهاجراً، وإنما عبَّر عنه بذلك، تأكيداً للترغيب، لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم، والرغم: الذلُّ والهوانُ، وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب ﴿ وَسَعَةً ﴾ أي في الرزق، وإظهار الدين، فأرض الله واسعة، ورزقه وافر سابغ على العباد ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ﴾ أي قبل أن يصل المقصد، وإن كل ذلك خارج بابه، كما ينبىء عنه إيثار الخروج على المهاجرة ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ثبت أجره عند الله، ثبوت الأمر الواجب، بوعد الله تعالى، وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه، وفي الشرطين دلالة، على أن المهاجر له إحدى الحسنين: إما أن يُرغم أنف أعداء الله تعالى، بالوصول إلى الخير والسعة، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية، والنعيم الدائم، وكلُّ هجرة في غرضٍ ديني، من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو نحو ذلك، فهي هجرة إلى الله عزَّ وجل لحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ مبالغاً في المغفرة، فيغفر له ما فرط

(١) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو حديث مشهور.

منكم من الذنوب، التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت العودة ﴿رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في الرحمة، فيرحمه بإكمال ثواب هجرته ونيته.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إذا سافرتم أيَّ سفر كان، ولذلك لم يقيّده بما قيّد به الهجرة، والمراد من الأرض ما يشمل البر والبحر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي حرج ومأثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟﴾ أي في أن تقصروا، ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي فليس عليكم جناح في أن تقصروا بعض الصلاة، بتنصيفها، وظاهر الآية الكريمة التخيير، وبه تعلق الشافعي، وعند أبي حنيفة ومالك يجب القصر، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس، أخرج النسائي وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «صلاةُ السفر ركعتان، تمامٌ غيرُ قصر، على لسان نبيكم ﷺ»[1] وروى الشيخان عن عائشة أنها قالت: «أولُ ما فرض الله تعالى الصلاة ركعتين، ركعتين، فأُقِرَّت في السفر، وزيدت في الحضر»[2] وروده بنفي الجُناح، لأنهم ألفوا الإتمام، فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أنَّ عليهم نقصاناً، فصرَّح بنفي الجناح لِتَطِيبَ نفوسهم، وتطمئن إليه كما في قوله تعالى: ﴿فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما﴾ مع أن ذلك الطواف واجب ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جراح وأنتم في الصلاة، وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه، أي إن خفتم أن يتعرضوا لكم ما تكرهونه، فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر في شرعية صلاة الخوف، أما في حق مطلق التقصير، فلا اعتبار اتفاقاً، لتظاهر السنن على مشروعيته في حالة الأمن أيضاً، لما رُوي عن يعلى بن أمية أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب إنما قال الله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾ فقد أمن الناسُ، فقال عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم /١٠٥٠/ وأخرجه النسائي أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب قصر الصلاة ٢/٥٦٩ من فتح الباري.

ذلك، فقال: «صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[1] يعني القصر في السفر مع الأمن. وهذا تيسير من الله على عباده، في قصر الصلاة في السفر، سواء كان الناس في خوفٍ أو أمن، والقصر ثابت بهذه الآية في حال الخوف خاصة، وأمَّا في حال الأمن فبالسنة المطهرة، لما تقدم من حديث يعلى بن أمية، ولما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، لا يخاف إلا الله، فصلَّى الرباعية ركعتين». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو كالتعليل لقصر الصلاة، فإنَّ كمال العداوة من موجبات تعرضهم للخطر، واشتغالهم بالصلاة مظنة لوقوعهم في الفتنة، والمعنى: إن الكافرين أعداء لكم، ظاهرو العداوة، ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بعبادة الله أن يقتلوكم، لأنهم أعداء لكم ألداء، فخذوا حذركم منهم، وقد خفَّف الله عنكم الصلاة، فصلُّوا كما علَّمكم الله.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح الآثار مسنداً إلى يعلى بن أمية، ورواه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم ١٠٥١ عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلتُ: ﴿ليس عليكم جناح﴾ فذكره.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه، فيتناولهم الحكم الوارد في حقه عليه الصلاة والسلام، أي وإذا كنت يا محمد مع هؤلاء المؤمنين الخائفين في المعركة، وأردت أن تقيم بهم الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي فاجعلهم طائفتين، طائفة تصلي معك وهم مدجّجون بالسلاح، وطائفة أخرى تقف بإزاء العدو ليحرسوكم منهم، وإنما لم يصرّح بالطائفة الثانية لظهورها ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي ولتأخذ هذه الطائفة القائمة معك أسلحتهم، فلا يضعوها ولا يلقوها، بل تكون مصاحبة لهم، تحرساً من العدوان.. أخرج أبو داود والنسائي عن ثعلبة بنٍ زهدم قال: «كنَّا مع سعيد بن العاص بطبرستان، فقام فقال: أيكم صلّى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، فصلّى بهؤلاء ركعة، وبهؤلاء ركعة، ثم لم يقضوا»[1] وكان هذا بمحضرٍ من الصحابة، ولم ينكره أحد ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي القائمين معك وأتموا الركعة ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو، ونكّرها لأنها لم تذكر قبل ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ الركعة الباقية، ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية من الطائفتين، وقد بين ذلك بالسنة.
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالثانية ركعة كما في الآية، فجاءت الطائفة الأولى وذهبت الأخرى إلى مقابلة العدو، حتى قضت الأولى الركعة الثانية، بلا قراءة وسلموا، ثم جاءت الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة، حتى صار لكل طائفة ركعتان، وهذا ما ذهب إليه إمامنا الأعظم وإنما سقطت القراءة عن الطائفة الأولى في الركعة الثانية لأنهم في حكم المتابعة ولا كذلك

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة رقم ١٢٤٦ والنسائي في صلاة الخوف ١٦٧/٣ قال أبو داود: وروى بعضهم أنهم قضوا ركعة، وانظر الروايات في جامع الأصول ٥/ ٧٤٤.

الطائفة الأخرى لأنهم في الركعة الأولى لم يكونوا مقتدين بالإمام، وذهب بعضهم إلى أن صلاة الخوف ركعة ﴿ وَلْيَأْخُذُوا﴾ الطائفة الأخرى ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ولعلَّ زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة، لكونها مظنةً لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل، وأما قبلها فربما يظنون أنهم قائمون للحرب ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غِرَّة وينتهزوا فرصة، فيشدّوا عليكم شدَّةً واحدة، وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ حيث رخص لهم في وضعها، إذا ثقل عليهم حملها، بسبب مطرٍ أو مرض، وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة أي بعد إلقاء السلاح للعذر، وفيه دلالة على وجوب الحذر، عن جميع المضار المظنونة، كالاحتراز عن الوباء والأمراض المعدية ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر، بعد الأمر بالحزم، ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الواجب أن يحافظوا على ضرورة التيقظ والتدبر، ويعلموا أن التحرز في نفسه عبادة.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أي صلاة الخوف إذا أديتموها على الوجه المبيّن، وفرغتم منها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي فداوموا على ذكر الله تعالى، ومناجاته ودعائه، في جميع الأحوال، حتى في حال القتال، كما في قوله تعالى: ﴿إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[1] وقيل في معنى الآية: إذا أردتم الصلاة، فصلّوا قياماً، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك في غاية البعد، لأن حمل لفظ الذكر على الصلاة مجاز، فلا يُصار إليه إلا لضرورة ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي أقمتم كما قال قتادة ومجاهد، ولما كان الضرب كني به عن السفر، ناسب أن

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

يكنى بالاطمئنان عن الإقامة، وأصل الاطمئنان السكون والاستقرار، أي إذا سكنتم عن السفر، واستقررتم في أمصاركم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة التي دخل وقتها وأتموها، وعدّلوا أركانها، وراعوا شروطها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال، والتعرض لهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ تشجيع لهم أي ليس ما تجدون من الألم بالجراح، والقتل، مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم، يصيبهم كما يصيبكم، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أجدر منهم بالصبر، لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من الثواب في الآخرة، لأنهم لا يعتقدون بالجزاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى، فجدُّوا في الامتثال، فإن فيه عواقب حميدة وفوزاً بالمطلوب.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني إنَّا أنزلنا إليك القرآن لبيان الحق أو ملتبساً بالحق ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ برهم وفاجرهم ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي بما عرَّفك وأوحى به إليك ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي مخاصماً، نزلت في «طُعْمَة بنِ أُبَيْرق» سَرَق درعاً من جاره قتادة بن النعمان، في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند «زيد اليهودي» فالتمست الدرع عند طُعْمة فلم توجد، وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه، واتَّبعوا أثر الدقيق، حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها، فقال دفعها إليَّ «طُعْمة» وشهد له ناس من اليهود، فقال قوم طُعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فاسألوه أن يجادل عن صاحبهم «طعمة» فهمَّ النبي ﷺ أن يعينهم، لأن طعمة في الظاهر من المسلمين، وقومه شهدوا ببراءته فنزلت الآية ثم قال تعالى:

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي استغفر الله تعالى ممَّا هممت به، تعويلاً على شهادتهم، وليس في الآية ما يدل على وقوع ذنب حتى يستغفر منه ولكنْ لعظمته، ومقامه المحمود، يوشك أن يكون كالذنب، فلا متمسك بالأمر بالاستغفار في عدم العصمة، كما زعمه البعض، وقيل: المراد واستغفر لأولئك الذين برَّؤوا ذلك الخائن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن الله كان مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره، روي أن طعمة هرب إلى مكة وارتد، ونقب حائطاً لأجل السرقة فسقط الحائط عليه ومات.

﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي يخونونها، وجعلت خيانة الغير خيانة لأنفسهم، لأن وبالها وضررها عائد عليهم، ويحتمل أنه جعلت المعصية خيانة، فمعنى يختانون أنفسهم يظلمونها باكتساب المعاصي، والمراد طعمة ومن عاونه ببراءته من قومه، فإنهم شركاء في الإثم والخيانة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ كثير الخيانة، مفرطاً فيها، ومصرَّاً عليها ﴿ أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها، وصيغة المبالغة لبيان إفراطهم في الخيانة والإثم،

فإن قيل لم قيل: ﴿خوَّاناً﴾ مع أنَّ طعمة صدر عنه خيانة واحدة؟ قلنا: علم الله أنه كان فيه خيانة كثيرة، فلذلك جاء بصيغة المبالغة، روي أن عمر رضي الله عنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها، فاعفُ عنه، فقال: كذبتِ، إن الله تعالى لا يؤاخذ في أول مرة!!.

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفاً ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحق أن يُسْتحيَىٰ منه، ويُخاف من عقابه، وإنما فسّر الاستخفاء بالاستحياء، لأن الاستتار منه تعالى محالٌ، فلا فائدة لنفيه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ عالم بهم وبأحوالهم، فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يؤاخذ به، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ أي يدبّرون ويزوّرون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ من رمي البريء، وشهادة الزور، ولعلهم اجتمعوا في الليل، ورتَّبوا كيفية المكر، فسمى الله تعالى كلامهم ذلك، بالقول المبيَّت الذي لا يرضاه سبحانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿مُحِيطًا﴾ لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوته، بل هو سبحانه مطلع على الخفايا والنوايا.

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خطابٌ لقوم طعمة، أي ها أنتم يا معشر القوم ﴿ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خاصمتم عن طعمة وأمثاله في الدنيا ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ عند تعذيبهم، ومن يدفع عنهم إذا أخذهم الله بعقابه؟ ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؟ حافظاً من بأس الله تعالى وعقابه؟ والاستفهام في الموضعين للنفي أي لا أحد يجادل عنهم، ولا أحد يكون عليهم وكيلاً.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ قبيحاً يسوء به غيره، كما فعل «طعمة» ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة الصادقة، ولو قبل الموت بيسير ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا ﴾ لما استغفره منه كائناً ما كان ﴿ رَّحِيمًا ﴾ متفضلاً عليه، وفيه مزيد ترغيب في التوبة والاستغفار.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ ﴾ أي يفعل ﴿ إِثْمًا ﴾ ذنباً من الذنوب ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ ﴾ بحيث لا يتعدى ضرره إلى غيرها، فليحترز عن تعريضها للعقاب عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ مراعياً للحكمة ومن ذلك أن لا تحمل وازرة وزر أخرى.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾ أي صغيرة، أو ما لا عمد فيه من الذنوب ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ أي كبيرة، أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ ﴾ أي يقذف به ﴿ بَرِيٓـًٔا ﴾ مما رماه به، كما فعل طُعمة باليهودي ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ ﴾ أي بما فعله من تحميل جريمته على البريء ﴿ بُهْتَٰنًا ﴾ هو الكذب الذي يتحير في عظمته ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي جرماً وذنباً فاحشاً.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإعلام الله لك بالوحي ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من الذين دافعوا بالباطل عن طعمة ﴿ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي وبال إضلالهم راجع إليهم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ فإن الله عصمك، وما خطر

ببالك كان اعتماداً منك على أقوالهم، لا ميلاً عن الحكم ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن الجامع بين العنوانين، وقيل: المراد بالحكمة السنة ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بالوحي أمور الدين، وأحكام الشرع ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الشرائع والأمور الغيبيّة ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة، والرياسة التامة، والشفاعة العظمى، وهذا أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل، لأن الفضل العظيم كان بتعليم العلم.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ الضمير للناس والنجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة أو اثنان يقال ناجيته أي ساررته، والاسمُ النجوى، وتكون بمعنى التناجي، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي لكنْ في نجوى من أمر بصدقة ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل ما عرفه الشرع، واستحسنه، فيشمل جميع أصناف البر كإغاثة ملهوف، وإرشاد ضال وغير ذلك ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند وقوع المعاداة بينهم، من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع، نعم أبيح الكذب لضرورة الإصلاح كما جاء في الحديث الشريف: «ليس الكذّابُ الذي يُصلح بين الناس»[1] وعن أبي الدرداء قال: قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٥/٢٢٠ ومسلم رقم ٢٦٠٥ وتتمته: «يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» أي ينقل كلاماً فيه خير وهو غير صادق فيه.

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذات البين»[1] ولا يخفى أن هذا ونحوه مُخْرَجٌ مَخْرَجَ الترغيب، وليس المراد ظاهره، إلا أن يكون إصلاحاً، يترتب على عدمه شر عظيم بين الناس ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الصدقة، وعمل الخير، والإصلاح بين الناس ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي لأجل طلب رضاء الله تعالى، والتقييد به لأن الأعمال بالنيات، وأن من فعل خيراً لغير ذلك، لم يستحق به غير الحرمان ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يحيط به نطاق الوصف.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي يخالفه والتعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا عليه من المشاقة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق، قال الزجاج: والآية نزلت في «طُعمة» لمَّا ارتد بعد أن أسلم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي غير ما هم عليه من عقد، وعمل، وهو الدين القيّم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نجلعه والياً لما تولاه من الضلال، بأن نخلي بينه وبين ما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ في العقبى أي ندخله إياها ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي جهنم، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه تعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقَّة، واتباع غير سبيل المؤمنين، لحرمة كل واحد منهما[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ كرر للتأكيد، وخص هذا الموضع به ليكون كالتكميل لقصة من سبق، بذكر الوعد بعد

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٩١٩ والترمذي في صفة القيامة رقم ٢٥١١ قال الترمذي: صحيح، وتتمّته: «فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

(٢) جعل تعالى اتّباع غير طريق المؤمنين ضلالاً، لأن هذه الأمة المحمدية معصومة بمجموعها، لا بأفرادها، كما قال ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» فدلَّ ذلك على لزوم الجماعة، وسلوك طريق المؤمنين «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» كما جاء في الحديث الشريف!!.

ذكر الوعيد ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ شيئاً من الشرك أو أحداً من الخلقِ مع الله تعالى ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ عن الحق، وإنما جعل الجزاء ههنا ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفيما تقدم ﴿فقد افترى﴾ لما أن تلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على صحة أمر الرسول ﷺ ومع ذلك كفروا، فصار ذلك افتراءً واختلاقاً على الله تعالى، وهذه الآية في أناس لم يعلموا كتاباً، ولا عرفوا من قبلُ وحياً، فأشركوا وضلوا مع وضوح الحجة، وكان ضلالهم بعيداً.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي ما يعبدون من دونه عزَّ وجل ﴿ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ جمع أنثى، كاللات، والعُزَّىٰ ومناة، ونحوها، وكان لكل حي صنم يعبدونه، ويسمونه أنثى بني فلان لأنها كانت جمادات، والجمادات تؤنث؛ ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم، وقيل: المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله ويقولون في أصنامهم هنَّ بنات الله وكانوا يجعلون عليها أنواع الحلي ويزينونها على هيئة النِّسوة، وقيل سماها الله تعالى إناثاً لضعفها وقلة خيرها ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ أي وما يعبدون ﴿ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أي شيطاناً طاغياً متمرداً، بلغ الغاية في العتو والفجور هو الذي أغواهم على عبادتها، فكانت طاعتهم له عبادة، والمريد والمارد هو العاري عن الخير.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي طرده وأبعده عن رحمته ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي شيطاناً مريداً، جامعاً بين الفجور، وبين لعنة الله، وقد

أقسم على أن يضل البشر، ويجعل منهم حظاً مقدراً معلوماً من أتباعه المجرمين[1].

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ عن الحق بالدعاء إلى الضلالة ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ الأماني الباطلة ويقول لهم ليس وراءكم بعثٌ ولا نشر، ولا جنة ولا نار، فافعلوا ما شئتم ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ بالتبتيك ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي فليقطعنَّها. وليشقنها بموجب أمري، وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله، من شق أو قطع أذن الناقة، إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وتحريم ركوبها والحمل عليها، وسائر وجوه الانتفاع بها ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ ﴾ ممتثلين بلا ريث ﴿ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ عن نهجه صورةً أو صفة، ويندرج فيه خصاءُ العبيد، والوشمُ، والوشرُ، اللواطة، والسحاق، ونحو ذلك، وخُصَّ من تغيير خلق الله، الختان، والوشم لحاجة، وقصُّ ما زاد من اللحية ونحو ذلك ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بإيثار ما يدعو إليه، على ما أمر الله تعالى به، ومجاوزته عن طاعة الله إلى طاعته ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ أي ظاهراً وأيُّ خسرانٍ أعظم من أن يضيع رأس ماله، ويبدل مكانه من الجنة، بمكانه من النار.

﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ أي ما لا يكاد ينجزه ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ الأماني الفارغة وما لا ينالون ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الشيطان وأولياء الشيطان ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مرجعهم ومستقرهم جهنم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي معدلاً ومهرباً، وهو اسم مكان من حاصَ يحيص إذا عدل وولّى، ومنه: «وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ» أي في أمرٍ يعسر التخلص منه، أي مالهم من معدلٍ يلجأون إليه.

---

(١) هذا النصيب من أتباع الشيطان هم بعث النار، كما جاء في الحديث الصحيح، يقول الله عزَّ وجل لآدم يوم القيامة: «يا آدمُ أخرجْ بعثَ النار من ذريتك!! قال يا ربِّ وما بعثُ النار؟ ـ أي ما مقداره وما عدده؟ ـ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون...» الحديث أخرجه مسلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتبع الشيطان وإخوانه ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وهذا وعد إثر وعيد الكافرين، وإنما قرنهما زيادةً لمسرة هؤلاء، ومساءة أولئك ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ وعدُ الله ذلك الذي ذكره وعد حق لا شك فيه ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي قولا جملة بليغة مؤكدة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في تحصيله، والقيلُ: مصدرٌ كالقول، والقال، وقال ابن السكيت: القيلُ والقالُ اسمان لا مصدران.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان، والعمل الصالح، قال الحسن البصري: «ليس الإيمانُ بالتمني، ولا بالتحلي، ولكنْ ما وقَرَ في القلب، وصدَّقه العمل»[1] والآية ردٌّ على اليهود والنصارى الذين قالوا ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ولهذا أتبعه بقوله ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ عاجلاً أو آجلاً، وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: «لمّا نزلت هذه الآية، شقَّ ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: سدّدوا وقاربوا فإن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٠.

في كل ما أصاب المسلم كفارةٌ، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة يُنكبها»[1] والأحاديث في هذا المعنى أكثر، ولهذا قال العلماء: إن الأمراض ومصائب الدنيا وهمومها، يكفرَ الله بها الخطيئات ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجد لنفسه، إذا جاوز موالاة الله ونصرته، من يواليه وينصره، في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي بعضها أو شيئاً منها، فإن كل أحد لا يتمكن من كلها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال أي سواءً كان العامل ذكراً أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط اقتران العمل به، فلا اعتداد بالعمل بدون الإيمان، وفيه دفع توهم أن العمل الصالح ينفع الكافر ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من اتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم ينقص ثواب المطيع، فبالحري أن لا يزاد في عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في البرّ والصّلة رقم ٢٥٧٤ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٤ وهذه رواية الترمذي، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/ ١١٠.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، لا يعرف لها رباً سواه، وهذا غاية العبودية أن يستسلم العبد وينقاد لأمر الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي آت بالحسنات، وبالأعمال الصالحة، على الوجه اللائق الذي فسره به ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه» ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام، مستقيماً على سبيله ومنهاجه ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائغة إلى الدين الحق ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي اصطفاه وخصصه بكرامة، تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره تفخيماً لشأنه عليه السلام، والخليلُ: الصديقُ الحميمُ، سمي خليلاً لأن المحبة لله تتخلل القلب حتى لا تدع فيه مكاناً إلا ملأته وخالطته، وهي صفة اختص بها إبراهيم عليه السلام.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله على أهل السماوات والأرض، ببيان أن ما فيهما من الموجودات له تعالى، فيختار منهما من يشاء، وما يشاء، وهو دليل على أن اتخاذه خليلاً، لاحتياجِ الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى، وفيه أيضاً إشارة إلى أن خلته لا تخرجه عن العبودية لله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة، فكان عالماً بأعمالهم، فيجازيهم على خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ الاستفتاء طلب الفتوى، يقال: استفتيتُ الرجلَ فأفتاني، أي يطلبون منك تبيين المشكل من الأحكام في النساء، مما يجب لهن وعليهن، وقال غير واحد: إن المراد يستفتون في ميراثهن والقرينة على ذلك سبب النزول، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، وكانوا يقولون: لا يغزون، ولا يغنمون فنزلت ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين الله تعالى لكم حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وما يتلى عليكم في القرآن يبين لكم ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي ما يتلى عليكم في شأنهن، وإضافة اليتامى إلى النساء، بمعنى «مِنْ» لأنها إضافة الشيء إلى جنسه ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا

﴿كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي ما كتب الله لهنَّ من الميراث ومن الصداق ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن، إن كن جميلات، لا لأجل المعاشرة بل لأكل مالهن، وإلاَّ كانوا يعضلوهن طمعاً في ميراثهن ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على يتامى النساء وقد كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النساء ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي ويأمركم أن تقوموا وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للأولياء والأوصياء بالنصفة في حقهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ في حقوق المذكورين ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ حسبما أُمرتم به، أو ما تفعلونه من خير على الإطلاق، ويندرج فيه ما يتعلق بهؤلاء اندراجاً أولياً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه، واقتصر على ذكر الخبر، لأنه هو الذي رغب فيه، وفي ذلك إشارة إلى أن الشر مما لا ينبغي أن يقع منهم.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ هذا من جملة ما اخبر الله تعالى أنه يفتيهم به في النساء، مما لم يتقدم ذكره في هذه السورة، والخوف إمَّا على حقيقة، أو على التوقع، أي وإن امرأة توقعت لما ظهر لها من المخايل والأمارات﴿مِن بَعْلِهَا﴾ أي زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها، وترفعاً عن صحبتها، كراهةً لها، ومنعاً لحقوقها مسيئاً عشرتها، وأن يؤذيها بسبب من الأسباب ويطلق على كل من صفة أحد الزوجين ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بأن يقل

مجالستها ومحادثتها ومضاجعتها، وهي أخف من النّشوز، لكبرٍ في سن، أو دمامة، أو مَلاَل، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي فلا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْهِمَآ﴾ أي المرأة وبعلها حينئذ ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تحطَّ له بعض المهر، أو القَسْم، أو تهبَ له شيئاً لتستعطفه بذلك، وتستديم المودَّة بينهما، وصدَّر ذلك بنفي الجُناح، لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة، وذكر «بينهما» تنبيهاً على أنه ينبغي أن لا يطَّلع الناس على ما بينهما، أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: «خشيتْ سودةُ رضي الله عنها أن يطلّقها رسولُ الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: لا تطلّقني وأجعلُ يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية»[1]. وأخرج الشافعي عن ابن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة، كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمراً، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلّقني، واقْسِمْ ما بدا لك، فاصطلحا، فجرت السُّنَّةُ، ونزل القرآن ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة وسوء العشرة، أو من الخصومة، ويجوز أن لا يراد به التفضيل، بل بيان أنه من الخير، كما أن الخصومة من الشر ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ والجملتان اعتراضٌ، الأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة والشقاق، ومعنى إحضار الأنفس الشح: جعلها حاضرة له، مطبوعة عليه[2] فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها، والتقصير في حقها، ولا الرجل يسمح بأن يمسكها، ويقوم بحقها على ما ينبغي، إذا كرهها أو أحبَّ غيرها.. ثم حثَّ الله تعالى على متابعة الشريعة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ في العِشْرة مع النساء، بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض، وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة، ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن، أو بذل ما يعزُّ عليهنَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢.

(٢) الشُحُّ: هو البخل الشديد مع الحرص على عدم الإنفاق، فالشحُّ أقبح من البخل.

والخصومة، وغير ذلك من أعمالكم ﴿خَبِيرًا﴾ عليماً به فيجازيكم عليه، وفي خطاب الأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان، ولفظ التقوى، من لفظ الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفى.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميلٌ البتَّة، لا في المعاملة، ولا في ميل القلب إلى جانب إحداهن، وهذا غير ممكن بين البشر، رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهمَّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملِكُ، ولا أملك»[1]. ومراده ﷺ «بما لا أملك» ميل القلب فإنه ليس بطاقة الإنسان ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على تحري ذلك، وبالغتم فيه ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور، واعدلوا ما استطعتم، ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أي التي ملتم عنها فتدعوها ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذا بَعْل، ولا مطلقة، وفي الحديث الشريف «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحدُ شقيه ساقط»[2] ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ فيما يستقبل من الجور والميل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر لكم ما مضى من الحيف والظلم ﴿رَّحِيمًا﴾ يتفضل عليكم برحمته.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ أي وإن لم يتفقا على شيء، وتفرَّقا بالخلع أو بالطلاق، يغني الله كلاً منهما عن الآخر، أي يجعله مستغنياً عن الآخر ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من غناه وقدرته أي يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه، وفيه تسلية للزوجين بعد المفارقة، وقيل زجر لهما

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٣٤ والترمذي رقم ١١٤٠ باب التسوية بين الضرائر.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٤١ وأبو داود في النكاح أيضاً رقم ٢١٣٣ والنسائي في عشرة النساء ٧/٦٣ وفي رواية أبي داود: «جاء يوم القيامة وشقه مائل».

عن المفارقة، وكيفما كان فهو مقيد بمشيئة الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ كافياً للخلق ﴿حَكِيمًا﴾ متقناً في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا (١٣٤)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جملة منبهة على كمال سعته وعظيم قدرته ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يعني اليهود والنصارى ومن سبقهم من الأمم، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ أي كما وصيناكم أنتم ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي أمرنا كلاً منكم ومنهم، بأن اتقوا الله، فالمعنى أن الأمر بالتقوى قديمة، أوصى الله تعالى بها جميع عباده ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي وقلنا لكم ولهم: إن تكفروا فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت، فلا يضره كفركم، كما أنه لا ينفعه شكركم وتقواكم، وصّاكم بذلك، لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿حَمِيدٗا﴾ في ذاته، محموداً، في ملكوته، سواء حمدتموه أو لم تحمدوه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي له سبحانه ما فيهما من الخلائق، يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ في تدبير أمور الكل.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي إن يردْ إذهابكُم يهلككم ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ قال ابن عباس: المراد من «الناس» المشركون والمنافقون، أي يوجد قوماً آخرين من البشر، وفيه تهديد للكفار، يعني أن إبقاءكم على ما

أنتم عليه من الكفر والعصيان، إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، لا لعجزه سبحانه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي إفنائكم بالمرة، وإيجاد آخرين ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة، لا يمتنع شيء عليه أراده.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي همُّه الدنيا فقط، كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة، والمنافع الدنيوية ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فمَالَهُ يطلب أخسهما؟ فليطلبهما أو ليطلب الأشرف منهما، وهو ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك، ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التَّبع، كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان همه الآخرة، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، فرَّق الله تعالى شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما كُتِب له»[1]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فيه معنى التوبيخ أي يرائي المرائي، والله تعالى سميع بما يهجس في خاطره، بصيرٌ بأحواله فيجازيه على ذلك.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨٣ ورواه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٧ بلفظ «من كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاَّ مَا قُدِّر له..» الحديث، وانظر جامع الأصول ١١/ ١١.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته حقَّ الاجتهاد، نبَّه سبحانه بلفظ القوّامين، على أن مراعاة العدالة يجب أن تكون على الدوام، فإن من عدل مرة أو مرتين، لا يكون في الحقيقة عادلاً بل ينبغي أن يكون مستمراً في العدل ﴿شُهَدَآءَ﴾ بالحق ﴿لِلَّهِ﴾ بأن تقيموا شهاداتكم لوجه الله تعالى، لا لغرض دنيوي ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، بأن تُقرُّوا عليها، لأن الشهادة بيان للحقّ، سواءً كان عليه أو على غيره ﴿أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ ولو كانت على والديكم وأقاربكم، أو أقرب الناس إليكم ﴿إِن يَكُنۡ﴾ أي المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ يُبتغى في العادة رضاؤه ويُتَّقى سخطُه ﴿أَوۡ فَقِيرٗا﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، ولا تجوروا فيها ميلاً أو ترحماً ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ بالغني والفقير، وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة ـ عليهما أو لهما ـ صلاحاً لما شرعهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي هوى أنفسكم، إرادة ﴿أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ عن الحق من العدول، أي تظلموا وتجوروا في شهادتكم ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، بأن تأتوا بها لا على وجهها ﴿أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ أي تتركوا إقامتها فيكتمها أو لا يقيمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الليِّ والإعراض ومن جميع أعمالكم ﴿خَبِيرٗا﴾ فيجازيكم عليها لا محالة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامِنُواْ﴾ اثبتوا على الإيمان، وداوموا عليه، وازدادوا فيه طمأنينةً ويقيناً، وقيل: الخطاب للمنافقين فمعنى «آمنوا» أي أخلصوا الإيمان واختاره الزجاج ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي القرآن الكريم ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي جنس ما أنزل على الأنبياء ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك، فقد ضل بعيداً عن المقصد، لا يكاد يعود إلى طريقه ويستفاد منه أن الكفر بأي بعضٍ كان ضلال مبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد عوده إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، رُوي ذلك عن قتادة، والذي يميل القلب إليه، أن المراد قوم تكرَّر منهم الارتداد، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن علي أنه قال، في المرتد: يُستتاب ثلاثاً، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إذ يُستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر، ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم خربت بالكفر، وبصائرهم عميتْ عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم، ولم يغفر لهم.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ يعني إلى النجاة، أو إلى الجنة.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وضع «بشّرْ» موضع «أنْذِرْ» تهكُّمٌ بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وجيعاً يصل وجعه إلى قلوبهم، وهذا يدل أن الآية في المنافقين، فهم قد آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر، مرة بعد أخرى، ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ والمراد بالكافرين اليهود والمشركين

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ أي المنافقون ﴿عِندَهُمُ﴾ أي عند الكافرين ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ القوة والغلبة والمنعة؟ والاستفهام للإنكار ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إنها مختصة به تعالى، يعطيها من يشاء، وقد كتبها سبحانه لأوليائه فقال: ﴿ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنِينَ﴾[1].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للمنافقين لزيادة التوبيخ، كأنه قيل: أتتخذونهم أولياء وأصدقاء توالونهم، والحال أنه تعالى قد نزَّل عليكم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي أنه إذا سمعتم آيات القرآن، يكفر بها الكافرون، ويستهزىء بها المستهزئون، فلا تجالسوهم ولا تسمعوا لهم وقوله تعالى: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات، جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وإذَا رأيتَ الذّينَ يَخُوضونَ في آيَاتِنَا فأعْرِضْ عنهُمْ حتَّى يخوضُوا في حَديثٍ غَيْرِهِ﴾ كان المنافقون يجالسون اليهود ويخوضون معهم مع الاستهزاء، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهي المسلمون عن مجالسة المشركين بمكة، وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم، فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم؟! ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم، لأنكم قادرون على الإعراض عنهم، والإنكار عليهم، قال العلماء: وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله، كان في الإثم بمنزلتهم، إذا رضي به، وإن لم يباشره، فإن جلس ولم يرض بفعلهم، بل كان ساخطاً عليهم، وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ

---

(١) العزة غير الكِبر، فهي إكرام المرء نفسه فلا يضعها موضع الذلة والهوان، وأما الكبر فهو جهل وغرور، وهو أن ينزل الإنسان نفسه فوق منزلتها، قال رجل لعلي رضي الله عنه: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً!! قال ليس ذاك بالكبر، ولكنه عزة المؤمن، وتلا الآية ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، وقد وضع موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالنفاق، وتعليلاً للحكم بمأخذ الاشتقاق. قال بعض المحققين: إن المقصود من الخطاب هنا المؤمنون الصادقون، والمراد بمن يكفر ويستهزىء المنافقون والكافرون، ويؤيد ذلك ما نقل عن الواحدي أنه قال: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم، واستدل بعضهم بالآية على تحريم مجالسة الفساق والمبتدعين، والمراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ صفة للمنافقين، والخطاب للمؤمنين الصادقين أي ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فإن كان فتح وظفر على الأعداء ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نجاهد عدوكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ في الحرب وغلبة على المسلمين، سمَّى ظفرَ المسلمين فتحاً، تعظيماً لشأنهم، ولتضمنه إعلاء كلمة الله، ونصرة الدين، وظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم، لأنه مقصور على أمر دنيوي، سريع الزوال ﴿قَالُوٓا۟﴾ للكفرة ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم نغلبكم، ونتمكن من قتلكم، وأسركم، ونطلعكم على أسرار محمد وأصحابه؟ ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبَّطناهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم، فهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم منهم، ومراد المنافقين إظهار المنة على المشركين، في أنهم كانوا السبب في انتصار الكفار على المؤمنين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حكماً يليق بشأن كل منكم، من الثواب والعقاب ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، بدليل أنه عطفه على قوله ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أو في الدنيا، أي لم يجعل لهم على المؤمنين سلطاناً تاماً بالاستئصال، أو حجة قائمة عليهم.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، وعن الحسن البصري أن المراد يخادعون النبي ﷺ على حد قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي فاعل بهم ما يُفعل في الخداع، حيث تركهم في الدنيا كأنهم مسلمون، معصومو الدم والمال، وأعدَّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين متباطئين، لا نشاط لهم كالمكْره على الفعل، لأنهم لا يعتقدون ثواباً في فعلها، ولا عقاباً في تركها ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلاّ ذكراً قليلاً باللسان، واستدل بالآية على استحباب دخول الصلاة بنشاط.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإيمان، والكفر أي متردّدين بينهما، متحيرين، قد ذبذبهم الشيطان(١)، وأصل الذبّ: الطردُ، ذبذبه إذا تركه

---

(١) في الحديث الشريف «مثل المنافق كمثل الغنم العائرة بين الغنمين ـ أي المترددة بين القطيعين من الغنم ـ تُعير إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرة» أخرجه مسلم والنسائي، وزاد=

متردّداً ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي لا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة، لإضمارهم الكفر، ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ موصلاً إلى الحق والصواب، فضلاً أن يهديه إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبَّهوا بهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي حجة بينة، فإن موالاتهم دليل على النفاق، وفيه دلالة على أن الله تعالى، لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة، دون متعلقها، بأن يقال: أتجعلون لله عليكم سلطاناً، للمبالغة في إنكاره، وتهويل أمره، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلاً عن صدور نفسه.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهي الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان عذابهم كذلك، لأنهم أخبث الكفرة، إذ ضمّوا إلى الكفر استهزاءً، بالإسلام، وخداعاً للمسلمين، وأما قوله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ» الحديث، فمن باب التشديد والتهديد، مبالغةً في الزجر، والدَّرْكُ كالدَّرج، إلا أنه يقال باعتبار الهبوط، والدَّرَجُ باعتبار الصعود ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ يخلصهم منه أو يخفف عنهم ما هم فيه[2].

= النسائي: «لا تدري أيّها تتبع».

(١) سورة النور، آية: ٤٠.

(٢) تدبر هذه الآيات الكريمة، وانظر بعين العظة والاعتبار، إلى حال هؤلاء المنافقين الأشرار، فقد شرط تبارك وتعالى للتوبة على الكفار شرطاً واحداً، وهو الانتهاء عن الكفر ﴿قلْ للذين كفروا إن ينتهوا يُغْفر لهمْ ما قد سَلَف﴾ وأما المنافقون فقد شرط للتوبة عليهم أربعة شروط وهي: التوبة الصادقة، وإصلاح ما فسد من العمل، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ومع كل هذه الشروط فقد جعلهم في ضمن =

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به، وتمسكوا بدينه ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ﴾ أي جعلوه خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ورضاه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلاً منذ آمنوا ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؟ أي أيَّ شيء يفعل الله تعالى بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستدفع به الضر، كما هو شأن الملوك، فإنه الغني المتعالي عن أمثال ذلك، وإنما هو أمر يقتضيه الكفر، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي مثيباً على الشكر، يقبل اليسير، ويعطي الجزيل ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع أحوالكم وأعمالكم، فيجازيكم على ذلك.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ المراد بالجهر هنا الإظهار، أي لا يحب الله سبحانه أن يُعلن أحد بالسوء بين المؤمنين، بذكر العيوب والسيئات، لأن في هذا الجهر مفسدتين: **الأولى**: أنها مجلبة للعداوة وقد

= المؤمنين تبعاً، ولم يقل: هم المؤمنون، وجعل الأجر لأهل الإيمان دونهم، للتنبيه على عظم جريمة النفاق والمنافقين.

تفضي إلى سفك الدماء. **الثانية**: أنها تؤثر في نفوس السامعين بما تورث من الضغائن، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار»[1] ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جَهْر من ظُلم، بالدعاء على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء، فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المستبَّان ما قالا ـ يعني إثم ما قالا من السباب ـ فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»[2] يعني إذا تجاوز المسبوب في السبّ، يكون آثماً أيضاً، وقيل: إن الله تعالى لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم، بل يحب لهم أن يكونوا أعزة، أباة، وقال ﷺ في الحديث الشريف: «لَيُّ الواجد ظلمٌ، يُحلُّ عِرْضَه، وعُقوبته»[3] واللَيُّ: المطلُ، والواجدُ: القادرُ على وفاء دينه، يُحلُّ عرضه بأن يقال: فلان ظالم يمطل، ويبيح للإمام عقوبته وتعزيره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ بجميع المسموعات، فيندرج فيه كلامُ المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات، ومن جملتها حال الظالم والمظلوم.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ أي تظهروا أيَّ خيرٍ كان، من الأقوال والأفعال ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تفعلوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ مع ما سُوِّغ لكم من مؤاخذة المسيء، والتنصيصُ عليه مع اندراجه في إبداء الخير، لما أنه الحقيق بالبيان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حثٌّ للمظلوم على تقديم العفو،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣١٥ ورواه البخاري في الرقاق ٢٦٦/١١ بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم، أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٢) أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٨٧ وأبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٤ والترمذي رقم ١٩٨٢ ولفظه عندهم «فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم».

(٣) أخرجه أبو داود في الأقضية رقم ٣٦٢٨ والنسائي في البيوع ٣١٦/٧ ورواه البخاري تعليقاً ٤٦/٥ في الاستقراض، قال الحافظ في الفتح: وصله أحمد وإسحق في مسنديهما.

بعدما رخَّص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لأن جميع الخيرات تنحصر في قسمين: **أحدهما**: صدق النية والعمل مع الحق، **والثاني**: التخلق بحسن الخلق مع الخلق، فتدخل في هذه الكلمات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ هم اليهود والنصارى، وهو ما يقتضيه رأيهم، لا أنهم يصرّحون بذلك ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ بأن يؤمنوا بالله تعالى، ويكفروا بالرسل ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ كما فعل أهل الكتاب، وما ذلك إلا كفر بالله، وتفريق بين الله تعالى ورسله، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء، فمن كفر بواحدٍ منهم فقد كفر بالكل، وبالله تعالى أيضاً ﴿ وَيُرِيدُونَ ﴾ بقولهم ذلك ﴿ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بين الإيمان والكفر ﴿ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ أي طريقاً يسلكونه، مع أنه لا واسطة بينهما، إذ الحق لا يختلف، كما قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلاّ الضلال﴾؟

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ هم الكاملون في الكفر محققاً، ولا عبرة بإيمانهم هذا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لهم، وإنما وضع الاسم الظاهر، ذماً لهم ﴿ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ يهينهم ويذلهم.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي لم يؤمنوا ببعض الرسل ويكفروا بالبعض ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت المذكورة ﴿ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ﴾ نعطيهم، وتصديره بسوف للتأكيد، والدلالة على أن الوعد كائن لا محالة، وإن تأخر ﴿ أُجُورَهُمْ ۗ ﴾ الموعودة لهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما فرط منهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ مبالغاً في الرحمة، فيضاعف حسناتهم.

﴿ يَسْـَٔلُكَ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم أحبار اليهود ﴿ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ حيث قالوا: إن موسى جاء بألواح من عند الله، فأتنا بألواح من عند الله، فطلبوا أن يكون المنزل جملة، وأن يكون بخط سماوي، وقال قتادة: إنهم سألوا أن يُنزِّل عليهم كتاباً خاصاً لهم ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ ﴾ شيئاً ﴿ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ المذكور وأعظم، فإن استعظمتَ ما سألوه منك، فقد سألوا موسى أكبر منه، والمعنى: أن لهم في ذلك عرقاً راسخاً، وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالتهم وخبالاتهم، وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد، والفسق والفساد، ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي مجاهرين معاينين ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ أي نار جاءت من السماء فأهلكتهم ﴿ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في الدنيا ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي المعجزات التي أظهرها لفرعون وقومه، لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم في وقت الاتخاذ ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ ﴾ حين تابوا، وهذا استدعاء لهم إلى التوبة، كأنه قيل: إن الذين أجرموا وتابوا عفونا عنهم، فتوبوا أنتم أيضاً حتى نعفو عنكم ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ حجة ظاهرة على من خالفه كالعصا، واليد، يعني أن قوم موسى وإن كانوا قد بالغوا في العناد معه لكنا نصرناه وفيه بشارة للرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه ﷺ في العاقبة يستولي عليهم.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ أي رفعنا الطور كائناً فوقهم ﴿ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ أي بسبب ميثاقهم، روي أنهم همُّوا بنقضه فرفع عليهم، فخافوا وأقلعوا عن

النقض ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان يوشع عليه السلام بعد مضي زمان التيه ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ خاضعين شكراً لله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود ﴿لَا تَعْدُوا﴾ لا تتجاوزوا ﴿فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً بأن يأتمروا بأوامر الله تعالى، وينتهوا عن مناهيه، والمراد بعدم اعتدائهم في السبت، عدم اصطيادهم يوم السبت، فقد كان محرماً ذلك عليهم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم ميثاقهم، فعلنا بهم ما فعلنا، من اللعن، والمسخ، وغيرهما من العقوبات ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما في كتبهم ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي قتلهم رسل الله بغياً وعدواناً، وهذه أعظم الجرائم ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مستورة بأغطية فلا نفهم ما تقول ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس عدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً، بل ختم الله عليها بسبب كفرهم، وهذا الطبع بمعنى الخذلان ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان، أو قليلاً منهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ عطف على «كفرهم» الذي قبله، والمراد بالكفر الكفر بعيسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره، حيث نسبوها إلى الزنى فقالوا إنها زانية، وتمادوا على ذلك، غير مكترثين بقيام المعجزة بالبراءة.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ على سبيل التبجح ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ نظم قولهم هذا في سلك جناياتهم، لابتهاجهم بقتل النبي، والاستهزاء به، فإن وصفهم له بعنوان الرسالة، إنما هو بطريق التهكم به، كقول المشركين لرسولنا ﷺ: ﴿يا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عليه الذِكْر إنّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ادَّعىٰ اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وصدَّقهم النصارى على ذلك، فكذَّبهم الله عزَّ وجل جميعاً، وردَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ روي عن ابن عباس أنَّ رهطاً من اليهود سبُّوه وأمه، فدعا عليهم فمسخوا قردةً وخنازير، فبلغ ذلك يهوذا فجمع اليهود، فاتفقوا على قتله، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل بيتاً ورفعه منه إلى السماء، ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه «طيطانوس» ليقتله فلم يجده، وألقى الله تعالى عليه شَبَه عيسى، فلما خرج قتلوه ظناً منهم أنه عيسى وصلبوه، والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقع لهم تشبيه بين عيسى، ومن صُلب ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى وهو يعمُّ اليهود والنصارى، فقال اليهود قتلناه، وتردد الآخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وأما النصارى فهم متفقون على أن اليهود قتلوه، والنسطورية منهم يدَّعون أن المسيح صُلب من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي لفي تردد ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكنهم يتبعون الظنَّ، وفي الأناجيل «أن المسيح قال لتلاميذه: كلكم تشكُّون فيَّ هذه الليلة»[1] أي الليلة التي يُطلب فيها للقتل، فإذا كانت أناجيلهم ناطقة، بأنه أخبر أن تلاميذه وهم أعرف الناس به، يشكُّون فيه في ذلك الوقت، فهل يستغرب اشتباه غيرهم؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي قتلاً يقيناً كما زعموه بقوله: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم﴾ وقيل معناه: ما علموه يقيناً بل بطريق الظن.

---

(١) إنجيل متى ٢٦ ـ ٣١، ومرقس ١٤ ـ ٢٧.

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ أي إلى سمائه قال أبو حيان: وهو حي في السماء الثانية، على ما صحَّ عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وهو هنالك مقيم، حتى ينزل إلى الأرض، يقتل الدجال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ لا يُغالب فيما يريده ﴿ حَكِيمًا ﴾ في جميع أفعاله.

﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ «إنْ» نافية بمعنى «ما» ﴿ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ جملة قسمية، والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد، إلاَّ يؤمننَّ بأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، قبل أن يموت، ولو حين أن تزهق روحه، ولا ينفعه إيمانه، وقيل: الضميران لعيسى، والمعنى: إنه إذا نزل من السماء، آمن به أهل الملل جميعاً، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة الإسلام وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ ﴾ عيسى ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ على أهل الكتاب ﴿ شَهِيدًا ﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ التعبير عنهم بهذا العنوان، إيذان بعظم ظلمهم، أي بسبب ظلم عظيم صادر عنهم ﴿ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾ فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية، يحرم عليهم نوع من الطيبات، التي كانت محللة لهم، عقوبة من الله، ومع ذلك كانوا يفترون

على الله الكذب، ويقولون: لسنا بأول من حُرّمت عليه، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما، فكذبهم الله تعالى ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ناساً كثيراً، أو صدّاً كثيراً.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، لكنَّ التوراة التي بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذ الربا من شعبهم، دون الأجانب، وهذا كذب على الله، فقد ثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ﴾ كالرشوة، والخيانة ونحوهما ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيان لجزائهم في الآخرة هيأه الله عزَّ وجل لهم.

﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن الثابتون في العلم منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، نزلت الآية فيهم كما أخرجه البيهقي ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم وصفوا بالإيمان زيادة في البيان ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ حال من المؤمنين، مبينة لكيفية إيمانهم، أي يصدّقون بالقرآن، كما يصدّقون بالكتب السماوية السابقة حق التصديق ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على المدح أي أخص بالذكر المقيمين الصلاة منهم، والنصب على المدح لا يأتي في كلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة ههنا مزية الصلاة، وكون إقامتها آية كمال الإيمان، فتقدير الآية أي أعني المقيمين الصلاة .

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وصفوا أولاً بكونهم راسخين، ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع، ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد، تحقيقاً لحيازتهم الإيمان الكامل ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تنكير الأجر للتفخيم، ولا يخفى ما فيه من المناسبة بين طرفي الاستدراك، حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم، ووعد الآخرون بالأجر العظيم.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزِّل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجٌ عليهم بأنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإنما شأنه ﷺ كشأن سائر الأنبياء عليهم السلام، الذين لا ريب لأحد في نبوتهم، فلمّا لم يكن عدم إنزال الكتاب دفعةً واحدةً قادحاً في نبوتهم، علمنا أن إصرار اليهود على طلب هذا باطل ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي كما أوحينا إلى إبراهيم ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ خُصُّوا بالذكر مع انتظامهم في سلك النبيين، تشريفاً لهم، وتصريحاً بمن ينتمي إليهم من اليهود ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ عطف على أوحينا لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء، والزبور جُعِل اسماً للكتاب المنزل على داود عليه السلام، وكان إنزاله عليه منجماً، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم من الأحكام، وإنما هي حِكمٌ، ومواعظ، وتحميدٌ وتمجيد.

﴿ وَرُسُلًا ﴾ أي أرسلنا رسلاً ﴿ قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي حكينا أخبارهم لك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ

﴿عَلَيْكَ﴾ أي من قبل، وقد ورد في الخبر أن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، والأنبياء مائة ألفٍ وأربعة وعشرون ألفا[1]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ مصدرٌ مؤكد رافع لاحتمال المجاز، **قال الفراء**: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكّد به لم يكن إلاّ حقيقة الكلام، والظاهر أن التكليم كان من وراء حجاب، لقوله سبحانه: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلِّمه الله إلاّ وحياً، أو من وراءِ حجاب﴾!!.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ نصب على المدح، أو بإضمار أرسلنا، أي مبشرين من آمن ومن عمل صالحاً بالأجر العظيم ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر وعصى بالعذاب الأليم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾ أي معذرة يعتذرون بها، قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيبيّن لنا شرائعك؟ كما في قوله تعالى: ﴿ولَوْ أنّا أهلكناهُمْ بعذَابٍ من قَبْلِهِ لقالوا ربّنا لولا أرسَلْتَ إلينَا رسُولاً فنتَّبع آياتِكَ﴾؟ وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة في فعل من أفعاله، للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده بمنزلة الحجة القاطعة ولذلك قال سبحانه ﴿وَمَا كنَّا مُعَذّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رسُولاً﴾ وفي الآية دلالة على أنه لا بد من الشرع، وإرسال الرسل، وأن العقل لا يغني عن ذلك، وزعم المعتزلة أن العقل كافٍ، وأن إرسال الرسل للتنبيه ﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي بعد إرسالهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغالب في أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله، ومن ذلك قطع الحجة بإرسال الرسل الكرام مبشِّرين ومنذرين.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن تعنتهم في سؤالهم إنزال كتاب عليهم من السماء، أي إن كانوا قد أنكروا نبوتك يا محمد، فإن الله يشهد بأنك رسوله، أي يُثبت ذلك ويقرّره ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال

---

(١) وذلك في حديث أخرجه أحمد في المسند ٥/١٧٨ وفيه: «أن الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر جَمّاً غفيراً».

على نبوتك ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ أنزل ملتبساً بعلمه بحال من يستعد للنبوة، ويستأهل نزول الكتاب عليه ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ أيضاً بنبوتك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما شهد به لك، حيث نصب الدليل، وأزال الشبه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أنزل إليك، والمراد بهم اليهود، ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام، صدُّوا من أراد سلوكه، بقولهم: ما نعرف صفة الرسول في كتابنا ونحو ذلك، من إلقاء الشبهات في قلوب الناس ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ بالكفر والصدّ ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، لأن المُضلَّ اغرقُ في الضلال، وأبعد عن الانقلاع عنه من الضالّ بنفسه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما ذكر آنفاً ﴿وَظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بإنكار نبوته، وبتغيير نعته، وظلموا الناس بصدهم عن الصراط المستقيم، الذي فيه صلاحهم في المعاش والمعاد ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ ما داموا في الكفر، لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر، والآية في اليهود على الصحيح، وقيل: إنها بالمشركين ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي إلاّ الطريق الموصل لهم إلى نار جهنم لأعمالهم السيئة، المؤدية بهم إلى نار الجحيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ لأن من مات على كفره، فهو خالد في النار، وقوله تعالى: ﴿أبداً﴾ رافعٌ لاحتمال حمل الخلودِ على المكث الطويل، فيكون المراد بالتأبيد: الخلود الدائم الذي لا نهاية له ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي جعلهم خالدين في جهنم أبدا ﴿عَلَى ٱللَّهِ

﴿يَسِيرًا﴾ سهلاً لا صارف له عنه، وهذا تحقير لأمرهم، وبيانٌ لأنه تعالى لا يعبأ بهم، ولا يبالي بكفرهم وفجورهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لمَّا قرر أمر النبوة، وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ونبَّه على أن الحجة قد وضحت، فلم يبق لأحد عذر في عدم القبول، خاطب الناس عامة، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تكرير للشهادة، وتقرير لحقية المشهود به، لتأكيد وجوب طاعته، وقوله ﴿بالحق﴾ أي بالقرآن الكريم، وبدين الإسلام ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ بالرسول وبما جاء به من الحقِ ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم مما أنتم عليه، لأنه يزكيكم ويطهركم، من الأدناس الحسية والمعنوية ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ أي إن تستمروا على الكفر ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات، أي كلُّها له عز وجلَّ خلقاً،، وملكاً، وتصرفا، لا يخرج من ملكوته شيء منها، فهو غني عنكم وعن غيركم، لا يتضرر بكفركم، وهو قادر على تعذيبكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال الكل ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبَّر لهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى، زجراً لهم عما هم عليه من الضلال البعيد ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي لا تجاوزوا الحدَّ في أمر الدين، بادعائكم ألوهية المسيح ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي لا تعتقدوا إلا القول الحق، دون دعوى الاتحاد والحلول، واتخاذ الصاحبة والولد، وفي الحديث الشريف «لا تطروني ـ أي لا تجاوزوا الحدَّ في مدحي ـ كما أطرى النصارى ابن مريم ـ أي كما بالغ النصارى في مدحه ـ فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسوله»[1] ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ ذكر اسم أمه «ابن مريم» لبطلان ما وصفوه به من نبوّته للهِ تعالى ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي أنه مقصور على رتبة الرسالة، لا يتخطاها إلى ما تقولون من الألوهية ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي مكوَّنٌ بكلمته، سبحانه وأمره، الذي هو «كنْ» من غير واسطة الأب ولا بنطفة، وأوضحه بقوله ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي أوصلها إليها فجعله كالمني الذي يلقى في الرحم، وقيل: أعلمها إياها بطريق البشارة، وذلك قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهُ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح﴾ الآية، والإلقاء يستعمل في المعاني والكلام، كما يُستعمل في المتاع، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَوْلَ﴾ الآية ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ والروحُ: هي النفس الناطقة، المستعدة للبيان، وفهم الخطاب، ولا تفنى بفناء الجسد، وأنها جوهر لا عَرَضٌ، فلما كان عيسى مكوناً من النفخ وصف بالروح، و «مِنْ» في قوله تعالى ﴿منه﴾ لابتداء الغاية، لا تبعيضية كما زعمت النصارى، يحكى أن طبيباً نصرانياً ناظر الواقدي ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدلُّ على أن عيسى جزء مِنه تعالى وتلا هذه الآية، ﴿وروح منه﴾ فقرأ الواقدي ﴿وسخَّرَ لكمْ مَا في السَّماواتِ وَمَا في الأرضِ جَميعاً مِنه﴾ فقال إذاً يلزم أن تكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه، فأفحمه وأخرسه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٥٤.

أجمعين، وصفوهم بالرسالة، ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ الله، والمسيح، ومريم، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتّخِذُوني وأمي إلَهَيْنِ مِنْ دونِ الله﴾ والنصارى يعبّرون عن أقانيم ثلاثة فيقولون: الأب، والابن، وروح القدس، ويريدون بالأول الذات، وبالثاني العلم، وبالثالث الحياة، فذهب الملكانية منهم، أن كل واحد منها إله، وصرَّحوا بإثبات التثليث، وهو أن الإله ثلاثة، وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحماً، ودماً، فصار الإله هو المسيح، وحكى المؤرخون أن رؤساء النصارى، اجتمعوا ليبحثوا عن القول المرضي، فاتفق قولهم على شيء فحرروه، وسمَّوه بالأمانة، وأكثرهم اليوم عليها، وهي أن يؤمن بالله الواحد، الأب صانع كل شيء، المسيح ابن الله من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من روح القدس، وولد من مريم وصُلب، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارةً أخرى، وهذه الأقاويل مع مخالفتها للعقول، مما لا مستند لها، ولا أصل لها في شرع الإنجيل، ولا مأخوذة من قول المسيح، ولا من أقوال تلامذته، ومع ذلك فهي متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، واعلم أنه سبحانه إنما حكى في بعض الآيات قول بعضٍ منهم، وفي بعضٍ آخر قول الآخرين، وحكاية دعواهم ألوهية مريم، وألوهية عيسى، إنما نطق بها القرآن، وهو معتقد الأكثرين منهم، يقولون: الرب يسوع أي عيسى، ويؤلهونه وأمَّه، ثم إنه سبحانه لمَّا بالغ في زجر القائلين، أردف النهي بقوله: ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ أي عن القول بالتثليث يكن ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ هذا الانتهاء ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالذات، لا تعدد فيه بوجهٍ ما، منفرد في ألوهيته ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أسبحه تسبيحاً أي أنزّهه تنزيهاً من أن يكون له ولد، لأن الولد يشابه الأب، ويكون مثله، والله تعالى منزه عن الشِّبَه والمثل، ولا يتطرق إليه الفناء ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما فيهما من الموجودات، والمسيح من جملتها، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام، وهو

يتعالى عن أن يكون جسماً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد، فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه، والله سبحانه قائم بحفظ الأشياء، مستغنٍ عمن يخلفه أو يعينه!!.

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف، والاستنكافُ: الاستكبار مع الأنفة، وعن ابن عباس أي لن يستكبر المسيح ﴿أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرفٌ يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره، روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيبُ صاحبنا؟ قال ﷺ: وأيَّ شيء أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى، فنزلت الآية[1]، ومما يدل على عبوديته من كتب النصارى، أن بولس قال في رسالته الثانية: انظروا إلى هذا الرسول «يسوع» المؤتمن من عند من خَلَقه، مثل موسى في جميع أحواله، غير أنه أفضل من موسى!! وقال مرقس في إنجيله: قال يسوع: إن نفسي حزينة حتى الموت، ثم خرَّ على وجهه يصلي لله تعالى، ونصوصُ الأناجيل ناطقة بعبوديته عليه السلام لله تعالى ﴿وَلَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح، أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله تعالى، والملائكة المقربون: هم الذين حول العرش، واحتج بالآية المعتزلة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لأن كلام العرب، الترقي من الفاضل إلى الأفضل، فيكون المعنى: لا يستنكف المسيح ولا من فوقه، كما يقال: لن يستنكف من هذا الأمر الوزيرُ، ولا السلطانُ، وهو استدلال في غير محله، لأن المراد في الآية: القوة والاقتدار، وهو المناسب لسياق الآية، لأن المقصود الرد على النصارى، في اعتقادهم ألوهية عيسى، مستندين إلى كون إحياء الموتى، وإبراء

(١) أوّلُ كلمةٍ نطق بها السيد المسيح وهو طفل في المهد ـ كما سمعها النصارى ـ هي قوله ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فكيف يزعمون ألوهيته وهو يقول لهم: أنا عبدُ الله، ولستُ إلهاً ولا ابناً لله، أفلا يعقل النصارى هذا الكلام؟.

الأكمه، والأبرص، خوارق، فناسب أن يقال: بل من هو أكثر خوارقاً وأظهر آثاراً، كالملائكة المقربين، الذين من جملتهم جبريل، فيكون تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي عن طاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن ذلك، غروراً وإعجاباً، فيحملها بذلك على غمط الحق، سواء كان لله تعالى، أو لخلقه، وعلى احتقار الناس، كما جاء في الحديث «الكِبْرُ: بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس»[1] أي استحقارهم وتعييبهم ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي المتكبرين على الله، والمستنكفين، لينالوا جزاءهم يوم الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان لحال الفريق الفائز برضوان الله، وهم الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بتضعيفها أضعافاً مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يدخلهم الجنة ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ الشفاعة فيمن وجبت لهم النار، ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا﴾ عن عبادته عز وجل وطاعته ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يحيط به الوصف ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم، ويدبّر مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم وينجيهم من العذاب.

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٩١ وأبو داود في الأدب رقم ٤٠٩١ ولفظ مسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةٍ من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبرُ بطر الحق، وغمطُ الناس».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب لكافة المكلفين ﴿ قَدۡ جَآءَكُم ﴾ أتاكم ووصل إليكم، ﴿ بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي حجة قاطعة، والمراد بها المعجزات، وقيل هو النبي ﷺ، وقوله سبحانه ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ أي كائن من ربكم، والتعرض لعنوان الربوبية لإظهار اللُّطفِ بهم، وللإيذان بأن مجيئه إليهم، لتربيتهم وتكميلهم ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ﴾ بواسطة النبي ﷺ ﴿ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ وهو القرآن، وإطلاق النور المبين لأنه بيِّنٌ بنفسه، غير محتاج إلى غيره، هادٍ للخلق بإخراجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، أي قد جاءكم دلائل العقل، وشواهد النقل، ولم يبق لكم عذر.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا ارتياب ﴿ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ ﴾ أي اعتصموا به سبحانه ﴿ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ الرحمةُ: الجنة، لأنها موضع تنزّل رحمة الله ﴿وَفَضۡلٖ﴾ أي إحسان لا يُقادر قدره، زائد على ذلك ﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ ﴾ إلى الله عز وجل ﴿ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ أي طريقا مستقيماً يبلغون به الغاية، أما في الدنيا فالسيادةُ والعزة، وأما في الآخرة فبالجنة والرضوان.

﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ ﴾ أي في الكلالة، استغنى عن ذكره بوروده في قوله

تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «مرضتُ فأتاني رسولُ الله ﷺ، فأُغمي عليَّ فتوضأ النبي ﷺ ثم صبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقتُ، فَقلتُ، يا رسول الله: كيف أصنع في مالي؟ فلم يردَّ عليَّ شيئاً حتى نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلالَةِ﴾[1] ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ استنباط مبين للفتيا أي إن أحد مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، واقتصر على ذكر عدم الولد، مع أن عدم الوالد أيضاً معتبر في الكلالة، ثقةً بظهور الأمر، ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ والمراد بالأخت من ليست لأم فقط، فإن فرضها السدس ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي بالفرض، والباقي للعصبة، أو لها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي والأخ يرث أخته، إن كان الأمر بالعكس ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، فالمراد بإرثه لها إحراز جميع مالها ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فصاعداً ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ المعتبر في الحكم هو العدد، دون الصغر والكبر ﴿وَإِن كَانُوٓا۟﴾ أي من يرث بطريق الأخوَّة ﴿إِخْوَةً﴾ أي مختلطة ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ﴾منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب[2]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٩٠ ومسلم في الفرائض رقم ١٦٢٦.

(٢) الإسلام دين العدالة والإنصاف، لا يحابي ولا يداري أحداً على حساب آخر، ولهذا شرَّك المرأة في الإرث، على خلاف عادات الجاهلية، حيث كانوا لا يورِّثون النساء ولا الصغار من الأطفال، ويقولون: كيف نعطي المالَ من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً؟! فجاء الإسلام فرفع عن كاهلها الظلم، ودفع عنها العدوان، وجعل لها نصيباً مفروضاً في التركة، على كُرْهٍ من الرجال، بتشريعه الخالد العادل ﴿للرجال نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقربونَ، وللنساءِ نصيبٌ مما ترك الوالدانِ والأقربونَ، ممَّا قلَّ منهُ أو كَثُرَ نَصيباً مفروضاً﴾. وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى، لضخامة مسؤولية الرجل، وكثرة نفقاته، فالرجل مكلَّف بالإنفاق على الأسرة والأولاد، والمرأة لا تُكلف بالإنفاق على أحد، والرجل يدفع المهر للزوجة، والمرأة تأخذ المهر، والرجل يكلف بنفقة المطعم، والملبس، وأجور السكن، وتكاليف العلاج والدواء، للزوجة والأبناء، والمرأة لا تُكلَّف بشيء من ذلك، فكان من العدالة أن يكون حظُّه من الميراث، أوفر من حَظِّ المرأة ، لكثرة نفقاته =

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي حكم الكلالة ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أي لئلا تضلُّوا في ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي بكل شيء من الأشياء، التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيبين مصلحتكم ومنفعتكم، خُتمت هذه السورة بآية الفرائض، وفيها أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حيّ، وهي أيضاً آخر ما نزل من الأحكام، فحَسنٌ لذلك الختام.

«تمَّ بتوفيقه تعالى تفسير سورة النساء»

* * *

= ومسؤولياته المالية، فهذه بعض وجوه أخذ الرجل أكثر من الأنثى، فبمقدار الإنفاق يكون الأخذ والعطاء، والغُنْمُ بالغُرْم، كما يقول العرب في الأمثال!!.

فهرس المجلد الأول

بعون الله تعالى تم انتهاء المجلّد الأوّل

ويليه المجلّد الثاني ويبدأ بتفسير سورة المائدة

المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الثاني

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ المَائِدَةِ

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ العقود جمع عقد، وأصل العقد الربط محكماً، ثم أُطلق على العهد الموثق، واختلفوا في المراد بهذه العقود، فروي عن ابن عباس أن العقود هي ما أخذه الله تعالى على عباده من الإيمان به، وطاعته في الأمر، والنهي. وروي عن زيد بن أسلم العقودُ بين الناس كعقد النكاح، والبيع، ونحوهما، والأظهر أنه يعمُّ جميع ما ألزمه الله تعالى عباده، وما يعقدون فيما بينهم، مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، وبه قال الراغب لأنه أوفق بعموم اللفظ ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم

بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الأزواج الثمانية الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وألحق بها الظباء وبقر الوحش مما يماثل الأنعام في الاجترار، وعدم الأنياب، والبهيمةُ: ما لا عقل له مطلقاً، سميت بهيمة لما في صوتها من الإبهام، وفي الآية رد على المجوس، فإنهم حرموا ذبح الحيوانات وأكلها، وقالوا: لأن ذبحها إيلامٌ وهو قبيح، ولا يرضى به الإله الرحيم الحكيم!! وهذا منهم سفه وجهل، فإن الله خلقها لمنافع البشر، وفي ذبحها بالطريق الشرعي راحة لها، كما قال ﷺ: «وليُحِدَّ أحدُكم شفرته وليُرِحْ ذبيحته»[1] ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من المحرمات، وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من المحرمات التي نهى الله عنها ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي غير مستحلين للصيد وأنتم محرمون، والحُرُم: جمع حرام وهو المحرم، ومحصَّل المعنى: أحلت لكم هذه الأشياء، غير مستحلين الاصطياد، أو أكل الصيد، في الإحرام بالحج أو العمرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إحلال الشعائر أن يتهاون بحرمتها، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها، وتهويل الخطب في إحلالها ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تحلوه بالقتال فيه، والمراد به: الأشهر الحُرُم والإفراد لإرادة الجنس ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾بأن يتعرض له بالغصب، أو بالمنع عن بلوغ محله، والهديُ، ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، خصه بالذكر مع أنه داخل في الشعائر، تعظيماً له ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما يقلَّد به الهدي، من نعلٍ، أو لحاءِ شجر، ليعلم به أنه هدي، وعطفها على الهدي مع دخولها فيه، لمزيد التوصية بها، وهي سنة إبراهيم عليه السلام، وأقرَّها الإسلام قالت عائشة رضي الله عنها: «أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى

---

(١) طرف من حديث شريف أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ والترمذي رقم ١٤٠٩، ولفظه الكامل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِح ذبيحتَه».

البيت غنماً فقلّدها»(١) ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تُحلوا قوماً قاصدين زيارته، بأن تصدوهم عن ذلك بأي وجه كان، بقتال، أو بأذى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي قاصدين زيارته، حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله، ويرضى عنهم، وتنكيرُ الفضل والرضوان للتفخيم والمراد بهم المسلمون خاصة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي فلا جناح عليكم بالاصطياد، لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحَظْر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنّكم، أو لا يُكسبنّكم، وجَرَم من باب ضَرَب، اكتسب ذنباً، ويستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي شدّة بغضكم لهم، والشنآن: هو شدّة البغض والعداوة ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ أي لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عن زيارته، وطوافه للعمرة ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي عليهم وإنما حذف تعويلاً على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ عطف على ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام، لأجل أن صُدِدتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقاً، وبالتقوى اجتناب الهوى، لتصير الآية من جوامع الكلم، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ليعُمَّ النهيُ كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء، وعن ابن عباس وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمر الله تعالى به، وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حدَّه سبحانه لعباده في دينهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ثم علّل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقِّ الله، فيعاقبكم إن لم تتقوه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٤٧٣ ومسلم رقم ١٣٢١ في الحج، وهذه رواية مسلم، وانظر جامع الأصول ٣/٣٤١.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣) يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٤)﴾.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير بقوله: ﴿إلا ما يُتلى عليكم﴾ ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ التي ماتت بالخنق مطلقاً، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص منه، أو بغير ذلك، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وإذا ماتت أكلوها ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ التي قُتلت بالضرب كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو، أو في بئر فتموت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ أي إلاَّ ما أدركتم ذكاته، وفيه بقية حياة، وذكيتموه، والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، سوى ما لا يقبل الذكاة من الميتة، والدم، والخنزير، وهذا قول ابن عباس والحسن، وقال الكلبي: مما أكل السبع خاصَّة، وقيل: هو استثناء من التحريم لا من المحرمات، فالمعنى: حُرِّم عليكم سائر ما ذُكر، لكن ما ذكيتم مما أحله الله تعالى بالتذكية فإنه حلال لكم، وروي ذلك عن مالك وجماعة من أهل المدينة، والتذكيةُ: قطعُ الحلقوم، والمريء بمحدَّد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ جمع نصاب وهي أحجار

كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قربة، وقيل: هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أي وما ذُبح للأصنام، أو ما ذبح مسمَّى على الأصنام ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ روي عن مجاهد أنه فسَّر الأزلام بسهام العرب التي يتقامرون بها، أي وحُرم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً، ضربوا ثلاثة أقداح مكتوبٌ على أحدهما أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وأبقوا الثالث غُفْلا، فإن خرج الآمر مضوا إلى حاجتهم، وإن خرج الناهي اجتنبوا، وإن خرج الغُفْل أعادوها ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمر عظيم، جاء إلى «هُبَل» واستشفع منها، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح حتى يحلها له ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿فِسْقٌ﴾ تمرد وخروج عن الحدود، وضلال باعتقاد أنه طريق إلى العلم بالغيب، وعن ابن عباس أن ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى تناول جميع ما تقدَّم من المحرمات ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي الزمان الحاضر. وقيل يوم نزول الآية، وقد نزلت بعد عصر الجمعة، يوم عرفة، في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفات على العضباء، كما رواه الشيخان ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ اليأس انقطاع الرجاء، والمراد انقطاع رجائهم من إبطال دينكم، أو من أن يغلبوكم عليه، حيث أظهره الله على الدين كله، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أن أحلَّ بكم عقابي، إن خالفتم أمري، وارتكبتم معصيتي ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، وعن ابن عباس المعنى: أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي، وهو الأظهر حيث لم ينزل بعد ذلك من الفرائض تحليل ولا تحريم، وأنه ﷺ لم يلبث بعدها سوى إحدى وثمانين يوماً، ومضى إلى الرفيق الأعلى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ وإتمام النعمة بفتح مكة، وهدم منار الجاهلية، وقيل: بإتمام الهداية والتوفيق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين المقبول عند الله لا غيره قال الله تعالى: ﴿ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متصل بذكر

المحرمات، وما بينهما اعتراضٌ، أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي مجاعة يخاف الموت أو مباديه، يُقال: خَمُصَ الشخص مثل قَرُبَ فهو خُميصٌ: إذا جاع ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل إليه، بأن يأكلها تلذذاً، أو مجاوزاً حدَّ الرخصة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله، لأنه عن ضرورة، والضروراتُ تُبيح المحظورات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون ما أُحِلَّ من المطاعم والمآكل، ومن الصيد والذبائح ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي ما لم تستخبثه الطباع السليمة، وما لم يدل نص أو قياس على حرمته، قال الله تعالى: ﴿ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي صيد ما علمتموه، والجوارح جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وفسرت بالكواسب من سباع البهائم والطير، سميت جوارح لأنها تجرح الصيد غالباً، كالكلب، والفهد، والبازي، والشاهين، ويشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من التكليب وهو تعليم الجوارح، مشتق من الكَلب لأن التأديب يكون أكثر فيه، والمُكَلِّبُ: مؤدِّب الجوارح ومغريها ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام، أو مما علمكم أن تعلموه، من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وينزجر بزجره، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم يأكل منه، أي فكلوا بعض ما أمسكنه لأجلكم، وقد قال النبي ﷺ لعديّ بن حاتم: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه، فكل»[1] ففي الحديث أن إرسال الصائد، وكون الكلب معلَّماً، وذكر اسم الله تعالى عليه وقت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٢٤٤ ولفظه عن عديّ بن حاتم قال: سألت الرسول ﷺ فقلت: إنَّا قومٌ نتَصيّد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم وسمّيتَ، فأمسكَ وقَتَل فكُلْ، وإن أكل فلا تأكل..» الحديث، ورواه مسلم في الصيد رقم ١٩٢٩.

الإرسال شرط لقوله ﷺ: «فإن أكل منه فلا تأكل» وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء، وقال أبو حنيفة: إذا أكل الكلب من الصيد وهو غير معلَّم لا يؤكل صيده، وإذا أكل الصقر فكل، لأن الكلب تستطيع أن تضربه، والصقر لا تستطيع أن تضربه، وقال مالك: يؤكل وإن أكل الكلب منه، لحديث: «إذا أرسلتَ كلبك، وذكرتَ اسم الله عليه، فكل وإن أكل منه»[1] ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي سمُّوا عليه عند إرساله، والأمر للوجوب عند أبي حنيفة، وعند الشافعي للندب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محرَّماته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ فيحاسبكم بما جلَّ ودق.

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ كُرِّر تأكيداً للمِنّة، وتوطئةً لما بعده ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعمُّ اليهود والنصارى، ولا يلحق بهم المجوس، لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم»[2] وهو وإن كان مرسلاً إلا أن إجماع أكثر المسلمين يؤكّده، واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني، إذا ذكر عليها، غير اسم الله، فقال ابن عمر: لا تحل، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل، وقال الحسن: إذا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد رقم ٢٨٥٠ وعلى هذه الرواية يجوز الأكل من الصيد وإن أكل منه الكلب وهو مذهب مالك رحمه الله.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ذبح اليهودي والنصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا حرج عليكم أن تطعموهم، وتبيعوا منهم فإن قيل: ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار؟ أجيب بأن المعنى انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم، فإن أطعموكم فكلوه، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم، فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم، فالآية بيان لنا لا لهم، فحاصل المعنى: طعامهم حل لكم إذا كان من الطعام الذي أحللته لكم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر العفائف، وتخصيصهن بعثٌ على ما هو أولى، لا لنفي ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق، وكذا نكاح غير العفائف منهن ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وتمسكوا فيه بهذه الآية، وكان ابن عمر لا يرى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾ ويؤيد هذا القول الآية الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار، كقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانةً من دونكم﴾ قال كثير من الفقهاء: إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿من قبلكم﴾.

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَّاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي غير مجاهرين بالزنا، وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن المسافحة، قال: هي التي إذا ألمح الرجل إليها بعينه اتَّبعته ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ولا مسرين به، والخدنُ: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بُيِّن ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ شروع في بيان الشرائع التي تتعلق بدينهم، بعد بيان ما يتعلق بدنياهم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إليها كما في قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إليها، وإن لم يكن محدثاً، لما أن الأمر للوجوب، والإجماع على خلافه، لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلَّى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، ومسح على خفَّيْه فقال عمر: «لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال ﷺ: عمداً صنعتُه يا عمر»[1] يعني بياناً للجواز، فظهر أن الآية مقيدة، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث في التيمم، الذي هو بدل، وما نقل عن النبي ﷺ والخلفاء أنهم كانوا يتوضَّؤُنَ لكل صلاة، فلا يدلُّ على أكثر من الندب ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء، وحدُّ الإسالة أن يتقاطر الماء ولو قطرة، ولا حاجة إلى الدلك، خلافاً لمالك ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين، ولذلك

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٧٧، باب جواز الصلوات كلّها بوضوء واحد.

قيل: إلى بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقال الشافعي: لا أعلم خلافاً في أن المرافق يجب غسلها ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد إلصاقُ المسح بالرأس، فكأنه قيل ألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة أخذ ببيان رسول الله ﷺ حيث مسح ناصيته، وقدرها ربع الرأس، ومالك مسح الكل أخذاً بالاحتياط، والإمام أحمد في أظهر الرواية عنه، إلى أنه يجب استيعاب الرأس بالمسح ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ منصوبٌ عطفاً على ﴿وجوهكم﴾ ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة، والتحديد إذِ المسحُ لم يحدَّد وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن فرض الرجلين هو الغسل، وشذت الشيعة فقالوا: إن الواجب في الرجلين المسحُ وما يزعمه الشيعة من نسبة المسح إلى ابن عباس كذبٌ عليه[1] ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ اغسلوا أبدانكم، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فطهِّروا أبدانكم كاملاً، والدليل على إرادة الغسل قوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ والمضمضة والاستنشاق هنا فرض، لأنه سبحانه أضاف التطهير لجملة البدن، فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

---

(١) روى البخاري ومسلم عن حمران مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناءٍ، فأفرغ على كفَّيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا». وعن خالد أن النبي ﷺ: «رأى رجلاً يصلّي، وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود، فدلت هذه الأحاديث على وجوب غسل الرجلين، بأمره ﷺ وفعله، فتنبَّه والله يرعاك.

أي اقصدوا التراب الطاهر، إذا لم تجدوا الماء، فامسحوا بذلك التراب وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، نيابةً عن الوضوء والغسل ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ بما فرض عليكم من الوضوء، والغسل، والتيمم ﴿ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ من ضيق في الامتثال ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ ﴾ بذلك ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ أي ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب والخطايا، لما روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرجت كل خطيئة مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»[1] فالطهارة معنوية بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى إزالة النجاسة لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أي ليتم بشرعية ما هو مطهرة لأبدانكم، نعمته عليكم في الدين، أوليتمَّ برُخَصِه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته بطاعتكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالإسلام لتذكّركم المنعم وترغّبكم في شكره ﴿ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين، حين بايعهم النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وإضافة الميثاق إليه تعالى مع صدوره عنه ﷺ لكون المرجع إليه تعالى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[2] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٣٤ ولفظه: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئةٍ بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» فدلَّ الحديث على وجوب غسل الرجلين.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ ﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم، بارتكاب ما لا يحلُّ كمُثْلة، وقذف، وقتل نساء وصبية، ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم ﴿ ٱعْدِلُواْ ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمر سبحانه بالتقوى اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به، روي أنه لما فتحت مكة كلف الله المسلمين بهذه الآية، أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم، ولذلك عفا الرسول ﷺ عنهم، وسمُّوا الطُّلقاء.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من الواجبات والمندوبات التي من جملتها العدالة والتقوى ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لخطيئاتهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ثواب عظيم لأعمالهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ القرآنية التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالعدل والتقوى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ملابسو النار المؤبدة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير لنعمة الإنجاء من الأشرار، الذين أرادوا الفتك بالمؤمنين وتذكير لهم نعمة إيصال الخير، وهو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾ أي قصد قوم ﴿ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك، يقال: بَسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أي منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك والآية إشارة إلى ما أخرجه مسلم من حديث جابر: «أن المشركين رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلّوا ندموا ألاّ كانوا أكبُّوا عليهم، وهمُّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد الله تعالى كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف»[1] وقيل: إشارة إلى ما رواه جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، فتفرق الناس في العِضَاه ـ أي الشجر ـ يستظلون تحتها، فعلّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟ قال: الله

---

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة الخوف ١/ ٥٧٤.

تعالى فسقط السيف من يده...»[1] الحديث، ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوه في حقوق نعمته، ولا تُخِلُّوا بشكرها ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شر.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف، مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه من التبعات، مسوقٌ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله، ومراعاة حق الميثاق، الذي واثقهم به، وتحذيرهم من نقضه ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ النقيب مشتق من النقب، وهو التفتيش ومنه قوله تعالى: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ فسمِّي بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم، ومعناه العريفُ، وهو شاهد القوم وضمينهم، روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا، وكان يسكنها الجبابرة وأمر جل شأنه موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم، بالوفاء فيما أُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم فرأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون﴾[2] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي بجميعهم، وتأخير الإيمان عن الصلاة والزكاة، لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما، مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل، ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، قال الراغب:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٢٨/٧ ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٤١. وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣٧٨/١١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

التعزيرُ: النصرة مع التعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو ما كان عن طيب نفس، من مالٍ حلال ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتكم به، لأمحونَّ عنكم سيئاتكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ عطف على ما قبله، داخلٌ معه في حكمه ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ أي برسلي، أو بشيءٍ ممَّا ذُكر من الأمور ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي بعد الشرط المؤكد، المعلَّق بالوعد العظيم، وليس المراد بالكفر إحداثه بعد الإيمان، بل ما يعمُّ الاستمرار عليه، كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق الواضح، ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والنُّذُرِ، ومعنى جعل قلوبهم قاسية، أن نقض الميثاق كان مبعداً لهم عن رحمة الله، ومقسِّياً لقلوبهم، حتى لم تؤثر فيها حجة وموعظة، وليس كما يزعمه الجبرية، من أنه شيء عاقبهم الله به، ولم يكن متسبباً عن أعمالهم الاختيارية، وإنما هو ناشىء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت

الاختيارية، وإنما هو ناشيء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا تَرَكَ تعاهده حتى صَدِيء، وجعلتَ أظافرك سلاحَك، إذا لم يقصَّها ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئنافٌ لبيان سبب قساوة قلوبهم، وهو الاجتراء على تغيير كلام الله تعالى، والافتراء عليه، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورة، وللدلالة على التجدد والاستمرار ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ أي تركوا نصيباً وافراً، واستعمال النسيان بهذا المعنى كثير ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من التوراة، فقد حرَّفوها فسقطت أشياء منها عن حفظهم، وأضاعوا كتابهم عندما أحرق البابليُّون بلادهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي خيانة منهم، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم، وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الذين آمنوا، منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أنَّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ شروع في بيان قبائح النصارى إثر بيان قبائح اليهود أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم، كما أخذنا ممن قبلهمْ من الإيمان بالله والرسل، وإنما نَسَب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، دون أن يقال: ومن النصارى إيذاناً بأنهم في قولهم: «نحن أنصار الله» بمعزل من الصدق، إنما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا من نصرة الله في شيء، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى، يستدعي ثباتهم على طاعته سبحانه ومراعاة ميثاقه ﴿فَنَسُوا۟﴾ إثر أخذ الميثاق ﴿حَظًّا﴾ نصيباً وافراً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من الإيمان بالله، والإيمان بالنبي ﷺ فنبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم وتفرقوا ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أي ألزمنا وألصقنا، والغِراء الذي يلصق به الشيء، أي فألقينا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يتعادون إلى يوم القيامة، حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة، المؤدية إلى التفرق، فضمير بينهم لهم خاصة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد شديد بالعقاب، كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت، أي يجازيهم بما عملوه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين إثر بيان أحوالهما، ودعوةٌ لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف، والإيذان بوجوب اتباعه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال من رسولنا، أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبيناً لكم على التدريج، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة والإنجيل، كبعثة الرسول ﷺ وآية الرجم، ونحوهما، مع استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبين لكم كثيراً من الذي تخفونه على الاستمرار، من الكتاب الذي أنتم المتمسكون به ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذ لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم مما فيه

افتضاحكم ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ عظيم، وهو نور لأنوار النبي المختار ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج، وقال الجبائي: عني بالنور القرآن، لكشفه طرق الهدى واليقين، واقتصر على ذلك الزمخشري فالعطف في قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ لتنزيل المغايرة بالعنوان، منزلة المغايرة بالذات، والمبينُ من بَانَ اللازم بمعنى ظهر، فمعناه الظاهر الإعجاز.

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي بما ذُكر ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي من كان يريد رضاء الله ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعته ﴿ وَيُخْرِجُهُم ﴾ الجمع باعتبار المعنى ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ إلى الإيمان والإسلام ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو أقرب الطرق المؤدي إلى الله سبحانه.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي لا غيره، وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحلُّ في بدن إنسان أو في روحه، وأنه قد حل في بدن عيسى، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ استفهام للإنكار، أي إن كان الأمر كما تزعمون، فمن يمنع عن قوة الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؟ ومن حق من يكون إلَهاً أن لا يتعلق به قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها، فلما كان عجزه بيّناً، ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه!! ومن الغريب أنهم قالوا إن شر نوع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، ومع ذلك يعتقدون بألوهيته، والمراد بالإهلاك الإماتة مطلقاً، وإظهار المسيح في مقام الإضمار لبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، وأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات، في كونه عرضة للهلاك ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي له تعالى وحده، ملكُ

جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً لا لأحد سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جملة مسوقة لبيان بعض أحكام الألوهية، على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح، لولادته من غير أب، وخلق الطير، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه، أي يخلق ما يشاء فتارة من غير أصل، كخلق السماوات والأرض، ومن غير جنسه كخلق آدم، أو من أنثى وحدها، كخلق عيسى، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزةً له، فيجب أن ينسب كله إلى الله تعالى، لا إلى من أجري ذلك على يده ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، روي عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام، وخوّفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف تخوّفنا به، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقالت النصارى مثل ذلك قبلهم، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على الفريقين ﴿وقالتِ اليهودُ والنَّصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُه﴾ وفيها تكذيبٌ لهم جميعاً، ومقصود الفريقين، أن لهم فضلاً عند الله تعالى، على سائر الخلق، فردَّ الله تعالى عليهم ذلك، وقال لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي فإن صح ما زعمتم، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فإن من كان

بهذا المنصب، لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة وقلتم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ مدة عبادتكم العجل، هل رأيتم والداً يعذّب ولده؟ وهل تطيب نفس محبٍّ أن يعذّب حبيبه في النار؟ وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر أي ليس الأمر كذلك بل أنتم بشر ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي بشر كائن من جنس خلق الله تعالى، من غير مزية لكم عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا بالله وبرسله مثلكم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها، إلاّ بالعبودية تحت ملكوته، يتصرف فيهم كيف يشاء، فأنى لهم ادعاء ما زعموا؟! ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصة لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات، واللطف في الدعوة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع والأحكام، الدينية، وإنما حذف اعتماداً على الظهور، إذ من المعلوم أن ما بيّنه الرسول هو الشرائع والأحكام، والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع زمان الوحي، والفترةُ ما بين الرسولين وهي انقطاع بعثهم، واختلف في مدتها بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السلام، فقال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا تقولوا معتذرين من تفريطكم، في أحكام الدين يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقد انطمست آثار الشريعة السابقة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقديرُ: لا تعتذروا فقد جاءكم وتنوين «بشير» و«نذير» للتفخيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إرسال الرسل تترى، وعلى الإرسال بعد الفترة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية نقضهم للميثاق، ليُعلم أن مكابرة الحق، ومعاندة الرسول، خُلُقٌ مستمر من أخلاقهم، أي اذكر أيها الرسول للناس حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون، ناصحاً لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾ أي من أقربائكم، من أولاد يعقوب، والمراد بهم موسى، وهـٰرون، ويوسف، وغيرهم ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ بعد أن كانوا عبيداً للقبط، فهي نعمة جليلة، نعمة الحرية والاستقلال، حتى صاروا كلهم كأنهم ملوك في السعة والترف ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ونحوها والمراد بالعالمين عَالَمُو زمانهم.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ كرر النداء، اهتماماً بشأن الأمر،

ومبالغة في حثهم على الامتثال، والأرض المقدسة هي كما روي عن ابن عباس وابن زيد: «بيت المقدس» وقال الزجاج: دمشق وفلسطين ومعنى المقدسة: المطهرة أو المباركة، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء، ومساكن المؤمنين ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي أنها تكون مسكناً لكم، إن آمنتم وأطعتم، لقوله تعالى بعدما عصوه ﴿قال فإنها محرمة عليهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴾ الأدبار: جمع دُبُر أي: لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، فترجعوا خاسرين، وهذا يدل على اشتراط الكَتْب ﴿التي كتب الله لكم﴾ بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة.

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ متغلّبين، لا تتأتّى مقاومتُهم، والجبَّارُ: فعَّال، هو الذي يجبر الناس على ما يريد، والجبار من أسماء الله الحسنى، فيه معنى العظمة والقدرة، مدحٌ للخالق، وذمٌّ للمخلوق، وما روي في بعض التفاسير من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الخرافات الإسرائيلية، بثها اليهود منها ما حكي عن بعضهم أنه قال: استظلَّ سبعون رجلاً من قوم موسى في قحف[1] رجل من العمالقة، وحكي عن ابن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها، رابضة في فِجَاج عين رجل منهم، وأخبار عوج بن عُنُق، وغير ذلك، ولمَّا قرب موسى حدود الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها أبوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ من غير جهد من قبلنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ بسبب من الأسباب، التي لا تعلق لنا بها ﴿ فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ حينئذ تلك البلاد، وكأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق، كما كان كل ما يحتاجون إليه، وجهلوا السنة الإلّهية.

---

(١) القِحْفُ: ما انفلق من جمجمة الإنسان، أي جلس سبعون في طرف من جمجمة أحدهم، وكلٌّ هذه خرافات . وأساطير، وإنما وصفوا بالجبروت لقوتهم وشدَّتهم وبسطة أجسامهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ روي عن ابن عباس أنهما: يوشع بن نون، وكالب ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، وفيه تعريض بأن بعضهم لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدوَّ ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان، والتثبيت، وربط الجأش، أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي باب بلدهم، أي باغتوهم، وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من الاستعداد، لئلا يجدوا في الحرب مجالاً ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإنا قد رأيناهم، قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق، فإنهم لا يقدرون على الكرِّ والفر. وقيل: إنما علما ذلك، من سننه تعالى في نصرة رسله ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ تعالى خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ به تعالى ومصدقين لوعده، فإن ذلك يوجب التوكل.

﴿ قَالُواْ ﴾ غير مبالين بهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهاراً لإصرارهم على القول الأول، وتصريحاً بمخالفتهم له ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ ﴾ أرض الجبابرة وهم في بلدهم ﴿ أَبَدًا ﴾ دهراً طويلاً ﴿ مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ أي في تلك الأرض ﴿ فَٱذْهَبْ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ أي فقاتلاهم، وإنما قالوا ذلك استهزاءً برسولهم، وعدم مبالاة بأمره. ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وأرادوا بذلك عدم التقدم، ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين، كأنهم لم يعبأوا بقتالهم.

﴿ قَالَ ﴾ موسى لمّا رأى منهم ما رأى، على طريقة البثّ والحزن ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، فليس قوله عليه السلام ردّاً لما أمر الله تعالى به، بل الشكوى إلى الله تعالى، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا ﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي الخارجين

عن طاعتك، المصرِّين على عصيانك، بأن تحكم لنا ما نستحقه، وعليهم ما يستحقونه كما هو المروي عن ابن عباس والضحاك.

﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجل ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن دخولها مشروط بالإيمان والطاعة، وحيث نكثوا على أدبارهم حرموا، وانقلبوا خاسرين ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فالمراد بتحريمها عليهم، أنه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدة، ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسيرون فيها متحيرين، يقال: تَاهَ يتيه تيهاً وتيهاناً ذهب متحيراً، وكان ذلك من خوارق العادات، إذ التحير في مثل تلك المسافة هذه المدة الطويلة، مما تحيله العادة، وأكثر المفسرين على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه، لكنْ لم ينلهما من المشقة ما نالهم، وكان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم، لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم، وهذه القصة مفصلة في التوراة، وهي ناعيةٌ عليهم عصيانهم وطغيانهم.

﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ضمير عليهم يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر وقيل: هم هذه الأمة أي اتل يا رسول الله على قومك ﴿نَبَأَ

﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ هابيل عليه الرحمة، وقابيل عليه ما يستحقه، وكانا بإجماع المفسرين ابني آدم عليه السلام لصلبه، وكان من قصتهما ما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود أنه كان لا يولد لآدم إلاّ ولد وجارية، وكان يزوج غلام هذا البطن جارية بطن الآخر، وقد جعل افتراق البطون، بمنزلة افتراق النسب للضرورة، ولد له ابنان: هابيل وقابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، فأمره أبوه فأبى، وكانت توأمةُ قابيل أجمل، فحسده عليها أخوه وسخط، وأراد أن يحظى هو بها، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قُبِلَ تزوَّجها ففعلا، فنزلت نارٌ على قربان هابيل فأكلته، ولم تتعرض لقربان قابيل، فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وفعل ما قصَّه علينا القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي تلاوة ملتبسةً بالصدق والصحة ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إذ قرَّب كلٌّ واحد منهما قربانه ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل، لأنه سخط حكم الله ﴿قَالَ﴾ أي قابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال هابيل: ولمَ تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله قبل قربانك، وتريد أن تنكح أختي ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ أي القربان ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى، ومراده من هذا الجواب أن يقول: إنك إنما أُتيت من قِبَل نفسك، لا من قبلي، فلمَ تقتلني؟ ولم يصرح ذلك حذراً من تهييج غضبه، وحملاً له على التقوى، والإقلاع عما نواه، ثم صرح بتقواه على وجه يستدعي سكون غيظه، لو كان له عقل حيث قال:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي والله لئن باشرت قتلي حسبما أوعدتني به، وتحقَّق ذلك منك، ما أنا فاعل مثله لك في وقت من الأوقات، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرَّج عن قتله له، خوفاً من الله تعالى، وعن ابن عباس أن المعنى: لئن بسطتَ إليَّ يدك على سبيل الظلم والابتداء، ما أنا بباسط إليك يدي على وجه الظلم والابتداء، وفي قوله

تعالى: ﴿إني أخاف﴾ الخ. تعليل للامتناع، وإرشاد قابل إلى خشية الله، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة والمعنى: إني أريد بامتناعي عن التعرض لك، أن ترجع بإثم قتلي وبإثمك الذي لأجله لم يتقبل قربانك ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار، لأنك حينئذٍ تكون ظالماً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر أي ودخول النار جزاء كل ظالمٍ فاجر، عاصٍ لأوامر الله، وهو عقاب من لم يرض بحكم الله تعالى.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهَّلتْ وزيَّنتْ له نفسه الشريرة قتل أخيه الشقيق، فقتله فخسر وشقي، والتصريحُ بأخوّته، لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه ﴿ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ خسر الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار مستحقاً للعقاب، أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل»[1] وروي أنه لمَّا قتله تركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، حتى رأى طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً ويضعه فيها، ففعل بأخيه مثل ذلك.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء فدفن شيئاً، فتعلَّم منه والمتبادر أن الغراب أطال البحث، لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما رأى قابيل فعل الغراب زالت حيرته ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، والمعنى: يا ويلتي احضُري فهذا أوانك، والويل الهَلكةُ تستعمل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/١٦٩ ومسلم في القسامة رقم ١٦٧٧ وفي رواية البخاري: «ليس من نفس تقتل ظلماً..» الحديث.

عند وقوع الداهية ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ تعجب من عدم اهتدائه، إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله، لما كابد فيه من التحيُّر في أمره وحمله، وعدم الظفر بما فعله من أجله، والعبْرة في الآية، أن الحسد كان منار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، وينغّص عليهم عيشهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ذلك إشارة إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه ﴿كَتَبْنَا﴾ أي قضينا ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خصهم بالذكر لما أن الحسد كان منشأ لذلك الفساد، وهو غالب عليهم، ولأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، حتى قتلوا الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي فساد فيها يوجب هدر الدم، كالشرك، والارتداد، وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومناط التشبيه: اشتراطُ الفعلين في

هتك حرمة الدماء، وتجرُّوء الناس على القتل، واستجلاب غضب الله وعذابه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبَّب لبقاء نفس واحدة، إما بنهي قاتلها عن قتلها، أو استنقاذها من سائر أسباب الهَلكة بوجه من الوجوه، كالحرق، والغرق، والهدم ونحوها ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وجه التشبيه ظاهر، والمقصود تهويل أمر القتل، وتفخيم شأن الإحياء، بتصوير كلٍ منهما بصورة لائقة به، في إيجاب الرهبة والرغبة، فالآية الكريمة تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، ومن وظيفة كل منها على حياة الجميع ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إنما لم يقل ولقد أرسلنا، للتصريح بوصول الرسالة إليهم، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة، بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيداً بوجوب مراعاتها ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ما ذُكر من التوضيح، وتأكيد الأمر ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وذكر الأرض للإيذان بأن إسرافهم انتشر شره في الأرض حتى عمَّ وطمَّ.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهما تعظيماً لشأن المسلمين، والمراد به ههنا قطع الطريق، والمكابرة باللصوصية ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون مفسدين، نزلت في قُطَّاع الطريق وهذا قول أكثر الفقهاء، والفساد ضد الصلاح، فإزالة الأمن عن الأنفس، والأموال، ومعارضة تنفيذ الشريعة ونحوها، كلٌّ ذلك إفسادٌ في الأرض، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب، شُرعت لكل مرتبة عقوبةٌ معينة فقال سبحانه ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي حداً إن أفردوا القتل، ولو عفا الأولياء لا يلتفت إليه، لأنه حق الشرع ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إذا جمعوا بين القتل والأخذ للمال، والصلبُ قبل القتل، بأن يصلبوا أحياء، والأولى أن يكون على الطريق في ممر الناس، ليكون ذلك زجراً للغير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن اقتصروا على أخذ المال، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخيَّر إن شاء اكتفى بالصلب، وإن شاء قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة، والسعي للفساد، والمراد من النفي عندنا هو الحبس، فإنه نفي عن وجه الأرض، وعند الشافعي من بلدٍ إلى بلد آخر، والعرب تستعمل النفي للسجن، قال بعض المسجونين:

خَرَجْنَا من الدُّنْيَا ونحنُ من أَهْلِهَا فلَسْنَا من الأَمْواتِ فيها ولا الأَحْيَا
إذا جَاءَنَا السَّجَّانُ يوماً لِحَاجَةٍ عَجِبْنا وقلنَا جَاء هَذَا من الدُّنْيَا

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس من هذه الأمة، وقال أحبِسُه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما فُصِّل من الأحكام ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، واقتصر في الدنيا على الخزي، مع أن لهم عذاباً أيضاً، وفي الآخرة على العذاب مع أن لهم فيها خزياً أيضاً، لأن الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها، والآية أقوى دليل لمن يقول: إن الحدود لا تسقط العقوبة، والقائلون بالإسقاط يستدلون بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من ارتكب شيئاً فعوقب به كان كفارةً له»[1]، فإنه يقتضي سقوط الإثم عنه، وأن لا يعاقب في الآخرة، وهو مشكل مع هذه الآية، وأجاب النووي بأن الحدَّ يكفر به عنه حق الله تعالى، وأما حقوق العباد فلا، وههنا حقان، حقُّ الله، وحق العبد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٦٣٨/٨ ولفظُه: عن عُبادة بن الصامت قال: «كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ وقرأ الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات﴾ فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له..» الحديث.

وأما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه، فإليهم ذلك، إن شاؤوا عفوا وإن أحبوا استوفوا، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب والآية في قطاع المسلمين، لأن توبة المشرك، تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى عظم القتل والفساد، أمر المؤمنين بأن يتقوه في كل ما يأتون وما يذرون، ومن جملتها القتل والفساد ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ثوابه والزلفى منه ﴿ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي ما تتوسلون به من فعل الطاعات، وترك المعاصيّ والوسيلةُ ما يُتوسل ويتقرب به إلى الغير، توسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وفي القرآن الكريم اسمٌ لكل ما يُتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، من علمٍ، وعمل، وفي الحديث: «اللهمَّ آت محمداً الوسيلة» هي منزلة في الجنة، بيَّن تعالى بهذه الآية للمؤمنين، بأن مجامع التكليف محصورة في نوعين: أحدهما ترك المنهيات وإليه أشار بقوله: ﴿اتقوا الله﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه أشار بقوله: ﴿وَابتَغُوا إِلَيهِ الوسِيلَةَ﴾ وهي القربة لا غير،

وحيث كان في كل منهما كلفة ومشقة، عقَّب الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والباطنة بما أمكنكم في طاعته تعالى، وبكف أنفسهم عن الأهواء الفاسدة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بنيل النعيم المؤبد، والخلاص من كل نكد، وتقديمُ الوسيلة قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم﴾ أي كل واحد منهم ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعٗا﴾ توكيد للموصول ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وفائدة «معه» التصريح بفرض كونهما لهم بطريق المعية، لا بطريق التعاقب ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بالافتداء أي لو أن لهم كل ذلك، لدفع العذاب الواقع يومئذ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تصريح بالمقصود منه، وبيان لهوله ولشدته.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الإرادة بمعنى التمني أي يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ فإيثار الجملة الاسمية لبيان سوء حالهم، باستمرار عدم خروجهم منها ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أي دائم، تصريح بعدم تناهي مدته، بعد بيان شدته، وهذه الآية كما ترى في حق الكفار، فلا تنافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج، كما لا يخفى على من له أدنى إيمان، روي عن جابر رضي الله عنه قال: «يخرج قومٌ من النار بالشفاعة»[1] قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ قال اتلُ أول الآية ﴿إن الذين كفروا﴾ فهي في الكفار لا في المؤمنين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حكم السرقة الصغرى، بعد بيان أحكام السرقة الكبرى بقطع الطريق، والسَّرقةُ: أخذُ مال الغير خُفية، وصرَّح بالسارقة مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الشيخان في باب الشفاعة للمؤمنين.

الأحكام الواردة، لمزيد الاعتناء بالبيان، والمبالغة في الزجر ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أي أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود «فاقطعوا أيمانهم»، واليد اسم لتمام الجارحة، والجمهورُ على أن المقطع هو الرسغ، فقد أخرج البغوي أنه ﷺ أتي بسارقٍ، فأمر بقطع يمينه منه، والمخاطب بقوله سبحانه: ﴿فاقطعوا﴾ ولاة الأمور كالسلطان، ومن أذن له في إقامة الحدود، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حِرْزٍ، والمأخوذ يساوي عشرة دراهيم فما فوقها، وقُطعت اليدُ لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال ﷺ: «إنما هلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريفُ تركوه، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»[1] ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي بسبب كسبهما من السرقة ﴿نَكَٰلٗا﴾ أي عقوبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى عبرة لغيرهما ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾[2] غالب على أمره، يمضيه كيف يشاء، من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حَكِيمٞ﴾ في شرائعه وفرائضه، لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿فَمَن تَابَ﴾ أي من السُّرَّاق إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ الذي هو سرقته، والتصريح به لبيان عظم نعمته تعالى، بتذكير عظم جنايته ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أمره بأن يرد مال السرقة، ويعزم على ترك المعاودة، ويستغفر ويتوب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأما

---

١) الحديث رواه البخاري في الحدود ١٢/٧٦ ومسلم رقم ١٦٨٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣/٥٦١.

٢) حكاية لطيفة قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبجانبي أعرابي جاء من البادية يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية: ﴿والسارق والسارقة...﴾ فقلتُ: ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً، فقال الأعرابي: كلامُ من هذا؟ فقلت: كلام الله عزَّ وجلَّ، قال: ليس هذا كلام الله، أعدْ ما قرأت، فأعدتها فتنبهت فقلت في ختامها: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: الآن أصبتَ، هذا كلام الله، فقلت له: كيف عرفت؟ فقال الأعرابي: عزَّ، فحكَمَ، فقطع، ولو غفر ورحم ما قَطع!!.

القطع فلا تسقطه التوبة، لأن فيه حق المسروق منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ فيهما، وفيه إشارة إلى أن قبول التوبة فضلٌ من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد صالح للخطاب، والمراد به الاستشهاد على قدرته تعالى على التصرف الكلي من التعذيب والمغفرة حسبما تقتضيه مشيئته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قدم التعذيب لأن التعذيب للمصرّ على السرقة، والمغفرة للتائب منها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خوطب ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف[1]، والإشعار بما يوجب عدم الحزن ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ

(١) وفي هذا التشريف، تعليمٌ من الله وتأديب لعباده المؤمنين، أن يعظّموا رسول الله ﷺ عند=

﴿فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر، لا يبرحونه، أي لا تحزن ولا تبال تهافتهم في الكفر بسرعة، والغرض منه مجرد التسلية على أبلغ وجه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بيان للمسارعين في الكفر، والباء متعلقة بقالوا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم سماعون، والضمير للفريقين أي مبالغون في سماع الكذب، وفي قبول ما يفتريه أحبارهم ورؤساؤهم من الكذب على الله سبحانه، وتحريف كتابه، فإن كونهم سماعين للكذب، مما يقتضي عدم المبالاة بهم، فهم عيون وجواسيس بين المسلمين، كالذين يفترون الكذب على الإسلام في هذا الزمان، ومعنى ﴿سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ﴾ يسمعون منك ليكذبوا عليك، وليحرّفوا ما سمعوا منك، بالزيادة والنقصان والتبديل ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي سماعون كلامه ﷺ ليكذبوا عليه، لأجل قوم آخرين، والمراد أنهم عيون عليه ﷺ لأولئك القوم ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لم يقصدوك بالإتيان، بل قصدوا السماع للكذب فيه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وصفوا باستمرارهم على التحريف، بياناً لإفراطهم في العتو، والافتراء على الله تعالى، أي يميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ واعملوا بموجبه فإنه الحق ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أوتيم غيره ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ قبوله، روي عن ابن عمر أنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ،

= مخاطبته والتحدث معه، فيخاطبونه بلفظ فيه إجلالٌ وتوقير، كقولهم: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، وألاَّ ينادوه باسمه العلم يا محمد، كما كان بعض الأعراب الجفاة يقفون عند باب منزله فيقولون: يا محمد اخرجْ إلينا، فتنزل القرآن الكريم ناعياً عليهم هذا الصنيع: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وجاء النهي لجميع الناس بالتحذير من ذلك: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ وحقاً إنه لتوجيه كريم لتعليمهم الأدب مع الرسول ﷺ.

فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأنهما؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما»[1] ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ أي ضلالته أو فضيحته ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة، لانهماكهم فيها، وإصرارهم عليها بسبب اختيارهم، وقبح صنيعهم ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم، بظهور نفاقهم، وازدياد غمهم بمزيد انتشار الإسلام، وقوة شوكته، وأما خزي اليهود فالذلة والجزية وظهور كذبهم ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مع الخزي الدنيوي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره، وهو الخلود في النار في الجملتين للمنافقين واليهود جميعاً، وتكريره لزيادة التقرير.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ذكَره تأكيداً لما قبله وتمهيداً لما بعده ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحتُ: بسكون الحاء وضمها الحرام، نزلت في حكام اليهود، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السُّحت، فالنَّارُ أولى به»[2] وأخرج عبد ابن حميد عن علي كرَّم الله وجهه، أنه سُئل عن السحت، فقال الرشاء ـ أي

(١) الحديث أخرجه الشيخان، البخاري ١٤٨/١٢ في المحاربين، وفي تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢٢٤ ومسلم في الحدود رقم ١٦٩ والترمذي رقم ١٤٣٦ في الحدود أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٢١ ورواه الترمذي رقم ٦١٤ بلفظ «يا كعب بن عُجرة، إنه لا يربو لحم نَبَتَ من سُحتٍ إلا كانت النار أولى به».

الرشوة ـ فقيل له في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»(١) ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا تخيير له ﷺ فقيل: هذا في أمر خاص، هو ما ذكر من الزنا، وقيل هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت، وهو قول عطاء وقتادة، وقائل إنه منسوخ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة، وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع، وسائر العقود، إلاَّ في بيع الخمر والخنزير، فإنهم يقرون عليه، ويمنعون من الزنا فإنهم نهوا عنه، ولا يرجمون، وتمام التفصيل في الفروع ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم إذا أعرض عنهم شقَّ ذلك عليهم، فتشتدُّ عداوتهم، فأمَّن الله تعالى رسوله بقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ﴾ بسبب ذلك ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر، فإن الله يحفظك من ضررهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي أُمرت به، وهو ما تضمنه القرآن، واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه، ويعظم شأنهم، وفي الحديث الشريف: «إن المقسطين ـ أي العادلين ـ عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم ـ أي فيما تقلدوا من خلافة، وإمارة أو قضاء ـ وأهليهم وما وَلُوا»(٢) بالتخفيف من الولاية على يتيم، أو صدقة أو وقف، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، وابن المنذر، وأخرج البخاري في كتاب الإجارة في ترجمة باب ٨/ ٤٥٣ قال ابن سيرين: كان يُقال للسحت: الرشوة في الحكم.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة رقم ١٨٢٧ باب فضيلة الإمام العادل، والنسائي في آداب القضاة ٨/ ٢٢١ وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠.

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، والآية تقريع لليهود، بإظهار جهلهم وذلتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عطف على يحكمونك، داخل في حكم التعجيب ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعدما حكموك، أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بك وبكتابهم.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ﴿ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، من لدن موسى إلى عيسى عليه السلام، ﴿ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ انقادوا لحكم الله تعالى، أجريت على النبيين على سبيل المدح، وفيه رفع لشأن المسلمين، وتعريض باليهود، وأنهم بمعزلٍ من الانقياد والإسلام والاقتداء بدين الأنبياء ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾

وهو متعلق بيحكم ويدل على أن النبيّين أنبياؤهم ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ أي العُبَّاد والعلماء قاله قتادة، وقال مجاهد: الربانيون العلماء والفقهاء وهم فوق الأحبار أي هم أيضاً يحكمون بها ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل، وضمير الجمع عائد إلى الربانيين والأحبار أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بالتوراة، بسبب ما حفظوه من كتاب الله، حسبما وصَّاهم به أنبياؤهم ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ أي رقباء يبيّنون ما يخفى منه للناس ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة كما روي عن ابن عباس، أي إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحبار، فلا تخشوا الناس كائناً من كان، واقتدوا في مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين، والربانيين، ولا تحرّفوا خشيةً من أحد ﴿ وَٱخْشَوْنِ ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تتركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ كائناً من كان، دون المخاطبين خاصة، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، ومن لم يحكم بذلك مستهيناً به، منكراً له، كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لاستهانتهم به، وفي الآية أشد تحذير، حيث علّق الحكم بالكفر، بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه؟!.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي فرضنا على اليهود ﴿ فِيهَآ ﴾ أي في التوراة ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ أي تُقاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿ وَٱلْعَيْنَ ﴾ تفقأ ﴿ بِٱلْعَيْنِ ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿ وَٱلْأَنفَ ﴾ يُجدع ﴿ بِٱلْأَنفِ ﴾ المقطوع بغير حق ﴿ وَٱلْأُذُنَ ﴾ تُقطع ﴿ بِٱلْأُذُنِ ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿ وَٱلسِّنَّ ﴾ تقلع ﴿ بِٱلسِّنِّ ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أي ذات قصاص إذا

كانت بحيث تعرف المساواة مثل الشفتين والذَّكرِ، والأنثيين، والقدمين، واليدين وغيرها، وما لا يمكن فيه القصاص من كسر في عظم أو جراحة يخاف منه التلف ففيه حكومة عدل ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعبير عنه بالتصدُّق، للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يكفّر الله به ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ كائناً من كان ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من شرائع الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى، قال الضحاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس، ولا في الجِرَاحِ، وإنما كان العفو أو القصاص، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل، أي أتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى عقيبهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي مصدّقاً لما تقدَّمه من التوراة، فإن ذلك من لازم الرسول ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي معترفاً بأحكامها وأنها من عند الله، والتكريرُ لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيصُ المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الأحكام.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يعملوا بما فيه، من الأمور والأحكام التي لم تنسخ، التي من جملتها دلائل رسالته ﷺ، وأما أحكامه المنسوخة، فليس الحكم بها حكماً بما أنزل الله تعالى، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ منكراً له، ومستهيناً به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

المتمردون، والخارجون عن الإيمان[1]، والآية تدل على أن الإنجيل مشتملٌ على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ملتبساً بالحق ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي مصدِّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ رقيباً على سائر الكتب، يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها، ومن الغرائب أن البعض من دعاة النصارى، فَهِمَ من هيمنة القرآن، الشهادة بحفظ الإنجيل من التحريف، واللفظ لا يدل على هذا، على أن النص شاهد على التحريف ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم ﴾ أي إذا كان شأن القرآن كما ذُكر، فاحكم بين أهل الكتابين ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ إليك فإنه مشتمل على جميع

---

(١) وصف تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: «الكفر، والظلم، والفسق» وهذا غاية في التنبيه على عظم الجريمة، وخطورة الأمر، أن يوصف المعرض عن تحكيم شريعة الله، بأنه كافر، ظالم، فاسق، فيا خيبة حكام العرب والمسلمين!؟.

الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغة كما حرَّفوا من أمر الرجم ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهون، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ لكن المراد به غيره، لأن الاتباع غير متصور فيه ﷺ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ كلام مستأنف، لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكم القرآن الكريم، والمعنى: لكل أمة منكم، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصَّيْن بتلك الأمة، فالأمة التي من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم بالتوراة، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل، أما أنتم أيها الموجودون في هذا العصر، فشرعتكم القرآن الكريم، فآمنوا به، والشرعةُ: الشريعة يعني الطريقة، شبّه بها الدينُ، لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ومنهاجا﴾ أي طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر إذا وضح.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة متفقة على دين واحد، في جميع الأعصار، ومفعول المشيئة محذوف أي لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم، بأن خلقكم على استعداد واحد، وملة واحدة، من غير اختلاف بينكم، في وقت من الأوقات، في شيء من الأحكام الدينية ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها هل تعملون بها أم لا؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة في ذلك من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين، من العقائد الحقة، والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل السبق، فالسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ فيه وعدٌ ووعيدٌ للمبادرين والمقصِّرين، أي سترجعون إلى الله تعالى وتحشرون إلى دار الجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، بما لا يبقى لكم معه شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ عطف على الكتاب كأنه قيل: وأنزلنا إليك الكتاب وقلنا احكم أي الأمر بالحكم لأن المنزل الأمر بالحكم لا الحكم ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ رُوي عن ابنِ عباس رضي الله عنه أن أحبار يهود، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد: قد عرفتَ أنَّا أحبار يهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك!! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت، الآية: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى، وأرادوا غيره، ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ ﴾ أي بذنب إجرامهم، وإعراضهم، وإنما عبّر عنه بذلك، إيذاناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، وهذا من جملتها ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ متمردون في الكفر، معتدون فيه، وفيه تسلية للنبي ﷺ والمراد من الناس العموم، وقيل اليهود خاصة.

﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، وتوبيخ لهم أي أيتولون عن حكمك، فيبغون حكم الجاهلية؟ والمراد به متابعة الهوى والمداهنة في الأحكام، وتقديم المفعول للتخصيص، المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه ﷺ منكر وعجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا ﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى، أو مساوٍ له ﴿ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ عند قوم يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه، ومن الجهالة أن نرى ونسمع من بعض المسلمين في هذا العصر، من يقول لا ننكر الدين، ولكننا لا نريد الشريعة، وهؤلاء هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم، من أولئك الذين نزلت الآية فيهم، فإنهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠.

يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، لا يعرفون شرائع الله ومحسناته، فهم ينتقدون كثيراً منها، لعدم موافقتها لأهوائهم، وهم في ضلالٍ مبين!!.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب يعم كافة المؤمنين، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم على الانزجار عما نُهوا عنه ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ أي بعض كل فريق منهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة، وهي إجماع الكل على مضارتكم، بحيث يبغونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة[1]؟ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ أي من جملتهم، والآية محمولة على التشديد، والمبالغة في الزجر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخلّيهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تنبيهاً على أن توليهم ظلمٌ، لما أنه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد، والنهي لأفراد

---

(١) رُوي عن أبي موسى، الأشعري أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: مالَكَ ـ قاتلك اللهُ ـ ألاَ تتخذُ حنفياً؟ ـ أي مسلماً ـ أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء..﴾ قلتُ: له دينُه، وليَ كتابتُه، فقال: لا أكرمُهم إذْ أهانهم الله!! قلت: لا يتمُّ أمر البصرة إلاَّ به، فقال: مات النصراني!! ـ يعني هبْ أنه مات ـ فماذا تصنع بعده!؟.

المسلمين دون جملتهم، لأنه ليس من أصول الدين، أن لا يحالف ويعاهد من يخالفهم فيه، كيف وقد كان ﷺ حالف يهود المدينة عقيب الهجرة؟ وقد قيَّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين فهذا هو الممنوع والمحرَّم.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق كابن أُبيٍّ وأضرابه، والخطابُ للرسول ﷺ أو لمن له أهلية للخطاب، وإنما وضع المظهر ليشير إلى أن ما ارتكبوه من التولي، بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق، ورخاوة العقل ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[1] والرؤيةُ بصريَّةٌ، وإنما قال «فيهم» مبالغةً في رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وللدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ الدائرة أصلها ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا مصائب الدهر، ودائرة السوء النوائب تنزل وتهلك جمعها الدوائر، أي يقولون تدور علينا دائرة، بأن ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فنحتاج إليهم، قاله مجاهد وقتادة، وقد ردَّ الله عليهم عللهم الباطلة، وبشَّر المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ فإنَّ «عسى» منه عزَّ وجلَّ وعدٌ محتوم، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود، وقال قتادة: هو القضاء بنصره ﷺ على من خالفه، وإعزاز الدين ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ ﴾ أولئك المنافقون المعللون بما ذكر ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك، في أمر الرسول ﷺ وما أظهروه مما أشعر على نفاقهم، وتعليق الندامة بما يكتمونه من الموالاة، لما أنه هو الذي كان يحملهم على موالاة الكفرة.

---

(١) المراد أن المنافقين من أهل المدينة، يسارعون في مودة اليهود، ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وغنى، فكانوا يخالطونهم من أجل منافعهم الخسيسة وهذه من علامات أهل النفاق، لأن حبَّهم للدنيا أعظم من حبِّهم للدين.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين، عند ظهور ندامة المنافقين، والمعنى: ويقول المؤمنون مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ ﴾؟ أي يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: أهؤلاء أقسموا لليهود إنهم لمعكم، فلما حلَّ باليهود ما حلَّ، أظهروا، ما يسرُّونه من الموالاة، ومعنى جَهْد الأيمان: أغلظُها ﴿ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ هـذا مـن جملـة القـول، أو مـن قـول الله تعـالـى، شهـادةً عليهـم بحبـوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل ما أحبط أعمالهم؟ وما أشقاهم في الدنيا والآخرة؟!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ لما نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وفصَّل مصير المنافقين، شرع في بيان حال المرتدين، والمراد من المرتدين، المرتدون عقيدة وعملاً كمانِعي الزكاة، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بعض الناس، فنزلت الآية تذكِّر وتحذر ﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ ﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة ﴿ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ أي يريدون طاعته، ويحترزون عن معاصيه، والمراد بالقوم في

الآية، يعمُّ كلَّ قوم يوصفون بأوصاف المسلمين، الذين يحبونه تعالى، وينشرون كلمة الله بين الناس، سواءً كانوا من العرب أو العجم، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ أي متواضعون لهم، والذِلُّ بالكسر: اللينُ، ضد الصعوبة واستعماله بعلى لتضمين معنى العطف والحُنوِّ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار﴾ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى مبينة للكيفية عزتهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي أنهم جامعون المجاهدة في سبيل الله، وبين التصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين، خافوا لوم أوليائهم من اليهود[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصف به القوم ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لطفه وإحسانه إليهم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضل، والألطاف ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ العلم بجميع الأشياء، فيعطي الفضل والعزَّة لمن يشاء!.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة، ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وليُّكم الله﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التَّبع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم، أي الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدُّون الزكاة لمستحقيها، فهم يؤدُّون حقَّ الله، وحقَّ عباده ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي خاشعون ومتواضعون لله تعالى في الصلاة، وإيتاء الزكاة، لا يريدون بذلك إلاَّ وجه الله تعالى[2] .

---

(١) اللَّوم: العذلُ على أمرٍ من الأمور، وإذا كان الفعل مذموماً يقال لفاعله: لم فَعلتَ هذا الفعل القبيح، فهذا هو اللَّوم، وقد يلام الإنسان على فعلٍ حسن محبوب، قال الشاعر:

وإذَا الفَتَىٰ عرف الرشادَ لنفسِهِ ... هانَتْ عليهِ مَلامةُ العُذَّالِ

(٢) ظنّ بعضهم أن معنى قوله تعالى: ﴿وهم راكعون﴾ أنهم يؤدُّون الزكاة في حال ركوعهم، حتى زعم بعضهم أن عليَّ بن أبي طالب تصدَّق وهو راكع، وهذا خطأ =

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ الحزب، الطائفة من الناس جعلوا حزب الله تعظيماً لهم، كأنه قيل: ومن يتولهم فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية النهيَ العام عن موالاة جميع الكفار، ونبّه على العلّة، بأنَّ من هذا شأنهُ، جمع بالمعاداة، فكيف بالموالاة؟ ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ التعرض لعنوان إيتاء الكتاب، لبيان شناعتهم، لما أن إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين، المؤسس على الكتاب المصدِّق لكتابهم ﴿ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ أي المشركين لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ في العون والنصرة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في ذلك بترك موالاتهم، أو بترك المناهي على الإطلاق، فيدخل فيه ترك الموالاة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حقاً فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا ﴾ أي الصلاة، أو المناداة، وفيه دليل على أنِ الأذان مشروع للصلاة بالنص، لا بالمنام وحده، ومنام «عبد الله بن زيد» كان أول ما قدم ﷺ المدينة، وسورةُ المائدة من آخرِ القرآن نزولاً، حيث ورد بعد ثبوته، فيكون النص تقريراً له ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، أنه قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا، لاقاموا، فإذا رأوهم ركعاً وسُجّداً، استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق، والهزؤ به، والعقل يمنع منه، ولو كان لهم عقلٌ لما اجترؤوا على تلك العظيمة، وسمى تعالى الأذان مناداةً، لقول المؤذن فيه: حيَّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.

= وفهم غريب لمعنى الآية، وإنما المراد أنهم خاشعون متواضعون لعظمة الله جلَّ وعلا، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٧٤ في الردِّ على من زعم ذلك.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يخاطبهم، ويبين أنَّ الدين منزهٌ عما صدر عنهم من الاستهزاء، أي قل لأولئك الفجرة ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ ﴾ نقم الأمر كرهه، أي هل تنكرون وتعيبون منا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن المجيد ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب الإلّهية ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن دائرة الإيمان، فإن الكفر بالقرآن العظيم، مستلزمٌ للكفر بسائر الكتب الإلّهية، ومعنى الآية: ما تنقمون منا ديننا لعلةٍ من العلل، إلاَّ لإيماننا بالله تعالى، وما أُنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بشيء مما ذُكر، وقيل: ﴿أكثركم﴾ لإخراج المؤمنين منهم، فإن منهم من قد آمن، وحَسُن إيمانه.

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ لما أُمر ﷺ بإلزامهم، ببيان أن مدار نقمتهم على الدين أولاً، هو اشتماله على كفرهم، أمر عقيبه بأن يوبخهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب، ما هم عليه من الدين المحرّف، أي هل أخبركم بما هو شرٌ في الحقيقة مما تعتقدونه شراً؟ هو أنتم المفسدون المكذبون لرسل الله، عن ابن عباس قال: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: أومِنُ بالله ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى... -إلى قوله تعالى- ونحن له مسلمون﴾ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا لا نؤمن بعيسى، ولا بمن آمن به، ثم قالوا: لا نعلم ديناً شراً من

دينكم، فأنزل الله الآية[1] ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي جزاءً ثابتاً في حكمه تعالى، والمثوبة مختصة بالخير، كالعقوبة مختصة بالشر، فوُضعت ههنا موضعها على طريقة التهكم، كقول الشاعر: «تحيةُ بينهمْ ضربٌ وَجيعُ» ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، بتقدير مضاف، أي هو دين من لعنه الله ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته بكفرهم، وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، قال ابن عباس: إن المسخين بالقردة والخنازير، كانا في أصحاب السبت، مُسخت شبانهم قردة، وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف على صلة «مَنْ» كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بتلك الفضائح ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي شرٌّ مصيراً ومآلاً في الآخرة، لأن مكانهم الجحيم، ولا مكان أشر منه ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأكثر ضلالاً وبعداً عن الطريق المستقيم، وفيه دلالة على أنَّ دينهم شرٌ محض، بعيد عن الحق، فمن هذا حاله، كيف يتجاسر على الاستهزاء بدين الإسلام ولكنهم اليهود اللعناء، لا يتورَّعون عن كل جريمة.؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من اليهود، كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً، وقيل: هم عامة المنافقين ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا، لا يؤثر فيهم ما سمعوا منك وكلمة «هم» للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم، وإنما لم يقل سبحانه «وقد خرجوا» إفادة لتأكيد الكفر، دون لفظ الخروج، لأنه خلاف الظاهر، إذ كان الظاهر بعد تنور أبصارهم، برؤية مطلع شمس الرسالة، وتشنف أسماعهم بلآلىء درر النبوة، أن يرجعوا عما هم عليه من الغواية، فلما سمعوا قول النبي ﷺ وأنكروه، ازداد كفرهم وضلالهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٠/ ٤٥٢.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أولئك اليهود، والخطاب لسيد الرسل ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ المراد بالإثم الكذب ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم ومجاوزة الحد في الطغيان، والكلامُ مسوقٌ لوصفهم بسوء الأعمال، بعد وصفهم بسوء الاعتقاد ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام مطلقاً، وقال الحسن: الرشوة في الحكم، خصَّه بالذكر مع اندراجه في الإثم، للمبالغة في التقبيح ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لبئس شيئاً يعملونه من تلك الأفعال الشنيعة.

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ «لولا» هنا للتحضيض أي الحث على فعل الشيء المحبوب فهي بمعنى «هلاّ» أي هلاّ يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي عن فعل المعاصي والآثام، وأكلهم المال الحرام!؟ قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: هذا التحضيضُ يتضمن توبيخهم على السكوت وترك النهي ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وهذا أبلغ مما تقدم من الفعل والعمل، لما تقرَّر في اللغة، أن الفعل ما صدر عن الإنسان مطلقاً، فإن كان عن قصدٍ سُمّي عملاً، ثم إن حصل بمزاولةٍ وتكرر، حتى رَسَخَ وصارَ مَلَكةً له، سُمّي صُنعاً وصَنْعة، فلذا كان الصنع أبلغ، لاقتضائه الرسوخ، ففي الآية إشارة إلى أن ترك النهي أقبح من الارتكاب.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا برسول الله ﷺ، كفَّ عنهم ما بسط عليهم، فعند ذلك قال: «فنحاص بن عازوراء» يد الله مغلولة، وحيث لم ينكر الآخرون نسبت إلى الكل، وأرادوا بذلك لعنهم الله تعالى، أنه ممسكٌ فإن كلاً من غَلِّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[2] وهذا من أشنع جرائم اليهود، حيث اتهموا الله بالبخل لعنهم الله ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والنكد، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً يسيراً، إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً كثيراً، أو يُراد بغلّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا، ويقيدون بالسلاسل إلى النار في الآخرة ﴿وَلُعِنُواْ﴾ أي أُبعدوا عن رحمة الله تعالى ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ أي بسبب ما قالوا ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ عطف على مقدر، أي كلا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون من الجود والسخاء ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ أي هو مختار في إنفاقه، يوسّع تارةً، ويضيّق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي، أن يضيّق عليهم، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ من اليهود، وهم علماؤهم ورؤساؤهم، أو المقيمون على الكفر منهم مطلقاً ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من القرآن ﴿مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ أي يزدادون طغياناً وكفراً مما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح، والزيادة من حيث الكمّ والكثرة،

---

(١) العرب تقول: فلان مغلول اليد إذا كان بخيلاً لا ينفق، وفلانٌ يده مبسوطة إذا كان سخياً كريماً، فالآية كناية عن البخل والجود، والقرآن نزل بأساليب العرب المعروفة عندهم التي يتخاطبون بها.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

إذ كلما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ أي بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى﴾ ولشمول قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أهل الكتاب﴾ للفريقين ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق آراؤهم، قال أبو حيان: لا يزال اليهود والنصارى متعادين، وفي ذلك إخبار بالغيب، فإنه لم يجتمع لحرب المسلمين جيش يهود ونصارى، منذ سلَّ الإسلامُ السيف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ، ورتبوا مباديها، ردَّهم الله تعالى بتفرق آرائهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فإيقاد النار كنايةٌ عن إرادة الحرب، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمونها نار الحرب، والمراد من إيقاد النار، إظهار الكيد بالمؤمنين، وإطفائها صرف ذلك عن المؤمنين، وقيل هو أعم من ذلك، أي كلما أرادوا حرب أحد غلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم قطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم الفرس، ثم أفسدوا فسلَّط الله عليهم المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون سعي فساد، فيما يأتونه من إيقاد الحرب، وتهييج الفتن، ولم يكن سعيهم للإصلاح والشؤون الاجتماعية، بل كانوا يسعون للفساد بين الناس، كانوا يحرِّضون المشركين على الرسول ﷺ، فكانوا سبباً للغزوات الكثيرة، كما أنهم يغرون الدول بعضهم على بعض في هذا الزمان، نعوذ بالله من شرورهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون!! ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم، ولذلك أطفأ الله ثائرة فسادهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى والمراد بهم معاصرو رسول الله ﷺ أي لو أنهم ـ مع ما صدر عنهم من فنون الجنايات ـ آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي ما حرَّم الله تعالى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العظم ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تكفير السيئات في مقابلة الإيمان، وإدخال الجنة في مقابلة التقوى، وتكرير اللام لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم، وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بمراعاة ما فيها من الأحكام، التي من جملتها شواهد النبوة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم، وإيراده بهذا العنوان، للإيذان بوجوب إيمانهم به لنزوله عليهم أيضاً، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم، مزيد لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لأوسع الله عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض، وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على الإيمان والتقوى، لنيل سعادة الدارين، وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق، إنما هو من جناياتهم، لا لقصورٍ في فيض الفيَّاض جل وعلا، ودلت الآية على أن الإيمان والتقوى، سببٌ لسعة الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أنَّ أهل القرىٰ آمنُوا واتَّقوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ من السَّمَاءِ والأرْض﴾[2] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة، غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار فجار لتحريفهم الحق، والإعراض عنه، وهم الأجلاف المتعصبون.

---

(١) في اللغة جبَّ يَجُبُّ جَبَّاً وجِبَاباً أي يقطع، فالإسلام يقطع ويهدم ما قبله من الكفر والذنوب، وانظر المعجم الوسيط مادة جبب.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ نداء تشريف ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى الثقلين كافة، بلِّغهم جميع ما أُنزل إليك من الأحكام، وما يتعلق بها كائناً ما كان ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي مالك أمورك ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ما أُمرت به من التبليغ كافة ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي فما بلغت شيئاً من رسالته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أُدِّيَ منها، كترك بعض أركان الصلاة، واستدل بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي، وأما ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع مني هذا البلعوم»[(١)] أي مجرى الطعام، فإنما هو في غير الأحكام الشرعية، كأمور المنافقين وأسمائهم، وبعض الأمور الغيبيّة التي لو كشفها لجرَّتْ إلى فتنة، وجميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلَهية، والأحكام الشرعية، قد اشتمل عليه القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وقال: ﴿ما فرَّطْنَا في الكتاب من شيء﴾ وفي الحديث الشريف: «أما إنها ستكون فتنة، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخَبَرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١/٢١٦ قال البخاري: البلعومُ مجرى الطعام.

بينكم...»[1] الحديث. ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تعالى فقد أعظم الفرية، وجاء بالضلال بلا مرية، وزعمت الشيعة أن في الآية: ﴿مما أُنزل إليك﴾ خلافة علي فقد رَوَوْا بأسانيدهم عن أبي جعفر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشقَّ ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية، ومن وقف على ما يرويه الشيعةُ فيها، وكان له أدنى خبرة، رأى العَجَب العُجاب، وتحقّق أن أقوال القوم كصرير باب، أو كطنين ذباب، ومما يبعد دعوى الشيعة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن الناس فيه يراد بهم الكفار، بدليل ختم الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنه في موضع التعليل لعصمته ﷺ روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كانَ رسولُ الله ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من القبَّة فقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله تعالى»[2].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مخاطباً للفريقين: اليهود، والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي دينٍ يُعتدُّ به، ويليق بأن يُسمَّى شيئاً، وفي هذا التعبير من التحقير ما لا غاية وراءه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسول الله ﷺ وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة، فليست مرادة، لانتهاء وقت العمل بهما بنسخهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن المجيد، بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك، وفي هذا بيان بأن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله تعالى، لا وسائله، ولا مقاصده على الوجه الذي كان عليه سلفهم قبل مجيء خاتم الأنبياء ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم الغلوَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضل القرآن رقم ٢٩٠٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٨/ ٤٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٤٦.

في التكذيب، والإصرار على جحود نبوتك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فلا تحزن لطغيانهم، فإن غائلته عائدة عليهم، ووضعُ المظهر موضع المضمر، لتسجيل الكفر عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شك ولا ارتياب بالله واليوم الآخر، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه بدخول الجنة، من غير أن يصيبه خوف ولا فزع.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بيانٌ لبعض آخر من جناياتهم ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ذوي عدد كثير، ليبينوا لهم أمر دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي بما لا تحبه أنفسهم، ولا تميل إليه من الشرائع، ومشاق التكاليف، عصوه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن النَّسْخَ ممتنع على شرع موسى، والواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر تكذيبه وقتله، فلذلك كذَّبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وإنما أوثر صيغة المضارع، لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب، بقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم ﴿فَعَمُواْ﴾ أي تمادوا في فنون الغي والفساد، وعموا عن الدين، بعدما هداهم الرسل، وبيّنوا لهم مناهجه ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق الذي ألقوه إليهم ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد، بعدما كانوا ببابل دهراً طويلاً، تحت قهر بختنصر، أسارى في غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس فعمره، وردَّ من بقي من بني إسرائيل إلى وطنهم، فاستقروا وكثروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرَّةَ عليهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة، من مرَّتيْ إفسادهم، وذلك في سلسلة جرائمهم الشنيعة المتلاحقة، فقد أوغلوا في الضلال، واجترؤوا على قتل زكريا، ويحيى، ثم قصدوا قتل عيسى ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي كثيرون منهم ضالون، وإنما قال سبحانه: ﴿كثير منهم﴾ لأن بعضاً منهم لم يكونوا كذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ بما عملوا، وهذا وعيد لهم وتهديد.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى، وهم فرقة تسمى الملكانية يقولون: إن الله اسمٌ يجمع أماً، وابناً، وروح القدس، فصار كلهم إلّهاً واحداً، فعيسى هو الله، واليعقوبية منهم يقولون: إن الله سبحانه حلَّ في ذات عيسى، واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي وقد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبدٌ مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، ولا يزال أمره هذا محفوظاً عندهم ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من عبادته سبحانه كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحّدين ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

فإنها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ما لهم من أحد ينصرهم، بإنقاذهم من النار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ معنى قولهم: ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي أحد هذه الأعداد، لا الثالث خاصة، فإنهم يقولون: إن الإلٰهية مشتركة بين الله سبحانه، وعيسى، ومريم، ويؤكده قوله تعالى: ﴿أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾؟[1] وهو المتبادر من قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحق للعبادة إلاَّ إله موصوف بالوحدانية، مستحق للعبادة، متعال عن قبول الشركة، ولا ترى أظهر بطلاناً من مقالة النصارى، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة آلهة، بوجه من الوجوه، وهل يجوز أن يتحد موجودان، بحيث لا يبقى بينهما الإثنينية؟ هذا شيء

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

مستحيل، ممتنع بالشرع والعقل[1] ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا عمَّا هم عليه إلى التوحيد والإيمان ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي بالله ليمسن الذين بقوا منهم على الكفر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾؟ الاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، وتعجيبٌ من إصرارهم على الكفر، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا، وهي مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق الحق، وبيان حقيقة حاله، وحال أمه عليه السلام، أي ليس المسيح ابن مريم إلا رسول كسائر الرسل قبله، وليس فيه من صفات الألوهية شيء ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وكل ذلك من جنابه عزَّ وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه وأفعاله تعالى، فأين لكم وصفه بالألوهية؟ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي وما أمه أيضاً، إلا كسائر النساء، اللواتي لازَمْنَ الصِّدق، فكانت عفيفةً أمينةً شريفة، وليست زوجة لله كما يزعم النصارى، واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم، لأنه تعالى أشار

---

(١) الأقانيم الثلاثة «الآب، الابن، روح القُدُس» على زعم النصارى وهي مختلفة كل الاختلاف، فالآب غير الابن، والابن غير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً؟ وإذا قلنا: هذه طاولة، وهذا كرسي، وهذا سرير، فهل يقبل عاقل أن تقول له: إن هذه الثلاثة واحد؟ هل هي ثلاث كراسي؟ هل هي ثلاث طاولات؟ لا، هل هي ثلاثة أسِّرة؟ لا، كيف تكون إذاً الثلاثة واحداً؟ ولذلك يقولون: لا يجتمع عقلٌ ونصرانية، إذ كيف يكون الآب والابن وروح القدس ثلاثتها واحداً؟.

في معرض بيان أشرف خصائصها «الصدّيقية» ولو كان لها مرتبة «النبوة» لذكرها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي كان عيسى وأمه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويحدثان الحدث، فكيف يكونان إلّهين؟[1] ثم عجَّب تعالى ممن يدعي الربوبية لهما، مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة ببطلان ما يقولون عليهما ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق، وثم لتفاوت ما بين العَجَبَيْن، أي أن بياننا عَجَبٌ، وإعراضُهم عنها أعجبُ، والإفك: الكذبُ، وأصله الصرف والقلبُ، ويقال للكذب إفك، لأنه صرفٌ عن الحق، قيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من لا يقدر لكم على النفع والضر؟ يعني عيسى عليه السلام، فإنه عاجز عن دفع الضر عن نفسه فضلاً عن غيره؟ فلا يملك مثل ما يفعل الله تعالى بالخلق، من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة، وقيل: المراد بـ «ما» كلّ ما يعبد من دون الله، كالأصنام وغيرها، غلَّبَ ما لا يعقل على ما يعقل ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بضمائركم، وهو متضمن للوعيد لمن عَبَد غير الله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريقي أهل الكتاب، بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه واختار الطبري كونه خطاباً للنصارى خاصة، لأن الكلام معهم ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ غلا في الدين غُلواً تصلَّب وشدَّد حتى جاوز الحد، أي لا تجاوزوا الحدَّ وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة

---

(١) في الآية الكريمة إشارة بارعة رائعة إلى بطلان ألوهية عيسى، فإن من يأكل الطعام، ويشرب الشراب، يحتاج إلى التغوط والتبول، وإخراج الفضلات من بطنه، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو يأكل ويشرب، ويحدث الحدث، ثم هو قد خرج من فرج امرأة؟ أليس هذا كافياً على بطلان دعوى الألوهية؟.

الرسالة إلى ما يقولون، إنه إله، ولليهود عن وضعهم له عن الرتبة العلية، إلى ما يقولون إنه ابن زنى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا تغلوا غلواً باطلاً، وذكرهم بعنوان: «أهل الكتاب» للإيماء إلى أن كتابهم ينهاهم عن الغلوّ في دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم، الذين ضلُّوا قبل مبعث الرسول ﷺ ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ أي أناساً كثيرين ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم، أو إضلالاً كثيراً ﴿وَضَلُّواْ﴾ عند بعثة النبي ﷺ ووضوح محجة الحق ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ كذّبوه وبغوا عليه.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لعن الله عز وجل، وبناء الفعل للمفعول، للجري على سنن الكبرياء ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور، والإنجيل على لسانهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اللعن المذكور، والطرد من رحمة الله ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ وبسبب اعتدائهم المستمر.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مؤذن باستمرار الاعتداء منهم، وعدم التناهي عن تعاطي المنكرات، أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر والمراد بالمنكر، قيل صيد السمك يوم السبت، وقيل أخذ الرشوة،

وقيل: أكل الربا، والأولى العموم، وهو أن يراد به نوع المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم، وتعجيبٌ منه بالتأكيد القَسَمي، أي لبئس شيئاً فعلوه في الدنيا، وفي هذه الآية زجر شديد، لمن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تَدْعونه فلا يستجيب لكم»[1]. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فيا حسرة على المسلمين، في إعراضهم عن هذا الواجب الكبير.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ككعب بن أشرف وأضرابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد من ﴿الذين كفروا﴾ مشركو مكة، روي أن جماعة من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدَّموه ليَردُوا عليه يوم القيامة ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، أي موجبِ سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبد الآبدين أي لبئس ذلك لأنه أكسبهم السخطَ والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً وبنبينا ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي ما اتَّخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان الصادق وازعٌ عن توليهم قطعاً ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون من دينهم، متمردون في نفاقهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢١٧٠ ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم» وانظر مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٦.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، يخبر أن اليهود أشد الناس عداوةً للمسلمين، لتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد، وتكذيبهم لأنبياء الله ومعاداتهم، وقد قيل: إن من مذهب اليهود، أنه يجب عليهم إيصال الشر، إلى من يخالفهم في الدين، بأيّ طريق كان، وفي تقديم اليهود على المشركين، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، فالوثنيون واليهود أشد الطوائف عداوة للمؤمنين ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ المراد منهم ـ ما روي عن ابن عباس ـ: النجاشي وأصحابه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي كونهم أقرب مودة للذين آمنوا، للين جانبهم، ورقة قلوبهم ﴿ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، ولا يتكبرون كاليهود، والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه، سموا بذلك لمبالغتهم في تتبُّع العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد، وأصله من الرهبة أي الخوف، والتنكير في «رُهباناً» لإفادة الكثرة، وفي الآية دليل على أن التواضع،

والإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، محمودة أينما كانت، لا سيَّما ممن ينتسب إلى العلم والدين!.

﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ ﴾ وهذا بيان لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، والفيض: أن يمتلىء الإناء ويسيل من شدة الامتلاء، جُعِلتْ أعينُهم من فَرطِ البكاء، كأنها تفيض أنفسها، قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه، قال لجعفر بن أبي طالب: هل في كتابكم ذكر لمريم؟ قال: فيه سورة مريم، فقرأها، فبكى النجاشي وأصحابه، والمراد بالنصارى «نصارى الحبشة» الذين سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا، لا النصارى عامة، بدليل قوله بعده ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وليس كل النصارى كذلك[1] ﴿ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ أي وذلك من أجل ما عرفوه من الحق، الذي بيَّنه لهم القرآن الكريم ﴿يقولُونَ﴾ كأنه قيل ماذا يقولون؟ فأجيب بقوله ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي صدّقنا بنبيك وبكتابك ﴿ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي من الذين شهدوا بأن الإسلام حقٌّ، أو من الشاهدين من أمته، الذين هم شهداء الله على الأمم يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ هذا من تتمة قولهم، قالوه تحقيقاً لإيمانهم، ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية ﴿ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿ وَنَطۡمَعُ ﴾

---

(١) هذا هو الحقُّ وهو الصحيح، أن الآية نزلت في نصارى الحبشة ـ زمن النجاشي ـ فإنهم لمَّا سمعوا القرآن، بكوا حتى اخضلتْ لحاهم بالدموع، وأعلنوا إيمانهم هم والنجاشي، بالقرآن والرسول، بدليل قوله تعالى بعده ﴿ترىٰ أعينَهُمْ تَفِيضُ من الدَّمع ممَّا عَرَفُوا من الحقِّ، يقولون ربنا آمنَّا فاكتُبْنَا مع الشَّاهِدينَ﴾ وليست في النصارى عامة كما نرى من حال الصرب المجرمين، فالنصارى إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء، فتنبَّه رعاك الله!

ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ونحن نطمع في صحبة الصالحين في الجنة.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فجزاهم الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ أي بقولهم الذي عبّروا عنه عن الإيمان وإخلاصهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور كلها من أهل الإيمان، أقيم الظاهرُ مقام ضميرهم مدحاً لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بيان لحال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبغيرها تتبيَّن الأشياءُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذّ منه، أي لا تمنعوها أنفسكم وتحرّموا الطيبات بنحو يمين، روي أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكَّر الناس، ووصف القيامة، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقال لهم الرسول ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا واللهِ إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] أي ليس من المتقين، فلا ينافي هذا النهي أن الله تعالى مدح النصارى بالرهبانية، فربَّ ممدوح بالنسبة إلى قوم، مذموم بالنسبة إلى آخرين، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ تأكيد للنهي السابق، والاعتداء يكون كذلك، بتجاوز الحلال إلى الحرام، أو بالإسراف في تناول الطيبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في موضع التعليل لما قبله، أي يبغضهم ويمقتهم لتجاوزهم حدود الله.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي وكلوا مما أحلَّ اللهُ لكم وطاب مما رزقكم الله، والآية دليل على شمول الرزق للحلال والحرام، إذ لو لم يقع الرزق على الحرام، لم يكن لذكر الحلال فائدة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاء عما نهى عنه، وأكلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، فقد أكل النبي ﷺ ثريد اللحم، ومَدَحه، وكان يحبُّ الحلوى.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات..﴾ الآية في القوم الذين حرَّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي بما عقدتموه ووثقتموه بالقصد والنية، إذا حنِثْتُم فيه، وحذف للعلم به ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارةُ نكثه، التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث، وعندنا لا يجوز لقوله ﷺ: «إذا حلفتَ على يمينٍ،

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين من رواية أنس بن مالك. ولفظ الحديث كما في رواية البخاري «جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه!!» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١٠/ ٥١٤.

ورأيتَ غيرها خيراً، فأتِ الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ أي فكفارته أن يطعم الحانثُ عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع والمقدار، وهو لكل مسكين عندنا نصف صاع من بر، أو صاع من شعير، وعن ابن عمر أن الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل الخبز واللحم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهو ثوب يستر عامة بدنه، فلم يُجْزِ السراويل فقط ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق إنسان كيفما كان، مؤمنة كانت أو كافرة لإطلاق النص، وشرط الشافعي الإيمان حملاً للمطلق على المقيَّد، ومعنى «أو» التخيير في إيجاب إحدىٰ الكفارات الثلاث، وتفاوتها قدراً وثواباً، لا ينافي التخيير المفوض، وبدأ سبحانه بالإطعام تسهيلاً على العباد ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، واعتبر عدم الوجدان وقت الأداء، ويشترط استمرار العجز إلى الفراغ من الصوم، واختلف في الواجد، روي عن قتادة قال: إذا كان عنده خمسون درهماً فهو ممن يجد، ويجب عليه الإطعام، وعن الشافعي وأحمد ومالك، من عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه يومَهُ وليلته، وعن الإمام أبي حنيفة إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مضى ذكره ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً، أو ولا تحلفوا أصلاً ولا تبذلوها لكل أمر، قال تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم﴾ أو بأن تكفروها إذا حنثتم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلك البيان البديع ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أحكام شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم أو نعمة الواجب شكرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٠ ومسلم في الأيمان رقم ١٦٥٤ والنسائي ٧/ ٢٥ في الأيمان أيضاً.

(٢) النصاب يراد به نصاب الزكاة، فكل من ملك/ ٢٠٠/ مائتي درهم فضة فهذا لا يجزئه الصوم لأنه غني ويجب عليه أن يُطعم أو يُعتق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة، وفرق بعضهم بأن الأنصاب حجارة لم تصوَّر، كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها، والأصنام ما صُوِّر، وعُبد من دون الله عز وجل ﴿ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ ﴾ وهي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها كاستشارة لآلهتهما المزعومة ﴿ رِجۡسٞ ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وعن الزجاج: الرجس كل ما استقذر من عمل قبيح ﴿ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ لأنه مسبّب عن تسويله وتزيينه، أي رجس كائن من عمله ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ أي الرجس، وابتعدوا عن هذه القذارات الحسية والمعنوية ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه، لقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، في هذه الآية الكريمة، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بإنما، وقرنا بالأنصاب والأزلام، وسُمّيا رجساً من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن تعاطيها شرٌّ بَحْتٌ، وأمر بالاجتناب عنها لا عَنْ عينهما، وجعل ذلك سبباً يُرجى منه الفلاح، فيكون ارتكابها خيبة وضلالاً، ثم قرر ذلك ببيان ما فيها من المفاسد الدنيوية والدينية.

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾ وتخصيصهما بإعادة الذكر، للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما، وذكر الأصنام والأزلام، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة

والشر، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تخصيص الصلاة بالإفراد، مع دخولها في الذكر للتعظيم، وللإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادّ عن الإيمان، لما أنها عماد الدين، ثم أعيد الحثُّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام، فقال سبحانه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير، وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور، قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه؟ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا ربنا انتهينا!.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به، ونهيا عنه ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ مخالفتهما في ذلك، أمروا بالحذر لأنه يدعوهم إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الامتثال بما أُمرتم به ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إنما عليه تبليغكم وقد فعل ذلك، وقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم وحرج ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً، عن البراء بن عازب قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيسَ عَلَى الذينَ امَنُوا﴾[1] الآية. والطَّعْمُ كالطعام، يُستعمل في الأكل والشرب ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ أي ليس عليهم جناح، فيما تناولوه من المأكول والمشروب، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي استمروا على الإيمان، والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ أي اتقوا ما حرَّم عليهم بعد ذلك ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمه واستمروا على الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم/٣٠٥١/ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ وَأَحْسَنُواْ ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة، والمعنى إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، فلا جناح عليهم فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء من ذلك ومن صار محسناً، صار لله محبوباً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب فيه تكريم لأهل الإيمان ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليعرف أحوالكم ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ ابتلاهم الله تعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيدها، أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل ﴿بشيء﴾ للتنبيه على أنه ليس من العظائم، التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه؟ فنهاهم الله تعالى عنها ابتلاءً، كما ابتلى بني إسرائيل بصيد البحر، لكنَّ الله عزَّ وجل عصم المسلمين فلم يصطادوا شيئاً منها، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش، والذي تناله

الرماحِ الكبارُ من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ليتميز الخائف من عقابه الأخروي، وهو غائب مترقب، لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك النهي، فصاد في حالة الإحرام ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين، لأن من لا يملك زمام نفسه، ولا يراعي حكم الله تعالى، في أمثال هذه البلايا الهيّنة، لا يكاد يراعيه في عظائم الأمور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ والتصريح للنهي مع كونه معلوماً من قوله تعالى ﴿غير محلي الصيد﴾ لتأكيد الحرمة، وترتيب ما تعقبه عليه، و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون، وذكر القتل دون الذبح ونحوه، للإيذان بأن الصيد وإن ذبح، في حكم الميتة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد ومالك، وهو القول الجديد للشافعي، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة، يحل أكله للغير ويحرم على المحرم ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكراً لإحرامه، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعليه جزاء مماثل لما قتله، والمراد به عند الشيخين: المِثلُ باعتبار القيمة، يُقوَّم الصيدُ حيثُ صِيد فإن بلغت قيمته قيمة هِدي، يُخيَّر الجاني أن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد، فيهديه إلى الحرم، وبين أن يشتري بها طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بيان للهدي المشترى بالقيمة، وعند مالك والشافعي: هو المِثْلُ باعتبار الخلقة، لأن الله أوجب المثل مقيداً بالنعم، ولنا أن النص أوجب المثل، والمثل المطلق هو المِثْلُ صورة ومعنى، وهو غير مراد هنا بالإجماع، فبقي أن يراد المثل معنى وهو القيمة، ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة، قولُه عزَّ وجلَّ ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين، لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد، دون المماثلة في الصورة، التي يستوي في معرفتها كل أحد من

الناس، والمراد من ﴿ذوا عدل﴾ التعدد، ويراد منه اثنان، لأنه أقل مراتبه، يروى أنه جاء أعرابي إلى أبي بكر فقال: أني أصبت من الصيد كذا، فسأل أبو بكر «أبيَّ بن كعب» فقال الأعرابي أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: قال الله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ﴿هَدْيًا﴾ أي يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ إشارة إلى الطعام كأنه قيل: فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم، أو طعام مساكين، أو صيام أيام بعددهم، فحينئذ يجزىء، لكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي فعليه جزاء ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي فإن الله ينتقم منه في الآخرة، لأنه انتهك محارم الله، وأما الكفارة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد، تكرر عليه الجزاء، وعن ابن عباس يعزَّر بالضرب ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده، ويصر على معاصيه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي ما يصاد في المياه كلها، بحراً كان أو نهراً وهو ما يعيش في الماء، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي ما يُطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم التعرض لجميع ما يُصاد في المياه، والانتفاع به، وأكل ما يؤكل وهو السمك، وقيل المراد بصيد البحر: ما صيد، وبطعامه ما قذفه البحر ميتاً ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم للمقيمين منكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي المسافرين يتزودونه قديداً ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش في الماء كطير الماء ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم، وإن لم يكن له مدخل فيه، وهو قول عمر، وابن عباس، وجماعة من السلف، وعن أبي هريرة وسعيد بن جبير أنه يحل له ما صاده الحلال، إذا لم يشر إليه، ولم يدل عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة لأن

الخطاب للمحرمين دون غيرهم، واستدل بما روي عن أبي قتادة قال: «كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم محرمون، وأنا غيرمحرم، فأبصروا حماراً وحشياً، فقمتُ إلى الفرس فشددت على الحمار فعقرتُه، ثم جئت به، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لهم: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها»[1]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ أي صيّرها ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ سمي البيت الحرام، لأن الله تعالى حرَّمه، وعظَّمه، وشرَّفه، وحرَّم أن يُصاد فيه، وأن يُعضد شجره، وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإنَّ الحرم كما أنه سببٌ لأمن الوحش، فكذلك هو لحصول الخيرات ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ أي سبب انتعاشهم، في أمر معاشهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الذي يؤدى فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ٤/٢٢ باب إذا رأى المحرمون صيداً، ومسلم في الحج أيضاً رقم ١١٩٦ باب تحريم الصيد للمحرم، ومالك في الموطأ ١/٣٥٠.

الحج، أي وجعل الشهر الحرام ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقلائد: البدن خصت بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، والهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع، المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية، من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدم خروج شيء عن علمه المحيط ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح العباد، وما فيه خيرهم وسعادتهم.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرَّ على ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة، لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى، وأقلع عن الانتهاك.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلَّغ ما وجب عليه، فأيُّ عذر لكم بعد هذا؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أحوالكم وأعمالكم، فيؤاخذكم بذلك.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي الرديءُ والجيد من كل شيء، فهو حكم عام، في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين، في الأشخاص، والأعمال، والأموال، قُصد به الترغيب في جيد كلٍّ منها، والتحذير عن رديئها ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر كثرة الخبيث، فإن العبرة بالرداءة والجودة، دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل، خير من المذموم الكثير، وهوَ مثَلٌ ضربه الله تعالى للتمييز بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والحلال والحرام، ولهذا قال تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتقوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفوز بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا حاجة لكم إليها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحجُّ فحجُّوا، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلتُ: نعم، لوجبَتْ ولَمَا استطعتم، وإنما أهلك من كان قبلكم، كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»(١). و«أشياء» هو اسم جمع وقيل هو جمع شيء ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أي إن ظهرت لكم وكلفتم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحتملونها ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ والمراد ما يشقُّ عليهم من التكاليف الصعبة، التي لا يطيقون حملها، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه، لإيجابها عليهم بطريق التشديد،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج رقم ١٣٣٧ باب فرض الحج مرة في العمر، والنسائي ٥/ ١١٠ باب وجوب الحج.

لإساءتهم الأدب، أي لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعنيكم، إن أفتاكم بها حسبما أوحي إليه لم تطيقوا حملها، والآية تتضمن النهي عن الفضول، وما لا يعني، وفي الحديث الشريف: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء، لم يُحرَّم على الناس، فحُرِّم من أجل مسألته»[1] والسؤال على نوعين: **أحدهما**: ما كان على وجه التبيين فيما يحتاج إليه من أمر الدين، وذلك جائز، كسؤال عمر وغيره في الخمر، **وثانيهما**: ما كان على وجه التعنُّت، نظيرُه سؤال الأقرع حين وجب الحج، والمراد بما في الحديث هذا النوع[2] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ عما سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها، وفيه حثهم على الجد في الانتهاء عنها يعني كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ﴾ أي سألوا مثل هذه المسألة المحظورة، المستحقة للوبال، والضمير في موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال، والمراد سأل عنها، واختلف في تعيين القوم فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال المائدة، وقيل هم قوم موسى سألوه بيان البقرة ﴿مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا﴾ أي صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ لأنهم سألوا أنبياءهم أشياء، فلمّا أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/٢٢٦ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٨ باب توقيره ﷺ.

(٢) ورد عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية أن المعنى: لا تسألوا عن أشياء خفيّة، يكون في الإخبار عنها مساءة لكم، إمّا لتكليف شرعي يلزمكم، وإمّا لخبر محزن يسوءكم، مثل الذي سأل الرسول ﷺ: مَنْ أبي؟ ولكنْ إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذٍ إن سألتم عن بيانه بُيِّن لكم. نقله صاحب البحر المحيط ٤/٣١.

أهل الجاهلية، وهو أنهم كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، آخرُها ذكر، بَحَروا أذنها - أي شقّوها - وخلّوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيتُ فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يُذبح لها الذكر، وإذا جاء من صلب الفحل عشرة أبطن حرَّموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: حمى ظهره، ومعنى ﴿ما جعل﴾ أي ما شرع ووضع ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، وأول من سيَّب السوائب، ونصب الأنصاب، وغيَّر دين إبراهيم هو «عمرو بن لُحَيّ» ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل، ولا يعرفون الحلال من الحرام، ولكنهم يقلّدون كبارهم، ومنهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن منعهم حبُّ الرياسة، وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي لأولئك المشركين على سبيل الإرشاد إلى الحق ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الذي أنزل عليه ذلك، لتميّزوا الحرام من الحلال ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره، وفي الآية بيان لعنادهم، وانهماكهم في التقليد، واستعصائهم على الهادي إلى الحق ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي أيقولون هذا القول، ولو لم يكن آباؤهم يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والهمزة للإنكار، والتعجيب، وفائدة التعجيب المبالغة في الإنكار، ودلت الآية أن الاقتداء إنما يصح، بمن عُلِم أنه عالم مهتد، فلا يكفي التقليد للجاهل الذي ليس له حجة صحيحة من شرع ودين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، الذين ماتوا على الكفر، فقيل لهم ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ، إذا كنتم

مهتدين، ومن جملة الاهتداء أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لحديث «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يُغيِّروا ولا يُغيِّروا، إلاَّ يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب»[1] وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال ﷺ يا معاذ: «مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوىً متَّبعاً، وإعجاب كل امرىء برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضركم ضلالةُ غيركم»[2] ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بالثواب والعقاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٥٩ وفي الفتن رقم ٢١٦٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورواه الترمذي بأوسع من هذا رقم ٣٠٥٨ في كتاب التفسير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﴿ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ المراد ههنا الإشهاد في الوصية، أي أشهدوا بعض المسلمين العدول عند الوصية ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي شارفه وظهرت علائمه ﴿ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ أي حين تريدون تقرير الوصية على أنفسكم، ونبهت الآية على أن الوصية من المهمات المقررة، التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها ﴿ ٱثۡنَانِ ﴾ أي شهادة اثنين، لفظه خبر ومعناه أمر، يعني ليشهدْ اثنان ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من أقاربكم المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ﴾ أي شهادة آخرين ﴿ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي من غير المسلمين، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، واختاره جماعة من المتأخرين ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافرتم فيها ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي فقاربكم الأجل حينئذ، وليس معكم من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخران على الوصية ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ أي تقفونهما للتحليف ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، ولأن جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه عن الحلف الكاذب، والخطاب للموصي لهم، وقيل للورثة، وقيل للحكام والقضاة ﴿ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ فيحلفان به تعالى ﴿ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذ شيء من التركة فحلفوهما ﴿ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ جواب القسم والمعنى: لا نأخذ لأنفسنا عَرَضاً من الدنيا، بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿ وَلَوۡ كَانَ﴾ أي المقسم له ﴿ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي قريباً منا ﴿ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمر الله، بحفظها وتعظيمها ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة.

﴿ فَإِنۡ عُثِرَ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي فعلاً يوجب إثماً من تحريفٍ، أو كتمٍ، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة

﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أي فرجلان آخران ﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أي يقومان مقام الذين عثر على خيانتهما، لإظهار الحق، وإبراز كذبهما ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ أي من أهل الميت والمراد من ﴿الأوليين﴾ الأقرباء إليه وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام الذين استحقا إثماً ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ ﴾ أي ليميننا ﴿ أَحَقُّ ﴾ بالقبول ﴿ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ أي من يمينهما ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ عليهما بإبطال حقهما ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي الظالمين أنفسهم، والمراد بالشهادة عند الكثيرين ومنهم ابن عباس اليمين، ﴿وما اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق، وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما، ومعنى الآيتين عند المفسرين: أن المحتضر إذا أراد الوصية، ينبغي أن يُشهد عدلين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما، بأن كان في سفر فآخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما، أقسما على صدق ما يقولان، بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على كذبهما بأمارة، حلف آخران من أهل الميت، وادعى أن الحكم منسوخ. قال الزجاج: إن هذه الآية من أشكل ما في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن هذه الآية في غاية الصعوبة، إعراباً وحكماً وسبحان الخبير بحقائق كلامه.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الحكم المذكور ﴿ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ أي أقرب أن يؤدي الشهود، الشهادة على وجهها الذي تحمّلوها عليه، من غير تحريف ولا خيانة فيها، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزجروا عن الخيانة، فأي الخوفين وقع حصل المقصد، الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ ما تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ الخارجين عن الطاعة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ منصوب بمضمر، أي واحذروا يوم يجمع الله الرسل، فإن تذكُّر ذلك اليوم الهائل، مما يضطرهم إلى تقوى الله عزّ وجل، وتخصيص الرسل بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم، وتعظيم شهادتهم، فالشهود في الآخرة رسل الله المكرمون، وأما الحشر فلجميع الخلائق كما قال سبحانه: ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناسُ وذلك يوم مشهود﴾[1] ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم مشيراً إلى خروجهم عن عهدة الرسالة، ماذا أجابتكم به أممكم؟ ولما كان سبحانه مطلعاً على أحوال الرسل، لم يقل لهم: هل بلغتم رسالاتي؟ وإنما قال: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؟ أي ما الذي أجابتكم أممكم، حين دعوتموهم إلى الإيمان؟ هل أجابوكم إجابة قبول، أو إجابة رد ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قالوا ذلك تأدباً أي علمنا ساقطٌ مع علمك، كأنه لا علم لنا، فوّضوا الأمر إلى علمه تعالى، لما اعتراهم من مقاساة الأهوال والشدائد من أممهم، إظهاراً لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته، وفيه التشكي منهم، ورد الأمر إلى علمه تعالى، والعلاَّم صيغة مبالغة، والمراد به الكامل في العلم.

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ في الآية تذكير بعبودية عيسى، وتوبيخ لمن عبدوه من دون الله، وتخصيصه بالخطاب من بين الرسل، لِمَا أن شأنه متعلق بكلا الفريقين، من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ أي اذكر إنعامي إليكما، وفضلي عليكما، وتذكيره بالنعمة ليكون توبيخاً ومزجرة للكفرة المختلفين في شأنه، ثم وضَّح طرفاً من هذا الإنعام فقال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي حين أمددتك وقويتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تكلم الناس وأنت طفل رضيع في فراشك، وهذه معجزة ظاهرة، حيث لم تجر العادة بكلام الصبي حديث الولادة، كما تكلمهم في سن الكهولة والشيخوخة، وهذه معجزة أخرى، تدل على حياته في السماء، حيث رفعه الله إليه، وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان، ليكلم الناس بحقيقة أمره ورسالته، وليس كما زعم اليهود أنهم صلبوه واعتقد به النصارى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أشارت الآية إلى أن تلك الخوارق، ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزة له ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أعيدت «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم، لا سيما بعدما صاروا رميماً، معجزة باهرة، حَرِيَّةٌ بتذكير وقتها صريحاً ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ يعني اليهود، حين همُّوا بقتله، ولم يتمكنوا منه ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي حين جئتهم بالمعجزات الواضحة، مما ذكر ومما لم يُذكر، كالإخبار بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله، أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك، عند مجيئك إياهم بالبينات، فزعموا أن هذه الخوارق، ما هي إلا من قبيل السحر الواضح.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ معنى الإيحاء إليهم، أمره تعالى إليهم في الإنجيل، أي حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم، فجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر، وإنما لم يترك الوحي على ظاهره، لأنه مخصوص بالأنبياء، والحواريون ليسوا كذلك ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ أن مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، كأنه قيل: آمنوا بوحدانيتي، وبرسالة رسولي، وفيه إشارة إلى عدم إخراجه عن حد الرسالة، فهو رسول وليس بإله ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ طبق ما أُمرنا به ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في إيماننا، وهذا القول منهم نعمة جليلة، كسائر النعم عليه وعلى والدته أيضاً.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأظهر من أقوال المفسرين، أن هذا السؤال من الحواريين، لم يكن عن شك وارتياب في قدرة رب الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا: ﴿هل يستطيع﴾ ويريدون به: هل يفعل ربك ذلك، فإنهم كانوا مؤمنين، وأُيد ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ الآية، ومعنى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يجيبنا ربك إلى هذا الطلب، فينزل علينا

مائدة، والمائدة في المشهورِ الخِوان الذي عليه الطعام، ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتي، أو صَدَقتم في ادعائكم الإيمان.

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا منها ولسنا نريد من السؤال إزالة شبهتنا في قدرته سبحانه وفي صحة نبوتك وليس مرادنا اقتراح الآيات بل مرادنا ما ذكر ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بازدياد اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ علم مشاهدة على ما قدمناه ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عند من لم يحضرها ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، ثم دعا الله فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية، ومرةً بوصف الربوبية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في الاستدعاء، حذف حرف النداء في الأول وعُوّض عنه الميم، أي يا ألله يا ربنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزل علينا مائدة فيها الطعام، من محض فضلك وعطائك، من عندك، قال عمار بن ياسر: إن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة، ومن طعام الجنة، وقال سلمان الفارسي: إن المائدة لما نزلت قال شمعون رئيس الحواريين: يا روح الله!! أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال له: ليس من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله فقال له كن فكان ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظّمه، ويكون يوم فرح ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي آية كائنة منك، دالة على كمال قدرتك، وصحة نبوتي ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ صنوف الطعام في هذه المائدة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابةً لسؤالكم، أي سأنزل المائدة من السماء حسب طلبكم ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية ﴿ عَذَابًا ﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب ﴿ لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ ﴾ أي أعذبه تعذيباً لا أعذّبه مثل ذلك التعذيب ﴿ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي أحداً من البشر. روى الترمذي عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدةُ من السماء، خبزاً ولحماً، وأُمروا أن لا يخونوا، ولا يدّخروا لغدٍ، فخانوا، وادخروا ورفعوا لغدٍ، فمُسِخوا قردة وخنازير»(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اذكر وقت قوله تعالى لعيسى ابن مريم في الآخرة، توبيخاً للكفرة ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ ﴾ أي أأنت دعوت الناس إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ ﴿ مِن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٤٢ برقم ٣٠٦١.

﴿دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي من غير الله تعالى، فجعلت نفسك في مقام الألوهية، وإنما سأله ذلك على رؤوس الأشهاد في الآخرة، توبيخاً لمن عبد المسيح، ليكون إنكاره أبلغ في التكذيب، وأشد في التقريع والتأنيب ﴿قَالَ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً، لا يحق لي أن أقوله، فأنا عبد لك ولستُ برب، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود، فكيف أدعوهم إلى عبادتي؟ وقوله: ﴿ما يكون لي﴾ أي لا ينبغي ولا يليق بي، أبلغ من «لم أقله» فلذا أوثر عليه، ثم أكَّد ذلك بحجة أخرى، على سبيل الترقي، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ مقرر لعدم صدور القول المذكور، لأن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى، فحيث انتفى علمه سبحانه به، انتفى صدوره عنه ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿في نفسك﴾ للمشاكلة، أو المراد بالنفس الذات، أي تعلم ما أضمره في ذاتي، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما فيها من صفات الكمال، والآية مبالغة في الأدب، وتفويض الأمر إليه سبحانه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ تعليل وتقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه أي إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بما كان ويكون.

ثمَّ بين ما قاله عليه السلام لقومه بقوله:

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي ما أمرتهم إلا ما أمرتني به، ثم فسر ما أمر به ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أن مفسرة والمعنى: قلتُ لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم، فأنا عبد لله مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ رقيباً أراعي أحوالهم، وأمنعهم عن المخالفة، وشاهداً لأفعالهم من إيمان وكفر، وفي أناجيلهم ما رواه يوحنا عنه: «وهذه هي الحياةُ الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ أي كنت شهيداً عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ بالرفع إلى جنابك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي

الحافظ لأعمالهم، والمراقب لحركاتهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمر من أمور العباد.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بملكه، فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك في فعلك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر لهم ما اقترفوا من جرائم وذنوب، ومقصوده تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك التعرض لهذا الباب ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أي القوي القادر على جميع المقدورات، ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ أي يقول الله تعالى يومئذ، عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا اليوم ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي المستمرين على الصدق، الذين صدّقوا رسل الله في الدنيا، وصَدَقوا في إيمانهم وطاعتهم لله، ينفعهم صدقهم لأنه يوم الجزاء على العمل، ويوم فوز المؤمنين الصادقين ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لحصول المقصد الأقصى، وهو الفوز بجنات النعيم ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كما أن عظم شأن الفوز، تابع لعظم شأن المطلوب، وهو الجنة دار السرور والحبور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق، وتنبيه على كذب النصارى، وفساد ما زعموا، أي له خاصة ملك جميع ما في الكون، خلقاً وملكاً، وتصرفاً لا مالك سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي القادر على كل شيء، هذه السورة اشتملت على أنواع من العلوم، منها بيان الشرائع

والأحكام، ومنها المناظرة مع اليهود والنصارى، فختم بهذه الآية للإشارة إلى أن كل ما سوى الحق سبحانه موجود بإيجاده، يتصرف في الكل، بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام، وهو الملك العلام، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ورضوانه.

«تم تفسير سورة المائدة والحمد لله رب العالمين»

* * *

سُورَةُ الأَنْعَام

مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد باسم الذات، للإيذان بأنه عزَّ وجل هو المستحقُّ له بذاته، ووصفُه بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له باعتبار أفعاله العظام، وتخصيصُ خلقهما بالذكر، لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية، التي أجلُّها نعمة الوجود، الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود، أخبر تعالى بأنه حقيقٌ بالحمد، ونبَّه على أنه المستحق للحمد، على هذه النعم الجسام، حُمِدَ أو لم يُحْمد، ليكون حجةً على الذين هم بربهم يعدلون، وجَمَعَ السَّماءَ وقدَّمها لشرفها، وأشرفيةُ السماءِ لأنها محلُّ الملائكة، وقبلةُ الدعاءِ، ومعراجُ الأرواح الطاهرة، ومعظم آيات الله فيها، وغير ذلك، والمراد من

الخلق: الإنشاءُ والإيجاد، أي أوجد السماوات والأرض، على ما هما عليه، ممّا فيه آياتٌ للمتفكرين ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ جَمَع الظلمات لكثرة أسبابها، ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمات إلاّ جمعاً، لأن النور شيءٌ واحد، وإن تعدَّدت مصادره، وأما الظلمات فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام، وهي كثيرة، والمراد من الظلمات: ظلمةُ الشرك، والنفاق، ومن النور: نورُ الإسلام، وقيل: المراد حقيقة النور والظلام، فهما مظهر من مظاهر القدرة الباهرة، عبَّر تعالى عن إحداث النور والظلمات بالجعل، تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، بل لا بدَّ لهما من خالق مبدع، وهو الله رب العالمين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدلُ بمعنى العدول أي الانصراف، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه الأجرام العظام، التي دخل فيها كل ما سواه ثم هؤلاء الكفرة، الجاحدون للنعم، يسوُّون به تعالى غيره، ممن لا يقدر عليها، وهم في قبضة تصرفه، وثُمَّ، لاستبعاد ما وقع من الكفرة وللتوبيخ، أي وبعد كل هذه الدلائل، يشرك الكفار فيسوُّون بين الأوثان والرحمن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى للكل، وآدم هو أصل البشر خُلق منه، وتخصيص خلقهم بالذكر، من بين دلائل البعث، لما أن محل النزاع بعثهم، وكلُّ البشر له حظ من إنشائه منه، حيث لم تكن فطرة آدم مقصورة على نفسه، بل كان أنموذجاً منطوياً على فطرة آحاد الجنس، وقيل معنى خلقكم منه، من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة، على كمال قدرته تعالى على البعث، فإن من قَدَر على إحياء ما لم يشمَّ رائحة الحياة قط، كان إحياء ما قارنها أظهر قدرة ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي كتب لموت كل واحدٍ منكم ﴿أَجَلًا﴾ خاصاً به من الزمان، يفنى عند حلوله لا محالة، وكلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم، وبين تقدير آجالهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو أجل القيامة، وقيل: الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، وهو الأوفق لما روي عن ابن عباس قال: إن الله

قضى لكل أحد أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه، فإن كان براً وصولاً إلى الرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجراً قاطعاً نقص من أجل العمر، وزيد في أجل البعث، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُعمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ﴾[1] ﴿عِندَهُۥ﴾ أي وأجلٌ مثبتٌ ومبيَّنٌ في علمه تعالى، لا يتغيَّر، وتسميته أجلاً باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم، بعدما ثبت أنه خالقهم، وخالق أصولهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمعها ثانياً، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، ولا شك في أن لكل فرد أجلاً في علم الله تعالى، فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الأسباب، فإن صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة، وهناءُ المعيشة من أهم أسباب طول العمر، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوةُ الإيمان، التي تقاوم الهموم والأكدار، اللذان يهرمان قبل أوان الهرم.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مسوقة لبيان شمول أحكام إلٰهية لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بأعمال العباد ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المستحق للعبادة فيهما لا غيره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[2] كأنه قيل: وهو المعبود فيهما﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتم، وما جهرتم به، من الأقوال، والأفعال. والمراد من السر ما يخفيه الإنسان في ضميره، وبالجهر ما يظهره، وفائدةُ ذكر الجهر للمقابلة، والتأكيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فيثيب عليه ويعاقب وقيل: أريد بالسر والجهر: ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح وتخصيصها بالذكر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاء.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ ﴾.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها تلك الآيات الناطقة ببدائع صنع الله تعالى ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه، وإيثار الجملة على أن يقال: «إلا أعرضوا عنها» للدلالة على استمرارهم على الإعراض، حسب استمرار الإتيان، كما يفصح عنه كلمة «لمَّا» في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني كذَّبوا بالقرآن المنير الواضح، وهو كاللازم لما قبله وكالدليل عليه، على أنهم لما أعرضوا عن القرآن، وكذَّبوا به، وهو أعظم الآيات، فكيف لا يعرضون عن غيره؟ والمراد من الحق القرآن الذي أعرضوا عنه، عبَّر عنه بذلك، إبانةً لكمال قبح ما فعلوه، فإنَّ تكذيب الحق مما لا يُتصور صدوره عن عاقل ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم و«سوف» لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي فسيأتي البتة وإن تأخر، و«ما» عبارة عن الحق المذكور، عبَّر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي يعظُم وقعه، وأنباؤه تعالى عبارة عما سيحلُّ بهم من العقوبات العاجلة، من القتل، والسبي، والجلاء، ونحو ذلك. رتب الله تعالى أحوال الكفار على ثلاث مراتب: **الأولى**: كونهم معرضين، **والثانية**: مكذبين، **والثالثة**: مستهزئين فبين الله

تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب، وسينالون جزاء هذا التكذيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء، التي سبق بها الوعيد، والقَرْنُ: عبارةٌ عن أهل عصر من الأعصار[1]، والمعنى: ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون، بمعاينة الآثار، وتواتر الأخبار، كم أمة أهلكنا من قبل خلقهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم؟ ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً، وأعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من القوة والسعة في المال، والاستظهار بالعدد والأسباب والخطاب لكفرة قريش ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّدْرَارًا﴾ مغزاراً كثير الصبّ، وهو صيغة مبالغة من قولهم: درَّ اللبن، ويقال: سحاب مدرار إذا تتابعت أمطاره ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت مساكنهم، وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم، مستمرة على الجريان، والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، وأعطيناهم ما لم نعط أهل مكة، ففعلوا ما فعلوا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فما أغنت عنهم تلك العُدَد والأسباب ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أوجدنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً من الهالكين، والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من قبلكم وينشيء مكانهم آخرين، يقدر أن يهلككم يا أهل مكة، وهذا بيان لكمال قدرته تعالى، وفي الآية ما يوجب الاعتبار، فإنهم مع ما كانوا عليه من العَدَد والعُدَد أهلكوا لكفرهم، فكيف بمن هم أضعف منهم؟

---

(١) القرونُ جمع قرن، وهو أهلُ كل زمان، مأخوذ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرنُ مائةُ سنة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل، لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله وأنك رسول الله، والقرطاسُ: الورقُ الذي يكتب فيه ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعدما رأوه بأعينهم، بحيث لم يبقَ لهم في شأنه اشتباه، والرؤيةُ واللمس أقوى اليقينيات الحسيّة، ولا سيما إذا اجتمعا ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ جواب «لو» أي لقالوا تعنتاً وعناداً للحق، وإنما وضع الموصول موضع الضمير، لتسجيل الكفر عليهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا، مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن كونه سحراً.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هلاَّ أُنزل عليه ملك، يكلمنا أنه نبيٌّ كقوله تعالى: ﴿لولا أُنزِلَ إليه ملكٌ فيكونَ معهُ نَذيراً﴾[1] ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي ولو أنزلنا عليهم ملكاً على صورته الحقيقية، فشاهدوه بأعينهم، لتمَّ أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له، لمزيد هول المنظر، وقد قيل: إن جميع الأنبياء وهم هم إنما رأوا المَلَك في صورة البشر، ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي ﷺ كما صحَّ من رواية الترمذي عن

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

عائشة: «أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين، على صورته الأصلية»[1] ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يُمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الضمير الأول للنذير، والضمير الثاني للمَلك، والمعنى: لو جعلنا النذير الذي اقترحوه مَلَكاً، لمثّلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعة البشر لمعاينة الملك على هيكله وفي إيثار رجلاً على «بشراً» إيذانٌ بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وفيه إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة، وهو متفق عليه ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ اللَّبْسُ: الخلطُ، لبس عليه الأمر خَلَطه ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولستَ بِمَلَك، فيلتبس الأمر عليهم ويختلط، وفيه تأكيدٌ لاستحالة جعل النذير مَلَكاً!!

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، أي وبالله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير، ذوي عدد كثير، كائنين من قبلك، ولستَ أول رسول استهزأ به قومه ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا متضمن أن من استهزأ بالرسل عوقب، فكأنه سبحانه وعده بعقوبة من استهزأ به، و«حَاقَ» بمعنى أحاط، ولا يكاد يُستعمل إلاّ في الشر، أي فأصابهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله، أو نزل بهم وبال استهزائهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾[2].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية، وما فُعل بهم، أمر الله رسوله بإنذار قومه، تحذيراً لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية، بما ضمنه من العِدَةِ اللطيفة، بأنه سيحيق بهم، مثل ما حاق

---

(١) رواه الترمذي في التفسير ٥/٣٦٨ من حيث عائشة، ولفظُه «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلاّ مرتين: مرّةً عند سدرةِ المنتهى، ومرّةً في جياد، له ستمائة جناح، قد سدَّ الأُفُق».

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

بأضرابهم الأولين، أي سيروا في الأرض لتعرُّف أحوال أولئك الأمم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفكَّروا في أنهم كيف أُهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبةُ: هي منتهى الأمر ومآله، ووضع المكذبين موضع المستهزئين، لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم، هو التكذيب لا الاستهزاء فقط، ولمَّا بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة، أصول الدين، وشبهات الكفار على الرسالة، وما يدحضها، قفَّى سبحانه على ذلك، بتلقينه أسلوباً آخر، وهو أسلوب السؤال والجواب.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾؟ أي قل يا رسول الله على سبيل التقريع: ﴿لِمَن مَا في السَمٰواتِ والأرضِ﴾؟ أي لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً وتصرفاً؟ فإن أجابوك وإلاَّ ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ﴾ تقرير الجواب نيابة عنهم، بأن الكل له سبحانه، وفيه إشارة إلى أن الجواب، قد بلغ من الظهور، إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما نطق به تعالى في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة للجميع، لبيان أنه تعالى رؤوف

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

بعباده، لا يعجّل عليهم بالعقوبة، ومعنى كتب الرحمة إيجابها بطريق التفضل والإحسان، ومن رحمته أنه تعالى خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لاجتناب مقتضيات سخطه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليجمعنكم مبعوثين إلى يوم القيامة، وهذا من مقتضيات تلك الرحمة، لأن الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمة بالمكلفين، والعلم به رحمة أيضاً، لأنه لولا خوف الحساب والعذاب، لحصل الهرجُ والمرجُ، ولحصل الظلمُ، فصار الإيمان بيوم القيامة، من أعظم أسباب الرحمة، والخطاب للكافرين، وقيل عام، أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، لوضوح أدلته ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة، والعقل السليم، واستماع الوحي ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل، والانهماك في التقليد، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والجملةُ لتقبيح حالهم، غير داخلة تحت الأمر.

﴿۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ احتجاج ثانٍ على المشركين، أي له جلَّ وعلا ما ثبت واستقر في الليل والنهار، الجميعُ عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه، فهو الخالق، وهو المالك لجميع الكائنات والأشياء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ مبالغ في كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ مبالغ في العلم بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء من الأفعال والأقوال.

﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل لهؤلاء المشركين: أغيرَ الله أتخذ معبوداً؟ قيل: إن المشركين من أهل مكة، قالوا له ﷺ: يا محمد، تركتَ ملة قومك وقد علمنا أنه لم يحملك على ذلك إلا الفقر، فارجع فإنا نجمع لك من أموالنا، حتى تكون من أغنيائنا، فنزلت الآية ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما على غير مثالٍ سابق، أي هو المخترع والموجد لهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرْزق،

فالمراد من الطعام: الرزقُ بمعناه اللغوي، وهو كل ما يُنتفع به ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين، وينبغي لكل امر، أن يكون هو العامل أولاً بما أَمَرَ به، ليكون أدعى للامتثال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ولا تكوننَّ في أمر من أمور الدين من المشركين.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بمخالفة أمره ونهيه أيَّ عصيانٍ كان، وفيه بيان لكمال اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة، وفيه تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، وعِظَم اليوم لعِظَم ما يقع فيه، وليس في الآية دلالةٌ على أنه ﷺ يخاف على نفسه الكفر والمعصية، لأن الشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ إن كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أوَّلُ العابدينَ﴾[1].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة، وقيل: المرادُ فقد أدخله الجنة، فذُكِر الملزومُ وأُريد اللازمُ، لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز المبين: هو بدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿فمن زُحزِح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ والفوزُ: الظفرُ بالبُغْية، ونيلُ المطلوب.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٨١.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي ببلية كمرضٍ، وفقرٍ، ونحو ذلك، والخطابُ للرسول ﷺ وحكمه عام ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه سبحانه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحة وغنى وغير ذلك ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيمسكه ويحفظه عليك، من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1] ومن دقائق بلاغة القرآن المقابلة بين الضر والخير، والنكتةُ فيه أن الضر من الله تعالى ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار، ثم ذكر الخير في مقابلة الضُرِّ، فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم، إنما يحسن إذا كان خيراً لهم، وقدم الضر إيذاناً على أن المضرة يعقبها الخير والسلامة[2]، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ إني أعلمك كلماتٍ: احفظِ الله تعالى يحفظْكَ، احفظِ الله تعالى تجدْه أمامك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلمْ أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعُوك بشيء، لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلامُ، وجفَّتِ الصُّحُفُ»[3].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصويرٌ لقهره تعالى، وعُلوِّه بالغلبة والقدرة، والقاهر والقهار الذي يدبّر ما يريد، فلا يستطيع أحد ردَّ تدبيره، وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة، والله تعالى منزه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم، ومذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى، كما نص عليه الإمام الطحاوي، واستدلوا بما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي

---

(١) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٢) إنما قدم الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٦٠ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

استشفع بالله تعالى عليه: «ويحك، أتدري ما الله تعالى؟ إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشُه فوق سماواته» وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز وجل، والإيمان بها، والله تعالى أعلم ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكمة البالغة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي العالم بما دقَّ من أفعال العباد.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنْ ليس لك عندهم ذكرٌ، فأتنا بمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزلت ومعنى ﴿أكبرُ شَهٰدةً﴾ أعظم وأصدق أي قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: أيُّ شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلاَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي الله أكبر شهادة، شهيد بيني وبينكم أني رسولُه ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من قِبَله تعالى ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ العظيم الشاهد برسالتي ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على الإنذار، لما أن الكلام مع الكفار ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الثقلين، إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن الكريم تعمُّ الموجودين، وقت نزوله ومن بعدهم، روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه»[1] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ تقريرٌ لهم مع إنكار واستبعاد لدعواهم ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بذلك وإن شهدتم به، فإنه باطل صرْف ﴿قُلْ﴾ تكرار الأمر للتأكيد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي بل أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام، قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداءً، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال «من بَلَغَه القرآنُ فكأنما رأى النبيَّ ﷺ وكلّمه» وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هذا جواب عما سبق من قولهم: سألنا اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ أي يعرفون رسول الله، بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ بصفاتهم ونعوتهم، بحيث لا يشكُّون في ذلك أصلاً ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ من أهل الكتاب والمشركين، بأن ضيّعوا الفطرة السليمة، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: فكيف هذه المعرفة؟ قال: لأنا بمحمد أشدُّ معرفةً مني بابني، لأني لا أدري ما أحدثت أمُّه، فقال عمر: قد وفّقت وصدقتَ[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بادعائه أن له سبحانه شريكاً، وبقوله الملائكة بنات الله، وأمثال ذلك، الاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ المنزلة كالقرآن المجيد والمعجزات التي سموها سحراً، وكلمة «أو» للإيذان بأن كلاً من الافتراء، والتكذيب وحده، بالغٌ غاية الإفراط في الظلم، كيف وقد جمعوا بينهما؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي الشأن الخطير هذا، وهو ﴿ لَا يُفْلِحُ ﴾ أي لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مكروه ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ من حيث إنهم ظالمون، وإذا كان حال الظالمين هذا، فما ظنك فيمن هو في غاية الظلم والفجور؟.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي ويوم نحشر الكفار وآلهتهم جميعاً، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ بالله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه؟ وإضافتها إليهم، لما أنَّ شركتها ليست إلا بتسميتهم، وتقوُّلهم الكذب، كما ينبىءُ عنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونها شركاء، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علّقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيّب عنهم.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنةُ: اختلف في المراد منها هنا: فقيل: الشركُ واختاره الزجاج[1]، وهو مروي عن ابن عباس وقيل: معذرتهم، وقيل: جوابهم، وإنما سماه فتنة، لأنه كذب قصدوا به الخلاص ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا ﴾ أي لم يكن كفرهم الذي لزموه مدة أعمارهم، إلاَّ جحوده والتبرؤ منه، بأن يقولوا ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع، من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ وقد أيقنوا بالخلود.

﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ تعجيب من كذبهم، بإنكار صدور الشرك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ فإنه أمر عجيب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ المراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها، أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي فريق منهم يستمعون إليك، ومفعوله مقدَّر وهو القرآن، قال ابن عباس: إن أبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر:

---

(١) قال الزجاج: مثالُ الآية أن ترى إنساناً يحبُّ غاوياً، فإذا وقع في مهلكةٍ، تبرّأ منه، فيقال له: ما كان حبك لفلان إلاَّ أن تبرأت منه!؟.

ما يقول محمد؟ قال: ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنتُ أحدثكم به، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنّة جمع كِنَان، وهو ما يُسْتَر به الشيءُ، والكِنان: الغطاءُ وزناً ومعنى أي يستمعون إليك، وقد ألقينا على قلوبهم أغطيةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، وهذا تمثيلٌ معربٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي ﷺ، وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ أي يشاهدوا ويبصروا كل معجزة، دالة على صدق الرسول ﷺ، كانشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه الشريفة، وتكثير القليل من الطعام، ونحو ذلك ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لفرط عنادهم، والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر، بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم، بعقولهم وأسماعهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ يعني إنهم إذا جاؤوك إنما جاؤوا ليخاصموك ويجادلوك، و «حتى» هي التي يقال لها: حتَّى الابتدائية ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إنما وضع الموصول ذماً لهم، وإشعاراً بعلة الحكم، أي بلغوا من التكذيب إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بعدم الإيمان، بل يقولون ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير[1] جمع أسطورة، ومعناها الخُرافة، وعَدُّ أحسنِ الحديث وأصدقه، من قبيل الخرافات، رتبةٌ من الكفر، لا غاية وراءها.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير عنه للقرآن، أي وهم لا يقنعون بما ذُكر، بل ينهون الناس عن استماعه، لئلا يقفوا على حقيقته، فيؤمنوا به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه، ويحتمل أن يكون الضمير للرسول، على معنى ينهون الناس عن الإيمان به ﷺ، ويتباعدون عنه، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رواه ابن جرير وغيره،

---

(١) قال في القاموس: الأساطيرُ: الأحاديث التي لا نظام لها، وأرادوا ما هذا إلا كقصص وأخبار الأولين التي سطّروها، وليس كلام الله تعالى!!.

ولا يخفى ما في «ينهون» و «ينأون» من التجنيس البديع[1] ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتعريضها لأشد العذاب، وهو عذاب الضلال والإضلال ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم غير شاعرين بهلاك أنفسهم، على أن مقصدهم ليس منع الناس عن استماع القرآن، بل إغراقهم في الطغيان، فقد كانوا يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونفيُ الشعور أبلغُ من نفي العلم، كأنه قيل وما يدركون ذلك أصلاً.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب إمَّا لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وجواب «لو» محذوفٌ إيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله أي لو تراهم حين يوقفون على النار لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَقَالُواْ﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا، تمنياً للرجوع والخلاص ولكن هيهات ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي بآيات الله الناطقة بصدق الرسل، والمخبرة عن أحوال النار وأهوالها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل.

---

(١) الجناس فَنٌّ من فنون علم البديع، يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، فقد اتفقت الحروف بين «ينهون» و «ينأون» إلاَّ في حرف واحد، ويُسمى هذا بالجناس الناقص، وهناك الجناس التام كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ يراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية المدة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ، واختلفا في المعنى.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ إضرابٌ عما ينبىء عنه التمني، أي ليس ذلك ناشئاً عن رغبة في الإيمان، بل ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ ﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه ﴿ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ من فنون القبائح، ونسوا ما عاينوه من أنواع العذاب، لخبث طينتهم، وسوء استعدادهم، ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ لأن ديدنهم الكذب، في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ الوقوفُ هنا مجازٌ عن الحبس، للتوبيخ والتأنيب، أي لو رأيت حالهم لأشفقت عليهم ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه ﴿ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم، والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ ﴾ أكّدوا إقرارهم باليمين، إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته، ﴿ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ الذي عاينتموه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ في الدنيا، ولعل هذا التوبيخ إنما يقع بعدما وُقفوا على النار، إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي البعث وما يتبعه من الحساب والجزاء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم، فإنه أبدي لا

حدَّ له، والساعة: القيامة، أُطلق على القيامة، إمَّا لوقوعها بغتة، أو لأنها تقوم في آخر ساعة الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُواْ﴾ جواب إذا ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ تعالي فهذا أوانك، والحسرةُ أشدُّ الندم، والتلهف على الشيء الفائت، والحسرة لا تُطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك، كأنهم ذهلوا فنادَوْها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه، ولا يخفى حسنه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا وتقصيرنا في اكتساب الأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، والتفريطُ: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، فرَّط في الأمر تفريطاً قصَّر فيه وضيَّعه ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ الوزرُ في الأصل: الحملُ الثقيلُ، سُمّي به الإثمُ لثقله على صاحبه، وذكرُ الظهور لأن المعتادَ حملُ الأثقال على الظهور، والغرضُ أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً صنعوه وارتكبوه، أوْرَدَهم نار الجحيم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لمَّا حقَّق أن وراء الحياة الدنيا حياةً أخرى، يلقون فيها ما يلقون، بيَّن هنا حال تلك الحياتين في أنفسهما فقال: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللهو: صرفُ النفس عن الجدِّ إلى الهزل، لَهَا بالشيء يلهو لَعِب به، والمعنى: وما أعمال الدنيا إلا لعب ولهو، تشغل الناس بما فيها من منفعة سريعة الزوال، عما فيه منفعة جليلة باقية، من الإيمان والعمل الصالح، والكلامُ من «التشبيه البليغ» جعلت الدنيا نفسها لعباً ولهواً مبالغة، كما في قول الشاعر: «وإنما هي إقبالٌ وإدبارُ» أي ليست الدنيا إلا كلعب الأطفال، يتلهى بها الصبيان، وعما قريب تزول ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي الآخرة والاستعداد لها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يخشون الله ويخافون عقابه، لأن منافع الآخرة خالصة عن المضار، ولذاتها غير منغصة بالآلام، مستمرة على الدوام، خَصَّ المتقين لأنهم الأصل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟

والفاء للعطف على محذوف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون؟ والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآية مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، عن الحزن الذي كان يعتريه، من إصرار المشركين على التكذيب ببيان أنه ﷺ بمكانةٍ من الله تعالى، وكلمة «قد» لتأكيد العلم، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، وكاهن، ومجنون[1]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنَّا لا نكذِّبك، ولكن نكذِّبُ بما جئتَ به، فأنزل الله هذه الآية[2] ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على الحقيقة لعلمهم بصدقك، وفيها بيان لبلوغه ﷺ في جلالة القدر، غايةً ليس وراءها غاية، حيث نفى

---

(١) وقيل معنى الآية: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، روي ذلك عن قتادة وغيره، ويؤيِّده ما رواه السُّديّ أنه التقى الأخنس بن شُريق، وأبو جهلٍ فقال الأخنسُ لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ﷺ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٤٤ باب تفسير سورة الأنعام.

تكذيبهم له ﷺ وأثبته لآياته، على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله﴾[1] إيذاناً بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه أيضاً استعظامُ جنايتهم، كأنه قيل لا تعتدَّ به وكله إلى الله تعالى، فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذّبونك في الحقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبونها، لتمرنهم على الظلم، وإيرادُ الجحود في موضع التكذيب، للإيذان بأن آيات الله تعالى من الوضوح، بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها إنما ينكرها بطريق الجحود، الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أنفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُوّاً﴾[2].

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تفنن في تسليته ﷺ فإن عموم البليّة، يهوّن أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، أي وبالله لقد كُذّبت من قبل تكذيبك رسلٌ أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ فتأسَّ بهم، واصطبر على ما نالك من قومك، فأنت أولى بالصبر لأنك مبعوث إلى العالمين، فاصبر كما صبروا، وفيه تأكيد للتسلية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ فيه إيذان بأن نصره تعالى لهم أمر مقرّر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ المراد بكلماته تعالى ما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ. إنَّهُمْ لَهُم المَنْصُورُونَ﴾[3] أي لا مغيِّر لوعد الله الذي وعد به رسله، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن من موجبات الألوهية أن لا يغالبه أحد، ولا يقع منه خلف ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جملة قسمية لتحقيق ما منحوا من النصر، أي ولقد جاءك يا محمد من خبر

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢.

الرسل، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، فالمراد بنبئهم نصره تعالى للرسل، وجميع ما جرى بينهم وبين أممهم.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي إن عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين، يُروى أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في محضر من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله تعالى ونحن نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عنه ﷺ فشقَّ ذلك عليه لما أنه كان شديد الحرص على إيمان قومه، وكان يودُّ أن ينزلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم، فنزلت الآية، يقال كَبُرَ على فلانٍ الأمرُ، أي: شقَّ عليه المعنى: إن شقَّ عليك إعراضهم عن الإيمان، وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ أي فإن قدرت ﴿ أَن تَبْتَغِيَ ﴾ أي تطلب ﴿ نَفَقًا ﴾ أي سَرَباً ومنفذاً، والنَّفَقُ بفتحتين سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلى مكان ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي مِرْقاةً ومصعداً ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ مما اقترحوه من الآيات فافعل، أي لا تستطيع أيها الرسول الإتيان بشيءٍ من تلك الآيات، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك، لعلمه بأنه لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم، والمقصود من هذا أن يقطع الرسول ﷺ طمعه من إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على الهدى والرشاد لفعله، بأن يوفقهم للإيمان، ولكنْ لم يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي الجاهلين بدقائق شؤون الله تعالى، الذين لا يعرفون حكمة الله، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين﴾ لا يدل أنه ﷺ أطاعهم، على أن الجهل هنا ضد العلم، لا ضد الإيمان، وكلُّ جهل بهذا المعنى ليس عيباً، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يُذم الإنسان بجهل ما يجب عليه معرفتُه.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان،

الذين يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تفهم وتدبر، دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ والمراد من السماع هو سماع الفهم والتدبر، وما عداه كلا سماع ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار[1] كما قال الحسن ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيجازيهم على كفرهم، فحينئذ يسمعون.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من الآيات، التي تخرُّ لها صُمُّ الجبال ولم يعتدوا به ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلاَّ نزل على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ملجئة للإيمان ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من الآيات الملجئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما أن في تنزيلها إبطالاً لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، ولأنها إذا نزلت فلم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، فيقترحونها جهلاً، ويتخذونها ذريعةً إلى التكذيب، وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أنَّ بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون، مكابرةً وعناداً.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنف، مسوقٌ لبيان كمال قدرته عز

---

(١) شبّه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسنَّدة، قال قتادة: الآية مثلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله فينتفع به ويعقله، والكافر أصمٌّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به «تفسير الطبري».

وجل، ليكون كالدليل على أنه تعالى، قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزلها رحمةً بالعباد، أي ما من شيءٍ يدب على وجه الأرض من صغير ولا كبير ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ قيّد بالجناحين، لنفي المجاز، لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار، إذا أسرع ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ أي طوائف مخلوقة ﴿أَمۡثَالُكُمۚ﴾ كل أمة منها مثلكم، أحوالها محفوظة، ومصالحها مرعية ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، من جليل ودقيق، لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، وفيه بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، أي ما أغفلنا وما تركنا في الكتاب من شيء من الأشياء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمّاء من القرناء[1] أي ثم مرجعهم ومآلهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالقرآن، وسائر الحجج العقلية، والشرعية ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾ هذا من التشبيه البليغ، أي إنهم كالصمّ، وكالبكم، لا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم، ولا يقدرون أن ينطقوا بالحق، ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ أي في ظلمة الكفر، وفي ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، والمراد أنهم غارقون في الجهل وسوء الحال، فإن الأصم الأبكم، إذا كان بصيراً، ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، فينسدُّ عليه باب الفهم بالكلية، ولذا شبّهوا بالموتى ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ أي أمره إلى ربه،

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

(٢) قال الطبري: فالرب الذي لم يضيّع حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطير، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، وأثبت ذلك في أم الكتاب ـ اللوح المحفوظ ـ وحَشَرها ثم جازاها على ما سَلَف منها في دار البلاء، كيف يضيّع أعمالكم، ويفرّط في حفظها، ويترك جزاءكم في الآخرة؟ مع ما خصكم من العقل والفهم الذي لم يعطه الطير والبهائم؟.

فمن يشأ الله إضلاله، يخلق فيه الضلال، لا بطريق الجبر، لا بطريق الكسب والاختيار منه ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، والآية دليل لأهل السنة على أن الإيمان والكفر بإرادته سبحانه ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذا قولٌ أمر الله رسوله أن يوجّهه إلى الكفار، مذكراً إياهم بما أودع في فطرتهم، من توحيده عزَّ وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض يفسد فطرتهم وعقولهم، قال الفراء: للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما رؤية العين، فإذا قلت للرجل أرأيتك، كان المراد هل رأيت نفسك، ثم يثنّى ويُجمع، والثاني أن تقول: أرأيتك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال، تقول: أرأيتكَ أرأيتكُما أرأيتكم أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي لا محيص عنها البتة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحطّ التبكيت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم من الصادقين أخبروني من تدعون؟ والمراد إقامة الحجة عليهم، أنهم يفزعون إلى الله وقت الشدة، لينجيهم من عظيم البلاء، ولهذا قال بعده.

﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ ﴾ أي بل تخصونه تعالى بالدعاء، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص ﴿ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ أي فيفرّج عنكم عظيم البلاء ﴿ إِن شَآءَ ﴾ أن يتفضل عليكم، يعني أن قبول دعائهم تابعٌ لمشيئة الله المبنية على حِكَم خفية، قد يقبل وقد لا يقبل ﴿ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ أي وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما رُكّز في العقول، من أنه تعالى القادر على كشف الضر، دون غيره من الخلق، والنسيانُ مجاز عن الترك، كما روي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون على حقيقته، فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلاً كثيرين بعثناهم ﴿ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ قبل زمانك يا محمد فكذّبوا رسلهم ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي فامتحنّاهم بأنواع الشدائد، بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي هلاَّ تضرَّعوا بالتوبة حين جاءهم العذاب ليصرف الله عنهم البلاء؟ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع وجود المقتضي، وانتفاء المانع، و«لَوْلا» هنا ليست تحضيضية لأنها تختص بالمضارع، ولما كان التضرع من لين القلب، أخبر عن قساوة قلوبهم فقال: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم، ولكن قستْ، أي استمرت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت عناداً وفجوراً ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ بيان للصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع عندهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل إليه، وانهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء ﴿ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ من السَّعة، والصحة، وصنوف النعمة، على منهاج

الاستدراج، إلزاماً للحق، وإزاحة للعلة، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، فقد روي من حديث عُقبة بن عامر مرفوعاً: «إذا رأيتَ الله تعالى يُعطِي العبدَ في الدنيا، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية»[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ بطروا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النّعم، يعني حتى إذا اطمأنوا بما أُتيح لهم، وبَطِروا وأَشِروا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ بعذاب الاستئصال فجأة، ليكون أشد عليهم وقعاً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزنُ، يقال أبلس فلان: إذا سكت غماً، وقيل: للإبلاس ثلاثة معان في اللغة: الحزنُ، والحسرةُ، واليأس، وهي معان متقاربة.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، قال الأصمعي: الدابر الأصلُ، ومنه قطع الله دابره أي أصله، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب، ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ للإشعار بعلة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعاصي مقام الطاعات ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة، تخليص لأهل الأرض من أعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة، مستوجبةٌ للحمد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ورواه أحمد في المسند ٤/ ١٤٥.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم، وهذا أيضاً استخبار أي قل أخبروني ﴿ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾ بأن أصمَّكم، وأعماكم بالكلية ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ بأن غطى عليها، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضُراً ﴿ مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾؟ من استفهامية أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم، من إله غيره تعالى يأتيكم بها؟ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ، من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي انظر كيف نكرّرها، تارةً من جهة المقدمات العقلية، وتارةً من جهة الترهيب والترغيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ يُعرضون عن ذلك، و«ثم» لاستبعاد الإعراض، بعد تصريف الآيات، يقال: صدف عنه: أي أعرض، وأصدفه عن كذا أماله عنه، فالجملة داخلة في التعجيب، أي إنهم بعد ذلك التصريف، الموجب للإقبال والإيمان، يُدْبِرُون ويكفرون.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ أي العاجل الخاص بكم، كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة بأن لم تظهر أماراته ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ معاينة بعد ظهور أماراته، وتقديم البغتة لكونه أهول ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي إلاّ أنتم، وضع الظاهر موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم، والهلاك وإن عمَّ الأبرار والأشرار، يكون الهلاكُ يختص بالشريرين، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول المضار الثواب، والأشرار يكونون خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلى الأمم ﴿ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من عصى منهم بالعذاب، ولم نرسلهم ليُقترح عليهم، ويُتلهى بهم ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به

﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما يُقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلّفوه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي التي بلّغتها الرسل لهم، عند التبشير والإنذار ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يصيبهم العذاب الذي أُنذروه عاجلاً، أو آجلاً، جعل العذاب ماسّاً لهم، كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر، الذي هو الإصرار على التكذيب.

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون ﴿لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مقدوراته، مفردها خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يُحفظ فيه الأشياء النفيسة، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك، لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى، مفوّضة إليَّ، أتصرف فيها حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات، أو إنزال العذاب، أو قلب الجبال ذهباً، أو غير ذلك مما لا يليق بشأني ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما لم يُوح إليَّ حتى

تسألوني عن الساعة أو نحوها ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ أي من جنس الملائكة، أقدر على ما يقدرون عليه، حتى تكلّفوني مما لا يطيق به البشر، من الرقي في السماء ونحوه ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحَىٰ إليَّ من ربي. تبّرأ ﷺ عن دعوى الألوهية، والمَلَكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ مَثَلٌ للضال والمهتدي، والمؤمن والكافر، والاستفهام إنكاري، والمراد هل يتساوى من يعلم الحقائق، ومن لا يعلمها؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، وفيه التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق، فلا تتفكرون فيه؟ لتميّزوا بين ادعاء الحقّ والباطل؟.

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ أي أنذرْ وخوِّفْ يا رسول الله بالقرآن المؤمنين الصادقين، الذين يُرجى إيمانهم، لا الأموات الذين لا ينجع فيهم دواء الإنذار، إنما الذين يتوقع منهم الانتفاع ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ هم المجوزون للحشر، المؤمنون بالحساب والجزاء، فإن الإنذار ينجع فيهم، دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ حال من ضمير يُحشروا، والمعنى: أنذر به الذين يخافون حشرهم، غير منصورين من جهة أنصارهم بزعمهم ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ سبب نزول الآية ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله تعالى عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أي

(١) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند، وأخرجه مسلم بنحوه في فضائل الصحابة رقم ٢٥٠٤.

في الصباح والمساء، وأصلُ الغَدَاةِ البكرةُ، ومعنى العشيّ آخر النهار، والمراد بهما ههنا الدوام، كما يُقال: فعله مساءً وصباحاً، إذا داوم عليه، ولم يحصل منه ﷺ أنه طردهم، وقرَّب منه زعماء قريش، وإنما همَّ أن يجعل لأولئك المؤمنين وقتاً خاصاً، ولأشراف قريش وقتاً آخر، ليتألفهم، فيقودهم إلى الإيمان، فنزلت الآية توجهه إلى الطريق الأسلم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يدعون ربهم مخلصين فيه، قيَّد الدعاء بالإخلاص، تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما عليك شيء من حساب إشراكهم وأعمالهم الباطلة، ولا تؤخذ بذنوبهم وإجرامهم، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة، النظر إلى ظواهر الأمور، وإجراء الأحكام على موجبها، وتفويض الباطن إلى اللطيف الخبير ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ذكره للمبالغة أي: لا تؤاخذ بحسابهم، حتى يهمَّك إيمانهم، ولا هم ينفعونك حتى تجاملهم وتعطيهم ما يريدون ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى: إن أولئك الفقراء يستحقون التقريب، فبطردهم تضع الشيء في غير موضعه، فتكون ظالماً بتعديك حدود الله، وهذا لبيان الأحكام، وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض، ابتلينا الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء، على أشراف قريش، بالسبق إلى الإيمان، وقد مضت سنة الله تعالى، بأن يسبق الفقراء، إلى إجابة دعوة الرسل الكرام، وإلى دعوة كل إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تَبَعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، لأنه يشقُّ عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم نوح، وهود، وصالح وغيرهم ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ اللام للعاقبة أي ليقول بعض الأغنياء، مشيرين إلى الفقراء، محقرين لهم، نظراً لما بينهما من التفاوت الدنيوي ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأن وفَّقهم لإصابة الحق، والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي من دوننا، ونحن الرؤساء وهم

الفقراء؟ وهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابةِ الحقِّ، والسَّبقِ إلى الخيرِ، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[1] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه، وبمن لا يقع منه فيخذله؟ والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك، والمعنى: أليس الله عالماً على أتم وجه، محيطاً علمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إنعامه!!.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وُصفوا بالإيمان، كما وُصفوا بالإخلاص، تنبيهاً على إحرازهم لفضيلتي: العلم، والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يطرد، ويُعزَّ ولا يُذلَّ، ويُبشَّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة[2] ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ منه تعالى بتبشيرهم بالسلامةِ عن كل مكروه، وأن يبدأهم بالسلام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة، بطريق التفضل والإحسان، بسعة رحمته تعالى، وفي التعرض لعنوان الربوبية، إظهار لغاية اللطف بهم ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي من عمل ذنباً، جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ عن ذلك ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد عمل المنكر والسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي في توبته، بأن أتى بشروطها، من التدارك، والعزم على عدم العود أبداً[3] ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فشأنه سبحانه أنه مبالغ في المغفرة والرحمة له.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٢) قال القرطبي ٦/ ٤٣٥: نزلت هذه الآية في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام».

(٣) هذه قاعدة من قواعد الدين، أمر ﷺ بأن يبلّغها لأمته، الذين يقعون في بعض المنكرات جاهلين عاقبتها، بأن يتوبوا وينيبوا ويصلحوا عملهم، وألاّ يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله فإنَّ ﴿رحمةَ الله قريبٌ من المحْسِنينَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ﴾ دائماً ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة، وأهل الإجرام، المصرّين منهم والأوّابين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولتستوضح يا رسول الله سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يستحقه، ولذلك فصّلنا هذا التفصيل، ولم يذكر سبيل المؤمنين، لأن ذكر أحد القسمين، يدلُّ على الآخر.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك إليهم إني صُرفت ومُنعت بالأدلة الحقّانية، والآيات القرآنية ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم الأصنام، إلاّ أنه عبّر بصيغة العقلاء، جرياً على زعمهم ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ تكرير الأمر اعتناءً بشأن المأمور به، وفي هذا القول استجهالٌ لهم، وتنصيص على أنهم تابعون لأهواء باطلة، ليسوا على شيء من الدين ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت، ولن أكون في زمرة أهل الرشاد، ولهذا قال بعده﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ والمراد وما أنا في شيء من الهدى، حتى أعدَّ في عدادهم، إن أنا سايَرتكم على أهوائكم في عبادة غير الله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تبيينٌ للحق الذي عليه ﷺ أي: أنا على بصيرة من شريعة الله عزَّ وجلَّ، والمراد بها الوحيُ والحججُ العقلية، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أي كائنة من جهته سبحانه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير للرب، أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره والمعنى: إني على بينة كائنة من ربي، وكذبتم بالله، بالأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، بقولهم بطريق الاستهزاء: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾؟ أي ليس ما تستعجلونه في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخلٌ بما فيه بوجه من الوجوه ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة، فيما يحكم به ويُقدِّره ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي خير الحاكمين بين عباده، يحكم بالعدل، ويفصل بين الحق والباطل، ولا يظلم أحداً.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي لأستريح منكم، ولكنَّ الأمر بيد الله عز وجل، قال ابن عباس: أي لو كان الأمر بيدي، لم أُمهلكم ساعة ولأهلكتكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بحالهم، بأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليَّ، ولم يقض بتعجيل العذاب.

﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه مستعار من المفاتيح التي جمع مِفتح بالكسر، وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن والأبواب، والمقصود أنه سبحانه، هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، والمعنى: إن ما تستعجلونه من العذاب، ليس مقدوراً لي حتى ألزمكم به، ولا معلوماً لديَّ لأخبركم وقت نزوله، بل هو مما يختص به عز وجل، قدرةً وعلماً، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم والمصالح. روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مفاتح الغيب

خمسٌ، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلاّ الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، وما تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تعلم نفسٌ بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر، إلا الله»[1] فإن قلت: لم عدَّ هذه الخمس، وكلُّ المغيبات لا يعلمها إلا الله؟ الجواب لأن شأنهم في الجاهلية الاهتمام بهذه الأشياء فخصّها بالذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه تكملة له وتنبيهٌ، على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، أي يعلم ما فيهما على اختلاف أجناسها، وكثرة أفرادها سواءٌ كانت في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي في بطون الأرض، وكنى بالظلمة عن البطن، لأنه لا يدرك ما فيه، كما لا يُدرك في الظلمة ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قيل: الرطبُ الماء، واليابسُ البادية، أو ماينبت، وما لا ينبت[2] ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ في علمه تعالى مسجَّل في اللوح المحفوظ، الذي هو محل معلوماته سبحانه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرعد ٨/ ٣٧٥ فتح الباري.

(٢) قال في البحر المحيط: وانظر إلى حُسن ترتيب هذه المعلومات، حيث بدأ أولاً بأمر لا ندركه نحن بالحسّ وهو «مفاتح الغيب» ثم بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو «البر والبحر» ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض، فدلَّ ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات، لا يغيب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ ينيمكم فيه، استعير التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتميز ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يعلم ما كسبتم فيه، خصَّ الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَيَعلَمُ مَا جَرَحتُم﴾ بينهما، لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم، بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات، مع كونها موجبة لإهلاكهم، يفيض عليهم الحياة، ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي، ثم يبعثكم في جنس النهار، مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ معيَّنٌ لكل فرد، بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عُيِّن له طرفة عين، وهو أجل بقائه في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجعكم ومصيركم بالموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام قيل: الحواس تقبض عند النوم، فأما الروح لا تقبض، إلا إذا انقضى الأجل، وكما يُرَدُّ الإحساس بعد الإيقاظ، فكذا الأنفس تحيا بعد موتها.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي المتصرف في أمورهم، يفعل بهم ما يشاء ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف، إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن المعاصي، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ والمقصود ضبط الأعمال، فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي، بأسرها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

وَلاَ كَبِيرةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتى للغاية تجعل ما بعدها غايةً لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظةً مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدةُ أحدكم، وجاءت أسبابُ الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المفوضون لذلك وهم ملك الموت وأعوانه، وانتهى هناك حِفْظُ الحَفَظة قال الكلبي: إن ملك الموت هو الذي يلي ذلك، ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى مَلَك الرحمة، وإن كانت كافرة إلى ملك العذاب، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر، وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الآمر الحقيقي ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ أي رُدَّ العباد بعد البعث ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي مالكهم وخالقهم ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وأن الكافرين لا مَوْلَىٰ لهم﴾ لأن المولى هناك يراد به الناصر ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره بوجه من الوجوه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان، لأنه لا يحتاج إلى فكر وروِيّة، ولا يشغله حساب عن حساب، ثم إن كيفية الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر، وليس لنا إلاَّ الإيمان به، مع تفويض كيفية ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر والبحر الهائلة، التي تبطل الحواس، وتدهش العقول، والظلماتُ: كناية عن مخاوفهما وأهوالهما ﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي إعلاناً وإسراراً كما روي عن ابن عباس والحسن، ويحتمل أن يُراد بهما باللسان، والقلب ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿ مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ الشدة والورطة التي عبَّر عنها بالظلمات ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي الراسخين في الشكر، المداومين عليه لأجل هذه النعمة، لأن الإنسان في هذه الحالة، ينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وتشهد الفطرة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولهذا أخلصوا وتضرعوا.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا ﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ﴿ وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ أي غم يأخذ بالنفس كسائر الهموم والأكدار، والأمراض والأسقام ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ هذا تذكير بقدرته تعالى على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، وإنذار بأن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، والتنوينُ للتفخيم أي عذاباً عظيماً ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة، والحجارة، والريح ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كالرجفة، والخسف، والإغراق ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ أي يخلط أمركم عليكم بجعلهم مختلفي الأهواء ﴿ شِيَعًا ﴾ جمع شيعة أي يجعلكم فِرقاً متحزبين وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ أي يقاتل بعضكم بعضاً، أخرج أحمد ومسلم عن ثوبان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني سألتُ ربي لأمتي، أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة - أي بقحط أو جدب - فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[1] الحديث. ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ على

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم رقم ٢٨٨٩ أوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ=

أنحاءٍ شتى من الطريق الحسي، والعقلي، بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي كي يعلموا جليّة الأمر، فيرجعوا عما هم عليه، من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن المجيد ﴿قَوْمُكَ﴾ أي المعاندون منهم لغاية عتوّهم وضلالهم ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي كذبوا به والحال أنه الكتاب المنزل بالحق ﴿قُل﴾ لهم منبهاً ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ لأمنعكم من التكذيب، وأجبركم على التصديق، إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي لكل شيء من الأنباء، التي من جملتها عذابكم ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وقت استقرار ووقوع البتة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه ما يحلُّ بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الخوض: الدخول فيها بالتكذيب، والاستهزاء، والطعن فيها، كما هو دأب قريش في أنديتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم، والقيام عن مجلسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ﴾ أي كلام ﴿غَيْرِهِۦ﴾ أي غير آياتنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي بعد تذكر النهي، والخطاب

= مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ ملكَ أمتي سيبلغُ ما زُوي لي منها..» الحديث وأخرجه الترمذي رقم ٢١٧٧ وأبو داود رقم ٤٢٥٢ كلهم في باب الفتن.

للرسول ﷺ والمراد غيره من المؤمنين، لأن النسيان الذي منشؤه الوساوس الشيطانية محال على النبي ﷺ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم، وأنهم بذلك الخوض ظالمون، واضعون التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم، راسخون في ذلك.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين، من قبائح أعمالهم وأقوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي مما يحاسبون عليه من قبائحهم روي عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت الآية السابقة، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت، وهم يخوضون فيه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ استدراك أي ولكن يذكّرونهم ويمنعونهم، بما أمكن، ويظهرون لهم الكراهة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي دع هؤلاء المجرمين الذين ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلّفوه، وأمروا بإقامة أحكامه، وهو دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا، أو اتخذوا ما يتدينون به، شيئاً من اللعب واللهو ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية، واطمأنوا بها، حتى زعموا أن لا حياة بعدها، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ ترك معاشرتهم ومخالطتهم، لا ترك الإنذار لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن من يصلح للتذكير، وقد جاء مصرحاً به في قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1]

---

(١) سورة ق، آية: ٤٥.

والقرآن يفسّر بعضه بعضاً ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي لئلا تبسل أي تُسلم للهلكة، والمعنى: وذكر الناس بالقرآن، لئلا تُبسل كل نفس بما كسبت، أي تُسلم وتُحبس وتُترك في العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس للنفس من غير الله تعالى ناصر ينصرها، أو قريب يتولى أمرها ولا شفيع يشفع لها، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[2] ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ تفدي تلك النفس ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل فداء مما في الأرض ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أي ذلك الفداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين أُهلكوا بما كسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء مغلي، تتقطع منه أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿بما كسبوا﴾ لأنه العمدة في أسباب العذاب، والأهمُّ في باب التحذير.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٢) سورة غافر، آية: ١٨.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي أنعبد متجاوزين عبادة الله، الجامع لجميع صفات الألوهية، التي من جملتها القدرة على النفع والضر، ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضرنا إذا تركناه، وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أي ونرد إلى الشرك، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة قبحه، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك، حالة قد نُبذت وراء الظهر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ أي هدانا للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنردُّ رداً مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين، والاستهواءُ: من هَوَىٰ في الأرض إذا ذهب فيها، أي كالذي تخطفته مردة الشياطين وأضلّته، فذهبت به في المفاوز والقفار، والكلام وارد على التمثيل، حيث شبَّه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه، بحال من ذهبت به الشياطين في أغوار الأرض وأضلته، بعد ما كان على الجادة المستقيمة[1] ﴿ حَيْرَانَ ﴾ أي تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ ﴿ لَهُۥٓ ﴾ أي للمستهوىٰ ﴿ أَصْحَٰبٌ ﴾ رفقة ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ أي إلى الطريق المستقيم ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ أي يقولون ائتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون، ثابتون على الطريق المستقيم، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله، لمن يدعو إلى عبادة الأصنام، ولمن يدعو إلى عبادة الله تعالى، كمثل رجل في رفقةٍ، ضلَّ به الشيطان عن الطريق المستقيم، وجعل أصحابه يدعونه إليهم، وجعل الشيطان يدعوه إليه، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب؟ ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذي هدانا إليه، وهو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي وحده وما عداه ضلال محض ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

---

(١) هذا مثل ضربه الله عزَّ وجل لمن عبد غير الله، من وثنٍ وصنم، فهو في تخبطه وضلاله، كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته، وسارت به في المفاوز والمهالك، فألقته في هوّة سحيقة، ولم يستجب لداعي الهدى والفلاح.

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي وأُمرنا بأن نستسلم لله عزَّ وجل، ونخلص العبادة له في جميع أمورنا وأحوالنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على موضع لنسلم، كأنه قيل: أمرنا أن نسلم، وبأن نقيم الصلاة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً، وعدم التصريح لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي قائماً بالحق، لا عبثاً وباطلاً، وإظهاراً للحق، لأن صنعه تعالى دليل على وحدانيته عزَّ وجلَّ، ونظيرُ الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1] ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ استئناف لبيان أن خلقه للأشياء، ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر، أي وقضاؤه سبحانه كائن، حين يقول لشيءٍ من الأشياء «كن» فيكون ذلك الشيء بدون تأخير ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي استقر الملك له في ذلك اليوم، صورة ومعنى، بانقطاع العلائق الكائنة في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[2] والصورُ: قرنٌ ينفخ فيه، ويعرف الناسُ أمور الآخرة، بأمثال ما شاهدوا في الدنيا، ومن عادة الناس، النفخُ بالبوق، عند الأسفار، وهو تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش، إذا نفخ بالبوق، روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور يا رسول الله؟ قال: قرن يُنفخ فيه»[3] ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

---

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، آية: ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٢ وأبو داود رقم ٤٧٤٢ والترمذي رقم ٢٤٣٢ ورواه مسلم بلفظ «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ».

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي اذكر يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وقت قول إبراهيم عليه السلام، الذي يدَّعون أنهم على ملته، موبخاً ﴿ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ على عبادة الأصنام، فإن ذلك ممَّا ينادي بفساد طريقتهم ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾؟ أي أتجعلها لنفسك آلهة؟ على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِي ضَلَٰلٖ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ مُّبِينٖ ﴾ أي بيِّن في كونه ضلالاً، لا اشتباه فيه أصلاً، وحكمة كون بعض أقارب الرسل كافراً، هي تقرير أصل التوحيد، الهادم لقاعدة الوثنية، والرسل لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من البشر؟

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي مثل ذلك التبصير البديع، نُبصِّر إبراهيم بملكنا الواسع ونعرِّفه به، وإنما عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، استحضاراً لصورتها، حتى كأنها حاضرة ومشاهدة ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، والملكوت معناه الملك العظيم، والتاء فيه للمبالغة وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين، من معرفة الله

تعالى، واللام متعلقة بمحذوف أي فعلنا ما فعلنا وأريناه تلك الآيات الباهرة، ليكون من الراسخين في اليقين، لا يخالجه أدنى شك أو ارتياب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ جنَّ عليه: سَتره فمعنى: ﴿جنَّ عليه الليل﴾ ستره بظلامه، وهذه المادة بتصرفاتها تدل على الستر ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب لمَّا، والمراد بالكوكب فيما روي عن قتادة: أنه الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض، وإرخاء العَنان، مجاراة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قولٍ، يحكيه ثم يكرُّ عليه بالإبطال، وهذا هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ المتغيرين من حال إلى حال، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً، أفل الشيء أفولاً: غاب.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي مبتدأ في الطلوع، منتشر الضوء، قال الأزهري: مأخوذٌ من البزغ وهو الشق، كأنه بنوره يشق الظلمة، وظاهر الآية أن هذه الرؤية، بعد غروب الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وهو على منهاج الكلام السابق ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ إلى جنابه الحق الذي لا محيد عنه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً، لتغيير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه آلهاً فهو ضال، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله: ﴿لاَ أُحِبُّ الأفِلِينَ﴾ وفي هذه الجملة دليل على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه، بل محاجَّةٌ لقومه، ولما ذكر هذه القصة قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولم يقل على نفسه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما لم يؤنث لصيانة الرب عن وصمة التأنيث، ولأن الشمس تأنيثها غير حقيقي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ تأكيد لما رامه من إظهار النَّصَفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر، وكون الشمس أكبر مما قبلها

مما لا خفاء فيه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ كما أفل ما قبلها ﴿قَالَ﴾ لقومه صادعاً بالحق بين ظهرانيهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من إشراككم، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ، مع أنه أيضاً انتقال من حالة إلى حالة، لأنه انتقال مع احتجاب، وأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة، يعرفها كل أحد، ثم لمَّا تبرأ منها، توجَّه إلى موجدها، الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ﴾ أي أوجد وأنشأ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولستُ من المشركين.. تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه[1]، والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة وحده.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والحقُّ أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهنَّ إضاءة الشمسُ، ثم القمر، ثم الكوكب «الزهرة» فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منهم فقال ﴿إني بريء مما تشركون﴾.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾ أي شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد، تارة بإيراد أدلة فاسدة، وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿ قَالَ ﴾ منكراً عليهم لما اجترؤوا عليه من محاجته بعد وضوح الحق ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ في وحدانيته سبحانه ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ في موضع الحال مؤكد للإنكار، أي وقد هداني ربي وبصَّرني بالحق بإقامة الدليل عليكم بوحدانيته، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ جواب عما خوّفوه به، من إصابة مكروه من جهة أصنامهم، كما قال لهودٍ قومُه: ﴿إنْ نقولُ إلاَّ اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوء﴾[1] وهذا التخويف كان على ترك عبادة الأصنام، وقيل: بل على الاستخفاف والاستهزاء بها ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ أي لا أخاف في وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروهٍ بي، وذلك إنما هو من جهته تعالى، من غير دخلٍ لآلهتكم فيه أصلاً ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء، ومنها أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة، على شيءٍ ما من النفع والضر، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذكر دون التفكر، إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز في العقول، لا يتوقف إلا على التذكير.

﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ أي وكيف أخاف آلهتكم المزعومة، التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ ﴾ أي ولا تخافون الله الجليل القادر، وهو حقيق بأن يخاف منه، لأنه إشراك بالمبدع الصانع، وتسويةٌ للضعيف العاجز بالقادر؟ أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات، وهو إشراككم بالله الذي فطر السموات والأرض؟ وعبَّر عنه بقوله سبحانه: ﴿ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ ﴾ أي بإشراككم ﴿ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ ﴾ على طريقة التهكم، مع

---

(١) سورة هود، آية: ٥٤.

الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾؟ أي أيُّنا أحقُّ بالأمن؟ أنحن وقد عرفنا الله بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتم بالواحد الديَّان؟ أينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم، فأخبروني بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي لم يخلطوا ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك كما يفعله المشركون، حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله، وأن عبادتهم لغيره من تتمات إيمانهم، لكونها لأجل التقريب والشفاعة.. روي أن هذه الآية لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] فقد ظنوا أن المراد من الظلم المعاصي، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فبيَّن النبي ﷺ أن المراد من الظلم هنا: الشركُ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر، من الإيمان الخالص عن شائبة الشرك، لهم الأمنُ فقط ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ومن عداهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي أرشدناه إليها وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي رتباً عظيمة عالية، من العلم، والحكمة وما تستدعيه المصلحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه.

(١) الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ٨٢ ومسلم رقم ١٢٤ في الإيمان أيضاً، وفي رواية أخرى: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾؟!.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى طريق السعادة، لا أحدهما دون الآخر ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي من قبل إبراهيم، وعدَّ هداه نعمة، لأن شرف الوالد سارٍ إلى الولد ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام، لأن مساق النظم الكريم، لبيان شؤونه الجليلة، من إيتاء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وكل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته، من المشركين واليهود، بأن إبراهيم كان مؤمناً موحّداً، لا كما يدّعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ إنما بدأ بذكرهما، لأنهما جمعا بين النبوة والملك، وسليمان هو ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ جزاءً مثل ذلك الجزاء، والمراد بالمحسنين الجنس، ومطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان من غير بخسٍ، لا المماثلة من كل وجه.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ هو من أسباط هارون ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من

أولئك المذكورين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق، وقد ذكر الله تعالى أربعة عشر نبياً، لم يرتبهم على حسب تاريخهم، لأنه تعالى أنزل كتابه هدىً وموعظة، لا لسرد أخبار التاريخ.

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ آدم، وشيث، ونوحُ، وهود، وصالح ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الجماعات الكثيرين، وإن لم يكونوا جميعاً أنبياء، فهم مؤمنون مهتدون. ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي اصطفيناهم ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى إلى الطريق المستقيم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ وهم المستعدون لذلك، وتفيد الآية على أنه تعالى متفضلٌ بالهداية عليهم ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾ أي أولئك المذكورون مع فضلهم وتقدمهم ﴿لَحَبِطَ عَنۡهُم﴾ لبطل وسقط عنهم مع علو شأنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضية، فكيف بمن عداهم؟.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء، باعتبار اتصافهم بما ذُكر من الصفات الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق، أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ إنما ذكر الأعم، لأن بعض من دخل في آبائهم وذرياتهم، ليسوا برسل ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش، فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أُنزل عليه كافرون بجميع الرسل ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بمراعاتها، ووفقنا للإيمان بها، والقيام بحقوقها ﴿قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات، بل مستمرون على الإيمان بها،

وفي الآية دليل على أنه عزَّ وجلَّ ينصر رسوله ﷺ، ويقوي دينه، وقد حقق له ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من الأنبياء ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ إلى الحق، والنهج المستقيم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأُصول الدين والاقتداءُ المأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة، كالحلم، والصبر، والزهد، والشكر، والتضرع، ونحوها، وأنه ﷺ قد امتثل وأتى بجميع ذلك، فاجتمع فيه من خصال الكمال، ما كان متفرقاً فيهم، وفي أمره ﷺ بالاقتداء بهداهم، دون الاقتداء بهم، ما لا يخفى من الإشارة إلى علوّ مقامه!! ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على التبليغ، أو القرآن، فإنَّ مساق الكلام يدل عليهما، وإن لم يَجْرِ ذكرهُما ﴿أَجۡرًاۖ﴾ أي جُعْلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قَبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهداهم، لأن عدم أخذ الأجر في مقابلة الإحسان، من مكارم الأخلاق ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ أي تذكيرٌ وعظة ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون قوم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الإنس والجن.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لمَّا بيَّن شأن القرآن العظيم، وأنه نعمة جليلة على كافة الأمم، عقَّب ذلك ببيان كفرهم به، على وجهٍ سَرَىٰ ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلَهية، والمعنى: ما عرفوا الله تعالى ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي حق معرفته، وعن ابن عباس معناه: ما عظموا الله تعالى حقَّ تعظيمه، وما قاله الأخفش أوفق بالمقام، أي ما عرفوه سبحانه، في اللطف بعباده، والرحمة عليهم، ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك، بل أخلُّوا إخلالاً عظيماً ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ منكرين لبعثة الرسول، وإنزال الكتب ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ شيئاً من الأشياء قال مجاهد: إنهم مشركو قريش، والجمهور على أنهم اليهود، ومرادُهم من ذلك المبالغة في إنكار إنزال القرآن الكريم، بدليل نقض كلامهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والتقريع على سوء جهلهم.

روى الطبراني عن سعيد بن جبير أنَّ مالك بن الصيف ـ من أحبار اليهود ـ قال ﷺ له: أنشدك الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله تعالى يُبغض الحَبْر السمين؟ قال: نعم، قال ﷺ: فأنت الحبر السمين، فضحك القومُ، فغضب فقال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيءٍ﴾ الآية، ثم إنَّ وصف الكتاب، بالوصول إليهم، لزيادة التقرير، وكذا تقييده بقوله سبحانه: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ فإنَّ كونه بيِّناً بنفسه، ومبيِّناً لغيره، مما يؤكِّد الإلزام ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي هدىً كائناً للناس، وليس المراد بهذا، مجرد الإلزام بالاعتراف فقط، بل بإنزال القرآن أيضاً، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم لإنزاله، لما فيها من الشواهد، وقد نعى عليهم ما فُعل بها من التحريف والتغيير، حيث قيل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي تضعونه في قراطيس مقطَّعة، وورقات متفرقة، وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب، ونزّلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة، وليس المراد وضعهم له في قراطيس، إذ كل كتاب لا بدَّ أن يودع في القراطيس، بل المراد التوبيخ على الجعل في قراطيس موصوفة بقوله

سبحانه: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي كثيراً منها، والمراد من الكثير نعوت النبي ﷺ وسائر ما كتموه من الأحكام، كرجم الزاني المحصن، وهذا خطاب لليهود بلا مرية، وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعاراً بتعيين الجواب، بحيث لا محيد عنه، وإيذاناً بأنهم أُفحموا ولم يقدروا على التكلم ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ دعهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولفظة ﴿الله﴾ جملة حُذِف أحد جزئيها، أي اللهُ أنزله.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ هذا تحقيقٌ لنزول القرآن على محمد ﷺ وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنيعة ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي قبله، وتصديقه للكل، في إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وأصول الشرائع التي لا تُنسخ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لإنذارك أهل مكة، سُمّيت بذلك لأنها قبلة أهل البلاد، ومَحَجُّهم، وأعظم القرى شأناً وهم يجتمعون عندها كاجتماع الأولاد عند الأم، ويعظمونها تعظيم الأم ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المدر والوبر، في المشارق والمغارب، لعموم بعثته ﷺ لجميع الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن الكريم، فإنَّ من صدَّق بالآخرة، خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبيِ والكتاب، ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعَلَمُ الإيمان، وأما المنكرون للبعث والجزاء، فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هداية القرآن، ومشركو مكة أعرضوا عن القرآن لأنهم لا يعتقدون البعث ﴿وَهُم عَلَىٰ صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، بأركانها وشرائطها وآدابها، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها من العبادات.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منه[1]، كالذين قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ كمسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسي ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك، كالذين قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ وقد دخل في حكم هذه الآية، كلُّ من افترى على الله كذباً، في ذلك الزمان وبعده، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي ولو ترى الظالمين إذْ هم ﴿ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي شدائده، من غَمَره إذا غشيه، والغمرةُ: الشدةُ، ومنه غمرات الموت، وتقييد الرؤية بهذا الوقت ليفيد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر، وجواب الشرط محذوفٌ، أي لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وهم أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ لقبض أرواحهم، كالمتقاضي الملحّ، يبسط يده إلى من عليه الحق، ويُعنِّف عليه في المطالبة، من غير إمهال، أو باسطو أيديهم بالعذاب، قائلين ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي أرواحكم من

---

(١) الاستفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلمُ منه على معنى: إنه أظلم من كل ظالم، وزيادة قوله: ﴿كذباً﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للإيذان بأن ما قالوه مع أنه افتراء هو كذب في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، وجريمة الافتراء على الله.

أجسادكم، أو خلّصوا أنفسكم من العذاب ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي وقت الإماتة أو الوقت الممتد إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة، وحاصل المعنى: ولو ترى أيها المخاطب ما يحلُّ بالظالمين عند الموت، وما بعده، لرأيت أمراً فظيعاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من ادعاء الوحي، ودعوى النبوة كذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وعنِ الأولاد والأموال ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي على الهيئة التي وُلدتم عليها، عُراةً، وحُفاة، كما روي عن عائشة أنها قرأت هذه الآية، قالت يا رسول الله واسوأتاه، النساء والرجال سيحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال ﷺ: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»[1] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، من الأموال، والأولاد، والخدم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي في الدنيا، ولم تحملوا نقيراً وهذا يدل على أن ما يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في الخيرات، فصفته هذه التي ذكرها، أمّا إذا صرفها إليها، فما تركها وراء ظهره، بل قدَّمها تلقاء وجهه، كما قال الله تعالى: ﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكُمْ من خَيْرٍ تَجدُوهُ عنْدَ الله﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي شركاء الله في ربوبيّته واستحقاق عبادتكم لها، تعالى الله عن ذلك، وبّخ الله تعالى المشركين بذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وقع التقطُّعُ بينكم، وأصله لقد تقطع ما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاءكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ورواه الترمذي في التفسير ٥/٤٠٣ بلفظ: «تُحشرون حُفاة، عُراة، غُزلاً - أي غير مختونين - فقالت امرأةٌ أَيبصر أو يرى بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لكلِّ امرئٍ منهمْ يومئذٍ شأنٌ يغنيه﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾ شروعٌ في تقرير بعض بدائع الله تعالى، الدالة على كمال علمه وقدرته، إثر تقرير أدلة التوحيد، والفَلْقُ: الشقُّ أي شَاقُّ الحبِّ بالنبات، والنوىٰ بالشجر، ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ أي مخرج ما ينمو من الحيوان والنبات، مما لا ينمو من النطفة والحبّ ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالنطفة والحبِّ ﴿ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ﴾ كالحيوان والنبات، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولما كان الحي أشرف من الميِّت، وجب الاعتناء بإخراج الحي أكثر من الاعتناء بإخراج الميت، فلذا وقع التعبيرُ عن الأول بصيغة الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ وعن الثاني بصيغة الاسم ﴿وَمُخْرِجُ﴾ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحيِّ أكثر وأكمل، من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ ٱللَّهُ ۖ ﴾ المستحقُّ للعبادة وحده ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيءٍ أصلاً؟.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ الإصباحُ في الأصل مصدر أصبح، إذا دخل في الصباح، سُمّي به الصبحُ والصباحُ مثله وهو أول النهار، فلقه عن بياض النهار، أي فالق ظلمة الإصباح بالإصباح، وذلك لأن الأفق مملوء من الظلمة، فشقَّ سبحانه ذلك بالنور الذي ظهر في الجانب الشرقي ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار، ويستأنس به، لاسترواحه فيه، وكلُّ ما يسكن إليه الرجل ويطمئن به، من زوجٍ أو حبيب يقال له: سكنٌ، والمعنى سكن فيه كل طير ودابة أي: جعلَ الليل مسكوناً فيه، أخذاً له من السكون ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ معطوفان على الليل أي مجعولان ﴿ حُسْبَانًا ۚ ﴾ على أدوار مختلفة، تُحسب بهما الأوقات التي نيطت بها العبادات، والمعاملاتُ، والحُسْبانُ بالضم مصدر حسبت، والمصدر حِسَابا

بالكسر، وحُسْباناً بالضم، أي أحصيت عدداً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الغالب القاهر، الذي لا يتعاصاه شيءٌ من الأشياء، ومبالغ في العلم بجميع المعلومات، التي من جملتها المصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي أنشأ لأجلكم النجوم ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ أي جعلها كائنة لاهتدائكم في أسفاركم، عند دخولكم المفاوز أو البحار، إذا ضللتم وتحيَّرتم فيه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل، في البر والبحر، ذكر تعالى هنا بعض منافعها، وهو الاهتداء إلى البلدان في الأسفار، ومن منافعها يستدلون بالنجوم على القِبلة، ومنها أنها زينة السماء، ولا بأس في تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل، ونحو ذلك، مما يتوصل به إلى مصلحة دينية، قال العلامة ابن حجر: والمنهي عنه من علم النجوم، ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في المستقبل، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق، فأمَّا الإخبار عمَّا يُدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرضُ كفاية ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بينَّا الآيات التكوينية، والحجج الدالة على شؤونه تعالى، فصلاً، فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويتفكرون في عظمة، الخالق جلَّ وعلا، وتخصيص التفصيل بهم، لأنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ﴾ تذكير لنعمة أخرى، فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد، أقرب إلى التوادّ والتعاطف، وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي فلكم استقرارٌ في الأصلاب، واستيداع في الأرحام، وقيل: المستودعُ: القبرُ، والمستقرُّ: إما الجنةُ أو النارُ، وقال مجاهد: المستقر على الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ والمستودع القبرُ ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ذكر تعالى مع النجوم. ﴿يَعلَمُونَ﴾ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق آدم ﴿يَفقَهُونَ﴾ لأن إنشاء بني آدم من نفسٍ واحدة دقيقٌ يحتاج إلى استعمال فطنة، وتدقيق نظر[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ تذكير لنعمة أخرى، منبئةٍ عن كمال قدرته عزَّ وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ أي بسبب الماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي أخرجنا بهذا الماء من جميع أنواع النبات ما هو غذاء للبشر ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ خَضِر اللونُ، خَضَراً من باب تعب فهو خضِر وأكثر ما يستعمل الخضر، فيما تكون خضرته خَلْقية، والخَضِرُ بمعنى الأخضر، والمعنى: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له، شيئاً غضّاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي نُخرج من ذلك الخَضِر ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أي بعضه فوق بعض، وهو السنبل المنتظم للحبوب، متراكبة على هيئة مخصوصة، مثل سنبل القمح، والشعير، والأرز ونحوها،

---

(١) في القرآن أسرار دقيقة، لا يفطن لها الإنسان إلاَّ بإمعان النظر، وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز، فقد عبَّر تعالى عن الأمور التي تحتاج إلى تفكر وتبصر بقوله: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ إشارة إلى أن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمر خفيٌّ تتحيَّر فيه الألباب، فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿لقوم يفقهون﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، بخلاف النجوم فإن أمرها ظاهر مشاهد، لا تحتاج إلى كثير عناء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ فتدبر دقائق أسرار القرآن!!.

وتقديم الزرع على الأشجار، لأن حاجة الناس إليه أكثر ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ ﴾ النخل يستعمل في الواحد والجمع ﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ الطلع شيء يخرج من النخل كأنه غُبارٌ، والطَّلْعُ أول ما يبدو من ثمر النخل، فإذا شق كيزانه سمي عِذْقاً وهو القِنْوُ ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ سهلة للمجتني، قريبةٌ من القاطف، وقيل: المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي وأخرجنا به جنات من أعناب ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ منصوبان على الاختصاص، وتخصيصهما بالذكر لعزة هذين الصنفين عندهم، ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا، أي مختلفاً في الطعم، والقدر، واللون، وغير ذلك من الأوصاف، الدالة على كمال قدرة صانعها، قال قتادة: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ ﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ أي إذا أخرج ثمره، كيف يثمر ضئيلاً، لا يكاد ينتفع به ﴿ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أي نُضجه وإدراكه كيف يصير إلى كماله اللائق به، ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمة؟ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لآيات عظيمة، دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة من أصل واحد، وانتقالها من حال إلى حال، بشكل بديع، تحار في فهمه الألباب، لا يكون إلا بإحداث عالم، قادر، يعلم تفصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته، ولا يقدر على ذلك أحد، إلا الله عزَّ وجل، ولذلك عقَّب الله بتوبيخ من أشرك فقال سبحانه:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

فقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ ﴾ الذي شأنه ما فُصِّل ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ في الألوهية ﴿ ٱلْجِنَّ ﴾ أي الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ حال

من فاعل جعلوا، والمعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم، دون الجن، وليس مِن يخلق كمن لا يخلق؟ ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ افتعلوا وافتروا له، قال الفراء: يقال خَلق الإفكَ، واختلقهُ، وخَرَقَهُ بمعنىً، وقال الراغب: أصلُ الخرق قطعُ الشيء على سبيل الفساد، من غير تفكير ولا تدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو ضدُّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقديرٍ ورفق، أي وزوَّروا له ونسبوا إليه ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله، والله تعالى منزَّهٌ عما قاله السفهاء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ أي بغير علم بمرتبة ما قالوه، وأنه من الشناعة بحيث لا يُقادر قدرُه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدّس عما قالوه، من أنَّ له شريكاً أو ولداً، وهذه غاية السفاهة والجهالة، فكيف يجعلونهم شركاء وهو المنزَّه عن المثيل والنظير؟

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي موجدهما بغير آلة، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، ومعنى ذلك: أن إبداعه لهما لا نظير له، لأنهما أعظم المخلوقات الظاهرة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟ أي من أين يكون أو كيف يكون له ولد؟ لأن الولد جزء الوالد، والله تعالى منزَّهٌ عن الجزئية والبعضية بالكلية، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ﴾ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ﴾ فكيف يتصور أن يكون المخلوقُ ولداً لخالقه[1] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا تخفى عليه خافية.

---

(١) الغرض من الآية الردُّ على من نَسَب لله الولد، من وجهين:
أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعُها.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للمشركين، والإشارة إلى المنعوت بجلائل النعوت ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبارٌ أربعة مترادفة، أي ذلك الموصوف، هو الله المستحق للعبادة خاصة، مالك أمركم، لا شريك له أصلاً، وخالق كل شيء مما كان وما سيكون ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة، أي فاعبدوه، ولا تعبدوا مَن دونه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات، متولي أموركم، فِكلوها إليه، وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، جمع بصر، وهي حاسة النظر، والإدراكُ: اللحاقُ والإحاطةُ، والآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية، فلم يقل تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال ﴿لا تُدرِكُهُ الأَبصٰرُ﴾ أي لا تحيط به إحاطة معرفة وشمول كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ واستدلال المعتزلة بالآية على نفي رؤية الله في الآخرة وهو خطأ كبير، لمعارضتها للنصوص الثابتة الصريحة في رؤية المؤمنين لربهم في الجنة. قالوا: إن رؤيته تعالى مستحيلة، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، واحتجوا بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] واستدلوا بما رواه

= الثاني: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان بهذه العظمة، فهو غني عن الولد، وعن كل شيء، وهذا غاية الوضوح والجلاء.

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢ ـ ٢٣.

الشيخان عن جرير قال: كنا جلوساً ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر وكان بدراً فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر..» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لا تُدرِكُهُ الأبصَرُ﴾ أي لا يحيط بصر أحدٍ بالله تعالى، وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة، يقال: رأيتُه وما أدركه بصري، أي ما أحاط به من جوانبه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والشمول، إذ لا تخفى عليه خافية، وخصَّ إدراك الأبصار، مع أنه تعالى يدرك كل شيء، لرعاية المقابلة وهو نوع من البلاغة لطيف ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبَدنِ، سُميت بصائر لأنها تجلي الحق وتبصره، وهي نورٌ في القلب تستبصر به النفسُ، كما أن البصر نورٌ تبصر به العينُ، والمراد بها ههنا الآيات القرآنية، أي جاءكم القرآن بالآيات البينات، والحجج الواضحات، التي تبصرون بها الهدى من الضلال، فهو كالبصائر للقلوب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر، وآمن وعمل صالحاً ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فلنفسه أبصر، ونفعه مخصوص بها ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي ومن لم يبصر الحق، بعدما ظهر له بتلك البصائر وضل عنه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي وباله وضرره عليها، لا يضرُّ غيره، وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحاً وتنفيراً عنه، وعمى البصائر شرٌّ من عمى الأبصار ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر، والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات، أي نوضحها ونبينها ليعتبروا ويتعظوا ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ ﴾ أي قرأتَ وتعلّمت، وليس هذا بوحيٍ منزل، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، وزعموا أنه ﷺ تعلّم من غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة، أو تعلّم من اليهود هذه الأخبار ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ ﴾ أي ولنبيّن هذا القرآن ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ الحق من الباطل، فإنهم هم المنتفعون به.

﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ ﴾.

﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الشرائع والأحكام، التي عمدتها التوحيد، ولا تلتفت لأفعالهم وأقوالهم، والمقصود تقوية قلبه، وإزالة حزنه ﷺ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ولا تحتفل بأهوائهم، ولا تلتفت إلى أذاهم.

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ عدم إشراكهم ﴿ مَآ أَشۡرَكُواْۗ ﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لعدم صرف اختياره نحو الإيمان، وإصراره على الكفر، ولو اختاروا الإيمان لهداهم إليه ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ ﴾ أي رقيباً مهيمناً تحفظ عليهم أعمالهم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ أي من جهتهم تقوم بأمورهم، وتدبير مصالحهم، إنما أنت مبلغ.

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ ﴾.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح، كأن تقولوا: تباً لكم ولآلهتكم وقيل: إن سبَّ الآلهة، سبٌّ لهم، كما يقال: ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل، بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله. أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: قالوا يا محمد لتنتهينَّ عن سبِّ آلهتنا أو لنهجونَّ ربك!! فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم، وظاهر الآية وإن كان نهياً عن سب الأصنام، فالغرض النهي عن السبِّ الذي يكون وسيلة إلى سبِّ الله عزَّ وجلَّ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها، فإن ما يؤدّي إلى الشرّ شرٌّ، والسبُّ عن جهل يقع كثيراً من المختلفين في الدين، يسبُّ يهودي نبيَّ نصراني، والنصراني يسبُّ نبي اليهودي، ويسب شيعي سنياً وينتقص أبا بكر، فيسب السنيُّ علياً، وهذا كله من الجهل والغضب والغيظ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر، بإحداث ما يمكّنهم منه، قال ابن عباس: زيَّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم ﴾ مالك أمرهم ﴿ مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم، بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد بالجزاء، كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلتَ، وفيه نكتة خفية، مبنية على حكمة، وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض، فإنما يظهر مخالفاً لصورته الحقيقية، فإن المعاصي سموم قاتلة، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، كالمرأة الفاتنة الحسناء، ستظهر في الآخرة بصورة منكرة قبيحة، عند ذلك يعرفون حقيقة أعمالهم المنكرة.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۙ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ أي المشركون ﴿ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ الجَهْد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، يُقال: جهد الرجل في كذا أي جدَّ فيه وبالغ، والمعنى هنا أنهم حلفوا، واجتهدوا في الحلف، أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعِهم ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ من مقترحاتهم التي طلبوها، والداعي إلى هذا القسَم، التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات، واستحقار ما رأوا منها، فاقترحوا غيرها، وحالهم هو المكابرة والعناد، والتمادي في العتوّ والفساد ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ والمراد من الإيمان بها: التصديقُ بالنبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي أمر هذه المعجزات عند الله وحده، وفي حكمه خاصة، يتصرف فيها حسب مشيئته، لا قدرة لي على الإتيان بها، وهذا سدٌّ لباب الاقتراح من المشركين ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كلام مستأنف لبيان الحكمة الداعية لعدم مجيء الآيات، خوطب به المسلمون لأنهم كانوا راغبين في نزولها، طمعاً في إسلامهم، أيْ أيَّ شيءٍ يعلمكم أيها المسلمون حالهم، وما سيكون عند مجيء الآيات، فلعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تطلبون مجيئها؟!.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلِّب أفئدتهم عن إدراكِ الحقّ فلا يدركونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي كما كفروا بالقرآن أول مرة، واستمروا على الكفر والضلال ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي نخليهم وشأنهم، بعدما عُلم فساد استعدادهم، وفرط نبُوِّهم عن الحق، وندعهم في طغيانهم متحيرين، لا نهديهم هداية المؤمنين الصادقين!!.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي ولو أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ﴾ فرأوهم بأعينهم، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة بآذانهم، ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ بأن أحييناهم، وشهدوا بحقية الإيمان، وشهدوا بصدق محمد عليه السلام ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ أي جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ أي لو أحضرنا لديهم كل شيء عياناً ومشاهدة ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أي ما صح لهم الإيمان، لتماديهم في العصيان ولا ينظرون في شيء من الآيات، نظر استدلال ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذُكر من الأمور الموجبة للإيمان، في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1] والآية بيان لاستحالة وقوع إيمانهم، كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله، وهيهات ذلك، وحالهم حالهم بدليل قوله تعالى: ﴿ونُقلبُ أفئِدَتَهُمْ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أي ولكنّ أكثر المسلمين، يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم، أو ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ﴾ كلام مبتدأ مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش له، ببيان أن ذلك ليس مختصاً به، بل

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

هو أمر ابتلي به كلٌّ من سبقه من الأنبياء الكرام، لأن القدر والمنزلة، إنما تظهر بالعدو والأضداد، ألا ترى أن إبراهيم كان خليلاً، سُلِّط عليه نمرود، وموسى كان كليماً سُلّط عليه فرعون، ونبينا ﷺ كان حبيبا سُلّط عليه أبو جهل وكفار قريش، أي وجعلنا لكل نبي عدواً، فعلوا بهم ما فعل بك قومك، فاصبر كما صبروا ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي مردة الفريقين من شياطين الإنس وشياطين الجن، ومعنى هذا الجعل أن سنة الله في الخلق مضت، بأن يكون الشرير المتمرد، العاتي عن الحق، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يلقي ويوسوس بعض كلٌّ من الفريقين، إلى البعض الآخر، قال مالك بن دينار: إنَّ شيطان الإنس أشدُّ من شيطان الجن، لأني إذا تعوذت بالله تعالى، ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي المموّه منه، المزيَّن ظاهرُه الباطل، من زخرفه إذا زينه ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له أي ليغرُّوهم أو مصدر لفعل مقرَّر، أي يغرونهم غروراً والتغرير بالزخرفة قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان، ولا سيما شياطين السياسة، ارتقاءً عجيباً، فإنهم يخدعون الأحزاب، والأمم، والشعوب، فيصوّرون الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، والشيوعية عدالةً، بتغيير الأسماء، وتزيين أقبح المنكرات، نعوذ بالله تعالى من شرورهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم، ولكن هناك حكمة الابتلاء ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من مكائد، فإن الله ناصرك عليهم وإنما قال هنا ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيما يأتي ﴿وَلَو شَاءَ الله مَا فَعَلُوهُ﴾ فغاير بين الاسمين، فهذه الآية من عداوتهم له ﷺ، التي لو شاء منعهم عنها، ويقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان، إشارة إلى أنه تعالى مربّيه، وهو في كنف حمايته، وأما الآية الأخرى ـ ١٣٧ ـ فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عزَّ اسمه بعنوان الألوهية، التي تقتضي عدم الإشراك،

فكأنه قيل ههنا إذا كان ما فعلوه من عداوتك من فنون المفاسد، فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكايد، ولا تبال بهم، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة، ولك عواقب حميدة، لِتَضَمُّنِ مشيئته سبحانه، على الحكم البالغة.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ صَغَا إلى الشيء: مال، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليغرَّهم به، ولتميل إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وإنما خَصَّ بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة، إشعاراً بتعمقهم في الضلال وعدم إيمانهم بالآخرة، بما يلقى إليهم، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات، ودون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات، التي من جملتها مزخرفات الأقاويل، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى المزخرفات، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم، بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ أي ليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ له من القبائح، التي لا يليق ذكرها.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي قل لهم: أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم؟ والحَكَمُ أبلغ من الحاكم، لأنه لا يوصف به إلا العادل، يُروى أنَّ مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: «اجعل بيننا وبينك حَكَماً من أحبار اليهود، أو من أساقفة النصارى، ليُخْبِرونا عنك بما في كتابهم من

أمرك، فنزلت الآية»[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ أي أغير الله أبتغي حكماً، والحالُ أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن، الناطق بالحق والصواب، مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وغير ذلك من العقائد والشرائع؟ فأي حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم؟ فكفى به حاكماً بيني وبينكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم، أن القرآن حقٌّ وأنه كلام الله تعالى لموافقته لما عندهم من التوراة والإنجيل، وفي التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب، إيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة، المقتضية للاشتراك في الحقّية والنزول من عند الله تعالى، حيث وجدوه حسبما نعت فيه، وعاينوه موافقاً له في الأصول، ومخبراً عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحي، مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءَهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي الشاكّين في أنه منزل من ربك بالحق، فيكون من باب التهييج، وقيل: الخطابُ للأمة وإن كان له ﷺ صورة، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه، لأنه حقٌّ منزل من عند الرحمن.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال القرآن، أي تمّ كلام الله المنزَّل على خاتم النبيّين ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ مصدران نصبا على الحال، أي صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قدَّر، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ أي لا أحد يبدّل شيئاً من كلماته، بما هو أصدق وأعدل منه، فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى؟ فيكون هذا ضماناً للقرآن وآياته بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا نبيَّ، ولا كتاب بعدها ينسخها، ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يُعلم، فيدخل في ذلك أقوال وأحوال البشر، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة النبوة، أرشد إلى أنه بعد ظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقلُ إلى كلمات الجهال، فقال عزَّ شأنه:

---

(١) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٣/ ١١٠ ونسبه إلى الماوردي.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

قولُه سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ المراد بـ ﴿مَن فِي الأرضِ﴾ الناسُ، وبأكثرهم: الكفارُ الضالون المضلّون، أي إن تطعهم بمخالفة ما شرع لك، يضلوك عن الحق، وعن الشريعة التي شرعها الله لعباده، لأن الضالّ لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ وظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم يهتدون ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون، وأصلُ الخرص: القولُ بالظنِّ والتخمين، وهو أقبحُ أنواع الكذب، أي يكذبون على الله سبحانه، فيما ينسبونه إليه، كاتخاذ الزوجة، والولد، وعبادة الأوثان، وتحليل المُتْعة، وتحريم البحائر، وغير ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرٌ مرتب على النهي عن اتباع المضلين، رُوي عن ابن عباس قال: جاء اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما يقتل الله تعالى؟ فأنزل الله الآية. أي إذا كان

أمر أكثر الناس على الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولو كان من البحائر، والسوائب، ونحوها[1] ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحل الله، واجتناب ما حرَّمه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله، تقديره: فكلوا مما ذُكر عليه اسمُ الله.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾؟ وأيُّ غرضٍ لكم في أن تتحرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب، عن أكل ما ذُكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب، ونحو ذلك، وسبب نزول الآية، أن المسلمين كانوا يتحرجون من أكل الطيبات تزهداً، فنزلت[2] ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً﴾ الآية، فبقي ما عدا ذلك على الحل ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ مما حُرِّم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ﴾ أي كثير من الكفار، يُضلّون الناس بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم، المقتبس من الشريعة، بل بمجرد الأهواء والشهوات، يُضلّون غيرهم كما ضلوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فيجازيهم على صنيعهم، والمرادُ بهم هذا الكثير، ووَضع الظاهر موضع ضميرهم، لوصفهم بصفة الاعتداء.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٤٦ ولفظه: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية.

(٢) انظر تفسير ابن الجوزي ٣/١١٢.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي اتركوا المعاصي ما يُعلن منها وما يسرُّ، وما بالجوارح وما بالقلب، روي أن أهل الجاهلية، كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً، وإذا استتر فلا إثم فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ أي يكتسبون الإثم من الظاهر والباطن ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سيلقون جزاء إجرامهم في الآخرة، بقدر ما كانوا يبالغون في إفساد فطرتهم، بالإصرار عليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر الآية في تحريم متروك التسمية، عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب أحمد وقال مالك والشافعي ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم الله عليها، وفرّق أبو حنيفة بين العمد والنسيان قال: إن ترك التسمية عمداً حرم، وإن تركها نسياناً حلَّ لحديث «رُفع عن أمتي الخطأ و النسيان وما استكرهوا عليه»[1] ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ الذين اتبعوهم من المشركين فيما أنهوا إليهم بقولهم: إن محمداً وأصحابه، يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال، وما يقتله الله حرام، يعنون الميتة ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بالوساوس الشيطانية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره، فقد أشرك به تعالى، بل آثره عليه سبحانه، والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك، من باب التغليظ.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٤٠٠ في الحدود، وإسناده حسن.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ هذا تمثيل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون مستنيرون بأنوار الوحي الإلهي، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر، فكيف يُعقل إطاعتهم لهم؟ والهمزةُ للإنكار والنفي، أي أو من كان ﴿ميتاً﴾ أي كافراً ﴿فَأَحْيَيْناهُ﴾ أي فأعطيناه الحياة المعنوية، لأن الإيمان حياةُ القلوب ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ ﴾ مع ذلك ﴿ نُورًا ﴾ عظيماً، يميز به الحقّ والباطل، وهو نور القرآن لقوله تعالى: ﴿يُخرِجهُمْ من الظُّلُمَاتِ إلى النور﴾[1] ﴿ يَمْشِى بِهِۦ ﴾ أي بسببه ﴿ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ أي فيما بينهم آمناً ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي خابطٌ فيها ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ولا يتخلص منها، لأنها قد أحاطت به، ولم يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، قال ابن عباس: إن المراد بالميت الكافر، وبالإحياء: الهدايةُ، وبالنور: القرآنُ، وبالظلمات: الكفرُ والضلالةُ[2]، والآية نزلت في عمر رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياه الله تعالى، وأبي جهل الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كلٌّ من انقاد لأمر الله، ومن بقي على الضلالة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور، أي كما أبقينا هذا الكافر يتخبط في الظلمات كذلك ﴿زُيِّنَ﴾ من جهته تعالى خلقاً، ومن جهة الشيطان وسوسة ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما حكي عنهم من القبايح.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٢) شبه تعالى المؤمن بالحي، الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، فهو يعرف الطريق ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، كما شبَّه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلالة والكفر، لا يعرف المنفذ ولا المخلص، ففي الآية استعارة بديعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما جعلنا في مكة مجرمين ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ ﴾ وجعلنا بمعنى صيَّرنا، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم، أي جعلناهم مزيناً لهم أعمالهم، مصرين على الباطل، مجادلين به الحق، ليمكروا فيها، وهذا تسلية للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ لأن وباله يحيق بهم، اعتراضٌ على سبيل الوعد لرسول الله ﷺ، والوعيد للكفرة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾[1] وهذا بيان من معجزات القرآن الكريم، فأولئك المجرمون الذين يعادون الرسول ﷺ ويمكرون في عصرهم، ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، قد وقع الأمرُ كما أنبأ الله ذو الجلال، ويكون كذلك من يعادون الحق، ويمكرون بأهله.

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ هذا رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة، بعدما بيَّن بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضاً كذلك، أي إذا جاءتهم معجزة أو آية من القرآن، تأمرهم بالإيمان ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوّة حقاً، لكنتُ أحقَّ بها، فإني أكثرُ منه مالاً وولداً، وقال مقاتل: نزلت الآية في أبي جهل حين قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

كفرسَيْ رهان، قالوا: منّا نبيٌّ يُوحى إليه؟ واللهِ لا نرضى به، ولا نتَّبعه أبداً حتى يأتينا وحيٌ كما يأتيه»، وقال الضحاك: سأل كلُّ واحد من القوم أن يختص بالرسالة والوحي، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾[1] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة، فإن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية، يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه، فقد جرت عادة الله تعالى، أن يبعث من كل قوم أشرفهم، وأطهرهم جِبلَّةً ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾استئناف ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشر، بعدما نعى عليهم حرمانهم، مما أمَّلوه من عزّ النبوة، وشرف الرسالة، والسين للتأكيد أي سيصيب هؤلاء، المجرمين، على وجه التحقيق واليقين ﴿صَغَارٌ﴾ أي ذلٌّ وحقارةٌ بعد تكبرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من عند الله يذلُّهم به، ويُهينهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر، وجزاء مكرهم الشرّير.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أي يعرِّفه طريقَ الحقّ، ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له، وينفسِح لقبوله وهو كناية عن جعل النفس قابلةً للحقّ، مهيَّأة لحلوله، مصفَّاةً عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن، فينشرح له،

---

(١) سورة المدثر، آية: ٥٢.

وينفسح، فقالوا: هل لذلك أَمَارةٌ؟ فقال، ﷺ: الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتَّجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل النزول[1] ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي يخلق فيه الضلالة، لسوء اختياره ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ بحيث ينبو عن الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿حَرَجًا﴾ شديد الضيق، وهو مأخوذ من الحرجة، وهي الأشجار الملتفُّ بعضُها على بعض، لا يصل إليها شيء ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّهه مبالغة في ضيق صدره، بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبَّه به على الإيمان يمتنع عنه، كما يمتنع عنه الصعود، وأصل يصَّعَدُ يتصعَّد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجعل ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي العذاب والخذلان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي على الكفرة المجرمين الذين لا يؤمنون بآيات الله.

قال مجاهد: الرجسُ ما لا خير فيه، وقال الزجاج: هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذه الآية الكريمة، معترك أهل الكلام، فالقدرية ينكرون خلق الخَلْق بتقدير سابق من الله تعالى، ويقولون: إن الآية ظاهرة في أن هداية الإنسان يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، وهذا الخلق يحصلُ أُنُفا أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية يقولون إسلام المرء بفعل الله وحده، ليس باختيار العبد وكسبه، والأشعرية يقولون: له فيه كسب، ولكنه بخلق الله جل وعلا، والإنسان مسؤول عن كسبه وفعله، ويقول المعتزلة إيمان المرء وكفرُه بفعله المستقل، ومن نظر في الكتاب الكريم، يتجلّى له الحقُّ، فقد قال تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شيء﴾ وقال ﴿إنَّا كل شيء خلقناه بقَدَر﴾ فإن كل شيء بإرادته ومشيئته، وفيه أن المكلف بفعله وكسبه واختياره، ولا يكون فعله منافياً لخلق الله ومشيئته، ولا مستغنياً عن توفيقه وإمداده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري ١٢/ ١٠٠ وانظر ابن كثير ٢/ ١٨١.

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَٰطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه لعباده، وذكرُ الربوبية، إيذان بأنَّ تقويم ذلك الصراط للتربية، وإفاضة الكمال ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي لاعوج فيه، أو عادلاً مطرداً فاستمسك به ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ بيناها مفصلة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث، خيراً كان أو شراً، فإنما يحدث بقضاء الله وخلقه، وأنه تعالى عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل ويريد، وتخصيصُ القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون.

﴿ ۞ لَهُمْ ﴾ أي للمتذكرين ﴿ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ذخيرةً لهم عنده، لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي مولاهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نصب بإضمار اذكر والضمير لمن يُحشر من الثقلين ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني الشياطين بدليل قوله تعالى: ﴿قَدِ استكثَرتُم مِنَ الإنسِ﴾ والمعشرُ: الجماعةُ من الناس، أمرهم واحد، المعشر، والنَّفرُ، والقومُ، والرهطُ، معناهم الجمع لا واحد لهم، للرجال دون النساء ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أتباعكم أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، فحشروا معكم، كقولهم: استكثر الأمير من الجنود، وهذا

بطريق التوبيخ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن، بأن دلّوهم على الشهوات، وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس، بأن أطاعوهم، وحصّلوا مرادهم، وكانوا وسطاء في الإغواء والتضليل، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان، واتباع الهوى، وإظهار الندامة عليها ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين، للإيذان بأن المضلّين قد أفحموا، فلم يقدروا على الكلام أصلاً ﴿قَالَ﴾ ربنا عزّ وجل ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ومحل إقامتكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين في نار جهنم أبداً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قبل الدخول، وهو ما بين الحشر إلى دخول النارٍ، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً، إلا ما أمهلكم الله، وقيل: هذا الاستثناء معلّق بمشيئة الله تعالى، وفائدته إظهار القدرة، وكانٍ من الجائز العقلي في مشيئته تعالى أن لا يعذبهم، ولو عذّبهم ألاّ يُخَلّدهم، وليس بأمر واجب عليه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم، وبما يليق بهم من الجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضًۢا﴾ آخر منهم، أي نجعلهم بحيث يتولونهم، بالإغواء والإضلالِ وغير ذلك، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، كما ورد في الأثر «كما تكونون يولّ عليكم»[1] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوه من الكفر.

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم» وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: «إني أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة» التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ توبيخ المعشرَيْن بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ من عند الله عز وجل ﴿ مِّنكُمْ ﴾ من جملتكم، لأن الرسل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما للإيذان بتقاربهما واتحادهما، تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، فقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن، وأنذروا به قومهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرآنَ﴾[1] الآية وقال الضحاك: إن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم، كذلك، وادعى البعض قيام الإجماع على أن الله لم يرسل إلى الجن رسولاً منهم كما يدل عليه ظاهر الآيات، كحصر الرسالة في الرجال وجعلها في ذرية نوح، وإبراهيم، وجملة القول أنه ليس في المسألة نص قطعي، فنحن نؤمن بما ورد، ونفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ أي يتلون عليكم آيات ربكم التي بها سعادتكم وفلاحكم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ يوم الحشر، الذي عاينوا فيه أفانين العقاب ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب، كما حكى تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ اعتراض لبيان ما أداهم إلى ارتكاب القبائح، أي اغتروا في الدنيا بالحياة الفانية ﴿وَشَهِدُوا۟﴾ في الآخرة ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ ﴾ في الدنيا ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أمرهم ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ «أنْ» مخففة من «إنَّ» وضمير الشأن اسمها، والمعنى ذلك ثابت لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب أيّ ظلم فعلوه، قبل أن يُنهوا عنه، بإنزال كتاب، وإرسال رسول، لأن الله عادل فلا يعاقب أحداً إلا بعد الإنذار ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي وهم غافلون لم ينبهوا برسول، وإنما علّل بما ذكر لبيان كمال نزاهته سبحانه عن الظلم.

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من المكلّفين من الثقلين، الذين بلغتهم الدعوة ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ أي مراتب متفاوتة ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي من أعمالهم، صالحة كانت أو سيئة، سيجازون عليها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس الله غافلاً ولا ناسياً لأعمال العباد، بل هو رقيب عليهم، مطلع على أقوالهم وأفعالهم، وفيه تهديد ووعيد للإنس والجن، وأنه سبحانه سيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عن العباد والعبادة، المعروف بالغنى عن كل ما سواه، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لإظهار

اللطف به، وتنزيه ساحته عن شمول الوعيد الآتي له ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ أي الموصوف بالرحمة العامة، فيترحَّم على العباد، ويمهلهم على المعاصي إلى ما شاء، وفيه تنبيه على أن الإرسال للرسل، ليس لنفسه، بل رحمةً من الله على العباد ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي ما به إليكم حاجة، إن يشأ يذهبكم أيها العصاةُ، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم﴾ أي وينشىء من بعد إذهابكم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق والعباد، يكونون أَعْبَدَ منكم لله، وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله عز وجل وانتقامه من العصاة المجرمين.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله، والحساب والثواب والعقاب ﴿لَأٓتٖ﴾ لكائن لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه، بتصويره بصورة طالب حثيث، لا يفوته هارب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي ولستم معجزين ربكم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه وإن ركبتم في الهرب، متن كل صعب وذلول.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو أمرٌ له عليه السلام بطريق التلوين، بأن يواجههم بتشديد التهديد، وتكرير الوعيد، ويُظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، وعدم المبالاة بهم، أي قل يا رسول الله ﴿ياقومي﴾ وفي هذا النداء ضرب من الاستمالة لهم، يذكِّرهم بأنهم قوم الرسول، الذين يحرص على خيرهم ومنفعتهم ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاداة، والغرض منه التهديد والتخويف، لا أنه أمر وطلب ﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾ ما كنت عليه من المصابرة، والثبات على الإسلام ﴿فَسَوۡفَ

---

(١) سورة المرسلات، آية: ٧.

﴿تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، أي فسوف تعلمون أيّنا له العاقبة الحسنى، التي خلق الله تعالى لها هذه الدار، وفيه مع الإنذار، إنصافٌ في المقال، وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق ﴿إِنَّهُۥ﴾ أيِّ الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظلم موضع الكفر، إيذاناً بأن امتناع الفلاح، يترتب على أي فردٍ من أفراد الظلم.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ شروعٌ في تقبيح أحوالهم، بحكاية أقوالهم وأفعالهم السخيفة، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم، أي وجعل مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممَّا خلق وأوجد من أنواع المخلوقات ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ يعني الزرع والثمر ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني من نتاج الإبل، والبقر، والغنم، جعلوا لله تعالى أشياء، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه للهِ زاكياً نامياً، أخذوه فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان، جبروه مما جعلوه لله، معتلّين بأن الله تعالى غنيٌّ، وما ذلك إلا لحب آلهتهم، وإيثارهم لها، فما جعلوه لله صرفوه للضِيفانِ والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها، وعلى خدّامها، وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجّحوه عليه تعالى[1] ﴿نَصِيبًا﴾ أي جعلوا لله نصيباً، ولأصنامهم نصيباً،

---

(١) قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله=

ولم يذكر اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمر الله تعالى به، والمراد بالشركاء الأوثان، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيَّنوه لله تعالى، وما عيَّنوه لله يُصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من إيثار مخلوق عاجزٍ عن كل شيء، على خالقٍ قادرٍ على كل شيء، وعملُهم العجيب لا يقبله عقل ولا شرع، ولذا نسب إلى الإساءة.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التزيين في قسمة الحرث والأنعام ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي مشركي العرب ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ فكانوا يئدون البنات الصغار، بأن يدفنوهنَّ أحياء، وكانوا في ذلك فريقين: أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقُوا البنات بالله تعالى، والآخر يقتلهن خشية الإنفاق وكانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحداً منهم ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ من الشياطين أو من السَّدنة، سميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في المعصية، وقتل الأولاد، وقال الكلبي: هم سدنة آلهتهم، لأنهم كانوا يزيّنون قتل الأولاد

= منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمّي لله، ردُّوه إلى الوثن وقالوا: إن الوثن فقير، والله غني، وأخذوا حق الله فجعلوه للأصنام أ هـ، تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٦.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي يهلكوهم بالإغواء، والتزيين الرديء الفاسد، الذي يذهب بما أودع الله في قلوب الوالدين من عواطف الرحمة والرأفة، بل يقلبها إلى منتهى الوحشية، حتى يقتل ريحانة قلبه ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى انحرفوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم فعلهم ذلك ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم الشياطين ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم وما يختلفونه من الإفك والكذب على الله، وهو وعيد وتهديد للمشركين شديد.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي ممنوع منها ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدم الأوثان، من الرجال دون النساء ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك متلبّسين بزعمهم الباطل، من غير حجة ﴿وَأَنْعَامٌ﴾ أي وهذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها اسم الأوثان والأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي على الله سبحانه، وجملةُ القول أنهم قسموا أنعامهم إلى هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله تعالى افتراءً عليه سبحانه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بسببه، وفي إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعنون به أجنة البحائر، والسوائب، كما روي عن مجاهد ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ أي حلال لهم خاصة، إن وُلد حياً، دون الإناث ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ وهن الإناث باعتبار اللفظ ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾ أي وإن ولدت ميتة ﴿فَهُمۡ﴾ أي الذكور والإناث ﴿فِيهِ﴾ أي فيما خرج من بطون الأنعام ﴿شُرَكَآءُۚ﴾ أي يأكلون من الميتة جميعاً ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أي جزاء وصفهم الكذبَ على الله تعالى، في التحليل والتحريم، كقوله تعالى: ﴿وتصف أَلْسِنَتُهم الكَذِبَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ أي حكيم في تدبيره، عليم بخلقه، والحكيم العليم لا يترك جزاءهم، الذي هو من مقتضيات الحكمة، واستدل بالآية، على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور، دون الإناث، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف، لأن ذلك فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية بمثل ذلك في الهبة، وأخرج البخاري عن عائشة قالت: «يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إنْ هذا إلا كما قال الله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾»[1].

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ وهم قبيلة ربيعة، ومضر، وأضرابهم من العرب، الذين كانوا يئدون بناتهم، مخافة السبي والفقر، أيّ خسروا دينهم ودنياهم ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله رازق أولادهم لا هم، ولذا سُمُّوا جاهلية ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما وهذا أيضاً من الجهالة ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهذا أيضاً من الجهالة لأن الجرأة على الله تعالى، والكذب عليه من أعظم الذنوب ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ عن

---

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على عائشة رضي الله عنها.

الطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إليه وأن هدوا بفنون الهداية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرَّك أن تعلم جهلِ العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ قَتَلوا أولادهُم سَفَهاً بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله افتِراءً عَلَى الله قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهتَدِينَ﴾[1].

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ ﴾ أي هو الله الذي خلق بساتين من غير شركة لأحدٍ فيها ﴿مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ المعروشات من الكرم: ما يُحمل على العريش، وهي عيدان تصنع كهيئة السقف يُوضع الكرم عليها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض على حالها، وقيل: إن المعروش ما يحتاج إلى العريش من الكرم، وغير المعروش هو القائم من الشجر، المستغني باستوائه، وقوة ساقه ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أي أنشأهما كذلك ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي ثمره الذي يؤكل، مختلفاً في الهيئة والكيفية ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والشكل ولا يتشابه في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج، وفائدة رخصته في الأكل منه قبل أداء حقه، ولا يتوهم أنه لا يُباح إلا إذا أدرك، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق، لأن رعاية النفس مقدمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2] وفي الخبر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٦/ ٥٥١ فتح الباري.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وهو في رواية ابن عباس العشر، أو نصف العُشر كما ذهب إليه الحسن وقتادة ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ روي عن ابن جريج قال: نزلت في «ثابت بن قيس» قطف خمسمائة نخلة، ففرّق ثمرها كلَّها، ولم يدخل منه إلى منزله شيئاً»[(١)] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي خلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش، أي يُضجع للذبح والأكل، والمراد بها الكبار الصالحة للحمل، والصغار التي تذبح للأكل كأنها فرش ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله منها من الحلال، وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم، ولا تحرموها كما في الجاهلية، وقيل معنى الآية: استحلُّوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ في أمر التحليل والتحريم، تقليد أسلافكم المفترين على الله سبحانه ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويكم من الجنة.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٣٨/١٢ قال: والمختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع، أحلَّ لكم أكلها ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أنشأ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، وهي: ذوات الصوف من الغنم، الواحد ضائن، والأنثى ضائنة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ التيسُ، والعنزُ، جمع ماعز كصاحب وصحب، وهي ذوات الشعر من الغنم وهذه الأربعة تفصيل للفرش، الذي هو معظم ما يتعلق به الحلُّ والحرمة ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من ذينك النوعين وهما: الكبشُ، والتيسُ ﴿حَرَّمَ﴾ الله عزَّ وجلَّ كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وهما النعجة والعنز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾؟ أي أم ما حملت إناث النوعين حَرَم، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء يدل على أنه تعالى حرَّم شيئاً مما ذُكر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ هما الجملُ، والناقةُ ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ هما الثور، والبقرة ﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾؟ كرَّره مبالغة في التوبيخ والتقريع، والمعنى كما قال كثير من العلماء: إنكار أنه تعالى حرَّم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وإنما عقَّب كلَّ واحد مما ذُكر من الأمر والإنكار، لما في التكرير من المبالغة في التبكيت والإلزام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ تكرير للإفحام، أي بل أكنتم شاهدين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ أي حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبي، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك، إلاَّ المشاهدة والسماع، وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي من أظلم ممن نسب إليه تعالى تحريم ما لم يُحرِّم بغير دليل ولا برهان؟ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كائناً من كان، أي لا يوفّقه ولا يرشده إلى طريق الخير والسعادة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿قُل﴾ أمرٌ لرسولِ الله ﷺ، بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، بأن يبيِّن لهم ما حرَّم الله تعالى عليهم، أي قل يا رسول الله ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ في القرآن الذي أوحاه الله إليَّ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يُعلم بالوحي، أي لا أجد بعدما تفحَّصتُ ما أوحى الله إليَّ ﴿مُحَرَّمًا﴾ أي محرَّما من المطاعم التي حرَّموها ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ أيَّ طاعم كان، من ذكرٍ أو أنثى ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ ذلك الطعام ﴿مَيۡتَةً﴾ أي بهيمة ماتت حتف أنفها والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخنقة ونحوها ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ أي دماً سائلاً مصبوباً، وقد رُخّص في دم العروق بعد الذبح ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ أي أو أن يكون لحم خنزير ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي الخنزير ﴿رِجۡسٌ﴾ أي قذرٌ ونَجسٌ، لتعوُّدِ الخنزير أكل النجاسة ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ أي أو أن يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ أي ذُبح على غير اسم الله ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي أصابته الضرورة، الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي غير طالب ما ليس له طلبه، أو غير قاصدِ التلذذ بأكله ﴿وَلَا عَادٖ﴾ أي متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مبالغٌ في المغفرة، والرحمة، ولا يؤاخذه بذلك، والاستثناء منقطع، أي لا أجد ما حرَّموه، لكنْ أجدُ الأربعة المذكورة التي حرَّمها الله، ولا دلالة في الآية على الحصر، وإنما هو ردّ لمزاعم أهل الجاهلية، فيما حرَّموه من تلقاء أنفسهم.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي اليهود خاصة عقوبةً لهم ﴿حَرَّمْنَا﴾ فوق ماذُكر من المحرمات الأربعة ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ لا لحومهما، فإنها باقية على الحل ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ استثناء من الشحوم، أي ما علق بظهورهما والجنب، من داخل بطونهما من الشحم، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي ما حملته الحوايا وهي ما على الأمعاء من المباعر والمصارين ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التحريم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عُوقبوا بتحريم شيء ممَّا أُحلَّ لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدَّعون أنها لم تزل محرمة على الأمم، فردَّ ذلك عليهم بقوله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الضمير لليهود والمشركين، أي فإن كذبَّك اليهود، وأصرُّوا على ادعاء قدم التحريم، وكذلك المشركون فيما نُقل من أحكام

التحليل والتحريم ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي، بل يمهلكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي لا يدفع عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، فلا تغتروا بذلك، فإنه إمهال لا إهمال، وهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم، وإخباره قبل وقوعه، ثم وقوعه حسبما أخبر، برهان ساطع على أنه كلام الله تعالى، لأنه إخبارٌ عن غيب ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مما حرَّمنا، أرادوا به أن مافعلوه مرضيٌّ عند الله تعالى، كما أخبر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[1] فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قل إنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ﴾. ولو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه، لما عابهم، ولكنهم قالوا هذا تكذيباً واستهزاء، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى، ويؤيده قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذَّب هؤلاء، كذَّب أسلافهم المشركون قبلهم كذّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي حتى ذاقوا عذابنا، الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وهو عذاب الاستئصال. وبعد هذا التذكير، أمر الله النبي ﷺ أن يطالب المشركين، بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾؟أي من أمرٍ معلوم، يصحُّ الاحتجاج به على ما زعمتم؟ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي فتظهروه لنا على أتم وجه؟ والاستفهام للتعجيز والتوبيخ، ولذلك عقَّب تعالى عليه، ببيان حقيقة حالهم، فقال ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتَّبعون في ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً[2] ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي

---

(١) الأعراف، آية: ٢٨.

(٢) قال ابن الجوزي ١٤٥/٣: جعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل، فكأنهم =

تكذبون على الله تعالى، وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق، بل فيما يعارضه نصٌّ قطعي.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أنْ لا حجة لكم فقِل ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾ التي بلغت غاية الظهور والإقناع، والمراد بها الكتاب المبين ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها، والحمل عليها، ولكنْ شاء أن يترك للعباد، أمر الاختيار في الإيمان والكفر، ليتمَّ التكليف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنَ ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي أحضروهم للشهادة على صحة ما تزعمون و«هلمَّ» اسم فعل أمر، بمعنى أحضر، وهات، ويستوي فيه الواحدُ، والجمعُ، والمذكَّرُ، والمؤنَّثُ، بمعنى الدعاء إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم، والمقصود من إحضارهم فضيحتهم، وإظهار أن لا متمسَّك لهم، وقوله ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما حرَّموه من الأنعام وهو طلب تعجيز ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ بعدما حضروا بأن الله حرَّم هذا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ، وبيِّن لهم فساده ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي لا تتّبع أهواء الضالين المكذبين لآيات الله، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين الإشراك به سبحانه فإنهم جامعون لها متصفون بها.

= قالوا: لو لم يرضَ اللهُ ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لمَ تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون، فهم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر. أ هـ.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ .

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعدما ظهر له بطلانُ ما ادَّعوا على الأسلوب الحكيم، أي تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم على وجه اليقين، لا بالظن والتخمين ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أقرأ الذي حرمه ربكم عليكم، وفي ذكر الربّ وإضافته إليهم ﴿رَبُّكُم﴾ لاستمالتهم إلى امتثال الأمر، لأنه يربيهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ بدأ سبحانه بأمر الشرك، لأنه أعظم المحرمات، وأكبرالكبائر ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ كاملاً، لا إساءة معه، وإنما ذُكر ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدّه، فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً، والسرُّ في الأمر بالإحسان، المبالغةُ والدلالةُ على أن ترك الإساءة إليهما، غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما، ولهذا لم يقل: ولا تسيئوا إليهما، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أمْلق إملاقاً: افتقر، أي لا تقتلوهم خشية الفقر، لئلا تروهم جياعاً ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي نحن نرزق الفريقين، رزقُكُم ورزقُهم علينا، فلا تخافوا الفقر، وتُقدموا على ما نهيتم عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي المنكرات الكبائر، كالزنى وشرب الخمر ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي ما يُفعل علانية في الحوانيت، كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان، كما هو عادة رؤسائهم وكبرائهم، وتعليق النهي بقربانها، للمبالغة في الزجر، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، فيخرج الحربي ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ كالقصاص، وقتل المرتد، ورجم

المحصن[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذُكِر من التكاليف الخمسة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً، ولمَّا كانت الأمور المنهي عنها، مما تَقتضي بديهة العقل بقبحها، ختمت الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أي تستعملون عقولكم التي تحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا بوجهٍ من الوجوه لمال اليتيم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالفعلة التي هي أحسن الأفعال بماله، كحفظه وتثميره، ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء، والأوصياء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فإنه غاية لما يُفهم من الاستثناء، لا للنهي، كأنه قيل: احفظوه حتى يبلغ، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[2] والأشدُّ جمع لا واحد له، والمراد به بلوغ الحلم ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ أي أتمُّوا ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ أي المكيل ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والتسوية، من غير زيادة ونقصان ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل، للإيذان بأن مراعاة العدل على وجه الدقة، لا يتحقق في كل مكيل وموزون، إلا إذا كان بميزانٍ دقيق كميزان الذهب، وفي التزام ذلك في

---

(١) لما رواه الشيخان عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرىء مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب ـ أي المتزوج ـ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

بيوع الحبوب والفواكه، حرجٌ عظيم، كأنه قيل عليكم بما في وسعكم، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به، وما وراء ذلك معفو عنكم، ويجوزٍ أن يكون المعنى: جميعُ ما كلفناكم به ممكنٌ غير شاق، ونحن لا نكلف ما لا يُطاق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة الواجب ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ذا قرابة منكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[1] فالعدل واجبٌ في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقطبُ رَحَى النظام ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور، أو أيَّ عهد كان، كنذرٍ ونحوه ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون وتتعظون، وتعملون بمقتضاه، وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم، والأعصار، وهنَّ محرمات على بني آدم جميعاً، ولما كانت هذه التكاليف الخمسة في هذه الآية، تحتاج إلى تبصر وتذكر، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة الغراء، وقال ابن عباس ﴿هذا﴾ الإشارة إلى شريعة الإسلام، ويلائمه النهي الآتي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ، ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ والأصل «تَتَفَرَّقُ» أي فتفرّقكم عن سبيل الهدى ودين

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

الإسلام، الذي لا عوج فيه ولا انحراف. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ إلاَّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله، وترك اتباع سائر السبل ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن اتباع سبل الكفروالضلالة، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ختم ذلك بالتقوى، التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية[2]، وكرر سبحانه الوصية، ويا لها من وصية، ما أعظم شأنها!! ولهذا ورد عن ابن مسعود أنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ بخاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوا... تَتَّقونَ﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ شافياً كافياً، والمراد بالكتاب التوراة ﴿تَمَامًا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥ ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠ حيث كانت المحرمات الأوّل واضحة لا يقع فيها عاقلٌ نظَرَ بعقله، جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأُخر شهواتٌ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكّرون﴾ ثم لمَّا كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾!!.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أعطيناه التوراة تماماً للكرامة والنعمة، على من كان محسناً وصالحاً، وهو موسى عليه السلام الذي أحسن العبادة والطاعة لله منّةً عليه منّا، لما سلف منه من حسن العبادة والمجاهدة في سبيل الله ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي بياناً مفصَّلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين من أتباعه من بني إسرائيل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بالبعث والثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون، وعن ابن عباس المعنى: كي يؤمنوا بالبعث، ويصدّقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم، الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقادر قدره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بواسطة الروح الأمين، مشتملاً على فنون الفوائد الدينية والدنيوية ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخيرات والمنافع ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، فإنَّ عظم شأن الكتاب في نفسه، وكونه منزلاً من جنابه عزَّ وجل، موجبٌ لاتّباعه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وتخصيص الإنزال بكتابهما، لأنهما اللذان اشتهرا حينئذ من الكتب السماوية ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي وقد كنا عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي؟ وهذا خطاب لأهل مكة، لقطع عذرهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾

إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ أي لا تعتذروا يا أهل مكة بذلك فقد جاءكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي حجة واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم، وهذا هو الجواب القاطع لكل من اعتذر، فإن القرآن بيّنةٌ عظيمة، مبيّنةٌ للحق، في العقائد، والفضائل، والشرائع، كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يربيكم ويتعهد مصالحكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهداية ورحمة من رب الأرباب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ أي لا أحد أظلم وأفجر ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ممن كذّب بالقرآن، ولم يؤمن بآياته البينات، وعبَّر عما جاءهم ﴿بآيات الله﴾، تهويلاً للأمر، وتنبيهاً على أن تكذيب أي آية من آيات الله، كافية في الكفر، فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل؟ ﴿وَصَدَفَ﴾ أي صرف الناس ﴿عَنْهَا﴾ عن الآيات، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم وضلالهم أيضاً ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب القبيح السيِّىء، الشديد النكاية ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن آيات الله، ويمنعون الناس عن الهداية والإيمان، وذكره بصيغة المضارع ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، أي هم في كفر دائم، وإعراض مستمر.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بالعذاب[1] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ

(١) قال الطبري ١٢/٢٤٥ ﴿أو يأتي ربك﴾ أي يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

﴿رَبِّكَ﴾ أي أشراط الساعة الكبرى، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، والسياقُ الناطق بعدم نفع الإيمان، عند إتيان ما ينتظرونه، يستدعي أن يُحمل ذلك على أمور هائلة، وهو الأنسب لقوله تعالى: ﴿قل انتظروا إنّا منتظرون﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ لما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس، آمن مَنْ عليها، فذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾»[1] وإنما لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت، لأنه ليس بإيمان اختياري، وإنما هو إيمانٌ لخوف الهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ﴾[2] فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة، والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً، لم تقدّم إيمانها، أو قدمته ولم تكسب فيه خيراً، ومن ضرورة اشتراط النفع بتحقيق الأمرين معاً، أن الإيمان وحده لا يكفي في ذلك الحين، وفي ذلك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة، وللمعتزلة جدال في هذه الآية، يستدلون بها أن الإيمان لا ينفع بدون عمل الخير، ويمنع ذلك الآخرون، والتحقيق في المسألة أن الإيمان الصحيح، يستلزم العمل في الجملة، دون الشمول، فيجوز عقلاً أن يترك المؤمن بعض الواجبات، أو يرتكب بعض المحرمات، ولكنه يتوب ويموت قبل أن يتمكن من العمل، وما أظن أنه يوجد عاقل يختلف في نجاة مثل هذا بمجرد الإيمان ﴿قُلِ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد هذه الأمور ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك، وحينئذ نشاهد ما يحلُّ بكم من سوء العاقبة، وفيه تأييد لكون ما ينتظرونه إتيان أمره تعالى بالعذاب، ووعدُ الله للرسول ﷺ والمؤمنين، بمعاينتهم لما يحيق بهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٢٩٧ ومسلم ٢/١٩٤ وأبو داود ٤/١٦٣ وفي رواية أخرى في الصحيح «فإذا طلعت ورآها الناسُ، آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ، ثم قرأ الآية».

(٢) سورة المؤمن، آية: ٨٤.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، أي بدَّدوا دينهم، وفرَّقوه أبعاضاً، فتمسك بكلٍّ بعضٌ منهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً، كل فرقة تعادي الأخرى. أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة»[1] قال الخطابي: في هذا الحديث، دلالةٌ على أن هذه الفرق غير خارجة من الدين، إذ جعلهم من أمته ﷺ، ومجموع الآثار الواردة في تفسير الآية تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضاً، كما قالت أم المؤمنين عائشة (رضي) في الثورة يوم قتل عثمان رضي الله عنه: «إلا إنَّ الله ورسوله، بريئان من الذين فارقوا دينهم، فكانوا شِيَعاً» ﴿وكَانُوا شِيَعاً﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً كل فرقةٍ مختلفة عن الأخرى، تتخذ لها إماماً ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت بريء منهم، وهم منك برءاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم يوم القيامة كيف يشاء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وقيل: المفرّقون هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة[2] ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يوم القيامة

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنة رقم ٤٥٩٧ والترمذي في الإيمان رقم ٢٦٤١ ولفظ الترمذي: «إن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٠٤: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه =

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا بعد تعذيبهم بأيديهم، بما مضت سنته عز وجل في الاجتماع البشري، من ضعف المتفرقين، وتسلُّط الأقوياء عليهم، فيذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من الحروب والشرور، ثم ينبئهم عند الحساب، عاقبة ما ارتكبوه من تفرق وتمزُّق، أنهم كانوا جاهلين بما ارتكبوه.

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ المراد من الحسنة ههنا: الإيمانُ، والأعمال الصالحة، أي من جاء بالأعمال الحسنة من المؤمنين ﴿ فَلَهُ عَشْرُ ﴾ حسنات ﴿ أَمْثَالِهَا ﴾ فضلاً من الله تعالى، وهذا أقل ما وعد تعالى من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وبسبعمائة، وبغير حساب ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالأعمال السيئة، كالكفر، والعصيان ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب، أو زيادة العقاب، وأمَّا إيجاب كفر ساعة بعقاب الأبد، فلأنَّ الكافر على عزم وتصميم أنه لو عاش أبداً، لبقي على ذلك الاعتقاد أبداً، فيعامل بنيته.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ﴾ أي قل يا محمد لأولئك الضالين إن ربي أرشدني بالوحي، وبما نصب في الآفاق والأنفس، من الآيات التكوينية ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق قويم، موصل إلى الحق، وهو دين الإسلام ﴿ دِينًا ﴾

= واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم.

أي هداني ديناً ﴿قِيَمًا﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه، مصدرٌ نُعت به مبالغة، وهو أبلغ من القائم قال الزجاج: وهو مصدر كالصِّغر، والكِبَر، وكان الأصل أن يأتي بالواو «قِوَماً» كما قالوا: عِوَض، ولكنه شذَّ عن القياس، يعني: ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ أي دين الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما كان منهم في أمر من الأمور أصلاً، لأن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم، في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم، لأنه عليه السلام كان على دين التوحيد، وفيه ردٌّ على الذين يدعون أنهم على ملته، من أهل مكة القائلين: الملائكةُ بنات الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: عيسى ابن الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ أي عبادتي كلها ﴿وَنُسُكِى﴾ أي ذبحي وقرباني ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي حياتي وموتي، وما أقدِّمه في هذه الحياة من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالصة لوجهه عز وجل.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي لا أشرك فيها غيره ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده، والإخلاص في العمل ﴿أُمِرْتُ﴾ لا بشيء غيره ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته أي وأنا أول من خضع وأذعن، وانقاد إلى امتثال ما أمر الله تعالى به.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؟ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ﴾ أي والحال أنه خالق مالك كل شيء، وكلُّ ما سواه مربوب له

تعالى، فكيف يُتصور أن يكون شريكا له في الربوبية؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فردَّ عليهم بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولٌ عليها، لا على غيرها، وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيداً لما قبله، أي لا تحمل حاملةٌ حِمْلَ أخرى من الذنوب والآثام، وفي الحديث «مَنْ سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ أي من بعد ممات من سنّها ـ من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئةً، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ولا تعارض بين الآية والحديث، فكلٌّ من هذا وذاك، من عمل الهادين والمضلين، لأنهم الذين دعوهم إلى الهدى أو الضلال ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكل، لتأكيد الوعد، وتشديد الوعيد، أي رجوعكم أيها الناس إلى مالك أمركم يوم القيامة، وهو الله رب العالمين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، ببيان الرشد من الغي، وتمييز الحق من الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ أي الله الذي جعلكم ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى قرنٌ جاء قرنٌ، تتصرفون فيها كما يتصرف المالك بملكه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الفضل، والغنى، والرزق، وغير

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ وهو طرفٌ من حديث طويل في القوم العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين وقد اشتد بهم الفقر، وأنظر تمام الحديث في جامع الأصول ٦/ ٤٥٧.

ذلك ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم، لينظر ماذا تعملون؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ، مع إضافة اسم الرب إليه، لإبراز مزيد اللطف به ﷺ ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي عقابه الأخروي سريع الإتيان، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله، لأن كل آتٍ قريب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ لمن رعاها حقَّ رعايتها، وأطاع الله في هذه الحياة، ويجوز أن يُراد بالعقاب عقاب الدنيا، كالذي يَعْقب المجرم من البعد عن الفطرة، وقساوة القلب، وغشاوة الأبصار، وصمم الأسماع ونحوِ ذلك، وفي الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات، لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء، مبالغ في ذلك.

وما ألطف افتتاح هذه السورة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما، إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام. وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الإنعام، والحمد لله الملك العلام، وصلى الله على رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام!.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

* * *

سُورَةُ الأَعْرَافِ

مكية وهي مائتان وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[1] وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن المعنى: أنا الله أعلمُ، وأفصِلُ.

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب، والمراد به القرآن العظيم، الحائز للكمالات المختصة به ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من جهته تعالى ربِّ العزة والجلال، وهي صفة مشرِّفة لقدره ﷺ وقدر ما أنزل إليه، بُني الفعلُ للمجهول جرياً على سنن الكبرياء، إيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل، لغاية ظهور تعينه ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي لا يكن فيك ضيق صدر

---

(١) تقدم في أول سورة البقرة، أن الحكمة من ابتداء بعض السور، بالحروف الهجائية المقطَّعة، هو بيان «إعجاز القرآن» وأنه منظوم ومركّب من أمثال هذه الحروف المقطَّعة، ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله، وهو ما اختاره المحققون من المفسرين.

من تبليغه، مخافة أن يكذبوك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ تعليل للإنزال أي لتنذر به جميع الثقلين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكرى اسم بمعنى التذكير، أي ولتذكّر به المؤمنين تذكيراً، وتخصيص التذكير بالمؤمنين، لأنهم هم المنتفعون به، وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين، أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي أنزله إليكم ربكم، ففيه الهدى والشفاء والبيان، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، مزيدُ لطفٍ بهم، وترغيبٍ لهم في الامتثال بما أُمروا به ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله، كالأوثان والرهبان والكُهّان، تقبلون منهم ما يلقونه إليكم، ليضلّوكم عن الحق، ويحملوكم على البدع والأهواء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً حيث لا تتأثرون بذلك فتتركون دين الله، وتتبعون غيره.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ذكّرهم تعالى بما نزل بمن قبلهم من العذاب، بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى، والمراد بقوله: ﴿أهلكناها﴾ إرادة إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلاَةِ﴾ أي أردتم القيام إلى الصلاة، وهنا يراد أردنا إهلاكها ﴿فَجَآءَهَا﴾ أي فجاء أهلها وقيل: المراد إهلاك نفس القرية مع أهلها، بهدم أو خسف ﴿بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال، أي بائتين، والبياتُ: الإغارة على العدوّ ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار،

وإن لم يكن مع ذلك النوم، قال تعالى: ﴿وأحسن مقيلاً﴾ في حق الجنة، والواقعُ أنه لا نوم فيها، فحاصل المعنى: أتاهم عذابنا تارةً ليلاً، كعذاب قوم لوط، وتارة وقت القيلولة، كعذاب قوم شعيب، وتخصيصُ الحالتين بالعذاب، لما أن نزول المكروه عند الغفلة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع، فلا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي، ولا يَغْتَرَّ بالأيام الخوالي، وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر، لأن القيلولة أظهر في إرادة الدَّعَةِ، وخفض العيش، فإنها من دأب المترفين، دون من اعتاد الكدح والتعب في النهار.

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم كقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ ﴾ عذابنا وعاينوا أماراته ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم، تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، وهيهات!!.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسألَنَّهُمْ أَجْمَعِين عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[1] أي فلنسألنَّ الأمم قاطبة، قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟ فإن قلت: قد أخبر الله عنهم في الآية الأولى، بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم، فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب أن هذا السؤال للتوبيخ والتقريع، والمنفي في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ سؤال الاستعلام، فإن الله عالم بما صنعوا لا يحتاج إلى سؤالهم، ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي نسأل الرسل الكرام ماذا أجيبوا؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[2] لأن الكفار يقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ والمراد من هذا السؤال: توبيخ الكفرة، وتقريعهم أيضاً، والحاصل أن المكلَّفين يسألون عن أمور أُخر،

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

والمواقفُ يوم القيامة شتَّى، ويسأل ربُّ العزة والجلال عباده فيها عن أمور عديدة، فطوبى لمن أخذ بعضده السعد، فأجاب بما ينجيه!!.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾ أي على الرسل حين يقولون: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّك أَنْتَ عَلاَّم الغُيُوبِ﴾ أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعاً ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، والمراد الإحاطة بأقوالهم وأفعالهم، لا يشذُّ منها شيء عن علمه سبحانه.

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْوَزْنُ ﴾ أي وزن الأعمال، والتمييز بين الراجح منها والخفيف، والجيد والرديء ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم السؤال والحساب ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الوزن الحقُّ للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل، واختلف في كيفية الوزن، والجمهورُ على أن صحائف الأعمال تُوزَنُ بميزان له لسانٌ وكفتان، ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للعدل، وقطعاً للمعذرة، ويؤيده ما روي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلصُ رجلاً من أمتي، على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سِجِلاًّ، كلُّ سِجِلّ مثلُ مدّ البصر، فيقول سبحانه: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول سبحانه: أفلك عذرٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا رب، فيقول جلَّ شأنه: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليكَ اليوم، فتخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فيقول: احضُر وزنك!! فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة، مع هذه السِجِلاَّت؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السِجِلاَّتُ في كِفة، والبطاقةُ في كفة، فطاشت السِجلاَّتُ، وثقلت البطاقةُ، ولا يثقل

مع اسم الله تعالى شيء»[1] وشأن الميزان أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، فالنطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة، فتوضع كسائر الحسنات، وأيد ذلك بقوله: «إنّ لك عندنا حسنة» دون أن يقول إيماناً، وقيل الوزن: عبارة عن القضاء والحكم العادل، وإليه ذهب المعتزلة، قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، والحال أن البشر قد اخترعوا موازين الأعراض، كالحر، والبرد، ونحوهما، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع ميزان للأعمال؟ والأصل فيه أن كل ما ثبت من الأخبار، في الكتاب والسنة، فهو حقٌّ نؤمن به، ولا نحكم في صفاته وكيفياته ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن، والموازين جمعُ موزون، وهو العمل الذي له وزن عند الله سبحانه، والمراد به الحسنات، أي فمن رجحت موازينه التي تُوزن بها حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من العذاب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين أعماله القبيحة السيئة، بسبب الكفر واجتراح المنكرات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ أي ضيَّعوا الفطرة السليمة، فخسروا سعادتهم وحياتهم بالهلاك والخلود في النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي جزاء على ظلمهم وتكذيبهم لآيات الرحمن، واستدل بهذه الآية على أن عذاب الكفار متفاوت، ولا يُعقل أن يكون عذاب أبي جهل، كعذاب أبي طالب، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان رقم ٢٦٤١ ورواه أيضاً ابن ماجه، والحاكم وصحّحه.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمّا أمر الله سبحانه أهل مكة، باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، ذكّرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر، ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي، فقال: ﴿وَلَقَد مَكَّنَّاكُم﴾ أي جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على التصرف فيها، من سكناها وزرعها وغير ذلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون، من المطاعم والمشارب ونحوها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجسيمة، وفيه تحذير لهم من كفران النعمة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم، سارية إلى ذريته، موجبة لشكرهم كافة ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم «آدم» طيناً غير مصوَّر، ثم صوَّرناه، وإنما نُسب الخلقُ والتصويرُ إلى المخاطبين، توفيةً لمقام الامتنان، وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه، ومصنوع على شاكلته ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، تكريماً له ولذريته، فامتثلوا الأمر، وسجدوا إلا إبليس اللعين، فقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وهذا صريح في أن الأمر ورد بعد خلقه عليه السلام وهو المراد بما حُكي في سائر السور، وكلمة «ثُمَّ» تقتضي التراخي عن التصوير، والمعنى: أنّا ابتدأنا خلق آدم من تراب، ثم صوَّرناه، ثم بعد الفراغ قلنا... الخ.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: أيَّ شيءٍ منعك من السجود، و﴿لا﴾ زائدة، بدليل قوله تعالى: في سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ومثلها ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[1] أي ليعلم، وفائدةُ الزيادةِ التأكيد، وأنها منبهة على أن الموبَّخ عليه تركُ السجود، فإن قلت: لم سأله وهو أعلم به؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وحسده لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي حين أمرتك بالسجود له، وفيه دليل على أن هناك أمراً خاصاً لإبليس بالسجود لآدم، وإن لم يكن من الملائكة، وقد جاء في سورة الحِجر: ﴿مَالَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؟ واختلاف العبارات عند الحكاية، يدلُّ على أن اللعين قد أدمج في معصيةٍ واحدة، ثلاثَ معاصٍ: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، و الاستكبار، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحد منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن، على ما ذُكر فيه، اكتفاءً بما ذُكر في موطنٍ آخر ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا في الحقيقة ليس بجواب، بل هو جواب من حيث المعنى[2] استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أنّي خيرٌ منه، ولا يحسُن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سنَّ التكبر، وأخطأ في القياس، حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو تعليل لما ادعاه ـ عليه اللعنة ـ من فضله على آدم، وحاصله إني أشرف منه، لأنك خلقتني من نار، وهي جوهر نوراني، وخلقته من طين، وهو ظلماني، وقد غَلِط في ذلك، بأن رأى الفضل كلَّه باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار السرِّ الإلهي المودع فيه، كما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فيه مِنْ روحِي﴾ وبالعلم الذي وهبه له، ولذلك أمر

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٤١: وجواب إبليس اللعين ليس عما سُئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي عليه، إذْ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين!!.

الملائكة بالسجود له، فهو أعلم منهم، وله خواص ليست لغيره، وقد أخطأ إبليس أيضاً في قوله: النار أفضل، بل الطين أفضل، لرزانته ووقاره، ومنه الحلم والحياء والصبر، وفي النار الطَّيْشُ والحدةُ والترفعُ، وذلك الذي دعاه إلى الاستكبار، والترابُ عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والتراب منه الأمانة والإنماء، والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب يطفىء النار، والنار لا تطفئه، وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى نزل بفاسد من المقاييس، قال جعفر الصادق: «أولُ من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه»!!.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ من الجنة التي هي في السماء، التي يسكنها المؤمنون يوم القيامة، وقيل: إنها روضة بعدن، وكانت على نَشَز من الأرض[1]، وبعد العصيان حُجب اللعين من السماء، التي هي مقره ومعبده ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ أي فما يصح ولا يستقيم لك ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ تعليل للأمر بالهبوط، وفيه تنبيه على أن التكبر، لا يليق بأهل الجنة، وأنه تعالى طرده لتكبره، لا لمجرد عصيانه، ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج، في مقابلة قوله: ﴿أنا خير منه﴾ والمراد بالتكبر التكبر على الله، وهو أعظم التكبر ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي ممن أهانه الله لِكِبْرِه، والصَّغَارُ بالفتح: الذلُّ أي إنك من الأذلاء، يذمُّك كلُّ إنسان،

(١) القول الأول أنها الجنة التي في السماء هو الصحيح، لأن الله تعالى ذكر في سورة «طه» وصفاً لا ينطبق إلا على جنة الخلد التي في السماء، وهو قوله سبحانه: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وانظر المسألة مفصلة في كتابنا النبوة والأنبياء ص ١٧٠.

ويلعنك كلُّ لسان. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من تواضع لله تعالى رفعه الله، ومن تكبَّر وضَعَه الله»[1].

﴿قَالَ﴾ أي قال اللعين بعدما سمع هذا الطرد ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي آدم وذريته، وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحة من إغوائهم، ويأخذ منهم ثأره لاستحالته بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي إنك من جملة الذين أخرتُ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه الحكمة، وظاهره إلى يوم يبعثون، حيث وقع في مقابلة كلامه، لكن في سورة الحِجر، وصَّ التقييدُ بيوم الوقت المعلوم، والمشهور أنه يوم النفخة الأولى[2]، دون يوم البعث، لأنه ليس بيوم موت، وفي إنظاره ابتلاءٌ للعباد، وحكمُه حكم ما خلق الله تعالى في الدنيا، من صنوف الزخارف، وأنواع الملاهي والملاذ، وما رُكِّب في الأنفس من الشهوات، ليمتحن بها عباده.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباء للقسم كما في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والإغواء خلق الغيِّ، وأصل الغي الفسادُ، وجاء بمعنى الجهل كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وبمعنى الخيبة، ومنه

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٧٥ ﴿قال أنظرني﴾ أي أمهلني وأخرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي إلى يوم البعث، فأراد أن يعبر قنطرة الموت، وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، وقد بيَّن إمهاله في سورة الحِجر بقوله سبحانه: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ولا مانع عند أهل السنة، أن يُراد بالإغواء خلق الغيِّ بمعنى الضلال، أي بما أضللتني، وهو المروي عن ابن عباس لعموم قوله سبحانه: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ترصداً بهم، كما يقعد القُطَّاع لقطع الطريق على الناس ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي طريق الإسلام الموصل إلى الجنة، فالقعود مجازٌ عن الإغواء، والآية تدل على أن إبليس كان عالماً بالدين الحق، ولذا قيل: كُفْرُ إبليس كفر عناد، لا كفر جهل، وفي الحديث الشريف إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: «أتُسلمُ وتَذَرُ دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تُقاتِل فَتُقْتَل فتنكح المرأة، ويُقسم المالُ؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة»(1).

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من الجهات الأربع، التي يعتاد هجوم العدوّ منها، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي مطيعين، وإنما قال ذلك ظناً منه، لقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ صَدَّقَ عَليهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ﴾ لمَّا رأى مبدأ الشهوة متعدداً، شهوة النساء، والمال، والجاه، والتسلط كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهوَاتِ﴾ وأنها تدعو النفس إلى عالم الجسم، وليس هناك ما يدعو إلى عالم الروح إلاّ قوة واحدة، وهي العقل، وما يصنع واحدٌ مع متعدد؟.

> ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(1) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٨٣ من حديث سَبْرة بن فاكه مرفوعاً، وأخرجه النسائي ٦/ ٢٢ في الجهاد، قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن، وصححه ابن حبان.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَذْءُومًا﴾ أي مذموماً كما روي عن ابن زيد، أو مهاناً لعيناً كما روي عن ابن عباس يقال: ذأمه: إذا عابه وحقَّره فهو مذؤوم[1] ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً، دَحَره طرده وأبعده ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام موطئة للقسم، وجوابُه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومعنى ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم على تغليب المخاطب، وهذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع، والضلالات، يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس، ثمَّ الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة، كانت منه عز وجل من غير واسطة، وليس المقصود بها الإكرام، بل التعذيب والتعنيف.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة، وكلا من ثمارها وخيراتها من أي مكان شئتما، ولا تقربا شجرة معينة، فتصبحا خاسرَيْن، نادمينْ بظلمكما لأنفسكما.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَٰنُ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات، التي يقبح كشفها، وأراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتهما، ولذلك عبَّر عنها بالسوأة، وفيه دليل على أن كشف العورة من غير حاجة، قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

---

(١) قال ابن قتيبة: المذؤوم: المذموم بأبلغ الذم، والمدحورُ: المقصيُّ المبعد من رحمة الله، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣/١٧٨.

﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾ ما غُطّي وستر عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي إلاّ كراهة أن تكونا ملكَيْن ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون ويخلدون في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما، وصيغةُ المفاعلة للمبالغة، لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه، وقيل: المفاعلةُ على بابها والقسَمُ وقع من الجانبين، قالا له: أتقسم بالله تعالى لنا أنك لمن الناصحين؟ فأقسم لهما، فجعل ذلك مقاسمة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي فخدعهما وأطمعهما ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به من القسَم، فإنهما ظنّا أن أحداً لا يقسم بالله كاذباً، ويمكن أن يقال: إن اللعين لما وسوس لهما فلم يقبلا منه، عدل إلى اليمين فلم يصدقاه أيضاً، فعدل إلى شيء آخر فدلاهما بغرور، وهو أنه شغلهما بنيل اللذات حتى صارا مستغرقين فنسيا النهي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(١) ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها، أخذتهما العقوبة، وشؤم المعصية، فظهرت لهما عوراتهما، وأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا، وكان لباسهما من ثياب الجنة. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ طفق من أفعال الشروع، كأخذ، وجعل، أي أخذا يضمّان ورقة

---

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

على ورقة، ويلصقانها على أجسامهما، والخصفُ: ضمُّ الورق بعضه إلى بعض، أشبه بالخَرْز للنعل ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي على سوأتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ذلك من ورق التين أو الموز ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أحذّركما من الأكل من تلك الشجرة ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة، وهذا عتاب على الاغترار بقول العدو اللعين.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أي أضررنا بها بالمعصية، والإخراج من الجنة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بالرضا علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ممن خسروا أنفسهم وسعادتهم.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض، بعضكم عدو لبعض، ولكم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى حين انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي تحيون في الأرض، مدة العمر المقدر لكل منكم، نظيره قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ خطاب لكافة الناس، أي يا أبناء آدم ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقنا لكم ذلك، بأسباب نازلة من السماء، كالمطر الذي ينبت به القطن، الذي يُجعل لباساً، وجميع بركات الأرض، تُنسب إلى السماء، والإنزال بمعنى الخلق كما قال الله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فيه بَأْسٌ شديدٌ﴾ أي خلقنا الحديد، وفي التعبير بالإنزال تعظيم للنعمة، كما تقول: رفعتُ حاجتي إلى فلان ﴿ يُوَٰرِي ﴾ أي يستر ويُخفي ﴿ سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ أي عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها، وقد كان العرب يطوفون بالبيت عرياناً، كما تلاعب فيهم الشيطان، فأغواهم بخلع الملابس، كما أغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقيب ذكر ظهور السوءات، إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة، من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر بابٌ عظيم من أبواب التقوى ﴿ وَرِيشًا ﴾ لباس الزينة[1]، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري عوراتكم، ولباساً يزينكم ويجمّلكم في المساجد والمجالس، وتفسير الريش بالزينة مرويٌّ عن ابن زيد ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي خشية الله والورع، خير ما يلبسه الإنسان[2] ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي لباس التقوى خير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إنزال اللباس ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدَّالة على فضله، وعميم رحمته على عباده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته ويشكرونها، ويتورعون من العصيان والقبائح.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢١٦: يمتن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباسُ ستر العوراتُ وهي السوءات، والرياشُ والريش ما يُتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من الزيادات والكماليات. اهـ.

(٢) في الآية الكريمة استعارة لطيفة فقد شبّه تعالى الإيمان والورع والخشية باللباس الذي يستر الجسم والعورة، ويخفي القبائح، ويزيّن الإنسان ويجمّله، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ كما أن الريش في قوله تعالى: ﴿يواري سوآتكم وريشاً﴾ مستعار من ريش الطير، لأنه زينته ولباسه.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير من أقوى الأساليب في التأثير ﴿ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي لا تغفلوا عن وسوسة الشيطان لكم، والنهي وإن كان متوجهاً إلى الشيطان، لكنه في الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما في قولك لا أرينك ههنا ﴿ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر منهما العورات، وسميت العورة سوأة، لأن العاقل يسوؤه كشفها ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ القبيل جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة، التي يقابل بعضهم بعضاً، أي إن الشيطان يراكم هو وجنوده وأتباعه ﴿ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾ أي من حيث لا ترونهم أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره، ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم، لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم، قال ذو النون: إن كان الشيطان يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله البصير الستار، ويشهد لما قلنا ما صح لرؤيته ﷺ للشيطان، ولبعض الجن ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المقارنة في الشر، أولياء، أي أعواناً وقرناء مسلّطين عليهم، بسبب الكفر والضلال.

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ أي وإذا فعل المشركون عملاً قبيحاً كالطواف حول البيت عراةً[1]، وهو المراد بالفاحشة ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء عليه سبحانه، وقد كانت شبهتهم الشيطانية، هي أنهم يقولون: لا نطوف ببيت الله في لباس عصينا فيها الله، ونطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي لا يأمر بالقبيح، وعادتُه تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال، وهذا تكذيب لهم على ذلك الافتراء ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ الهمزةُ للإنكار والتوبيخ، أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح، من غير علمٍ ولا دراية؟.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، أمر ربي بالعدل في الأمور كلها ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته تعالى، مستقيمين غير عادلين عن شرعه ودينه ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ في كل وقت سجود ﴿ وَٱدْعُوهُ ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي الطاعة، فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ كما أنشأكم من الأرض تعودون إليها، بقدرته ابتداءً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم، وإنما شبَّه الإعادة بالإبداء، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، والآية كقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الخبر «تبعث كل نفس على ما ماتت عليه».

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ بأن وفَّقهم للإيمان ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ وهم الكافرون ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي حقت عليهم الضلالة،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه قال: كانت العرب تطوف حول البيت عراة، وكانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... فما بدا منه فلا أحلُّه

فأمر الرسول ﷺ ألاَّ يطوف بالبيت عريان. وانظر جامع الأصول ١٣٩/٤.

لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، ومعنى ﴿حق﴾ أي ثبت بأسبابها الكسبية، لا أنها جعلت غريزة لهم، وهذا دليل على أن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتولِّيهم الشياطين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على هدى ورشاد.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ أي ثيابكم لمواراة عوراتكم، والزينة: ما يزين الشيء، والمراد هنا الثياب الحسنة المعتادة، بدليل الإضافة، وأقل هذه الزينة ما يستر عورته، وما زاد على ذلك من التجمل عند الصلاة، ولا سيما في صلاة الجمعة والعيدين سنة لا واجب، ولكنَّ إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة بحسب عرف الناس ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مما طاب لكم، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم اللحم والدسم، يعظّمون بذلك حجَّهم، فهمَّ المسلمون أن يفعلوا مثله، فنزلت الآية ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بتحريم الحلال، وبالإفراط في الطعام، قال ابن واقد: جمع الله تعالى الطبَّ في نصف آية، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرضى فعلهم، ولا يحب طريقتهم، وهذا وعيد شديد لمن أسرف.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

﴿ٱلرِّزۡقِۚ﴾ المستلذات من المآكل، والمشارب، والملابس، وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والمشارب، والملابس الإباحة، لأن الاستفهام إنكاري، وفي الحديث: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه»(١) ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالأصالة، و الكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع، وفي الآية إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الدنيا و﴿خَالِصَةٗ﴾ للمؤمنين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والبيان نفصِّل الأحكام، ونبيِّن ونوضِّح الآيات التشريعية ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة، وسنن الاجتماع، وطبائع البشر، وهذا التفصيل من الآيات العلمية، شاهدة على نبوته ﷺ لأنه خلاصة علوم كثيرة، فاصلة بين النافع والضار لا يعلمه ﷺ وإنما هي وحي من الله تعالى له.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أي ما تزايد قبحه من الذنوب ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي جهرها وسرها وعن ابن عباس ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزنا علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا سراً ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ أي ما يوجب الإثم، وهو تعميم بعد تخصيص، ويراد به جميع المعاصي، وقيل: إن الإثم هو شرب الخمر، كما نُقل عن ابن عباس، والحسن، وذكره أهل اللغة وأنشدوا قول الشاعر:

نَهَانَا رَسُولُ الله أنْ نقرَبَ الزِّنَا
وأنْ نَشربَ الإثمَ الَّذي يُوجِبُ الوِزْرَا

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب رقم ٢٨٢٠ بلفظ «إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده» وقال ﷺ للأحوص: «إذا آتاك الله مالاً، فليُر أثرُ نعمة الله عليك وكرامته» أخرجه النسائي في الزينة، وانظر جامع الأصول ١٠/٦٥٨.

وقال الآخر: شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي ﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ أي الظلم والاستطالة على الناس، أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة توضيح وبيان، لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة وبرهاناً، وفيه تهكم بالمشركين، وتحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه، كقولهم: ﴿والله أَمَرَنَا بِهَا﴾ وهو أعظم أصول المحرمات، بل هو أصل الأديان الباطلة، فما من أمة ارتكبت هذا إلاّ سلبها الله سعادتها، فإنَّ الكذب على الله أساسُ الكفر والضلال.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكة ﴿أَجَلٌ﴾ أي وقت معيَّنٌ لنزول العذاب بهم، وفيه وعيد لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكها المقدَّر، والمراد من مجيء الأجل قربُه، أي إذا حان وقرب ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ منه ﴿سَاعَةً﴾ برهة من الزمان، فإنها مَثَلٌ في غاية القلة، وليس المراد بها الساعة في مصطلح الناس ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يتقدمون عليه، وهو عطف على يستأخرون للمبالغة في انتفاء التأخر، بنظمه في سلك المستحيل عقلاً، وأجل الأمة على نوعين: **أحدهما**: أجل من يبعثه الله فيهم. من الرسل لهدايتهم، فيردُّون دعوتهم، كِبراً وعناداً، فيكذِّبون فيهلكون، وبهذا هلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل، وانتهى ببعثة صاحب الرسالة العامة ﷺ. **والنوع الثاني**: الأجل المقدَّر لحياة الأمم، سعيدة، وعزيزة بالاستقلال،

والرفاه، التي تنتهي بالشقاء والمهانة، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمراني، وأسبابُه محصورة في مخالفة هدى الآيات، بالإسراف باقتراف الفواحش والآثام، والبغي على الناس، فما من أمة من أمم الأرض، ارتكبت هذه الضلالات وكثرت فيها المنكرات، إلا أهلكها الله[١].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى كافة الناس، اهتماماً بشأن البشر ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي إن جاءكم رسل كائنون من جنسكم، لأنهم إذا كانوا من جنسهم، كان أقطع لعذرهم، لأنهم يعرفونه وأحواله ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي يبيّنون ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم الشرك والتكذيب، وأصلح عمله، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة التي تَقُصُّ وتُبيِّن أحوال الأمم، وأمور الدين ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ ولم يقبلوها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لتكذيبهم، وإدخال الفاء في خبر ﴿من اتقى﴾ ولم يدخل في خبر ﴿الذين كذبوا﴾ للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي لا أحد أظلم ممن

---

(١) يدل على هذا قول الرسول ﷺ لأم المؤمنين زينب رضي الله عنها حين سألت الرسول فقالت: «يا رسول الله: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخَبَثُ» أي إذا كثر الفسوق والفجور، رواه البخاري.

تقوَّل على الله ما لم يقله، أو كذَّب ما قاله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أي يصيبهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مما كُتِب لهم وقُدّر من الأرزاق، والآجال، مع ظلمهم وافترائهم، لا يُحرمون ما قُدّر لهم من ذلك إلى انقضاء أجلهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه، والمراد بهم هنا ملائكة العذاب ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي لقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الرسل لهم توبيخاً وتهكماً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتستعينون بها في المهمات؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي غابوا عنّا، لا ندري أين مكانهم؟ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ أي عابدين لما لا يستحق العبادة، حيث اتضح لهم حاله وضلاله، وما ذُكر إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخسران، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأن الطوائف مختلفة والمواقف عديدة، والأحوال شتى.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني كفار الجن والإنس، قدم الجن لمزيد شرهم ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ وفيه إشعار بأنهم يدخلون النار فوجاً فوجاً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاقتداء بها، فيلعن الأتباع القادة، يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد

فلعنكم الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ غاية لما قبله أي يدخلون فوجاً فوجاً لاعناً بعضهم بعضاً، إلى انتهاء تلاحقهم، باجتماعهم في النار، والإدراكُ: اللحاق ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ منزلة وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي لأجلهم، إذ الخطابُ مع الله تعالى لا معهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ أي دَعَوْنا إلى الضلال فاقتدينا بهم ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ أي مضاعفاً كما روي عن مجاهد ﴿مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي من نار جهنم، لأنهم سبب ضلالنا ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أمّا القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأمّا الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الآخر، فلذا طلبتم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم:

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في الضلال، وفي استحقاق العذاب الأليم، عَنَوْا بالفضل تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم وكفركم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذا نوع آخر من جزاء المكذبين ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ عن الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم، ولا تعرج إليها أرواحهم، كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم لتتصل بالملائكة وفي الحديث الشريف: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة، التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروحٍ ورَيْحان، وربٍ غير غضبان، يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى

السماء السابعة»[1] الحديث. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ هو البعير زوج الناقة، والعرب تضرب به المثل، في عظم الخلقة، كقول الشاعر: لقد عظم البعيرُ بغير لُبِّ ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرم وهو البعير، فيما هو مثل في ضيق المسلك، وهو ثقب الإبرة، وذلك مستحيل لا يكون أبداً، فكذلك ما توقف عليه[2]، وقد كثر مثل هذا في كلامهم، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغُرابُ، وحتى يَبْيَضَّ القَارُ، ومرادهم لا أفعل كذا أبداً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أهل العصيان والإجرام.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش ومسكن ومضجع من نار جهنم، وتنوينُه للتفخيم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أغطية وهي اللُّحُف، والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[3] والمراد أنَّ النار محيطة بهم من جميع الجوانب، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «هي طبقاتٌ من فوقه، وطبقاتٌ من تحته..»[4] الحديث ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى، للتنبيه على أنهم بتكذيبهم الآيات، واستكبارهم عنها، جمعوا صفتين: الإجرام، والظلم، ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم، ما في إعداد المهاد، والغواش لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة ما فيه!!.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٦٤ ورواه النسائي، والبيهقي، والحاكم وصحَّحه، وانظر تمامه في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٢.

(٢) هذا تمثيل بالغ الروعة في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، أي إنهم لا يدخلون الجنة، إلا إذا أمكن دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على ضيقه وصغره.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٦.

(٤) أخرجه ابن مردويه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بآياتنا ولم يكذّبوا بها ﴿ وَعَمِلُوا ﴾ الأعمال ﴿ الصَّلِحَتِ ﴾ على الوجه الذي دعتهم إليه الرسل، وهذا بِمقابلة الاستكبار عنها ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي ما تقدر عليه بسهولة ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴾ وهذا على عادته سبحانه في أن يشفع الوعد بالوعيد و﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ اعتراضٌ بين المبتدأ وخبره، للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ولا يشقّ عليهم.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي أخرجنا من قلوبهم أسباب الغِلّ، حتى لا يكون بينهم إلا التواد، وعن علي كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم»[1] وصيغة الماضي للإيذان بتحققه والغل: الحقدُ: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ـ أي خلصوا من الذنوب كلِّها ـ أُذن لهم في دخول الجنة»[2] الحديث. ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن قتادة عن علي رضي الله عنه، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٢٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المظالم ٥/٧٠ وتتمته: «فو الذي نفس محمد بيده، لأحَدُهم أهدى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا».

﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي للإيمان الصحيح، والعمل الصالح، لتحصيل هذا النعيم العظيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي ولولا هداية الله وتوفيقه، لما وصلنا إلى هذه السعادة، وهذا القولُ من أهل الجنة، لإظهار السرور بما نالوا، والتلذذ بالتكلم به، لا للتعبد، فإن الدار ليست دار تكليف، بل هي دار تشريف ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وسروراً، أي والله لقد جاؤوا بالحق، وهذا مصداق ما وعدونا من الجزاء على التوحيد، والعمل الصالح، ولا يخفى ما في هذه الآية، من الرد الواضح على المعتزلة، الزاعمين أن كل مهتدٍ خَلَق لنفسه الهدى، فاعرض قول المعتزلة في الدنيا: المهتدي من اهتدى بنفسه على قول الله تعالى حكاية عن قول الموحدين ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوَلآ أَنْ هدانا الله﴾ واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أي نادتهم الملائكة ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ ومعنى البعد في اسم الإشارة، لرفع منزلتها، وعلوِّ شأن أهلها ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي أعطيتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم الصالحة، سمَّاها ميراثاً، لأنها لا تُستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله كالميراث، وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال ﴿بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ لا بالتفضل، ولا يخفى أنه لا محيص لأحدٍ عن فضل الله تعالى، لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة مما لا يكاد يعقل، وقصارى ما يُعقل أن الله تعالى تفضَّل فرتَّب عليها دخول الجنة، فلولا فضله لم يكن ذلك، فإنَّ مآل كلامهم فيه، أن الجنة ونعيمها مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم في ذلك، بل هو بمثابة ديْنٍ أدي إلى صاحبه، سبحان الله هذا بهتان عظيم، وتكذيب لخبر صحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٥٢ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ بعد الاستقرار فيها، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع والمعنى ينادي ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها، تبجحاً بحالهم وشماتةً بأعدائهم، وتحسيراً لهم، لا لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ على ألسنة رسله ﴿ حَقّٗا ﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل والكرامة العظمى ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾؟ من العذاب والخزي والهوان؟ ولا يستبعد هذا النداء هناك، على بعد ما بين الجنة والنار من المسافة ﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب أهل الجنة ﴿ نَعَمۡۚ ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ ﴾ قيل: هو «مالك» خازن النار، وقيل: ملكٌ من الملائكة، يأمره الله تعالى بذلك ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي الفريقين ﴿ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والمراد الإعلام بلعنة الله تعالى لهم، زيادة لسرور أصحاب الجنة، وجزع أصحاب النار.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يستكبرون بأنفسهم عن دينه سبحانه، ويمنعون الناس عن دين الإسلام، بالنهي عنه، وإدخال الشبه في دلائله ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ أي يطلبون الاعوجاج والتناقض لها، ويصفونها بالزيغ، والميل عن الحق ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي غير معترفين بالقيامة وما فيها.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ ﴾ أي بين الفريقين حجاب عظيم يمنع وصول أحدهما

على الآخر، وإن لم يمنع وصول النداء، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي على أعاليه وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين، قصّرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النّار، جُعلوا هناك حتى يُقْضَى بين الناس، لأن المقالات الآتية وما تتفرع عليه لا تليق بغيرهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة، والنار ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتهم كبياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، والسيما: العلامةُ ﴿وَنَادَوْا﴾ أي رجال الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحية، أي سلمتم من المكاره ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملة حالية، أي نادوهم وهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في دخولها (1).

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف، وفيه إشارة إلى أن صارفاً صرف أبصارهم، لينظروا من غير رغبة منهم، وهي تدل على هول المطلع ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تلقاء مصدر بمعنى الجهة، أي وإذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار ﴿قَالُوا﴾ متعوّذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مع هؤلاء الأشقياء في النار، وهذا دعاء أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكان مصيرهم مجهولاً.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (49)﴾.

(1) قال ابن مسعود والحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم، إلاّ لخيرٍ أراده لهم، وإنما طمع أصحاب الأعراف، لأن النور الذي كان في أيديهم، لم يُطفأ حين طُفىء كلُّ ما بأيدي المنافقين ا.هـ المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥١٦.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ ﴾ كرَّر ذكرَهُم مع كفاية الإضمار، لزيادة التقرير والتأكيد ﴿ رِجَالٗا ﴾ من رؤساء الكفرة، حين رأوهم بين أصحاب النار ﴿ يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا بأسمائهم وما يدعون به من الصفات ﴿ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ ﴾؟ أي ما الذي دفع عنكم؟ وهل نفعكم أتباعكم وأنصاركم وجمعكم للمال؟ ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ أي واستكباركم عن قبول الحق؟.

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾ أي أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم؟ والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة، الذين كان الكفرة يحقّرونهم في الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، كسلمان، وصهيب، وبلال، ونحوهم ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ كلام أصحاب الأعراف أيضاً، أي قالوا لهم: ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ بعد هذا اليوم ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ أي غير خائفين ولا محزونين، ادخلوا الجنة على أكمل سرور، وأتم حبور، مع الخلود في دار النعيم.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١ ﴾.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار، واطمأنت به الدار ﴿ أَنۡ أَفِيضُواْ ﴾ أي صبُّوا ﴿ عَلَيۡنَا ﴾ شيئاً ﴿ مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ من سائر الأشربة والأطعمة، على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة، وفي الآية دليل على نهاية عطشهم، وشدة جوعهم، يقولون ذلك مع اليأس، وهذا كما يقال في المثل: «الغريق يتعلق بالزَّبَد، وإن علم أنه لا يغيثه» ﴿ قَالُوٓاْ ﴾

في جوابهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي منعهما منع المحرَّم عن المكلف، ولما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب، عذَّبهم الله في الآخرة بشدة الجوع، والعطش، جزاءً وفاقاً!.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي جعلوا الدين سخرية ولعباً فحرّموا ما شاؤوا، وأحلّوا ما شاؤوا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها العاجلة، ومواعيدها الباطلة، وخدعهم ما هم فيه من خصب العيش عن الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ أي نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتداد بهم، وتركهم في النار، تركاً كلّياً[1] ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدّوا له، والجزاء من جنس العمل.

شبَّه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم، وعدم استعدادهم له، بحال من عرف شيئاً ثم نسيه ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكرين أنها من عند الله، فالمعنى: نتركهم في النار تركاً مستمراً، كما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بيَّنا معانيه من العقائد، والأحكام، والمواعظ، مفصَّلة تمام التفصيل، هاديةً إلى الرشد ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على

---

(1) قال ابن عطية: النسيان في هذه الآية بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ا.هـ المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١.

علمٍ منّا بوجه تفصيله، مما يحتاج إليه المكلفون لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم وسعادتهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لأنهم هم المغتنمون من آثاره، والمقتبسون من أنواره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾؟ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة، إلاّ وقوع ما يؤول إليه أمره؟ بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك الناسي له، فأعرضوا عنه، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي تبين لنا أنهم جاؤوا بالحق، فأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء[1] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلّصنا من هذا العذاب، أو يدفع عنّا ما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل لنا عودة إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ أي فنحن نعمل ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعاصي، وقبيح الأعمال ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم، إلى الشرك والمعاصي ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وفقد ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ظهر لهم بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شفعاؤهم يوم القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية في مقدار ستة أيام

---

(١) قال الطبري: أقسم المساكين حين حلّ بهم العقاب، أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة، ونصحت لهم، وصَدَقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال. جامع البيان ٤٠٨/١٢.

من أيام الدنيا، وفي خلق الأشياء بالتدرُّج مع القدرة على إبداعها دفعة، دليل على الاختيار، واعتبار للنُظَّار، وحثٌّ على التأني في الأمور[1] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الاستواء على العرش، صفةٌ لله تعالى بلا كيف، والمعنى أن له تعالى استواءً على العرش على الوجه الذي عناه، منزهاً عن المشابهة لأنه تعالى كان قبل العرش، ولا مكان له وهو الآن كما كان، منزَّه عن كل ما يشابه الخلق في جميع صفاته جل وعلا[2] ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، غشي الشيءُ الشيءَ أي: غطَّاه، والمعنى: أن الله تعالى قد جعل الليل وهو الظلمة، يغطي النهار وهو ضوء الشمس ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يعقبه سريعاً، كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، محمولاً على السرعة حتى يدركه ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي خلقها حال كونها مسخرات بقضائه وتصريفه، إذ هي ليست قادرة بنفسها، وإنما يتصرفن على إرادة المدبر لهنَّ، وهذه الأجرام العظيمة منقادة لإرادته تعالى، وإفراد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في النجوم، لإظهار شرفهما عليها، لما فيهما من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تُعرف الأوقات ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف، الموجد للكل، والمتصرف فيه على الإطلاق، يفعل

---

(١) قال القرطبي ٧/٢١٩: لو أراد الله لخلقها في لحظة، ولكنه أراد أن يعلّم العباد التثبت في الأمور.

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفاتِ تمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف؟ ولا أين؟ نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ. ا هـ أقول: هذا مذهب السلف ـ وهو الحقُّ ـ أننا نؤمن بما ورد في القرآن العظيم، من صفات الرب الجليل، بلا تشبيهٍ ولا تعطيل، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم علاَّم الغيوب. قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣٠: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارُها كما جاءت، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهرُ المتبادرُ إلى أذهان المشبِّهين، منفيٌّ عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ما يشاء، ويحكم ما يريد[1] ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تقدس وتنزَّه جلَّ وعلا عن كل نقص، فهو الخالق المبدع للكائنات، الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ خَلقه.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ بعد أن بيَّن التوحيد، وأخبر أنه المنفرد بالربوبية، والمتفرد بالخلق والأمر، أمر عباده أن يدعوه مخلصين له الدين، والدعاء هو مخُّ العبادة، أي ادعوه بخشوع واستكانة، فلا ينبغي الجهر الكثير والصياح، والخفية ضد العلانية. قال الحسن البصري: «كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلاَّ همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنه تعالى يقول: ﴿ادعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً﴾ وإنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً رضيَ له فعله، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّه نداءً خَفِيّاً﴾!!» وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: أيها الناس إِرْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم..»[2] الحديث، قوله: «اربعوا» أي ارفقوا واقصروا، والمراد عدم رفع الصوت بالدعاء، وحسبك في فضل الإسرار به، اقترانُه في الآية بالتضرع، وإن دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى، عديم الوقار.

---

(١) هذا من الأسلوب البياني البليغ، فقد جمعت هذه الآية ـ على وجازتها ـ جميع الأمور والشؤون على وجه الاستقصاء، فله سبحانه الملك والملكوت، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والفصل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فقد جمعت الألفاظ القليلة، والمعاني الكثيرة، وهذا ضرب من إعجاز القرآن ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات ١١/١٥٩ ومسلم في الذكر رقم ٢٧٠٤ باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللَّغَطُ ويشتدَّ، وتستك المسامع وتستدَّ، ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وكون ذلك في المسجد، روي عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء، من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء، دخولاً أولياً، ونبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء، والصعود إلى السماء، وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه، وفي الحديث الشريف: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعتَدِينَ﴾»[1].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهي عن سائر أنواع الإفساد، كإفساد النفوس، والعقول، والدين، والأموال، والأنساب، والآداب، ونحو ذلك ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي إصلاح الله تعالى لها، وخلقها على الوجه الملائم، لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين، وبعث الأنبياء فيها ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، وقيل معناه: كونوا جامعين بين الخوف، والرجاء، والآية الأولى لبيان شرط الدعاء، وهذه لبيان فائدته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريب من المحسنين في أعمالهم، وشؤونهم وسائر أمورهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢٨ وأبو داود رقم ١٤٠٨ ولفظه عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال لي يا بُنَيَّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإيّاك أن تكون منهم، إنك إنْ أُعطيتَ الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذت من النار أُعذت منها وما فيها من الشرِّ».

أحسن العبادة نال الثواب، ومن أحسن في الدعاء، استجيب له، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه فسَّر المحسنين بالمؤمنين. وقال مطر الورَّاق: «استنجِزُوا موعودَ الله بطاعته، فإنه قضىٰ أن رحمته قريب من المحسنين»[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾ أي مبشرات بالخير، لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي قُدَّام رحمته التي هي المطر، والمطر سمي رحمة، لأنه سبب لحياة الأرض الميتة، وعن ابن عمر أن الرياح ثمانية: أربع منها عذاب، وهي: القاصفُ، والعاصف، والصرصر، والعقيم، وأربع منها رحمة، وهي الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريحُ من رَوْح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله تعالى من خيرها، واستعيذوا من شرّها»[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ أي رفعت وحملت ﴿ سَحَابًا ﴾ أي غيماً، سمي بذلك لانسحابه في

(١) رواه ابن أبي حاتم، كذا في تفسير الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٥٠٩٧ باب ما يقول إذا هاجت الريح، ورواه الترمذي في الفتن رقم ٢٢٥٣ بلفظ «لا تسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنَّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرتْ به، ونعوذ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت به» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الهواء ﴿ثِقَالًا﴾ من الثِّقْل، فهو ثقيل، وثِقْلُ السحاب بما فيه من الماء ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لمنفعته ولإحيائه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبلد القاحل المجدب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من كل أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه، وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور، ونحييها بردّ النفوس إلى مواد أبدانها، بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك، قدر على هذا من غير شبهة.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، والمرادُ بذلك أن يكون حسناً، وافياً غزير النفع[1] ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ كالحرَّة والسَّبْخَة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي قليلاً لا خير فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف البديع ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، وأصلُ التصريف: تبدلُ حال بحال، ومنه تصريف الرياح ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، وشكرُ ذلك بالتفكر فيها، والاعتبار بها، وهذا مَثَلٌ لإرسال الرسل بالشرائع، التي هي ماء حياة القلوب وللمكلَّفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها، والمحرومين من مغانم آثارها، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن، يقول هو طيبٌ، وعمله طيب، والذي خَبُث مَثَلٌ للكافر، يقول: هو خبيث، وعملهُ خبيث وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به، من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة ـ أي قطعة طيبة ـ قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير،

---

(١) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالأرض إذا كانت طيبة التربة، يخرج النبات فيها أخضر زاهياً وافياً، كذلك مثل المؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالبلد الطيب ثمره طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث، كالأرض السبخة المالحة التي لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها بشيء إلا ظهور البعوض والحشرات، وانظر الطبري ٨/ ٢١٢.

وكانت منها أجادب ـ جمع أجدب وهي الأرض التي لا تنبت ـ أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منه، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعانٌ ـ جمع قاعٍ، وهي الأرض المستوية ـ لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فقه في دين الله، ونَفَعه اللهُ ما بعثني به، فعلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقبَل هُدَى اللهِ الذي أرسلتُ به»(١).

ثم إنه سبحانه وتعالى عقَّب ذلك بما يحققه ويقرِّره من قصص الأمم الخالية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فقال تقدست أسماؤه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هو جواب قَسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحاً شيخ الأنبياء، إلى قومه الكفرة المفسدين، الذين عبدوا الأصنام، فمَكَث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وهو أول نبيّ عذَّب الله تعالى قومه بالغرق بالطوفان ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وحده ولا تشركوا معه أحداً، فناداهم بصفة القوم ﴿يا قَوْمِ﴾ مضافة إليه، لاستمالتهم إلى العبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ أي مستحق للعبادة ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ما لكم في الوجود إله غيره ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، ووصفُ اليومِ بالعِظَم، لبيان ما يقع فيه، وإنما قال عليه السلام ﴿أخافُ﴾ ولم يقطع حنواً عليهم، واستجلاباً لهم بلطف.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/١٨٥ في العلم، ومسلم رقم ٢٢٨٢ في الفضائل.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي الرؤساء من قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ذهاب عن طريق الحقّ والصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ أي واضح كونه ضلالاً، بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا، الذين هم شفعاء لنا عند الله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أيُّ شيءٍ من الضلال، رداً على الكفرة، حيث بالغوا في إثباته له، بحيث جعلوه مستقراً في الضلال، ولم يقل: ضلال فإن التاء للمرة، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقلُّ قليل من الضلال، فضلاً عن الضلال المبين!! ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن كونه رسولاً من الله تعالى مبلغا لرسالاته، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى، أيْ أنا رسول وأيَّ رسول كائن من رب العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وجَمَع الرسالات لتنوع معانيها، كالعقائد، والأحكام، والمواعظ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عطف على أبلغكم، والمعنى: أبلغكم جميع تكاليف الله تعالى، وأرشدكم إلى الوجه الأصلح، وأحذركم عقابه إن عصيتموه وقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من جهته تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتية، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرته على أعدائه، وسننه، في نظام العالم وما ينتهي إليه ما لا تعلمونه أنتم، قيل: كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا غافلين لا يعلمون ما يعلمه نوح.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّر كأنه قيل: استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من ربكم

﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من قومكم، وقلتم لأجل ذلك ما قلتم؟ كانوا يقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيث إنه تعالى في غاية التقدس، والبشر في غاية الضعف والتكدر، فأنكر نوح عليهم بأن الرسول يكون ذا جهتين: يستفيض من عالم الغيب بتجرده، وصفاء روحه، ويُفيض لبني نوعه بجهة مشاركته لهم في البشرية ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ومعاصيكم ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي استمروا على تكذيبه، وأصرُّوا بعد أن قال لهم ما قال، ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي من الغرق، والإنجاء من قصد أعداء الله تعالى له ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين وكانوا على ما قيل أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بسبب تكذيبهم المستمر وليس المراد بهم الملأ فقط، بل كل من أصرَّ على التكذيب منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عُمْيَ القلوب، غير مستبصرين، يقال عَمٍ في البصيرة، وأعمى في البصر، أي عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً منهم

كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله؟ والاستفهام للإنكار. ولما كان قوم هود، قد علموا ما حلّ بقوم نوح من الغرق، حسن قوله هنا ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب؟.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ الوصف هنا للذم، ومقتضى المقام يقتضي ذمهم، لشدة عنادهم، كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي متمكناً في خفة عقل، حيث فارقت دين آبائك، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي فيما ادعيت من الرسالة.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ليس بي والحمدُ لله، أدنى شيء من شوائب السفاهة، والخِفَّة، ولكنني مرسل لهدايتكم من ربِّ العزة والجلال.

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي ليس بي ما تزعمون وإنما أنا رسول، ناصح مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾ أي هل عجبتم لأن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم لقاء الله، ويخوفكم عذابه؟ وفي الآية دلالة على جواز مدح الإنسان نفسه للحاجة إليه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي بعد أن أهلكهم وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ أي زادكم في الناس على أمثالكم ﴿بَصۜۡطَةٗۖ﴾ قوة وزيادة جسم ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا نعم الله واشكروها له ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي لكي يفضي شكرها المؤدي لكم إلى الفلاح والنجاح.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا ﴾ يا هود تتوعدنا بالعذاب ﴿ لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ أي نهجر ما كان عليه آباؤنا من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إنذارك لنا بنزول العذاب، وهذا منهم منتهى العناد والطغيان.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم ﴾ أي وجب وحقَّ عليكم بإصراركم على الكفر والضلال ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من جهته تعالى: ﴿ رِجْسٌ ﴾ عذاب مهين كأنه نتن وقذر ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ وهو إرادة الانتقام، وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أي آلهة ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي ليس عندكم حجة ولا برهان من عند الله على عبادتها ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ نزول العذاب الذي طلبتموه. ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ لنزوله بكم.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ الفاء فَصيحة، أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ في الدين ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمة لا يقادر قدرها ﴿ مِّنَّا ﴾ من جهتنا ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الدابر أصل الشيء أو آخره، وهو هنا كناية عن عذاب الاستئصال، أي أهلكناهم بالكلية حيث جاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أصرُّوا على الكفر والتكذيب، ولم يرعووا عن ذلك أصلاً، وفائدة هذا النفي، التنبيه على أن مناط النجاة، هو

الإيمان بالله تعالى، كما أن مدار البوار، هو الكفر والتكذيب، فهو كالعذر عن عدم إمهالهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام، وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود المنتسب إلى سام بن نوح ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد، حيث سلك كل واحد منهم مسلك الآخر، ومن سنة القرآن الكريم في قصص الأنبياء، أن يذكر ما كان منها للعبرة والموعظة، لا أخبار حوادث الأمم مرتبة بحسب الزمان، وقد حكى هنا عن صالح، وأنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر الآية بعد رد الدعوة، وكل ذلك صحيح ﴿هَٰذِهِۦ

﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ إضافة الناقة إلى الاسم الجليل، لتعظيمها، كبيت الله، ولمجيئها بلا أسباب من صخر أصمّ، ولأنها حجة الله تعالى على نبوته، وقوله ﴿لَكُمْ﴾ بيان لمن هي آية ﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آيةً من آيات الله تعالى أي فاتركوها ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب، وهو جواب الأمر أي الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، وعدم التعرض للشرب، إما للاكتفاء بذكر الأكل، ولتعميمه له أيضاً كما في قول القائل: «علفتها تبناً وماءً بارداً» أي وسقيتها ماءً بارداً وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(١) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهي عن المسِّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر، مبالغة في النهي، أي لا تتعرضوا إليها بشيء مما يسوءها أصلاً، إكراماً لآية الله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب أذاها (٢).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض، ولم يقل خلفاء عاد مع أنه أخصر، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم، ومكَّنكم وجعل لكم مباءةً ومنزلاً في أرض الحِجْر ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ رفيعة فـ «مِنْ» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم، لطول أعمارهم، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء، في البيوت المنحوتة، لما فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول للزراعة

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٥٥.

(٢) يروى أن قوم صالح خرجوا في عيد لهم، وطلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية باهرة تدل على صدق رسالته، وأن يُخرج لهم من صخرة معينة ناقة عُشراء ـ أي حاملاً ـ فدعا ربه فخرجت الناقة كما طلبوا، وكانت معجزة من وجوه: أولاً خلقها من الصخرة، وثانياً أنها كانت حاملاً وولدت أمامهم، وثالثاً: كان لها شرب يوم ولأهل المدينة شرب يوم آخر، ومع ذلك أقدموا على قتلها فأهلكهم الله.

والعمل ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم الله بها عليكم، وآلاء جمع ألى بالقصر والفتح أي نعمة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فإن حق الآلاء أن تُشْكَر، فلا يُغفل عنها، فكيف بالكفر!؟.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان، وعتوا وتكبروا ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ من قوم صالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ أي عُدُّوا ضعفاء أذلاء ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي قالوا للمؤمنين بصالح ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؟ الاستفهام للاستهزاء بهم، لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يُجبهم المؤمنون بأن يقولوا نعم، بل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وهذا من الأسلوب الحكيم، فكأنهم قالوا: العلم بإرساله لا كلام فيه ولا شبهة فيه لوضوحه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنّا به مؤمنون[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وضعوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ موضع أرسل به، للتخلص عن الإشعار بالإيمان بالرسالة، غلواً في الإصرار على الكفر، نكايةً بالمؤمنين.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ العقر: الجرحُ، وأصله قطع ساق البعير، واستعمل في النحر، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره، أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم، فكأنه فعل كلِهم، كما قال الله تعالى في سورة القمر ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[2] ومثل هذا من أعمال الأفراد، ينسب إلى الأمة في جملتها ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمر الله، واستعجلوا النقمة ﴿وَقَالُواْ﴾ مخاطبين له بطريق التعجيز والسخرية

---

(١) قال في البحر ٤/٣٣١: هذا الجواب في غاية الحسن، إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم، لا يدخله ريب، لما أتى به من المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته، ولهذا قالوا في جوابهم ﴿إنَّا بما أُرسل به مؤمنون﴾.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٩.

﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فإن كونك من جملتهم، يستدعي صدق ما تقول، من الوعد والوعيد، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين بكل ما أخبرهم به من العذاب، فعجَّل الله لهم ذلك، ولهذا جاء اللفظ معطوفاً بالفاء، التي تفيد التعقيب.

فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي الزلزلة وقد رجفت بهم الأرض، وقال مجاهد هي الصيحة، وجمع بين القولين، بأنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم، والصيحة من فوقهم[1]، وجاء في موضع آخر الطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيةِ﴾ ولا منافاة بين ذلك، فإن الصيحة العظيمة حصل منها الرجفة لقلوبهم، ولعظمها وخروجها عن الحد المعتاد تسمى الطاغية، لأن الطغيان مجاوزة الحدّ ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ هامدين، وفي أرضهم خامدين، وأصل الجثوم البروك يقال: الناس جثوم أي قعود لا حراك بهم، أي أصبحوا هلكى عند نزول العذاب بهم، لا حركة ولا كلام، فقد خمدت أنفاسهم على التمام.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ بعد أن جرى عليهم ما جرى، مغتماً متحسراً متحزناً عليهم ﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي أسديت لكم النصح بالترغيب والترهيب، ولم آل جهداً فلم تقبلوا مني ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم، وخطابه عليه السلام كخطاب رسول الله ﷺ لأهل القليب ببدر حين نادى

---

(١) الرجفة: الزلزلة، والاضطراب الشديد، وقد اجتمع على قوم صالح الصيحةُ، والرجفة، وكانت مفرطة شقت قلوبهم، فجثموا على الأرض موتى لا حركة فيهم، فقد جمع الله بين الرجفة والصيحة، عقوبة على إجرامهم.

يا فلان، يا فلان بأسمائهم، وقال: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ رُوي أن صالح عليه السلام لما نجا هو والذين معه، قال لهم: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله تعالى عليها، فالحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلُّوا من ساعتهم بالحج، وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، وأنه عليه السلام توفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وفي الحديث «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم..»[1] الحديث. وفي الحديث حث على الاعتبار، والخوف عند المرور على ديار الظلمة، المهلكين بالعذاب والدمار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على ما سبق أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه، وإنما لم يذكر اسم المرسل إليهم، لأن قومه لم يُعهدوا باسم معروف، ولوط هو ابن هارون ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر مع إبراهيم إلى الشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي بلدة بحمص ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بطريق الإنكار والتوبيخ أي أتفعلون تلك الفعلة، المتناهية في القبح، وهي اللواط؟ ﴿مَا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠ وتتمة الحديث: «ثم قنَّع رأسَه وأسرعَ السيرَ حتى جاز الوادي».

﴿سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي ما عمل قبلكم أحد مثل هذا المنكر الشنيع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، وهو أمر مستقذر، تعافه طباع الحيوانات، قال عَمْرو بنُ دينار: «ما نَزَا ذكرٌ على ذَكَر قبل قوم لوط[1]».

يعني أنهم أول من اخترع وابتكر هذه الفعلة الشنيعة، وهي إتيان الذكور في أدبارهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ لتأكيد الإنكار، وفي زيادة إنَّ، واللام، مزيد توبيخ، كأن ذلك أمر لا يتحقق من البشر، وفي إيراد لفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ دون الغلمان مبالغة في التوبيخ، والإتيان كناية عن الاستمتاع، الذي عُهد بين الزوجين ﴿شَهْوَةً﴾ أي لأجل الاشتهاء لا غير، وفي التقييد بها، بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة، ولا ذَمَّ أعظمُ منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمة، وتنبيه على أن العاقل، ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة، طلب الولد، لا قضاء الشهوة فقط، وعمل تلك الفعلة القذرة الخبيثة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي متجاوزين النساء، اللاتي هن أماكن الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي عادتكم الإسراف في كل شيء، وتجاوز الحدود فيها، فلهذا أقدمتم على هذه الرذيلة القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي المستكبرين منهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ إلا قول بعضِهم لبعض مستخفين بنبيهم والمؤمنين ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من بلدتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ مقصود الأشقياء الاستهزاء والسخرية بلوط ومن معه، وبتطهرهم من الفواحش وتباعدهم عنها، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أخرجوه عنا وأريحونا من هذا المتزهد.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٠ ونقل عن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قوله: «لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قصَّ علينا خبرَ قوم لوط، ما ظننتُ أنَّ ذَكَراً يعلو ذَكَراً».

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ أي المؤمنين منهم، وأتباعه من المؤمنين، سواء كانوا من ذوي قرابته أم لا ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسِرُّ بالكفر ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي نوعاً عجيباً من المطر، بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر، وهي حجارة من سجيل كما قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[1] ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ خطاب لكل من يأتي منه التأمل والنظر، تعجيباً من حالهم، وتحذيراً عن أعمالهم، وقد مكث لوط عليه السلام فيهم ثلاثين سنة، يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم فلم يجيبوه، وروي عن الزهري لمّا عذِّب قومه، لحق لوط بإبراهيم عليه السلام، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش. أخرج البيهقي عن أبي هريرة وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعةً من خلقه، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، فقال: ملعونٌ، ملعونٌ، ملعونٌ، من عَمِلَ عَمَل قوم لوط..»[2] الحديث.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين ابن إبراهيم،

(١) سورة هود، آية: ٨٢.

(٢) أخرجه البيهقي والحاكم وصححه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

واختلفوا في مدين، فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة وقيل هو اسم لماء كانوا عليه ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي من النسب، وشعيب عليه السلام أعطي قوة البيان والحجة، ولهذا قال ابن عباس: كان إذا ذكر شعيب يقول ﷺ: «ذلك خطيب الأنبياء»[1] . ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المراد من البينة ههنا: المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، فهذه الآية دلت على أنها حصلت له، ودالة على صدقه، فأما تلك المعجزة ما هي؟ فليس في القرآن دلالة عليها، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، توجب عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي المكيال كما وقع في سورة هود، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالمِيزَانَ﴾ فإن المتبادر منه الآلة، بدأ تعالى بالتوحيد لأنه أساس العقيدة، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والوزن، لأن سنة الأنبياء إذا رأوا قومهم على نوع من أنواع المفاسد، بدؤوا بمنعهم عنه، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوا الناس حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، والبخس من خساسة النفس، ودناءة الهمة، ومتابعة الهوى والظلم، فالله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم، وهذا يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري، والعدوان على الأنفس، والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء بالشرائع والأحكام ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الوفاء، وترك البخس والإفساد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الكفر والظلم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

---

(١) أخرجه ابن عساكر وذكره ابن كثير ٢/ ٤٧٤ عن الثوري أنه يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ أي طريق من الطرق الحسيّة ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ تخوّفون من آمن بالقتل. روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقعدون على الطريق، يخوّفون الناس أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إنه كذّابٌ فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الطريق الموصلة إليه سبحانه وهي الإيمان ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بالله تعالى ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ أي تطلبون لسبيل الله الاعوجاج والانحراف، بإلقاء الشُّبَه، والتشويه لمحاسن الدين ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْۖ ﴾ فوفَّر عددكم بالبركة في النسل، وكنتم فقراء فجعلكم موسرين، وكنتم أذلة فأعزكم وقوّاكم، فاشكروا الله تعالى بعبادته واتباع رسوله، وترك الفساد ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح، وهود، ولوط، واعتبروا بهم، واحذروا من سلوك مسالكهم.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي انتظروا، وفيه تهديد ووعيد ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ ﴾ بحكمه العادل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه ولا ظلم[1].

---

(١) قال أبو حيان: وهذا الكلام من أحسن ما تلطَّف به في المحاورة، إذ أبرزَ المتحقق في صورة المشكوك، وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ أي قال المستكبرون، البالغون من العتو والجبروت أقصاه، وهم أشراف القوم وقادتهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ أي والله لنخرجنك وأتباعك من بلدتنا، بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم، وكراهيةً لجواركم ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ أي ترجعون إلى ديننا وتصبحون مثلنا ﴿ قَالَ ﴾ شعيب رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي أتجبروننا وتكرهوننا على العودة في دينكم، ولو كنا كارهين لملتكم؟ وهو استفهام يُراد منه الإنكار على سوء صنيعهم القبيح، حيث يريدون إكراههم على الكفر.

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ ﴾ يقولون: إن عدنا إلى دينكم الأعوج، واتبعنا ما أنتم عليه من الباطل، بعد إذْ أنقذنا الله منه بالإيمان، نكون قد اختلقنا وافترينا على الله أعظم أنواع الكذب!! وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي ما يصحُ ولا ينبغي ولا يستقيم، أن نرجع إلى ملتكم ودينكم، في حالٍ من الأحوال، إلاّ إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان، فيمضي فينا قضاؤه. أرادوا بذلك حسم طمعهم في العودة إلى دينهم، بالتعليق على مشيئة الله، وهذا ما لا يكون أبداً، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر. وهذا شأن المؤمن يردُّ كلَّ شيء إلى مشيئة الله، مع عزمه الجازم بالثبات على الإيمان، ولم يزل الأنبياء والأكابرُ يخافون العاقبة، ألا ترى قول خليل الرحمن عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ

﴿نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟[1] وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك» ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة، ومشيئتُه على موجب الحكمة، أي أحاط علمه بكل شيء، مما كان وما يكون، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا إلى الكفر ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التوكل عليه سبحانه: إظهارُ العجز، والاعتمادُ عليه، أي اعتمدنا على الله وحده، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرُّع ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق، ليتميز المحقُّ من المبطل ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي خير الحاكمين، لخلوّ حكمك عن الجور والحيف.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي قال أشرافهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه في الإيمان، وخافوا أن يؤمن قومهم ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه، وتركتم دين آبائكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي مغبونون خاسرون مضيِّعون لسعادتكم، لاستبدالكم الضلالة بالهدى، جعلوا اتباع شعيب على ما هو عليه من الهدى والإيمان، خسارة وشقاوة، ويا لهم من سفهاء!!.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة، وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[2] أي صيحة جبريل عليه السلام

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٥.

(٢) سورة هود، آية: ٩٤.

ولعلها كانت من مبادي الرجفة، فأسند إهلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم[1].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ أي لم يقيموا في دارهم، وحاصل المعنى: أنهم عوقبوا بتوعدهم السابق لنبيهم بالإخراج، وصاروا هم المخرجين من القرية، إخراجاً لا دخول بعده، دون شعيب عليه السلام ومن معه، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الذين كذبوه عوقبوا بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؟ آسى: بمعنى أحزن، والمعنى: لقد أعذرتُ لكم في الإبلاغ والنصيحة، والتحذير، مما حلَّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدّقوني، فكيف أحزن عليكم؟ أي لا آسى عليكم، لأنكم لستم أحقاء بالأسى والتفجع. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ قَومٍ﴾ دون قوله: عليكم، وبإقامة الظاهر مقام الضمير، للإشعار بعدم استحقاقهم التأسف عليهم، لكفرهم وتماديهم في الضلال، كأنهم ليسوا قومه!؟ ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه، نزل مع المؤمنين بمكة حتى ماتوا هناك.

ثم ذكر تعالى سنته الإلهية، في الانتقام ممن كفر به، وكذَّب رسله، وعاقبة الطغاة المجرمين، بالاستدراج لهم من الشدة إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الغنى، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٢: وقد اجتمع لهم أنواع العقوبة: الرجفةُ، والصيحةُ، وعذابُ يوم الظُلّة، وهي سحابة أظلّتهم، فيها شررٌ من نار ولهب، ووهجٌ عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبيّ، فكذّبه أهلها، إلاّ أخذنا أصحابها، وعاقبناهم بالبؤس والفقر، والجوع والمرض، وأنواع البلايا والنكبات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا، ويلجؤوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنوبهم!!.

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنةِ، والفقرِ والمرضِ: الرخاءَ والسَّعة، والغنى والصِّحَة، ابتلاءً لهم بالأمرين ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ أي حتى كثروا ونَمَوْا، وأبطرتهم النعمة، يُقال: عفا النباتُ إذا كثر ونما ﴿ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ أي قالوا كفراناً للنعمة: هذه عادة الدهر، وقد أصاب آباءنا مثل ذلك من البلايا والمصائب، فلا ينبغي لنا أن ننكره، وليست هذه بعقوبة من الله لنا، فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم، ولم ينتقلوا عنه، مع ما أصابهم، فاثبتوا أنتم على دينكم ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك، ولا يخطر ببالهم شيءٌ من المكاره، والأخذ فجأةً أشدُّ، وحسرته أعظم، لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء، يوطّن نفسه عليها، بخلاف حال الفجأة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي القرى المهلكة، الذين كذّبوا رسلهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله بدل كفرهم وعصيانهم، معتبرين بما جرى عليهم من السراء والضراء ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ما حرَّم الله تعالى عليهم ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لوسَّعنا عليهم الخير، ويسَّرناهُ لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات، والبركةُ: الزيادة والنماء، وبركاتُ السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، والمواشي والأنعام، وكل ذلك بخلق الله تعالى وتدبيره ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ أي ولكنْ لم يؤمنوا ولم يتقوا، وقد اكتفى بذكر الأول، لاستلزامه الثاني، وللإشارة إلى أنه أعظم الأمرين ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، وفي الآية إشارة إلى أن الكفاية والسعة في الرزق، من سعادة المرء إذا كان شاكراً، ووبالاً إذا لم يشكر الله تعالى.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن أهل القرى المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً وقت نومهم وراحتهم، يقال: بات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً، والاسمُ البياتُ، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي وهم في فرشهم لا يشعرون.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إنكار بعد إنكار، للمبالغة في التوبيخ، ولم يقصد الترتيب بينهما، فلذا لم يؤت بالفاء ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي ضحوة النهار، بعد طلوع الشمس، والضُّحى: امتداد النهار، والضَّحْوةُ مثله، وجمعه ضحى، مثل قرية وقرى ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؟ مكرُ الله استعارة لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب[1] ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا

---

(١) سمَّى تعالى إمهاله لهم، واستدراجه لهم بأنواع النعم مكراً، لأنه في صورة من يمكر بصاحبه، ليوقعه في المهلكة، كما قال سبحانه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾ فهذا الفعل بالنسبة لله كمال، وهو على الكفار والفجار وبال.

بالكفر وترك النظر والاعتبار، وأضاعوا فطرة الله، التي فطر الناس عليها، قال بعض العلماء: إن الأمن من مكر الله كفرٌ، ومثله اليأسُ من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[1] وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن، اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس، اعتقاد عدم القدرة على الرحمة، فذلك مما لا ريب في أنه كفر، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون، وعدم مبالاة بالله تعالى، فذلك كبيرة، وهو الأظهر، والله أعلم.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أولم يتبيَّن ويتضح ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي يخلفون من خلا قبلهم، ويرثون ديارهم بعد هلاكهم، والمراد بهم أهل مكة ومن حولها ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أي من بعد إهلاك أهلها ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بجزاء ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم؟ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا نصحاً، نطبع على قلب من لم نرد منه الإيمان، حتى لا يتعظ بأحوال من قبله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمعون سماع تفهم، الوعظ والنصيحة، وأخبار الأمم المهلكة، فضلاً عن التدبر فيها.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني القرى المارَّ ذكرهم، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وأضرابهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي نقصُّ عليك بعض أخبارها، من أنباء الماضين، لتتبيَّن العِبَر، وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين من المكذبين، مما فيه عظة وتذكير ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءتهم رسلهم الكرام، بالمعجزات الواضحات، والحجج القاطعات، الدالة على صحة رسالتهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، ولجُّوا في كفرهم وعنادهم، لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعده، فحالهم واحد في العتوّ والضلال. والغرضُ بيانُ أنهم استمروا على التكذيب، من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على الكفر والاستهزاء، لا يَرْعوون ولا يتوبون، مع تكرر المواعظ، وتتابع الآيات ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ومثل ذلك الختم الشديد المحكم، على قلوب أولئك الضالين، نطبع على قلوب الكافرين المعاندين، فلا تكاد تؤثر فيهم النُّذُر والآيات.. وفي الآية تحذير للسامعين من كفار مكة الذين كذَّبوا سيد المرسلين، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من الطغاة المفسدين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي وما وجدنا لأكثر الخلق من وفاءٍ للعهد، بل إن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم، من الإيمان وتقوى الرحمٰن، بعد إنزال الآيات، ونصب الحجج، كما كانوا إذا وقعوا في ضُرّ وكرب، عاهدوا الله بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ...﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي وما وجدنا أكثرهم إلاَّ عُصاة فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال لأمر الله.

قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه عليهم، هو ما فطرهم عليه،

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٣.

وأخذه عليهم وهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، فخالفوه وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل ولا حجة من عقلٍ ولا شرع.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم، رسولنا «موسى بن عمران» بالمعجزات الباهرات، والحجج الساطعات، وهي الآيات التسع الآتي ذكرها ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي أرسلناه إلى ملك مصر « فرعون» وأشراف قومه ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ أي فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعدواناً، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه، فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر، فقيل ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا بها. ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾؟ أي فانظر أيها السامع ماذا آل إليه أمر المفسدين الظالمين؟ كيف أغرقناهم أجمعين، فلم نبق منهم أحداً! ووضع ﴿المُفسِدِينَ﴾ موضع ضميرهم، للإيذان بأن الظلم يستلزم الإفساد.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أُجمل ﴿ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ ﴾ أي إليكم، كما يشعر به ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ﴿ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي مالك أمركم.

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ أي جدير بي، وحقٌّ عليَّ أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وصدق!! يعني أني رسولٌ، والرسول لا

يقول على الله إلاّ الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يكن هذا القول منه عليه السلام، إِثْرَ ما ذكر ههنا، بل بعدما جرى بينهما من المحاورة، المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾؟ وقوله: ﴿ومَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾؟ وقد طوى ههنا ذكره للإيجاز ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي فخلِّ بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة.

﴿قَالَ﴾ فرعون له ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك، كما تدَّعيه ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقُك في دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق، يقتضي إظهار الآية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي رماها من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ إذا للمفاجأة أي ففاجأ أن صارت حية ضخمة طويلة، والثعبانُ هو الذَّكرُ العظيمُ من الحيَّات، وقال آخرون: إنه الحية مطلقاً، وإيثار الجملة الاسمية، للدلالة على سرعة الانقلاب، قال هنا ﴿ثعبان﴾ وفي آية أخرى وصفها بأنها ﴿جان﴾ والجانُّ الحيةُ الصغيرةُ، والجمعُ بين هذين، بأنها كانت في عظم الجثة كالثعبان، وفي خفة الحركة كالجانّ، وقيل: انقلبت جاناً ثم أصبحت ثعباناً ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أمره، لا يُشك في كونه ثعباناً، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء، عن دجل السحرة.

رُوي أن موسى عليه السلام، لما ألقى العصا، صارت حية عظيمة، فاغرةً فاها، وتوجهت نحو فرعون، فوثب عن سريره هارباً وأحدث، وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها، وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها فعادت عصا، والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته، إذ لو كان تخييلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن

لقوله ﴿مُّبِينٌ﴾ معنى، وما حدث إنما كان بفعل الله، ولهذا كانت معجزة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها من جيبه لقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أو من تحت إبطه، لقوله سبحانه: ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ والجَمعُ بينهما ممكن، لأن الجيب فتحة الصدر ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، فقد كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام آدم ـ أي أسمر ـ شديد السمرة، فكان إذا أخرجها ظهرت مضيئة كأنها فلقة قمر.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أصحاب مشورته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في علم السحر، وماهرٌ فيه، قالوه تصديقاً لفرعون، لأن هذا القول بعينه هو قولُ فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ هذا من كلام فرعون، أيَّ تشيرون عليَّ في أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ كأنه اتفقت آراؤهم عليه، فأشاروا على فرعون بذلك، والإرجاءُ: التأخيرُ، أي أخِّره وأخاه، حتى ترىٰ رأيك فيهما، وتتدبر شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرسل رجالاً يحشرون، أي يجمعون إليك السحرة، من جميع مدائن مصر، فإن غلبهم موسى صدَّقناه، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر، والمدائن جمع مدينة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهرٍ في السحر، توهَّموا أنهم بالتأخير والتدبير، يغيِّرون شيئاً من التقدير، ولم يعلموا أن الحق غالب.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم يُجمِّعهم من البلدان قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال، ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال، واختلف في عددهم، فعن كعب أنهم اثنا عشر ألفاً، وعن ابن إسحق أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألف ساحر[1] ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي السحرة واثقين بغلبتهم ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أي أجرة وعوضاً وجزاء ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ والمقصود من الإخبار إيجاب الأجر واشتراطه، كأنهم قالوا بشرط أن تجعل لنا أجراً كبيراً إن غلبناه.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً كما تحبون ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين عندي، وفي ذلك من الترغيب والتحريض ما لا يخفى.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السحرة ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ ما تلقي أولاً ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ خيَّروه مراعاةً للأدب، فكان ذلك سبب إيمانهم، وصاروا من المقربين عند الله، لا عند فرعون[2].

---

(١) ليس في هذه الأقوال سند يوثق به، ولكنهم كانوا جمعاً كبيراً، جاؤوا من أقصى البلاد من مصر لنصرة فرعون، والله أعلم بعددهم!!.

(٢) هذا القول لبعض المفسرين ذكره الزمخشري في الكشاف وغيره، والأظهر ـ والله أعلم ـ أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس، واليقين بالغلبة، وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول الواثق من نفسه: هل أبدأ أنا أولاً أم تبدأ أنت؟.

﴿قَالَ﴾ أي موسى وثوقاً بشأنه ﴿أَلْقُوا۟ۖ﴾ أنتم ما تلقون أولاً، وثق نبي الله موسى بالحق والغلبة فأعطاهم التقدم، وذلك ليظهر الله أمر نبوته ويقوي يقينه ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ أي فلمّا ألقوا حبالهم وعصيّهم، وكان مع كل واحد منهم حبل وعصى ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيّلوا إليها ما لا حقيقة له، ولذا لم يقل سبحانه «سحروا الناس» فالآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1] وهذا هو الفرق بين المعجزة، والسحر، لأن السحر قلب الأعين عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزة قلب ذلك الشيء حقيقة، كقلب العصا إلى ثعبان، وإخراج الناقة من الحجر الأصم ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيّلوها حياتٍ تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم يهابه من رآه، يروى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، وكانوا قد طلوا تلك الحبال بالزئبق ولوّنوها، وجعلوا داخل العصيِّ زئبقاً أيضاً، ثم ألقوها على الأرض، فلما أثّر حرُّ الشمس فيها، تحركت والتوى بعضها على بعض، فإذا هي تتحرك تشبه الحيات، وقد ملأت الوادي، ففزع الناس، والسحرُ عند أهل السنة أقسام: منه ما هو تخييل كما هنا في عمل السحرة، ومنه ما له حقيقة وتأثير كما قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[2] وأجمع المسلمون على أنه ليس من السحر، ما يفعله الله تعالى تأييداً لرسله، كقلب العصا إلى ثعبان، وإحياء الموتى، وإنطاق الحجر أو الشجر، وأمثال ذلك من معجزات الرسل الكرام.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

---

(١) سورة طه، آية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك لترى العجب العجاب ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي فألقاها فإذا هي تبتلع وتزدرد ما صوّروه من الإفك والكذب.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبهم، وسعي فرعون وشيعته.

﴿ فَغُلِبُوا۟ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أي جعلهم ما شاهدوه خارين على وجوههم، تنبيهاً على أن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود، بحيث لم يبق لهم تمالك، فكأن أحداً دفعهم وألقاهم، يروى أن الاجتماع كان بالاسكندرية، وأن الحية فتحت فاها فابتعلت ما صنعوا واحداً بعد واحد، وقصدت الناس ففزعوا، ووقع الزحام، ثم أخذها موسى فعادت في يده عصا كما كانت، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه معجزة، وليس من السحر، فعند ذلك خرُّوا سجداً لله رب العالمين.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني أنهم خروا ساجدين معلنين إيمانهم قائلين ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي آمنا بالله الواحد الأحد، مالك الملك رب العالمين.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بدل مما قبل، أبدلوا لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون، وأكدوا ذلك بذكر هارون مع موسى، قال قتادة: كانوا أول النهار سَحَرة كَفَرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي قال فرعون موبخاً ومتوعداً للسحرة: آمنتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن آمركم أنا بذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما صنعتموه ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ لحيلة احتلتموها أنتم وموسى، وهذا تمويه من فرعون على القبط، يريهم أنهم ما غُلبوا، وإنما تآمروا عليه ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل، خاف فرعون أن يصير إيمان السحرة، حجةً عند قومه، فألقى هاتين الشبهتين على أسماع عوام القبط، تثبيتاً لهم على ما هم عليه، وتهييجاً لعداوتهم لموسى عليه السلام، ثم عقَّب بالوعيد ليريهم أن له قوة، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيد ساقه بالإجمال للتهويل، ثم عقَّبه بالتفصيل فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي من كل جانب عضواً كاليد من جانب والرجل من آخر[1] ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، والتصليبُ: مأخوذ من الصلب، وهو الشدُّ والربط بعد القتل على شجرة أو عمود. أياماً أو شهوراً، ليكون زجراً للآخرين.

﴿قَالُوٓا۟﴾ ثابتين على الإيمان ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إننا جميعاً إلى ربنا راجعون، فيحكم بيننا وبينك.

إلى دَيَّان يوم الدِّينِ نَمضِي وعندَ الله تَجْتَمِعُ الخُصُومُ

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تُنكر منا؟ وما تعيب علينا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وذلك أصلُ المفاخر، وأعظم المحاسن، ليس نتخلى عنه طلباً لمرضاتك، ثم أعرضوا عن مخاطبة فرعون وفزعوا إلى الله عز وجل فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب

---

(١) قال الطبري ١٣/٣٤: ومعنى ﴿من خلاف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.

فرعون لنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، روي أن فرعون بعدما رأى ذلك خاف من موسى أشد الخوف، فلذلك لم يتعرض له بسوء.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ مخاطبين له بعدما شاهدوا ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ أي أتتركه ﴿وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر، والمراد بالإفساد، دعوة الناس إلى دين موسى والخروج على فرعون، روي عن ابن عباس قال: لمَّا آمنت السحرة، اتَّبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي يتركك ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ معبوداتك، قيل كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] ﴿قَالَ﴾ مجيباً لهم ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليعلم أنَّا على ما نحن عليه من القهر والغلبة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي غالبون كما كنا، لم يتغير حالنا، وهم مقهورون تحت أيدينا، ولم يذكر حقيقة الحال، وهو كونه خائفاً من موسى.

(١) ذكر المفسرون أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة تُعبد، من بقرٍ وأصنام وغير ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان هو يعبد البقر، وروي عن ابن عباس أن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، وكان يقرأ ﴿وإلَاهَتَكَ﴾ أي يترك عبادتك والتذلل لك.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ تسليةً لهم، وعدةً بحسن العاقبة، حين سمعوا قول فرعون، وتضجّروا منه، تسكيناً لهم ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، وعلى ما نالكم من المكاره ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ أي الأرض كلها لله ﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني أنه ليس الأمر كما قال فرعون، فإن القهر والغلبة لمن صبر، واستعان بالله، والعاقبةُ للمتقين أي الظفر والنَّصْرُ لمن اتقى الله تعالى.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أُوذِينَا ﴾ من جهة فرعون ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي رسولاً، يعنون به ما توعَّدهم فرعون به من إعادة قتل الأولاد، وسائر ما يفعل بهم، وذلك اشتكاء من فرعون لا أنهم كرهوا مجيئه، لأن ذلك كفر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لما رأى شدَّة جزعهم، مسلّياً لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل، وتوعَّدكم بما توعَّد ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾ أي يجعلكم خلفاء ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضهم بعد هلاكهم ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ أي يرى ويعلم ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإصلاح والإفساد، ليجازيكم على حسب ما يوجبه عملكم.

> ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك، بل رتب أسباب هلاكهم من حال إلى حال، إلى أن حلَّ بهم عذاب الاستئصال، والمرادُ بآل فرعون: أتباعُه ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ جمع سَنَة، والمراد به عامُ القحط والجدب، والمعنى: ولقد أخذنا قوم فرعون بالجدب والقحط، سنةً بعد سنة ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

بإصابة العاهات زيادة في القحط ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي ينتبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا وينزجروا، عمَّا هم عليه من العتوّ، والظلم والفساد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا في فعل الخير، لأن أحوال الشدة ترقّق القلوب، وترغِّب فيما عند الله، كذلك الشدائد والمصائب موجبات للانتباه والاعتبار، لكنْ لأهل السعادة وأولي الأبصار، فأما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة، ولا ترقّقهم شدَّةُ النقمة.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الحسنة: أي السَّعة والخِصْبُ ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي لأجلنا، ونحن مستحقوها، ولم يَرَوْا ذلك من فضل الله تعالى عليهم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء وما يكرهون في أنفسهم ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا بهم، ويقولوا ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وهذا شاهد بكمال قساوة قلوبهم، والتطيُّرُ: التشاؤم، والاسم منه طِيَرة، واشتقاقه من الطير، والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإن خرج أحدهم لمقصده، ورأى الطير من ناحية يمينه، تيمّنَ به، ويُسمى سانحاً، ويسير إلى مقصده، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به، ويسميه بارحاً، فيرجع إلى بيته ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ تصديره بكلمة التنبيه، لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي سبب خيرهم وشرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى أي في حكمه ومشيئته، المتضمنة للحِكَم، والمصالح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم، للإشعار بأن بعضهم يعلم، ولكن لا يعمل بمقتضى علمه، عناداً واستكباراً.

> ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي قوم فرعون بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا، والسنين، ونقص الثمرات ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ تحضره لدينا وتأتينا به﴿ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ سمَّوها آية لتسمية موسى عليه السلام، لا لاعتقادهم، أو قصدوا بذلك الاستهزاء، ولذلك قالوا ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ أي لتسحر بها أعيننا، ولتصرفنا عما نحن عليه من الدين، وهذا يدل على كمال الطغيان والجبروت ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدّقين لك، ومؤمنين بنبوّتك أصلاً، وكان موسى عليه السلام حديداً، ومستجاب الدعوة، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا جاء العقاب سريعاً، قال تعالى مبيناً ما أصابهم من البلاء.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ عقوبةً لجرائمهم، والطُّوفانُ: اسم لكل شيءٍ يحيط بالجهات ويعمُّ، كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء، وجاء تفسيره بذلك، عن ابن عباس، روي أن الطوفان دام سبعة أيام، فقالوا لموسى: ادع لنا يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، فنبت من العشب ما لم يعهد مثلُه، قالوا: هذا لنا نعمة، فلا والله لا نؤمن لك يا موسى، فنقضوا العهد، فبعث الله تعالى عليهم الجراد ﴿ وَٱلْجَرَادَ ﴾ وهو المعروف، سُمي جراداً لجرده ما على الأرض، وهو جند من جنود الله تعالى، يسلطه على من يشاء من عباده، روي عن سلمان الفارسي قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الجراد، فقال: أكثرُ جنودِ الله تعالى، لا آكلُه، ولا أحرِّمه»[1] روي أن الجراد أكلت، زروعهم وثمارهم، وعشبهم، فعجُّوا وضجُّوا، وقالوا لموسى: ادع لنا ربك لئن كشف الله عنا هذا لنؤمننَّ لك وأعطوه عهداً، فدعا ربه فكشف الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يفوا ما عاهدوا عليه، ثم بعث الله تعالى عليهم القُمَّل ﴿ وَٱلْقُمَّلَ ﴾ بضم القاف، وتشديد الميم: هو السُّوس أو

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة رقم ٣٨١٣، وابن ماجه في أبواب الصيد رقم ٣٢٥٨.

القملُ نفسه الذي يلحق البدن، والبراغيث، كذلك قيل: ولم يُصابوا ببلاء، كان أشدَّ عليهم من القمَّل، أخذ أشعارهم، ولزم جلودهم، ومنعهم النوم والقرار، فصرخوا بموسى: إنا نتوب فادع لنا ربك!! فدعا فرفع الله عنهم ذلك البلاء، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الضفادع، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضِفْدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه، وجعلت الضفادع تقذف أنفسها بالقدور وهي تغلي، فقالوا: ادع لنا ربك في كشف هذا، فدعا فكشف عنهم، فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم، فبعث الله عليهم الدم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دماً، فما يستقون من بئرٍ ولا نهر، إلا وجدوه دماً ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أي علامات ظاهرات، فيها عِبَرٌ وعظات، تدل على انتقام الله منهم. وكانت الآيات تأتي على فترات، تمكث فيهم من السبت إلى السبت، ثم ترتفع عنهم شهراً كما رُوي عن ابن جريج، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان، وكانوا مصرِّين على الإجرام، فلم تنفعهم تلك الزواجر والقوارع، وهذا يشير إلى طغيانهم وعتوهم، وإغراقهم في الضلال والطغيان.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي وحين نزل بهم ذلك العذاب المذكور، المفصَّل في الآيات المتقدمة ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء، بحق ما أكرمك به من النبوة، والمراد استعطافه ليدعو لهم بكشف البلاء، ثم قالوا مؤكدين الوعد ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي أقسمنا لك بعهد الله، لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن ولنرسلن معك أتباعك من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي هم واصلون إليه ولا بد، وهو وقت الغرق، والمراد أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمَّا أي فلما كشفنا

عنهم ذلك البلاء، فاجأوا النكث من غير تأمل، ونكثُ العهد: نقضُه، وأصل النكث فلُّ طاقات الصوف المغزول، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾أي فأردنا أن ننتقم منهم، لِمَا أسلفوا من المعاصي والجرائم ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي البحر العميق الذي لا يدرك قعره ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تعليل للإغراق، يعني أن سبب الإغراق هو التكذيب بالآيات، والإعراض عنها، وعدم الإذعان والقبول لدعوة موسى عليه السلام ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي لا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً، فلذلك كان الهلاك لهم بالإغراق.

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بالاستعباد، وذبح الأبناء، واستخدام النساء، وهم بنو إسرائيل، ذكروا بهذا العنوان، إظهاراً لكمال لطفه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة، إلى أوج العزة والسيادة، وفي الآية إشارة، إلى أن فضل الله سبحانه عند القلوب المنكسرة ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ يعني أرض الشام التي بارك الله فيها، والأرض المقدسة التي طلب موسى من فرعون أن يرسلهم معه ليذهب بهم إليها ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء عليهم السلام، والأحاديث في فضل الشام كثيرة، منها قوله ﷺ: «طوبى للشام فقيل له ولم قال: إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»[1] ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٩٤٩ ولفظه عن زيد بن ثابت أن رسول =

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدَّراً من إهلاك عدوهم، وتوريثهم الأرض، والحسنى تأنيث الأحسن، وصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يستحسنونه ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد، التي كابدوها من جهة فرعون وقومه، وحسبك بهذا تنويهاً على فضيلة الصبر، وإشارة إلى أن من قابل البلاء بالجزَعَ، وَكَلَه الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر، ضمن الله تعالى له الفرج ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون، في أرض مصر، من العمارات والقصور ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله عزَّ وجل من استعباد فرعون، ومنَّ عليهم من النعم العظام، الموجبة للشكر، تسليةً لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنهم جَرَوْا معه على دأب أسلافهم، مع موسى عليه السلام، وجَاوَزَ بمعنى: جاز، أي قطعنا البحر بهم، رُوي أنَّ موسى عليه السلام عَبَر بهم يوم عاشوراء، فصامُوا شكراً لله تعالى ﴿فَأَتَوْاْ﴾ أي مرُّوا بعد المجاوزة ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويسجدون لها، ويعبدونها من دون

= الله ﷺ قال: «طوبى للشام، فقلت: لمَ ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها».

الله ﴿قَالُوا﴾ أي قال بنو ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ﴾ إسرائيل عندما شاهدوا ذلك ﴿يَـٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ نعبده ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ أصنام يعبدونها، وهذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل، فلذلك ردَّ موسى عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم هذا، إثر ما شاهدوا من الآيات الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكّده بإنَّ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع!!.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٞ﴾ مكسَّر، مدمَّر، وهالك ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ من الدين، يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي، ويجعلها فتاتاً ﴿وَبَـٰطِلٞ﴾ مضمحل بالكلية ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي مااستمروا على عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله تعالى، لأنه كفر محض، وإنما بالغ فيه بالمؤكدات، تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَـٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَـٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَـٰهٗا﴾ أأطلب لكم معبوداً غير الله؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً؟ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ أي والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم، حيث قابلوا تخصيص الله إياهم عن أمثالهم، بأن قصدوا أن يشركوا به أخسَّ شيء من مخلوقاته، تباً لهم على ما يطلبون.

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَـٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تذكيرٌ لهم من جهته تعالى، بنعمة الإنجاء من فرعون الطاغية الجبار، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع التنبيهُ على أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره؟ حتى تقولوا: (اجعل لنا إلَهاً)؟.

﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أي وعدناه لإعطاء التوراة، والمناجاة، روي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر، أن يأتيهم بكتاب من الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلمَّا هلك فرعون، سأل موسى ربه، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ والعرب في أغلب تواريخها تذكر الليالي، لأن الليل هو الأصل، والنهار عارض، ولأن الليل غرر الشهور، فأمره أن يصوم ثلاثين، وهو شهر ذي القعدة، ويروى عن ابن عباس يرفعه، لمَّا أتى موسى ربَّه عزَّ وجلَّ، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين، كره أن يكلِّم ربَّه سبحانه وريحُ فمه ريحُ فم الصائم، فتناول من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرتَ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: أي ربِّ كرهتُ أن أكلِّمكَ إلاَّ وفمي طيِّبُ الرائحة، قال: أوَ ما علمتَ يا موسى أنَّ ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ وهذه العشرة من ذي الحجة، وإنزال التوراة كان في العشر، وكلَّمه ربه فيها ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تأكيد وإيضاح، أي تمت المدة أربعين ليلة على وجه التمام والكمال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ حين توجَّه إلى المناجاة، حسبما أمر به ﴿اخْلُفْنِي﴾ أي كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح في أمورهم،

وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك سبيل الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

والمقصود من هذا الأمر التأكيد، لأن هارون لم يكن ممن يتَّبع سبيل المفسدين، وذلك أن موسى كان يشاهد كثرة خلاف قومه حالاً بعد حال، فأوصاه في أمرهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه له، أي لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير واسطة كما يكلّم الملائكة، وسماعُ كلامه تعالى ليس من جنس سماع كلام البشر، ولا يشبه كلام المخلوقين، وقد كان هذا خصوصية لموسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيماً﴾ ولمّا سمع موسى كلامه تعالى، طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ أي أرني ذاتك، وهو محذوف لأنه معلوم، ولم يصرح به تأدباً، أي مكني من رؤيتك، فأنظر إليك وأراك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي، لن تراني بعينٍ فانية ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق الرؤية، والمراد من الجبل طور سيناء ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ ولم يفتّته التجلّي ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾ إذا تجليتُ لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر له، على الوجه اللائق بجنابه تعالى ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي مدكوكاً متفتتاً، والدكُّ: الدقُّ والانسحاق والتفتُّت، فأصبح الجبل متفتتاً تذروه الرياح. أخرج أحمد والترمذي والحاكم من طرق عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكا﴾ الخ قال: هكذا ـ وأشار بأصبعيه ووضع طرف إبهامه على

أنملة الخنصر ـ فساخ الجبلُ، وخرَّ موسى صعقاً[1]، وهذا من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم، وهو أسلم وأحكم ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ أي سقط من هول ما رآه ﴿صَعِقًا﴾ مغشياً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه، بعود الفهم والحسِّ، والإفاقة: رجوعُ العقل والفهم إلى الإنسان، بعد ذهابهما بسبب من الأسباب ﴿قَالَ﴾ موسى تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنه لا يراك أحد في هذه النشأة، واستدل أهل السنة المجوّزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك، وخلاصة الكلام في ذلك، أن أهل السنة قالوا: يدل على إمكان الرؤية من وجهين: **الأول**: أن موسى سألها، ولو كانت مستحيلة فالعاقل ـ فضلاً عن النبي ـ لا يسأل المحال. **والثاني**: أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل، وهو ممكن في نفسه، وما عُلّق على الممكن ممكن، ولقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع، والخوارج، والمعتزلة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) تكون للتأبيد ولا حجة لهم في ذلك، **قال الواحدي**: كون كلمة (لن) مفيدة لتأبيد النفي دعوى باطلة، ويدل على فساده قوله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ مع أنهم يتمنونه يوم القيامة، ولأنه لو كان للتأبيد، لكان ذكر الأبد تكراراً.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

(١) سنن الترمذي كتاب التفسير ٥/٢٤٨ ومعنى: ساخ الجبلُ أي غاص في الأرض وغاب عنها. وروى الطبري ١٣/٩٧ عن ابن عباس قال: «ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار تراباً، وخرَّ موسى مغشياً عليه».

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي قال الله عزَّ وجل تسليةً له وتأنيساً: إن منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظام ما يكفيك، فقد اصطفيتك أي اخترتك وخصصتك على الناس الموجودين في زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي بما منحتك من الرسالة الإلهية، وتكليمي لك بدون واسطة، وإنما جمع الرسالة ﴿بِرِسَالاَتِي﴾ لأن ما جاء به من الشريعة ضروب وأنواع، من التذكير والإرشاد، والحلال والحرام، وبيان أنواع المعاملات بين البشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلهذا جمعت الرسالات ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي فخذ ما وهبتك من شرف النبوة والتكليم، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم العظام.

ذكَّره تعالى بنعمه على جهة الإخبار، وقنَّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنّه يقول له: لا تتعداها إلى غيرها، ولا تطلب ما لا طاقة لك به!!.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي وكتبنا لموسى في الألواح العشر ـ وكانت من زبرجد على ما قال ابن عباس ـ كلَّ شيء ينفع، مما كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم، وكل ما فيه مصلحة لهم ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي إرشاداً لهم ليتعظوا بها وينزجروا، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام. وتقديم الموعظة لأنها الأساس في صلاح الإنسان، فالاهتمام بها أشد، والعناية بها أتمُّ، ألا ترى أن أكثر الفواصل في الكتاب العزيز، جاء على هذا النمط، نحو قوله سبحانه: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ واستمع إلى سورة الرحمن، وقد تكرَّر فيها قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ ثلاثين مرة، وذلك ليألف السامع بها اتعاظاً وادكاراً، ويجد فيها تنبيهاً واعتباراً!!.

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ على إضمار القول أي وقلنا له خذ ما في الألواح بجدٍّ وعزم، ونشاط واجتهاد، شأن أولي العزم ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي وأمرْ بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل، كالأخذ بالعزائم دون

الرُّخَص، فالعفو أفضل من القصاص، والصبرُ أفضل من الانتصار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1] قال ابن عباس: أمر موسى أن يأخذها بأشدَّ مما أمر بها قومه. ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيه إلى قومه، حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به، والرؤية هنا رؤية عينية تتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاسقين، والمراد بدار الفاسقين بلاد مصر، التي كانت تحت سلطان فرعون وزبانيته، والمعنى: سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم، ودمَّرهم الله لفسقهم وفجورهم، لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية من أهلها، موجب للاعتبار والانزجار.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ أي سأمنع وأصدُّ عن فهم آياتي، والتفكر بما فيها من العظات والعبر ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الذين يعدُّون أنفسهم كبراء، ويرون لهم على الخلق مزية، فلا ينتفعون بآيات الله التنزيلية والتكوينية[2] ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق، والتكبر بالحق لله وحده، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٢) الصرف عن فهم معاني الآيات جائز، لأنه إنما حدث بسوء اختيارهم، والممنوع إنما هو الجبر كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فمن عمي عن طريق الإيمان أعماه الله بسوء اختياره.

نازعني في واحد منهما قذفته في النار»[1] وأما التكبر على المتكبر فهو بحق، لما في الحكمة المشهورة: «التكبُّرُ على المتكبِّرِ صَدَقَةٌ» ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية، أو كل معجزة ربانية ﴿ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لتكبرهم وعنادهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ أي طريق الهدى والسَّداد ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي لا يتوجهون إلى الحق، ولا يسلكون سبيله أصلاً، لاستيلاء الهوى عليهم، وسبيل الرشد: طريقُ الهدى والصلاح ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ أي طريق الضلال ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً، لموافقته لأهوائهم الباطلة، وشهواتهم الحيوانية ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي المذكور من تكبرهم وعدم إيمانهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، وما وعدهم الله به من الحساب والجزاء ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي بطلت فصارت كأن لم تكن، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، ونحو ذلك ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في اللباس رقم ٤٠٩٠ ورواه مسلم في كتاب البر والصلة بلفظ «العزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذّبته» رقم ٢٦٢٠.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروها من القبط، حين همُّوا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم، وملكوها بعد هلاكهم. المتّخذُ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم، وكان السامري رجلاً صائغاً، ورجلاً مطاعاً في بني إسرائيل، فصاغ لهم ﴿عِجْلًا﴾ وهو ولد البقرة خاصة، والمفعول الثاني محذوف أي إلّهاً ﴿جَسَدًا﴾ أي بدناً ذا لحم ودم، خالياً من الروح ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوت البقر خاصة، كالنُباح للكلب، والزئير للأسد، والنهيق للحمار، وقد اتخذه السامري لهم من الحلي، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوارٌ أي صوت كصوت البقر، وقيل: إنَّ السامري صاغه مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب، وجعله في مهب الريح، فكانت الريحُ تدخل في تلك الأنابيب، فيسمع لها صوت يشبه خوار العجل، وكانوا كلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم، وإخلالهم بالنظر، والمعنى: ألم ير الذين اتخذوا إلّهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر، حتى عبدوه ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلّهاً، وأقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ أي إن دأبهم وعادتهم الظلم، فليس ببدعٍ منهم هذا المنكر العظيم.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعضُّ يده غماً، وتقول العرب لكل نادم: سُقط في يده، لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعضَّ يده، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[1] ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل، أي تبينوا

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٧.

وتيقَّنوا، حتى كأنهم رأوه بأعينهم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفِّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن خطيئاتنا، واللام في ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، أي والله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، وما حكي عنهم من الندامة والأسى إنما كان بعدما رجع موسى عليه السلام، كما تنطق به آية طه، لكنْ أُريد بتقديمه عليه، ليتصل ما قالوه بما فعلوه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان ما جرى من موسى بعد رجوعه من الميقات ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ الأسِفُ: شديدُ الغضب وقيل الحزينُ، أسِفَ أسفاً: حَزِنَ وتلهف فهو أسفٌ، أي ولمَّا عاد من الطور إلى قومه، غضوباً وحزيناً، لأن الله تعالى قد أخبره بما فعلوا، قال الواحدي: إذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبتَ، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنتَ، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل، حزيناً لأن الله تعالى فتنهم ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي بئس ما فعلتم بعدي، حيث عبدتم العجل، والخطابُ لمن عبد العجل والمخصوص بالذمّ محذوفٌ، تقديره: بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى ﴿مِن بَعدِي﴾ أي من بعد انطلاقي وأثناء غيبتي عنكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار نبيكم موسى؟ روي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ وإن موسى قد مات!! ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي طرحها من شدة الغضب، لفرط حميته

الدينية، وشدة غضبه لله تعالى، ولم يتمالك أو يتماسك نفسه وهم يطوفون حول العجل ويسجدون. رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله تعالى موسى، ليس المُعَايِنُ كالمُخْبَر، أخبره ربُّه تبارك وتعالى أنَّ قومه فُتنوا بعده، فلم يُلق الألواح، فلمَّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسَّر منها ما تكسر»[1] ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعر رأس هٰرون، لأنه هو الذي يؤخذ ويمسك عادة، ولا ينافي أخذه بلحيته كما وقع في سورة طه فقد جمع بينهما ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصَّر في كفّهم، ولم يتمالك نفسه لشدة غضبه، وهٰرون كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان هيِّناً ليناً، ولم يقصد موسى بهذا إهانته، بل اللوم على التقصير ﴿قَالَ﴾ أي هٰرون مخاطباً لموسى ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرقّقه عليه، وكانا من أب وأم، وفيه استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي استذلوني وقهروني، ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي قاربوا أو همُّوا أن يقتلوني حين نهيتهم عن ذلك، قاله إزاحةً لتوهم التقصير ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، والمراد من الأعداء القوم المذكورون ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة، أو بنسبة التقصير.

﴿قَالَ﴾ أي فلما اتضح لموسى عذرُ أخيه قال ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما فعلت بأخي قبل جليّة الحال ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرط منه تقصير، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضيةً له، ودفعاً للشماتة عنه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأنت أرحم بنا منَّا على أنفسنا، فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأحمد في المسند ١/ ٢١٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً وعبدوه، واستمروا على عبادته كالسامري وأشياعه ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لما أن جريمتهم أعظم الجرائم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مالكهم ﴿ وَذِلَّةٌ ﴾ كبيرة ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فإن قيل: إنه تعالى بيّن أن القوم ندموا، بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ والندمُ توبةٌ، فهل قَبِلَ الله توبتهم؟ والجواب وَرَدَّ بعده قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الذِّينَ اتَّخَذُوا العجلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ﴾ لأنهم ما ندموا وإنما خافوا من العقاب، وكان من تمام توبة القوم الأمر لهم بقتل أنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾[1] أي ليقتل البريءُ المجرم. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ أي إن كل مفتر في دين الله، فجزاؤه غضب الله، والذلةُ في الدنيا، عن مالك بن أنس قال: ما من مبتدع إلا وجد فوق رأسه الذلة، وقرأ هذه الآية.

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد عملها ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، ولم يصرُّوا على ما فعلوا، بل لزموا فعل الخيرات وعمل الصالحات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة، المقرونة بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية، وهذا من أعظم البشارة للمذنبين التائبين.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٤.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ شروع في بقية الحكاية، وفي هذا النظم الكريم، من البلاغة والمبالغة ما فيه، فقد شبَّه الغضب بشخص يُرعد ويزمجر، ويريد أن يبطش بخصمه، وصوتُه يرتفع يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة؛ أي ولمَّا سكن غضبه، باعتذار أخيه، وتوبة القوم ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها وكُتب ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق عظيم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي للخائفين من ربهم الذين يخشون عقابه.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ أي اختار من قومه، يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ الميقات الذي وقتناه، بعدما وقع من قومه ما وقع من عبادة العجل. روي أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه تعالى، ويسألونه التوبة على من عبد منهم العجل، فاختار منهم سبعين رجلاً، وأمرهم أن يتطهروا ويصوموا، ويطهّروا ثيابهم، ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه، فلما دنوا إلى الجبل غشيه الغمام، فأقبلوا إليه فدخل موسى بهم الغمام، وخرُّوا سجداً،

فسمعوا الأمر والنهي، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَىٰ الله جَهْرَةً﴾[1] أي عياناً، وهذا من غطرستهم وطغيانهم ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الصاعقة حيث رجف بهم الجبل فصعقوا وماتوا، فلما رأى موسى ذلك أَسِفَ عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعَّب عليه، إذا لم يرجع بالقوم، فجعل يستعطف ربه ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل، إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم؟!.

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي لو شئت يا رب أهلكتهم وأهلكتني معهم، قبل أن أرى ما أرى، فإنَّا عبيدك وتحت قهرك، تفعل بنا ما تشاء!! وهذا محضُ استعطاف ورجاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل، بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون الجاهلون في قولهم: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾؟ ـ نعوذ بالله من خُبث اليهود ـ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا ابتلاؤك وامتحانك، تختبر عبادك بما تشاء بالسراء والضراء، و«إن» هنا نافية بمعنى «ما» والمراد بالفتنة الامتحانُ والاختبار، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ أي بالفتنة تضل من علمت منهم اختيارهم للضلالة، وتهدي بها من علمت منهم اختيار الهدى وطريق السلامة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي أنت القائم بتدبير أمورنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا رب خير من صفح وستر.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية وحياة طيبة ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا أيضاً في الآخرة حسنة، وهي المثوبة الحسنى،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا وأنبنا إليك، من هادَ إذا رجع والمعنى: إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها، فبعيدٌ من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه وليس لأحد الاعتراض عليَّ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي شأنها أنها واسعة، تبلغ كل شيء، فما من مسلم ولا كافر، ولا مطيع ولا عاص، إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة سعة الرحمة بصيغة الماضي، إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي فسأثبتها وأعينها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والمعاصي، وفيه تعريض بالقوم، كأنه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصَّها بالذكر تشريفاً لها، ولأنها كانت أشق عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً مستمراً، من غير إخلال بشيء منها، وفيه تعريض بهم أيضاً، لأنهم كفروا بالآيات العظام التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي الذي أنبأ الخلق عن الله تعالى التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات، وضمَّ إلى ذلك اتباع النبي ﷺ وباعتقاد نبوته من حيث وجدوا

صفته في التوراة، والمراد بهم من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول ﷺ، فبيَّن تعالى أن هؤلاء لا يكتب لهم الرحمة، إلا إذا اتبعوا الرسول ﷺ ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو نسبة إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم ذلك، أو إلى أمه، كأنه على الحالة التي ولدته أمه، وهو بالنسبة إليه ﷺ صفة مدح، ووصفه بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه مع أميته إحدى معجزاته ﷺ ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ﴾ باسمه ونعوته الشريفة؛ بحيث لا يشكُّون أنه هو، وأن شأنه ﷺ حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ أي في كتبهم السماوية، روي عن عبد الله بن سلام قال: صفة الرسول الله ﷺ في التوراة: «يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكنْ يعفو ويصفحُ، ولن يقبضه الله تعالى، حتى يُقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولُوا: «لا إلهَ إلاَّ الله» ويفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً»[1] وجاء من حديث سهل مولى خيثمة قال: «قرأت في الإنجيل نعتَ محمد ﷺ أنه لا قصير، ولا طويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، لا يقبل الصَّدقة، ويركب الحمارَ والبعيرَ، وهو من ذرية إسماعيل، اسمه أحمد»[2] وجاء من خبر أخرجه البيهقي عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى أوحى في الزبور، يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي، اسمه أحمد[3]، فالرسول عليه الصلاة والسلام مذكور صفته في الكتب الإلهية، وعلى وجه الخصوص في التوراة والإنجيل، كما جاء في صحيح البخاري في صفة النبي الأمي في التوراة ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المعروفُ: ما استحسنه الشرع، وارتضته العقول

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٨٥ قريباً من هذا اللفظ، والرواية المذكورة للبيهقي والدارمي.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن سهل مولى خيثمة.

(٣) أخرجه البيهقي من رواية وهب بن منبه، وهو أثر موقوف.

السليمة، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، لقوله ﷺ «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»(١) والمنكرُ: ما استقبحه الشرع ولم تقبله العقول السليمة، والمعنى: يأمرهم بكل ما فيه خير ومنفعة لهم، وينهاهم عن كل ما فيه أذى وضرر عليهم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ المراد بالطيبات الأمور الحلال التي يستطيبها الطبع، وبالخبائث: الأشياء المحرمة التي تستقذرها النفس، كالدم، والخنزير، والعقارب، والخنافس، والحيات، والوزغ، وسائر المستقذرات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإِصْرُ: الثقل والمراد به التكاليف الشاقة الصعبة، والأغلال جمع غُلّ، وأصله الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، والأغلالُ: استعارةٌ عن الأثقال الشاقة التي تشبه الأغلال، والمعنى: يرفع عنهم الأثقال والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم، كقطع الجلد والثوب من أثر البول، ووجوب القصاص دون الدية في القتل، وترك الاشتغال يوم السبت، وقد روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، وجاءت الشريعة الإسلامية برفع جميع تلك الأثقال كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفيَّة السهلة السمحة»(٢) ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوه وآمنوا برسالته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي قاموا بنصرته على أعداء الدين، وناصروه على جميع من عاداه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي اتبعوا القرآن المجيد، والشرع الحنيف الذي جاءهم به من عند الله، شبَّه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوبُ تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الفاضلة، هم الفائزون بالرحمة الأبدية، الناجون من الشدائد والكربات يوم القيامة، ومعنى الفلاح: النجاح والفوز بالمحبوب.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمم حُسْن الأخلاق».

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق، لأن الخطاب عام لجميع الناس، أي قل يا رسول الله: إني رسول من عند الله بعثني الله إليكم جميعاً، فشرعي واضح، ورسالتي عامة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ روى الشيخان عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لِيَ الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»[1]. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لجميع الكائنات، مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فصدقوا بالله وآياته، وصدّقوا برسوله، المبعوث إلى جميع خلقه، وذكر الرسول ﷺ بعنوان الرسالة، للمبالغة في إيجاب الامتثال، ووصفه بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لمدحه ولزيادة تقرير أمره، أي النبي الأمي، صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ أي بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التيمم ٣٦٩/١ ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ والنسائي ٢١٠/١.

عليهم السلام، من كتبه ووحيه، المصدّق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء، والتصريح بالإيمان بالله تعالى، للتنبيه على أن الإيمان به سبحانه لا يصح حتى يؤمن الإنسان بجميع كتب الله ورسله، وإلاّ لم ينفع صاحبه شيئاً، والدين كلٌّ لا يتجزأ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي رجاءً لاهتدائكم إلى المطلوب، وفي تعليقه بهما، إيذانٌ بأن من صدَّقه ولم يستمسك بالتزام أحكام شريعته، فهو بمعزل من الاهتداء، مستمر على الغي والضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبسين به، أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ﴾ أي وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم، والمراد بهم الثابتون على الإيمان، القائمون بالحق، من أهل زمانه، ذكَرَهم تعالى تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر، وتزاحم أهل الحق والباطل، أمر مستمر، فمن قوم موسى أناس مهتدون، وأناس ضالون، والكلام مسوقٌ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص الرحمة والتقوى، بمتَّبعي رسول الله ﷺ، من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي وصيَّرناهم قِطَعاً، متميزاً بعضهم من بعض أي قوم موسى ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي صيرناهم اثنتي عشرة قطعة، وكل سبط أمةٌ عظيمة، وكل واحدة كانت قبائل شتى، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وفرَّقهم كذلك ليرجع أمر كل قبيلة إلى رئيسهم، ليخفّ أمرهم على موسى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي وأوحينا إلى موسى حين استولى على قومه العطش في التيه، أن يضرب الحجرَ بعصاه فضربه، فانبجست أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط والقبائل، لئلا يقتتلوا على الماء ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل جماعة وكل قبيلة منهم عينهم الخاصة بهم، وهذه إحدى معجزات موسى عليه السلام، حيث تفجرت من الحجر الأصم، عيون الماء الدافق، كما نبع الماء من بين أصابع نبينا المصطفى ﷺ معجزة له ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ أي جعلنا الغمام يسترهم من حر الشمس وهم في الصحراء، ويقيهم من أذاها، ويسير معهم حيث ساروا ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناهم برزق هنيءٍ شهي، من عندنا تكرماً عليهم، وهو «المنُّ» شيء حلوٌ لذيذٌ ينزل على الشجر، فيجمعونه ويأكلونه، و«السلوى» وهو طير لذيذ اللحم، يسمى «طير السُّمَّاني» دون كدٍّ منهم ولا تعب، فطعامهم الحلوى ولحم الطير ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ على إضمار القول، أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ، الذي أكرمناكم به من فضلنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرَّضوها بالكفر والجحود، لعذاب الله عزَّ وجل، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول حين قلنا لأسلافهم: اسكنوا هذه البلدة المباركة «بيت المقدس» الذي باركنا

حوله بأنواع الخيرات والبركات ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي وكلوا من مطاعمها وخيراتها وثمارها من أي جهةٍ ومكانٍ شئتم، وكلوا مما تشتهون من خيراتها ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي قولوا حين دخولكم بيت المقدس تائبين مستغفرين: اللهم حطَّ عنا ذنوبنا، وهي كلمة استغفار، كما يقول المؤمن: أستغفر الله العظيم ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب بيت المقدس، حال كونكم ساجدين شكراً لله تعالى ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَٰتِكُمْ﴾ أي نعفو عن جميع ذنوبكم، وسيئاتكم التي اقترفتموها، ونمحو عنكم الخطايا والآثام ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا عملهم، بطاعة الله، وامتثال أوامره، سنزيدهم من فضلنا فوق الغفران دخول الجنان.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي فغيَّر الظالمون منهم أمر الله، وقالوا كلاماً لا يليق، حيث قالوا بدل «حطة» حنطة في شعيرة، وعوضاً عن أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله، دخلوا يزحفون على أدبارهم، سخرية واستهزاءً بأمر الله. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ﴿وَادخُلوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغفِر لَكُم خَطِيئَاتِكُم﴾ فبدَّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - وقالوا: حبةٌ في شَعْرة»[1].

والحاصل: أنهم خالفوا ما أُمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا بالسجود عند دخولهم البلدة المقدسة، شكراً لله تعالى، وأن يقولوا: حطة، فبدَّلوا السجود بالزحف، وقالوا: «حنطة» بدل حطة استهزاءً، وزادوا فيها حبة في شعيرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا على هؤلاء الظالمين عذاباً هائلاً - وهو الطاعون - بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر، وقد روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً منهم بالطاعون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٠٤ من فتح الباري.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك، سؤال تقريع وتوبيخ[1]، والمراد إعلامهم بذلك، لأنهم كانوا يخفونه، والإعلام بما هو من علومهم، التي لا تعلم إلاّ بتعليم، أو وحي، لتكون لك معجزةً عليهم ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها، وما جرى على أهلها، وهي عند ابن عباس «أيلة» بين مدين والطور، وعن ابن شهاب هي طبرية ﴿ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله، بالصيد يوم السبت، وقد نُهوا عنه ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ حيتان جمع حوت، أي حين تأتيهم الأسماك يوم السبت، لاعتيادها أحوالهم في عدم التعرض لها في ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبتِ ﴿ شُرَّعًا ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء، كما قال ابن عباس، جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أي وفي غير يوم السبت ـ وهي سائر الأيام ـ لا تأتيهم، بل تغيب وتختفي حذراً من صيدهم، وكان ذلك بمحض تقدير العزيز العليم ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر، ليظهر عدوانهم ونؤاخذهم به ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم المستمر، وانتهاكهم لحرمات الله.

---

(١) كان اليهود المعارضون لرسول الله ﷺ يقولون: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان، ولا معاندة لما أُمروا به، فنزلت الآية موبخةً لهم، ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على وجه التوبيخ. المحرر الوجيز لابن عطية ٦/ ١٣.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي جماعة من أهل القرية، يعني صلحاؤهم الذين اجتهدوا في موعظتهم، حتى أيسوا من اتعاظهم، قيل: إن أهل القرية، افترقوا على ثلاث فرق: فرقة اعتدت، وفرقة وَعَظَتْ، وفرقةٌ قالت للواعظين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي مستأصلهم بالكلية ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي مهلكهم بالخسف أو المسخ، لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق، والعصيان، قالوه بمحضر من القوم، حثاً لهم على الاتعاظ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المقول لهم ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى، حتى لا نُنسب إلى تفريطٍ في النهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولطمعنا في أن يتقوا الله، فينزعوا عمَّا هم فيه من الإجرام.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم، تَرْكَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه بالكلية، بحيث لم تنجع فيهم تلك المواعظ أصلاً.

والنسيانُ هنا مجاز عن الترك، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، وإنما يؤاخذه بالإهمال والعصيان ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي نجينا من العذاب الناهين عن الفساد في الأرض، الواعظين المذكّرين. وقد اختلف السلف في الفرقة الثانية، التي لم تأمر ولم تنه بل سكتت.

فقال ابن عباس: ما أدري ما فُعل بالفرقة التي لم تنه ولم تأمر؟.

وقال ابن زيد: إنها هلكت مع الهالكين، لأن الله تعالى ذكر أنه نجّى الذين نهوا عن السوء.

وروى القرطبي عن عكرمة أنه قال: «قلت لابن عباس لمَّا قال: ما أدري ما فُعل بهم؟ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوماً ما اللهُ مُهلِكُهُم﴾؟ فلم أزل به حتى عرَّفتُه أنهم قد نجوا، قال: فكساني حُلَّة»[1].

أمَّا شمول النص للناهين المحذرين فواضح، وأما شموله للساكتين، فلأنهم أنكروا أيضاً، ولكنهم لما رأوا عدم نفع النصيحة كفُّوا، وذلك إنكار بالقلب، وقد نصَّ الفقهاء أن الناهي إذا أيقن عدم نفع النصح، لا يأثم بتركه، لدخوله في باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الغارقين في الشراب، أو الموغلين بالربا والقمار، لتعظهم وتكفَّهم عما هم فيه من الضلال، سخروا وضحكوا عليك، وذهب كلامك معهم سدى[2]!! ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي أخذنا الطغاة الظالمين، بعذاب مؤلم موجع شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم الدائم المستمر، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا عن أمرنا وطاعتنا، وتكبَّروا، وأبوا تركَ ما نُهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي مُسخوا إلى قردة وجعلناهم صاغرين أذلاء، مبعدين عن كل خير، وترتيب المسخ على العتو ليس لخصوصية الصيد، بل العمدة في ذلك، هو المخالفةُ للأمر، والاستعصاء عليه عزَّ وجلَّ، والأمر تكويني لا تكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يُكلَّفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٠٧ قال القرطبي: وهذا مذهب الحسن البصري أيضاً، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة المعتدية لا غير، قوله تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾.

(٢) النصيحة واجبة للبرِّ والفاجر، إلاَّ إذا كان الضرر الناتج عن النصح أشدّ من سابقه، كما بيَّن الشيخ رحمه الله، كالنصيحة للملاحدة والشيوعيين، الذين لا يزيد معهم النصح إلاَّ سخرية واستهزاءً، فهؤلاء أمثال الحيوانات لا يُنصحون ولا يُحَدَّثون!!.

أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١) والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذّبهم أولاً بعذاب شديد، فاستعصوا وعتوا عن أمر الله، فمسخهم الله إلى قردة تتعاوى. وروي أن الناهين لمّا يئسوا من اتعاظ المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدارٍ، فأصبحوا يوماً ولم يخرج أحد من المعتدين، فقالوا إن لهم شأناً، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧)﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإذن وهو بمعنى آذن أي أعلم ربك يا محمد ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ليسلطنَّ على اليهود، لا المعتدين الذين مُسخوا قردة، إذ لم يبقوا ، أي ليسلطنَّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي إلى انتهاء الدنيا، وهذا نصٌّ في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا، مستمراً إلى يوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ أي يذيقهم ويوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال، وضرب الجزية، والإهانة، ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٠.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أي فرَّقنا بني إسرائيل في الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم في قطرٍ من أقطارها، بحيث لا تخلو ناحية منها منهم، حتى لا تكون لهم شوكة قط ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ وهم من آمن بالله ورسوله، وثبت على دينه في زمانه، قبل مجيء عيسى ابن مريم، ثم الذين آمنوا بالرسول ﷺ بعد بعثته ودخلوا في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي منحطون عن مرتبة الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره، وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ بالنِّعَم، والخصب، والعافية ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ الجدب، والشدة، النِّقم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي إلى طاعة ربهم.

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد الصالحين ﴿ خَلْفٌ ﴾ بسكون اللام أي بدلُ سوء، وهو الشائع في الشر، والخَلَف بفتح اللام في الخير، يقال: جعلك الله خير خَلَف لخَير سَلَف، والمراد أنه جاء من بعد أولئك الصالحين، جماعة أشرارٌ فجار ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ أي انتقل الكتاب إليهم عن آبائهم «التوراة» يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي، ولم يعملوا بها، ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ ﴾ العَرَض جميع متاع الدنيا إلا الدراهم والدنانير، فإنها عَيْنٌ، وفي الأثر: «الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأخذ منها البرُّ والفاجر».

والأدنى صفة لمحذوف أي الشيء الأدنى، والمراد به الدنيا، وهي من الدنو للقرب بالنسبة إلى الآخرة، والمراد بهذا العرض ما كانوا يأخذون من الرشاوى في الحكومات، وعلى تحريف الكلام ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ ﴾ أي لن يؤاخذنا الله بذلك، فيتمنون على الله الأماني الباطلة، كما جاء في الحديث الشريف: «الكيّس من دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني»(١) ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ في

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦١ وقال: هذا حديث حسن.

موضع الحال، أي يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين عنه، وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب والآثام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي الميثاق المذكور في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد أن يقولوا الحق، ولا يكذبوا على الله؟ والمراد به الردُّ عليهم، والتوبيخ لهم على ادعائهم القول بالمغفرة بلا توبة، والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه وتبصَّروا بما فيه، فهم ذاكرون لذلك، لأنهم دارسون له، ولكنْ ضيَّعوا العمل به ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عقابه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فتعلموا ذلك، ولا تستبدلوا الأدنى، المؤدي إلى العذاب، بالنعيم المقيم؟ وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق، وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم، يقال أمسك بالشيء، وتمسَّك به بمعنى اعتصم، والمراد بهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ، والكتاب القرآن الجليل ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنها عماد الدين، وأعظم العبادات بعد الإيمان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب المحسنين منهم، وضع الظاهر موضع المضمر، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذبُ والرفعُ، أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي سقيفة أو سحابة ﴿وَظَنُّوا﴾ أي تيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجذب، وفي الأثر: أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا

التوراة، فأمر الله جبريل أن يرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم وإلا ليقعنَّ عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجُدُ إلاَّ على حاجبه الأيسر ﴿خُذُوا﴾ أي وقلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجدّ وعزم على تحمل مشاقه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائح الأعمال، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ احتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام، وتوبيخهم بنقضه، أي واذكر للخلق حين أخذ ربك ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المراد بهم أولاد آدم جميعاً ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يُستودعوا بعدُ في أرحام الأمهات، والتقديرُ: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المراد أولادهم على العموم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أشهد كل واحد، من أولئك الذرية، أن الله ربُّه بما ركَّب في عقولهم، من الإقرار بربوبية الله جلَّ وعلا، وصاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أي خالقكم ومالك أمركم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ على أنفسنا بأنك ربنا، لا ربَّ لنا غيرك، والمراد أقررنا بذلك، والكلام عند بعض المفسرين، أنه تمثيل لخلقه تعالى الخلق على مبدأ الفطرة، مستعدّين للاستدلال بالأدلة الكونية إلى التوحيد، كما نطق به قوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث. وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت

ربنا شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك من غيرِ أن يكون هناك أخذ وإشهاد، وسؤال وجواب كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] إلى هذا ذهب بعض أهل التفسير، منهم الزجاج، والزمخشري، وأبو حيان وأبو السعود، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله أخرج ذرية آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق[2]، وجعل الله لهم عقلاً، وفهماً تعقل به، كما قال في النملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي لئلا تقولوا يوم البعث والحساب، عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ عن وحدانيته تعالى وأحكامها ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ لم نتنبَّهْ عليه، فلا سبيل إلى الاعتذار بذلك، إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر، من خَلْقِهِم على الفطرة السليمة.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا﴾ أو تقولوا في ذلك اليوم ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي إن آباءنا هم اخترعوا الإشراك، وهم سنُّوه من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى سبيل التوحيد فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أي أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا المضلين

---

(١) سورة فُصّلت، آية: ١١.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٧٥ بعد أن ساق الأحاديث، والآثار، والأخبار الواردة عن السلف قال: فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديثين عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثمَّ قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل من آدم وقال ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره وقال ﴿ذرياتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كما قال سبحانه: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، ثم أفاض في الموضوع رحمه الله تعالى.

والاعتذار بهذا باطل أيضاً، لأن التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا مساغ له أيضاً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ للمنافع الجليلة ليتدبرها العباد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الإصرار على الباطل، وعن الشرك والتقليد الخاسر.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود أو على قومك ﴿ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر. وهو كما روى ابن عباس «بلعم بن باعوراء» وكان من بني إسرائيل، وكان قد أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، والتعبير عنه بالانسلاخ فيه إشارة إلى أن الإيمان كان طِلاءً، ولم يتمكن من قلبه كما تنسلخ الحية من جلدها، وهو مؤذن بكمال مباينته للآيات الهادية ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي تبعه حتى لحقه وأدركه، فصار قريناً له، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية، ومبالغة في اللحوق، إذ جعل كأنه أمام الشيطان ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فصار من زمرة الضالين، الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين، بما خالف ربه، وأطاع هواه وشيطانه، روي عن مالك بن دينار أنَّ «بلعم» كان من علماء بني إسرائيل، وكان موسى يقدّمه في الشدائد، وينعم عليه،

فبعثه إلى ملك مَدْين، يدعوهم إلى الله تعالى، فترك دين موسى، واتَّبع دين الملك فزاغ وضلَّ.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ في الكلام حذف المفعول لمشيئة أي لو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل العلماء الأبرار، ﴿ لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أي إلى المنازل العالية، بسبب تلك الآيات، بمحض مشيئتنا ولكنها منافية للحكمة التشريعية، المؤسسة على تعليق الجزاء بالأفعال الاختيارية للعباد ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى الدنيا ومال إليها، وأصل الإخلاد: اللزومُ للمكان، من الخلود ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وإعراضه عن مقتضى الآيات، فانحطَّ أسفل السافلين، وهذه الآية أشد الآيات على العلماء، الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس. عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء، على المال والشرف لدينه»[1].

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل فقال ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ أي فقصته التي هي مثل في الخِسَّة، كمثل الكلب لما أنه أخس الحيوانات ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي إن تزجره وتطرده ﴿ يَلْهَثْ ﴾ يدلع لسانه ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ ﴾ غير مطرودٍ ﴿ يَلْهَث ﴾ اللَّهثُ: ادّلاعُ اللسان بالنّفس الشديد، وهو في الكلاب طبعٌ، لضعف قلبها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلاَّ عند التعب والإعياء[2] ﴿ ذَّٰلِكَ ﴾ أي ذلك المثل ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ومنهم اليهود، حيث أوتوا ما أوتوا في التوراة، من نعوت النبي ﷺ، فصدّقوه وبشّروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا من التوراة

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ١٤٨٢ وصحّحه، ورواه النسائي وابن حبان.

(٢) أي مثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه سعى فلهث، وإن تركته على سجيته دون إزعاج لهث، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائق الجمال، في التصوير والإبداع.

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي إذا تحقق أن المثل المذكور مَثَلُ هؤلاء المكذبين، فاقصص ذلك عليهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيقفون على جليّة الأمر، وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ استئناف مسوق لبيان قبح حال المكذبين، بعد بيان كونه كحال الكلب ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي هذا المثل السيىء هو مَثَلٌ لكل من كذَّب بآيات الله، وجحد نعمة فضل العلم والهداية ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ما ظلموا إلاَّ أنفسهم، فإن وبالها لا يتخطاها.

ومن تفكر الأمثال المضروبة في التنزيل، في حق المشركين والأصنام من بيت العنكبوت، والذباب، تحقق له أن مثل علماء السوء، أسوأ وأقبح من ذلك، لما هم فيه من التهالك على الدنيا، مالِهَا وجاهِهَا، والركونِ إلى لذاتها وشهواتها، ولذلك مثَّل لهم بالكلب كما مثَّل لهم بالحمار، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ تحقيق وتأكيد لما تضمنته القصة السابقة، بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهته سبحانه وتعالى، أي من يخلق الله فيه الاهتداء، فهو المهتدي لا غير كائناً من كان، ولو كان الهدى من الله البيانُ ـ كما قالت المعتزلة ـ لاستوى المؤمن والكافر، إذ البيان ثابت في حق الفريقين، فدلَّ أنه من الله عز وجل التوفيقُ، والعصمةُ، والمعونةُ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن، وفي الإخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي، تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه شيء جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ بأن خلق فيه الضلالة، لصرف اختياره نحوها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي

الكاملون في الخسران لا غير، وإفراد المهتدي، وجمع الخاسرين للإيذان باتحاد منهاج الهدى، وتفرُّق طرق الضلالة وتشعُّبها.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الذرأ: الخلقُ، وبذلك فسره ابن عباس، أي والله لقد خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم المصرون على الكفر، واللام للعاقبة، كقول الشاعر: «لِدُوا للموتِ وابْنُوا للِخَرَابِ» وتقديم الجن لأنهم أقدم خلقا، ولا يشكل أنهم خُلقوا من النار، فلا يشقُّ عليهم دخولها؟ لأنا نقول: إن الغالب عليهم الجزء الناري، لا يأبى تضررهم بها، فإن الإنس خلقوا من الطين، ويتضررون به، على أن النار لم تبق فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها، كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب قاسية عليلة، لا يفهمون بها الحقَّ ولا يدركون فوائده، وهذا وصف للقلوب بتمام الإغراق في القساوة، فإنها حيث لم يأت منها الفقه، فكأنها غير قابلة له رأساً، وحذفُ المفعول للتعميم، أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ المراد بالإبصار والسمع المنفيين، ما يختص بالعقلاء من الإدراك، النافع، لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشَّبَح والصوت، كما هو وظيفة الأنعام، أي لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات، التي ينتفعون بها لمعرفة عظمة الخالق ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ شيئاً من المسموعات النافعة، فيتناول الآيات التنزيلية، وهذا كله للشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالأوصاف المذكورة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالدواب والبهائم في عدم الفقه والبصر والإدراك، لأن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي بل هم أسوأ حالاً من الأنعام، فإنها تدرك

المنافع والمضار، فتجتهد في جلبها وسلبها، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميّزون بين المنافع والمضار، بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم، ويقدمون على العذاب الأليم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم، وما أعد الله تعالى من الثواب والعقاب.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ والحُسْنى: تأنيث الأحسن، أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها ـ قال البخاري: المراد به حفظها ـ دخل الجنة»[1] ولا يظنن أحد أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار، بل له سبحانه أسماء غيرها استأثر بعلمها[2]، ولما كان لا سبيل إلى معرفة ذاته عز وجل، إلا بمعرفة أفعاله، وهذا بحر لا ساحل له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ فسمُّوه بتلك الأسماء الجليلة ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ أي اتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم: يا أبا المكارم، ويا أبيض الوجه ونحو ذلك، فإن أسماء الله تعالى توقيفية، يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ١١/٢١٤ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٧٧ وزاد مسلم «وإنَّ الله وترٌ يحبُّ الوتر».

(٢) يدل على ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو ستأثرتَ به في علم الغيب عندك..» الحديث.

جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه، والإلحاد في أسمائه تعالى كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله، والعُزّى من العزيز، ومناة من المنّان، كما ينبغي أن يراعى حسن الأدب، فلا يجوز أن نقول يا ضار، ويا خالق القردة على الانفراد، وإن كان الله خالقاً لكل شيء، والمراد بالترك الإعراضُ وعدمُ المبالاة بما فعلوا، ترقباً لنزول العقوبة فيهم عن قريب، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه وقع جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لم لا نبالي بإلحادهم؟ فقيل: سينزل بهم عقوبة عن قريب.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض البشر التي خلقنا، طائفة جليلة يهدون الناس، ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية بينهم، ولا يجورون، والمراد بهم أمة محمد ﷺ، روى الشيخان عن معاوية قال: قال ﷺ: «لا تزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله تعالى، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»[1]، واستدل بالآية على صحة الإجماع، لأن المراد منه، أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة، إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ لم يكن لذكره فائدة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/٢٩٣ من فتح الباري شرح صحيح البخاري.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ولم تنفعهم هداية الهادين، كأهل مكة وغيرهم، وإضافة الآيات إلى الله لتشريفها واستعظام الإقدام على التكذيب بها ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سنقرّبهم البتة إلى ما يهلكهم قليلاً، قليلاً، والاستدراجُ من الدرجة، بمعنى النقل درجةً بعد درجة، من سفلٍ إلى علو أو بالعكس، فيكون استنزالاً، ثم اتسع في كل نقل تدريجي، سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط، والمعنى المراد هو النقل إلى دركات المهالك، ليبلغ أقصى مراتب العقوبة، ولذا قيل: إذا رأيتَ الله تعالى ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، والجِبِلَّةُ الإنسانية في أصل الفطرة، سليمةٌ متهيأة لقبول الحق والدين، فإذا أخلد إلى الأرض، واتبع الشهوات، ينزل درجة درجة إلى أسفل السافلين، فيزداد بطراً وطغياناً، إلى أن تحقَّ عليه كلمةُ العذاب ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كذلك، بل يظنون أنه لطفٌ من الله تعالى بهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ الإملاءُ: عبارة عن الإمهال أي أمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان، وهو تقرير للوعيد، وتأكيد له، أي قوي لا يُدافع بقوة ولا بحيلة.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ في شأنه ﷺ ليعرفوا حقيقة حاله، الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه، من الآيات التي كذبوا بها، والهمزة للإنكار والتعجب، والتوبيخ ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني الرسول ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي من جنون، والجنَّةُ بكسر الجيم بمعنى الجنون، والتنكيرُ للتقليل والتحقير، أي كذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون كائنٍ بصاحبهم، والتعبير عنه «بصاحبهم» للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ﷺ، مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون، ففيه تأكيد للنكير، وعن الحسن وقتادة أنه ﷺ صعد على الصفا، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، يحذّرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنونٌ، فنزلت ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

﴿مُّبِينٌ﴾ أي ما هو إلا رسول منذر، واضح الأمر والإنذار، معروف حاله فقد كان ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل، ويقيم الدلائل القاطعة، بألفاظ فصيحة، وكان ﷺ حسن الخلق، طيّب العِشرة، نقيَّ السيرة، مواظباً على أعمال حسنة، وصار قدوة للعقلاء، وإماماً للصالحين، والمعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، بل إنما هو نذير مبين أرسله رب العالمين، ثم لما كان أمر النبوة مفرعاً على التوحيد، ذكر سبحانه ما يدل عليه فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما في السموات والأرض من العجائب والمخلوقات، والملكوتُ: الملك الواسع، وهو من أبنية المبالغة كالرهبوت، والجبروت، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، حيث لم يتفكروا فيما يدلُّ عليه من كمال قدرة الصانع، ووحدة المبدع، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم ﷺ، والتعبير بالنظر هنا، دون التفكر، للإشارة إلى أن الدليل هنا، أوضحُ منه فيما تقدم، والملكوتُ: الملكُ العظيم الواسع، أي أولم ينظر أهل مكة، نظر اعتبار واستدلال، في ملكوت السماوات والأرض؟ ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾؟ أي وفي جميع مخلوقات الله، مما يقع عليه النظر من الأشياء التي لا يمكن حصرها، الدالة على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها؟ فإن كل فردٍ من أفراد الأكوان، دليل واضح على الصانع الديَّان سبحانه وتعالى وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيانٌ لما خلق الله، وفي ذلك تنبيهٌ على أن الدلالة على التوحيد، غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كل ذرةٍ من ذرات العالم، دليل عل توحيده سبحانه كما قال العارف:

وَفــي كــلِّ شــيْءٍ لـهُ آيــةٌ ... تــدُلُّ عَلَــى أنَّــهُ وَاحــدُ

﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتمون عن قريب، فمناط الإنكار تأخيرُهم النظر، أي فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينية، الشاهدة على صدق الرسالة المحمدية، قبل مفاجأة

الأجل، وحلول العقاب؟ فعلى العاقل المسارعة والمبادرة إلى التفكر والاعتبار ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن، وهو النهاية في الظهور والبيان، فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون؟ وكأنه قيل: لعلَّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الموت؟.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي من يحكم الله بضلاله، فلا أحد يهديه، ولا يستطيع أن يضع الإيمان في قلبه ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في الكفر، محيّرين لا يهتدون سبيلاً، والعمهُ في البصيرة كالعمى في البصر. ثم لما تقدم ذكر اقتراب أجلهم، عقَّبه سبحانه بذكر سؤالهم عن الساعة فقال:

> ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعةُ: القيامةُ، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، لأنها عند الله كساعة من ساعات الدنيا، والسائل أناسٌ من اليهود قالوا: أخبرنا متى الساعة؟ وعن قتادة أن قريشاً قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة فنحن أقرباؤك[1] قالوا ذلك استهزاءً فنزلت الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، ومرساها مصدر ميمي، من أرساه إذا أثبته وأقرّه أي متى إثباتها وتقريرها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به جلَّ وعلا، لم يطلع عليه

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٨٢ نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكان المشركون يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالىٰ: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟.

مَلَكاً مقرّباً، ولا نبياً مرسلاً، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية كما أخفى وقت الموت عن الإنسان ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها، إلاّ هو سبحانه بالذات، لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه، والتجليةُ: إظهار الشيء بعد خفائه ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كبرت وعظمت على أهلها، حيث لم يعلموا وقت وقوعها، وعن قتادة أن المعنى: عظمت على أهل السماوات والأرض، حيث يخافون شدائدها، وقيل المعنى: ثقلت عند الوقوع على نفس السماوات، حتى انشقت وكُوّرت شمسُها، وانتثرت نجومها، وعلى نفس الأرض حتى سُيّرت جبالُها وسُجِّرت بحارُها، والأول هو الأنسب بما قبله وبعده لقوله سبحانه: ﴿ويَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمَاً ثقيلاً﴾ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة على حين غفلة، وفي الحديث الشريف «لتقومنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبَهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد رَفَع أكلته إلى فيه، فلا يَطْعمها...»(١) الحديث ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك عنها، وعن وقت قيامها كأنك حفي عنها، أي مبالغ في العلم بها، والحفيُّ: المستقصي في السؤال، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه استحكم علمه به ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره تأكيداً للحكم، وتقريراً له، وتمهيداً للتعريض بجهلهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن علمها عند الله، لم يؤته أحداً من خلقه، فبعضهم ينكرها رأساً، وبعضهم يدَّعي أن العلم بذلك من موجبات الرسالة، فيتَّخذ السؤال عنها ذريعة إلى القدح في رسالته ﷺ، وظاهر الآية أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها، نعم عَلِم قربها على الإجمال، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً «بُعثتُ أنا والساعة كهاتَيْنِ، وأشار بالسبَّابة، والوسطى»(٢) وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن ٧٨/١٣ ومسلم رقم ١٥٧ وهو حديث طويل جامع.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٩٩/١١ ومسلم في الفتن رقم ٢٩٥١ ورواه الترمذي رقم ٢٢١٥.

الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً «إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس»[1] والذي ينبغي معرفته القول بحدوث العالم حدوثاً زمانياً، ولا يعلم أوله إلا الله تعالى، وكذلك عمر الدنيا، كل ذلك لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجل، وجميعُ ما ورد في هذا الباب، أمور ظنيةٌ لا سند يعول عليها.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك لنفسي جلب نفع، ولا دفع ضر، وهو إظهارٌ للعبودية، والتبري عن ادعاء العلم بالغيوب، وبيان عجز الكل عنه، وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم، من كونه ﷺ ممن يعلمها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، فإنني حينئذ أملكه بمشيئته تعالى ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لو كنت أعرف أمور الغيب، وما سيحدث في الدنيا ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لحصلت لنفسي الخير الذي أرجوه ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي وما أصابني شيء من الأذى والضرر، ولكن لا أعلمه فلذلك يصيبني المكروه والأذى، واستشكلت هذه الآية مع ما صحَّ أنه ﷺ أخبر بالمغيبات الجمة، وكان الأمر كما أخبر به وعُدَّ ذلك من أعظم معجزاته ﷺ؟ أجيب بأن المعنى لا أعلم الغيب إلاَّ أن يطلعني الله تعالى عليه، ويقدّره لي، فلما أطلعه الله تعالى أخبر به، ليكون ذلك معجزة له، ودلالة على صحة نبوته ﷺ ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل، للإنذار والبشارة، وشأني تذكير الخلق بالنافع والضار، من

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ٤/٣٦٧ في الإجارة والترمذي رقم ٢٨٧٥ في الأمثال.

الأمور الدينية والدنيوية، لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الشرائع، أما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بما جئتُ به، وتخصيصهم بالذكر لأنهم ينتفعون بالإنذار، كما ينتفعون بالبشارة.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم جميعاً من نفسٍ واحدة هي آدم أبو البشر ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا﴾ أي خلق حواء من جنسها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليستأنس بها، لأن الجنس إلى الجنس أميل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها، كنَّى به أحسن كناية، وفيه إيماء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة، كما أن الوحدة علة الوحشة ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي محمولاً خفيفاً باديء الأمر، فإنه عند كونه نطفة، أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك، ويجوز أن يراد بالخفة عدم التأذي، أي حملت حملاً خفَّ عليها ليس فيه كرب وشدة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت حيث قامت وقعدت، وهو خفيف عليها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل، بكبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي آدم وحواء، لمَّا خافا عاقبة الأمر عليه، تضرَّعا إليه عزَّ وجل ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي مالك أمرهما، الحقيق بأن يخص به بالدعاء، أي دعواه تعالى أن يؤتيهما ولداً صالحاً، ووعدا بمقابلته الشكر، وقالا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي ولداً سوياً سليم الجسم والخلقة. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر لك، المبالغين فيه.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي فلما وهبهما، الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والنسل، وثنّى الضمير باعتبار أن ذلك النسل صنفان: ذكر، وأنثى، وقد جاء أن حواء كانت تلد في كل بطنٍ كذلك ﴿لَهُۥ﴾ أي لله سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ من الأولاد، أي جعل أولادهما له تعالى شركاء فيما آتيناهم، حيث سموهم بعبد العُزّى، وعبد مناف، ونحو ذلك، وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ، لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر، في مقابلة نعمة الولد الصالح ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجيب، أي تنزَّه وتقدَّس الله عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء والأنداد، وضمير الجمع لأولئك النسل، الذين جعلوا لله شركاء، للإيذان بعظم شركهم، و«ما» مصدرية، أي تعالى الله عن إشراكهم. واستشكل هذه الآية، وللعلماء فيها كلام طويل، والأوفق منها ما قيل: إن صدر الآية إلى قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ لآدم وحواء، ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر، بالتخلص إلى قصة العرب وإشراكهم، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع ﴿عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ ولو كانت القصة واحدة، لقيل: فتعالى الله عما يشركان، وكذلك قوله بعده[1].

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في آدم وحواء، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلا له شُرَكاءَ﴾ يعود إليهما، ورووا حديثاً عن سَمُرة مرفوعاً «أن حواء لمَّا ولدت طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان...» الخ، وهذا القول لا يصح، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم وحواء لأمرٍ يخدش العقيدة، بل هو شرك بالله، وإنما الصحيح ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ أن ذلك كان في ذرّيته، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فالآية وردت حكاية عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله الذرية والبنين، فأشركوا مع الله، وسموا أولادهم بأسماء الشياطين، وهذا هو الحقُّ بدليل قوله تعالى بعده ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾!!.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾؟ مسوقٌ لتوبيخ كافة المشركين، ببيان ما أشركوه به سبحانه وتعالى، أي أيشركون به تعالى ما لا يقدر أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً، ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده، وعنى بـ «ما» الأصنام ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وإيراد الضميرين بجمع العقلاء، مع رجوعهما إلى الأصنام، إنما هو بحسب اعتقادهم فيها، وكذا حال الضمائر الآتية، ووصفها بالمخلوقية لإبانة حالها، لما اعتقدوه في حقها، وإظهار غاية جهلهم.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين الذين عبدوهم ﴿ نَصْرًا ﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصرة عابديها ﴿ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث، أي لا يدفعونها عن أنفسهم، وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما.

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر وأيسر، وهو مجرد الإرشاد إلى طريق الهداية، والخطاب للمشركين، بدلالة ما بعده، أي وإن تدعوهم ـ أيها المشركون ـ إلى أن

يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب، وتنجون به من المكاره، لا يتبعوكم إلى مرادكم، ولا يقدرون على ذلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ أي مستوٍ عليكم في عدم الفائدة، دعاؤكم للأصنام وسكوتكم، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم بحكم أنها جمادات، لا تنطق ولا تعقل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ أي مماثلة لكم في العجز والضعف، وعجزها أظهر من عجزكم، وتشبيهها بهم في ذلك إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم، وادعائهم لقدرتها عليهم، إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها، والاستعانة بها ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أمر للتعجيز والتقريع، أي فادعوهم في جلب نفع، أو كشف ضر، فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾؟ تبكيتٌ إثر تبكيت، مؤكدٌ لما يفيده الأمر التعجيزي، فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية، إنما تتصور إذا كان لها حياةٌ، وقُوى محركة، وما ليس له شيء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل، وقد وُجّه الإنكارُ إلى كل واحدة من هذه الآلات، تكريراً للتبكيت ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يناصبهم المحاجة، ويكرر عليهم التبكيت، أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بها في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالغوا في ترتيب ما تقدرون عليه من مبادي المكر والكيد ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد، فإني لا أبالي بكم أصلاً.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ القرآن، تعليل لعدم المبالاة، ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب، للإشعار بدليل الولاية، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله تعالى، الذي نزَّل الكتاب الناطق بأنه وليي

وناصري ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى، أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه، وهذا تبشيرٌ للصالحين، وهذه الآية مما جربت المداومة عليها للحفظ من الأعداء، وكانت ورد الوالد في الأسحار، وقد أمره بعض الصالحين في المنام بها.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي تعبدونهم، أو تدعونهم للاستعانة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا أصيبوا بحادثة، فهم أعجز عن نفع غيرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتّباع ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار وبهذا تم التعليل لعدم المبالاة فلا تكرار أصلاً، والمعنى: وترى الأصنام رأي العين، يُشبهون الناظر إليك، والحال أنهم لا يبصرونك، قيل: إنهم صُنع لهم أعينٌ، مركبة بالجواهر المتلألئة، وصورت بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، وذهب بعضهم إلى أن الخطاب في ﴿تَرَاهُمْ﴾ للمشركين أي وترى المشركين ناظرين إليك، والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه، حكي أن السلطان محمود دخل على الشيخ الخرقاني لزيارته، وقال: يا شيخُ ما تقول في حق البسطامي؟ فقال الشيخ: هو رجل من رآه اهتدى، فقال السلطان: وكيفَ ذلك؟ وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يهتد؟ فقال الشيخ: إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ، وإنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رأى رسول الله كما كان ﷺ، لخرج من الشقاوة واهتدى.

> ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ما عفا وسهل، وتيسّر من أخلاق الناس، وإلى هذا

ذهب ابن عمر، وعن ابن عباس العَفْوُ: ما فَضَل، روي أنه لما نزلت هذه الآية، كان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه، ويتصدق بالفضل، فنسخها الله تعالى بالزكاة[1] والمراد بالعفو الحقوقُ التي تجوز المسامحة فيها، ويدخل فيه ترك التشدد في الحقوق المالية، والتخلق بالأخلاق الطيبة، وترك الغلظة، والدعوة إلى الحق بالرفق ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والمستحسن من الأفعال، والمعروفُ: ضدُّ المنكر، والعُرفُ ضدُّ النُّكر، وهو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، آمرة للرسول ﷺ باستجماعها، أخرج ابن جرير عن الشعبي قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله تعالى أمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطيَ من حَرَمك، وتصلَ من قطعك»[2].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي ينخسنَّك منه نخسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمرت به، كاعتراء غضب، والنزغُ: النَّخْسُ والغرزُ، شُبِّهت وسوستُه للناس، إغراءً لهم على المعاصي، بغرز السائق ما يسوقه، نزغ الشيطان بينهم أفسد وأغرى، أي وإما يحملنك من جهة الشيطان وسوسة ما ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره، في دفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً فيعصمك من شره، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجنِّ، وقرينُهُ من الملائكة!! قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: وإيَّايَ، ولكنَّ الله أعانني عليه فَأَسْلَمَ ـ أي انقاد وامتنع عن وسوستي ـ فلا

(١) الطبري ١٣/٣٢٨ قال: وأولى الأقوال بالصواب أن معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٣/٣٢٩.

يأمرني إلاَّ بخير»[1] وهذا الخطاب وإن كان له ﷺ إلاَّ أن المراد: غيره، وهو تأديبٌ عام لجميع المكلفين، ولمَّا ثبت أن لهذه الاستعاذة، أثر في دفع نزغ الشيطان، لزمت لنا المواظبة عليها في أكثر الأحوال، وفي الآية زيادة تنفير، وفرط تحذير عن العمل بموجب الغضب، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، تهويل لذلك، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة، التي لا يُتخلص من مضرتها، إلاَّ بالالتجاء إلى حرم عصمته عزَّ وجلَّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ بيان أن ما أمر به ﷺ من الاستعاذة بالله تعالى، سنةٌ مسلوكة للمتقين، والإخلال بها دَيْدَنُ الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي لَمَّة منه كما روي عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، المراد وسوسةٌ ما، من طاف يطوف كأنها طافت بهم، ودارت حولهم، فلم تقدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم، وبيان لعادة المتقين، أنهم إذا أصابهم أدنى نزغٍ من الشيطان ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾ أي ما أمر الله تعالى به، ونهى عنه، وعرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، فيتحرزون عنها، ويفرون إلى الله عزَّ وجل، فيزدادون بصيرةً من الله تعالى.

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ ﴾ أي إخوان الشياطين، وهم المنهمكون في الغيّ، المعرضون عن وقاية أنفسهم ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ الضمير المرفوع للشياطين أي يكون للشياطين مددٌ لهم فيه، بالتزيين والإغراء، وعن ابن عباس

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين رقم ٢٨١٤، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.

الضمير راجع لشياطين الجن والإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي ثم لا يكفُّ هؤلاء عن الغي، ولا يقصرون ولا يرعون، والمتقون إذا أصابهم طيف، تذكَّروا وعرفوا ذلك، ونزعوا عنه، وتابوا واستغفروا، وإخوان الشياطين مستمرون في الضلالة، لا يتذكرون ولا يتوبون.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من الآيات من القرآن، أو بآية مقترحة كما روي عن ابن عباس ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلاَّ جمعتها تقوّلاً من نفسك!! أو هلاَّ طلبتها من الله!! وهو تهكم منهم لعنهم الله تعالى، قال الفراء: يُقال: اجتبيتُ الكلامَ، واختلقتُه، وارتجلتُه، إذا افتعلته من قِبَل نفسك، وكذا اخترعته عند أبي عبيدة، أي قالوا: لولا اخترعتها؟ يرون بذلك أن سائر الآيات كذلك ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لست بمختلق لها، أي أتّبع ما يوحى إليّ من ربي من غير أن يكون لي دخل في ذلك أصلاً ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم، أي هذا القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب، بها تبصر الحقَّ، وتدرك الصوابَ، فإنه حجج بينة، وبراهين نيرة، تغني عن غيرها، والكلام خارجٌ مخرج التشبيه البليغ، ولمَّا كان القرآن الكريم سبباً لبصائر العقول، في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أُطلق عليه اسم البصائر، من باب تسمية السبب باسم المسبَّب.

بيَّن الله تعالى بهذا أن ظهور القرآن، معجزة بالغة كافية، في دلائل التوحيد والنبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنُّت ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينهما للتفخيم، وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأنَّ كون القرآن الكريم بصائر، متحققٌ بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجميع، أما هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين، إذْ هم المقتبسون من أنواره، والجملة من تمام القول المأمور به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بالمنافع الجليلة، التي ينطوي عليها القرآن، أي وإذا قُرئ القرآن، الذي ذُكرت شؤونه العظيمة ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ استماع تحقيق وقبول، يعني أصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه ﴿وَأَنصِتُوا﴾ أي اسكتوا في خلال القراءة تعظيماً له، وتكميلاً للاستماع، وراعوها إلى انقضائها، نصت له أي: سكت مستمعاً، والإنصاتُ: السكوتُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة، التي هي أقصى ثمراته، والآية دليل لأبي حنيفة رحمه الله في أن المأموم لا يقرأ في سرية، ولا جهرية خلف الإمام، لأنها تقتضي وجوب الاستماع، عند قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر[1] ويؤيده أخبار جمة، أخرج ابنُ أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعل الإمامُ ليؤتمَّ به، فإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتُوا»[2] وأخرج أيضاً عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان له إمامٌ، فقراءته له قراءة» وقال الشعبي: أدركتُ سبعين بدرياً، كلُّهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ عام في الأذكار كافة، من القراءة والدعاء،

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة عملاً بالآية الكريمة، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب قراءة الفاتحة وراء الإمام لحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ومذهب مالك أنه يقرأ في السرية ويسكت في الجهرية، وانظر الأدلة مفصلة في كتابنا روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ١/ ٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ، ويدخل فيه أمته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ فإن الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقرب من القبول، وقيل: المرادُ بالذكر في نفسه، أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار، لأن الذكر المجرَّد باللسان، عارياً عن الذكر بالقلب، قليل الجدوى ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكره متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً ما فوق السر، دون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي اذكره وقت الغدوّ أي الصباح ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جمع الأصيل: وهو الوقتُ بين العصر إلى المغرب ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة لسموّ قدرهم وهم ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ تعالى وطاعته، بل يؤدونه حسبما أُمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي ويخصُّونه بغاية العبودية والتذلل، ولا يشركون به غيره جلَّ شأنه، وهو تعريضٌ بمن عداهم من المكلفين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه»[١] وروى ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر قال: كان ﷺ يقول في سجوده: «اللهم سجد لكَ سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»[٢].

«تَم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ وتتمته: «فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لموضع جبهته في غير وقت صلاة».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

سُورَةُ الأَنفَالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ النفلُ: الغنيمةُ، سُمّيت به لأنها عطية من الله تعالى، زائدة على الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي، والمراد هنا الغنائم، عن سعيد بن جبير قال: سألتُ ابن عباس عن سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر،[1] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود، والنسائي، والبيهقي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: من قتل قتيلاً فله كذا، فأمَّا المَشيخة فثبتوا تحت الراية، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، وقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردْءاً، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْألونَكَ عَنِ الأنفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية[2]، أي يسألونك يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم رقم ٣٠٣١ في تفسير سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٣٧ والبيهقي ٦/ ٢٩١ والحاكم ٢/ ١٣١ وصحَّحه.

الله عن حكم الأنفال ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي حكمها مختص به تعالى، يقسمها الرسول ﷺ كيفما أُمِر به ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف في أمر الغنائم، وحاصل الجواب يا أيها المؤمنون إنّ ما وعدتكم به بإذن الله تعالى، وقد ملكني الله سبحانه هذه الغنائم، وهو أعلم بالحكمة، فاتقوا الله من عدم الرضا بذلك، ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما يأمر وينهى عنه، فإن في ذلك مصالح لا تعلمونها، وإنما يعلمها الله ورسوله، وذكرُ الاسم الجليل في الأمرين، لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وذكرُ الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيذان بأن طاعته طاعةٌ لله عزَّ وجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين، بالعدل والإحسان، ويؤيد إرادة الكمال قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ المراد به الكاملون في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله، وقيل: هو الرجل يهمُّ بالمعصية، فيقال له: اتَّقِ الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿ألاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوبُ﴾ لا ينافي الوَجَل والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد بنور المعرفة، وهو يجامع الخوف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي آيات القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لاطمئنان النفس، ورسوخ اليقين، بتظاهر الأدلة والعمل بموجبها،

والأصوبُ أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبَّر عنها بالزيادة، للفرق النيِّر بين يقين الأنبياء، وبين يقين آحاد الأمة، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدّثين، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك،[1] وذهب كثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه اسم للتصديق والإذعان، ولا يتصور فيه الزيادة والنقصان!! ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوّضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلا إيَّاه، وهذه المراتب الثلاثة من أعمال القلوب، وقد أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح، فقال جلَّ وعلا.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بحدودها، وأركانها، وشرائطها، في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي أعطيناهم من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون فيما أمر الله تعالى به، وتدخل فيه الزكاة، والنفقة، وسائرُ الخيرات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صدقاً بلا شك، لأنهم حقَّقوا إيمانهم، بأن ضمُّوا إليه أفاضل الأعمال القلبية. روي عن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمنٌ أنتَ؟ قال: إن كنتَ سألتني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو ذلك فأنا مؤمن، وإن كنت سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم، أو لا؟ ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامةٌ، وعلو منزلة رفيعة، درجات كثيرة ومختلفة، فإن قيل: أليس أن المفضول إذا علم حصول درجة عالية للفاضل، فإنه يتألم قلبه؟ قلنا: إن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به، تمنعه من حصول

---

(١) الشواهد كثيرة على زيادة الإيمان أو نقصه، منها قوله سبحانه: ﴿فأمَّا الذينَ آمنُوا فَزَادتْهُمْ إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لِيَزْدَادُوا إيماناً فَوْقَ إيمانِهِمْ﴾.

الحقد والحسد ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صاف عن كد الاكتساب، وخوف الحساب، لا ينقضي أمدُه ولا ينتهي عدده.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب الحق الذي وجبَ عليك، وهو الجهاد، والمرادُ من البيت مسكنه ﷺ أو المدينةُ نفسُها لأنها مثواه، وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بالوحي، ومعنى الآية حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال، كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له وهو حق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. وقصة بدر على ما روى جماعة أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر بمكة، فنادى أبو جهل: النَّجَاءَ النَّجَاءَ فخرج أبو جهل بجمع من أهل مكة، فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد بدراً، فننحر الجَزُور، ونشرب الخمور، وتضرب على رؤوسنا القينات، أي المغنّيات، وتهابنا العرب، فمضى بهم إلى بدر، فنزل جبريل فقال: يا رسول الله: إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: إنا خرجنا

للعير، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: لم تخبرنا عن القتال، وإنما أخبرتنا عن العير فدع العدوَّ، فتغيَّر وجهه ﷺ فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام، ثم قام سعد ابن عبادة فقال: يا رسول الله انظر أمر ربك فامضِ بنا إلى ما تريد، لا يتخلَّف عنك رجلٌ من الأنصار، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فإنَّا معك، لا نقول لك، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، فتبسم ﷺ وقال: سيروا على بركة الله»[1] وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكن كذلك وهم الأكثر كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه ﴿ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهو ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاَّ قلت لنا القتال لنستعد له ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم، فقد روي أنهم كانوا ثلثمائة وخمسة عشر رجلاً فيهم فارسان، وكان المشركون ألفاً، قد استعدُّوا للقتال.

﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ ﴾ بيان لجميل صنع الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين، مع ما بهم من قلة الحزم، وكثرة الخوف، أي اذكروا يا معشر المؤمنين وقت وعد الله تعالى إياكم، إحدى الطائفتين، وهما: العير أو النفير ﴿ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾ أي كائنة لكم تتصرفون كيف شئتم ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أي

---

(١) مقالة المقداد للنبي ﷺ أخرجها البخاري ٧/ ٢٨٧ في المغازي، وفيها قوله: لا نقول لك كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا﴾ ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسرَّه قولُه.

تريدون وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لقلة عددها، وكثرة مالها، والشوكةُ مستعار من واحدة الشوك، والشوكة شدة البأس وتطلق على السلاح ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يثبته ويُعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آخرهم ويستأصلهم، والمعنى: أنتم تريدون الغنيمة، والله عزَّ وجلّ يريد العزة لكم والنصر، وشتّان بين المرادين.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي لهذه الغاية فعل ما فعل، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيته، وكذا إبطال الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفير لأنه لا جرم منهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثةُ: طلب الغوث، وهو التخليص من المكروه، ومن الشدة، وصيغة المضارع لاستحضار صورتها العجيبة، والظاهر أن المستغيثين هم المؤمنون، وقال الزهري إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فقد قال ﷺ: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1] كما دعا على

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/٢٥١ وتتمته: يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، إنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...﴾ الآية.

أناس معينين من صناديد الكفر، الذين آذوه وهو بمكة كما ورد من رواية ابن مسعود: «اللهم عليك بقريش ـ أي بهلاكهم ـ اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمية بن خلف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيتُ الذين سمَّى الرسولُ ﷺ صرعى ثم سُحِبُوا إلى قليب بدر...»[1] الحديث، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأجاب دعاءكم، عقب استغاثتكم إياه على أتم وجه ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أي بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يردف بعضهم بعضاً وراء كل مَلَكٍ مَلَكٌ آخر، والأكثرون على أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي الأخبار ما يدل عليه، وقيل: إنهم لم يقاتلوا، وإنما نزلوا ليكثّروا سواد المسلمين ويثبتوهم، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق، ليست إلاَّ من عنده عزَّ وجلَّ، فعلى المسلم أن لا يتوكل إلا على الله ولا يحسب النصر بالأسباب، ولا ييأس بفقدانها لأن النصر بيد الله، والإعانة منه سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُغالب في حكمه ولا يُنازع ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٠١/٧ وتتمته «فألقوا فيها، فوقف النبي ﷺ على القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤ ﴾.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾ أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم والنعاس أول النوم قبل أن يثقل ﴿ أَمَنَةً ﴾ أي أمناً مما حصل لكم من الخوف ﴿ مِّنْهُ ﴾ تعالى، أي فتنعسون أمناً كائناً منه تعالى، وكان ذلك النعاس معجزة، لأنه خارق للعادة، لأن حصول النوم، عند الخوف الشديد بعيد عادة، وبالنوم حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم من الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ من الحدث الأصغر والأكبر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي وسوسته وتخويفه، رُوي عن ابن عباس أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم في النوم، وكانت منازلهم على كثيب رمل أعفر، تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم وقال: يا أصحاب رسول الله، تزعمون أنكم على الحق، وأنكم تصلون على غير وضوء، وعلى الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما سبقكم المشركون إلى الماء، فحزنوا حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وسقوا الركاب، وملؤوا أسقيتهم، وتلبّدت الأرضُ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وكان ذلك دليلاً على حصول النصر ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف

الله تعالى ونصره، بمشاهدة طلائعه، أتى بـ «على» قصداً للاستعلاء وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكن ما لا يخفى ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ بالماء ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ فلا تسوخ في الرمل، والضمير للربط أي جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي بأني بينكم على تثبيت المؤمنين ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المراد بالتثبيت: الحملُ على الثبات في موطن الحرب، والجدُّ في مقاساة شدائد القتال، وكان الملك يتشبَّه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعت المشركين يقولون: لئن حملوا علينا لنُكشفنَّ، ويمشي في الصفين ويقول: أبشروا فإن الله تعالى ناصركم، وقال الزجاج: كان بأشياء يلقونها في قلوبهم بالإلهام ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُم﴾ وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين، والرعبُ: الخوفُ وانزعاج النفس، بتوقع المكروه ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أمر للملائكة وقيل: بل أمر للمؤمنين، والآية ظاهرة فيما يدعيه الجمهور، من وقوع القتال من الملائكة ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس، وقيل فوق هنا بمعنى على، أي فاضربوهم على أعناقهم ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابع.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بسبب كفرهم وعصيانهم أمر رسولهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإظهار في موضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بعلة الحكم، والمراد من المشاقة هنا المخالفة، أي ذلك العذاب واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي مخالفته بوجه من الوجوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي يعاقبه الله تعالى، فإنَّ عقاب الله شديد العقاب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب مع الكفرة، على طريق الالتفات، وهو إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا لأن ذلك

يسير بالإضافة إلى المؤجل، الذي أعدَّه لهم في الآخرة، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الواو بمعنى مع، أي ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم عذاب النار في الآخرة آجلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب عام للمؤمنين فيما سيقع من الوقايع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة اعتناءً بشأنه ومبالغة في حقهم على المحافظة عليه ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ، إذا دبَّ على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته يرى كجسم واحد، فيحس حركته في غاية البطاءة، أي زاحفين نحوكم ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أي أدباركم فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم والمعنى: إذا لقيتم الكفار فلا تولوهم الأدبار بالانهزام، وعدل عن لفظ الظهر إلى الأدبار، تقبيحاً للانهزام.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم اللقاء ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ فضلاً عن الفرار ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصلح، للقتال منه، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى، أهمّ من هؤلاء، وإما بالفرار للكرِّ بأن يخيِّل عدوه أنه منهزم، ليغرَّه ويخرجه من بين أعوانه، ثم يعطف عليه وحده، أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو من باب خُدَع الحرب ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم

مأوى له، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف، لقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ وعلى هذا أكثر أهل العلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط مقدر كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم أنتم بقوّتكم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وهو إشارة إلى رميه ﷺ فلما التقى الجمعان، أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فتناول ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاَّ شُغل بعينيه، والمعنى: وما فعلتَ أنت يا محمد، تلك الرمية حقيقة، حين فعلتها صورة، ولكنَّ الله خلقها، حين باشرتها على أكمل وجه، حيث أوصلها إلى أعينهم جميعاً، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، وإنما لهم كسبها ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي عطاءً حسناً، بالنصر والغنيمة، والأجر والثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما ذُكر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي المقصد من قتالهم إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم وتآمرهم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج، تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهمَّ انصر أعلى الجندَيْن، وأهدى الفِئَتَيْن، وأكرم الحِزبَيْن، والمعنى: إن تستنصروا على الجندين وأهداهما ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ أي جاءكم النصرُ، سمى إهلاكهم نصراً على طريق التهكم، أي فقد جاءكم الهلاك، فالتهكم في الفتح، حيث وُضع موضع الهلاك ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ ﴾ عن الكفر والحرب، ومعاداة الرسول ﷺ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الحرب الذي ذقتم غائلته لما في الانتهاء من السلامة من القتل والأسر ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿ نَعُدْ ﴾ لما شاهدتموه من نصر ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ ﴾ أي لن تدفع عنكم ﴿ فِئَتُكُمْ ﴾ جماعتكم التي تجمعونها ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والمعونة، لأن سنة الله عزَّ وجلَّ جارية، في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تتولوا ﴿ عَنْهُ ﴾ عن الرسول ﷺ وأعيد الضمير إليه ﷺ لأن المراد هو الأمر بطاعته، والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد، والتنبيه على أن طاعته ﷺ من

طاعته تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أطَاعَ اللهَ﴾[1] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حالية، واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي، أي لا تتولوا عنه ﷺ والحال أنكم تسمعون القرآن، الناطق بوجوب طاعته، سماع فهم وإذعان.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تكونوا بالمخالفة ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء، من غير فهم وإذعان ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، ولا يفهمونه حق فهمه، والمنفي سماعٌ خاص، لكنه أتى به مطلقاً، للإشارة إلى أنهم نُزِّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعلهم كالدواب والأنعام، ولهذا قال بعده:

﴿۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي إن شر ما يدبُّ على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقَّ ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بهما لأن خلق الأذن واللسان لسماع الحق والنطق به، وحيث لم يوجد منهم شيء من ذلك، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً، ثم وُصفوا بعدم التعقل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تحقيقاً لفجاعة سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم، إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وإذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شر الدواب، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم، ولوقفوا على حقية الرسول ﷺ وآمنوا به وأطاعوه، ولكن علم الله تعالى أن لا خير فيهم فلم يسمعهم، لعدم الفائدة، وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يورثكم الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، ومن الجهاد الذي أعزكم الله به، كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وقال قتادة: القرآن لما روي أن النبي ﷺ مرَّ على أُبيٍّ بن كعب وهو يصلي فدعاه فلم يجب وأسرع في صلاته ثم جاءه فقال ﷺ: «ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحي ﴿استَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم﴾ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى»(١) قيل: إن الدعاء كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر، ولو لم يحذره لوقع فيه ولهلك ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أصل الحول ـ كما قال الراغب ـ تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، وهذا غير متصور في حقِّ الله تعالى، فهو بيان عن غاية القرب من العبد، أي يصرِّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخُ عزيمته،

---

(١) أخرجه النسائي، وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلَّى، دعاه ﷺ وهو يصلي فلم يجبه، ثم أتاه فقال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال له: لأعلمنك سورة هي أعظم سور القرآن.. وذكر الحديث، انظر فتح الباري على البخاري ٨/٣٠٧.

ويغيّر مقصده، وفيها تنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب، وحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت، أو غيره وفي الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يُصرِّفه حيث يشاء»[1] أخرجه مسلم. ويراد به كمال التصرف فيه، كتصرفه في قلب واحد ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي الله عزَّ وجل ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، فسارعوا إلى طاعته وإلى طاعة رسوله.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ أي لا تختص إصابة عذابها، بمن يباشر الظلم منكم، بل يعمُّه وغيره، والمراد بالفتنة الذنب والمعصية كإقرار المنكر بين أظهركم، وظهور البدع، والتكاسل عن الجهاد، والخطاب إذا كان عاماً للأمة، وفسرت الفتنة بإقرار المنكر، لا يخبىء الأشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه، يجب على الباقين رفعه، وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم، لما رُوي عن أبي بكر الصدّيق قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده، أوشك أن يعمَّهمُ الله تعالى بعقاب»[2] ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وكذا لمن أقر من انتهك محارمه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القَدَر، وتتمته ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مصرِّفَ القلوب، ثبِّتْ قلوبنا على طاعتك» ورواه الترمذي رقم ٢١٤١ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعَيْ الرحمن.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في تفسير سورة المائدة، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ أي في العَدَد وقلة السلاح والعُدَد ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرض مكة، يستضعفكم المشركون والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أي واذكروا حالكم وقت قلتكم وذلتكم وخوفكم من اختطافكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ ﴾ إلى المدينة وجعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعدائكم ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار يوم بدر أو بإمداد الملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة والمنافع ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾. في أبي لبابة وذلك لمَّا حاصر رسول الله ﷺ يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، وسألوا رسول ﷺ الصلح على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أريحا فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لما أن ماله وعياله كان في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمتُ أني قد خنتُ رسول ﷺ

فنزلت الآية ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي ما ائتمنتم عليه من الدِّيْنِ وغيره فيما بينكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون وباله.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة من الله تعالى، ليبلوكم فلا يحملنكم حبُّهم على الخيانة، كأبي لبابة، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد، ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر رضى الله عليهم، وراعى حدوده فيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يسترها ويمحو ما سلف منها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار، وقيل: المراد ما تقدم وما تأخر، لأن الآية في أهل بدر، ففي الحديث «لعل الله تعالى اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وُعدوه على التقوى، فضلٌ منه وإحسان كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمله ثم أنه عز وجل لما ذكّر بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ النعمة العامة للكل، ذكَّر نبيّه ﷺ النعمة الخاصة به بقوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في المغازي، وانظره كاملاً في فتح الباري ٧/ ٣٠٥.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تذكار لما مكرت قريش به ﷺ حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك في دار الندوة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق وإليه ذهب الحسن ومجاهد، أو بالحبس في بيت كما روي عن عطاء ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة، وذلك على ما ذكر ابن اسحق، أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كان له شيعة وأصحاب، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، فحَذِروا خروجَ رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه، فقال رئيسهم: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلونكم من قومه ويخلصه من أيديكم، وقال أبو الأسود: أن تخرجوه من أرضكم، فقال رئيسهم: بئس الرأي لأنه يفسد قوماً غيركم ويقاتلونكم، فقال أبو جهل: إني أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل، ـ أي الفدية ـ عقلناه، فقال رئيسهم: صدق، فتفرقوا على رأيه[1]، فأتى جبريل فأخبره، وأمره بالهجرة، فبيَّت علياً في مضجعه، فخرج هو مع أبي بكر إلى الغار، وإلى هذه الحادثة تشير الآية الكريمة ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويفضح أمرهم ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم، وأبلغ تأثيراً، فسمى تعالى إبطال تآمرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم مكراً، على طريق المشاكلة أي أنه تعالى أبطل مكرهم، فإن مكره تعالى في خيريّته، أبلغ من مكر الغير في شرّيته[2].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٠.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٦/ ٢٧٥: ﴿ويمكر الله﴾ هو إبطال لمكرهم، وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على =

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي القرآن ﴿ قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ هذا قول النصر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم، أو قول الذين ائتمروا في أمره ﷺ وهذا من فرط عنادهم، وغاية مكابرتهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحدَّاهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين، فلم يعارضوا سورة منه مع أنفتهم، وفرط استنكافهم، وأن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان وهم أساطينه وأربابه!! ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلاَّ ما يكتبونه من أخبار الماضين من الخرافات والأباطيل.

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قائل هذا النضر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أنه «أبو جهل»[1] وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض: هل أكرم الله تعالى محمداً من بيننا؟ اللهم إن كان هذا.. الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول، لأنهم عدُّوا حقيقته محالاً، فلذا

= ما يُفهم فيه في اللغة، فغير جائز فيه أن يقال: الله يمكر، وإنما قولنا ﴿ويمكر الله﴾ كما تقول في رجلٍ شتم الأمير، فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمي العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأقواهم جانباً. اهـ.

(١) فتح الباري على البخاري ٨/٣٠٨.

علَّقوا عليها طلب العذاب، الذي لا يطلبه عاقل، والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه: التهكمُ، وإظهار الجزم على كونه باطلاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشنيعة، وبيان لموجب إمهالهم، لأن سنته تعالى أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيُّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب، إذا هاجر ﷺ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والمراد باستغفارهم: إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين بعد الهجرة، وإما دعاء الكفرة بالمغفرة، على معنى: أنهم لو استغفروا لم يُعذَّبوا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ أيْ أيَّ شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ أي لاحظَّ لهم في ذلك، وهم معذَّبون لا محالة، وكيف لا يُعذَّبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية، وحكما كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت فنصدُّ من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردَّ الله عز وجلَّ هذا القول بقوله ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي ما أولياؤه ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي الذين يتقون الشرك ولا يعبدون غير الله، والمراد من المتقين المسلمون، وهذه المرتبة الأولى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية

لهم عليه كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكلَّ، كما يُراد بالقلة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، والمراد بالبيت: المسجدُ الحرام الذي صدُّوا المسلمين عنه، والتعبير عنه بالبيت للإشارة إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظَّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي صفيراً وهو فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات إلا ما شذ كالنداء، من مكا يمكو إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً مأخوذٌ من الصدى، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته، روي أنهم كانوا يطوفون عراة، الرجال والنساء مشبِّكين بين أصابعهم، يصفِّرون فيها ويصفِّقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: القتل، والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الآخرة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وضلالكم، اعتقاداً وعملاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كلُّ واحد منهم كلَّ يوم عشر جُزُر، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيبت قريش ببدر، قيل لهم: أعينونا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه

ثأرنا!! ففعلوا، والمراد بسبيل الله: دينُه ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها مبالغة، وضمير تكون للأموال على معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي في مواطن أخر بعد ذلك في الدنيا آخر الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه خبر قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون لا إلى غيرها، والمقصودُ من هذا النص إخبار بأنهم لا يستفيدون من بذل أموالهم إلا الخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيحشرون، وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ومن الطيب ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمَّ بعضه إلى بعض، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كما يكون في الكانزين[1] ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ كله وأما المال المنفق في عداوة الرسول ﷺ وجعله في جهنم، لتكوى به جباههم وجنوبهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الكفار ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي المعهودين، وهم أبو سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم ﴿ إِن يَنتَهُواْ ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من ذنوبهم التي من جملتها المعاداة، والإنفاق في الضلال، وهذا يدلُّ على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مرَّ، وقال ﷺ «الإسلامُ يجبُّ ما قبله»[1] ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ إلى قتاله ﷺ أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي عاداتُ الله الجارية في الذين تحزَّبوا على الأنبياء، من نصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم وتدميرهم.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ عمَّ الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من الوعيد ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم شرك، كما روي عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المراد حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة كلُّها، إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ناصركم فثقوا ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره.

---

(١) هذا طرف من حديث في قصة وفاة الصحابي «عمرو بن العاص» رضي الله عنه أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ١٢١ وفيه قول النبي ﷺ: أمَا علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٩/١٠٥.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم ﴾ روي عن الكلبي أنها نزلت في بدر، وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور، والغُنْمُ بمعنى الربح، وكذلك المغنمُ، والغنيمةُ، وفسروها بما أُخذ من الكفار قهراً، بقتالٍ أو إيجاف فما أخذ اختلاساً لا يُسمى غنيمة ﴿ مِّن شَيْءٍ ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، خَلاَ أنَّ سَلَبَ المقتول للقاتل، إذا أنفله الإمام، وكذا الأراضي المغنومة ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿واللهُ ورسُولهُ أحقُّ أن يُرْضُوه﴾ والمراد قسم الخمس على الخمسة الموصوفين في قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وإعادة اللام في ﴿وَلِذِي القربَىٰ﴾ لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، وقرابة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وكيفية قسمتها أنها كانت في عهد النبي ﷺ على خمسة أسهم، سهم له ﷺ، وأربعة أسهم للأصناف الأربعة، وأما بعده ﷺ فسهمه للمسلمين وكذا سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرائهم، وقيل: سهم الرسول لولي الأمر بعده، وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين، للراجل سهم وللفارس سهمان ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا ﴾ عطف على الاسم الجليل، أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أريد به من الملائكة والآيات ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي الفريقان من المؤمنين، والكافرين، سُمِّي بالفرقان، لفرقه بين الحق والباطل ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم، وكثرة أعدائكم.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ العُدْوةُ: شَطُّ الوادي، وأصلهُ من العَدْوِ والتجاوز، والدنيا تأنيث الأدنى، أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدنية ﴿ وَهُم ﴾ أي المشركون ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعدىٰ من المدينة، وهي تأنيث الأقصى ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العيرُ وأصحابها «أبو سفيان» وأصحابه، وهو اسم جمع راكب ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر، وفائدةُ هذا التوقيت الإخبارُ عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عُدَّته، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلاَّ صنعاً من الله تعالى، وباهر قدرته ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبةً منهم، ويأساً من الظفر عليهم ﴿ وَلَٰكِن ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ حقيق بأن يفعل، وهو نصر أوليائه، وقهر أعدائه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ أي ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محلٌ للتعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الجمهور على أنه ﷺ أري ما أري في النوم، وهو الظاهر المتبادر، وحكمة إراءتهم قليلاً أن يخبر أصحابه، فيكون ذلك تثبيتاً لهم ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم ﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات، والفرار ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ والمراد أنه تعالى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع، ولذلك دبّر ما دبّر.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أي إذ يبصركم أيها المؤمنون ﴿ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وإنما قلّلهم في أعين المسلمين، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتُراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قلّلهم في أعينهم قبل التحام القتال، ليجترؤوا عليهم، ولا يستعدُّوا لهم، ثم كثَّرهم حتى يرونهم مثليهم، لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم، وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرّره لأن المراد بالأمر الأول، القتال على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ أي تصير ﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيصرّفها كيف يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء ممّا غلب استعمالُه في القتال ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ للقائهم في مواطن الحرب ولا تفروا ولا تنهزموا ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ مستمدين منه مستعينين به، مترقبين لنصره مستظهرين لذكره ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفكُّ عنه في شيء من الأحوال وفي الحديث الشريف «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»[1] الحديث. وإنما نهى ﷺ عن التمني، لما فيه من صورة الإعجاب، والوثوق بالقوة، ويتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم، وهذا يخالف الاحتياط.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، فيندرج فيه ما أمر به ههنا اندراجاً أولياً ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأحد، تنازع القوم أي اختلفوا والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين، أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿ فَتَفْشَلُواْ ﴾ فتجبنوا عن عدوكم، وتضعفوا عن قتالهم ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قوتكم ودولتكم، فإنها مستعارة للدولة، من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه، مشبهة بها في هبوبها ونفوذها ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ على شدائد الحرب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بالإمداد والإعانة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/١٠٩ ومسلم رقم ١٧٤٢ في الجهاد أيضاً.. وتتمة الحديث «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٢/٥٦٨.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم ﴾ يعني أهل مكة، حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بَطَرًا ﴾ فخراً وأشراً ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجعوا فقد سلمت عِيُركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً، فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، ونطعم بها مَنْ حَضَرنا حتى تهابنا العربُ، فوافوها ولكن سُقوا كأس المنايا بدل الخمر، وكانت أموالهم غنائم، والمقصود من الآية، نهيُ المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، في البطر والرياء، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي ليمنعوا عن دين الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه، وفيه وعيد وتهديد.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ بأن شجّعهم على لقاء المسلمين، وزين لهم أعمالهم في معاداة المؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ ألقى في رَوْعهم، وخيّل إليهم أنهم لا يُغلبون، لكثرة عددهم وعُدَدِهم فالقول مجاز عن الوسوسة ومعنى ﴿جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي معين وحافظ لكم، والجار الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخاف ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان المسلمة، والكافرة، ورأى

اللعينُ الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقرى، و ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مَثَلٌ يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبَّه بطلان كيده بعد تزيينه، بمن رجع القهقرى عما يخافه ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ تبرأ منهم لمّا رأى إمداد الله لهم بالملائكة، وخاف عليهم، ويحتمل أن يكون معنى ﴿أَخَافُ الله﴾ أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من كلام اللعين وهو الظاهر، وكذب عدوُّ الله في قوله: ﴿إني أَخَافُ الله﴾ فلو خاف الله لعبده وأطاعه، ولكنه أراد أن يبرّر سبب انهزامه من المعركة.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي الذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شبهة ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه، فخرجوا وهم ثلاثمائة وسبعة عشر إلى زهاء الألف، توهماً أنهمُ ينصرون بسببه، روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، وأهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم، وردٌّ لمقالتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذلُّ من استجار به، ولا يُخذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته ما تستبعده العقول، وتحار في فهمه ألباب الفحول.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي، لأن «لو» تردُّ المضارع ماضياً أي ولو رأيت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ببدر والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو ترى حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ

﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، يعني جميع أجسادهم، ويقولون: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمرّ، مما هم فيه، والتعبيرُ ﴿ذوقوا﴾ قيل: للتهكم، وفيه نكتة أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وجواب لو محذوف، أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، و «ظلّام» لنفي الظلم بأنواعه، وهي للنسبة مثل: البزّاز، والعطّار، والنجّار، أي لا يُنسب إليه الظلم أصلاً.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وشأنُهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي

ذلك كائن بسبب أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي لم ينبغ له سبحانه، ولم يصح في حكمته، أن يكون بحيث يغير نعمة أيّ نعمة كانت أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها، وقت ملابستهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها، كحال قريش المذكورين، حيث كانوا قبل البعثة عبدة أصنام، مستمرين على حال مصححة، لإفاضة نعم الإمهال، فلما بُعث النبي ﷺ غيّروها على أسوأ حال منها حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزّبوا عليهم، وقطعوا أرحامهم، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، ووجّه إليهم نِبال العقاب والنّكال، وأصل ﴿يكُ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون ويذرون.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ التكرار للتأكيد، وقيل: الأول فيما فعلوه، والثاني فيما فُعل بهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي معاصيهم المتفرعة على كفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عطف على أهلكنا وفيه إيذان بكمال هول الإغراق ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية، وهم الواضعون الكفر والمعصية مكان الإيمان والطاعة، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بعدما شرح أحوال المهلكين، شرع في بيان أحوال البعض منهم، وجُعلوا شر الدواب لا شر الناس، إيماء إلى أنهم بمعزل

من مجانستهم، وإنما هم من جنس الدواب، ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أصرُّوا على الكفر، ولجُّوا فيه ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم الإيمان لأنهم مطبوعون على الكفر عن ابن عباس: هم نفر من عبد الدار.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ المعاهدة هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين، أي أخذت منهم عهدهم بأن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض، وكونهم على نية في كل حال، أي ينقضون عهدهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم، ويستمرون على النقض، ولا يبالون بما فيه من العار والنار، والآية نزلت في يهود بني قريظة، عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا ومالؤوا عليه ﷺ يوم الخندق، وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، أي إذا كان حالهم كما ذكر فإمّا تظفرنّ بهم ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم﴾ أي ففرق تفريقاً عنيفاً، بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب، ما يوجب أن تنكل ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والتشريدُ: التفريق مع الاضطراب فالمعنى: إن ظفرت بهؤلاء الذين ينقضون العهد مراراً فافعل بهم فعلاً ليخاف من وراءهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بهم، فيرتدعوا عن النقض وعن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خِيَانَةً ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي فاطرح إليهم ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ على طريق مستوٍ، بأن تظهر لهم النقض، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة[1] ولزومُ الإعلام عند أكثر العلماء، إذا لم تنقض مُدَّة العهد، أو لم يستفضْ نقضُهم له، أمَّا إذا انقضت المدة، أو استفاض النقض وعلمه الناس، فلا حاجة إلى ما ذُكر، ولهذا غزا النبي ﷺ أهل مكة، من غير نبذ لمعاونتهم بني كنانة، على قتل خُزاعة، حلفاء النبي ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ تعليل الأمر بالنبذ، كأنه قيل: وإما تعلمنَّ من قوم خيانة، فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، وعن عمر بن عنبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدَّ عقده، ولا يحلّها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»[2].

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ﴾.

---

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ١٩٢/٢: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثلُه، على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: إمَّا تخافنَّ خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة، فأوجز الله ذلك كله في هذه الآية الكريمة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ ولله درُّ التنزيل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١١١/٤ وأبو داود في الجهاد ٨٣/٣ والترمذي في السير ٢٠٣/٥.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين، أي مفلتين من أن يُظفر بهم، والاقتصار على دفع هذا التوهُّم، للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حول وهمهم، وإنما الذي يمكن أن يدور في خلدهم حب النجاة من الهلاك ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ في أنهم في قبضة الله عز وجل، لا يعجزون الله من الانتقام في الدنيا أو في الآخرة.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم ﴾ خطاب لكافة المؤمنين، أي أعدُّوا لقتال الكفار على الإطلاق ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ من كل ما يُتقوى به في الحرب أُطلق عليه القوة مبالغةً، وإنما ذكر هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبّهوا على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتّى في كل زمان، عن عُقبة بن عامر أنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألاَ إنَّ القوَّة الرميُ، قالها ثلاثاً» [1] والظاهر العموم، إلا أنه خصَّ الرمي وهو من قبيل قوله ﷺ: «الحجّ عرفة» فهذا لا ينفي غيره، لأن معنى الآية على وجوب الاستعداد لجهاد العدو، بجميع ما يمكن من الآلات، وكل ذلك من فرض الكفاية، والتاريخ سجَّل السيف سلاحاً في الحروب، ومرت العصور، وتطوَّر السلاح إلى السيارات المدرَّعة، والطيارات القاذفة، والغواصات المدمرة، والغازات الخانقة وغيرها، والشعوب الإسلامية مشمولة بهذا النداء الإلّهي ﴿وأعدُّوا﴾ فالمراد من القوة معنى شامل لأنواع القوى، فقد عمَّ الداء العُضالُ، واشتد النكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، وتعيَّن على أئمة المسلمين الاستعداد التام، ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرمي في زماننا، لقيامه مقامه في الذبِّ عن بَيضة الإسلام ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ اسم للخيل التي تربط

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ١٣/ ٦٤ بلفظ «ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ، ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ، ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ» كررها ثلاث مرات، ورواه أبو داود رقم ٢٥١٥ وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ولم يخرجه البخاري.

في سبيل الله، والرباط بالكسر ما تشدُّ به الدابة، والمراد به هنا: المربوط مطلقاً، إلا أنه استعمل في الخيل، وخُصَّ بها لأنها آلة الجهاد في كل زمان، والعطف على القوة للإيذان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريل على الملائكة، في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ ومَلاَئِكتهِ، وَرسُلِهِ، وجبْرِيل وميكال، فإن الله عدوٌ للكافرين﴾[1] ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي تخوّفون به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وهم كفار مكة خُصُّوا بذلك لغاية عتوهم، ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ أي يعلمهم على الحقيقة، ويعلم خطرهم وضررهم، وما هم عليه من العداوة ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعداد القتال أو لسائر وجوه الخير ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي يؤدى بتمامه إليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب، وفي التعبير عن ذلك بالظلم، مع أن له تعالى أن يفعل ما يشاء، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ﴾ جنَحَ: مال، أي وإن مالوا ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ للصلح والاستسلام ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ للسلم أي فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي فوّضْ أمرك إليه سبحانه، فإن الله يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بنياتهم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ كيدهم في نحورهم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٨.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بإظهار السِّلم والمحبة، وإبطان الحرب والكيد ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ فاعلم بأن الله كافيك من شرورهم، وناصرك عليهم، فلا تبال بهم ﴿هُوَ﴾ عزَّ وجل ﴿ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ مع ما جُبلوا عليه من الحميَّة والعصبيَّة، والتهالك على الانتقام، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة[1] ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ لتأليف ما بينهم ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لتناهي عداوتهم، وقوة أسبابها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جلَّت قدرتُه ﴿أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قلباً وقالباً ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كامل القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيء مما يريده ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم المصالح فيوجدها بمقتضى حكمته عزَّ وجلَّ، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم، على وجه أحدث فيهم التوادَّ والتحاب، فاجتمعت كلمتهم وصفوفهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾.

---

(١) لا شك أن تأليف القلوب مع ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، من أعظم الآيات الربانية، فقد كانت الدماء تجري بينهم كالأنهار، حتى جاءهم الإسلام فجعلهم إخوة متحابين في الله، وانظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٤/٥١٤ فقد أجاد فيه وأفاد، وكذلك الزجاج في معاني القرآن ٢/٤٦٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ شروعٌ في بيان كفايته تعالى إياه، في جميع أموره الظاهرة والباطنة ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي كافيك الله في جميع أمورك ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كفاك وكفى أتباعَك اللهُ ناصراً، والآية نزلت في غزوة بدر حيث نصر الله جنده وأولياءه المؤمنين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ التحريضُ على القتال: الحثُّ عليه، أي بالغ في حثهم على القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله المأمور به ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ شرط في معنى الأمر، بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا، بعون الله وتأييده، فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً، وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بيان للألف، وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، رجاء الثواب، ولا يقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالى، بل للحمية الجاهلية.

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين، حين فُرِضَ عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: ﴿الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً..﴾ فلما خفَّف الله عليهم من العِدَّة، نقص من الصبر بقدر ما خُفِف عنهم[1] والمراد هنا بالضَّعف ضعفُ البدن، لا الضعفُ في الدين وقوله: ﴿بإِذْنِ الله﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ولمَّا كان الصبر شديد الأهمية، ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿والله مَعَ الصَّابرينَ﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون، لأنَّ من كان الله معه لا يُغلب ولا يُقهر.

---

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٨/ ٣١٤ كتاب التفسير.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ بيان أنَّ ما يُذكر، سُنَّة مطَّردةٌ فيما بين الأنبياء، أي ما صحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يُذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، من أثخنه المرضُ إذا أثقله وأثخنته الجراحة أي أوهنته بحيث لا حراك به، وأثخن في الأرض سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ مسوق للعتاب ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه، وقمع أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلِّب أولياءه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال، ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء، حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿فإمَّا منّاً بعدُ وإمَّا فداء﴾ لمَّا تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين، عن ابن مسعود قال: لمَّا كان يوم بدر، جيء بالأسرى وفيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون بهؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك، استبقِهم لعلَّ الله تعالى أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذَّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، مكنَّا منهم نضربْ أعناقهم، فدخل النبي ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، ثم خرج ﷺ فقال: إنَّ الله تعالى يليِّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألينَ من اللَّبنِ، وإنَّ الله ليشدِّد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر مثلُ إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا

عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ أنتم عالة فلا يفلتنَّ أحد إلاَّ بفداء. قال عمر: فَهَوِي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فقال ﷺ: على أصحابك في أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى..﴾[1] الآية. روي أن الأسارى كانوا سبعين، فيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، وكان الفداء لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم لكل أسير.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي لأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، لكن الذي تسبب العفو عنه، كل ما ذكر واستدل بالآية على أن الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون ويأتي الوحي على خلافه، ولا يقرون على الخطأ.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية، فالمراد مما غنمتم إما الفدية وإما مطلق الغنائم ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أكلاً حلالاً طيباً، وفائدة الإحلال إزاحة ما وقع في نفوسهم منه، بسبب تلك المعاتبة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم، من استباحة الفداء قبل ورود الإذن ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

---

(١) أخرجه مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب ٣/ ١٣٨٣، ورواه الترمذي مختصراً ٥/ ٢٥٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ في ملكتكم واستيلائكم، كأنَّ أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إيماناً وإخلاصاً، ونيةً صحيحة، ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء، والآيةُ نزلت في جميع أسارى بدر، وقيل: إنها نزلت في العباس، وقد روي عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنتُ مسلماً، لكنْ استكرهوني!! فقال ﷺ له: إن يكن ما تقول حقاً فالله تعالى يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابني أخويْكَ «نوفل بن الحارث» و«عقيل بن أبي طالب»[1]. وروي عنه أنه قال بعد حين: «لقد أبدلني الله خيراً من ذلك، وإني أنتظر من ربي»[2] يعني الموعود بقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لمن آمن وتاب، والظاهر أن الآية

---

(١) لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر، كان معه عشرون أوقية من ذهب، فأُخذت منه ولم تُحسب من فدائه، وكُلف أن يفدي ابنيْ أخيه نوفل، وعقيل، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ لأصحابه: أضعفوا على العباس الفداء ـ أي خذوه مضاعفاً منه ـ فأخذوا منه ثمانين أوقية، فقال العباس لرسول الله ﷺ: «لقد تركتني أتكفَّف الناسَ ما بقيتُ»!! فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيّ الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حَدَث فهو لكِ ولولدكِ، فقال: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال: ربي أخبرني بذلك، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمتُ أنك رسول الله قبل اليوم، فأسلم رضي الله عنه، وأمر ابني أخيه أن يسلما، ففيهم نزلت ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى..﴾ الآية» وانظر صفوة التفاسير ١/ ٥١٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤١.

عامة لسائر الأسرى على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يأبى ذلك رواية أنها في العباس، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهروا من القول، أي نقض ما عاهدوك من ألاّ يعودوا لمحاربتك، ولا إلى معاضدة المشركين ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بدر، فهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له، والوعيد لهم، روي أنه ﷺ لما أطلقهم من الأسر تعاهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فإن عادوا للخيانة، فسأمكّنك منهم أيضاً، وأقدرك عليهم حسبما رأيتَ يوم بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه يفعل بحكمته كل ما يفعله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون، هاجروا من أوطانهم حباً لله ولرسوله ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى المجاهدين والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بجاهدوا، ولعلَّ تقديم الأموال، لما أن المجاهدة بالأموال أكثر، وأتمُّ دفعاً للحاجة، حيث لا تتصوّر المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية، على حسب الوقوع، فالأول الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد بالمال، ثم بالنفس ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ ونصروهم على أعدائهم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في النصرة والإرث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، كما هو المروي عن ابن عباس والحسن وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن بالمدينة وليٌّ مهاجري واستمرَّ أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي من توليهم في الميراث، فلا إرث بينهم، ولا نصيب لهم في الغنيمة، ولو كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ إلى المدينة المنورة ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ منهم ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ أي معاهدة، فإنه لا يجوز نقض عهدهم، بنصرهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فلا تخالفوا أمره، كيلا يحلَّ بكم عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ أي في الميراث، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، ولو كانوا أقارب، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أنه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافرٌ مسلماً، لقد كان كفار قريش في غاية العداوة لليهود، فلمَّا ظهرت دعوة الرسول ﷺ، تناصروا وتعاونوا على إيذائه، واشتركوا في العداوة، فصارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أُمرتم به من التواصل بينكم، وتولّي بعضكم لبعض، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تحصل فتنة عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على العدو، كان العدو ظاهراً، والفساد زائداً ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ في الدين وهو سفك الدماء، والفساد يحصل من اختلاف الأفكار.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ۝٧٥ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ أي هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، ومفارقة الأهل والسَّكن، والانسلاخ من المال والدنيا، لأجل الدينِ والعقبى، وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان ﴿ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ في الجنة لا تبعة ولا منة فيه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ أي بعد السابقين إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة ﴿ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار، ألحقهم الله تعالى بالسابقين، تفضلاً منه سبحانه، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهي الهجرة الثانية بعد الحديبية، وهم التابعون بإحسان، وفيه إشارة إلى أن السابقين، هم السابقون بالشرف، وأن هؤلاء دونهم فيه، وبهذا القسم صارت أقسام المؤمنين أربعة، والتوارث إنما هو في القسمين الأوَّلَين، ولو اتفق كون المؤمنين في بلد، وفي عددهم قلة، وللكفار شوكةٌ، فيلزمهم الهجرة من وطنهم، لأنه قد حصل فيهم مثال العلة في الهجرة الأولى ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ أي ذوو القرابة ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ ﴾ في التوارث من الأجانب، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرة ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي في حكمه في القرآن، أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام، الذين ذكرهم الفرضيون، وهم من لا فرض لهم ولا

تعصيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارث، بالقرابة الدينية أولاً، وبالقرابة النسبيَّة آخراً، من الحِكَم البالغة، والله تعالى ولي التوفيق، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

* * *

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

سورة مستقلة ليست بعضاً من سورة الأنفال، وتركُ التسمية في هذه السورة لا مدخل لرأي أحد فيه، وإنما هو الوحيُ، ولا مِزية في عدم نزولها ههنا [1]، وليس المقصود ههنا إلاّ إظهار صفة القهر، ولا يتأدى ذلك مع افتتاح بالبسملة.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢ ﴾.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ هذه براءة واصلة من الله ورسوله، وأصل البراءة انقطاع العصمة ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الخطاب في

(١) إنما لم توجد البسملة في هذه السورة، لأنها ابتدأت بالوعيد والتهديد والعذاب، وبسم الله الرحمن الرحيم آية رحمة، ولا تناسب بين الرحمة والعذاب، فهذا هو السرُّ في عدمِ ذكر التسمية في هذه السورة، وقد سئل علي رضي الله عنه فقيل له: لمَ لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال للسائل: يا بُنيَّ إن «براءة» نزلت بالسيف، والتسميةُ رحمة، والرحمةُ أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

﴿عَـٰهَدتُّم﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب، بإذن الله واتفاق الرسول ﷺ، فنكثوا إلا بني كنانة وبني ضمرة، وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله لأنها عبارةٌ عن إنهاء حكم الأمان، وذلك منوط بحكم الله عز وجل، لأنه أمر كسائر الأوامر، واشتراك المسلمين في حكمها، إنما هو على طريقة الامتثال بالأوامر، وأما المعاهدة فحيث كان عقداً لا يتحصل في نفسه إلا بمباشرة المتعاقدين، لم يتصور صدورها عنه سبحانه، وإنما الصادر عنه الإذن، والذي يباشرها المسلمون، فنُسبت كلٌّ واحدة منهما إلى من هو أصل فيها، وإدراج النبي ﷺ في النسبة الأولى للتنويه بشأنه، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوامها على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة، وتهويلاً لأمرها.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصَفر، وربيع الأول، وعشرٌ من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، والمقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا، ويحتاطوا لأنفسهم، ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام، أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، روي أنه ﷺ أراد أن يحج سنة تسع، فقيل له: المشركون يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، ثم بعث بعده علياً. أخرجه أحمد والترمذي وحسَّنه عن أنس قال: بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يبلغ هذا إلاَّ رجلٌ من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إياه ليقرأ على الناس صدر براءة، فلما لحق علي قال أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ قال علي: مأمور، فمضيا فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر، وعلَّم الناسَ مناسكهم، وقام علي يوم النحر عند حجرة العقبة، فقال: أيها الناس إني رسولُ رسولِ الله إليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، من أول سورة براءة، ثم قال: أُمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، وألاَّ يطوف بالبيت عُريان، ولا

يدخل الجنة إلا كلُّ نفس مؤمنة، وأن يُتَمَّ لكل ذي عهد عهده[1]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي غير فائتين عذابه، بالهرب والتحصُّن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ووضع اسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ موضع الضمير، لتربية المهابة، وتهويل أمر الإخزاء.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي إعلامٌ، فَعَالٌ بمعنى الإفعال، كالعطاء بمعنى الإعطاء وإنما قال: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي كافة، لأن الأذان غير مختص بقوم، كالبراءة الخاصة بالناكثين، بل هو شامل لجميع الناس ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، لما أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات، فقال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال هذا يوم الحج الأكبر»[2] ووصفُ الحج بالأكبر، لأن العمرة تسمى حجاً أصغر، وأمَّا تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالأكبر، فلم يذكروها، وإن كان ثواب ذلك الحج

---

(١) انظر سنن الترمذي ٥/ ٢٥٧ من كتاب التفسير، ومسند الإمام أحمد ١/ ٧٩ أقول: وإنما بعث ﷺ علياً بعد أبي بكر، من أجل أن عادة العرب قد جرت في عقدها ونقض العهد، أن يتولى ذلك رجلٌ من نفس القبيلة، فلهذا بعث علياً ليؤذن المشركين بذلك، وليس فيه ـ كما زعم بعض الجهلة ـ تفضيل عليٍّ على أبي بكر، فقد كان أبو بكر في ذلك العام الإمام، وعليٌّ يأتمُّ به، وأبو بكرٍ الخطيب، وعليٌّ يُسْمِع الناس.

(٢) انظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٢٠.

زيادةً على غيره ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من المعاهدين الناكثين ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ورسوله كذلك بريء من المشركين ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر بنقض العهد، والالتفاتُ للتهديد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي التوبة خير لكم في الدارين ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه طَلَبًا، ولا تعجزونه هَرَباً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم في الآخرة، والتعبيرُ بالبشارة للتهكم والسخرية.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استدراك من النبذ السابق، كأنه قيل: لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكنِ الذين عاهدتم من المشركين، ولم ينقضوا عهدهم، فلا تُجروهم مجرى الناكثين، في المسارعة إلى قتالهم، بل أتمُّوا إليهم عهدهم، وهم «بنو ضَمْرة» من كِنانة، أمر الله تعالى بإتمام عهدهم، وكان بقي من مدتهم تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد والميثاق ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ أي ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي أدُّوا إليهم العهد كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي إلى انقضائها، ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين، ولا تعاملوهم معاملتهم، وهذه الطائفة لما أنفوا النكث، استحقوا من الله تعالى أن يُصان عهدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن مراعاة حقوق العهد، من باب التقوى، وإن كان المعاهد مشركاً، وأن التسوية بين الغادر والوفيِّ، منافيةٌ لذلك.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسَه، يقال: سلختُ الإهاب عن الشاة أي كشطته ونزعته عنها، والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة، وفي ذلك مزيد لطف، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر، كانت حرزاً لأولئك المعاهدين، عن غوائل أيدي المسلمين، فَنِيطَ قتالهم بزوالها. ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الناكثين للعهود، أو الآية على العموم، أي قاتلوا المشركين كافة، واقتلوا الكفار مطلقاً ﴿ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ من حِلٍّ وحَرَم ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أي بالأسر، والأخيذُ: الأسيرُ، وفُسِّر الأسرُ بالربط، لا لا باسترقاق، وقيل: المراد إمهالهم للتخيير بين الإسلام، والقتل ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون، حتى يُضطروا إلى الإسلام أو القتل ﴿ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي كلَّ ممر، لئلا ينبسطوا في البلاد، والقعود ليس المراد حقيقة، بل المراد ترقبهم وترصدهم، فالمعنى: ارصدوهم في كل مرصد يُرصد فيه ﴿ فَإِن تَابُوا۟ ﴾ عن الشرك ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ طيبةً بهما أنفسهم، تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما لكونهما رأسَ العبادات البدنية، والماليّة ﴿ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة، ومانع الزكاة لا يُخلى سبيله، وتخلية السبيل في كلام العرب: كنايةٌ عن الترك، ونُقل عن الشافعي أنه استدلَّ بالآية، على قتال تارك الصلاة، وقتال مانعي الزكاة، لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الأحوال، ثم حرَّمها عند التوبة عن الكفر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ولعل أبا بكر رضي الله عنه استدلَّ بها على قتال مانعي الزكاة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، ويثيبهم بإيمانهم وطاعتهم.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك عن القتل، وطلب منك جوارك، للتعرف على أمور الدين، بعد انقضاء الأشهر، من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي فآمنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يتدبَّر ويطَّلع على حقيقة الأمر، ويعرف دين الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ بعد سماع كلام الله، إنْ لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ أي موضع أمنه، وهو ديار قومه، التي يأمنون فيها، ثم يجوز قتالهم وقتلهم فيه، والآية دليلٌ على أن المستأمن، لا يؤذى، وليس له الإقامة في دار الإسلام، ويُمكَّنُ من العودة إلى وطنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان، وما حقيقة الدين الذي تدعوهم إليه، فلا بدَّ من أمانهم، ريثما يسمعون كلام الله تعالى ويتدبرونه، ولا يبقى لهم معذرة، قال الحسن: هذه الآيةُ محكمةٌ إلى يوم القيامة، واختلف في مقدار مدة الإمهال، فقيل: أربعة أشهر، وقيل: مفوّضٌ إلى رأي الإمام، ولعله الأشبه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ كيف استفهام بمعنى إنكار الوقوع لا الواقع، والمراد بالمشركين الناكثون، لأن البراءة إنما هي في شأنهم، أيْ على أيِّ حالٍ يوجد لهم ﴿عَهْدٌ﴾ معتدٌّ به ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ يستحق أن تُراعى حُقوقه، ولا يتعرض لهم أخذاً ولا قتلا؟ أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر، فلا تطمعوا في وفائهم وتمسكهم بالعهد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي لكنِ الذينَ عاهدتم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم المستثنون فيما سلف، والتعرض لكون المعاهدة ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لزيادة بيان عظم شأنها، وحرمة المعاهدة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾

أي مدة استقامتهم لكم، استقيموا معهم بالوفاء بالعهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهود، ويخافون الموعود.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)﴾.

﴿كَيْفَ﴾ تكريرٌ للاستنكار، وفائدة التكرار التأكيد بعدم الثقة بعهودهم ووعودهم، أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي لا يراعوا في شأنكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي حِلفاً، ولا عهداً، ومعنى ﴿يَظْهَرُوا عَلَيكُم﴾ أي يغلبوكم وينتصروا عليكم، وأصلُ الرقوب: النظرُ بطريقِ الحِفظ والرعاية، ومنه الرقيبُ، ثم استعمل في مطلق الرعاية، والإِلُّ: بكسر الهمزة: العهدُ والقرابةُ، أي لا يخافون الله، ولا يراعونه فيكم، والذمَّةُ: الحقُّ الذي يُعاب، ويُذمُّ على إغفاله، وسمي به لأن نقضه يوجب الذمَّ، فالمعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد، على كلٍّ من المتعاهدين، مشروطٌ بمراعاة الآخر لها، فإذا لم يراعها المشركون، فكيف تراعونها أنتم؟ ولمَّا كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر، موهماً للرعاية عند عدمه، بيَّن أنهم في حالة العجز، أيضاً، ليسوا من الوفاء في شيء، وأنَّ ما يُظهرونه لكم، مداهنةٌ لا مُهادنة ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يقولون بأفواههم كلاماً حلواً، بالوعد بالوفاء بالعهد، ويؤكّدون ذلك بالأيمان الكاذبة، ويتعلّلون عند ظهور خلافه، بالمعاذير الكاذبة، وتقييدُ الإرضاء بالأفواه، للإيذان بأنَّ كلامهم، مجرد ألفاظٍ يتفوَّهون بها، من غير أن يكون لها مصداقٌ في قلوبهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوه به أفواههم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد ومتمرِّدون، ليست لهم مروءةٌ رادعة، ولا عقيدة وازعة، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التحامي عن الغدر، ووصفُ الكفرة بالفسق في غاية الذم.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي استبدلوا بالقرآن وآياته الآمرة بالاستقامة، تركوها وأخذوا بدلها ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الهوى والشهوات، والجملةُ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ لأن من فسق وتمرَّد، اتَّبع الهوى والشهوات، والركون إلى اللذات ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ أي صرفوا ومنعوا غيرهم عن الإيمان ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ أي عن دينه الموصل إلى الله تعالى ﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يعملونه، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي عملهم هذا القبيح.

﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾ نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين مطلقاً، أي لا يراعون في قتل مؤمن ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما عُدِّد من الصفات السيئة ﴿ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ المجاوزون الغايةَ القصوى من الظلم والبغي.

﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ عن الكفر، وسائر العظائم، كنقض العهد وغيره ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ على الوجه المأمور به ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ أي لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه استمالتهم ما لا مزيد عليه، وبها استدل على تحريم دماء أهل القبلة، وقتال من ترك الصلاة أو الزكاة، قال ابن مسعود: «أمرتم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزكِّ فلا صلاة له». ومما يدلُّ عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما توفي النبي ﷺ، واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «كيف تقاتل الناسَ، وقد قال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلاَّ الله» فمن قال: «لا إله

إلا الله» عصم مني مالَه ونفسَه، إلاَّ بحقه، وحسابُه على الله تعالى» فقال أبو بكر: واللهِ لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقُّ المال، واللهِ لو منعوني عَنَاقاً - أنثى المعز - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فواللهِ ما هو إلاَّ أن رأيتُ أنَّ الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»[1] ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نبيِّنها والمراد بها الآيات المتعلقة بأحوال المشركين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتفكرُّون فيها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وأظهروا ما في ضمائرهم من الشرِّ ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب، وتقبيح الأحكام، وتوجيه الطعن إلى الدين نفسه، ومن ذلك الطعن بالقرآن، وذكر النبي ﷺ بسوء، فيقتل الذمي به، استدلالاً بالآية ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع ﴿أئمَّةَ الكُفرِ﴾ موضع الضمير، للدلالة على أنهم أهلُ الرياسة والتقدم بالكفر، أحقاء بالقتل، وتخصيصُهم بالذكر، لأن قتلهم أهمُّ ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم ولا وعود على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذميَّ إذا طعن في الإسلام، فقد نكَثَ عهدَه ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فقاتلوا﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا، أي ليكنْ غرضكم من القتال انتهاؤهم عما هم عليه من الكفر، لا مجرد الأذية لهم والترجي من المخاطِبين، لا من الله عزَّ وجلَّ.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٧/١٣ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠ وفي رواية «لو منعوني عِقَالاً» وهو الحبل الذي يربط به البعير.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ ﴾ تحريض على القتال لأن همزة الاستفهام فيه للإنكار وقد دخل بعدها النفي، ونفي النفي إثبات، فيفيد الحث والتحريض عليه أي فقاتلوا ﴿ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ وهم كفار مكة، نكثوا أيمانهم التي عقدوها في الحديبية مع الرسول ﷺ والمؤمنين، على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا حلفاءهم «بني بكر» على «خزاعة» حلفاء رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ وَهَمُّواْ ﴾ أي عزمت قريش ﴿ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ من مكة، حين تشاوروا في أمره بدار النَّدْوة ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ بقتال خزاعة، والبادي أظلم. ذكر سبحانه ثلاثة أمور، كل منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع؟ ثم زاد ذلك بقوله ﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ ﴾ أي أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم؟ ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ أي فالله أحقُّ بأن تخشوا عقوبته، بمخالفة أمره، وترك قتال عدوه؟ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فقاتلوا أعداءه، فإن قضية الإيمان أن لا يخشى المؤمن إلاَّ منه سبحانه.

﴿ قَٰتِلُوهُمۡ ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه ﴿ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكن من قتلهم وإذلالهم، تشجيعاً لهم، وتثبيتاً لقلوبهم ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ يعني خُزاعة وبطوناً من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الفرج قريب، والظاهر أنه على العموم، لأن كل مؤمن يُسرُّ بقتل الكفار وَهَوَانهم.

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لما لقوا منهم من المكاره والمكايد، وقد أوفى الله بما وعدهم، ووقوع ما أخبر عنه معجزة عظيمة، وفي ذكر الأيدي لتكون البشارة بالتعذيب على الوجه الأتم، الذي يترتب عليه شفاء الصدور، إذْ فرقٌ بين تعذيب العدو بيد عدوه، وتعذيب العدو بيد غيره، فالأول أشفى، وأوقع في النفس ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره، ويتوب الله تعالى عليه، فإن القتال كما تسبّب لتعذيب أناس، تسبَّب لتوبة قوم آخرين، فقد أسلم ناس، وحَسُنَ إسلامهم، منهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو، وهم كانوا أئمة الكفر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلاَّ على وفق الحكمة والمصلحة، فامتثلوا أمره عز وجل، واغتنموا منافع الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، أي بل أحسبتم وظننتم أيها المؤمنون ﴿ أَن تُتْرَكُوا۟ ﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمرون بالجهاد، ولا تمتحنون، ليظهر الصادقُ من الكاذب ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ﴾ علم ظهور ﴿ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ أي ولم يتبيَّن الخُلَّص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم؟ والمعلوم هو الجهاد، إذ لو وقع جهادهم، علم الله تعالى ذلك لا محالة، ومفاد الآية: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بدون أمتحان، يتبيّن فيه الصادق من الكاذب، ولم تجاهدوا أعداءكم فيعلم الله ذلك منكم؟ وهو تعالى يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما عِلم ليجازي على العمل. ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ الوليجةُ: هي البطانة من غير المسلمين، أي صاحب سر، وهو الذي يطَّلع على ما في ضميرك من الأسرار، والمقصودُ من هذا نهي المؤمنين عن

موالاة المشركين، وأن يفشوا إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم، ولا يخفى عليه شيء منها.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي لهم، ولا يليق ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وهو المراد هنا وإنما جُمع لأنه قبلةُ المساجد وإمامها، فعامره كعامر الجميع ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام، وبإظهار آثار الكفر، من نصب الأوثان حول البيت، ونحو ذلك، فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا أن يقولوا نحن كفارٌ، والغرضُ من هذا نفي صحة الافتخار بالعمارة، والسقاية كما كان الجاهلية يفعلون، رُوي عن الضحاك أنه قال: لمَّا أُسِرَ العباسُ، عَيَّره المسلمون بالشرك، وقطعية الرحم، فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا، وتكتمون محاسننا؟ إنَّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجبُ الكعبة، ونَفْري الحجيج، فنزلت الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدعون عمارة المسجد، مع ما بهم من الكفر ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها، فصارت هباءً منثوراً بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ لعظم ما ارتكبوه من الإجرام.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما يصحُّ ويستقيم أن يعمرها عمارةً يعتدُّ بها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على الوجه الذي نطق به الوحي، وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ، لما عُلم أن الإيمان بالله، قرينُه وتمامه الإيمان بالرسول ﷺ لأنه أحد جزئي الشهادة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾

إذْ لا يُتلَّقى ذلك إلاَّ منه ﷺ، أي إنما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية، والعملية، ومِنْ عمارتها تزيينُها بالفرش، وتنويرِها بالسُّرُج، وإدامة العبادات والذِّكر، ودراسة العلوم الدينية فيها، وتنظيفها، وفي الحديث الشريف «الغُدُوُّ والرَّواحُ إلى المسجد، من الجهاد في سبيل الله»(١) وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجِدَ الله﴾(٢) الآية» ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لم يرهب أحداً غير الله، غير مبالٍ بلومة لائم، ولا خشية ظالم، وأمَّا الخوفُ الجِبليُّ من الأمور المخوفة، فليس من هذا الباب، ولا مما يدخل في التكليف ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها، وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات الحسنة في معرض التوقع، لقطع أطماع الكفرة، فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين «لعل» و «عسى»، فما بالُ الكفرة، وهم على ما هم عليه من كفرٍ وإجرام؟ وفي الآية لطفٌ بالمؤمنين، وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف، على جانب الرجاء، ومنعٌ لهم أن يغترُّوا بأحوالهم، ويتكلوا عليها.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٩٢ وابن ماجه رقم ٧٨٦ والحاكم وصححه.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ ﴾ في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الخطاب للمشركين واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: إنَّ المشركين قالوا: عمارةُ بيتِ الله تعالى، والقيامُ على السقاية، خيرٌ من الإيمان والجهاد، فنزلت الآية، وقيل: إن بعض المؤمنين فضَّلوا السقاية والعمارة على الهجرة والجهاد، واستدل له بما أخرجه مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله تعالى خير مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، ولكني إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، وذلك يوم الجمعة، فأنزل الله الآية[1] ومعنى الآية: أجعلتم أهل السقاية والعمارة، في الفضيلة وعلو الدرجة، كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيله؟ ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ﴾ لأن عمارة المسجد، والسقاية، إنما توجب الفضيلة، إذا كانت صادرة عن المؤمن، أمّا إذا كانت صادرة عن الكافر، فلا فائدة فيها ألبتة لأن الله أحبط أعمالهم ﴿وَمَنْ يكفُرْ بالإيمَانِ فقدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أُريد به المشركون، وبالظلم: الشركُ، ومعاداة الرسول ﷺ، وهذا حكم منه تعالى أنه سبحانه، لا يوفّق هؤلاء الظالمين، إلى معرفة الحق وسبيل الرشاد.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة في الرد وتكميلاً له، وزيادة الهجرة للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد، لا أنه اعتبر بطريق التدارك، والظاهر

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦/١٣ وذكره الطبري في جامع البيان ١٦٩/١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٢١٨/٣.

من السياق أن المفضل عليه أهل السقاية والعمارة من المشركين أو ممن لم تُستجمع هذه الصفات فيه ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى بالفوز العظيم، أو بالفوز المطلق، كأن فوز ما عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يخبرهم ربهم بالخبر السارّ في الدنيا على لسان رسوله ﷺ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم وكونه سبحانه هو المبشر ما لا يخفى من اللطافة واللطف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كبير ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عالية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا نفاد لها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به، إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

ولمّا وصف تعالى المؤمنين بالإيمان والهجرة والجهاد، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: بالرحمة، والرضوان، والجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية على ما روي عن ابن عباس نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وهلكت أموالنا فنزلت، وروي عن أبي

جعفر أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى قريش يخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، أي لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي إن اختاروه وأصرُّوا عليه إصراراً، لا يرجى معه إقلاع أصلاً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي واحداً منهم ومن في قوله سبحانه ﴿مِّنكُمْ﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المتولون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وأمر له ﷺ بأن يثبت المؤمنين، ويقوي عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه، من موالاة الآباء، والأبناء، والإخوان، أي قل يا رسول الله للمؤمنين ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ ولم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف، لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة، بل هم تبع، وما هنا في المحبة، وهم أحبُّ إلى كل أحد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقرباؤكم، والعشيرةُ: القبيلة، ولا واحد لها من لفظها ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها، وُصفت الأموال بذلك، لحصولها بكدِّ اليمين، وعَرَقِ الجبين ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾ أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوات وقت رواجها في أيام الموسم، والكسادُ: عدم النَّفاق والرَّواج ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعجبكم الإقامة فيها، من الدور والبساتين ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ نظم حبَّ الجهاد بحبِّ الله ورسوله، تنويهاً لشأنه، وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يُكره، وإيذاناً بأن محبته راجعة إلى محبتهما ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ لا يرشد ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة، الداخلين في موالاة المشركين، وفي الآية الكريمة من الوعيد والتهديد الشديد، ما لا يكاد يتخلص منه، إلاَّ من تداركه لطفٌ من ربه، وإذا وقع التعارض بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الدين، وجب على المسلم ترجيح الدين، على أمر الدنيا بهذه الآية.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المَواطنُ: جمعُ موطن، وهو المشهد من مشاهد الحرب، وهذا امتنانٌ على المؤمنين بالنصرة على الأعداء، التي يترك لها الغيور أحب الأشياء إليه، والمراد بالمواطن «غزوة بدر، وخيبر، وبني النضير، وبني قريظة» ونحو ذلك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي وفي موطن يوم حُنين ـ وهو واد بين مكة والطائف على ثلاثة أميال من مكة ـ كانت فيه وقعة بين المسلمين وبين هوازن، في شوال سنة ثمان، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً، العشرُ الذين حضروا إلى مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، والأعداء كانوا أربعة آلاف، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، وقيل: أول من انهزم الطلقاء، مكراً منهم، وكانوا سبباً للهزيمة، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي فلم تنفعكم تلك الكثرة شيئاً من النفع ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي على سَعَتها عليكم، لعدم وجدانِ مكانٍ تستقرُّون به مطمئنين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ إلى الكفار ظهوركم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ من الإدبار بمعنى الذهاب إلى خلفه، والمراد الانهزام وقد ظهر منه ﷺ من الشجاعة في تلك الوقعة، ما أبهر العقول، ولم يخطر بباله ﷺ مفارقة القتال، فقال للعباس وكان صَيِّتاً صِحْ بالنَّاس، فناداهم فكرُّوا، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين فانهزموا، وتفصيل القصة في كتب السِّير[1].

(١) أخرج البخاري ٨/٢١ في المغازي أن رجلاً قال للبراء بن عازب: أكنتم وليَّتم يوم =

وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي طمأنينته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي أنزل رحمته التي تسكن القلوب، وتطمئن إليها، اطمئناناً بالنصر القريب ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عامة، الذين ثبتوا، والذين انهزموا، وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافي الإيمان ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، واختلف في عددهم، وكذا اختلفوا في أنهم قاتلوا أم لا؟ والجمهور على أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، وإنما نزلوا لتقوية قلوب المؤمنين وتأييدهم بذلك ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ ما فعل بهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لكفرهم هذا في الدنيا وفي الآخرة أشد من ذلك.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ أي يوفقه للإسلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه لحكمة تقتضيه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يتجاوز عما سلف من الكفر والمعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليهم، روى البخاري عن المسور بن مخرمة «أن أناساً منهم، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وبايعوا على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنتَ خير الناس، وأبرُّ الناس، وقد سُبِيَ أهلونا وأولادنا، وأُخذتْ أموالنا ـ وقد سُبي يومئذٍ ستة آلاف نفس، وأُخذ من الإبل والغنم ما لا يُحصى ـ فقال ﷺ: اختاروا إمَّا ذراريكم ونساءكم، وإمَّا أموالكم؟ قالوا: ما كنَّا نعدِل بالأحساب شيئاً، فقام النبي ﷺ فقال: إنَّ هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنَّا خيَّرناهم بين الذَّراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء وطابت به نفسه أن يردّه، ومن لا فليعطنا ولْيكن قرضاً علينا فنعطيه مكانه، قالوا: رضينا!! فقال ﷺ: «إنَّا

= حنين عن رسول الله؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولَّى ولكنه خرج شُبَّان من أصحابه حُسَّراً، ليس عليهم كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة، لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً، ما يكادون يخطئون، فانكشفوا، ولقد رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بزمامها ـ، وهو يقول: أنا النبيُّ لا كَذبْ: أنا ابنُ عبد المطّلب. . اللهمَّ نزّل نصرك!! قال البراء: كنَّا والله إذا احمرَّ البأسُ نتّقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منَّا الذي يحاذي به. أخرجه البخاري ومسلم.

لا ندري لعلَّ فيكم من لا يرضى، فمُروا عُرفَاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه ﷺ العرفاء أنهم قد رضوا»[1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ وصفوا بالمصدر مبالغةً، كأنهم عينُ النجاسة، لخبث باطنهم، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسة، وعن ابن عباس: أنَّ أعيانهم نجسة كالخنزير، وأكثر الفقهاء على أنَّ أعيانهم طاهرة ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم وقيل: المرادُ به النهي عن الحج والعمرة، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وعند الشافعي وأحمد يمنعون من المسجد الحرام خاصة، ورُوي عن عطاء أنهم نُهوا عن دخول الحرم كله، فيكون المنع من قرب المسجد الحرام على ظاهره، وبالظاهر أخذ أبو حنيفة إذْ صرف المنعَ عن دخول الحرم، إلى المنع من الحج والعمرة، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ وهو عام تسعة من الهجرة، ويدلُّ عليه نداء عليٍّ يوم نادى ببراءة «ألاَّ يحج بعد عامنا هذا مشرك» وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقراً بسبب منعهم، بانقطاع تُجَّارهم عنكم، لما أنهم كانوا يأتون في الموسم بالمتاجر، والعيلةُ: من عَالَ يَعِيلُ عَيْلَةً إذا افتقر، فهو عائل ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي من عطائه أو

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٨/ ٣٣ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦٩٣ والنسائي ٦/ ٢٦٤ .

تفضيله بوجه آخر، فقد أرسل الله السماء عليهم مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر مَيْرهم، وأسلم أهل نجد فحملوا إلى مكة الطعام، وما يعاش به، ثم فتح الله عليهم البلاد، وتوجَّه إليهم الناس من أقطار الدنيا إلى يومنا هذا، فكان إخباره تعالى بهذا معجزة والتقييد بقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ أي أن يغنيكم، لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبّه على أنه تعالى متفضّل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أمر المؤمنين بقتال أهل الكتاب، إثر أمرهم بقتال المشركين، وإيمانهم الذي يزعمونه ليس على ما ينبغي، فهو كعدم الإيمان لهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما ثبت بالكتاب والسنة، والمراد بالرسول رسولنا محمد ﷺ والمعنى: إنهم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً، لأنهم لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوها وأتوا بأحكام كثيرة من قِبَل أنفسهم، اتّباعاً لأهوائهم، فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لسائر الأديان، وهو دين الإسلام، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الكتاب جنس يشمل التوراة والإنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي ما يؤخذ من أهل الذمة ﴿عَن يَدٍ﴾ بمعنى منقادين عن قهر وذلة ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أذلاء حقيرون، مقهورون بسلطان الإسلام، وعزة المسلمين.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ استئناف سيق لبيان عدم إيمان أهل الكتاب، وانتظامهم في سلك المشركين ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن التوراة لم تبق فيهم بعد وقعة «بخت نصَّر» فبعث الله إليهم عزيراً فكتبها من صدره، فطفق يعلمهم التوراة، فقالوا: ما أوتي عزيرٌ هذا، إلاَّ لأنه ابن الله، وبالجملة فإنَّ هذا القول كان شائعاً فيهم، ولا عبرة لإنكارهم، وحكايةُ الله عز وجلَّ أصدق مما قيل، والآية قرئت حين نزولها عليهم، فلم يكذبوها، مع تهالكهم على التكذيب ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد بلا أب ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما صدر عنهم من العظيمتين ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تأكيد لنسبة القولين المذكورين لهم، ونفي التجوز عنها، وللإشعار بأنه قولٌ مجردٌ عن برهان، مماثل للخرافة، من غير أن يكون له في الخارج مصداق ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابه قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، وهم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو تعجيب من شناعتهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماء اليهود، الحَبْرُ: واحد أحبار اليهود أي علماؤهم الكبار، ويقال لابن عباس: حَبْرُ الأمة ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ علماء النصارى، والراهب الذي تمكَّنت الرهبة والخشية في قلبه، وظهرت آثارها في وجهه ولباسه، أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحلَّ اللهُ، وتحليل ما حرَّم اللهُ، وهذا هو التفسير المأثور، روي عن عديِّ بن حاتم قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عُنقي صليبٌ من ذهب، فقال: يا عديُّ اطرحْ عنك هذا الوثَنَ، وسمعتُه يقرأ في سورة براءة ﴿اتخَذُوا أَحبَارَهُم وَرُهْبانَهُم أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ﴾ الآية، فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم؟ فقال ﷺ:

أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فذلكَ عبادتهم»[1] ونظير ذلك قولهم: فلانٌ يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتأخيره في الذكر أشنع من اتخاذهم الرهبان أرباباً، لأنه مختص بالنصارى، ونسبته إلى أمه للإيذان بكمال ركاكة رأيهم، والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في الكتب الإلّهية وعلى ألسنة الأنبياء ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ أي ليطيعوا ويوحّدوا ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، أمَّا طاعة الرسول، وسائر ما أمر الله تعالى بطاعته، فهو في الحقيقة طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا الله، وهو تقرير للتوحيد ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى، عن أن يكون له شريكٌ في العبادة والطاعة، والآية ناعية على كثيرٍ من الفرق الضالة، الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحقُّ أحق بالاتّباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه، وإن أخطأه اجتهاد مقلّده.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ المراد بنور الله حجته النيرّة، الدالة على وحدانيته تعالى، وتنزّهه سبحانه عن الشركاء والأولاد، وشريعته القدسية، والقرآن العظيم، الصادع بالحقّ، وقيل: نبوته ﷺ التي ظهرت صبحاً منيراً، والمراد من الإطفاء: الردُّ والتكذيب، أي يريد أهل الكتاب

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٥٩.

أن يردُّوا دلائل الإيمان والتوحيد التي جاء بها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها، من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه، وقد قيل: مُثِّلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم، منبث في الآفاق بنفخه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ أي يظهر ﴿نُورَهُۥ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد، وإعزاز دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي يتمُّ نوره ولو كره الكافرون ذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي القرآن، الذي هو هدى للبشرية ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الثابت وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي يعلي دين الإسلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على سائر الأديان بنسخه إيَّاها، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ وَضعُ المشركين موضع الكافرين، للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول ﷺ إلى الشرك بالله.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ شروع في بيان حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأتباعهم إثر بيان سوء الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى لا يحوموا حول ذلك الحمى ولذا وجه الخطاب إليهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرشوة في الأحكام، سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه وتقبيحاً لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أي يجمعونها ويحفظونها سواء كان بالدفن أو بوجه آخر، والكنزُ: المال المدفون وقد كنزه من باب ضرب، وفي الحديث: «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز[1]» ولا يشترط في الكنز الدفن بل يكفي مطلقَ الجمع والحفظ ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نظموا في ضمن المرتشين، تغليظاً، ودلالةً على كونهم أسوةً لهم، في استحقاق البشارة بالعذاب، وفسَّر غير واحدٍ الإنفاق في سبيل الله: بالزكاة فقد روي عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية، كبر ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أُفرِّج عنكم، فانطلق فقال يا نبي الله: إنه كَبُر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يفرض الزكاة، إلاَّ ليطيِّب ما بقي من أموالكم»[2] وفي الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُدِّي زكاتهُ فليس بكنزٍ»[3] ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكيُّ بهما.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم القيامة توقد النار، فيحمى على هذه الأموال بالنار اللاهبة المستعرة، حتى تصبح حامية كاوية، وإنما قال ﴿عَلَيۡهَا﴾ والمذكور شيئان لأنه ليس المراد بهما مقداراً معيناً منهما، بل المراد الكثير منهما، وقيل: الضمير للأموال ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ أي تُحرق

---

(١) أخرجه البيهقي عن ابن عمر بلفظ «كلُّ ما أَدّيتَ زكاتَه وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكلُّ ما لا تؤدِّي زكاتُه فهو كنزٌ، ولو كان ظاهراً على وجه الأرض» وروي الحديث مرفوعاً وموقوفاً، والمشهور أنه موقوف على ابن عمر، وقد ذكر البخاري طرفاً منه في ترجمة باب فقال «باب ما أُدِّي زكاته فليس بكنز» فتح الباري ٣/ ٢٧١.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الزكاة رقم ١٦٦٤ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٣ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) هذا الحديث موقوف على ابن عمر، وقد رواه الطبراني والبيهقي، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢٥/ ٣٦٤ وفي البخاري ٨/ ٣٢٤ عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله ابن عمر، فقال: هذا قبل أن تُنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهرة للأموال. ا هـ.

﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ خُصَّت هذه بالذكر، لأن غرض الكانزين من الكنز، أن يكونوا ذوي وجاهة، وأن يتنعموا بالمطاعم الشهية، والملابس البهية، فلوجاهتهم كان الكيُّ بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام، كووا عليها، ولِمَا لبسوا من فاخر الثياب كُويت بها ظهورهم، وقيل: لأنهم كانوا إذا رأوا الفقير أعرضوا عنه، وطَوَوْا كَشْحاً، وولَّوْهم ظهورهم، فلذلك كويت الجباه والبطون والظهور ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي لنفعتها، فكان عين مضرتها، وسبب تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم الذي ادخرتموه في الدنيا، ولم تسعفوا به الفقراء.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي عددها المعتدُّ بها للسنة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وشرعه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ بالشهور القمرية، إذ عليه يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي في ابتداء إيجاد هذا العالم ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي محرمة فيها الحرب، واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سَرْدٌ «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم» ﴿ذَٰلِكَ﴾ تحريم الأشهر الحرم ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمونها حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها، وارتكاب حرامها، وتخصيصها بالنهي مع أن ارتكاب المعاصي منهي عنه مطلقاً لتعظيمها، ولله سبحانه أن يمّيز بعض الأوقات على بعض، كارتكابها في الحرم، وحال

الإحرام ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ جميعاً وهو حال، فالمعنى: قاتلوا المشركين لا يتخلف منكم أحد عن قتالهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي معكم بالنصر والإمداد، وإنما وضع المظهر، مدحاً لهم بالتقوى، وإيذاناً بأنه المدارُ في النصر، أي فاتقوا لتفوزوا بولايته ونصره سبحانه.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ وهو مصدر نَسَأه إذا أخَّره، أي إنما تأخير حرمة شهر إلى شهرٍ آخر، من معالم الكفر، ومظاهر الضلال، كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون أحلوه، وحرّموا مكانه شهراً آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً، فإن احتاجوا أيضاً أحلُّوه وحرَّموا ربيع الأول، وربما زادوا في عدد الشهور، بأن جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً، ليتسع لهم الوقت، ولذلك نص تعالى على العدد المعين، وقد يختلف وقت حجهم لذلك، ولذا قال تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ فهو كفر آخر ضمُّوه إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضلالاً زائداً على ضلالهم، أي تخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ النسيء من الأشهر ﴿عَامٗا﴾ سنة، ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ فيتركونه على حرمته، رُوي عن الضحاك أن «جُنادة الكناني» كان مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم، فينادي بأعلى صوته، إن آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحِلُّوه، ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرم فحرِّموه[1] ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا

---

(١) حكاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٧٠ من رواية ابن عباس، وحكى عن مجاهد قال: «كان رجل من بني كنانة يأتي كلَّ عام إلى الموسم ـ يعني موسم الحج ـ على حمار له، فيقول: أيها الناسُ، إني لا أُعاب ولا أجاب، ولا مردَّ لما أقول، إنَّا قد =

عدة الأربعة المحرمة ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العِدَّة وحدها، من غير مراعاة الوقت، فقد استحلوا ما حرَّم الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي زيَّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، وقرىء على البناء للفاعل ﴿زَيَّنَ﴾ وهو الله تعالى والمعنى: خذلهم وأضلهم، حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء، حال اختيارهم الثبات على الباطل، ولا يرشدهم إلى طَريق الخير والسعادة، وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم، فتاهوا في تيه الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ﴾ أي اخرجوا للجهاد، وأصلُ النفر الخروج لأمرٍ واجب ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم ولم تسرعوا، أي مالكم متثاقلين حين قال لكم رسول الله ﷺ انفروا، وقوله سبحانه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باثاقلتم أي اثاقلتم مائلين إلى الأرض، والدنيا وشهواتها الفانية، وكرهتم مشاقَّ الجهاد، المستتبعة للراحة الخالدة، وكان ذلك في غزوة تبوك، بعد رجوعهم من الطائف، استنفرهم ﷺ في وقت قحطٍ وقيظ، وقد أدركت

= حرَّمنا المحرَّم، وأخَّرْنا صفر، وفي عام آخر يقول: إنَّا قد حرمنا صفر، وأخَّرنا المحرم» فذلك هو النسيء الذي جعله الله زيادة في الكفر.

ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بُعد الشقة وكثرة العدّو، فشقّ عليهم ذلك. وذكر ابن هشام: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا ورَّى بغيرها، إلا في غزوة تبوك، فإنه ﷺ بيّن لهم المقصد فيها، ليستعدُّوا لها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها الدائم؟ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها وفوائدها ومقاصدها ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر لا يُعبأ به؛ كما جاء في الحديث الشريف: «ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلْينظر بمَ ترجع؟»[1] عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا، على الراحة في الآخرة، إذْ لا تُنال راحة الآخرة إلا بتعبِ الدنيا!!.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ أي إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله عزَّ وجلَّ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع، كقحطٍ، وظهور عدوّ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وصفهم بالمغايرة لهم، لتأكيد الوعيد، والتشديد في التهديد، أي قوماً مطيعين، مؤثرين للآخرة على الدنيا ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولا تضرون ربكم شيئاً من الضرر، بتثاقلكم عن الجهاد، ولا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلاً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصر دينه، ونبيه بدونكم، والنصر بدون سبب ولا مدد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٥٨ باب فناء الدنيا وبيان الحشر، والترمذي في الزهد رقم ٢٣٢٤ وابن ماجه في الزهد أيضاً رقم ٤١٠٨ ومعنى اليمّ: البحر.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا أي تسبَّبوا لخروجه حيث أذن له في ذلك، حين همُّوا بقتله، أو حبسه، أو نفيه، في دار الندوة[1]، فخرج بنفسه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين، هو واحد والآخر أبو بكر رضي الله عنه، والمعنى: نصره الله تعالى في مثل تلك الحالة، فلا يخذله في غيرها ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ المراد من الغار غار ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة مكثا فيه ثلاثة أيام، يختلف إليهما بالطعام «عامر بن فُهَيرة» وعلي كرم الله وجهه يجهِّزهما، واستأجر لهما دليلاً، فلمَّا كانا في بعض الليل من الليلة الثالثة، أتاهم بالإبل، والدليل، فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿ إِذْ يَقُولُ﴾ الرسول ﷺ ﴿لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ أي الصديق رضي الله عنه، قالوا: من أنكر صحبة الصدِّيق فقد كفر، لإنكاره كلام الله تعالى الصريح بالصحبة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة، وفيه بيانُ عظيمِ توكُّلِه ﷺ، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «نظرتُ إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت يا رسول الله: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟»[2] وفيه من الدلالة على علو درجة الصديق، وروي أن المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال ما قال، فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يتردَّدون حول الغار، فلم يروه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينته التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الجنود هم الملائكة، أنزلهم الله تعالى ليحرسوه في الغار، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي جعل كلمة الشرك، سافلة دنيئة حقيرة،

---

(١) انظر قصة مؤامرة المشركين على رسول ﷺ في تفسير سورة الأنفال، الآية ٣٠، من هذا التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٢٥ ومسلم ٤/ ١٨٥٤ والترمذي ٥/ ٢٦٠.

وردَّ كيدهم في نحورهم، حين تآمروا على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة، حيث نجاه ربُّه، على رغم أنوفهم، وحفظه من كيدهم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ وهي كلمة التوحيد كما قال ابن عباس، ولا يخفى ما في تغيير الأسلوب من المبالغة،، لأن الجملة الاسمية، تدلُّ على الدوام والثبات، بخلاف غيرها، ولذلك وُسِّط ضمير الفصل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالب، ويعزُّ بنصره دين الإسلام ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره، وتدبيره، وحكمه، يذلُّ أهل الشرك بحكمته.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾ تجديد للأمر بالنَّفْر، بعد التوبيخ على تثاقله وتركه ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على كل حال، من يُسرٍ أو عُسر، ومن صحةٍ ومرض، وغنى وفقر، وقلة العيال وكثرتهم، وغير ذلك، قيل: لمَّا نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَىٰ﴾ الآية ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما، والجهاد بالمال: إنفاقُه على السلاح، وتزويد الغزاة، ونحو ذلك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النفير والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ممَّا يُبتغى بتركه من الراحة، والتمتع بالأموال والأولاد ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان غُنماً سهلَ المأخذ، قريب المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القريب والبعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في النفير، طمعاً بالفوز بالغنيمة ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع

بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي سيحلفون بالله قائلين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ من جهة العُدَّة، ومن جهة الصحة، حسبما عنَّ لهم من التعلل والكذب ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لما دعوتمونا إليه، وهذا جواب القَسَم، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عمَّا وقع قبل وقوعه، فقالوا كما أخبر القرآن ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب، لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس، وفي الحديث الشريف: «اليمينُ الفاجرةُ تَدَعُ الديارَ بلاقعَ»[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ولم يخرجوا، وهذه الآياتُ نزلت في المنافقين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي لأيِّ شيءٍ أذنت لهم بالقعود، حين استأذنوك واعتلوا بالأكاذيب؟ وهلاَّ توقَّفتَ؟ وهذا من ألطف الكلام، بتصدير العفو في الخطاب، دون ما يوهم العتاب، لمراعاة جانبه ﷺ، واحتج بعضهم بهذه الآية، على صدور الذنب عن الرسول ﷺ، وقالوا: العفو يستدعي سابقة الذنب، وأجيب بأنه ليست معاتبة، بل هو استفتاح كلام، مثل أصلَحَكَ اللهُ! قال القاضي عياض: لم يتقدَّم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهيٌ فيُعَدُّ معصية، إنما فعل ذلك باجتهاد، وفيه دليل جواز

---

(١) طرف من حديث أخرجه البيهقي، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٢٢ ومعنى بلاقع: أي خراباً دماراً، وهذه اليمين تسمى «الغَمُوس» لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وهي يمين فاجرة، لا كفارة لها، لأن ذنبها أعظم من أن يُكفَّر.

الاجتهاد، وإذنه ﷺ إنما كان اعتماداً على ظاهر إيمانهم، والخطأ في ذلك، هو ترك الأولى، الذي هو التأني، والتوقف إلى انجلاء الأمر، المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في ذلك كأنه قيل: لم سارعتَ إلى الإذن لهم، ولم تتوقف حتى ينجلي الأمر؟ وفي الآية وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأني.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم، أن يستأذنوك في ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فإن الخُلَّص منهم، يبادرون إليه من غير توقف، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف، كان ذلك دليلاً على نفاقهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادةٌ لهم بالتقوى، وعدةٌ لهم بالثواب، أي والله عليم بأنهم مؤمنون متقون صادقون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف لكراهة الجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين، للإشعار بأن الباعث على الجهاد الإيمان، وعدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده، وهان عليه القتل فيه، لما يرجو في اليوم الآخر من النعيم المقيم، ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكَّتْ قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكِّهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون، فإن التردد ديدن المتحيِّرين، كما أن الثبات دَيْدنُ المتبصّرين، والآية نزلت في المنافقين، حين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد بغير عذر، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)﴾.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ معك هذا يدل على أن بعضهم قالوا ذلك عند الاعتذار، فقيل تكذيباً لهم: لو أرادوه ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ أي للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي أهبةً من الزاد والراحلة والسلاح، وغير ذلك مما لا بد للسفر والجهاد منه ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ يعني نهوضهم للخروج والمعنى: لو أرادوا الخروج لأعدُّوا عُدَّة، لأنهم كانوا مياسير، ولكنْ ما أرادوه، لما أنه تعالى كره انبعاثهم، لما فيه من المفاسد، التي ستتبيَّن ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي حبسهم بالجبن والكسل، فتثبّطوا عنه، ولم يستعدّوا له ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أي اقعدوا مع النساء، والصبيان، والزَّمْنَىٰ، وهو ذمٌّ بليغ لهم[1].

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم﴾ أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾ أي ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً وشراً، وعن الضحاك: غدراً ومكراً ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، والإيضاعُ: سيرُ الإبل: إذا أسرعت، والخِلال أصله الفُرجة استعمل ظرفاً بمعنى «بين» والمعنى: ولسَعَوْا بينكم بالنميمة، وإفساد ذات البين ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الفتنة والخلاف فيما بينكم، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب، لأن عند حصول الاختلاف في الرأي، يحصل الانهزام ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضعفة يستمعون قولهم، ونمّامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم، ولمَّا كان انضمام المنافقين القاعدين إليهم مستتبعاً لخلل كلي، كره الله انبعاثهم، ووجه العتاب على الإذن في قعودهم، مع ما قصَّ الله فيهم، أنهم لو قعدوا بغير إذن، لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم علماً محيطاً، فيجازيهم على ذلك.

---

(١) هذه الآية في منتهى الذمّ والتقبيح لهم، على حدِّ قول الشاعر:

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها: واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ تشتيت أمرك، وتفريق أصحابك عنك ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل غزوة تبوك، في يوم أحد، حين انصرف «عبد الله بنُ أبيّ» بمن معه، وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ ودبَّروا لك المكايدَ والحِيَل، ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك، وتقليبُهَا مجازٌ عن تدبيرها ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ النصر والتأييد الإلّهي، الذي وعده الله تعالى لرسوله ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم، والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، على تخلف المنافقين، وبيان كراهية الله عزَّ وجلَّ لخروجهم.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي العصيان والمخالفة، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلفٌ، أُذن له أو لم يُؤذن[1] ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ أي في نفسها وعينها، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاعتذارات الكاذبة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا، أي جامعة لهم

---

(١) الآية نزلت في «الجَدِّ بن قيس» أحد كبار المنافقين، قال للنبي ﷺ لمَّا دعاه لقتال بني الأصفر ـ يعني الروم ـ قال يا رسول الله: «ائذن لي ولا تفتنِّي، فوالله لقد عرف قومي أن لا رجل أشدُّ عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله وتركه» وانظر قصته في تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٦.

من كل جانب، والمراد بالكافرين المنافقون، وإيثارُ وضع الظاهر للتسجيل عليهم بالكفر.

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾.

﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾ في بعض مغازيك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ تلك الحسنة، أي تورثهم مساءةً، لفرط حَسَدهم وعداوتهم لك ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ من نوع شدة وكرب يفرحوا به ﴿ يَقُولُوا ﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ أي تلافينا من الأمر ما يهمُّنا، يعنون به الاعتزال عن المسلمين، والقعود عن الحرب، والمداراة مع الكفرة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّوا ﴾ أي يعرضوا عن النبي ﷺ ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما صنعوا من أخذ الأمر بالاحتياط وبما أصابه ﷺ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور.

﴿ قُل ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أي لن يحدث علينا إلاَّ ما قدَّره الله لنا، من نصر أو هزيمة، ومن عزّ أو ذل، لا يتغيَّر بموافقتكم ومخالفتكم، فالكَتْبُ بمعنى التقدير، واللام للاختصاص، فتدل الآية على أن الحوادثَ كلَّها بقضاء الله تعالى ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ أي ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكَّلوا على غيره، بأن يفوِّضوا الأمر إليه سبحانه، ولا ينافي في ذلك الأخذ بالأسباب، إذا لم يعتمد عليها فقط، والآية كالتنبيه على أنَّ حال المنافقين بالضِدِّ، وأنهم لا يتوكلون إلاَّ على الأسباب الدنيوية.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ إعادة الأمر، لإبراز العناية بشأن المأمور به وأصل ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تَتربصون حذفت إحدى التائين، أي مما تنتظرون أن يقع بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي إلا إحدى العاقبتين، اللّتَيْن كلٌّ منهما حسنى العواقب: النصرة، أو الشهادة، فما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة، أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة، كما نطق به الحديث الشريف «تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته، إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديقٌ بكلماته، أن يُدخله الجنة أو يردَّه إلى مسكنه، بما نال من أجرٍ أو غنيمة»[1] وفي رواية أبي داود ومسلم «من أجرٍ وغنيمة» ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى العاقبتين الوخيمتين ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ بقارعة من السَّماء ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتلُ ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ الفاء فصيحة، أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا، والمراد من الأمر التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد ١٥٤/٦ ورواه مسلم بلفظ «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله» بأوسع من هذا في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله رقم ١٨٧٦ وفيه زيادة «والذي نفسُ محمد بيده، ما من كَلْمٍ يُكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم، لونُه لون دم، وريحه ريح مسك. .» الحديث.

العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[1] ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن تُتقبل منكم نفقاتكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً، كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم أو لا؟ وقوله: ﴿طَوعاً﴾ أي من غير إلزام، و ﴿كَرهاً﴾ أي ملزمين، سمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون فكان الإلزام شاقاً عليهم كالإكراه، وقوله سبحانه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ له، وما بعده بيان وتقرير له؛ والمراد بالفسقِ: العتوُّ والتمرُّدُ في الكفر.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ ما منعهم أن تقبل نفقاتهم شيء من الأشياء إلاَّ كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ إلا حال كونهم متثاقلين، جمع كسلان ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً، وهاتان جملتان داخلتان في حيز التعليل، وإنما جيء بهما لمجرد الذم، وإلاَّ فالكفر وحده كافٍ لعدم قبول الأعمال.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا يروقك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم، ووبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعذبهم بسبب ما يكابدون لجمعها، وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

من الشدائد والمصائب، فالمال والأولاد عذاب للكافرين[1]، دون المؤمنين، لأنهم يثابون بمتاعبهما في الدنيا والآخرة، وليس عند الكافرين من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهوّن عليهم ما يجدونه ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وتخرج أرواحهم بشدة وعنف ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين، والجملة في موضع الحال أي حال كونهم كافرين، واستدل بتعليق الموت على الكفر، على أن كفر الكافر، بإرادته سبحانه، وفي ذلك ردٌّ على المعتزلة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي يحلفون أنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيّدون كلامهم بالأيمان الفاجرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[2] يُقال: فَرِقَ فَرَقاً أي خاف.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ سراديب يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضعاً يدخلونه ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى أحد ما ذُكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسرعون

---

(١) معنى الآية الكريمة: لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتتن بما أوتي هؤلاء من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله عز وجل استدارجهم ليعذبهم بها في الدنيا، فالله يهلكهم بأموالهم بهذه المخترعات الجهنمية التي يخترعونها، من أنواع الأسلحة الفتاكة، فهم يُدمَّرون ويهلكون بأموالهم، وليس أدل على ذلك من الحرب العالمية الأولى والثانية.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤.

إسراعاً في دخوله، لا يردّهم شيء، يقال: فرس جموح، وهو الذي لا يثنيه اللِّجام، وفيه إشعار بكمال عتوهم، وظلمة قلوبهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يعيبك في شأنها ويطعن عليك، نزلت في أبي الجوّاظ المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم في رعاء الغنم، ويزعم أنه يعدل؟ وروي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فجاءه رجل من المنافقين فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!! فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: ائذن لي أضربْ عنقه؟ قال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..»[1] الحديث ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ بيان لفساد دينهم، وحرصهم على حطام الدنيا، أي إن أُعطوا منها قدر ما يريدون ﴿رَضُوا﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ ذلك المقدار ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يفاجئون السخط، يعني أن رضاءهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين والحق، غَايَر سبحانه بين الجملتين إشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول، بخلاف رضاهم، وعن الضحاك كان النبي ﷺ يقسم ما آتاه الله من المال، قليله وكثيره، وكان المؤمنون يرضون بما أُعطوا ويحمدون الله عليه، وأمَّا المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا، وإن أُعطوا قليلاً سخطوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم ٧/ ١٦٥ وله تتمة انظرها في الصحيحين.

الغنيمة أو الصدقة، وذكر الله للتعظيم، والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره تعالى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كفانا فضله وما قسم لنا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي سيرزقنا الله صدقةً أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا اليوم، حسبما نرجو ونأمل ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا بفضله، والجواب محذوف بناءً على ظهوره أي لكان خيراً لهم وأعود عليهم بالنفع، ثم بين تعالى مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، لإصلاح الدين وأهله، لا لأغراض نفسانية كأغراضهم، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكاة لهؤلاء المعدودين، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، والفقير الذي له شيء لا يكفيه، والمسكين الذي لا شيء له، فهو أسوأ حالاً من الفقير، لقوله سبحانه: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين في تحصيلها وجمعها، وهم الذين يبعثهم الإمام، والساعي هو الذي يسعى في القبائل ليأخذ صدقات المواشي في أماكنها، ويُعْطَى العامل ما يكفيه بالوسط ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف: صنفٌ كان يؤدي لهم رسول الله ﷺ ليسلموا، وصنفٌ أسلموا لكن على ضعف، كعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وصنف كانوا يُعطون لدفع شرهم، وفي الهداية أن المؤلفة قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصدِّيق، وصحَّ أنه ﷺ كان يعطيهم من خمس الخمس، الذي كان خاصَّ ماله ﷺ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون

المكاتب، وقيل: يباع الرق فيعتق، وبه قال مالك وأحمد، والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب، وكذا القول في الغارمين يصرف المال إلى قضاء ديونهم ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصية، إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم، والغارم في اللغة من عليه دين ولا يجد قضاءه، والفقر شرط في الأصناف كلها إلا العامل ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الفقراء الغزاة، وقيل: صرف سهمهم إلى جميع وجوه الخير، من بناء المدارس، وعمارة المساجد، ونحو ذلك، والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المسافر المنقطع عن ماله، والاستقراضُ له خيرٌ من قبول الصَّدقة، وفي فتح القدير: أنه لا يحلُّ له أن يأخذ أكثر من حاجته، وهذه مصارفُ الصدقات، فللمتصدّق أن يدفع زكاة ماله إلى كل واحد منهم، وأن يقتصر على صنفٍ منهم، لأن اللام لبيان أنهم مصارف، لا لإثبات الاستحقاق، وقد روي ذلك عن عمر، وابن عباس، وحذيفة، وهذا مذهبنا، وعند الشافعي لا يجوز إلاّ أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف، ولنا قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[(1)] وأنه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله للمؤلفة، ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين، فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنفٍ واحد ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دلّتْ عليه الآية، أي فرض الله لهم الصدقات فريضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وبأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، من الأمور الحسنة، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، حسماً لأطماعهم.

---

(1) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه، سمي بالجارحة للمبالغة، كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، نزلت في فرقة من المنافقين، قالوه في حقه ﷺ بأنه يسمع كل ما قيل، من غير أن يتدبر فيه، ويميِّز بين ما يليق بالقبول، وبين ما لا يليق به، وإنما قالوه لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويصفح عنهم حِلماً وكَرَماً، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا، سوَّد الله وجوههم، وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ تصديق لهم بأنه أُذُنٌ، ولكنْ لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ يُصدِّق بالله، وبما جاء من عنده من الآيات البينات، وذلك خير لكم وللعالمين ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويصدِّقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور، وبين التسليم والتصديق، والإيمان بالله هو نقيض الكفر، فلا يتعدى إلا بالباء، وتصديق المؤمنين فيما يقولونه، فلا يقال إلا باللام، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وهو تعريض بأن المنافقين أُذُن شرٍّ، يسمعون آيات الله، ولا ينتفعون بها، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي وهو ﷺ رحمةٌ وأيُّ رحمة!! بطريق إطلاق المصدر على الفاعل مبالغةً ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ ﴾ أي لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ﷺ ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بأي نوع من الإيذاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب شديد موجع بسبب ذلك الإيذاء، وهو خبر من الله عزَّ وجل على

نهج الوعيد لغاية التعظيم لمقامه الشريف ﷺ والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى الله تعالى، موجبةٌ لكمال السَّخط والغضب.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الخطاب للمؤمنين، لقد كان المنافقون يتكلمون بما لا يليق، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكّدون معاذيرهم بالأيمان الكاذبة ليَرْضوا عنهم ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ أي أحق بالإرضاء، بالطاعة والوفاق، ولا يتسنى ذلك إلا بالصدق والمتابعة وتعظيم أمره ﷺ، والابتعاد عن الكذب والأيمان الفاجرة، والمراد ذمهم بالاشتغال فيما لا يعنيهم، والإعراض عما يهمُّهم ويُجديهم ﴿ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ جوابه محذوف تعويلاً على دلالة ما سبق، أي إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً، في الظاهر والباطن، فلْيرضوا الله ورسوله، فإنهما أحقُّ بالإرضاء.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أولئك المنافقون الذين سبق ذكرهم، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة، مع علمهم بما سمعوا من الرسول ﷺ وخامة عاقبتها من فنون الإنذارات، وألم تعلم؟ خطَابٌ لمن حاول الإنسان تعليمه مدة، ثم إنه لم يعلم، فيقول له: ألم تعلم؟ وإنما حسن ذلك، لأنه ﷺ طال مكثُه بينهم وكثر ترغيبه وترهيبه وتحذيره لهم، ولذا قيل: ألم يعلموا؟ ﴿ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي من يجاوز الحدَّ في المخالفة لأمر الله ورسوله، والمحادَّةُ: من الحدِّ بمعنى الجهة والجانب، كالمشاقَّة من الشق، والمعاداة من العداوة بمعناه، فإن كلَّ واحد في جانبٍ غير ما عليه صاحبه ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي فقد حقَّ أنَّ له نار جهنم ﴿ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ﴾ أي العذاب الخالد ﴿ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ أي

الـذل المقـارن للفضيحـة، حيـث يفتضحـون علـى رؤوس الأشهـاد، وهـي ثمرات نفاقهم.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ علـى المـؤمنيـن فـي شـأن المنافقين، أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عمَّا في قلوبهم من النفاق ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والأسرار الخفيّة، فضلاً عما كانوا يُظهرونه فيما بينهم، من أقاويل الكفر والنفاق، ومعنى «تنبئهم» أي أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر بين الناس، فيسمعونها من أفواه الرجال، فكأنها تخبرهم بها ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أي افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ما تحذرونه من مخازيكم، المستكنة في قلوبكم، على ملأ الناس، والمراد مظهر كل ما تحذرون ظهوره من القبائح.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ عما قالوه ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ روي أن ركباً من المنافقين، مرُّوا بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام، هيهات، هيهات، فأخبر الله تعالى نبيه فدعاهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، فقالوا: لا واللهِ ما كنا في شيء من أمرك، وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما

يخوض الركب، لنقطع الطريق بحديثنا!! فلمَّا أخبرهم الرسول ﷺ خافوا واعترفوا بأنهم قالوا ذلك على وجه الخوض واللعب، فنزلت الآية ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟ أي قل لهم توبيخاً على استهزائهم: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ فكيف تزعمون الإيمان وأنتم تهزؤون من دين الرحمٰن؟.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم، فإنها معلومةُ الكذب، لا تنفعكم بعد ظهوره ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإزاء الرسول ﷺ والطَّعنِ فيه ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان، وهذا وما قبله، لأن القوم منافقون، فالكفر في باطنهم، ولا إيمان في نفس الأمر لهم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم عن عقوبة الدنيا العاجلة ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرّين على النفاق ومباشرين على الإيذاء والاستهزاء، واستدل بعضهم بالآية، على أن الجدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي متشابهة قلوبهم في النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعاض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة، والآية متصلة بجميع ما ذُكر من قبائحهم وقولُه تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ الخ كالدليل، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، أي يأمرون بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن

الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبرَّات والإنفاق في سبيل الله، وقبضُ اليد: كنايةٌ عن الشُّحِّ والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله، وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من فضله ولطفه، والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة [١] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والخروج عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ والتعبير بالوعد للتهكم، نحو قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ أي المجاهدين ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ مخلدين ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاءً، وفيه دليل على عظم عقابها، فإنه إذا قيل للمعذَّب: كفى لك هذا، دلَّ على أنه بلغ غاية النكاية ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم وفي إظهار الاسم الجليل إيذانٌ بشدة السَّخَط ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع أبداً، ولا ينفك عنهم، وهو ما يقاسونه من مرض النفاق، الذي هم منه في بلية دائمة، لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة، ونزول العذاب.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغَيْبة إلى الخطاب للتشديد، أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة، فعلتم مثل ما فعل الظالمون من قبلكم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ تفسير وبيان

---

(١) المشاكلة معناها الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، والمراد من الآية أنهم تركوا طاعة الله، فتركهم من هدايته وتوفيقه ورحمته، والله جلَّ وعلا لا يضل ولا ينسى، فالنسيان منهم على ظاهره، والنسيان من الله بمعنى الترك.

لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم، وفيه إيذانٌ بأن المخاطبين أولى وأحقُّ، بأن يصيبهم ما أصابهم ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾ أي تمتعوا من الدنيا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة، من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم، واقتفاء أثرهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي دخلتم في الباطل، والكذب، والاستهزاء ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي كالذين خاضوا فحذف نونه تخفيفاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي ضاعت وبطلت ولم يترتب عليها أثر ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا، فلأنَّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك، ليس على طريق المثوبة والكرامة، بل بطريق الاستدراج ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران، وفي الحديث الشريف: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن»[1] يعني فمن يراد ممن كان قبلكم غير اليهود والنصارى؟ وفيه معجزة للنبي ﷺ حيث كان كما أخبر.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؟ أي المنافقين ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي خبرهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٥٥ ومسلم في العلم رقم ٢٦٦٩ باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

الذي له شأنٌ، وهو ما فَعَلوا وما فُعِل بهم، والاستفهام للتقرير والتحذير أي قد أتاهم خبر ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٖ﴾ أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أهلك رئيسهم نمرود ببعوض وأبيدوا بعده لكن لا بسبب سماوي ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ أهلكوا بالنار يوم الظُلَّة ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ الائتكاف: هو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفل، المراد بها مدائن قوم لوط ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزات الدالة على صدقهم فكذَّبوهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب، والفاء للعطف على مقدَّر، أي فكذَّبوهم فأهلكهم الله عزَّ وجل، فما ظلمهم بذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة الربّ عن الظلم، أي وما صحَّ وما استقام له تعالى أن يظلمهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنوب، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم، حيث لم يزالوا يُعرِّضونها للعقاب، بالكفر والتكذيب.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٧١)﴾.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ بيانٌ لحسن حال المؤمنين والمؤمنات، حالاً ومآلاً إثر بيان قبح حال أضدادهم، عاجلاً وآجلاً، أي هم إخوة في الدين، يتناصرون ويتعاونون ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي يدعون إلى فعل الخير، وينهون عن الشر والمنكر، على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة «نسوا الله» ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بمقابلة «ويقبضون أيديهم» ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ في كل أمر ونهي وهو في مقابلة وصف المنافقين بالفسق، فهذه الأمور الخمسة، التي بها يتميز

المؤمنون من المنافقين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ لا محالة، يفيض عليهم آثار رحمته، من التأييد والنصرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن إنجاز وعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في محله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ هذا في مقابلة الوعيد السابق للمنافقين ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي وعدهم وعداً شاملاً لكل أحد منهم، على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً، فإن كل أحد منهم فائز بها ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ العَدْنُ في الأصل: الاستقرارُ والثباتُ، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام فيه، والمراد به الإقامة على وجه الخلود والدوام، كما قال سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فيها لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ وجنة عدن هي أبهى أماكن الجنات وأسناها ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قدرٌ يسيرٌ من رضوانه سبحانه ﴿أَكۡبَرُ﴾ أعظم من ذلك كله، أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1] وفيه دلالة على أن السعادات الروحية، أفضل من السعادات

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٦٣/١١ ومسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٩ والترمذي رقم ٢٥٥٨.

الجسمانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي يستحقر دونه الدنيا وما فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (٧٣) يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٧٤)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وهم غير المظهرين للكفر باللسان، وذلك بنحو الوعظ، وإلزام الحجة ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي على الفريقين في الجهاد بقسميه، ولا ترفق بهم، وعن عطاء نَسَختْ هذه الآية كل شيء من العفو والصفح، وكل من وُقِفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد في الحجة، وتستعمل معه الغلظة ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي مسكنهم ودار إقامتهم نار جهنم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي مصيرهم.

﴿يَحۡلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ بيان ما صدر عنهم من الجرائم، الموجبة لما مرَّ من الأمر بالجهاد، والغلظة عليهم، والمفسرون ذكروا فيه سبباً للنزول فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «عبد الله بن أبيّ» ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ﴾ فنقلها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قاله فنزلت الآية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فدعاه ﷺ فقال: عَلَامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله تعالى الآية ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ هي ما حكي من قولهم ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من

الكفر، بعد إظهار إسلامهم، وكفرهم كان ثابتاً، والإسلام الحقيقي لا وجود له ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك، أخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان، قال: «كنت آخذاً بخِطَام ناقة رسول الله ﷺ أقودُ به، وعمّار يسوقه، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهتُ رسولَ الله ﷺ، فصرخ بهم، فولَّوْا مدبرين، فقال ﷺ: «هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا، كانوا متلثّمين، قال: هؤلاء المنافقون»[1] ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي وما كرهوا وما عابوا شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، في ضَنْكٍ من العيش، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ أثْرَوْا بالمغانم، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عما هم عليه من القبائح ﴿يَكُ﴾ أي التوبة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ بالإصرار على النفاق، ويُعْرِضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر في هذه الدنيا، بأن يسلّط الله عليهم المؤمنين ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العذاب ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا مع سعتها وكثرة أهلها، والمراد بذلك التعميم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب، بالمدافعة، ولا بالشفاعة، وخُصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا ولي ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في كتاب دلائل النبوة، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٣٨٦/٢.

﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ نزل في «ثعلبة» أتى رسول الله ﷺ وقال: أُدعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: يا ثعلبة قليلٌ تؤدّي شكره، خير من كثيرٍ لا تُطيقه!! فراجعه، فقال: والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنَمَتْ حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع تدريجاً عن الجماعة والجمعة، فسأل ﷺ عنه، فحُكي له، فبعث ﷺ مصدِّقين في أخذ الصدقة، فقال: ما هذا إلاّ جزيةٌ فارجعا حتى أرى رأيي»، فنزلت[1]، والمقصود تحذير المسلمين أن يعتادوا مثل هذه الخصال الذميمة.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾ أي منعوا حقَّ الله منه ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أعرضوا عن طاعة الله سبحانه ﴿ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، والمراد تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم.

﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ ﴾ كلُّ شيءٍ جاء بعد شيءٍ، فقد عَاقَبه وعَقَّبه، أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا ﴾ سوء اعتقاد وكفراً مضمراً ﴿ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ متمكناً في قلوبهم ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾ أي يلقون الله ويلقون جزاء عملهم، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ أي يلقون جزاء عملهم، بسبب إخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح، وبسبب كونهم مستمرّين على الكذب، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع، للإيذان بالاستمرار، وفي الحديث الشريف: «أربعٌ من كنَّ فيه

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ ١٩٢ وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٨ وقد نقل هذا عن ابن عباس والحسن البصري. أقول: وهذا غير ثعلبة بن حاطب الصحابي المشهور، فهذا مسلم بدريٌّ، وذاك رجل منافق بنص القرآن الكريم: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من عاهد الله، وقد اشتبه على البعض الأمر، فأنكر القصة وكذَّب الرواية، مع أنها مرويةٌ في أكثر كتب التفسير، وبالتمييز بين الاثنين ينتهي أمر الشك والتكذيب، وانظر تفسير القرطبي ٨/ ٢١٠.

كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق، حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتمن خَانَ، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عَاهَد غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر»[1] أي مال عن الحق، وليس الغرض الحصر، بل كلٌّ من أبطن خلاف ما أظهر، فهو من المنافقين، واستُشكل ذلك بأن هذه الخصال، قد توجد في المسلم، بل في بعض علمائنا اليوم؟ أُجيب بأن المعنى: أن هذه الخصالَ خصالُ النفاق، وصاحبُها يشبه المنافقين في التخلق بها، ويجب على المؤمن أن يجتنب عنها، فإنها في غاية القبح والشناعة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾؟ أي المنافقون الذين عاهدوا الله تعالى، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي ما أسرُّوه في أنفسهم من النفاق، والعزم على الإخلاف وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، وتقديمُ السِرِّ لأن العلم به أعظم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، حتى ما اجترؤوا عليه من العظائم.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ اللمز: العيبُ، أي هم الذين يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي المتطوعين المتبرّعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي في الإنفاق من أموالهم، عن أبي مسعود البدري قال: لمَّا نزلت آية الصدقة كنَّا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير، فقالوا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان باب علامات المنافق ١/ ٨٤، ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان أيضاً، وأبو داود رقم ٤٦٨٨ في السنَّة.

مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغنيٌّ عن صاع هذا، فنزلت هذه الآية[1]، وحثَّ النبيﷺ الناسَ على الإنفاق، فقال: يا أيها الناس تصدَّقوا، فقام عبد الرحمٰن بن عوف، فقال: عندي ثمانية آلاف تركت منها أربعةً لعيالي، وجئت بأربعة أقدمها إلى الله تعالى، ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: يا رسول الله: عندي سبعون وسقاً من تمرٍ، فطعن المنافقون وقالوا: إنما جاءا بهذا للرياء والسمعة، ثم قام رجل يكنى «أبا عقيل» فقال: يا رسول الله ما لي من مال، غير أنّي آجرتُ نفسي على صاعين من تمر، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيلٍ، ولكنه أحبَّ أن يُذْكر، ويُعطى من الصدقات، فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلاَّ طاقتهم، وهم الفقراء ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئون بهم ويقولون: إنه محتاج إليه، فكيف يتصدق به؟ والمنافقون لا يعلمون أن هذا من موجبات الفضيلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، والتعبير عنها بذلك للمشاكلة[2] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم موجع، فالجملة معطوفة على ما قبلها، وإنما اختلفتا فعلية، واسمية، لأن السخرية في الدنيا وهي متجددة، والعذاب في الآخرة وهو دائم، والتنوينُ في العذاب للتهويلِ والتفخيم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٣٠، ومسلم في الزكاة رقم ١٠١٨، وذكره الطبري بنحوه في جامع البيان ١٠/ ١٩٥.

(٢) قال النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٣٦: ومعنى ﴿سَخِر اللهُ منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسمَّى الثاني باسم الأول على الازدواج. اهـ أي على سبيل المقابلة لسخريتهم وهذا ما يسمى بالمشاكلة أو المقابلة وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى.

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إخبار باستواء الأمرين، في استحالة المغفرة، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة، قال المفسرون: لما نزلت الآية المتقدمة في المنافقين، وظهر نفاقهم للمؤمنين، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويقولون: استغفر لنا!! فنزلت ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ المراد من السبعين التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ امتناع المغفرة لهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فليس عدم قبول استغفارك، لبخلٍ منَّا، ولا لقصور فيك، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنه، لأنهم كفروا كفراً متجاوزاً للحد، كما يشير إليه وصفهم بالفسق، في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فإن الفسق عبارة عن التمرد، والتجاوز عن حدود الشرع.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، الذين خلَّفهم كسلُهم ونفاقهم عن الغزو ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود، أي فرحوا بقعودهم عن الغزو ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد خروجه ﷺ مخالفةً له حين سَار وأقاموا فلم يخرجوا معه، أي فرحوا لأجل مخالفته ﷺ ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إيثاراً للدَّعَة والراحة، لِمَا في قلوبهم

من الكفر والنفاق، وإنما أُوثر ما عليه النظمُ الكريم، على أن يقول: وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو، إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله، مع كونه من أجلِّ الرغائب، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح، الذي هو القعودُ خلاف رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض تثبيطاً: لا تخرجوا إلى الغزو في الحر، فإنه لا تُستطاع شدَّتُه ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ردّاً عليهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا من أهل الفطانة والفقه، لعرفوا أنها كذلك.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ في الآخرة، إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم، أي وسيبكون بكاء كثيراً حين يلقون في الآخرة جزاءهم[1] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار التجددي.

> ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن ردَّك الله إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم، والرجع إشارة إلى أن ذلك السفر، لما فيه من الخطر فيحتاج الرجوع منه، ولذا أوثر إن على إذ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوةٍ أخرى بعد تبوك، التي ردَّك الله منها بتأييده عزيزاً ﴿فَقُل﴾ لهم إهانةً ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ ما دمتُ ودمتم ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ

---

(١) معنى الآية: أمرُ الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ماشاؤوا، فإنهم سيبكون في النار بكاءً لا ينقطع، جزاءً بما اجترحوه من الآثام، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه ابن عباس، والحسن، وقتادة، وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا، طبعة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨ هـ.

﴿عَدُوًّا﴾ من الأعداء، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة، وإبعاد لهم من محافل الصحابة، عقوبة لهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ عن الخروج معي وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في غزوة تبوك، والجملةُ في موضع التعليل لما سلف، أي لأنكم رضيتم بالقعود في أول مرة ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي المتخلفين كالنساء والصبيان، والعاجزين من الرجال كالمرضى والزمنى، والجمع المذكر للتغليب، وتفسيرُ الخالف بالمتخلف هو المأثور عن السلف، وفي الآية دليل على أنَّ الرجل إذا ظهر منه مكرٌ، وخِداع، وبدعة يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبتِه.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ وإنما جيء بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقق الوقوع لا محالة، قوله: ﴿أَبَدًا﴾ متعلق بالنهي أي لا تدع لهم، ولا تصلِّ عليهم أبداً، وقد روي في سبب النزول ما أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لمَّا مات عبد الله بن أبيِّ ابن سلول، دُعي له ﷺ ليصلي عليه، فلمَّا قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وثبتُ إليه، فقلت يا رسول الله: أتصلي على ابنِ أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، أعدِّد عليه، فتبسم ﷺ وقال: أَخِّرْ عني يا عمر، فصلَّى ثم انصرف، فلم يمكث إلاَّ يسيراً حتى نزلت الآية»[١] وأخرجه الترمذي وزاد فيه «فما صلي بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله»[٢] ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء، وفي زيارة قبور الكفار خلافٌ، وكثير من القائلين بعدم الجواز،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٣٨ فتح الباري.
(٢) انظر سنن الترمذي كتاب التفسير رقم ٣٠٩٩.

حَمَل القيامَ على ما يعمُّ الزيارة، ومن أجازها استدل بقوله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، ألاَ فزوروها، فإنها تذكّركم الآخرة»[1] والاحتياطُ عدم زيارة قبور الكفار ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعليل للنهي على معنى إن الصلاة على الميت والاحتفال به، إنما يكون لحرمته، وهم بمعزل عن ذلك، لأنهم استمروا على الكفر مدة حياتهم ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي متمردون في الكفر، خارجون عن حدود الله.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وتقدمت مثل هذه الآية، والحكمة في تجدد النزول، إرادة أن يكون المخاطب، على تيقظٍ وانتباهٍ، فيما يجب أن يُحذر منه، وهو التعجبُ، والتفاخرُ بالأموال والأولاد، فالتكريرُ هنا للمبالغة في التحذير، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الفريق الأول، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة، لم يكن ذكره مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع الآخر.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٧٧ في الأضاحي، والترمذي في الأشربة رقم ١٨٧٠ وأبو داود رقم ٣٦٩٨ في الأشربة أيضاً.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ من القرآن فيها الإيمان والجهاد ﴿ أَنۡ ءَامِنُواْ ﴾ بأن آمنوا ﴿ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، والخطاب للمنافقين والمراد أخلصوا الإيمان بالله، وإنما قدم الإيمان لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً ﴿ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ ﴾ أي طلب الإذن منك، وفيه التفات ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ أي ذوو الغنى والسَّعَة من المنافقين، وهم من له قدرة مالية، وخُصّوا بالذكر لأنهم الملومون ﴿ وَقَالُواْ ذَرۡنَا ﴾ أي دعنا ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ الذين قعدوا لعذر، كالمرضى، والزمنى، وكالنساء، والصبيان.

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ مع النساء، والمرضى، والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم في الدارين.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ ﴾ أي إنْ تخلَّف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، نية واعتقاداً وعملاً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(١) وفي الآية تعريضٌ، بأن القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمُ ﴾ بواسطة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٩.

ذلك ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ منافع الدارين، الظفر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وقيل: الخيراتُ: الحورُ، لقوله تعالى: ﴿فيهنَّ خيرات حسان﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب، كرَّر اسم الإشارة تنويهاً بشأنهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية، عدا الفلاح والرضوان، فقد أعدَّ الله لهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، وهذه هي السعادة الكبرى.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٠﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ أي المعتذرون ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ شروعٌ في بيان أحوال منافقي الأعراب، إثر بيان أحوال منافقي المدينة، والمعذِّر من عذَّر في الأمر إذا قصَّر فيه وتَوَانى، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل، ولا عذر له، عذرتُه فيما صَنَع: رفعتُ عنه اللَّومَ، فهو معذورٌ، أي غير ملوم، والاسم العُذْرُ، والمَعْذِرةُ، واعتذر طلب قبول معذرته، والأعراب صيغة جمع لا واحد له وليست جمعاً للعرب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدويّاً يسكن البادية، فمن استوطن القرى والمدن فهو من العرب خلاف العجم، والأعراب: أهل البدو وهم أسد، وغطفان، وقيل: نفر من بني غفار ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ أي استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد، وكثرة العيال ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ بيان في الأعذار الحقيقية والضعفاء كالهرمى والزمنى ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج معها ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ كالعمى ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ كجهينة ومزينة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي إثم وأصله الضيق ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، بأن يتعهدوا أمورهم، وأمور أهلهم، وإرادة الخير لهم، وبالاحتراز عن الأراجيف، وإثارة الفتنة ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناحٌ، ولا على معاتبتهم سبيلٌ، وإنما وضع «المحسنين» موضع الضمير، للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، وهو من بليغ الكلام، لأن معناه لا سبيل لعاتبٍ عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه إشارة إلى أن كل أحد، محتاجٌ للمغفرة والرحمة، إذ الإنسان لا يخلو من تفريط، فلا يقال: إنه نفى عنهم الإثم، فما الاحتياج إلى المغفرة؟.

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ هم البكّاؤون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج معك، فاحملنا على الخفاف والدواب لنغزو معك، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ وفي إيثار ﴿لا أَجِدُ﴾ على ليس عندي، من تلطيف الكلام، كأنه ﷺ يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا

يجده ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا، أي انصرفوا، والظاهر أنه لم يخرج منهم أحد، للغزو مع الرسول ﷺ ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي دمعها، وهو أبلغ من يفيض دمعُها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فيَّاضاً ﴿حَزَنًا﴾ أي يفيض دمعها للحزن ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ أي لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه للخروج معك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ واجدون للأهبة والمركب للغزو، مع سلامتهم، قادرون على الخروج معك ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي رضوا لأنفسهم أن يبقوا مع العجزة والنساء والصبيان، المتخلفين عن الغزو، والسبب هو رضاؤهم بالدناءة، والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدَّعة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ خذلهم الله حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غائلة ما رضوا به، وما يستتبعه عاجلاً وآجلاً.

﴿۞ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿۞ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ في التخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والجمع للتعظيم، والأولى أن يكون له ولأصحابه ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ أي من الغزو ومنتهين ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة، إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم، لا الرجوع إلى المدينة

﴿قُل﴾ لهم يا رسول الله، وتخصيصُه ﷺ لما أن الجواب وظيفته ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدِّقكم في ذلك ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمع ضمير المتكلم في الموضعين لحسم أطماعهم من التصديق، وللإيذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة، فلن يصدِّقهم أحد منهم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكأنه استتابة، وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بالبعث يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إليه تعالى، ووضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنه تعالى مطلع على سِرِّهم وعَلَنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ورودكم إليه تعالى ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد من التنبيه المجازاة عليها، وإيثارها عليها للإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها حينئذ.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة والسين للتأكيد والمحلوف عليه هو ما اعتذروا به، والجملة بدل من يعتذرون ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا رجعتم من تبوك، ومعنى الانقلاب: هو الرجوعُ والانصرافُ ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ بترك المعاتبة، وتصفحوا عما فَرَط منهم، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿لترضوا عنهم﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ إعراض اجتناب، وعن ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام، كما ينبىء التعليل بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قذر لخبث باطنهم، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الاعراض، وترك المعاتبة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿جَزَآءًۢ﴾ أي يُجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من فنون السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفون بالله لكم على ما اعتذروا ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم، لينفعهم ذلك في دنياهم فقط ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ حسبما راموا وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاءكم يستلزم رضاء الله، ورضاؤكم وحده لا ينفعهم، إذا كانوا في سخط الله، والمراد به نهي المؤمنين عن مصاحبتهم، والبعد عنهم، كما يجب الاجتناب عن الأرجاس الجسمانية والآية نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في جَدّ بن قيس، ومعتّب بن قُشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبي ﷺ المؤمنين ألاّ يجالسوهم، ولا يكلموهم، فامتثلوا.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدن لغلظة طبائعهم، وقسوة قلوبهم، وتوحشهم، ونشأتهم في معزل عن العلم والعلماء، وما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، فنشأوا كما شاؤوا، فهم أشبه شيء بالبهائم، روي عن ابن عباس أنه قال: من سكن الباديةَ جفا، ومن اتَّبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتُتن ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي أحق وهو مأخوذ من جَذْر الحائط بسكون الدال، وهو أصله وأساسه ويتعدى بالباء ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الأحكام والشرائع لبعدهم عن مجلسه ﷺ، وحرمانهم من مشاهدات أنوار النبوة والمعجزات ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم أحوال أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يثيب به مسيئهم ومحسنهم، عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي يَعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ الغرم ذهاب المال بغير عوض، وغرم في تجارته خسر، أي

يعدّ ما يعطيه في سبيل الله مغرماً، لأنهم لا ينفقونه رجاء ثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما، وإنما ينفقونه تقية ورئاء الناس ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي دوائر الزمان ومصائبه، لينقلب الأمر عليكم، فيتخلص من الإنفاق، ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين، كقوله تعالى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ على الوجه المأمور به ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب قربات، جمع قربة بمعنى التقرب إلى الله بالعمل الصالح ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدّق حين أخذ صدقته بالخير والبركة، فالمراد بالصلاة الدعاء، لكن ليس له أن يصلي عليه ويسلم، فلا يفرد به غير الأنبياء والملائكة، قال النووي: علةُ منع الصلاة والسلام، لأن ذلك شعار أهل البدع، وأنه مخصوص في لسان السلف بالأنبياء والملائكة، كما أن قولنا عزَّ وجل مخصوص بالله تعالى، فلا يقال: محمد عزَّ وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديقٌ لرجائهم، والضمير لنفقتهم، أي ألا إن هذا الإنفاق، قربة عظيمة تقرّبهم من رضوان ربهم، و «ألا» أداة استفتاح للتنبيه، والدلالة على الاعتناء بالأمر ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين للتحقيق، وهي في الإثبات في مقابلة «لن» في النفي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقرير لما تقدم كالدليل عليه والآية نزلت في أسلم، وغفار، وجُهينة، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «قريشٌ، والأنصار، وجُهينة، ومُزينة، وأسلم، وأشجع، وغِفار مواليّ، ليس لهم مولىً دون الله ورسوله»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٩٥ ومسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٠.

﴿ وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة الأبرار، وهو بيان لِفضائل أشراف المسلمين، والمراد منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أي سلكوا طريقهم واتبعوهم بالإيمان والطاعة، إلى يوم القيامة، والمراد بالإحسان كل خصلة حسنة. رُوي عن حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم، وأوجب لجميعهم الجنة في كتابه العزيز، محسنهم ومسيئهم! فقلت له: في أيِّ موضع؟ فقال: سبحانَ الله، ألاَ تقرأ ﴿والسابِقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ وَالذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسانٍ رضي الله عنهم ورضُوا عنه ﴾؟ ثم قال تعالى:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول طاعتهم، وارتضاء أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما نالوه من النعمة الدينية والدنيوية ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يا أهل المدينة ﴿ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، من بعض قبائل العرب ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أي لجُّوا واستمرُّوا وَمَهروا فيه، كابن سلول، والجلاس، وأبي

عامر الراهب، يُقال: مرد فلان على عمله إذا استمرَّ ودأب وقَهَر فيه، غير أن مَرَد لا يكاد يستعمل إلا في الشر، ومرد إذا عتا فهو مارد أي ثبتوا في النفاق، ولم يتوبوا عنه، وقوله عز وجل ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفهم بأعيانهم لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثير، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، قال قتادة: ما بال أقوام يتكلفون ويقولون: فلانٌ في الجنة، وفلان في النار، وإذا سألت عن نفسه، قال: لا أدري أنت أعلم بنفسك، وقد تكلفت شيئاً ما تكلف به نبيٌّ، قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى للرسول ﷺ : ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾!!.

وهذه الآية أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف، والاطلاع على المغيبات، بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وعيد لهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد، أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر واتفقوا على أن العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة، فالمنافقون يُعذَّبون ثلاث مرات: مرةً في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في النار، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، والإغراق فيه حتى صار لهم بمنزلة الطبع.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي ومن أهل المدينة قوم آخرون، لم يكونوا من المنافقين ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقرُّوا بذنوبهم، التي هي تخلفهم عن الغزو، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، قال ابن عباس: هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما حضر رجوعه ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان في ممر النبي ﷺ فلما رآهم قال من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء

أبو لبابة وأصحابه، تخلَّفوا عنك، وقد أقسموا أن لا يُطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فأنزل الله الآية فأرسل ﷺ فأطلقهم[1]، والاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو إظهار الندم، والاعتراف بالذنب، والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ هو التخلف عن الغزو ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي أن يقبل توبتهم، وهو المدلول عليها بقوله ﴿اعتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم﴾ ولأن قبول التوبة يقتضي صدور التوبة عنهم؛ وكلمة عسى للإطماع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي إنَّ الله تعالى كثير المغفرة والرحمة، يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه، وعن أبي عثمان النهدي قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهّرهم بها من الذنوب والأوضار، قال ابن عباس: إنهم لما أطلقوا جاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا التي خُلِّفنا عنك بسببها، فتصدَّقْ بها عنَّا، واستغفرْ لنا فقال ﷺ: ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت الآية، ثم أخذ ﷺ منها الثلث كما جاء في بعض الروايات، فليس المراد من الصدقة الزكاة، لكونها مأموراً بها، وإنما هي كفارة لذنوبهم، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف، وقيل: المراد بها الزكاة، والأمر بأخذها دفعاً لتوهم إلحاقهم ببعض المنافقين ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمّي بها حسناتهم،

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي ادع لهم ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ باعترافهم والدعاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بندامتهم وبما تقتضيه حكمته تعالى.

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾؟ الاستفهام للتقرير، أي ألم يعلم أولئك التائبون ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ أي أن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده المخلصين ﴿ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يتقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تأكيد لما عطف عليه، وزيادة تقرير، أي ألم يعلموا أنه تعالى هو وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة، وذلك شأن من شؤونه عز وجل، وعاداته المستمرة؟.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ ما شئتم من الأعمال فظاهره تخيير، وباطنه ترغيبٌ وترهيبٌ ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ ﴾ أي أعمالكم لا تخفى على الله خيراً كانت أو شراً ﴿ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ أي وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦ ﴾

﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ أي ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها، آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿ مُرۡجَوۡنَ ﴾ أي مؤخَّرون وموقوف أمرهم ﴿ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي لحكم الله فيهم، والمراد بهم كما في الصحيحين «هلالُ بنُ أُميَّة» و «كعبُ بن مالك» و «مُرارةُ بنُ الربيع» وهم قد تخلفوا كسلاً مع الهمِّ باللحاق، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، ـ وحاشاهم ـ

فقد كانوا من المخلصين، وقد وُقف أمرهم خمسين ليلةً، لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[1] ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والمقصود تفويض ذلك إلى إرادة الله تعالى، إذ لا يجب على الله سبحانه شيء لا تعذيب العاصي، ولا مغفرة التائب، وقد أمر ﷺ أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، وإنما شُدّد عليهم مع إخلاصهم، لأن الجهاد كان على الأنصار فرض عين خاصة، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه وسلم في الخندق.

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

وهؤلاء من أَجِلَّتهم، فكان تخلفهم كبيرة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم، فلما رأوا أن أصحاب رسول الله لا تكلمهم أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله عز وجل، فرحم الله حالهم وقبل توبتهم رضي الله عنهم جميعاً.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ إلى جنب مسجد قباء ﴿ضِرَارًا﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن جماعة من المنافقين، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً وهيئوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبُّ أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فنزلت الآية، وكشف الله أمرهم وفضحهم، وعصم نبيَّه من الصلاةِ فيه، فلما نزلت الآية دعا ﷺ «مالك بن دخشم» و «معن بن عدي» فقال: انطلقا إلى هذا

---

(١) انظر تمام قصة الثلاثة الذين تخلفوا في صحيح البخاري ٦/ ٨٨.

المسجد الظالم أهله، فاهدماه وأحرقاه، فخرجا سريعين حتى دخلاه وفيه أهله، فأحرقاه وتفرَّق أهله عنه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي ليكفروا فيه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً وانتظاراً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب، وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصَّر، وقال للرسول ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاَّ قاتلت معهم، فلم يزل كذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن ولَّى هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين يحثهم إلى بناء مسجد، فبنوه منتظرين قدومه، فهدم ومات أبو عامر بقنسرين وحيداً، وبقي ما أضمروه حسرة في قلوبهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي ما أردنا ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلاَّ الخصلة الحسنى، وهي الصلاةُ والذكر، والتوسعة على المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم هذا، وكلُّ مسجدٍ بُني مباهاةً أو رياءً سوى ابتغاء وجه الله، فهو لاحقٌ بمسجد الضرار، وقال عطاء: لما فتح اللهُ على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضعٍ واحدٍ مسجدَيْن، يضارُّ أحدهُما الآخر.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ في مسجد الضرار ﴿أَبَدًا﴾ عن ابن عباس تفسير ﴿لا تقم﴾ أي لا تصلِّ، على أن القيام مجازٌ عن الصلاة، كما في قولهم: فلانٌ يقوم الليل، أي لا تصلِّ في ذلك المسجد أصلاً حسبما دَعوْك إليه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي بُني أساسُه ﴿عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أي تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ متعلق بأسّس أي منذ أول يوم ابتدىء ببنائه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وأحق أفعل تفضيل، أي أحقُ وأولى بأن تصلي فيه، واختلف فيه، فقيل: إنه مسجد قباء، لما جاء في الحديث الشريف، عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا...﴾[1] الآية،

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٦٢ وأخرجه أيضاً أبو داود في الطهارة رقم ٤٤.

وهكذا في رواية عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير، ويدل عليه سياق الآية ولحاقه، وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله عمر، وزيد بن ثابت، ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، عن ذلك فقال ﷺ: «هو مسجدي هذا»[1] ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء وهم الأنصار رضوان الله عليهم. ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابنُ خزيمة في صحيحه أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إنَّ الله تعالى قد أحسن الثناء عليكم بالطهور، فما هذا؟! قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أننا نُتْبع الحجارةَ بالماء، فقال هو ذاك»[2] ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى، إدناء المحب لحبيبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ التأسيس وضع الأساس، وهو أصل البناء وأوله، ويُستعمل بمعنى الإحكام أي أفمن أسَّس بنيان دينه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي على قاعدة محكمة هي التقوى، والخوف من الله، وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الجُرُفُ: ما

(١) أخرجه مسلم ٢/١٠١٥ وأحمد في المسند ٥/٣٣١.

(٢) أخرجه ابن خزيمة، والسيوطي في الدر المنثور ٣/٢٧٨ بنحوه، وذكره الحافظ ابن كثير ٢/٤٠٣.

جرفه السيلُ من الأرض، واحتفر ما تحته يريد الانهدام، والهارُ: المتصدِّع المشرف على السقوط والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه، على قاعدة محكمة، هي التقوى، وطلب الرضاء بالطاعة، خير أم من أسس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، فأدى به ذلك إلى السقوط في النار، كما قال تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء وتهدَّم، وهوى في نار جهنم، شبَّه الباطل والنفاق في ذهابه واضمحلاله، ببناءٍ بني على حافة هوَّة سحيقة، فهوى البناء لعدم وجود أساس، ولكونه على حافة الحفرة، وهلك بمن فيه، وهو تشبيه بديع، وتمثيل رائع. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أي بناؤهم الذي بنوه وهو مسجد الضرار ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى: إن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم، وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لمَّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم، لِمَا غاظهم من ذلك وعظم عليهم أمره، والريبة اسم من الريب بمعنى الشك، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة في كونها سبباً لها، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل الأوقات، إلاّ وقت تقطّع قلوبهم، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ما داموا أحياء ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وتشريعه.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة، على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضله، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن وأبلغ، مما في هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقدٍ، عاقدُه ربُّ العزة جل جلاله، وثمنُه الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضاً ﴿فَيَقتُلُون ويُقتَلون﴾ لإعلاء كلمته، وجعله مسجّلاً في الكتب السماوية، ولم يقل بالجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعونَ أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله، وقولُه تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيان لكون القتال بذلاً للنفس، وإن كانت سالمة وغانمة، فمن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، يعني أن القتل في سبيل الله، والموت فيها سواءٌ في الأجر، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُج مِنْ بَيْتِهِ مهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى الله﴾ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وعداً ثابتا ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني هذا الوعد الذي وعده الله للمجاهدين، قد أثبته في التوراة، والإنجيل، كما أثبته في القرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ مبالغة في الإنجاز، وتقرير لكونه حقاً، أي لا أحد أوفى من الله جلَّ وعلا بوعده وعهده!! لأن إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق، فكيف بجانب الخلاق العالم جل جلاله؟ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ أي فافرحوا به غاية الفرح، فإنه بيع الفاني بالغالي، قال الحسن البصري: بايَعهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله! أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بالثمن وهو الجنة، وإنها والله لصفقة رابحة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي البيع ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ نعت للمؤمنين، والمراد بهم المؤمنون المذكورون ﴿ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له تعالى، قال الحسن: أما واللهِ ما هو بشهر، ولا بسنة، ولكنْ كما قال العبدُ الصالح: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1] ﴿ ٱلۡحَٰمِدُونَ ﴾ لنعمائه، ولما نالهم في السراء والضراء على كل حال ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ أي الصائمون لقوله ﷺ «سياحةُ أمتي الصوم»[2] وإليه ذهب جلة من الصحابة والتابعين، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية، يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان، أو المراد السائحون للجهاد، أو لطلب العلم ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ في الصلاة المفروضة، وقيل هما عبارة عن الصلاة ﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ عن الشرك والمعاصي، الجامعون بين الوصفين: الأوامر، والنواهي ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾ المراد بحدود الله ما بيَّنه وعيَّنه من الحقائق والشرائع ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشَّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشِّرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام.

---

(١) سورة مريم، آية ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عائشة موقوفاً، ورواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٤٨٦ بلفظ «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٨٥.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ﴾ أي المشركون ﴿ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ أي ذوي قرابة لهم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان، والآية نزلت في «أبي طالب» فقد أخرج البخاري ومسلم أنه: «لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة، فقال النبي ﷺ: أيْ عمّ، قل: لا إله إلاّ الله، أحاجُّ لك بها عند الله!!» فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: «لا إله إلاّ الله» فقال ﷺ: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنك»[1] فنزلت، والآية على هذا دليل على أن أبا طالب مات كافراً، وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة، والشيعة الذاهبون إلى موته مؤمناً، أخبارهم عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت، نعم لا ينبغي للمؤمن الخوض به كالخوض في سائر كفار قريش، فإن له مزية عليهم بما كان يصنعه مع رسول الله ﷺ من محاسن الأفعال.

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر بقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ بأن

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٢٥٨ في التفسير، ومسلم رقم ٢٤ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١٠٠ في التفسير.

توفقه للإيمان، عن عمرو بن دينار قال: لما مات أبو طالب قال له ﷺ: لأستغفرنَّ لك، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فقالوا: قد استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾ بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ رجاء أن يُسلم، لعدم تبين أمره، وإلاَّ لما وعدها إياه كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم بأن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي أنَّ أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ أي مستمر على عداوته تعالى، وعدم الإيمان به ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ عن الاستغفار له ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ يكثر التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، ورأفة قلبه، تأوه مثل توجَّع وزناً ومعنى، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: الخاشعُ المتضرع ﴿حَلِيمٌ﴾ صبورٌ على الأذى صفوح عن الجناية.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ وليس من عادته سبحانه أن يضلَّ قوماً عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ أي ما يجب اتقاؤه من المحظورات، فلا ينزجروا عما نهوا عنه، وأمَّا قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء فيبين لهم ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ من غير شريك له فيه ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ

﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من غيره ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من الضرر، بيَّن تعالى أنه مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولايةٌ ولا نصرةٌ إلاَّ منه تعالى، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا عما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود سواه عز وجل.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء بذكر النبي ﷺ تشريفاً لهم، وقيل: إن توبة الله على النبي ﷺ فُسِّر ـ كما روي عن ابن عباس ـ بالإذن للمنافقين في التخلف، وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود، لأنَّ الغزوة كانت في وقت شديد، والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أيها المؤمنون﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة، وكانوا في شدة من الظهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المسوس، وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حُمَّارة القيظ ومن الجدب والقحط، ومن هنا قيل لتلك الغزوة «غزوة العسرة» ولجيشها جيش العسرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ بيان لتناهي الشدائد وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها، وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير

للتأكيد، وفيه تنبيه على أن توبته سبحانه بمقابلة ما قاسوه من الشدائد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين، ومن أجل ذلك تاب عليهم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي وتاب على الثلاثة ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال و مُرارة» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ برحبها وسعتها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، بأمر الرسول ﷺ، وهو مثل لشدة الحيرة، فلا يجد مكاناً يؤمن فيه، كأنه لا يستقر به قرار، ولا تطمئن به دار ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور، وفي هذا ترقٍ من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم وهو في غاية البلاغة ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي وعلموا وأيقنوا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ إلى استغفاره، وإلى الرجوع والإنابة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالتوفيق للتوبة بعد خمسين يوماً أو أكثر ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي ليستقيموا على توبتهم، ويستمرُّوا عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي تواب لمن تاب وأناب، ولو عاد في اليوم مائة مرة، الرحيم المتفضل على عباده بأنواع النعم، مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، نية، وقولاً، وعملاً.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ والأعراب عام لكل سُكَّان البوادي ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا دعاهم عند توجهه إلى الغزو معه، عبَّر عن النهي بصيغة النفي للمبالغة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، وظاهر الآية وجوب النفير إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو بنفسه، واستدل بها أن الجهاد كان فرض عين في عهده ﷺ، وبه قال ابن بطَّال، وعلله بأنهم بايعوه ﷺ عليه، ولا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة باللذائذ والشهوات، غير مكترثين، بما كابده ﷺ، وجاء أن ناساً من المسلمين تخلَّفوا ثم إن منهم من ندم، فلحق برسول الله ﷺ كأبي خيثمة، فقد روي أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشَتْ له في الظلِّ، وبسطت له الحصير، وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظللٌّ ظليلٌ، ورُطَب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسولُ الله ﷺ في الضحِّ أي ـ الشمس والحر ـ والريح، ما هذا بخير، فقام فرحَّل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرَّ كالريح فمدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب وراء السَّراب، فقال ﷺ: كن أبا خيثمة، فكان، ففرح به ﷺ واستغفر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه من الكلام من وجوب المشايعة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيءٌ من العطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي مجاعةٌ، خَمُصَ الشخص خمصاً فهو خميص: إذا جاع ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي

في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي طاعته سبحانه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم، والوطءُ: الدَّوسُ بالأقدام ونحوها ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ أي لا يأخذون ﴿مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ شيئاً من الأخذ كالقتل، والأسر، والسَّلب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ أي ثواب عظيم، بحكم الوعد والثواب الجميل، والتنوين للتفخيم، دلت هذه الآية على أن من قصد طاعةً، كان قيامه وقعوده، وحركته وسكونه، كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل وتنبيه على أن الجهاد إحسانٌ، أمَّا في حق الكفار، فلأنه سعيٌ في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب الطبيب للمريض الجاهل، وأمَّا في المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منفرج في الجبال والآكام ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه، من الإنفاق، والقطع ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ أي وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو وجهاد، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإن خروجهم كافة يخلُّ بأمر المعاش، روي عن ابن عباس أنه تعالى لمَّا شدَّد على المتخلفين، قالوا لا يتخلف أحد منا عن جيش وسرية، ففعلوا ذلك، وبقي ﷺ وحده، فنزل ﴿وَمَا كَانَ﴾ الآية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ لولا هنا تحضيضية وهي مع الماضي تُفيد التوبيخ على ترك الفعل، ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به، لكنَّ اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ جماعة كثيرة كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي جماعة قليلة، وحملُ الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق ومن البعضية، وإلاَّ فالجوهري لم يفرّق بينهما ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، فهو لا يحصل بدون جد وجهد ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه، أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس، كما هو ديدن أبناء الزمان، والله المستعان ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لعلهم يحذرون عقاب الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفر: الخروج لطلب العلم، فالآية ليست متعلقة بما قبلها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ أُمروا بقتال الأقرب منهم، لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار في زمان واحد، فكان من قَرُب أولى، وهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصلح، ومن هنا قاتل ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل إلى سائر العرب واليهود، وجرى أصحابه على سنته ﷺ إلى أن وصلت سراياهم إلى ما شاء الله،

ولأن الأقرب أحق بالشفقة والإستصلاح، ولذا أمر ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدةً وصبراً على القتال، ومجاهدة لهم بشتى أنواع الجهاد، والغلظة هنا بمعنى الشجاعة والشدة، والعنف في القتل والأسر، حتى نُقلِّم أظافر الكفر، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر عن القبيح، وهذه هي صفة المؤمن، أنه رفيق بأخوانه المؤمنين، شديد على الكافرين، كما قال سبحانه في وصف أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وكقوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وفي الحديث الشريف «أنا الضَّحوكُ القتال»[1] يعني أنه ضحوك في وجه وليّه، قتّال لهام عدوه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعصمة والنصرة، وفيه دلالة على أن إقدامهم على الجهاد، بسبب تقوى الله، لإعلاء كلمة الله تعالى، لا بسبب المال والجاه.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي فمن المنافقين كما روي عن قتادة وغيره ﴿مَّن يَقُولُ﴾ استهزاء لإخوانهم المنافقين ليثبتهم على النفاق ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ أي السورة ﴿إِيمَانًا﴾؟ أي تصديقاً ويقيناً؟ وهذا في مقابلة قول الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[2] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواب من جهة الله تعالى، أي فأمّا الذين آمنوا بالله، وبما جاء من عنده

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٤١٧ ولم أعثر على من خرَّجه.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لتصديقهم بها، وانضمام إيمانهم فيها بإيمانهم السابق ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنها سببٌ لزيادة كمالهم، وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر، وسوء عقيدة ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، وسمي الكفر رجساً، لأنه أقبح الأشياء ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي استحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه، وهذا يدل على أن الروح لها مرض، فمرضها الكفر والأخلاق الذميمة، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين، الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يبتلون بأصناف البليّات بالقحط والمرض وغيرها، ويُفضحون بكشف أسرارهم ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد من المرة أو مرتين التكثير لا العدد، فالفتنة بمعنى البلية والعذاب ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يتعظون بتلك الفتنة الموجبة للتذكر، ولا ينتهون بالتوبة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وهم في محفل تبليغ الوحي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون، إنكاراً لها وسخريةً، وتلفتوا كراهة سماعها، يتشاورون في إنتهاز الفرصة، في تدبير الخروج، قائلين إشارة ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ من المسلمين إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أقاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرته ﷺ

مخافة الفضيحة، أي انصرفوا جميعاً لعدم تحملهم سماع ذلك، لشدة كراهتهم ولغيظهم ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء، والدعاء من الله وعيدٌ لهم، وإعلام بلحوق العذاب بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً فيه نفعهم، لسوء فهمهم، أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، وقيل الخطاب للبشر على الإطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم أنه من جنس البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ وقرأ ابن عباس والزهري ﴿أنفَسِكُم﴾ بفتح الفاء من النفاسة، فالمراد من أشرف العرب ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد وشاق عليه، من عزَّ عليه، بمعنى صَعُب وشقَّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العنتُ: المشقةُ، أي صعب عليه ما يوقعكم في المكروه والمشقة، وهذا من شدة رأفته ورحمته بالأمة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وصلاح حالكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدَّم الأبلغ منهما وهو الرأفة، التي هي عبارة عن شدة الرحمة للفواصل، وهو أمرٌ مرعي في القرآن، وصحح أن الرأفة الشفقة، والرحمة الإحسان، فيكون فيها وصفه ﷺ بدفع الضرر عنهم، وجلب المصلحة لهم، ولم يجمع هذان الاسمان لغيره ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له ﷺ تسلية له، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك، والتصديق بما جئت ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك

ويعينك عليهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، وهو كالدليل عليه، لأن المتوحد بالألوهية هو الكافي، وهو المعين ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلاَّ منه سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، والمقصود من ذكره تعظيم جلال الله عزَّ وجلَّ، وختم سبحانه هذه السورة بما ذُكر، لأنه تعالى ذكر فيها التكاليف الشاقة، فأراد أن يسهّل عليهم ذلك، ويشجع النبي ﷺ على تبليغه، وقد ورد عن أبي الدرداء موقوفاً «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾ لم يصبه في ذلك اليوم، ولا تلك الليلة كربٌ ولا نكبة» وهذه الآية وِرْدي منذ سنين، وقد جاءت هذه الخاتمة لهذه السورة في غاية الحسن والإبداع، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد عبده، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

* * *

سُورَةُ يُونُسَ

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾.

﴿الٓر﴾ وقد تقدَّم الكلام في الحروف المقطَّعة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات البينات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن المعجز في تشريعه وبيانه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفةٌ للكتاب، ووصف بذلك لاشتماله على الحِكَم البالغة، فيراد بالحكيم ذو الحكمة، والقرآن أيضاً حاكم يميز الحق والباطل، ويفصل الحلال والحرام، ويقضي بالعدل والإحسان.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي العرب ﴿عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم، وتعجيب السامعين منه، لكونه في غير محله، وإنما قال ﴿لِلنَّاسِ﴾ لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ بتقدير حرف الجر، أي لأن أوحينا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أعقل رجالهم، دون عظيم من

عظمائهم، وقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً، يرسله إلى الناس، إلاّ «يتيم أبي طالب» وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظائمهم فيما يعتبرونه، إلا في المال وخفة الحال، وما ذكروه من أنه يتيم إن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه، فهو أظهر بطلاناً، وما ألطف ما قيل إن أنفس الدُرِّ «اليتيمة» وقيل للحسن: لِمَ جَعَل الله النبيَّ ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه مِنَّة، فإن الله سبحانه هو الذي آواه، وأدَّبه وربَّاه، وأمَّا التقدم بكثرة المال فلا دخل له في ذلك قطعاً، بل إن الوحي تابع للاستعداد الأزلي، والسبق في إحراز الفضائل، جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريب أن النبي ﷺ في ذلك الشأن، في الغايات القاصية، وما أحسن ما قيل:

وأَحْسَنُ منْكَ لَمْ تَرَ قطُّ عَيْني ... وَمِثْلُكَ قَطُّ لَمْ تلدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبِ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أن هي المفسّرة، أي أوحينا إليك بأن أنذر الناس كافة، وخوّفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي بشّرهم برحمة الله ورضوانه لصدقهم وإيمانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً بما قدَّموا من الأعمال الصالحة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إذ بالقدم يحصل السبقُ، والوصولُ إلى المنازل الرفيعة، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه هو صدقُهم، وأصلُ القدم: العضوُ المخصوصُ، وأُطلقت على السبق مجازاً، لكونها سببه وآلته، وأريد من السبق: الفضلُ والشرف، والتقدم المعنوي، فيعبّر بالصدق عن كل فعل فاضل، ويُضاف إليه، كمقعد صدق، ومدخل صدق، إلى غير ذلك، وفسّره ابن عباس بالأجر الحسن، وابن مسعود بالعمل الصالح، وقال الزجاج: ﴿قدم صدق﴾ أي منزلة رفيعة، والكل متقارب ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجبون، وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر

للتقبيح والتحقير، وترك العطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما أوحي إليه ﷺ في الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بيّنٌ وظاهر، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون، بأن ما عاينوه من الرسول ﷺ خارج عن طوق البشر، ولكنَّهم سموه ساحراً تمادياً في الغيِّ والعناد، كما هو ديدن المكابر اللجوج، وإذا كان في الناس من لا يؤمن بالقرآن، فهذا ليس تقصيراً في هداية القرآن، وإنما العيب فيهم، لأن هدايته كسائر الهداية الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والبصر ونحوهما، وقد يوقن الرجل أن في عمله مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه، انتهازاً للذة ينالها حسُّه أو وهمه، كما هو في مدمن الخمر والمسكرات، فهو كرجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة، وتتكسَّر عظامه، هل يُنقص ذلك من قدر بصره؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كلام مستأنف سبق لبطلان تعجبهم المذكور، بالتنبيه على بعض ما يدلُّ عليها من شؤون الخلق، وأحوال التكوين والتدبير، أي إن ربكم ومالك أمركم، الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم، هو الله الذي خلق السموات والأرض.. الآية ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتجيء محمودة العاقبة، والمراد هٰهنا التقدير على الوجه الأتم، والمراد من الأمر أمر ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك، أي يقدّر أمر الكائنات، والذي تعجبوا منه

من البعث، والوحي والنبوة والرسالة وقوله سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الاستثناء مفرَّغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد، في وقتٍ من الأوقات، إلا بعد إذنه تعالى، وذلك عند كون الشفيع من المصطفيْن الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة وهو المؤمن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات الجليلة، المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحِّدوه بالعبادة، وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئاً، من مَلَكٍ أو نبيّ، فضلاً عن جمادٍ لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر، فينبهكم على أنه هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه؟ وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تفكَّرون، للإيذان بظهور الأمر، وأنه كالمعلوم، الذي لا يفتقر إلى تفكر، بل إلى مجرد إخطار على الذهن.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إليه رجوعكم بالبعث والنشور، لا إلى غيره، فاستعدُّوا للقائه، والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي وعد الله بذلك عباده وعداً محققاً من الله ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يحيي الخلائق ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بعدله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء حار، قد انتهى حرُّه، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ أي خلقها ذات ضياء، والشمس هي أعظم الكواكب السيارة، كما تدل الآثار، ويشهد له الحسُّ، وفي هذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، بآثار صنعه في النيِّرين، بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ من إبداع السماوات والأرض، وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دبَّر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع، فلأن يدبِّر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أولى وأحرى، أي خلقها الله سبحانه حال كونها ذات ضياء ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، والضياءُ أقوى من النور، فلذا جعله الله للشمس، وقد نبه سبحانه بذلك، على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيِّراً بِعَرض لمقابلته الشمس، والاكتساب منها ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ من حيث سيره، وتخصيصُه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علَّل بقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة قدَّرها الله سبحانه، ليعلم العباد عدد السنين والشهور والأيام، لإقامة المصالح الدينية والدنيوية، والمراد من الحساب، حساب الأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما يتعلق بالمصالح المذكورة ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الشمس، والقمر، على ما حكى من الأحوال ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملتبساً بالحق، مراعياً لمقتضى الحكمة البالغة ﴿ يُفَصِّلُ

﴿ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيه المذكورات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بها، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جلَّ وعلا، ويعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما بطلوع الشمس وغروبها وكذلك طلوع القمر وأفوله، وقد يراد اختلافهما بحسب الأمكنة، في الطول والقصر، فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول، ولياليها أقصر من أيام البلاد البعيدة منه، وكروية الأرض تقتضي أن تكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح، والأمطار ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجبال، والبحار، والأنهار، والحيوانات، والنباتات، والأشجار ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ كثيرة دالة على وجود الخالق ووحدته، وكمال علمه وقدرته، وحكمته التي من جملتها ما أنكروه، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث بعد الموت ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصهم لأن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله والحذر من العاقبة، فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات لوجود الخالق دون غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عمَّا وراءها، والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً أي لا

يعتقدون بلقاء الله[1] ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ قاصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، وجُوّز أن يُراد من الرجاء الأمل، أي لا يؤمّلون حسن اللقاء بالبعث، والحياة بالحياة الأبدية العالية، ورضوا منها بالحياة الفانية الدنية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ تاركون النظر ولا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يصدهم عنها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مسكنهم ومقرهم ﴿النَّارُ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما واظبوا عليه من الأعمال القبيحة، وأصناف المعاصي والمنكرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعلوا الإيمان، وآمنوا بكل ما يجب أن يؤمن به من الملائكة والكتب والرسل ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمال الصالحة في نفسها اللائقة بالإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك السبيل المؤدي إلى الجنة، وإنما لم يُذكر أنَّ مأواهم الجنة، تعويلاً على ظهورها، بملاحظة ما سبق، من بيان مأوى الكفرة، وفي النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان، والعمل الصالح، لا يكفي في الوصول إلى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية بأن يجعل الله لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة والمراد بهذا الإيمان؛ الإيمان الخاص المشفوع بالعمل ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من بين أيديهم

---

(١) لقاءُ اللهِ كنايةٌ عن البعث والنشور، أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وهم على سرر مرفوعة، وأرائك مصفوفة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ منازلهم في الجنة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ دعاؤهم فيها ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي ننزّهك يا ألله عن صفات النقص، ونسبّحك تسبيحاً، يقولونه تقديساً لمقامه تعالى، عن شوائب العجز والنقصان، وتلذذاً بذكره، لا عبادةً ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيما بينهم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] أو تحية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[2] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي دعاؤهم منحصر فيما ذُكِر، أول كلامهم التسبيح، وآخره التحميد، ويتكلمون بما أرادوا.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله، أُشير إلى بعض عظائم معاصيهم، وهو استعجالهم بما وُعدوا به من العذاب، تكذيباً واستهزاءً، وجيء بلفظ الناس تفظيعاً للأمر ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[3] ونحو ذلك، ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي لو يعجل الله للناس الشرَّ إذ استعجلوه، استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأُميتوا وأُهلكوا بالمرَّة، وما أُمهلوا طرفة عين، لكن الإنسان خُلق عجولاً، والله

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.
(٢) سورة يسٓ، آية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

تعالى صبور حليم، يؤخر للمصالح الجمة، التي لا يهتدي إليها عقل البشر، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كأنه قيل: ولا نعجل لهم العذاب، بل نتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في تمردهم وعتوهم في إنكار البعث والجزاء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي أصابه الضر، من مرضٍ، أو فقر، أو قحط وغير ذلك من الشدائد، إصابةً يسيرة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي دعانا لإزالته مخلصاً فيه، واللامُ تفيد اختصاص حدوثه واستقراره للجنب، ففيه مبالغةٌ زائدة ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي في جميع الأحوال، لعدم خلو الإنسان عنها عادةً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أي أزلنا ما نزل به من الضر ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته، ونسي حال الجهد والبلاء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ كأنه لم يدعنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ إلى كشف ضر ﴿مَّسَّهُۥ﴾ ذاقه قبل ذلك، وهذا وصفٌ للجنس ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زُيّن له الإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للمشركين المجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الطاعات، والإسرافُ: مجاوزة الحدِّ، وسُمُّوا أولئك مسرفين، لما أن الله تعالى، إنما أعطاهم القوى والمشاعر، ليصرفوها إلى مصارفها، من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي، مع أنها رأس مالهم، ووجه الانتظام مع الآية الأولى، أنه سبحانه أشار في الأولى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب، وبيَّن جلَّ شأنه هنا أنهم يكذبون في ذلك، فلو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة: «من سرَّه أن يستجيب الله

له عند الشدائد والكُرَب، فَلْيكثر الدعاء في الرخاء»[1] والآثار في ذلك كثيرة.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ﴾ الأمم الخالية مثل قوم نوح، وهود، وعاد، وأضرابهم ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ حين ظلموا بالتكذيب، والتمادي في الغي والطغيان، ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي وما استقام لهم أن يؤمنوا، لفساد استعدادهم، وخذلان الله لهم، وعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع، الذي هو عذاب الاستئصال بالمرة ﴿ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل طائفة مجرمة، وفيه وعيد شديد لكفار مكة، لأنهم مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ والمعنى ثم أخلفناكم في الأرض بعد أولئك القرون ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾؟ أي أيَّ عمل تعملون من الأعمال الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ففيه إشعار

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٧٩ في الدعوات، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٤ من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً وقال: صحيح الإسناد.

بأن المراد من الاستخلاف إنما هو ظهور الأعمال الحسنة، وأما الأعمال السيئة فبمعزل عن ذلك.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً إلى الرسول ﷺ، بتحديد جناياتهم المضادة لما أُريد منهم بالاستخلاف، والمراد من الآيات الآيات الدالة على التوحيد، وبطلان الشرك، والإضافة لتشريف المضاف، والترغيب للإيمان بها والترهيب عن تكذيبها ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ يعني المشركين وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بذلك، أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ بأن تجعل مكان الآيات المشتملة على ذلك آيات أخرى ولعلهم قالوا ذلك كيداً، ليتوسلوا به إلى الاستهزاء به ﷺ، وليس مرادهم أنه لو جاءهم آمنوا ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لهم ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ﴾ أي ما يصحُّ ولا يستقيم أصلاً تبديله ﴿ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ أي من قبل نفسي وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل احتقاراً لهم، لاستلزام امتناعه، امتناع الإتيان بقرآن آخر بطريق الأولى ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي ما أتبع في شيء مما آتي به ﴿ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً، فكأنه قيل: ما أفعل إلاَّ اتباع ما يُوحى إليَّ، وهو تعليل لصدر الكلام، ولما عرَّضوا به بهذا السؤال أن القرآن كلامه ﷺ، ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله: ﴿ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبعاً لعذاب عظيم، بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بالتبديل والتحريف ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يوم القيامة، وفيه إشعار بأنهم استوجبوه، بهذا الاقتراح الموحي بالسخرية والاستهزاء.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ تحقيق لحقية القرآن، وكونه من عند الله تعالى، والمعنى: إن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قط، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، بأن لم ينزله عليَّ، ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أي ولا أعلمتكم به بلساني ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ مقدار مدة أربعين سنة، بطريق الاستشهاد عليه بما شاهدوا منه ﷺ، في تلك المدة الطويلة، من الأمور الدالة على استحالة ذلك من جهته ﷺ، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهراً مديداً، تحفظون أحوالي طُرّاً ﴿ مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي من قبل نزول القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تلاحظون ذلك، فلا تعقلون امتناع صدوره من مثلي، فإنَّ ذلك غير خافٍ، على من له عقل سليم، بل إنَّ من كان له أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ، إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ بينهم في مدة طويلة، من غير مصاحبة العلماء، في شأن من الشؤون، ولا مراجعةٍ إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرتْ فصاحتُه كلَّ ذي أدب، وحيَّرت بلاغتُه مصاقع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، لا يبقى عنده شائبة اشتباه، في أنه وحي منزلٌ من عند الله عزَّ وجل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كلاماً، فقال هذا من عند الله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ فكفر بها كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ضمير الشأن، وفائدته الإيذان بفخامة مضمون الكلام، وتقريره في الذهن، لأن الضمير لا يفهم من أول الأمر،

فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكُّنٍ ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجون من محذور، ولا يظفرون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ حكاية لجناية أخرى وهي من عطف القصة على القصة، أي يعبدون متجاوزين الله أحجاراً وأصناماً لا تضرُّ ولا تنفع، لأنها جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود الحقُّ ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً، حتى تكون عبادته بجلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا في الآخرة، إن يكن بعث، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده سبحانه، ونظيره في هذا الزمان، اشتغال كثير من الخلق، بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم، فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي أتخبرون الله بما لا وجود له أصلاً، إذ لو كان لَعَلِمهُ علاَّم الغيوب، وفيه توبيخ لهم وتهكم بهم لما يدعونه من المحال ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ أي بما لا يعلمه كائناً في السماوات ولا في الأرض ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم، وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيانٌ بأن التوحيد والإسلام ملة قديمة، اجتمعت عليها الخلائق قاطبة، فطرةً وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغُواة، أي وما كان الناس كافة من أول الأمر، إلاَّ متفقين على الحق والتوحيد، من غير اختلاف، رُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «إلاّ أمّةً وَاحِدَةً عَلَى الهُدَى»[1] وذلك من عهد آدم إلى زمن نوح ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾ بأن كفر بعضهم، وثبت آخرون على ما هم عليه، فخالف كل من الفريقين الآخر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم، والقائلون أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ من الآيات التي اقترحوها، كآية موسى وعيسى، كأنهم لفرط العتو والفساد، لم يعدُّوا المعجزات البينات التي ظهرت على يديه ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، لا سيما القرآن العظيم، الباقي إعجازه على وجه الدهر، إلى يوم القيامة، ولو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره ﷺ، فإنه الآية الكبرى، ومن رآه وسَبَر أحواله، لم يكد يشكُّ أنه رسول الله ﷺ ﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة، مفاسد تصرف عن إنزالها، وكأنه يقول: إن ما طلبوه من أمور الغيب الخفية، التي لا يعرفون عواقبها، وأمرُ الغيب مختصٌّ بالله تعالى وهو الذي يعلم ما به

---

(١) هذه القراءة محمولة على التفسير، لا على أنها قراءة من القراءات المتواترة، فتنبَّهْ والله يرعاك.

الصلاح، لا أنتم ولا غيركم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هذا وعيد وتهديد، أي فانتظروا نزول العذاب بكم، إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم، بجحودكم الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي صحةً وسعةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ كقحطٍ ومرض ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أي نزلت بهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم، وإسنادُ المسِّ إلى الضراء، وإسنادُ الإذاقة إلى ضمير الجلالة، من الآداب القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ والمرادُ بالناس: كفارُ مكة، لما رُوي أن الله تعالى، سلّط عليهم القحط سنين، حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعوَ لهم، ووعدوه بالإيمان، فلمّا دعا لهم، ورحمهم الله، فأخصبت البلاد وكثرت الخيرات، طفقوا يطعنون في آياته تعالى، ويعاندون رسوله ﷺ ويكيدونه ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والتكذيب بأنها من عند الله، وسُمّي الاستهزاء والتكذيب مكراً، لأنه نوع من الكيد الخبيث لإطفاء نور الله، قال مجاهد ﴿مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ استهزاء وتكذيب، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم: الله أعجل عقوبةً، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، وتسميةُ العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً على أن يخفى على الله تعالى، وكيفية كتابة ذلك، مما لا يلزم العلم به، وهي تعليل لأسرعية مكره سبحانه: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير فوق سطح الماء، ويجعلكم قادرين على قطع المسافة ﴿فِي البَرِّ﴾ مشاة أو ركباناً ﴿وَالبَحرِ﴾ بالفُلْك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي في السفن فوق سطح الماء وفي لُجَّة البحر ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكره لغيرهم، ليتعجب من حالهم، وينكر عليهم ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي ليّنة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ بتلك الريح لطيبها ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ جواب إذا، أي فاجأتها واستولت عليها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ذات عصفٍ، شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، يقال: عصفت الريحُ عصوفاً أي اشتدت، وأصل العصف: السرعةُ، والعاصفُ من باب النسب، كاللابن، والتَّامِر، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولذا لم يقل عاصفة، مع أن الريح مؤنث ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع أمكنة مجيء الموج عادة ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أيقنوا أنهم أُهلكوا وسُدَّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدوُّ ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله، واستغاثوا به وحده ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من غير إشراك به لعودتهم للفطرة، وزوال المعارض من شدة الخوف ﴿ لَئِنْ ﴾ اللام موطئة للقسم، أي يقولون: والله لئن ﴿ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ الورطة والأهوال ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الموحِّدين، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، وشاكرين لنعمتك، وإنما ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ ولم يقولوا: لنشكرنك، للمبالغة والدلالة على الاستمرار في الشكر والثبوت عليه.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ ﴾ بإجابة دعائهم ممَّا غشيهم من الكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فاجؤوا الفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ﴿ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ مبطلين فيه، وهو احترازٌ عن الإفساد بحق، كتخريب قلاع الكفرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ توجيهُ الخطاب إلى أولئك الباغين، للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ﴾ فإن وباله يرجع إليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ منفعة الحياة الدنيا، وهي فانية لا تبقى، ويبقى عقابها، وفيه بيان لكون ما فيها من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في القيامة، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه، وهو وعيد كقول الرجل لمن توعَّده: سأخبرك بما فعلتَ، وفي الآية الزجر عن الفساد والبغي، عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «ثلاثٌ هُنَّ رواجعُ على أهلها: المكرُ، والنكثُ، والبغيُ، ثمَّ تلا ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾»[1] قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ لصاحبه العقوبة، من البغي، وقطيعة الرحم»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم والديلمي.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي بكرة مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٤٢٨.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كلام مستأنف، مسوقٌ لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها، وقرب زمان الرجوع الموعود، شبَّه حالها العجيبة، في سرعة تقضِّيها، وانصرام نعيمها، غِبَّ إقبالها، واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النباتات، في زوال رونقها ونضارتها، وذهابها حُطاماً، بعدما كانت غضَّةً طريَّة، قد التفَّ بعضها على بعض، وازَّينتْ الأرض بألوانها، بحيث طمع الناس، وظنوا أنها سلمت من الجوائح ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كمثل مطرٍ نزل من السماء ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ ﴾ أي كثر بسببه واختلط به ﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فاشتبك حتى خالط بعضُه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ كالبرِّ، والبقل والثمار ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ كالكلأ والحشيش ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها وحسنها من النبات، والتزخرفُ عبارة عن كمال حسن الشيء ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت بأصناف النباتات، وأشكالها، وألوانها المختلفة، كعروسٍ أخذت من ألوان الثياب، والزينة، وتحلَّتْ بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ أي نزل بها ما قدَّرناه من العذاب، وهو هلاك زرعها بما يستأصله من الآفات كالبرد، والجراد، والسموم وغير ذلك ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ فيه الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب، بين زمن غفلتهم، وزمن يقظتهم ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ أي زرعها وسائر ما على الأرض من النبات ﴿ حَصِيدًا ﴾ أي كالمحصود من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي كأن لم ينبت زرعُها، من غَنِيَ بالمكان إذا أقام فيه ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ فيما قبله، وهوَ مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به هو زوال خضرة النبات فجأة، وذهابه حطاماً بعدما كان غضَّاً طريَّاً، وزيَّن الأرض حتى

طمع أهلها فيه، وظنُّوا أنه قد سلم من الجوائح ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي الآيات القرآنية، نوضِّحها ونبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما في تضاعيفها من العبر، وتخصيص تفصيلها بهم، لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية، أي يدعو الناس إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها، وسميت الجنة ﴿دَارِ السَّلامِ﴾ لسلامة أهلها عن كل ألمٍ وآفة، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو الإسلامُ، والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة، وتخصيص الهداية بالمشيئة، دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصرَّ على الضلالة لم يرد الله رشده، فالكافر مأمور، وليس بموفَّق، ومشيئته تعالى تابعة للحكمة، فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه، لأنه يكون عبثاً، والحكمة منافية للعبث، فهو جلَّ وعلا يهدي من ينفعه اللطف.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي العملَ، بأن فعلوا المأمور به، واجتنبوا المنهيَّ عنه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبةُ الحسنىٰ، وهي الجنةُ ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جلَّ جلاله، وهو التفسير المأثور عن أبي بكر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وروي مرفوعاً إلى رسول ﷺ من طرق شتى، روى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»[1] وفيه إثبات رؤية الله للمؤمنين، أكرمنا الله في الجنة بسعادة لقائه ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ أي لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غَبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوانٌ، والتنكير للتحقير، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من حزن وسوء، والجملةُ لبيان أمنهم من المكاره، إثْرَ بيان فوزهم بالمطالب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لما شرح الله سبحانه أحوال المسلمين، وما أعدَّ لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات، والمراد من السيئات: الشركُ والعصيان ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي وجزاء الذين كسبوا السيئات، جزاءُ سيئة بمثلها، أي يجازى سيئة بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ عظيم، فالتنوينُ هنا للتفخيم ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ من مانع يعصمهم من عذابه ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ غُطِّيت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مُظْلِمًا﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الدائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨١ وزاد في رواية أخرى: «ثم تلا ﷺ هذه الآية ﴿للذين أحسنوا الحُسنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾» وأخرجه الترمذي برقم ٢٥٥٥.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿نَحشُرُهُم﴾ لكلا الفريقين، لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿ جَمِيعًا﴾ ومن أفراد الفريق الثاني، في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي نقول للمشركين من بينهم، والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل، وتوبيخُهم على رؤوس الأشهاد أفظع ﴿ مَكَانَكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم، والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم، وهي كلمة مختصة بالتهديد والوعيد ﴿ أَنتُمْ﴾ توكيد للضمير ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ المراد بها: الأصنامُ ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا بينهم، وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم، وهو من زلتُ الشيء من مكانه أزيله أي أزلته، والتضعيف للتكثير لا للتعدية ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ أي من عبدوهم من دون الله، من الأوثان والأصنام، فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها، وهم المعنيُّون بأكثر هذه الآيات، ونسبةُ القول لها غيرُ بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء، في ذلك الموقف المهيب، فتقول لهم: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي نتبرأ من عبادتكم لنا، واعتقادكم بألوهيتنا، وإنما تبرؤوا منهم، لأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الآمرة لهم بالإشراك بالله تعالى.

﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العليم الخبير، العالم بكُنْهِ الحال، قال شركاؤهم عند قول المشركين والله إياكم نعبد، فقال الشركاء: فكفى بالله شهيداً ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أي ماكنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المدهش، وهو مقام الحشر وفي ذلك الوقت ﴿تَبْلُوا﴾ تُختبر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرة، سعيدةً أو شقية ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ما قدّمتْ من العمل، مستتبعاً لآثاره، من نفع أو ضر، وخير أو شر ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وردُّوا إلى الله المتولي جزاءهم ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربهم الجليل المتولي لأمرهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ المتحقق في ربوبيته لا ما اتخذوه رباً باطلاً، فإن قلت: قد قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وأنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ قلنا: المولى في اللغة يُطلق على المالك، وعلى الناصر، فمعناه هنا المالك، وهناك الناصر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وذهب عنهم وظهر ضلالُه ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون أنها آلهة، وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى الماضي ﴿ضَلَّ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت.

> ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لأولئك المشركين ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي منهما جميعاً، من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟ الأول بمنزلة الفاعل، والثانية بمنزلة القابل، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية، ومواد أرضية ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ؟ أي من يستطيع خلقهما على هذه الفطرة العجيبة؟ ومن وقف على تشريحهما، وقف على ما يبهر العقول ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي ومن ينشىء الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة؟ وقيل: المراد بالحيّ والميت، المؤمن والكافر، وعلى هذا القول يكون اللفظ من باب الاستعارة، والأول أولى ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ أي ومن يلي

تدبير أمر العالم جميعاً؟ وهو تعميم بعد تخصيص، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تَلَعْثُم ولا تأخير ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف، أي اللهُ يفعل ما ذُكر من الأفاعيل لا غيره، وهذه الآية صفعةٌ لوجوه القدرية، الزاعمين أن الحرام غير رزقٍ لله، بل العبد يرزق نفسه منه، وتلفحُ وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبُه، وهذا ذهاب إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ضلال مبين عند المتكلمين، وأهل الصوفية الحقة ﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك يا رسول الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ الهمزة لإنكار الواقع، أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، بإشراككم به سبحانه؟.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ مالككم ومتولي أموركم على الإطلاق ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته، والمتحقق ألوهيته، لأنه هو الذي أنشأكم، ورزقكم، ودبَّر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ فمن تخطَّى الحقَّ الذي هو عبادة الله، وقع في الضلال، لأنه لا واسطة بين الحق والضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال، مع قيام البرهان؟ استفهام إنكاري للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال، ممَّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلاَّ الضلال كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه العادل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي على الذين تمرّدوا في الكفر، وخرجوا عن حدِّ الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حقت على أولئك المتمردين كلمة العذاب لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخر على أحقية التوحيد، وبطلان الإشرك، والسؤالُ للتبكيت والإلزام، أي هل يوجد من الأوثان والأصنام ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي من ينشىء الخلق من العدم، ثم يُفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ ولما كانوا مفحمين لا يستطيعون الجواب، أُمر ﷺ أن يكشف لهم باطلهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء، وفُهِم الحصر بدلالة الفحوى ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ الإفكُ الصرف عن الشيء، أي كيف تُقلبون من الحقِّ إلى الباطل؟ وتُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ احتجاج آخر على ما ذُكر، جيء به إلزاماً لهم على ضلالهم في عبادة غير الله، والمعنى: هل من يهدي إلى الحق، بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى التدبر بما نصب في الآفاق، والأنفس، هل هو الله سبحانه أم الشركاء؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي الله يهدي له دون غيره، أي قل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك، فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق الساطع ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع الله عزَّ وجل، والتقدير أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله لا يهتدي أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي إلاّ أن يهديه الله سبحانه ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ لكم، في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله

سبحانه، والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجيبٌ من حالهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل ببطلانه.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى، لبيان عدم فهمهم للبرهان النيّر، أي ما يتَّبع أكثرهم في معتقداتهم إلاَّ ظناً واهياً، من غير مستندٍ من دليل أو برهان، بل مجرد ظنون وأوهام، وخرافات فاسدة يتبعون بها آباءهم، ووجه تخصيص هذه الاتباع لأكثرهم، للإشعار بأن بعضهم قد يقفون على حقِّية التوحيد، وبطلان الشرك، لكنْ لا يقبلونه مكابرة وعناداً، وقيل: المراد بالأكثرِ الجميعُ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ عن العلم واعتقاد الحق ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول الاعتقادية، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد، وأن إيمان المقلّد غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عليها، وعيد لهم على أفعالهم القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع، التي من جملتها الحجج البينة بحقية التوحيد وبطلان الشرك، أي ما كان هذا القرآن لأن يُفترى من الخلق، وأن يكون صادراً من غير الله تعالى ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن اللهُ أنزل هذا القرآن، مصدّقاً لما تقدمه من الكتب الإلّهية، كالتوراة والإنجيل، ولا يكون كذباً بحال من الأحوال، كيف وهو شاهد على صحتها، وتصديق الكتب له، بأن ما فيه من العقائد الحقة،

مطابق لما فيها، وهو مشتمل على قصص الأولين، حسبما ذكر فيها، وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجةً وبرهاناً لغيره، لا العكس ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما كتب وأُثبت من الحقائق والشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه كلام الله منتفياً منه الريب ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وتصديق من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم منقطعة وهي مقدرة ببل والهمزة لإنكار الواقع، أي بل أيقولون افتراه النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم، إظهاراً لبطلان مقالتهم: إنْ كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة، وحسن النظم، وقوة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة، أي فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب، كامرىء القيس، وزهير، وأمثالهما، بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة، فحيث عجزتم عن ذلك، دلَّ على أنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق الكون، رب العزة والجلال ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة والمظاهرة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءه والاستعانة به، من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات، وممن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي سوى الله تعالى، فإنه وحده قادرٌ على ذلك، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه اختلقه، فإنَّ ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي كذبوا القرآن، وسارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد، الدالة على كونه كلام رب العالمين، والتعبير عنه بهذا العنوان، دون أن يقال: بل كذَّبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه، للإيذان بكمال جهلهم به، وأنهم لم يعلموه ولم يدركوا ما فيه من وجوه الإبداع والإعجاز، وأنَّ تكذيبهم به، إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي ولم يقفوا بعد على معانيه المنبئة عن علو شأنه، وسطوع برهانه، ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه، من الإخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم، والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم فاجؤوا تكذيبه، قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم في معجزاتهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خطاب لسيد الرسل أو لكل من يصلح له، والمراد بالظالمين الذين كذبوا الرسل من السابقين واللاحقين، أي انظر كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك، بسبب ظلمهم وبغيهم؟ فكما أهلك الله أولئك الطغاة، يهلك هؤلاء المكذبين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي منهم سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي لا يصدّق به في نفسه، لفرط غباوته ولسخافة عقله، وعجزه عن التخلص من الشكوك والأوهام التي أَلِفَها، فيموت على كفره، معانداً أو شاكاً ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي بكلا الفريقين، من المعاندين، والشاكين، لاشتراكهما في أصل الإفساد.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ وإن أصرُّوا على تكذيبك، بعد إلزام الحجة، وأُوِّل بذلك، لأن أصل التكذيب حاصل، فلا يصح فيه الاستقبال ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فتبرأ منهم، فقد أعذرتَ، والمعنى قل لهم: لي جزاءُ عملي، ولكم جزاءُ عملكم ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم، ومعنى الآية الزجر والردع.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي ومن المكذبين أناس، يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، ولكنْ لا يقبلونه، كالأصمّ الذي لا يسمع أصلاً، لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ أي هل أنت تقدر على إسماعهم؟ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضمَّ إلى صممهم عدمُ تعقلهم، والأصم العاقل، ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دويٌّ، أمَّا إذا اجتمع فقدانُ السمع، والعقل، فقد تمَّ الأمر، وفيه تنبيه على أن استماع الكلام، لفهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا يوصف به البهائم، وهو لا يأتي إلاّ باستعمال العقل السليم، في تدبره وتفكره، وعقولُهم لمَّا كانت عليلة، بمعارضة الوهم، ومشايعة الألف والتقليد، تعذَّر فهمهم الحِكَم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بمجرد الألفاظ إلاّ كما تنتفع البهائم من كلام الناعق.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بأبصارهم الظاهرة، ويعاين دلائل نبوتك، ولكنْ لا يصدِّقونك، ولا يهتدون بها كالأعمى ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾؟ أي

هل تقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي وإن انضمَّ إلى عدم البصر، عدمُ البصيرة؟ والمقصودُ من الإبصار هو الاعتبار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك قد يتفطّن الأعمى المستبصر، لما لا يدركه البصير الأحمق، فحيث اجتمع فيهم الحُمْقُ والعَمَىٰ، فقد انسدَّت عليهم أبواب الهداية، إلى طريق الرحمة والجنة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، بل تكفَّل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فضلاً منه جلَّ شأنه وكَرَماً ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها، كما ظلموا أنفسهم باقترافهم الكفر، حيث عبدوا جماداً وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم يوم حشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي شيئاً قليلاً منه، فالساعةُ مَثَلٌ في غاية القلة، يستقصرون مدة لبثهم، لهول ما يرون من الكرب والعذاب ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلاَّ قليلاً، وهذا تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني!! وليس تعارف محبة ومودة. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون، الذين كذبوا بالبعث والنشور، والآية شهادة على خسرانهم، والتعجيب منه، والمراد بلقاء الله الحسابُ والجزاء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإلاَّ فالعذاب ينتظرهم، والرؤية بصرية، أي إمَّا نرينك بعينك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ننتقم منهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب للشرط، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مقرَّرٌ، عُذِّبوا في الدنيا أولا ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، فيجازيهم عليها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية ﴿رَّسُولٌ﴾ بُعث إليهم ليدعوهم إلى الحقِّ، بشريعةٍ خاصة مناسبة لأحوالهم، ويؤكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فبلَّغهم فكذَّبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأُنجيَ الرسولُ، وأهلك الله المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، يُجازى كل أحد على قدر عمله، وقيل معنى الآية: لكل أمةٍ رسولٌ يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالإيمان أو الكفر، قضي بينهم بإنجاء المؤمن، وعقاب الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[2] وهذا ممَّا رواه ابن جرير وغيرُه عن مجاهد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ أي متى هذا العذاب الذي تعدنا به؟ يريدون به العذاب الدنيوي، ويقولون ذلك استبعاداً له واستهزاءً به، لا طلباً لوقت مجيئه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعيد.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٩.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا ﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكنْ ما شاء الله لي فإنه يحصل بتقديره تعالى، دون أن يكون لي دخل فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصرُّوا على التكذيب ﴿ أَجَلٌ ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ﴾ أي أجلُ هلاكهم ﴿ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةٗ ﴾ شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ عليه، فلا تستعجلوا العذاب، فسيجيء وقتُكم، وينجز وعدكم.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ قُلۡ ﴾ يا رسول الله لهم، بعد ما بيَّنتَ لهم كيفية حالك، وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم، ونبَّهتهم على أن عذابهم أمر مقرَّر، لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ ﴾ الذي حدَّده لهلاككم، والذي تستعجلونه لجهلكم وحماقتكم، إذا جاءكم هذا العذاب ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي وقت بيات في الليل ﴿ أَوۡ نَهَارٗا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنما لم يقل «ليلاً ونهاراً» ليظهر التقابل، لأن المراد الإشعار بالنوم، والغفلة، والبياتُ يفيد ذلك، لأنه الوقت الذي يُبيّت فيه العدو، ويوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ﴿ مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؟ أيَّ شيء من العذاب يستعجلونه؟ وكلُّه مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وكان ينبغي أن يفزعوا من العذاب، فضلاً عن أن يستعجلوه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ﴾ زيادة التنديم

والتجهيل، أي أبعد ما وقع العذابُ، وحلَّ بكم حقيقةً آمنتم به، حين لا ينفعكم الإيمان وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به؟ إنكاراً للتأخير، وتوبيخاً عليه ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ لتوكيد التوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي إلا جزاء ما اقترفتموه من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي العذاب الموعود ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم: نعم إن ذلك العذاب ثابت لا محالة، أقسمُ لكم بربي، و«إي» بمعنى نعم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وما أنتم بمعجزين ربكم بهرب أو امتناع من العذاب، لأنكم في قبضته وسلطانه[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك والتعدي على الغير، كما قال سبحانه: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها

(١) وذهب الطبري إلى أن المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة.

ومنافعها قاطبة مع كثرتها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه أي لافتدت نفسها به ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والاسرار: الإخفاءُ أي أخفَوا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي الغمَّ والأسف على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ عند معاينتهم للعذاب، رأوا ما فيه من فظاعة الحال وشدة الأهوال ﴿وَقُضِيَ﴾ أي حُكم وفُصل ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أصلاً، لأنه لا يُفعل بهم إلاَّ ما يقتضيه جزاء أعمالهم، وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للظالمين والمظلومين، والمعنى: وقُضيت الحكومةُ بين الظالمين والمظلومين.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب، أي إن له سبحانه لا لغيره تعالى، ما وُجد فيهما، فإنَّ من يملك جميع الكائنات، وله التصرف فيها، قادرٌ على ما ذُكر ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب، كائن لا خلف فيه، أي جميع ما وعد به كائناً ما كان، فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في الأخرى، لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت، قابلة لهما أبداً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت إلى حسابه وجزائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق، غُبَّ تحذيرهم من غوائل الضلال، وإيذان بأن جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم وهذا وجه الربط بما تقدم. والقرآن واعظٌ بما فيه من الترهيب والترغيب، كاشف عن الأعمال حسناتها وسيئاتها، ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل، والشرك، والشكوك، والنفاق، وسوء الاعتقاد وغيرها. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والقرآن هاد إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الإيمان والإيقان، وتخلصوا من دركات النيران إلى درجات الجنان.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى رسول الله ﷺ ﴿ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ أي بإنزال القرآن الكريم، وهو المراد بالفضل، وبرحمته المراد بها الإسلام، وهذا هو المروي عن ابن عباس قال: فضل الله القرآنُ، ورحمته الإسلام، وروي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي إن فرحوا بشيء، فبذلك فليفرحوا، لا بشيء آخر، فإنه أولى ما يفرحون به لا بالمال الزائل ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا من الأموال، والحرث، والأنعام، فإنها صائرة إلى الزوال، والسعادات الروحية أفضل من السعادات الجسمية.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لكفار مكة ﴿ أَرَءَيْتُم ﴾ أي أخبروني ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي ما قُدّر لانتفاعكم من الرزق الحلال ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ أي قسمتموه إلى حرام وحلال، وقلتم افتراءً على الله ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ

وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ وقلتم أيضاً كذباً وبهتاناً ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ إلى غير ذلك مع كونه كله حلالاً ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحليل والتحريم فتقولون ذلك بحكمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ في نسبة ذلك إليه، والاستفهام للتقرير والتبكيت كأنه قيل: أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه، والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الأحكام وباعثة على الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان، وإلا فهو مفتر على الله.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مسوقٌ من قِبَلِهِ تعالى لبيان ما سيلقونه، أي ما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب، فيحلون ويحرّمون من تلقاء أنفسهم؟ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ظرف للظن أي أيُّ شيء ظنهم في ذلك اليوم؟ أيحسبون ألَّن يعاقبوا ولن يُجازَوا عليه؟ والمراد تهويل ما يُصنع بهم يومئذ، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم بالعقل، وهدايتهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب حيث أرشدهم إلى ما يهمهم، من أمر المعاش والمعاد، وبيَّن لهم ما لا تستقل عقولهم بإدراكه، ورغَّبهم ورهَّبهم، وشرح لهم الأحوال، وما يلقاه الحائر عن الرشاد من الأهوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم الجليلة، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خُلقتْ له.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ ما نافية، والخطابُ للنبي ﷺ، والشأنُ: الأمرُ والحال في أمر هام يُعتنى به ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً أنزله الله عليك ﴿ مِن قُرْءَانٍ ﴾ مجيد أوحاه الله إليك ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه، يتناول الجليل والحقير، أيْ أيَّ عمل كان، فعبّر في مقام الخصوص بالشأن، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الثاني بالعمل العام لأنه يشمل جميع الأعمال ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أي إلا كنّا شاهدين رقباء عليكم، نحصي عليكم أعمالكم ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي حين تخوضون وتشرعون فيه، وأصل الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو قوة، يعني أن الله سبحانه شاهد عليكم، حين تخوضون في ذلك العمل ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي، أي ما يغرب عنه ما يساوي مقدار وزن ذرة، وهي مَثَلٌ لأقصى الشيء في القلة ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه، وفيه تسليةٌ للمطيعين، وتخويف للمذنبين ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ من الذرة ﴿ وَلَآ أَكْبَرَ ﴾ منها ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ مقرر لما قبله والمراد بالكتاب اللوحُ المحفوظُ، وقيل: علمه تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة، بيانٌ على وجه التبشير والوعد، لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، في كل ما يأتون وما يذرون، أي الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون بفوات مأمول والآية كمجمل يفسّره قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بامتثال أمره ونهيه، والمراد أنهم جمعوا بين الإيمان، والتقوى، المفضيَيْن إلى كل خير، المنجِيَيْن عن كل شر، فمِلاكُ أمر الولاية هو «التقوى» المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وبه يحصل الشهود والحضور، والقرب، فأولياء الله عزَّ وجل هم المؤمنون المتقون، أخرج أحمد وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «إنَّ للهِ عباداً، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يَغْبِطهم النبيون والشهداء، على قُربهم من الله تعالى، قال أعرابي يا رسول الله: انعتهم لنا، قال: أُناس تحابُّوا في الله...»[1] الحديث، وقد أورده ﷺ حسبما يقتضيه مقام الإرشاد، ترغيباً للحاضرين، وأريد بقوله ﷺ: «يغبطهم النبيون» الإشارة إلى راحتهم مما يعتري الأنبياء، من الاشتغال بأممهم، وقال بعض المحققين: إنَّ ذلك تصويرٌ على طريقة التمثيل، وأياً ما كان، فلا دليل فيه أن الولاية أفضل من النبوة، وقد كفر معتقد ذلك.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّر به المتقين، في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، البشرى في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه، وورد أن البشرى في الحياة الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» فقد أخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأورده الطبري وابن كثير، وتتمته «تحابوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﷺ: ﴿ألا إن أولياء الله..﴾ الآية».

عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»[1] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ بعدي من النبوَّة إلاَّ المبشِّرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له»[2] والراجح أن البشرى في الدنيا هي أن تأتيهم الملائكة عند الموت تُبشِّرهم بالرحمة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ وقيل المراد بالمبشرات العاجلة نحو النصر، والفتح، والغنيمة، والثناء الحسن، والذكر الجميل، ونحو ذلك، روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيتَ الرجلَ يعمل من الخير، ويحمده الناسُ عليه!! قال: تلك عاجلُ بُشرى المؤمن»[3] ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشّرين بالفوز والكرامة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده قطعياً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء، من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة، وتبشير له ﷺ بالنصر والعز، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله﴾ الآية ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ تعليلٌ للنهي، أي القوةُ، والنصرةُ، والغلبةُ

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٤ في كتاب الرؤيا، وأحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لا يملك أحد شيئاً منها، فهو يقهرهم ويعصمك منهم، وقد كان كذلك ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك، ويعلم ما يعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ خلقاً، ومِلْكاً، وعبيداً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذكر لبيان أنهم مع شرفهم، إذا كانوا عبيداً له تعالى، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غير الله ﴿شُرَكَآءَۚ﴾ أي ما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة وإن سموها كذلك ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون يقيناً شيئاً ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي لا يتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سميتموها﴾ ﴿وَإِنۡ هُمۡ﴾ وما هم أي ﴿إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ أي إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ لتتحركوا فيه لمصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جعل كلٍّ منهما كما وصف ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي دلالات على توحيد الله تعالى ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ سماع تدبُّرٍ واعتبار، وتخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين، ممن زعم أن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود والنصارى قال الله تعالى لهم ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ ﴾ تنزيهاً وتقديساً له عما نسبوه إليه، وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ ﴾ عن كل شيء في كل شيء علةٌ لتنزهه تعالى، وإيذانٌ بأن اتخاذ الولد، مسبّب عن الحاجة، وهو سبحانه الغني عن كل شيء ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي من العقلاء وغيرهم، وهو تقرير لغناه وتحقيق لما عليه لكل ما سواه ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ﴾ أي حجة ﴿ بِهَـٰذَآ ۚ ﴾ بما ذكر من القول الباطل، والالتفات إلى الخطاب، لمزيد المبالغة في التقريع والتوبيخ على جهلهم ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون، فتنسبون إليه الشريك والولد؟ وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب ليبين سوء مغبتهم، ووخامة عاقبتهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب.

﴿ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي يتمتعون مدة حياتهم، كأنه قيل: كيف لا

يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: ذلك متاع حقير، وقليل في الدنيا، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ فيبقون في العذاب المؤبّد، بسبب كفرهم المستمر، فأين لهم من الفلاح؟ ولمَّا ذكر الله تعالى في هذه السورة، أحوال كفار قريش، شَرَع في بيان قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول ﷺ، وعبرة لغيره.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن عظيم، مع قومه الذين هم أمثال قومك، لينزجروا بسماع ذلك عما هم عليه من الكفر والعناد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ اللام للتبليغ ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي عَظُم وشقَّ، لأن من أَلِفَ ديناً، يثقل عليه أن يدعى إلى خلافه، ويُذكر له ركاكتُه ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي لبثي فيكم، ومكثي بين ظهرانيكم ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على الوحدانية، المبطلة لما أنتم عليه من الشرك، وإنما شقّ عليهم الوعظُ، لأن الطباع المشغوفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذّات العاجلة، تكون شديدة النفرة على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط أي فوضت أمري إليه لا على غيره، وهو عبارة عن إظهار عدم مبالاته عليه السلام باستثقالهم ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ أجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: أجمعْ أمركَ ولا تدعْه منتشراً أي اعزموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أي مع شركائكم، التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه، وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريق التهكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً، من غمَّه إذا ستره بل مكشوفاً ومشهوداً، تجاهرونني به، وإنما خاطبهم بذلك، إظهاراً لعدم

المبالاة بهم، وثقةً به سبحانه، بما وعده من عصمته ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي امضوا فيَّ ما أردتموني ولا تمهلوني، فإني لستُ مبالياً بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم﴾ في مقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ تؤدونه إليَّ حتى يدعو ذلك إلى توليتكم، لثقله عليكم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ تأكيد لما قبله، أي ما أجري وثوابي على العظة والتذكير، إلا على الله تعالى، يثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي أمرت لأن أكون من المنقادين لحكمه تعالى، فلا أخالف أمره، ولا أرجو غيره، أرشدهم عليه السلام إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وبلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه، وبرّأ ساحته عن السؤال منهم شيئاً من الأجر، ولكن القوم بلغوا الغاية في الكفر والتمرد والعناد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب، بعدما ألزمهم الحجة، فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ أي فأغرقنا القوم وأنجيناه من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين به، وكانوا في المشهور أربعين رجلاً، وأربعين امرأة ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي السفينة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ أي من معه ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ وهم الباقون من قوم نوح، وتأخير ذكر الإغراق عن الإنجاء، لتعجيل المسرة للسامعين ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ المخوفين بعذاب

الله تعالى، والمراد بهم المكذبين، والتعبير عنهم بذلك، للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم ينجع الإنذار فيهم، وقد جرت العادة أن لا يهلك الله القوم إلا بعد الإنذار، فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة قوم، كذَّبوا الرسل عليهم السلام، وكذبوا آيات الله تعالى؟.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا ﴾ التنوين للتفخيم ذاتاً وصفة أي رسلاً كثيراً، كراماً، منهم: هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كلٌّ رسول إلى قومه خاصة ﴿ فَجَآءُوهُم ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوص به ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الواضحات المثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي فما صح لقوم من أولئك الأقوام، أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ وما موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، بعد تواتر البينات التي تضطرهم إلى القبول، لو كانوا من أهل العقول ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ في الكفر والعناد، لانهماكهم في الغي والضلال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ خُصَّتْ بعثتهما بالذكر، إيذاناً بخطر شأن القصة، وعظم وقعها كما في قصة نوح ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أي قومه من استعمال الخاص في العام ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي تكبروا عن قبولها، وتعظّموا عن الاتباع، الفاء فصيحة، أي فأتياهم فبلّغاهم الرسالة فاستكبروا

﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كانوا معتادين، لارتكاب الذنوب العظام، فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه، من الاستهانة والتكذيب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي فلمَّا جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة من اليد، والعصا، وسائر المعجزات البيّنات ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ من فرط عتوهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحرا.

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم، من غير تأمل وتدبر لما تقولون، من أنه سحر مبين؟ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾؟ تكذيب لقولهم وتجهيل لهم، أيْ أيَّ سحر هذا الذي أمره واضح، لاترتاب فيه عين مبصرة ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ تأكيد للإنكار السابق، أي أتقولون إنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، وأنا قد أفلحتُ وظفرتُ بالحجة؟.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ بعد أن ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد، الذي هو دأب كل عاجز محجوج ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وعبادة فرعون ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي الملك والعظمة والتكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به وأرادوا بقولهم هذا، إغاظة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أسند الفعل إليه وحده، لأن الأمر من وظائفه، أي قال لملئه وجماعته ﴿ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ في فن السحر ماهر فيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ عطف على مقدر أي فأتوا فلمَّا جاء السحرة ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾ بعدما قالوا له ﴿إمَّا أَنْ تُلْقِي وإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ﴾؟ ﴿ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي ما استقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير، والإشعار بعدم المبالاة.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ ﴾ ما ألقوا من العصي والحبال، واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰ ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمَّاه فرعون من آيات الله سحراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ أي إن الله تعالى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يثبته ويظهره ويقويه بالحجج والبراهين ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ بوعده الكريم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾ في الآية حذفٌ، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. الخ وإنما لم يذكره إيثاراً للإيجاز، أي فما آمن لموسى بمشاهدة تلك الآيات في مبدأ أمره ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ طائفة ونفر قليل ﴿ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ من بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا خوفاً من فرعون ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ التنوينُ للتعظيم، أي كائنين على خوفٍ عظيم من فرعون وملئه، وضميرُ الجمع ﴿وملئهم﴾ يرجع إلى الذرية، والجمعُ باعتبار المعنى، ويؤول إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون، ومن أشراف قومهم ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ ﴾ أي يعذبهم، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي متكبر وغالب في أرض مصر، واستعمالُ العلو في الغلبة مجاز ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية، وفي الظلم والفساد بالقتل والعتوّ.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ أي صدقتم بالله وآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ وبه ثقوا، ولا تخافوا أحداً غيره، فإنه كافيكم كلَّ شر وضُرٍّ ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له.

﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي قوم موسى مجيبين له من غير تلعثم في ذلك ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ عليه اعتمدنا لا على غيره، ويؤخذ من هذا أنهم كانوا مخلصين، ثم دعوا قائلين ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي موضع فتنة، أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا.

﴿ وَنَجِّنَا ﴾ أي خلصنا ﴿ بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي من أيديهم

وكيدهم، دعاء للإنجاء من سوء جوارهم، وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ولذا عبّر عنهم بالكفر، بعدما وصفوا بالظلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذا منزلاً ووطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ وَٱجْعَلُواْ ﴾ أنتما وقومكما، ففيه تغليب المخاطب على غيره ﴿ بُيُوتَكُمْ ﴾ تلك فالإضافة للعهد ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلًّى، وقيل: مساجد نحو القبلة يعني الكعبة، فإن موسى كان يصلّي إليها، وكانوا في أول الأمر يصلّون في بيوتهم خُفية، كما كان المسلمون في أول الإسلام بمكة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظوا على الصلاة فيها حتى تأمنوا، والصلاة في المساجد أفضل، وأرجى للتضرع ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والجنة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ هو ما يتزين به من لباسٍ، وحليّ، وفرش وأثاث ومراكب ونحوها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أنواعاً كثيرة من المال، كما يشعر به الجمع والتنوينُ ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ عن دينك، والكلام إخبار من موسى، بأن الله تعالى إنما أمدّهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، وذكر قوله تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم، أي إنك أوليتهم هذه النعمة، ليعبدوك وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، ليضلوا عن سبيلك، والمقصودُ عرض ضلالهم

وكفرانهم، فقدَّمه للدعاء عليهم ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ الطمسُ: المحقُ أي أهلكها وبدّدها كما قالهُ مجاهد فالمراد بالطمس إتلافها ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي اجعلها قاسية، واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما حَسُن من موسى هذا ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ جواب للدعاء ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي إلى أن يروا العذاب الموجع المؤلم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وعن ابن عباس تفسير العذاب الأليم بالغرق، وهذا يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر، لا يكون كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستحسان، بل على وجه التمني لينتقم الله منه أشد انتقام.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ أي قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، وظاهر الآية يدل على أن هارون كان يؤمِّن على دعاء أخيه، والتأمينُ دعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قد أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما﴾، ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه، من الدعوة وإلزام الحجة، فلا تستعجلان، فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة، أخرج أبن المنذر عن ابن عباس أنه قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ﴾ أي طريق الجهلة الذين ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله تعالى.

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿ ۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطَّاه، أي جعلناهم مجاوزين ﴿ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ بأن جعلناه يَبَساً، حتى بلغوا الشطَّ، وفيه إشعارٌ بانفصالهم عن البحر، وبمقارنة العناية الإلٓهية لهم عند الجواز ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ حتى تراءت الفئتان، وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ﴾ أي للبغي والعدوان، وذلك أن موسى عليه السلام، خرج ببني إسرائيل، على حين غفلة من فرعون، فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم، ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه بجنوده أجمعين، فلما دخل آخرهم، غشيَهم من اليم ما غشِيَهُم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ أي لحقه وألجمه وقيل: قارب إدراكه لأن حقيقة اللحوق تمنعه من القول ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ ﴾ أي بأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ولم يقل كما قال السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، طمعاً في القبول، والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الذين أسلموا نفوسهم للهِ تعالى، كرر المعنى الواحد حرصاً على النجاة، وهيهات فالإيمان لا ينفعه قبل اليأس.

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١) ﴾ .

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ أي فقيل له: آلآن تؤمن؟ أي أتؤمن في حال اليأس، حين أدركك الغرق، وأيقنت بالممات؟ والقائل هو جبريل، فقد روي عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر ـ أي طين ووحل البحر ـ فأدسُّه في في فرعون، مخافةَ أن تدركه الرحمة»[(١)] ﴿ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ أي وقد عصيتَ الله قبل نزول نقمته بك، والفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ على تأخير الإيمان إلى هذا الآن،

---

(١) أخرجه البيهقي والحاكم والترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٦٨ وقال: حديث حسن.

ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وقد كنت من المفسدين، الموغلين في الضلال والإضلال!!.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، وفي التعبير عنه بالتنجية تهكمٌ به ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه، وهو تخييبٌ له ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبرة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك، وفي تعليل تنجيته بما ذُكر، إيذان بأنها ليست لإعزازه، بل لكمال استهانته وتفضيحه، كمن يُقتل ثم يُجرُّ جسده في الأسواق، وقد قرر فحوى الكلام بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف لبيان النعم الفائضة عليهم، وإخلالهم بشكرها، أي أسكنَّاهم بعدما أنجيناهم ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل كرامة، صالحاً مرضياً للسكنى ﴿صِدْقٍ﴾ وهو أرض الشام، بعد العمالقة وتمكنوا في نواحيها، والمراد من بني إسرائيل ذريتهم، لأنهم ما دخلوا في حياة موسى الشام، وإنما دخلها أبناؤهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمر دينهم، بل كانوا متبعين رسولهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي إلا بعد ما جاءتهم التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرِّق، وقيل: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ، إلا بعد ما علموا صدق نبوته، بنعوته المذكورة في

كتابهم، وتظاهر معجزاته، وهو ظاهر إذا كان المراد من المبوئين ذريتهم، أما الذين كانوا في عصر موسى، فإنهم لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ لينسب إليهم ذلك الاختلاف[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، بالإثابة والتعذيب.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤)﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ هذا محمولٌ على الفرض والتقدير، كقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ للرحمن وَلَدٌ فأنا أَوَّلُ العَابدينَ﴾ ومحالٌ أن يكون لله ولد، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ممن يسمع، أي إن كنت أيها السامع، في شكّ مما أنزلنا على لسان نبينا ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون، وأخبار بني إسرائيل ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ هو التوراة، فإنَّ ذلك محقَّق عندهم، ثابتٌ في كتبهم وروي أنه ﷺ قال: «لا أشكُّ ولا أسأل»[2] ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت عندك وأتاك البيانُ الحق، الذي لا ريب في حقيته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهر ذلك بالمعجزات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكّين فيه المرتابين، والامتراء: الشكُّ والتردد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)﴾.

---

(١) هذا القول ذهب إليه الطبري ١١/١٦٧ حيث قال: كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضُهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٢) هذا حديث موقوف على قتادة قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل» انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٠٧.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بشيء منها ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ نفساً وعملاً وهذا كله من باب التَّهييج والتثبيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي ﷺ على ثلاثة فرق: مصدّقون، ومنكرون، ومتوقفون، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب، وإنما وحّد الضمير لأنه خطاب لجنس الإنسان، وفيه تنبيهٌ على أنه من خالجته شبهة في الدين، ينبغي أن يسارع إلى حلّها، بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثبتت عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً نافعاً عند معاينة العذاب، مثل فرعون والطغاة من كفار مكة.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحة المدلول، مقبولة لدى العقول، لأن سبب إيمانهم مفقود، لكنَّ فقدانه ليس لمنع منه سبحانه وتعالى، بل لسوء اختيارهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي عند اليأس كدأب آل فرعون، والذي عليه أهل السنة أنَّ أفعال العباد بأسرها، معلومةٌ له تعالى، ومرادة، ولا يكون إلاَّ ما أراد الله سبحانه، ولا يريد إلا ما عَلِم، ولا جبر هناك ولا تفويض، ولكنَّ الأمر بين الأمرين، وإنْ أردت تحصيل الإيقان، فعليك رسالة المولى الكوراني في هذا الشأن.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أي فهلاّ كانت قرية من القرى المهلكة ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن يقبل الله تعالى إيمانهم، فيكشف بسببه العذاب عنهم ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعدما أظلَّهم وكاد يحلُّ بهم ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقدَّر لهم في علم الله تعالى، وكان من قصة هؤلاء القوم، على ما روي عن غير واحد، أن يونس عليه السلام، بُعِث إلى أهل «نينوا» من أرض الموصل، وكانوا أهل شرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده، فأبوا وكذَّبوه، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة، ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا غامت السماء، غيماً أسود هائلاً، حتى غشيت مدينتهم، فقالوا: إنا لم نجرّب عليه كذباً قطُّ، فانظروا فإن بات فيكم الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم، فطلبوه فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرّعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا النية، وقالوا في دعائهم: اللهمَّ إنَّ ذنوبنا قد عَظُمتْ، وجلَّتْ، وأنت أعظم منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف الضر عنهم، والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون، أن فرعون آمن في العذاب، وهم آمنوا قبله، وظاهر الآية أنهم شاهدوا العذاب، وعادة الله عز وجل حينئذ إهلاكهم من غير إمهال، وقبولُ إيمانهم من خصوصيَّاتهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين، لآمن كلهم مجتمعين على الإيمان، لكنه

لم يشأه لكونه مخالفاً لأساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أربك لا يشاء ذلك، فأنت تكرههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس لَكَ مشيئة الإكراه، والجبر على الإيمان، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله لا يتحقق بدون الاختيار، والآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وترويح لقلبه الشريف مما كان يحرص عليه من إيمانهم[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنفسٍ من النفوس البشرية ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلاَّ بإرادته وبتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله، عبَّر عنه بالرجس لكونه عَلَماً في القبح ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يستعملون عقولهم، بالنظر في الحجج والآيات ولا يعقلونها.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ يا أيها الرسول لأهل مكة، حثّاً لهم على التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من تعاجيب الآيات، ليتضح لك أنهم لا يعقلون ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ أي تفكروا ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أيْ أيَّ شيء

---

(١) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاَّ من سبقت له السعادة في الذكر الأول ـ أي اللوح المحفوظ ـ ولا يضلُّ إلاَّ من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول. تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٥.

بديع فيهما، من عجائب صنعه الدالة على وحدته وقدرته؟ ﴿وَمَا تُغْنِى﴾ وما تنفع ﴿ٱلْءَايَٰتُ﴾ وهي التي عبر عنها ماذا في السماوات والأرض ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ بمعنىٰ الإنذارات، أي لا تنفع الآيات والإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء لأنهم لا يعقلون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي فما ينتظر مشركو مكة وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي إلاّ مثل أيام أسلافهم الطغاة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مشركي الأمم الماضية، ونزول عذاب الله بهم ﴿قُلْ﴾ تهديداً لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما هو عاقبتكم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، وحاصله أن الأنبياء كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار في زمنه ﷺ يستعجلونها استهزاءً، فقيل لهم فانتظروا ما يحلُّ بكم، وأنا منتظر لنزول ذلك العذاب، لأن وعد الله لا يُخلف!.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي نجيناهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حقَّ ذلك حقاً علينا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من كل شدة وعذاب، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان بالله وقوله ﴿حقاً علينا﴾ أي إنه كائن لا محالة، كأنه كالواجب عليه تعالى تفضلاً منه وكرماً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أوثر الخطابُ باسم الجنس، إظهاراً لكمال العناية بشأن ما بُلغ إليهم ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ أي إن كنتم في شك من حقيقة ديني الذي أدعوكم إليه، والتعبيرُ بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل هو الشكُّ، وأما القطعُ بعدم الصحة فلا سبيل إليه ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في وقت من الأوقات، لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تليق لأخس الأشياء من الأصنام، بل تليق بمن في يده الإيجادُ والإعدام، فانظروا بعين الإنصاف، لتعلموا أنه حق لا ريب فيه ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، وبيده وحده محياكم ومماتكم، فلا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني، وإنما الشكُّ في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأما إلهي فبيده النفع والضُر. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما دل عليه العقل، ونطق به الوحي، وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس إلا بالوحي السماوي والتوفيق الإلهي، وقيل لي:

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو الإسلام، وإقامة الوجه للدين، كنايةٌ عن توجيه النفس بالكلية، إلى عبادته تعالى، والإعراض عمن سواه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ أي لا تكوننَّ منهم، لا اعتقاداً ولا عملاً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾ .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تدع من دون الله استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ إن عبدته أو دعوته، بدفع مكروه، أو جلب محبوب ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبده بإيقاع المكروه ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي ما نُهيت عنه، كنَّى به تنويهاً لشأنه ﷺ على رفعة مكانه، من أن يُنسب إليه عبادةُ غير الله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ جزاء للشرط، وهذا الخطابُ وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ، فالمراد به غيره، أي تكون ممن ظلم نفسه لأنك عرّضتها لعذاب الله.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ كفقرٍ ومرض، أو شدةٍ وبلاء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾ عنك كائناً من كان ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده، فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أي إن يرد أن يصيبك بخيرٍ ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ الذي أرادك به وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل، من غير استحقاق عليه ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بالخير بفضله ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهو يدل على عموم الفضل ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية، قرر سبحانه في هذه الآية، أن جميع الأشياء مستندة إلى الله تعالى، ومحتاجة إليه، والرحمةُ والجودُ فائضٌ منه عزَّ وجلَّ.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان

والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالة، عن شائبة غرض عائد عليه ﷺ، من جلب نفع، أو دفع ضر ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليَّ أمركم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك من الحق المذكور ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وأذاهم وعلى ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ فيهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر والظواهر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *

سُورَةُ هُودٍ

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ .

﴿الٓر﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة[1]، واختار غير واحد من المتأخرين كونها اسماً للسورة، أي هذه السورة مسماةٌ بـ: الر ﴿كِتَٰبٌ﴾ التنوين فيه للتعظيم، أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليلُ القدر، من لدن حكيم خبير ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظماً محكماً، لا يعتريه خَلَلٌ من جهة اللفظ والمعنى، كالبناءِ المحكم، مصون عن الذلل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنت بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، وفُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) للمفسرين آراء عديدة في الحروف المقطعة، والأظهر والأرجح منها أنها إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي يتكلمون بها، وانظر الجزء الأول من تفسير سورة البقرة.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ في موضع العلة، أي لتتركوا عبادة غيره، وتتمحضوا لعبادته سبحانه ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي أنذركم من عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم، وقدَّم الإنذار هنا لأنه هو الأهمُّ.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ثم توصَّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، والمرادُ بالتوبة: الإخلاصُ فيها، والاستقرار عليها، وأصل الاستغفار طلب الغفر أي الستر، ومعنى التوبة: الرجوعُ، ويُطلق الأول ـ الاستغفارُ ـ على طلب ستر الذنب، والثاني ـ التوبة ـ الندم عليه مع العزم على عدم العود، فلا اتحاد بينهما ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في الدنيا ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش، وسعة رزق، في أمن وسرور ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة لكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ أي يعطي ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ في دينه أي زيادةً في العمل الصالح ﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي جزاء فضله أي عمله الصالح في الآخرة، وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين. ومسألةُ إطالة أعمار بعض الناس دون بعض، ليس من الجود الخاص، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض، بل هي جاريةٌ على السُّنَن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، فهو كمسألة الرزق في سعته وضيقه، قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] ثم شرع في الإنذار فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وإن تتولوا أي تعرضوا عما أمرتم به من التوحيد، والاستغفار، والتوبة وتستمروا على الإعراض ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

بموجب الشفقة أو أتوقع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شاق هو يوم القيامة، وفي إضافة العذاب إلى اليوم الكبير تهويلٌ وتفظيع له، وأخَّر الإنذار عن التبشير، جرياً على سَنَن[1] تقدم الرحمة على الغضب.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم إلى الله جلَّ وعلا بالموت ثم بالبعث للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبهم أشدَّ العذاب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ضمير «إنهم» للمشركين، أي يثنونها عن الحق، وينحرفون عنه، ويعطفونها على الكفر، وعداوة النبي ﷺ ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله تعالى، وذكر أبو حيان أن الآية نزلت في بعض الكفار، الذين كانوا إذا لقيهم الرسولُ ﷺ، ثَنَوْا صدورهم، وردُّوا إليه ظهورهم، وغشَّوْا وجوهَهم بثيابهم، كراهةً للقائه، ويظنون أنه يخفى عليه ﷺ ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي ألا حين يأوون إلى فراشهم، ويتغطَّوْن بثيابهم أي يلتحفون بما يلتحف به النائم، وهو وقت كثيراً ما يقع فيه حديث النفس عادة ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم، يستوي في علمه تعالى سرُّهم وعلنُهم، فكيف يخفى عليه تعالى ما يظهرونه؟ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس في

---

(١) سَنَن: السَّنَنُ: الطريقةُ والمثال، يُقال بنَوْا بيوتهم على سَنَن واحد، أي على طريقة واحدة، وانظر المعجم الوسيط.

صدورهم، والتعبير بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالماً بذلك، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصولها وحملاً على التوكل فيه، والمراد من الدابة هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين، أي وما من حيوان يدبُّ على الأرض، إلا على الله تعالى رزقه، ولا يمنع من التوكل مباشرةُ الأسباب، مع العلم بأنه سبحانه المسبِّب لها، ففي الخبر «اعقلْ وتوكَّل» وجاء في الحديث الشريف: «إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجَلها، فاتقوا الله تعالى، وأجملوا في الطلب»[1] ولا ينبغي أن يُعتقد أنه لا يحصل الرزقُ بدون مباشرة السبب، فإنه سبحانه يرزق الكثير، من دون مباشرة سببٍ أصلاً كما في قصة مريم ﴿ وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا ﴾ محل قرارها في الأصلاب، أو مسكنها في الدنيا ﴿ وَمُسۡتَوۡدَعَهَا ﴾ موضعها في الأرحام أو القبر[2] ﴿ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ، أي كل واحد من الدواب، رزقُها، ومستقرُّها، ومستودَعها مثبت في اللوح المحفوظ المبين، وهذا تحقيق للعلم، كأنه لما ذكر أنه يعلم ما يسرون، أردفه بما يدلُّ على عموم علمه جلَّ وعلا، ثم أتى سبحانه بما يدل على عظيم قدرته من قوله.

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/٢٧ وابن حبان، والحاكم، وانظر جامع الأصول ١٠/١١٧.

(٢) قال ابن عباس: مستقرّها حيث تسكن في الدنيا، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن، وقال مجاهد: مستقرُّها في الرحم، ومستودعها في الصلب، وقد جمع المؤلف بين القولين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ من أيام الدنيا ليعلِّم العباد التأنّي ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ قبل خلقهما، ليس تحت العرش غير الماء كما ورد في الحديث الشريف: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان عرشه على الماء»[1] وفي الآية دلالة على أن العرش والماء خُلقا قبل السماوات والأرض ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ليعاملكم معاملة من يبتليكم أي يختبركم ﴿ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب، والعمل غير مختص بعمل الجوارح، فإن لكلٍّ من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به، فكما أن الأول أشرف من الثاني، فكذا الحال في عمله، كيف لا، ولا عمل بدون معرفة الله عزَّ وجل ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ ﴾ يا رسول الله ﴿ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ للحساب والجزاء، على ما يوجبه قضية الابتلاء، بظهور مراتب الأعمال ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي ليقولن الكافرون منهم ﴿ إِنۡ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ تمادياً منهم في العناد، أي إنه مثل السحر في الخديعة والبطلان، وإنما نسبوا السحر إلى القرآن، لأنه أخبر عن البعث والنشور، وأتى بالقول الفصل في ضرورة حدوثه.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ٦/٢٨٦ في قصة وفد اليمن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، جئنا نسألك عن هذا الأمر!! قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء..» الحديث الخ.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ الموعود في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والظاهر العذاب الشامل للكفرة ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي طائفة من الأيام قليلة ﴿ لَّيَقُولُنَّ ﴾ استهزاء ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾؟ أيْ أيَّ شيء يمنعه من المجيء؟ ومرادهم إنكار المجيء، والسخرية والاستهزاء بمن يعدهم بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ذلك العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ مدفوعاً ﴿ عَنْهُمْ﴾ على معنى لا يرفعه رافع، ولا يدفعه دافع ﴿ وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ أي ولئن أعطيناه نعمةً بحيث يجد لذتها في نفسه، والمراد من الرحمة: النعمةُ من صحةٍ، وَسَعَةٍ، وأمنٍ، ونحو ذلك ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه، وإيرادُ النزع للإشعار عن شدة تعلقه بها، وحرصه عليها ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ أي قاطعٌ رجاءه من فضل الله تعالى، لقلة صبره، وعدم ثقته به تعالى ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحةٍ بعد سقَم، وغنىً بعد

فقر، وفَرَج بعد شدة، وأمنٍ بعد خوف، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق، وعن ملابسة الضراء بالمسِّ، المشعر بكونها في أدنى الأمور والمصائب اليسيرة، مما يدل على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير، وأنه يريد بعباده اليسر دون العسر، والتعبير بالمسِّ كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي ذهبت عني المصائب التي تسوؤني ولم يتوقع زوالها، ولا يشكر عليها كما هو شأن أولئك الأشرار ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ وأشِر، بالنعم مغتر بها، وأكثرُ ما ورد «الفرحُ» في القرآن للذم، فإذا قُصِد المدح قُيِّد، كقوله سبحانه: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾. ﴿فَخُورٌ﴾ متعظِّمٌ على الناس بما أُوتي من النعم، مشغول بذلك عن القيام بحقها، وحاصله أنَّ الغافلين عند البلاء، لا يكونون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء، لا يكونون من الشاكرين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء، واستسلموا لقضاء الله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكراً على آلائه السالفة، ولمَّا تضمن اليأس عدمَ الصبر، والكفرانُ عدمَ الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده، كأنه قيل: إلاّ الذين صبروا وشكروا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، وُصِفَ بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ورفع التكاليف، والأمن من العذاب، ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن، من حيث إن إذاقة النعماء، ومساس الضراء، نوع من باب الابتلاء، وواقع موقع التفصيل من الإجمال، جاء قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فالمعنى ليعاملكم معاملة من يختبر البشر.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ (١٢) ﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ أي لعلك تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك، مخافة استهزائهم به والمقصودُ من ذلك تحريضه ﷺ وتهييجه لأداء الرسالة، وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ أي وعارضٌ لك أحياناً ضيقُ صدرك من تبليغه، خشية التكذيب ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أي لأن يقولوا تعامياً عن تلك البراهين الساطعة، وتمادياً على العناد على وجه الاقتراح ﴿ لَوۡلَآ ﴾ أي هلاَّ ﴿ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ أي مالٌ كثير من السماء يستعين به في أموره كالملوك ﴿ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾ يصدِّقه ويشهد بنبوته، كما قال طغاة مكة: اجعل لنا جبال مكة ذهباً، وقال آخرون منهم: ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، قال تعالى محدِّداً مهمته: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ ﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ بما أوحي إليك، غير مبالٍ بما صدر عنهم، من الردّ والتكذيب ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ أي حفيظ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكل عليه في جميع أمورك، فإنه تعالى فاعل بهم ما يليق بحالهم.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣) ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ أي بل يقولون إنه ليس من عند الله تعالى ﴿ قُلۡ ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأۡتُواْ ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ في البلاغة، والفصاحة، والجزالة، وحسن النظم، وقوة المعنى ﴿ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ أي فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة، مختلقاتٍ من عند أنفسكم، إن صحَّ أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب، فصحاء،

بلغاء، تمارسون الخطابة والأشعار، وفيكم ملوك الفصاحة، وأساطين البيان، وهذا التحدي وقع أولاً، فلما عجزوا، تحداهم بسورة مثله، كما نطقت به سورة البقرة، ويونس ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ للمعاونة ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أي استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به، من آلهتكم التي تزعمون أنها تنفعكم، والكهنة الذين تلجؤون إلى آرائهم في الملمات، ليساعدوكم في ذلك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله ربُّ العزة والجلال ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أني افتريته على الله.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم، إلى ما دعوتموهم إليه من المعارضة، وتبيَّن عجزهم عنه بعد التحدي لهم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي ملتبساً بالوحي بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ واعلموا أن لا معبود في الوجود إلا الله، وأنه سبحانه لا شريك له في الألوهية ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهل أنتم داخلون في الإسلام، بعد قيام الحجة البالغة؟ المراد بما لا يعلمه غيره، من الكيفيات والمزايا التي بها الإعجاز للبشر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بإحسانه وبره وأعماله الصالحة ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي يريد نعيم الدنيا فقط، وما يزيِّنها ويحسنها من الصحة، والأمن، والسعة في الرزق، وغير ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جزاء ما

عملوه من خير، كصدقة، وصلة ﴿فِيهَا﴾ في الدنيا من الصحة، والرياسة، وسعة الرزق، وكثرة الأولاد، وليس المراد بأعمالهم كلها، فإنه لا يجد كل متمنٍّ ما يتمناه، فإن ذلك منوط بالمشيئة، الجارية على قضية الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾[1] ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم شيئاً وإنما عبر عن ذلك بالبخس، الذي هو نقص الحق، مبالغةً في نفي النقص، فلا يدخل تحت الوقوع عن الكريم أصلاً، أمَّا في الآخرة فهم في الحرمان المطلق، كما ينطق به قوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المريدون للحياة الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا، وقد اجتنوا ثمراتها، ولم يريدوا بها شيئاً آخر، فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلاّ النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْته مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرةِ مِنْ نَصِيب﴾[2] ﴿وَحَبِطَ﴾ بطل ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي ظهر في الآخرة ضياع ما صنعوه من أعمال الخير، إذْ شرطُ الاعتداد بها الإخلاص، ولم يريدوا وجه الله تعالى ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ في نفسه ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لعدم شرط الصحة، والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة، الذين يعملون البر على الوجه الذي لا ينبغي، ومن هنا اشتهر أن الكافر، يُعَجَّل له ثوابُ أعماله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب،

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٨.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٠.

لكنْ ذهب جماعة إلى أنه يُخفَّف بها عنه من عذاب الآخرة، ويشهد له قصة أبي طالب، الذي أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه في ضحضاحٍ من نار، وقال: لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ برهان يدله على الحق والصواب، وهو القرآن، لأنه بينة باقية على وجه الدهر ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي ويتبعه ﴿شَاهِدٌ﴾ والتنوين في «بيِّنة» و«شاهد» للتفخيم، أي شاهد عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه، في كل مقدار سورة منه ومعنى كون ذلك تابعاً له، أنه وصفٌ له لا ينفك عنه، فلا يستطيع أحد من الخلق، جيلاً بعد جيل معارضته ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو من جهة الله تعالى[1] فالمعنى: هل من كان يريد الحياة الدنيا، كمن كان على بينة من ربه، ويشهد له شاهد؟ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة أيضاً يتلوه في التصديق، وتخصيص كتاب موسى بالذكر، لأن اليهود والنصارى مجتمعان على أنه من عند الله، بخلاف الإنجيل ﴿إِمَامًا﴾ أي كتاباً مؤتماً به في الدين، ومقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم، لأنها الطريق إلى الفوز بخير الدارين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة

(١) هذا ما اختاره المصنف، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية الكريمة: أفمن كان على نور واضح وبرهان ساطع من الله عزَّ وجل، وهو النبي ﷺ وأتباعه المؤمنون، وجوابه محذوف تقديره: كمن كان همه الحياة الدنيا؟ لا يستوون عند الله، ويتبعه شاهد من الله بصدقه وهو جبريل، ولعل هذا القول أظهر والله أعلم.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي يصدِّقون بالقرآن حقَّ التصديق، دون شك أو ارتياب ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ يَرِدُها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي الآخِرَةِ إلاَّ النَّارُ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ شك ﴿مِّنۡهُۚ﴾ من القرآن وكونه من عند الله ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي الحقُّ الثابت المقطوع بصدقه المنزَّل من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بذلك لقصور أنظارهم، واختلال أفكارهم، ولعنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ بأن نسب إليه ما لا يليق، كقولهم: الملائكة بنات الله، وقولهم لآلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والمراد من الآية ذم أولئك الكفرة، بأنهم مع كفرهم بآيات الله، مفترون عليه سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي مالكهم الحق فيفتضحون على رؤوس الخلائق ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ عند العرض، وهو جمع شاهد أو شهيد، والمراد بهم الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ في الدنيا بالافتراء عليه، كأنَّ ذلك أمر واضح غنيٌّ عن الشهادة، وإنما المحتاج تعيين من صدر عنه ذلك، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الأشهاد، والتشهير بهم خزياً ونكالاً ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور، وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم، والظاهرُ أن هذا من كلام الأشهاد، ويؤيده ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يُدني المؤمن، حتى يَضعَ كَنَفه عليه ـ بمعنى سِتْره ـ ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول:

نعم، حتى إذا رأى في نفسه أنه هلك، قال الله له: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩) ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ يمنعون الناس عن الإيمان واتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصل إلى الله ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجّة، أي دين الله منحرفاً عن الحق والصواب، منسجماً مع أهوائهم ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي هم جاحدون بالآخرة، منكرون للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠) ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هؤلاء الفجار ليسوا مفلتين من عذاب الله، بل هم تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويمنعهم من العقاب، أو ينجيهم من عذاب السعير ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي يضاعف الله لهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿ مَا كَانُواْ

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٥٣/٨ فتح الباري، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٦٨.

﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي سبب مضاعفة العذاب وتشديد العقاب، أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن إبصار نور الهدى، بكماً عن النطق بكلمة التوحيد، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من الحواس، فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم المؤبدة، ويا له من خسرانٍ مبين!! وشقاء واضحَ!! ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة، وبطل ما كانوا يؤملونه من النجاة من عذاب الجحيم، كما قال سبحانه عنه: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ ونتيجة لهذا الطغيان فقد حكم الله عليهم بالشقاء فقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر البشر، وأشقى البشر، ولا ترى أحداً أوضح خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران[١].

وبعد أن وضّح حال أولئك الأشقياء المجرمين، شرع في شرح أضدادهم وهم المؤمنون، وبيان ما لهم من العواقب الحميدة، ليظهر ما بينهما من التباين العجيب، والمصير المنتظر، حالاً ومآلاً، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان، بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي صدَّقوا بكل ما يجب التصديق به، من القرآن وغيره ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي الأعمال الصالحات ﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، وأصل الإخباتِ: نزولُ الخبت وهو المنخفض من الأرض، ثم أُطلق على الاطمئنان والخشوع، فقوله سبحانه: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إشارة إلى جميع أفعال الجوارح ﴿وَأَخبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ إشارة إلى أعمال القلوب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ دائمون أبداً، لا يخرجون منها.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ ﴾ المؤمن والكافر أي حالهما العجيبة التي تشبه المثل في الغرابة ﴿ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ ﴾ هذا مثل الكافر ﴿ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ ﴾ وهذا مثل المؤمن، وفيه تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، كما فيه من المحسنات البديعية ما يسمى باللفّ والنشر، حيث عاد السميع على الأصم، والبصير على الأعمى، ثمَّ الطباق بين الأعمى والبصير ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ﴾ هل يستوي الفريقان تمثيلاً وصفة؟ والاستفهام إنكاري معناه لا يستويان مثلاً، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه، كحال من يتخبط في ظلمات الضلالة، ولا يعرف طريق النور والهداية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تتذكرون بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل؟

ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وبيان حالهم مع أممهم، ليزداد ﷺ تحملاً لما يقاسيه من المعاندين، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ على إرادة القول أي فقال لهم: إني لكم نذيرٌ مبين، أي مخوِّف من عذاب الله، والاقتصارُ على ذكر كونه نذيراً، لأنهم لم يغتنموا مغانم بشارته، بل جابهوه بالتكذيب ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي موضح لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وفي هذا تبيين لوجه الخلاص، وهو عبادة الله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ المراد به يوم القيامة، أو يوم الطوفان، وصف العذاب بالأليم أي المؤلم للمبالغة، فكأن العذاب نفسه يتألم من شدته.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وصفهم بالكفر لذمهم، لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة، بل كلهم كفار فجار، كما قال عنهم: ﴿وَلاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِرَاً كَفَّارَاً﴾[1] ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي لا مزية لك علينا تخصك

(١) سورة نوح، آية: ٢٧.

بالنبوة، ووجوب الطاعة ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ أرادوا بقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهره، وهو ما يكون من غير تعمق، وإنما استرذلوهم مع كونهم من أولي الألباب الراجحة، لفقرهم، وقلة جاههم، فإنهم لمَّا لم يعلموا إلاَّ ظاهر الحياة الدنيا، كان الأشرف عندهم الأكثر مالاً وجاهاً، كما ترى بعض المتسمَّيْنَ بالإسلام، يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة، والرفعة لا تكون بالمال والمناصب، والحسب بل بمتابعة الرسل، ومتانة الدين والأخلاق ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي لك ولمتبعيك ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة من المال والجاه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أدرجوا قومهم معه في الخطاب، أي بل نظن إياك في دعوى النبوة، وإياهم في دعوى العلم بصدقك، نظنكم كاذبين، تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبباً للرياسة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي حجة شاهدة بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء النبوة، جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينة من عند الله تعالى، رحمة ونعمة عظيمة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم، من العمى ضد البصر، والمراد به هنا الخفاء مجازاً، يقال: حجةٌ عمياء كما يقال: حجة مبصرة، للواضحة الجليّة﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنكرهكم على الاهتداء بها؟ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي لا تختارونها ولا تتأملون فيها؟ ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة، ظاهرة الدلالة على صحة دعواي، إلاَّ أنها خافيةٌ عليكم، أيمكننا أن نكرهكم على قبولها، وأنتم معرضون عنها؟ أي لا يكون ذلك أبداً.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ أي على التبليغ، وإن لم يذكر فمعلومٌ ممَّا ذُكر ﴿ مَالًاۖ ﴾ تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم، فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائكم ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي ما أطلب ثوابي وجزائي إلا من الله ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ ﴾ جواب عما لوَّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ والمرويُّ عن ابن جريج أنهم قالوا له: يا نوح إن أحببتَ أن نتبعك، فاطرد هؤلاء، وذلك كما قالت قريش للنبي ﷺ في فقراء الصحابة وهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوع إشارة إليه ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ أي إنهم مؤمنون يلاقون ربهم ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ بأقدارهم، وفي التماس طردهم، وتجهلون بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ﴾ عذاب ﴿ ٱللَّهِ ﴾ أي من يصونني ويدفع عني حلول سخطه؟ والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك ﴿ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ ﴾ وهم بتلك الكرامة والزلفى ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أفلا تتعظون فلا تتذكرون بما ذكر من حالهم، حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب؟!.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ خزائن رزقه حتى جحدتم فضلي ﴿ وَلَآ

﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي لا أدعي في قولي: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ علم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، وما ذكرت من دعوى الإنذار بالعذاب، إنما هو بوحي وإعلام من الله تعالى ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلاَّ بشراً، فإن البشرية ليست من موانع النبوة، يعني إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي، والحالُ أنّي لا أدَّعي شيئاً من ذلك ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ ولا أقولُ في شأن من استرذلتموهم لفقرهم، وأصل الازدراء الإعابة، يقال: ازدراه إذا عابه ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ فإنَّ ما أعدَّ الله لهم في الآخرة، خير مما آتاكم في الدنيا، فعسى الله أن يؤتيهم خير الدارين ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من الإيمان وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر إلى النفاق، وإنما اقتصر على القول المذكور، مع أنه جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين، جرياً على الإنصاف، وإرشاداً لهم إلى سلك الهداية بأن اللائق لكل أحد، أن لا يبتَّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ إذا قلت ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم بحط مرتبتهم، وفيه تعريض بأنهم ظالمون بازدرائهم.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ونازعتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي حاججتنا فأطلته، أو أتيت بأنواعه، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل حرفة الأنبياء، والتقليد والجهل، والإصرار على الباطل، حرفة الكفار، ولمَّا حجهم عليه السلام، وأبرز لهم بينات واضحة الدلالة، بردِّ شبههم الباطلة، ضاقت عليهم الحِيَلُ فقالوا عند ذلك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المعجل ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثّر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فإن أمره إليه سبحانه لا إليَّ يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، والجملة دليل جواب قوله سبحانه ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم، لا ينفعكم نصحي، وهذا الكلام صدر عنه إظهاراً للعجز، عن إلزامهم بالحجج والبينات، لتماديهم في العناد، وإيذاناً بأنَّ ما سبق منه ليس بطريق الجدل، بل بطريق النصيحة لهم، والشفقة عليهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول قوم نوح، إنَّ نوحاً افترى ما جاء به مسنداً له إلى الله تعالى؟ ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ بالفرض البحت ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي عقوبة إثمي، وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ، وقوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ لا يدل على أنه شاكٌّ، لأنه قول يُقال على وجه الإنكار، عند اليأس من القبول.

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية الكريمة، من تتمة قصة نوح وهو الظاهر، وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ مع مشركي مكة.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ﴾ المصرِّين على الكفر، وهو إقناط له من إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ أي من استمر على الإيمان، وللدوام حكم الحدوث ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن حزن بائس ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء، والايذاء في هذه المدة الطويلة، قيل: إن نوحاً عليه السلام لشدة محبته إلى إيمانهم كان يسأل إيمانهم، فأعلمه ربُّه أنه لا يؤمن أحد منهم فقد حان وقت الانتقام منهم.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منّا وحفظنا، والأعين حقيقة في الجارحة، وهي جارية مجرى التمثيل، حيث مثّل للحفظ والرعاية بمن يرقب بعينه صنع الشيء بدقة، والمراد: اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا فهو كناية عن الرعاية والحفظ كما يقال للمسافر: صحبتك عين الله ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعها، قال مجاهد: أي اصنعها كما نأمرك ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفّه، وفي هذا حكم قاطع لقوم نوح بالهلاك.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ تقديره وأخذ يصنع الفلك، فهي حكاية حالة

ماضية، لاستحضارها في الذهن، كأنَّ الإنسان يشاهد نوحاً عليه السلام وهو يصنع السفينة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء، أو لأنهم ما كانوا يعرفونها، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرتَ نجَّاراً بعد ما كنتَ نبياً؟!.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا وإطلاق السخرية للمشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لا في الكيفية، التي لا تليق بشأن النبي وبمنصب النبوة، وقيل: إنها لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، قال بعضهم: إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق، بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وفيها إشارة إلى أنه بعد أن يئس من إيمانهم، لم يبال بإغضابهم، فلذا هددهم بقوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يُهينه، ويُذلُّه، ويُهلكه وهو عذاب الغرق ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي ينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ﴾ والأمرُ: واحد الأمور وهو الشأن، أعني نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفي ذلك عجيب القدرة، ولا تنافي بين هذا وقوله

سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ إذ يمكن التفجير وهو غير الفوران، فخصَّ الفوران للتنور، والتفجير وهو للأرض، والتَّنُّور تنور الخبز وهو قول الجمهور، وعن ابن عباس وعكرمه التنور هنا: وجه الأرض ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها، لينتفع به الذين ينجون من الغرق وذراريهم بعد ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنية زوج، والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى، وحاصل المعنى: احمل ذكراً وأنثى، من كل نوع من الحيوانات، وعن وهب بن منبه قال: «لمَّا أمر الله نوحاً بالحمل، قال: كيف أصنع بالأسد والبقرة، وبين الشّاة والذئب، وبين الحمام والهرة؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يارب، قال: فإني أؤلف بينهم»[1] والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً، وأنه لم يؤمر بحمل الحشرات والسباع، بل أمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا المؤمنون من الغرق ﴿وَأَهْلَكَ﴾ والمراد بأهله: امرأته المسلمة، وبنوه منها وهم: «سام» أبو العرب، و «حام» أبو السودان، «ويافث» أبو الترك، وأزواجهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه «كنعان» وأمه واعلة فإنهما كانا كافرَيْن وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي في الذينَ ظَلَمُوا﴾ وجيء بعلى لكونِ السابقِ ضاراً لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي والمؤمنين من غيرهم ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل تسعة وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٤٦١ ففيه روايات كثيرة.

﴿۞وَقَالَ﴾ نوح ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي اركبوا في السفينة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها روي عن الضحاك قال: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: ﴿بِسمِ اللهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن ترسو أي تقف قال: ﴿بِسمِ اللهِ﴾ فترسو؛ فهذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ﴾ للذنوب والخطايا ﴿رَّحِيمٞ﴾ لعباده، ولولا مغفرته ورحمته لما نجاكم من هذه الطامة.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ أي فركبوا وهي تجري بهم وهم فيها ﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ أي في موج من الطوفان، كل موجة منها كالجبال، في تراكمها وارتفاعها، والأمواج العظيمة تحدث عند حصول الرياح الشديدة، فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياحٌ عاصفة، وهذا الجريان إنما كان قبل أن يتفاقم الخطب، كما يدل عليه قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ واسمه كنعان، فإنَّ ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والأرض ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ أي في مكان منقطع عن أبيه وعن السفينة ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، يا بني بالتصغير من باب التحنن والرأفة، وكثيراً ما ينادي الوالد ولده كذلك ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في المكان فتهلك مثلهم.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ أي سأنضم ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ من الجبال ﴿يَعۡصِمُنِي﴾ يحفظني بارتفاعه ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ فلا يصل إليَّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه، وأن الماء لن يصل إلى رؤوس الجبال ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي قال له أبوه نوح عليه السلام: لا ناجي ولا معصوم اليوم من عذاب الله، إلا من رحمه الله، زاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام، وعبّر عن الماء (بأمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾

تفخيماً لشأنه، فإن أمر الله لا يُغالب، وعذابه لا يُردُّ، كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو، وإنما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل، كلُّ ذلك لكمال عنايته بتحقيق ما يتوخاه، من نجاة ابنه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب، بقوله لا يعصمك الجبل ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي فكان من غير مهلة من المغرقين، فانقطع ما بينهما من المجادلة، وفيه دلالة على غرق سائر الكفرة، والحكمة في كفر أرحام الرسل، ككفر والد إبراهيم، وولد نوح، هو تقرير أصل التوحيد، بالفصل بين ما هو لله، وما هو لرسله، وما عليهم إلاّ البلاغ، لا يملكون لأحدٍ ضراً ولا نفعاً.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ أي بعد تناهي الطوفان ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي﴾ أي انشقي وابتلعي ماءك، استعير له من ازدراء الحيوان ما يأكله، للدلالة على أن ذلك ليس كالنشفانُ المعتاد التدريجي، وتخصيص البلع بما يُؤكل هو المشهور عند اللغويين، فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق، وهو هنا استعارة لغور الماء في الأرض ﴿مَآءَكِ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان، دون المياه المعتادة فيها من العيون، والآبار، والأنهار، وعبَّر عنه بالماء، بعد ما عبَّر عنه بأمر الله، لأن المقام هنا مقام النقص والتقليل، لا مقام التفخيم والتهويل ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص وذهب في أغوار الأرض، قال الجوهري: غاض الماء إذا قلَّ، وتفسيره بالنقص مرويٌّ عن مجاهد ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُنجز الموعود من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت ستة أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ﴾ جبل بالموصل وقيل: بالشام، والمشهور الأول، روي أنه ركب السفينة عاشر

رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم وصار سنة ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم، يقال: بَعُدَ بُعْداً، وبعيداً: إذا بَعُد بحيث لا يُرجى عوده، ثم استعير للهلاك، وخُصَّ بدعاء السوء.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وقد ألَّف شيخنا علاء الدين رسالة في هذه الآية، جمع فيها بدائع، وأظهر من مزاياها الكثير[1].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وقد وعدتني إنجاءهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كل وعدٍ تعِدُه حقٌّ، لا يتطرق إليه الخُلفُ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، وهذا النداء منه يقطر منه الاستعطافُ، وجميلُ التوسل إلى من عهده منعماً ومتفضلاً، في شأنه أولاً وآخراً، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

---

(١) هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وقد اهتمَّ بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان في البحر المحيط ٥/٢٤٧ حيث قال طيَّب الله ثراه: «في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة بين قوله: ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿سماء﴾ المراد به مطر السماء والاستعارة في ﴿ابلعي﴾ والإشارة في قوله: ﴿وغيض الماء﴾ فهو إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل في قوله ﴿وقُضي الأمر﴾ عبَّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن، والاحتراس في ﴿بُعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة» ثم ذكر بقية الوجوه فارجع إليها في تفسيره البحر المحيط، وقد قال ابن المقفع وهو من أساطين الأدباء والفصحاء: أشهد أن مثل هذا الكلام لا يستطيع أن يأتي به بشر.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ولما كان دعاؤه بتذكير وعده مبنياً على كون كنعان من أهله، نفى تعالى أولاً كونه منهم، بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من أهل دينك، لأن مدار الأهل هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين المسلم والكافر، ثم علَّل عدم كونه منهم بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أصله إنه ذو عمل غير صالح، فحذف «ذو» للمبالغة، بجعله عين عمله للمداومة عليه، ثم لما كان دعاؤه مبنياً على كون «كنعان» من أهله، ونفى ذلك عنه وحقق ببيان علته، وهو أن عمله سيِّء غير صالح، فلهذا أعقبه بقوله ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ أي إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم، أصواب هو أم ليس بصواب؟ عُوتب عليه السلام بأنَّ مثله في معرض الإرشاد، لا ينبغي أن يشتبه عليه أمر ولده الكافر، فيطلب من ربه نجاته ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك، خشية أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه تذكير وتحذير، ولذلك استعاذ نوح عليه السلام بالله أن يطلب ما لا يحقُّ له، وأن يقع منه ما نُهي عنه، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي يا رب إني أعوذ بك أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ولا أنه صواب، وهذه توبة منه عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ أي وإن لم تغفر لي ما فَرَط مني من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بقبول توبتي، وبالفضل عليَّ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي أكون

خاسراً بسبب ذلك، فإن الذهول عن شكر الله تعالى، لا سيما عند وصول هذه النعمة، التي هي النجاة، وهلاك الأعداء، خسران مبين، وهذا التضرع منه مثل تضرع آدم عليه السلام، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾ أي قال الله سبحانه لنوح ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي انزل من السفينة سالماً من المكاره من جهتنا، وبسلام وتحية منا عليك، كما قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ في العالمين﴾ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك في نسلك، وما يقوم به معاشك، وهذا منه تعالى إعلامٌ وبشارة بقبول توبته، وخلاصه من الخسران ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتشعب الأمم منهم، فالناس كلهم من نسل نوح ومن هنا سمي نوح آدم الثاني، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وعن محمد القرظي قال: «دخل في ذلك السّلامِ والبركاتِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة»[2] وعن الحسن أنه قال: «ما زال الله تعالى يأخذ لنا بسهمنا، كلما هلكت أمةٌ خلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه، حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس»[3] وههنا لطيفة وهي أنه

---

(١) الأعراف، آية ٢٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١٢/ ٦٤.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن البصري.

قد تكرَّر في هذه الآية حرف واحد وهو الميم مرات[١]، مع غاية الخفة، ولم تكرر الراء مثله، في قوله:

وقبرُ حرب بمكان قفرُ   وليس قرب قبر حرب قبر

وهذا مع ما ترى فيه من غاية الثقل، وعسر النطق.

فللهِ تعالى شأن التنزيل ما أكثر لطائفه.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أي من بعض الأخبار الغيبية التي لم تشهدها ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ نوحيها إليك بواسطة الوحي، والغرضُ من ذكر كونها موحاة، هو لإلجاء قومه للتصديق بنبوته، وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ أي مجهولة عندك وعند قومك، من قبل إيحائنا إليك، وفي ذكرهم تنبيه على أنه ﷺ لم يتعلمه، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوه فكيف بواحد منهم؟ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على مشاقِّ الرسالة، وأذيَّة القوم كما صبر نوح ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما شاهدته في نوح عليه السلام، فهي تسلية للنبي ﷺ وتعليل للأمر بالصبر، فكأنه قيل: فاصبر فإن العاقبة للصابرين.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) تكررت الميم في هذه الآية خمس عشرة مرة، وبقيت في جمالها ورونقها من غير ثقل، وهذا سرٌّ من أسرار دقائق الإعجاز البياني.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿أرسَلْنَا﴾ في قصة نوح ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي واحداً منهم في النسب، كقولهم يا أخا العرب ﴿هُودًاۚ﴾ عطف بيان لأخاهم، هو هود عليه السلام أرسل إليهم منهم، ليكون ذلك أدعى إلى اتّباعه، والمراد استمالة قوم النبي ﷺ، لأنهم يستبعدون أن واحداً منهم، يكون رسولاً إليهم، فذكر الله أن هوداً كان واحداً من قومه عاد، وأن صالحاً كان واحداً من ثمود، لإزالة ذلك الاستبعاد ﴿ قَالَ﴾ هود ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ﴾ أي خصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم باتخاذكم الأصنام ﴿ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي تكذبون على الله تعالى، فليس له سبحانه نظير ولا شريك.

> ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي ما أجري ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ﴾ أي خلقني، فهو خالقي وهو رازقي، وإيراد اسم الموصول للتفخيم، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام غني عن أجرهم ومالهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي ألا تستعملون عقولكم، فتعرفوا المحقَّ من المبطل، والصواب من الخطأ؟.

> ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والعصيان ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإنابة ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يرسل المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نَـزَلَ السَّمَـاءُ بـأرضِ قَـوْمٍ رَعَيْنَـاه وإنْ كـانُـوا غِضَـابـاً

﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ كثير الدر، متتابعاً من غير إضرار، فمفعال للمبالغة ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾ منضمة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي مع قوتكم، وإنما رغَّبهم بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وثمار، وقيل حبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فوعدهم عليه السلام كثرة الأمطار على الإيمان والتوبة ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ أي مصرِّين على إجرامكم.

> ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي بحجةٍ تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي بتاركي عبادتها ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي لقولك اعبدوا الله وحده ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ إقناطٌ له من الإجابة والتصديق، وقد بالغوا في الإباء، فأنكروا الدليل، ثم قالوا مؤكدين لذلك ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ ثم كرروا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ مبالغة في الضلال.

> ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ﴾ أي ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، يُقال: عراه إذا أصابه ﴿بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ أرادوا به قاتلهم الله تعالى الجنون، أي أنه جُنَّ بسبب إصابة الأصنام له بالأذى، والتنكيرُ في ﴿بسوءٍ﴾ للتقليل، كأنهم لم يبالغوا في السوء، كما ينبيء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها، ومعنى هذا أنه أفسد عقلك، بعضُ آلهتنا لسبِّك إيَّاها، وصدِّك

عن عبادتها، وحطّك لها عن رتبة الألوهية ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام مجيباً لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ من هذه الأوثان والأصنام.

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ أي واشهدوا أنتم بأنني بريء مما أنتم تجعلونه شريكاً لله، وهو سبحانه لم يُنزل به سلطاناً، وقد أجاب عليه السلام بهذا على مقالتهم الشنيعة، المبنيَّة على اعتقاد كون آلهتهم تضرُّ وتنفع، وصرَّح بالحقِّ، وصَدَع به، حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدَّرة بـ ﴿إني﴾. وأكد ذلك بأُشهد الله، وأمرهم بأن يشهدوا أنفسهم به ثم أمرهم بالاجتماع مع آلهتهم جميعاً في إيصال الأذى إليه ونهاهم عن الانتظار والإمهال فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ إن صح كون آلهتكم مما تقدر على إضرار من يصد عن عبادتها، فإني بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي، ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجمّ الغفير، من العتاة الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقرهم وآلهتهم، وحثَّهم، وهيَّجهم على التصدّي لأسباب المعاداة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم ظهوراً بيناً، كيف لا وقد التجأ إلى ركنٍ منيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ أي لا أهابكم لاعتمادي على الله، والمعنى: إنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني، فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، ثم أقام البرهان بقوله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمةٍ تدبُّ على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي إلا هو مالك لها، قادر عليها، أن يصرّفها على ما يريد، والأخذ بالنواصي تمثيلٌ لذلك

والناصية منبتُ الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي عليه «ناصية» للمجاورة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع لآخر، قالوا ناصيةُ فلانٍ في يد فلان، أي إنه مطيع له منقاد إليه كالعبد الذليل، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مندرج في البرهان، وهو تمثيل لأنه تعالى مطلع على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم به، كمن وقف على الجادة، فحفظها ودفع ضرر قُطّاع الطريق عنها، فالمعنى إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ فإن تتولوا والمراد فإن تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فقد أديت ما عليَّ من الإبلاغ وإلزام الحجة، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وعيد لهم بأن الله يهلكهم، ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أي لا تضرونه بهلاككم شيئاً، لا ينقص ملكه، ولا يختل أمره ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب على كل شيء، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أمرنا بالعذاب، وهو الذي نزل فيهم من الريح العقيم، وهي السموم التي تدخل في مناخرهم، وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على الأرض، حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، عذَّبهم الله سبحانه بها سبع ليال، وثمانية أيام متتابعة ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾

وكانوا أربعة آلاف، ولا ينافي ما تقدم من أنه كان وحده، ولذا عُدَّت مواجهته للجم الغفير معجزة له، والظاهر أن ما كان من المقاولة، إنما هو في ابتداء الدعوة، ومجيء الأمر كان بعده بكثير، وإيمان من آمن كان في البين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ وهي الإيمان الذي أنعمنا به عليهم ورُوي هذا عن ابن عباس والحسن، والجار والمجرور متعلق بنجينا، وهو الظاهر الذي عليه كثير من المفسرين ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو السموم المذكور، والغليظ صفة الريح وهو ضد الرقة، وفيه مناسبة لحال الكفرة، فإنهم كانوا غلاظاً شداداً، روي أن هوداً لما أحسَّ العذاب، اعتزل بالمؤمنين في حظيرة، فكانت الريح تمر بهم ليّنةً باردة، والتي تمر تصيب القوم شديدة مهلكة، وهذه من معجزاته.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة، والخطاب لأمة الرسول ﷺ، كأنه قال: سيروا فانظروا إليها، والمقصود الحث على الاعتبار والاتعاظ بأحوالهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها، وهي الآيات التي أيد تعالى بها رسله، أو آيات وجوده وتوحيده في الأنفس والآفاق ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم اتفقوا على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ يعني كبرائهم الطاغين. قال الزجاج: الجبّارُ هو الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿عَنِيدٍ﴾ أي طاغ إذا ركب الخلاف والعصيان، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان، وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي جعلت اللعنة لازمة لهم، وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي أُتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة، حُذفت لدلالة الأولى عليها ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ كفروا نعمه ولم يشكروها بالإيمان ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع أنهم هالكون، تسجيلاً عليهم ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته الإيماء إلى استحقاقهم للبعد، بما جرى بينهم وبين هود.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي هو جل وعلا كوّنكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم من التراب، والنطف تتولد من الدم، وهي من الأغذية، وهي حاصلة من الأرض ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم مدة الحياة ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة، كقوله سبحانه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ دعاء المحتاجين بفضله.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾ فاضلاً خَيِّراً نقدّمك على جميعنا، ونأمل أن تكون سيداً مطاعاً ﴿ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الآلهة، فلما سمعنا هذا القول منك، انقطع رجاؤنا عنك ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأوثان على جهة التوعد ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي

﴿شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الشك والريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، وهذا مبالغة منهم في تزييف كلامه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ أي مالكي ومتولي أمري ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾ أي من جهته ﴿رَحْمَةً﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة، لكنها صُدِّرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين، لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ فمن ينجيني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي إن عصيت أمره في تبليغ الرسالة، والمنع عن الشرك به تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ أي لا تفيدونني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي، فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله، ولا تنالوها بأذى فيأخذكم عذاب عاجل، قريب النزول إن عقرتموها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي قتلوها ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا ﴿فِى

دَارِكُمْ﴾ في منازلكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء، والخميس، والجمعة، ثم يصحبكم العذاب فتهلكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أربعة آلاف ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بسببها ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من ذلة ذلك اليوم، وهو الهلاك بالصيحة، وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنها فضيحة باقية يعتبر بها الأجيال ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي خامدين ميتين لا يتحركون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ في دارهم ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ وضع موضع المضمر لزيادة البيان ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق تقبيحاً لحالهم، وتعليلاً لاستحقاقهم لقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي هلاكاً لهم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط، جاؤوا إلى إبراهيم بالبشارة، وإنما أسند المجيء دون الإرسال، لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه، بل إلى قوم لوط، وإنما جاؤوه لداعية البشرى ﴿ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ أي بالبشارة بالولد من سارة بإسحق، ويعقوب من بعده، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ أي سلَّمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ أي سَلام عليكم، وهو أكمل من السلام عليكم، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة، كأنه قال: سلام كاملٌ تام عليكم[1] ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فما أبطأ إبراهيم عليه السلام عن مجيئه بالطعام وهو عجل مشوي، قيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمسة عشر يوماً لا يأتيه ضيف، فاغتمَّ لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافاً على صورة الغلمان، في غاية الحسن والجمال، لم ير مثلهم، وكان من دأبه إكرام الضيف، ولذا عجَّل القِرَى، وهو العجل ولد البقرة، والحنيذ المشوي في أخدود، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يُحضر الإنسان للضيف أكثر مما يأكل، وهل كان مهيأ قبل مجيئهم، أو أنه هيىء بعد أن جاؤوا؟ قيل بالأول لدلالة السرعة بالإتيان، والظاهر أنه هيأه لهم بعد مجيئهم، لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي لا يمدُّون إليه أيديهم للأكل

---

(١) ردَّ التحية عليهم بأحسن من تحيتهم، لأنه جاء بها جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت والاستمرار.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكر ذلك منهم، وخاف أن يريدوا به مكروهاً، لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، ولم يأكل من طعامهم، ظنُّوا أنه لم يجىء بخيرٍ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي أحسَّ من جهتهم الخوف والفزع، أو أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ أي خوفاً ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فنحن ملائكة ربك، أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط المجرمين وما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف، بل بعد إظهاره لهم، كما في سورة الحِجْر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ ولم يُذكر ههنا اكتفاءً بذلك.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران وهي بنت عمه ﴿قَآئِمَةٌ﴾ وراء السِّتر، تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة وهو مرويٌّ عن مجاهد، وكانت نساؤهم لا تحتجب، لا سيَّما العجائز ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بهلاك أهل الفساد ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ أي عقَّبنا سرورها بسرور أتم منه، على ألسنة رسلنا، لأن النساء أعظم سروراً للولد من الرجال ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بشَّروها بإسحاق ولداً منها، ومن بعده مولود يسمى يعقوب، من ولدها إسحق، تعيش إلى أن تراه، وتوجيهُ البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم، لكونها كانت عقيمة حريصة على الولد، وكانت قد تمنته حينما وُلد لهاجر إسماعيل، وهي كانت محرومة الولد بسبب العقم والشيخوخة.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي يا عجبا ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؟ بنت تسع وتسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ أي زوجي ﴿شَيْخًا﴾ أي شيخ هرِمٌ ابن مائة وعشرين سنة؟

أي كيف ألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟ أنا امرأة عقيم مسنة، وزوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً، وإنما قدمت بيان حالها، لأنها أعجب وأغرب، إذ ربما يولد للشيوخ، وأما العجائز فداؤهنَّ العقام ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما ذكر من حصول الولد من هرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر غريب بالنسبة إلى سنة الله، المسلوكة بين عباده، ومقصدُها استعظام نعمةِ الله عليها في ضمن الاستعجاب، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، فإنها مؤمنة زوجة خليل الرحمن.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟ أي أتتعجبين من قدرته، وحكمته، وتكوينه؟ أنكروا عليها تعجبها لأنها ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ أي رحمكم الله برحمته الجليلة، التي وسعت كل شيء ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي خيراته النامية الدائمة ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي عليكم يا أهل بيت النبوة «بيت إبراهيم» عليه السلام، واستدل بالآية على دخول الزوجة في أهل البيت، واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ أي إنه سبحانه محمود ممجَّد، يفعل ما يستوجب الحمد من عباده، فعيل بمعنى مفعول أي محمود ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه بعرفانهم وسبب مجيئهم، والرَّوعُ: الفَزَعُ والخوفُ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد، وجواب لمَّا محذوفٌ تقديره أقْبَلَ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل

رسلنا في شأنهم، ومجادلته إياهم قوله ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ كما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وعُدَّ قولهُ مجادلة، لأن مآله كيف تُهلك قرية فيها من هو مؤمنٌ، غير مستحق للعذاب؟ ولذا أجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وكان لوط على شريعة إبراهيم، وقومُه مكلَّفون بها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ أي غير عجول على الانتقام، كثير التأسف على الناس، راجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والمقصود من ذلك، بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه، وفرط ترحمه، رجاء أن يدفع الله عنهم العذاب، ويُمهلوا لعلهم يُحدثون التوبة، فقالت الملائكة

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي أعرض عن هذا الجدال، فقد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب، فلا سبيل إلى دفعه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي لا يُرفع لا بجدال، ولا بدعاء، ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ودخلوا عليه في صُوَر غلمانٍ مُرْدٍ، حِسان الوجوه، فلذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم، لأنهم جاؤوا في صورة شبَّان، فظن أنهم من البشر، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه بسوء، فيعجز عن مدافعتهم، روي أنهم أتوا لوطاً نصف النهار، وهو يعمل في أرضٍ له، فاستضافوه فانطلق بهم، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما

أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شرُّ قرية في الأرض، فمضوا معه حتى دخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها، وقالت إن في بيت لوطٍ رجالاً، ما رأيت أحسن وجهاً، ولا أنظف ثياباً، ولا أطيب رائحة منهم، فأسرعوا نحوهم يطلبون الفجور بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقةً وجهداً، فالمعنى: ضاق صدره بمجيئهم خوفاً عليهم، وهو كناية عن شدة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه عنهم، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من عَصَبه إذا شدَّه أي يومٌ شديد الهول والمكروه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ أي لوطاً لما علموا بهم وهو في بيته مع أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون لطلب الفاحشة بالضيوف، كأن بعضهم يدفع بعضاً ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل وقت مجيئهم، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فاحشة اللواطة، جهروا بها، ولم يستحيوا منها، حتى جاؤوا مسرعين لها مجاهرين، والمراد من السيئات إتيان الذكور، إلا أنها جُمعت باعتبار تكررها، أو باعتبار فاعلها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدى بهنَّ أضيافه كرماً وحمية، والمعنى: هؤلاء بناتي تزوجوهن، وكانوا يطلبوهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، وقيل: المراد بالبنات نساؤهم، فإن كل نبي أبٌ لأمته، من حيث الشفقة والتربية، فكان كالأب لهن، وهذا القول هو الصحيح، وأشبه بالصواب[1] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تفضحوني ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي في أضيافي، فإنَّ إخزاء ضيف

(١) قال الحافظ ابن كثير: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، ا هـ.

الرجل إخزاءٌ له، والضيفُ مصدر، ولذا وُصف به المثنى والجمعُ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ أي أليس فيكم رجل عاقل، يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل القبيح!؟.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ معرضين عمَّا نصحهم به، من الأمر بتقوى الله، والنهي عن إخزائه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لا حاجة لنا ولا غرض في بناتك، وعَنَوْا به النكاح وقضاء الشهوة، أي لا رغبة لنا في نكاحهن، وإنما رغبتنا في نكاح الشبان ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يعنون اللواطة وإتيان الرجال، ولما يئس من ارعوائهم عما هم عليه من الغَيِّ والضلال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو قويتُ بنفسي على دفعكم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أي لفعلت بكم ما فعلتُ ﴿أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو أويتُ إلى ناصرٍ عزيز، أتمنع به عنكم، شبَّهه بركن الجبل في شدته، والركن في الأصل الناحيةُ من البيت أو الجبل، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «رحم اللهُ تعالى أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] يعني ﷺ به اللهَ عزَّ وجل، فإنه لا ركن أشد منه. وجاء في الخبر أنه سبحانه لم يبعث بعد لوط نبياً إلاَّ في مَنَعة من عشيرته، وروي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوَّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/٤١١ في الأنبياء، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان.

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ ﴾ بضرر ولا مكروه، ففتح لهم الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام وجوههم، فطمس بذلك أعينهم وأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[1] الآية ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ سريتُ الليلَ إذا قطعته، وأسريت لغة الحجاز، وقد جاء سرى وأسرى وهما بمعنى واحد، ولا يقال في النهار إلاَّ سار، والمعنى: سرْ ليلاً بأهلك ﴿ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ بطائفة من الليل والقطعةُ: الطائفة من الشيء والجمع القطع مثل سدرة وسدر ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه، وإنما نهوا عن ذلك، لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقُّوا لهم ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ ﴾ استثناء من قوله سبحانه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ ﴾ من العذاب فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴾؟ تأكيد للتعليل، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع، للتباعد عن موقع العذاب، وإنما جُعل ميقاتُ عذابهم الصبحُ، لأنه وقتُ الدَّعَة والراحة، فيكون حلول العذاب حينئذٍ أفظع وأنسب، بكونه عبرةً للناظرين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة القمر، آية: ٣٧.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي وقت عذابنا وموعده ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ضمير عاليها وسافلها لمدائن قوم لوط، المعلومة من السياق، وهي المؤتفكات وهي خمس مدائن، أعظمها سدوم وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام، روي أن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض، حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن فرفعها، ثم قلبها بمن فيها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب، الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع السليمة، وإسناد الجعل إلى الله تعالى إسنادٌ مجازي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، ويقوّي ذلك ضمير العظمة ﴿جَعَلۡنَا﴾ وعلى هذا الطراز قوله سبحانه ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ أي على المدائن وعلى أهلها المجرمين ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ﴾ من طين متحجر، لقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[1] ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي متتابع في النزول نُضِد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطر الأمطار.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة للعذاب باسم صاحبها باسم من يُرمى بها ﴿عِندَ رَبِّكَۖ﴾ في خزائنه التي لا يملكها غيره سبحانه، وعن مقاتل المعنى: أنها جاءت من عند ربك ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة الموصوفة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من كل ظالم ﴿بِبَعِيدٖ﴾ فإنهم بسبب الظلم مستحقون لها، وفيه وعيد لأهل الظلم كافة، وعن ابن عباس أن المعنى: وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم ببعيد، وذهب أبو حيان إلى أن المراد من الظالمين ظالمو مكة، وكانت قريبة إليهم يمرون عليها في أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]؟.

---

(١) أشار إلى قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾.

(٢) سورة الصافات آية ١٣٨.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ من النَّسب ﴿ شُعَيْبًا ﴾ عليه السلام معطوفة، على قوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً، ثم قال: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ ﴾ أي المكيل بالمكيال ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أي الموزون بالميزان، قدَّم أمر التوحيد، على النهي عما اعتادوه من البخس، المنافي للعدل، لأن أمر التوحيد مِلاكُ الأمر، والنقصُ على وجهين: أحدهما: أن يكون الإيفاء من قِبَلهم فينقصون من قدره، والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ بسَعَةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان[1] ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يَخْلصُ منه أحد منكم، والمراد به عذابُ الاستئصال، أو عذاب يوم القيامة، وتوصيف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب، تدلُّ على إحاطة كل ما فيه من العذاب، فهو أبلغ من إحاطة العذاب.

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ صرَّح بالأمر بالإيفاء،

---

(١) قال القرطبي ٨٥/٩: ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في سعةٍ من الرزق، وكثرةٍ من النِّعَم ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلكٍ، لا يُفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة.

بعد النهي عن ضده مبالغةً، وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكفُّ، بل يلزمهم السعيُ في الإيفاء بالقسط والعدل، والتسوية من غير زيادة ونقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن العثوَّ يعمُّ تنقيص الحقوق، وغيره من أنواع الفساد، والتصريح بهذا النهي بعدما عُلم في ضمن النهي، للاهتمام بشأنه، والترغيب لإيفاء الحقوق لأصحابها.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال، بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف، فإن ذلك هباءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خيراً، لأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة، اعتمدوا عليه، ورجعوا إليه، فيُفتح له بابُ الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة، انصرفوا عنه، فتضيق أبواب الرزق عليه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإن خيريتها مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مبلّغ، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟ من الأصنام، أجابوا بذلك لأنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وغرضهم منه إنكار الوحي، ولكنهم بالغوا في ذلك، وزعموا أن ذلك من الوسوسة والجنون، وقالوا بطريق الاستهزاء ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾

وقد كان عليه السلام كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلي، يتغامزون ويتضاحكون، وغرضُهم من ذلك التعريضُ بركاكة رأيه ـ وحاشاه ـ والاستهزاء به وبآرائه ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أي وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا؟ أجابوا به أمره بإيفاء الحقوق، وكلمة (أو) بمعنى الواو ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشاد؟ وهذا أسلوب تهكم وسخرية، كأنهم يقولون: ما أحلمك وأرشدك!! كقول خزنة النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[1] وكقول الساخر المتهكم بالبخيل الشحيح: لو أبصرك حاتم لتعلَّم منك الجود والكرم!!.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، ويقين ثابت، بما أعطاني اللهُ من النبوة والعلم ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من مالك أمري، قاله رداً على مقالتهم، في أنَّ أمره ونهيه غير مستند إلى سند ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي وأعطاني الله المالَ الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يسع لي مع هذا الإنعام أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ ولم يتعرض عليه السلام صريحاً لرد قولهم، المتضمن لرميه ـ وحاشاه ـ بالوسوسة، والجنون، والسفه، إيذاناً بأن ذلك مما لا يستحق جواباً، لظهور بطلانه ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بمنعي إياكم عما أنهاكم عنه، من البخس والتطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه، لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته، ولم أعرض عنه فضلاً عن

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

أن أنهى عنه، ﴿إِنۡ أُرِيدُ﴾ أي ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ أي إلاَّ أن أصلحكم، بأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي مقدار ما استطعته من الإصلاح، وفيه تنبيه على أن العاقل، يجب أن يراعي في كل ما يأتيه، أحد حقوق ثلاثة: أعلاها حقوق الله، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حقُّ الناس ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهداية الله ومعونته ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في حد ذاته، بل ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر، وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بكليته، وحسم أطماع الكفار، وإظهار عدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يُكسبنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ أي معاداتي أي لا يكسبنكم معاداتكم إياي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ من الرجفة والصيحة ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم، وإنما غيَّر أسلوب التحذير، ولم يصرح بما أصابهم، بل اكتفى بذكر قربهم، إيذاناً بأن ذلك مغنٍ عن ذكره لشهرته، ولمَّا أنذرهم عاقبة صنيعهم، عقبه بالحمل على الاستغفار، والتوبة طمعاً في ارعوائهم فقال:

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿وَدُودٞ﴾ أي يعامل باللطف والإحسان، والودودُ: البليغ المودة بمن يحبُّه، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، وحثٌّ عليهما، فمن كان رحيماً بالعباد، يحنو عليهم ويعطف، ويعاملهم باللطف والإحسان، وجب عليهم حبُّه وطاعته.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ أي ما نفهم ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد، والاعتماد على الله، والخوف من عذابه، قالوه استهزاءً بكلامه واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول؟ وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق، على أحسن وجه، وضاقت عليهم الحيل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً، سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاوة؛ كما هو دَيْدنُ المحجوج، فجعلوا كلامه المشتمل على الحِكَم والمواعظ، من قِبَل ما لا يُفهم، وإلاَّ فكيف لا يفهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، ثم هو خطيب الأنبياء[1]، كما ورد في الحديث الشريف ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ لا قوة لك فتمنع منا، إن أردنا بك سوءاً ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ قومك وعزتهم عندنا، ورهط الرجل: قبيلته الأقربون، والظاهر أن مرادهم لولا مراعاة جانب عشيرتك ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي ولست عندنا بمحترم ولا مكرّم، فتمنعنا عزتك عن الرجم، وإنما نكفُّ عن الرجم، للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير نقلاً عن الثوري ٢/ ٤٧٢ قال: كان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ في جوابهم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ أي أقومي أَهْيبُ عندكم من الله عزَّ وجل؟ أي أتتركوني لأجل قومي، ومراعاة لجانبهم، ولا تتركونني إعظاماً لجانب الربِّ تبارك وتعالى؟ وهو تكرير للتوبيخ والتقريع ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي جعلتموه، والضميرُ عائد إلى الله تعالى، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي جعلتم اللهَ كالمنسّي المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والاستهانة برسوله، لا تطيعونه ولا تعظِّمونه؟ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي بما تعملون من الأعمال السيئة، التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه تعالى، وهو تهديدٌ عظيم لأولئك الكفرة الفجرة.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ ولمّا رأى إصرارهم على الكفر، قال على طريق التهديد لهم: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على استطاعتكم ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وَصَفَ العذابَ بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه به من الرجم، فإنه مع كونه عذاباً فيه خزي وإهانة ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه والمراد القصد إلى الرد على القوم في العزم على تعذيبه، والتصميم على تكذيبه، فكأنه قيل: سيظهر لكم من المعذَّب أنتم أم نحن؟ ومن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم؟ ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ أي انتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي منتظر ما يحلُّ بكم من العذاب!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب بإهلاكهم، نجينا شعيباً والمؤمنين معه، بسبب رحمة عظيمة منا لهم، وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب، فأصبحوا هلكى خامدين لا حراك بهم، ألا بعداً لهم كما بعدت ثمود، والعدول عن الإضمار، ليكون أدل على طغيانهم، وليكون أنسب بمن شبَّه هلاكهم بهلاكهم، لأنهما أهلكتا بنوعٍ من العذاب وهو الصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدين كانت من فوقهم[1]، رواه الكلبي عن ابن عباس.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحات، وهي الآيات التسع ﴿ وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ هي العصا، والإفراد بالذكر، لإظهار شرفها، لكونها أبهرها وأشهرها.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ تخصيص الملأ بالذكر، مع عموم رسالة

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٧٤: ذكر تعالى في هذه الآية أنهم أتتهم الصيحة، وفي الأعراف الرجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقم كلُّها، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه. وهذه من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمِنَّة.

موسى عليه السلام للقوم كافة، لأصالتهم في تدبير الأمور، واتباع الغير لهم ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ فاتَّبعوا أمره بالكفر بموسى، وعصوا أمر الله ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي بذي رشد، وإنما هو غيٌّ محض، وضلالٌ صريح أي وما أمر فرعون بصالح حميد العاقبة.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾.

﴿يَقۡدُمُ﴾ كينصُرُ بمعنى يتقدّم ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ جميعاً من الملأ وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما كان قدوةً لهم في الضلال والإضلال، يتقدمهم إلى النار ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أي يوردهم، وإيثار صيغة الماضي، للدلالة على تحقق الوقوع، شبَّه فرعون بالفارط أي الوارد الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وأتباعه بالواردة، والنار بالماء الذي يردونه، ثم قال: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه، فإنه يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بالضدِّ، والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فإن هذه عاقبة من لم يكن في أمره رشد.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾.

﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ أي الملأ الذين اتَّبعوا أمر فرعون ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أيضاً يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ بئس العونُ المُعَانُ، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليمدَّه،[1]

---

(١) قال الزجّاجُ: كلُّ شيء جعلته عوناً لشيءٍ ومَدَداً له فقد رفدتَه، والمعنى: بئس العون المعان رفدهم وهو اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا مدَدٌ للعذاب ورِفدٌ له، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة، فكانت عوناً ومدداً. اهـ.

والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي رفدهم وهو اللعنة الدائمة في الدارين ويكون الرفد بمعنى العطية، كما يكون بمعنى العون، وفسره هنا غير واحد بالعطاء، وجاء تفسيره بالعون في صحيح البخاري، وتسميةُ اللعنة عَوْناً من باب الاستعارة التهكمية، وأما كونها معاناً، فلأنها أُرفدت في الآخرة بلعنةٍ أخرىٰ.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصَّ تعالى من أنباء الأمم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ المهلكة بما جنته أيدي أهلها ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك عنها بطريق الوحي ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي عامرٌ باق كالزرع القائم، ومنها خراب دمار مندثر كالزرع المحصود، شبَّه ما بقي منها آثاره كالحيطان بلا سقوف، بالزرع القائم، وما عفا ومُحي أثره وبطل، بالحصيد الذي قُطع ودُرِس.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بأن أهلكناهم ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم ﴿ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي حين مجيء عذابه ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي غير إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، والتَّتْبِيبُ: الإهلاكُ، وفي القاموس التَّبابُ، والتتييبُ: النقصُ والخسار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الأخذ الأليم، والإهلاك الشديد، الذي مرَّ بيانه عقاب ربك ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي إذا أهلك أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثرها إليها، ولتكون عبرة لكل ظالم ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حالٌ من القرى، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا لظلمهم، وإنذار كل ظالم، ظلم نفسه أو غيره، من وخامة العاقبة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يرجى منه الخلاص، وهو مبالغة في التهديد والتحذير، عن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلتْه، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية»[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في أخذه تعالى للأمم المهلكة أو قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لعبرةً وموعظة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعتبر بها العاقل لعلمه بأن ما حاق بهم، أنموذج مما أعدَّ الله للمجرمين، فإن من أنكر الآخرة، جعل تلك الوقائع لأسباب فلكية، لا لذنوب المهلكين ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القيامة وعذاب الآخرة، دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس للحساب والجزاء، والتعبير للدلالة على ثبات الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ مشهودٍ فيه، يشهده أهل السماوات والأرضين، لا يغيب عنه أحد، ولم يذكر المشهود تهويلاً وتعظيماً.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم الموعود بالجمع والشهود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، هي مدة انتهاء الدنيا.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٣٥٤ ومسلم رقم ٢٥٨٣ في البر والآداب والترمذي رقم ٣١٠٩ في التفسير.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ أي حين يأتي ذلك اليوم الموعود ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أي لا تتكلم نفس بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعة ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي إلاّ بإذن الله، كقوله تعالى: ﴿لاَيَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير لأهل الموقف، وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفسٌ﴾ ﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ أي سبقت لهم الشقاوة وهم الكفار الفُجّار ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ مستقرون فيها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفير إخراج النفس، والشهيق ردُّه، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه صراخهم بأصوات الحمير(١).

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لابثين فيها ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرضُ، والنصوصُ دالة على تأبيد دوامهم، والآية للتعبير عن التأبيد، والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه، على منهاج قول العرب ما لاح كوكب، وما اختلف الليل

---

(١) المراد تشبيه أصوات أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصوات منكرة ﴿إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ كذلك الأشقياء لهم أصوات منكرة في جهنم، يحصل منها الزفيرُ والشهيقُ، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

والنهار، وغير ذلك، وقيل المراد سماوات الجحيم وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، كما نطقت به الأخبار، وقيل: المعنى أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا زمان مشيئته تعالى لعدم قرارهم فيها، وفائدة الاستثناء دفع توهم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى، كما ذهب إليه المعتزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي إن ربك يا محمد يفعل ما يريد، من تخليد البعض كالكفار، وإخراج البعض كالفُسّاق، من غير اعتراض عليه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وجاءت صيغة فعَّال للمبالغة.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، ماكثون فيها على الدوام، ما دامت سماوات الجنة وأرض الجنة، حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تبارك وتعالى لهم الخلود والدوام، وأعدَّ لعباده المؤمنين الصالحين، من النعيم الروحاني، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال عقيبه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، فيعلم منه أن الاستثناء ليس للدلالة على الانقطاع، بل للدلالة على ترادف نعيم ورضوان من الله تعالى.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي هم

وآباؤهم سواء في الشرك والضلال، فهم على الباطل والتقليد الأعمى للآباء ومعنى ﴿كَمَا يَعْبُدُ﴾ كما كان يعبد، فحذف لدلالة ما قبله عليه، وفيه الإشارة إلى أن ذلك عادة مستمرة لهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ يعني هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه، وفي هذا من الإشارة إلى مزيد فضل الله وكرمه ما لا يخفى، حيث لم يقطع رزقهم مع ما هم فيه من عبادة غيره، وتفسيرُ النصيب بالعذاب مروي عن ابن زيد، وبالرزق عن أبي العالية، وعن ابن عباس ما قُدِّر لهم من خيرٍ أو شرٍّ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكدة من النصيب، أي وافياً كاملاً من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ في التوراة، وكونه من عند الله، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، كما اختلف هؤلاء في القرآن، فلا تبال باختلاف قومك فيه، واصبر على تكذيبهم كما صبر موسى على تكذيب قومه، حتى يأتي وعد الله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة القضاء بإنظارهم إلى الأجل المعلوم، على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطلون من العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي وإن كفار قومك ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الريبة، لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف، أي وإن كل المختلفين فيه، المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أجزية أعمالهم خيراً أو شراً، ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واقعة في جواب القسم، أي والله

ليوفينهم، وفيها أنواع التأكيدات ١ ـ (إنَّ) ٢ ـ (كُلًّا) ٣ ـ (اللام) الداخلة على خبر إنَّ ٤ ـ حرف (ما) ٥ ـ (القسم المضمر) ٦ ـ (اللام) الداخلة على جواب القسم ٧ ـ (نون التأكيد) وذلك للمبالغة في وعد الطائعين، ووعيد العاصين، ثم أردفه بقوله عز وجل ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي بما يعملونه من الخير والشر ﴿خَبِيرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء.

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾.

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لمَّا بيَّن المختلفين في التوحيد والنبوة، أمر رسوله ﷺ بالاستقامة وهذا أمر للتأكيد، لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة ولم يزل عليها، وهو كقولك للقائم: قم حتى آتيك، أي دم على ما أنت عليه، وهي شاملة للاستقامة في العقائد، والأعمال، ومحاسن الأخلاق، قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشدُّ من هذه الآية، ولا أشقُّ، ولهذا قال ﷺ: «شيَّبتني هودٌ وأخواتها» وفي رواية أخرى «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات»[(١)] ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن تاب من الشرك، وآمن معك من المؤمنين الصادقين ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ أي لا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط، أو تفريط، سمي طغياناً وهو مجاوزة الحد، تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازيكم على ذلك، وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحرافٍ بمجرد الرأي، وإعمال العقل الصرف، فإن ذلك طغيان وضلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير وحسَّنه ٥/ ٣٧٥ رقم ٣٢٩٧، ورواه الحاكم وصححه عن ابن عباس، ولفظُ الترمذي قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله قد شِبْتَ!!، قال شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، ﴿وعمَّ يتساءلون﴾ و ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾!!».

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ أي ولا تميلوا أدنى ميل، فإنَّ الركونَ: الميل اليسير، كالتَّزيِّيْ بزيّهم، وتعظيم ذكرهم، ومجالستهم من غير داعٍ شرعي، والقيام لهم ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ والمراد بهم المشركون كما روي عن ابن عباس ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه اليسير من الظلم، موجباً لدخول نار السعير، فما ظنُّك بالركون إلى الظالمين، ثم بالميل إليهم كل الميل، ويبتهج بالتزيِّي بزِيّهم، والمشاركة لهم في غيهم، ويمدُّ عينيه إلى ما مُتِّعوا به من زهرة الدنيا؟ وينبغي أن يُعدَّ ذلك من الذين ظلموا، لا من الراكنين إليهم، بناءً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان: إني أخيط للظلمة فهل أعدُّ من أعوانهم؟ فقال له: بل أنت منهم، والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم!! وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين، حيث جاء في نصيحته قوله: «عافانا الله تعالى وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالى، أصبحتَ شيخا كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله تعالى، فهّمك أسرار كتابه، وعلّمك من سنة رسوله ﷺ واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخفَّ ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهّلت سبيل الغي، اتّخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرُون عليك إلى بلائهم، وسُلَّماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك، من جنب ما خربوا عليك، فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام»[1] ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ من

---

(١) الإمام الزهري من كبار المحدّثين، وهو على جانب عظيم من الاستقامة والورع، وكان يدخل على الأمراء والسلاطين، فينصحهم ويعظهم ولا يهاب أحداً منهم، ومع =

أنصار يمنعون العذاب عنكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ من جهته سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذِّبكم بركونكم إليهم.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي المكتوبة ﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ غُدْوة وعَشيَّة، والمراد بصلاة الغدوة صلاة الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال العشي ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، الزُّلْفةُ: القربة، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يكفِّرنها ويمنعن من اقترافها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقيل: يمحُونَها من دفتر الأعمال، ويشهد له بعض الآثار، والمراد من الحسنات ما يعمُّ الصلاة المفروضة وغيرها من الطاعات والمراد من السيئات عند الأكثر الصغائر، لأن الكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مكفراتٌ لما بينهنَّ ـ أي من الصغائر ـ إذا اجتنبت الكبائر»[1] اختلف العلماء في أمر تكفير الصغائر بالعبادات، هل هو مشروط باجتناب الكبائر على قولين؟ أحدهما: نعم، وهو ظاهر قوله ﷺ، وإليه ذهب الجمهور، وقال بعضهم: لا يُشترط، والشرطُ في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير مكفراتٌ لما بينهنَّ إلا الكبائر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الاستقامة ﴿فاستقم كما أمرت﴾

= ذلك فقد خاف عليه بعض أحبائه، فنصحه بتلك النصيحة الغالية، التي تفيض بالرهبة والخوف عليه من الركون إلى الأمراء والسلاطين، فكيف نقول ببعض علماء عصرنا الذين انخرطوا مع الظلمة إلى الأذقان، أجارنا الله من فتنة السلطان!!.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٣٣ والترمذي رقم ٢١٤ في كتاب الصلاة.

﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي عظة للمتعظين، وخصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها، دون غيرهم من عُمْي القلوب.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مشاق ما أمرت به، وهو الصبر على طاعة الله تعالى والانتهاء عن محارمه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدل عن المضمر، ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلاً على أن الصبر والصلاة إحسان، ولا يعتدُّ بهما دون الإخلاص، ومعنى الآية: يوفيهم أجرهم من غير بخس، وهو تعليل للأمر بالصبر، وفسَّر مقاتل الإحسان بالإخلاص، وعن ابن عباس المحسنون المصلُّون، وكأنه نظر إلى سياق الكلام، ومن الأسرار العجيبة في البلاغة القرآنية، أن الأوامر بأفعال الخير، أُفردت للنبي ﷺ كقوله: ﴿وأقِم الصلاة﴾ ﴿ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكمةِ﴾ وإن كانت عامة في المعنى، والمناهي جُمعت للأمة كقوله سبحانه ﴿وَلاَ تَركَنُوا إلى الَّذينَ ظَلَمُوا﴾ وقوله ﴿وَلاَ تَطْغَوا﴾ وما أعظم شأن الرسول ﷺ عند ربه جلَّ جلاله، حيث دفع عنه ما يوهم البغي والطغيان!!.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفجع أي فهلاَّ كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ التي أهلكناهم ﴿أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، وذوو فضل، يقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم، ومنه قولهم «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا» ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الواقع فيما بينهم من الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم، لكونهم ينهون عن

الفساد ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي ما نُعِّموا فيه من الشهوات، وجمع الثروات، والرياسة، وسائر أسباب العيش، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصل الترف التوسع في النعمة، وقيل: ﴿أُتۡرِفُوا۟﴾ أي طغوا، من أترفتهم النعمة ﴿وَكَانُوا۟ مُجۡرِمِينَ﴾ أي مصرّين على الإجرام، وهو بيان لبيان استئصال الأمم المهلكة، وهو فشوُّ الظلم، واتباع الهوى، وترك النهي عن القبائح والمنكرات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي ما صحَّ وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى التي أهلكها ﴿بِظُلۡمٍ﴾ التنكيرُ للتفخيم، وللإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية، بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه، وإلا فلا ظلم فيما فعله الله بعباده كائناً ما كان، لما تقرر من قاعدة أهل السنة (يفعل ما يشاء) و (يحكم ما يريد) ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ الباءُ للسببية أي لا يهلك الله القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون، أي يتعاطون الحق فيما بينهم وذلك لفرط رحمته، ومسامحته في حقوقه تعالى، وهذه الآية وما في معناها، من قواعد علم الاجتماع البشري، وهو العلم بسُنَنِ اللهِ عز وجل، في قوّة الأمم وضعفها، وبدأ ابن خلدون فجعله عِلماً مدوَّناً، ولكنْ استفاد غيرُ المسلمين مما كتبه في ذلك، ووسَّعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين، الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العظيم، في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم، ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية، على شدة حاجتهم إليها، بعضهم يعزّي نفسه عن ضعف أمته، ويعتذر عن تقصيرها بالقدَر، ويسليها بأن هذا من علامات السَّاعة، وارتكس بعضُهم في حمأة جهله بالإسلام، حتى ارتدُّوا سراً أو جهراً، زاعمين أن تعاليمه

هي التي أضعفتهم، والتمسوا هدايةً غير هدايته، ليقيموا بها دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسرانُ المبين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ أي مسلمين كلهم، مجتمعين على الحق عن اختيار، بحيث لا يكاد يختلف فيه، ولكن لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي إلاَّ أناساً هداهم الله تعالى من فضله، فاتفقوا على أصول الدين الحق، ولم يختلفوا فيه كالمسلمين أئمة أهل الحق والهدى ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ الإشارة كما روي عن الحسن وعطاء إلى المصدر المفهوم من مختلفين، كأنه قيل: وللاختلاف خلق الناس، فحاصل المعنى: أن الله سبحانه خلق أهل الحقّ، وجعلهم متفقين، وخلق أهل الباطل، وجعلهم مختلفين ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ نَفذ قضاؤه، وورد وعيده بأن يملأ جهنم من الجنِّ والإنس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي من عصاتهما والكفرة، والجِنَّةُ والجنُّ بمعنى واحد، والآية تقتضي بظاهرها دخول جميع الفريقين في جهنم، والمعلوم من الآيات والإخبار خلافه، فالمراد عصاتهما بالقرينة الشرعية والعقلية، لما عُلم من الشرع أنَّ العذاب مخصوص بهم، ولذا قيل: المرادُ من الجِنة والناس: أتباعُ إبليس، لقوله سبحانه في سورة صَ: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والقرآن الكريم يُفسِّر بعضُه بعضاً.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَكُلًّا ﴾ أي وكل نبأ فالتنوين للتعويض عن المضاف إليه ﴿ نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك به ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي من أخبار الرسل السابقين مع أممهم ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ أي ما نشدُّ به قلبك حتى يزيد يقينك، وفائدته التنبيهُ على المقصود من قصص المرسلين، وهو لزيادة يقينه ﷺ، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار، بالوقوف على أحوال الأمم السالفة، في تماديهم في الضلال، وما لقي الرسلُ من جهتهم، من مكابدة المشاق، ولهذا يقال: المصيبةُ إذا عَمَّتْ خفَّتْ ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ﴾ الأنباء المقتصة عليك ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الثابت المطابق للواقع، والخبر الصادق ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما هو عظة وعبرة للمؤمنين الصادقين، وخص المؤمنين بالذكر، لأنهم المنتفعون بمواعظ القرآن، وأما الكفار فكالبهائم والأنعام.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على طريقتكم ومنهجكم في عدم الإيمان ﴿ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴾ على حالنا ومنهجنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكر بآياته ومواعظه.

﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة، فالأمرُ وعيدٌ وتهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ فيرجع أمرك وأمرهم إليه لا محالة ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك، وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل، تنبيه على أنه لا ينفع دونها، أي امتثل ما أُمرت به، ودم على العبادة، وتبليغ الدعوة، وتوكل عليه في ذلك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي أنت وهم، فيجازي كلاً من الفريقين بما يستحقه، من الثواب أو العقاب، والله تعالى وليُّ التوفيق لا ربَّ غيره، ولا يرجى إلاَّ خيره، ونسأله سبحانه أن ييسر لنا إتمام ما قصدناه، ويوفقنا لفهم معاني كلامه، على ما يحب ويرضاه، والحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه، وجنده وحزبه.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

* * *

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

سورة يوسف عليه السلام وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية. سبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصتَ علينا فنزلت، وقيل: هو تسليةُ الرسول عما يفعله به قومه، بما فعلت إخوة يوسف، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب المعجز ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾؛ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملكوت.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي الكتاب المنعوت بهذه الأوصاف الجليلة ﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية

التي تعرفونها وتنطقون بها، واستدل جماعة منهم الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، بأن وصف القرآن بكونه عربياً، على أنه لا معرَّب فيه، وقالوا: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، وقال غيرهم: كان للعرب بعض مخالطة، لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحدِّ نزل القرآن، فأصولها وإن كانت أعجمية، لكنها اختلطت بكلام العرب فصارت عربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع، فتعلموا على أنه خارج عن طوق البشر.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي قصصاً هي أحسن القصص، والمراد مضمون هذه السورة، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حال حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجدب، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وذل وعز، وقد أفادت أن لا دافع لقضاء الله تعالى من قدره، وأن الحسد سبب الخذلان، وأن الصبر مفتاح الفرج وفيه مع بيان الواقع، إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من الخلل، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في التوراة مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي هذا القرآن المعجز، الذي من ضمنه هذه السورة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي عن هذه القصة، لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك، وهو تعليل لكونه موحى.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ شروع في القصة، ويوسف اسم عبري هو ابن يعقوب، وجده الأعلى إبراهيم، أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»[1] وقد اجتمع في يوسف مع ما ذكر من النبوة، حسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسة الدنيا، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ أصله يا أبي حذفت الياء فعوض عن الياء تاء التأنيث، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولذلك لا يجتمعان ولا يقال يا أبتي ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ أي في المنام، من الرؤيا لا من الرؤية لقوله تعالى: ﴿لا تقصص رؤياك﴾ فالرؤيا في المنام، والرؤية بالعين، والرأيُ بالقلب ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ قيل الشمس والقمر أبواه والكواكب أخوته، وتخصيص الشمس والقمر لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ استئناف كأن سائلاً قال: كيف رأيتهم فأجاب بذلك، وإنما أجري مجرى العقلاء في الضمير، لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود، وعبرت الشمس بأبيه، والقمر بأمه، روي ذلك عن قتادة.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب، ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ صغَّره للشفقة لصغر سنه، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٦١.

تعالى مبلغاً جليلاً، وينعم عليه بشرف الدارين، خاف عليه حسد الإخوة، فقال له صيانة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ وحقيقتها أن الله سبحانه، يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات، عَلَماً على أمور أخر، يخلقها في ثاني الحال، وقيل: هي أحاديث المَلَك الموكَّل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسةُ الشيطانِ والنفسِ إن كانت كاذبة، ونُسب هذا إلى المحدثين، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها، فإنها من الله تعالى، فليحمد الله، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من شرِّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»[1] ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الذين يخشى غوائلهم، يريد إخوته من أبيه، أما «بنيامين» الذي هو شقيق يوسف، فليس بداخل تحت هذا النهي ﴿فَيَكِيدُوا۟﴾ أي فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ فيحتالوا لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متيناً لا تقدر على ردِّه، ولا تستطيع دفعه، وليس ذلك من الغيبة المحظورة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك، وحملهم على ما لا خير فيه، من إثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد، والذي عليه الأكثر سَلَفاً وخلفاً، أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً. وذكر ابن تيمية أنّ الذي يدل عليه القرآن، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا عن أحد من الصحابة خبرٌ بأنَّ الله نبَّأهم، ولمَّا نبَّهه على أن لرؤياه شأناً عظيماً، وحذَّره مما حذَّره، شرع في تعبيرها على وجه إجمالي، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ١٢/٣٦٩ والترمذي رقم ٣٤٤٩.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك وعلى وقفه ﴿ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك لجناب كبريائه، ويصطفيك للنعمة والملك، ومراده عليه السلام إطاعة أبويه وإخوته له، لكنه لم يصرح به حذراً من إذاعته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ وهو يعلمك ﴿ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ تعبير الرؤيا إذ هي إخبارات غيبية يخلقها الله تعالى في قلب النائم، أو أحاديث المَلك، إن كانت صادقة، أو النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف من تعبير الرؤيا، وإنما عرف يعقوب ذلك بطريق الفراسة ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ بأن يضم النبوة إلى الملك، ويجعله تتمة لها، وفي تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه الرؤيا المبشّرة الدالة على سجود إخوتك لك، يكرمك بالنبوة والعلم، الذي تعرف به أمثال ما رأيت، وإتمام نعمته عليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم، إتمام النعمة على يوسف بالنبوة وعلى آل يعقوب باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾ التعبير عنهما بالأب مع كونهما من أجداده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام، وإتمامُ النعمة لإبراهيم بالنبوة، وباتخاذه خليلاً، وبإنجائه من النار وعلى إسحق بالنبوة كذلك، وبإخراج يعقوب من صلبه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يفعل ما ذُكر لأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء، فيعلم من يستحق الاجتباء، كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فاعل لكل شيء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل على سنن علمه وحكمته.

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ﴾ أي في قصتهم ﴿ ءَايَٰتٞ ﴾ أي علاماتٌ دالة على قدرته تعالى وحكمته ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل قصتهم أو للطالبين للآيات المعتبرين بها.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقه «بنيامين» ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ وإنما قالوا هذا حسداً منهم ليوسف، لمَّا رأوا ميل يعقوب إليه، وكثرة شفقته عليه، ولم يُثَنَّ مع أن المخبر عنه به اثنان، لأن أفعل التفضيل لا يُفرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر وما يقابله، وجيء بلام الابتداء، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده، أي كثرةُ حبّه لهما، أمرٌ ثابتٌ لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أنّا جماعة، قادرون على الحل والعقد، أحقَّاء بالمحبة من الصغيرين، والعصبة والعِصَابةُ: العشرةُ فما زاد، سُمُّوا بذلك لأن الأمور تتعصّب بهم أي تُشدُّ فتقوى ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما ﴿ لَفِى ضَلَـٰلٍ ﴾ أي خطأ في الرأي[1]، وذهاب عن طريق العدل ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر الحال واضح، وإنما أحبه عليه السلام أكثر منهم، لما رأى عليه من مخايل الخير ما لم يرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا، ولا لوم على الوالد، في تفضيله بعض ولده على بعضٍ في المحبة، لمثل ذلك، وأن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطيء ويصيب.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) لم يريدوا الضلال في الدين، الذي يقابل الهدى والإيمان، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ واضح لإيثاره يوسف وأخاه عليهم في المحبة، فتنبه والله يرعاك.

﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ قال بعضهم مخاطباً للباقين: اقتلوا يوسف، ويُروى أن القائل شمعون، والباقون كانوا راضين ﴿ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾ التنكير للإبهام، أي أرضاً مجهولةً بعيدة عن العمران ﴿ يَخۡلُ ﴾ يخلص ﴿ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ﴾ فيقبل عليكم بكليته، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ من بعد قتله وطرحه ﴿ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ بالتوبة عما جنيتم به من الذنب.

﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ ﴾.

﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ وإنما لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه، ستراً على المسيء، وكلٌّ منهم لم يخل عن الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها، أظهره في مقام الإضمار، استجلاباً لشفقتهم عليه، واستعظاماً لقتله ﴿ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ أي في قعره وغوره، وغيابة الجب: قعره ﴿ يَلۡتَقِطۡهُ ﴾ يأخذه ﴿ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي بعض الذين يسيرون في الأرض، قال الهروي: الغيابة في الجب شبه كهف في البئر فوق الماء، يغيب ما فيه عن العيون ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ بمشورتي لم يبتّ القول تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ﴾ خاطبوه بذلك تذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه، في حفظه منهم، حين أحسَّ منهم بأمارات الحسد ﴿ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لك ﴿ لَا تَأۡمَ۬نَّا ﴾؟ أي لا تجعلنا أمناء ﴿ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا ﴿ وَإِنَّا

﴿لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُّ بذلك، والاستفهامُ «بِمَالَكَ» فيه معنى التعجب، والكلام ظاهر في أنه تقدم منهم سؤال أن يخرج يوسف معهم، فلم يرض أبوهم بذلك.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ، قال الراغب: إن الرتع حقيقةٌ في أكل البهائم، ويُستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما، وإنما قالوا ذلك، لتحقيق ما راموا من استصحاب يوسف، بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه، أكّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد، من إيراد الجملة اسمية، وتحليتها بإنَّ واللام، وإسناد الحفظ لكلِّهم وتقديم «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ قَالَ﴾ يعقوب ﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يحزنني ذهابكم به لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه، ومع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وقد لقَّنهم العلة، وكما قيل: «إن البلاء موكَّل بالمنطق»[1] ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) هذا من الأمثال العربية المشهورة، يعني أن نطق الإنسان يكون سبباً لوقوعه في المصيبة والكرب فكأن يعقوب عليه السلام لقَّنهم حجة في الكيد ليوسف.

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنّا جماعةٌ أقوياء أشداء، جديرة بأن تعصَّب بنا الأمور العظام ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ أي لهالكون ضعفاً، مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار، وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب، لأنه هو السبب القوي في المنع وكانوا يشوّقون يوسف لأن يذهب معهم، فرجا هو أيضاً أباه ليذهب معهم، وقد كان يعقوب يحب تطييب قلب يوسف، فاغترَّ بقولهم وأرسله معهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ ﴾ أي عزموا عزماً مصمماً على ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هي بئر بين مصر ومدين فأتوا إلى البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لما عزموا تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه فدلوه فيها ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلمناه عند ذلك، تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وإزالةً لوحشته، وتسليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي لتتخلصنَّ مما أنت فيه من سوء الحال، ولتحدثنَّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حالك هذا، وحالك يومئذ، بعلو شأنك، وكبرياء سلطانك.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً ﴾ آخر النهار، من بعد صلاة المغرب إلى العشاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين بالكذب، يذرفون الدموع الكاذبة[1]، ولمَّا سمع بكاءهم فزع يعقوب، وقال: ما لكم يا بَنِيَّ وأين يوسف؟.

---

(١) هذه دموع التماسيح، دبَّروا مكيدة لأخيهم يوسف المسكين، ثم جاؤوا في المساء يذرفون عليه الدموع، وهي دموع كاذبة، واختاروا المساء لأن الليل أخفى للويل كما =

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ ﴾ أي متسابقين في العدو والرمي ﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي ما نتمتع من الثياب والأزواد وغيرهما مما يلزم للرعاة ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾ أي فافترسه الذئب، عقيب ذلك، فكأنهم قالوا: لم نقتصر في المحافظة عليه، بل تركناه في مأمن عند متاعنا، وما فارقناه إلاَّ ساعة يسيرة، فكان ما كان ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ بمصدِّق لنا في هذه المقالة، الدالة على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي ولو كنا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لاتهامنا في يوسف لشدة محبتك إياه.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ ﴾ أي جاؤوا فوق قميصه بدم ﴿ كَذِبٖۚ ﴾ أي كاذب، وُصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب. والمعنى: أتوا بدم كذب فوق قميصه، وكان ذلك الدم دم سخلة ذبحوها، ولطخوا بدمها القميص، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أنهم أخذوا ظبيةً فذبحوها، فلطخوا بدمه القميص، ولما جاؤوا به ألقاه على وجهه وبكى، وقال: تالله ما رأيتُ كاليوم ذئباً أرحم من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه

= يقال في الأمثال، روي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح القاضي فجاءت تبكي بدموع سخية، فقال الشعبي: أما تراها يا أبا أمية تبكي؟ فقال له شُريح: لقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون وهم ظلمة كَذَبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحقِّ، ولا يتأثر ببكاء الباكين!!.

قميصه!! فلما علم كذبهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي زينت وسهَّلت لكم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً، لا يوصف ولا يُعرف، وأصل التسويل كما قال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن، وفي الكلام حذفٌ أي لم يأكله الذئبُ، بل سوَّلت وزيَّنتْ الخ، وعِلمُه بكذبهم حصل من سلامة القميص، وإنما حزن لما خشي عليه من المكروه، والشدائد غير الموت، وقيل إنما حزن لفراقه وفراقُ الأحبة مما لا يُطاق ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون على الصبر على هذه المصيبة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الوصف ذكر الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك، والصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر، فما لم تحصل إعانة الله تعالى، لم تحصل الغلبة، فإن قيل: لمَّا ظهر له كذبُهم، فلماذا صبر، ولم يبالغ في التفتيش؟ أجيب: إمَّا مَنَعه سبحانه عن التفتيش تشديداً للمحنة، وإمَّا عرف بالقرائن أنه لو بالغ في البحث لأقدموا على إيذائه وقتله، فلمَّا وقع في هذه البلية، رأى أن الأصوب الصبر والسكوت، وتفويض الأمر بالكلية إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ التعبير بالمجيء، وإيثاره على المرور والإتيان ونحوهما، إيماء كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.

رفقة مسافرون يَسيرون من جهة مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجبِّ، وكان في طريق سيرهم المعتاد، وقيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران، فأخطؤوا الطريق فأصابوه ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستسقي لهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسلها في الجب ليملأها، وفي الكلام حذفٌ، أي فأدلى دلوه فتعلَّق بها يوسف فخرج ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ نادى البشرى بشارةً لنفسه ورفقته، كأنه نادى البشرى وقال تعالَي فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة عظيمة، والتنوين في غلام للتفخيم لأنه كان من أحسن الغلمان، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الناس، ليبيعوه بمصر متاعاً كالبضاعة وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يدلُّ على أن المراد أنهم أخفوه لأجل البضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد وأصحابه، لا بأخوة يوسف كما زعمه البعضُ ﴿بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه بضاعة أي متاعاً للتجارة، والبضاعة قطعة من المال تعدُّ للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه إسرارهم، وصرَّح غير واحد أن هذا وعيد لأخوة يوسف، على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجعلهم عرضة للابتلاء والابتذال، بالبيع والشراء، حين احتاجوا إلى السفر لمصر من أجل الميرة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ الضمير المرفوع للسيَّارة، بمعنى باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي نقص، وهو مصدر أُريد به اسم المفعول، أي منقوص، وقيل: حرام لأنه ثمن الحر ﴿دَرَٰهِمَ﴾ أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وكنَّى بالعدِّ عن القلة، قيل كانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُواْ﴾ أي البائعون ﴿فِيهِ﴾ في بيع يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي فيه، يُقال: زَهِد في الشيء زهداً وزهادَةً تركه، وأعرض عنه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس، والذي اشتراه العزيز كان على خزائن مصر واسمه «قطفير» ﴿ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ راعيل وهو المروي عن مجاهد، وقال السدي: زليخا وقيل اسمها راعيل ولقبها زليخا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً، وأحسني تعهده. يُقال: ثوى بالمكان أقام فيه، والمثوى: المنزلُ، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ أي لعله يكفينا بعض المهمات في ضياعنا وأموالنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أي نتبناه، وكان العزيز عقيماً، وتفرَّس في يوسف مخايل الرشد والنجابة، فأراد أن يقيمه مقام الولد، قال ابن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها «يا أبت استأجره» وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما» ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه أي أثبته فيه، ومكَّن له فيه أي جعل له مكاناً فيه، ويستعمل كل منهما في مقام الآخر، والمراد بالمكان هنا المكانة، والمعنى: كما جعلنا له فيها مثوى كريماً، جعلنا له مكانةً عاليةً في قلب العزيز، حتى أَمَر امرأته بالإحسان إليه، أو جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ لا يردُّه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كلَّه لله، وبيده لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعلم ﴿ وَعِلْمًا ﴾ أي علم تأويل الأحاديث، وفسر بعضهم الحكمة بالنبوة، والعلم بالتفقه في الدين، وقيل: أراد بالحكمة الحكم بين الناس، وبالعلم العلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، قال الحسن: من أحسنَ عبادة الله سبحانه في شبابه، آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمر امراته بإكرام مثواه، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر، أن مالقيه من الفتن والمحن، له غاية جميلة، وأنه محسن في جميع أعماله، لم يصدر منه في حالتي السراء والضراء ما يخلُّ بنزاهته، والمراودةُ: المطالبةُ برفق، من رَادَ يَرُودُ: إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ، وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين، الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وقد كانت صادرة من أحد الجانبين، لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جعلت كأنها صادرة عنهما، لأن سبب الشيء يقوم مقامه، فكان جماله عليه السلام سبباً

لمراودتها له، ثم كونها في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحد: ما حَمَلك على ما أنت مما لا خير فيه؟ قال: قُربُ الوِساد، وطول السَّواد ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها، والعدولُ عن التصريح باسمها، للمحافظة على السرِّ، وللاستهجان بذكرها، وإضافة البيت إليها ﴿التي هو في بيتها﴾ لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهن القائمات بمصالحه، أو الملازمات له ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعة، ولذلك جاء الفعلُ بصيغة التفعيل، وقيل: للمبالغة في الإيثاق ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي أقبِلْ وبادِرْ، فقد تهيأتُ لك، وقال الكسائي: تعال، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً، مما تدعيني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى أنه منكر، يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لأنه قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير، ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي هو ربي، أي سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز، بألطف وجه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع والمراد بالظالمين كل من ظلم، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ بمخالطته، أي قصدتها عزماً جازماً، بعدما باشرت مباديها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها بطريق القسر، ولعلها قصدت أفعالاً أخر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب، ميلاً جبليّاً لا يكاد يدخل

تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، لأنه بريء من ارتكاب الفاحشة، وكذلك بريء من الهمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهمِّ، لمجرد وقوعه في صحبة همِّها، بالذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تباينهما حيث لم يقترنا بلفظ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو همَّ كل واحد منهما بالآخر، وصُدِّر الأول بما يقرِّر وجوده من التوكيد القسمي ﴿وَلَقَدْ﴾ وعقَّب الثاني بما يعفو أثره، من قوله عز وجل ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، وقيل، التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، لكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ[1]، وما ذكره البعض من أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه، زالت الشهوة عنه، أو أنه حلَّ الهميان يريد فعل الفاحشة، ورووا روايات شتى، كلُّها من الأباطيل، تردُّها العقول، ويل لمن لاكها أو سمعها وصدَّقها.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: لو كان همُّه كهمِّها لما مدحه الله، بأنه من عباده المخلصين، ولأنه لو وجد منه أدنى ميل لذُكرت توبته، كما كان لآدم، ونوح، وذي النون، وداود عليهم السلام، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام، وجاهد مجاهدة أولي العزم، ذاكراً دلائل التحريم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبصير، ومثل ذلك التثبت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ

---

(١) إلى هذا القول ذهب أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ٥/ ٢٩٥ حيث قال ما نصُّه: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفُسَّاق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفتَ الذنب لولا أن عصمك الله، وكقول العرب: أنت ظالم إن فعلت هذا، وتقديره: إن فعلت هذا فأنت ظالم، كذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ» اهـ أقول: وهذا هو الحق، وقد أشبعنا البحث تحقيقاً في كتابنا «صفوة التفاسير» وفي كتابنا «قبس من نور القرآن».

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد، ومقدمات الزنا، من المسِّ بشهوة، والقُبلة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي الزنا، لأنه مفرط في القبح، وفيه حجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليه قطُّ، وإلا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى عنه، بما فيه من موجبات العفة والعصمة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته أي اجتباه، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالكسر، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فهو منتظم في سلكهم، بقضية الجملة الاسمية، فانحسم مادة احتمال صدور الهمِّ بالسوء منه بالكلية.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ اعتراض جيء به تقريراً لنزاهته عليه السلام، والمعنى ولقد همَّت به وأبى هو، واستبقا الباب، أي تسابقا إلى الباب الخارجي الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وُحِّد بعد الجمع، في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ لأن إغلاق الأبواب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق الجميع، أمَّا هربه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، فرَّ منها ليخرج، وأسرعت هي وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من ورائه فانقدَّ قميصُه، والقدُّ: الشقُّ طولاً أي انشق طولاً نصفين ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها وكانت المرأة تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيِّدهما ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وحين رأته المرأة خافت التهمة، فسبقت بالقول ﴿قَالَتْ﴾ لزوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ من الزنا ونحوه، أي ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إيهاماً بأنها فرّتْ منه، تبرئةً لساحتها عند زوجها، وإغراءه بيوسف انتقاماً منه، والمراد بـ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس القيدُ، وإنما بدأت بالسجن لأن المحبَّ لا يشتهي إيلام المحبوب، إنما أرادت أن يُسجن عندها يوماً أو أقل، لا الحبس الدائم، فإنه لا يُعبَّر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجونين﴾[1] وقيل: إنها جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها، واستنزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها بإلقاء الرعب في قلبه.

﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ ﴾ أي طالبتني بالجماع لا أني أردت بها سوءاً كما زعمتْ، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أُسند إليه من الخيانة، ودفع ما عرضته من السجن أو العذاب، ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها، وفي التعبير عنها بضمير الغَيْبة دون الخطاب، مراعاة لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان ابن خالها، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة، إلى من هو من أهلها، ليكون أدلَّ على نزاهته وأنفى للتهمة عنه، وكان طفلاً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، وقد ورد عنه ﷺ: «تكلم أربعةٌ في المهد وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى ابن مريم»[2] ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي من قدّام ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ في قولها أنه يريد بها

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٧.

الفاحشة، وهي ممانعة تدافع عن نفسها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها شقت قميصه من قُدَّامه، بالدفع عن نفسها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فشقته من خلف، وشهادة الطفل الذي أنطقه الله كافية في بيان صدقه، لأنها كانت بتأييد من الله عزَّ وجل، حيث سخَّر له هذا الطفل وهو في المهد، ليشهد بعفته وصدقه بالحجة الدامغة، وهناك دلائل أخرى كثيرة تشير على صدقه، منها أنه كان مملوكاً، والمملوك لا يتجاسر أن يتسلط على سيدته، ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعْدُو هارباً، ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت ولبست أجمل حُليِّها، ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة، فلم يروا عليه حالةً تناسب إقدامه على مثل هذه الجريمة، وغير ذلك، فلما حصلت هذه الأمارات، الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة من المرأة، استحى الزوج وسكت، وعلم صدق يوسف، وكان بليد الحسِّ، عديم الغيرة.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي السيد عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي ثوبه قد شُقَّ من خلف، تنبَّه وعلم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي هذا الأمر وهو المراودة وشق الثوب من وراء ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكنَّ أيتها النساء ومكركنَّ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خُلُقٌ لهنَّ عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه ألطفُ، وأعلق بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، قال بعض الصالحين: إني أخاف من النساء، ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال عن النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس سرقةً وخفية، وهنَّ يواجهن به الرجال علناً.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف، حُذف حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي هذا الأمر، واكتمه ولا تحدَّث به أحداً، فقد ظهر صدقك، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ الذي صدر منك، وثبت عليك ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمِّدين للذنب، يقال خطىء إذا أذنب عمداً فهو خاطىء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، والظاهر أن قائل ذلك هو «العزيز» قيل كان رجلاً حليماً، والأصوب أنه كان قليل الغيرة، فلذلك أراد طيَّ بساط الخيانة، فاقتصر على هذا القول، لإخفاء الجريمة، وطمس معالمها.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي جماعة من النساء، روي عن مقاتل أنهن خَمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة البواب، وامرأة السجَّان، وامرأة صاحب الدواب ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي أشعن الأمرَ وأشهرنه في مصر، إغاظةً لها، وتشهيراً بعملها القبيح، حيث عشقت خادماً، وعبداً مملوكاً لها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أريد به «قطفير» لأنه كان على خزائن الملك، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان، دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الجاه والسلطان، فيكون عوناً على إشاعة الخبر، بحكم أن النفوس

إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي تطلب مواقعته إياها، لتنال شهوتها منه، وإيثارهن صيغة المضارع، ﴿تُراوِدُ﴾ للدلالة على دوام المراودة، وتعبيرهن بفتاها ـ يعني عبدها ـ للهوان، والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، قبيح منها مراودة الخدم، فكيف بمن هي سيدة في القصر، وزوجة لعزيز مصر، فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها، وتماديها في ذلك، غاية الغيِّ ونهاية الضلال، والفتى من الناس الطريُّ من الشُّبَّان، ويطلق على المملوك والخادم، وأطلق على يوسف هنا، لأنه كان يخدمها، فهو مملوكها، وكلُّ ذلك للمبالغة في اللوم ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي شقَّ حبُّه شَغَاف قلبها وهو حجابُه فالمعنى: وصل حبُّه إلى سويداء قلبها فكاد يحترق ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي لنعلمها علماً، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى العلم حقيقة، كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الرشد، وبعدٍ عن الصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ أي واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنَّ وسوء مقالتهنَّ، وتسميته مكراً لكونه خفيةً منها، كمكر الماكر، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى زيارتها في قصرها ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي هيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، ورتبت لهن مجلس طعام، وشراب، ومن طريقة القوم، أنهم يتكئون للطعام والشراب والحديث، كعادة المترفين ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السكاكين، وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه،

وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ أي ابرز لهن، والظاهر أنها لم تأمره بالخروج، إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها، وقيل أمرته بالخروج للخدمة ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ أي فخرج عليهن فرأينه، ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي أعظمنه، ودهشن عند رؤيته لأنهن رأين الجمال العظيم، بتلك الهيئة الملكية بنور النبوة، فتعجبن ووقعت المهابة في قلوبهن، فنسين أنفسهن ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بما في أيديهن من السكاكين، وفي التعبير عن الجرح بالقطع، ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جراحهنَّ، ومع ذلك لم يشعرن بذلك ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله سبحانه، عن صفات العجز، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديعُ، ﴿حَٰشَ﴾ أصله حاشا فحذف ألفه الأخير تخفيفاً، وهو اسم بمعنى التنزيه ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال والكمال غير معهود للبشر، نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة، وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه، والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنَّ، فذلكنَّ المَلَك الكريم الخارج في الحسن عن البشرية هو ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ أي عيّرتنّني في الافتتان فيه، فهو ذلكن العبد الكنعاني، فالآن قد علمتن من هو؟ وما قولكن فينا؟ ولما أقامت عليهن الحجة وأوضحتْ لديهنَّ عذرها، كشفت لهن بقية سرّها فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ امتنع طالباً للعصمة، وهو يدل على الامتناع البليغ، وفيه برهان نيِّر على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باعتصامه من الهمِّ

وغيره، والاستعصام بناءُ مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعته، وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه، ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه فقالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي آمر به من مطاوعتي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ آثرت بناء المفعول جرياً على رسم الملوك، وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخففة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي الأذلاء في السجن، وإنما بالغت في ذلك، بمحضر من تلك النسوة، لمزيد غيظها لإصراره على عدم بلِّ غليلها، ولتعلم يوسف أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد، لينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ مناجياً لربه عز وجل ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أوعَدَتْني بالإلقاء فيه ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي آثر وأفضل عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ من مواتاتها التي تؤدي إلى الشقاء، والعذاب الأليم، وهذا الكلام منه مبنيٌّ على ما مرَّ من انكشاف الحقائق لديه، وصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه، وإنما هو والسجنُ شرَّان، أهونُهما السجن، وإنما أسند الدعوة إليهنَّ جميعاً، لأن النسوة رغَّبنه في مطاوعتها، وخوَّفنه من مخالفتها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينه لديَّ، بأن تثبتني على العصمة والعفة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن، بحكم الغريزة والقوة الشهوية، وهذا فَزَعٌ منه إلى ألطاف الله سبحانه، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على الله تعالى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة، لا بمعنى عدم العلم.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ دعاءه على أبلغ وجه، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب جلَّ وعلا، ما لا يخفى من إظهار اللطف به ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه، بأن ثبَّته على العصمة والعفَّة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، وما انطوت عليه نياتهم.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ وهي الشواهد الدالة على براءة يوسف من التهمة ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ لإرخاء الستر على القيل والقال، وزوجته هي التي أشارت عليه بذلك، وكان مطواعاً لها، زمامه في يدها، تقوده حيث شاءت، روي أنها لما يئست من يوسف عليه السلام، قالت للعزيز: إنَّ هذا الغلام قد فضحني في الناس، يخبرهم بأني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فأرى أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث، فحبسه إرضاء لها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع كلام الناس، خدعت زوجها وحملته على سجنه، حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناسُ أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي اتفق أنه أُدخل حينئذ ﴿ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ من فتيان الملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبازه، روي أن جماعةً من أهل مصر،

ضمنوا لهما مالاً ليسمَّا الملك، في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثم إنَّ الساقي نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسمَّ الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقي لا تأكل فإن الخبز مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز كله فأبى، فجربه بدابة فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتفق أن أدخلا مع يوسف السجن، والظاهر أن دخولهما مصاحبين له، وأنهم سُجنوا في ساعة واحدة ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو السَّاقي ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي رأيتني في المنام ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي عنباً، سماه بما يؤول إليه، لأن الخمر لا تعصر ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أي تنهش منه ﴿نَبِّئۡنَا﴾ أخبرنا ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي بتأويل ما ذكرنا من الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ أي إنا نعتقدك ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الذين يجيدون تعبير الرؤيا، لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه، وفضله أو من المحسنين لأهل السجن، فقد كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانه أوسع له، وقال لأهل السجن: اصبروا تؤجروا، فقالوا له بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك!؟.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي لا يأتيكما طعام إلاَّ بيَّنتُ لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ أي قبل أن يصل إليكما، وكان يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيتَ، فيجدانه كذلك، وإنما لم يكتف بتأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله، لأنه أراد أن يخرج عما في عهدته من دعوة الخلق إلى الحق، فمهّد قبل الخوض في ذلك مقدمة،

تزيدهما علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وأورد عليهما ما دلَّ على كونه رسولاً من عند الله، واجتهد في أن يدخلهما في الإسلام، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمنجمين، بل هو فضلٌ إلَهي يؤتيه من يشاء، ممن يصطفيه للنبوة فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل والإخبار عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي والإلهام، ثم بين أن نيل الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، فكأنه قيل: لماذا علمك ربك؟ فقيل: لأني تركت ملة الكفرة، والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً، لا تركها بعد ملابستها، عبَّر به عن ذلك استجلاباً لهما، لأن يتركا تلك الملَّة التي هم عليها ﴿وَهُم﴾ أهل مصر ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وهي الملة الحنيفة وإنما قال ذلك ترغيباً لصاحبيه بالإيمان والتوحيد، وتمهيداً للدعوة، ولذا أظهر أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لَنَآ﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أيَّ شيءٍ كان، من مَلَك أو جن، أو إنس، فضلاً عن الجماد، ولا أن نشرك به شيئاً من الإشراك ولو قليلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد والإيمان ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ بالوحي والنبوة، وترشيحه لنا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، وذلك مع كونه فضلاً عظيماً علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافة بواسطتنا ﴿وَلَٰكِنَّ

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يوحِّدون، عبَّر عن عدم التوحيد بعدم الشكر، لأن التوحيد شكرٌ لله عزَّ وجل على تلك النعمة، حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد، وقد أعطى سائر الناس مثلنا ولكنَّ أكثرهم لا يستعملون تلك القوى فيما خُلقت له.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن، ناداهما بعنوان الصحبة التي فيها تصفو المودة، وتخلص النصيحة، ليُقبلا عليه، ويَقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلاً، يتَّضح به الحق عندهما ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم، مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل لأن الناحت يجعلها على تلك الصورة ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أم عبادة الله المعبود بالحق ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد؟.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ فارغة لا حقيقة لها في الخارج، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ جعلتموها آلهة ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض الجهل والضلال ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة تدل على صحتها، وكانوا يقولون: إن الله تعالى أمرنا بهذه التسمية، فرد الله عليهم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ وجل إذ هو الواجب بالذات،

الموجد للكل، والمالك لأمره، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ﴾ على ألسنة أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج، وتقتضي به قضية العقل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين فيعبدون أسماءً سمَّوْها من عند أنفسهم، معرضين عما يقتضيه العقل والنقل.

وبعد تحقيق الحقِّ، ودعوتهما إليه، شرع في تعبير ما استفسراه فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي وإنما لم يعيّنه، ثقةً بدلالة التعبير، وحذراً مما يسوؤه ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي سيده ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقي من قبل ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ أي الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي فيقتل ويعلّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، ولمَّا فسَّر لهما الرؤيا جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً، قال عليه السلام ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وفُرِغ منه وهو ما يؤول إليه أمركما، والمشهور إن الرؤيا تقع كما تُعبَّر، ولذا قيل: المنام على طائر إذا قُصَّ وقع.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة

في الدلالة على تحقيق النجاة، وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿مِّنْهُمَا﴾ أي من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيدك، وصِفْني له بصفتي التي شاهدتها ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً يذهل بها عن التذكر، ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكر يوسفَ عند الملك بتقدير المضاف أي ذكر أخبار ربه ﴿فَلَبِثَ﴾ أي فمكث يوسف بسبب ذلك النسيان ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضعُ: ما بين الثلاث إلى السبع، كما روي عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: من الواحد إلى العشرة، والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين، وهي مدة لبثه كلها فيما صحَّحه البعض، وعن النبي ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن ما لبث»[1] والاستعانةُ بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ فلا يُعاتب عليه السلام في ذلك، إلا أنه اللائق بمناصب الأنبياء ترك ذلك، والذي جربته من أول عمري إلى الآن الذي بلغتُه فيه إلى السابع والخمسين أن الإنسان كلَّما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة، وإذا عوَّل على الله حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، وإذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، ولما دنا خروج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، وهي كما قصها القرآن.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير ٢/ ٤٩٧ وقال: هذا الحديث ضعيف جداً.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو الريان وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر ملكاً ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي رأيتُ، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئات لحماً وشحماً ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي أكلهنَّ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً، عَجِفَ الفرسُ ضَعُف، فهو أعجف، وجمع الأعجف عجافٌ، روي أنه رأى سبع بقرات سمانٍ، خرجن من نهر يابس، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف، فابتلعت السِّمان، ولم يتبيَّن عليها منهنَّ شيءٌ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ﴾ أي وسبعاً أخر ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ قد أدركت ولتوت على الخضر حتى غلبتها، ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف من أهل العلم، يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال يا أيها الملأ ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه أي عبّروها أو بيِّنوا ما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تعلمون علم التعبير، وهي الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة لها من الأمور الآفاقية والأنفسية الواقعة في الخارج، من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته.

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي قال الملأ للملك هي ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النباتات، ثم استعير للرؤيا الكاذبة، واحتلم رأى في منامه رؤيا، والرؤيا، والحُلم عبارةٌ عما يراه النائم مطلقاً، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحُلم على خلافه، وفي الحديث الشريف: «الرؤيا من الله، والحُلم من الشيطان»[1] وإنما قالوا أضغاث أحلام بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٠/٢٠٨ في الطب، ومسلم رقم ٢٢٦٢ في الرؤيا، =

إلا واحدة، للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان، كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، ولا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فللّهِ دَرُّ شأن التنزيل، ما أبدع رياض بلاغته!! ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة وهذا اعتراف منهم بقصور علمهم، مع أن لها تأويلاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبَيْ يوسف في السجن، وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال وأصله إذْتكر، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، والمعنى: تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزمان ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها، وعقّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من عنده علمه في السجن، والخطاب للملك والملأ، وكان السجن على ماروي عن ابن عباس في غير مدينة الملك، فأرسل إليه فأتاه فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف ووصفه بالصدّيقية وهي المبالغة في الصدق، حسبما شاهده وجرَّب أحواله، ولكونه بصدد اغتنام آثاره فهو

= وللحديث تتمة، وهي «فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوّذ من شرّها، فإنها لا تضرُّه».

من براعة استهلال ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك، أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا يختلف باختلاف اللفظ، أي بيّن لنا تفسير هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده فأنبئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون فضلك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك، وإنما لم يبت القول بل قال لعلي مجاراة معه عليه السلام على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين إما لعدم علمهم أو لعدم اعتمادهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عاداتكم المستمرة، والدأب العادة المستمرة، وقد أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، فأخبرهم بأنهم يواظبون على الزراعة سبع سنين ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب، فالجملة خبرٌ لفظاً أمرٌ معنى، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ كيلا يأكله السوس، فإن إبقاء الحبة في سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبل، إلاَّ ما لا غنى عنه، من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشاد لهم إلى التقليل في الأكل، وبعد إتمام ما أمرهم به، شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ الشداد: الصِّعابُ التي تشدُّ على الناس، أي صعاب على الناس ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من الحبوب المتروكة في سنابلها، وفيه تنبيه على أن أمره بذلك كان لوقت الضرورة، وفيه تلويح بأنه تأويل لأكلِ العجافِ السِّمانَ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تحرزون لبذور الزراعة من الحصن وهو الحرز والملجأ.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿ عَامٌ ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق والعامُ كالسَّنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب، والسَّنةُ فيما فيه الشدَّةُ والجدبُ ﴿ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ من الغيث أي يمطرون، غاث الله البلاد غيثاً أنزل بها المطر أو من الغوث أغاثَهم الله: كشفَ شدتهم، والأول قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي ما من شأنه أن يعصر من العنب، والقصب، والزيتون، ونحوها لكثرتها، وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون الضروع، وأحكام هذا العام المبارك غير مستنبطة من رؤيا الملك، وإنما تلقاها من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا، وأمرهم بالتدبير اللائق، إبانة لعلو كعبه.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ بعدما جاء السفير بالتعبير، وسمع منه ما سمع واستحسنه، وعرف علمه وفضله ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ حتى أبصره ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وقال له إن الملك يريد أن تخرج إليه، فأبى أن يخرج حتى تظهر براءته، ويُعلم أنه سُجن ظلماً ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي سيدك وهو الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ أي فاسأله أن يبحث عن شأنهن وحالهن، وإنما لم يقل: فاسأله أن يفتش عن ذلك، حثاً للملك على الجدِّ في التفتيش، لتتبين عفته وبراءته، فإن السؤال عن الشيء مما يهيج الإنسان للبحث، لأنه يأنف من الجهل، وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز، تأدباً وتكرماً، وأما النسوة فقد كان يطمع بشهادتهن عليها، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي، ولم يصرح بمراودتهن له، وقولهن «أطع مولاتك» واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ أراد بهذا أنَّ كيدهنَّ عظيم، لا يعلمه إلا الله، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهن كدنه، الاجتهاد في نفي التهم واجب، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقف التهم» فلعله خشي أن يخرج غير متَّضح براءة ساحته ممَّا سُجن فيه، حتى لا يتسلَّق الحاسدون إلى تقبيح أمره ويجعلونه سُلَّماً إلى حط قدره، طلب السؤال عن حاله، ولمَّا رجع الرسول إلى الملك بهذه الرسالة جمع النسوة وامرأة العزيز معهن.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾.

﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ ما شأنكنَّ؟ والخطبُ أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه، وأصله الأمر العظيم الذي يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتنه ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي هل وجدتن من يوسف ميلاً إليكن شيئاً من سوء وريبة؟ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له تعالى وتعجيب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ من ذنب بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾

أي ثبت واستقر الحقُّ وظهر وتبين بعد خفاء ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، قيل: أقبلت النسوة عليها يقررنها تأكيداً لنزاهته وكذا قولها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ فتأمل أيها المنصف!! هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها!! «والفضلُ ما شهدت به الأعداء» ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز فقال يوسف.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حرمته كما زعمته ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني، فالمقصود كمال نزاهته عليه السلام عن الخيانة واجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه، ولا يسدده بل يبطله، فهدايةُ الكيد مجازٌ عن تنفيذه.

ثم إنه عليه السلام أراد أن يتواضع لله تعالى، ويهضم نفسه لئلا يكون مزكياً لها، وليبين أن هذا بتوفيق الله وعصمته فقال:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي لا أنزِّهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها، من غير توفيق من الله تعالى، بل إنه بتوفيقه جل شأنه، قاله عليه السلام إبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾ لكثيرة الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بجنسه، مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها في

كل الأوقات والنفس الواحدة الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي، كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أمّارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ الجمهور على أن الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عني السوء، ولعل الأولى أن يكون الاستثناء من النفس، أي كلُّ نفسٍ أمارةٌ بالسوء، إلاّ التي رحمها الله عزَّ وجل، وعصمها عن ذلك كنفسي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عظيم المغفرة ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، وكون تأنّيه في الخروج من السجن، لعدم رضاه بملاقاة الملك، وأمره غامض، ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته عليه السلام، وأنه سُجن بظلم، ليتلقاه الملك بما يليق به، من الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام إيجاز، أي فأتوا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره، وبين الخطاب معه زمان أصلاً، والضمير في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ ليوسف عليه السلام أي فلما كلَّم المِلكُ يوسفَ، وشاهد منه ما شاهد، من الدهاء وحسن منطقه، بما صدَّق الخبر، وعظيم حسن أدبه، وصبره وثباته، فلذلك رغب أن يتخذه خالصاً لنفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة، ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٞ﴾ مؤتمن على كل شيء في المملكة.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي أرض مصر، والمعنى: ولِّني على أمرها، من الإيراد والصرف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي مبالغ في المحافظة على

منفعة البلاد ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيها، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الكافر، والجائر، وفيه أيضاً دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جُهل أمره، وما في الصحيحين عن عبد الله ابن سمرة قال: قال ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها»(١) واردٌ في غير ما ذُكر، وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده، ولعلَّ إيثاره عليه السلام لتلك الولاية، إنما كان للقيام بما هو أهم من أمور السلطنة إذْ ذاك، من تدبير أمر السنين، حسبما فُصِّل في التأويل.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جعلنا له مكاناً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والتعبير بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره تعالى، من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته، أي مكنَّا له الأمور، فجلس على سرير الملك، ودانت له البلاد والعباد، وفوض الملِكُ أمره، وأقام العدل في مصر، وأحبّه الرجال والنساء ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل من قطاعها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها، ودخولها تحت مملكته وسلطانه، فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا، من الملك والغنى وغيرهما ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفيهم أجورهم عاجلاً وآجلاً، ولدفع توهُّم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٣/١٢٤ ومسلم رقم ١٦٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة.

انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر، من الأجر العاجل، قال على سبيل التأكيد:

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧ ﴾.

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي أجرهم في الآخرة الذي أعدَّه الله لهم، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد له ﴿ خَيْرٌ ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ نبَّه تعالى على أن المراد بالإحسان، هو الإيمانُ والثبات على التقوى، المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل، وفي الآية إشارة إلى أن ما أعد الله ليوسف في الآخرة، أفضل مما أعطاه في الدنيا.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ ﴾.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ ولما اشتد القحط، وعمَّ ذلك جميع البلاد، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، قال يعقوب عليه السلام لبنيه، بلغني أن بمصر مَلِكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له واقصدوه، لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام، فخرجوا جميعاً غير «بنيامين» وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وأبويه، وصدق ما أخبره الله تعالى عنه في رؤياه، وكان ابتلاء يوسف في الرؤيا، وكان سبب نجاته رؤيا الملك، أي فجاؤوا ﴿ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ وهو في مجلس ولايته، وفي زي ملوك مصر ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ، ولكون همته معقودة بمعرفة أحوالهم، لا سيما في زمن القحط، وكان مترقباً لمجيئهم، لما يعرف من تأويل رؤياه ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لطول عهدهم، وتباين ما بين حاليه في نفسه وزيه، ولاعتقادهم أنه هلك، وحيث كان إنكارهم مستمراً أخبر عنهم بالجملة الاسمية، بخلاف عرفانه إياهم فقد كان محققاً، ولذلك أتى بالجملة الفعلية.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الأمتعة، وأوفر ركابهم بما جاؤوا لأجله من المؤنة والطعام، وأصل الجهاز ما يُعدُّ من الأمتعة للنقلة كعدة السفر، وما تُزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، كأنه لا يدري من هو؟ وإنما قاله لمَّا سألوا حملاً زائداً لبنيامين فأعطاهم ذلك، واشترط عليهم أن يأتوا به ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾ أي أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾؟ أي والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك ولم يقله لهم بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار على الكيل لأن معاملته معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم وأما الضيافة فليس للناس فيه حق فخصهم لذلك.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ من بعدُ، فضلاً عن إيفائه ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة أخرى، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحي، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام في محنته، وهو الفعَّال لما يريد في خليقته.

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق، ونجتهد في

ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيالين ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ والمراد بها البضاعة التي اشتروا بها الطعام، والرَّحْلُ: كل شيء يُعدُّ للرحيل من وعاء للمتاع، وجمعه رحال، كالسهم والسهام، أي اجعلوها في أوعيتهم، وإنما فعل ذلك تفضلاً عليهم، وليرجعوا لرد الأمانة، وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه، كما يؤذن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي رجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ فإن معرفتهم لها سبب لعودتهم إلى مصر، لأنهم منزهون عن أكل الحرام، على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأخيهم حسبما أمرتهم به.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ قالوه قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، أي حكم بمنعه بعد اليوم، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، حيث قال لنا الملك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يصيبه مكروه، فلما قالوا ذلك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم، ثم فعلتم ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوّض الأمر إلى الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ يعني حفظُ الله تعالى خير من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين، وهذا ميل منه إلى الإذن والإرسال، لما رأى من المصلحة، ولم يشاهد فيما بينهم وبينه من الحسد، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ أي أوعية طعامهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك من دلالة الحال ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ أي ماذا نبتغي ونطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا؟ الداعي إلى امتثال أمره؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذه بضاعتنا ردَّها إلينا، بعدما منَّ علينا من المنن العظام، ولو كان رجلاً من آل يعقوب لما أكرمنا إكرامه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب الميرة والطعام من عند الملك لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حسبما وعدناك ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي وسق بعير زائداً على ما أعطيناه سابقاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما يحمل أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيلٌ قليلٌ، إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، فكأنهم قالوا إن ما جئنا به غير كافٍ بنا، فلا بدَّ من الرجوع مرة أخرى، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب أخينا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ بعدما عاينت منكم ما عاينت، ممَّا أجرى المدامع ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي عهداً موثوقاً من الله تعالى، أراد به أن يحلفوا بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب المواثقة ﴿وَكِيلٌ﴾ مطَّلعٌ ورقيبٌ على ما نقول، يريد به حثهم على مراعاة ميثاقهم، وتحذيرهم من الغدر، بمعنى أنه موكول إليه تعالى، فإن وفيتم جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ناصحاً لهم لمَّا عزم على إرسالهم جميعاً ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ نهاهم عن ذلك، حَذَراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة عند الملك، فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبةً واحدة، وحيث كانوا مجهولين بين الناس، لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ بيان لما هو المراد بالنهي، وإنما لم يكتف بهذا الأمر، إظهاراً لكمال العناية به، وإصابة العين حقٌّ، أثبتها أهل السنة، وهي إنما تكون بتقدير العزيز الحكيم، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن العين حقٌّ...»[1] يعني إصابة النفس بواسطتها، أمر كائن

(١) أخرجه البخاري ١٠/٢٠٣ بلفظ «العينُ حقٌّ، ونهى عن الوشم»، ومسلم رقم ٢١٨٧.

لا شبهة في تحققه، وهو كسائر الآثار المشاهدة، نحو النار، والماء، والأدوية، لأن مدار كل شيء المشيئة الإلّهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وحكمةُ خلق الله التأثير في العين مجهولٌ لنا، فقد صرحوا بأن الأدعية والرُّقى من جملة الأسباب، لدفع أذى العين، وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بقوله: «أعيذكما بكلماتِ الله التامَّة، من كل شيطان وهَامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[1] ومن الدعاء: «ما شاء الله، لا قوة إلاَّ بالله، حصَّنتُ نفسي بالحيِّ القيوم، الذي لا يموتُ أبداً، ودفعتُ عنها السُّوءَ بألف ألفِ لا حول ولا قوة إلا بالله» وليس من شرط التأثير أن يكون بالكيفيات المحسوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً، والذي يدل عليه، أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض، قَدَر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين عاليين، لعجز عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط، يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، ولا يمتنع كون هذا التأثير مؤثراً في سائر الأبدان، وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذٍ له، حصل في قلبه غضب فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ أي لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذَر لا يمنع القدر، ولم يرد به إلغاء الحذر، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد أنَّ ما وصَّاهم به تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو امتثال بأمره، واستعانة به، وهربٌ منه إليه ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾ في كل ما آتي وأذر، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٤٠٨.

مخلّ بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، ودخلوا متفرقين ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِى عَنْهُم﴾ أي ينفعهم أو يدفع عنهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهته تعالى ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً قضاه تعالى عليهم، أي ولمَّا فعلوا ما وصَّاهم به، لم ينفعهم ذلك شيئاً، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ كائنةً ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي أظهرها ووصاهم بها، فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكن قضاء حاجة حاصلةٍ في نفس يعقوب، وهي خوف إصابة العين ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي والنبوّة حيث لم يعتقد أن الحَذَر يمنع القدر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين أي ضمَّه إليه في الطعام والسكن روي أنهم لمَّا دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم، فأكرمهم ثم أضافهم، وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً، ثم أنزل كل اثنين بيتاً، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، فلما خلا به قال له يوسف: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي

أخ فهلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاً بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكنْ لم يلدك يعقوبُ ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ولا تُعلمهم بما أعلمتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ ووفى لهم الكيل، وهيأ لهم أسباب السفر ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قيل من ذهب وقيل من فضة مرصعة بالجواهر وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال به الحبوب والأولى أن يقال كان شيئاً له قيمة ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، والظاهر أنه لم يباشر بنفسه، بل أمر أحداً فجعلها ﴿في رحل أخيه﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر، وأمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ العِيرُ بالكسر: الإبلُ تحمل الميرة، ثم غلب على كل قافلة لأنها تذهب وتجيء، والمراد أصحابها ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له عن أبيه على وجه الخيانة، وإلا فهو من قبل المؤذن بناءً على زعمه، والذي يظهر أن هذا التحايل ورمي البراء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحي من الله تعالى، لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝٧١﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الإخوة ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام، أي قالوا مقبلين عليهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ أيْ أيّ شيءٍ ضاع

عنكم؟ والعدول عن قولهم ماذا سرق منكم؟ فيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، فلذا غيّروا كلامهم، حيث تلطفوا بعد ذلك.

﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي في جوابهم ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ الصُّواعُ: المكيالُ وهو السقاية، ولم يقولوا: سرقتموه، أو سُرِق امتثالاً للأدب، أي قالوا: ضاع منا مكيال الملك المرصَّع بالجواهر ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من ردَّه، وفيه دليل على جواز الجُعالة وضمان الجُعْلِ.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ قسم وفيه تعجيب، كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر، مع ما شاهدوه من حالهم واشتهارهم بالعفة والصلاح، ولذا قالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي وما كنا نوصف قط بالسرقة.

﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي أصحاب يوسف ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي فما جزاء سرقته في شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي في ادعاء البراءة.

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي أخذ من وُجد الصواع ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾ بأن يسترقَّ ويصبح مملوكاً ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي فأخذه جزاؤه، كقولك حق الضيف أن يكرم، فهو حقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة، تأكيد للحكم المذكور وبيان لقبح السرقة، ولقد قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها، وهم عما فُعل بهم غافلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف، قيل إن أخوة يوسف لما أقروا أنَّ جزاء السارق أن يستعبد سنة، قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم، فردوهم إلى يوسف، فأمر بتفتيشها بين يديه، فبدأ ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبۡلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لنفي التهمة، روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء أخيه قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ لم يقل منه، قصداً إلى زيادة الكشف والبيان، والوِعاءُ: الظرفُ الذي يُحفظ فيه الشيء، وكأن المراد به هنا ما يشمل الرَّحْل وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب، ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ أي صنعنا له لأجل غرضه، فالكيد مستعار للحيلة، وهو من الخلق الحيلةُ ومن الله تعالى التدبيرُ بالحق ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي في حكمه، لأن جزاء السارق في قضائه، إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق سنة، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلا حال مشيئته تعالى وإرادته لذلك الكيد، لأنه كان إلهاماً من الله ليوسف،

حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ رفعه أي رتباً كثيرة عالية، من العلم والحكمة، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالمٌ، إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يريدون به يوسف، قالوه كذباً وبهتاناً على يوسف، كما اتهموا أخاه بنيامين، وغرضهم أن عادة هؤلاء السرقة، فعيروه بها عند الغضب ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي أضمر الحزازة التي حصلت له مما قالوا ﴿فِى نَفْسِهِۦ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم وحلماً ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلة حيث سرقتم أخاكم، وألقيتموه في الجب، وكذبتم على أبيكم بأنه أكله الذئب ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون، من صدور السرقة منا، إنما هو افتراء علينا، لم يواجههم بهذا الكلام إنما قاله في نفسه.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن أباه كبير في السن، لا يكاد يستطيع فراقه، يتعلل به عن شقيقه الهالك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته، من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا

فأتمم إحسانك، فقد عوّدتنا الجميل والإحسان، يقولون له ذلك استعطافاً واسترحاماً.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي أن نأخذ أحداً بجرم غيره، وأخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ دون من سرق، لتحقيق الحق، والاحتراز عن الكذب في الكلام، والمتاعُ: اسم لما ينتفع به، وأريد به الصُّواعُ، وما ألطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق!! ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي إذا أخذنا غيره ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إيّاهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة، أي يئسوا يأساً كاملاً، واستيقنوا أن الأخ لا يُرَدُّ إليهم، لما شاهدوه من عوذه بالله، ومن تسميته ظلماً ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا عن غيرهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين متشاورين في ما يقولون لأبيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو «روبيل» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ كأنهم أجمعوا على التناجي فقال منكراً عليهم ألم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهداً وثيقاً، وهو حلفهم بالله تعالى ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي ما قدمتموه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وقد قلتم: إنا له

لحافظون ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلاّ بالحق، والمراد من هذا الكلام، الالتجاء إلى الله تعالى.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدنا من ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته وتيقناه، حيث استخرج صواع الملك من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلِ﴾ أهل ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر، والمعنى: وأرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ﴾ وأصحاب العير التي كنا معهم، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ أي سهّلت وزينت، وهو إضراب عما يتضمنه كلامهم من ادعاء البراءة عن التسبب، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل

زينت لكم أنفسكم أمراً من الأمور، ومكيدة نفذتموها على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأمري صبر جميل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وأخيه الذي توقف بمصر، وإنما قال هذا، لأنه لمَّا طال حزنه، واشتد بلاؤه، علم أن الله سيجعل له فرجاً عن قريب، لأنه إذا اشتد البلاء وعظم، كان أسرع إلى الفرج ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي، الحكيم في تدبيره وتصريفه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسف: أشدُّ الحزن، أضافه إلى نفسه، والمعنى: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك، وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبة أخيه، لأن مصيبته قاعدة المصيبات وكان آخذاً بمجامع قلبه، ولأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم، وفي «أسفاً» و«يوسف» تجنيس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وحسناً ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي بسببه، والبكاء سبب لابيضاض عينيه، فإن العَبْرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض وكدر، قيل إنه قد عمي بصره، وقيل: بل عَشِيَ فهو يدرك إدراكاً ضعيفاً، واستدل بالآية على جواز التأسف، والبكاء عند النوائب، ولعل الكف عن أمثال ذلك، لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد روى الشيخان «أنه ﷺ بكى على ولده إبراهيم»[1]، وأما المنهي عنه فهو ما يفعله الجهلة من النياحة، ولطم

---

(١) أشار إلى ما رواه البخاري ٣/١٩٣ ومسلم رقم ٢٣١٥ عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ ابنه إبراهيم، فقبَّله وشمَّه، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: «إن العينَ تدمع، والقلبَ يخشع، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي ربَّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

الخدود، والصدور، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الجماعة من أهله ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجعاً عليه، فحذف حرف النفي، لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي، وعلامة الإثبات هي اللامُ، ونونُ التأكيد، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقيل لتفتأن ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، حَرِض من باب تعب أشرف على الهلاك، فهو حَرِضٌ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين، أرادوا بذلك منعه عن كثرة الأسف والحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ البثُّ أصعبُ الهمِّ الذي لا يصبر صاحبُه عليه، فيبثه إلى الناس، أي ينشره، والحزن إذا ستره الإنسان كان همّاً، وإذا ذكره لغيره كان بثّاً، فكأنهم قالوا ذلك بطريق التسلية فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم حتى تتصدَّوا لتسليتي وإنما أشكو همي وحزني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى الله، متضرعاً لدى بابه في دفعه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من رؤيا يوسف أنه لا يموت، حتى يخرَّ له أخوته سجداً، تحقيقاً للرؤيا.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ أي تعرَّفوا وهو من الحسِّ، أي تعرَّفوا من خبرهما بحواسكم، وقيل التحسُّسُ طلب الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، أي تطلبوا ﴿ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي من خبرهما و أمرهما ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ ﴾ أي لا تقنطوا من فَرَجه وتنفيسه، والرَّوْحُ بالفتح: ما يجده الإنسان من نسيم الهوى، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفَرَج، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أُبهم في قوله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ بالله وصفاته، فإن المؤمن العارف لا يقنط من رحمته تعالى أبداً، واستدل البعض بالآية، على أن اليأس من رحمة الله كفر، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة، ومفاد الآية أنه من صفات الكفار، لا أن من ارتكبه كان كافراً.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾ أي على يوسف بعدما رجعوا إلى مصر، بموجب أمر أبيهم، وأنكر اليهود رجوعهم، وهو الذي تضمنته توراتهم اليوم، ولا يوثق بها لأنها محرَّفة على وجه اليقين ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له ﴿ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي الهزال من شدة الجوع، قالوا ذلك: استرحاماً واستعطافاً ﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكني بها عن الرديء فقد كانت بضاعتهم من متاع الأعراب، صوفاً وشَعَراً ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾ فأتمم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ ﴾ بالإيفاء وقبول البضاعة الرديئة، وإنما قالوا تصدَّقْ تواضعاً، وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي يُثيب المحسنين المتصدقين أحسن الجزاء والثواب. روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنا وأَهْلنا الضُرُّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا التصدق، أعطوه كتاب يعقوب

عليه السلام، وقد كتب فيه «من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، أما بعد: فإنَّا أهل بيت، موكَّل بنا البلاء أمَّا جدي إبراهيم فإنه ابتلي بالنار فصبر، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ الأولاد إليَّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، وكنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنَّا أهل بيتٍ لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليَّ، وإلا دعوت عليك والسلام». فلما قرأه فاضت عيناه، فقال لهم:

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه، منها إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة وغير ذلك وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لإشراكهما في وقوع الفعل عليهما أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ فهل تبتم عن ذلك؟ ﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم؟ وإنما قال ذلك، نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى، وهو من أرق القلب، فكشف أمره:

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾؟ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنَّ ودخول اللام عليه، قالوه استغراباً وتعجباً ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وزاد عليه ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به،

وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالسلامة والكرامة، وبالألفة بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أيّ يفعل التقوى في جميع أحواله، ويقِ نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم، وإنما وضع المظهر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بحسن الصورة، وكمال السيرة، وبالعلم والحلم، والصبر والتقوى، وسائر الفضائل ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ المتعمِّدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك إن الله تعالى أعزك وأذلنا بالتمسكن بين يديك، والخاطىء من خطىء إذا تعمَّد فعل الذنب، وفي قولهم هذا الاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة، ولذلك أظهر جوابَه بالصفح المغفرة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تأنيب ولا لوم ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تثريب عليكم اليوم ولا عتاب، بل أصفح عنكم وأعفو ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا لهم بالمغفرة ممَّا فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب بالقبول.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يأتي إليَّ وهو بصيرٌ ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بأبي وأقربائه من النساء والذراري، وفيه دلالة على أنه عليه السلام قد ذهب بصره، وعلم يوسف ذلك بإعلامهم، أو بالوحي، قال الكلبي: كان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً، وقد نموا في مصر، فخرج منها مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وسبعون على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها منطلقة إلى بلد يعقوب، يقال: فصل من البلد إذا انفصل منه، وكان بينهما مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشمُّ رائحة يوسف[1] ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تنسبوني إلى الفَنَد، وهو الخَرَفُ ونقصانُ العقل من الهرم، وجواب «لو» محذوفٌ تقديرُه: لصدَّقتموني.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال من كان بحضرته من ذوي قرابته ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب، في إفراط محبتك ليوسف، ورجائك للقائه، قال قتادة: لقد قالوا كلمةً غليظة، لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه السلام، وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

---

(١) قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. اهـ. تفسير القرطبي ٩/٢٥٩.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ قال مجاهد هو «يهوذا» قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إلى أبي بقميص الدم، فأنا أفرحه كما أحزنته فتركوه، وجاء البشير من بين يدي العير ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي وجه يعقوب فأخذه فشمه، ثم وضعه على بصره ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً بعد أن عمي، ورجعت إليه قوته وسروره بعد الحزن والضعف ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي ألم أقل لكم لا تيأسوا من رحمة الله، وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ من حياة يوسف وإنزال الفرج.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ طلبوا منه الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوّة، تحريكاً للعطف والشفقة، وعلّلوا ذلك بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي اسأل لنا المغفرة على ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك، إنَّا تبنا واعترفنا بذنوبنا، ومن حقّ من اعترف بذنبه أن يصفح عنه!!.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ روي عن ابن عباس أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب، وروي عنه أيضاً إلى سحر ليلة الجمعة. رواه الترمذي وحسَّنه[1].

---

(١) وروى الحافظ ابن كثير ٢/٥٠٨ أن عمر بن الخطاب كان يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهمَّ دعوتني فأجبتُ، وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي» فاستمع الصَّوْتَ =

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ روي أن يوسف عليه السلام جهَّز إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، فرحل يعقوب عليه السلام بأهله، وساروا حتى أتوا معالم مصر، وخرج يوسف بأربعة آلاف من الجند، ومن العظماء لاستقباله، فتلقوه، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبتِ، ولكنْ هذا ابنك يوسف، خرج بأشراف مصر يتلقاك، فلما لقيه نزلا وتعانقا، وبكيا سروراً ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمهما إليه حين استقبلوهم، وكان قد أنزلهم في مضرب خيمة، فدخلوا عليه وضمهما إليه، والمراد بهما أبوه وخالته «ليَّا» والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها، كما ينزل العم منزلة الأب ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً، فنزلوا فيه فدخلوا عليه، فآواهما إليه، ثم طلب منهم الدخول في البلدة، فهنا دخولان: أحدهما خارج البلدة، والثانية في البلدة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من القحط، والشدائد، والمكاره قاطبة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على السرير تكرمة

= فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبدَ اللهِ عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السَّحر في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

لهما، فوق ما فعله لإخوته، وهو السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع النقل إلى العلو ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي أبواه وأخوته ﴿سُجَّدًا﴾ أي على الجباه كما هو الظاهر، لأن السجود يكون بعد الخرور، وكان جائزاً عندهم، وهو جارٍ مجرى التحية عندنا، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد من عادات الناس ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبْلُ﴾ في زمن الصبا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ صدقاً واقعاً بعينه، كما رأيتها في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ أي أنعم عليَّ، والأصل أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام، وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل هذا بتضمين لَطَفَ وهو تضمينٌ للإحسان الخفي ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ بعدما ابتليت به، ولم يصرح بقصة الجب حذراً من خجل إخوته ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ لأنهم كانوا أصحاب الماشية، وأهل البدو، أي البادية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أفسد بيننا بالإغواء، وقد بالغ عليه السلام في الإحسان، حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي لطيف التدبير حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وما من صعبٍ إلاّ وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل، اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور، المدبر لها فإذا أراد شيئاً سهَّل أسبابه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته على وجه يقتضي الحكمة. روي أن يعقوب قال ليوسف: يا بنيَّ ما أعقكَ؟ عندك هذه القراطيسُ وما كتبت حالك إليَّ؟ قال: أمرني بذلك جبريل قال: أو تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسأله فقال جبريل: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وأخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهلاَّ خفتني!! وهذا عذر واضح ليوسف في عدم إعلامه به، لكنْ يبقى سؤالٌ بأن يعقوب عليه السلام، كان من أكابر الأنبياء نفساً، وأباً، وجداً، وكان مشهوراً في البلدان، ثم وقعت له واقعة هائلة في أعزِّ أولاده، ويوسف ليس بمكان بعيد، فكيف غُمَّ أمره، ولم يصل إلى أبيه خبرُه؟ وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلاّ من باب خرق العادة، واختلف في مقدار المدة بين الرؤيا، وظهور تأويلها، فقيل سبعون سنة، وعن سلمان الفارسي

أنها أربعون سنة، وهو قول الأكثرين، والله أعلم بحقائق الأمور، وروي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، في أهنأ عيشٍ، وأحسن حالٍ، فلما حضرته الوفاة أوصى يوسف بدفنه بالشام، إلى جنب أبيه إسحق، فمضى يوسف عليه السلام بنفسه ودفنه ثمَّة ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ولما تم أمره، وعلم أنه لا يدوم إلا الحيُّ القيوم، تاقت نفسه إلى المُلكِ الدائم، فتمنى الموت، فقال ما حكاه عنه القرآن:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي بعضاً منه وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي بعضاً من ذلك، لأنه لم يؤت كل التأويل ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً على غير مثال سابق ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي ﴾ أي اقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين من عبادك المؤمنين وتمني الموت حباً للقاء الله تعالى، مما لا بأس به، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحبَّ لقاءَ الله تعالى أحبَّ اللهُ لقاءه..»[1] الحديث. نعم تمني الموت عند نزول البلاء منهيٌّ عنه، ففي الحديث الشريف: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نَزَل به»[2] وقيل: إن يوسف لم يأت عليه أسبوع، حتى توفاه الله تعالى.

---

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ٣٠٨/١١ ومسلم رقم ٢٦٨٣ وتتمة الحديث «ومن كره لقاءَ الله، كره اللهُ لقاءه»، فقالت عائشة يا رسول الله: كلُّنا يكره الموت! فقال ﷺ: ليس كذلكِ ـ أي ليس الأمرُ كما فهمتِ ـ ولكنَّ المؤمن إذا حضره الموتُ، بُشِّر برضوان الله وكرامته، فأحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه..» الخ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٠٧/١٠ ومسلم رقم ٢٦٨٠ وتتمته «فإن كان لا بدَّ فاعلاً فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ من أخبار الغيب الذي لا يحوم حوله شك ﴿ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي أوحيناه إليك يا محمد ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ ﴾ أي لدى بني يعقوب ﴿ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ ﴾ وهو إلقاؤه في غيابة الجب ﴿ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائل، والمعنى: إن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلاّ بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف، حين عزموا على ما همُّوا به، من أن يجعلوه في غيابة الجب، ومن المعلوم أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ومكرهم وما دبّروه لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحي، وأياً ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق، وهذه القصة وردت على أحسن ترتيب، وأبين بيان، وأفصح عبارة، فعُلِم بذلك أنه وحيٌ، إلَهيٌ فهو معجزة له ﷺ قائمة إلى آخر الدهر.

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ يراد به أهل مكة ﴿ وَلَوۡ حَرَصۡتَ ﴾ اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة، الدالة على صدقك ﴿ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ لإصرارهم على العناد، روي أن اليهود وقريشاً سألوا عن قصة يوسف، ووعدوه أن يُسلموا، فلما أخبرهم بها ولم يسلموا، حزن النبي ﷺ لذلك، فنزلت السورةُ تسلية له ﷺ.

﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ أي على تبليغ الوحي والقرآن ﴿ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾ كما

يفعله حملة الأخبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كافة، والجملة كالتعليل لما قبلها، فالمعنى: إنَّ هذا القرآن يشتملُ على المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم في مقابلته مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا وانتفعوا من فوائده، لكنهم لا يعقلون.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ كأين اسم ككم الخبرية، والمعنى: وكم من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وعلمه وحكمته، وكمال قدرته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، وما فيها من النجوم، وتغيير أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض من العجائب الفائقة الحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي على الآيات ويشاهدونها، ولا يعبأون بها، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم كالأنعام لا يفقهون ولا يسمعون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وألوهيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره تعالى، وعن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: الله ربنا والملائكة بناته، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده والمسيح ابن الله، ومنهم عُبَّاد القبور، والناذرون لها والمنتظرون النفع والضر منها، وهم اليوم أكثر من الدود.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم فلا يفلت منهم أحد ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها، وهو كالتأكيد لاستحقاقهم العذاب.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد وسمى الدين سبيلاً لأنه هو طريق الثواب، وفسرها بقوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ببيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي أنا وأتباعي ندعو إلى الله على بصيرة ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي أنزهه تنزيهاً عن الشركاء فهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي وما أنا منهم في وقت من الأوقات، ولا أشرك به أحداً، إنما أنا مسلمٌ موحِّد.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقيل: المراد نفي استنباء النساء ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ كما أوحينا إليك ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي أهل المدن، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والقسوة، ونقل عن الحسن أنه قال: لم يُبعث رسولٌ من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجنّ، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾؟ أي المكذبين للرسل والآيات، فيتعظوا بما حاق بهم من أنواع العذاب ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الحياة الآخرة ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ

﴿ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيريَّة الحياة الآخرة، فتتوسلوا إليها بالإيمان والعمل الصالح.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلَّ عليه السياقُ، أي لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قَبْلهم قد أُمهلوا حتى يئس الرسل من النصر عليهم في الدنيا، ويئسوا من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، والظن بمعنى التوهم، والمعنى: أن مدة التكذيب، والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله تعالى، قد تطاولت بالرسل وتمادت، حتى استشعروا القنوط من إيمان أقوامهم، ويئسوا من صلاحهم، وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة، أي لما بلغ الحال إلى الحدِّ المذكور، جاءهم نصرنا بغتة ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي ولا يردُّ بطشنا وعذابنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد، لمعاصري الرسول ﷺ من الكفرة المجرمين.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وفي قصة يوسف مع إخوته ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أي لذوي العقول، المبرأة عن شوائب القذر والكدر، والركون إلى الحسِّ.

والعبرةُ: الحالةُ التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومعنى الألباب: العقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي القرآن الكريم الموحَى إليك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي يُختلق كما زعم الكفار ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في الدين، أي ما من أمرٍ دينيٍّ، إلاَّ وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بالواسطة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يُصدِّقون تصديقاً معتداً به، وخُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك، وأما ما عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجدواه، والله الهادي إلى سواء السبيل، لا رب غيره، ولا يُرجى إلاَّ خيره، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *

فهرس المجلد الثاني

بعون الله تعالى تم انتهاء المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث
ويبدأ بتفسير سورة الرعد

المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرّج أحاديثه

خادم الكتاب والسنّة

محمد علي الصابوني

المجلد الثالث

الدار الشاميّة
بيروت

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾.

﴿الٓمٓرۚ﴾ اسم السورة الكريمة، وعن ابن عباس معناه: أنا اللهُ أعلم وأرى، أي ما تعملون وتقولون ﴿ تِلْكَ﴾ أي آيات السورة المسماة بـ (الٓمر) أشير به لفخامته ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ يعني بالكتاب القرآن العظيم المعجز الذي فاق كل كتاب ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي والذي أُوحي إليك يا أيها الرسول في هذا القرآن، هو الحقُّ الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحوم حوله الشكُّ، والتعرض لوصف الربوبية، مضافاً إلى ضميره ﷺ من الدلالة على فخامة المُنزل، وتشريف المنزل إليه مما لا يخفى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل هم كفار مكة، وقيل: هم اليهود والنصارى، والأولى أن يُراد أكثرهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي خلقهن مرتفعات بغير دعائم والعماد ما يسند به ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي بغير عمد أصلاً حال كونكم ترونها كذلك، لا تستند على شيء، والمراد أنها قائمة بقدرة الله سبحانه وتعالى، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، تعالى شأنه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بذاته[1]، وليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش، لأن إيجاده قبل إيجاد السماوات ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما لما أراد منهما من مصالح العباد، كالحركة المستمرة على حدٍّ من السرعة، تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ يسير في المنازل والدرجات حسبما أريد منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، وتتحقق بها مصالح العباد، كما في قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل﴾ وهو المروي عن ابن عباس، واللام تجيء بمعنى «إلى» أي كل منهما يجري كل يوم، على مدار معين من المدارات اليومية، كالسنة للشمس، والشهر للقمر، والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام، في العالم العلويّ والسفليّ، والمراد أنه سبحانه يقضي ويُقدِّر ويتصرف في ذلك حسب الحكمة والمصلحة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها آيات القرآن الكريم، أو الآيات الكونية ﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها تتفكرون فيها، وتتحققون كمال قدرته ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنَّ من تدبرها حقَّ التدبر، وتحقَّق كمال قدرته، أيقن أن من قَدَر على إبداع هذه الصنائع البديعة، قدر على الإعادة والجزاء.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٦٩: يُمرُّ كما جاء من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

ولمَّا قرَّر الشواهد العلوية، أردفها بذكر الدلائل السفلية، فقال سبحانه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ بسطها طولاً وعرضاً، لتثبت عليها الأقدام، وينقلب عليها الحيوان، وقد ثبت بالدلائل القطعية أنَّ الأرض كروية، وكونها كروية لا ينافي بسطها، لأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ مع أن الناس يستقرون عليها ويبنون، ومن علماء المسلمين كالغزالي، والفخر الرازي وأبي السعود، وابن تيمية قالوا بكروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ فهذا يدل على استدارة الأرض، فإن التكوير هو اللفُّ على المستدير، كتكوير العمامة. ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت، من رسى الشيءُ إذا ثبت وفي الخبر «لمَّا خلق الله الأرضَ جعلت تميدُ، فخلق الله تعالى الجبال عليها فاستقرت» ﴿ وَأَنْهَـٰرًا ﴾ ضمها إلى الجبال، وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وهو مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة، من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة، إذا تصاعدت إليها الأبخرة، احتبست فيها، فتنقلب مياهاً، وربما خرقتها فخرجت، والذي تدل الآثار عليه أنها تنزل من السحاب، لكنْ لمَّا كان نزولها عليها أكثر، كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما إلى عامل واحد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ «سَيْحانُ، وجَيْحَانُ، والفراتُ، والنيلُ، كلٌّ من أنهار الجنة»[1] وسيحان وجيحان، هما نهران في أرض الترك، وهما غير سيحون وجيحون بالواو، وفي كون هذه الأنهار من الجنة، تشبيهُ مياهها بمياه الجنة، والإخبار بامتيازها على ما عداها، ومثله

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٣٩ باب ما في الدنيا من أنهار الجنة.

كثير في الكلام ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، صنفين اثنين: كالحلو، والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والحار والبارد، وما أشبه ذلك ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ أي يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وإن احتمل العكس أيضاً فإنَّ الأنسب بالليل، أن يكون هو الغاشي ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من مد الأرض، وتثبيتها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وإغشاء الليل ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ باهرة جلتْ حكمةُ صانعها ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكر فيها، يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك، على هذا النمط الرائق، لا بدَّ له من مكوِّنٍ قادر حكيم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ﴾ أي بقاع كثيرة مختلفة الأوصاف بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر[1]، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ أي متلاصقات والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ أي من أشجار الكرم

(١) المراد من الآية الكريمة بيان قدرة الله العجيبة، فإن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد، وتخرج الثمار مختلفة في الشكل، والقدر، والطعم، والرائحة، فمنها أبيض ومنها أسود، ومنها حلو ومنها مرٌّ، ومنها ما له بذر ومنها ما له نوى، ومنها الجيد ومنها الرديء، وخروج الأشجار والثمار المختلفة الأصناف والأشكال، والألوان والطعوم والروائح، مع إتحاد الأصول والأسباب، دلالة ظاهرة على عظمة الله وجلاله، وعلى وحدانيته وكامل قدرته.

﴿وَزَرۡعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب، ولعل تقديم ذكر الأعناب على الزرع مع كونها عماد المعاش، لما في صنعة الأعناب مما يبهر العقول، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة، في ظروف رقيقة، حتى إن منها شفاف لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى ﴿وَنَخِيلٌ﴾ تأخيره لئلا يقع فاصلة بينها وبين صفاتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلات أصلها واحد، وغير صنوان مختلفة الأصول، وأصلُ الصِّنْو المِثلُ، ومنه قيل: «العم صنو أبيه» ﴿يُسۡقَىٰ﴾ أي ما ذكر من القِطع، والجنات، والزرع، والنخيل ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان بماء الأمطار، أو بماء الأنهار ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا ﴿بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ آخر منها ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ بضم الهمزة والكاف أي فيما يؤكل وهو هنا الثمر والحب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ الذي فُصِّل من القطع والجنات، لآيات كثيرة، عظيمة ظاهرة ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ يعلمون بمقتضى عقولهم، فإن من عقل تلك الأحوال العجيبة، من خروج الثمار المختلفة، في تلك القطع المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتردّد في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً، قادراً مدبِّراً لها، لا يعجزه شيء، ومن قدر على إبداع ما ذكر، قادر على إعادة ما أبداه. وقال الحسن في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، فينزل من السماء تذكرة، فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو ولا تسمع، قال الله تعالى: ﴿وننَزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[1].

﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا رسول الله من شيء ﴿فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾ أي فاعجب من قولهم بعد مشاهدة الآيات، الدالة على عظيم قدرته تعالى، أي فليكن عجبك من قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إلى آخره، فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾؟ أي أنُعاد خلقاً جديداً بعد الموت؟ وتكريرُ الهمزة لتأكيد الإنكار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات، على قدرة مَنْ هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر قدرته تعالى على البعث؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون للبعث بعد أن عاينوا من آيات ربهم الكبرى، ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ فإن إنكارهم لقدرته تعالى على البعث كفر به، وفيه دليل على أن من أنكر البعث فهو كافر بالله عز وجل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ مقيدون أي يُغلُّون يوم القيامة، والأغلال جمع غُل وهو طوق من حديد يجعل في العنق ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيطُ ضمير الفصل، ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة وذلك أنهم استعجلوا بما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي العافية والسلامة منها أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: ﴿اللهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَينَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وإنما سموا العذاب بالسيئة

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

لأنه ممّا يسوؤهم ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ المَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء: نقمةٌ تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره، والمَثُلةُ العقوبةُ، الفاضحةُ، وفسرها ابن عباس بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه، سميت به لما بين العقاب والمعاقَب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ عظيمة ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ بالكفر والمعاصي، والمعنى: أن ربك لذو ستر على عباده، ومغفرة لذنوبهم، لا يعجّل لهم العقوبات وإن كانوا ظالمين لأنفسهم، بل يمهلهم بتأخيرها، وقال ابن عباس: معناه إنه تعالى لذو تجاوزٍ إن تابوا وآمنوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لتحقيق الوعيد، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، والمراد بالناس الجنس، والتخصيص للكفار غير مختار.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستعجلون وإنما عدل عن الإضمار ذماً لهم، ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من الآيات وقالوا ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عناداً ومكابرة، وإلا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه ﷺ غُنية وعبرة لأولي الألباب، والتعبير بالمضارع ﴿ويقول﴾ إشارة إلى أن ذلك القول ديدنُهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يثبت نبوتك، من جنس المعجزات، لا بما يقترحون ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي نبيٍّ داعٍ إلى الحق، مرشد إليه، بآية تليق به وبزمانه، ثم عقب بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه على الحِكَم والمصالح، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل

نبي بجنس معين من الآيات، إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك، فقال سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي ما تحمله كل أنثى في بطنها على أيِّ حالٍ هو، من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ ﴾ أي وما تُنقصه وما تزداده في الجثة، كالخديج والتام، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل وفي أكثرها، وفيما بينهما وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقۡدَارٍ ﴾ بقدرٍ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإنه تعالى خصَّ كل حادث بوقت، وحال معينين، وهيأ له أسباباً تقتضي ذلكَ.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الغائب عن الحق ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ الحاضر له، عبَّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىَ﴾ ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزه عن نعوت المخلوقات.

﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ﴿ وَمَن جَهَرَ

بِهِۦ﴾ أظهره لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ مبالغ في الاختفاء كأنه مختف ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر فيه، من سَرَبَ سُروباً من باب قعد ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر.

> ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي للإنسان لكل ممن أسرَّ أو جهر ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، يُقال: عقبه، إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنثين، فمعنى معقبات جماعات كل جماعة منها معقبة ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي محيطة به من جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه من المضارّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل «مِنْ» هنا بمعنى «الباء» أي بأمر الله، وفي الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر..»[1] الحديث، وذكروا أن مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظة، واستشكل أمرُ الحفظ بأن المقدَّر لا بد أن يكون، فالحفظُ لأيِّ شيء؟ وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلّق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفنَ للعين، سبباً لحفظها، والعلمُ بأن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحِكَمِ والمصالح على الإجمال، مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً، لأعمال العبد، ونحن نؤمن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/٢٨ في مواقيتِ الصلاة، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد.

بذلك، وإن لم نعلم ما قلمُهم؟ وما مدادُهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتُهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أن علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأن لهم معقبات، نبَّه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة، ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها إلى أضدادها لا مجرد تركها، واستشكل ظاهر الآية بما قرر له الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وقوله ﷺ: «إن النَّاسَ إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده يوشك أن يعمهم الله سبحانه بعقاب»[1] والحق أن المراد أن ذلك عادة الله الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردَّ له، والسوء يجمع كلَّ ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقوا حلول غضب الله وعذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، وتقديم الخوف لما أن المخوف عليه النفس، والمطموع فيه الرزق المترقب، وعن الحسن أنه قال خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في أبواب تفسير القرآن، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٠٥.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجو ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمع ثقيلة كامرأةٍ كريمة، ونسوةٍ كرام، وُصف بها السحابُ، لكونه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي يسبّح سامعوه من العباد الراجين للمطر، ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يقولون سبحان الله وبحمده، وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك، أو يسبح الرعد نفسه، على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على تنزيهه تعالى عن الشريك، ولما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وعن ابن عباس «الرَّعدُ مَلَك من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب»[1] والتجربة دالة على أن للتضرع والدعاء، في انعقاد السحاب، ونزول الغيث، أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة، فليس كلُّ ذلك إلاَّ بإحداث محدث، حكيم قادر، يخلق ما يشاء، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: «اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[2] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها، فيهلكه بذلك ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين كفروا وكذَّبوا الرسول ﷺ ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذّبون الصادق، فيما أخبر عنه، من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٧٤ وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد والنسائي في قصة طويلة عن اليهود، وانظر تمامه في الدر المنثور ٤/ ٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، وانظر المنتقى المختار من الأذكار صفحة ٦٨ للإمام النووي.

﴿ٱلْمِحَالِ﴾ أي والحال أنه تعالى شديد القوة، والبطش والنكال، والمماكرة لأعدائه، من مَحَل بفلانٍ إذا كايده، وعرَّضه للهلاك، فهو مصدر كالقتال[1].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي الدعاء والتضرع المجاب عند وقوعه، والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيده ما بعده، وعن عليّ كرم الله وجهه ﴿دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ التوحيدُ، وعن ابن عباس ما هو أعم من ذلك وقيل دعوةُ الحق: الدعاءُ عند الخوف، فإنه لا يُدعى إلا اللهُ سبحانه، وقيل المراد به العبادة، وحاصل المعنى: أن الذي يحق أن يُعبد هو الله تعالى دون غيره، فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة، على مجادلتهم الرسول ﷺ بحلول نقمته بهم، وتهديدهم بإجابة دعائه ﷺ إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله تعالى، لأن معناه متجاوزين له تعالى، وتجاوزهم إنما هو بعبادتها. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿لَهُم﴾ أي للمشركين ﴿بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة، إلا كاستجابة الماء، لمن بسط كفيه إليه من بعيد، يطلبه ويدعوه ﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يأخذ بشيء من إناء وغيره ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي ببالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه، وبسط يده إليه، شبّه حال المشركين في دعاء آلهتهم، بحال عطشان قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى

(١) أي أنه تعالى شديد المكر والكيد لأعدائه، يهلكهم من حيث لا يعلمون، فالمحالُ بمعنى المماحلة أي المكايدة.

يديه[1] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء دعاء آلهتهم لكشف الضر عنهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسۡجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل، لإحداث ما أراده فيهم، من أحكام التكوين والإعدام، شاؤوا أو أبوا، ونظيرِ هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي تنقاد له تعالى ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ والمراد بهما الدوام، وتخصيص الوقتين، لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما، والغدوُّ جمع غَدَاة وهي الضحى، والآصالُ: جمعُ أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حالة الاضطرار يخصون السجود به تعالى، قال سبحانه ﴿فإذا رَكِبوا فِي الفُلْكِ دَعَوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين﴾[2] ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً تسجد لله تعالى، كما خلق ذلك للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيه آثار التجلي، واختار المحققون أن مساق الآية، إنما هو أن العالم كله خاضع لما أراد سبحانه منه، مقصور على مشيئته تعالى، ويدلُّ على هذا تشريك الظلال في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة فهو تمثيلٌ للخضوع والإذعان.

---

(١) مثل في منتهى الإبداع والإعجاز، مثَّل تعالى لحال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهام على وجهه يبحث عن الماء، فلما رأى الماءَ أخذ يبسط كفيه إليه يدعوه ليذهب غُلته، والماء جماد لا يحس ولا يشعر بعطشه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام، ويا له من تمثيل بديع!!.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي منْ خالقهما ومتولي أمرهما؟ أي قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار: من ربُّ هذه الأجرام العظيمة، العلوية والسفلية؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أجبْ عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البيِّنُ الذي لا يمكن المِرَاءُ فيه، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب ليبين لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم ﴾ أي أعلمتم أن ربهما هو الله سبحانه فاتخذتم عقيبه ﴿ مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ عاجزين ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يستجلبونه أو يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير، ودفع الضر عنه، وهذا دليل ثانٍ على ضلالهم، وفساد رأيهم في اتخاذهم الأولياء، رجاء أن ينفعوهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تصويراً لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي المشرك الضال الذي يشبه الأعمى، والمؤمن الموحّد الذي هو البصير؟ والمراد لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير[1] ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾؟ الظلمات هي عبارة عن الكفر والضلال، والنورُ هو عبارة عن الإيمان

---

(١) هذا تمثيل لضلال المشركين في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافرُ، وبالبصير المؤمنُ، كما أن المراد بالظلمات الكفر والضلال، وبالنور الهدى والإيمان، والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام، والله أعلم بمراده.

والتوحيد، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا، الهمزة للإنكار ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي تشابه عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى: إنهم ما اتخذوا لله شركاء قادرين مثله جلَّ وعلا حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء الشركاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة، ولكنهم اتخذوا شركاء، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وليس لهم شبهة تصلح أن تكون منشأً لغلطهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان فعلهم محضَ السَّفه والجهل ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إليه ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا خالق سواه ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحِّد بالألوهية ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ الغالب على كل شيء، فكيف يُتوهم أن يكون له شريك؟ وهذا كالنتيجة لما قبله.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَنزَلَ﴾ الواحد القهار ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من جهتها ﴿مَآءً﴾ كثيراً وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾ أي أنهار، جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتُّسع فيه، واستُعمِل للماء الجاري، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾ أي حمل، وجاء «افتعل» بمعنى المجرَّد، كاقتدر وقدر، أي رفع وحمل ﴿ٱلسَّيْلُ﴾ الماء الجاري في تلك الأودية حمل معه بسبب السيل ﴿زَبَدًا﴾ أي غثاءً منتفخاً يشبه الرغوة، والزبد: هو الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا تدفق ماؤه ﴿رَّابِيًا﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء، يضمحل عمَّا قريب، فالحقُّ الثابت هو الماء، والزبد الزائل هو الباطل، وذلك شأن الزبد، وهنا

تمَّ المثل، ثم ابتدأ بمثل آخر فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لإذابته نحو الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ وهو ما يتمتع وينتفع به كالأواني، وآلات الحرب، والحرث، التي تستخرج من النحاس والحديد والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي ومنه ينشأ زَبَدٌ مثل زَبَد الماء، يعلو عليه إذا أُذيب وهو الخَبَثُ، يطفو ولكنه بعدُ خَبَث يذهب، ويبقى المعدن الصافي في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً، لا يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا بقاء، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه الباقي في الأرض كالماء الذي فيه حياة، والمعدن الصافي الذي فيه النفع. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع، المشتمل على نكت رائعة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يضرب مَثَل الحق، ومَثَل الباطل، فمثَلُ الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض، فينبت به أنواع الخضار والثمار، ومَثَل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغثاء ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كل منهما من السيل وما يوقدون عليه ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ مرمياً به، يقذف به السيل، فيتفرق ويتمزَّق ويذهب في أطراف الوديان ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي، والفلز الخالص من الخبث ﴿فَيَمْكُثُ﴾ أي يبقى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فينتفع منه الناس، أمَّا الماء فيسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والآبار، وأما الفلزات فيصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويُتخذ من بعضه آلات وأدوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمثيل العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في كل باب، إظهاراً لكمال اللطف، والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيد لقوله تعالى: ﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ﴾.

وبعد ما بيَّن الله شأن حال كلٍّ منهما أكمل بيان، شرح مصير كل منهما مآلا، تكميلاً للدعوة، وترغيباً وترهيباً فقال سبحانه:

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أي للمؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة ودعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال ﴿ ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة، قاله قتادة والجمهور، وقال مجاهد: لهم الحياةُ الحسنى، أي الطيبة التي لا يشوبها كَدرٌ أصلاً ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ سبحانه، وعاندوا الحق الجلي ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جَمِيعًا ﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها ﴿ وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ﴾ أي لبذلوا فداءً لأنفسهم جميع ما في الأرض، ليتخلصوا به من العذاب، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يحاسبون بذنوبهم كلها، فلا تقبل حسناتهم، ولا تُغفر سيئآتهم ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ أي مرجعهم ﴿ جَهَنَّمُۖ ﴾ نار جهنم يخلّدون فيها ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي المستقر، والمخصوص بالذم محذوف أي بئست جهنم مهادهم وفراشهم.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد وهو النور الوهاج، والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي لا حق وراءه فيستجيب له، ويؤمن به، ويعمل بما فيه ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾؟ أي أعمى القلب، لا يشاهد أنوار الدين، ولا يدرك محاسنه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل، يتخبّط في مهاوي الضلال؟ وأريد بلفظ العمى زيادة تقبيح حاله، فعبّر عنه بالأعمى، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، إذ الأعمىٰ إذا أخذ يمشي بغير قائد، إمّا يقع في

مهلكة، وإمّا يفسد ما كان على طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يتعظ بما ذُكر من الآيات ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ذوو العقول الخالصة، المبرَّأة من معارضة الوهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بما عقدوه على أنفسهم، من الاعتراف بربوبيته تعالى، والعمل بشريعته المطهرة، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات، والانتهاء عن كل المنهيات ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقبلوه من المواثيق، وفيه تأكيد للاستمرار من صيغة المستقبل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به، في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ من صلة الرحم، وموالاة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء، من غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس، من النصح، والإحسان إليهم، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعيادة مرضاهم ونحوها، حتى تدخل فيه حقوق الحيوانات ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده سبحانه، والظاهر أن المراد مطلقاً أي يخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً، فلا ينتهكون محارمه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وفيه دلالة على فظاعته وشدته، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كل ما تكرهه النفس، من الأفعال، ومن المصائب المالية والبدنية ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ طلباً لرضاه خاصة، لا رياء، أو سمعة والإنسان يصبر إما ليقال ما أكمل صبره، وإما لئلا يعاب بالجزع، وإما لئلا تحصل شماتة الأعداء، فهذه الوجوه ليست لابتغاء وجه الله تعالى، وأما إذا صبر لعلمه بأنه قِسمة القَسَّام، ورضي بذلك، يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه، كما أن العاشق يرضى بضرب المعشوق ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، وداموا عليها، بإتمام أركانها، وشرائطها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي بعضها الذي يجب عليهم إنفاقه، وهو الزكاة ﴿سِرّٗا﴾ أي ينفقها في الخفاء خشية الرياء، فإن لم يُتَّهم بترك الزكاة، فالأولى أداؤه سراً، وإلاّ فعلانية، أو ينفق سراً لمن تمنعه المروءةُ من أخذه ظاهراً ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ لمن لم يكن كما ذكر ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يجازون السيئة بالإحسان، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها وفي الحديث الشريف «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عاقبة الدنيا المحمودة وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة دار السرور، من غير خوف بدخول النار.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ أي زوجاتهم ونسائهم المؤمنات، ليأنسوا بلقاء الأهل والأولاد، ويتمَّ لهم السرور ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي أولادهم وأحفادهم، والمعنى: أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ مبلغاً من فضلهم، تبعاً لهم، تعظيماً لشأنهم، وتتميماً لسرورهم، وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب، وإنما يلحق الله

الذرية والأولاد بالآباء، لأنه من أعظم موجبات سرورهم، أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم في الدنيا، ثم يشكرون الله على الخلاص منها، والفوز بالجنة قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾(1) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي من أبواب المنازل، يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف قائلين:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم، وتخصيصُ الصبر بما ذُكر من الصلاة السابقة، لما أن له دخلاً في كل منها، ومزية زائدة من حيث ملاك الأمر في كل منها، وأن شيئاً منها لا يُعتدُّ به إلاَّ أن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي فنعم عاقبة الدنيا: الجنةُ، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(2).

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أريد بهم من يقابل الأولين، ويخالفهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول، قيل الآية نزلت في أهل الكتاب ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء الآمرين بالتوحيد، ومن حقوق الأرحام، وموالاة المؤمنين وغير ذلك، مما لا يراعون حقوقه، وإنما لم

(1) سورة يس، آية: ٢٧.

(2) أخرجه ابن جرير الطبري عن محمد بن إبراهيم ٣/ ١٣٩.

يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقض والقطع على ذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن، وبالكفر والعصيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيّقه، والمراد بالرزق الدنيوي، لا ما يعم الأخروي يقال: قَدَر اللهُ الرزق يقدِرُه من باب ضرب ضيَّقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، فربما يبسط للكافر ابتلاءً واستدراجاً، وربما يضيّقه على المؤمن، زيادة على أجره فلا يُقال: كيف يكون الكافر مع ما عليه من الضلال في سعة من الرزق؟ فبيَّن سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييق رزق بعض المؤمنين ليس للإهانة لهم، بل لحِكَمٍ إلَهية يعلمها سبحانه ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أهل مكة فرح أَشَر وبطر، لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من نعيمها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم فيها من النعم ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ في جنب نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا شيء تافه حقير يتمتع به، كعجالة الراكب وزاد الراعي، يعني شيء قليل النفع، وسريع الفساد، وذلك لا يوجب الفرح[1]. عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاءً ـ أي فراشاً ليناً ـ فقال:

(١) المتاعُ: كلُّ ما يتمتع به الإنسان ثم يضمحل ويفنى، والمراد أن نعيم الدنيا وشهواتها وملاذُّها شيء قليل ذاهب، ومتاع حقير بالنسبة لنعيم الآخرة.

«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا، إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرة، ثم رَاحَ وتركها»[1].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي هلاَّ أنزل على محمد آية أي معجزة، كمعجزة العصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؟ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ إضلاله باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وهو كلامٌ جارٍ مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة، التي أوتيها ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن آية، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها، كان ذلك موضعاً للتعجب، فما أعظم عنادهم، وما أشد كفرهم!! والله تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال، لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد، والغلو في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير، هداية موصلة إليه ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي أقبل إلى الحق، ورجع عن العناد وأناب إليه سبحانه، والآية صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في نسبة الخير والشر إليه عزَّ وجل.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بدل ممن أناب أي هم الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسوله، وأيقنوا بالآخرة والحساب والجزاء ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم ﴾ أي تأنس وتسكن ﴿ بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وصحّحه رقم ٢٣٧٨.

ولا من خلفه، وإطلاق الذكر على ذلك شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وسبب اطمئنان قلبهم بذلك، علمهم أن لا آية أعظم منه، ولذلك لا يقترحون الآيات كغيرهم، والعدول إلى صيغة المضارع، لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده، بحسب تجدّد المنزل من الذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي تأنس وتسكن قلوبهم بذكره، دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات، وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب معتبرة، حيث لم يطمئنوا بذكر الله، فإن قيل: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوَجَلُ ضد الاطمئنان!! قلنا: المراد ههنا حصول الطمأنينة لهم، لكونه حقاً وارداً من عند الله سبحانه، والوجلُ خوفُ الجلالة، والعظمة والهيبة، أي وجلت قلوبهم من هيبته عز شأنه، وذلك دليل الإيمان، فلا تعارض بين الآيات.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي أمّا المؤمنون الصادقون، الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي أحسنوا في الدنيا، فيقال لهم ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ عن ابن عباس معناه: فرحٌ، وقرّةُ عين لهم، وعن الضحاك: غبطةٌ لهم، وعن قتادة حسنى لهم، ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم ﴿ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ المرجع والمقرُّ وهي الجنة، وهذا وعدٌ من الله تعالى لهم ترغيباً لطاعته.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ شبه إرساله ﷺ بإرسال من قبله، وإن لم يجر لهم ذكر، لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل، فليس ببدع إرسالك إليها ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ﴾ والحال أنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يكفرون بالرحمن رب العزة والجلال، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية، نزلت في مشركي أهل مكة، حين قيل لهم: اسجدوا للرحمٰن، قالوا وما الرحمن؟ وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة، للإشارة إلى أن الإرسال ناشيء منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: إن الرحمٰن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى﴾ أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري لا على أحد سواه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي توبتي ورجوعي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي قرآناً ما، وكتاباً من الكتب السماوية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي نُقلت من أماكنها وزعزعت من رواسيها، وهذا لبيان عظم شأن القرآن العظيم وتأثيره على النفوس ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً أو جعلت قطعاً متصدعة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كلَّم أحدٌ به الموتى، بأن أحياهم بقراءته، فتكلم معهم،

وجواب الشرط محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقال الزجاج: تقديره لما آمنوا، لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد، فلو أنَّ قرآناً فُعلت به هذه الأفاعيل العجيبة، لكان هذا القرآن المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين[1] ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي له جلَّ وعلا الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان، وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي أي لو أن قرآناً جُعل به ما ذُكر، لكان ذلك هذا القرآن العظيم، ولكنْ لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده، روي أن بعض المؤمنين قالوا يا رسول الله: أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعسى أن يؤمنوا فقيل: ﴿ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أي أفلم يقنط المؤمنون، عن إيمان هؤلاء الكافرين، بعدما رأوا كثرة عنادهم، وبعدما شاهدوا الآيات؟[2] ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي ألم يعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي كفار مكة ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ ﴾ من الكفر وسوء الأعمال، ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تقرعهم وتقلعهم، بما يحلُّ بهم في كل وقت، من صنوف البلايا والمصائب، في نفوسهم وأولادهم، والقارعةُ: الشديدة من شدائد الدهر، من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة، والمراد بها هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل، والأسر، والنهب ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ تلك

---

(١) الغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية، واقترحوا آية غيرها، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس﴾ أفلم يعلم ويتبيّن، وهي لغة هوازن وهذا التفسير منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي، ما دام يمكن أن يفهمها على الوجه المتبادر، فمعنى أفلم ييأس أي أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة؟ فهو أظهر وأشهر.

القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها، ويتطاير شررها عليهم، وشبَّه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بموتهم أو هلاكهم أو بمجيء القيامة، أو فتح مكة، فإن كلاً منها وعد محتوم، وفيه دلالة على ما يصيبهم عند ذلك من العذاب، ثم حقق ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الميعاد بمعنى الوعد، لامتناع الكذب في كلامه تعالى، أي لا يخلف وعده بنصرة أنبيائه.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلت ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين، والإملاءُ: أن يترك الشيء في دَعَةٍ وأمن، كما يُملى للبهيمة في المرعى، والمعنى: إن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطّرد، قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك، فأمهلت الذين كفروا ما فعلوه بهم مدة من الزمن ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب فكيف عقابي لهم؟ أي سأنتقم من هؤلاء أيضاً، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب عليها ومهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، كمن ليس كذلك، بل هو عاجز عن نفسه وهي الأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ

كَمَنْ لاَ يخْلُقُ﴾؟ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي أفمن هو بهذه الصفة لم يوحّدوه، وجعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ تبكيتٌ إِثْرَ تبكيت لهم، أي سمُّوهم من هم؟ وما هي أسماؤهم؟ وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستأهلون الشركة؟ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر، يعني أنه أخسُّ من أن يُسمَّى ويُذكر ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي بل أتخبرونه تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي شركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم سبحانه وتعالى، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقة لها أصلاً، وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء، بظاهر من القول، من غير أن يكون له حقيقة، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي على نفسه بالإعجاز، فتبارك الله رب العالمين!! ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم، كأنه قيل: دع ما ذكر من الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زُيِّن لهم كفرهم و﴿مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم وتمويههم الاباطيل ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ سبيل الحق بختم الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء اختياره ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بالقتل، والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب، فإنها إنما تصيبهم عقوبة من الله على كفرهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه سبحانه ﴿مِن وَاقٍ﴾ من حافظ يحفظهم من ذلك.

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي صفاتها العجيبة في الغرابة كالمثل ﴿ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿ أُكُلُهَا ﴾ ثمرها ﴿ دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أيضاً دائم لا ينسخ كما تنسخ ظلال الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة بما ذكر ﴿ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين، وإقناط الكافرين.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً، أو عامتهم، فإنهم يفرحون بما يوافق كتبهم، وعن الحسن وقتادة: المراد بالكتاب «القرآن» وأهل القرآن ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إذ هو الموعود في التوراة والإنجيل ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي ومن أحزاب أهل الكتاب وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف، والسيد، والعاقب وأتباعهم، والأحزاب جمع حزب: الطائفةُ المتحزبةُ، أي المجتمعةُ لأمرٍ ما كالحرب ونحوه ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أي ينكر بعض القرآن عناداً، مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما عندهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله إلزاماً لهم، ورداً لإنكارهم، صادعاً بالحق ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أي قل لهم: إنما أمرت فيما أُنزل إليَّ بعبادة الله وتوحيده، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، لإطباق جميع الأنبياء والكتب الإلَهية على ذلك كقوله تعالى: ﴿يا أهل

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾[1] فما لكم تشركون به سبحانه عزيراً والمسيح؟ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله تعالى، وإلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناس، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مَـَٔابِ﴾ أي مرجعي للجزاء، وقوله: ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ يدل على أن العبادة غاية التعظيم وقوله: ﴿ولا أشرك به﴾ يدل على نفي الإشراك، وقوله: ﴿إليه أدعو﴾ إشارة إلى نبوته ﷺ وقوله: ﴿وإليه مآب﴾ إشارة إلى الحشر والنشر.

ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع، ببيان الحكمة في ذلك فقال سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم، لتوضيح وجوب مراعاته ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب، إذْ بذلك يسهل فَهمُه، وإدراكُ إعجازه بالنسبة للعرب ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم، وترك الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائض عليك من ذلك الحكم العربي ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من جنابه العزيز، والالتفاتُ وإيراد الاسم الجليل، لتربية المهابة في النفس ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك، وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من مصارع السوء، وأمثالُ هاتيك القوارع والزواجر، إنما هي لقطع أطماع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

الكفرة، وتهييج المؤمنين على الثبات على الدين، لا للنبي ﷺ فإنه بمكان لا يحتاج إلى باعث أو مهيّج، ولذا قيل: الخطابُ لغيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ كثيرة ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً، كما جعلناها لك، روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا لا نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فنزلت رداً عليهم، حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع قد وقع في رسل كثيرين، وفي تكثير نسائه ﷺ فوائد جمة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، لأن النساء من شأنهن أن لا يحفظن سراً كيف ما كان، وروي أنهم طعنوا في نبوته ﷺ بعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول من الرسل، الذين من قبلك أن يأتي بآية مما اقترح عليه إلا بتيسير الله عليه، ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل مدة ووقت من الأوقات ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكم معين يكتب على العباد، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، في المبدأ والمعاد، ومن قضية ذلك أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرضى.

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بدله ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب، ويثبت مكانه الحسنة،

قال الله تعالى: ﴿فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وعن ابن عباس ﴿يَمحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثبِتُ﴾ من أمور العباد، إلا السعادة، والشقاوة، والآجال، فإنها لا محو فيها[1] وقيل: هو عام في الرزق، والأجل، والسعادة، والشقاوة، ونُسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين، كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهمَّ إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبتُ وعندك أم الكتاب»[2] وقيل: ما من شيء إلاَّ ويمكن تبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور منها أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره، ما صحَّ طلبُ الحفظ منه، ومنها ما صحَّ في حديث التراويح قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم» فإنْ سَبَق القضاء بأنها ستفرض، لا معنى لهذه الخشية فتفرض، وإن سبق القضاء أن لا تفرض فمحالٌ أن تُفرض[3] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلاَّ وهو مكتوب فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبينٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

---

(١) رواه عنه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٣٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٣٧.

(٣) قال ابن عطية: والذي يتلخص من الآية، أن الأشياء التي قدَّرها الله تعالى في الأزل، لا يصح فيها محوٌ ولا تبديل، وهي التي كُتبت في أم الكتاب ـ يعني اللوح المحفوظ ـ وسبق بها القضاء، وأما الأشياء التي أخبر الله أنه يُبدّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقررها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والتثبيت، فيما يقيّده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وأثبت ما أثبت. اهـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨/ ١٨٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

كِتَابٍ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وكلَّ شيءٍ أحْصَيْنَاهُ في إمَامٍ مُبِينٍ﴾[2] وجمهور العلماء على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»[3] وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «وكتب في الذكر كل شيء» وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عَمرو بن العاص مرفوعاً «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[4] وروى أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً «أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتبْ فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[5] ومذهب السلف أن نؤمن بالقلم الإلَهي، واللوح المحفوظ، وما كتب القلم في اللوح من مقادر الخلق، ونحو ما ورد، من غير أن نحكم بآرائنا في صفة شيء، وتفسير أم الكتاب بعلم الله تعالى، ممَّا رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ المراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير، أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، لا تحقيق ما بلغته من الوعيد ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم وجزاؤهم، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتمُّ ما وعدناك من الظفر، ولا يُضجرك تأخره، فإن ذلك لما

---

(١) سورة طه، آية: ٥٢.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/٤٠٤ ومسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة.

(٤) أخرجه مسلم في القَدَر رقم ٢٦٥٣ والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.

(٥) أخرجه الترمذي في القَدَر رقم ٢١٥٦ وأحمد في المسند ٥/٣١٧.

نعلم من المصالح الخفية، ثم إنه سبحانه طيّب نفسه ﷺ بطلوع تباشير الظفر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أأنكروا نزول ما وعدناهم ولم يروا ﴿ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل، والأسر، والإجلاء، فانتقاصُ أرضهم وقواهم وازدياد قوة المسلمين، من أقوى العلامة على إنجاز الوعد، نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1]؟ وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه أن انتقاص الأرض موتُ أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزّة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار، حسبما يشاهده ذوو الأبصار ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ أي لا رادَّ له، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فمما قيل يحاسبهم ويجازيهم بأفانين العذاب في الآخرة، وعن ابن عباس معناه سريع الانتقام.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ﴾ الكفار ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم، وبالمؤمنين منهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم، ولا تأثير، ولم يصرح سبحانه لدلالة القصر في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٤.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا وجود لمكرهم أصلاً، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير، وحيث كان جميع ما يأتون بعلمه وقدرته سبحانه، وأعمالهم مجرد الكسب حسبما بينه سبحانه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضية عصمة أوليائه، وعقاب الماكرين بهم، ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى مكر الله بهم عين ولا تأثير، على معنى أن ذلك ليس مكراً بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌ من الله عزَّ وجلَّ بهم، وهم لا يشعرون، حيث لا يحيق المكر السيِّئ إلاَّ بأهله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ المراد الجنسُ أي جميع الكفار، الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ حين تُوفَّى كلُّ نفس جزاء ما كسبته ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة من الحزبين، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يقول كفار مكة لرسول الله ﷺ لست يا محمد مرسلاً من عند الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة، والبينات الساطعة، ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي علم القرآن، وما عليه من النظم المعجز، وإخباره عن الغيوب، وقيل: المراد بالكتاب التوراةُ والإنجيلُ، فالمراد بمن عنده علمها الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد»

* * *

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾.

﴿الٓر كِتَـٰبٌ﴾ أي السورة المسماة بـ: ﴿الٓر﴾ كتاب عظيم ﴿أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ﴾ وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، ومخاطبته ﷺ مع إسناد الإخراج إليه في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لا يخفى من التفخيم والتعظيم، والمراد من الناس جميعهم، أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة من عقائد الكفر والضلال، إلى الحق المؤسس على التوحيد، الذي هو نور بحت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، وفيه استعارة تمثيلية، بتصوير الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والمنغمس في ظلمة الكفر والضلال لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان، إلا بتفضل الله تعالى بإرسال الرسل الكرام ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تخصيص الوصفين بالذكر، للترغيب في سلوكه، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة، وللتنبيه على أنه لا يذلُّ سالكه، ولا يخيب سائله ﴿الحميد﴾ بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ٱللَّهِ﴾ عطف بيان للعزيز لاختصاصه بالمعبود الحق، لأنه أجري مجرى أسماء الأعلام لغلبته، ثم لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين عَلَمٌ لا كالعلم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ خلقاً وملكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما وجد فيهما، ففيه بيان فخامة الصراط، وإظهاره لتحتم سلوكه على الناس قاطبة ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب، ولم يخرج من الظلمات إلى النور ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ معدٌ لهم في الآخرة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ يختارونها عليها فالسين للطلب، والمحبة مجاز عن الاختيار، وقد جمع الله سبحانه هذين الوصفين، ليبين بذلك أن المحبة للدنيا وحده لا يكون مذموماً، إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فهذا المذموم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دين الله تعالى، والإيمان به ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي يبغون لها فحذف الجار أي يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي زيفاً واعوجاجاً، أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل: هي سبيل زائفة وغير مستقيمة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، والبعد وإن كان من أحوال الضال، إلا أنه قد وُصف فعله مجازاً للمبالغة، كجدَّ جدُّه، ثم قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال﴾ دون أن يقول أولئك الضالون ضلالاً، للدلالة على تمكنهم فيه، تمكن المظروف في الظرف، وتصوير اشتمال الضلال عليه من كل جانب.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ في الأمم الخالية من قبلك ﴿ مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ أي متكلماً بلغة قومه الذي هو منهم، أو بعث فيهم ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ ذلك الرسول ﴿ لَهُمْۖ ﴾ لأولئك القوم ما أمروا به، فيتلقَّوه عنه بيسر وسرعة، ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يخلق فيه الضلال، ويخذله فلا يلطف به، لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ﴿ وَيَهْدِى ﴾ أي يخلق الهداية، أو يمنح الألطاف ﴿ مَن يَشَآءُۚ ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين، والله الهادي والمضل، يفعل ما يشاء والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب على مشيئته ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ تسلية وتصبير للرسول ﷺ على أذى قومه، بذكر قصص بعض الرسل ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وهي المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وهي كما قال مجاهد وعطاء: الآياتُ التسع ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي بني إسرائيل، والمعنى: أرسلناه وقلنا له: أخرجْ قومك ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ من الكفر والجهالة، التي أدتهم إلى أن يقولوا: «يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة» ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي بنعمائه وبلائه، كما روي عن ابن عباس واختاره الطبري، وعن أبي بن كعب أنه فسر الأيام في الآية

بنعم الله وآلائه، والالتفات بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل، للإيذان بفخامة شأنها، أي عظهم بالترغيب والترهيب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في التذكير بها ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة تدل على وحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبّه لما يجب عليه من الصبر والشكر، وقيل المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر بذلك عنهم بذلك، تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن، الدال على ما في باطنه، وتخصيص الآية بالصبّار الشكور، لأنه المنتفع بها، وتقديم الصبر لما أن الصبر مفتاح الفَرَج، المقتضي للشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته وقت إنجائه آباءكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ المراد بالعذاب ههنا غير المراد في سورة البقرة والأعراف، لأنه مفسر بالتذبيح والقتل هناك ومعطوف عليه التذبيح ههنا، وهو استعبادهم، واستعمالهم بالأعمال الشاقة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ من حيث إنه إقدار الله تعالى إياهم، وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقال موسى أي اذكروا نعمة الله، واذكروا إذ تأذّن ربكم وهو نعمة من الله عليهم، لما فيه من الترغيب

والترهيب، الباعثين على خير الدنيا والآخرة ﴿تأذَّن﴾ أي آذن إيذاناً بليغاً، لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعل من معنى التكلف أي أعلم إعلاماً بليغاً ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوَّلتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم وقابلتم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وعصيتموني ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فأعذبكم على الكفر عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين، أن يصرّح بالوعد، ويُعرِّض بالوعيد، فلذا لم يقل لأعذبنكم كما قال: ﴿لأزيدنكم﴾ وعذابُ الكفر أما في الدنيا فسلب النعمة، وأما في العقبى فتوالي النقم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لعله عليه السلام قاله، عندما عاين منهم دلائل العناد، وتيقن أنه لا ينفعهم التذكير ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نعمه تعالى ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة أياديه، وهو محمود تحمده الملائكة، بل كل ذرات العالم، كالتعليل لما ذُكر، أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، حيث حرمتم أنفسكم مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، فاللهُ لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصية.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ شروع في

الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية، أي ألم يسمعوا ما جرى عليهم، ليتدبروا ما أصاب كل واحد منهم، فيقلعوا عما لهم عليه من الشرك، وينيبوا إلى الله عز وجل؟ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ أي من بعد المذكورين ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي إنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون، لأنهم يدّعون علمها، وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات، فبيَّن كلُّ رسول منهم لأمته طريق الحقّ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها[1] ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي على زعمكم، وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا، كأنهم قالوا هذا جوابنا لكم، وليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق، والأيدي والرد مجاز عن الإشارة، أو وضعوا أيديهم على أفواههم، مشيرين بذلك للرسل أن يكفُّوا ويسكتوا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٖ﴾ موقع في الريبة، وهو قلق النفس وعدم الاطمئنان، بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد في دعوة الرسل.

> ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾.

---

(١) المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغةً في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لمَّا سمعوا كلام الرسل، عجبوا من ذلك وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك وضعوا أيديهم على أفواههم، كما يفعل ذلك من غَلَبه الضحكُ، فوضع يده على فمه.

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾؟ أي أنتم في شك في شأنه سبحانه، ووجوده، ووحدانيته، وهو أظهر من كل ظاهر؟ أي ليس في الله شك، وحيث كان مقصدهم الدعوة إلى الإيمان، وكان إظهار البينات وسيلةً إلى ذلك، لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ واقتصروا على ما هو الغاية القصوى، وهو الشكُّ في وجوده تعالى، ثم عقبوا ذلك بالشواهد الدالة على الوحدانية فقالوا: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وما فيهما، على نظام أنيق شاهد على وجوده ووحدانيته، ثم نبهوا على عظم كرمه ورحمته فقالوا: ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا، ولا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مما تدعوننا إليه﴾ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ أي يدعوكم لأجل المغفرة ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضها، وهو ما عدا المظالم، وحقوق العباد، فإن الإسلام يجبُّه دون مظالم العباد، ولم تجيء مع «مِنْ» إلا في خطاب الكافرين، وقال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وذلك للتفريق بين الخطابين فالمؤمنون تغفر لهم جميع ذنوبهم تفضُّلاً وكرماً ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى، فلا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدَّعونه من الرسالة ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ أي أن تصرفونا بتخصيص العبادة لله تعالى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عما استمر عليه آباؤنا من غير شيء يوجبه ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ يدلُّ على فضلكم، وعلى صحة ادعائكم النبوة؟ كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات، واقترحوا عليهم آية أخرى، تعنُّتاً ولَجَاجاً.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة معهم في أول مقالاتهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ أي يتفضّل بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى، يعطيها من يشاء من عباده، بمحض الفضل، والبشرية غير مانعة لمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن قولهم: «ولكنَّ الله منَّ علينا» إلى ما في النظم الجليل، من التواضع منهم عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بحجة من الحجج الواضحة، فضلاً عن السلطان المبين، الذي اقترحتموه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء كان، وإلاَّ فلا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة، وقصدوا به أنفسهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله، في الصبر على معاندتكم، ومما يدلُّ على أنهم قصدوا أنفسهم قولُهُم:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي أيُّ عذرٍ لنا أن لا نتوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي والحالُ أنه قد فعل بنا ما يوجبه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَا﴾ أي أرشد كلاً منَّا سبيله ومنهاجه، الذي شُرع له، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب، قالوا مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي ولنصبرن على أذاكم لنا بصنوف الأذى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثبت المؤمنون المتوكلون على الله، فمن توكل على الله كفاه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار، متوعدين ومهدّدين: ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم من الأوطان، أو عودهم في ملتهم، ولم يقنعوا بعصيانهم الرسل، والعود باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، أي لترجعن أنتم وأتباعكم إلى ديننا، والأنبياء لم يكونوا على دينهم قط، فإنهم نشأوا على التوحيد، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة، فالقوم ظنوا أنهم كانوا على دينهم، فلذا قالوا أو لتعودُنَّ ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمۡ ﴾ مالك أمرهم عند تناهي عتوّ المشركين ﴿ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أي قائلاً لنهلكن المشركين المتناهين في الظلم والطغيان.

﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي أراضيهم وديارهم ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ﴾ أي من بعد إهلاكهم، جعل الله عزَّ وجلَّ عقوبتهم لقولهم بإخراج الرسل، إخراجَهم من الدنيا، وتوريث أرضهم وديارهم للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك أمرٌ محقَّق ثابت ﴿ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي ﴾ وهو الموقف الذي يقف فيه العباد، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب، وفي الآية دلالة على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ أي سألوا الله النصر والفتح على أعدائهم، والضمير للرسل عليهم السلام، أي استنصر الرسل وطلبوا من الله أن ينصر المحقّ، ويهلك المضل ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ عات متكبر

عن عبادة الله سبحانه وطاعته ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، مباهٍ بما عنده، ففي الكلام إيجاز الحذف، أي استفتحوا ففتح لهم، وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم المعاندون، وإنما ذكر كل جبار عنيد موقع ضميرهم، ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ من بين يديه، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوثٌ إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل: يلقى فيها ويسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ هو قيح أو دم مختلط، يسيل من أجساد أهل النار، عطف بيان لما أبهم أولاً، ثم بُيّن تهويلاً لأمره، وتخصيصُه بالذكر من عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، وأفظعه، وأشنعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلف جرعه أي يشربه جرعة جرعة، لغلبة العطش، واستيلاء الحرارة عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه؟ بل يغص به فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحال ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي فتحيط به من جميع الجهات الستّ، أو من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره، وإبهام رجله، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت، عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما هو عليه، ففيه دفع ما يتوهم من الخفة، بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلود الأبديُّ في النار.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ صفتهم وحالتهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أعمالهم التي عملوها في وجوه البر، كصلة الأرحام، وعتق الرقاب، وقرى الأضياف، وغير ذلك ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فنسفته وطيّرته ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ريحه عاصف أي شديدٌ قويٌّ، وصف به زمانه ـ اليوم ـ للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، شبَّه به أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً[1] ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق، والصواب، فإنه الغاية في البعد عن طريق الهدى والرشاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته والرؤية قلبية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي ألم تعلم أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبسة بالحكمة الجليلة، والوجه

---

(١) مثَّل تعالى لأعمال الكفار، التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، بمثل رمادٍ وهو التراب الناعم، عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً، فكما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، كذلك تذهب أعمال الكفار ضياعاً ودماراً.

الصحيح الدال على عظمة الخالق، يعني لم يخلقهما عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم خلقاً آخر، أعبد لله منكم وأطوع، رتَّب تعالى قدرته على ذلك، على قدرته على خلق السماوات والأرض، إرشاداً إلى طريق الاستدلال، فإنَّ من قدر على خلق الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلقٍ آخر بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق آخر مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعبٍ ولا عسير، بل هو سهل يسير، فإنه عزَّ وجل قادرٌ على جميع الممكنات.

> ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله تعالى ومحاسبته، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ أي الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي والعقل ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي لرؤسائهم الذين أغووهم وأضلوهم عن دين الله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل، والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أريد بالاستفهام التوبيخُ والتقريعُ، والغناءُ بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عُدّي بعن أي إنَّا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي بعض الشيء الذي حلَّ بنا؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستكبرون جواباً واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضللناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لقينا، جَزِع الرجلُ إذا ضَعُف عن حمل ما نزل به ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي مستوٍ علينا الجزعُ والصبر،

ولمَّا كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي من منجى ومهرب من العذاب، والمحيصُ: المنجى والمهرب.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي إبليس الذي أضل كلا الفريقين ﴿ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي أحكم وفُرغ منه، ودخل أهل الجنةِ الجنَّة، وأهلُ النار النَّار، قام خطيباً في أشقياء من الثقلين. أخرج ابن جرير عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ وعداً حقاً، وعد من أطاعه الجنة، ومن عصاه النار، فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي كذبتكم وأخلفتكم الوعد، جعل تبين خلاف وعده، كالإخلاف منه وظهر كذبه ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ من تسلُّط فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ أي إلاَّ دعائي إياكم إلى الضلالة ﴿ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ أسرعتم إجابتي باختياركم ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾ بوسوستي فقد حذَّركم الله مني، وأخبركم عداوتي ﴿ وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، ولم تطيعوا ربكم، لمَّا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج، وليس مراد اللعين التنصل عن توجّه اللائمة إليه، بل بيان أنهم أحق بها منه، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان هو الذي يختار السعادة والشقاوة، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين ﴿ مَّآ أَنَا۠

﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم من العذاب، يقال: استصرخني فأصرخته[1]، أي استغاثني فأغثته، وأصله من الصراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزة للسلب، كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثي مما أنا فيه، وإنما تعرض لذلك للتذكير بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإغاثة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بالذي أشركتمونيه، وهو الله تعالى، لطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها ومعنى كفره بإشراكهم، تبرئه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبدونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2] ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف بالسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبَّروا عواقبهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله وأمره، والمدخِلون هم الملائكة، ولمَّا ذكر الله تعالى مآل الكفار، ذكر مآل أمر المؤمنين، من إدخالهم الجنة، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميرهم، مزيدُ اللطف بهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تحيِّيهم الملائكةُ فيها بالسلام، أو الرب سبحانه يحيِّيهم بالسلام، كما قال سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رحَيمٍ﴾ وهو مشتق من السلامة أي أنهم سلموا من آلام الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) الصارخُ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمصْرِخُ هو المغيث. اهـ القرطبي ٩/٣٥٧.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف بيَّنه ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها، لا أنه صيَّرها مثلها في الخارج كقولك شرَّف الأمير زيداً كساه حُلَّة، وكونُ الشجرة طيبة، إما كونها طيبة المنظر، أو طيبة الرائحة، أو طيبة الثمرة، أو طيبةً بحسب المنفعة، وإذا اجتمعت فيها هذه الأمور يحصل كمال الطيب ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها، وسمي الأعلى فرعاً لتفرعه عن الأصل، ولهذا أفرد، ويجوز أن يراد به الفروع، لأنه مضاف والإضافة تَرِدُ للاستغراق، فكأنه قيل وفروعها ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في جهة العلو.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ وقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه، والمراد بالشجرة المنعوتة النخلة وروي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة شِبْهُ الرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها، تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فقال ﷺ: هي النخلة، فحكيتها لأبي فقال: يا بنيَّ لو كنتَ قلتها لكانت أحبَّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم»(1) وقيل: كلُّ شجرة مثمرة، طيبة الثمار، كالنخلة، والتين، والعنب، والرمان، ونحو ذلك، وأنت تعلم

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦/٩٩ ورواه أحمد في المسند ٢/١٢ ومسلم رقم ٢٨١١ باب «مَثَلُ المؤمن كمثل النخلة».

أنه إذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه، ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة «أن لا إله إلا الله» بهذه الشجرة المنعوتة، أن أصل تلك الكلمة، هو الإيمان الثابت في قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها من الأعمال الصالحة يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه، هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإن فيه تصوير المعاني العقلية، بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر وتكذيب الحق، وما يعم كل كلمة قبيحة عند الله سبحانه ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ كمثل شجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾ كالحنظل ونحوه ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اقتُلعت من أصلها، وحقيقةُ الاجتثاثِ: أخذ الجثة وهي شخص الشيء كله ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قريبة منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار، والكلمة المشبهة هي الإشراك بالله سبحانه، فإنَّ الكفر أول الآفات، ورأس الشقاوات، فخبثُه لا يخفى، ليس له حجة ولا قوة، بل هو داحض غير ثابت.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي تنبت بالحجة عندهم، وتمكَّن في قلوبهم، وهو قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزيغون إذا افتتنوا في دينهم، كما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر، الذي

هو أول منزل من منازل الآخرة عند سؤال منكر ونكير، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم هناك، ولا تُدهشهم الأهوال، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ وفي الآخرة: القبرُ»[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فلا يهتدون إلى الحق، فلا يثبتون في مواقع الفتن، والمراد بهم الكفرة، ووصفهم بالظلم باعتبار ظلمهم لأنفسهم، باختيار الضلال، فالمراد بالذين آمنوا المخلصون في الإيمان، والراسخون في الإيقان، كما ينبىء عنه التثبيت ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراضٍ عليه، حسبما توجبه مشيئته، التابعةُ للحِكم البالغة، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين، من الفخامة، وتربية المهابة ما لا يخفى.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة أي ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي شكر نعمته تعالى، بأن وضعوا موضعها ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً، أو بدلوا نفس النعمة كفراً، فإنهم لما كفروها سُلبت منهم، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قُوّام بيته العتيق، ووسَّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم برسول الله ﷺ، فكفروا بذلك، فقُحطوا سبع سنين، وقُتلوا وأُسروا، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة بعد الرفاهية والعزة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه من رواية أبي سعيد الخدري، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا.. وفي الآخرة﴾» وانظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٧٨.

الذين﴾ قال: هم كفار مكة ﴿وَأَحَلُّوا﴾ أي أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه، يُقال: بَارَ الشيء يبور بَوْراً هلك، وأصله فرط الكساد المؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كَسَد حتى فسد، عبَّر به عن الهلاك.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيانٍ لها، وفي الإبهام، ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسون حرها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ بئس المقر جهنم مسكناً ومستقراً لهم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي جعلوا في اعتقادهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفرد الذي ليس كمثله شيء ﴿أَندَادًا﴾ أشباهاً وأمثالاً في العبادة والتسمية ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ قومهم الذين يشايعونهم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد، ليوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تهديداً لأولئك المضلين الضالين ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم عليه من الشهوات، التي من جملتها كفران النعم، واستتباع الناس في الضلال، وجَعَل ذلك متمتَّعاً به تشبيهاً له بالمشتهيات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الأمرُ أمرُ تهديدٍ، وهذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمره بالاحتماء فلا يحتمي، كلْ ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن المقصود منه التهديد، ليرتدع ويقبل ما يقول.

ثم إنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر عباده الصالحين، بالعبادة البدنية، والمالية وبطاعة الله ورسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ﴾.

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً بهم، وتشريفاً لهم ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ومقولُ القول محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿يُقِيمُوا﴾ أي قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيمون وينفقون ويفعلون بالأمر، لصدق إيمانهم، فهم متى أُمروا امتثلوا، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي خفية وجهراً، والأحب في الإنفاق إخفاء التطوع، وإعلان الواجب، والمراد من الأمر حث المؤمن على الشكر لنعم الله عزَّ وجل، بالعبادة البدنية والمالية، وترك الركون إلى متاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصِّر ما يتدارك به تقصيره أو يفتدي به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ ولا مخالة أي صداقة فيشفع لك خليل.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ أي أخرج به أنواع الحبوب والثمار، تعيشون به، وهو يشمل المطعوم، والملبوس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها، بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته تعالى، ويندرج في تسخير الفلك تسخير البحر والرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم حيث تشربون منها وتسقون بها زروعكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي دائمين في الحركة إلى انقضاء عمر الدنيا، وأصل الدأب العادة المستمرة، وتسخير هذين الكوكبين جعلُهما منيرين، مصلحين ما نيط بهما صلاحه، ولولا ذلك ما كان كون ولا حياة، ولا ليل ولا نهار، ولا مأكولات ولا حيوانات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم وفي إبراز كل من هذه النعم، في جملة مستقلة، تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيص على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف، بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بما سألتموه، ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياج الناس إليه. أي أعطاكم من كل ما تحتاجونه، سئل أو لم يُسأل، حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي ما أنعم به عليكم والمراد به الجمع، كأنه قيل: وإن تعدُّوا نِعَم الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية، وإن رمت العثور على حقيقة الحقِّ، فاعلم أن الإنسان لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلّهية، لما استقرَّ له القرار، وما من فرد من أفراد الناس ـ وإن كان في أقصى مراتب الفقر ـ فهو بحيث لو تأملته لوجدته في نِعَمٍ لا تحدُّ، فإن كنت في ريب من ذلك، فتصوَّرْ مَلِكاً مَلَك أقطار العالم، وحاز جميع ما في الدنيا من الأموال، ثم قُدِّر أنه قد حُبس عليه النَّفَسُ، أو

حُبِس عليه البولُ، وأتاه الموت من كل مكان، أمَا يعطي ذلك بمقابلة نَفَسٍ واحد أموال الدنيا بجملتها؟ وهذا من الظهور ما لا يخفى على أحد، فاتضح أنه سبحانه يفيض علينا كلَّ آنٍ نِعَماً لا تتناهى، سبحانك ما أعظم شأنك!! سبحانك ما أعظم سلطانك!! ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يظلم نفسه بأن يُعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كفّارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها و(أل) في الإنسان للجنس، ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قول إبراهيم تأكيداً لما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جناياتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة، وعصوا أباهم إبراهيم حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى، وسأله أن يجعلها بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، وتهوي قلوبُ الناس إليهم، فاستجاب الله دعاءه، وجعله حَرَماً آمناً، يُجبَىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي مكة ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها أيْ اجعله من البلاد الآمنة ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بعِّدْني وإيَّاهم، وأصلُ التجنب جعلُ الشيء على جانب وفيه معنى الإبعاد، وهذا الدعاء مختصٌ بالمؤمنين، لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنّي﴾ والمرادُ هنا طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام، أي وثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد والإيمان ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلنا من الذين اجتنبوا عبادة الأصنام

فإن قيل: إن الأنبياء عليهم السلام معصومون، فما الفائدة في الطلب؟ أجيب إنما ذَكَر هذا هضماً لنفسه، وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله سبحانه في كل المطالب.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إلى الأصنام باعتبار السببية، لأنهن جمادات لا تعقل، وإنما نسب إليهن الإضلال، لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا واغتروا بسببها، وهذا تعليل لدعائه، وصُدِّرَ بالنداء، إظهاراً للاعتناء به، ورغبةً في استجابته ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ من الناس فيما أدعو إليه، من التوحيد والإسلام ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي هو من أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي لم يتبعني، وعصى أمري في غير الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه، فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد.

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة، والالتجاء إليه تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي أسكنت ذريةً من ذريتي، والمراد به إسماعيل عليه السلام وبنيه، وهذا الإسكان بعدما كان بينه وبين أهله ما كان، وذلك أن هاجر أم إسماعيل، كانت أَمَةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فلما ولدت إسماعيل غارت منها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة، فوضعها عند

البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جِرَاباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى راجعاً فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب؟ فجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيّعنا، ثم رجعتْ وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيّة، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات المباركات ﴿ بِوَادٍ ﴾ هو وادي مكة ﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ فإنها حجريَّةٌ لا تنبت، ووصفُه في ذلك دون «غير مزروع» للمبالغة، لأن المعنى غير صالح للزرع ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ الإضافة للتشريف، وسمي محرّماً لأنه عظيم الحرمة، حرَّم الله التعرض له بسوء، فلم يزل مهاباً، تهابه الجبابرة في كل عصر، وسمَّاه بيتاً باعتبار ما سيكون بعد ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ اللام لام كي، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله. وهذا الحصر مستفاد من السياق، فإنه لما قال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أثبتَ أنه مكان عبادة، ونفى أن يكون إسكانهم للتجارة والكسب، مع ما في ﴿ رَبَّنَا ﴾ من الإشارة أن ذلك هو المقصود ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أفئدة بعض الناس، و«مِنْ» للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم جميع الناس، وأهل فارس والروم ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً وتُقبل نحوهم من البلاد الشاسعة، وأول آثار هذه الدعوة، ما روي أنه مرت رفقة من جُرْهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا: إن هذا الطائر يحوم على الماء، فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئتِ كنا معكِ وآنسناك، وتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا، فأذنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبَّ إسماعيل فتزوج منهم، كما هو المشهور ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك، يعني وارزقهم كما رزقت سكان القرى، أصحاب الماء والزروع، وإنه ليجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد ﴿ لَعَلَّهُمْ

﴿يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء، ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة، ولذا منَّ الله عليه بحسن القبول، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي للاستعانة بها على أداء العبادات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع، وضمير الجماعة ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا المُلْكِ والمَلَكوت، وقد حقَّقه بقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، لما أنه عزَّ وجل عالم بالذات، فما من أمرٍ كائناً ما كان إلا وجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي مع كبر سني، ويأسي عن الولد، فعلى بمعنى «مع» والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة، واستظهاراً لشكرها ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحق لمائة واثنتي عشرة سنة، وهذه الرواية عن ابن عباس ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ أي خالقي ومالك أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مجيب الدعاء، من قولك:

سمع الملكُ كلام فلان، إذا تلقاه بالقبول، وفيه إشعار بأنه عليه السلام دعا ربه، وسأل منه الولد، فأجابه ووهب له سؤله، حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم، وأحلاها.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ ﴾ .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي محافظاً عليها، مقيماً لها على الوجه الذي يرضيك، وتوحيد الضمير للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة أيضاً ولا يُفرّط فيها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي استجب دعائي، وتقبل عبادتي.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين، مما لا يسلم البشر منه ﴿ وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ أي لأمي وأبي، وكانت أمه ـ على ما رُوي عن الحسن ـ مؤمنة، وأمَّا استغفاره لأبيه، فقد قيل: إنه كان قبل أنْ يتبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله سبحانه، وقالت الشيعة: إن والديه كانا مؤمنين، ولذا دعا لهما، وأما الكافر فالمراد به عمه، وهو قول من لم يدرك النصوص القرآنية، ولم يعرف السنة النبوية ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من ذرية إبراهيم وغيرهم، وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق، ويقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، وفي هذا الدعاء بشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لا يردُّ دعاءَ خليله.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ ﴾ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أي لا تظنن يا محمد أن الله ساهٍ وغافل عن أفعال الظلمة، وفيه

تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم، والمراد بالظالمين كفار مكة، ممن عُدَّت مساوئهم، أو جنس الظالمين، وهم داخلون في الحكم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عقوبتهم، وإنما أسند التأخير إليهم لتهويل الخطب، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب وتأخيره للتشديد والتغليظ ﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ عصيبٍ رهيب ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرُّ في أماكنها، من هول ما ترى، يقال: شَخَص الرجلُ بصَرَه إذا فتح عينه لا يطرف، وهذا إنما يكون من شدة الهول والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، بالخوف والذل، وأصل الهَطْع: هو الإقبال على الشيء، هَطَع الرجل من باب فَتَح، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، من غير التفات إلى شيء[1] ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي خالية من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبُه هواءٌ أي لا قوة ولا رأي فيه، وهذا يكون وقت الحساب، وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) هذا هو المشهور عند أهل اللغة لمعنى الإقناع، وهو أن يرفع رأسه مديماً للنظر، وقال المبرّد: «يقال: أقنع الرجل إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعاً، فهو من الأضداد، قال: ويجوز أن يرفع رأسه مديماً للنظر، ثم يطأطئه خضوعاً وذلاً». إ هـ وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا ٣/ ٥٣٩.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لسيد الرسل ﷺ والمراد بالناس: الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين، والعدول من الإضمار، للإشعار بأن المراد هو الزجر، عما هم عليه من الظلم، شفقةً عليهم، أي خوّفهم ذلك اليومِ الرهيب، وقيل: الناسُ جميعاً، فإن الإنذار عام كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالشرك والتكذيب أي فيقولون، والعدول عنه للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأن ما لقوه إنما هو لظلمهم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخر العذاب عنا، وردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي نجب الدعوة إليك، وإلى توحيدك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي فيما جاؤوا به أي نتدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم توبيخاً: ألم تؤخروا في الدنيا؟ وألم تكونوا أقسمتم بألسنتكم وحلفتم بطراً وجهلاً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ مما أنتم عليه، من التمتع بالحظوظ الدنيوية، وأنكم لا تنتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، والغرض أنهم ينكرون البعث بعد الموت، ويقسمون على أن لا حساب ولا جزاء. ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأهل النار خمسُ دعوات، يجيبهم الله تعالى في أربع منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: الأولى يقولون: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ثم يقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؟ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ فيجيبهم الله عزَّ وجل: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون﴾ فلا يتكلمون بعدها». اللهمَّ إنا نعوذ بك من غضبك، ونلوذ بكنفك من عذابك، ونسألك التوفيق للعمل

الصالح، في يومنا لغدنا، والتقرب إليك بما يرضيك، قبل أن يخرج الأمر من يدنا، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ من السكنى بمعنى التَّبوُّء والاستيطان، أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناكم، فهلاً اعتبرتم بما جرى عليهم!! ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود سائرين سيرتهم في الظلم والفساد ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ بينا لكم في القرآن العظيم وعلى ألسنة الأنبياء ما حلَّ بهم، فلم تعتبروا منهم، فأنتم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق، وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ العظيم وجاوزوا فيه كل حدّ محدود، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعل بهم ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه، وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ في العظم والشدة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وعبَّر عن ذلك بكونه معداً لإزالة الجبال عن مقارها، لكونه مثلاً في ذلك، لشدة المكر، وضخامة السعي في الإجرام، فكأنهم بمكرهم الخبيث يكادون يقتلعون الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ تثبيت له ﷺ على ما هو عليه، من الثقة بالله سبحانه، والتيقن بإنجاز وعده تعالى، بتعذيب الظالمين، كما يفصح عنه الفاء، لا وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي غالبٌ لا يُماكر، وقادر لا يُدافع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ينجزه ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرضُ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾عطف على الأرض، وتقديره والسمواتُ غير السماوات والتبديل قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين، روى البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ ـ يعني شديدة البياض ـ كقرصة النقي ـ أي الخبز النقي في اللون ـ ليس فيها عَلَم لأحد»[1] أي علامة من الأبنية والزراعة والمساكن ﴿ وَبَرَزُوا۟﴾ أي الخلائق من أجداثهم ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وذكرُه بالوصفين، للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غلاَّب لا يُغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٢٣ ومسلم رقم ٢٧٩٠ في البعث والنشور.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قُرن بعضهم مع بعض مع الشياطين، كقوله تعالى: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أيديهم وأرجلهم تُربط إلى رقابهم بالأغلال، كحال الأشقياء في الدنيا يربطون بالسلاسل والقيود ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود، جمع صَفد، والصَّفدُ: القيدُ، وقيل الغُلُّ، وأصله الشدُّ.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصانهم جمع سربال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة، وهو إن سال بنفسه يُقال: زفتٌ وإن كان بالصناعة فقطران، ففي سرابيلهم تشبيه بليغ، وذلك أن المقصود أنه تُطلى جُلودُ أهل النار بالقطران، حتى يعود طلاؤه كالسرابيل، وذلك ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لذعُه، وحَرْقُه، ونتنه، واللونُ الموحش على أن التفاوت بين القَطْرانين كالتفاوت بين النارَيْن، وكلُّ ما وعد الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي تعلوها وتحيط بها نار جهنم، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم، التي خلقت لأجله، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُون في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مسَّ سَقَر﴾ .

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي الله ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مجرمة بقرينة المقام ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، جزاءً وفاقاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان، وعن ابن عباس المراد سريع الانتقام.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى القرآن وما فيه من العظة ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ أي لجميع الخلق من إنس وجن ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ بهذا البلاغ ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ ﴾ بالتأمل فيه من الدلائل الواضحة، التي هي إهلاكُ الأمم، وإسكان الآخرين مساكنهم ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فيرتدعوا عمّا يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار، وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب، إعلاءٌ لشأنهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والأحكام، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه، إنه سميع مجيب الدعاء.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

* * *

سُورَةُ الحِجر

مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾.

﴿الٓرۚ﴾ اسم للسورة أي هذه السورة مسمَّاة بـ:الٓر[1] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، الذي يعجز عنه البشر، الجدير بأن يسمى الكتاب الكامل، في أسلوبه وأحكامه ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ عظيم الشأن، وتنكيرُه للتفخيم ﴿مُّبِينٖ﴾ أي واضح بيّن، لا خلل فيه ولا اضطراب، فارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾.

﴿رُّبَمَا﴾ ربَّ حرف جر، و «ما» كافة مصححة لدخوله على الفعل، وربَّ على كثرة وقوعها في كلام العرب، لم تقع في القرآن إلاَّ في هذه الآية، وهي للتقليل غالباً، وللتكثير نادراً كما في هذه الآية[2] ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) قدَّمنا فيما مضى أن الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، كأنه يقول: هذا الكتاب المعجز العجيب كلام الله تعالى، وهو منظوم من أمثال هذه الحروف المقطعة من ألف ولام وراء وأمثالها فإذا شككتم فيه فأتوا بمثله.

(٢) أنكر الزجاج أن تجيء «ربَّ» للتكثير، وقال: هذا ضدُّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها، للتقليل، والآية خارجة مخرج الوعيد، وكذلك قال النحاس في تفسيره =

﴿كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ أي سيتمنى الكفار محققاً يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، ويندمون على عدم الإيمان، كما جاء في الحديث الشريف «إن ناساً من أمتي يُعذَّبون بذنوبهم، ثم يعيِّرهم أهلُ الشرك، ويقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعكمَ؟ فلا يبقى موحِّد إلاّ أخرجه الله تعالى من النار، ثم قرأ ﷺ الآية»[1].

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أي دعْهم واتركهم عما هم عليه، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم، والمراد التخلية بينهم وبين شهواتهم، كأنه قيل: خلِّهم وشأنهم ﴿ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ أي يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي يشغلهم الأمل عن التفكر فيما يصيرون إليه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم يوم القيامة.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ شروع في بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها، كما فُعل ببعضها ﴿ إِلَّا وَلَهَا ﴾ في ذلك الشأن ﴿ كِتَابٌ ﴾ أجل مقدّر، مكتوب في اللوح بحيث لا يمكن تبديله، والمراد به أجل إهلاكهم ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ لا يُنسى ولا يغفل عنه.

= معاني القرآن ٤/٨ حيث قال: فأمّا معنى «ربَّ» ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا تستعمله العرب كثيراً لمن تتوعده وتهدده، يقول الرجل للآخر: ربما ندمتَ على ما تفعل، ولا يشكّون في ندمه ولا يقصدون تقليله، بل حقيقة المعنى أنه يقول: لو كان هذا مما يقلُّ، أو يكون مرة واحدة لكان ينبغي أن لا تفعله. قال: وأما قول من قال إن «ربَّ» تقع للتكثير فلا يعرف في كلام العرب، والدليل على أنه وعيد وتهديد قوله سبحانه بعده: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾. اهـ وهو كلام نفيس.

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن مردويه، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣٠٧.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ من الأمم المهلكة وغيرهم، أجلها المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء أوانه ﴿ وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون عنه برهة من الزمن، واستدل بالآية على أن كل من مات أو قُتل،، فإنما هو ميِّتٌ بأجله.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ نادوا به الرسول ﷺ والقائلون هم مشركو مكة، وذلك لغاية تماديهم في العتو، خاطبوا به الرسول ﷺ لا تسليماً بنبوته بل استهزاءً، أي يا من تدّعي الرسالة إنك لتقول قول المجانين، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعده: أنت مجنون، وقد سبقهم إلى نظيره فرعون بقوله في حق موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا ﴾ كلمةُ «لو» عند تركبها مع «ما» تفيد ما تفيده عند تركبها مع «لا» من معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، والمـراد هنـا التحضيـضُ، أي هـلاَّ تـأتينـا ﴿ بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ يشهـدون لـك ويساعدونك في الإنذار، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾؟[1] ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك أنك رسول الله؟ فإن قدرة الله على ذلك محققة!! قال تعالى رداً عليهم:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ الضمير للجلالة من التنزيل، وهذا مسوق منه سبحانه إلى نبيه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهم المحكية، ورداً لاقتراحهم الباطل، الصادر عن محض الكبرياء والعناد، فالملائكة لعلو رتبهم، أعلى من أن يكون مقصد حركاتهم، أولئك المعاندين لرسل الله، وإنما لهم مهمة أسمى ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي بالوجه الذي قدَّره سبحانه، واقتضته حكمته، والذي اقترحوه من التنزيل، لأجل الشهادة لديهم، ومنزلتهم في الحقارة والهوان منزلتهم، لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلاً، وإنما الذي يدخل في حقهم هو التنزيل في التعذيب والاستئصال، كما فُعل بأضرابهم من الأمم السالفة، ولو فُعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ جزاء الشرط المقدّر، تقديره: ولو نزّلنا الملائكة ما كانوا أيضاً منظرين، كدأب سائر الأمم المكذبة، مع استحقاقهم لذلك، ومقتضى الحكمة التشريعية والتكوينية، أن يكون الملائكة منزلين بصورة البشر، وتنزيلهم كذلك يوجب اللبس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[1] فلا ينتفعون، وما كانوا إذاً منظرين لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم، لأنه قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم، أنا لم نأتهم بآية اقترحوها، إلاَّ والعذاب في إثْرها إن لم يؤمنوا، فقد جرى قلم القضاء، بتأخير عذاب هؤلاء حسبما أُجمل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾ فلم يُهلكوا.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم، أي نحن بعظيم شأننا، وعلو جنابنا نزّلنا عليك يا محمد هذا القرآن العظيم، المعجز في

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل ما يقدح فيه، كالتحريف، والزيادة، والنقصان، وغير ذلك، حتى إن الشيخ المهيب، لو غيّر نقطة يردُّ عليه الصبيان، ويقولون له: الصوابُ كذا، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك، وتولّى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولاً وآخراً، ومصوناً عن جميع جهات التحريف، مع أن الدواعي من الملحدين، واليهود، والنصارى متوافرة، ومتهالكة على إفساده[1]، فكان ذلك الحفظ والحماية من أعظم المعجزات، وتحقق بذلك الوعد الربّاني، وجاءت الجملة الثانية اسمية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ للدلالة على دوام الحفظ، فهو محفوظ بحفظ الله إلى قيام الساعة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً، كما روي عن ابن عباس، وإنما لم يُذكر لدلالة السياق والسِّباق ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فرقهم وطوائفهم، وتُطلق على الأعوان، وهي المتفقة على طريقة ومذهب، وأصبح لفظ «الشيعة» يطلق على قوم مخصوصين، يزعمون أنهم أتباع علي رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) تكفل الله جلَّ ثناؤه بحفظ هذا القرآن المجيد، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل فيه والتغيير، كما جرى لغيره من الكتب كالتوراة والإنجيل، المحرَّفة بالنص القاطع ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ وذلك لأن الله تعالى وَكَّلَ حفظَها إلى أهلها كما قال سبحانه: ﴿بمَا استحفظوا من كتاب الله﴾ أي أُمروا بصيانته وحفظه، فحرّفوا وبدّلوا، وأما القرآن العظيم فقد تكفل ربُّ العزة والجلال بحفظه، فلم يستطع أحد من البشر التلاعب فيه، بالتحريف والتبديل على كثرة الأعداء من اليهود والنصارى والملحدين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي ما أتى شيعة من الشيع من رسول خاص بها ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، بأن هذه شنشنة جُهَّال الأمم مع المرسلين، والسبب الذي يحمل الجهَّال على هذا أمور:

الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات، لغطرستهم وكبريائهم.

الثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من عاداتهم الرديئة، وذلك شاق على الطباع.

الثالث: أن الرسول قد يكون فقيرا، فالمتنعمون يثقل عليهم اتّباعه، ونحو ذلك من الأمور.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك السلك والإدخال الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا من الكتب ﴿نَسْلُكُهُ﴾ أي ندخل الباطل والضلال ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي في قلوب مشركي مكة، وغيرهم من الضالين المستهزئين بأنبياء الله، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب الضالين من قومك، والسلكُ: إدخال شيء في شيء، كالخيط في المِخْيَط، وفيه دليل على أن الله عزَّ وجلَّ يدخل الضلال في قلوبهم كما اختاروه، لأنهم من أهل الخذلان، ليس عندهم استعداد لقبول الحق.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن العظيم، ولو جاءتهم كل آية بيّنة ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وقد مضت طريقة الأولين، وعادة الله فيهم بإهلاك الطغاة المجرمين، حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي باباً يصعدون فيه إلى السَّماء، ويسَّرنا لهم الرقيَّ والصعود إليه ﴿ فَظَلُّوا۟ فِيهِ ﴾ في ذلك الباب، يُقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً، كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم.

﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ لَقَالُوٓا۟ ﴾ لفرط عنادهم، وغلوّهم في المكابرة ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي سُدَّتْ من الإحساس، ومنعت عن الإبصار حقيقة، وما نراه تخييل لا حقيقة له، وهو من السكر بالفتح ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي هذه الآية دلالة على أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين، فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، لكنهم قوم سجيتهم العناد، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر حال منكري النبوّة، ذكر دلائل التوحيد، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ أي منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب العظيمة ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أي السماء بالنجوم ﴿ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي للمتفكرين المستدلين بذلك على قدرته تعالى، فتزيينها ظهورها على نظام بديع، مستتبع للآثار الحسنة.

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فلا يقدر أن يصعد إلى السماء، ويقف

على أحوالها، والرجيمُ: المطرودُ عن الخيرات، المرميُّ بالنجوم والمراد بحفظها: منعُهُم عن التعرض لها، والوقوف على ما فيها من أحاديث الملائكة والوحي.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾ استراق السمع اختلاسه سراً، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ والمراد بالسمع: المسموعُ ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى أتبعه تبعه، والشهاب الشعلةُ الساقطة من النار الموقدة، ومن العارض في الجو، والمبين الظاهر أمره للمبصرين. فإن قيل: جعلُ الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها، وجعلها رجوماً يقتضي زوالها؟ قلنا: جعلها رجوماً للشياطين، ليس بأجرام الكواكب، بل بِشُعَلٍ من الكواكب، وما ذاك إلا كقبس أُخذ من نار، كما قال تعالى: ﴿يجد لَهُ شِهَاباً رَصَدَاً﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها، والظاهر أن المراد بسطها وتوسيعها ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها، ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، لما أن الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ مقدَّرٍ بمقدارٍ معيَّن تقتضيه حكمته، ومستحسن مناسب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس وغيرهما

مما يتعلق به البقاء ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ العيالِ، والخَدَم، والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم، فإن الله يرزقهم وإياهم، والمعنى: جعلنا لكم معايش، ولمن لستم له برازقين من الخَدَم والعبيد.

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد، ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي إلاَّ عندنا خزائنه ومستودعاته، والخزائن جمع خزانة بمعنى المخزن، وهو ما يُحفظ فيه نفائس الأموال، شُبِّهت المقدورات التي قدَّرها الله بنفائس الأموال المخزونة على طريقة الاستعارة التخييلية، وأنه تعالى حافظها والمتولي تدبيرها. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي وما نوجد وما نكوِّنُ شيئاً من تلك الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلاَّ ملتبساً بمقدار معيَّن، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة، والمراد من الإنزالِ: الإحداثُ والإبداع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وإنما عبر عن إيجاد ذلك بالتنزيل، لما أنه بالتفضل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي حوامل، شبَّه الريح التي جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقحات للشجر، تلقّ الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتلقح السحاب فيدرُّ بالماء ويمطر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعدما أنشأنا سحاباً ماطراً ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيا، تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو أبلغ من سقيناكم لما فيه من الدلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى

شاؤوا يُقال: سقيتهُ إذا كان بيدك، وأسقيته إذا جعلته له سقيا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي ولستم بقادرين على حفظه وخزنه، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم، في العيون والآبار والأنهار سقيا لكم، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغَوْر، فوقوفُه ومكوثه في الأرض لا بدَّ له من مخصّص، وذلك يدلُّ على مدبِّر حكيم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنباتات، وتقديم الضمير للحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتت الخلائق كلها، وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم، كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسير الوارث بالباقي مروي عن سفيان وغيره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من تأخر ولادة وموتاً، قال ابن عباس: المستقدمون: كلُّ من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة[1] وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته، لأن القادر على كل شيء، لا بدَّ من علمه بما يصنعه.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣١٠ وهذا القول اختيار ابن جرير الطبري، وعلى هذا القول يكون المعنى: لقد أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، من تقدَّم منهم ومن تأخر، والغرض بيان كمال علمه سبحانه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسيطُ الضمير للدلالة على أنه القادرُ، والمتولي لحشرهم لا غير، وكانوا يستبعدون ذلك، ويقولون: من يحي العظام وهي رميم؟ ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي هذا النوع، بأن خلقنا أصله، وأول فرد من أفراده، خلقاً بديعاً، منطوياً على خلق سائر أفراده، والإنسان من الناس اسم جنس، يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾ أي طين يابس، يصلصل أي يصوّت إذا نُقِرَ، كائنٍ ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ من طين تغيَّر واسودَّ بطول مجاورة الماء ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي منتن متغيّر وقيل: مصبوب من سنَّ الماءَ، إذا صبَّه، أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، وأصل الإنسان كان تراباً، فعُجِن بالماء، فصار طيناً، فمكث مدة من الزمن فصار حمأً، فخلص فصار سلالةً، فصُوِّر فصار مسنوناً، ويبس فصار صلصالاً، ثم نفخ فيه الروح، فكان بشراً سوياً، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين!!.

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْجَآنَّ ﴾ اسم جمع للجن، وقيل: إبليس فإنه أبو الجن، والقول الأول أصح كما هو الظاهر من الإنسان لأن تشعب الجنس، لمّا كان من شخص واحد، خُلق من مادة واحدة، كان الجنس بأسره مخلوقاً منها، والجِنُّ والجِنَّةُ خلافُ الإنس ﴿ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق الإنسان ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي الريح الحارة التي تقتل، وأكثر ما تهبُّ في النهار،

وسُميت سموماً لأنها تنفذ مسامَّ البدن، وقوله من نار باعتبار الغالب، كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ومساق الآية للدلالة على كمال قدرته.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الظاهر أن المراد جميع الملائكة ملائكة السماء والأرض ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا ﴾ إنساناً والمراد به آدم عليه السلام ﴿ مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي من طين يابس متغيّر.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ فعلت فيه ما يصير به مستوياً ومعتدلاً، مستعداً لفيضان الروح فيه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النفخ إجراء الريح من الفم وغيره، والإضافةُ تشريفٌ له، أي وأفضتُ عليه من الريح التي هي خلق من خلقي، فصار بشراً سويّاً، والروح من أمر الله جل وعلا قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: خاضت الفِرَقُ غمرة الكلام في الروح، فما ظفروا بطائل، ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثر من ألف قول، وليس فيها قول صحيح، بل كلها قياسات عقلية، وجمهور أهل السنة أنها جسم لطيف، متصرف في البدن، حالّ فيه حلول الزيت في الزيتون، يعبَّر عنه أنا وأنت، بقاؤه في الجسم حياة، وانفصاله عنها موت، وبالجملة فإن الوقوف على حقيقة الروح أمر عسير، والطريق إليه وعرٌ، وقد جعلها الله تعالى من أعظم آياته، الدالة على جلال ذاته ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي خرّوا له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ لم يشذَّ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر واحدٌ منهم، وليس المأمور به مجرد الانحناء، بل السجود بالمعنى المتبّادر أي اسجدوا له تحية وتعظيما، أو اسجدوا لله تعالى على أنه بمنزلة القبلة.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾ استثناء منقطع لأنه كان جنياً، مغموراً بألوف من الملائكة، أي لكنْ إبليس امتنع من السجود استكباراً وعصياناً فعدَّ منهم تغليباً ﴿ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيُّ سببٍ لك ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي مع الملائكة الساجدين لآدم مع أنهم هم، ومنزلتهم في الشرف رفيعة، وقد سجدوا له؟ والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كثيف وأنا روحاني؟ ﴿ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ اقتصر ههنا على الإشارة الإجماليةِ إلى ادعاء الخيرية، اكتفاء بما صرح به حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وقد أخطأ اللعين، حيث ظن أن الفضل كله باعتبار

المادة، بل إن ملاك الفضل والكمال، هو التخلي عن المَلَكات الردية والتحلي بالمعارف الربانية.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ الضمير للسماء، وأُيد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الخير، فإن من يطرد يرجم بالحجر، وقد تضمن هذا الكلام، الجواب عن شبهته، فكأنه قيل: إن المانع لك عن السجود شقاوتك، وبعدك عن الخير، لا شرف عنصرك الذي تزعمه، وفي تفسير ﴿الرجيم﴾ بالمرجوم بالشهب، إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار، عُذّب بها في الدنيا، فهو «كعابد النّار يهواها وتحرقه».

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾ أي هذا الطرد والتبعيد والظاهر أن المراد لعنة الله لقوله سبحانه: وإن عليك لعنتي ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضربها الإنسان في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿ما دامت السماوات والأرض﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي يبعث فيه آدم وذريته للجزاء، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد البعث، فأجابه تعالى إلى الأول دون الثاني.

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الرب سبحانه ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أي إنك من جملة الذين أُخّرتْ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ وهو النفخة الأولى عند الجمهور، كما رُوي عن ابن عباس.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ أي بسبب إغوائك إيَّاي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ ﴾ المعاصي ﴿ لَهُمۡ ﴾ أي لذرية آدم ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ ﴾ أي لأحملنهم على الغواية ﴿ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي كلّهم.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهّرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ ﴾ أي حقّ عليَّ أن أراعيه وأحفظه ﴿ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ أي لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء هو تخليص المخلصين من إغوائه.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ تسلُّطٌ وتصرفٌ بالإغواء، والمراد من العباد جند الله المخلصون ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ الاستثناء منقطع، وإن إغواءهم ليس بطريق القهر والتسلُّط، بل بطريق الاتباع له بسوء اختيارهم، وفيه تفخيم لشأن المخلَصين.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعد الغاوين أو المتبعين لإبليس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جميعاً وهو تأكيد للضمير.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، وطبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ ﴾ من الأتباع ﴿ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أي جزء معّين حسبما يقتضيه استعداده.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي اتقوا ربهم من الكفر والفواحش وما يخدش الإيمان من الكبائر، وظاهر الآية يقتضي حصول الجنات، لكل من اتقى من ذنبٍ واحد، إلا أن الأمة مجتمعة على أن التقوى عن الكفر، شرط في حصول هذا الحكم، فثبت أن الحكم يتناول جميع القائلين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولو كانوا من أهل المعصية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في البساتين والحدائق الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء السلسبيل، ويحتمل أن تكون العيون هذه الأنهار، ويحتمل أن تكون منابع مغايرة لتلك الأنهار، وهو الظاهر.

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ على إرادة القول أي يُقال لهم ادخلوا هذه الجنات، وهو أمرٌ من الله تعالى بالدخول في الجنان ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي سالمين من الآفات والأسقام والأكدار، ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الموت ومن زوال هذا النعيم، لا يخرجون منها أبداً كما قال سبحانه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ ويراد بالأمن في الحاضر والمستقبل.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي حقد ويطلق على الحسد ونحوه من الخصال المذمومة، الكائنة في القلب، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحبس أهلُ الجنة حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلاماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل»[(١)] ومعنى الآية: طهَّر الله قلوبهم عن التحاسد في الدرجات في الجنة، ونزع سبحانه منها كل غل، وألقى فيها التواد والتحابّ ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ وفي كونهم على سرر إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة، وجه بعضهم لبعض، وهذا معنى التقابل، وروي عن مجاهد أن الأسرَّة تدور بهم حيثما داروا.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب بأن لا يكون لهم ما يوجبه من الكدِّ في تحصيل ما لا بد لهم منه، لحصول كل ما يريدونه، من غير مزاولة عمل أصلاً أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات لكمال قوتهم ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والمراد من «عبادي» قيل مطلقاً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري بلاغاً، وروي في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فَيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، يُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة». تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٢ .

وقيل: الذين عبَّر عنهم بالمتقين، أي أخبرهم بأني أنا الغفور الرحيم، الساتر لذنوب عباده، الرحيم الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) ﴾.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد وأليم، لمن أصرَّ على المعاصي والآثام، وفي توصيف ذاته تعالى بالرحمة والمغفرة، دون التعذيب، حيث لم يقل «وأني أنا المعذّب المؤلم» ترجيح لجانب الوعد على الوعيد، ويقوّي أمر الترجيح، الإتيان بالوصفين بصيغتي المبالغة(١)، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه، خلق الرحمة يوم خلقها، مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فبها يتراحمون، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار»(٢).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي الملائكة الذين بشروه بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وإنما سموا ضيفاً لأنهم كانوا في زي الضيف.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أي اذكر وقت دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا ﴾ عند ذلك ﴿ سَلَامًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

---

(١) قال في البحر ٥/٤٥٧: وجاء قوله: ﴿وأن عذابي﴾ في غاية اللطف، إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذِّب المؤلم، وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والمغفرة.
(٢) أخرجه البخاري ١٠/٤٣١ في الأدب ومسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة.

﴿وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وَجِل من باب تَعبِ إذا خاف، قاله عليه السلام حين امتنعوا من الأكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ وإنما لم يذكر هنا، اكتفاء بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يذكر هنا رد السلام عليهم.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ تعليل للنهي عن الوَجَل ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسحَاق﴾ والتنوين للتعظيم، أي بغلام عظيم القدر ﴿عَلِيمٍ﴾ ذو علم كثير، وفي الآية إشارة إلى أنه يكون نبياً، كما في قوله سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسحَاق نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجب عليه السلام من أن يولد له ولد مع سنّ الكِبَر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي بأيّ شيء تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادةً، بشارةٌ بغير شيء، وأراد أن يتحقق من الأمر.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما يكون لا محالة، وباليقين الذي لا لَبْس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ، وعجوز عاقر؟ وكأنَّ مقصوده عليه السلام استعظام نعمته عزَّ وجل عليه، في ضمن الاستعجاب العادي، وليس استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبىء عنه قول

الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِنَ القَانِطِينَ﴾ ولم يقولوا من الممترين، ولذلك جاء الجواب من خليل الرحمن.

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله، وكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿إنه لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ ومراده نفي القنوط عن نفسه، أي ليس بي قنوط، وإنما الذي أقول لبيان حالي، لفيضان تلك النعمة الجليلة، والقنوط بالضمِّ: اليأسُ من رحمة الله تعالى.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾؟ الخطب الأمر الشديد ينزل بالإنسان ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أيها الرسل الكرام ملائكة الرحمن؟ أي أخبروني ما أمركم الهامُّ العظيم الذي جئتم له سوى البشرى؟.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ هم قوم لوط، وُصفوا بالإجرام ذماً لهم لفعلهم الشنيع القبيح.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي إلاَّ أتباع لوطٍ وأهله المؤمنين، فسننجيهم من العذاب ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ أي ممّا يُعذَّب به القوم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لوط وآله منجون كافة، فلا ينزل بهم شيء من العذاب.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من آل لوط ﴿ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين مع الكفرة، لتهلك معهم، فإن قيل: كيف أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، مع أنه لله تعالى؟ أجيب لما لهم من الاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك دبَّرنا كذا، والمدبِّر هو المِلكُ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ شروع في بيان إهلاك المجرمين، وتنجية آل لوط، أي فلما أتى رسل الله لوطاً عليه السلام.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ إنما قاله عليه السلام حين ضاقت عليه الحيل، ولم يشاهد من الضيوف عند مقاساة الشدائد من قومه، الذين يريدون بهم ما يريدون، ما هو المعتاد من الإعانة، حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة، لا أنه قاله عند ورودهم له، على معنى إنكم قوم تنكركم نفسي، وتنفر منكم ولا أعرفكم.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به، فيمترون ويكذّبونك فيه، وبيّنوا له جلية الأمر، فـ «بل» للإضراب عما حسبه من ترك النصرة عليه، والمعنى: ما خذلناك بل جئناك بما يدمّرهم، من العذاب الذي يشكُّون فيه.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ باليقين في عذابهم ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي صادقون فيما نقول، عبّر عنه بذلك للتنصيص على نفي الامتراء منه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي في طائفة من الليل، أو في آخره ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي وكن على أثرهم، تذودُهم وتسرع بهم، وتطَّلِعُ على حالهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي منك ومنهم ﴿ أَحَدٌ ﴾ فيرى ما وراءه من الهول، أو فيصيبه العذاب، فالالتفات على ظاهره، وخلاصة ذلك، وفائدة الأمر والنهي: أن يهاجر على وجه يمكنه وأهله، وفيه إرشاد إلى ما هو أدخل في الحزم للسير، وأدب المسافرة، وتنبيه على كيفية السفر الحقيقي، فلله تعالى در التنزيل!! والطائفة التي لا تحصى ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أوحينا ﴿ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ أي دابر هؤلاء المجرمين أنهم يستأصلون عن آخرهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت دخولهم في الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وإبهامه أولاً ثم تفسيره، من الدلالة على فخامة الأمر ما لا يخفى.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ المدينة «سدوم» وأهلها أولئك القوم المجرمون، والتعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم، مع ما فيه من الإشارة إلى فظاعة حالهم، فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء، ويحسنوا المعاملة معهم، فهم عدلوا عن هذا اللائق، بل قصدوا الواردين بالفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه السلام ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم، أي يبشّر بعضهم بعضاً، والاستبشار إظهارُ الفرح والسرور، إذ قيل لهم إن عنده أضياف في غاية الحسن، فطمعوا فيهم، قاتلهم الله.

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ قاله عليه السلام لأنهم في زيّ الضيف، والتأكيد ليس لإنكارهم، بل لحمايتهم من السوء، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أي فلا تفضحوني عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء، فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مباشرتكم العمل القبيح ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تذلوني بسببهم، من الخزي وهو الهوان، وإنما لم يصرّح بالفاحشة لرعاية مزيد الأدب مع ضيفه، كما قيل: ويرى الحر الموت ألذّ طعماً منه.

﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ من أن تجير منهم أحداً، وتمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان ينهاهم عن ذلك وكانوا

أوعدوه وقالوا ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[1] ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي نساء القوم تزوّجوا بهن بطريق الحلال، ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا ﷺ، على ما عليه جمهور المفسرين، عن ابن عباس قال: «ما خلقَ اللهُ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله سبحانه أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾»[2] «العَمْرُ» بالفتح: البقاءُ، والحياةُ، قال الأعشى: «لَعَمْر من جَعَلَ الشُّهورَ عَلَامَةً» ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي لفي غوايتهم التي أزالت عقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون، فكيف يسمعون نصحك؟.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ العظيمة الهائلة صيحة جبريل قال ابن جريج: الصيحةُ مثل الصاعقة، فكل شيء أُهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في شروق الشمس، أي وقت إشراق الشمس، والجمع بين «مصبحين» و «مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء، بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح، وانتهاؤه عند الشروق، وقوله تعالى: ﴿مقطوع﴾ بمعنى يُقطع عن قريب.

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم، وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٥.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا بهم دورهم، فجعلنا أعالي المنازل أسافلها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر، من طين متحجر، طُبخ بالنار، والتعبيرُ بالمطر يوحي بالشدَّة والكثرة، كأنه غيثٌ ماطر، وبركان ثائر!!.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من القصة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ علامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قيل للناظرين المعتبرين المتأملين بعين الفكر والبصيرة، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «اتَّقُوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ الآية»[1] وكان بعض المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية.

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها في ديار المعذَّبين.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم يعرفون أنَّ ما حاق بهم إنما حاق لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك على اتفاق، أو على الأوضاع الفلكية.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ وهو قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة، فبعثه الله إليهم فكذبوه، فأهلكوا بالظلة، والأيكةُ: الشجرة المتكاثفة ﴿ لَظَٰلِمِينَ ﴾ متجاوزين الحد في البغي والعصيان.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ جازيناهم على جنايتهم بالعذاب، روي عن قتادة أنه قال: إنه جلَّ شأنه سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام، ثم بعث سبحانه عليهم سحابة، فجعلوا يلتمسون الرَّوْح منها، فبعث عليهم منها ناراً فأكلتهم، فهو عذاب يوم الظلة ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي محلَّيْ قوم لوط، وقوم شعيب ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتمُّ به، سُمِّي به الطريق لأنها مما يؤتم به لأن المسافر يتبع به إلى الموضع الذي يريده.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ﴾ يعني ثمود، والحجر: اسم واد بين المدينة والشام، كان يسكنه ثمود عن أبي هريرة قال: لمَّا أتى ﷺ الحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلاَّ أن تكونوا باكين، ثم قنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى جاوز الوادي»[1] ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ حين كذبوا رسولهم صالحا عليه السلام، فإن من كذب واحداً من رسل الله سبحانه، فقد كذب الجميع، لاتفاقهم على التوحيد، والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/٣٧٨ في الأنبياء، ومسلم رقم ٢٩٨٠ في الزهد.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي معجزاتنا كالناقة، وسقيها، وشربها، ودرِّها، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، من شقاوتهم وضلالهم.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ من الانهدام والسقوط، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء لها، لأنها محصَّنة في الجبال، وقيل: آمنين من الموت، لاغترارهم بطول الأعمار، ومن نزول العذاب بهم.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب وقت الصباح، ووقع في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ووفق بينهما أن الصيحة تفضي إلى الرجفة.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ لم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ أي ملتبساً بالحق، والحكمة والمصلحة، بحيث لا يلائم استمرار الفساد، واستقرار الشرور،

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء، دفعاً لفسادهم، وإظهاراً للحق والعدل والإنصاف ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك منهم، فالجملة الأولى إشارة إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الأخروي، وفي كلتا الجملتين تسلية له ﷺ ﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي أعرض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ تحمَّلْ أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، والصفح أبلغ من العفو، وهو ما خلا عن عتاب، وفي أمره ﷺ بذلك، إشارة إلى أنه ﷺ قادر على الانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وحاصل أمره ﷺ بمخالقتهم بخلق رضي، وحلم وتأن، بأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال، وعلى هذا فالآية غير منسوخة، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنها منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تَكِلَ جميع الأمور إليه، ليحكم بينكم، وهو الخلاق العليم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي سبع آيات، وهي الفاتحة، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: قال ﷺ: «الحمد لله رب العالمين هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته[1]» وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٨١.

الكتاب، والسبعُ المثاني»[1] والمثاني بيان للسبع وهو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرّر، وإطلاق ذلك على الفاتحة لأنها تكرر قراءتها في الصلاة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم فهو من عطف الكل على الجزء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها، ومحاسنها وزهرتها ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة: اليهود، والنصارى، والمشركين، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر، لا يعبأ به أصلاً، والخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته، لأنه كان أزهد الناس في الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا، وكان ﷺ يودُّ أن يؤمن كلُّ من بُعث إليه، ويشق عليه بقاء الكفرة على كفرهم، ولذا قيل ﴿وَلاَ تَحزَن عَلَيهم﴾ أي لا تتأثر على عدم إيمانهم وليس المعنى لا تحزن على تمتعهم بذلك ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعْ لهم وارفق بهم، وخفضُ الجناح: كناية عن اللين والرفق.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَقُلْ﴾ يا رسول الله لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي المنذر، المظهرُ لنزول عذاب الله، إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ١٤٥٨ والترمذي رقم ٣١٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ أي أنزلنا عليك القرآن، كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ أي قسموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعداوة، بعضُه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، وهذا مروي عن ابن عباس[1] والحسن، ويجوز أن يُراد بالمقتسمين جماعة من كفرة قريش، أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، ليقفوا على مداخل طرق مكة، وينفروا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، والعضةُ: القطعةُ من الشيء والجزءُ منه[2] فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاءً، وفي التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح، المستلزم لإزالة حياته، وإبطال اسمه للتنصيص على قبح ما فعلوه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفرة مطلقاً، المتآمرين وغيرهم، سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من قول وفعل، ليجزيهم جزاءاً موفوراً.

---

(١) روى البخاري ٨/ ٣٨٢ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جعلوا القرآنَ عِضِين﴾ قال: «هم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ جزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه».

(٢) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٥: عِضِينَ مأخوذ من الأعضاء أي فرّقوه فرقاً وجعلوه أعضاء، وفي الصحاح للجوهري: أصله عِضْوة من عضوتُه أي فرّقته، لأن المشركين فرّقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكهانة، وشعراً.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فاجهر به، من صَدَع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ولم يزل ﷺ مستخفياً قبل نزول ذلك، فلما نزلت خرج هو وأصحابه، روي ذلك عن ابن مسعود ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ بتدميرهم وإهلاكهم، ودلَّ القرآن الكريم على أن الله تعالى أفناهم، وأزال كيدهم، وكانوا خمسة من رؤساء الطغيان، دعا عليهم الرسول ﷺ فأهلكهم الله وكفى رسوله شرَّهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ ﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسول الله ﷺ بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ، بل اجترؤوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله تعالى ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ من الشرك، والطعن في القرآن، والاستهزاء به وبالرسول، وكان يضيق صدره ﷺ لأن الجبلّة البشرية تضعف عن الاحتمال.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح، متلبِّساً بحمده، أي قل: «سبحان الله وبحمده» يكفك، ويكشف الغمَّ عنك ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي المصلين، وفي أمره ﷺ بما ذكر إرشاد إلى ما يكشف به الغم الذي يجده، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة، جيء بالأمر بها، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة، وفي الآية إشارة إلى الترغيب بالجماعة فيها.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه، من عبادته تعالى، وإيثارُ الإظهار لتأكيد إظهار اللطف به ﷺ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي، والمعنى: فاعبده ما دمتَ حياً، ولا تُخِلَّ بالعبادة لحظة، فليس المراد ما زعمه بعض الملحِدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصَّل ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، ولقد خرجوا بذلك من الدين، وجماعةِ المسلمين، ولم يزل ﷺ ما دام حياً آتياً بمراسم العبادات، فيقال: إنه لم يأته ﷺ اليقين حتى توفي؟ وافترى بعضهم أنه ﷺ لم يتضح له ليلة المعراج صبح الكشف والشهود، ولا يتجاسر على ذلك من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، أو حبة خردل من عقل، ينتظم به في سلك الإنسان، ونسأل الله سبحانه أن يحفظنا من سوء القضاء، ويمنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحبُّ ويرضى، وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»

* * *

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾.

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي الساعة، عبَّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل، وللإيذان بأن إتيانُه منوط بحكمه وقضائه، وإتيانُه عبارةٌ عن دنوِّه واقترابه، أو على إتيان مباديه القريبة، والمعنى: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة، وقرب قيام الساعة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الخطاب للكفرة خاصة، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنَّه حُمل على الحقيقة، ونُهوا عنه بضربٍ من التهكم، ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه السبَّابة والوسطى»[1] ولمَّا قالوا: إن صحَّ مجيء العذاب فالأصنام تخلصنا بشفاعتها، رد ذلك فقال ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد الله بهم من العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٩١ ومسلم رقم ٢٩٥١ في الفتن، والترمذي رقم ٢٢١٤.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ المراد بالملائكة: جبريل عليه السلام ومن معه من حفظة الوحي ﴿ بِٱلرُّوحِ ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآن الكريم، على نهج الاستعارة، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ أي حال كونه ناشئاً عن إرادته وأمره ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أن ينزلهم به عليهم من الأنبياء والمرسلين، لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾ أي ينزلهم بأن أنذروا أي بهذا القول، والمخاطبون به الأنبياء، والآمر هو الله سبحانه، والملائكة نَقَلَةٌ للأمر أي أعلمُوا الناس ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ خطاب للمستعجلين، أي فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال تقدست أسماؤه:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه، بالحق الثابت، والحكمة الفائقة على الوجه اللائق ﴿ تَعَٰلَىٰ ﴾ تقدّس بذاته، لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداع السماوات والأرض ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم المعهود.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي هذا النوع البشري ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا قدرة له، سيّال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد الخلق ﴿ خَصِيمٌ ﴾ مجادل عن نفسه، مخاصم لخالقه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح الخصومة كأنه قد لُقِّن بها، لأن النفوس البشرية من أول الفطرة أقلُّ فهماً من سائر الحيوانات،

ألا ترى أنَّ ولد الدجاجة، كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق، فيهرب من الهرة، ويلتجىء إلى الأم، ويميّز بين الغذاء الذي يوافقه أو لا يوافقه، أما ولد الإنسان فإنه لا يميّز حين الولادة بين العدو والصديق، ولا بين الضار والنافع، ثم بعد كبره يقوى عقلُه، ويعظم فهمُه، بحيث يعرف أصناف المخلوقات والفلكيات والعنصريات، فالانتقال من تلك البلادة، إلى هذه الكياسة، نعمةٌ عظمى من فاعل مختار حكيم، فالواجب عليه أن يعرف خالقه، وتلك النعمة، ويشكر خالقها، وهو على العكس منكرٌ له، ومخاصم لخالقه، والغرضُ منه وصفُ الإنسان بالإفراط في الوقاحة، والتمادي في الكفر والعصيان.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ وهي الأزواج الثمانية، من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ وهو ما يدفأ به من لباس معمول، من صوف، أو وبر، أو شعر، فيقي من البرد ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي دَرُّها، وركوبها، وحملُها، والحراثة بها، وغير ذلك، وإنما عبر عنها بالمنافع بها ليتناول الكل ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي ما يؤكل منها من اللحوم، والشحوم، والألبان.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ مع ما فُصّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾ أي زينة في أعين الناس، ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها من مراعيها ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها[1]، وتعيين الوقتين

---

(١) قدّم الإراحة على السرح، مع أنها مؤخرة، لأن الأنعام وقت الإراحة، أجمل وأحسن من سرحها، لأنها تجيء مالئة البطون، حافلة الضروع.

لأن ما يدور عليه أمر الجمال، من تزيين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها، إنما هو عند ورودها وصدورها.

﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ ﴾.

﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ ﴾ جمع ثِقَل، وهو متاعُ المسافر، مثل سبب وأسباب ﴿ إِلَىٰ بَلَدٖ ﴾ أي عام لكل بلد سحيق ﴿ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ ﴾ واصلين إليه بأنفسكم لولا الإبل ﴿ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ ﴾الشقُّ: المشقة، أي لم تصلوا إليه إلا بمشقة عظيمة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة، ويسَّر لكم الأمور الشاقة.

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ ﴾.

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ ﴾ الخيل اسم جنس للفرس، لا واحد له من لفظه، أي خلق الخيلَ، والبغالَ، والحمير ﴿ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ تعليل بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً، مما لا ريب في تحققه ﴿ وَزِينَةٗۚ ﴾ أي وهي كذلك زينة وجمال، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على حرمة أكل لحم الخيل، وعلل ذلك بأنها خُلقت للركوب والزينة، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعديد النعمة، والتنبيه على كمال قدرته تعالى ﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من أصناف خلائقه مما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه(١).

---

(١) ظهرت في هذه الأزمان، وسائل للحمل والركوب كالسيارات والقاطرات، والطائرات النفاثة وغيرها من الآلات الحديثة المخترعة، وكلها من تعليم الله عزَّ وجل للإنسان، =

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْدُ: مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيلٌ قصدٌ أي مستقيم أي، حقٌّ عليه سبحانه وتعالى، بموجب رحمته ووعده، بيان الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيد، بنصب الأدلة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، أي عليه تعالى تقويمها وتعديلها بحيث يصل سالكها إلى الحق. «**مسألة الوجوب على الله عزَّ وجلَّ**» لا يجب عليه سبحانه شيء بحكم غيره، عند أهل السُنَّة، إذ لا سلطان فوق سلطانه، فيوجب عليه ويجعله مسؤولاً، ومذهبُ السلف الصالح في هذه المسألة أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه وكتبه على نفسه، وما هو مقتضى صفاته كالعدل والرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ والأشاعرة ينقلون عن المعتزلة قولهم: بأنه يجب على الله كذا وكذا، فيدل نقلهم على أنهم يوجبون على الله تعالى إصلاح من يكون مكلفاً ومسؤولاً، وهذا حكم غريب وعجيب، مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، من أنه لا يجب على الله شيء، إلا ما أوجبه سبحانه تفضلاً منه وكرماً، ثم اعلم أنّ تقويم وتعديل السبيل، على الله عزَّ وجل، لكنْ لا بعدما كانت في نفسها منحرفة عنه، بل إبداعها ابتداءً على نهج قول القائل: سبحان من صغَّر

= فسبحان من أبدع بهذه العبارة القصيرة، ما يتمخض عنه العلم في المستقبل من أنواع الاختراعات الحديثة، ولو أن القرآن العظيم أخبرهم في ذلك الزمان، أنه ستكون هناك مراكب فضائية، وعربات لا تجرُّها الخيل، وسيطيرون بين السماء والأرض بالطائرات النفاثة، لسارعوا إلى تكذيب القرآن، ولهذا تدرج معهم بالأسلوب الحكيم مراعاةً لعقولهم وأفكارهم، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه»؟.

البعوض، وكبّر الفيل، وهذه هي الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة، فإن ذلك ليس بحق على الله تعالى، لا بحسب ذاته، ولا بحسب رحمته، بل هو مخل بحكمته، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء ﴿وَمِنْهَا﴾ أي بعض السبيل ﴿جَآئِرٌ﴾ أي مائل عن الحق لا يوصل سالكه إليه، وهو طريق الضلال، التي لا يكاد يحصى عددها، ومعنى الجور في اللغة: الميل عن الحق، جار عن الطريق: مال، وعن عبد الله بن المبارك: قصد السبيل: السُنَّةُ، والجائر: البدعة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى ما ذُكر من التوحيد هداية موصلة إليه البتة، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك، ولكنْ لم يشأ لأن مشيئته تعالى تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيارُ الجزئي الذي عليه تترتب الأعمال، التي بها نِيْطَ الجزاء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي مطراً ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي ما تشربونه ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ أي ومنه يحصل شجر، والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساقٌ أو لا ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون، من سامت الماشية، وأسامها صاحبها: أرسلها لترعى العُشب.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ أي الله تعالى ﴿ بِهِ ﴾ بما أنزل من السماء ﴿ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم

من الأرض، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على التجدد والاستمرار، وأنها سنة جارية على مرِّ الدهور، ولم يقل «كلَّ الثمرات» لأن كلَّها لا يكون إلاّ في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضها للتذكرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية، لاشتماله على كمال العلم، والقدرة، والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكّر في أن الحبة والنواة، تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها فيخرج منه عروق، تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار، مشتملة على أجسام مختلفة الأشكال، والألوان، والخواص، والنواة قابلةٌ لتوليد الأمثال مع اتحاد المواد، واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل، علم أن من هذه أفعاله وآثاره، لا يمكن أن يشبهه شيء من صفات الكمال، فضلاً عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاته التي هي الألوهية، وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات ختم الآية الكريمة بالأمر بالتفكر ﴿لآيةً لِقومٍ يتفكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفة، لمنامكم ومعاشكم، ولعقد الثمار ونضاجها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي مسخّرة لمصالحكم ومنافعكم بتسهيله تعالى وتيسيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التسخير ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وحيث كانت هذه الآثار المتعدّدة ـ الدَّالةُ، بما فيها من عظيم القدرة، على الوحدانية ـ أظهرُ جميع الآيات، وعُقلت بمجرد العقل، قيل: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي وما خلق ﴿ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من حيوانٍ ونباتٍ حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ أي أصنافه، فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون، واختلاف المخلوقات مع كثرتها لا يشبه بعضه بعضاً من كل الوجوه فيه دليل على كمال قدرته تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ﴿ لَأٓيَةً ﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ندَّ له ولا ضدَّ ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتّعظون فيعتبرون بذلك، ويستدلون على التوحيد، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى التذكر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب، والغوص، وصيد الأسماك ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ أي غضاً وهو السمك، ووصفُه بالطراوة، للإشعار بلطافته، والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله، كيلا يتسارع إليه الفساد، وللإيذان بكمال قدرته تعالى، خَلَقه الله عذباً طرياً، في ماءٍ زعاف، حيث إنه حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله تعالى وحكمته، أظهرَ الضدَّ من الضدِّ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبَّر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم، لكون لبسهنَّ لأجلهم ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي جواري فيه، مقبلةً ومدبرة، ومعترضة، بريح واحدة تشقه في سيرها، من المَخْر وهو شقُّ الماء ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾ عطفٌ على تستخرجوا أي ولتطلبوا ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من سَعَة رزقه بركوبها للتجارة

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأداء شكرها، بالإيمان، والطاعة، ففي ركوب السفن قطعٌ لمسافةٍ طويلة، مع أحمال ثقيلة، في مدة قليلة، مع أنها طريق في طريق المهالك.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، أو لئلا تميد بكم، فإن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كانت كرةً خفيفة، وكان من حقها أن تتحرك بأدنى سبب محرّك، فلما خُلقت الجبال تفاوتت حافاتها، وتوجَّهت الجبالُ بثقلها فصارت كالأوتاد، والله أعلم ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي معالم يستدل بها المسافرون بالنهار، من جبل، وسهلٍ، ومياهٍ، وريح ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يهتدون بها بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيرها، والمراد بالنجم الجنس، والعرب مشهورون بالاهتداء بالنجوم، ومن الفقهاء من يجعل ذلك، دليلاً على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة، فعليه أن يستدلَّ بالنجوم وبالعلامات.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً أصلاً، وهو تبكيتٌ للكفرة، وتنبيه على كمال قبح ما فعلوه، والمراد بمن لا يخلق الأوثان والأصنام، وكل ما هذا شأنه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا

تلاحظون فلا تتذكرون ذلك، فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يستر ما فرّطتم من كفرانها، ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال مما كانوا يمكرون ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي تظهرونه منهما من الإيذاء وفيه من الوعيد ما فيه.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ سبحانه ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أصلاً، أي ليس من شأنهم ذلك ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، فهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان فقال:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾.

﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ أي ميتة لا حياة فيها، ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلاً وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي تلك الآلهة ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي

عبدتهم، وهذا على طريق التهكم بهم، لأن شعور الجمادات بديهي الاستحالة.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يشاركه شيء في الألوهية، فهو واحد أحد، فرد صمد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأحوالها التي من جملتها البعث ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية وللآيات الدالة عليها ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، والكفر بالآخرة يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم سرَّهم وجهرهم، لا تخفى عليه خافية ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد، أي لا يحب جنس المستكبرين، فكيف بمن استكبر عن التوحيد والإيمان؟ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْرٍ، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَناً، ونعلُه حسناً!! فقال ﷺ: ليس ذاك، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطر الحقِّ، وغمْطُ الناس»[1].

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٩١ في الإيمان، ومعنى «بطر الحق» أي دفعه وعدم قبوله، و«غمط الناس» أي احتقارهم وازدراؤهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ﴾ لأولئك المنكرين المستكبرين ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أي أيَّ شيءٍ أنزل ربكم؟ أو ما الذي أنزله؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما تدَّعون نزوله أحاديث الأولين وأباطيلهم، وليس من الإنزال في شيء، وهؤلاء القائلون هم المقتسمون، الذين اقتسموا مداخل مكة ينفِّرون الناسَ عن رسول الله ﷺ عند سؤال وفود الحجاج عما نزل عليه ﷺ، وعن نبوّته ورسالته.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي قالوا ما قالوا، ليحملوا ذنوبهم الخاصة بهم، وهي أوزار إضلالهم ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يكفَّر منها شيء، بنكبةٍ أصابتهم في الدنيا، كما تُكفَّر أوزار المسلمين، وهذا يدلُّ على أنه سبحانه، قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ أي ومن بعض أوزار من ضلَّ بإضلالهم، وهو وزرُ الإضلال، لأنهما شريكان في الإجرام ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، أو يضلون من لا يعلم أنه ضلال، وفائدة التقييد بها الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميّزوا بين المحقِّ والمبطل ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس شيئاً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة، والوزرُ: الإثمُ، جمعه أوزار، مثل حمل وأحمال.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وعيد لهم برجوع مكرهم إلى أنفسهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية، الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل، وهو عام في جميع المبطلين ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ ﴾ أي قلع الله بنيانهم من قواعده وأسسه ﴿ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ وهي الأعمدة التي تعمده فضعضعت أركانه ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي سقط عليهم سقف بنيانهم بعد تهدم القواعد، شُبهت حال أولئك الماكرين، في تدبيرهم المكائد التي أرادوا بها الإيقاع برسل الله، وفي إبطاله تعالى تلك المكائد، بحال قوم بنوا بنياناً، وعمَّدوه بالأساطين، فأتى الخراب للبنيان من قِبَل أساطينه، بأن ضُعضعت أركانه، فسقط عليهم السقف فهلكوا[1] ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي الهلاك والدمار ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ولا يدرون، ولا يخطر على بالهم، فالمعنى: إن هؤلاء الماكرين والقائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين، سيأتيهم من العذاب العاجل وهم لا يحتسبون.

﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

---

(١) الآية مشهد كامل للهلاك والدمار، الذي أصاب أولئك المجرمين، وفيه سخرية بمكر الماكرين، فقد مثَّل تعالى لما دبَّره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم، فخرَّب الله عليهم أصوله وأساسه، فذهب الأساس، وهدمت القواعد، وسقط عليهم البنيان، فهلكوا وبادوا، وهو تمثيل بادي الروعة فائق الجمال.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ عطف على مقدّر، أي هذا عذاب هؤلاء وجزاؤهم في الدنيا، ويوم القيامة يخزيهم أي يذلهم بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿وَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهم تفضيحاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافهم إليه سبحانه، حكايةً لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخٌ مع الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؟ أي تخاصمون الأنبياء في شأنهم، حين بيّنوا لكم بطلانها، والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة والمدافعة، على طريق الاستهزاء والتبكيت ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الدعاة الصادقون، والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونهم ويتكبرون عليهم يقولون توبيخاً لهم، وتحقيقاً لما أوعدوهم به: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي الفضيحة والذل ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الشديد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى، وبآياته ورسله، وكتبه والبعث.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي على الكافرين المستمرين على الكفر ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وأيُّ ظلم أكبرُ من هذا الظلم حيث عرّضوها للعذاب المخلّد، وبدلوا فطرة الله تبديلاً ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا، أي فيسالمون حين يعاينون الموت ويتركون المشاقة، وينزلون عمّا كانوا عليه في الدنيا من الكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍۭ﴾ من شرك، قالوه منكرين لصدوره عنهم، كقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] وإنما عبروا عنه بالسوء، اعترافاً بكونه سيئاً ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ عليهم من قِبَل أولي العلم، وإثبات لما نفوه، أي

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٢٣.

بلى كنتم تعملون ما تعملون من الجرائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه، فلا يفيد إنكاركم وكذبكم على أنفسكم، ثم صرَّح بذكر العقاب فقال:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، وذوقوا أصناف عذابها، وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي عن التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[1] وذكرهم بعنوان التكبر، للإشعار بسبب خلودهم فيها، والمعنى: بئست جهنم منزلاً ومقاماً للمتكبرين.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي المؤمنين، وصفوا بالتقوى إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشيء عن التقوى ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾؟ أي أنزل خيراً، وهو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيباً للسائل وهو جواب مطابق للسؤال سبكاً، وللواقع في نفس الأمر مضموناً، وأما الكفرة - خذلهم الله - فقد غيّروا الجواب عن نهج الحق، روي أن أحياء العرب، كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه الكفار وأمروه بالانصراف، وقالوا إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرُّ وفدٍ إن رجعتُ إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد ﷺ فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين ﴿قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي لهؤلاء المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم، أو فعلوا الإحسان

---

(١) سورة النحل، آية: ٢٢.

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي مثوبتهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبق عليه، وهو كلام مبتدأ مدح الله به المتقين، ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي لهم جنات عدن أي إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي يدخلونها للإقامة لا يخرجون منها أبداً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع المشتهيات وهذا كقوله تعالى: ﴿وفيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾(١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي كل من يتقي من الشرك أو المعاصي، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً، ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تقبض أرواحهم ملائكة الرحمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي طيبة نفوسهم بلقاء الله، طاهرين من دنس الظلم لأنفسهم، طيبي النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ﴿يَقُولُونَ﴾ أي قائلين لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قال القرظي: إذا استدعيت نفسُ المؤمن، جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، اللهُ تعالى يقرأ عليك السلام، وبشَّره بالجنة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي جنات عدن، والمراد دخولهم في وقته بعد البعث والحساب، فإن ذلك بشارة عظيمة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧١.

ثباتكم على التقوى والطاعة، فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» المرويُّ في الصحيحين، قال النووي: لا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والتوفيق للإخلاص وقبوله بفضل من الله تعالى.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة، والتعبير بانتظاره تصوير لهجومه عليهم بمخاوفه، فكأنهم يترصّدون وروده ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي العذاب الدنيوي لا القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل فعل هؤلاء، من الشرك والظلم، والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبهم وإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟﴾ أي بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لأن عاقبة ظلمهم راجعٌ إليهم.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي أصابهم عقوبات أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم، والحيقُ لا يستعمل إلا في الشرّ ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾ ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي كفرة قريش، وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الإضمار لتقريعهم ودمغهم بالشرك ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره، لما عبدنا ذلك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من السوائب والبحائر وغيرهما، وإنما قالوا ذلك تكذيباً للرسول ﷺ، وطعناً في الرسالة، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، وما لم يشأ يمتنع، وحيث عبدنا غيره فهو واقع بمشيئته، ولو شاء لمنعنا من ذلك، وهذا عين ما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية فأجيب بقوله عزَّ وجلَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، أي أشركوا بالله، وحرموا ما أحلَّه، وردوا رسله وجادلوهم بالباطل، حين نبهوهم على الخطأ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يبلغون رسالات الله ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان، فليس ذلك من وظيفتهم، ولا من الحكمة التي يدور أمر التكليف عليها، والفاء للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل، فإن الرسل ليس شأنهم إلاَّ تبليغ أمر الله تعالى ونواهيه، لا تحقيق مضمونهما على الناس قسراً وإلجاءً.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولاً خاصاً بهم، كما بعثنا فيكم الرسول ﷺ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله وحده ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كل ما يدعو إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو توحيده وعبادته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ

حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت لعناده وإصراره عليها، وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يا معشر الكفرة أي امشوا في أكنافها ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمود، ممن حقت عليهم الضلالة والعذاب، لعلكم تعتبرون حين تشاهدون آثار الهلاك.

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾.

﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ خطاب للرسول ﷺ ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي إن تطلب هدايتهم بجهدك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً، فيمن أصرَّ على الضلالة، بسوء اختياره، والمراد به كفرة قريش أي إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك، لأن الله لا يهدي من يضله، وهؤلاء من جملتهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرهم في الهداية، أو يدفع العذاب.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ واستدلوا بأن الشيء إذا فني وصار عدماً محضاً، لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر، فردَّ الله تعالى بقوله الحق ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعۡدًا﴾ أي وعد بذلك وعداً ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي وعداً ثابتاً عليه إنجازه، لامتناع الخُلْف في وعده ﴿حَقّٗا﴾ صفة أخرى له ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز وجل، من العلم والقدرة والحكمة، وغيرها من صفاته تعالى، وعدم وقوفهم على سر التكوين.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ متعلق بما دلَّ عليه «بلى» من البعث أي يبعثهم ليبين لهم بذلك ﴿ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه، ممَّا جاء به الشرع المبين ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي وليعلم الجاحدون بالله، والمنكرون للبعث ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ في كل ما يقولونه، لا سيما في قولهم ﴿لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين المطيع والعاصي، والمحق والمبطل.

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا ﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين، أيَّ لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء، فإنا نقول ﴿ لِشَىْءٍ ﴾ أيَّ شيءٍ كان عزَّ أو هان ﴿ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾ أي وقت إرادتنا لوجوده ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والمعنى: أن إيجاد كل مقدَّر على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعثُ، الذي هو بعضٌ منها؟.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي في دين الله ورضاه، ولوجهه سبحانه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ الذين ظلمهم كفرة مكة وأخرجوهم من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى المدينة المنورة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ تبوئة حسنة، أي نسكنهم مسكناً حسناً خيراً مما فقدوه، قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار

هجرة.. والآية تدلُّ على فضل المهاجرين، إلا أنها إذا لم تكن خالصة لله عزَّ وجلَّ لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً، قال له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا، وما ادَّخر في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد، من أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوّضون الأمر لله، ويرضون بما أصابهم في الدين، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ وهذا ردٌّ على كفرة قريش حين قالوا: الله أجلُّ من أن يكون له رسول من البشر، فهلاَّ بعث إلينا ملكاً!! فنزلت الآية أي جرت السُنَّة الإلّهية حسبما اقتضته الحكمة، بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً، يوحي إليهم بواسطة المَلَك، أوامره ونواهيه، ليبلّغوها للناس، ولمَّا كان المقصود من الخطاب للرسول ﷺ، تنبيه الكفار على مضمونه، صَرَفَ الخطابَ إليهم فقيل: فإن شككتم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب وهم العلماء بالتوراة والإنجيل، ليعلموكم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإنما أُمروا بذلك، لأنهم يعتقدون أن

أهل الكتابِ أهل العلم والذكر، وفيه دلالة على أنه تعالى لم يرسل للدعوة العامة، مَلَكاً، ولا امرأةً ولا صبيّاً، وقوله تعالى: ﴿جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسلاً﴾ معناه رسلاً إلى الأنبياء، وفيه إشارة إلى وجوب الرجوع إلى العلماء، فيما لا يعلم من الأمور الدينية.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ الباء متعلقة بمقدَّر، وقع جواباً عن سؤال كأنه قال: بِمَ أُرسلوا؟ فقيل: أرسلوا ﴿بالبيِّنات والزُّبُر﴾ أي بالمعجزات والكُتب ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي القرآن، سُمّي به لأنه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ كافة ويدخل فيه أهل مكة ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في ذلك الذكر، من الأحكام والشرائع وغير ذلك، بياناً شافياً كما يُنبيء عنه صيغة التفعيل «نُزِّلَ» ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إرادة أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق، وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هم كفرةُ قريش، الذين مكروا برسول الله ﷺ، وراموا صدَّ أصحابه عن الدخول في الإسلام ﴿ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ كما فعل بقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه أي في حالة غفلتهم.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم ومتاجرتهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي على مخافةٍ وحذر من الهلاك، بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون مترقبون لنزوله، فإنه يكون أشد على النفس، وقيل: التخوف هو التنقص، والمراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟[1] والمراد بذكر الأحوال الثلاثة، بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم، بأي وجه كان، لا الحصر فيها ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم لها.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ استفهام إنكاري، أي ألم ينظروا ولم يروا ﴿ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من كل شيء له ظل كالجبل، والشجر، والبناء ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإن التفيؤ مطاوع الإفاءة ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال، متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل منها ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ والمراد بسجودها: انقيادها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، وكان الحسن رحمه الله يقول: ظِلُّك يا بن آدم يسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد؟ ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون، منقادون لله عزَّ وجلَّ، دخر الشخص دخوراً ذلَّ وهان، والمعنى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب، بارتفاع الشمس وانحدارها، تتحرك على مدار معين، بتقدير العزيز العليم، منقادة لما قُدِّر لها، ملتصقة بها على هيئة الساجد الخاشع المنيب، منقادة لحكمه تعالى.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٤١.

إن الله تعالى قد أعطى لكل شيء من المخلوقات، سمعاً، وبصراً، وفهماً، ولساناً، به يسمع كلام الحق، ويبصر شواهد الحق، ويفهم إشارة الحق، فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان، ويسجد له بذلك الطوع، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] فلا يبعد أن يسجد لله كل شيء، وإن لم نفقه سجوده.

ثم بعدما بيّن سجود الظلال، شرع في بيان سجود المخلوقات فقال:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي له تعالى وحده، يخضع وينقاد، لا لشيء غيره ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قاطبة ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كائناً ما كان ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي مما يدبّ فيهما من مخلوقات، ملائكة أو بشراً، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي بما فيهم الملائكة الأبرار الأطهار ﴿وَهُمْ﴾ أي الملائكة مع علو شأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود له عزَّ وجلَّ.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي يخافون ربهم مالك أمرهم ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه خوف هيبةٍ وإجلال، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ به من الطاعات، وبعدما بين أن جميع الموجودات يخضعون الخضوع التام الكامل لله عزَّ وجلَّ، أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه للمكلفين عن الإشراك فقال سبحانه:

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾.

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى لجميع المكلفين ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ أي لا تعبدوا إلهين، فإن الإله الحق لا يتعدد، وإنما ذكر العدد، مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك، للدلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة، للدلالة على أن المقصود، إثبات الوحدانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ والنهي عنه هو الإشراك به تعالى، ألاَ ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكّده، خُيِّل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية، فمن أجل ذلك جاء لفظ ﴿واحد﴾ ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات من الغَيْبة إلى التكلم، لتربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قُدم المفعول، وكُرر الفعل، أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون أي فخافون دون سواي.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً وملكاً، تعليل لانقياد ما فيهما له سبحانه خاصة ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي الطاعة والانقياد ﴿وَاصِبًاۚ﴾ واجباً، ثابتاً لا زوال له، فهو الإله الحقُّ، الحقيق بأن يُرهب ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؟ الهمزة للإنكار، أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضر إلاّ بيده؟.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾.

﴿ وَمَا بِكُم﴾ أيْ أيَّ شيءٍ نلتموه ممَّا يلابسكم ويصاحبكم ﴿مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ أيَّ نعمةٍ كانت ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ فهي من الله تعالى، وهو المتفضل بها على عباده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي إذا أصابتكم المكاره، والشدة والأمراض ونحوها ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي تضرعون في كشفه، ليس لكم

غيره تعالى، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، أي إليه وحده تجأرون، لعلمهم بأنه لا مفزع للخلق إلاَّ هو، فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم في حال السلامة؟.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ أي إذا أزال الشدة والضر، والبلاء عنكم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ الخطاب للمشركين، و «من» للبيان كأنه قيل: إذا فريق منكم كافر، وهم أنتم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ والتعرض لوصف الربوبية، للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه، من الإشراك والكفران بالمنعم المتفضل جلَّ وعلا.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، وإنكار كونها من الله تعالى، لأنهم يضيفون كشف الضر إلى الأسباب، ولا يضيفونها إلى الله تعالى، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه، تضرَّع إلى الله تعالى، فإذا زال أحال زواله إلى الدواء، وهذه الحالة تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمر تهديد أي فعيشوا فيما أنتم فيه، إلى المدة التي ضرب الله عز وجل لكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم وكفركم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ هذا تعداد لجناياتهم الشنيعة ﴿ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لما لا يعلمون حقيقته، وقدره الخسيس من الجمادات، التي يتخذونها شركاء لله

تعالى، جهالة منهم وسفاهة، ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الزرع والأنعام، تقرباً إلى الأصنام وهي جمادات ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤال توبيخ وتقريع، أقسم تعالى بنفسه على نفسه ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنها آلهة، وتختلقون الكذب على الله، والغرض من الآية التوبيخ لهم على عبادة الأوثان، وهي جمادات لا تضر ولا تنفع.

> ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ هم خزاعة، وكنانة، الذين كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة، لاستتارهم عن العيون كالنساء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عزَّ وجل، عن مضمون قولهم الفاجر، وتعجيبٌ من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين!! وهو كقوله تعالى: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟ ثم ذكر تعالى أن الواحد منهم لا يرضى بالبنت لنفسه، فكيف ينسبها لله عز وجل؟.

> ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي أخبر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي صار دوام النهار ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس، والاسوداد كناية عن الاغتمام والتشويش، لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره، وانبسط روحه، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه، فتلألأ الوجه، وإذا اشتد غم الإنسان، احتقن الروح ولم يبق منه أثر قوي في وجهه، فيصفرُّ ويسودّ وجهه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلىءٌ حنقاً وغيظاً من المرأة.

> ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾.

﴿يَتَوَارَىٰ﴾ أي يستخفي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء، ثم تردَّد في أمره، محدِّثاً نفسه في شأنه ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي ذلٌ وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ أي يخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، دسَّه في التراب دسَّاً: دفنه فيه، وكلُّ شيء أخفيتَه فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم.

قال أهل التفسير: إن مُضَر، وخُزاعة، وتميماً، كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك، إمَّا خوف الفقر، وكثرة العيال، أو الحميَّة، فيخافون عليهن من الأسر، ونحوها، وكانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، ابتهج وسُرَّ بذلك، وإن كانت أنثى، حزن ولم يظهر أمام الناس أيَّاماً، حتى يفكِّر ما يصنع بها، فإذا أراد أن يستحييها تركها، حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل أو الغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها، قال لأمها: زيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى أحمائها، ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة، دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها، وقيل: إنهم كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم، من الهُونِ، والازدراء، والحقارة، لله المتعال عن الصاحبة والولد، وقيل معناه: ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي صفة السوء، الذي هو كالمثل في القبح، وهي إيثار الذكور، ووأد البنات لدفع

العار وخشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجود الذاتي، والغنى المطلق، والجودُ الواسع، والنزاهةُ عن صفات المخلوقين، فإن قيل: كيف جاء ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلى﴾ مع قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾؟ قلنا: المثلُ الذي يذكره الله حقٌّ وصدقٌ، والذي يذكره غيره فهو باطل، أي لا تمثّلوا لله بالأمثال الباطلة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي المتفرِّدُ بكمال القدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي الكفار ﴿بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم، التي من جملتها ما عُدّد من قبائحهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ما ترك شيئاً من دابة قط بل أهلكها بالمرة، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[1] فإن قيل: لم يصدر عن الدابة ذنبٌ، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس؟ أجيب بأنها مخلوقة لمنافع البشر، فهي عذاب للبشر أيضاً ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد لهلاكهم، لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها، ولا يلزم من عموم الناس، وإضافة الظلم أن يكونوا كلهم ظالمين، لجواز أن يضاف إليهم بما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي ينسبونه إليه سبحانه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، مما ذُكر من البنات، وأراذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها، وهو تكرار لما سبق للتقريع ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي تقول الكذب[1]، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى وهي الجنة كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ فإن قيل: كيف يقولون بذلك، وهم كانوا منكرين للقيامة؟ قلنا: نعم إنهم كانوا منكرين، فلعلهم قالوا: إن كان البعث حقاً فإنه يحصل لنا العاقبة الحسنى، بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، وقيل: كان في العرب جمعٌ يقرُّون بالبعث، ولذلك كانوا يربطون البعير على قبر الميت، ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون: إن ذلك الميت إذا حُشر فإنه يُحشر معه مركوبُه فيركب عليه ﴿لَا جَرَمَ﴾ ردٌّ لكلامهم ذلك، وإثبات لنقيضه، أي حقاً ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما أمّلوا من الحسنى ﴿النَّارَ﴾ التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي مقدّمون إليها ومعجّلون، من أفرطتُه أي قدّمته في طلب الماء، والفَرَط: بفتحتين المتقدم لطلب الماء.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يناله من جهالة الكفرة، ووعيد لهم على ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلاً فدعوهم إلى الحق، فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قرينهم في الدنيا يغريهم ويغويهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

---

(١) حكي أن أبا يوسف ردَّ الشهادة على واحد من أقرباء هارون الرشيد، فشكى للخليفة فقال هارون: لمَ رددت شهادته؟ قال: لأني سمعته يوماً بين يديك يقول: عبدُك، فإن كان صادقاً، فلا تقبل شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فلا شهادة للكاذب!!.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ ﴾ أي ما أنزلناه عليك لعلة من العلل إلا لتبين وتوضِّح ﴿ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي للهداية والرحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المغتنمون من آثاره، ولا ينفي كونه كذلك في حق الكل.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ هذا تكرير لما سبق، تأكيداً لمضمونه، وتوطئةً لما يعقبه من أدلة التوحيد، لأن المقصود الأعظم من القرآن الكريم تقرير أصول أربعة: الإلٰهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والأحرى بالبيان أولاً تقرير الإلهيات، فلهذا السبب، كلما امتدَّ الكلام في فصل من الفصول، عاد إلي تقرير الإلٰهيات ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بما أنبت به فيها من النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي يبسها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لَءَايَةً ﴾ دالة على وحدانيته سبحانه، وعلمه، وقدرته، وحكمته ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سمع إنصاف وتدبر وتفكر، لا سماع الآذان لأن من لا يسمع بقلبه، فكأنه لم يسمع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ وأيَّ عبرة تحار في دركها العقول ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي بطون الأنعام والتذكير لمراعاة جانب اللفظ، فإنه اسم جمع

كالرهط، والقوم، فهو بحسب اللفظ مفرد، وبحسب المعنى جمع، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ الفرث، فُضالة ما يبقى من العلف في الكرش، المنهضم بعض الانهضام، وكثيف ما يبقى في المِعَىٰ، فإذا خرج من الكرش لا يسمى فرثاً، وذلك أن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك إلى معدته إن كان إنساناً، وإلى كرشه إن كان من الأنعام، فإذا حصل الهضم الأول فيه، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي في الكبد، ينطبخ فيها ويصير دماً، وهو الهضم الثاني، فالدم يذهب في الأوردة، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضروع عروق كثيرة، فينصبُّ بعض الدم من تلك العروق إلى الضروع، فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض، ويلذُّ طعمه فيصير لبناً، ومن تدبَّر في بدائع صنعه تعالى، فيما ذكر من أخلاطٍ، وألبان، والأسباب المولدة لها، وتسخير القوى المتصرفة فيها، كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه تعالى، وقدرته، وحكمته، ورأفته، ورحمته ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم، ولا رائحة الفرث، ومصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم، قيل: إنه لم يغص أحد باللبن قطُّ.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ أي ولكم عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل ﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ والسَّكَرُ مصدر سمّي به الخمر، والسكر يكون من العنب، أو عصير الرطب إذا اشتد وأسكر ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ كالتمر، والدبس، والزبيب، والخل، والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر، فدالة على كراهتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ باهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الآيات، بالنظر والتأمل، ويعلمون بالضرورة، أن هذه الأحوال لا يقدر عليها أحد إلا الله.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها وركّز في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي بأن اتخذي ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكاراً، وإنما سمي بيتاً، لما فيه من حسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حُذّاق المهندسين، إلاّ بآلات وأنظار ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يعرشه الناس، أي يرفعه من كرم أو سقف والمعنى: اتخذي بيوتاً لنفسك من الجبال، والشجر، وإلاّ فاتخذي ما يعرشونه لك، وإيراد حرف التبعيض «من» لما أنها لا تبني في كل جبل، وفي كل شجر، بل في البعض.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي مسالكه التي برأها، بحيث يحيل فيها بقدرته تعالى، النَّوْر المرَّ عسلاً من أجوافك، أو فاسلكي الطرق التي ألهمك في عمل العسل، راجعة إلى بيوتك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول، أي مذللة غير متوعرة، ذللها الله سبحانه وسهَّلها لك ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ عدل به عن الخطاب ليظهر منها من تعاجيب صنع الله التي هي موضع العبرة بعدما أُمرت بما أمرت ﴿شَرَابٌ﴾ أي عسل لأنه مشروب، واحتج به وبقوله كل من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة، فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقيأ ادخاراً للشتاء وقيل: هو أنه يحدث في الهواء طَلٌّ لطيف في الليالي، ويقع ذلك الطلّ على أوراق الأشجار والأزهار، فتكون تلك الأجزاء لطيفة صغيرة، والنحل تلتقط تلك الذرات بأفواهها وتذهب بها إلى

بيوتها لتدخر لنفسها غذاءها، والقائلون بهذا فسروا البطون بالأفواه لأن كل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطناً، وكذا ههنا (من بطونها) أي من أفواهها، والقول الأول أولى وأصح، لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل، طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً، لا ما قاله الآخرون من أنه طلٌّ، لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد، وطبيعة واحدة، والله أعلم ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ما بين أبيض، وأصفر، وأسود، لاختلاف سنّ النحل، والفصل، والذي أخذت منه العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلَّما يوجد معجون لا يكون فيه عسل، مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز كونه للتفخيم، فإن قالوا: كيف يكون شفاءً للناس، وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟ قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس، أو لكل داء، وفي كل حال، بل لمَّا كان شفاءً للبعض، ومن بعض الأدواء، صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنُه، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً، فسقاه ثم جاء فقال إني سقيته عسلاً فلم يزده إلاَّ استطلاقاً، فقال له ذلك ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال ﷺ: «صدق الله، وكذبَ بطنُ أخيك، فسقاه فبرأ»[1] اعترض بعض الملحدين على هذا الحديث، فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهِّل، فكيف يوصى لمن به الإسهال؟ أجيب بأن المسهِّل يقطع الإسهال بالتنقية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ من تفكَّر في اختصاص النحل بتلك الصنائع الدقيقة، والأفعال العجيبة، جزم قطعاً بأن لها خالقاً قادراً، يلهمها ذلك، ويهديها إليه، وألهمها أيضاً أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ١٣٩/١٠ ومسلم رقم ٢٢١٧ باب التداوي بسقي العسل.

تجعل عليها أميراً نافذ الحكم فيها، ويكون هذا الآمر أكبرها جثة، وهي تطيعه، وتمتثل أمره، وألهمها الله تعالى أيضاً، أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكّن غير أهلها من الدخول إليها، وأنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيتها، ولا تضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف، بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة، دل ذلك على الإلهام الإلّهي.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ أي أوجدكم من العدم، وأخرجكم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب أحوال ما ذكر من الماء، والنبات، والأنعام، والنحل، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر. من أول عمره إلى آخره فقال: ﴿والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع: الأولى: سن النشوء والنماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة، والثانية: سن الوقوف وهو يتم بالأربعين، والثالثة: سنُّ الكهولة وهو يتمُّ بالستين، والرابعة: سنُّ الشيخوخة وهو بعد الستين، وطول الأعمار ليس من الجود الخاص، الذي يختص الله به بعض عباده كالرسالة، وإنما طول الأعمار وقصرها، وحدوث الأمراض التي تعرض للبشر، على وفق السنن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، فهي كمسألة الرزق، في سعته وضيقه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّـكَ وَمَـا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّـكَ مَحْظُـوراً﴾[1] ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حِكَم بالغة، بآجال مختلفة، أطفالاً وشباباً، وكهولاً وشيوخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ ﴾

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

قبل موته ﴿إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي أخسّه وأضعفه، وإيثار الرد على البلوغ، للإيذان بأن بلوغه إليه، رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾(١) ولا عمر أسوأ حالاً من عمر الهَرِم، الذي يشبه الطفل، وقيل: ليس هذا في المسلمين، لأن المسلم لا يزاد في طول العمر، إلا كرامة من عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾(٢) عن أنس قال: كان ﷺ يدعو بهذه الدعوات «اللهم إني أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات»(٣) ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ﴾ كثير ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ من العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٞ﴾ على كل شيء أراده، يميت الشاب النشيط، ويبقي الهرم الفاني، مع نقصان العقل والقوة، وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال، ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع، لما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٧١)﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ أي جعلكم متفاوتين؛ فمنكم غني ومنكم فقير، وهذا التفاوت غير مختص بالمال، بل هو حاصل في الذكاء، والبلادة، والحسن والقبح، والعقل والحمق، والصحة والسقم، وهذا بحر لا ساحل له، وهذا اعتبارٌ لحالٍ أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنّا نرى أكيس الناس، يفني عمره في طلب المقدر من الدنيا، ولا

---

(١) سورة يس، آية: ٦٨.

(٢) سورة التين، الآيتان: ٥ و٦.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٠٦.

يتيسَّر ذلك له، ونرى أجهل الخلق تنفتح عليه أبواب الدنيا، ولو كان السبب الجهدَ والعقلَ، لما رأينا هكذا، فعلمنا أن ذلك بسبب قسمة القسَّام كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ وقد كنتُ مصاحباً لبعض الناس في بعض الأسفار، وكان ذلك كثير المال، ربما حضرت الأطعمة الشهية، والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ فيه على غيرهم ﴿بِرَآدِّي﴾ أي بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية، والمرزوقية ﴿فَهُمْ﴾ أي المُلَّاكُ والمماليك ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ أي لا يردُّونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف، فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم، وهم أمثالهم بالبشرية والمخلوقية، وهم أُسْوَةٌ لهم في استحقاق الرزق، فما بالهم يشركون بالله سبحانه بعض مخلوقاته، الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار؟ وهذا كما ترى مثَلٌ ضُرب لقباحة ما فعله المشركون، كقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاء﴾؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه إلى شركائهم، ويجحدوا كونها من عند الله تعالى، كما أن أهل الطبائع يضيفون الأشياء إلى الطبيعة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم[1] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ وضع الظاهر

(١) لقد شرع الله عزَّ وجل الزواج حفظاً للنسل، وصيانة للبشر من الأمراض والآثام، =

للإيذان بأن المراد جعل لكل منكم، من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد، وهو الذي يسرع في الخدمة، ومنه قول القانت: «وإليك نسعى ونحفد» أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم والمراد بهم أولاد الأولاد، حَفَدَ من باب ضرب أسرع وحَفَده خدمه، فهو حافد، والجمع حفدة، مثل كافر وكفرة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل؟ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾الفائضة عليهم مما لا يحيط به دائرة البيان ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام؟ وتقديم الصلة للاهتمام ولرعاية الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطف على ﴿يكفرون﴾ داخل تحت الإنكار، أي أيكفرون بنعمة الله، ويعبدون من دونه؟ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً ما، قليلاً أو كثيراً، والرزق الذي يأتي من جانب السماء هو الغيث، أي ما لا يقدر على أن يرزقهم شيئاً من السماوات والأرض ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولا يمكنهم أن يملكوه، إذ لا استطاعة لهم رأساً، لأنها مَوات لا حراك بها.

= واحتراماً للعلاقات الاجتماعية، ومعاونة على الحياة بين الزوجين، لتدوم بينهما المودة والرحمة كما قال سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ ووضع أحكاماً للزواج منها ولي الأمر وهو الأب أو الأخ أو غيرهما من العصبات، ومنها الشهود، ورضى الزوجة البالغة، والمهر، وغير ذلك تقديراً منه لأهمية الدور العظيم الذي يتم عليه بناء الأسرة، وهذه الشروط وضعها الإسلام لتكون الأعراض مصونة من المجون والعبث، فتدبَّر حكمة الله سبحانه!!.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ التفات إلى الخطاب للاهتمام بشأن النهي، أي لا تشركوا به شيئاً، والتعبير عن ذلك بضرب المثل، للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون، فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة، أي لا تشبِّهوا بشأنه تعالى شيئاً من الشؤون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أي إن الله يعلم فساد ما تقولون، وعظم جرمكم فيما تفعلونه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنه تعالى يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا مواقف الامتثال، لما ورد عليكم من الأمر والنهي، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فتقعون في مهاوي الردى والضلال.

﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي أورد شيئاً يستدل به على تباين الحال، بين الله عزَّ وجلَّ وبين ما أشركوا به ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وُصف العبدُ بالمملوكية، للتمييز عن الحر، وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون، واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ أي من جانبنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي حلالاً طيباً ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ إنفاق سر، وإنفاق جهر، والمراد بيان إنفاقه وشمول إنعامه لمن لا يرضى قبوله جهراً، والإشارة إلى أصناف نعم الله الباطنة والظاهرة ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر؟ فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برزَّاق العالمين حيث تشركون به ما لا حياة له من الجماد ولا نفع؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي كله

لله، لأنه مولي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونها لأجلها، ونفي العلم عن الأكثر، إشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك، وإنما لا يعملون بموجبه عناداً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دلَّ عليه المثل السابق، على وجه أوضح ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الأبكمُ: هو من وُلِد أخرس، وعن الزجاج أنه الذي لا يسمع ولا يبصر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، لقلة فهمه، وسوء إدراكه، وهو إشارة إلى عجزه التام ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي ثقيل عالةٌ على سيده، والكلُّ بالفتح الثقل ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ الذي يلي أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي حيث يرسله مولاه في أمر ولو كان مصلحة يسيرة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا يُفلحُ ولا ينجح ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؟[1] أي من هو منطيق، فَهِمٌ، ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل

---

(١) ضرب الله تعالى مثلين بديعين: الأول: ضربه لنفسه سبحانه وللأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عباده، ليلاً ونهاراً، والأوثان والأصنام مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله، مع التفاوت العظيم بين الإله القادر، والوثن العاجز؟ والمثل الثاني: ضربه الله للصنم الذي يعبد من دونه، ومثل له بصورة رجل أخرس، بليد الحس والذهن، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا هو عاجز لا يقدر على شيء مطلقاً، أينما أرسلته لا يأتِكَ بخير، ولا يقضِ لك حاجة، هل يتساوى مع رجل بليغ متكلم، ينطق بأفصح بيان، وهو على طريق مستقيم؟.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي على سيرة صالحة، ودين قويم، وهذا مثل ثانٍ ضربه الله عزَّ وجلَّ لنفسه، ولما يُفيض على عباده من إنعامه، وللأصنام التي هي جماداتٌ لا تنطق ولا تسمع، وهي كَلٌّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى الحمل والخدمة.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا لأحد غيره، أي الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، ولذلك لم يقل: ولله علم غيب السموات والأرض ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم الغيوب، فإن وقت وقوعها مختصٌ به سبحانه، أي ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أي كرجع الطرف، من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ أي بل هو أقرب من ذلك وأسرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي لا يعجزه شيء، وقدرته لا حدَّ لها، ومن جملة الأشياء، أن يجيء بها أسرع ما يكون، فهو قادر على ذلك، فيقدر على أن يحيي الخلائق دفعة، كما قدر على إحيائهم متدرجاً، وقد قرَّب العلمُ في هذا العصر، أمر البعث من العقول، بما قرَّره من كون كل ما في العالم، ثابت أصله لا يزول، وإنما هلاك الأشياء وفناؤها، عبارةٌ عن تحلل موادِّها، وتفرقها، وبما أثبته من تركيب المواد المتفرقة، وإرجاعها إلى تركيبها الأول في غير الأحياء، بل تصدى بعض علماء الألمان، لإيجاد البشر بطريقة علمية صناعية، بتنمية البذرة التي يولد منها الإنسان، وزعم أنه يمكن باتخاذ وسائل لتغذية المضغة، في حرارة كحرارة الرحم، أن تتولد فيها الأعضاء، حتى تكون إنساناً، وقد بيَّن تجربته ونظرياته في خطاب قرأه على طائفة إلى علماء الكون، فأُعجبوا بنظرياته، ولم ينكر أحد منهم إمكان ذلك، وهذا وإن

أمكن، ولكنْ أَنَّىَ لهم أن ينفخوا فيه الروح، ليصبح بشراً سويّاً؟ فهل يعجز عنه خالق البشر؟ قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ منتظم معه في أدلة التوحيد ﴿ مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي غير عالمين شيئاً أصلاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أي جعل لكم هذه الأشياء آلات، تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تُحسُّوا بمشاعركم الأشياء، وتذركوها بأفئدتكم، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى، ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذا إذا سمع شيئاً، وكذا القول في سائر الحواس، والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله به عليكم فتشكروه، فقد جعل لكم السمع، لتسمعوا مواعظ الله، والأبصار لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إليها، جمع طائر ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذلّلات للطيران، بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المساعدة له، وتسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبيعة الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض، والجوُّ: هو الفضاء الواسع بين السماء

والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو حين قبض أجنحتهن، وبسطها، ووقوفهن ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجل بقدرته الواسعة، فإن ثقل جسدها، ورقة الهواء يقتضيان السقوط، ولا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران، بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة، وأذناباً كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها، انعدم ثقلها فتخرق ما تحتها من الهواء وتخرق ما بين يديها من الهواء ولأنها لا تلاقيها بحجم كبير ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا بأن المخلوق لا غنى به عن الخالق، وإن كانت هذه الآيات آيات لكل ذوي العقول.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي لمصلحتكم ومنفعتكم، وهذا نوع آخر من دلائل التوحيد، التي ذكرها الله عزَّ وجل في هذه السورة الكريمة، أي جعل لكم ومن أجل راحتكم ومصلحتكم ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، وتطمئنون به، من غير أن ينتقل من مكانه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أخرى مغايرة لبيوتكم، هي الخيامُ، والقباب، والأخبية، والفساطيط ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة، يخفُّ عليكم حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي يوم ارتحالكم، في الحمل والنقل، يقال: ظَعَن ظعناً أي ارتحل ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت نزولكم في المساكن والبناء ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعْز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي متاع البيت ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من غير صنع من قِبَلِكُم ﴿ ظِلَٰلٗا ﴾ أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام، والشجر، والجبل، وغيرها، امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا ﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف، والمغارات، والسروب ﴿ وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ ﴾ جمع سربال، وهو الثوب الذي يلبس، أي جعل لكم ثياباً من القطن، والكتان، والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ خصَّه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم ﴿ وَسَرَٰبِيلَ ﴾ من الدروع والحديد ﴿ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ ﴾ أي في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منَّ الله سبحانه على عباده، حيث ذكر نِعَمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخصُّ المقيمين حيث قال: ﴿مِن بُيُوتِكُم سَكَنًا﴾ ثم بما يخص المسافر بقوله: ﴿مِن جُلُودِ الأَنعَامِ﴾ ثم بما يعمُّ من لا يقدر على الخيام حيث قال: ﴿مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً﴾ ثم لا بدَّ لكل أحد من الستر حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنعام ﴿ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ من النعم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حق منعمها، فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾ أي تنقادون لأوامره جلَّ جلاله، ولتتفكروا فيها، فتؤمنوا به، فتَسْلَموا من عذاب الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما ألقي إليهم من البينات، والعبر، والعظات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ دعوة الله، وقد فعلتَهُ، وحسابُهم على الله تعالى.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي يعرفون عن يقين نِعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم، ويقولون: إنها من عند الله ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها، وقيل: نعمة الله نبوة الرسول ﷺ، عرفوها بالمعجزات، كما يعرفون أبناءهم، ثم أنكروها عناداً، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير معترفين بما ذكر.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد لهم بالإيمان، أو بالكفر والعصيان، وهو نبيها كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار لقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ وقيل لا يؤذن في الكلام أصلاً، وهو عندما يقال لهم: ﴿اخسئُوا فيها وَلاَ تُكلِّمُونِ﴾ ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يقال لهم: أرْضُوا ربّكم، إذ الآخرة دار الجزاء، لا دار العمل، مأخوذ من العُتبى وهي الرضا، عَتَبَ عليه: لاَمَه في تسخط، وأعتبني أي أزال الشكوى والعتاب، واستعتب طلب الإعتاب، والعُتبى اسم من الإعتاب.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ الذي يستوجبونه، وهو عذاب جهنم، ووصلوا إليه فعند ذلك ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي

يُمهلون، كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[1].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين يدعونهم في الدنيا وهم الأوثان والشياطين ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين، وقالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم، كما ينبىء عنه قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم، لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم[2]، فكأنَّ عبادتهم لم تكن لهم، وإنما عبدوا أهواءهم، ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به، فيزدادون بذلك غماً وندامة، كما قالت الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ﴾ وكما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي الذين ظلموا وأشركوا ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وبطل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٠.

(٢) فإن قيل: كيف أثبت للأصنام نطقاً ونفاه عنها في سورة الكهف: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ فالجواب أن هنا النطق بتكذيب المشركين، والمنفي عنها النطق بالإذن بالشفاعة، فلا تنافي بين النصين، والله أعلم.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصَدُّواْ ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بالمنع عن الإسلام، والحمل على الكفر ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ الذي كانوا يستحقونه بكفرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ أي زدنا عذابهم، بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدُّ المذكور.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ تثنية للتهديد وهو نبيهم ﴿ عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من جنسهم، قطعاً لمعذرتهم، وفي قوله عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم تكون بمحضر منهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا رسول الله وإيثار لفظ المجيء على البعث، لكمال العناية بشأنه ﷺ ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي الأمم وشهدائهم كقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾؟ وقيل على أمتك والمراد به يوم القيامة، وتم الكلام ههنا ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا ﴾ أي توضيحاً شافياً وبياناً بليغاً ﴿ لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ يتعلق بأمور الدين، ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه ﷺ شهيداً عليهم، وكونه تبياناً لكل شيء باعتبار أن فيه نصاً على بعضها، وإحالة لبعضها على السُّنَّة، حيث أمر باتباع النبي ﷺ وحثاً على الإجماع، وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1] وقد اجتهدوا وقاسوا، فكانت السنةُ، والإجماعُ، والقياسُ

---

(١) الحديث أخرجه رُزَين، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لابن عساكر، =

مستنداً إلى تبيان الكتاب، ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبياناً، فإن المبالغة باعتبار الكمِّية، دون الكيفيَّة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره، من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ فيما نزَّله تبياناً لكل شيء ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط، والتفريط، وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحتها فضيلة الاعتقاد كالتوحيد، المتوسط بين التعطيل والتشريك، وفضيلة الأخلاق كالجود المتوسط بين البخل، والتبذير، والشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن، وفضيلة العمل كأداء الواجبات المتوسطة بين البطالة والترهب، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجبُ الرعاية في جميع الأمور[1]، ومنَ الكلمات المشهورة «بالعدل قامت السماوات والأرض» والعدل في الحقوق بالتسوية في الخصومة، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق، وهو ما بحسب الكميّة كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية كما يشير إليه، قول النبي ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإن الله يراك» والإحسان في المكافأة أن تحسن إلى من أساء إليك، ومن الإحسان الشفقةُ

= ورواه ابن عبد البر في جامع العلم ٢/٩ ولا يخلو إسناده من ضعف، وانظر الروايات في جامع الأصول ٨/٥٥٦.

(١) العدل بين العبد وبين الله: إيثار حقِّ الله على حق نفسه، بملازمة جميع الأوامر، والاجتناب عما نهى الله عنه، والعدل بينه وبين نفسه: منعها مما فيه هلاكها وإذلالها والعدلُ بينه وبين الخلق: بذل النصيحة إليهم وترك الخيانة معهم.

على خلق الله[1] وأجلُّها صلةُ الرحم، ولذا أفرده بالذكر، فقال: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوانية، كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، وقيل: الفحشاء ما قبح من الفعل، والقول، فيدخل فيه جميع الأفعال القبيحة، والأقوال المذمومة ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر شرعاً وعقلاً على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية، التي هي حاصلة من القوتين: الشهَوانية، والغضبية، وليس في البشر شر، إلاّ وهو مندرجٌ في هذه الأقسام الثلاثة، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمعُ آية في القرآن، للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء»[2] ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمر وينهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بكل أمرٍ يجب الوفاء به، من مبايعة للرسول ﷺ أو عهدٍ قطعه على نفسه، وسائر ما يلتزمه الإنسان باختياره ﴿إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله تعالى، وبايعتم به رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ التي تحلفون بها عند المعاهدة، أو مطلق الأيمان، وخَصَّ الأيمان بالذكر، تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد

---

(١) روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا».

(٢) أقول: ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في صلاة الجمعة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾ لتكون عظة جامعة للناس كلهم.

بوجوب الرعاية ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله عزَّ وجلَّ، وإنما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم أو بالعقد، وبين اليمين اللغو، يقال في اللغة أكَّد، ووكَّد، لغتان فصيحتان ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي شاهداً ورقيباً، والواو للحال، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً، بسبب ذلك الحلف، فإن الكفيل مراعٍ، ومراقب لحال المكفول به، ومهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود، فيجازي على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ﴾ عامٌّ دخله التخصيصُ، لقوله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ففيه ترغيبٌ وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول أي مغزولها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد إحكام وإبرام ﴿أَنكَاثًا﴾ أي أنقاضاً، والمراد تقبيح حال الناقض، بتشبيهه بمن هذا شأنُه، وقيل هي امرأة حمقاء اتخذت مغزلاً فكانت تغزل هي وجواريها، من الصباح إلى الظهر، ثم تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن، فكان هذا دأبها، وقد ضربه الله مثلاً لكل ناكث للعهد، ومخلفٍ للوعد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير أي ولا تكونوا مشابهين لامرأة شأنها هذا، حال كونكم متخذين

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان.

أيمانكم حيلةً ومفسدة بينكم، وأصل الدَّخَل، ما يدخلُ الشيء على سبيل الإفساد ما لم يكن منه، وقيل: الدَّخَلُ أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي أزيد عدداً، وأوفر مالاً. هذا والزيادةُ قد تكون في العدد، أو في القوة، أو بالشرف ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من جماعة أخرى، أي لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم، أو لقوة عدوكم، وضعف حلفائكم، وهذا نهي لمن يحالف قوماً، فإن وجد أكثر منهم ترك العهد مع من حالفه، كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي يختبركم بكونكم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله، وبيعة رسوله، أم تغترّون بكثرتكم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين يجازيكم بأعمالكم، فيتميز المحق من المبطل.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئة قسرٍ وإلجاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً لقضية الحكمة بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله، حسبما يصرف اختياره ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغةً في قبح المنهي عنه، أي لا تتخذوا أيمانكم مكراً وغدراً، وتجعلوها خديعة تغرُّون بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا، قال المفسرون: هذا النهي للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله تعالى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض غيره أي فتزل عن محجة الحق، بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وهذا مَثَلٌ يُذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة، بعد عافية ونعمة، أو سقط في ورطة بعد سلامة[1] ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أو بصد غيركم لأن من نقض العهد سن سنة سيئة لغيرهم لأمد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك الجزاء الذي تذوقونه عقاب شديد.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً يريد عرض الدنيا، وهو ما كانت كفرة قريش، يَعِدُون من حطام الدنيا ضعفاء المسلمين، ويشترطون عليهم الارتداد ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النصر، والتغنيم، والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٣٤٥: هذا مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة عن الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ولهذا قال: ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ تعليل للخيرية، أي ما تتمتعون به من نِعَم الدنيا ـ وإن جلَّ وكَثُر ـ ينفَدُ ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ أي لا نفاد له، أما الأخروية فظاهرة، وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية، فقد انتظمت في سمط الباقيات الصالحات، والآية دليل على أن نعيم الجنة باق وخالد، لا كما زعم بعض الفلاسفة أنه منقطع ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنون العظمة تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ على نهج التوكيد القسمي، مبالغة في الحمل على الثبات في الدين، أي والله لنجزينَّ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ ﴾ على أذى الكفار، وعلى مشاق التكاليف، التي من جملتها الوفاء بالعهود ﴿ أَجْرَهُم ﴾ أي لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور، وإنما أُضيف إليه «أحسن» للإشعار لكمال حسنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾[1] لا لإفادة قصر الجزاء، على الأحسن منه دون الحسن، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم، نعطيه الفرد الأعلى منها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أيَّ عملٍ كان، وهو ما كان لوجه الله ورضاه، ليس فيه هوى ورياء ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيَّنه بالنوعين، دفعاً للتخصيص، ومبالغة في بيان شموله للكل ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ قيَّده به إذ لا اعتداد بأعمال

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٨.

الكفرة في استحقاق الثواب لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1] وإنما المتوقع تخفيف العذاب، وتدل هذه الآية الكريمة، أن الإيمان مغايرٌ للعمل الصالح، لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً، في كون العمل الصالح موجباً للثواب، وشرطُ الشيء مغايرٌ لذلك الشيء ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، يعيش عيشاً طيباً، أما إن كان موسراً فظاهر، وأما إن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فهو التعيس، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال، مع التجاوز عن السيئات.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت قراءته، وهو من إطلاق اسم المسبب على السبب ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فاسأله أن يُعيذك ويجيرك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ من وساوسه كيلا يوسوس لك عند القراءة، وتخصيص قراءة القرآن، من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة للتنبيه على أهمية القرآن وعظم شأنه، ليستنير بنور القرآن، ويدفع عنه وساوس الشيطان[2]، والأمر للندب، وهذا مذهب الجمهور وعند بعضهم للوجوب، وظاهر الآية يدل

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) هذا هو الهدف من الاستعاذة، أن يدفع القارىء عن نفسه، وساوس الشيطان وهواجسه، ويصفو قلبه عند تلاوة القرآن، فيستنير بنور ضيائه، ويدرك معانيه وأسراره، دون أن يعبث الشيطان بروحه وقلبه، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ في بعض الأحيان بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهَمْزه» حمانا الله من شر إبليس اللعين!.

على أن الاستعاذة بعد القراءة لأن الفاء للتعقيب، ومذهب الجمهور من الصحابة والتابعين على خلافه، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وعن ابن مسعود قال: «قرأت على الرسول ﷺ فقلت: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال ﷺ قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ».

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ أي للشيطان ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّطٌ وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إليه يفوّضون أمرهم، وبه يعوذون في ما يأتون وما يذرون، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، إلا على غفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي تسلطه وولايته، بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر أو الإلجاء، فإنه منتفٍ عن الفريقين ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي يتخذونه ولياً، ويستجيبون لدعوته ويطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي بسبب الشيطان مشركون بالله، إذ هو الذي حملهم على الإشراك، وقَصْرُ سلطانه عليهم دليل على أن لا واسطة في الخارج، بين التوكل على الله وبين تولي الشيطان، وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان، من حيث لا يحتسب، ففيه مبالغة في الحمل على التوكل، والتحذير عن مقابله.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي إذا أنزلنا آية من القرآن، مكان آية منه، بأن ننسخها بها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ أولاً وآخراً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن كل وقت مقتضٍ غير مقتضىٰ الآخر، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة، الانقلاب الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلا مصالح للعباد، في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح، كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة، ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضدها[1] ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك غيرُه فتنهىٰ عنه، وقد كان المشركون يقولون: إن محمداً يأمر بأمر اليوم، وينهى عنه غداً، ويأتي بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، وحكاية هذا القول للكفرة ناشئة من نزغات الشيطان ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن في النسخ حِكَماً بالغة، وإسناده إلى الأكثر لما أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما ينكره عناداً.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي جبريل عليه السلام، أي الروح المطهَّر من أدناس البشرية ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ من عنده تعالى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ملابساً بالحق الثابت الموافق للحكمة ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من

---

(١) مَثَل آيات الذكر الحكيم، كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات، حتى يماثل به إلى الشفاء، ثم يستبدل به الغذاء، فيعطيه ما يناسبه من الأطعمة، ويمنعه من بعضٍ منها، مراعاةً لظروفه الصحية، كذلك كان القرآن يتنزَّل ببعض الأحكام ثم ينسخها بما هو ملائم لتطور الزمن.

رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ كان كفار مكة يقولون: إنه أي محمد ﷺ يستفيد هذه الكلمات من إنسان آخر ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون بذلك «جبر الرومي» كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ التوراة والإنجيل وكان ﷺ يمر عليه ويسمع ما يقرأه ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لغة الرجل الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي، والعجميُّ: هو الذي لا يُفصح في كلامه ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والقرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشراً يعلّمه معناه، فكيف يعلّمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والتشبث بأذيال هذه الخرافات، دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا يصدقون أنها من عند الله، ويقولون فيها ما يقولون، يسمونها تارة افتراءً، وتارة أساطير، وأخرى معلَّمةً من البشر ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، وإلى سبيل النجاة لسوء حالهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ردٌّ وقَلْبَ الأمرَ عليهم، ببيان أنهم هم المفترون، فالمفتري هو الذي يُكذِّب بآيات الله، ويقول: إنه افتراء من صنع البشر، وكلمة «إنما» للحصر، والمعنى: إن الكذب والفرية، لا يقدم عليهما إلاّ من كان غير مؤمن بآيات الله، لأنه لا يترقَّبُ عقاباً عليه، ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها، فإنه يخاف من العقاب، فلا يصدر عنه تكذيب وافتراء، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد، روي أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ الآية: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ على الحقيقة، والكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى!!

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾ تلفَّظ بألفاظ الكفر ﴿ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه، وحُذف جوابه كأنه قيل: من كفر بالله بعد إيمانه فعليه غضبُ الله ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه، أو على عضوٍ من أعضائه ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي إلا من أُكره فكفر والحال أن قلبه مطمئنٌ بالإيمان، ولم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديقُ بالقلب، رُوي أن كفرة قريش، أكرهوا عماراً وأبويه على الارتداد، فأباه أبواه فقتلوهما، وهما أول شهيدين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل يا رسول الله: إن عماراً كفر، فقال ﷺ: «كلا إن عماراً مُلىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: ما

لك؟! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[1]. وفي هذا دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر، عند الإكراه الملجيء، وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازاً للدين، كما فعل أبواه ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي اعتقده وطاب به صدراً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم جرمهم حيث كفروا بعد الإيمان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد المذكور ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي آثروها ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه، هداية قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر، فلا يعصمهم عن الزيغ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلا يتدبرون ولا يلتفتون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العاقبة.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٤٦٦/١ المختصر، وهي رواية عن ابن عباس، وقد ذَكر أن أمه «سُميَّة» أول شهيدة في الإسلام، قتلها أبو جهل اللعين، وانظر مختصر ابن كثير ٣٤٨/٢.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون، إذ ضيَّعوا أعمارهم، وصرفوها إلى ما يفضي إلى العذاب المخلد، ورأسُ مال الآخرة الإيمانُ، ومن ضيَّع رأس ماله فهو خاسر.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وصحبه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ أي عُذّبوا على الارتداد، وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ﴿ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ ﴾ في سبيل الله ﴿ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد المهاجرة والمجاهدة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فُعل من قبل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ينعم عليهم مجازاة لهم على ما صنعوا وتحمَّلوا في سبيل الإسلام.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أي عن ذاتها تسعى في خلاصها لا يهمُّها شأنُ غيرها، فتقول: نفسي، نفسي، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تعطى وافياً كاملاً ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم، ولا يزاد في عقابهم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي مثَّل لأهل مكة بقصة قرية كفرت نعمة الله، وجعلها مثلاً لأهل مكة خاصة، لأنهم كانوا في الأمن، والطمأنينة، والخصب، ثم أنعم الله تعالى عليهم بالنعمة العظمى، وهو بعثته ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فلا جرم سلط الله عليهم البلاء، وعذبهم بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجِيَف، فعذبهم الله بعذاب الدنيا لكفرهم النعم، والآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدل الله نعمتهم بالنقمة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ أي ذات أمن من كل مخوف، لا يُغار عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والأمر في مكة كان كذلك، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض، وأما أهل مكة فقد كانوا يحترمونهم، ويخصُّونهم بالتعظيم ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي لا يزعج أهلَها مزعجٌ، فهم في أمن واطمئنان، ورفاهية وسعادة، الهواء عليل، والصحة وافرة، وكما قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُها والخيرات والأرزاق بسعة وكثرة، وورد النص بصيغة المضارع ﴿يأتيها﴾ لأن رزقها متجدد، وكونها آمنة ومطمئنة مستمر ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1] ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أي أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ نعم الأمن والرزق، وإيثار جمع القلة ﴿أَنْعُم﴾ للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟ ﴿فَأَذَٰقَهَا

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شبه أثر الجوع والخوف، والضرر المحيط بهم، باللباس المحيط باللابس فاستعير له لفظ الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية، روي أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي: هل يُذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيها النسناس، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً[1]!! وكان مقصود ابن الراوندي الطعن في هذه الآية، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس، فردَّ عليه شيخ العربية بأن هذا من أساليب العرب البليغة، وهو من أبلغ الكلام وأفصحه، كما قال الشاعر:

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

والموت ليس طعاماً حتى يشعر الإنسان بطعمه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والجحود على وجه الاستمرار بحيث صار كفران النعمة كأنه صنعة لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ من تتمة المثل أي ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من جنسهم وقومهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأنذرهم سوء العاقبة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وفيما أخبرهم به ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصل لشأفتهم بعد ما ذاقوا نبذة منه ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بما هم عليه من الظلم، الذي هو كفران النعمة، وتكذيب

---

(١) ابن الراوندي هذا كان معروفاً بميله إلى الإلحاد، وفي قلبه ظلمة الشكّ والضلال، ولهذا ردَّ عليه شيخ العربية ابن الأعرابي بهذا الجواب الشديد، الذي فيه غلظةٌ وجفاء.

رسوله، وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد، وبه يتم التمثيل، فإن حال أهل مكة ـ سواء ضرب المثل لهم خاصة، أو لمن سار سيرتهم كافة ـ مشابهةٌ لحال أهل تلك القرية، من غير تفاوت بينهما، كيف لا، وقد كانوا في حرم آمن، ويتخطف الناس من حولهم، وما يمر ببالهم طيف من الخوف، وكانت تجيء إليهم ثمرات كل شيء، ولقد جاءهم رسول منهم، فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم ما أصابهم، وقد ضاقت عليهم الأرض، بما أصابهم من الجدب، حتى استنجدوا برسول الله ﷺ لكشف الضر عنهم، فلما فرّج الله عنهم الكربة، عادوا إلى الكفر والضلال.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكُلُوا۟ ﴾ مفرَّع على نتيجة التمثيل، وتحذير لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته، والمعنى: وقد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله تعالى، وتكذيب الرسول، وما حلَّ بهم بسبب ذلك، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعمة، وتكذيب الرسول، كيلا يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم، واعرفوا حقَّ نعم الله، وأطيعوا رسوله، وكلوا ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حال كونه ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ولا تقابلوها بالكفران ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي تطيعون، إن صحَّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة، عبادته تعالى!!.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي إنما حرَّم الله عليكم هذه الأشياء الضارة كالميتة، والدم ولحم الخنزير.. الخ.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾أي لا تقولوا الكذب في شأن ما تصفه ألسنتكم، من البهائم بالحل والحرمة، فتحلّلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم، من غير دليل ولا برهان، وتقولوا ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ وكان العرب في الجاهلية، يحلّون أشياء، ويحرمون أشياء من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام وبليغه، كأن ماهيَّة الكذب، وحقيقته مجهولةٌ، وكلامُهم يكشف حقيقته للناس ويعرِّفه، كقولهم: وجهُها يصفُ الجمالَ، وعينُها تصِفُ السِّحْرَ ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فإن مدار الحلِّ والحرمة، ليس إلا بأمر الله تعالى، من غير دخل لأحدٍ في التحليل أو التحريم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون بمطالبهم.

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه، منفعةٌ قليلة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

لمَّا حصر تعالى المحرمات، بالغ في تأكيد ذلك الحصر بهذه الآية.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ خاصةً دون غيرهم ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ في سورة الأنعام ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بذلك التحريم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عُوقبوا به، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأن التحريم كما يكون للمضرة، يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي بسبب جهالة، ليعمَّ الجهل بالله وبعقابه[1]، وعدم التدبر في العواقب، لأنَّ السوء لفظ جامعٌ لكل فعل قبيح، وكل من يفعله إنما يفعله بجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعلِ القبيح، والجاهلُ إنما يفعل القبيح للذَّة الهوىٰ، لا لعصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعدما عملوا، والتصريح به للتأكيد والمبالغة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته، وتكرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على انفراده، لحيازته من الفضائل البشرية، ما لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمة، حسبما قيل:

وليس على اللهِ بمستنكَرٍ　　　أن يجمعَ العالَمَ في واحدِ

وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادل أهل الشرك ببينات باهرة، وأبطل مذاهبهم بالبراهين القاطعة، وإيراد ذكره عليه السلام، عقيب تزييف مذاهب المشركين، لأنهم يعترفون به وبحسن طريقته، ليصير حاملاً لهؤلاء على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له، قائماً بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور الدين، صرَّح بذلك مع ظهوره،

---

(١) الجهل أقبح من الخطأ وفوق الخطأ، فالمجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، ومن يفعل القبيح فهو الجاهل، الذي يستحق العقاب، ولهذا جاء اللفظ في الآية: ﴿عملوا السوء بجهالة﴾ ولم يقل بخطأ، فتدبر دقائق التعبير القرآني.

ليردّ على كفار قريش في قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم، وعلى اليهود في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً لقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ﴾ أوثر صيغة جمع القلة، للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ للنبوّة ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه سبحانه، وهو دين الإسلام.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ ﴾ أي حالة حسنة جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا، والثناء بين الناس، حتى إنه ليس من أهل دينٍ، إلاّ وهم يحترمونه ويجلّونه ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ مع علو طبقتك، وسموّ رتبتك، وفي «ثُمَّ» تعظيمُ منزلة نبينا ﷺ، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي خليل الله عليه السلام من الكرامة، اتباع رسولنا ملته ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ والمراد بملته الإسلام، الذي عبر عنها آنفاً بالصراط المستقيم، والمأمور به الاتباع في الأصول، دون الشرائع المتبدلة بتبدّل الأعصار، ويحتمل أن تكون المتابعة، في كيفية

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر، وفيه تعريض بإشراك اليهود والنصارى.

> ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي فُرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ فإن اليهود كانوا يدَّعون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظاً عليه، أي ليس السبت من شعائر شريعة إبراهيم، التي أُمرتَ باتباعها، وإنما شُرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ روي أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، فأذن لهم في السبت، وابتلاهم الله بتحريم الصيد فيه، فاصطادوا فيه، فمسخهم الله قردة وخنازير، فاختلافهم في السبت، كان اختلافاً على نبيهم، لأن اليهود طبيعتهم التمرد والعصيان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق، بما يستحقه من الثواب والعقاب.

> ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُ﴾ أي أُدع يا محمد الناس إلى دين الله، وشريعته القدْسية ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى الإسلام الذي عبر عنه بالصراط المستقيم

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالأسلوب المقنع، والعبر النافعة، بما يؤثِّر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة، من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشَغَبهم، وإطفاء لِلَهَبِهم، كما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام، فقصر الدعوة على هذين القسمين، وأما الجدل فليس من باب الدعوة، بل الغرضُ منه إلزام الخصم، ولذا قُطِعَ الجدلُ عن باب الدعوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي ما عليك إلا ما ذُكر من الدعوة، والمجادلة، وأما حصول الهداية والضلال، بموجب استعداده المكتسب فإلى الله سبحانه، إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال، وبمن يهتدي إليه، وبعدما أمره ﷺ فيما يختص به من شأن الدعوة، عقَّبه بخطاب يعمُّ الكمال فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ أي إن أردتم المعاقبة، على طريقة قول الطبيب: «إنْ أكلتَ فكُلْ قليلاً» فعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1] أي بمثل ما فُعِل بكم، عبَّر عنه بالعقاب، على طريقة «كما تدين تُدان» والمقصود إيجابُ مراعاة العدل، فإن الدعوة المأمور بها لا تنفك عن ذلك ﴿وَلَئِن

---

(١) نزلت هذه الآية تسلية للنبي ﷺ حين قُتِل عمه حمزة رضي الله عنه، فلما رأى رسول الله ﷺ ما مثَّل المشركون به، حيث شقوا بطنه، وأخذوا كبده، وقطعوا أنفه، ومثَّلوا به وبسائر قتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً، قال ﷺ: «أمَا واللهِ لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك..» فنزلت الآية، وانظر كامل القصة في تفسير تنوير الأذهان من روح البيان بتحقيقنا ٢/٣٢٧.

﴿صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ أي لصبركم ذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ مدحاً لهم ثم أمر ﷺ صريحاً بما نُدب إليه غيره، لأنه أولى الناس بعظائم الأمور، لزيادة علمه ﷺ بشؤونه سبحانه، فقال جل ثناؤه:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على ما أصابك من فنون الآلام ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي وما صبرك على الشدائد والمكاره، إلا بذكر الله وبتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أي في ضيق صدرٍ، بالفتح والكسر، وهما لغتان أي لا يضق صدرك بمكرهم، وبما يقولونه من السفه والجهل، والفائدةُ في هذا التعبير، هي أن الضِّيق إذا عظم وقوي، صار كالشيء المحيط به، فذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل، فالأول نهيٌ عن التألم بمطلوب فات، والثاني نهيٌ عن التألم بمحذور من جهتهم آت، وهما من لوازم الصبر، لزيادة التأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعية الولاية الدائمة، لا يحوم حول صاحبها شائبة شيء، من الجزع والحزن، وضيق الصدر ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم، وقد نبَّه تعالى على أن كلاً من الصبر، والتقوى، من قبيل الإحسان، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] قيل لهَرَم ابن حيّان عند القرب من الوفاة: أوصِ، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

الحق عزيز، والطريق بعيد، والمركب ضعيف، والحقائق مصونة، والأسرار فيما وراء الغيب مخزونة، وبيد الخلق القيل والقال، والكمال ليس إلا لله ذي الكرم والجلال، سبحان ربنا رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

* * *

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ سبحان اسم للتسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى من كل نقص وسوء، وتصدير الكلام به، للتنزيه عن العجز عما ذكر بعده، والإسراء معناه السفر ليلاً، وهو ثابت بهذا النظم الكريم، ومفصَّل بالأحاديث النبويَّة الصحيحة، وذلك يعطيه قوة اليقين، ومنكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كافرٌ، لأنه أنكر القرآن الكريم، وإنكار المعراج فسق ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أجمع المفسرون والعلماء على أن المراد بعبده رسول الله ﷺ ولم يختلف أحد من علماء الأمة في ذلك، وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وتعالى، وبلوغه في ذلك غاية الغايات، حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه ﴿لَيْلًا﴾ قيَّده بالليل - والإسراءُ لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، وليدلَّ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل لا في كله[1] ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ

---

(١) إنما ورد اللفظ ﴿ليلاً﴾ بالظرف ليفيد أنه كان في جزء وطائفة من الليل، ولو قال أسرى بعبده الليل لأفاد جميع الليل، فتنبه لدقائق أسرار القرآن.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ اختلف في مبدأ الإسراء، فقيل: هو المسجد الحرام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، روي عنه ﷺ أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام، في الحِجْر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذْ أتاني جبريلُ بالبراق»[1] الحديث، وقيل: أُسري به من دار «أم هانيء بنت أبي طالب» وهذا قول الأكثر، وعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرمُ أي مكة المكرمة، فإنها كلها حرم وكان قبل الهجرة بسنة، وكان بالروح والجسد، لا كما زعم بعضهم أنه كان روحانياً، والحق أنه كان جسمانياً، على ما ينبيء عنه التصدير بكلمة ﴿سُبۡحَانَ﴾ المفيدة للتنزيه، وما في ضمنه من التعجب، فإن الإسراء الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار، وخرق العادة بهذه المثابة، لأن كثيراً من المؤمنين يسيرون بأرواحهم إلى أقاصي الدنيا، ويشاهدون ما فيها من العجائب، فإذا كان الإسراء بالروح فقط فأين الاختصاص والامتياز؟ ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه وأنكروه، ولو كان بالمنام لما أنكروه، فالأكثرون على أنه أُسري بجسده، والأقلون قالوا: أُسري بروحه. وقال أهل التحقيق: إن العبد اسمٌ لمجموع الجسد والروح، وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، وفي هذا الحكم والاختلاف برهانٌ قويٌّ عَلى قوة الدين الإسلامي، الذي لا يأخذ أتباعه إلاَّ بالوضوح والصراحة التامة، وقال طائفة كان الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد، وإلى السماء بالروح، محتجين بأن الله تعالى جعل المسجد الأقصى غاية للإسراء، ولو كان زائداً عليه لذكره، وقال النووي: الذي عليه معظم السلف وأكثر المفسرين والمحدثين أن المعراج كان بجسده في يقظته ﷺ، والمعروف عند الجمهور أن ليلة الإسراء هي السابعة والعشرون من ليالي رجب، في السنة الحادية عشرة من النبوة، وقيل غير هذا، ولا خطر ولا ضرر في تحديد اليوم ، فالعبرة في حدوث الشيء لا

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/ ٣٩١ وفي الإسراء من صحيح البخاري.

وقت وقوعه. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي بيت المقدس، سمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ولِبُعْد المسافة ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء عليهم السلام، وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، فدمشق والأردن، وفلسطين من المدن التي حوله، وجُعل الإسراء إلى بيت المقدس، كالتوطئة لمعراجه ﷺ وتقريباً للإسراء إلى قبول السامعين، كما سألوا وقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: نعم، فجلى الله له بيت المقدس، فنعته فقالوا: أما النعت فقد أصاب، ومع ذلك كابروا وجحدوا ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية الإسراء ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثُّل الأنبياء له، ووقوفه ﷺ على مقاماتهم العلية، والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله ﷺ ودعائه ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه بحسب ذلك، وفيه إيماء إلى أن الإسراء ليس إلا لتكرمته ﷺ، ورفع منزلته، وإلاَّ فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب، والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة.. **حكمة الإسراء:** كان ﷺ قد ذهب إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الإسلام، فما أحسنوا استقباله، بل أساؤوا إليه، فرجع حزيناً إلى مكة، لوقوف قريش بالمرصاد في طريق رسالته، فكأنما طاف بنفسه وروحه العالية، وكأنما رأى أنه محوط بأعداء الإسلام من كل جانب، مع قلة أنصاره، فكان في حالة لا يمكن التعبير عنها بالقلم، لشدة حرصه على خير العالم، وعظيم شوقه إلى انتشار الإسلام، وحينئذٍ كان الإسراء والمعراج، ليبشره الله تعالى عمليّاً بما يزيل من نفسه عوامل الحزن والأسف، فالإسراء بمثابة «مرسوم ملكي» أُعلِن فيه الرسولُ ﷺ ما هو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله، وقد تسلَّم ﷺ هذا المرسوم الجليل، في حفلة كاملة، حضرها الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون، وفيها حِكَم كثيرة غير هذا.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة، وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجاة، أي آتيناه بعدما أسرينا به إلى الطور، ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه للرسول ﷺ، وذكر في هذه الآية إكرامه لموسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ يهتدون بأنواره ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أي لا تتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أي ربّاً تكلون إليه أموركم.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نُصب على الاختصاص، يعني قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد تذكيرهم بإنعامه تعالى، في ذكر إنجاء آبائهم من الغرق، في سفينة نوح عليه السلام، فجميع الناس من ذرية من أنجي في السفينة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر في حالاته، روي أنه عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال: الحمد لله، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه، ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ﴿ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المراد بالأرض أرض فلسطين ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ مخالفة لحكم التوراة أي تفسدنَّ إفساداً عظيماً مرتين، وذلك بسفك

الدماء، وقتل الأنبياء، وقتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليهم السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك مجاوزاً للحدود.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي حان وقت حلول الغضب لأولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجناياتكم أناساً جبارين للانتقام منكم، ذوي قوة وبطش في الحروب(١)، والمقصود هو أنهم لما أكثروا الظلم والمعاصي سلَّط الله عليهم أقواماً قتلوهم وشرَّدوهم ﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا في طلبكم وطافوا ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ في أواسطها فقتلوا كبارهم، وسَبَوْا صغارهم، وحرَّفوا التوراة، وخرَّبوا المسجد، وذلك تولية بعض الظالمين بعضاً، مما جرت به السُّنَّة الإلٰهية ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا محالة بحيث لا صارف له.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدَّوْلة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وذلك حين

---

(١) قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما انتهكوا المحارم، وسفكوا الدماء، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وهذا أول الإفسادين في الأرض، وقضاء الله على بني إسرائيل ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب علمه الأزلي سبحانه وتعالى منهم، فهو قضاء علمٍ بما سيحدث، فتنبه والله يرعاك!.

قتل داودُ عليه السلام جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيت أولادكم ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، والنفيرُ من ينفر مع الرجل لنصرته، جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم على الوجه اللائق، وفعلتم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابها لها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالكم وفعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ أي فعليها وبالها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي حان وقتُ ما وُعد من عقوبة المرة الأخيرة ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسُوؤا وجوهكم أي ليجعلوها بادية فيها آثار المساءة ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي يُهلكوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ فظيعاً لا يوصف، وقد سلَّط الله عزَّ وجلَّ عليهم الروم، فغزاهم «قسطنطين» ملك الروم، ودخل مذبح قرابينهم، فوجد فيه دماً يغلي فقتل على ذاك الدم ألوفاً، فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركتُ منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى ما كنتم من الفساد مرة أخرى ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله النقمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الأتاوة

عليهم، ونحو ذلك، وعن الحسن فبعث الله تعالى الرسول ﷺ فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجناً لا يقدرون على الخروج منه أبداً.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ أي الناس كافة ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي أقوم الطريق وأسدُّها أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية، التي هي من روادفها وقوله: ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الشرائع، والأحكام ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة التي يحبها الله عزَّ وجل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعداً.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدِّقون بلقاء الله، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والعذاب ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا قلبت الدال تاءً ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب جهنم أي أعددنا لهم بسبب كفرهم بالآخرة، عذاباً أليماً، وهو أبلغ في الزجر، لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع والآية ترد على القول بالمنزلة بين المنزلتين، التي قال بها المعتزلة، حيث ذكر تعالى المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، حكى عنه حالَه في بعض أحيانه، وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو شر من العذاب المذكور كدأب من قال منهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ أي يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره، كما هو حاله عند الغضب، يدعو على نفسه، وأهله، وماله بما هو شر، وكان الإنسان بحسب جبلَّته ﴿عجولاً﴾، ضَجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه، ولا ينظر إلى عاقبته قال ابن عباس: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر، بما لا يحبُّ أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمِّره ونحوه[2].

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر من الهداية، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل واحدة منها برهان نيِّرٌ لا ريب فيه، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتب آية النهار عليها بلا واسطة، أي جعلنا الليل والنهار بهيآتهما، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر، على وتيرة عجيبة، تحار في فهمهما العقول، آيتين تدلان على أن لهما صانعاً حكيماً، قادراً، عليماً، تهديان لملة التوحيد، أي جعلناهما علامتين عظيمتين على وحدانية الله، وكمال قدرته جلَّ وعلا.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٢٢٥.

ثم إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل، فجعلناه مظلماً، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، أي مشرقاً بالنور والضياء ليحصل به الإبصار، يريد الشمس والقمر، فمحو القمر حيث لم يخلق له شعاعاً، بل هو مستفاد من الشمس، وإبداعها على ذلك وأهل التجارب الفلكية، بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادر النور، له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة يُبصر فيها الأشياء، وأبدعها مضيئة بالذات، تظهر فيها الأشياء المظلمة ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم ﴿فَضْلًا﴾ أي رزقاً، إذ لا يتسنّى ذلك في الليل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من مربيكم ورازقكم، وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء، دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير، سوى الطلب، وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوب عليه، بل بفضله، بحكم الربوبيّة للعباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ أي لتعلموا بتفاوت الليل والنهار من حيث الإظلام والإضاءة ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ عدد الأيام والشهور والأعوام، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي حساب الأوقات أي الأشهر والأيام، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولم يدر أوقات الشرع، والديون، وغير ذلك ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بيناه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلف ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره، كأنه طار إليه من عُشّ الغيب، ووكر القَدَر، أو ما وقع له في

القسمة الأزلية، من قولهم طار له سهم كذا ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشدة اللزوم، وكمال الارتباط، أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق، فإن كان عمله خيراً، كان كالحلي يزيِّنه، وإن شراً كان كالغُلّ يشينه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله صغيراً أو كبيراً نقيراً أو قِطْميراً ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي الإنسان ﴿مَنشُورًا﴾ ونظيره: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الحسن البصري: «بُسطت لك يا بن آدم صحيفة، ووكل لك مَلَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى إذا متَّ، طُويت صحيفتك، وجُعلت معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، ويقال لك:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال قتادة: يقرأ ذلك اليوم، من لم يكن قارئاً في الدنيا ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي نفسك والباء زائدة، واليوم ظرف لكفى، وحسيبا تمييز بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي، ووضع موضع الشهيد.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا يتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لا يباشره والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على

عمل بعينه أصلاً ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملةٌ للوزر، وزرَ نفس أخرى، حتى يمكن تخليص النفس الثانية عن وزرها، وإنما تحمل كل منهما وزرها، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأمَّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ليحملوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ الآية من حملِ الغير وزرَ الغير، وانتفاعِه بحسنته، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرُّرٌ بسيئاتها، فإن جزاء الحسنة والسيئة، اللتين يعملهما العامل، لازمٌ له، وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة، وكذا جزاء الضلال مقصورٌ على الضالين، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال، لا جزاء الضلال، وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية، قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانية أي وما صحَّ وما استقام منا، في سنتنا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذب أحداً اكتفاءً بقضية العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، والمراد بالعذاب المنفي إمَّا عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده، أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قرية، بأن نعذّب أهلها بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبَّاريها، والمترف: المتنعّم الذي أبطرته النعمة خصَّهم بالذكر لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور، وعدم التعرض للمأمور به، لظهوره، وأنَّ المراد به الحق والخير، لأن الله لا يأمر

بالفحشاء، قال أكثر المفسرين معناه: أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، والقوم خالفُوا وفسقوا، ويدلُّ على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم الفسق والطغيان ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان «كم» وتمييزٌ له، والمراد به الأمم الكافرة ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ﴾ من بعد زمانه عليه السلام، كعاد، وثمود، ومن بعدهم، وعدم نظم قوم نوح في تلك القرون المهلكة، لظهور أمرهم، على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يحيط علمه بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بهم الكفرة وأكثر الفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة، والمراد بالعاجلة الدنيا، وبإرادتها إرادة ما فيها ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي في تلك الدنيا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي ما نشاء تعجيله له، من نعيمها، لا كل ما يريد ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيل ما نشاء له وتقييد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لما أن الحكمة لا تقتضي وصول كل طالب لمرامه، وهكذا الحال، ترى كثيراً من هؤلاء الفجار

يتمنون ما يتمنون، ولا يُعطون، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ مكان ما عجلنا ﴿ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من رحمة الله، وهذا زجر عظيم لهؤلاء الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم الدنيا، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم، ومن الجهال من ساعدته الدنيا فاغترَّ بها، وظن كون ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، كما قال بعض المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكثر أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ والدنيا قد تحصل للكافر، مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ بأعماله ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتهاء عما نهى عنه ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إيماناً صادقاً صحيحاً، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ للدلالة على اشتراط مقارنته ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده، فإن شكر الله تعالى، الثواب على الطاعة وعن بعض السلف، من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيمانٌ ثابت، ونيّة صادقة، وعملٌ مصيب، وتلا هذه الآية.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ كُلًّا ﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿ نُّمِدُّ ﴾ نزيد مرة بعد مرة، ما عُجِّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعد للآخر من العطايا الآجلة ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ الذين أرادوا الدنيا ﴿ وَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ وهؤلاء المشكور سعيهم، ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي من عطائه الواسع، تفضلاً وإحساناً منه جلَّ وعلا ﴿ وَمَا كَانَ

﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً، وإنما أظهره إظهاراً، لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعاً ممن يريده، بل هو فائض بموجب المشيئة الإلهية.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيما أمددناهم به من العطاء العاجل، فمن وضيع ورفيع، ومالكٍ ومملوك، وموسرٍ وصعلوك، تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة، ودرجات تفاوت أهلها، وقد بيّن الله تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت في قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْق بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾[1] وفي قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْق بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾[2] ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي هي وما فيها أكبر من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها، روي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا في باب عمر رضي الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشقَّ على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو: دعوا إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقيلاً﴾[3].

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٤.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ للرسول ﷺ والمراد أمته أو لكل أحد ممن يصلح لهذا الخطاب ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ جواب للنهي، والقعود بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه ﴿مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله، والخذلانُ ضدُّ النصر والعونِ، دليلُه قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾؟ جعل الخذلان بمقابلة النصر.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم، فلا تحقُّ إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ أي وأن تحسنوا بهما ﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والحياة[1] ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ إمَّا مركبة من «إن» الشرطية، و «ما» المزيدة لتأكيدها، ومعنى «عندك» أي في كنفك وكفالتك، وتقديمه على المفعول للتشويق، فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان، ومعنى ﴿الكِبَر﴾ أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر، كما كنت عندهما في أول العمر ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي لواحد منهما، و «أف» صوتٌ ينبىء عن تضجُّرٍ، أي لا تضجر بما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما، وبهذا النهي يُفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص، وقد خص بالذكر بعضه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ أي لا تزجرهما عما لا يعجبك

(١) قيل كل الذنوب يؤخر اللهُ تعالى من عقوبتها ما شاء، إلاَّ عقوق الوالدين فإن الله يعجّله لصاحبه قبل الممات.

بإغلاظ، والنَّهْرُ الزجرُ والغلظةُ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي حسناً، جميلاً، ليناً، كما يقتضيه حسنُ الأدب معهما، مثل أن يقول يا أباه، ويا أمّاه كدأب إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وديدن الدُّعَّار والفُجّار.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ هو عبارة عن لين الجانب، والتواضع لهما فإن إعزازهما لا يكون إلاّ بذلك، والطائرُ إذا أراد تربية فرخه، خفض له جناحه، ولهذا صار خفضُ الجناح كناية عن حسن التربية والتواضع فكأنه قيل للولد: اكفَلْ والديك في حالة العجز والضعف، كما فعلا بك حال صغرك ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي رحمة مثل رحمتهما لي، ولقد بالغ عزَّ وجل في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيَّق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع ما له من موجبات الضَّجَر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين يدعو الله لهما بالهداية والتوفيق، سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه؟ فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات[1]. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) حقوق الوالدين على الولد كثيرة ومنها: الإنفاق عليهما، والكسوة إن احتاجا إليها، =

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك، ثم أمُّك، ثم أمُّك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»[1].
وروى مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكِبَر أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»[2] وروي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسولَ الله أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ لوقتها، قلت: ثم أيٌّ؟ قال برُّ الوالدين، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله»[3].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من البر، والعقوق، وكأنه تهديدٌ على أن يضمر لهما كراهةً واستثقالاً ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح والبر، دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي الراجعين إلى الله تعالى عما فرط منهم، مما لا يخلو عنه البشر ﴿غَفُورًا﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير، أو أذية، ويدخل فيه الجاني على الأبوين.

= والإجابة إن دعياه، والإطاعة لهما ما لم يأمرا بالمعصية لله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والكلام الرفيق الليِّن، وألا يدعوهما باسمهما وإنما يقول: يا أبت، ويا أمي، وأن يمشي خلفهما، والدعاء لهما في كل صلاة وفي جميع الأوقات والأحيان: ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥١.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم ٤٧.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ المراد بهم المحارم، أقارب الرجل، وبحقهم النفقة، وإذا لم يكن من المحارم، فلا حق لهم إلا المودة، والزيارة، وحسن المعاشرة ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، المسكين المعدم، والغريب المنقطع في سفره ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهي عن صرف المال في غير الحِلّ، وغير المحلّ، فإن التبذير: تفريق الشيء في غير موضعه، مأخوذ من تفريق البذر في الأرض كيف ما اتفق، سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، فقال: إنفاق المال في غير حقه، وقد أنفق بعضهم في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَف، فقال له المحسن: لا سَرَف في الخير.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه، من صفات السوء، التي من جملتها التبذير ﴿ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(١) روي أنهم كانوا ينحرون الإبل، ويبذّرون في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، للإيذان بأن التبذير من باب الكفران.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦ .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من التصريح بالردِّ بسبب الفقر والقلّة ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي لفقد رزق ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ إقامة للمسبَّب مقام السبب، فإن الفقد سبب للابتغاء ﴿ تَرْجُوهَا ﴾ من الله تعالى لتعطيهم، روي أنه ﷺ كان إذا سئل شيئاً وليس عنده، أعرض عن السائل وسكت حياءً، فأُمر بتعهدهم بالقول الجميل، لئلا يعتريهم الوحشة ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي سهلاً ليّناً، وعِدْهم وعداً جميلاً، تطيِّب به قلوبهم، أو قل رزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ هما تمثيلان لمنع شُحِّ الشحيح، وإسراف المبذِّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد الذي هو بين التقتير والإسراف، وهو الكرم كما قيل: «كلا طَرَفيْ قَصْدِ الأمورِ ذَميم» وحيث كان قبح الشح مقارناً له، روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، وغائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره، فقيل: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ أي فتصير ملوماً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك، إذا احتجتَ وندمتَ على ما فعلتَ ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ أي منقطعاً بك لا شيء عندك من المال.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ تعليل لما مر، أي يوسّعه على بعض، ويضيّقه على الآخرين، حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة، فليس ما يرهقك من نفاذ ما في يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، فهو تعالى يبسط تارةً، ويقبض أخرى، فاستنُّوا بسنته، ولا تقبضوا كل القبض، ولا تبسطوا كلَّ البسط، فالتفاوت في أرزاق العباد، ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾[1].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي مخافة فقر، كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾ فلا تخافوا الفاقة بناء على زعمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي جرماً عظيماً، وذنباً كبيراً، كيف لا، وإن قرابة الأولاد قرابة الجزئية، وهي أعظم الموجبات للمحبة، فإذا أقدم الوالد على هذه العظيمة، دل ذلك على غلظ القلب، وفساد الأخلاق.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧ .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾ بإتيان المقدمات من القُبلة، والغمزة، واللمس، والنظر بشهوة، ونحوها فضلاً عن أن تباشروه، وإنما نهي عن قربانه، للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن الاقتراب منه داعٍ إلى مباشرته ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح، متجاوزة الحد فإن فيه تضييع الأنساب ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقاً، لأنه يدفع صاحبه إلى النار، وهو طريق لقطع الأنساب أيضاً.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها، بأن عصمها الله بالإسلام، وقولُه تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا﴾ نهيٌ وتحريمٌ، وقوله: ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾ تأكيدٌ وتقريرٌ ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدَّمَ، وذلك بإحدى ثلاث: كفرٍ بعد إيمان، وزِنىً بعد إحصان، وقتل نفسٍ معصومة عمداً، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا﴾[1] الآية، وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دمُ امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدىٰ ثلاثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2] ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقتل، حتى إنه لا يعتبر إباحة ولي المقتول لغيره، فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتصُّ من القاتل، ولا يفيده قول الولي أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ لمن يلي أمره من الوارث ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي قوة واستيلاء على

(١) سورة المائدة، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ١٢/ ٢٠١ ومسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود رقم ٤٣٥٢ في الحدود.

القاتل، يؤاخذه بالقصاص، أو بالدية، حسبما تقتضيه جنايته، وهو مخيّر إن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي الولي ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المُثلة، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل اثنين مكان الواحد، كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً، فلا يرضون بقتل القاتل وحده، حتى يقتلوا جماعةً من أقربائه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه، فلا يبغ ما وراء الحق، وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، لأن أنفسهم داخلة في الآية لكونها محرمة.

> ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهى عن قربانه، مبالغةً في النهي عن التعرض له، فلمّا نهى الله عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعزَّ الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه، يعظم ضرره، بإتلاف ماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾[1] ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطرائق التي هي أحسن الطرق، وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ سنَّ الرشد ويكمل عقله، وهي ثمانَ عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم، ويُؤكد هذا النصَّ بسائر الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

---

(١) سورة النساء، آية: ٦.

عَاهَدُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُون﴾[1] والإيفاءُ بالعهد هو القيامُ بمقتضاه، والمحافظةُ عليه، ولا يستعمل إلاّ بالباء، فَرْقاً بينه وبين الإيفاء الحسّي كإيفاء الكيلِ والوزن ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهر لكمال العناية بشأنه ﴿كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولاً عنه، يُسأل الناكث ويعاتب: لم نكثت؟.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتموه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي وقت كيلكم، وتقييد الأمر بذلك، لما أن التطفيف هناك يكون ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ أي زنوا بالميزان العادل السوي، الذي لا بخس فيه ولا زيف، والقسطاسُ الأصح أنه من لغة العرب، وهو مأخوذٌ من القسط، وهو الذي يحصل منه الاستقامة ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي العدل السوي، وعند استقامته لا يتصور الجور، وقد أمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي ﴿خَيْرٌ﴾ إذ هو أمانة توجب الذكر الجميل بين الناس ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة ومآلاً في الآخرة، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فالعاقل من يحترز منه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، من قَفا أثره إذا تبعه ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٨.

لا تكن في اتباع ما لا علم لك به، من قولٍ، أو فعل، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كل واحد من تلك الأعضاء، فأُجريت مجرى العقلاء، لمَّا كانت مسؤولة عن أحوالها، وشاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي كان كلٌّ من تلك الأعضاء مسؤولاً عما فعل به صاحبه، ومن الدعاء المأثور «اللهمَّ إني أعوذ بك من شرّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ فؤادي، وشرِّ لساني، وشر قلبي، وشرِّ مَنِيِّي يعني ماءه وذَكَرهُ»[1].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد بها لزيادة التقرير، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالمتكبّر ﴿مَرَحًاۖ﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وفي سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[2] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ فيه تهكم بالمختال، وإيذانٌ بأن ذلك مفاخرةٌ مع الأرض، وتكبرٌ عليها، أي لن تخرق الأرض بدوسك ووطأتك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها، إذ التكبر بكثرة القوة، وعِظَم الجُثَّة، وكلاهما مفقود في الإنسان، وكأن الآية تقول: إنك أيها الإنسان هزيل ضئيل، لا يليق بك الشموخ والكبرياء، كيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم ١٥٥١ والترمذي رقم ٣٤٨٧ والنسائي ٨/ ٢٥٩.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأوامر، والنواهي، من الخصال الخمس والعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي كان عمله القبيح الذي نهي عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مبغضاً غير مرضيٍّ عند الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي تقدَّم من الأوامر والنواهي ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي بعض منه ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي من الأحكام التي لا يتطرق إليها النسخ، وهي واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من صنم أو بشر، وكرره للتنبيه على أن التوحيد، مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وغايته ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي تلوم نفسك، ويلومك الناس والملائكة ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاء، ازدراءٌ بالمشركين، وجعلٌ لهم من قبيل خَشَبة، يأخذها آخذ، فيطرحها في النار.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ الإصفاء بالشيء: جعلُه خالصاً، والهمزة للإنكار، أي أفضَّلكم على جنابه، فخصَّكم بأفضل الأولاد، وآثَرَ لذاته أخسَّها؟ وهو توبيخ للعرب في مزاعمهم الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾؟ وقوله: ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ ولَكُمُ البَنُونَ﴾؟ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل، في إضافة البنات إلى الله سبحانه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي كلاماً عظيماً في بشاعته وشناعته، مخالفاً لقضايا العقول، بحيث لا يجترىء عليه أحد، حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام،

ثم تضيفون إليه ما تكرهون، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكة الذين هم أشرف الخلائق بالأنوثة، فيا لها من ضلالةٍ ما أقبحها!!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينّا هذا المعنى، وكرّرناه، يعني العِبَر، والحِكَم، والأمثال، والأحكام، والحِجج، والأخبار ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ما فيه، ويقضوا على بطلان ما يقولونه، أي كرّرناه ليتّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي والحال ما يزيدهم ذلك البيان والتذكير البديع ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ، وإعراضاً عنه، فضلاً عن التذكر، وكان الثوري رحمه الله إذا قرأها يقول: يا ربِّ زادني خضوعاً، ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يقول المشركون، والمراد بالمشابهة: الموافقةُ والمطابقة ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ جواب عن مقالتهم أي لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، كقوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزّه ذاته تنزهاً حقيقياً ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تباعد وتقدّس ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة أن معه آلهة، وأن يكون له بنات ﴿عُلُوًّا﴾ تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ لا غاية وراءه، كيف لا وأنه عزَّ وجلَّ في أقصى غاية الوجود الذاتي، وما يقولونه من أن له شريكاً وأولاداً، في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع!!.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال، ولسان الحال، بطريق عموم المجاز ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان، أو نباتاً، أو جماداً ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ أي يقول: سبحان الله وبحمده، أي ينزّه الله تعالى بلسان الحال، عما لا يليق بذاته الأقدس، إذ ما من موجود إلاَّ وهو يدلُّ على أن له صانعاً، عليماً قادراً، حكيماً واجباً لذاته، أو يُسبِّحه بلسان المقال، فإنَّ كلَّ موجود في الكون، له تسبيح خاص به، ولهذا قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم ذلك، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلمَّا اتخذ المنبر، تحوَّل إليه، فحنَّ الجذع فمسح بيده الشريفة عليه»[1] ففي الأحاديث أن الجمادات والحيوانات تُسبِّح الله عزَّ وجل بطريقة لا نفهمها نحن كما قال تعالى: ﴿والطَّيْرُ صَافَّات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسْبِيْحَهُ﴾. وقال البعض: تسبيح الجمادات والحيوانات بلسان الحال، والقولُ الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها، من الإشراك، والغفلة ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم.

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا مَّسۡتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ الناطق بالتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه

---

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء.

من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية ﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ أوثر الموصول ذماً لهم ﴿ حِجَابًا ﴾ يحجبهم من أن يدركوا نبوّتك ليفهموا قدرك ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ مستوراً عن الحسّ، يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره الدقيقة.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن، أغطية وحجباً لئلا يفهموا القرآن، كما جعلنا على آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ أي أفردته بالذكر غير مشفوع بآلهتهم ﴿ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ ﴾ رجعوا على أعقابهم أي هربوا ونفروا ﴿ نُفُورًا ﴾ هرباً من استماع الإيمان والتوحيد، كانت قريش إذا سمعوا من القرآن ذم المشركين وآلهتهم فروا هرباً من سماعه.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي نحن عالمون بما يدعوهم إلى الاستماع لـه، وبـالغـايـة التـي يستمعـون إلـى القـرآن مـن أجلهـا، وهـي اللغـوُ، والاستخفاف، والهزء بك وبالقرآن وأنت تقرأ كتاب ربك ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرف لأعلمُ، وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار، أي حين يستمعون إليك وأنت تتلو القرآن ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي وحين يتحدثون ويتناجون به فيما بينهم سراً ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة عن الرسول ﷺ

﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحر فجُنَّ.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي مثَّلوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والرشاد، فيخبطون في كلامهم بدون تبصر.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ استفهام إنكاري، والاستنكار للبعث لما بينَ غضاضة الحيّ، ويبوسة الرميم من التنافي، والرُّفاتُ: ما بُولغ دقُّه وتفتيتُه، وقال الفراء: هو الترابُ ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تحلية الجملة بإن واللام لتأكيد الإنكار، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر، وتماديهم في الضلال ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي مخلوقاً مجدداً؟ قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿۞ قُلْ﴾ أي قل يا أيها الرسول جواباً لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي كونوا من الحجارة والحديد فسيبعثكم اللهُ ويحييكم، والأمر هنا أمر تعجيز وتوبيخ، لا أمرُ إلزام ليصبحوا من الحجارة والحديد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم عندكم عن قبول الحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدِّد اللهُ خلقكم،

بعدما صرتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، فليس ببدْعٍ أن يردَّكم الله إلى الحالة الأولى، ولكنْ لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارةً، أو حديداً، لكان الله قادراً على أن يردَّكم إلى حال الحياة، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا صرتم عظاماً ورفاتا؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباينة؟ ﴿قُلِ﴾ لهم تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي يردُّكم الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واخترعكم من غير مثال وكنتم تراباً، فمن قَدَرَ على الإنشاء، قَدَر على الإعادة، ومتى سلمنا بكمال علم الله، وكمال قدرته، زالت هذه الشبهة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي سيحرِّكونها نحوك، تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ فإن كل ما آتٍ قريب، و«عسى» للوجوب، فإن قالوا: فكيف يكون قريباً وقد انقرض ما يزيد على ألف عام ولم يظهر؟ قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان أقل، فعمر الدنيا طويل، وما بقي منها إلا القليل!!.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى الموقف للمحاسبة، وهو النفخة الأخيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المنادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] وهو إسرافيل عليه السلام ينادي الأموات ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتُبعثون استعير لها الدعاء، والإجابة، إيذاناً بكمال سرعتهما، وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي منقادين له حامدين له على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة ق، آية: ٤١.

«ليس على أهل لا إله إلاّ الله، وحشةٌ في قبورهم، كأنيّ بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم» ويقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك»[1] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عندما ترون ما ترون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ترون من الهول.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ أي للمؤمنين ولفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[2] ويمكن أن يراد من العباد الكفار، لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ﴿يَقُولُوا﴾ عند مخاطبة المشركين ﴿الَّتِي﴾ أي الكلمة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتي هِي أَحْسَنُ﴾[3] ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ﴾ يفسد ويهيج الشرّ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد، وتمادي الفساد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني، وفي رواية يقولون ﴿الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٢.

(٢) سورة الإنسان، آية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرِّ، مع أن اختتام أمرهم غيب، لا يعلمه إلاّ الله ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فدارهم ومرْ أصحابك بالمداراة، والاحتمال، وترك المشاقة.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ وتفاصيل أحوالهم التي بها يستأهلون الاصطفاء، فيختار منهم لنبوته من يشاء، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجُوَّعُ أصحاب الجنة، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد!! ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ بالفضائل النفسانية، لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بيان لحيثية تفضيل داود عليه السلام، فإن ذلك بإيتاء الزبور، لا بإيتاء الملك والسلطنة، وفيه إيذان بتفضيل الرسول ﷺ فإن نعوته الجليلة، وكونه خاتم النبيين، مسطورة في الزبور، وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هو الرسول ﷺ وأمته، والزبور يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء، ليس فيه أحكام.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) ﴾.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ إنها آلهة ليس المراد بها الأصنام، لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ فهذه الآية نزلت فيمن عبدوا

الملائكة، والمسيح، وعزير لا في الأوثان ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من الملائكة والمسيح ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ كالمرض، والفقر، والقحط، ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي ولا تحويل ذلك عنكم إلى غيركم، فمن لا يقدر لا يكون إلهاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي الآلهة الذين يدعوهم المشركون ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالك أمرهم ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم، إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الملائكة والرسل عليهم السلام.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كلمة «إن» نافية، و«من» زائدة للتأكيد، والمراد بالقرية القرية الكافرة، أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ أي مخرّبوها البتة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرة، لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وإنما قيل قبل يوم القيامة، لأن الإهلاك يومئذ، غير مختص بالكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، إنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي معذبو أهلها ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بفنون العقوبات الأخروية، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب، كيف لا وكثير من القرى العاتية، أُخِّرت عقوبتها إلى يوم

القيامة، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بُيِّن فيه.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ التي اقترحها المشركون من قلب الصفا ذهباً، وأن تُنحّى الجبال عنهم، ليزرعوا ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي الأمم السابقة كذبوا بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدم إرسالها لا لمنع مانع عنه، بل لإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حلَّ بالمكذبين السابقين، بحكم التكذيب، المستدعي للاستئصال، المخالف لما جرى به قلم القضاء، من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة، لحكم باهرة، من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم، ولهذا عبَّر عن تلك المنافاة بالمنع، أي ما تركنا إجابتهم إلى ما طلبوا واقترحوا، من إحياء الموتى، وإجراء الأنهار، وإزالة الجبال، إلاَّ لعلمنا بعدم إيمانهم، وأنهم لو أعطوها لكذَّبوا، كما فعل أسلافهم الأولون، وعند ذلك يستحقون عذاب الاستئصال، والله سبحانه يعلم أنَّ من أبنائهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ذات إبصار أو بصائر تدركها الناس ﴿فَظَلَمُوا۟﴾ فكفروا ﴿بِهَا﴾ ظالمين لأنفسهم ولم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر، وتخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم، وأن لهم من العلم بحالهم حيث يشاهدون آثار هلاكهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والرعد، إلا تخويفاً للعبَاد، لما يعقبها من العذاب المستأصل.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ علماً، فلا يخفى عليه شيء، من أفعالهم الماضية والمستقبلة، من الكفر والتكذيب فلا تبال بهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه ﷺ ليلة المعراج، حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة، والتعبيرُ عن ذلك بالرؤيا لأنها وقعت في الليل، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤيةً، ورؤيا، قال البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برؤيا منام»[1] أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عياناً، مع كونها آية عظيمة، وحقيقة ملموسة، إلا فتنة افتتن بها الناس، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ المراد بلعنها: لعن طاعمها، أو إبعادها عن الرحمة، فإنها تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة، والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: إنه ملعون، ويعني بها شجرة الزقوم، التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان في قوله سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم﴾[2] أي وما جعلناها إلا فتنة لهم، حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر!! ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية عقولهم، فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وَبَرِ السَّمَندل تُلْقى في النار، فلا تؤثر فيها ولا تحرقها، ويرون أن في كل شجرة ناراً، فجاز أن

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٨.
(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

يخلق في النار شجرة لا تحرقها النار [1] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات، فإن الكل للتخويف، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ متجاوزاً عن الحد، فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد، وإذا كان الأمر كذلك وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلوا للأمر وسجدوا له إلا إبليس اللعين، تكبَّر وتجبَّر، وعصى أمر ربه، والآية تحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ الآية، ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم، من عيسى وعزير عليهما السلام، ومن حال إبليس حال من يعاند الحقَّ، لأنهم إنما عاندوه لأمرين: الكبر، والحسد، وهذه بليّةٌ للخلق ﴿قَالَ﴾ أي عندما وُبّخ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ ﴿أَأَسْجُدُ﴾ وأنا من عنصر عال ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ نصب على نزعِ الخافض أي أأسجد لمن خلقته من طين؟ فاستحقَّ بذلك اللّعن والطرد من رحمة الله.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) هناك ثياب يلبسها رجال الإطفاء ويقتحمون النار بها فلا تحرقها، فلا يستبعد العاقل على قدرة الله، أن تنبت شجرة في النار ولا تأكلها النار، ونحن نرى في عصرنا غرائب وعجائب من صنع الإنسان، فكيف بخالق الأكوان؟.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ الكاف للتأكيد أي أخبرني عن ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ لم كرمته؟ ومراده الاستحقار ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حياً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ واللام للقسم وجوابه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنَّهم بالإغواء كقوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته وهو طرد له، وتخلية ما بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم، فغلَّب المخاطبُ على الغائب ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي جزاءً كاملاً وافراً، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ استخفَّ واستعجل، وأزعج من استطعتَ أن تستفزَّه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بدعائك لهم إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي صِحْ عليهم، من الجَلَبة وهي الصياح ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بأعوانك من راجل وراكب، من أهل الفساد، قال ابن عباس: إن له خيلاً ورَجِلاً من الإنس والجن، فما كان من راكبٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، ومن كان يقاتل في معصية الله، فهو من رَجُل إبليس، والرَّجِلُ: اسم جمع للراجل، كالصحب والركب ويجوز أن يكون استفزازه، تمثيلاً لتسلُّطه على من يغويه ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها، وجمعها من الحرام، والتصرف فيها بإنفاقها في المعاصي ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحث على التوصل

إليهم بالأسباب المحرمة، والإضلال لهم بالحمل على الأديان الزائغة، والحِرَف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتكاء على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي وما يعدهم إلا خداعاً وتضليلاً بوساوسه الكاذبة.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلصون من المؤمنين الصادقين ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، يتوكلون عليه، للخلاص عن إغوائك، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلب قوته، عن إغوائهم بدفع كيده، ويعصمهم من إغوائه، وقد استشكل بعض المتكلمين، خطاب الرب سبحانه للشيطان، وأمر الله تعالى إياه بإغواء البشر، بقوله تعالى: ﴿واسْتَفزِزْ﴾ الآية مع قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾ الآية؟.

وإنما يشكل هذا كله على ما جَرَوْا عليه من جعل الخطاب للتكليف، أمَّا إذا جعل الخطاب للتكوين، كما صرح به ابن كثير فلا إشكال[1]، لأنه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الشيطان.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الإزجاء السَّوْقُ حالاً بعد

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٨٧/٢: هذا أمرٌ قَدَريٌّ، ومعناه: تسلَّطْ عليهم بكل ما تقدر عليه. اهـ أقول: لا يراد به أن الله عزَّ وجلَّ يأمره بإغواء البشر، وفتنتهم عن الدين، بطرقه الخبيثة، وإنما هو بيان لصفة طبيعة الشيطان، فتنبَّهْ والله يرعاك.

حال، أي هو القادر الحكيم، الذي يسوق لمنافعكم الفُلْك، ويُجريها في البحر ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قِبَله، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد، والمقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه، والمراد بالرحمة: الرحمةُ الدنيوية، وفي قوله تعالى: ﴿ربُّكُمُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُم﴾ الضمير عام في حقِّ الكل.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ خوف الغرق ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ﴾ ذهب عن خواطركم ﴿مَن تَدۡعُونَ﴾ كل من تدعونه من دون الله، من الملائكة، والمسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ وحده، من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم، وتدعوه لكشفه، أو ضلَّ من تدعونه من إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجل ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ للنعم، والصيغة للمبالغة، أي كثير الكفران لنعم الرحمن.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ الهمزة للإنكار، أي نجوتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي يقلبه الله عليكم ملتبساً بكم، وحاصل المعنى: أن الجوانب كلها بالنسبة إلى قدرته عزَّ وجلَّ سواء، براً كانت أو بحراً، ليس جانب البحر وحده، مختصاً بسبب الهلاك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرِّ الخسفُ

والزلازلُ، والفيضانات ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً ترمي بالحصباء أي نمطر عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم عن ذلك، أو يصرفه عنكم، فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي يعيدكم في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ أي عاصفاً ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرُّ بشيءٍ إلاَّ كسرته، أو الريح التي لها قصف وهو الصوتُ الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر سفينتكم كما ينبىء عنه عنوان القصف ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي ثائراً متابعاً، يطالبنا بما فعلنا، دَرْكاً للثأر، كما يفعله الأقوياء.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي كرمناهم بحسن الصورة، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق، والخط والاهتداء إلى أسباب المعاش، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ذلك أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن، وليس من المخلوقات شيءٌ كذلك ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فنون النعم، وضروب المستلذّات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ في العلوم، والإدراكات بما ركّبنا فيهم من القوى المدركة، التي بها يتميز الحقُّ من الباطل، والحُسْنُ من القبح ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم ما عدا الملائكة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمنُ أكرم على الله من الملائكة، لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقلٌ بلا شهوة،

وفي البهائم شهوةٌ بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم» ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيماً، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم، ولا يكفروها، وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة، فإن المراد ههنا بيان التفضيل في أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل في عظيم الدرجة، وزيادة القربة عند الله سبحانه.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) ﴾.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي ندعو كل شخص من بني آدم، وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة، بحسب أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أي بكتاب أعمالهم فيقال: «يا أهل كتاب الخير، ويا أهل كتاب الشر» ويدل على أن المراد بالإمام هو كتاب الأعمال، قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿ كِتَابَهُ﴾ صحيفة أعماله ﴿ بِيَمِينِهِ﴾ إبانةً لخطر الكتاب المؤتى، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له بما في مطاويه ﴿ فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناه، إيذاناً بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليل ﴿ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين، ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه من الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالهم، بل يُؤتونها مضاعفة ﴿ فَتِيلًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شِقِّ النواة، أو أدنى شيء كان، والفتيل مَثَلٌ في القلة والحقارة.

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) ﴾.

﴿ وَمَنْ كَانَ﴾ من المدعوين المذكورين ﴿ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا التي فُعل

بهم ما فُعل، من فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعۡمَىٰ﴾ فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه به من التكريم، فضلاً عن شكرها، والقيام بحقوقها ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أي لا يهتدي إلى ما ينجيه، لأن العمى الأول موجب للثاني، وفيه قولان: **الأول**: عمى البصيرة، **والثاني**: عمى العين، كما قال الله تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَىٰ﴾[1] ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي من الأعمى فاقد البصر، لزوال الاستعداد، وتعطيل الآلات بالكلية.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ نزلت في وفد ثقيف إذ قالوا للرسول ﷺ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، وأن تحرم وادينا كما تحرم مكة وإن قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال: أمَا ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام، كراهيةً لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية والمشركون كانوا يسعون في إبطال أمره ﷺ، فتارة كانوا يقولون: «إن عبدت آلهتنا عبدنا إلّهتك» فأنزل الله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ السورة وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، والنساء الجميلة، ليترك الدعوة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾ الآية. أي قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من أوامرنا ونواهينا ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ لتقول علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي لو اتبعتهم على أهوائهم لكنت لهم خليلاً، ولخرجت من ولايتي.

---

(١) سورة طه، آية: ١٢٥ ـ ١٢٦.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ على ما أنت عليه من الحقّ بعصمتنا لك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك، لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً، من الميل اليسير، لقوة خدعهم، لكنْ أدركتك العصمة، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، وهذا صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم، ودليلٌ على أن العصمة بتوفيق الله تعالى، وعنايته، وهذا تهييجٌ من الله تعالى له، فلما نزلت كان ﷺ يقول: «اللهمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ميل ﴿لأذقْناكَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، ضعف ما يُعذَّب به في الدارين، بمثل هذا الفعل غيُرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، بمعنى مضاعفاً وقيل: ضعف الممات «عذاب القبر» ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنك العذاب، وينصرك منا.

«التقليد الأعمى للأجانب»

لقد ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب، ولا سيما في الفروع، فإن الجهل بحقيقته صار عاماً، وبعض العلماء أعماهم التقليد، عن النظر في مصالح الأمة، والسير بالقضاء والإدارة والسياسة، على ما تجددت عليه المصالح، حتى اقتنع حكامها الجاهلون في أكثر البلاد، بأن الشريعة لم تعد كافية، فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين،

التي يرونها موافقة لعاداتهم، وآدابهم، وعقائدهم، وتقاليدهم، وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفاسد السياسية والاجتماعية، المضعف للأمة في دينها ودنياها، بل حسبوا بجهلهم أنهم بهذا يكونون كالدول الأوروبية، في عزتها وثروتها، فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم، وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أممهم، فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية، وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها فبثوا فيها الدعاة الفسقة، لتشكيكها في القرآن والنبوّة، ومنهم من يشكك في أصل الدين، أي وجود الإلَه وبعثة الرسل، كما بثوا فيها دعاة السياسة، يرغّبونها في قطع الرابطة الدينية، التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكانت عاقبة ذلك، وقوع العداوة بين الترك والعرب، غيّر هؤلاء بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم، فغيَّر الله ما بهم، وسلبهم عزَّهم، وسلطانهم، وهؤلاء هم: ﴿الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعَاً﴾[1]!!.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ همَّ المشركون أن يخرجوه منها، فكفهم الله تعالى عنه، حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه ﷺ ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلاَّ زماناً قليلاً، وقد كان كذلك، فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ بسَنة.

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾ أي سنَّ الله سنةً، والمعنى: هذه عادة الله جل وعلا مع رسله، أن يهلك كل أمة، أخرجت رسولها من بين أظهرهم، وإضافتها إلى الرسل، لأنها سُنَّت لأجلهم، على ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي تغييراً وتبديلاً.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظ على الصلوات في أوقاتها لكي ينصرك الله، أمره تعالى بالإقبال على عبادته، لكي ينصره عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقولونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الآية ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ الدُّلوكُ: هو الزوالُ، وهو قول عطاء وقتادة، ومجاهد، وأكثر التابعين، والآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي ظهور ظلمته، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها، الذي عُيِّن لها ببيان جبريل عليه السلام ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ ﴾ أي صلاة الفجر، سميت قرآناً لأنه ركنه ولطول قراءتها ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضُل صلاةُ الجمع، صلاةَ أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليلِ وملائكةُ النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قرآنَ الفَجرِ كَانَ مَشهُوداً﴾»[1].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٥ بنحوه.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي قم بعض الليل ﴿ فَتَهَجَّدۡ ﴾ أي أزل وألق الهجود عنك أي النوم وتعبد ربك في ظلمة الليل تطوعاً ﴿ بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة، خاصة بك، زيادة له ﷺ في الدرجات ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك بعد الموت الأكبر، كما انبعثتَ من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1] عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَه، حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة»[2].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي ﴾ أي القبر ﴿ مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي ﴾ منه عند البعث ﴿ مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقىً بالكرامة وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ حجة تنصرني على من يخالفني، وعزّاً ناصراً للإسلام،

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٣٠ ومسلم في المنافقين رقم ٢٨١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦١٤.

مظهراً له على الكفر، فأجيبت دعوتُه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألاَ إن حزب الله هم الغالبون.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والكفر، من زهق روحه إذا خرج ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً، غير ثابت، وهو عِدَةٌ كريمة بإجابة الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحقُّ وما يُبدىء الباطلُ وما يعيد»[(١)].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ لما في الصدور، شفاءٌ للأمراض الباطنة، والظاهرة، فالأمراض الباطنة إما اعتقادات فاسدة، وإما أخلاق ذميمة، فالقرآن الكريم مشتمل على الدلائل القاطعة لمذاهب الحق، ولإبطال المذاهب الفاسدة، ومشتمل أيضاً على التنفير من الأخلاق المذمومة، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة، وأما كونه شفاءً، من الأمراض الجسمانية، فإن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، يدل عليه قوله ﷺ في فاتحة الكتاب «وما يدريك أنها رُقية»؟[(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري ٨/ ١٤ في المغازي ومسلم رقم ١٧٨١ في الجهاد.

(٢) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري في قصة الصحابي الذي رقى بفاتحة الكتاب رئيس قبيلة فشفي بإذن الله، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك، قال له: «وما يدريك أنها رقية»؟

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة بأن لقراءة الرُّقَىٰ المجهولة، التي لا يُفهم منها شيءٌ آثاراً في تحصيل المنافع، ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر الله، وكبريائه، سبباً لحصول النفع، كان أولى ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي تفريجٌ للكروب، وتطهيرٌ للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ و «مِنْ» بيانية، فإن القرآن كلَّه شفاء ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين، إلاَّ شقاءً وبلاء، وهلاكاً ودماراً، فإنَّ ما بهم من داء الكفر والضلال، حقيق بأن يكون سبباً للشقاء والهلاك، فسماع القرآن الكريم يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسداً، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة والهلاك المؤبد، وإسناد الزيادة للقرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك، بسوء صنيعهم، باعتبار كونه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمر القرآن العظيم، حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصحة والنعمة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تأكيد للإعراض، والنأي بالجانب عبارة عن الاستكبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ أي شديد اليأس من روحنا «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعض أفراده، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذلك شأن بعض الآخرين منهم، وفي إسناد المساس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذانٌ بأن الخير مرادٌ بالذات، والشر ليس كذلك.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ أي على طريقته التي تشاكل حاله في الهُدىٰ والضلال، والعقلاء اختلفوا في أن النفوس البشرية، هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال بالأول، وقال: إن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيتها، ومنهم من قال متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو الأول، والقرآن مشعرٌ بذلك، وذلك لأنه تعالى بيَّن في الآية المتقدمة، أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى الآخرين يفيد الخسار والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة، أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقِدُ الملحَ، وتُليِّن الدّهن، وتبيض ثوب القصار، وتسوّد وجهه، فكل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه، فإن كانت نفسه مشرقةً طاهرة خيِّرة، صدرت عنه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرةً خبيثةً، صدرت عنه أفعال خسيسة وفاسدة ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ أي ربكم جلَّ وعلا أعلم بالمهتدي والضال منكم، وسيجزي كلَّ عامل بعمله، عن عبد الله بن مسعود قال: «بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقام إليه رجل منهم، فقال يا أبا القاسم: ما الروح»؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مقامي، فأنزل الله

عزَّ وجلَّ ﴿ويسألونك عن الروح...﴾[1] الآية وعن ابن عباس أن السائل إنما سأله بتكليف من اليهود، والظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو يدبِّر البدن الإنساني، ومبدأ حياته ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ كلمة «مِنْ» بيانية، أي الروح من إبداع الله عزَّ وجلَّ من غير تولُّد من أصل، والأمر بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص، أي أمر الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، من الأمور الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي وما علمكم أيها البشر جميعاً، إلا شيء قليل وضئيل، بالنسبة لعلم الله جلَّ وعلا، وهذا العلم تستفيدونه من طرق الحواس، فإن تعلق المعارف النظرية، إنما هو من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فَقَد حِسّاً فقد فَقَدَ علماً، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ، ولا شيئاً من أحواله، التي يدور عليها معرفة ذاته، فثبت أن أكثر الماهية والحقائق مجهولة، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاوزٍ له، ليدلَّ على أنه عن إدراك ذات خالقه أعجز، وما قيل في تعريف الروح أنه جسم دقيق هوائي، في كل جزءٍ من الحيوان، وقال بعضهم: هو الدم، وقال قوم هو نفس الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس، وقال قوم هو جسمٌ لطيف يحيا به الحيوان، كل ذلك مما لا دليل عليه، وإنما هو تكهن، وأولى الأقوال بالصواب أن يوكل علمه إلى الله تعالى، وهو قول أهل السنة.

﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومنبعٌ للعلوم، واللام الأولى موطِّئة للقسَم، و«لنذهبن»

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠١ كتاب التفسير.

جوابه النائب مناب جزاء الشرط، فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة، إلاَّ أنه تعالى قادر عليه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ أي من يتوكل استرداده، مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي إلاَّ أن يرحمك ربك فيردَّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، بمعنى: ولكنْ رحمةً من ربك، تركتُه غير مذهوب به، فيكون امتناناً على رسوله، بإبقائه في صدره بعد المنَّة بتنزيله، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ بجعلك رسولاً، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيّين بك، وإعطائك المقام المحمود، فلما كان كذلك، لا جرم أنعم عليك، بإبقاء العلم في صدرك، وإنزال القرآن عليك.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾.

﴿قُل﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل، ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل، بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ﴾ اتفقت ﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة، في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذِّكر، لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ أي لا يأتون بكلام مماثلٍ له، فيما ذكر من الصفات البديعية، وفيهم أربابُ البراعة والبيان، وهو جواب القسم ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ أي ولو اجتمع أرباب الفصاحة والبيان، من الإنس والجان، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم

يقدروا على ذلك، نزلت الآية الكريمة حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ، لأنه كلام الخالق، لا كلام المخلوق، وهم أعجز من أن يأتوا بمثل سورة منه!!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا وردَّدنا الحجج والبراهين ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بيَّنا للناس في هذا الكتاب المعجز ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى بديع، هو في الحسن والغرابة، ووقوعه في الأنفس كالمثل، ليتلقوه بالقبول ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ المراد بأكثر الناس أكثر أهل مكة، وهم الكفار، أوثر الإظهار تأكيداً وتوضيحاً ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي إلاَّ تكذيباً للحق وجحوداً لآيات الله.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عند ظهور عجزهم عن معارضة القرآن ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عيناً لا ينضب ماؤها، تتدفق خلال وديان مكة.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ بستان تستر أشجارُهُ ما تحتها ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي تجريها بقوة ﴿خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ كثيراً، والمراد سقيها وإدامة إجرائها بقوةٍ وغزارة.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة كقِطعة وقِطَع، لفظاً ومعنى، أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت كما كنت تخوّفنا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلاً أو كفيلاً بما تقول، وشاهداً يشهد بصحة ما تدَّعيه من أنك رسول الله.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، وأصله الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في معارجها، فحذف المضاف يقال رقي في السلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحدَه ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نحن بأنفسنا من غير أن يتلقى من قبلك ﴿قُلْ﴾ تعجباً من شدة شكيمتهم، وتنزيهاً لساحة الرب جلَّ وعلا من مثل هذه الاقتراحات ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا مَلَكاً حتى يتصور لي الرقيُّ في السماء ﴿رَّسُولًا﴾ مأموراً من قِبَل ربي لتبليغ الرسالة كسائر الرسل؟

روي عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ فجاءهم فقالوا يا محمد: إنَّا والله لا نعلمُ رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد عبتَ الدينَ، وسفَّهتَ الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فإن كنتَ جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبِّ حتى نبرئك منه (وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي) فقال ﷺ: ما بي ما تقولون، وما جئتكم بما جئتكم به لطلب المال، ولا للشرف عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظُّكم من الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر

لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1]، فلما قال ذلك، تفوّهوا بالاقتراحات الباطلة وما كانوا يقصدون بتلك الاقتراحات، إلا الاستهزاء، واللَّجاج، والعناد.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ الذين حكيت أباطيلهم يعني أهل مكة ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي النبي والقرآن المعجز، أي ما منعهم الإيمان بعد ظهور الحق، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ أي إلاَّ قولهم ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ منكرين أن يكون رسول الله، من جنس البشر مرسلاً إلى الخلق فلماذا يكون بشراً ولا يكون مَلَكاً؟! وفيه إيذانٌ بكمال عنادهم، حيث جعلوا بعثة الرسول من البشر، مانعاً لهم من الإيمان، ولم يستبعدوا أن تكون آلهتهم من الحجر!!.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تبياناً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ لو وُجد واستقر ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بدل البشر ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين وقارين فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ يهديهم إلى الحق، لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي عنه، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وأما عامة البشر فبعث الملك إليهم، معارضٌ

---

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٢/ ٣٦٣ بتحقيقنا، ومختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩.

للحكمة التي عليها بُني التكوينُ والتشريع، وإنما يُبعث المَلَك من بينهم إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني، والجسماني، ليتلقوا من جانب، ويلقوا إلى جانب.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أني أديت ما عليَّ من مواجب الرسالة أكمل أداء، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وإنما لم يقل: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها، فيجازيكم على ذلك، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ فهو المهتدي إلى كل مطلوب ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي يخلق فيه الضلال، بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثر ضمير الجماعة باعتبار المعنى للفظ «مَنْ» في مقابلة الإفراد، نظراً إلى لفظهما، تلويحاً بوحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبيل الضلال وكثرة الضالين ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله تعالى، أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب، الذي يستدعيه ضلالهم

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَة إلى التكلم، إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ أي كائنين عليها سحباً أو يمشون بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ روى الشيخان عن أنسٍ أن رجلاً قال: يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يحشر الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الله الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه: بلىٰ وعزَّةِ ربنا»[1] ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ روي أن واحداً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ فثبت بهذه الآيات أنهم يرون، ويسمعون، ويتكلمون، فكيف قال ههنا: ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾؟ قال ابن عباس: أي إنهم لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم، ولا يسمعون ما يَلَذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم، لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار، عمياً وبكماً وصماً، وقبل ذلك كانوا يسمعون ويبصرون ويتكلمون، فإن إدراكاتهم في بعض المواطن، ممَّا لا ريب فيه ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في نار جهنم، كلما سكن لهبها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ توقداً بأن بدّلناهم جلوداً غيرها، فعادت ملتهبة، عقوبةً لهم على إنكارهم الإعادة، ليروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي العذاب المذكور ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ٣٧٧ في الحشر، ومسلم رقم ٢٨٥٩ في الحشر أيضاً.

﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ العقلية، والنقلية، الدالة على الإعادة بعد الإفناء ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ منكرين ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ أي هل سنبعث بعد أن نصبح ذرات متفتتة، وعظاماً نخرة بالية؟

﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) ﴾.

﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ من غير مادة مع عظمها ﴿ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهن، ولا الإعادة أصعب من الإبداء، والمراد بالخلق الإعادة كما عبَّر عنها بذلك حيث قال: ﴿خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ والمعنى: قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب فيه، هو يوم القيامة ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وضع الظاهر ﴿الظالمون﴾ موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً وعناداً، مع وضوح الحق والدليل.

﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾.

﴿ قُل ﴾ للكفار الذين طلبوا منك إجراء الأنهار والعيون، في بلدتهم لتكثر أموالهم ﴿ لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات ﴿ إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ ﴾ أي لبخلتم ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ ﴾ أي مخافة النفاد بالإنفاق ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي مبالغاً في البخل، لأن مبنى أمره على الحاجة، والضِنَّةِ بما يحتاج إليه، وليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء، فإنما يؤثره لِعوضٍ يفوقه، فإذاً هو

بخيل، بالنسبة إلى جود الله سبحانه، فإن قيل: قد يوجد في الناس من هو جواد كريم، فكيف يوصف بالبخل؟ قلت: الأصلُ في الإنسان البخلُ، لأنه خُلق محتاجاً، والمحتاج لا بدَّ أن يحبَّ ما يدفع عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه، إلا أنه قد يجود لأسباب خارجية، مثل أن يحبَّ المدح، أو رجاء الثواب.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ ﴾ أي لقد أعطينا موسى الكليم تسع معجزات خارقة، واضحة الدلالة على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والأخذ بالسنين أي القحط لآل فرعون، وله خوارق أخرى، منها انفجار الماء من الحجر، ونتق الطور، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها من المعجزات، لم تكن منزلة إذْ ذاك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تسع آياتٍ بينات﴾ روي قول آخر ورد في حديث شريف عن صفوان بن عسَّال أنه قال: «إن يهودياً قال لصاحبه: اذهبْ بنا إلى هذا النبي، نسأله عن تسع آيات؟ فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال هنَّ: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار من الزحف، وعليكم خاصَّة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، فقام اليهوديان فقبّلا يديه وقالوا: نشهد أنك نبيٌّ ولولا أن نخاف القتل اتبعناك»[1] ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي فاسألهم يا محمد عن تلك الآيات، لتزداد يقيناً بما يوحى إليك، وليظهر صدقك عندهم ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ يعني

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٤٤ وقال: حسن صحيح.

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعونَ بالرسالة ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ أي فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلَّغه ما أُرسل به، فقال له فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾(1) أي سُحرتَ فتخبَّط عقلُك.

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهما، والتعرض لربوبيته تعالى لهما، للإيذان بأنه لا يقدر على تلك الآيات، إلا خالقهما ومربيهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي بيِّناتٍ مكشوفات، تبصِّرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشرّ، ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنّه، وشتَّان ما بين الظَّنّين، كيف لا وظنٌّ فرعون إفكٌ مبين، وظنُّه عليه السلام يحوم حول اليقين!!.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ أي أن يستخف موسى عليه السلام وقومه، وينفيهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر، أو من الأرض مطلقاً بالاستئصال ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ أي فعكسنا عليه مكره، واستَفْزَزْناه وقومه بالإغراق، ولا يحيق المكر السَّيِّيء إلاَّ بأهله.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾.

---

(1) الظنُّ هنا بمعنى العلم وإنما عبَّر بالظن ليقابل قول فرعون له ﴿لَأَظُنُّكَ يا موسىٰ مَسْحُورَا﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إغراقهم ﴿ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي فإذا جاء وقت قيام القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين ثم نحكم بينكم، واللفيف الجماعات المختلفة من أجناس شتى.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحقّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصين بالعقاب.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ أي نزّلناه مفرّقاً ومنجّماً دلالة على كثرة آياته ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ على مهلٍ وتؤده، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب الحوادث، نزل به جبريل الأمين، على قلب خاتم المرسلين، وفيه الهدى والشفاء. قال الراوي: اشتكى محمد بن السِماك، فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب، فاستقبلنا رجلٌ حسن الوجه، طيب الرائحة، نقيُّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له إلى فلان الطبيب، نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليِّ الله بعدوٍ؟ ارجعوا إلى ابن السمَاك وقولوا له: ضعْ يدكَ على موضع الوجع، وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ﴾ ثم غاب فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بِذلك، فوضع يده على موضع الوجع، فقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا على وجه التهديد والإنكار ﴿ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، والله تعالى أوضح البينات والدلائل، فاختاروا النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، وفيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة، من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من معرفة الحق والباطل، وهم مؤمنو أهل الكتاب، منهم «زيد بن عَمرو بن نُفيل، وورقةُ بن نوفل، وعبدُ الله بن سلام» ونحوهم ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيصُ الأذقان بالذكر، للدلالة على كمال التذلل، وهو كناية عن غاية الخشوع، والمقصود من ذكر هذا اللفظ، مسارعتهم إلى السجود، حتى إنهم يسقطون سجداً لله أي إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به مَن هو خير منكم.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ ﴾ عما يقول الكفرة من التكذيب، وعن خُلفِ الوعد ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ «إنْ» مخفّفة من الثقيلة، أي إن الحال والشأن أن وعد الله حقٌّ، واقع لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كرّر الخرور لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم أمر الله، والثاني: لما أثّر فيهم من مواعظ القرآن، حال كونهم

باكين من خشية الله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿خُشُوعًا۩﴾ لين قلب ورطوبة عين، كما يزيدهم علماً ويقيناً لله تعالى. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله»[1].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمنُ، فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلّهين، وهو يدعو إلّهاً آخر، والمراد هنا في الآية: التسويةُ بين اللفظين، بأنهما عبارتان عن ذات واحدة، والتوحيد إنما هو للذات والدعاءُ بمعنى التسمية و أو للتخيير ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عوضٌ عن المضاف إليه، وأصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَىٰ﴾ للمبالغة، والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذْ حُسْنُ جميع أسمائه، يستدعي حسنِ الاسمين الجليلين لدلالتهما على صفات الكمالَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تجهرْ بالقراءة في صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السبِّ واللَّغو فيها، ولا تخافتْ بقراءتها، بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي أمراً وسطاً، فإن خير الأمور أوساطها. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجهَر بِصَلَاتِكَ﴾ قال: كان ﷺ بمكة إذا صلى بأصحابه، رَفَع صوتَه بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله، ومن جاء به، فقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلاَ تَجهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾[2] الآية وقيل نزلت الآية

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ١٦٣٩ في فضائل الجهاد.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم برقم ٤٤٦ في الصلاة.

في الدعاء، وهو قول عائشة، والنخعي، ومجاهد، ومكحول، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية قالت: «نزل ذلك في الدعاء»[1] وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: مررتُ بكَ وأنت تقرأ القرآن، وأنت تخفض من صوتك، فقال: «إني أسمعت من ناجيتُ، فقال ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررتُ بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك، فقال: إني أوقظ الوَسْنَان، وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً»[2].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى واليهود حيث زعموا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بناتُ الله، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقوله الكفار القائلون بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ أي مانع وناصر ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به، والمعنى: ليس جلَّ وعلا بذليل حتى يحتاج إلى الولي والنصير، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد، مَنْ هذه نعوتُه دون غيره، إذ بذلك يتم الكمالُ، والقدرةُ التامة ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي عظِّمْه وصفْه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، وشريك، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء «الحمدُ لله» وأفضل الذكر «لا إله إلا الله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة موقوفاً، وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المواقيت، وأحمد في المسند ١/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٣٨٠ وابن ماجه رقم ٣٨٠٠ في الأدب.

والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه وبالله العصمة والتوفيق، حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير،

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

* * *

سُورَةُ الكَهْفِ

مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وفي وصفه تعالى بالموصول ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾ إيذان بِعظَم التنزيل الجليل، إذ عليه يدور فلك سعادة الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، تشريفٌ له وتكريم، لأنه أعلى مراتب الفخار ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ أي شيئاً من العِوَج، والعَوَجُ بفتحتين في الأجساد، خلاف الاعتدال، والعِوَجُ بالكسر في المعاني، والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته، ثم يكون مكمّلاً لغيره. وفي قوله تعالى : ﴿وَلَم يَجعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ إشارة إلى كمال في نفسه.

﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

﴿ قَيِّمًا﴾ إشارة إلى الثاني لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن الكريم كالقيّم الشفيق، أي قيماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبيء عنه ما بعده من الإنذار

والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الذين كفروا به ﴿بَأْسًا﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي نازلاً من قِبَله تعالى، بمقابلة كفرهم ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدِّقين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ التي بيِّنت في تضاعيفه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم الخالد.

﴿مَّاكِثِينَ﴾ أي مقيمين على وجه الدوام ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من غير انتهاء. وتقديم الإنذار على التبشير، لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عن ضلالهم.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وينذر الفَجَرة الكفرة، المتفوّهين بمثل تلك الشناعات العظيمة وهم من كفار العرب، الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، واليهود القائلون: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى القائلون المسيحُ ابن الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِ﴾ أي باتخاذه سبحانه ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلاً ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في تيه الضلالة، ما لهم علم بما قالوه، أهو صوابٌ أم خطأ، بل إنما قالوه عن عمى وجهالة، من غير فكر وروية كما في قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء، لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب عظمته وكبريائه ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على

التفوه بها ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي مهلكٌ ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ غماً ووجداً ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وعدم إيمانهم ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي متأسفاً عليهم. شُبِّهت حالهُ ﷺ في شدة الحزن، على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن، وكمال التحسر عليهم، بحال من يتوقع منه هلاك النفس، إثر فوت ما يحبُّه عند مفارقة أحبته، تأسفا على مفارقتهم، فالغرضُ تسلية النبي ﷺ لتخفيف حزنه لعدم إيمان الكفار من أهل مكة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنّا جعلنا ما عليها من الزخارف، والرياش، والذهب، والفضة والنبات والمعدن ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها أي ليتمتّع بها الناظرون، وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً، كما زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكل ما على سطح الأرض من حيوان، ونبات، ومعدن هو زينة لها وابتلاء، كما أن الأموال والأولاد زينة أيضاً كما قال سبحانه: ﴿المَالُ والبَنُونَ زينةُ الحَيَاةِ الدُنْيا﴾.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم، علماً وعملاً، وحُسْنُ العمل: الزهدُ فيها، وعدم الاغترار بها، والقناعة باليسير منها، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أَذِنَ به الشرعُ، لا اتخاذها وسيلةً إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة والفسقة.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿ مَا عَلَيۡهَا ﴾ قاطبة من المخلوقات، بإفنائها بالكلية ﴿ صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ أي تراباً لا نبات فيه، يقال: أرضٌ جُرُزٌ بضمتين أي يابسة لا نبات فيها أي سنحيلها إلى حطام ورُكام، بعد أن كانت بهجة وزينة، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩ ﴾.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته وقريش، لأنهم تعجبوا من قصتهم وسألوا عنها الرسول ﷺ و «أم» منقطعة، مقدَّرة بـ «بل» التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، أي بل أحسبتَ؟ ﴿ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ ﴾ في عيشهم وحياتهم المدة الطويلة من الزمن ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ من بين آياتنا ﴿ عَجَبًا ﴾ أي آية ذات عجب، والمعنى إن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجب بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من قدر على تخليق السماوات والأرض، ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن، والحيوانات، والنباتات، ثم بجعلها صعيداً جُرُزاً، كيف يُستبعد عن قدرته، حفظُ فتية من الناس مدةً من الزمن في النوم؟ والكهفُ: الغارُ الواسع في الجبل، والرقيمُ: هو لوحُ رصاصٍ، أو حجر، رُقمت فيه أسماؤهم.

﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠ ﴾.

﴿ إِذۡ أَوَى ﴾ أي اذكر حين التجأ ﴿ ٱلۡفِتۡيَةُ ﴾ أي أصحاب الكهف، أوثر

الإظهار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة، فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أراد «دقيانوس» أن يجبرهم على الشرك، فهربوا منه فراراً بدينهم ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ بجبلهم واتخذوه مأوى ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من خزائن رحمتك ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والمثابرة على طاعتك، وأصل التهيئة إحداثُ هيئة الشيء، أي أصلحْ ورتِّبْ وأتمم لنا من أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، والاهتداء إليه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني أنمناهم إنامةً ثقيلة، والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة ﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ذات عدد ووصفُ السنين بذلك للتكثير، لإظهار كمال القدرة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم من تلك النَّومة الثقيلة، الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق، أو هو مجاز عن الاختبار، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي الفريقين المختلفين منهم في مدة لبثهم، قال الفراء: (الحزبين) الطائفتين من المسلمين، في زمن أصحاب الكهف، وقال مجاهد: الحزبان من الفتية لقوله تعالى: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ الآية ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي أضبطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ أي للبثهم ومكثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي غاية ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، والأَمَدُ: بمعنى المدى أي المدة من الزمن.

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ ﴾.

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ ﴾ شروع في تفصيل القصة، أي نحن نخبرك بتفاصيل أحوالهم ﴿ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ أي بالصدق، ذكر محمد بن إسحق، أنه قد مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، ملوكهم، فعبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ فيه «دقيانوس» فإنه غلا غلوّاً شديداً، وخالف من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام، فلما رأى الفتية ذلك وكانوا أبناء عظماء أهل مدينتهم، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان فقالوا: إن لنا إلهاً، لن ندعو من دونه أحداً، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وخرج هو إلى «نينوى» لبعض شأنه، وأمهلهم ليتأملوا في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتية على الفرار بالدين، والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً وتزودوا فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلُّون فيه آناء الليل وأطراف النهار، فضرب الله على آذانهم فناموا، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم: ابنِ عليهم باب الكهف، ودعهم يموتوا جوعاً ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصَّ الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾ أي إنهم شباب مؤمنون، صادقون في إيمانهم، صامدون في وجه الطغيان ﴿ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ بأن ثبتناهم على ما هم عليه من الدِّين.

﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ ﴾.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل، والأوطان، والنعم والإخوان، والرد على الجبار ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ضمَّنوا دعواهم ما يحقّق فحواها، ويقتضي بمقتضاها، فإن ربوبيته عزَّ وجلَّ تقتضي ربوبيته لما فيهما ﴿ لَن نَّدْعُوَا ﴾ لن نعبد أبداً ﴿ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ معبوداً آخر ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي قولاً خارجاً عن حد العقول، مفرطاً في الظلم، يقال: شطَّت الدارُ: بَعُدت، وشطَّ فلان في حكمه: جَارَ وظلم.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ﴾ في اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ فيه معنى الإنكار، ودلالة على أن قومهم كانوا من عَبَدة الأصنام ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ أي هلاَّ يأتون على ألوهية الأصنام ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدَّعاهم، وهو تبكيتٌ لهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه أي أنه أظلم من كل ظالم.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي وإذِ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وفارقتموهم في الاعتقاد ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي اعتزلتموهم ومعبوديهم ﴿ فَأْوُوا ﴾ أي التجئوا ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ واجعلوا الكهف مأواكم ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ ﴾ أي يبسط لكم، ويوسِّع عليكم ﴿ رَبُّكُم ﴾ مالك أمركم ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم ﴾ يُسهِّل لكم ﴿ مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين

﴿مِّرۡفَقٗا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به، إنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، ولقوة رجائهم، لتوكلهم عليه تعالى.

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾.

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ بيان لحالهم بعدما أووا إلى الكهف، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح للخطاب ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ تتزاور وتتنحّى، من الزَّور وهو الميلُ ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، والمقصودُ بيانُ أنه تعالى صانَ أصحاب الكهف، من أن يقع عليهم ضوء الشمس، لئلا تفسد أجسامهم ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي جهة يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى داخله ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي تراها عند غروبها ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جهة شمال الكهف، أي الجانب الذي يلي المشرق، وكان ذلك بتصريف الله تعالى، على منهاج خرق العادة كرامةً لهم ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ جمله حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولهم مع أنهم في متَّسع من الكهف، معرَّض لإصابتها، لولا أن صرفتها عنهم يد القدرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما صنع الله بهم ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ العجيبة، الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ أي من يهده الله إلى الحق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكنَّ المنتفع بها من وفَّقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ يخلق فيه الضلال، لصرف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبداً وإن بالغت في النظر ﴿وَلِيّٗا﴾ أي ناصراً ﴿مُّرۡشِدٗا﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح، لاستحالة وجوده في نفسه.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم أيها الناظر ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يَقِظ، وهو اليقظان الذي لم ينم، لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام، مستغرقون في نومهم ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم ﴿ وَكَلْبُهُم ﴾ هو كلب راع قد تبعهم ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عاينتهم، وأصل الاطلاع، الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدت منهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر ويرعبه من الهيئة، وقيل إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد، قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا!! فقال ابن عباس: قد مُنع عن ذلك من هو خيرٌ منك يعني رسول الله ﷺ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البِلَى، آية دالة على كمال قدرتنا، بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، ويعرفوا حالهم، وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً، على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو رئيسهم ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾؟ في منامكم في هذا الكهف؟ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ بناءً على غالب ظنهم، لأن النائم لا يُحصى مدة لبثه، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله تعالى، وهذا رد منهم بأجمل ما يكون، من مراعاة حسن الأدب ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم ﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث، وإقبالاً على ما يهمهم حيث شعروا بالجوع الشديد ﴿ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ ﴾ الوَرِقُ: الفضة مضروبة أو غير مضروبة، أي أرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ليشتري بها قوتاً لنا، وفيه دليل على أن التزود لا ينافي التوكل ﴿ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قيل: المدينة «طرسوس» واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أحلَّ وأطيب، وأرخص وأجود ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أي من ذلك الطعام ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة وفي الاستخفاء لئلا يعرف ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أي لا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ من أهل المدينة، فإنه يستدعي الشعور بنا، والقبض علينا

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي ليبالغ في عدم الإشعار لأنهم ﴿ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إن يظفروا بكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أي يقتلوكم إن ثبتم على ما أنتم عليه ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ أي يُدخلوكم فيها كُرْهاً ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا ﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكره، لن تفوزوا بخير ﴿ أَبَدًا ﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم ليزداد يقينهم ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أي

أطلعنا الناس ﴿عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بما عاينوا من أحوالهم ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقّٞ﴾ صادق لا مردَّ له، لأن نومهم وانتباههم، كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ لا شكَّ في قيام القيامة، فإن من شاهد أنه جلَّ وعلا توفَّى نفوسهم، وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت، لا يبقى له شائبة شك، في أن وعده حق، وأنه يبعث من في القبور ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أعثرنا﴾ قُدِّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها، أي أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ ليرتفع الخلافُ، ويتبيَّنَ الحقُّ، في أمر البعث فمن مقرٍ به، وجاحد له، روي أن المبعوث لمَّا دخل المدينة، أخرج الدرهم ليشتري به الطعام، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصَّ عليه القصة فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة، ولما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً، لئلا يفزعوا، فدخل فعُمِّي عليهم المدخلُ، فبنوا ثمة مسجداً ﴿فَقَالُواْ﴾ الفاء فصيحة، أي أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا، فقالوا أي قال بعض الناس ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي على باب الكهف ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ لئلا يتطرق إليهم الناس ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم، من حيث النسبُ، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبثُ في الكهف، قالوا ذلك، تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب، أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ يصلي فيه المسلمون.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين، أي سيقول هؤلاء القوم، الخائضون في قصتهم ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة أشخاص، ويصبحون أربعةً بانضمام الكلب إليهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه، وبالظن من غير يقين ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة أشخاص، والثامن هو كلبهم الذي صحبهم للحراسة ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب، لأن ما فيه يرشد إلى ذلك، من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، ﴿قُل﴾ تحقيقا للحق ورداً على الأولين ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي أعلم بعددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي لا يعلم على وجه الضبط إلا عدد من الناس، قد وفقهم الله تعالى، قال ابنُ عباس: حين وقعت الواو[1] انقطعت العِدَّةُ، وعليه مدار قوله رضي الله عنه: أَنَا من ذلك القليل[2] ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ أي إذا عرفت ذلك فلا تجادلهم يعني أهل الكتاب في شأن الفتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي إلاّ قدر ما تعرَّض له الوحي، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن، من غير التجهيل لهم، والردُّ عليهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإن فيما قصَّ الله عليك لمندوحة عن ذلك، وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث، والمعنى حينئذ: وإن وقفت على أن كلهم ليسوا

---

(١) الواو زائدة، وقيل: مستأنفة، قال الزمخشري: «هي الواوُ التي تدخل على الجملة التي وقعت صفةً للنكرة»، تقول: جاءني رجلٌ ومعه آخر.

(٢) يريد ابن عباس رضي الله عنه أن عددهم كان سبعة، وقد عرفهم بالفهم الثاقب قال: كانوا سبعة فإن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة، ولما ذكر القول الأول والثاني، أردفه بقوله: ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقرَّ قائله، ثم وجود الواو ﴿وثامنهم كلبهم﴾ يدل عليه ولم تذكر الواو في القولين السابقين فتنبه رعاك الله.

على خطأ في ذلك، فلا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً. واختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، وفي مكانهم، فقيل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، ثم بعثوا بين عيسى وبين الرسول ﷺ، وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح، أمّا مكان هذا الكهف، ففيه روايات.

أقولُ: العلمُ بذلك الزمان، وبذلك المكان، ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نصّ في الكتاب أو السنة، وذلك مفقود، فلا سبيل إليه، فنكتفي بما ورد في القرآن، من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي فيما يُستقبل، فيدخل الغَدُ دخولاً أولياً، فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش: «سَلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه فقال ﷺ: ائتوني غداً أُخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبته قريش» هكذا قال المفسرون.

وقيل: من البعيد أن يَعِد رسولُ الله ﷺ ولم يقل فيه إن شاء الله، بل هذا تهييج وتنبيهٌ للمسلمين.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن في حال من الأحوال إلا حالة ملابسته بمشيئة الله تعالى، على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: إن شاء الله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بقولك إن شاء الله متداركاً له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا فرط منك نسيانٌ ثم ذكرته، ولو بعد مدة من الزمان. قال

القرطبي: «وهذا في تدارك التبرك، والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم، فلا يكون إلا متصلاً، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ مبالغةً في الحث عليه، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكر المنسيّ ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ أي يوفقني ﴿رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رَشَدًا﴾ أي إرشاداً للناس، حيث آتاه من البيّنات ما هو أعظم من ذلك وأبين.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياء نياماً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وهو بيان لما أُجمل في قوله في الكهف سنين عدداً، أي بقوا ماكثين في الكهف نياماً، ثلاثمائة وتسع سنين، حتى بعثهم الله من النوم، وأطلع الناسَ عليهم، ليتيقَّنوا قدرة الله على البعث[1].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ يعني إن نازعوك في مدة لبثهم، فقل أنت: الله أعلم بما لبثوا؟ وقد أخبر بمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ معناه ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه؟ دلَّ بصيغة التعجب، على أن شأن علمه سبحانه، خارج عمَّا عليه إدراك البشر، لا يحجبه شيء ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والخفيُّ والجليُّ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ومختصر تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ فقد ذكرت فيه الرواية مطوّلة.

﴿مَا لَهُم﴾ أي لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي من القرآن الكريم وقوله: ﴿أتْلُ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع، فالمعنى: الزمْ قراءة الكتاب، والزم العمل به ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا قادر على تبديله ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ أبدَ الدهر ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجأ تعدل إليه، عند إلمام مُلمّة أو في البيان والرشاد.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي احبسها وثبتها مصاحبة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وفي طرفَي النهار ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أي بالصباح لطلب التوفيق والتيسير ﴿وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي المساء لطلب عفو التقصير، والمراد بهم فقراء المؤمنين، مثل صهيب، وعمار، ونحوهما وقيل: أصحاب الصُفَّة، وكانوا سبع مائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع، ولا ضَرْع، يصلُّون صلاةً وينتظرون أخرى، فلما نزلت الآية قال النبي ﷺ: «الحمدُ لله الذي جعل من أمتي، مَنْ أُمِرْتُ أن أصبِّر نفسي معهم»(١) وروي أن قوماً من رؤساء الكفرة قالوا

---

(١) أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٤١٦.

لرسول الله ﷺ: نحِّ هؤلاء الموالي، الذين ريحُهم ريحُ الضأن، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ فنزلت الآية ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي مريدين رضاه تعالى وطاعته ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، والمراد نهيه ﷺ عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم، طموحاً إلى زيِّ الأغنياء ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وصحبة أهل الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي عن عبادة الله وذكره على خلاف ما عليه المؤمنون، من الدعاء في جميع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الطلب، غفلةُ قلبه عن المعنويات، وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس، لا بزينة الجسد ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي ضياعاً وهلاكاً ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ﴾(1) ففي تلك نهيٌ عن طردهم، وفي هذه أمرٌ بمجالستهم.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي إن ما أُوحي إليَّ حقٌّ لا ريب فيه، وإن ذلك الحق من جهة ربكم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، ومن شاء أن يكفر به فليفعل، حيث جاء الحقُّ، وزاحت العلل، فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم، وفيه من التهديد، وعدم المبالاة بهم، وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى.

---

(1) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هيّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين بالحق، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيار الكفر، تجاوزٌ عن الحد، ووضعٌ للشيء في غير موضعه ﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي حائطها وسورها، شُبه به ما يحيط بهم من النار بالسور، والسرادقُ هو ما يدار حول الخيمة وقيل دخانها ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالحديد والنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ﴾ إذا قُدّم ليشرب من فرط حرارته ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به، وساءت جهنم منزلاً ومأوى يرتفق به أهل الجحيم!! وقوله تعالى: ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي موضعاً للاستراحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان من اختار الإيمان كأنه قيل: والذين آمنوا بالحق الذي أوحي إليك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ التنكير للتفخيم جمع أسورة، وهي جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خصت الخضرة بثيابهم، لأنها أحسن الألوان، وأكثرها طراوة ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ هو الديباج الرقيق، وقيل: المنسوجُ بالذهب ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو

الديباج الصفيق الغليظ، جمع بين النوعين، للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال، ولا يقال للسرير وحده أريكة، وخصّ الاتّكاء لأنه هيئة المتنعّمين ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي الأرائك متكأ لهؤلاء المتنعمين.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي للفريقين المؤمن، والكافر ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ لا من حيث أحوالهما في الآخرة، بل من حيث عصيانُ الكافر، وطاعةُ المؤمن، مع تقلب الأول في نعم الله تعالى، ومكابدة الأخير للفقر والضرورة، مثلاً حال رجلين مقدَّرَيْن أو محقّقَيْن، قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً، وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، فآل حالهما إلى ما حكاه الله تعالى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي بستانين ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كروم متنوعة ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطةً بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات، والفواكه، على الهيئة الرائقة، التي تسرُّ الناظرين.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها، وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْـًٔا﴾ كما يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام، وتقلُّ في آخر، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فيما بين الجنتين ﴿نَهَرًا﴾ على حِدَةٍ، ليكتمل شربهما، ويزيد بهاؤهما.

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ لصاحب الجنتين ثمر أي أنواع مالٍ سوى الجنتين من ثمر ماله، قال ابن عباس رضي الله عنه: الثمر هو جميع المال، وقال مجاهد الذهب والفضة[1] ﴿ فَقَالَ ﴾ الكافر ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي يراجعه في الكلام، من حَار إذا رجع ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أعواناً وأولاداً ذكوراً.

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ التي شرحت أحوالها بصاحبه، يطوف به ويفاخر بها ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ضارٌ لها بكفره وظلمه ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ أي تفنى ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي الجنة ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره، وترى أكثر الأغنياء تنطق ألسنة أحوالهم بذلك، وإن لم يتلفَّظوا بذلك.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة كائنة فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ بالبعث كما تقول ﴿ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ ﴾ يومئذٍ ﴿ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ من

---

(١) الثَّمرُ جمع ثَمَرة وهي المجنيُّ من الفاكهة، وإنما ذكر الثَّمر وإن كانت الجنة لا تخلو منه، للإيذان بكثرة الحاصل في الجنتين، قال ابن كثير ٢/ ٣٨٤: قيل المراد بالثَّمرِ المالُ، وقيل: الثِّمارُ، وهو أظهر ههنا.ا هـ.

هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، ومدار هذا الطمع، اعتقاد أنه إنما أكرمه الله في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، ولم يدْرِ أنه استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؟ أي قال له صاحبه المؤمن وهو يراجعه ويُكلّمه، ويناقشه الحديث: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلتَ: ما أظن الساعة قائمة، وهذا يدلُّ على أن الشاكَّ في حصول البعث كافر، ثم قال: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه، متضمنٌ لخلق الإنسان منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادتك القريبة، فالمخلوقُ واحدٌ، والمبدأ متعدد ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي عدَّلك وكمَّلك إنساناً ذكراً! جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأه الشك في كمال قدرته تعالى، ولذا رتَّب الإنكار على خلقه إياه من التراب.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصله «لكنْ أنَا» فحذفت الهمزةُ، فتلاقت النونان فأُدغمتا ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ هو ضمير الشأن، وهو استدراك لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر ولكني مؤمن، وفيه حذف، أي أقول: هو الله ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وفيه إيذان بأن كفره بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي هلاَّ قُلت عندما دخلتها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما شاء الله كائن، والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها

بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي هلاَّ قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونة الله تعالى ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولأجل ذلك تكبّرتَ عليَّ وتعظّمتَ.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى: إن ترني أفقر منك، فأنا أتوقع من صنع الله تعالى، أن يقلب مابي وما بك، فيرزقني لإيماني، ويسلبك نعمته لكفرك ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسۡبَانًا﴾ أي عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها القَدَم.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أطلق المصدر عليه مبالغة ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾ أبداً ﴿لَهُۥ﴾ للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ أي لا تستطيع طلبه فضلاً عن وجدانه وردّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أهلكت أمواله المعهودة، وأصله من إحاطة العدوّ، ثم استعير في كل الإهلاك ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ظهراً لبطنٍ، وهو كناية عن الندم به، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والجنة

مهشَّمة محطمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً يباباً ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول الكافر نادماً على صنيعه ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ كأنه تذكَّر موعظة صاحبه، وعلم أنه أُتي من قِبَل شركه.

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى، فإن قيل: فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فلمَ قيل: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؟ الجواب: إنما رغب في التوحيد، لأجل حفظ ماله، ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وللوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه، وإذلال أعدائه ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد سواه جلَّ وعلا ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ أي الله خير ثواباً لأوليائه، وخير عاقبة لمن آمن به واعتمد عليه.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في زهرتها، وسرعة زوالها لئلا يطمئنُّوا بها، ولا يعكفوا عليها، أي بيِّنْ لهم صفتها العجيبة، التي هي في الغرابة كالمثل ﴿كَمَآءٍ﴾ أي هي كماء ﴿أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فالتف وخالط بعضُه بعضاً، من كثرته، وتكاثفه

﴿فَأَصۡبَحَ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمٗا﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي تفرّقه وتطيّره، وليس المشبه به نفس الماء، بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة، وهي حالة النبات المنبت بالماء، يكون أخضر وارفاً، ثم هشيماً تطيّره الريح، كأن لم يغن بالأمس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ قادراً على كل شيء، بتكوينه وتنميته وإبطاله، وهكذا الدنيا بهاء ثم فناء.

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾.

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من الدنيا، وتقديم المال على البنين، مع كونهم أعزَّ منه، لعراقته فيما نيط به من الزينة، والإمداد وغير ذلك، والمعنى: إنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنها في سُرعة الزوال ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي أعمال الخير، التي تبقى ثمراتها للإنسان بعد موته من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وسائر أعمال الخير، وقيل: «هي سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(١) ﴿خَيۡرٌ﴾ من المال، والبنين ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في الآخرة، وهو بيان لما تظهر فيه آثار خيريتها ﴿ثَوَابٗا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة، كلَّ ما يؤمّله في الدنيا.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾.

---

(١) ورد هذا في حديث أخرجه النسائي والحاكم بلفظ «خذوا جُنَّتكم ـ أي وقايتكم ـ من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها، ونسيِّرها في الجو على هيئتها، أو نسيِّرها أجزاء بعد أن نجعلها هباءً منبثاً والمراد بتذكره تحذير المشركين مما أمامهم من الدواهي ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ أي جميع جوانبها والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يأتي منه الرؤية ﴿ بَارِزَةً ﴾ أمَّا بروز ما تحت الجبال فظاهر، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر، قبل ذلك، فالآن أضحى قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الحشر، المتفرع على البعث، الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ أي لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ يقال غادره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء.

> ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ شبهت حالهم بحال جُندٍ عُرضوا على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم بما يأمر ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين لا يحجب أحدٌ أحداً والمراد بقوله: ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي أطفالاً، أي غير مختلطين ولا متفرقين ولا تعرضٍ فيه لوحدة الصف وتعدده، ثم يقال لهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ حفاة، عراة، غُرْلاً أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(١) ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ إضرابٌ وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه من البعث!! عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناسُ حُفاةً، عُراةً، غُرْلاً، فقلتُ يا رسول الله : الرجالُ والنساءُ جميعاً؟ ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: الأمر أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك»[1].

وفي رواية النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي وضعت صحائف الأعمال، والمرادُ بوضعها وضعُها بأيدي أصحابها، أو في الميزان ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ قاطبة فيدخل الكفرة فيهم دخولاً أولياً ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند وقوفهم على ما في الكتاب ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ منادين لهلكتهم التي أهلكوها، مستدعين لها ليهلكوا أي يا حسرتنا وهلاكنا ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أيُّ شيءٍ له ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ ﴾ أي حواها وضبطها ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ حَاضِرًاۗ ﴾ مسطوراً عتيداً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه المستحق.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٨/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل كأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنيّاً ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي خرج عما أمره ربُّه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والتعرض لوصف الربوبية لبيان قبح ما فعله، والمراد بتذكير قصته ههنا النكير على المتكبرين، المفتخرين بأنسابهم وأموالهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أي أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه ﴿ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ أي أولاده وأتباعه، **قال قتادة:** يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة..»[1] الحديث ﴿ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ أي تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي؟ ﴿ وَهُمْ ﴾ والحال أنَّ إبليس وذريته ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ أي أعداء ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن، وفي الالتفات إلى الغَيْبة، مع وضع «الظالمين» موضع الضمير، الإِيذان بسخط الله العظيم.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ أي ما أحضرت إبليسَ وذريته ﴿ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حين خلقتهما قبل خلقهم ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدتُ

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٨١٣ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وتتمة الحديث «يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركته حتى فرّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه مِنه ويقول: نعمَ أنت».

بعضهم خلق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي متخذهم، وإنما وضع المظهر ذماً لهم ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً في شأن الخلق، أو في شأنٍ في شؤوني حتى يتوهم شركتهم معي، وفيه تهكمٌ بهم، وإيذان بركاكة عقولهم، حتى لا يفهموا هذا الأمر الجلي، الذي لا يكاد يشتبه على البُله والصبيان، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم، حتى يكونوا قدوة للناس، فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا يلتفت إلى قولهم، طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي أن أعتضد بالمضلين.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ للكافرين، توبيخاً وتعجيزاً ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى وقيل: إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذْ لا إمكان، لأنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، وفي إيراده مع ظهوره، تهكُّمٌ بهم، وإيذانٌ بحماقتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وَبَقَ من باب وعد: هَلَكَ والمَوْبقُ مثل مسجد من الوبوق وهو الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبُّك كَلَفاً، ولا بغضُك تلفاً» ويجوز أن يكون المراد من الشركاء الملائكة، وعزير، وعيسى عليهم السلام، والموبقُ: البرزخ البعيد، أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً، لأنهم في جهنم، وأولئك في الجنة.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي رأى الكفرة الفجرة نار جهنم تتلظَّى، ووضع المظهر تصريحاً بإجرامهم بذلك ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي فأيقنوا، والظنُّ ههنا بمعنى اليقين ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقعون فيها الساعة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتذكروا ويتَّعظوا بكل نوع من أنواع المعاني البديعة، الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن، واستجلاب النفس كالمثل، وليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بحسب جبلَّته ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدل، جَدِل الرجلُ من باب تعب: إذا اشتدت خصومته، وجادل إذا خاصم، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: إن جداله أكثر من جدال كل مجادل. روى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طَرَقه وفاطمة ليلاً، فقال: ألاَ تصليان؟ فقلتُ يا رسول الله: أنفُسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه يقول وهو مُولٍّ يضرب فخذه بيده: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ٣/٨ ومسلم رقم ٧٧٥ في صلاة المسافرين.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي أهل مكة ﴿ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ ﴾ بأن يؤمنوا بالله ﴿ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي سببه وهو الكتابُ، والرسول ﷺ ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ ﴾ عمَّا فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي إلا طلب سنتنا في إهلاك الأولين، وهو الاستئصال ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾ أي عياناً من المقابلة وقيل: فجأة، ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلاَّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب معاينةً ومواجهة.

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦ ﴾.

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أي باقتراحات الآيات مكابرة وعناداً، بعد ظهور المعجزات ﴿ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ﴾ أي بالجدال الباطل ﴿ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ أي يزيلوه عن مركزه، ويبطلوه من إدحاض القدم وهو إزلاقها، دحضت الحجة دحضاً من باب نفع بطلت كقولهم للرسل صلوات الله عليهم ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ ونحوهما، وهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يجادلونهم ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴾ وهو ما يُستهزأ به، أي جعلوا هذه الآيات موضع استهزاءٍ وسخرية.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧ ﴾.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾؟ وهو القرآن العظيم، والمعنى: لا

أحد أظلم منه ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ أي لم يتدبرها ولم يتفكرها، ونسي عمله من الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما ذُكر، من المجادلة بالباطل، والاستهزاء بالحق ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فهم هذا الكتاب العزيز، والانتفاع بما فيه، كما جعلنا على آذانهم صمماً، يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع، بسوء أعمالهم، وعظم جرائمهم، والعجب أن قوله تعالى: ﴿ومن أظلم..﴾ إلى قوله: ﴿ما قدمت يداه..﴾ متمسك للقدرية الذين ينكرون القدر، وقوله: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلّما نجد في القرآن آية لأحدهما، إلاَّ ومعها آية للفريق الآخر، وما ذاك إلا امتحان من الله عزَّ وجل، ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون، من الخابطين في الآراء خبط عشواء ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ فلن يكون منهم اهتداء إلى الهدى البتَّة لغاية ضلالهم، وهذا في أقوام عَلِمَ الله منهم أنهم لا يؤمنون، و﴿إِذًا﴾ جزاء الشرط، وجوابٌ عن سؤال الرسول ﷺ كأنه قال: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعهم الخ فإن حرصه ﷺ على إيمانهم يدلُّ عليه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق، وفي الآية التنبيه على كثرة الذنوب ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل، والاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب رحمة بهم ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ أي أجل لهلاكهم وهو يوم القيامة ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾ البتة ﴿مِن دُونِهِۦ

﴿مَوْئِلًا﴾ منجا أو ملجأ، يقال: وَأَلَ: إذا نجا، ووأل إليه أي التجأ إليه، والموئلُ: المرجعُ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي قرى عاد، وثمود، وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي وقت ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي عيَّنا لهلاكهم وقتاً معيَّناً، لا محيد لهم عن ذلك، فلا يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشع عليه السلام، سُمّي فتاه إذ كان يخدمه ويتعلمُ منه، ويسمى التلميذ فتى، وأكثر العلماء على أن المذكور في هذه الآية «موسى بن عمران» صاحب التوراة، وعن كعب الأحبار أنه «موسى بن ميشا» من أولاد يوسف، والأول أصح، لأنه لم يذكر تعالى في كتابه العزيز موسى إلاَّ أراد به صاحب التوراة، أخرج الشيخان عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنه: إن نوفاً البكالي، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو «موسى بن عمران» فقال ابن عباس رضي الله عنه كَذَب عدوُّ الله، حدثنا أبيُّ بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردَّ العلم إليه تعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكتل، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّةَ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه

يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، فاضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت وانطلقا..»[1] الحديث ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، قيل هو ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وقيل: طنجة ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وجدانِ المطلوب، أي نسيا تفقد أمره، روي أنهما لمَّا بلغا مجمع البحرين، وفيه الصخرة ناما، فاستيقظ يوشع عليه السلام، وتوضأ من تلك العين، فنضح الماء على الحوت فعاش، فوقع في الماء ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ مسلكاً كالسرب، وهو النَّفَق.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوعُ فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي ما نتغذَّى به، وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبٗا﴾ تعباً وإعياءً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٠٩/٨ ومسلم رقم ٢٣٨٠ والترمذي رقم ٣١٤٨.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ أي التجأنا وأقمنا عندها وذكر الإيواء إلى الصخرة، مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين، لزيادة تعيين محل الحادثة، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها، مما يؤدي إلى النسيان عادةً، ومراده بالاستفهام تعجب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تُنسىٰ ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ وفيه تأكيد للتعجب أي نسيت أن أذكر لك أمره، وما شاهدته منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ أي الشيطان أنساني أن أذكره لك ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ كأنه قيل: حيي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وهو كون مسلكه كالطاقة، وأيُّ شيء أعجب من حوت يؤكل منه، ثم صار حياً؟!.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلبه لكونه علامة على غرضنا ومطلوبنا ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يتبعان آثارهما حتى أتيا الصخرة.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ الإضافة للتشريف،

والجمهورُ على أنه الخَضِر، والخضر لقب له، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمّي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[1] ومعناه أنه جلس على قطعة نبات يابسة، فاخضرَّت تحته كرامة له ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً رفعنا به قدره، وعلمناه علماً خاصاً من غير واسطة، والعلم الخاص به، هو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف كأنه قيل: فما جرى بينهما؟ فقيل: قال موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾؟ استئذانٌ منه في اتباعه له، على وجه التعلم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ أي علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة، أن يتعلم من إنسان آخر، كما لا يبعد أن العالم الكامل، في أكثر العلوم، يجهل بعض الأشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر معلوم، وتعلمه منه لا ينقص قدره وشرفه، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتراجع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وكأنه مما لا يصحُّ، وعلّله بقوله:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟ إيذاناً بأنه يتولى أموراً خفية المدار، والرجل الصالح ـ لا سيما صاحب الشريعة ـ لا يتمالك أن يشمئزَّ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣١٥١ وقال: حسن صحيح.

عند مشاهدتها، أي وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكر، يخالف الشرع، وأنت لا تعلم باطنه؟.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ ﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير منكر عليك ما تفعله ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاصٍ لأمرك.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ ﴾.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ إذن له في الاتباع بعد الموافقة على الشرط ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تشاهده من أفعالي، أي لا تُفاتحني بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أبتدىء أنا ببيانه لك، وفيه إيذانٌ بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة، وغاية حميدة، وفي هذا إرشادٌ لأدب المتعلِّم مع العالم.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ ﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل، يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل، قيل: إنهما مرَّا بسفينة، فكلَّما أهلها، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول أي بغير أجرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي حتى إذا ركبا في السفينة، وأصبحت في لجة البحر، عمد الخضر إلى بعض ألواح السفينة، فقلع من ألواحها لوحين، فجعل موسى يسدُّ الخرق بثيابه ﴿قَالَ﴾ موسى له ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ﴾ أي فعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي عظيماً هائلاً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لما قاله له، متضمنٌ للإنكار، على عدم الوفاء بوعده.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بنسياني أو بالذي نسيته، وهو وصيته، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، قال ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً» ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أي ولا تحملني مشقة ولا تكلفني ﴿مِنْ أَمْرِى﴾ وهو اتباعه إياه ﴿عُسْرًا﴾ أي لا تعسِّرْ علي متابعتك، ويسِّرها عليَّ بالإغضاء، وترك اللوم والمؤاخذة.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا﴾ أي فقبل عذره، فخرجا من السفينة فانطلقا نحو البرِّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ أي فقتله فور لقائه، أمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده، ثم رماه في الأرض جثة هامدة، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين[1]، والغلام هو الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد، والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تردُّد، ولذلك ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي طاهرة من الذنوب، لأنها لم تبلغ الحلم، أو أنه لم يره قد أذنب ذنباً يقتضي قتله ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتلِ نفسٍ محرَّمة، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ

(١) القول الأول أصح، لما ورد في الصحيحين من قوله ﷺ «فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» أخرجه الشيخان.

﴿شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي منكراً فظيعاً لا يمكن السكوت عنه، رُوي عن أبي بنِ كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغلام الذي قتله الخَضِرُ، طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفرا»(١).

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ إنما زيد ﴿لَّكَ﴾ لزيادة العتاب على رفض الوصية، وقلة الصبر، حين تكرّر منه الاشمئزاز، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل له: كيف جاز قتله، وقد ورد النهي عن قتل الولدان؟ قال لسائله: إنْ علمتَ من حال الغلام ما علمه صاحب موسى فلك أن تقتله.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أي لا تجعلني صاحبك بعدها ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ حيث خالفتك ثلاث مرات، وهذا كلامُ نادم شديد الندامة، قاله مع شدة حرصه على المصاحبة، عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب»(٢).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) طرف من حديث أخرجه الشيخان عن أُبيّ بن كعب، وهو حديث طويل وشهير، وانظر فتح الباري ٨/ ٤١١.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ هي أنطاكية، وقيل: برقة، وقيل: هي بلدة في الأندلس ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ روي أنهما طافا في القرية، فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم، فأبوا أن يضيِّفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشارفة، للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاضُ: الإسراعُ في السقوط، ومنه انقضاضُ الطير والكوكب ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ مَسَحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وفي حديث أُبيٍّ: فقال الخضرُ بيده هكذا فأقامه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لمَّا رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك الصبر، و«اتَّخذ» افتعل من تَخِذَ بمعنى أخذ، كاتَّبع من تَبِع، وليس من أخذ.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق، حسبما هو الموعود ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك وأُعلمك، والسينُ للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ والمراد من التأويل ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به، أي سأحدثك عن حكمة هذه الأمور الثلاثة، التي أنكرتها عليَّ، ولم تستطع الصبر لأشرحها لك.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة ﴿يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي يشتغلون في البحر بقصد التكسب من هذه السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ

﴿وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي أمامهم، وكان رجوعهم عليه لا محالة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يصرح بكفره، إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر، لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي خفنا أن يغشي الوالدين ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ بعقوقه وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شراً وبلاءً، أو يعذبهما بدائه، ويضلهما بضلاله، فيرتدا بسببه، وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أطلعه على سرِّ أمره.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الإبدال رفعُ الشيء ووضع آخر مكانه، بأن يرزقهما ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الولد الكافر، وفي الآية دلالةٌ على إرادة وصول الخير إليهما ﴿زَكَوٰةً﴾ أي طهارةً من الكفر والذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً وعطفاً على والديه قيل: أبدلهما الله جارية فزوَّجها فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: أبدلهما الله بغلام مسلم، ومبنى هذه المسائل، على أنه متى تعارض ضرران، تُحمَّل أهونُهما لدفع أعظمهما، الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهود الذي بنيته ﴿فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة، أي كان الجدار الذي بنيته قد خبىء تحته كنز ثمين ليتيمين في هذه البلدة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي كان تحت ذلك الجدار كنز مدفون من فضة وذهب، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكنز ذهباً وفضة»[1] وما ورد من الذمِّ على كنزهما، في قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّة﴾ الآية لمن لا يؤدي زكاتهما، وسائر حقوقهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ لهما الكنز لصلاح الوالد، وفي الآية تنبيهٌ على أن سعيه في ذلك كان لصلاحهما، وهي تدل على أن صلاح الآباء، يفيد العناية بأحوال الأبناء، رُوي عن الحسين رضي الله عنه أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بمَ حفظ اللهُ تعالى مالَ الغلامين؟ قالوا بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي ﷺ خيرٌ منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبروا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿ربك﴾ تنبيه له على تحتم الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة، فيما وقع من الأمور المذكورة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار، ولولا أني أقمته لانقضَّ، وخرج الكنز من تحته، وضاع ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها، رحمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي وما فعلتُ ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام وبناء الجدار، عن رأيي ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي ما لم تستطع، فحذفت التاء للتخفيف ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تصبر عليه وعارضت فيها قبل أن أخبركِ عنها، وفوائد هذه القصة، أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه،

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٢ وقال: هذا حديث غريب.

وأن يداوم على التعليم، ويراعي الأدب في المقال، وقد زلت أقدام قوم من الضلال، في تفضيل الولي على النبي، وهو كفر جلي، حيث قالوا أُمِرَ موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي، والجوابُ أن هذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام، ومن المحال أن يكون الولي ولياً بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبيُّ دون الولي، ولا غضاضة في طلب موسى زيادة العلم من ذلك الولي الصالح.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ هم اليهود سألوا رسول الله عن قصة ذي القرنين، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك، إلى ورود الجواب، وهو ملك مسلم صالح أعطي المُلك والحكمة، وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به تُبَّع اليماني حيث قال:

قد كانَ ذُو القرنينِ جَدّي مسلماً مَلِكاً علا في الأرض غير مفنَّدِ
بلغَ المشَارِقَ والمغاربَ يَبْتغي أسبابَ أمْرٍ منْ حَكيمٍ مُرْشِدِ

قال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا مَلَكاً، وإنما كان مَلِكاً عادلاً، داعياً إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالعدل، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، واختلف في وجه التسمية، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وأما ذو القرنين الثاني، فإنه الإسكندر بن إقليديس المقدوني باني الإسكندرية، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، أكثر من ألفي سنة، وكان الأول عبداً صالحاً، وملِكاً عادلاً، والثاني كان كافراً فاسقاً ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم ﴾ سأذكر لكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ من ذي القرنين ﴿ ذِكْرًا ﴾ أي نبأً مذكوراً وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله تعالى قيل سأتلوه، والسين للتأكيد لا للاستقبال كما قيل.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، والمعنى: إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والأسباب، وتسهيل السير في الأرض ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من مهمات ملكه، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي طريقاً يوصله إليه.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سلك طريقاً يوصله إلى مقصوده، ومشى باتجاه الغرب.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس ـ ﴿وَجَدَهَا﴾ الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأة، وهي الطين الأسود أي ذات حمأة، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال تعالى ﴿وجدها تغرب﴾ ولم يقل: «كانت تغرب» كما أن راكب البحر، يرى الشمس تغيب في البحر ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند تلك العين ﴿ قَوْمًا ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيَّره الله عزَّ وجلَّ بين التعذيب، والتعليم ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾ بالقتل ﴿ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الشرائع.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده، بعدما تلقى أمره تعالى ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم وهو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ـ بالقتل ـ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ ـ فيها ـ ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذاباً منكراً، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار، وفيه دلالة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وإنما كان بالإلهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي فله مثوبة الحسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما تأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً، متيسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس إلى مشرقها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ هم من الزنج، ليس لهم ستر من اللباس والبناء، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، فإذا ارتفع خرجوا إلى معاشهم، وهذا حال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء، وقيل: إنهم كانوا كسائر الحيوانات عراة أبداً.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المحل، وبسطة الملك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعَدَد والعُدَد ﴿ خُبْرًا ﴾ أي علماً، يعني أن ذلك من الكثرة، بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلان في آخر الشمال، من ورائهما يأجوج ومأجوج، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ من ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أمة من الناس ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ بواسطة مترجمهم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل: عربيان من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافث، والترك منهم ﴿ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزروع، كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي

جُعلاً من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؟ يحجزون خروجهم علينا فلا يصلون إلينا؟.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني فيه مكيناً قادراً، من الملك والمال ﴿خَيْرٌ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه إليَّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فَعَلَة وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل، وبآلات لا بد منها في البناء للتفريغ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد وأوثق، وهذا فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ جمع زُبْرة كغُرَف جمع غُرفة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد، وتخصيص الأمر بالإيتاء بقطع الحديد دون سائر الآلات، من الصخور والحطب ونحوهما، لما أن الحاجة إليها أمسُّ، إذ هي الركن في السد، ثم حَفَر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من الحديد حتى سد ما بين الجبلين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين، يعني آتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ﴿قَالَ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ - أي نحاساً مذاباً حتى يلتصق ويتماسك مع الحديد.

﴿فَمَا اسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف التاء تخفيفاً، أي فعلوا ما أُمروا به فصار جبلاً صَلْداً، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لثخنه وصلابته، وهذه خارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض، بكلابيب من حديد، ونحاس مذاب.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي قال ذو القرنين لمن عنده من تلك الديار ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السد، وتمكينه من بنائه ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلٰهي محض، وإن ظهر بمباشرة العباد ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي السد مع متانته ﴿دَكَّآءَ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوًّى بالأرض، والدَّكُّ بالفتح والتشديد: الضربُ والكسر وفيه بيان لعظم قدرته، بعد بيان سعة رحمته ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي كل ما وعد به ﴿حَقًّا﴾ أي ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مسوق من جنابه سبحانه معطوف على قوله جعله دكاً، ومحقِّقٌ لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذْ جاء الوعد ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أي يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول، وذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر، مزدحمين في البلاد

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَـٰهُمْ﴾ أي الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي جمعاً عجيباً، للحساب، والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي أظهرناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا﴾ فظيعاً هائلاً، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة، فهذا يجري مجرى العقاب، لما يتداخلهم من الغمّ العظيم.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ كثيف، وغشاوة غليظة ﴿عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي وعن القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا۟﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفرط تصامهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾ أي استماعاً لذكري، وكانوا صُماً عنه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ـ أي كفروا بي، والحسبانُ بمعنى الظن، والهمزة للإنكار والتوبيخ ـ ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي﴾ من الملائكة، وعيسى، وعزير عليهم السلام، وهم تحت سلطاني وملكوتي، وقيل: هي الأصنام سماهم عباداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ﴾[1] ﴿مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين، فظنوا أنه ينفعهم، بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي هيّأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي للضيف، مما حضر من الطعام وغيره، وفيه تهكم بهم، وتخطئة لهم في حسبانهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها، وفي حسبانهم حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي ضاع وبطل بالكلية ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي وهم يظنون والمراد بهم أهل الكتاب قاله ابن عباس، وعن علي هم الخوارج، واللفظ عام يعمهم وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي بطل سعيهم المذكور، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى لتبيين سبب خسرانهم أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المذكور ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ـ بدلائله الداعية إلى التوحيد والنبوة، عقلاً ونقلاً

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٤.

والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وأمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لذلك حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ لأولئك الموصوفين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ - أي لا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالكفر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، قال اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾»[1].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم أي الأمر ذلك، وقوله عزّ وجلّ ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم، المتضمن لسائر القبائح - ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بهم، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً وهي السخرية والاستهزاء بآيات الله، ورسل الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال الخيرية والطاعات ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في حكم الله ووعده ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هو البستان، وقال المبرد: الشجر الملتف، والأغلب أن يكون من العنب ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة لهم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ومسلم رقم ٢٧٨٥.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ أي لا يطلبون التحول عنها، إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجةٍ في السعادة، فهو طامع إلى ما هو أعلى منها.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ وهو ما تُمد به الدواة من الحِبر، الذي يكتب به ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ لتناهيه لأن كل جسم متناهٍ ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ والمعنى: من غير أن تنفد كلمات ربي، لعدم تناهيها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر، وفي إضافة الكلمات إلى الرب من تفخيم المضاف، وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا﴾ كلام من جهته تعالى جيء به لتحقيق مضمونه، مع زيادة المبالغة ﴿بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ عَوناً وزيادة، أي لو كانت بحورٌ تمدُّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله. وسبب نزولها أن اليهود لعنهم الله، قالوا للمسلمين: في كتابكم: ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرَاً كَثِيرَاً﴾ ثم تقرؤون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فنزلت، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرات من بحر كَلِمَات الله جلَّ وعلا.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾.

﴿قُلۡ﴾ لهم بعد ما بيَّنتَ شأن كلمته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لا أدعي الإحاطة بكلماته سبحانه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات إنما تميزتُ عنكم بذلك ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ لا شريك له في الخلق و لا في سائر

أحكام الألوهية ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ حسن لقاء ربه، وقيل رؤيته تعالى كما هو حقيقة اللفظ، وإدخال الماضي على المستقبل، للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن، الاستدامة على رجاء اللقاء، أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ في نفسه خالصاً لا يريد إلا وجهه ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ إشراكاً جلياً ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء.

عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[1] قوله: «من سمَّع سمَّع الله به» أي من عمل عملاً ليشتهر بذلك شهَّر الله بذلك يوم القيامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركتُه وشركه»[2] وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من فتنة الدجَّال[3] » وفي رواية: من آخرها.

نسأل الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل، في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.

«تم بعونه تعالىٰ تفسير سورة الكهف».

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ١١/٢٨٨ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد رقم ٢٩٨٥ باب من أشرك في عمله.
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٠٩ والترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٨٨.

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ﴾(١) قد سلف أن الحروف المقطَّعة أسماء لسور، أو هي تشير إلى بعض أسماء الله الحسنى.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي هذا المتلو، ذكرُ رحمة ربك ﴿عَبْدَهُۥ﴾ أي لعبده زكريا نقصه عليك، ومعنى ذكر الرحمة: بلُوغها وإصابتها ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه أي هذا العبد هو زكريا.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ظرف (لرحمة ربك) أي حين نادى ربه نداءً خفياً في ضراعة وتوسل، وقد راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه، فإنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى

---

(١) الحروف الهجائية المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما هو رأي المحققين، وانظر أول سورة البقرة.

الخلاص عن لائمة الناس، على طلب الولد في أوان الكبر قالوا: كانت سِنُّه حينئذ مائة وعشرين عاماً، وامرأته ثمان وتسعون سنة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ هذا تفسير الدعاء، أصلُه يا ربِّي فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ الوهن: الضعف، وإسناده إلى العظم لما أنه عماد البدن وأشد أجزائه صلابة، فإذا وُهن كان ما وراءه أوهن ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ شبَّه عليه السلام الشيب بشواظ النار، وانتشاره في الشعر باشتعالها، ثم أخرج مخرج الاستعارة أي عمَّ الشيب رأسي وانتشر انتشار النار في الهشيم، وأسند الاشتعال إلى الرأس، الذي هو مكان الشيب مبالغة ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ ﴾ أي بدعائي إياك ﴿شَقِيًّا﴾ أي كنتُ مستجاب الدعوة، ولم أكن خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبتَ لي يقال: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقي إذا خاب، وهذا توسل منه عليه السلام، بما سلف منه تعالى من الاستجابة.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ أي من يلي أمره بعد موته عليه السلام، يعني بني عمه، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ﴿مِن وَرَآءِي﴾ أي من بعد موتي ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي عقيماً لا تلد من حين شبابها ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي أعطني من محض فضلك، لا بالأسباب العادية ﴿ وَلِيًّا﴾ من صلبي يلي أمرك من بعدي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾.

﴿ يَرِثُنِي ﴾ من حيث العلمُ، والدينُ، والنبوة، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون المال كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناهُ صدقة»[1] ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضياً عندك، قولاً وعملاً، فأجاب الله دعاءه.

فقال: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾.

﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ هذا جواب الله لندائه الخفيِّ، ووعد بإجابة دعائه عليه السلام، حسبما تقتضيه المشيئة الإلّهية المبنيَّة على الحكم والمصالح، فإن الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ وفي تعيين اسمه، وتخصيصه به، مزيد تشريف، فإن التسمية بالأسامي البديعة، الممتازة عن سائر أسماء الناس، تنويه بالمسمى، قالوا لم يكن له عليه السلام مَثَلٌ، في أنه لم يعص الله، ولم يهمَّ بمعصية قط، وأنه ولد من شيخ فان، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، وسُمِّي يحيىٰ لأنه حيي به دين الله.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه وانظر جامع الأصول ٩/ ٦٤٠.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ من عتا يعتو أسنَّ وكبر، فهو عات أي بلغتُ في الكِبَر والشيخوخة نهاية العمر، فكيف يأتيني مولود؟.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى، أو الملك المبلِّغ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف مقحمة، أي الأمر كذلك، تصديق له ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ جملة مقررة للوعد، دالة على إنجازه، كأن قيل: قال الله تعالى: مثل ذلك القول البديع، ومثل ذلك الوعد، هو عليَّ خاصة هين، وإن كان في العادة مستحيلاً. جاء بلفظ الالتفات، جرياً على سنن الكبرياء، لتربية المهابة، كقول الخليفة: «أمير المؤمنين يرسم لك» مكان «أنا أرسم» ثم التفت من ضمير الغائب إلى ياء العظمة إيذاناً بأن مدار كونه هيناً عليه سبحانه، هو القدرة الذاتية، لا ربوبيته تعالى له خاصة ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أي أوجدتك من قبل يحيى، والمراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، وإنما لم ينسب إلى آدم عليه السلام بأن يُقال: وقد خلقت أباك آدم من قبل، ولم يك شيئاً، لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، حيث نبَّه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه من العدم، وكان حال زكريا عليه السلام، أولى بأن يكون معيار الحال ما يشد به نسب الخلق المذكور إليه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي، وقوله «سَوِيّاً» حال من ضمير

المتكلم، أي حال كونك سوي الأعضاء واللسان، ما بكَ شائبة بُكْمٍ وَلا خَرَس، ولم يك بك مرض.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي من المصلَّى، أومن الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب، فيدخلوه ويصلّوا معه، إذْ خرج عليهم متغيراً لونُه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي أومأ إليهم لقوله تعالى في آية أخرى ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أي صلُّوا أو نزّهوا ربكم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد بهما صلاة الفجر، والعصر، أو نزّهوا ربكم طرفي النهار وقولوا: سبحان الله.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ أي وهبنا له يحيى، وقلنا له يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وحزم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمة، والفقه في الدين، روي أنه دعاه الصبيانُ إلى اللعب فقال: ما للَّعب خُلقنا.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي آتيناه من جنابنا رحمة في قلبه، وشفقة على أبويه ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي طهارة من الذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً ومتجنباً عن المعاصي، وكان من تقواه أنه عليه السلام لم يعمل خطيئة، ولم يهمَّ بها قط، فإن قلت: كيف يصح حصول الفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلت: لأن أصل النبوة على خرق العادة.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ أي باراً بهما محسناً إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ أي لم يكن متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه.

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ من الله تعالى ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان مما ينال من بني آدم ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من عذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من هول القيامة، وعذاب النار، يقال: أوحشُ المواطن ثلاثة: يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكانه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً، فأكرم الله تعالى يحيى فخصَّه بالسلامة في هذه المواطن الثلاثة.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، وأمِرَ بذكر قصة مريم، بعد قصة زكريا عليه السلام، لما بينهما من كمال الاشتباه، أي اذكر للناس نبأها، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ ﴾ أي اعتزلت وتنحَّتْ ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ من قومها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي شرقيَّ بيت المقدس لتتفرَّغ هنالك للعبادة، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوَّلت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في

ذلك المكان في مغتسلها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً لأنه روحاني، أو لأن الدين يحيى بوحيه - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي سويَّ الخلق، كامل البنية، في صورة آدمي شاب، وضيء الوجه. وإنما تمثل لها بذلك لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقي إليها من كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية، لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ومحادثته.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أي أستجير بالرحمن منك، وهذا شاهد عدل، بأنه لم يحضر ببالها شائبة ميل إليه، رغم تمثيله على ذلك الحسن الفائق لابتلائها، ولقد ظهر منها من الورع، والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوانِ الرحمانية، للمبالغة في العياذة به، واستجلاب آثار رحمته الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جواب الشرط محذوف، أي إن كنت تتقي الله فلا تتعرضْ لي!! وهذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، كقوله تعالى: ﴿وَذَروا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾[1].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول ربك الذي استعذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، مترقياً على الخير والصلاح، ولما علم جبريل عليه السلام

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

خوفها، قال إنما أنا رسول ربك، وأظهر لها معجزة، عرفت به أنه جبريل عليه السلام، فزال خوفها.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ كما وصفته ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؟ أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل، والمسُّ كناية عن النكاح، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولم أكن فاجرة زانية تبغي الرجال؟.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام تقريراً لمقالتها، وتحقيقاً لها ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الذي أرسلني إليك ﴿ هُوَ ﴾ أي هبة الغلام، من غير أن يمسَّكِ بشرٌ أصلاً ﴿ عَلَيَّ ﴾ خاصة ﴿ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستحيلاً عادة، لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي نفعل ذلك لنجعله آية لهم، وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة ﴿ مِّنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي محكماً، قد تعلَّق به قضاؤنا الأزلي، وقُدِّر وسُطِّر في اللوح المحفوظ، لا بد من جريانه عليك البتة، فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها، فنفخ جيب درعها فوصلت النفخة إلى رحمها.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ في الحال وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل تسعة أشهر وكان النافخ جبريل عليه السلام، لأن الظاهر من قوله: ﴿لِأَهَبَ

﴿لَكِ﴾ أنه أمر أن يكون ذلك من قِبَله ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي فاعتزلت به وهو في بطنها ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي بعيداً من أهلها وراء الجبل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي فألجأها، وهو في الأصل منقول من «جاء» كآتىٰ في أعطى، والمخاضُ: وجعُ الولادة، مَخَضَت المرأة أي أخذها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أصلها، وكانت نخلة يابسة، وكان الوقت شتاء، ولعله تعالى ألهمها ذلك، ليريها من آياته ما يسكن روعتها، ويطعمها الرطب الذي هو طعام النفساء ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي الوقت الذي لقيتْ فيه ما لقيتْ من الكرب، وإنما قالته مع أنها تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام استحياءً من الناس، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما سيتكلمون فيها[1] ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي شيئاً تافهاً شأنُه أن يُنسى ﴿مَّنسِيّٗا﴾ أي متروكاً لا يخطر ببال أحد.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ جبريل عليه السلام ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي من مكان أسفل من مكانها، وقيل من تحت النخلة ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي ناداها الملك أن لا تحزني لهذا الأمر، ولا تهتمي بمقالة الناس ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ أي بمكان أسفل منك ﴿سَرِيّٗا﴾ أي نهراً صغيراً، ضرب جبريل برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذبة، فجرى جدولاً دافقاً بالماء، وهذه آية باهرة على كرامة مريم عليها السلام، وقال لها:

---

(١) عرفت أن الناس لا يصدّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عاهرة زانية، ولهذا تمنت الموت، وقالت ما قالت.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾.

﴿وَهُزِّيٓ﴾ أي أميليه، هززته هزاً حركته فاهتز ﴿إِلَيۡكِ﴾ إلى جهتك ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي هزّي جذع النخلة ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أي تسقط النخلةُ ﴿عَلَيۡكِ﴾ إسقاطاً متواتراً ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي طرياً شهياً، قيل: ما للنفساء خير من الرطب، روي أنها هزتها، فجعل الله لها رأساً، وورقاً ورطباً، لتسليتها بذلك، لما فيها من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، ومن قَدَر أن يثمر النخلة اليابسة، قدر أن يحبلها من غير فحل.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ من الرطب واشربي من الماء السلسبيل ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أي طيبي نفساً، وانفضي عنك ما أحزنك، فإنه تعالى نزّه ساحتَكِ عما اختلج في صدور الناس، بما أظهر لهم من الخوارق، من جري النهر، واخضرار النخلة اليابسة، وإثمارها قبل وقتها، فإنهم إذا رأوا ذلك لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فحل، ﴿وَقَرِّي﴾ من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه، أو من القُرِّ فإن العين باردة في السرور، وحارة في الحزن، ولذا يقال: قرة العين للمحبوب، وسخنةُ العين للمكروه ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي آدمياً كائناً ما كان ﴿فَقُولِيٓ﴾ له إن استنطقك ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي صياماً وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: كان صيامهم فيه الصمتُ، وقد نهى الرسول ﷺ عن صوم الصمت فصار منسوخاً ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ أمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة، وقيل: أمرها أن تقول هذا القول نطقا ثم تمسك، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنه نص قاطع في قطع الطعن، وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا ﴾ أي جاءتهم بولدها راجعة إليهم، عندما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُۥ ﴾ أي حاملة له ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً، منكراً، عجيباً، وعبَّر عنه بالشيء، تحقيقاً للاستغراب، قيل: لمّا دخلت على أهلها ومعها الصبيُّ، بكوا وحزنوا، لأنهم كانوا أهل بيت صالحين وقالوا ما قالوا.

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ تجديد للتوبيخ، عنوا به هارون النبي عليه السلام، لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وقيل هو رجل صالح كان في زمانهم شبهوها به في الصلاح، عن المغيرة بن شعبة قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»[1] ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ عمران ﴿ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ أي زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنة ﴿ بَغِيًّا ﴾ أي زانية، تقرير وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين، فُحْشٌ ومنكر عظيم!.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلِّموه، ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا ﴿ قَالُوا۟ ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب رقم ٢١٣٥ ونصُّه عن المغيرة قال: «لمَّا قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ ـ أي بألف سنة ـ فلمَّا قدمتُ على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك؟ فقال: إنهم كانوا يسمُّون بأنبيائهم، والصالحين قبلهم»..

صَبِيًّا﴾؟ ـ ولم نعهد صبياً في المهد تكلّم! ولما قالوا هذا، اتكأ وأقبل عليهم، وتكلَّم بكلام فصيح صريح.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله عزَّ وجلَّ بذلك، تحقيقاً للحق، ورداً على من يزعم ربوبيته[1] ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً، معلِّماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، فإن ما حكم الله به أزلاً لا بدَّ أن يقع، كقوله سبحانه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أو بجعل ما شارف الوقوع واقعاً، وروي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً، وكلامه من معجزاته، والأظهر أن معناه: سيجعلني نبياً، ويؤتيني الكتاب وقيل: كلَّمهم بذلك ثم لم يتكلم، حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي حيثما كنت ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أوّلُ كلمةٍ نطق بها السيد المسيح، وهو طفل رضيع ﴿قال إني عبد الله﴾ وكان ذلك معجزة له تدل على براءة أمه، وطهارتها من مقارفة الفاحشة، ولا نجد في الأناجيل هذه المعجزة، وهي قوله: ﴿إني عبدُ الله﴾ لأنها تبطل مزاعم النصارى في ألوهية المسيح، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سواطع المعجزات والبراهين!!.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أي جعلني باراً بها، والتنكير للتفخيم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي عنيداً متعظماً متكبراً على عباد الله، شقياً في حياتي.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أي وسلام الله عليَّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، ويوم خروجي حياً من قبري، وفيه تعريض باللعن على من اتهم مريم بالزنا، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿والسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى من فُصِّلت نعوته الجليلة ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يصفونه به من دعوى الربوبية ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكُّون ويتنازعون، فيقول اليهود: ساحر وابن زنى، والنصارى يقولون: هو ابن الله، وكلا الفريقين مفترٍ كاذب.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام له تعالى ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ تكذيب للنصارى ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما بهتوه ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ بلا تأخير، فمن هذا شأنه، كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وقد نص عيسى على عبودية نفسه، لإزالة التهمة عن الله تعالى.

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا هو الدين القويم الذي لا يضل سالكه.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ الحزبُ: الفرقةُ المنفردة برأيها عن غيرها نبَّه تعالى على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يوجب الاتفاق، منشأً للاختلاف، فإن ما قال عيسى عليه السلام من كونه عبداً للهِ تعالى، اختلف النصارى بالإفراط والتفريط، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض، وزعم بعضهم أنه ثالث ثلاثة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهم المختلفون في أمر عيسى، عبر عنهم بالموصول، إيذاناً بكفرهم جميعاً ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يوم، عظيم الهولِ، والحسابِ والجزاء، وهو يوم القيامة، والنصُّ وعيد وتهديد لكل كافر، سواءً كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً، فإن الكفر كله ملة واحدة.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ تعجيب من شدة سمعهم وبصرهم، أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب!! ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ للحساب والجزاء، والمراد أنَّ أسماعهم وأبصارهم جديرة بأن يُتعجب منهما، بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعُمياً ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لا تدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي يوم يتحسر الناس قاطبة، أمَّا المسيء فعلى

إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فرغ من الحساب، وأُدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنَّة أحد، إلا أُري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة»[1] ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما يفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي نتفرد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلاك والفناء ولا يبقى لأحد غيرنا عليها ملك، ونتوفى الأرض توفي الوارث لإرثه ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي يردّون إلينا للجزاء لا إلى غيرنا، وهذا تخويف عظيم، ووعيد شديد.

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ عطف على أنذرهم ﴿ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في السورة أو في القرآن ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي اتلُ عليهم قصته كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنهم ينتمون إليه، فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من الشرك والقبائح ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق في كل ما يأتي وما يذر ﴿ نَّبِيًّا﴾ خبر آخر أي كان جامعاً بين الصديقية والنبوة.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٤١٨/١١ .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي لا يسمع ثناءك وجؤارك إليه، ولا يبصر خضوعك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر من المسموعات والمبصرات شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يقدر على أن يغنيك في جلب نفع، ودفع ضر، وقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتج عليه بحسن الأدب، حيث طلب منه علّة عبادته، ولم يصرح بضلاله، ونبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً، مميزاً، سميعاً، بصيراً، مقتدراً على النفع والضر، ولكنّه كان محتاجاً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلائق، كالملائكة، والنبيين، لما يراه مثله في الحاجة إلى من سواه، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟.

ثم دعاه إلى أن يتّبعه، ليهديه إلى الحق القويم، والصراط المستقيم ولكنه كان جاهلاً عنيداً، لم يأبَهْ للنصيحة والإرشاد.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ لم يسمِّ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير، يكون أعرف بالطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع، مستلزم للضر، فإنه في الحقيقة عبادة للشيطان من حيث إنه الآمر، ولهذا قال بعده:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فإن عبادتك

للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسوّلها لك، ويغريك عليها، ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص، وكل من هو عاصٍ حقيقٌ بأن تُستردَّ منه النعم.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه، وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده، من العذاب الفظيع ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ أي قريناً له في اللعن المخلَّد والطرد والحرمان من دخول الجِنان.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ ﴾؟ أي أمعرضٌ ومنصرف أنتَ عن عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ قابل استعطافه في الإرشاد، بغلظةِ العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بيا «بُنَيّ» وأخَّره، وصدَّره بالهمزة للإنكار، على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدَّده فقال ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ ﴾ عن مقالك فيها، وعن النهي عن عبادتها ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ ﴾ بالحجارة ﴿ وَٱهۡجُرۡنِي ﴾ أي اتركني ﴿ مَلِيّٗا ﴾ أي زماناً طويلاً، أو بالذهاب عني، وإنما حكى الله تعالى ذلك للرسول ﷺ ليخفّف عليه ما كان يصل إليه، من أذى المشركين، فيعلم أن الجُهّال منذ كانوا على هذه السيرة.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ ﴾ متاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، ولكن ﴿ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ ﴾

أي أستدعيه أن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[1] والاستغفار للكافر، قبل أن يتبين أنه مات على الكفر، مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاء المغفرة، مع بقائه على الكفر، وبعد تبيُّن موته على الكفر، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي بليغاً في البر والإلطاف، والحفاوةُ: الرأفةُ والرحمة والكرم، والمراد أنه يستجيب لي فيما أدعوه وأطلبه منه.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ المراد بالاعتزال المهاجرة، أي أتباعدُ عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني، من أرض بابل إلى أرض الشام، حيث لم تؤثِّر نصائحي فيكم ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أعبده وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي خائباً، ضائع السعي، وفيه تعريض لشقائهم، وفي تصوير الكلام بعسى التواضع، والتنبيه على أن الإجابة تفضل، وأن العبرة بالخاتمة.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجررة ابتغاء مرضاة الله، وترك الديار والأوطان ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة، ليستأنس بهما، لكنْ لا عقيب المهاجرة، فإن المشهور الموهوب حينئذٍ «إسماعيل» عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إثْر دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٦.

شجرتا الأنبياء ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحد منهم، جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوة والمال، والأولاد، وقيل: هو الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم، استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ والمراد باللسان ما يوجد به الكلام، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى به عليهم، وأن محامدهم لا تخفى، على تباعد الأعصار، وتبدل الدول والأمصار.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١)﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ قدم ذكره على ذكر إسماعيل، لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي مؤمناً موحِّداً اصطفاه الله لنفسه، لأنه أخلص عبادته عن الشرك، والرياء وأسلم وجهه لله ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ نبياً أرسله الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي ناديناه من ناحية اليمين من جهة جبل الطور، والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام، لأن الجبل لا يمين له، ومعنى ندائه أنه جاءه الكلام من تلك الجهة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أي وشرفناه بالمناجاة ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجياً، مثَّل حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ من أجل رحمتنا ورأفتنا له ﴿ أَخَاهُ ﴾ لمعاضدة أخيه ومؤازرته، إجابة لدعوته حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾ ﴿ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ وكان أكبر من موسى عليه السلام.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ وإيراده بهذه الصفة لكمال شهرته به، وناهيك وعد الصبر على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فيه دليل على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ وهو أن يقبل الرجل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ﴾ وقيل أهله أمته، فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهذا نهاية في المدح.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث عليهما السلام، وجدُّ أب نوح عليه السلام، أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ أي ملازماً للصدق.

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ بشرف النبوة وعلو الرتبة بالذكر الجميل، عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة[1].

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول أي هم أنبياء الله الكرام ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار أي هم من نسل آدم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملناه معه، وهم من عدا إدريس عليه السلام لأنه كان قبل نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف الصدّيق ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي من جملة من هديناهم إلى الحق، واجتبيناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ البكيُّ جمع باكٍ، كالسجود جمع ساجد، والمراد به سجود التلاوة، وقال بعضهم: الخضوعُ والخشوع، والظاهر يقتضي سجوداً مخصوصاً عند التلاوة، قالوا: ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته، بما يليق بآياتها مع الخشوع والخضوع، ومنها الدعاء المأثور «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعَه وبصره، تبارك الله أحسنُ الخالقين» وعنه ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

---

(١) طرف من حديث الإسراء الذي رواه الشيخان.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ يقال لعقب الخير خَلَفٌ بفتح اللام، ولعقب الشر ﴿ خَلۡفٌ ﴾ بالسكون، أي فعقَّبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي تركوها وفرَّطوا فيها، أو أخَّروها عن وقتها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ كشرب الخمر، والزنا، والانهماك في فنون المعاصي ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ شراً، فإن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، كما قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدِمْ عَلَى الغَيِّ لائِمَا

وعن ابن عباس وابن مسعود قالا: هو واد في جهنم، أُعدَّ للمصرين على الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وشاهد الزور.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ يعني إلا من رجع عن كفره، وآمن بشرائطه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ بموجب الوعد ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴾ أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أي إن كفرهم السابق، لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ أي جنات إقامة دائمة في جوار عرش الرحمن، وعدهم الله بها فآمنوا بها، قبل أن يروها تصديقاً لوعد الله، والتعرض لعنوان الرحمة، للإيذان بأن وعدها وإنجازها، لكمال سعة رحمته تعالى، والباء في قوله: ﴿بِالغَيبِ﴾ متعلقة بمضمر أي وعدها

إياهم ملتبسة بالغيب أي غائبة عنهم لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ أي موعوده كائناً ما كان، فيدخل فيه الجنات، ولما كانت هي مثابة يرجع إليها قال: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي يأتيه من وُعد له لا محالة.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، ولا ألفاظاً قبيحة نابية، إنما يسمعون فيها التحية والسلام، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أن اللغو، مما ينبغي أن يجتنب عنه ما أمكن ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، وتسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ على عادة المتنعّمين في هذه الدار، وقيل المراد دوام رزقهم ورفاهية عيشهم، وإلا فليس في الجنة بكرة وعشية، لأنهم في النور أبداً.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ أي نورثها ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أي نبقيها عليهم ونمتعهم بها كما يبقى مال الموَرِّثِ على الوارث، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك، من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا إبطال ﴿مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ عن الإشراك، وقيل: يورث المتقون من الجنة، المساكن التي كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادةً في حسرة الكفار.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ هذا حكاية لقول جبريل عليه السلام، حين استبطأ عن رسول الله ﷺ، لمّا سئل عن أصحاب الكهف، أخرج البخاري

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية»[1] فكان هذا جواب جبريل عليه السلام، والتنزُّلُ: النزولُ على مَهْل، لأنه مطاوع للتنزيل، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى وما نتنزل وقتاً بعد وقت، إلاَّ بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته، لأني عبدٌ مأمور ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا نتنزل إلا بأمره ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي تاركاً لك يا محمد يعني أن عدم النزول، لم يكن إلا لعدم الأمر به، لحكمة فيه، لا لتركه لك كما زعمت الكفرة، وفي إعادة اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ، فيه تشريف عظيم للنبي ﷺ.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو تعالى ربُّ العوالم كلها، رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، وما بين السماء والأرض والنسيانُ عليه تعالى مستحيل، فإن من بيده ملكوت السموات والأرض كيف يُتصور أن يحوم حول ساحته سبحانه، الغفلةُ، والنسيانُ؟ ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبية، فاعبده، ولا تحزن لإبطاء الوحي، وهزء الكفرة، فإنه تعالى يراقبك، ويلطف بك ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ أي هل تعلم له شبيهاً ومثيلاً، والمراد إنكار الشريك، أي ليس له جلَّ وعلا من يشابهه ويماثله في الألوهية والخلق، وما يسميه المشركون آلهة فهي آلهة مزيّفة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٢٨.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ ﴾ المراد به الجنس، وإسناد القول إلى الكل لوجوده فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا، وإنما القاتل واحد منهم، وقيل: المراد به الشقي «أُبيُّ بن خَلَف»[1] فإنه أخذ عظاماً بالية، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال؟ يقول ذلك بطريق الإنكار والاستبعاد ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ أي هل سأبعث من الأرض؟ قاله تكذيباً للبعث.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ من الذكر الذي يُراد به التذكر، والتفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين، أي أيقول ذاك ولا يتذكر ولا يتفكر ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي خلقناه من العدم من قبل هذه الحالة التي هو عليها الآن ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾؟ بل كان عدماً صِرْفاً حيث خلقناه وهو في تلك الحالة، المنافية للخلق؟ فلأن نبعثه بجميع المواد المتفرقة أولى وأظهر.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ قسَمٌ، باسمه عزَّتْ أسماؤه، مضافاً إلى ضميره ﷺ لتحقيق الأمر، والإشعار بعليته، وتفخيم شأنه ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أي لنجمعن

---

(١) كان الشقي «أبيّ بن خلف» من طواغيت قريش، ومن صناديد الكفر، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ وقد اشتهر بالسخرية والتهكم بأمر البعث والنشور، حتى مات كافراً في غزوة بدر.

المجرمين المنكرين للبعث والنشور مع الشياطين، بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء، إثباتاً للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الضمير المنصوب أي نجمعهم مع الشياطين الذين أغووهم، كل مع شيطانه في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه، فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم، فيزدادوا غيظاً وحسرة والجثيُّ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه، أي لنحضرنهم حول جهنم، جاثمين على ركبهم، لما يدهمهم من هول المطلع، وأهلُ الموقف جاثون، لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾[1] ولعلهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطىء جهنم، إهانة لهم، أو لعجزهم عن القيام، لما عراهم من الشدة:

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۝٦٩﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شايعت ديناً، واتبعت مذهباً ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ أي من كان أعصىٰ وأعتى منهم، فنطرحهم فيها، الأعصى فالأعصى، والأشقىٰ فالأشقىٰ.

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ۝٧٠﴾.

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ أي هم أولى بصليها أي دخولها، والصِلِيُّ كالعتي صيغة وإعلالاً، ويجوز أن يُراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع، فإن عذابهم مضاعفٌ، لضلالهم وإضلالهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾[2].

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام، أي ما منكم أيها الناس ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي واصلُها وحاضرُ دونها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(١) فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها الجوازُ على الصراط، فإنه ممدودِ ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي ورودها إياها ﴿ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لا بد من وقوعه البتة.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ من الكفر والمعاصي، فيساقون إلى الجنة ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي قعوداً على الركب في جهنم حقارة بهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ أي على المشركين آيات القرآن المبين ﴿ بَيِّنَاتٍ﴾ مرتلات الألفاظ واضحات المعاني والإعجاز ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا، كافرين بما يتلى عليهم، أي قال الذين مردوا منهم على الكفر والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾؟ أي المؤمنين، والكافرين، كأنهم قالوا: أينا؟ ﴿ خَيْرٌ﴾ نحنُ أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ موضع إقامة

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠١.

ومنزلاً ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ مجلساً ومجتمعاً؟ كان المشركون يرجّلون شعورهم ويدهنونها، ويتطيبون ويلبسون الملابس الفاخرة، ويجلسون في أنديتهم، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، وما هذه المقايسة العقيمة، إلا لكونهم جهلة، لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، يريدون بذلك أن خيريتهم إنما كانت لكرامتهم عند الله. فردَّ الله عليهم بقوله تقدست أسماؤه:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين لآيات الله أهلكناهم بكفرهم، والقرنُ: جيل من الناس ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا ﴾ أي متاعاً ﴿ وَرِءْيًا ﴾ أي وأجمل صورة ومنظراً من هؤلاء، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ ولمَّا بيَّن عاقبة أمر الأمم المهلكة، أمر رسول ﷺ بأن يجيب هؤلاء، المفتخرين بما لهم من الحظوظ، ببيان مآل أمر الفريقين، أي من كان مستقراً في الضلالة، مغموراً بالغفلة ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أي يمهله بطول العمر، وإعطاء المال، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ ﴾ غاية للمدِّ، أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من عقاب الله ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ في الدنيا كالقتل، والأسر، ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ القيامة، وما ينالهم فيها من الخزي والنكال، وهذا تفصيل للموعود ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا على عكس ما كانوا يقدرونه، فيعلمون أنهم شر مكاناً ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أي فئة وأنصاراً، لا أحسن ندياً كما كانوا يدَّعونه ويزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، ويفتخرون بذلك في الأندية.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ بيان لحال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن قصور حظ المؤمن منها، ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير له ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي الطاعات والأعمال الصالحة، التي تبقى فوائدها ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي خير مما يتمتع به الكفرة، من النعم الفانية، التي يفتخرون بها، لا سيما أنَّ مآلها النعيم المقيم، ومآل هذه الحسرةُ، والعذابُ الأليم ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وفي التفضيل مع أن ما للكفرة، ليس له خيرية، تهكمٌ بهم، أو على طريقة قولهم «الصيفُ أقرُّ من الشتاء».

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ روى الشيخان عن خبَّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً ـ أي حدَّاداً ـ في الجاهلية، وكان لي على «العاص بن وائل السهمي» دينٌ فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يُميتَك الله، ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال: دعني حتى أموت ثم أبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية(1). والمراد بالآيات هنا آياتُ البعث، والهمزة للتعجب من حاله، أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة، التي حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزئاً بها، مصدِّراً لكلامه باليمين الفاجرة ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أي انظر إليه فتعجب من حاله؟!.

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٤٢٩ ومسلم رقم ٢٧٩٥.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٧٨ ﴾.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ رد لكلمته الشنيعة، أي أوَ قد بلغ من عظمة الشأن، أن ارتقى إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادَّعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾؟ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

﴿ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ۝٧٩ ﴾.

﴿ كَلَّاۚ ﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه ﴿ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنظهر له افتراءه، وننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدوّ، فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول، لقوله تعالى: ﴿مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه، من الإمداد بالمال والولد، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه، أو نزيد عذابه، لافترائه على الله تعالى، واستهزائه بآياته، وتأكيدهُ بالمصدر، دلالة على فرط الغضب.

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ۝٨٠ ﴾.

﴿ وَنَرِثُهُۥ ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ ﴾ أي مسمى ما يقول، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، أي ننزع عنه ما آتيناه ﴿ وَيَأۡتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرۡدٗا ﴾ بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله تعالى ﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾ ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وسيلة إليه عز وجل وشفعاء.

﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ (٨٢).

﴿ كَلَّآۚ ﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ ﴾ أي ستجحد الآلهة بعبادتهم، بأن ينطقها الله، وتقول ما عبدتمونا؛ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ أي تكون الآلهة أعداء لهم يوم القيامة.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ (٨٣).

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة، وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم، ومعنى إرسال الشياطين عليهم تسليطهم وتمكينهم من إضلالهم ﴿ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ أي تغريهم وتهيجهم على المعاصي، والأزُّ، والهزُّ والاستفزاز، معناها شدةُ الإزعاج.

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾ (٨٤).

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ بأن يهلكوا وتطهر الأرض من فسادهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾ أي لا تعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام قلائل تعدُّها عليهم عداً، قيل: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مَدَد، فما أسرع ما تنفد!؟.

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾ (٨٥).

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي نجمعهم ﴿ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾ وافدين عليه، كما يفد الضيوف على الملوك، منتظرين لإنعامهم.

﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ (٨٦).

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ كما تساق البهائم ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي عطاشاً، فإن من ورد الماء لا يَرِدُه إلاَّ لعطش أو كالدابة التي ترد الماء.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ الضمير فيه للعباد، أي لا يملك فيه أحد أن يشفع لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ أي لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إلاَّ من أمر بذلك، وأذن الله له بالشفاعة، فيكون ترغيباً للناس في تحصيل الإيمان والتقوى.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ أي افترى اليهود والنصارى ومن زعم من العرب أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبىء عن كمال السخط، والإِدُّ بالكسر: الأمر العظيم المنكر، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً، لا يُقادر قدره.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ أي تقرب السموات بعظمتها ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر ﴿ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي تكاد تنشق الأرض ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي تسقط وتتهدم ﴿ هَدًّا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف، أي تُهدُّ هدّاً وتتساقط أشد ما يكون تساقطاً، والمعنى: إن هول هذه الكلمة وعظمها، بحيث لو تصور بصورة محسوسة، لم تتحملها هذه

الأجرام العظام، وتفتت من شدتها، بحيث لولا حلمه تعالى لخرَّبت العالمَ غضباً على من تفوَّه بها.

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ أي لأن دعوا له سبحانه ولداً، ونسبوا له ما لا يليق من الذرية والبنين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ والحال أنه لا يليق به تعالى اتخاذ الولد، لاستحالته في نفسه، لأن الولد يقتضي المجانسة، ويكون عن حاجة وهو سبحانه المنزَّه عن المثيل والنظير، والغني عن المعين والنصير، فكيف يتسنى أن يجانس المخلوق الخالق حتى يتوهم أن يتخذ ولداً؟.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ إلا وهو مملوك له، يأوي إليه بالعبودية والانقياد، ونسبة الجميع إليه عزَّ وجلَّ نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون بعضه ولداً؟.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ أي حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي عدَّ أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي كل واحد منهم، سيأتي ربه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، فإذا كان هذا شأنه تعالى وشأنهم، فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً، لأنه لا يجانسه شيء من ذلك ولا يناسبه..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لمَّا فصَّل قبائح أحوال الكَفرة، عقَّب ذلك بذكر محاسن المؤمنين، أي صدَّقوا الله وفعلوا الخيرات ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أي سيحدث لهم في القلوب مودة، من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، وقيل يحبهم الله ويحببهم إلى عباده، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله سبحانه عبداً، دعا جبريل عليه السلام فقال: إنَّ الله يحب فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١) والسين في «سيجعل» للاستقبال لأن السورة مكية، فوعده ثم أنجز وعده حين تمكَّن الإسلام، وكثر أنصاره.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ أي القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لغتك والفاء لتعليل الأمر كأنه قيل: بلِّغْ هذا المنزل، وبشِّرْ به، فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي سائر أهل التقوى ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي وتخوِّف به قوماً معاندين، لجاجاً وعناداً، واللُّدُّ جمع الألدّ، وهو الشديد الخصومة والجدال.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/٤٦١ ومسلم رقم ٢٦٣٧ في البِرّ والصلة، والترمذي رقم ٣١٦٠ في التفسير، وزاد في حديثه «فذاك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾».

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ، في ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك، أي أهلكنا قبل هؤلاء الكفار قوماً كثيرين معاندين ﴿ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه؟ ﴿ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾ أي صوتاً خفياً، وأصل الركز الخفاء، والركاز: المال المدفون المخفي أي بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»

* * *

سُورَةُ طه

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

﴿طه﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة، وعليه الجمهور، وعن ابن عباس معناها يا محمد، وقيل معناه يا رجل لأنه لما نزل الوحي عليه، اجتهد في العبادة حتى كان يراوح في الصلاة بين قدميه لطول قيامه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره أن يخفف على نفسه.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي ما أنزلناه لتتعب نفسك، وتحملها على الرياضة الشاقة، والشقاءُ شائع في معنى التعب، أو لتتعب نفسك بالمبالغة في مكابدة الشدائد، في محاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم، بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلت فلا عليك كفرهم.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع، أي لكن أنزلناه تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة، ويتأثر بالإنذار، وتخصيصها بهم لأنهم المنتفعون بها.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسماوات العالية، والعُلى جمع العليا تأنيث الأعلى، وصف السماوات به لتأكيد الفخامة، مع مراعاة الفواصل.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي هو الرحمن، فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية، للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى، وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته، كما في قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي هو جلَّ وعلا العظيم الشأن، الذي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله.

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء، والسحاب، والطيور، أي له وحده دون غيره كلُّ ذلك، ملكاً وتصرفاً، وإحياءً، وإماتة ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أي ما وراء التراب، ذكره مع دخوله في قوله ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير، والثّرَىٰ: الترابُ النديُّ فإن لم يكن ندياً فهو تراب.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته لجميع الكائنات، أي وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي ما أسررته إلى غيرك، أو ما أخطرته ببالك، وأخفى منه، وفيه تنبيه على أن شرع الذكر

والدعاء، والجهر فيهما، ليس لإعلام الله تعالى، بل لغرض آخر، من تهذيب النفس بالذكر، ومنعها عن الاشتغال بالتوافه، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك المنعوت بما ذُكر هو اللهُ عز وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو واحد بذاته، وإن افترقت صفاته، رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمن، قالوا ينهانا محمد أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، وهذا رد لقولهم الفاجر، ثم قال: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن، وفضلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن، لدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾؟ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وهذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وهذا قول الكلبي، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: قد أتاك، وهذا قول مقاتل.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً، رُوي أن موسى عليه السلام، استأذن شعَيباً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر، ليزور والدته وأخاه، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها، لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى

جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة شاتية، شديدة البرد، فأخذ امرأته الطلقُ، فولدت له ابناً، وتفرقت ماشيته فجعل يقدح زنده فلا يوري، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من جانب الطور وكانت نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي أقيموا مكانكم، أمرهم بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه، والخطاب للمرأة، والجمعُ للتفخيم، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها والإيناسُ: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار، بنى الأمر على الرجاء، لئلا يَعِدَ بما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ نار مقتبسة، وهي المراد بالجذوة في سورة القصص، والقَبَسُ: بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقَّد في شجرة خضراء، ولم يجد عندها أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النارُ تغيِّر خضرتَها، ولا خضرةُ الشجرة تُغيِّر ضوءَ النار، فلما دنا سمع تسبيح الملائكة، وأُلقِيت عليه السكينة، فعند ذلك ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ كرَّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلِّم؟ فقال: أنا ربك، فعرف أنه كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه سَمِعه من جميع جهاته الست، وسَمِعه بجميع أعضائه، وذلك ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره سبحانه بذلك، لأن الحفوة تواضعٌ وأدب، ولذلك كان السلف يطوفون بالكعبة حفاة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لشرف البقعة وقدسيتها، روي أنه

عليه السلام خلعها وألقاها وراء الوادي ﴿طُوًى﴾ وهو اسم علم للوادي ومعناه: بالواد المقدس، المسمى طوى، أي جبل الطور.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، وهذا يدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق، بل باختياره تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي للذي يُوحى إليك، وفيه نهاية الهيبة والجلال، كأنه قيل له: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهّب له.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدل ما يوحى، ولا ريب في أن اختياره ليس لهذا الوحي فقط ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ وحّدني وأطعني، ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ خُصت الصلاة بالذكر، وأفردت بالأمر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة، لفضلها وشرفها، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد، أعظم من الصلاة، أي حافظ على الصلاة، وأقمها على الوجه المشروع لتذكرني فيها، وتبقى دائم الصلة بربك، قال مجاهد: إذا صلى العبد ذكر ربه لاشتمالها على جملة الأذكار وقيل: معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، لما رُوي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً فلْيصلِّها إذا ذكرها، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾»[1]. قال أبو حنيفة: يجب الترتيب في قضاء الفوائت، ودليلهُ هذه الآية.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٣٢٤٨ وهو طرف من حديث طويل في قصة رجوع النبي ﷺ من غزوة خيبر، ونوم الصحابة عن صلاة الفجر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥/١٩٣.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي القيامة كائنة لا محالة، وإنما عبر عنها بالإتيان، تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، قيل: معناه قَرُبَ الأمرُ من الإخفاء[1] ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض، أي لتجزى كل نفس بسعيها، من خير أو شر.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ أي فلا يصرفنك ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعة، وعن تصديقها، والخطاب لموسى عليه السلام والمراد به أمته ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي من لا يصدّق بها، وهذا ـ وإن كان بحسب الظاهر ـ نهياً للكافر لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام، عن الانصداد عنها، كقوله: لا أرينك ههنا، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإن ذلك سببٌ لصدهم إياه، كأنه قيل: لا تكن رخواً، بل كنْ في الدين شديداً وصلباً، فإنَّ صدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعف الإيمان، فينبغي للمؤمن أن يكون راسخاً في دينه ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه، من اللذات الحسية الفانية ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك، فإن اتباع الهوى مستتبع للهلاك لا محالة.

---

(١) الأظهر كما قال جهابذة المفسرين أن المعنى: إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس، واختاره الإمام الطبري وهو الأظهر والأوضح، لأن «كاد» للمقاربة، قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته حتى عن نفسي، اهـ.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ ﴾.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ ما استفهامية تتضمن استيقاظاً لما سيظهر فيها من العجائب، فمن أراد أن يُظهر من الشيء الحقير، شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على السامعين، ويقول لهم: هذا الشيء الفلاني، ثم إنه يظهر لهم صفته الفائقة، ليكون عندهم أروع وأبهر، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾.

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ نسبها إلى نفسه، تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياء ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي أخبط بها الورق وأسقطه على رؤوس غنمي فترعاه ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي حاجات أخرى غير ذلك، وأراد بها ما كان يستعمل فيه العصا في السفر، كأن يحمل بها الزاد، ويشدَّ بها الحبل، ويستقي بها الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ونحو ذلك، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال، بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة، علم أنها آيات ومعجزات، أحدثها الله تعالى فذكر على التفصيل، وقيل: إنما فصَّل ذلك تلذذاً بخطاب رب الأرباب، والمقام مقام مباسطة، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ لترى شأنها بما لم يخطر ببالك.

﴿ فَأَلْقَىٰهَا ﴾ على الأرض ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جاناً تارة، وهي الحية الصغيرة، نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة وهو أكبر ما يكون من الحيات باعتبار المنتهى، وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين، وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة والسرعة، لا في صغر الجثة.

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ فإنه عليه السلام لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها، والحكمة فيها لتكون معجزة لموسى عليه السلام ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي هيئتها، المتقدمة، أي سنعيدها عصا كما كانت.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ أمر عليه السلام بذلك، بعدما أخذ الحية، أي أدخلها تحت عضدك، فإن جناحي الإنسان جنباه، كما أن جناحي العسكر ناحيتاه، مستعار من جناحي الطائر، وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وفي آية أخرى ﴿وأدخل يدك في جيبك﴾ لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان كمن قد ضم يده إلى جناحه ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي من غير عيب وقبح، كنَّى به عن البرص، كما كنَّى بالسوأة عن العورة، لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه، روي أنه عليه السلام كان آدم يعني أسمر اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها نور ساطع يضيء كشعاع الشمس، ثم إذا ردَّها عادت إلى لونها الأول بلا نور ﴿ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي معجزة أخرى، دالة على صدقك سوى العصا.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ ﴾.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ أي لنريك بعض آياتنا الكبرى.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذهب بهاتين الآيتين، إلى فرعون الجبار، فادعه إلى عبادتي، وحذّره نقمتي ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ تعليل للأمر، أي جاوز الحدَّ في التكبر، والعُتوِّ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وإنما خص فرعون بالذكر، مع أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، لأنه كان متبوعاً.

فلما أمر بما أمر به، وعرف أنه كلف بأمر عظيم، يحتاج إلى صدر فسيح، تضرع إلى ربه. فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ سأله أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الحقّ، وأحوال الخلق، حليما حمولاً يستقبل ما عسى يَرِد عليه من الشدائد والمكاره، ويتلقاها بصدر فسيح.

﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ وسأله أن يسهِّل عليه أمره، الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولُها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع.

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ ﴾.

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام لُكْنة[1]، من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذات يوم، فأخذ لحيته فنتفها فغضب، فتشاءم منه وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا

---

(١) لُكْنةٌ: أي عِيٌّ وثِقَلٌ في اللسان، يصعب معه الإفصاح في الكلام.

يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرهما بين يديه، فأخذ الجمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، وصارت فيه عقدة.

﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ أي كي يفقهوا قولي، أي يفهموا كلامي.

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلّفته.

﴿ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ هَٰرُونَ ﴾ عطف بيان لوزير ﴿ أَخِى ﴾ بدل من هارون، وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً.

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ أي قوِّ به ظهري.

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير، وليس المراد بالتسبيح والذكر، ما

يكون منهما بالقلب، وفي الخلوات، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، وذلك مما لا ريب في تأثيره، في حالي التعدد والانفراد، ولفظُ ﴿كَثِيراً﴾ في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف، أي ننزهك عما لا يليق بك، من ادعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك، من صفات الكمال، تنزيهاً كثيراً.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً، من جملته زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، لنتخلص من شرّه وطغيانه.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي عالماً بأحوالنا، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا، وما دعوناك به يصلحنا ويفيدنا، في تحقيق كلفته من إقامة الرسالة.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ ﴾ أي أعطيت ﴿ سُؤْلَكَ ﴾ أي مسؤولك والمراد بالإيتاء تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له البتة، فكلها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها مترقباً بعد، كتيسر الأمر، وشد الأزر ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ تشريف له بشرف الخطاب، إثر تشريفه بقبول الدعاء.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، وذكرُ تلك النعم بلفظ المنة، ليعرف

موسى أنها بمحض الكرم والإحسان، وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي في وقت غير هذا الوقت.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ المراد بالإيحاء الإيحاء بواسطة المَلَك كما أوحى إلى مريم، أو بالإلهام كالإيحاء إلى النحل، أو الإراءة في المنام ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي، من الأمر بقذفه في التابوت، وقذفه في البحر، أَبهِمَ أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه، ثم فُسّر ليكون أقرَّ عند النفس.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي بأن اقذفيه، ومعنى القذف هنا: الوضع، وأما في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالمراد الإلقاء في البحر، وهذا التفضيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ لا القذف بلا تابوت. ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل، أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه عاقل مطيع، أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر للمكلف بالتنفيذ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير «العدو» للمبالغة، والإشعار بأن عداوته له، مع تحقيقها لا تؤثر فيه، وما هو سبب للهلاك صورة، يشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوري، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً ووضعته فيه ثم قيّرته أي طلته بالزفت وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير، فدفعه الماء إليه، فأتى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا الصندوق فإذا فيه صبي من

أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبَّه حباً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ التنكير للتفخيم أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، ولذلك أحبَّك عدوُّ الله ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره وألقيت عليك محبة لتحبَّ ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أي لتربى بمرأى مني، بحفظي ورعايتي، فأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعى الرجل بعينه إذا اعتنى به.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ أي حين تمشي أختك وتَتَّبع أثرك حتى تصل إلى قصر فرعون. ﴿فَتَقُولُ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبوله ثديها، يروى أنه فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل، لا يرتضع ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أختُه لتعرف خبره، فجاءتهم متنكرة فقالت: هل أدلكم على امرأة أمينة ترضعه لكم؟ فجاءت بأمه فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: إنا رادّوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور، المعبر عنه بقرة العين ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي الكافر الذي استغاثه الإسرائيلي عليه قيل: كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء وخلصناك مرة بعد أخرى من ضروب الابتلاء والامتحان، منها نجاته من الذبح، ثم إلقاؤه في البحر، ثم أخذ لحية فرعون، ثم قتل القبطي، ثم الهجرة، وكلها

ضروب من الابتلاء ﴿فَلَبِثْتَ﴾ مكثتَ عشر ﴿سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيها النداء، وفي كلمة «ثمَّ» إيذان بأن مجيئه عليه السلام، كان بعد ضلال الطريق، وتفرق الغنم، في الليلة المظلمة، وغير ذلك ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي على تقديرٍ قدَّرته لأن أكلِّمك، وأستنبئك، في وقت قد عينته لذلك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له وتنبيه على انتهاء الحكاية.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون، مؤيداً بأخيه بعد تذكير المنن السابق، أي اصطفيتك برسالاتي وبكلامي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي وليذهب أخوك معك حسبما طلبت ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها من اليد، والعصا، ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصِّرا، والوَنَى: هو الفتورُ والتقصير ﴿فِى ذِكْرِى﴾ عند تبليغ رسالتي، فإن الذكر يقع على جميع العبادات، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمدا بذكري العون والتأييد.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جمعهما مع غيبة هارون، للتغليب، روي أنه تعالى أوحى إلى هارون بمصر، أن يلتقي بموسى عليهما السلام، ويذهبا إلى فرعون الطاغية الجبار.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً، لأن تليين القول، مما يكسِرُ سورة عناد العُتاة، ويلين عريكة الطغاة، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغبتماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقابي، والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾[1] الآية.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب، إيذاناً بأصالته في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام له ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يعجِّل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة، وإظهار المعجزة، والفرَط بفتحتين: المتقدم في طلب الماء، والإفراطُ: الإسرافُ وتجاوزُ الحد ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي يزداد طغياناً فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لجرأته وقساوته وفجوره.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ تسلية لهما، والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأنا حافظ لكما من شره، والحافظ إذا كان كذلك تم الحفظ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١٣٤.

﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ أي اذهبا فادخلا عليه بأمري ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، وليس المراد بتكليفهم أن يذهبوا معهما إلى بلد آخر ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا من العذاب، فإنهم كانوا في أيدي القبط، يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، ويستخدمون نساءهم ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ ﴾ المستتبع لسلامة الدارين ﴿ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ بتصديق آيات الله تعالى، الهادية إلى الحق، وليس المراد منه «سلام التحية» بل معناه السلامة على من أسلم واتبع الحق، وفيه ترغيب في اتباعهما على ألطف وجه.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ ﴾ من جهة ربنا ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ﴾ بآيات الله وبالرسل ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف في الوعيد ما لا يخفى، حيث لم يصرح بحلول العذاب به.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون بعدما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه، بل أضافه إليهما، لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل، بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين﴾ كما وقع في سورة الشعراء، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق، أي إذا كنتما رسولَيْ ربكما، فأخبراني من ربكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما، لما أنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام مجيباً له ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ لم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط، حسبما أراد اللعين، بل جميع المخلوقات، أي أعطاه صورته وشكله اللائق، بما نيط به من الخواص والمنافع، فخلق اليدَ للبطش، والرِّجلَ للمشي، واللسانَ للنطق، والعين للنظر، والأذنَ للسمع، ونحو ذلك، واستدل عليه السلام على إثبات الصانع، بأحوال المخلوقات، فإنه تعالى خلق الخلق، وأتقن الصنعة، حيث أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي إليه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي هداه إلى طريق الانتفاع بما أعطاه، وعرَّفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، إما اختيارياً كما في الحيوانات، أو طبعاً كما في الجمادات والنباتات، ولما كان الخلق متقدماً على الهداية، وسّط بينهما كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بيّن أنه تعالى عالم، قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعم عليها بجميع ما يليق بها، بطريق التفضل، ولذلك بهت الذي كفر، وخاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته، فأراد أن يصرفه إلى ما لا يَعْنيه بطريق المخالطة.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١﴾.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم من الحوادثِ مما لا دخل له بمنصب الرسالة، فلم يلتفت موسى عليه السلام، إلى ذلك الحديث، بل قال:

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾.

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلاّ الله تعالى، لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ﴿فِى كِتَٰبٍۖ﴾

أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطىء ابتداء، ولا يذهب عليه بقاء، بل هو ثابت أبداً في اللوح المحفوظ وليس لحاجته تعالى في العلم به إليه.

ولقد أجاب عليه السلام بجوابٍ عبقري بديع، حيث كشف حقيقة الحق، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده، من بيان شؤونه تعالى، ثم تخلَّص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله تعالى، ما يثبت الألوهية والربوبية فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعلها كالمهد تمتهدونها، وتستقرون عليها، وهو مصدر سمي به المفعول، أي جعل كل موضع مهداً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طريقاً بين الجبال، والأودية، والبراري، تسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي أنزل لكم من السماء المطر عذبا فراتاً، أحيا به العباد والبلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي فأخرجنا بهذا المطر الذي أنزلناه من السماء، وإنما التفت إلى التكلم، للتنبيه على ما فيه، من الدلالة على كمال القدرة، والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأدىٰ إلا من قادرٍ، مُطاعٍ، عظيم الشأن، تنقاد لأمره الأشياء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ أي أنواعاً من النباتات المختلفة في أشكالها وأنواعها ﴿شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة يعني أنها مختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، والنفع.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا منه أصناف النباتات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين بذلك لكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في شؤونه تعالى وأفعاله ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة جليلة، واضحة الدلالة، على شؤون الله تعالى: ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ جمع نُهْية[1]، سُمّي به العقلُ، لعقله ونهيه عن اتباع الباطل، وتخصيص كونها آيات بهم، باعتبار أنهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام وقيل: خلقنا أبدانكم من النطفة، المتولدة من الأغذية الحاصلة من الأرض بوسائط ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العناية بها، وتفخيم شأنها، أي وبالله لقد أبصرنا فرعون ﴿آيَاتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ كما أظهر له أموراً أخرى ﴿كُلَّهَا﴾ أي أريناه جميع الآيات بحيث لم يبق له في ذلك عذر ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعونُ موسى عليه السلام، بعد ما شاهد الآيات، جوراً وعناداً ﴿وَأَبَىٰ﴾ من الإيمان والطاعة.

---

(١) النّهيةُ: العقلُ جمعها نُهىً مثل مُدْية ومُدَىً.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا ﴾ الهمزة لإنكار الواقع، والمجيء لدعوتنا إلى ربك أي أجئتنا بعدما غبتَ عنا، وأقبلت علينا ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من مصر ﴿ بِسِحْرِكَ ﴾ بما أظهرته من السحر ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ وهذا دليل على أنه خاف منه عليه السلام، وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني اسرائيل، بل إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمى ما أظهره من المعجزات «سحراً» لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادَّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ اللام جواب القسم كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينَّك بسحرٍ مثل سحرك ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي وعداً ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ وإنما فوّض اللعينُ أمر الوعد إلى موسى عليه السلام، للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، ولإظهار الجلادة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بالضم أي وسطاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، أي مكاناً وسطاً مستوياً، حتى يشاهده كلُّ الحاضرين[١].

---

(١) هذا ما اختاره الإمام ابن جرير الطبري، أن المراد بقوله تعالى: ﴿مكاناً سُوى﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي مسافته على الفريقين، واختار ابن كثير أن معنى: ﴿مكاناً سُوى﴾ أي بمكان معيَّن، ووقتٍ معيَّن.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ أي موعدنا للاجتماع في يوم العيد، وكان يوم عيد لهم، يزينون فيه الأحياء والدور، وهو يوم النيروز، وإنما عيَّنه ليظهر الحق، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين الناس، لأنه عليه السلام كان على ثقة من أمره، وعدم مبالاته بهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي وقت الضحوة، ليكون أبعد من الريبة، وأبين لكشف الحق.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ أي ما يكيد به من السحرة، وكانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي، ﴿ ثُمَّ ﴾ إيماءٌ إلى أنه لم يسارع إليه، بل بعد تلعثم.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن تدَّعوا آيات الله تعالى سحراً، كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ فيهلككم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ أي هائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، كائناً من كان، أو وقد خاب فرعون المفتري، فلا تكونوا مثله في الخيبة، وفيه تعريض بفرعون الجبار، المدعي للألوهية، والمفتري على الله.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه فتنازعوا ﴿ أَمۡرَهُم ﴾ الذي أريد منهم، من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ في كيفية المعارضة ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ أي من موسى عليه السلام، وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض سراً ﴿ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ تفسير لنتيجة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحۡرِهِمَا ﴾ أي أن يغلبا عليكم بطريق السحر، وكأن السحرة تلقَّفوا هذه من فرعون ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار دينهما عليكم، يريدون به ما كان عليه قوم فرعون، ويسمونه ديناً لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، «والمثلى» تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ﴾ تصريح بالمطلوب أي إذا كان الأمر كذلك، فأزمعوا كيدكم، واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف واحد منكم ﴿ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ ﴾ أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ أي قد فاز بالمطلوب من غلب، قالوه حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة، للانتصار على موسى.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ الفاء فصيحة، معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء، أي فألقوا فإذا حبالهم تتحرك وتسعى على بطونها، حتى يظنها موسى من عظمة السحر، أنها حيات تسعى، وإنما خيَّروه ببدئهم أو بدئه، لثقتهم بالغلبة عليه، لأنهم كانوا قد بَرَعُوا ومَهَروا في السحر.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ الإيجاس: استشعارُ الخوف، أي وجد في نفسه خوفاً، بمقتضى الطبيعة البشرية، المجبولة على النفرة من الحيات.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي لا تخف مما توهمت ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي فإنك أنت المنتصر الغالب.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ أي ألق عصاك التي بيمينك، وإنما أوثر الإبهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصيّ المعهودة ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ ﴾ بالجزم جواباً للأمر أي تبتلع ما صنعوه من السحر، من لَقفه إذا ابتلعه بسرعة، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير،

والعربُ تقول في الكذب: هو كلام مصنوع ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي إنما افتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس، لأن السحر صنعة خسيسة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي حيث كان، وأين أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي فخروا سجداً لله رب العالمين حين رأوا تلك الآية الباهرة، وأشهروا إيمانهم بالله.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن أسمح لكم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، فلذلك غلبكم، فهذه شبهةٌ زوّرها اللعين، وألقاها على قومه، لمّا اعتراه الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها، وإيثار كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ﴾ يريد فرعون نفسه، وربَّ موسى الذي آمنوا به ﴿عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم، فإن قيل: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية، كيف يعقل أن يهدد السحرة؟ قلنا: إنه كان في أشد الخوف في قلبه، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة تمشية لملكه، وترويجاً لأمره، فإن كثيراً من العجزة، قد يفعل أمثال هذه التهديدات الفارغة.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من المعجزات الظاهرة، فإن ما ظهر من العصا، كان مشتملاً على معجزات جمة، فإنهم عارفون بجلائلها ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي لن نؤثرك وحقِّ الذي فطرنا، وهو قسم بعزة الله وجلاله ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده أي فاصنع ما أنت صانعه بنا ﴿إِنَّمَا تَقْضِى﴾ تعليل لعدم المبالاة بوعيده، أي إنما ينفذ حكمك في ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وهي فانية زائلة، ورغبتنا في النعيم الدائم.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه، بإكراهك لنا، وحشرنا من المدائن القاصية ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي في حد ذاته ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي جزاءً وثواباً، وهذا جواب لقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر أو المعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى، وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿قَدْ

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في الدنيا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات ﴿ لَهُمُ ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان، المجرد عن العمل الصالح، في استتباع الثواب، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة، هو الفوز بالدرجات العلى، لا بالثواب مطلقاً، وهل التَّشاجرُ إلا فيه، فسائر الدرجات لا بد أن تكون لغيرهم من أهل الإيمان.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من الدرجات ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين في الجنان على الدوام ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أوتي لهم ﴿ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي، بالإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى، وقيل: هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ طوى في البين ذكر ما جرى عليهم، من الآيات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، بعد ما غلب السحرة في نحو من عشرين سنة، حسبما فصّل في سورة الأعراف ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ والتعبير عنهم بكونهم عباداً له تعالى، لإظهار الرحمة، والاعتناء بأمرهم، أي وبالله لقد أوحينا إليه أن أسر بعبادي من مصر ليلاً ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ ﴾ أي فاتخذ لهم ﴿ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أي يابساً مصدر وصف به الفاعل للمبالغة، أي يابساً ليس فيه ماء ولا طين ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أي آمنا من أن

يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق، وتقديم نفي الخوف، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه، حيث قالوا إنَّا لمدركون[1] .

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي تبعهم بجنوده، روي أن موسى خرج بهم أول الليلة، فأخبر فرعونُ بذلك، فأتبعهم بعساكره، فلحقهم بحيث تراءى الجمعان، وقال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كالطود العظيم، فَعَبر موسى بمن معه سالمين، وتَبِعهم فرعون مع جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدرُه، وهو من جوامع الكلم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أدَّاهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي وما أرشدهم قط، ولا هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله الفاجر: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن قيل: كيف اختار فرعون إلقاء نفسه وعسكره إلى التهلكة؟ قيل: إن جبريل عليه السلام كان على فرس، فتبعه فرس فرعون، وهذا بعيدٌ لأن المَلك لا يخوض في أمثال هذه المواضع، بل الأولى أن يُقال: غلب على ظنه السلامة، فأمر بالدخول في البحر.

---

(١) فإن قيل: الخوف والخشية مترادفان، فلماذا غاير بينهما؟ فالجواب: إن ذلك للبلاغة، ولمراعاة رؤوس الآيات.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى به، بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم، وإفاضة فنون النعم الدينية والدنيوية عليهم أي قلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ فرعون وقومه ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ أي واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانبه الأيمن لمناجاة موسى، وإنزال التوراة عليه، وإنما نسبت المواعدة إليهم وهي لموسى، نظراً إلى سراية منافعها إليهم ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ وقلنا لهم.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ وفي البدء بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية، من حسن النظم، ولطف الترتيب، ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حدَّ الله لكم فيه ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ ﴾ أي فيلزمكم عذابي، ويحلُّ عليكم سخطي ﴿ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ أي تردَّىٰ وهلك وشقى الشقاء الدائم.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ ﴾ من الشرك والطغيان ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أي عملاً مستقيماً موافقاً للشرع والعقل ﴿ ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ أي استقام على الهدى، وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان، وحثٌّ له على التوبة والإيمان، وإشارة إلى أن من لم يستقم على الهدى، فهو بمعزلٍ من الغفران، ويؤكده قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾

والتوبة، والإيمانُ، والعملُ الصالح، قد يتفق لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة عليه.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى من الكلام، عند ابتداء موافاته الميقات، بموجب المواعدة المذكورة أي وقلنا له: أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك؟ أي عن السبعين الذين اختارهم، وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء، لما في ذلك من إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم ولذلك أجاب عليه السلام، بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب، حيث قال:

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ يعني أنهم معي وخلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ أي وتعجلت إلى الموضع الذي أمرتني به، لترضى عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، والعجلة مذمومة إلا أنها ممدوحة في الدين، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل، من بعد ذهابك من بينهم، وهم الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ باتخاذ العجل، والدعاء إلى عبادته، وهو منسوب إلى قبيلة يقال لها السامرة، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف، وما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ ﴾ أي شديد الغضب عليهم ﴿ أَسِفًاۚ ﴾ أي حزيناً بما فعلوا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ﴾؟ بأن يُعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾؟ أي زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه؟ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؟ من مالك أمركم على الإطلاق، ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ أي وعدي بالثبات على ما أمرتكم به، إلى أن أرجع من الميقات.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ أي ما أخلفنا وعدنا إياك ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ أي بإرادتنا واختيارنا بأن ملكنا أمورنا، يعنون أنا لو خُلّينا وأمورنا، ولم يسوّل لنا السامريُّ ما سوّله لما أخلفناه، فقد كنا مكرَهين، والمرء إذا وقع في فتنة لم يملك نفسه ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ ﴾ اعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ﴿ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط، التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر، وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها عند الخروج، ولعل تسميتهم لها أوزاراً، لأنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا في حكم المستأمنين، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحلُّ حينئذٍ ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ أي في النار رجاء، للخلاص عن ذنبها ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ أي ما كان منها معه، روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت، قال لهم السامري: إنما أخلف

موسى ميعادكم لما معكم من حليّ القوم، وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفرة، ونسجر فيها ناراً، ونقذف كلَّ ما معنا فيها ففعلوا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمْ﴾ أي للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ من تلك الحلي المذابة ﴿جَسَدًا﴾ من ذهب لا روح له ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صوت عجل، لأنه جعل فيه منافذ ومخاريق، بحيث إذا دخل فيه الريح، صوّت كصوت العجل ﴿فَقَالُوا۟﴾ يعني السامري ومن افتُتن به أول ما رآه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي غفل عنه، وذهب يطلبه في الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها، لا من جهة القائلين، وإلا لقيل فأخرج لنا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ إنكار وتقبيح، من جهته تعالى، لحال الضالين والمضلين جميعاً، فيما أقاموا عليه من المنكر، الذي لا يشتبه بطلانه على أحد، والفاء للعطف على مقدر، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي كلاماً، ولا يردّ عليهم جواباً، فكيف يتوهمون أنه إله؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فإن قيل: كيف يعقل رجوع ستمائة ألف إنسان عن دين الحق دفعة، إلى عبادة العجل، الذي يُعرف فسادها بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع رجعوا برؤية موسى عليه السلام وحده؟ قلت: هذا غير ممتنع في حقّ البُله من الناس، وهؤلاء لا يعرفون الدين، وإنما أفكارهم وآمالهم منحصرة في المنفعة الدنيوية، فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً، والتقم كل ما جَمَعه السحرة، ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السحرة بأن

ذلك ليس بسحر، ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم انفلاق البحر، ثم أنجاهم الله من الغرق، وأهلك أعداءهم، ثم إن هؤلاء لما خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون البقر، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفنتم نبيَّكم حتى اختلفتم؟ فقال: «اختلفنا عنه، وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفَّتْ أقدامكم من ماء البحر، حتى قلتم لنبيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» وذلك يدل على شكهم وضلالهم في الدين.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ ﴾ جملة قسمية، مؤكدة لما قبلها من الإنكار، ببيان عتوّهم، واستعصائهم على الرسول، إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي وبالله لقد نصح هارون نبيهم، على كنه الأمر وحذَّرهم من ضلال السامري ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي قال لهم يا قوم إنما ابتليتم بالعجل وفتنكم به السامري، فألقى بكم في الفتنة لا الإرشاد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا العجل، فاقتدُوا بي وأطيعوا أمري، إرشاد لهم على الحق، إثر زجرهم عن الباطل، والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أي فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ هذا واتركوا عبادة العجل، وإنما قال هارون عليه السلام ذلك، لأنه كان مأموراً بالنهي عن المنكر، فقابلوا هذه النصيحة بالسَّفه.

﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿ عَٰكِفِينَ ﴾ أي مقيمين ملازمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ جعلوا رجوعه غاية لعكوفهم بطريق

التسويف، ولما قالوه اعتزلهم هارون مع الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون، أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ ﴾ وهو مغتاظ ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ ﴾ أي أيَّ شيءٍ منعك، حين رأيتَ ضلالهم، من أن تتبعني، في الغضب لله تعالى، ومقاتلة من كفر به؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾؟ بالصلابة في الدين، وبالقيام لمصالحهم.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ خصَّ الإضافة بالأم، استعطافاً وترقيقاً لقلبه، أي يا أخي ويا بن أمي ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ ﴾ أي ولا بشعر رأسي، وكان موسى عليه السلام شديداً، متصلباً في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ أي إني خفتُ إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم، فيسفكوا الدماء ويقتل بعضهم بعضاً وكما خشيت لو قاتلتُ بعضهم ببعض، وتفرَّقوا ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي أشعلت الفتنة بينهم، وأراد عليه السلام بالتفريق، ما يستتبعه القتال من التفريق بين صفوف بني إسرائيل، وتمزيق وحدتهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أي وتقول: لم تنتظر أمري فيهم، يعني إني رأيتُ أن الإصلاح في حفظ الدماء، والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتدارك للأمر،

لا سيما وقد كانوا في القوة، ونحن على القلة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد، فلمَّا فرغ من مخاطبة هارون، وعرف العذر، أقبل على السامري.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾؟ أي ما مطلوبك مما فعلت؟ وما الذي حملك على ذلك؟ خاطبه بذلك، ليظهر للناس بطلانَ كيده، باعترافه.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي السامري مجيباً له ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ القبضةُ: المرَّةُ من القبض، أي قبضت حفنةً من التراب، من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار. وعامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول «جبريل» عليه السلام، وروي أنه كان رأى أن جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، إلى موسى، ليذهب به إلى الطور، وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه، يخرج من تحته النبات، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطىء قدم الفرس، حفنةً من التراب ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي في الحلي المذابة، فكان ما كان ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أي زينته وحسَّنته لي نفسي، فاتبعت هواي، لا لشيء آخر من البرهان العقلي، أو الإلهام الإلهي.

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للسامري ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي ثابت لك في الحياة ما عشت، عقوبةً على ما فعلت ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي لا يمسُّني أحد ولا أمسُّه، وذلك أنه تعالى، رماه بداءٍ عقام، لا يكاد يمسُّ أحداً، أو يمسه إلاَّ حمَّ من ساعته، حمى شديدةً، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس وحُرِم من المكالمة والمعاملة مع الناس، وصار أوحش من القاتل، ومن الوحش النافر ولعلَّ السر بتلك العقوبة، أنه لما أنشأ الفتنة، لجمع الناس عليها، وإبعادهم عن دين الله، عوقب بما يضاده، من العزلة عن الناس، وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام قال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً إلى البراري، وهذا أحسن وأقرب إلى النظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي دمت على عبادته مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لنذرينه رماداً ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي في البحر كأنه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عينٌ، ولا أثر، ولقد فعل ذلك كلَّه، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به، تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في الوعد، المؤكد باليمين، فلمَّا فرغ عليه السلام من أمر العجل، رجع إلى بيان الدين الحق، فقال مخاطباً لبني إسرائيل:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحقُّ للعبادة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم وبه تم حديث موسى عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ إشارة إلى حديث موسى، أي مثل ذلك الاقتصاص البديع نقصُّ عليك ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية، تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي كتاباً مذكّراً، منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار، وتنكيرُ ﴿ذِكْرًا﴾ للتفخيم.

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الذكر العظيم، المستتبع لسعادة الدارين، وأعرض عن الله عز وجل ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ أي عقوبة ثقيلة فادحة، على كفره وذنوبه، سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، بالحمل الذي يُفدح الحامل، وينقض ظهره.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ ﴾ أي خالدين في ذلك العذاب، بسبب الوزر الذي حملوه ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أي بئس لهم حملاً وزرهم.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم يُنفخ في الصور ﴿ زُرْقًا ﴾ أي حال كونهم زرق العيون وسود الوجوه، وإنما جُعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العيون وأبغضها إلى العرب، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسودُ الكبد، وأزرق العين.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة، لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي عشر ليال في الدنيا، استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لمَّا عاينوا الشدائد.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ أي يسألونك عن مآل أمرها يوم القيامة وقيل: لم يُسأل وتقديره: إن سألوك، ولذا قُرن بالفاء ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي يدعها ﴿ قَاعًا ﴾ خالياً ﴿ صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ مستوياً كأنها على صف واحد والقاع: المستوي من الأرض.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا ﴾ أي في الأرض، والخطاب لكل أحد ﴿ عِوَجًا ﴾ أي اعوجاج ما ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي ارتفاعاً، والأمتُ المكان المرتفع، وقيل: النتوء اليسير.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ أي يتبع الناس الداعي إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس عند النفخة الثانية، ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، قومي إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه بل يستوون إليه ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ أي خضعت ﴿ الْأَصْوَاتُ ﴾ هيبة ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي لا تسمع إلاّ صوتاً خفياً والهمس: أخفى الصوت.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قول الشافع في شأنه، وأما ما عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فُرض صدورها عن الشفعاء فكأنه قال تعالى: لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً مرضياً.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جلَّ وعلا.

﴿ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ أي ذلَّتْ وخضعتْ خضوع العُناة ـ وهم الأسارى ـ في يد الملك القهار، وجوه الخلائق جميعاً للواحد القهار،

وقيل: وجوه الكفار، كقوله تعالى: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: أي من أشرك، وقيل: على العموم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي بعضاً من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فالإيمان شرط في صحة الطاعات، والحسنات ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ أيّ منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ ولا كسراً منه بنقص، وأصل الهضم: النقصُ والكسر، هضمه هضماً كسره، وهضم حقه نقصه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنزال ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن كله على هذه الوتيرة، وإضماره من غير سبق ذكره، للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ يفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أي اتعاظاً واعتباراً، مؤدياً إلى الاتقاء.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ استعظام له تعالى، ولشؤونه التي يصرف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، أي ارتفع بذاته، وتنزّه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ النافذ أمره ونهيه،

الحقيق بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي يتم، وقد كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنُهي عن ذلك، وأُمر باستفاضة العلم، واستزادته منه تعالى، فقيل ﴿وَقُل﴾ أي في نفسك ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أي سل الله عزَّ وجل زيادةَ العلم، فإنه الموصل إلى طلبتك، دون الاستعجال عند تلاوة الوحي.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنف لبيان أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقه راسخ في النسيان، والمعهود محذوف، يدل عليه ما بعده، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أمرناه ووصيناه، وأوحينا إليه، بأن لا يأكل من الشجرة ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي العهد، ولم يعتن به، حتى غفل عنه، أي فأنساه الشيطان ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ أي ثبات قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك، لما أزلّه الشيطان، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، من قبل أن يُجرِّب الأمور، وقيل: ﴿عَزماً﴾ أي على الذنب، فإنه أخطأ فيكون إلى المدح أقرب.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع وتكبّر.

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾.

﴿فَقُلْنَا﴾ عقيب ذلك، تحذيراً من كيد اللعين: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيت ما فعل ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي لا يكونَنَّ سبباً لإخراجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ جواب للنهي، أي فتشقيان وإسناد الشقاء إليه خاصة، بعد تعليق الإخراج بهما معاً، لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه شقاءها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المراد بالشقاء: التعبُ في طلب المعاش، وذلك من وظائف الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1] أي إن لك يا آدم في الجنة ألاّ ينالك ألم الجوع والعري، وألا يصيبك فيها العطشُ ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار الحبور والسرور، وهو تعليلٌ لموجب النهي، فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، ونفي نقائضها، التي هي الجوعُ، والعطشُ، والعُريُ، والضَّحْوُ أي الإبراز للشمس، للتذكير بتلك الأمور الجليلة في الجنة، والبعد عن أنواع الشقوة، التي حذَّره منها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

---

(١) هذه الآية الكريمة من أظهر الدلائل، وأوضح الوجوه على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي «جنة الخلد» وليست جنة في الدنيا، فإن وصفها بعدم الجوع، والعطش، والعُري وعدم حر الشمس، لا يكون إلا في جنة الخلد في السماء.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي أنهى إليه وسوسته، أو أسرَّها إليه ﴿ قَالَ ﴾ في وسوسته ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾؟ أي شجرة من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه، فالذي رغب الله فيه آدم، رغَّبه إبليس فيه.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما، حتى ظهرت عورتهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أي ضلَّ عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان، والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا بزلة أبيكم التي أخرجته من الجنة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر قال ابن قتيبة: يجوز أن يُقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال: خاط ثوبَه، ولا يقال هو خياط، حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عنه عليه السلام إلاّ مرةً واحدة، وإنما وقعت قبل النبوة، فلم يجز بعد أن قَبِلَ الله توبتَه، وشرَّفه الله تعالى بالنبوة هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر[1].

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

(١) هذا وجه بديع في التوجيه لمعصية آدم، وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» فقد وضحنا بالتفصيل المسألة، وبينا الوجوه الشرعية في بحث «عصمة الأنبياء».

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة، وفي التعرض لعنوان الربوبية تشريف له ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِلَ توبتَه حين تاب ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي وهداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلة: انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض أولادكم عدو لبعض في أمر المعاش والكسب، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والجمعُ لما أنهما أصل الذرية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة، فإن قيل: المتبع لهدى الله، قد يلحقه الشقاء في الدنيا؟ قلنا: المراد لا يضل في الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا مانع منه وفيه الأجر.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي أعرض عن الهدى والإيمان، واتباع الرسل الكرام ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، وذلك لأنه تعالى يسلب عنه القناعة، والتوكل، فتكون همته مقصورة، على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، فعيشته ضنكٌ وحالته مظلمة، بخلاف المؤمن القانع، المتوكل، فإنه يعيش عيشاً طيباً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الآية، ويوسع ببركة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

بَرَكاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾[1] وقيل هو عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى البصر لأنه تعامىٰ في الدنيا عن آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمَّاً﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسره بقوله: ﴿ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا ﴾ واضحة نيرة ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ فعميت عنها وتركتها ترك المنسي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل تركك إياها ﴿ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمى والعذاب جزاءً وفاقاً.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بانهماك في الشهوات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ بل كذّب بها وأعرض عنها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الإطلاق ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أشدُّ من عذاب الدنيا، وأدوم لعدم انقطاعه.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والمعنى: أفلم يبين لهم مآل

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

أمرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في مساكنهم وديارهم، أو حال كونهم ماشين في مساكنهم، إذا سافروا، مشاهدين لآثار هلاكهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يعتبروا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي إن في إهلاك هذه الأمم الباغية، وفي آثار دمارهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ كثيرة، عظيمة، واضحة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي الوعد بتأخير عذاب هذه الأمة، لحكمة تقتضيه ﴿لَكَانَ﴾ عقاب جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لهم، بحيث لا يتأخر، واللزام مصدر لازم وصف به مبالغة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أجل مسمى لهلاكهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفَصلُه عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب لولا، ولاستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فاصبر على ما يقولون من الكفر، والتكذيب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمالك، على هدايته وتوفيقه ونزهه عما ينسبونه إليه، مما يليق بشأنه الرفيع، معترفاً أنه مولى النعم كلها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي ومن ساعاته، والمراد به

(١) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخّره لتعتدل رؤوس الآيات.

المغرب والعشاء، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً﴾ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أمر بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي سبح في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى، ما ترضى به نفسك، وييسر قلبك وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ أمر الله تعالى عقيب الصبر بالتسبيح، لأن ذكر الله يفيد السلوة والراحة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم ونعذبهم في الآخرة بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادّخره لك في الآخرة، وما رزقك إياه في الدنيا، من النبوة والهدى ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه أجلُّ، ومأمون الغائلة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته بالصلاة بعد ما أمره بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ داوم عليها فإن الوعظ بالفعل، أبلغ من القول ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ

﴿رِزۡقٗاۖ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق أحداً ولا أن ترزق نفسك بل نحن نتكفل برزقك ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ وأهلك، ففرّغ بالَكَ لأمر البعثة والآخرة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي لأهل التقوى وكان النبي ﷺ إذا أصاب أهلَه ضرٌّ، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية وليس في الآية رخصة في ترك التكسب، لأنه تعالى قال في وصف المتقين ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية، حكى عن شبهتهم، فكأنه من تمام قوله تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾، فقال:

> ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، أو بآية مما اقترحوها، بلغوا من المكابرة والعناد، إلى حيث لم يعدّوا ما شاهدوا من المعجزات، التي تخر لها صمم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾؟ من أخبار الأمم، أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، عجلنا لهم العذاب، وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أم الآيات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة، اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها، إذ هو أصل الأعمال، ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين، على يد أمي لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً أصلاً، فأي معجزة بعد هذا القرآن؟.

> ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها، من كون القرآن بينة لا يمكن إنكارها، ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ مستأصل ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل إتيان البينة أو من قبله ﷺ ﴿ لَقَالُواْ ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَسُولًا ﴾ مع كتاب ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ التي جاءتنا ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيءٍ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾ أي المستقيم ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟ ليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد، والزجر للكفار، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه».

* * *

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾.

﴿ اقْتَرَبَ ﴾ أي دنا ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي المشركين، لأن ما بعده من صفاتهم ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم، والمراد باقتراب حسابهم اقتراب الساعة ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ تامة منه، ساهون عنه بالمرة، لأنهم منكرون له، مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بدَّ لها من الجزاء ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الآيات والنُّذر، والتأهب لذلك اليوم.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلة من القرآن، تذكّرهم ذلك ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة لذكر، وفيه دلالة على كمال شناعة ما فعلوا ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي إلا استمعوا القرآن حال كونهم مستهزئين به.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى، والمعنى: ما يأتيهم ذكر من ربهم في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه، لاعبين مستهزئين به، لاهين عنه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ النجوى: الكلام سراً، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلاّ سراً، أنهم بالغوا في إخفائها، بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من ضمير «أسرُّوا» منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي قالوا في التناجي: هل هذا يعنون رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؟ أي من جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾ أتحضرون ﴿السِّحْرَ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي وأنتم تعاينون أنه سحر؟ قالوه بناءً على أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق سحر، فهذا جهل لأن كل ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره، ظاهر الحال لا تمويه فيه، وأنهم قد عرفوا حاله، وعلموا صدقه، إلاّ أنهم يموّهون على ضعفائهم، بمثل هذا القول الكاذب.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما قاله ﷺ بعدما أوحى الله إليه بأحوالهم وأقوالهم، بياناً لانكشاف سرهم، أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء، يعلم قول كل قائل، سراً كان أو جهراً، وعلمه تعالى بالسرّ والجهر، على وتيرة واحدة، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملتها ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق، إلى حكاية قول آخر، أي لم يقتصروا على أن يقولوا: هل هذا إلا بشر؟ وأنه سحر؟ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ أي تخاليط الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اخترعه واختلقه من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل، ثم قالوا ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير لا يزال يتردَّد من باطل إلى أبطل ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جواب شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: إن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بآية ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد، والعصا ونحوهما، حتى نؤمن به، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم، بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر، متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم: ﴿كما أرسل الأولون﴾ من التعريض بعدم كونه ﷺ مثل أولئك الرسل ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام، كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ

وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا الواقفين على أحوال الرسل السالفة، لتزول شبهتكم، وأمَّا تعلّق بعض الفقهاء بهذه الآية، في أن العامي عليه أن يرجع إلى فتوى العلماء، فبعيدٌ، لأن هذه الآية، خطابُ مشافهةٍ، وهي واردةٌ في هذه الواقعة المخصوصة، ومتعلقة باليهود والنصارى[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ بيانٌ لكون الرسل عليهم السلام، أسوة لسائر أفراد الجنس، في أحكام الطبيعة البشرية، إثر بيان كونهم أسوة في نفس البشرية، أي وما جعلنا الأنبياء كالملائكة، أجساداً لا يأكلون ولا يشربون، بل هم كسائر البشر يمتازون عليهم بالوحي ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب، بل محتاجاً إلى ذلك ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ المراد بالخلود: المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبدية؛ وهم معتقدون أنهم لا يموتون فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسول بشراً لا مَلَكاً، مع ما في ذلك من الرد على قولهم: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾؟.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي أوحينا، إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين

---

(١) أقول: هذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى، إلا أنه يستأنس بها في أن الرجل العامي ينبغي أن يرجع إلى أهل الفقه والعلم فيما أشكل عليه من أمر الدين.

وغيرهم، ممن تستدعي الحكمة إبقاءه»، كمن سيؤمن هو، أو من سيؤمن من ذريته، وهو السرُّ في حماية العرب ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الكفر والعصيان، كقوم نوح، وعاد، وثمود.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن الكريم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيم الشأن، نيّر البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لكتاباً، أي فيه شرفكم وصيتكم، كقوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وقيل: فيه موعِظتكم، وهو الأنسب بسياق النظم وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي، فيه بعث لهم على التدبر، والتذكر في أمر الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم، أي وكثيراً من أهل القرى أهلكناهم إهلاكاً مريعاً، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر، بإبانة أجزاء المكسور، من الدلالة على شدة الغضب ما لا يخفى، بخلاف الفصم وهو كسر بلا إبانة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كثيراً قصمنا من أهل قرية، كانوا ظالمين بآيات الله، كافرين بها كدأبكم ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم، ففيه تنبيه على استئصال الأولين بالكلية.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد، إدراكاً تاماً ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون مسرعين، راكضين دوابهم من فرط الإسراع، والركضُ: ضرب الدابة بالرجل لتسرع.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم بلسان الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ﴿ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التنعُّم والتلذذ، والمترفُ: الذي أبطرته النعمة ﴿ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي لعلكم تسألون عمَّا جرى عليكم، إذا رُئيتْ مساكنكُم خالية، فتسألون أين أصحابها؟ وهذا كله من باب السخرية والتهكم بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله.

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ لمَّا يئسوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، ومذمَّةٌ عليه حين لم ينفعهم الندم.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي فما زالوا يردِّدون ذلك، وسميت دعوى لأنهم يدعون على أنفسهم بالويل ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي مثل الحصيد، وهو المحصودُ من الزرع ولذلك لم يجمع ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ أي ميتين من خمدت النار، إذا طُفئت، وخَمَد الرجل: أي مات.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على الحكم البالغة، المستتبعة للغاية الجليلة، أي وما خلقنا الوجود وما فيه، من سماوات وأرضين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسهم، على هذا النمط البديع، خالية عن الحِكم والمصالح ﴿ لَٰعِبِينَ ﴾ أي عبثاً وباطلاً، وإنما عبَّر عن ذلك باللعب، لكمال نزاهته تعالى عن الخلق، الخالي عن الحكمة، بل إنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار، وتذكرة لذوي الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1].

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ يتلهى به ويُلعب. ﴿ لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ أي من جهة قدرتنا، مما يليق بشأننا من الحور العين أو الملائكة، لا من الأجسام المرفوعة، والأجرام الموضوعة، كديدن الجبابرة، في رفع العروش، وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها، لكن تستحيل إرادتنا له، لمنافاته الحكمة، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لأتخذناه.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو، كأنه قيل: لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الساطع، على الباطل المتزعزع ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ أي فيمحقه بالكليَّة، كما فعلنا بأهل القرى الظالمة، وقد استعير لإيراد

---

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

الحق على الباطل، القذفُ الذي هو الرمي الشديدُ، بالجرم الصلب، ولمحقه للباطل بالدفع الذي هو كسر الدماغ، دَمَغَه إذا كسر عظم دماغه، وهو المؤدّي إلى زهوق الروح[1] ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد لكفرة قريش، أي واستقر لكم الويل والهلاك، من أجل وصفكم له سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياءً وإماتة، من غير أن يكون لأحدٍ في ذلك دخل ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ منزلة ومكانة وهم الملائكة بإجماع الأمة، عبَّر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم منزلة المقربين عند الملوك، بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون فيها، وصيغة الاستقبال للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها، حقيقة بأن تستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات، فهم في عبادة دائمة في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يتخلَّلُ تسبيحَهم فتورٌ أصلاً، بفراغ أو بشغل آخر، وتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا.

---

(١) شبَّه الحقَّ بشيء صلب، والباطل بشيء هشٍّ رخوٍ، واستعار لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل، فكأنه رمى بشيء صلب على رأس دماغ الباطل، فشقَّه وحطَّمه، ولم يُبق له أثراً؛ ففي الآية استعارة تمثيلية من روائع أساليب البيان.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ توبيخ آخر للمشركين، وتسفيه لأحلامهم في عبادة غير الله، من حجارة صماء بكماء، لا تستطيع خلْقَ شيء، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة؟ ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من مواد الأرض، كالذهب، والفضة، والحجر، والخشب، وتعبد في الأرض؟ ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي هم يبعثون الموتى مع حقارتهم وجماديتهم؟ كلاّ فإن ما اتخذوها آلهة، بمعزل من ذلك، لا تتصف بالقدرة على شيء، فهي ليست بآلهة على الحقيقة، لأن من صفات الإله الحق القدرةُ على الإحياء والإماتة، والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ إبطال لتعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، أي لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدَّم قطعاً، بيان الملازمة أن الإلّهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمَّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمَّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلّهية قطعاً[1] ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نزِّهوه سبحانه

---

(١) توضيح ذلك أنّا لو فرضنا وجود إلهين في الكون، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإمَّا أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأول الذي تنفذ إرادته، هو الإله الحقيقي القادر، والثاني هو العاجز الذي لا يقدر على شيء، فلا يصلح أن يكون إلهاً، ولو كان =

عما لا يليق به من الأمور ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكدة لتنزهه عز وجل أي خالق العرش العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي فسبحوه عما يصف به أهل الجهل والإلحاد، من وجود آلهة معه، أو نسبة الزوجة له والولد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بيان أنه تعالى لعظمته، ليس لأحد من مخلوقاته، أن يناقشه ويسأله عما يفعل، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه لاستُقبح ذلك منه، وعُدَّ سفهاً، فمن هو مالك الملك الحقيقي، وفعلُه صواب كلّه، أولى بأن لا يُعترض عليه، فلا يملك أحد أن يقول ياربِّ لمَ فعلتَ ذلك؟ ﴿وَهُمْ﴾ العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً أو قطميراً، لأنهم عبيد له تعالى.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية، ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الاشتراك ﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقولٍ لا دليل عليه، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير، وفي ذكر البرهان ضرب من التهكم بهم ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا الوحيُ، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمتي، أي

= في الوجود غير الله سبحانه، لفسد نظام الكون، لما يقع بين الآلهة من التنازع والتصادم، كما لا يصح أن يكون في بلدٍ واحد مَلِكان، ولا في إدارة واحدة رئيسان، إنما يمكن أن يكون رئيس ونائبه، ورئيس جمهورية ونائبه.

عظتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمته، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وانظروا هل في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم، متضمنٌ لإثبات نقيض مدّعاهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ انتقال من الأمر بتبكيتهم، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة، بإظهار حقية الحق، فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ أي مستمرون عن الإعراض عن التوحيد، واتباع الرسول ﷺ، لا يرعوون عما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرر من كون التوحيد، ممَّا نطقت به الكتب الإلَهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام، أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل، إلاَّ أوحينا إليه، أنه لا إله ولا معبود بحق، إلاَّ الله رب العالمين، فخصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا معه أحداً.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين وهم حي من خزاعة، يقولون: الملائكة بناتُ الله، وأضافوا إلى ذلك هذه الفرية، أنه تعالى صاهر الجنَّ، على ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾[1] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه بالذات تنزهه اللائق به ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا،

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٥٨.

بل هم عبادٌ له تعالى ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ مقرَّبون عنده، وليسوا بأولاد، إذِ العبوديةُ تنافي الولادةَ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يسبقُ قولهُم قولَه تعالى، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، الذين لا يفعلون شيئاً بدون إذن ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لتبعيَّتهم له تعالى في الأعمال، كأنه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ولعلمهم بإحاطته تعالى، بما قدَّموا وأخروا، من الأقوال والأعمال، لايزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقدِمون على قول، أو عمل، بغير أمره تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابةً منه تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لمن رضي الله تعالى عنه، من أهل التوحيد ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون حذرون والإشفاقُ: الخوفُ مع الاعتناء، أشفقت من كذا: حذرتُ وخفت منه، وأشفقتُ على الصغير: حنوتُ وعطفت عليه.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ متجاوزاً إياه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي فُرض قوله، وهو فرضٌ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر

المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذُكر من صفاتهم السنيّة، وأفعالهم المرضية، وفيه الدلالة على عزة جبروته تعالى، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء، نجزي من ظلم بالإشراك بالله، وتعدَّى الحدود.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ استفهام توبيخ لهم، بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية، والهمزة للإنكار، والرؤيةُ قلبية، أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ الرتق الضم والالتحام، أي كانتا ذواتا رتق، وكانتا شيئاً واحداً، والرَّتْقُ: ضدُّ الفَتْق قال ابن عباس: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات[1] ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي فصلنا بينهما بالتنويع والتمييز، وتلاصق الأرض بالسماء، وتباينهما جائزان في العقل، فالفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر قديم، ولا شك أنه هو الله العلي الكبير، وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى البحث العلمي في مجال الكون الفسيح، ليستدل الإنسان على قدرة الله الباهرة في مخلوقاته. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي وجعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً للحياة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٤٨/٥ أقول: هذا القول لابن عباس جميل، ولا ينافي ما يقوله علماء الطبيعة أن الأرض والمجموعة الشمسية، كانت قطعة واحدة، فانفصلت الأرض عن المجموعة الشمسية، وتبردت قشرتها فظهرت فيها البحار والأنهار، ويستدلون على صحة ذلك، بما في باطن الأرض من مواد ملتهبة، تقذف بين حين وآخر بالحمم والغازات والبراكين الثائرة، بل في هذا القول سبق علمي للقرآن الكريم كالذي أخبر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، عن التصاق الأرض بالسماوات وبالمجموعة الشمسية.

للإنسان، والنبات والحيوان، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾[1] أي من نطفة ويدخل في ذكر الماء النباتات والأشجار، لأن الماء من أعظم موادها ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار بعدم إيمانهم لله وحده، مع ظهور ما يوجبه من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تميل بهم وتضطرب بالبشر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ أي مسالك واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ﴿سُبُلًا﴾ وإنما قدم «فجاجاً» مع أنه وصفٌ، ليفيد أنه تعالى خلقها، ووسّعها للسابلة، مع ما فيه من التأكيد ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم ومهماتهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من استراق السمع بالشهب كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[2] ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبرون فيها، فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) سورة النور، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحِجْر، آية: ١٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ بيان لبعض الآيات الكونية، أي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمرَ ليكون سراج الليل ﴿كُلٌّ﴾ أي كل من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار ﴿فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ أي يَجْرون ويسيرون بسرعة، كالسابح في الماء، والفَلَكُ: مدارُ النجوم، وهو في كلام العرب كلُّ شيء مستدير، وجمعه أفلاك، واختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، والحقُّ أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السماوات إلاَّ بالخبر القاطع.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ أي الدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التشريعية ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ كأنه قيل: أفإن متَّ أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟.

﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةًۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أي ذائقة مرارة الموت ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ الخطاب للناس كافة، أي نُعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ بالبلايا والنعم ﴿فِتۡنَةًۖ﴾ أي ابتلاءً مصدر مؤكِّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو وعدٌ ووعيدٌ.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك الكفرة المجرمون ما يتخذونك يا محمد إلا مهزوءاً به، كأنه قيل ما يفعلون بك إلا الهزء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي يقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء؟ وإنما أطلقه لدلالة الحال، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعيبون الرسول أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم كافرون، فهم أحقّاءُ بالعيبِ والإنكار، وأن يُهزأ بهم، وتكرار الضمير (هم) للتأكيد.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جُعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، على سبيل المبالغة، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق الرديئة، وقلة الصبر بالمخلوق من العجلة، ومن عجلته استعجاله بالوعيد، كقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[1] الآية ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ تلوين للخطاب بطريق التهديد والوعيد، أي سأريكم نقماتي في الدنيا وعذابي في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تتعجلوا الشيء قبل أوانه، فإن كل ما هو آت قريب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى وقت مجيء الساعة، التي كانوا يوعدون؟ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستهزاء، لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين، الذين كانوا يتلون الآيات الكريمة، المنبئة عن مجيء الساعة،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

وجوابُ الشرط محذوف بدلالة ما قبله، كأنه قيل: فلتأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ استئناف مسوقٌ لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وهو الذي هوّنه عندهم ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي لو عرفوا فظاعة العذاب الذي يستعجلونه، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما استعجلوا الوعيد[١]، وذلك حين تحيط بهم النار من كل جانب ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ أي بل تأتيهم القيامة والساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي فتغلبهم وتدهشهم أو تحيّرهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ عنهم بالكلية ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

---

(١) جواب «لو» محذوف لأنه أبلغ في التهديد والوعيد، أي لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيلقونه من أنواع الكرب والعذاب، لما استعجلوا نزوله، ولكنهم سفهاء جهلة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية للرسول ﷺ عن استهزائهم في ضمن الاستعجال، وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها، أي وبالله لقد استهزئ برسل كرام، ذوي عدد كثير من قبلك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ونزل وحلَّ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر ﴿ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي فنزل بهم جزاء استهزائهم، وجنوا ثمرة استهزائهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ خطاب للرسول ﷺ، إثر تسليته بما ذُكر، وأمرٌ له بأن يقول لأولئك المستهزئين أي من يحفظكم بالليل والنهار ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي من بأسه إن أراده بكم، وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته: إلى أين مفرك؟ هل لك محيص؟ يُقال: كَلأَه اللهُ كلاءَة: حفظه ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي لا يُخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم معوّلون عليها، واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى الآلهة، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم؟ من الدلالة على سقوطها، عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي هم لا يستطيعون

أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتصور أن ينصروا غيرهم؟ وحمايةُ النفس أولى من حماية الغير.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهّموا، ببيان أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا، وأمهلهم حتى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وما حملهم على الإعراض، إلا الاغترار بطول المهلة، فنسوا عهدنا وجهلوا نعمتنا واغتروا، ولذلك عقبه بما يدل على أنه طمع فارغ، حيث قال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بموت أهلها وغلبة المسلمين عليهم، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا؟ وهو تمثيل لما يُجْريه اللهُ عزَّ وجل من ديارهم، على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى ديار الإسلام، فما هو حول مكة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾؟ عليه ﷺ والمؤمنين؟ كأنه قيل أبعد ظهور ما ذُكر، ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم؟ إن كل ذلك من العِبَر، التي لو استعملوا عقولهم، لأعرضوا عن جهلهم، وتزينوا بزينة الإسلام والمسلمين.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم ﴾ أي إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بِٱلْوَحْىِ ﴾ الصادق، الناطق بإتيانها، أي إنما شأني أن أنذركم، بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنها مزاحم للحكمة التكوينية والشرعية ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أمر ﷺ بأن يقول لهم ذلك، توبيخاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، أي ولكنكم أيها المشركون ـ لشدة

جهلكم وعنادكم ـ كالصُمِّ الذين يسمعون الكلام والإنذار[1]، فلا يتعظون ولا ينزجرون.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء يسير خفيف، مما أُنذروا به من عذاب الله، ولو كان أدنى شيء من العذاب، كالهبَّة، والنَّسْمة، واللَّفحة ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليقولنَّ معترفين بجريمتهم: يا هلاكنا ودمارنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله، وفي الآية إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة، لا ينتبهون حتى يمسهم أثر من آثار عذاب الله، فينادون عند ذلك بالويل والثبور.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي نقيم الموازين العادلة، التي توزن بها صحائف الأعمال ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي كانوا يستعجلونها ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئًا﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة، فإن حبة الخردل مثَلٌ في الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرنا ذلك المثقال للوزن ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، والغرضُ منه

---

(١) شبههم تعالى بالصم ـ أي الطرش ـ وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما ينذرون به من آيات الله الجليلة، لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم كحال الذين عدموا السماع، فلا يستمعون ولا يعون.

التحذيرُ، فإن المحاسب إذا كان في العلم، بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر، أي وبالله لقد آتيناهما كتاباً، جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل، وذكراً يتعظ به الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي عذابه، صفة مادحة للمتقين ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي يخشون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم، وقيل: يخافونه في الخلوات، وهذا هو الأقرب ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون منها وتخصيص إشفاقهم من الساعة للإيذان بهولها وشدتها.

﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَهَـٰذَا ﴾ القرآن الكريم ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير الخيرات، غزير النفع ﴿ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ على الرسول ﷺ ﴿ أَفَأَنتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إنكارٌ لإنكارهم، كأنه قيل: أبعد ما علمتم أن شأنه كشأن التوراة، منزل من عند الله، أنتم منكرون؟ فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه، كيف يمكنكم إنكاره؟

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكرام، المستند إلى الهداية الخاصة، الحاصلة بالوحي، والاقتدار على إصلاح الأمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه من الوحي والفضل.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ أي اذكر وقت قوله لهم ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ لتقف على كمال رشده، والتمثال: الصورةُ المصوّرة، وهذا تجاهل منه عليه السلام، كأنه لا يعرف أنها حجر أو شجر، اتخذوها معبوداً؟ وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف قصداً إلى تحقيرها، وتوبيخاً لهم على إجلالها ومعنى ﴿عَاكِفُونَ﴾ أي مقيمون على عبادتها.

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ أجابوا بذلك، لمّا لم يكن لهم حجة، فالتجأوا إلى التقليد لآبائهم الضالين، ولهذا أبطله بطريق القسم المؤكد حيث قال:

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عجيب ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر بيّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك، فالباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ لما سمعوا مقالته، استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً، وتعجباً من تضليله إياهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالجِدِّ والصِّدق ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾؟ أو تقوله على وجه المزاح؟ ظنوا أن ما قاله لهم على وجه المداعبة.

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبيناً عقيدة التوحيد ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ وصفه تعالى بإيجادهن تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن، من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم، وما تعبدونه ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ الذي ذكرته، من كون ربكم رب السماوات والأرض فقط، دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وإنما قاله سراً، وقيل سمعه رجل ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أي قطعاً وحُطاماً، من الجذِّ الذي هو القطع، روي أن قومه خرجوا به في يوم عيد لهم، فبدؤوا ببيت الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفاً، وثمة صنم عظيم من ذهب، وفي عينيه جوهرتان، تضيئان

بالليل، فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً، وقالوا إلى أن نرجع تكون الإلٓهة قد باركت على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فكسر الكلَّ بفأس، ولم يبق إلا الكبير، وعلّق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إليه فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود، أن يُرجع إليه في الملمّات.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ على طريقة الإنكار والتشنيع ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟ لجرأته على إهانتها وتحطيمها.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يعيبهم، فلعله فعل ذلك بها ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم، وكانوا قد سمعوا ما يقول في آلهتهم، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام ﴿ما هذه التماثيل﴾ لكفى ذلك إهانة لها!!.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي السائلون ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم، بحيث لا يخفى على أحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أتوا به، ثم قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ مخاطبتهم إياه، للتنبيه على أن إتيانهم به عليه السلام أمر محقق، فهو المتهمُ الأوحد، الذي لا يجرؤ أحد غيره على تكسير الأصنام.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي حطَّمها وهشّمها هذا الصنم الكبير، مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك عليه السلام معهم مسلكاً تعريضياً، يؤديه إلى مقصده، الذي هو إلزامهم الحجة، على ألطف وجه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها، مع ما فيه من التوقي من الكذب، والغرضُ تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وإنما لم يقل: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي راجعوا عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بعبادة الأصنام، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بالباطل، بعدما استقاموا بالمراجعة، وقد أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة فأخذوا في المكابرة، أي انقلبوا في الحجة، واحتجوا على إبراهيم، بما هو الحجة له عليهم[1]، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي واللهِ لقد علمتَ أن ليس من شأنهم النطق، فكيف نسألهم؟

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبكِّتاً لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا ﴾ من النفع ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إن تركتم عبادته، وتتركون عبادة الواحد الأحد!؟.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ أي تبّاً لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تضَجُّر من إصرارهم على الباطل، وأنكر عبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنها جمادات ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أليس لكم عقل تعقلون قبح صنيعكم؟ فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب.

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

---

(١) شبّه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخصٍ في صورته وشكله، بحيث تصبح رجلاه إلى الأعلى ورأسُه إلى الأسفل، فكيف يمشي على رجليه، وكيف يفكّر بعقله؟ وإنه لتمثيل رائع بادي الحسن والجمال.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي للنصر، ولما عجزوا عن المحاجة قالوا ذلك، وهكذا ديدن المبطل المحجوج، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه، حبسوه في بيت، وبنوا له حظيرةً بكوثى، قرية من قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[1] ثم جمعوا له الحطب، فأوقدوا ناراً عظيمة، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهي في أقصى الجو، فتحترق من شدة وهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلما أرادوا أن يلقوه، لم يعلموا كيف يلقونه، صنع لهم رجل المنجنيق، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فقيَّدوه ووضعوه في المنجنيق، مقيداً ومغلولاً، فرموا به فيها، فجعل الله عزَّ وجلَّ النار روضة عليه، وبستاناً يتنعم فيه فذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي أبردي برداً غير ضار، ولم تحرق النارُ إلاّ وثاقه[2]، وقيل: كانت النار على حالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها، كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم.

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) فإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟ الجواب: أن خطاب التكوين لا يختص بمن يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿يا جبالُ أوِّبي معهُ والطَّيرَ﴾ وقوله: ﴿يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقلِعي﴾ فهذا خطاب التكوين لا يختص بالعقلاء ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أما خطاب التكليف فهذا الذي يشترط فيه العقل ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وهذا خلاصة القول بين الخطاب التكويني والخطاب التكليفي.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، روي أنه آمن لإبراهيم عليه السلام رجالٌ من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، وآمنتْ به سارة، وتبعه «لوط» وكان ابن أخيه، فخرج مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط، وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها فقدم مصر، ثم خرج فنزل أرض فلسطين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي عطيةً وهبةً زيادة على ما سأل، وهو يعقوب عليه السلام ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملين، عابدين، صالحين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ليحثوهم عليه، فيتم كمالهم، بانضمام العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام، دلالة على

فضله أي أمرناهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ موحِّدين، مخلصين في العبادة.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤)﴾.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمةً ونبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام من الوحي ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني اللواطة، وصفت بصفة أهلها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ تعليل له، أي أشراراً، خارجين عن الطاعة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله على قومه بالهلاك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاءه الذي من جملته قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان، وأصل الكرب: الغمُّ الشديد.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي نصرناه ومنعناه من شر قومه المكذبين الضالين، فنجيناه وأهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليل لما قبله ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين، تكذيب الحق، والانهماك في الشر، فإنهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ تفرقت وانتشرت، النفشُ: أن تنتشر الغنمُ بالليل، ترعى بلا راع ﴿ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ ليلاً بلا راعٍ، فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحكم الحاكمين ﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ أي حاضرين إذ كان بعلمنا، ولا يخفى علينا.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الضمير للحكومة أو الفتيا، رُوي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً، فأفسدته فلم تبقِ منه شيئاً، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرَّا على سليمان، وهو ابن عشر سنين، فأخبراه بذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمعه داود فدعاه، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض، لينتفع بدرِّها ونسلها، وتدفع الحرث إلى أرباب الغنم، ليقوم عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادَّا، فقال: القضاء ما قضيت الحكم بذلك، وكان هذا في شريعتهم، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود حكماً، والصلح خير.. وفي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا

﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ دليل على رجحان قوله، ورجوع داود إليه، مع أن الحكم المبنيَّ على الاجتهاد، لا ينقض باجتهاد آخر، وإن كان أقوى منه وقال قوم: إن داود وسليمان عليهما السلام حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، ومن غرائب أحكام داود وسليمان عليهما السلام، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك اللهُ، هو ابنها، فقضى به للصغرى»[1] ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي كل واحدٍ منهما آتينا حكماً وعلماً كثيراً، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد، لا يقدح في كونه مجتهداً، روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[2] ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يخص بكل منهما من إكراماته تعالى، إثر بيان إكراماته العامة لهما ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ أي يقدِّسن الله معه، بصوت يتمثل له ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ أي والطير مسخرات له ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كان بديعاً عندكم.

> ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾.

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ أي وعلمنا داود صنع الدروع بإلانة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٢/٥٥ ومسلم رقم ١٧٢٠ في الأقضية.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/٣١٨ ومسلم رقم ١٧١٦ في الأقضية.

الحديد له، وهو أول من صنعها، واتَّخذها حِلَقاً، وكانت من قبل صفائح ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾ أي لتقيكم ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ أي في الحرب حين قتال الأعداء ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾؟ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام للمبالغة، أي اشكروا الله على ذلك.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة ﴿عَاصِفَةٗ﴾ أي شديدة الهبوب ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسليمان وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدر، وما يكون فيها من نفائسها ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي غير ما ذُكر كبناء المدن، والقصور، واختراع الصنائع النفيسة لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَه مَا يَشَاءُ مِنْ مَحارِيبَ وتَمَاثِيلَ﴾ ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

واعلم أن أجسام هذا العالم، إما كثيفة، أو لطيفة، فأكثف الأجسام: الحجارةُ، والحديدُ، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام، فأنطق الحجر، وليَّنَ له الحديد، وألطفُ الأشياء الهواءُ، والنارُ، وقد

جعلهما الله معجزةً لسليمان عليه السلام، فسخَّر له الريح، وسخَّر له الجنَّ، لأن الشياطين مخلوقون من النار.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي واذكر خبر أيوب عليه السلام حين دعا ربه ﴿ أَنِّى ﴾ أي بأني ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ بالضم خاص، بما في النفس كمرض وهزال ونحوهما ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب، لطفاً في السؤال، وإنما شكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً منه بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب، كما أن الشكاية منه غاية البعد، وكان عليه السلام من ولد عيص بن إسحق عليه السلام، وكانت أمه من أولاد لوط عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثَّر أهله وماله، وكان رحيماً بالمساكين، وكافلاً لليتامى والأرامل، وكريماً للضيف، وشاكراً لأنعم الله تعالى، فابتلاه الله بهلاك أولاده وذهاب أمواله، والمرض في جسمه، روي أن امرأته «رحمة» قالت له يوماً لو دعوتَ الله تعالى!! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان، وولد له منهم نوافل ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، الصابرين على ما أصيبوا.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ أي واذكر قصة هؤلاء الأنبياء الكرام، إسماعيل، وإدريس، وذا الكفل عليهم السلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأنبياء ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على مشاق التكاليف، وشدائد الحياة.

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ أي أدخلناهم في الجنة دار الرحمة ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح والتقوى.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ أي واذكر صاحب الحوت، وهو «يونس» عليه السلام ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أي مراغماً لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضباً لربه، إذ لا يناسب منصب النبوة، روي أنه خرج من بين أظهرهم بعد أن تمادى إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر، وظن أن ذلك يسوغ ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي ظنَّ أن لن نضيِّق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق، وليس هذا عقوبة وإنما هو ابتلاء، كما جاء في الحديث الشريف «أشدكم بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[1] ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ أي فكان ما كان من المساهمة، والتقام الحوت له،

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في المرضى، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند ١/ ١٧٣.

فنادى ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في الظلمات الشديدة المتكاثفة: ظلمةِ بطن الحوت، والبحر، والليل ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت يا رب فتداركني برحمتك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي أنزّهك تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة، حيث بادرت إلى المهاجرة قبل الاستئذان.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه على ألطف وجه وأحسنه، روى أبو هريرة مرفوعاً قال: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خُذْه، ولا تخدشْ له لحماً، ولا تكسرْ له عظماً، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات دام في بطنه، وأراد بالغمِّ غمّ الالتقام له ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اي مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكروب والشدائد، إذا دعونا، واستغاثوا بنا بالإخلاص.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي واذكر خبره ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ بلا ولد يرثني ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ أي رزقناه غلاماً اسمه يحيى، وقد مر كيفية استجابة دعائه في سورة مريم ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء عليهم السلام المذكورون جميعاً ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فُصِّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، مع استقرارهم في أصل الخير، وهو السرُّ في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ﴾ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي ذوي رَغَب ورَهَب، راغبين للثواب، وخائفين من العقاب ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين، فالمعنى: إنهم نالوا ما نالوا، لاتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي اذكر خبر التي أعفَّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال والحرام، كما قالت: ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والتعبير بالموصول لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعمه اليهود في حقها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو من أمرنا، وقيل: فعلنا النفخ من جهة روحنا جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي قصتهما، وحالهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما، تحقق كمال قدرته عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام، أشير إليها بهذه تنبيهاً على

كمال ظهور أمرها في السداد ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، والخطابُ للناس قاطبة ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام[1] إذ لا احتمال لتبديلها، كفروع الشرائع ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة، لينعى على الذين تفرقوا في الدين تقبيح فعلهم، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام؟! ثم توعدهم بقوله ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الفرق المتحزبة ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ بالبعث، فنجازيهم بأعمالهم، وقولهُ ﴿فمن يعمل﴾ تفصيلٌ للجزاء.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبَّر عن ذلك بالكفران الذي هو شر النعمة، لبيان كمال نزاهته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي لسعيه ﴿كَاتِبُونَ﴾ أي مثبتون ذلك في صحائف أعمالهم.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) لا اختلاف في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، كما قال سبحانه: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ أي ممتنع على أهلها ﴿ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ قدرنا هلاكها لغاية طغيانهم ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع[1].

> ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ ﴾ «حتى» للغاية كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون إلينا، ويقولون يا ويلنا الخ ﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قبيلتان من الإنس والمراد بفتحها فتح سدها ﴿ وَهُم ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ أي نَشز من الأرض، أي ارتفاع من الآكام، والتلال ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون، وأصله مقاربة الخطوات مع الإسراع، والحَدَبُ بفتحتين: ما ارتفع من الأرض.

> ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب لا النفخة الأولى ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة ﴿ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي مرتفع الأجفان لا تكاد تطرف من هول

---

(١) هذا وجه في تفسير الآية الكريمة، وروى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس أن معنى الآية: ممتنع على أهل قرية أهلكناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية. ا هـ يريد أنه من المستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة فيرجعون للحساب والجزاء.

ما هم فيه ﴿ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ﴿ قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ ﴾ تامة ﴿ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ الذي دهمنا من البعث، ولم نعلم أنه حق ﴿ بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي لم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهنا عليه بالآياتِ والنُّذر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكُمۡ ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم ﴿ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي أصنامكم ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ هو ما يرمى به ويهيج النار، الحَصَبُ بفتحتين: ما هُيِّيءَ للوقود من الحطب ﴿ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً، روي أن رسول الله ﷺ تلا الآية، فقال له ابن الزبعرى: أليست اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة، فردَّ عليه ﷺ فقال: أما علمتَ أن «ما» لما لا يعقل، على أنهم لا يعبدون هؤلاء بل يعبدون الشيطان..

﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي أصنامهم ﴿ ءَالِهَةٗ ﴾ كما يزعمون ﴿ مَّا وَرَدُوهَاۖ ﴾ وحيث تبيَّن ورودهم إياها، تعيَّن امتناع كونها آلهة بالضرورة ﴿ وَكُلّٞ ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ ﴾ أي أنين وتنفسٌ شديد ﴿ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض، لشدة الهول والعذاب وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، حسبما جرت سُنَّة التنزيل، من إيراد الترغيب إثر الترهيب ﴿ ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ عَنۡهَا ﴾ عن الجحيم ﴿ مُبۡعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة، وشتان بينها وبين النار.

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ ﴾.

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ ﴾ أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود عند كون الشخص بعيداً، وإن كان صوته في غاية الشدة ﴿ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك، أي دائمون في غاية التنعّم.

﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ ﴾.

﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ ﴾ بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي تستقبلهم مهنئين لهم ﴿ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا، وتُبشَّرون بما فيه من المثوبات.

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ ﴾.

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ ﴾ الطيُّ: ضدُّ النشر، أي نطوي السماء طياً

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الصحف ﴿لِلْكُتُبِۚ﴾ أي للكتب التي كتب فيها، فسجلُّها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطيُّ، فالسماوات تُطوى كما تُطوى الصحف والسجلات ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أي نعيد ما خلقناه، إعادةً مثل بدئنا إياه، في كونها إيجاداً بعد العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على البداء، وأختلفوا في كيفية الإعادة؟ فمنهم من قال: إن الله يفرّق الأجزاء، ولا يعدمُها، ثم إنه يعيد تركيبها، ومنهم من يقول: إنه تعالى يعدمها بالكلية، ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه، لأنه سبحانه شبَّه الإعادة بالابتداء، والابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء، بل عن الوجود بعد العدم ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لفعله ﴿عَلَيْنَآۚ﴾ إنجازه ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لما ذُكر لا محالة، فاستعدُّوا له بصالح الأعمال، للخلاص من هذه الأهوال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله، حفاة، عراةً، غُرْلاً»(١).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ هو كتاب داود عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعدما كتبنا وسطّرنا في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان وتتمته ﴿كَمَا بدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه وَعْداً عَلَيْنَا إنَّا كنَّا فَاعِلينَ﴾ ألاَ وإنَّ أولَ الخلائق يُكسىٰ يوم القيامة: إبراهيمُ عليه السلام، ألاَ وإنه سيجاء برجالٍ من أمتي، فيُؤمر بهم ذات الشمال ـ أي إلى النار ـ فأقول أي ربِّ أمتي!! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم!! فأقول: سُحْقاً، سُحْقاً».

نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّة حَيْثُ نشاءُ﴾[1] وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقيل الأرض المقدسة، وهو قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي المؤمنون، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار دين الإسلام.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذُكر في السورة الكريمة، من الأخبار والمواعظ، والوعد والوعيد، والبراهين على التوحيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي لكفاية وموعظة ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي موحدّين مؤمنين، همُّهم الطاعةُ والعبادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد بما ذُكر، وبأمثاله من الشرائع والأحكام، التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قاطبة، فإنَّ ما بعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ، لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنم مغانم آثاره، فإنما فرّط في نفسه[2].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلاَّ

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٢) إن قيل: كيف قال: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين، لأنه أرسل بالسيف عليهم؟ فالجواب أن بعثه رحمة للكفار أيضاً، من حيث أن عقوبتهم أُخّرت بسببه، وأمنوا به من عذاب الاستئصال، الذي كان يأخذ الله به المكذبين، من الأمم السابقة، ثم إن تعاليمه ﷺ رحمة لجميع الخلق لو عقلوها!!.

أن معبودكم هو إله واحد، لا شريك له في ملكه، وإنما جاء بصيغة الحصر «إنما» لأن التوحيد هو المقصود الأصلي من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه[1] ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي مخلصون العبادة لله تعالى؟.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿آذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم إعلاماً واضحاً ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي على عدل واستقامة، بالبرهان النيِّر، فلا حجة لكم بعد اليوم، فالمعنى: أعلمتكم ما أُمرتُ به، كائنين على سواء في الإعلام، لم أطوه عن أحد منكم، وما فرَّقتُ بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ من غلبة المسلمين، وظهور الدين؟ ولا متى يكون ذلك العذاب لكم؟.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات والرسول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإِحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

---

(١) شريعة الرسول ﷺ عادلة كاملة، جاءت لخير البشرية جميعها، وحوت كل الفضائل الخُلقية، والاجتماعية، فقد روي عن أبي داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، ويكفي للإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، حديث «الأعمال بالنيات».. وحديث «الحلالِ بيِّن، والحرام بيِّن..» وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وحديث «لا يكون المؤمن مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ا هـ.

﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ (١١١).

﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي ﴾ وما أدري ﴿ لَعَلَّهُۥ ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ ﴾ استدراج لكم، لينظر كيف تعملون ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ أي تمتع إلى أجل مقدَّر، تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١١٢).

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ أي احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ أي كثير الرحمة على عباده ﴿ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ أي المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم، إلى غير ذلك مما لا خير فيه، فاستجاب الله دعوة رسوله ﷺ فخيَّب آمالهم، وغيَّر أحوالهم، وأصابهم يوم بدر ما أصابهم!! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء».

* * *

سُورَةُ الحَجِّ

مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطابٌ يعم حكمه جميع المكلفين، إلى يوم القيامة ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾ أي احذروا عقابه، واعملوا بطاعته، والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم به، أي احذروا عقوبة مالك أموركم، ومربيكم، رب العزة والجلال ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ ﴾ إضافتها إلى الساعة، إضافة المصدر إلى فاعلها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرضُ زلزالها﴾ وعن ابن عباس زلزلة الساعة: قيامُها، وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ﴿ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ والتعبير عنها بالشيء، إيذان بأن العقول، قاصرة عن إدراك كنهها.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ أي وقت رؤياكم الزلزلة ﴿تَذۡهَلُ﴾ أي تغفل وتنسى مع دهشة ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ أي مباشرة للإرضاع ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ عما بصدد إرضاعها من طفلها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ أي تلقي جنينها لغير تمام، وهو تمثيل لتهويل الأمر، فالأمر حينئذٍ أشد وأعظم مما وُصف ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ أي يراهم كل أحد ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيرهقهم هوله، وتطير له عقولهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كلام مبتدأ لبيان حال بعض المنكرين للساعة، أي وبعض الناس ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي بلا علم وحجة، روي أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، والمراد من هذه المجادلة، هو المجادلةُ في البعث، لأن ما قبل هذه الآية وما بعده في أمر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي يطيع ويقتدي في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متجرد للفساد، عات متمرد والمراد ههنا رؤساء الكفر الصادين عن الحق، الذين يدعون من دونهم إلى الضلال.

﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

﴿ كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي على من تولى الشيطان، واتخذه له صديقاً ﴿أَنَّهُۥ﴾

أي أن الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي اتخذه ولياً وتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن سواء السبيل، لأنه جبل عليه ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي يدعوه ويحمله مباشرة على السيئات التي توصله إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبَّر بلفظ ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾ على طريقة التهكم، لأن الهداية لا تكون إلى عذاب الجحيم.

> ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى، أو من وقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقنا كل فردٍ منكم ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي منيٍّ، من النَّطْفِ الذي هو الصبُّ، وهذا المنيُّ يحصل من الأغذية، التي تتكون من التراب، يقال: نَطَفَ أي سال، والنطفةُ ماءُ الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المني، والعلقةُ: شيء متجمد من المنيّ، ينتقل بعد طرده فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ أي مستبينة الخلق ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي لم يستبن خلقُها، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة لحم، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي خلقناكم على هذا

النمط البديع، لنبين لكم بذلك قدرتنا، وحكمتنا[1]، مما لا يحيط به العقل، من الدقائق التي من جملتها سر البعث، فإنَّ من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي، تأملاً حقيقياً، جزم جزماً ضرورياً، بأن من قدر على خلق البشر، من تراب لم يشم رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، بل هو أهون في القياس، ولهذا قال تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أي ونحن نقرُّ ونثبت في الأرحام بعد ذلك، ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر، وأقصاه سنتان، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله إقراره فتسقطه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي حال كونكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة، والعقل، والتمييز، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه، في أوان الطفولة، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وضعف الذاكرة ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث، والخطاب لكل أحد، و(هامدة) حال من الأرض أي ميّتة، يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً، وذهب حرُّها ولم يبق منه شيء ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن رائق، يسرُّ ناظرَه، وهذه دلالة كررها الله تعالى في كتابه، لظهورها وكونها مشاهدة.

---

(١) دلالة تولد الإنسان من النطفة على وجود الصانع، من أظهر الدلائل، لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة، في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع، على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، وجب أن يقال: إنه بعد موته، وتفرق أجزائه، لا بد أن يقدر الصانع، على جمع تلك الأعضاء، وجعلها خلقاً سوياً كما كان ذلك أولاً، فهذا برهان ناصع، ولهذا استدل به القرآن.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيّته تعالى ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك الصنع البديع، حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي شأنه إحياؤها، وأنه قادر على إحيائها، بدءاً وإعادة، وإلاّ لما أحيا النطفة، والأرض الميتة مراراً ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره على إحيائها كلها.

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾.

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ فيما سيأتي، وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على تحقق إتيانها، لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ في ظهور أمرها، ووضوح دلائلها ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ للجزاء، وهذه كما ترى من أحكام حكمته وجلاله، أنه تعالى حكيم عادل، لا يخلف ميعاده، وقد وعده بالساعة والبعث، فلا بدَّ أن يفي بذلك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية فيمن يتصدى لإضلال الناس، كما أن الأول فيمن يقلّدهم فلا تكرار ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ هو الاستدلال بالأدلة العقلية ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي وحي مظهرٍ للحق، فالمعنى: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة علمية، ولا بحجة نظرية، ولا برهان سمعي، فهو يجادل بالباطل.

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ أي عاطفاً لجانبه، معرضاً متكبراً، فإن ثني العِطْف كنايةٌ عن التكبر ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بيجادل، فإن غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي النار الشديدة المحرقة.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، والالتفات لتأكيد الوعيد، وكنَّى عنه باليد، لأن اليد آلة الكسب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم، فحكمه عدل.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أي على طَرَفٍ من الدِّينِ، وهذا مَثَلٌ لكونه على قلق، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، إن أحسَّ بظفر قَرَّ، وإلاَّ فَرَّ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ من الصحة والسعة، أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صارف ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يُفتتن به من مكروه يعتريه في

نفسه، أو أهله، أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه، من الكفر، روي أنها نزلت في قوم من الأعراب، «كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه، ونتجت فرسُه مهراً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حَسَنٌ، وقد أصبت فيه خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب»[1] ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ ضيَّعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد ﴿ذَٰلِكَ﴾ خسران الدارين ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَدْعُوا۟﴾ استئناف مبين لعظم الخسران ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده، أي يعبد جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الدعاء والعبادة لغير الله ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى.

﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَدْعُوا۟﴾ استئناف لتقرير كونه ضلالاً بعيداً ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي يعبد وثناً وصنماً ضرُّه في الدنيا ـ لو سلمنا ضره ونفعه ـ أكثر من نفعه، لأنه يعبد جماداً لا حسَّ له ولا شعور، فهو يتضرر بعبادته دون أي جدوى أو منفعة، وإيراد صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع، للمبالغة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج عن ابن عباس، وانظر كامل الرواية في جامع الأصول ٢/ ٢٤١.

في تقبيح حاله، أي يقول يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده، ودخول النار بسببه ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر هو ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ ولبئس المصاحب هو، وقيل: هذا في الرؤساء، وهذا الوصف بالرؤساء أليق، ولا يستعمل في الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ استئناف لبيان حال المؤمنين، العابدين له، إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم، وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع، بل يضرهم مضرة عظيمة، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لما قبله وتقريرٌ له، أي يفعل كل ما يريده من الأفعال اللائقة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وعقاب من أشرك به.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الضمير في ﴿ينصره﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للنصرة، وتقريراً لثبوتها، على أبلغ وجه، وفيه إيجاز بارع، والمعنى: أنه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، لا محالة، فمن كان يغيظه ذلك، من أعاديه وحسّاده، فليبالغ في استفراغ المجهود، فقصارى أمره أن يختنق خنقاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ أي فليتصوّر في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي إن فعل ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي ما يغيظه من النصرة؟ كلاّ، يعني أنه لا يقدر على

دفع النصرة. وإن مات غيظاً، وسمَّىٰ فعله كيداً على سبيل الاستهزاء[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكَم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به ابتداء ويثبت على الهداية ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته وتثبيته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار، وقيل: الشمس والقمر ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ هم عبدة الأصنام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيجازي كلاً ما يليق به، ويدخله المحل المعد له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لما قبله، أي عالم بكل شيء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) خلاصة معنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السقف ثم يشنق نفسه، ويختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما في صدره من الغيظ من دعوة الرسول ﷺ؟ قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس، وهو أظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، أي فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد التام لتدبيره تعالى، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، وقيل: إن الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ أفردها بالذكر لاستبعاد ذلك منها عادة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ معطوف على كثير الأول، للإيذان بغاية الكثرة، ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب، كأنه قيل: وكثير من الناس ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي بكفره واستعصائه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ ﴾ بأن كتب عليه الشقاوة، حسبما عَلِمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ يكرمه بالسعادة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ أي فريق المؤمنين، وفريق الكفرة، يختصمان والخصم صفة وُصف بها الفوج، فكأنه قيل: فوجان يختصمان ﴿ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ﴾أي في شأنه عزَّ وجل ودينه، في ذاته وصفاته، كلٌ من الفريقين له خصومة على الفريق الآخر، فقد تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: نحن أحق بالله، وأقدمُ منكم كتاباً ونبياً، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تكفرون به حسداً ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ قدرت على مقادير

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

جنثهم ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ يذاب بالحميم الذي يصب ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم، والأحشاء، والأمعاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي تشوى جلودهم فتتساقط، إذا صبَّ الحميم على رؤوسهم، لغاية شدة الحرارة.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَهُم﴾ للكفرة أي لتعذيبهم ﴿مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ جمع مقْمَعة، وهي آلة القمع، أي سياط يُجلدون بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار لما يلحقهم ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي في قعرها، بأن رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها ﴿وَذُوقُوا۟﴾ أي قيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين، وتصدير الجملة بحرف التحقيق، إيذاناً بمباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من حلَّيتُ المرأة إذا ألبستها الحلي ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سِوار، وهو ما يلبس في المعصم ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ أي الأساور الذهبية ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أي ويُحلَّون باللؤلؤ كذلك إكراماً لهم ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، وهو أرفع اللباس وأفضله.

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي الكلام الطيب، والقول النافع، إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، فهم في ذكر وتسبيح كقولهم: ﴿الحَمْدُ لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود وهو الجنة، دار الخلد والنعيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي ويمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه، كما يمنعونهم عن أداء المناسك في البيت الحرام، قال ابن عباس: نزلت الآية عام الحديبية، لأن قريش صدُّوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس، كائناً من كان، من غير فرق بين قلبي وآفاقي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنهما يستويان في سكنى مكة فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من

الآخر، إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل، وهو مذهب أبي حنيفة واحتجوا عليه بالآية الكريمة، وبالخبر، وهو قوله ﷺ: «مكة مباحة لمن سبق إليها» واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فقد نسب الدور لهم، وقوله ﷺ يوم مكة «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» وإن أريد بالمسجد الحرام البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي المقيم وغير المقيم وفائدة وصف المسجد بذلك، زيادة تشنيع الصادين عنه، والبدو خلاف الحضر ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد مراداً ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعدول عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان أي ملحداً بسبب الظلم، كالإشراك، واقتراف الآثام، وكل شيء كان منهياً من قول، أو فعل، روى يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحادٌ فيه»[1] ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع، لأن الكفر والصد من أشد أنواع الإلحاد فيه، وكلُّ من ارتكب ذنباً فهو كذلك.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر وقت جعلنا ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مباءة له عليه السلام أي مرجعاً إليه، للعمارة، والعبادة، وقيل (بوّأنا) أي بيّنا مكان البيت فبعث الله سبحانه ريحاً، فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل: بعث الله سحابة بقدر البيت وقيل يا إبراهيم ابْنِ على قَدْرِها ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ مفسرة لبوأنا لأنه متضمن لمعنى تعبدنا، أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ أي وطهر بيتي من الأوثان

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٢٠ في المناسك، باب تحريم حَرَم مكة.

والأقذار ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي لمن يطوف، ويصلي فيه، عبّر عن الصلاة بأركانها، لأن الركوع والسجود أهمُّ أركانها.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي أعلم ونادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمر به، روي أنه عليه السلام «صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى من قُدِّر لهم أن يحجوا، فقالوا لبيك اللهم لبيك» ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاةً على أرجلهم جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، أتعبه بُعْدُ السفر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر، لأنه في معنى الجمع ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي من كل طريقٍ واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، فمن أتى الحج، فكأنه قد أتى إبراهيم عليه السلام، لأنه مجيب لندائه، يُقال: ضَمَرَ الفرسُ أي هَزُل ودقَّ وقلَّ لحمه، وقدَّم الرجال على الركبان، إظهاراً لفضيلة المشاة، والحج فريضة لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناسُ قد فَرَض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا»[1].

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ أي ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمة الخطر، كثيرة العدد، من المنافع الدينية والدنيوية، المختصة بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ أي كائنة لهم

---

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ في الحج.

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا، ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ هي أيام النحر، وهي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وقول أكثر المفسرين، وعند صاحبيه هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ وهو يؤيد قولهما، علق الفعل بالمرزوق، وبيّن بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبيهاً على الذكر ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، وكلوا من لحومها، والأمر للإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾ المحتاج.

﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم، قيل: قضاء التَّفثِ قصُّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد، والتَّفَثُ: الوسخ. تَفِثَ من باب تعِب. إذا ترك الأدهان فعلاه الوسخ ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ ما ينذرونه من البر في الحج، وقيل مواجب الحج ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ أي ليطوفوا طواف الزيارة، الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الوداع ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتَق من تسلط الجبابرة، روى مسلم عن جابر بن عبد الله، في قصة حجة الوداع، قال: «وقدم عليٌّ بِبُدنٍ من اليمن، وساقَ رسولُ الله ﷺ مائةَ بَدَنة، فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بَدَنة، ونحر عليٌّ ما غَبَر - أي ما بقي - ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعَةٍ، فجُعلتْ في قِدرٍ وطُبخت، فأكل من لحمها، وشربَ من مرقها»[1].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، حجة الوداع وهو حديث طويل مشهور، وهذا طرف منه برقم ١٢١٨ وانظر تمامه في جامع الأصول ٣/ ٤٦٠.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، هذا وأمثاله يُطلق للفصل بين الكلامين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه من التكاليف، وقيل الكعبة، ومعنى التعظيم، العلم بأنها واجبة، والقيام بمراعاتها ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تحريمه ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الرِّجسُ: النجسُ والقذر، وسمى الأوثانَ رجساً، لأن عبادتها أخبث من التلوث بالنجاسات ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنه حثّ على تعظيم الحرمات، وأتبع ذلك بتحريم شهادة الزور، لأنها تعدل الإشراك بالله، كما ورد في الحديث الشريف[1]، وقيل: هو عمل أهل الجاهلية حيث كانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لكَ، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ أي مستسلمين لأمر الله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها، وإظهار الاسم الجليل،

---

(١) أشار إلى الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عدلت شهادةُ الزور الإشراك بالله، ثم قرأ ﷺ: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾».

لإظهار قبح الإشراك ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي فتتخطفه الطير، وتمزّقه كل ممزق، وتسلبُه بسرعة ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تذهب به وتقذفه ﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ بعيد، لا نجاة له ولا خلاص، شبَّه الإيمان بالسماء في علوه، والذي أشرك بالساقط منه، والأهواء الرديّة بالطير المختطفة، والشيطان بالريح التي تهوي في المهاوي المتلفة.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي الهدايا والأضاحي فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى، كما ينبيء عنه قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ وهو الأوفقُ لما بعده، وقيل شعائر الله: أعلام دينه، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجلِّ القربات، وأن يختارها حساناً سِماناً غالية الأثمان، روي أن عمر رضي الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيمها ﴿مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبت فيها الإيمانُ وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء فإن قال قائل: ما الحكمة أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات؟ فالجواب قوله تعالى:

﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾.

﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾ أي في الهدايا وقيل في شعائر الله ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي درها ونسلها وصوفها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم، فالحرمُ كله مكانٌ لنحر الهَدْي وذبحه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي متعبداً وقرباناً، يتقربون به إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره، فالمقصود الأصلي من المناسك، تذكر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها، بيَّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى، وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق، لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ الخطاب للكل تغليباً، ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أخلصوا له العبادة والطاعة، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ تجريد للخطاب إلى الرسول ﷺ، أي المتواضعين أو المخلصين في عبادتهم لله.

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لإشراق أشعة جلاله عليها، وخافت منه تعالى هيبة ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكاليف، ومؤونات النوائب ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون بعض أموالهم ابتغاء مرضاة الله.

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وإنما سميت الإبل بُدْناً لعظم بَدَنها ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُم ﴾ سخرناها لكم ﴿ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها

الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي منافع دينية، ودنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها بأن تقولوا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك» ﴿صَوَافَّ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر، ووقعت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير مسألة، والمراد به المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي السائل وهو الذي يريك نفسه، ويتعرض لك، والمعتر: هو الذي يطيف بالناس ويطلب منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي لن يبلغ مرضاته، ولن يصل إليه سبحانه شيء من ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم، التي تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى، وتعظيمه، والإخلاص له ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير، والتعليل بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طريق تسخيرها ولمعالم دينه، ومناسك حجه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي يدفع عنهم بأس المشركين، هذه بشارة للمؤمنين بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، وصيغة المفاعلة للمبالغة أي يدافع عنهم مرة بعد أخرى، حسبما تجدَّد منهم الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم، وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي، أي أن الله يبغض كل خوان في أماناته، وهي أوامره ونواهيه، وكفور لنعمته.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أُذِنَ ﴾ أي رُخِّص ﴿ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ أي يقاتلهم المشركون، والمأذونُ فيه محذوف، لدلالة المذكور عليه، أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، فإن مقاتلة المشركين إياهم، دالة على الإذن لهم بالقتال ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروبٍ ومشجوج، ويتظلَّمون إليه فيقول ﷺ لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجروا، فأنزلت الآية، وهي أول آية نزلت في القتال، بعدما نهى الله تعالى عنه، فيما يزيد على سبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لما مر من العدة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين، بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم، وارد على سنن الكبرياء، وتأكيده بكلمة التحقيق واللام، لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ يعني مكة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي بغير ما يوجب إخراجهم ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكونَ موجباً للإقرار والتمكين، دون الإخراج من الديار والأوطان، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ ؟ الآية على طريقة قول النابغة:

ولا عَيْبَ فِيهمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿ صَوَٰمِعُ ﴾ للرهبانية المتخذة في الصحراء ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ هي معابد النصارى في البلد ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصَلَّى فيها ﴿ وَمَسَـٰجِدُ ﴾ للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي ذكراً كثيراً وهي صفة مادحة للمساجد، خُصَّت بها، دلالة على فضلها، وفضل أهلها [(١)] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ أي والله لينصرن الله من ينصر رسوله ودينه، ولقد أنجز الله وعده، حيث سلَّط الله المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة

---

(١) فإن قيل: أيُّ منّةٍ على المؤمنين في حفظ الصوامع والكنائس؟ فالجواب أن المراد من الآية الكريمة، لهدّمت صوامع في زمن عيسى، وكنائس في زمن موسى، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان في الآية على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة، وكأن الآية تقول: لولا دفاع الله عن المؤمنين في كل زمان، لهدمت معابد أهل الأديان جميعها.

العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي على كل ما يريده، لا يعجزه شيء، وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصفٌ من الله عزَّ وجلَّ للذين أُخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة، عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، منبىء عن عِدة كريمةٍ، على أبلغ وجه، وعن عثمان رضي الله عنه قال: «هذا ثناء والله قبل بلاء» يريد أنه تعالى أثنى عليهم، قبل أن يُحدثوا من الخير ما أحدثوا، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر، مع السيرة العادلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد بإهلاك من يعاديه، أي وإن تحزن على تكذيبهم إياك، فاعلم أنك لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل تكذيب قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ كذَّبوا رسلهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ كذبوا رسلهم أيضاً، وإنما

حذف لكمال ظهور المراد، أو لأن المراد، نفس الفعل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غيّر النظمَ الكريم، وبنى الفعلَ للمجهول، للإيذان بأن تكذيبهم له، كان في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح، أي وكُذِّب موسى مع وضوح آياته، وعظيم معجزاته، فما بالك بغيره؟ حتى بنو إسرائيل قد كذَّبوه مرة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرمت آجالهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين، بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ بتغيير النعمة نقمة، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً! ؟.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي أهلكنا كثيراً من القرى، بإهلاك أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستسقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي مرفوع البنيان، أخليناه من ساكنيه، أفليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على أن يسافروا، ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها، ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار، جعلوا غير مسافرين، فحُثُّوا على ذلك ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الضمير للقصة وفي تعمى ضمير راجع إليه، وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم، باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة، وذكر الصدور للتأكيد، كأنه قال: لا عمى في أبصارهم، فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم، لأنهم لم ينتفعوا بما أبصروه.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخرية واستهزاءً فيقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ كان ينذرهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي لن يخلف الله وعداً أبداً، فلا بدَّ من مجيئه حتماً، والجملة حالية كأنه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده؟ وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه ولو بعد حين؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الآية سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال ببيان سعة ساحة حلمه تعالى، لأنه حليم لا يعجّل العقوبة، والمدة القصيرة عنده تعالى، مدد طوالٌ عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَه بَعِيداً ونَرَاهُ قَرِيباً﴾ ويتخذون تأخير العذاب ذريعةً إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ما عنده تعالى من المقدار، فيوم واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنةٍ من سنيّكم، ولهذا قال بعده.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء، حتى أنكروا واستعجلوا به استهزاءً، كما فعل هؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد الإمهال ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي إلى حكمي، مرجع الكل جميعاً، لا إلى أحد غيري.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٤٩﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي أنذركم إنذاراً بيّناً، من غير أن يكون لي دخلٌ، حتى تستعجلوا مني العذاب، وإنما اقتصر على الإنذار، مع أنه بشير للمؤمنين ومنذر للمشركين، لأن الحديث عن المشركين المستهزئين، وإنما ذكر ثواب المؤمنين بعده زيادة في غيظ الكافرين.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدخل فيه كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدخل فيه أداء كل ما يجب، وترك كل محذور ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما وقع منهم من الذنوب ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هي الجنة، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، بيّن الله تعالى أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، يجمع الله له بين المغفرة، والرزق الكريم.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ، والطعن، حيث سموها شعراً، وسحراً، وأساطير الأولين ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي سابقين في زعمهم لإطفاء نور الله، طامعين أن كيدهم للإسلام يتمُّ لهم، وأصله من عاجزه إذا سابقه، لأن كلاً

من المتسابقين، يريد إعجاز الآخر، عن اللحاق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ملازمو النار الموقدة، وأهلُها وأصحابُها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة، والنبي يعمُّه، ويشمل من بعثه لتقرير شريعة سابقة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي هيأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يُعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل بما يحقّق المصالح[1].

---

(١) الغرض من هذه الآية، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم، فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم، بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر، وأمّا ما قيل: إنه ﷺ كان في نادي قومه، يقرأ سورة النجم، فلمّا بلغ قوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ جرى على لسانه «تلك الغرانيق العُلى. وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى» ففرح به المشركون، حتى شايعوه بالسجود، لمّا سجد في آخر السورة، ثم نبهه جبريل عليه السلام، فاغتمّ فعزّاه الله عزَّ وجلَّ بهذه الآية، فهذا كلام باطل مردود على قائله، وقد ولع به كثير من المستشرقين، فخبُّوا في الحديث فيه وأوضعوا، للطعن في الوحي، ومن أعجب العجب، أن يأخذ به بعض المفسرين من المسلمين، وهو مردود عند المحققين، ولذلك لم يتردد ابن إسحق، حين سُئل عنه في أن قال: «إنه من وضع الزنادقة» والذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فأسندوه إلى هذه الآية، وآية: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ٥٣﴾.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علة لما ينبىء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان في حق الرسول ﷺ، أي ليجعل تلك الشُّبَه والوساوس التي يلقيها الشيطان

= والاحتجاج بهذه الآيات، احتجاج مقلوب، فقصة الغرانيق المكذوبة تقضي بأن الرسول ﷺ رَكَن إلى قريش بالفعل، والآية هنا تقول: إن الله ثبّته فلم يفعل، على أن الاحتجاج بها يتنافى مع عصمة الرسل، في تبليغ رسالاتهم، ويتنافى مع تاريخ الرسول ﷺ، وكل ما فيها احتجاج متهافت، وأمّا الآيات التي نحن في تفسيرها، فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتَّة، وأول ما يدل على أن هذه القصة موضوعة، اضطرابُ رواتها، وانقطاعُ سندها، واختلافُ ألفاظها، فقائل يقول: إن النبي ﷺ كان في الصلاة، وآخر يقول: قرأها وهو في نادي قومه، وآخر يقول: قرأها وقد أصابته سِنَةٌ، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وغير ذلك، ولم يروها أحد من أهل الصحة، ولا أسندها ثقةٌ بسندٍ صحيح، أو سليم متصل، وإنما روَاها المفسرون، والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملفِّقون من الصحف كل صحيح وسقيم، وقد قامت الدلائل على صدقه ﷺ، وأجمعت الأمة على عصمته، ونزاهته من مثل هذا، ومن الإخبار عن شيء من التبليغ بخلاف ما هو به، لا قصداً، ولا سهواً، ولا غَلَطاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فكيف يجوز الغلط عليه ﷺ في التلاوة، وهو معصومٌ منه؟ ودليل آخر أقوى وأقطع، وهو سياق سورة النجم، وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، لأن هذا السياق صريح، في أنَّ اللاَّت والعُزَّى، أسماءٌ سمَّاها المشركون، هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وإن في هذا السياق، من الفساد، والاضطراب، والتناقض، ومدح اللاَّت والعزى وذمِّها، في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلِّم به عقل، ولا يقول به إنسان، مع أن وصف العرب لآلهتهم، بأنها الغرانيق، لم يرد في نظمهم، ولا في خطبهم، ولم يُنقل عن أحد، أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما أورد الغرْنيق، على أنه لطائر مائي، ولا شيء في ذلك ممَّا يلائم معنى الآلهة، أو وصفها عند العرب، فلا أصل إذن لمسألة الغرانيق وكلها أخبار باطلة.

﴿فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شكٌّ ونفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين فيزدادوا به ظلمة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي الفريقين المذكورين في عداوة شديدة، ومخالفة تامة، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو النازل من عنده تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن، بأن يثبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيماناً، بردِّ ما يلقي الشيطان ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي فتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد، والخشية، والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الأمور الدينية، فيتأوَّلون ما يتشابه في الدين، بالتأويلات الصحيحة، فلا تلحقهم حيرة ولا شبهة ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالنظر الصحيح الذي يوصلهم إلى ما هو الحق.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك وجدال ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم القيامة فجأة من حيث لا يشعرون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا يوم بعده، كأنَّ كل يوم يلد ما بعده، كما يقال: الليلةُ الحبلى، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها، لمزيد التهويل.

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي السلطان القاهر، والتصرف على الإطلاق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِّلَّهِ ﴾ وحده بلا شريك، بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف، لا صورةً ولا معنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين المؤمنين به، والممارين فيه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تفسير للحكم المذكور، أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم، ولم يماروا فيه ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ امتثالاً بما أُمروا في تضاعيفه ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي مستقرون فيها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي أصرُّوا على ذلك واستمرُّوا ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي يُهانون به، مع الخزي والصغار.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في طاعة الله، وطلب رضاه ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ ﴾ في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ في تضاعيف المهاجرة، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف، خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ ﴾ جواب لقسم محذوف ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي لا ينقطع أبداً، من نعيم الجنة، وإنما سوى بينهما في الوعد، لاستوائهما في القصد، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد.

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله﴾ ﴿ مُّدْخَلًا ﴾ هو الجنة ﴿ يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ فإنهم يرون فيها، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، فيرضونه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، والجملة للتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي ولم يزد في الاقتصاص، ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تحريضٌ على العفو والمغفرة، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة ومع ذلك يعفو. قيل: نزلت في قوم من المشركين، لقوا قوماً من المسلمين في المحرَّم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفُّوا عن قتالهم، لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم، فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن شأنه

المداولة بين الأشياء المتضادة، بإدخال الليل في النهار وبالعكس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بكل المسموعات ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الاتصاف بما ذكر، من كمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، وصفاته وأفعاله، فهو وحده المعبود الحق، وهو الخالق الرازق، العالم بكل المعلومات ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم الذي لا يقدر على شيء، الباطل في ألوهيته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأناً أو أكبر سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ﴾ استفهام تقرير، كما يفصح عنه رفع فتصبحُ، أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها وجدبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل لطفه، وعلمه إلى كل ما جلَّ ودقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق من التدابير وأحوال العباد.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد، بصفاته، وأفعاله.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي بإذنه ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية لا تستمسك بنفسها ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ ﴾ أي بمشيئته تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم استمساكها بذاتها، فإنها متساوية في الجسمية كسائر الأجسام فتكون قابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال، بالآيات التكوينية والتنزيلية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ ﴾ عند البعث ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ أي جحود للنعم، مع ظهورها، لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أمة معينة، من الأمم الخالية والباقية

﴿جَعَلْنَا﴾ أي وضعنا وعينًا ﴿مَنسَكًا﴾ أي شريعة خاصة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وهو رد لقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي فلا تلتفت إلى قولهم، زعماً منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل، فإنهما كانا شريعتين لمن مضى من الأمم، وأهل هذا العصر أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد ﴿وَٱدْعُ﴾ ادع الناس كلَّهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته، وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريقٍ موصل إلى الحق واضح مستقيم، موصلٍ إلى جنات النعيم، وهو دين الإسلام الخالد.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨)﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ تعنتاً كما يفعله السفهاء بعد ظهور الحق، ولزوم الحجة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأباطيل، ومنها المجادلة فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بين المؤمنين منكم، والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بالحجة والآيات في الدنيا ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيظهر حينئذٍ الحق من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لتقرير أي قد علمت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء، التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما في السماوات والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقال أبو مسلم: معنى (الكتاب) الحفظُ والضبطُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيِّنٌ، فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ أي ليس لهم علم بجواز عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٖ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم، أو بدفع عذابهم.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة، على صدق الرسول، وكونها من عند الله عز وجل ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي الإنكار، والكراهة، والشر ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أي يكادون يبطشون بهم من فرط الغيظ، والسَّطْوُ: شدة البطش والوثوب ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ يعمُّ النبي ﷺ

وأصحابه ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم، وإقناعاً عما يقصدونه من الإضرار ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وعدها الله لكل كافر فاجر، وبئست النار مرجعاً لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بُيِّن لكم حال مستغربة، وقصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، وأريد بذلك ما حكى عنهم، من عبادتهم للأصنام ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان للمثل يعني الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين، وتخصيص الذباب لصغره، وضعفه، واستقذاره ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب، أي إنْ يأخذ الذباب منهم شيئاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهِّلوا غاية التجهيل، في إشراكهم بالله، القادر على جميع المقدورات، تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلّها، وتعجز عن ذبّه عن نفسها، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب الطالب والصنم المطلوب منه، ولو حقَّقتَ وجدتَ الصنم أضعف من الذباب بدرجات، وعابدوه أجهل من كل جاهل وأضل.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا

به أخسَّ الأشياء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، فكيف يتخذ العاجز شبيهاً به؟ فسبحان الله، الأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحيط به، صمدي الذات، سرمدي الصفات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وغيرهما، يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء بالوحي ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي يختار الله من الناس رسلاً، وهم الذين يختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق، عن التبتل إلى جانب الحق، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه مثل «إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحمد» عليهم السلام.

كأنه تعالى لمَّا قرَّر وحدانيته في الألوهية، بيَّن أن له عباداً مصطفون لتبليغ الرسالة، وشرائع الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾ أي هو الرقيب على العباد، يعلم أحوالهم وأعمالهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي مرجع أفعال العباد فيجازيهم عليها، فقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الخ إشارة إلى العلم التام، وقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ﴾ الخ إشارة إلى التفرد في الحكم، ومجموعها يقتضي نهاية التجنُّب عن المعاصي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخرُّوا سجداً، وفيه دليل على أن هذه السجدة للصلاة، لا للتلاوة، لأنه تعالى قرن السجود بالركوع، وهو قولُ الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وأبي حنيفة، ومالك، وروي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس أنهم قالوا في الحج سجدتان، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد، ويدل عليه ما روي عن عُقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: أفي الحج سجدتان؟ قال: «نعم»[1] ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدَكُم به، أخلصوا له العبادة ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح، في كل ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من أعمال البِرِّ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون للفلاح، كي تفوزوا وتسعدوا.

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي جاهدوا لله تعالى، ومن أجله أعداءَ دينه، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ استفراغ الطاقة فيه وألّا يخاف في الله

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من رواية عُقبة بن عامر.

لومةَ لائم، وأن يكون الجهاد خالصاً لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لقوله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1] ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي هو اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق وشدة، بتكليف ما يشقُّ عليكم إقامته، فليس في دين الإسلام، ما يصعب أو يستحيل فعله، فقد بعث ﷺ «بالحنيفية السمحة» فيها اليسر والسهولة، كقصر المسافر للصلاة، والتيمم عند فقد الماء، وتشريع الدية في القتل الخطأ.. الخ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله أباهم، لأنه أب الرسول ﷺ، وهو كالأب لأمته، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿ومن ذُرِّيتِنَا أُمةً مسلِمْةً لك﴾ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل لهم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي ثقوا بالله في أموركم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ إذ لا مثل له، في الولاية والنصرة ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم الناصرُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج».

* * *

(١) الحديث أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مكية وهي مائة وثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ كلمة «قد» ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت، والفلاحُ: هو الفوز بالمراد أي قد فازوا بكل خير، ونَجَوْا من كل ضر، حسبما كان متوقعاً من حالهم، فإن إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، من دواعي الفلاح، بموجب الوعد الكريم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدِّقون بما عُلم من دين نبينا ﷺ، من التوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوعُ: الخوف والتذلُّل، وقيل: هو ترك الالتفات في الصلاة، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: هو اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاة العبد»[1] والاختلاسُ: هو الاختطاف، ورأى ﷺ مصلياً

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/١٩٤ في صفة الصلاة، وأبو داود رقم ٩١٠ باب الالتفات في الصلاة.

يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلبُ هذا، لخشعتْ جوارحُه»[1] وقال ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على العبد، وهو في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه»[2].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ أي عن الكذب، والباطل، وكلٍّ ما لا يعنيهم وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي في عامة أوقاتهم، ينزّهون أسماعهم عن كل باطل، وإقامة الإعراض مقام الترك، ليدل على تباعدهم عنه رأساً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدون، ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة بخلاف مؤدون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ممسكون لها عن الحرام، والفرج: اسم لسوأة الرجل والمرأة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) أخرجه أبو داود رقم ٩٠٩ والنسائي ٣/٨ باب التشديد في الالتفات في الصلاة، وصححه الحاكم.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها، وبذلك يتحقق كمال العفة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي سراريهم، والآية في الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز أن تستمتع بمملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء، من عدم حفظها منهن، فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن؛ بل يُباح لهم الاستمتاع بهنَّ من غير محظور.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي الكاملون في العدوان، وفيه ما يدل على تحريم المتعة، لأنها ليست زوجة له، ولأنهما لا يتوارثان بالإجماع.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه، من جهة الحق والخلق ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون عليها وحافظون لها على وجه الإصلاح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، وليس فيه تكرير لما أن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا وُرَّاثاً دون من عداهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ بيان لما يرثونه، وتفسير لها بما سيلقونه منها، تفخيماً لشأنها، لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم. والفردوسُ: هو أعلى الجنة، لما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تَفَجَّر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»(١) ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: قرأ الرسول ﷺ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات من أولها ثم استقبل القبلة وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل الله عليَّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»(٢) وتلا الآيات.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ شروع في بيان مبدأ خلق الإنسان، والمراد بالإنسان الجنس، أي وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان، في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ من خلاصة سُلَّت من بين الكدر، والسلالة: الخلاصةُ ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ أي كائنة من طين، و«من» بيانية، وذلك لأن الإنسان إنما يتولد من الأغذية، والأغذية تتولد من صفو الأرض، فالإنسان بالحقيقة من سُلالة من طين، وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، لأنه خلق منه.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وأحمد في المسند ٥/٣٣٧.
(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٣ ورواه أحمد في المسند.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي جعلنا نسله ﴿ نُطْفَةً ﴾ بأن خلقناه منها وجعلنا السلالة نطفة ﴿ فِي قَرَارٍ ﴾ أي مستقر، وهو الرحم، عبَّر عنها بالقرار مبالغة ﴿ مَّكِينٍ ﴾ أي حصين، سُمِّي مكيناً لمكانتها في نفسها، وحفظها فيه بدقة.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي دماً جامداً، بأن أحلنا النطفة البيضاء إلى علقة حمراء ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي قطعة لحم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ بأن صلَّبناها عموداً للبدن، على أوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ من بقية المضغة ما يليق به من اللحم، على المقدار اللائق به وهيئة مناسبةٍ له، وحيث كان اللَّحمُ يستر العظم، جعله كالكسوة له ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره عجائب فطرة، وغرائب حكمة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، والالتفات إلى الاسم الجليل، لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذُكر من أحكام الألوهية ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أي أحسن المقدرين تقديراً، فحذف المميَّز لدلالة الخالقين عليه، والمراد أحسنُ من خلق وأبدع الخلق!!.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ لسائرون إلى الموت لا محالة، عند انقضاء آجالكم.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أي عند النفخة الثانية ﴿ تُبۡعَثُونَ ﴾ من قبوركم، للحساب والمجازاة، بالثواب والعقاب.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ ﴾ أي خلقنا في جهة العلو فوقكم يا بني آدم ﴿ سَبۡعَ طَرَآئِقَ ﴾ أي سبع سماوات، سُمّيت بذلك لأن بعضها فوق بعض، ولأنها طرائق الملائكة ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ ﴾ عن جميع المخلوقات من البشر ﴿ غَٰفِلِينَ ﴾ أي مهملين أمرها، بل نحفظها وندبّرها، حتى تبلغ نهايتها في الحياة.

﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ ﴾ هو المطر أنزلناه بحسب الحاجة ﴿ بِقَدَرٖ ﴾ أي بتقدير لائق، لا كثيراً فيتلف ويفسد، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، إنما أنزلناه بمقدار ما علمناه لمصالحهم ﴿ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي جعلناه ثابتاً قارّاً فيها ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ ﴾ أي على إزالته بالإفساد، أو التغوير في الأرض، بحيث يتعذر استنباطه ﴿ لَقَٰدِرُونَ ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، فقيّدوا هذه النعمة بالشكر كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوراً فَمَنْ يأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؟.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفهكون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في ثمرتهما أنواع من الفواكه: الرطبُ، والعنبُ والتمرُ، والزبيبُ، والعصير، والدبسُ، وغير ذلك.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي وشجرة الزيتون المباركة التي تنبت حول جبل الطور، وتخصيصها بالذكر، لاستقلالها بمنافع عديدة ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت بثمر الدهن يعني الزيت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي وإدام للآكلين، والصِّبْغُ: ما يُصبغ به ويختص بكل إدام مائع، كالخلِّ ونحوه، وإنما أضيفت الشجرة إلى هذا الجبل، لأنها منه تشعَّبتْ في البلاد، وانتشرتْ، ومعظمُها هناك.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي تعتبرون بحالها، وتستدلون بها على عظمة الله وجلاله، وهذا بيانٌ للنعم الفائضة من جهة الحيوان ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة، والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن، أي نخرج من بطونها لبناً سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذكر من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لحومها، فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي على الأنعام، والمراد بها خاصة الإبل، لأنها هي المحمول عليها عندهم ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها، مبالغة في تحملها للحمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة، لأنها سفائن البر، قال ذو الرمة «سفينة بر تحت خدي زمامها» يريد ناقته، فإنها تحمله وتحمل أثقاله وزاده.

ولما بين تعالى دلائل التوحيد، أردفها بالقصص للعظة والاعتبار فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي ما لكم إله غير الله تعالى، وفي إيراد قصة نوح عليه السلام إثر قوله: ﴿وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ من حسن الموقع ما فيه، إذْ كانت نجاتُه ونجاةُ المؤمنين معه، بواسطة الفُلْك والآية شروع لبيان إهمال الأمم السابقة، وتركهم النظر والاعتبار، فيما عدّد من النعم، وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم من العذاب، تحذيراً للمخاطبين ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تتقون عذابه، الذي يستوجبه ما أنتم عليه؟.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي هو بشر مثلكم،

يأكل ويشرب، وهو مشارك لكم في جميع الأمور، وصفوه بذلك، مبالغة في إنزال رتبته العالية، وحطّها عن منصب النبوّة ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم، مع كونه مثلكم، يقولون ذلك، إغراءً لهم على معاداته ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسل رسلاً من الملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي الماضين قبل بعثته عليه السلام، قالوه لفرط غلوهم في التكذيب.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ أي فاحتملوه واصبروا وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق مما فيه وإلا قتلتموه، رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام بعدما يئس من إيمانهم ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإهلاكهم فإنه حكاية إجمالية لقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أجبنا دعاءه وأوحينا عند ذلك إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أنْ مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً

بحفظنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزَّ وجلَّ حُرَّاساً يكلؤونه بأعينهم من التعدي ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وتعليمنا لكيفية صنعها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا والمراد بمجيئه كمال اقترابه، أي إذا جاء وقت عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو التنُّورُ الذي يُخبز فيه، وقيل: هو وجهُ الأرض، روي ذلك عن ابن عباس قيل له: إذا فار الماء من التنور، اركبْ أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي ادخل فيها، يقال: سلك فيه أي دخل فيه، قال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين ذكرٍ وأنثى ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنه نص في الفردين، وذلك لئلا ينقطع ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي سبق من الله تعالى القول بإهلاكه، وإنما جيء بعلى، لأن السابق ضار، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَىٰ﴾ لكونها نافعاً ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ بالدعاء لهم لإنجائهم ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي إذا تمكنتم ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ من السفينة إلى الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي إنزالاً مباركاً، يستتبع خيراً كثيراً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه، أمره بأن يُشفعه به، مبالغة وتوسلاً به إلى الإجابة، إذْ بالشكر تدوم النِّعم.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار، على عظمة الواحد القهار ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي لمختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويتذكر، بآيات الله الباهرة.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ هم «عاد» حسبما روي عن ابن عباس، وعليه أكثر المفسرين، وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة، من إيراد قصة هود، إثر قصة قوم نوح.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ ﴾ لم يأتهم من غير مكانهم، ولم يكن غريباً عنهم، بل إنما نشأ من بين أظهرهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم نسباً ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ونعَّمناهم ووسَّعنا عليهم في

الدنيا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما هو إلا إنسان مثلكم وليس برسول ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وإيثار مثلكم على مثلنا، للمبالغة في تهوين أمره، والحطِّ من شأنه.

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾ .

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ عقولكم، حيث أذللتم أنفسكم بطاعة شخصٍ مثلِكم.

انظر كيف جعلوا اتّباع الرسول الحق، الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً، دون عبادة الأصنام؟.

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ﴾ .

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ أي أيعدكم بالحياة بعد الموت؟ والغرضُ زجرهم عن اتّباعه، بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي أصبحتم عظاماً نَخِرة، مجرَّدة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياء.

﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) ﴾ .

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي بَعُد، بَعُد هذا الذي توعدونه، من الإخراج من القبور بعد موتكم، التكرير للتأكيد ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي لما يخبركم عنه من البعث، والحساب، والجزاء.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله ما الحياة إلاّ حياتنا، فأُقيم الضميرُ مقام الأولى، لدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن

التصريح، كما في «هي النفس تتحمل ما حُمِّلتْ» ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لم يريدوا بقولهم هذا «نموت ونحيا» الشخص الواحد، لأنهم منكرون للبعث، بل أرادوا أن البعضَ يموت، والبعض يحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله إلينا رسولاً، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدّقين له فيما يقوله!!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي هود عليه السلام، عند يأسه من إيمانهم، متضرعاً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم لي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابة لدعائه ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا من التكذيب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، أصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضاً، روي أن شداد بن عاد حين أتم إرم سار

إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله صيحة من السماء فهلكوا، وقيل: الصيحة نفس العذاب الذي نزل بهم، قال قائلهم:

صَاحَ الزمانُ بآلِ بَرْمَكَ صَيْحةً خَـرُّوا لشِـدَّتِهَـا عَلَـى الأَذْقَـانِ

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأمر الثابت، الذي لا دافع له، وبالعدل ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي كغثاء السيل وهو حميله ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو من المصادر التي لا يكاد يستعمل ناصبها أي بعدوا بعداً، أي هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً، فبعداً بمنزلة اللعن، ذُكِر على وجه الاستخفاف والإهانة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام وغيرهم.

إن الله سبحانه يقص القصص في القرآن، تارة مفصلاً، وتارة مجملاً كما هنا، والمعنى: ما أخلى الديارَ من المكلَّفين بل خَلَق بعدهم أمماً آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ما تتقدم أمة على الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ «ثم» للتراخي، يعني أن إرسال كل رسول، متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم

قروناً، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به ﴿تَتۡرَا﴾ أي متواترين واحداً بعد واحد، ومنه جاؤوا تترى أي متتابعين ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ في أول الملاقاة، وفيه تشنيع عليهم بكمال ضلالهم، حيث كذبت كل واحدة منهم رسولهم ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ في الهلاك، حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة أسبابه، التي هي الكفرُ، والتكذيب، وسائر المعاصي ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ أي لم يبق منهم إلا حكايات، يعتبر بها المعتبرون، وهو جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً، أي جعلناهم قصصاً تُرْوىٰ، وأحاديث يتحدث بها تعجباً ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يؤمنون بالله.

اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان، أما القرون الأولى فحيثُ نقل عنهم الغلوَّ في الكفر والعدوان، وصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي الآيات التسع ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة ملزمة للخصم، تدلُّ على صدقهما وتأييد الله لهما بالبراهين القاطعة.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي أشراف قومه ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الانقياد ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ متكبرين ومتمردين على الله ورسوله.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي قالوا فيما بينهم ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾؟ يعنون موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؟ أي

خادمون، منقادون لنا كالعبيد، كأنهم قصدوا التعريض بشأنهما، وحطِّ رتبتهما، بناء على زعمهم الفاسد، المؤسس على التقدم في نيل الحظوظ الدنية، مِن المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]؟ وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة، هو السبق في إحراز الملكات السنية، بالقوة القدسية، مع صفاء الجوهر الذاتي، فأنى لهم هذا خذلهم الله!.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨)﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فاستمروا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في البحر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ قوم ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق، بالعمل بما فيها.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ دالة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غير مسيس بشر ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إلى أرض مرتفعة هي بيت المقدس ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستقر يستقر عليها ساكنوها، وكانت ذات ثمار وزروع، لأجلها يستقر فيها الناس ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وماءٍ معين ظاهر يجري على وجه الأرض، مَعَن الماءُ جرى، فهو معين.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

نبّه سبحانه على كمال نعمه عليهما، بهذا اللفظ على اختصاره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خوطب به كل رسول في عصره، وليس إباحة الطيبات من خصائص عيسى عليه السلام، بل هو شرع قديم، أي وقلنا لكل رسول: كلْ من الطيبات، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانية، من رفض الطيبات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي عملاً صالحاً موافقاً للشرع الشريف، وتقديم قوله: ﴿كلوا من الطيبات﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح، لا بد أن يكون مسبوقاً بأكل الحلال الطيب ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ أي خافوا عذابي وعقابي، وهو استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام، مسوقٌ لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد، مما أُمر بها كافة الرسل والأمم، فمن دخل في الإسلام، يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين، وأن أمته هي الأمة الإسلامية، لا العربية، ولا الفارسية، ولا التركية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وقال ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس، ألاَ إن ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربي، إلاَّ بالتقوى» الحديث..

واليوم حدثت العصبية الجاهلية التي حرمها الإسلام، بعد أن ضعف العلم والدين، حتى قام بعض الأعاجم يفتخر بسلفه من الوثنيين والمجوس، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاحذروا مخالفتكم أمري، والأمر في حقِّ الرسل للتهييج، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه أدياناً مختلفة ﴿ زُبُرٗاۖ ﴾ أي قِطَعاً، جمع زبور بمعنى الفرقة، أي أدياناً مختلفة ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ ﴾ من المتحزّبين ﴿ بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾ من الذي اختاروه ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون، ومعتقدون أنهم على الحق.

﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ ﴾ شبَّه ما هم فيه من الجهالة، بالماء الذي يغمر القامة، لأنهم مغمورون فيها، والغمرةُ: الانهماكُ في الباطل، والخطاب للرسول ﷺ، أي اتركهم على حالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هو حين موتهم، فهو وعيد لهم، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة.

﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾ أي نعطيهم إياه.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾؟ أي أيحسبون أنما نسارع به لهم، فيما فيه خيرهم وإكرامهم، معاجلة بالثواب على حسن صنيعهم؟. ﴿ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون بشيءٍ أصلاً، كالبهائم التي لا فطنة لها ولا شعور، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراجٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾[1] الآية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٨٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم ﴾. بيان من له المسارعة في الخيرات، إثر إقناط الكفار عنها ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ أي من خوف عذابه ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ أي حذرون وخائفون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنزلة على رسوله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديقها ولا يفرقون بين كتبه ورسله.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، ولا يعبدون معه غيره، بل يوحدّونه ويخلصون له العمل طلباً لمرضاته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ ﴾ أي يعطون ما أعطوه من الصدقات والخيرات، وأنواع القربات والصالحات ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي وهم خائفون مشفقون ألاّ يتقبل الله منهم، من قوة إيمانهم، وفرط إحسانهم، رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، ويخافون ربهم؟ قال: لا يا بنت الصِدِّيق، ولكنْ همُ الذين يصومون ويصلُّون ويتصدقون، ويخافون أن لا يُقبل منهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾[1] ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي لأنهم يوقنون أنهم إلى الله عز وجل صائرون، للمجازاة.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٤ والحاكم ٢/ ٣٩٤ وصحّحه.

﴿ أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك المنعوتون ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي في نيل الخيرات الموعودة، كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ وقد غيَّر الأسلوب، حيث لم يقل: نسارع لهم في الخيرات، بل أسند المسارعة إليهم، إيماءً إلى كمال استحقاقهم، لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ﴿ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ أي ينالونها قبل الآخرة، حيث عجلت لهم في الدنيا.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾ أي ولا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق، تفضلاً منا وإحساناً، والآية سيقت للتحريض على ما وصف من فعل الطاعات، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده ما ليس في وسعهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا طاقتهم ﴿ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ ﴾ أي صحائف الأعمال يقرؤونها عند الحساب ﴿ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ أي تظهر فيه أعمالهم، وكأنها تنطق عليهم بما عملوا، كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد، على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ أي يُظهر الحقَّ، ويبين للناظر كما يبينه النطق للسامع، فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويترتب عليها أجزيتها ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ أي لا يظلمون بنقص ثواب، أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم.

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٩.

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الضمير للكفرة ﴿ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أي في عماية وغطاء، وغفلة غامرة، عن هذا القرآن ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ خبيثة كثيرة ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر، من كون قلوبهم في غفلة، وهي: فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ أي مستمرون عليها، لا يكفُّون عنها، ولا ينزجرون.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ﴾ أي متنعميهم، وهم الذين أكرمهم الله بالمال والبنين، أي لا يزالون يعملون أعمالهم السيئة، إلى أن أخذنا رؤساءهم ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ هو القتلُ، والأسر، والجوعُ الذي أصابهم بالقحط، حتى أكلوا الكلاب والجِيَف ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ أي فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل، وتخصيص مترفيهم، مع عموم العذاب للكل لغاية ظهور أمرهم، فإذا كان المترفون ذاقوا العذاب، فلأن يلقاها من عداهم من الأتباع والخدم أولى.

﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ فإنكم لا تُمنعون من عذابنا، وهو تعليلٌ للنهي عن الجؤار، ببيان عدم نفعه، أي لا تلحقكم من جهتنا نصرةٌ تنجيكم.

﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ قَدْ كَانَتْ ﴾ تعليل لعدم النصر ﴿ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي تعرضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ على المسلمين ﴿بِهِۦ﴾ أي بالبيت الحرام وبالحرم، تزعمون أنكم حماته وخدَّامه ﴿سَٰمِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن، والطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن بالانتقاص ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهُجر وهو الفحش، هَجَر المريضُ في كلامه خَلَط وهذى، والهُجر بالضم الفحش.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآن، والهمزة للإنكار، أي أفعلوا ما فعلوا من النكوص، والاستكبار، والهجر، فلم يتدبروا القرآن المعجز، ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة الاستدلال، والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾ أم منقطعة وما فيه من معنى بل للإضراب، والانتقال عن التوبيخ إلى توبيخٍ آخر، أي بل أجاءهم من الكتاب ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حتى استبدعوه، واستبعدوا نزوله، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى، سُنَّةٌ قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه ويعتقدون أن مجيء الرسل، أمرٌ على خلاف العادة، فقد عرفوا بالتواتر، أن الرسل عليهم السلام بعثوا إلى الأمم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ إضراب من التوبيخ إلى توبيخ بوجه آخر، والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً، أي بل ألم يعرفوا رسولهم ﷺ بالأمانة، والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم، مع عدم التعلم من أحد، مما

حاز به الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام؟ ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي جاحدون لنبوَّته، فهو تأكيد لما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي بل أيقولون به جنون، مع أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب عما سبق، أي ليس الأمر كذلك في حق القرآن والرسول، بل جاءهم محمد بالصدق الثابت، الذي لا تخفي صحته وحسنه على عاقل، ولا مدخل للباطل عليه بوجه من الوجوه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الأمر، فإن أكثر المشركين يكرهون الحق، لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف حيث علموا أنهم لو أقرّوه ﷺ لزالت مناصبهم ورياستهم، ولذا كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف، لا يقتضي عدم كراهة الباقين للحقِّ المبين، وإنما ذكر الأكثر لأن من اهتدى منهم أقل من القليل.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو كان ماكرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقاً لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية، لأن مناط النظام ليس إلا ذلك، وفيه من تنويه شأن الحق، والتنبيه على سموِّ مكانه، ما لا يخفى!! ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقالٌ من تشنيعهم بكراهة الحق، تشنيعهم بالإعراض عن الرغبة فيما فيه خيرهم وسعادتهم، والمراد بالذكر القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم، الذي كان يجب

عليهم أن يُقبلوا عليه أكمل إقبال، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن بلغتهم، وهو أعظم شرف لهم ﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من الإعراض والعناد ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي شرفهم خاصة ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم، ووَضع الظاهر بدل الضمير، لمزيد التشنيع عليهم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ جُعْلاً وأجراً على أداء الرسالة، انتقالٌ إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قيل: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً، فلذلك لا يؤمنون بك؟ والخَرْجُ، والخَرَاجُ: ما يحصل من غلَّة الأرض، ولذلك أُطلق على الجزية ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة خير لك يا محمد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضل من تكرَّم فأعطى ورزق.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الذي تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، ولقد ألزمهم الله عز وجل، وأزاح عللهم، في هذه الآيات، وبيَّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحق، وقلَّة فطنتهم بمصالحهم، وما يسعدهم وينجيهم من عذاب الله.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وصفوا بذلك تشنيعاً لهم، بما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإشعاراً بعلة الحكم، فإن الإيمان بالآخرة، من أقوى الدواعي إلى طلب الحق،

وسلوك سبيله ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي عن جنس الصراط لعادلون عنه، فضلاً عن الصراط المستقيم، نكب عن الطريق: عَدَل ومال عنه.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي قحط وجدب ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ أي لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار، وعداوة الرسول والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عامهين عن الهدى، ومتحيرين، روي أنه لمَّا أسلم «ثمامة بن أُثال» ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله بالسنين، حتى أكلوا الميتة والكلاب والحشرات، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يرجوه الدعاء لكشف الضر، فنزلت الآية.

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم برحمتنا، لارتدوا إلى ما كانوا عليه، من الإفراط بالكفر والعصيان، وقد كان الأمرُ كذلك، فقد عادوا إلى الفجور والطغيان بعد أن أغاثهم الله بدعاء رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ هو ما نالهم يوم بدر، وما أصابهم من فنون العذاب، من جملتها القحط المذكور، واللام جواب قسم محذوف، أي وباللهِ لقد أخذناهم بالعذاب العاجل ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا لله، بل أقاموا على العتو والاستكبار ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى[1].

---

(١) هكذا كان شأن الفجرة من طغاة مكة، لم يخضعوا لله ولم يستجيبوا لدعوة رسوله، وما رؤي منهم لينٌ وتوجه إلى الإسلام، وأما ما أظهره أبو سفيان من الاستكانة له =

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبىء عند التهويل بفتح الباب، والوصف بالشدة ﴿ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ متحيرون آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾(١) أَبْلَسَ إبلاساً: سكتَ وأَيسَ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ لتسمعوا بها الآيات التنزيلية ولتشاهدوا بها الآيات التكوينية، وخصَّهما بالذكر لأنهما يتعلق بهما كثير من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾ لتفكروا بها ما تشاهدونه وتعتبروا وتستدلوا بها إلى غير ذلك ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ أي شكراً قليلاً تشكرون تلك النعم الجليلة، لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها، وأنتم تُخِلُّون بذلك إخلالاً عظيماً، وليس المراد أن لهم شكراً وإن قلَّ، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بالتناسل ﴿ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي تجمعون يوم القيامة لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه؟.

= تعالى، فإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم له غرضه، فحاله كما قيل عن بعض الطغاة المتجبرين: إذا جاع ضَغَا، وإذا شبع طغا، وأكثرهم مستمرون على هذا الشأن.

(١) سورة الروم، آية: ١٢.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء ﴿ وَلَهُ ﴾ خاصة ﴿ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ وهو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما ازدياداً وانتقاصاً ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؟ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الكل منا! ؟.

﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ بَلۡ قَالُواْ ﴾ كفار مكة عطف على مضمر، أي فلم يعقلوا، بل قالوا ﴿ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ أي آباؤهم ومن دان بدينهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ أي سنعود إلى الحياة مرةً أخرى؟.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا ﴾ أي البعث ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أي وُعِد آباؤنا من قبل ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلاّ خرافات وأباطيل الأمم السابقة، وأكاذيبهم التي سطَّروها، جمع أسطورة كأعجوبة والأساطيرُ: الأباطيل، واحدها إسطارة وأسطورة، كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً، ولم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا.

﴿ قُلْ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾؟ من المخلوقات وأورد «مَنْ» ولم يقل «ما» تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؟ شيئاً فأخبروني به، وفيه استهانة بهم وسخرية، وتقرير لجهلهم، ولذلك أخبر بجوابهم، قبل أن يجيبوا.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن بديهة العقل، تضطرهم إلى الاعتراف بأنه خالقها ﴿ قُلْ ﴾ عند اعترافهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً، قادر على إيجادها ثانياً؟ فإن البدء ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس في قياس العقل!؟ وفيه الترغيب في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾؟ أعيد الرب تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسماوات، وجوداً وذِكْراً.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه؟ وكيف تنكرون قدرته على البعث وهو الخالق المبدع جلَّ وعلا!؟.

﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ مما ذُكر ومما لم يذكر، أي ملكه التام، والملكوتُ: الملك الواسع، والواو والتاء للمبالغة، فتنبيء عن عظم الملك ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث غيره إذا شاء ويحرسه ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ ﴾ أي ولا يغيث أحد عليه، أي لا يمنع أحد منه أحداً إذا أراده بسوء ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك!!.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ ﴾ أي لله ملكوتُ كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه ﴿ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾؟ فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد، إلى ما أنتم عليه من الغيِّ؟ فإن من لا يكون مسحوراً مختلَّ العقل، لا يكون كذلك.

﴿ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي جئناكم بالأمر الصادق القاطع، الذي لا محيد عنه من التوحيد، والوعد بالبعث ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيما قالوا من الشرك، وإنكار البعث.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ ﴾ كما يقوله النصارى، والقائلون الملائكة بنات الله، وهم مشركو مكة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ ﴾ يشاركه في الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ

﴿إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه آلهة كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خَلقه، واستبدَّ به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجاري بين الملوك ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي لغلب بعضهم على بعض، فلم يكن يقدر على كل شيء، ولم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، ثمَّ نزَّه تعالى ذاته عز وجل فقال: ﴿سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك، وحيث لم يُرَ أثر التمايز، والتغالب، في ملكوت السماوات والأرض، عُلم أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء.

﴿عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ هذا دليل آخر على انتفاء الشريك، بناءً على توافقهم في تفرده تعالى في ذلك، ولذلك رتب عليه بالفاء ﴿فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فإن تفرّده تعالى بذلك، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك، أو شبيه، أو نظير!.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما تعدهم من العذاب في الدنيا.

﴿رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي قريناً لهم، فيما هم فيه من شؤم الكفر، وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه الإنسان.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ﴾ من العذاب ﴿لَقَـٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ بالخصلة التي هي أحسن، وهي الصفحُ، والإعراضُ، والصبرُ ﴿ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ يعني أذاهم، لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين، وهو أبلغ من «ادفع بالحسنةِ السيئةَ» لما فيه من التنصيص على التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، قيل هي منسوخة بآية السيف، والصحيح أنها محكمة، إذ المداراةُ محثوث عليها، ما لم تؤدِّ إلى ثَلْم دين، أو نقصان مروءة ﴿ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي بما يصفونك به من الكهانة، والسحر، والكذب على الله، وفيه وعيد لهم، وتسلية للرسول ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي وساوسهم، وأصل الهمز: النخسُ، شُبِّه حثهم للناس على المعاصي، بهمز الرائض للدابة حتى تسرع، فالشياطين يُهيِّجون الكفار والفجَّار، على الكفر والعصيان.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ أي في شيء من أموري، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل، لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه، عن جبير بن المطعم عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهمزه»[1] قيل: نفخهُ: الكِبرُ، ونفثُه: الشِّعْرُ، وهمزُه: الجنونُ.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وابن ماجه رقم ٧٩١ باب الاستعاذة في الصلاة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ متعلق بيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء عن السفهاء بالاستعاذة من الشيطان، أن يزله عن الحلم، ويغريه على الانتقام، أي يستمرون على الوصف المذكور حتى ﴿ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ وظهر له أحوال الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطب.

﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي فيما ضيَّعتُ من عمري ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لهم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ لا محالة لتسليط الحسرة عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي أمامهم حائلٌ بينهم وبين الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجعة لما أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، بل إلى الآخرة.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ النفخة الثانية، التي يقع عندها البعث ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم لزوال التراحم، والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، بحيث «يفرُّ المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه» ولا أنساب يفتخرون بها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً، لاشتغال كلٍّ بنفسه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿وأقبل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأن هذا عند ابتداء النفخة وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي من زادت حسناته على سيئاته، فهو الفائز بالسعادة، ومن كثرت سيئاته وقلّت حسناته، فهو الشقي الخاسر، المخلّد في نار جهنم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها، واللَّفحُ كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك، لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكلوحُ: تقلُّصُ الشفتين عن الأسنان، والعبوسة[1].

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن تتلى عليكم ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا تكذِّبون بها وتسخرون؟.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا ﴿وَكُنَّا﴾

---

(١) ورد تفسير الكلوح عن النبي ﷺ، في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «تشويه النَّارُ، فتتقلَّصُ شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السُّفلى، حتى تضرب سُرَّته» أخرجه الترمذي رقم ٣١٧٥ وأحمد في المسند ٣/ ٨٨.

بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق، وهذا كما ترى اعتراف منهم، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنهم لو كانوا مجبورين على ما صدر عنهم، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وَعَدُوا الإيمان والطاعة.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هَوَانٍ، من خسأتُ الكلبَ إذا زجرته فخسأ أي ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي باستدعاء الإخراج من النار، وهو آخر كلامهم، ثم لا كلام لهم بعد ذلك، إلا الشهيق والزفير.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هم المؤمنون المستضعفون، الذين كان المشركون منهم يسخرون، وقيل: هم أهل الصفة.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي اسكتوا عن الدعاء بالإخراج من النار، لأنكم كنتم في الدنيا تستهزئون بالداعين من عبادي ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي تسخرون منهم وتضحكون عليهم، لأنكم لا تؤمنون بلقاء الله، ولا تفكّرون في حساب ولا جزاء.

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي جازيتهم على ما تحمّلوا في سبيل دينهم ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي بسبب صبرهم على أذيّتكم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي هم الفائزون بالنعيم الأبدي. فجوزوا أحسن الجزاء.

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

﴿ قَٰلَ﴾ الله تعالى ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ أي كم مكثتم أحياءً في الأرض التي تريدون أن ترجعوا إليها؟.

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، بالنسبة إلى خلودهم في النار، ولأنها منقضية، والمنقضية في حكم المعدوم ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي الحاسبين المتمكّنين من العدِّ.

قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب، المدة التي مكثوها في الدنيا.

﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

﴿ قَٰلَ ﴾ تصديقاً لهم في ذلك ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم والفهم، لعلمتم قلة لبثكم فيها، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا، في مقابلة أيام الآخرة.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء؟.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ استعظام له تعالى، أي ارتفع بذاته وتنزّه عن المماثلة في ذاته وصفاته ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فإن كل ما عداه عبيده وهو الكبير المتعال ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام، وهو أعظم المخلوقات، ووصف العرش بالكرم، لأنه ينزل منه الوحيُ، والخيرُ، والبركةُ.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ يعبده ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة جيء به للتأكيد، وتنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه، كأنه قيل: إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلاّ اللهُ عز وجل ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح الجاحد المكذب، وضع الظاهر لأن «مَنْ» في معنى الجمع، بدأت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ليظهر التفاوت الكبير بين الفريقين.

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ أمر الرسول ﷺ بالاستغفار، إيذاناً بأنه من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر، روى البغوي بسنده أن رجلاً مصاباً، مُرَّ به على ابن مسعود رضي الله عنه فرقاه في أذنه ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ إلى آخر السورة، فبرأ.

نحمد الله حمد الشاكرين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون».

* * *

سُورَةُ النُّورِ

مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾.

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، من جوامع سور القرآن ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ أي أوحينا بها إليك يا محمد في هذا الكتاب العزيز ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وإنما قال ذلك، لأن أكثر ما في هذه السورة، من باب الأحكام والحدود ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾ في تضاعيف السورة ﴿آيَاتٍ﴾ التي نيطت بها الأحكام المذكورة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على أحكامها، وتكرير الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث.

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات، الزانية

هي المرأة المطاوعةُ للزنا، لا المزنية بها كرهاً، وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل، بكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع[1] ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عاماً في حق المحصن وغيره، وقد نسخ في حق المحصن قطعاً، لأنه ﷺ رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة، وروي عن علي رضي الله عنه قال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ» والجَلْدُ ضربُ الجِلْد بالسوط ونحوه، وفيه إشارة إلى أنه لا يُبالغ فيه، والخطاب للأئمة، لأن إقامة الحد من الدين، وهو على الكل، إلاَّ أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، أو من يوكّله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي رحمة ورقَّة في طاعته، وإقامة حدِّه، فتعطّلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت رسول الله سرقتْ لقطعتُ يَدَها»[2] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من باب التهييج، فإن الإيمان يقتضي الجد، في طاعته تعالى، وذِكْرُ اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب، في مقابلة المسامحة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي لتحضره زيادةً في التنكيل، فإن التَّفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب ﴿طَآئِفَةٌ﴾ المراد به جمع يحصل به التشهير ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أقلها ثلاثة، وتسمية عذاباً دليل على أنه عقوبة.

> ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[3] هذا

---

(١) فإن قيل: لم قُدِّمت المرأة في حدّ الزنا، وأُخرت في السرقة ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾؟ فالجواب أن الزنى بدافع الشهوة وهي في المرأة أقوى، والسرقة من الجرأة والقوة وهي في الرجل أقوى.

(٢) هذا طرف من حديث شهير رواه البخاري.

(٣) إنما قدَّم الرجل هنا ﴿الزاني لا ينكح﴾ لأن هذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو =

حكمٌ مؤسسٌ على غالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزانيات، بعد زجرهم عن الزنا بهنَّ، وقد رَغِب بعضُ ضَعفَة وفقراء المهاجرين، في نكاح الموسرات من بغايا المشركين، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنُفِّروا عنه، ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغبُ إلاَّ في نكاح الزانية، فلا تحوموا حوله، كي لا تنتظموا في سلكها، أو تتّسموا بسماتها، فالآية في التزهيد في نكاح البغايا، وهو نظير قوله تعالى: ﴿الخبيثاتُ للخبيثين﴾ ورُوي أن «مِرْثَد الغَنَوي» كانت له صديقة في الجاهلية، يقال لها: «عَنَاق» فلما أتاها بمكة، دعته إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرَّم الزنا، قالت فانكحني، فقال: أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيتُ الرسول ﷺ فقلت يا رسول الله: أأنكح عَنَاقا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فنزلت الآية؟ فدعاني فقرأها عليَّ وقال: «لا تَنكِحْها»[1] وقال قومٌ: المراد من النكاح هو الجماع، وهذا قول الضحاك ورواية عن ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم..﴾ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الزانيات ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ما لا يكاد يليق بأحد من الأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبَّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً[2].

= الأصل فيه، لأنه الراغب والطالب، فلذلك قُدِّم على الزانية، بخلاف الآية السابقة فإن فيها حكم الزانيين، والمرأة فيه هي الأصل، لأنه لولا رضاها لما حدثت الجريمة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٦ والنسائي ٦/٦٦ وأبو داود رقم ٢٠٥١ كلاهما في النكاح.

(٢) ليس في الآية ما يدل على تحريم نكاح الزاني أو الزانية، وإنما مقصد الآية تشنيع الزنى، وتبشيع أمره، بأنه لا يليق إلا بالأشرار الخبثاء، فالفاسق الخبيث الذي من =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ بيانٌ لحكم العفائف، إذا نُسبْنَ إلى الزنا، ويعتبر في الإحصان ههنا العفةُ عن الزنا، والحرية، والبلوغُ، والإسلامُ، وفي التعبير بالرمي، المنبىء عن صلابة الآلات، وإيلام المرمى إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنى، بأن يقول يا زانية، أو زنيت، أما التعريض كقوله: «أمَّا أنا فما زنيتُ وليست أمي زانية» فليس بقذف، وعدم التصريح للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني، ووصفهن بالإحصان، كأنه قيل: والذين يرمون العفائف بالزنا ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن حكم رمي المحصنين كذلك، لشيوع الرمي فيهن، والتهمة لهن أشنع وأبشع ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً ﴾ أي وزيدوا في عقوبتهم بعدم قبول شهادتهم، هدراً لكرامتهم، والغرض منه الزجر، لأنه مؤلم للقلب، وقد آذى المقذوف، فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقاً ﴿ أَبَدٗاۚ ﴾ مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لأنه تتمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم، وردُّوا شهادتهم، فبقي كأصله ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، وهو مقرر لما قبله، ومبين لسوء حالهم عند الله عزَّ وجل.

= شأنه الخبث والزنى، لا يرغب في نكاح الفاضلات الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة نجسة، والفاسقة الخبيثة الزانية لا ترغب في نكاح الرجال الصلحاء الأفاضل، إنما ترغب في فاسق فاجر مثلها، وكما قيل: «إن الطيور على أشكالها تقع» وإذا زنى شاب ثم تاب وأراد الزواج بمن زنى بها ستراً عليها، فقد سئل عنها ابن عباس فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرِّم الحلال» فأفتى بجواز النكاح بالزانية، وبه أخذ الجمهور.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ استثناء من الفاسقين، كما ينبيء التعليل الآتي ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد ذلك الذنب العظيم ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي، ومنه الاستحلال من المقذوف ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فحينئذٍ لا يؤاخذهم الله بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين، وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، وجعل الأبد عبارة عن مدة القذف، فتنتهي بالتوبة، فتقبل شهادته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ جعلوا من جملة الشهداء، إيذاناً بعدم إلغاء قولهم بالمرة، وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم، في قوله تعالى: ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ ﴾ أي شهادة واحدٍ منهم ﴿ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةُ ﴾ أي الشهادة الخامسة، التي هي في مقابلة التزكية للشهود، وفيها تحقيق الخبر، وإظهار الصدق من الكذب، والبتُّ في هذه القضية الخطيرة، بأن يقول في المرَّة الخامسة ﴿ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الزوج حُبست الزوجة، حتى تعترف أو تلاعن، والحكمة من هذا التشريع الخاص بالزوجين، أن الرجل إذا رأى من زوجته ما يريبه، أو رأى معها أجنبياً، فإن قتله عوقب، ولا

يمكنه الصبر، وطلب البيِّنة منه في مثل هذه الحالة متعذر، فلذلك شرع اللعان بين الزوجين، صيانة للعرض والشرف.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الرجم ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي تقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا.

﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء يستعملن اللعن، فربما يجترئن على التفوّه به، لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، أن عويمر العجلاني جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله أم كيف يفعل، فقال ﷺ: «قد أنزل الله تعالى فيك وفي صاحبتك قرآناً، فاذهبْ فأت بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ»[1] والفرقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا تقع الفرقة حتى يفرّق القاضي بينهما، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي هي فرقةٌ بغير طلاق، توجب تحريماً مؤبّداً.

---

(١) أخرجه البخاري ٩/ ٣٢١ في الطلاق ومسلم رقم ١٤٩٢ في اللعان.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحكم، وعاجلكم بالعقوبة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ أي مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم في موضوع اللعان، لأنه تعالى لو لم يشرع اللعان لهم، لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل الله شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه، لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة لما توجه إليه من العذاب الدنيوي، وفي ذلك من الحكم البالغة، وآثار الفضل والرحمة، ما لا يخفى، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدقَّ حكمته!!.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ سبب نزولها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين أزواجه، فأيها خرج سهمها خرج بها، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق» فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، فكنت أُحْمَل في هودج، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلةً فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست

صدري، فإذا عِقْد لي من جزع أظفار ـ نوع من الخرز وهو حجر اليماني ـ قد انقطع، فرجعت فالتمستُه. فحبسني ابتغاؤه، قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحِّلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذْ ذاك خِفَافاً، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فيمَّمتُ أي قصدتُ ـ منزلي، الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المعطّل السُّلمي» قد عَرَّس ـ التعريس نزول المسافر في آخر الليل ـ من وراء الجيش، فأدلج ـ والإدلاج سيرُ آخر الليل ـ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أن يضرب الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعه ـ أي بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» ـ حين عرفني فخمّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلَّمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها، فركبتُها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرِّسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني..»[1] الحديث. قوله تعالى: ﴿جَاؤوا بِٱلإِفكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والمراد ما قذفت به الصدّيقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء، إشارة إلى أنهم أظهروا من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل ﴿عُصۡبَةٞ﴾ جماعة منهم «عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش» ومن ساعدهم ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي من جماعة المسلمين، وابن أُبيٍّ وإن كان رئيس المنافقين، فقد كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾ خوطب به رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة،

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٨/٥ في الشهادات، وفي تفسير سورة النور، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك.

وصفوان، تسلية لهم، والضمير للإفك ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله تعالى، بإنزال ثمان عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي من أولئك العُصبة ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة وهو «ابن أُبيّ» رأس النفاق فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا أيضاً فإنهم جُلدوا ورُدَّت شهادتُهم، وصار ابنُ أُبي مطروداً، ومشهوداً عليه بالنفاق، و «حسان» أعمي وصار مشلول اليدين، ومسطح صار مكفوف البصر، وكانت هذه عقوبة دنيوية عاجلة.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه، إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد التوبيخ، أي هلاَّ حين سمعتم هذا الافتراء والبهتان، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي ظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة، وبخاصة في أهل بيت النبوة، وفيه عتاب شديد، وزجر بليغ فإن وصف الإيمان يحملهم على إحسان الظن بالمؤمنين، فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع، أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات، أول ما سمعوه خيراً، فإن مقتضى الإيمان ألاَّ يصدّق مؤمنٌ على أخيه سوءاً، ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تردد ﴿وَقَالُوا﴾ في الحال ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه إفكاً، كما يقول المتيقن المطلع على الحال. قال ابن الزبير: ذلك معاتبة للمؤمنين، إذ المؤمنُ لا يفجر بأمه، وعائشة رضي الله عنها أمُّ المؤمنين، فكيف بالصِّديقة بنت الصِدِّيق، أم المؤمنين، حَرَمُ رسول الله ﷺ؟ وروي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: أما

تسمعُ ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب المكشوف، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا واللهِ، فقال: «فعائشةُ واللهِ خيرٌ منك» يريد أنها بريئة وطاهرة مطهرة من الزور والبهتان.

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي هلاَّ جاء الخائضون بأربعة شهداء، يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الخائضين ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي في حكمه ﴿ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ الكاملون في الكذب، فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله، ولذلك رتب الحدُّ عليه.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب للقذفة جميعاً ﴿ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو بعد التوبة ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، والإبهامُ لتهويل أمره، والاستهجان بذكره، يقال: خاض في الحديث، وخاض فيه ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه الجلد، لِعظَم جرمه.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ بحذف إحدى التائين، أي لمسكم ذلك العذاب العظيم

وقت تلقيكم إياه من المخترعين له ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، والتلقي، والتلقف، والتلقن، معان متقاربة، خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، وفي الثالث معنى الحِذْق والمهارة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق، ومنشأ في القلوب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً، لا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ﴾ والحال أنه عنده عزَّ وجلَّ ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في الإثم واستحقاق العذاب، وفيه دلالة على أن لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1] وإن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، فهذه ثلاثة آثام في حادثة الإفك، عُلِّق بها مسُّ العذاب العظيم: ١ ـ تلقي الإفك بألسنتهم، ٢ ـ والتحدث به من غير تحقق، ٣ ـ واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) ﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من المخترعين أو المشيعين ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً لهم ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي ما يمكننا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه، فإن قذف آحاد الناس محرَّم شرعاً، فضلاً عن التعرض للصِدِّيقة رضي الله عنها ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجبٌ ممن تفوَّه به، وتنزيه له تعالى عن أن تكون حَرَم نبيّه فاجرة ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي زورٌ يبهت من يسمع، لعظمته في المبهوت عليه، واستحالة صدقه.

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) ﴾.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ينصحكم ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أي يزجركم من أن تعودوا لمثله ﴿أَبَدًا﴾ أي مدة حياتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان وازع عنه، وفيه تهييجٌ على الامتناع عن قذف المؤمنات.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب، لتتَّعظوا، وتتأدبوا بها، أي ينزلها كذلك، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، ولهذا شرع من العقوبة، ما يضمن الحفاظ على الأعراض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الرمي بالزنا أو الزنا نفسه، فالمراد بشيوعها شيوع خبرها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يحبون الفاحشة في حق المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الحدِّ وغيره ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ من عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور، التي من جملتها ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب، للتنبيه على كمال عظم الجريمة، وجواب «لو» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لكنَّ الله رؤوف رحيم لا يعاجل بالعقوبة، وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق

«أنَّ» لبيان اتصافه تعالى بالرأفة والرحمة على الدوام، لا بيان حدوثهما بهم في هذه الحالة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولمَّا بيَّن الله سبحانه ما على أهل الإفك، شرع بتحذير المؤمنين فقال: ﴿ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ أي لا تسلكوا مسالكه، في كل ما تأتون وما تذرون، من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة بالمؤمنات ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ وضع موضع ضميرهما لزيادة التقرير ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ أي فإن الشيطان يأمركم بكل قبيح، وبما تناهى بالفظاعة والشناعة[1] ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أي لولا فضله عليكم بالتوفيق للتوبة والإنابة، وشرع الحدود المكفِّرة للخطايا ﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي أبد الدهر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى ﴾ أي يطهّر ﴿ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحمله على التوبة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سماع الأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بجميع المعلومات، لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سلَّط الله تعالى الشيطان على البشر للابتلاء، فلهم تأثيرات ظاهراً، قال الله تعالى: ﴿زيَّن لهمُ الشيطانُ أعمالَهمْ﴾ وباطناً قال الله تعالى: ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾ فبرحمته تعالى لا يراهم البشر، لخبث صورتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي لا يحلف، نزلت في شأن الصدّيق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفق على «مِسْطح» بعد أن تكلم في عائشة، وكان ينفق عليه، لكونه ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي في الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصدِّيق وشرفه ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على أن لا يؤتوا ﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء، أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين، شيئاً ممّا كانوا يعطونهم من المال والإحسان، لذنب فعلوه ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغضاء عنهم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؟ بمقابلة عفوكم، وصفحكم، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة، فلما قرأها الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه قال: بل أحبُّ أن يغفر الله لي، وردَّ لمسطحٍ نفقته[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي العفائف بالفاحشة ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً، ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان الحقيقي، مع طهارة القلب، والمراد بهن زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات، للتغليظ الذي ورد من ذكر اللعن في حق من قذفهن، قال ابن عباس: «هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة»[2]. ولا ريب في أن رمي غير أمهات

---

(١) انظر سبب النزول مفصلاً في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».
(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠.

المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إياهنَّ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهنَّ كفراً، إبرازاً لكرامتهن، وحماية لحمى الرسالة، من أن يحوم حوله أحد بسوء، فمن أذنب ذنباً ثم تاب منه، قبلت توبته، إلاَّ من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وهل هو إلا لتهويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ، ولهذا قال ﴿لُعِنُوا۟﴾ أي بما قالوه في حقهن ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين، والملائكة أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائلٌ، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية، سئل سعيد بن جبير عمن قذف مؤمنة، هل يلعنه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: ذاك لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصل بما قبله، أي في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتنطق الألسنة، والأيدي، والأرجل، بما اقترفت من سيِّىء الأعمال، وقبيح الفعال، ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها، أنه تعالى ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارحة منها ما صدر عنها، ففيه من ضروب التهويل، بالإجمال والتفصيل، ما لا مزيد عليه.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة، يعطيهم الله جزاءهم الثابت العادل، وافياً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوال، حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي العادل الثابت، الذي لا يظلم أحداً شيئاً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المظهر للأشياء كما هي في نفسها، ولو تتبعت ما في القرآن

المجيد من آيات الوعيد، لا تجد شيئاً منها فوق هذا التشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ وإبراز رتبة الصديقة في النزاهة عما نُسب إليها.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ ﴾ من النساء ﴿ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ من الرجال، أي مختصات بهن ﴿ وَٱلْخَبِيثُونَ ﴾ من الرجال ﴿ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ من النساء، لأن المجانسة من دواعي الانضمام ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ من النساء ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الرجال ﴿ وَٱلطَّيِّبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ منهن، وحيث كان ﷺ أطيب الأطيبين، تبيّن كونُ الصدِّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلانُ ما قيل في حقها، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بعلوِّ الشأن، مُبَرَّؤون مما يقوله أهل الإفك في حقهم، وقيل معنى الآية: الخبيثاتُ من القول، للخبيثين من الرجال والنساء، أي لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم، وكذا الخبيثون من الفريقين، أحقاء بأن تقال في حقهم خبائث القول، والطيبات من الكلم للطَّيِّبين من الفريقين فمآله تنزيه الصديقة أيضاً ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة، وإلى هنا تمت قصة أهل الإفك ثم بيَّن تعالى آداب دخول البيوت، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا ﴾ وبعد ما فصَّل الزواجر عن الزنا، وعن رمي العفائف، شرع في تفصيل الزواجر عمَّا يؤدي لأحدهما، من

مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وتعليمهم الآداب الجميلة، فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ أي لا تدخلوا على أحدٍ في مسكنه وبيته الذي يسكنه وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ خارج مخرج العادة، التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلاَّ فالمؤجّر والمعير أيضاً، منهيَّان عن الدخول بغير إذن ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي تستأذنوا من أصحابها، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيء إذا أبصره، آنست شيئاً علمته وآنسته أبصرته ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان، بأن تقولوا السلام عليكم، أأدخل؟ فإن أذن له دخل وإلاَّ رجع، لما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذن له، فلْيرجع»[1] وروي عن كُرز بن حنبل قال: دخلتُ على النبي ﷺ ولم أسلِّم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقلْ السلامُ عليكم، أأدخل؟»[2] وروى عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم» فقال الرجل: فإني خادمها، فقال ﷺ: «استأذن عليها، أتحبُّ أن تُرَىٰ عُريانة»؟[3] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتة، وخير من تحية الجاهلية، كقولهم حُيِّيتم صباحاً، أو مساءً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بموجبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٢٣ ومسلم رقم ٢١٥٣ في قصةٍ جرتْ لأبي موسى الأشعري مع عمر رضي الله عنهما، فطلب عمر منه البيّنة، وهدَّده بالعقوبة إن لم يأت بها.

(٢) أخرجه أبوا داود رقم ٥١٧٧ في الأدب وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٦٣ والطبري في تفسيره ١٨/١١٢.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي ممن يملك الإذن من أهل البيت، وعبارة النصّ هو النهيُ عن دخول البيوت الخالية، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً، وأمَّا حرمةُ دخول ما فيه النساء، والولدان، فثابت بدلالة النص، لأن الدخول حيث حُرم مع ما ذكر من العلة، فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى ـ أعني الاطلاع على العورات ـ أولى ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي إن أُمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع فارجعوا، ولا تُلحُّوا بتكرير الاستئذان، وكلِّ ما يؤدي إلى الكراهة، من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك، فإنه مما يقدح في المروءة ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر وأنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون، فيجازيكم عليه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اطَّلع في بيت قوم، بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤوا عينه»[1].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ أي بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليتمتَّع بها من يضطر إليها، كالرباط، والخانات، والحوانيت، ونحوها، فإنها معدة لمصالح الناس كافة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي فيها حق تمتع لكم،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/٢٤٣ فتح الباري، ومسلم في الآداب رقم ٢١٥٨ وفي الحديث الشريف «كلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامة، إلاَّ عينٌ غضَّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» أخرجه الترمذي.

كالاستظلال من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، والاغتسال، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ممن يتولى أمرها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل للفساد.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ شروعٌ في بيان أحكام شاملة للمؤمنين، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، ومفعول الأمر أمرٌ آخر، وقد حذف تعويلاً على دلالة جوابه، أي قل لهم غضوا ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي يصرفوا أبصارهم عمَّا يحرم النظر إليه، ويقتصروا على ما يحلُّ، وإنما خصَّ المؤمنين بذلك، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ إلاَّ على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، وتقييد الغضّ «بمن» التبعيضية، دون الحفظ، لما في أمر النظر من السعة[1]، وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغضّ والحفظ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أي أطهر لهم من دنس الريبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، فليكونوا على حذر منه، في كل ما يأتون وما يذرون، وفيه ترغيبٌ وترهيب، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2] قال أبو العالية: كلُّ ما في القرآن من حفظ الفرج، فهو الحفظُ عن الزنا، إلاَّ ههنا فإنه تعالى أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصرُ الإنسان عليه، روي عن أبي سعيد الخدري أن

---

(١) فإن قيل: ما فائدة قوله «منْ» في غضّ البصر، دون حفظ الفرج؟ فالجواب: فائدته أنَّ حكم النظر أخفُّ من حكم الفرج، إذ يحلُّ النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحلُّ إلى شيء من فروجهن، فأمر الفروج أعظم وأخطر.

(٢) سورة غافر، آية: ١٩.

رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجلُ إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوبٍ واحد، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأة في الثوب الواحد»[١]. وعن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نَظَر الفَجْأَة، قال: اصرفْ بَصَرك»[٢] وعن بريرة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا تُتبعِ النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»[٣].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليه من الرجال، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، إذْ أقبل ابنُ أمّ مكتوم، فقال ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟»[٤]

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٣٣٨ باب تحريم النظر إلى العورات.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٥٩ باب نظر الفجأة.

(٣) رواه أبو داود رقم ٢١٤٥ في النكاح والترمذي رقم ٢٧٧٧ في الأدب.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٧٧٩ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر والتصوُّن عن الزنا، وتقديم الغضِّ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفساد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي، والخِضَاب، والزينةُ ما تضعه المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب، وفيه من المبالغة في النهي عن إبداء موضعها ما لا يخفى ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدَّ منها عادة، فإن في سترها حَرَجاً بيِّناً، وقيل: المراد بالزينة: مواضُعها، على حذف المضاف، وما يعم المحاسن الخلقية، والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنهما ليسا بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة، لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمحرم، النظر إلى شيء منها، إلا لضرورة كالمعالجة، وتحمُّل الشهادة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت النساء على عادة الجاهلية، يسدلن خمرهنَّ من خلفهنَّ، فتبدو نحورُهنَّ مكشوفةً عارية، وتظهر قلائدهنَّ من جيوبهنَّ، فأمرن بإرسال خمرهنَّ إلى جيوبهن[1]، ستراً لما يبدو منها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي مواضع الزينة، كالعُنق، والأذن، والصدر، والمعصم، فإن هذه أماكن الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهنَّ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائِب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ المختصات بهنَّ بالصحبةِ، والخدمة، من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، ولأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والذميَّةُ والكافرة ليست من نسائنا، ولأنها أجنبية في الدين، كتب عمر رضي الله عنه إلى

(١) الخُمُرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوبُ جمع جيب، وهو ما جيب من القميص، أي قطع لإدخال الرأس، والمعنى: وليلقين مقانعهن على جيوبهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأعناقهن عن الأجانب، وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة، لا يجوز للأجنبي النظر إليها.

أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي من الإماء، فإن عبد المرأة، بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم سورةُ النور، فإنها في الإماء دون الذكور وقيل: من الإماء، والعبيد، وهو ظاهر القرآن، روي ذلك عن أم سلمة وعائشة، وروى أنس «أن النبي ﷺ أتى إلى فاطمة بعبد، قد وهبه إيَّاها، وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليْها، وإذا غطّت به رجليْها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامك[1]» ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمون وقيل: هم البُلْهُ الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي الأطفال الصغار لعدم تمييزهم ولعدم بلوغهم حدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلي، بعد النهي عن إبداء عينها من المبالغة، والزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى، وإذا كان سماع صوت خلخالها للأجانب حراماً، كان رفع صوتها بالكلام، أو الغناء بحيث يسمعه الأجانب حراماً بطريق الأولى، لأن صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل، لإبراز كمال العناية بأمر التوبة، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين، عن نوع تفريط وتقصير في إقامة موجبات التكاليف، لا سيما إذا كان المأمور به الكفّ عن الشهوات، وفي قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوجوب، وإيذانٌ بأن وصفَ الإيمان موجب للامتثال حتماً ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنالوا رضى الله، وتفوزوا بسعادة الدارين.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث أنس، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٩٦.

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ﴾ بعدما زجر اللهُ تعالى عن السفاح ومباديه، أمر بالنكاح ورغَّب فيه، فإنه مع كونه مقصوداً لبقاء النوع الإنساني، هو مزجرة عن ارتكاب الفاحشة، وأجمع السلف على أن الأمر للندب، وقيل في الآية دليل على أن تزويج الأيامى للأولياء، قلنا: الرجلُ لا يلي على الرجل الأيِّم إلاَّ بإذنه من الأحرار، وكذا لا يلي على المرأة إلاَّ بإذنها، لأن الأيِّم ينتظمهما ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيِّم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء والأيِّـمُ: العَـزَبُ رجـلاً كـان أو امـرأة، فيقـال رجـلٌ أيِّـمٌ، وامـرأة أيِّـم، والمعنى: زوّجوا من لا زوج له ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ الخطاب للأولياء والسادات، واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لا صلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، بل حقه أن لا يستبقيه عنده، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم، وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ أي لا يمنعنَّ فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن فضل الله يغنيه عن المال، فإنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، وفيه وعدٌ منه سبحانه بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾[1] ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غني ذو سعة، لا ينقصه إغناء الخلائق، إذ لا نفاد لنعمته، ولا غاية لقدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمةُ، والمصلحةُ. عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة»[2].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧.

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادىء النكاح وأسبابها، أي ليجتهدْ في العفة وقمع الشهوة ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي أسباب النكاح ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف بهم، وتقويةٌ لقلوبهم بأن فضله تعالى أولى بالصلحاء، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فَلْيتزوَّجْ، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفَرْج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»(١) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي والذين يطلبون المكاتبة، ليتحرروا من رقّ العبودية، والكتاب مصدر كَاتَب كالمكاتبة، أي يطلبون المكاتبة ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ عبداً كان أو أمة، وهي أن يقول المولى لمملوكه: كاتبتُك على كذا درهماً تؤديه إليَّ وتعتق، ويقول المملوك قبلتُه، أو نحو ذلك فإن أداه إليه عتق ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ والأمر فيه للندب، لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها، ويجوز حالاً ومؤجَّلاً، وعند الشافعي لا يجوز إلاَّ مؤجلاً ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أي أمانة ورشداً، أو قدرة على أداء المال، بتحصيله من وجه حلالٍ، وصلاحاً في الدين ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي ببذل شيء من أموالكم، وفي حكمه حطُّ شيء من مال الكتابة، ويكفي فيه أقل ما يتمول، وعن علي حطُّ الربع، وعن ابن عباس الثلث، وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب، وإضافة المال إلى الله تعالى، ووصفه بإيتائه للحث على الامتثال

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤/١٠٦ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٠.

بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب، وقيل: هو أمر ندب للعامة، بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم، ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً، لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة، ولنا هدية» ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ أي إماءكم، وهذه العبارة في هذا المقام ﴿فتياتكم﴾ لها حسنُ موقع، لقوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء، لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون العجائز والصغار ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي عند إرادتهن التعفف عن الزنا، لبيان شناعة عادتهم الجاهلية، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهنَّ يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، روى مسلم عن جابر قال: كان عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول يقول لجاريته: اذهبي فابغنا شيئاً، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ﴾[2] الآية، وفيه تقبيح لحالهم وبيان ما كانوا عليه من الفجور ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تفعلوا ما أنتم عليه، من إكراههن على البغاء، لطلب المتاع السريع الزوال، الدنيء الكسب ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ أي ومن يجبرهنَّ على الزنا، فعقوبة المُكْرِه تقع على من أكرهه، والله يغفر زلة المُكْرَه على الفعل ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهنَّ لعدم رضاهنَّ، ولا يرد عليه أن المكرَهة غير آثمة، فلا حاجة إلى المغفرة، لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذة بالذات، ولذا حرم على المُكْرَهِ القتلُ، وأوجب عليه القصاص.

---

(١) سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٩ وأبو داود رقم ٢٣١١ في الطلاق، باب تعظيم الزنى.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما بكم من حاجة إلى بيانه، من الحدود، والآداب وسائر الأحكام ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم، من القصص العجيبة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون به، وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم المنتفعون، وإن كانت للكل.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي الله جلَّ وعلا منوِّر الكائنات، بنوره يهتدي أهل السماوات والأرض، وهذا تمثيل، حيث مثَّل لهدايته بالنور الوضاء، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ وكثيراً ما يُطلق النور على الهدى، والظلام على الكفر، كقوله سبحانه: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾. قال ابن عباس في تفسير الآية: أي هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء وهو نور الإيمان في قلب العبد المؤمن[1] أي صفة نوره العجيبة

---

(١) فإن قيل لمَ مثَّل سبحانه، نور معرفة الله تعالى، في قلب المؤمن، بنور المصباح، =

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي كصفة كوَّة غير نافذة في الجدار، مثلها في الإنارة والتنوير ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ متلألىء، وقَّاد، شبيهٌ بالدر في صفائه وزهرته، شبَّهه بالكوكب دون الشمس والقمر لأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي يبدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي كثيرة المنافع تنبُت في الأرض المباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ في إبهامها، ووصفها بالبركة، ثم الإبدال منها، تفخيمٌ لشأنها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ كالتي على ربوة أو في صحراء واسعة، فتقع عليها الشمسُ، حالتي الطلوع والغروب ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة، بحيث يضيء بنفسه، من غير مساس نار أصلاً ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ كلمة «لو» في أمثال هذه المواضع، لبيان تحقق ما يفيده الكلام ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي ذلك النور نور عظيم، كائن على نور، فهو نور متضاعف، فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له، وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، كذلك الزيت، روي عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: «المشكاةُ جوفُ الرسول، والزجاجةُ قلبه، والمصباحُ النور الذي جعله فيه، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة مباركة أي شجرة إبراهيم عليه السلام» ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته، وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية وفي باب الإرشاد، ولذلك مثَّل نوره المعبر به عن القرآن المبين، بنور المشكاة، تقريباً إلى أفهامهم، وتسهيلاً لسبيل

= دون نور الشمس؟ فالجواب لأن المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدرُ في البدن، فناسب التمثيل له بنور المصباح في كوة الجدار.

إدراكهم، ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر، فلا بدَّ من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى، فتكون منزلةُ الآيات القرآنية عند عين العقل، بمنزلة نور الشمس عند عين الباصرة، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[1].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ المراد بالبيوت المساجد كلها، حسبما روي عن ابن عباس، وقيل: هي المساجد التي بناها الأنبياء عليهم السلام، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، وتنكيرها للتفخيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي أمر ببنائها رفيعة لعبادة الله تعالى فيها ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ المراد باسمه تعالى ما يعمُّ طرق العبادة، أي يعبد فيها الله بذكره، وتلاوة آياته البينات، ومجالس الفقه، وحِلَق الذكر، الخ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي يُنزِّه ويقدّس، ويصلي فيها لله سبحانه ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء وسائر الأوقات.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رِجَالٌ﴾ خصَّ الرجال بالذكر، لأن النساء لسن من أهل التجارة ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ صفة للرجال مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة

---

(١) سورة التغابن، آية: ٨.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي لا يلهيهم البيع والشراء عن عبادة الله وإن كان في غاية الربح ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجها للمستحقين، وإيراده ههنا لكونه قرينة للصلاة لا يفارقها، على أن محاسن أعمالها غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني هؤلاء الرجال وإن بالغوا في ذكر الله وطاعته، فإنهم مع ذلك خائفون، وليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي تضطرب وتتغير في. أنفسها من الهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يفعلون ما يفعلون، من المداومة على العبادات ليجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعد لهم، بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وهو سبحانه يعطي عطاءً واسعاً، بلا حدّ ولا عدّ، من شاء من عباده، وفيه التنبيه على أن مناط الرزق المذكور، محضُ مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المؤمن ومآله، ذكر جزاء الكافر وخسرانه، أي وأمّا الكافرون الجاحدون لفضل الله ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ أي فإن أعمالهم التي هي من أعمال البر، كصلة الأرحام، وسقاية الحاج، ونحو ذلك ﴿ كَسَرَابِۭ ﴾ وهو ما يُرى في الفَلوات، فيظن أنه ماء من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ﴿ بِقِيعَةٖ ﴾ أي كائن في قاع، وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً، وهذا تكميل للتشبيه في شدة الخيبة، عند مسيس الحاجة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماءً ﴿ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ أي لم ير شيئاً، لا ماءً ولا شراباً، وإنما شاهد سراباً فعظمت حسرته ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفّاه جزاء عمله، وهكذا إذا جاء الكفرة يوم القيامة، بأعمالهم التي كانوا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا الله، أي حكمه وقضاءه عند المجيء، فأعطاهم حسابهم وعذابهم وافياً كاملاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعَاً﴾(١) وقوله: ﴿مثل الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾(٢).

> ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ ﴾ كلمة «أو» للتنويع، مُثّلت أعمالهم القبيحة، التي ليس فيها شائبة خيرية، بظلمات كائنة ﴿ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ ﴾ أي عميق، منسوب

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

إلى اللُّجِّ وهو معظم ماء البحر البعيد القعر ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة، بعضها على بعض ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ أي فوق ذلك الموج، سحاب ظلماني، سَتَر أضواءَ النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات، كما أن قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيان لقوة النور ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ أي من ابتلي بها ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينيه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهي أقرب شيء منه لشدة الظلمة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره، الذي هو القرآن، ولم يوفقه للإيمان به، بسبب أفعالهم وأفكارهم الشنيعة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي فما له هداية ما من أحدٍ أصلاً، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه: أحدها ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وللكافر ظلمات ثلاث: ظلمةُ الاعتقاد، وظلمةُ القول، وظلمة العمل، وثانيها شبَّه بها ظلمة قلبه، وظلمة سمعه، وظلمة بصره، فهو كالأعمى الأصمّ الأبكم، وكالبهيمة التي لا تعقل ما يفعل بها[1].

---

(١) ضرب الله سبحانه مثلين للكفرة ولأعمالهم: المثل الأولُ يقتضي بطلان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة، فلم ينتفعوا بها، فشبَّه أعمالهم في ضياعها وفقدان ثمرتها، بسراب في مكان منخفض، ظنه العطشان ماءً، فقصده وأتعب نفسه في الوصول إليه، حتى إذا جاء إلى مكان السراب الذي تخيَّله، لم يجد شراباً ولا ماءً، وظهرت له الحقيقة أنه سراب، ففقد أمله في النجاة، كذلك الكافر يظن أن عمله نافعه، حتى إذا أفضى للآخرة وجده هباءً منثوراً، وإلى هذا المثل الإشارة بقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة..﴾ الآية، أما المثل الثاني فقد شبَّه تعالى أعمال الكفار بالظلمات المتكاثفة التي لا يرى معها الإنسان شيئاً، وبخاصة إذا كان في وسط البحر، وغطت ظلمات السحاب كل شيء حوله، وعلاه الموج من كل مكان، فصار الظلام حوله شبحاً مخيفاً، بحيث لا يكاد يرى يده وهي أقرب شيء إليه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أو كظلمات في بحر لجي =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور، وبيّن له أسرار الملك والملكوت، أدقَّها وأخفاها، والهمزة للتقرير، أي قد علمت علماً يقينياً بالوحي والاستدلال ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ أي ينزّهه تعالى على الدوام، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ينزهه عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ما فيهما من العقلاء وغيرهم، فإنَّ كلَّ موجود من الموجودات، من حيث ماهيتُه ووجوده، يدلُّ على وجود الصانع الواجب الوجود، المتصف بصفات الكمال، وقد نبه على كمال قوة الدلالة، بما يخصُّ العقلاءَ من التسبيح، الذي هو أقوى مراتب التنزيه، تنزيلاً للسانِ الحال، منزلة لسان المقال، كأنّ كلَّ شيء عاقل ناطق، ومخبر صادق، يسبّح الله تعالى، وخلق العقلاء أشد دلالةً على وجود الصانع تعالى، لأن الغرائب في خلقهم أكثر، وهي العقل، والنطق، والفهم ﴿ وَٱلطَّيْرُ ﴾ تخصيصها بالذكر، لاستقلالها بصنع بارع، حيث تسبح في جو السماء تسبح الله ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ أي تسبّحه تعالى، حال كونها صافات أجنحتها، فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة، ما تتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف تشاء، حجة نيرة، وآية بينة، دالة على كمال قدرة الصانع جلَّ وعلا ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أي كل من الملائكة، والإنس، والطير، قد أرشده الله وهداه لطريقته ومسلكه في عبادة ربه، والضمير يعود إلى الطير ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بما يفعلونه، لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم

= يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ الآية، وإنه لتشبيه بديع في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وقيل: الضمير، يعود على الله، أي قد علم الله صلاة كل واحدٍ، ممَّا في السمـاوات والأرض، وتسبيحَـه، ولا غـرابـة أن تسبِّـح الطيـر، والأشجـار، والأنهار، فكلٌّ ما في الكون يسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ من شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (١) وقال بعض المتفلسفة: إذا كانت الطير عارفة بالله، كانت كالعقلاء، لكنها ليست كذلك، لأنها أشد نقصاناً من الصبي، الذي لا يعرف، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله، استحال كونها مسبِّحة له بالنطق، فثبت أنها لا تسبِّح الله إلاّ بلسان الحال، وللرد على هذا نقول: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم بعض الحيوانات، أعمالاً لطيفة، يعجز عنها العقلاء، وإذا كان كذلك فلمَ لا يجوز أن يُلهمها معرفته، ودعاءه، وتسبيحه، فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل، في اصطياد الذباب، وفي النحل وما لها من الرياسة، وبناء البيوت، وانتقال الكركي واللقالق من أطراف العالم، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش، وناقر الخشب ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ونحو ذلك، فإلهامه تعالى لكل نوع من المخلوقات علوماً دقيقة، لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العلماء، مما لا سبيل إلى إنكاره، فلماذا ينكر الجاحد تسبيح الطيور والأشجار؟.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي إلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، واللفظ مع وجازته، فيه دلالة على تمام علم المبدأ، والمعاد.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ أي يسوقه إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أي بين أجزائه، بضم بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي متراكماً، والرَّكْمُ جمعك شيئاً فوق شيء، حتى تجعله مركوماً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ من فتوقه ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي ينزّل من الغمام، فإنَّ كل ما علاك سماء ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ أي من قِطَعِ عظامٍ تشبه الجبال في العظم، كائنة ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ أي ينزّل من السماء من جبال، فيها بعض برد، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت إن كانت قليلة وكان في الهواء ما يحلل ذلك البخار، فحينئذٍ ينحلُّ وينقلب هواءً، وإن كان كثيراً ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، واجتمع هناك صار سحاباً، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً، وكلُّ ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى، ومشيئته المبنيّة على الحِكَم، والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي بما ينزله من البرد ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يصيبه به فيناله ما يناله من ضرر، في نفسه وما له ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، من حيث إنه توليد للضدِّ من الضدِّ، لأن البرق لا بدَّ أن يكون من نار، والنَّارُ ضدُّ الماء.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وبنقص أحدهما وزيادة الآخر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فُصِّل آنفاً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالةً واضحةً على

وجود الصانع، ووحدته، وكمال قدرته ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لمن له بصرٌ وبصيرة، وهذا من الدلائل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو أحد العناصر الأربعة، أو من ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية والديدان، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدوابِّ، والوحش ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذُكر وممَّا لم يُذكَر على ما يشاء من الصور، والهيئات، والحركاتِ، والطبائع مع اتحاد العنصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء، من الصور والأعضاء.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وهو القرآن وما فيه من الدلائل البيّنات، لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشاده إلى التأمل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الموصل إلى الحق، وإلى الفوز بالجنة.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نزلت في «بِشْر» المنافق، وكان قد خاصم يهودياً في أرضٍ، وكان اليهودي يدعوه إلى رسول الله ﷺ، والمنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف زعيم المنافقين، فيأبى أن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ أي أطعنا أمر الله ورسوله ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعدما صدر عنهم من ادعاء الإيمان ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي وما أولئك الذين يدَّعون الإيمان والطاعة ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام، أي من المعهودين بالإخلاص.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إلى حكم الله ﴿ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنه ﷺ المباشر حقيقة، والحكم حكم الله سبحانه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة، لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه ﷺ يحكم بالحق، وهو شرح للتولي والإعراض.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين والإذعان: الإسراعُ في الطاعة والانقياد، أي يسرعون لجزمهم أنه ﷺ يحكم لهم، لأنهم في هذه الحالة على حق.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟ أي كفر ونفاق ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾؟ في نبوته ﷺ مع ظهور حقيّتها ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ أي أم أنهم يخافون أن يجور رسول الله ﷺ عليهم في الحكم؟ ثم أضرب عن الكل، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بل هم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية بيان لحقيقة الإيمان، وصفة المؤمن، أي إنما كان الواجب عليهم، والقول الصادر عن المؤمنين الصادقين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بينهم وبين خصومهم، ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ أي أن يقولوا سمعاً وطاعة، ويسارعوا إلى قبول حكمه ﷺ وهكذا شأن المؤمن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدق القول ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله، أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، في كل فعل وعمل، ويقبل بحكم الرسول ﷺ مع التسليم والإذعان ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ أي يخاف الله تعالى على ما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم، وهي جامعة لأسباب الفوز والسعادة، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية شافية، فَتُلِيَتْ له هذه الآية، لأنها جمعت أصول الإيمان، والطاعة، وأسباب السعادة!.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالأيمان الفاجرة، أي أقسموا بالله بالغينَ أقصى مراتب اليمين في الشدة ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي ليخرجن معك للجهاد، وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة، أمر ﷺ بردّها ﴿ قُل ﴾ رداً عليهم ﴿ لَّا تُقْسِمُوا ﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة، وأفعالكم تكذب أقوالكم ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقسموا على ما تدّعون من الطاعة، لأن طاعتكم طاعة نفاقية، لا إيمانية، لأنها باللسان دون القلب، وإنما عبر عنها «بمعروفة» للإيذان بأن كونها كذلك، مشهورة ومعروفة لدى كل أحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب، وما تضمرونه من النفاق والضلال.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر لإبراز كمال العناية به، فإن شأن المؤمن الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ خطابٌ للمأمورين بالطاعة، من جهته تعالى، واردٌ لتأكيد الأمر بها، والحمل عليه، بالترهيب والترغيب، أي إنْ تتولوا عن الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ ﷺ ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي ما أمر به من التبليغ، ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي ما أُمرتم به من الطاعة، والتسليم، ولعلَّ التعبير بالتحميل، للإشعار بثقله، وكونه مؤنةً باقية في عهدتهم، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي

وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق النجاة والسعادة، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا وضع الإيمان في قلوب الناس.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لتفاصيل ما أجمل فيه من الوعد، أي وعد الله عباده المؤمنين، كل من اتصف بالإيمان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وعملوا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله وطلباً لرضوانه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء، متصرفين في الأرض، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عزَّ وجلَّ في فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أي وليجعلنَّ دينهم ثابتاً، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وهو الدين الذي ارتضاه لهم بقوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بحيثُ يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل شؤونهم، والتعبير عن ذلك بالتمكين الذي جعل الشيء مكاناً لآخر، للدلالة على كمال ثبات الدين، ورصانة أحكامه، وتشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ أي من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يصبحون في السلاح، ويمسون كذلك، حتى قال رجل منهم: ما يأتي يوم علينا، نأمن فيه؟ فأنزل الله هذه الآية، وأنجز وعده له، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حال يخافهم كلٌّ من عداهم، وفيه من الدلالة على صحة

النبوة، للإخبار بالغيب ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري، وهو مفيدٌ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي يعبدونني غير مشركين معي في العبادة أحداً ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي اتصف بالكفر، ولم يتأثر بما مرَّ من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد، كفر مستأنف، زائدٌ على الأصل، أو كفر بعد الإيمان ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ذلك الوعد ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن الحق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق والطغيان، والاستخلافُ الذي وُصف، إنما كان في أيام، أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وحصل له التمكينُ، والأمنُ، وظهورُ الدين.

قال الروافض: نحمله على الأئمة الإثني عشر، وهو باطلٌ، لأن قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يدلُّ على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين في زمن النبي ﷺ وما وعدهم به من القوةِ والشوكة لم يوجد في الأئمة الاثني عشر، وقال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه فلما فعلوا ذلك غيَّر الله تعالى حالهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أدُّوا يا معشر المؤمنين الصلاة التي فرضها الله عليكم، وادفعوا زكاة أموالكم إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً ﷺ في سائر ما أمركم به، لتنالوا رحمة الله.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمّا بيّن حال من أطاعه ﷺ، عقّب ذلك ببيان حال من عصاه، ومآل أمره، تكميلاً لأمر الترغيب والترهيب، والخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح له، كائناً من كان ﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي لا تحسبنهم معجزين الله عزَّ وجلَّ، عن إدراكهم وإهلاكهم، في قطر من أقطار الأرض بما رحبت، وإن هربوا فيها كل مهرب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ معطوف على جملة مقدرة كأنه قيل: لا تحسبن الذين كفروا معجزين ربهم في الأرض، فإنهم مدركون ومأواهم النار، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى، إثر نفي قوتهم بالهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه، فللهُ درُّ شأن التنزيل ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جواب لقسم مقدَّر، أي وبالله لبئس المصير والمسكن نار جهنم، والجملة جوابٌ مقرر لما قبله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي، الواردة فيها، روي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد، دخل عليها في وقت كرهته، فنزلت ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من العبيد والجواري، وظاهر قوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يدخل فيه البالغون، والصغار، وعن ابن المسيّب رحمه الله قال: لا يغرنكم قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدُها إلى قرطها، وشعرها، وشيء من محاسنها، وعن ابن عباس أن المراد

الصغار ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ، والتعبير عنه بالحُلُم، لكونه أظهر دلائله ﴿مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة، لأنه تعالى فسَّرها بالأوقات، وإنما قيل ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنه تعالى أراد مرة في كل وقت ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ التي تلبسونها في النهار، وتخلعونها لأجل القيلولة ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدة الحر، عند انتصاف النهار، والتصريحُ بوضع الثياب في هذا الحين، لما أن التجرد عن الثياب فيه قليل، أمَّا في الوقتين المذكورين، فالتجُردُ متحققٌ ومعروف لا يحتاج إلى التصريح ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ضرورة أنه وقت للتجرد عن اللباس، والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ أي ثلاث أوقات هي التي يبدو فيها انكشاف العورة، وقيل للسوءة عورة: لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الإنسان أنفةً وحياء، عورة أُطلقت على الأوقات المذكورة مبالغة، كأنها نفس العورة ﴿لَّكُمْ﴾ أي كائنة لكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌۢ﴾ أي إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات، وهي الأوقات المتخلّلة بين كل اثنين منهنَّ ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بيان للعذر وتعليل له، أي لأنهم خَدَمُكم يطوفون عليكم للخدمة، ولو كُلِّفوا بالاستئذان في كل مرة، لضاق الأمر عليهم، ومعنى الطواف: الدَّورانُ، أي يمضون ويجيئون عليكم لخدمتكم، ولهذا رخَّص تعالى لهم في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضرورية، وفيه دليل على تعليل الأحكام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام، يعني ينزّلها بينة واضحة الدلالة عليها، لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم، معاشاً ومعاداً.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ لما بيَّن حكم الأطفال، في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، عقَّب ببيان حالهم بعد البلوغ، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب سن الرشد ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فليسأذنوا في جميع الأوقات ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة في أمر الاستئذان.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي النساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، والحمل، ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ ﴾ جمع قاعد، لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالحائض ﴿ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي إذا بلغن في السنِّ، بحيث لا يرغب فيهن الرجال لكبرهنّ، وهي العجوز التي إذا رآها الرجل لم يَشْتَهِها، أما من فيها بقية جمال فهي محل الشهوة، فلا تدخل في حكم هذه الآية، وإنما خصهن الله بذلك، لأن التهمة مرتفعة عنهن ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه، والملحفة التي فوق الخمار، وأما الخمار فلا يجوز إزالته ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمر الله بإخفائها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بترك الوضع ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يعلم خفايا

النفوس، فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم مقاصدهن، وفيه من الترهيب والوعيد ما يكفي اللبيب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الحرج في اللغة: الضِّيقُ، ومعناه هنا الإثم، وقد كان هؤلاء الطوائف، الأعمى، والأعرج، والمريض، يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيهم، بأفعالهم وأوضاعهم، وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم، أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتحرجون من الأكل معهم، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو، وخلَّفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعذورة إثم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي عليكم وعلى ما يماثلكم من المؤمنين حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها عيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيتهم كبيته،

لقوله (ﷺ): «أنت ومالُكَ لأبيك» ولأنّه سبحانه عدَّد الأقارب، ولم يذكر الأولاد، وإذا كان السبب في الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ من البيوت التي تملكون التصرف فيها، بإذن أربابها، على الوجه الذي مرَّ بيانه، ومثله وكيل الرجل في ضيعته أو ماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من أثر ضيعته، ويشرب من ماشيته ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء، ويحكى عن الحسن البصري رحمه الله أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، قد أخرجوا من تحت سريره، سلالاً من أطايب الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، يريد كبراء الأصحاب رضي الله عنهم، والصَّدِيقُ: يقع على الواحد والجمع، والصديق الصادق اشتقاقه من الصدق، لأنه أخلص الودَّ والنصح لصاحبه، وهذا فيما إذا عُلم رضاء صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، وخُصّص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ حكم آخر من جنس ما قبله، فقد كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا. أشتاتاً جمع شتٌّ بمعنى مفترق، والشتات: الفرقة، أي ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا ﴾ من البيوت المذكورة، وهو بيان للآداب الاجتماعية ﴿ فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية، وإن دخلتم بيوتاً فارغة، أو مسجداً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه ﴿ مُبَٰرَكَةً ﴾ باركها الله تعالى لزيادة

الخير والثواب ودوامها ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع، وصفها بالبركة، لأنها دعوة مؤمنٍ لمؤمنٍ، يرجى بها زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما فيها من الأحكام الشرعية، وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله، مع تضمنه «المؤمنون» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن حقيقة الإيمان، الإيمان بهما معاً ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان، الذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوهما في جميع الأحكام، وإذا كانوا معه ﷺ على أمرٍ مهم، كالحروب، وغيرها، من الأمور الداعية إلى الاجتماع من أهل الآراء والتجارب، ووصف الأمر بأنه «جامع» للمبالغة في أهمية الأمر ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي لم يتركوا مجلسه عليه السلام ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا توكيد لما تقدم تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، وهذا يفيد أن المستأذن مؤمن، وأن الذاهب لغير إذنه ليس كذلك ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم الضرورية ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا علمتَ في ذلك حكمة ومصلحة، واستدل به على أن بعض الأحكام، مفوضة إلى رأيه ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ لأن الاستئذان وإن كان لعذر قوي، لا يخلو من نوع تقصير، لتقديم

أمر الدنيا، على أمر الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة خطايا العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في آثار الرحمة عليهم، وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم وعلمائهم في الدين، يظاهرونهم، ولا يتفرقون عنهم.

قيل: نزلت يوم الخندق حيث كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم، من غير استئذان من النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوا دعوته، وأمره إياكم لما فيه عز الدين، وصلاح الأمة ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض، والتساهل في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وتكون الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ..﴾[1] الآية، وقيل: لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربه، كدعائكم، فإن دعاءه ﷺ مستجابٌ لامردَّ له عند الله عزَّ وجلَّ، وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه كنداء بعضكم بعضاً، باسمه، ورفع الصوت، ولكن وقِّروه وعظِّموه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، مع خفض الصوت والتواضع، فتعظيمه تعظيمٌ لله عزَّ وجلَّ لأنه رسوله[2]. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) الآية إنما وردت في بيان مقام الرسول ﷺ ووجوب التأدب في حضرته، وفي مخاطبته، فالغرضُ توقير النبي وإجلاله، وليس الغرض أن دعاءه ﷺ مستجاب لا مردَّ له، فذلك أمر مقطوع به، ولكنه بعيد عن فحوى الآية، قال الفراء في معانيه ٢/٢٦٢: أي لا تدعوه بقولكم يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكنْ وقِّروه =

﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ وعيد لمخالفي أمره ﷺ، والتسلُّل: الخروجُ من البين بطريقِ المراوغة والخفية، و «قد» للتحقيق، أي يعلم الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً، على سبيل الخفية، لئلا يراه أحد ﴿لِوَاذًا﴾ أي ملاوذةً بأن يتستَّر بعضُهم ببعض حتى يخرج، وهكذا كان المنافقون ينصرفون عند حفر الخندق، ويثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة، فيخرجون في استتار ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يخالفون أمره ﷺ بترك مقتضاه، ويتركون منهجه، وسنَّته وطريقته، والضمير للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة شديدة في الدنيا بقتل، أو زلازل، أو تسليط سلطان جائر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة وكلمة «أو» لمنع الخلوِّ دون الجمع، وإعادة الفعل للاعتناء بالتهديد والتحذير، واستدل به على أن الأمر للإيجاب، فإن ترتب العذابين على مخالفته ﷺ يوجب الامتثال به حتماً.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها، مِلْكاً، وخلقاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون للجزاء والعقاب ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض

= وعظِّموه، فقولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، وكذلك قال الحافظ ابن كثير ٦/ ٩٦ وهو الأنسب بالسياق والله أعلم.

ولا في السماء، لأن الكلَّ خلقُه ومِلكُه. وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها «لا تُنزلوا النساء الغُرَف، وعَلموهنَّ الغزل، وسورة النور» وروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسَّرها على وجهٍ لو سمعتِ الرومُ به لأسلمتْ. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النور»

* * *

فهرس المجلد الثالث

بعون الله تعالى تمّ انتهاء المجلّد الثالث ويليه المجلّد الرّابع

ويبدأ بتفسير سورة الفرقان

المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الرابع

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الفُرْقَان

مكية وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ «تبارك» كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعملُ الماضي فحسب، والبركة: النماءُ والزيادةُ، حسية كانت أو معنوية، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان مصدر فَرَق بين الشيئين، سُمي به القرآنُ لفرقه بين الحقِّ والباطل، أي تعالى وتعاظم وتكاثر خير الله، الذي نزّل القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ لِيَكُونَ ﴾ محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ من الثقلين يتناول جميع المكلفين إلى يوم القيامة ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي منذراً بالقرآن للإنس والجن، ومخوّفاً لهم من عذاب الله، والإنذارُ: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع ما في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهودُ، والنصارى، والمشركون حيث جعلوا الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي في ملك السموات والأرض، وإفراده بالذكر، للتصريح ببطلان زعم القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي أحدث كل موجود، إحداثاً جارياً على سنن التقدير، حسبما اقتضته إرادته ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي هيأه لما أراد به ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً لا يُقادر قدره، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبر في أمور المعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الإضمار من غير ذكرهم، للثقة بمعرفتهم بدلالة ما قبله من نفي الشريك. أي اتخذ المشركون لأنفسهم آلهة متجاوزين الله الذي ذكر بعض شؤونه الجليلة ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات وعبدتهم، ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بيان لما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم، فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدرون دفع الضر، ولا جلب النفع لأنفسهم، فكيف يملكون شيئاً منها لغيرهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحياء أحد، والإله يجب أن يكون قادراً على ذلك، وفيه إيذان بغاية جهلهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم، أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ أي على اختلاقه ﴿ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾ يعنون اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبّر عنها بتعليمهم ﴿ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا ﴾ والتنوين للتفخيم، أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً، حيث جعلوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترىً من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، من جهة اشتماله على الحِكَم الخفية، والأحكام المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ﴿ وَزُورٗا ﴾ أي كذباً كبيراً لا يبلغ غايتها حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾ .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين ﴿ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾ أي طلب أن تكتب له ﴿ فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها من أفواه من يُمليها عليه، لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة ﴿ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ أي دائماً صباحاً ومساء، انظر إلى هذه الرتبة من الجرأة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ .

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قل رداً عليهم، وتحقيقاً للحق، إنه أنزله من يعلم السرَّ، فلو كذب عليه لانتقم منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[1] فهذا القرآن الكريم المعجز في بيانه، أنزله الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحِكَم والأسرار، على وجهٍ بديع، لا تحوم حوله الشبهات، وقد جعلتموه إفكاً مفترىً من قبيل الأساطير، واستوجبتم أن يصبَّ عليكم الله سوط العذاب، لكنه تعالى رحيم بالعباد، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون في حقه ﷺ.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾؟ شروع في حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية الرسول ﷺ، و«ما» استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وفي هذا تصغيرٌ لشأنه ﷺ، وتسميتُهم «رسولاً» بطريق الاستهزاء ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لهذا الذي يدَّعي الرسالة، حال كونه يأكل الطعام كما نأكل؟ ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾؟ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، يعنون أنه إن صحَّ ما يدعيه، فما باله لم يخالف حالُه حالَنا؟ وهل هو إلا لعَمَهِهم، وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم؟ فإن تمييز الرسل عمن عداهم، ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور روحانية، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على صورته وهيئته ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ تنزُّلٌ منهم من اقتراح أن

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ ـ ٤٥.

يكون مَلَكاً، مستغنياً عن الأكل والشرب، إلى اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يصدِّقه، ويكون عوناً له في الإنذار.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ تنزُّلٌ آخر إلى اقتراح أن يُلقى إليه من السماء كنز، يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً إلى صدقه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزل ثالث إلى اقتراح أيسر منه، وأقرب من الوقوع، وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تسجيلاً عليهم بالظلم أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قد سُحر فغلب على عقله.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها، أي انظر يا محمد كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل السخيفة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن طريق الهدى والحق، حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي فلا يجدون طريقاً موصلاً إلى الحق، بعد أن ضلوا عنه.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الله الذي ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي لو شاء لأعطاك حدائق وبساتين تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ أي قصوراً وبيوتاً مشيَّدة، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإن بعض الأنبياء قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً، ولكنْ أخَّره للرسول ﷺ إلى الآخرة، لأنه خير وأبقى.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ ﴾ إضراب عن توبيخهم، بحكاية جناياتهم السابقة، أي بل كذَّبوا بالقيامة وبالحساب والجزاء، ولذلك أقدموا على السخرية والاستهزاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي أعتدنا لهم ناراً عظيمة، شديدة الاشتعال، بسبب تكذيبهم بها.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، ونسبة الرؤية إليها، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم، عند رؤيتها إياهم حقيقةً أو تمثيلاً، وقوله تعالى: ﴿ مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها، بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه، هذا ويمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة، فترى وتتغيظ، وتزفر.

﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ صفة لمكاناً مفيد لزيادة شدة عذابها، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء، حيث ضمَّ إلى العذاب الشديد الضيِّق، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال، أي إذا ألقوا مكاناً ضيقاً، حال كونهم مقرَّنين قد رُبطت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾ في المكان الهائل ﴿ثُبُورٗا﴾ أي يتمنون هلاكاً، وينادونه يا ثبوراه، تعالَ فهذا أوانك.

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾.

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ على تقدير القول، أي يُقال لهم: لا تقتصروا على ثبورٍ واحد ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ أي لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد، يستوجب تكرير الدعاء في كل وقت وحين.

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥﴾.

﴿قُلۡ﴾ تقريعاً لهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ أي قل لهم؛ أذلك الذي ذُكر من السعير، الذي أُعِدَّ لمن كذَّب بالساعة، خيرٌ؟ (١) ﴿أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي وعدها الله للمتقين لربهم في الدنيا، وإضافة الجنة إلى الخلد، للتمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتۡ﴾ تلك

---

(١) ليس في العذاب والسعير شيء من الخير، وإنما ورد هذا بأسلوب السخرية والتهكم، وفي مثل هذا الموطن يحسن التقريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً، فتمرَّد وطغى، واستكبر عن قضاء الحاجة، فيضربه سيده ضرباً شديداً، ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟ فهذا سخرية واستهزاء بأولئك الأشقياء!!.

الجنة ﴿لَهُمْ﴾ أي جزاءً لهم في وعد الله وحكمه، لأن ما وعد الله تعالى، فهو كائن لا محالة، فحكى تحقيقه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلون إليه.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي ما يشاؤونه من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ وفيه تنبيه على أن كلَّ المرادات، لا تحصل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دائمين أبداً، فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، قلت: إن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر، عن أهل الجنة، ولعل كل فريق يقتنع بما أتيح له من الدرجات، ولا تمتد أعناقهم إلى فوق ذلك ﴿كَانَ﴾ الوعد المذكور ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي موعوداً حقيقياً بأن يسأل لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم بعد التقريع يوم يحشرهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يجمعهم ومعبوديهم والأصنام التي عبدت من دون الله ﴿فَيَقُولُ﴾ الله عزَّ وجلَّ للمعبودين تقريعاً للعبدة ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم؟ كما في قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾؟ ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي ضلوا بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه، ليبكِّت عبدتهم ويوبِّخهم على الإشراك.

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكة، وإما أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء، أي تنزيهاً عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ ﴾ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ نعبدهم، فما يحق لنا ولا لأحد من الخلق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، فأنت ربنا وأنت سندنا ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ ﴾ أي ما أضللناهم، ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك، وعن تذكر آلائك، والتدبر في آياتك ﴿ وَكَانُواْ ﴾ باختيارهم للأعمال السيئة ﴿ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ أي هالكين، مصدر وصف به القوم، كأنهم أصبحوا نفس الهلاك.

﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم ﴾ أي فقال الله تعالى توبيخاً لهم: فقد كذّبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكون ﴿ صَرۡفٗا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم، أي لا بالذات، ولا بالواسطة ﴿ وَلَا نَصۡرٗاۚ ﴾ أي فرداً من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم، وفيه ضربٌ من التهكم، حيث كانوا يزعمون أن المعبودين يدفعون عنهم العذاب، وينصرونهم ﴿ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا المكابرة والعناد، واستمروا على ما هم عليه من الفساد ﴿ نُذِقۡهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ جواب عن قولهم ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ والمعنى: ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين، إلا آكلين وماشين، فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ أي بعض كفار الأمم ﴿لِبَعۡضٖ﴾ أي بعض الرسل ﴿فِتۡنَةً﴾ أي ابتلاء ومحنة، كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة، من الأمم الكافرة، فتنة لرسولها المبعوث إليها، وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، أما تعميم الخطاب لجميع المكلفين فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾؟ فإنه غاية للجعل المذكور، وليس ابتلاء كل أحد مغيًا بالصبر، فالمراد بهم الرسل[1]، فيحصل به تسليته ﷺ، فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا، على ابتلاء المرسلين بأممهم، لنعلم صبركم ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ وعد كريم، للرسول ﷺ بالأجر الجزيل، لصبره الجميل، مع مزيد تشريفٍ له.

---

(١) ما ذهب إليه المؤلف أن الفتنة خاصة بالرسل، وليست لجميع المكلفين، قول مرجوح، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة لجميع الناس، وفي مقدمتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والمعنى: جعلنا بعضكم أيها الناس ابتلاءً ومحنة لبعض، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح الجسم بالسقيم، والضعيف بالقوي، وهكذا ليختبر صبر الناس، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾؟ فالابتلاء عام لجميع الخلق، قال الحسن البصري: «يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان» ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون﴾ وقوله سبحانه: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ﴾ شروعٌ في حكاية بعض آخر، من أقاويلهم الباطلة، وبيان بطلانها، ووضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أن مثل هذا القول لا يصدر عمن يعتقد المصير إلى الله عزَّ وجل ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي الرجوع إليه تعالى بالبعث أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع أصلاً إلينا، والرجاء بمعنى الخوف أي لا يخافون البعث ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي هلاَّ أُنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ أي نشاهد الله جلَّ وعلا فيخبرنا بأن محمداً رسوله، وكلا القولين ناشىءٌ عن غاية غلوهم، في المكابرة والعتوّ ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها، حتى اجترؤوا على التفوه، بمثل هذه العظيمة ﴿ وَعَتَوْ ﴾ أي تجاوزوا الحدَّ والظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي بالغاً أقصى غايته، حيث أمّلوا نيل مرتبة المفاوضة الإلَهية، من غير توسُّطِ الرسول أو المَلَك، كما قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾؟ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، وفيه الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والعتوُّ والاستكبارُ لا يثبت، إلاَّ إذا طلبه الإنسان على سبيل التعنت، ومما يدل عليه أن موسى عليه السلام طلب الرؤية، وما وصفه الله تعالى بالاستكبار، والعتو، لأنه سألها شوقاً، وهؤلاء طلبوها تعنتاً واستهزاءً، ولذا وصفهم بذلك.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي لا يبشر يومئذ المجرمون، والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى، و﴿المجرمين﴾ وضع موضع الضمير، تسجيلاً عليهم

بالإجرام مع الكفر، والمراد بالمجرمين هنا الكفار، الذين بلغوا غاية الإجرام، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند مشاهدتهم ما يحيق بهم ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موفور، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله أن يمنع عنهم المكروه، فكأن المعنى: نسأل الله أن يمنع ذلك عنّا منعاً ويحجره عنّا حجراً، يعني أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم، وقالوا ما كانوا يقولونه، وقيل: تقولها الملائكة إقناطاً لهم، بمعنى: حراماً محرماً عليكم العفو والغفران، والجنةُ والرضوان، والأول أظهر.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بيان لحال ما يعملونه في الدنيا، من مكارمهم، كقِرَى الضيف، وصلة الرحم، بتمثيل حالهم وحال أعمالهم، بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ديارهم وأموالهم فأقبل عليها بالإفساد، والتحريق، بحيث لم يدع لها عيناً، ولا أثراً، أي عمدنا إليها وأبطلناها بالكلية، والهباءُ: شبْه غبار، يُرى في شعاع الشمس، ومنثور صفته أي متفرق، أي جعلنا أعمالهم الصالحة كالغبار المنثور في الجو، شبَّه تعالى أعمالهم المحبَطَة، في الحقارة والضَّيَاع بالغبار المتطاير في الجو، لأنهم ما عملوها لوجه الله.

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون الذين وعدهم الله جنة الخلد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقَرُّ: المكان الذي يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ المقيلُ: المكانُ الذي يُؤوىٰ إليه للاستراحة، سُمّيت بذلك، لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمى مكان استراحتهم مقيلاً،

على طريق المقارنة والتشبيه لحال الفريقين، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي تتفتَّح، وأصله تتشقق ﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام منها، هو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾[1] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ عجيباً بصحائف أعمال العباد.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ثابت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ فائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ فتخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، أما في الدنيا فيكون لغير الله تعالى تصرُّف صوري في الجملة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي شديد الهمِّ والبلاء، وأما للمؤمنين فيكون عليهم بفضل الله ورحمته هيِّناً يسيراً[2]، كما قال تعالى: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.

(٢) كما قال المصطفى ﷺ عن يوم القيامة، حين سُئل ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، يصليها في الدنيا» رواه أحمد.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ عضُّ اليدين والأنامل ونحوها، كناياتٌ عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي مُعَيْط» وكان يكثر المجالسة للنبي ﷺ، فدعاه يوماً إلى ضيافته، فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه، حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان «أُبيٌّ بن خَلَف» صديقه، فعاتبه، وقال: وجهي من وجهك حرامٌ إلا أن ترجع إلى دينك فارتد، وإما أن يُراد جنس الظالم وهو داخلٌ فيه، والمقصودُ الزَّجرُ للكل عن الظلم ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ﴾ «يا» للتنبيه أو المنادى محذوف، أي يا هؤلاء ليتني ﴿ ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً واحداً منجياً وهو طريق الحق، ولم أكن ضالاً.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يريد من أضله في الدنيا، فإن أريد بالظالم «عقبة» ففلان كناية عن «أُبيٍّ بن خَلَف» وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن كل ضالٍ، قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه، وإن المسلمين غيَّروا اسمه وكتموه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلاَّ بالعموم، وقول الرافضة لا يتم إلا بالطعن في القرآن، وإثبات أنه غُيِّر، ولا نزاع أنه كفر. وكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾[1].

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ الآية بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته،

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠.

أي والله لقد أضلني عن ذكر الله وعن الشهادة ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أي مبالغاً في الخذلان، يصاحبه ويواليه حتى يوصله إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وحكم الآية عام، في كل متحابين اجتمعا على معصية الله، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجليس الصالح، والجليس السوء، كحاملِ المسكِ، ونافخ الكِير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكِيرِ إمَّا أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»(1) وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فَلينظر أحدكم من يخالل»(2).

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ اعتراض مسوقٌ لاستعظام ما قالوه، وبيان ما يحيق بهم في الآخرة، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة، لتحقيق الحق، والرد على نحورهم حيث كان ما حكي عنه قد جافى رسالته ﷺ، أي قالوا كيت وكَيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو، بطريق البث إلى ربه عزَّ وجلَّ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ الذين حكي عنهم ما حكي من الشنائع ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، ولم يتأثروا بوعيده.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾.

---

(1) أخرجه البخاري في البيوع باب بيع المسك ٤/ ٢٧١ ومسلم في البر رقم ٢٦٢٨ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(2) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٣٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٧٩ وإسناده حسن.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ، وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء، أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل نبي عدواً من مجرمي قومهم، فاصبرْ كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعد كريم له ﷺ بالظفر، والنصر على أعدائه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِين﴾[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (٣٢) ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ القائلون هم مشركو قريش، وإيرادهم بعنوان الكفر، لذمهم به، وللإشعار بعلة الحكم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي هلاَّ أنزل كل القرآن على محمد ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؟ وبطلانُ هذه الكلمة الحمقاء، مما لا يكاد يخفى على أحد، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به، لا يختلف بنزوله جملة، أو متفرقاً، فبيِّنةُ صحته، وآية كونه من عند الله، نظمُه المعجز، الباقي على مر الدهور، ومن ضرورة تغير بعضها، تغير ما يطابقها، على أنَّ فيه فوائد جمة، قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم، وبيان الحكمة في التدريج، أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه، نزلناه تنزيلاً، ليتقوّى به فؤادُك على تحمل نزوله، ثم إن فيه تيسير الحفظ، وفهم المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحِكَم والمصالح، على أنها منوطة بأسبابها، وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد، من الأخبار وغيرها، متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والمقترحات، ومنها أنها لو نزلت دفعة واحدة على الخلق، يثقل

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

عليهم إجراء أحكامها ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصّلناه تفصيلاً بديعاً، وبيّناه للناس على أكمل الوجوه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي لا يأتونك بكلام عجيب، هو مَثَلٌ في البطلان، يريدون به القدح في القرآن، وفي حقك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ في مقابلته بالجواب الحق، الذي يحسم الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُه فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(1) ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، فهو أحسن بياناً وتفصيلاً من كل كلام قرؤوه.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صفة للذين أوردوا هذه الاقتراحات على سبيل التعنت أي هؤلاء هم المجرمون، الذين يساقون ويسحبون إلى النار على وجوههم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، لأنهم على الباطل والضلال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾(2).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

---

(1) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(2) سورة المائدة، آية: ٦٠.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بعد الحديث عن التوحيد، والنبوة، وأحوال القيامة، ذكر تعالى القصص على السُنَّة المعلومة في طريقة القرآن لتأكيد ما مر من التسلية، والوعد بالهداية والنصر، كأنه قيل: لستَ يا رسول الله بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فرُدَّ، فقد آتينا موسى التوراة، وقوّيناه بأخيه، ومع ذلك فقد كُذّب ورُدَّ، واللامُ جوابُ القسم، أي وبالله لقد آتينا موسى الكتاب يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ أي وأعنَّاه بأخيه هارون فأرسلناه معه وزيراً، يؤازره ويعاونه في تبليغ الدعوة.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ﴾ لهما حينئذ ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي اذهبا إلى فرعون الطاغية وقومه المكذبين، بالآيات الباهرات، هي المعجزات التسع ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم، فاقتصر على ذكر أولها وآخرها، لأن المقصود من القصة، وهو إلزام الحجة، ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم لهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمَّرنا قوم نوح ﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذَّبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، وإنما قال (الرسل) بالجمع، مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن في تكذيبه تكذيبهم جميعاً، لاتفاقهم على التوحيد ﴿ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لكيفية تدميرهم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي جعلنا قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عظيمة يعتبر بها

كلٌّ من شاهدها، أو سمعها ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم، والإظهار للإيذان بتجاوزهم الحدَّ، في الكفر والتكذيب ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ وهو عذاب الآخرة، ويحتمل العذاب الدنيوي والأخروي، على جميع الظالمين، فيدخل في زمرتهم قريش.

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾.

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام، فكذَّبوه، فهم حول الرسِّ ـ وهي البئر التي لم تُطْوَ بعد ـ إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وأهلكوا بسبب كفرهم ﴿وَقُرُونَۢا﴾ أي أهل قرون ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين تلك الأمم الطاغية المكذبة ﴿كَثِيرٗا﴾ لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير أهلكناهم.

﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾.

﴿وَكُلّٗا﴾ أي كل واحد منهم ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ أي بيّنا لهم القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر، فلم نهلكهم إلاّ بعد الإنذار ﴿وَكُلّٗا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ عجيباً هائلاً، لما أنهم لم يتأثروا بذلك، وتمادوا على ما هم عليه من الكفران والعدوان، وأصل التتبير: التفتيتُ، ومنه التِّبْرُ لفُتات الذهب والفضة.

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهداتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة، وعدم اتعاظهم بها، أي وبالله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام، على القرية التي ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾ أي أهلكت ﴿مَطَرَ

﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بالحجارة، وهي قرى قوم لوط، وكانت خمس قرى، ما نجت منها واحدة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكر، عند مشاهدة ما يوجبه، أي أفلم يكونوا يرونها في مرورهم، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب؟ ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾ إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم للمهلكين ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي إنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كانوا ينكرون النشور، المستتبع للجزاء الأخروي، فكيف يتذكرون ويتعظون بما شاهدوه من آثار الهلاك؟ ولذلك مرت بهم مدن المهلكين، كما مرت بهم ركابهم!!.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد، ما يتخذونك إلا مهزوءاً به، يسخرون منك ويهزؤون، ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي يستهزئون بك يا محمد قائلين: أهذا الذي أرسله الله رسولاً؟ والإشارة للاستحقار، وذكر الرسول في معرض التسليم، مع كونهم في غاية النكير لبعثته ﷺ، إنما جاء بطريق التهكم والاستهزاء وذلك جهل عظيم منهم، وسخافة وحماقة، فإنهم يستحقون أن يُهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية، واستهزؤوا بالرسول ﷺ.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ﴾ إنْ مخفَّفة من «إنَّ» وضمير الشأن محذوف، أي إن الحال أنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها، صرفاً كلياً، بحيث يبعدنا عنها، لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية

ضلالهم ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ أي لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة، وإقامة الحجة، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، والآية تدلُّ على أنهم كانوا كالمجانين، لأنهم استهزؤوا به ﷺ أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا بقوة الحجة، وكمال العقل ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم، أي سوف يعلمون في الآخرة ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أي من هو أخطأ طريقاً، وأضلُّ ديناً، أهم أم محمد ﷺ؟ وفيه من الوعيد، والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم، وإن أمهلهم، فإن عاقبة الكفر الوبال.

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم، فقد كان الواحد منهم يعبد حجراً، ينحته بيده ويطيّبه ويعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، هجر إلهه ورمى به وعبد الثاني، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾؟ إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه، بزجره عما هو عليه من الضلالة، وإرشاده إلى الحق، كأنه قيل: أبعدما شاهدت من غلوّه في طاعة الهوى، تقسرهُ على الإيمان؟ وهذا تيئيس من إيمانهم، وإرشاد للرسول ﷺ ألاَّ يتأسف عليهم، فإنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم التي لا تدرك شيئاً من مصالحها.

﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾؟ إضراب وانتقال عن إنكار المذكور، إلى إنكار أنهم ممن يسمع أو يعقل، أي بل أتحسب أن

أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ، فتعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ﴾ أي ما هم في عدم الانتفاع، بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مَثَلٌ في الغفلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من البهائم والدواب، لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها، وتعرف من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهم لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم، فهم أضلُّ من الحيوانات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى صنيع ربك، وإبداع خلقه؟ وهو بيان لبعض دلائل التوحيد، والخطابُ للرسول ﷺ في الظاهر، وعامٌّ في المعنى، لأن المقصود بيانُ نعم الله تعالى، وجميعُ المكلفين مشترك فيه، أي ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى؟ وحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى، لأن تأثير قدرة الله تعالى غير مرئيّ ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي كيف بسط تعالى الظلَّ، ومدَّه وقت النهار، ليستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس ووهجها؟ إذ لولا الظلُّ في النهار، لأحرقت الشمس الإنسان والثمار، وكدَّرت حياة الإنسان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يهيىء لهم سبل الراحة، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ الجملة اعترضت بين المعطوفين، للتنبيه من أول الأمر، على أنه لا مدخل فيما ذُكر للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة الإلهية، أي لو شاء سكونه لجعله ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، حتى يستفيد البشر والزرع من الظل والشمس، وحاصله بيان كمال قدرته تعالى، بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه سبحانه بالذات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ

﴿عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ أي جعلناها علامة، يُستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله، ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس، لما عرف الظل، والأشياء تُعرفُ بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا﴾ وفي بيان كون القبض والمد، مزيد دلالة على الحكمة الربانية، وقوله تعالى: ﴿إلينا﴾ للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى، كما أن حدوثه منه تعالى ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعة واحدة، لئلا تختل المصالح، وتعدم المنافع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى، ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية المقام حقَّ الامتنان، وهذا هو النوع الثاني من دلائل القدرة الباهرة، وآثار عظمة الله ووحدانيته، في الإتقان والإبداع ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ راحة للأبدان، بقطع المشاغل، وأصل السُّبات: القطعُ أي وجعل النوم الذي يقع في الليل، قاطعاً للأعمال الشاقة التي يكابدها الإنسان في النهار، وعبَّر عنه بالسُّبات، الذي هو الموت، لما بينهما من المشابهة، في انقطاع أحكام الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ﴾[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ أي زمان انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش، وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، أنموذج للموت، والبعث.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ أي مبشرة بنزول المطر غوثاً للعباد ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾ أي وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماءً طاهراً مطهّراً تشربون منه، وتتطهرون به، والطهورُ: هو الطاهرُ في نفسه، المطهِّرُ لغيره، ووصفُ الماء به، إشعارٌ بتمام النعمة، فإنَّ الماء الطهور، أهنأ وأنفع، هذا هو النوع الثالث من آثار الوحدانية والقدرة.

﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ ﴾ أي بما أنزلناه من الماء ﴿ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا ﴾ بإنبات النبات، وإخراج الزرع والثمار، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد، فالمراد به القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غامرة ﴿ وَنُسۡقِيَهُۥ ﴾ أي ذلك الماء الطهور، عند جريانه في الأودية، واجتماعه في المنابع والآبار ﴿ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ أي أهل البوادي، الذين يعيشون بالحياض، والمراد بالأناسيّ البشر الكثيرين.

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي بين الناس، من المتقدمين والمتأخرين ﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك، كمال قدرته تعالى، ويقوموا بشكر نعمه، وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم: إنزاله في بعض البلاد دون

غيرها، والأول أظهر ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أي أبى أكثر البشر، ممن سَلَف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي لم يفعلوا إلاَّ كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها عن زيد بن خالد الجُهَني أنه قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثْر سماءٍ من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأمَّا من قال: مُطرناً بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، وكافر بالكواكب، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بَنْوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أي نبياً يُنذر أهلها، فيخفّف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك، حسبما ينطق قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم، وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء، وقابل ذلك بالثبات، والاجتهاد في الدعوة، وإظهار الحق، أريد بهذا تهييجه ﷺ وتهييج المؤمنين، كأنه تعالى نهى الرسول الله عن المداراة معهم، لما أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، بتلاوة ما فيه من الزواجر والمواعظ ﴿جِهَادٗا

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء وفي الصلاة ٢/٢٧٧، ومسلم في الإيمان رقم ٧١، وأبو داود في الطب رقم ٣٩٠٦، وانظر جامع الأصول ١١/٥٧٦.

﴿كَبِيرًا﴾ فإن دعوة كل العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير لا يُقادر قدره، وقيل: المرادُ بالجهاد: القتالُ، والأقرب الأول، لأن السورة مكية، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ هذا هو النوع الرابع من أدلة القدرة والوحدانية، أي خلاَّهما متجاورَيْنِ متلاصقَيْن، بحيث لا يتمازجان، من مَرَج دابته إذا خلاَّها، وأصلُ المرج: الإرسالُ والخلطُ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً غير مرئي من قدرته تعالى، وهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافراً مفرطاً، كأنَّ كلاً منهما يتعوّذ من الآخر، ووجه الاستدلال ههنا أن العذوبة والملوحة، إن كانت بطبيعة الأرض أو الماء، فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك، فلا بدَّ من قادر حكيم، يخصُّ كل واحد من الأجسام، بصفة خاصة معينة، وقيل: المراد بالبحر العذب: النهرُ العظيم، كالنيل والشط، وبالمالح: البحرُ الكبير، وبالبرزخ ما بينهما من الأرض، وهو الأظهر[1].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية أنه تعالى خلق الماءين: الحلو، والمالح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالحُ كالبحار الكبار التي لا تجري، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً، وهو اليابس من الأرض، ومانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، ا.هـ. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، أقول: وهو الأظهر في معنى الآية الكريمة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فراتٌ سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ فالمراد بالعذب الفرات مياه الأنهار، لأنه ليس هناك بحار حلوة، وهذا من باب التغليب حيث أطلق على النهر اسم البحر، والله أعلم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ هذا هو النوع الخامس من آثار القدرة والوحدانية، والمراد بالماء: النطفةُ، أي هو تعالى بقدرته خلق من النطفة إنساناً سميعاً بَصيراً ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينتسب إليهم، وذوات صهرٍ أي إناثاً يُصاهرُ بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾[1] ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أي مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة، بشراً ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وربما يخلق من نطفة واحدة، توأمين: ذكراً، وأنثى.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الذي شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ ﴾ أي ما ليس من شأنه النفعُ والضر، وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ ﴾ معصية ﴿ رَبِّهِۦ ﴾ الذي ذُكرت آثارُ ربوبيته ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يظاهر الشيطان بالشرك والعصيان، أو يظاهر بعضهم بعضاً، على إطفاء نور الله تعالى.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي إلا فعل من يريد، أن يتقرب إلى الله، بالإيمان والطاعة، فصوَّر ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصود بالذات، شفقةً عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكنْ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فلْيفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على ربك الواحد الأحد، الذي لا يموت، توكل عليه في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يُتوكل عليه، دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا، ضاعَ من توكَّل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزهه عن صفات النقصان، مثنياً عليه بنعوت الكمال، طلباً لمزيد الإنعام، أي قل سبحان الله وبحمده ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ أي حسبك أن الله تعالى مطّلع على أعمال العباد، ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافياً، فلا عليك إن آمنوا، أو كفروا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تعطيل، وُصف تعالى بصفة الفعلية، بعد وصفه بالأبدية، لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي هو الرحمنُ، وهو في الحقيقة وصف للحي المذكور

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ﴾ أي بتفاصيل ما ذُكر إجمالاً ﴿خَبِيرٗا﴾ هو الله سبحانه وتعالى، الخبير بالأشياء، العالم بالحقائق، يطلعك على جلية الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ٦٠﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ قالوه لأنهم كانوا لا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾؟ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا؟ ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمٰن استكباراً، ونفوراً عن الحق والإيمان، وهذا من شدة الطغيان، وهذا يشبه قول الطاغية فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وما ربُّ العالمين﴾؟ كأنه لا يعرف أن هناك خالقاً للبشر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ هي البروج الاثني عشر، سميت به، وهي القصور العالية، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة، وقال الحسن ومجاهد: البروجُ هي النجوم الكبار، كالزهرة والمشتري وعطارد

---

(١) هذا القول مروي عن مجاهد، ورجح بعض المفسرين أن المعنى: فاسأل عنه من هو خبيرٌ عارف برحمته وجلاله، والمراد به من عنده اطلاع على الكتب السماوية من أهل العلم، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ والله أعلم.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ هي الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ مضيئاً بالليل، وهو البدر الساطع.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي ذوي خلفة، يخلف كل منهما الآخر، أو بأن يتعاقبا يأتي هذا بعد هذا ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكر آلاء الله تعالى، ويتفكر في بدايع صنعه، فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[1] الآية رُوي أنه جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدركْ ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لمنْ أرَادَ أنْ يَذكَّر أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[2]!!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خُلَّص عباد الرحمن، وأحوالهم الدنيوية والأخروية، والإضافة للتشريف ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ

(١) سورة القصص، آية: ٧٣.

(٢) يروى أن عمر فعل هذا بنفسه، أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعتَ اليوم شيئاً لم تكن تفعله!! فقال: فاتني شيء من وردي - أي صلاتي - بالليل، فأحببتُ أن أقضيه، وتلا هذه الآية، ذكره الحافظ ابن كثير ٣/٣٣٦.

﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بسكينة وتواضع، دون مَرَح واختيال، وهو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي السفهاء ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي قالوا قولاً يسلمون به من الأذية والإثم، والمراد به الإغضاءُ عن السفهاء، وتركُ مقابلتهم في الكلام، وهذا مستحسنٌ شرعاً، ومروءة وعقلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ وتخصيصهم بالبيتوتة، لأن العبادة بالليل أحمد، وأبعد من الرياء، أي ساجدين لربهم وقائمين، يُحيون الليل كله، أو بعضه، وفي الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنَّما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة، فكأنَّما صلَّى الليل كله»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلاتهم، وفي عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً، وفيه مدح لهم، ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، غير محتفلين بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٦٥٦ وأبو داود في الصلاة رقم ٥٥٥ والترمذي في الصلاة أيضاً رقم ٢٣١ باب فضل صلاة العشاء والفجر بالجماعة.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست جهنم منزلاً، ومكان إقامة لمن يدخلها ويسكنها.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ أي لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ أي ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسرافُ: هو الإنفاقُ في المعاصي، والتقتيرُ: منعُ الواجبات والقُرَب ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي بين الإسراف والتقتير، وسطاً وعدلاً، سُمِّي قواماً لاستقامة الطرفين، وهو ما يقام به الحاجة، ولا يفضل عنها ولا ينقص، قيل لعالم: ما البناء الذي لا سَرَف فيه؟ قال: ما سَتَرك من الشمس والمطر، فقيل له: وما الطعام؟ قال ما سدَّ الجوعة، وقيل: ما اللباسُ؟ قال: ما ستر عورتك، ووقاكَ من البرد[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلٰهاً آخر ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بسبب الحقّ المزيل لحرمتها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ أي لا يفعلون

---

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه، بحَسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإذا كان لا محالة ـ أي لا بدَّ ـ فاعلاً، فثُلثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشَرَابِه، وثُلُثٌ لِنَفسه» رواه الترمذي.

فاحشة الزنىٰ، ولا شيئاً من هذه القبائح التي جمعهن الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم مداومين على قتل النفس المحرمة، التي من جملتها الموؤودة، ومكبين على الزنا، لا يرعوون عنه أصلاً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم في الآخرة، كالوبال والنكال، وزناً ومعنىً، والأثامُ هو الإثم وجزاؤه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: «أيُّ الذنبِ أكبرُ عند الله؟ قال: أن تدعو لله نِدًّا وهو خلقك، قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك!! قال: ثم أيٌّ؟ قال أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقاً له ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَٰهاً آخَرَ...﴾[1] الآية.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يُضَٰعَفْ﴾ بدل من «يَلْقَ» لاتحادهما في المعنى، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، ومضاعفةُ العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٧٨ ومسلم في الإيمان رقم ٨٦ باب كون الشركِ أقبح الذنوب.

طاعاتهم، ولم يرد به تبديل السيئة بعينها حسنة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي، بتركها بالكلية، والندم عليها، ودخل في الطاعات، فإن الله يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، يمحو الله زلته، ويرفع درجته، ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل الجميل، وكأن المعنى أن توبته صادقة، لا غشَّ فيها ولا زغل.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة، فيشهدون بالباطل شهادة الزور، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي ما يجب أن يُلغى ويُطرح، ممَّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والكناية عما يُستهجن التصريحُ به، عن أبي بَكْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراكُ باللهِ، وعقُوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألاَ وقولُ الزورِ، وشهادةُ الزور، فما زال يكرّرها، حتى قلنا ليته سكت»[1] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهَه، ويطوف به في الأسواق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٢٦٥٤ ومسلم رقم ٨٧.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي والذين إذا وُعظوا بآيات القرآن، المنطوية على المواعظ والأحكام، أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، وعيون راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضدِّ ﴿لم يخرّوا عليها صُماً وعمياناً﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون، حيث يتعامون ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي اجعل لنا ذرية صالحة تقر بهم أعيننا، وذلك بتوفيقهم للطاعة، وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله، وشاركوه فيها، يُسر بها قلبه، وتَقَرُّ بهم عينه، لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقع لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد الله بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي اجعلنا بحيث يُقتدى بنا في إقامة وظائف الدين، بإفاضة العلم، والتوفيق للعمل، وتوحيد ﴿إِمَامًا﴾ لأنَّ المراد واجعل كلَّ واحد منّا إماماً، وفي الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب، ويُرغب فيها، وقرةُ العين: أن يصادف قلبُه من يرضاه، فتقر عينُه به عن النظر إلى غيره.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة، والصفات النبيلة ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ الغُرفةُ: الدرجةُ العالية من المنازل، أي يُثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنونَ﴾ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ من جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي تُحيّيهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، ويمكن أن يكون السلام من الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ وقيل: يحيّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، الذي هو تحية الإسلام.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت الجنة موضع قرار وإقامة، وهي في مقابلة قوله تعالى عن جهنم: ﴿ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ أي ما أسوأ ذاك، وما أحسن هذا؟.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يبين للناس، أنَّ الفائزين بتلك النعماء، إنما نالوها بما عُدِّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتد بهم أي قل لهم ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي ما يكترث ولا يحفل بكم ربي، ولا يعتني بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، ولولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق على العباد، ولذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل الكتب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به، وخالفتموه

أيها الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب، أو أثره لازماً، يحيق بكم لا محالة، لكفركم وضلالكم، وتكذيبكم لآيات الله.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآبُ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

* * *

سورة الشعراء

مكيّة وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف، وقيل: اسم للسورة الكريمة، فهي تسمى سورة طسم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي آيات الكتاب الواضح الجلي، المعجز في بيانه، الظاهر إعجازه وصحَّتُه، أو المبيِّن للأحكام الشرعية.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ لعلَّ للإشفاق، أي أشفق على نفسك، ونظير هذه

الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[1] ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى، فلا وجه للطمع فيه، والتأثر من فواته ﴿آيَةً﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة تمردهم، وعدم ارعوائهم عن الكفر والتكذيب، أي ما يأتيهم من موعظة، من مواعظ القرآن الكريم تذكرهم بالله وتخوفهم عقابه، إلاَّ جدَّدوا إعراضاً عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي كذبوا بالقرآن تكذيباً مقارناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بذلك، بل طعنوا فيه، فجعلوه تارةً سحراً، وأخرى شعراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في السخرية والتكذيب، فسوف يأتيهم عاقبة القرآن، الذي كانوا به يستهزئون، من العقوبات العاجلة والآجلة، وفي الآية تهويلٌ للعقاب، لأن النبأ لا يُطلق إلا على أمرٍ وخبرٍ خطير، كقوله سبحانه: ﴿عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾. ثم نبَّه تعالى على عظمة سلطانه، وباهر قدرته

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾؟ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف، حسن محمود، كثير الخير والمنفعة، مما يأكل الناس والأنعام؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم التدبر والاعتبار، قال الشعبي: الناسُ من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنَّ في ذلك الإنبات لآية عظيمة باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته، ونهاية سعة رحمته، وما كان أكثر قومه عليه الصلاة والسلام مؤمنين، مع ظهور الدلائل الساطعة، لغاية تماديهم في الكفر والضلالة.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز أي الغالب القاهر، القادر على الانتقام من الكفرة، الرحيم أي المبالغ في الرحمة بخلقه، حيث يمهلهم ولا يعجِّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم. ثم شرع تعالى في ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ أي اذكر يا محمد لأولئك المعرضين عن الإيمان، المكذبين بآيات الرحمن، من قومك، وقت ندائه تعالى وكلامه لموسى، ليلة رأى الشجرة والنار، حين رجع من مدين، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعون، بسبب تكذيبهم إياه، وحذّرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ﴾ بدل من القوم الظالمين أي هم قوم فرعون العتاة الجبابرة ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟ أي ألا يخافون عذاب الله وعقابه؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، أي اتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حثٍّ وإغراء على التقوى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ متضرعاً إلى الله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ من أول الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي يضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عقدة، فأخشى ألا أستطيع أن أبلغهم دعوتك على الوجه الأكمل، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي اجعل أخي هارون رسولاً وأرسله معي ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، رتّب عليه السلام استدعاء ذلك على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وازدياد الحُبسة في لسانه، وليس ذلك من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به، وتمهيد عذر فيه.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ أي تبعةُ ذنب، والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم، كما ينبىء عنه قوله: ﴿ولَهُمْ﴾ ﴿فَأَخَافُ﴾ أي إن أتيتهم وحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة، وهو طلب دفع البلية قبل وقوعها، لا للتعلل أيضاً.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا ﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى المطلبين: الدفع عن الخوف، وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنُّ، فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله: ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي اذهب أنت وأخوك هارون بالمعجزات التي أيدتك بها وهي اليد، والعصا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ أي معكما، أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائز في اللغة، وقيل: المراد مع موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، ومع فرعون بالقهر والكسر، وفيه مزيد تسلية لهما بضمان الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون، اعتبر في المعية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه، مثَّل حاله عزَّ وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم، يستمع ما يجري بينهم، ليمدَّ أولياءه مبالغةً للوعد بالإعانة.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية الجبار، واثقَيْن بالنصر والتأييد ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإفراد الرسول لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة وصف به، أي إنَّا مرسلون من ربِّ العالمين إليك.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ومعنى إرسالهم: تخليتهم ليذهبوا معهما إلى الشام، ورفع يد الظلم والعدوان عنهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقالا له ما أُمرا به ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون واستأذنا في الدخول فقال البواب لفرعون: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام. فقال عند ذلك ﴿أَلَم نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أي في قصرنا ومنزلنا ﴿وَلِيداً﴾؟ أي طفلاً ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي مكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، ونحن نحسن إليك ونرعاك!! يروى أنه لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، وفرَّ منهم على إثر ذلك، بعد قتله القبطي، فخرج إلى أرض مدين.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، فبعدما عدَّد عليه نعمته، وبخَّه بما جرى عليه من قتل خبَّازه، وعظَّم ذلك ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي بنعمتي، حيث عمدتَ إلى قتل رجل من خواصي، فأسأت إلى من أحسن إليك.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا ﴾ قال مجيباً له، مصدقاً في القتل، ومكذباً فيما نسبه

إليه من الكفر ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي من الجاهلين، أو من المخطئين[1]، لا من الكافرين كما زعمت، لأن موسى لم يتعمَّد قتله، بل أراد تأديبه.

﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١﴾.

﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ أي فهربت منكم حين خفت على نفسي أن تصيبوني بمضرة أو تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ حكمة وفهماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ واختارني رسولاً إليك، فإن آمنت سلمتَ، وإن جحدت هلكت!! ردَّ أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته، ثم كرَّ على ما عدَّه نعمة وهو في الحقيقة نقمة فقال:

﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾.

﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؟ أي تمنُّ بها عليَّ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمة، فتعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم، وأنه السبب في وقوعي عندك، ولو تركتهم لرباني أهلي، ولم يلقوني في اليم، أوَ تلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟ وتوحيد الخطاب في تمنُّها، وجمعه في ما قبله، لأن المنة منه خاصة، والخوفُ والفرارُ منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾.

(١) فإن قيل: كيف قال موسى: ﴿وأنا من الضالين﴾ والنبي لا يكون ضالاً؟ والجواب أنه عليه السلام أراد به الخطأ أي وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله، وإنما أردت دفعه، ولم يقصد الضلال عن الهدى، لأنه معصوم منذ الصغر، وقال ابن عباس: ﴿وأنا من الضالين﴾ أي من الجاهلين لأنني كنت في حالة غضب.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لمَّا سمع منه تلك المقالة المتينة، وشاهد تصلبه في أمره، وعدم تأثره بما قدَّمه، شرع في الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفسار عن المرسِلِ، فقال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حكاية لما وقع في عبارته، أيْ أيُّ شيءٍ ربُّ العالمين، الذي ادعيت أنك رسوله؟ منكراً لأن يكون للعالمين ربٌّ سواه، حسبما يعرف عنه قوله: ﴿أنا ربُّكُمْ الأعْلَى﴾ وهو سؤال عن الجسمية، والله تعالى منزَّهٌ عنها، يريد اللعين المغالطة، أي ما هي حقيقة الله؟ ومن أيِّ شيء يكون ربُّ العالمين؟ أمن ذهب أم فضة أم من لحم ودم؟ فلهذا أجابه موسى بذكر أفعاله وآثاره.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي هو خالق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وهو المالك لجميع الكائنات والمتصرف فيهما قاله حسماً لمادة تزوير اللعين، وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل، فكفى خلق الأشياء دليلاً على خالقه!! سأل اللعين عن الماهية ﴿ما ربُّ العالمين﴾ أي من أي شيء هو؟ وما هو شكله وجنسه؟ وهذه مغالطة منه، فأجابه موسى عليه السلام بالأسلوب الحكيم، منبهاً إلى آثار قدرته وعظمته جلَّ وعلا.

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون عند سماع جوابه، خوفاً من تأثيره في قلوب قومه ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من أشراف قومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؟ تعجيب لهم من جوابه عليه السلام، وأنه أمر حقيق بأن يُتعجب منه، كأنه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجبوا منه؟ حيث أسأله عن الله، فيجيبني عن صفاته، ويريد

بذلك السخرية من موسى، بأنه لا يحسن الجواب، مع أن كلام فرعون هو كلام الأحمق، الذي لا يحسن حقيقة السؤال، ولو كان له عقل لقال «ومن ربُّ العالمين» ولهذا أكّد موسى عليه السلام بالجواب القاطع.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ حطّاً له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة المربوبية ﴿ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للربوبية، ربكم وربُّ آبائكم السابقين، فوجودكم دليل على وجوده، وأنتم جميعاً عبيد له سبحانه، لأنه هو الذي خلقكم وصوَّركم، ولا يمكن أن يتوهم مثله، فهو واحد أحد، فرد صمد.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون من سفاهته لمَّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر، اغتاظ من ذلك، وخاف من تأثيره على قومه، فأراهم أن ما قاله عليه السلام، ممَّا لا يصدر عن العقلاء، سداً لهم عن قبوله، فقال مؤكداً ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق، أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء، فيجيبني عن شيء!! وسمَّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه (رسولكم) ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ تكميلاً لجوابه الأول، وتفسيراً له، وتنبيهاً على جهلهم، وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما هو مظهر الألوهية، فالله عزَّ وجلَّ هو المتصرف في الكون، يقلّب الليل والنهار، ويسيّر الشمس

والقمر، وهذا هو الطريق الأمثل لمعرفة ربوبيته تعالى، فإن ذكر المشرق والمغرب، منبئ عن شروق الشمس وغروبها، على نمط بديع، تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير المدار الذي قبله، على وجه نافع ينتظم أمور الكائنات، ويجعلها تغرب من الغرب، وهذا مشاهد يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل والفهم، علمتم أن الأمر كما قلته[1]، وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، فلمَّا تحيَّر فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع الحجة، رجع إلى الاستعلاء، متوعداً بالبطش والعنف، وهذا منطق الطغيان عندما لا يجد البرهان.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقنع منه عليه بترك دعوى الرسالة، حتى كلَّفه أن يتخذه إلَهاً، لغاية عتوه في دعوى الألوهية، وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول، ونسبته إلى الجنون كان لنسبته عليه السلام الربوبية إلى غيره، واللام في (المسجونين) للعهد أي لأجعلنك ممن عرفتَ أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هوةٍ عميقة، حتى يموتوا، ولذلك لم يقل لأسجننك.

---

(١) هذه من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم الخليل في مناظرة النمرود الذي أعطاه الله الملك ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟ فبهت الذي كفر﴾ وكأن موسى يقول لفرعون الجبار إن كنت حقاً إلهاً فبدّل نظام الحياة، واجعل الشمس تشرق من المغرب وتغرب من المشرق، فهذا هو السر في قوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقد تلطف موسى ولاين أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وكأنه يقول: أنتم المجانين لا أنا.

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾؟ أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء جليّ واضح على صدق دعواي، يريد به المعجزة، فإنها جامعة بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يديه، وعلى وجود الصانع وحكمته.

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بما يدل عليه كلامك!!.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي تتلألأ كالشمس الساطعة لها شعاع من غير ضرر.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟ بهره سلطانُ المعجزة، وحيَّره حتى حطَّه عن ذروة ادعاء الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده فيقول ﴿فماذا تأمرون﴾؟ يطلب منهم مؤامرتهم ومشاورتهم، بعدما كان مستقلاً في الرأي، وأظهر استشعار الخوف، من استيلائه على ملكه، ونسبةُ الإخراج والأرض إليهم ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخِّر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي وأرسل الشرطة يحشرون السحرة، ويجمعونهم لك من أطراف المملكة.

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أي الحاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ صيغة «سحَّار» للمبالغة، أي فائق في فن السحر ماهر في صنعته.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو اليوم الذي عيَّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي وقت الضحى في أول أيام العيد.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ أي ألا تجتمعون لهذا الأمر الجليل؟ والمرَادُ منه استعجالُهم، حثاً لهم على المبادرة إليه.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ أي نتبعهم في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أي إن غلبوا موسى، وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة، وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ عظيماً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾؟ أي إذا غلبنا موسى، فهل تكرمنا بإكرام جزيل؟.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي إذا غلبتم موسى، أجعلكم من خاصتي ومن جلسائي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قال له السحرة ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من السحر، فسوف ترون عاقبة أمركم، أراد عليه السلام التهاون في الأمر، وترك المبالاة بهم، ثقة بنصر الله له، ولتظهر المعجزة على رؤوس الأشهاد، بعد أن يبذلوا كل جهودهم لغلبته.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ قالوا ذلك، لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يُؤتى به من السحر، ومرادهم أنَّا سننتصر ونغلب موسى، ونقسم على ذلك بعزة فرعون.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أي تبتلع بسرعة الحبال والعصيّ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونه من وجهه بتمويههم، فيخيلون حبالهم وعصيَّهم أنها حيات تسعى.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي خرُّوا سجداً قائلين: آمنا بالرب الحقيقي، الذي أخبرنا عنه موسى وهارون لا ما يزعمه فرعون المفتري على الله.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي قبل أن تستأذنوني ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علمكم السحر، فتواطأتم على ما فعلتم، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه، كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة، وظهور حق ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هدَّدهم بالقتل والصلب تخويفاً لهم ليرجعوا.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ تعليل لعدم الضر، أي لا ضير بل لنا نفع عظيم، فيما تتوعدنا به من القتل، لأنه لا بد لنا من الرجوع إلى ربنا، فيثيبنا بالصبر على ما فعلت بنا، ويجازينا على التوحيد.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين بالله، من أتباع فرعون الكفار، ولمَّا ثبتوا على الإيمان، نفَّذ فيهم فرعون حكم الإعدام، فقتلهم ليبقى له ملكُه.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بَرَرة.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي أخبرنا موسى بطريق الوحي، أن فرعون يتبعكم وجنوده مصبحين ﴿فَأَسْرِ﴾ أي سِرْ بالليل بمن معك، حتى لا يدرككم قبل الوصول إلى البحر.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبرهم بمسيرهم ﴿ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي جامعين للعسكر ليتبعوهم، فلما اجتمعوا قال:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشرذمة طائفة قليلة، استقلَّهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فأرسل في أثرهم ألف ألف.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم لنا.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.. قال تعالى مبيّناً عاقبتهم الوخيمة:

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) ﴾.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه الظالمين ﴿ مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، فيها الأنهار الجارية.

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾.

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ومن أموالهم الوفيرة، ومنازلهم البهية.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي ملكناها إياهم على طريقة تمليك مال الموروث، بعد إغراق فرعون وقومه.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) ﴾.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي فلحقوهم ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها.

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾.

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي سيدركنا جنود فرعون ويقتلوننا، جاؤوا

بالجملة الاسمية، مؤكدة بحرفي التأكيد «إن» و «اللام» للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق، وتحقق الهلاك والفَناء.

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ كَلَّآ ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك، فإنهم لا يدركونكم، فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالنصرة والهداية ﴿ سَيَهۡدِينِ ﴾ إلى طريق النجاة منهم بالكلية، روي أن قوم موسى عليه السلام قالوا يا كليم الله: أين أمرتَ، وقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟.

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ ﴾ هو بحر القلزم، ويُعرف موضعها بالسويس، وهو بحر مظلم موحش لا خير فيه ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾[1] أي فضربه فانفلق، فصار اثني عشر فرقا، بعدد الأسباط ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ كالجبل الثابت في مقرِّه، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شعب منها، لئلا يتزاحموا ويتخاصموا في اقتحام الطريق.

---

(١) لما انفلق البحر جعله الله يبساً لموسى عليه السلام والمؤمنين، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، وأمر الله موسى أن يترك البحر على حاله كما قال سبحانه: ﴿واترك البحر رَهْواً إنهم جند مغرقون﴾ فلما خرج موسى ومن معه، وتكامل دخول أصحاب فرعون، أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض المؤمنين من أصحاب موسى: ما غرق فرعون، فأمر الله البحر أن يطرح جثته، حتى نظروا إليه فتحققوا هلاكه، وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً من أيام الله الخالدة، ولهذا صامه موسى والمؤمنون معه، شكراً لله على نجاتهم، وإهلاك أعدائهم، ويصادف هذا اليوم يوم العاشوراء الذي حضَّ النبي ﷺ على صيامه.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴾ أي قربنا هناك فرعون وجماعته، قرَّبنا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ فرعون وعساكره حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، وأصبحوا جميعاً في البحر.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، إلى أن عبروا.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم، أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في جميع ما فُصِّل من القصة ﴿ لَءَايَةً ﴾ عظيمة موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن الرسول ﷺ بشأن موسى عليه السلام، كيلا يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بأولئك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين لرسل الله، مع كل الآيات والنذر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الغالب على كل ما يريده، والمبالغ في الرحمة لعباده.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي على المشركين ﴿ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي خبره العظيم الهام، حسبما أوحي إليك، لتقف على عدم إيمانهم، بما يأتيهم من الآيات، شأنهم شأن جميع المكذبين، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة.

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ أي أيَّ شيء تعبدونه؟ سألهم عن ذلك، ليبني على جوابهم، أن ما يعبدونه بمعزل، من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً، بل أطنبوا فيه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم من الافتخار بذلك، والمراد بقولهم ﴿فنظلُّ﴾ الدوام والاستمرار على عبادتها.

﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴾؟ أي في الوقت الذي كنتم تدعونها فيها؟.

﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾؟ أي يضرونكم بترككم لعبادتها، إذ لا بدَّ للعبادة من جلب نفع، أو دفع ضر.

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل عن السمع، والنفع والضر، وأظهروا أن لا سند لهم سوى التقليد أي ما علمنا وما رأينا منهم مما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فاقتدينا بهم.

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم ﴾ أي أنظرتم وتأملتم فيما فعلتم؟ ﴿ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ما تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام، هل فيها شيء من صفات الإله القادر؟.

﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ أي السابقون.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم، لما أنهم يتضررون من جهتهم، فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، لكنه عليه السلام صوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، ويكون أدعى إلى القبول ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وَلِيِّي في الدنيا والآخرة، يتفضَّلُ عليّ بأنواع النعم.

ثم فصَّل ذلك بقوله:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ صفة لرب العالمين أي الله الذي أوجدني وخلقني،

هو الذي يهديني إلى سبيل الرشاد، لا هذه الأصنام الصمّاء ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي يهديني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني، من أمور الدين والدنيا، هداية متجددة على الاستمرار، متدرجة من مبدأ إيجاده، إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ أي يرزقني الطعام والشراب، فهو الخالق وهو الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان!؟.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ أي وإذا حلَّ بي المرض فهو سبحانه الذي يشفيني منه، ونسب المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، مع أنها منه تعالى جميعاً، لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبها﴾ وقال: ﴿فأراد رَبُّكَ أنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وكل ذلك مراعاة للأدب مع الله سبحانه، في نسبة الخير إليه، والشرِّ إلى الإنسان، أو الشيطان.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ أي هو تعالى المحيي المميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يبعثني يوم الحساب والجزاء.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه،

وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للألوهية إلاَّ من يفعل هذه الأفعال الجليلة.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ بعدما ذكر عليه السلام فنون الألطاف الفائضة عليه من الله، من مبدأ خلقه إلى يوم بعثته، حمله ذلك على مناجاته تعالى طلباً للمزيد، وقد ابتدأ بالثناء على الله، وذكر بعد ذلك الدعاء، وفيه تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ﴿ حُكْمًا ﴾ أي الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل، بحيث يتمكن به من خلافة الحق، ورياسة الخلق ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ووفقني لما يرشحني للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، واجمع بيني وبينهم في الجنة، ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكر الحسن، وضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به، أي جاهاً، وحُسْن صِيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وقد أجابه تعالى، ولذا لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له عليه السلام.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَلْنِي ﴾ في الآخرة يوم لقائك الكريم ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي من الباقين المخلدين فيها.

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي الحائدين عن سبيل الهدى.

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ أي لا تُذِلَّني ولا تُهنّي، يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي الناس كافة للحساب والجزاء.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ﴾ جيء به تأكيداً للتهويل، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء ﴿ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي لا ينفع مال، وإن كان مصروفاً إلى وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ عن مرض الكفر والنفاق، ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أي قُرِّبت الجنة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾للمؤمنين الصالحين المتقين لربهم، قُرِّبت لهم بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، ويعرفون بأنهم المحشورون إليها، فتفتح لهم أبوابها، وتُقرَّب منهم ليشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مفتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ (٩١).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والتقوى، أي جعلت بارزةً لهم، بحيث يرونها مع ما فيها من الأحوال الهائلة، ويوقنون أنهم مواقعوها.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٩٢).

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (٩٣).

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم في هذا الموقف؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ بدفعه عن أنفسهم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، ولا يتوقع لهم جواب ولذلك قيل:

﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (٩٤).

﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي أُلقوا في الجحيم على وجوههم، مرةً بعد أخرى، والكبكبة تكرير الكبِّ، لتكرير معناه، كأن من ألقي في النار ينكبُّ مرةً بعد أخرى، حتى يستقرَّ في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتهم ﴿ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ وفي تأخير ذكرهم رمز إلى أنهم رأوا آلهتهم المزعومة وهي تهوي إلى قعر الجحيم، ليشاهدوا حالها ومآلها.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (٩٥).

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ أي الشياطين الذين كانوا يغوونهم، ويوسوسون إليهم، ويحسّنون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ليجتمعوا في العذاب جميعاً، حسبما كانوا مجتمعين على الضلال في الدنيا.

﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي العبدة ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئهم، في انهماكهم في الضلال، متحسرين على أنفسهم، والحال أنهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً.

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ «إنْ» مخفَّفة، أي إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح، لإظهار ندمهم وتحسرهم، وبيان عظم خطئهم مع وضوح الحق.

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلالة، إذ نسويكم أي نَعْدِلكم أيها الأصنام برب العالمين.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ منهم، والمعنى: وما صدر عنا ذلك الضلال إلا بسبب إضلالهم، والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم وهم رؤساؤهم كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾(١).

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٧.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام الذي يهمُّه ما يهمُّك، أي وليس لنا صديق مخلص الود، ينقذنا من عذاب الله.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ لو للتمني كأنه قيل: فليت لنا كرَّة أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمني.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام ﴿ لَآيَةً ﴾ لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم يا محمد، وحي صادقٌ نازل من جهته تعالى، وعظة لمن أراد أن يتبصر بها، ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب، وأحسن تقرير، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وكمال إشفاقه عليهم، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً، وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع كل هذه البراهين، لم يؤمن أكثر الناس، بل كذَّبوا وجحدوا واستهزؤوا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تكذيبهم المرسلين، باعتبار إجماع الكل على التوحيد، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب سائر المرسلين، ولهذا السرّ جاء اللفظ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ إذ ظرف للتكذيب، أي حين قال لهم نوح عليه السلام ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أخوهم في النسب لا في الدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أي ألا تخافون عقاب الله، حيث تعبدون غيره؟.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من جهته تعالى ﴿أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم.

﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد، والطاعة لله.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على نصحي ودعائي لكم إلى الإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجراً أصلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله تعالى، الذي بعثني لهدايتكم.

﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ التكرير للتأكيد، كأنه قال: عرفتم رسالاتي وأماناتي، فاتقوا الله وأطيعوا أمري.

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي الأقلون جاهاً ومالاً.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها، دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ليست محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفيتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ فإنه المطّلع على السرائر ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلة له، أي ما أنا إلا رسول مبعوث لأنذر المكلفين، وأزجرهم عن الكفر والمعاصي، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المرميين بالحجارة، قالوه في آخر الأمر، فعند ذلك حصل اليأس.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ أي كذبوني ولم يؤمنوا بي، وأصرُّوا على ذلك، ولم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كلٌّ منا، واحكم بيننا بحكمك العادل، والفتَّاحُ: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من إجرامهم ومن شؤم أعمالهم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ حسب دعائه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي المملوء بهم، وبما لا بدَّ لهم منه من الطعام، واللباس، وأنواع الحيوان.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائهم أغرقنا الباقين من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ* إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ* فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تصدير القصص به، للتنبيه على أن مبنى البعثة، هو الدعاءُ إلى معرفة الحقِّ والطاعة، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع.

﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ ﴾.

﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، وقيل بكل طريق، والرِّيعُ بالكسر: الطريق، والمكانُ المرتفع ﴿ ءَايَةٗ ﴾ أي بناءً شامخاً هائلاً كالعَلَم، للمباهاة والفخر، ولمجرد اللهو واللعب، وإظهار الجَلَد والقوة؟ ولهذا قال بعده ﴿ تَعۡبَثُونَ ﴾ أي ببنائها، أو بناءً يجتمعون إليه، ليعبثوا بمن مرَّ عليهم في الطريق، إلى هود عليه السلام.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ ﴾.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي قصوراً مُشيَّدةً، وحصوناً تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تُحْكِمون بنيانها.

﴿ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَطَشۡتُم ﴾ أي أخذتم أخذ العقوبة ﴿ بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾ أي متسلطين ، غاشمين، بلا رأفة ولا نظر في العاقبة، أي أنهم مع ذلك السَّرف، والحرص، فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، فدلَّ ذلك على أنَّ حب الدنيا استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حد العبودية، وهاموا حول ادعاء الربوبية، وطَغَوْا وفجروا.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ ﴾.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ واتركوا هذه الأفعال، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، فإنه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع النعماء، أجملها أولاً ثم فصَّلها بقوله:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهار جارية.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولَئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك وتذكيرك وعدمه، فإنا لن نرعوي عما نحن عليه، ومرادهم المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه ونصحه.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به، وتدعونا إليه ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي عادتهم، كانوا يُلفِّقون مثله ويسطرونه، وقد سمعنا مثل هذا مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، وما هذه إلا خرافات وأباطيل الأولين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن من الأفعال، فلا بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي أصرُّوا على ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسببه بريح صَرْصَر عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ومع هذه البراهين القاطعة، لم يؤمن أكثر الناس، لشدة عتوهم وضلالهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه كلمة كل رسول، يذكِّر بها قومه، بالغاية من بعثته ورسالته.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ أي في الدنيا ﴿آمِنِينَ﴾ إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، والمعنى أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلَّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا على الدوام.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۞ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ أي في بساتين وعيون جارية، وسهول فسيحة، فيها أنواع الزروع والنخيل؟ والهضيمُ: اللَّيِّنُ اللطيفُ الثمر وطلع هضيم: دخلَ بعضُه في بعض، والطَّلْعُ بالفتح: ما يطلع من النخلة، ثم يصير ثَمَراً، والغرض توبيخهم على ترك شكر هذه النعم، كأنه يقول: أتُتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء؟.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ أي بطرين معجبين بصنيعهم من غير حاجة إلى سكناها؟ وظاهر هذه الآيات، يدل على أن الغالب على قوم صالح عليه السلام، هو اللذات الحالية، وهي طلب المأكول والمشروب، والمساكن الحصينة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي الكبراء المجرمين الذين أسرفوا في العصيان.

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بالكفر والظلم، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي الذين غُلب على عقولهم فيخلطون، والمسحَّر مبالغة من المسحور، الذي أثَّر فيه السحر تأثيراً بليغاً.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾.

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي لست إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بمعجزة تثبت لنا رسالتك، وصحة دعواك.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ ﴾ أي بعد أن أخرجها الله تعالى من الصخرة، بدعائه عليه السلام حسبما مرَّ تفصيله ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ نصيبٌ من الماءِ، تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتنِعُوا بشربكم، ولا تزاحموها على شربها.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يهلككم الله عاجلاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ أسند العقر إليهم كلهم، لما أنَّ عاقرها عقر برأيهم، ولذلك عمَّهم العذاب، وقوله تعالى: ﴿فأصبحوا نادمين﴾ خوفاً من حلول العذاب، لا توبة وندماً، ولذلك لم ينفعهم الندم.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قد مر الكلام أن تكرار هذه الآيات، للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة.

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦٥) ﴾.

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ ﴾ أي أتأتون الذكور من الناس، مع غلبة النساء وكونهن أليق بالاستمتاع ﴿ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي من بين من عداكم من العالمين، لا يشارككم فيه غير الحيوانات.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ ﴾ من للبيان إن أريد جنس الإناث وهو الظاهر ﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا من جملتها، ومتجاوزين حد الشهوة حيث زادوا على الحيوانات بالاستمتاع بالذكور.

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ (١٦٧) ﴾.

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ ﴾ عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴾ أي من المنفيِّين من قريتنا، وكانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال.

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ (١٦٨) ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقال: «إني لعملكم قالٍ» لدلالته على أنه من زمرة الراسخين في بغضهم، ولعلَّه أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ قائلاً.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤم عملهم، وغائلته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهل بيته ومن تبعه في الدين، بإخراجهم من بيتهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الباقين في العذاب، لأنها كانت مائلة إلى القوم، بقيت في القرية ولم تخرج، فهلكت مع الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم أشد هلاك، بقلب ديارهم وقراهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ غير معهود، قيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي لمن أنذرهم لوط عليه السلام.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكةُ: الغوطة ذات الأشجار والثمار، وهي بقرب مدين، يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شُعيب عليه السلام، وكان مختبئاً عنهم، ولذا لم يقل تعالى «أخوهم» بل كان من نسيب أهل مدين.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وما أجري وثوابي إلاَّ على الله تعالى.

﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أي أتمّوا الكيل للناس على الوجه الأكمل ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف والبخس.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَزِنُوا ﴾ أي الموزونات ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان العادل.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقهم، أيَّ حقٍ كان، وهذا تعميم بعد تخصيص، لغاية انهماكهم فيها ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والغارة، وقطع الطريق.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي والخلائق الأولين، وهم من تقدم من الخلائق. الجبلة بكسرتين الخليقةُ، والطبيعةُ يُقال: جَبَله الله على كذا، أي فطره عليه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو بين الجملتين، للدلالة على أن كلاً من التسحير، والبشرية، منافٍ للرسالة، مبالغة منهم في التكذيب ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب؛ فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبُه.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي ظلوا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ حسبما اقترحوا، وفي إضافة العذاب إلى «يوم الظلة» دون نفسها، إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي شديد هائل، عظيم في الشدة والهول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع، المذكورة على سبيل الاختصار، تسلية للرسول ﷺ، وتهديداً للمكذبين به، فإن كل هذه القصص ذكر مستقل متجدّد النزول قد أتاهم من جهته تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين، بعدما سمعوها، واستمروا على ما كانوا عليه من الضلال، وهذا نهاية الطغيان.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذا القرآن المعجز وما ذكر فيه من الآيات الكريمة، الناطقة بالقصص الإلٓهي ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي منزلٌ من جهته تعالى، وإنزاله من أحكام تربيته تعالى للعالَم ورأفته بالكل.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي أنزله ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ جبرائيل عليه السلام، فإنه أمين وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي روحك لأن المعاني الروحانية، تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب، لما بينهما من التعلق، أي أثبته في قلبك إثبات ما لا يُنسى كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ وإنما قال: ﴿على قلبك﴾ وإن كان إنما أنزله عليه، ليؤكد به أن ذلك المنزل، محفوظٌ للرسول، متمكن في قلبه، لا يُمحى، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك أودعه الله في قلبه، دون سمعه وسائر حواسه، لأن القلب مكان الحفظ والإدراك ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي أنزله لتنذر الكافرين بما في تضاعيفه من العقوبات لينزجروا عن غيّهم.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضح المعنى، لئلا يبقى لهم عذر، ولو نزل بغير لغتهم العربية، لقالوا: ما فائدة كلام لا نعرفه ولا نفهمه؟ فلذلك أنزله الله عزَّ وجل باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً، حجة على صدق الرسول الأميّ، فقد كان العرب فرسان البلاغة، وملوك البيان، وجاءهم القرآن بما أخرسهم وأعجزهم عن مجاراته.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره، لفي الكتب المتقدمة، للأنبياء السابقين، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ، من

التوحيد، وما يتعلق بالذات والصفات، مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر، كأنه قيل: أغَفلُوا عن ذلك، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لفي كتب الأولين ﴿ أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؟ أي أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا ما أنزل عليه؟ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بعث أهل مكة إلى اليهود ـ وهم بالمدينة ـ يسألونهم عنه ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانُه، وإنّا لنجد في التوراة نعتَه وصفتَه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾ الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية، فقرأه على كفار مكة، قراءة صحيحة فصيحة لما آمنوا، والآية لبيان تماديهم بالمكابرة والعناد.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع إعجاز القرآن بانضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لفرط عنادهم ومكابرتهم.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن القُوى البشرية، من حيثُ النظمُ المعجزُ، ومن حيث الإخبار عن الغيب، وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب، على تضمنها للبشارة بإنزاله، وبعثة من أُنزل عليه بأوصافه.

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ مسوق لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور، الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرون على ما هم عليه، حتى يروا العذاب الأليم، الملجىء إلى الإيمان به، حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بإتيانه.

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال، لتلافي ما فرَّطوا في جنبه.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ بقولهم تارة: ﴿أَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وتارة بقولهم: ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ أي أفيكون حالهم كما ذُكر من الاستنظار، عند نزول العذاب، فيستعجلون بعذابنا؟ وبينهما من التنافي ما لا يخفى،

لأنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، وعند نزول العذاب في الآخرة، يطلبون النظر والإمهال.

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ أي أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له ﴿ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار، وطيب المعاش.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ أي أيَّ شيءٍ أغنى عنهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد؟ والاستفهام للإنكار والنفي[(١)].

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ قد أنذروا أهلها، إلزاماً للحجة.

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

---

(١) معنى الآية الكريمة: أرأيت إن متعناهم تلك السنين الطويلة، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به، ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرة، وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم، وأعذرنا إليهم ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتعبير عنه بذلك، لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردٌّ لما زعمه الكفرة، في القرآن الكريم، من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة، بعد تحقيق الحق، ببيان أنه نزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي ما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أي الشياطين عن سماع كلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة، في صفاء الذات، والاستعداد لقبول فيضان نور الحق، كيف لا ونفوسهم ظلمانية شريرة، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة، التي لا يمكن تلقّيها إلاّ من الملائكة.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ خوطب به الرسول ﷺ، مع

استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجاً، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين، ولأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد الخطاب، يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود هم الأتباع.

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْ ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقرب منهم، فالأقرب، لأن الاهتمام أولاً بشأنهم أهم، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عَدِي، لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، فقال: فإني نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لَهَبٍ وتبَّ﴾»[1].

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليِّنْ جانبك لهم، وتواضع، مستعارٌ من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن ينحطَّ، خفضَ جنَاحه، والمراد تواضع لأتباعك المؤمنين.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٨٥ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠٨ باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ لم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مما تعملونه من الكفر والإجرام.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي الذي يقدر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، يكفيك شرَّ من يعصيك.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد في ظلمة الليل.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ويرى حركاتك مع المصلين في الجماعة في قيامك، وركوعك، وسجودك.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تخفيه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾؟ أي هل أخبركم على من تتنزل الشياطين؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي تتنزَّل على كل كذَّاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ، منزَّهةً عن أن يحوم حولها، شائبةُ شيء من تلك الأوصاف، اتَّضح استحالةُ تنزلهم عليه ﷺ.

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي الأفاكين، يُلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأباطيل، لا حقيقة لها، فيضمُّون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة، خرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ أي فيما قالوه من الأقاويل، ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة.

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حقِّ القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ، بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يُلقي الشيطان على الكهنة، والمعنى: إن الشعراء ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ﴿الغَاوُونَ﴾ الضالون عن السنن، الجائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرُّون على وتيرة واحدة، في الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحيرون، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة، والتفريط في المدح والهجاء، وكما قيل: أعذب الشِّعر أكذبُه.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم، فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم، من اتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلَّق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وهو النبي المعصوم محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه؟.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم في بعض الأوقات ذمٌّ وهجوٌ، وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم. روى الشيخان عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإنَّ جبريل معك»[1] وروى البخاري عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكمة»[2] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٥٣ في الأدب ومسلم رقم ٢٤٨٦ في فضائل الصحابة «باب فضل حسان».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ١٠/٤٤٥، وأبو داود رقم ٥٠١٠ باب ما جاء في الشعر.

رسول الله ﷺ وينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح عن رسوله»[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل وفي ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ من الإبهام والتهويل، أي أيَّ مرجع يرجعون إليه؟. يعني أن الذين ظلموا أنفسهم، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون إليه؟

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء»

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠١٥، والترمذي رقم ٢٨٤٩ باب ما جاء في إنشاء الشعر، وروى بعضه البخاري وانظر جامع الأصول ١٧٤/٥.

سُورَةُ النَّمْلِ

مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾.

﴿طسٓۚ﴾ بالتفخيم، والكلامُ فيه كالذي مرَّ في نظائره[1] ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة، لأنها التي نوهت بذكر اسمها، أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد، هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَكِتَابٍ﴾ أي كتاب عظيم الشأن ﴿مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر إعجازه وصحته، موضّح لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، أبان الله فيه الأحكام، وهدى الأنام.

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الآيات، مصدرانِ أُقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة، أي هادية ومبشرة لهم، تزيدهم

---

(١) أن المراد بالحروف المقطعة، هو الإشارة والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وانظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

هدى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة مادحة لهم ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات، هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم، فإن تحمل المشاق في العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة، أي الذين لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] كما ينبىء عنه قوله ﷺ: «حُفت النارُ بالشهوات»[2] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحيرون ويترددون في الاشتغال بها، من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بالكفر والعمه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٢ ولفظه «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» وأخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٧٤ بلفظ «حجبت الجنة بالمكاره وحُجبت النار بالشهوات».

في الدنيا، كالقتل، والأسر ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي أشد الناس خسراناً، لفوات الثواب، واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أكَّده بحرفيّ التأكيد، «إنَّ» و «اللاَّم» لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي لتُعطاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيْ أيِّ حكيم، وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته ﷺ، ومعرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإنَّ من تلقى العلوم والحكم، من مثل ذلك الحكيم العليم، يكون علمه في رصانة العلم والحكمة، وهذه الآية كالتمهيد لما يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ عند مسيره من مدين إلى مصر، في وادي طوى، وقد غشيتهم ظلمة الليل، فبدا له من جانب الطور نار ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق، وقد كانوا ضيَّعوه وقوله: ﴿لأهله﴾ يدل على أنه لم يكن مع موسى غير أهله، والجمع للتعظيم مبالغة في التسلية ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة من أصلها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها، وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء، وهذا لا يكون إلاّ في برد شديد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ﴾ أي من جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي قُدِّس وجُعلت فيه البركة والخير ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي من في مكان النار، وهي البقعة المباركة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِي الأيمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ﴾[1] والمراد بمن في النار الملائكةُ، ومن حول مكانها موسَىٰ عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ومن حول مكانها، وتصدير الكلام بذلك، بشارة بأنه قد قُضِيَ له أمر عظيم، تنشر بركاته في أقطار هذه البقعة، وقيل هذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، أي تقدَّس وتنزَّه الرب الجليل، العليُّ الشأن، رب الخلائق أجمعين، وسأل موسى من المنادي فجاءه الجواب.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ذكرُ «العزيز» و«الحكيم» تمهيد للمعجزات التي سيظهرها الله على يديه، أي أنا القوي القادر، الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة، ودقةٍ فائقة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي نودي أن بورك، وأن ألق عصاك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هناك محذوف، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى، فلما أبصرها متحركة بسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حية خفيفة سريعة الحركة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يرجع على عقبه بعد الفرار، وإنما اعتراه

(١) سورة القصص، آية: ٣٠.

الرعب، لظنه أن ذلك لأمر أُريد به، كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي أقبلْ ولا تخف لأنك بحضرة قدسي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخافون حين يُوحى إليهم، لأنهم رسلي الذين اصطفيتهم، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤونه تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحدٍ أصلاً، وأما في سائر الأحيان، فهم أخوف الناس منه سبحانه وتعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١)﴾.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناءٌ منقطع، أي لكنْ من ظلم من سائر الناس وارتكب ذنباً، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيِّيء بالعمل الحسن، فإن الله تعالى عظيم المغفرة، وواسع الرحمة له، نبهه تعالى على أنَّ من آمنه الله بالنبوة، لا ينبغي أن يخاف من أحد، لا من جبَّار ولا من حية.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ (١٢)﴾.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي آفة كبرصٍ ونحوه ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي ضمن تسع معجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال أي خارجين عن حد الطاعة والإيمان، إلى الكفر والطغيان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات، وظهرت على يد موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنةً واضحة، اسم فاعل أُطلق على

المفعول، إشعاراً بأنَّ وضوحها ظاهر، كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يُبصر ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي واضح سحريتها.

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ أي كذَّبوا بها ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ ﴾ الواو للحال، أي وقد استيقنتها أي علمتها ﴿ أَنفُسُهُمْ ﴾ علماً يقينياً ﴿ ظُلْمًا ﴾ أي ظلماً من أنفسهم حيث سموها سحراً ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي انظر بعين الاعتبار، نهاية أولئك الطاغين، من الإغراق ثم الإحراق.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ أي لقد أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام، علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جليلة من تسخير الإنس والجن والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلك، فضلاً منا ونعمة، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم، من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص بكل منهما ﴿ وَقَالَا ﴾ أي كل منهما شكراً لما أُوتيه من العلم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فُضِّلنا بما أُوتينا من العلم، على كثير من الخلق، وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أُوتيا من المُلك، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى، على ما آتاهم

من فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنهم وإن فُضِّلوا على كثير، فقد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي ورثه النبوة والعلم، دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر ﴿ وَقَالَ ﴾ تشهيراً لنعمة الله بذكر المعجزات التي أوتيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ المنطقُ: كل ما يُصوَّت به، يقال: نطقتِ الحمامةُ، وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم بأصواته، والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير، هو ما يفهم بعضه من بعض، أي عُلّمنا فهْمَ ما يقوله كلُّ طائر، وعرفنا صوت كل حيوان، حكي أنه عليه السلام مرَّ ببلبل يشدو ويرقص، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم! قال: يقول: أكلتُ نصف ثمرة، فعلى الدنيا العَفَاءُ، أي الانقراض والفناء، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تَدِينُ تُدان، وصاح خُطَّاف فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، والمراد بكل شيء كثرةُ ما أُوتي، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كل ما يهمُّه من أمور الدنيا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي هو فضل وإحسان من الله تعالى واضح علينا، قاله شكراً لا فخراً.

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ أي جُمع له عساكره من الجن، والإنس، والطير، وتقديم الجن في البيان، للإيذان بكمال قوة سلطانه، لما أن الجنَّ عاتيةٌ، بعيدةٌ من الحشر والتسخير ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، ليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ واد في الشام كثير النمل، والمراد بالإتيان عليه قطعُه، أي أشرفوا على قطع الوادي واجتيازه ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي، فرَّتْ منهم، فصاحت صيحة نبَّهت بها النمل، فتبعها في الفرار، فشبّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولهذا أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ولا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ في الحقيقة للنمل، عن التأخر في دخول مساكنهم، وإن كان يحسب الظاهر نهياً له عليه السلام عن الحَطْم، كقولهم: لا أرينَّك ههنا، أي لا يدوسنكم ويكسرنكم جنود سليمان بأقدامهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون إهلاككم عن عمد، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الإيذاء والظلم فقالت ذلك[1].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾.

---

(١) نبَّهت هذه النملة، ثم حذَّرت، ثم اعتذرت بقولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ لأنها علمت أنه نبيٌّ رحيم، لا يصدر منه ومن جنوده الأذى عن عمد، فيالها من نملة ذكية، فقولها: ﴿يا أيها النمل﴾ تنبيه: ﴿ادخلوا مساكنكم﴾ إرشاد: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ تحذير: ﴿وهم لا يشعرون﴾ اعتذار، وهذا غاية الفهم والعقل!! والنمل تعرف كثيراً من منافعها، ومن ذلك أنها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت، وإذا وصلت النداوة إلى الحبة، تخرجها من جحرها إلى الشمس حتى تجفَّ. فسبحان من ألهمها الفهم والذكاء!!.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، تبسَّم تعجباً من حذرها، واهتدائها إلى تدبير مصالحها، ومصالح بني جنسها، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به، من إدراك همسها، وفهم مرادها ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ أي اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك عندي، وأربطه بحيث لا ينفك عني، حتى لا أنفكَّ عن شكرك أصلاً، أدرج فيه ذكر أبويه تكثيراً للنعماء، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجبٌ للشكر ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي وفقني لعمل الخير والصالحات، إتماماً للشكر، واستدامة للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي في جملتهم، أدخلني الجنة التي هي دار الصالحين.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ أي تعرَّف أحوال الطير، فلم ير الهدهد بينها ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ أي ما لي لا أراه ههنا؟ لساترٍ سَتَره؟ ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾؟ أي بل هو غائب ذهب بغير إذني.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفه ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ليعتبر به أبناءُ جنسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة تبيِّن عذره، قيل: إنه عليه السلام، لما أتم بناء بيت المقدس، تجهز للحج بجنده، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على السير إلى اليمن، فوافى صنعاء،

فرآها أرضاً حسنة، فنزل ليصلّي بها، ولم يجد الماء، فكان الهدهدُ رائدَه، لأنه يحسن طلبَ الماء، فتفقَّده لذلك فلم يجدْه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكث زماناً غير مديد، يريد به الدلالة على سرعة رجوعه، فلما رجع حدَّثه عما لقي في غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغ أنت ولا جنودك، ولاخفاء في أنه لم يرد الإحاطة بحقائق العلوم، حتى يكون إثباتها لنفسه، بين يديْ نبيٍّ الله تجاوزاً عن دائرة قدره، بل أراد به الأمور المحسوسة، التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، والغفلة عنها نقيصة، لعدم توقف إدراكها على العلم، بل على مجرد الإحساس وقد علم أنه عليه السلام لم يشاهده، فعبَّر عنه بما ذكر، لترويج كلامه عنده، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي بخبرٍ خطيرٍ محقَّق، فسَّر إبهامه، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له، حيث عبَّر عنه بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير، و«سبأ» اسم لحيٍّ سمُّوا باسمِ أبيهم الأكبر، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ثم أنشأ يخبره عما رأى من عجائب فقال:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك، وكان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على المُلْك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس

والكواكب ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من الجند، والخيل، والمال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لها سرير ضخم مكلل بالدر والياقوت، واستعظامُ الهدهد لعرشها، مع ما كان يشاهده من ملك سليمان، لما مرَّ من ترغيبه في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيه عزيمته عليه السلام لقتالها، ولذلك عقَّبه بما يوجب غزوها، لكفرها وكفر قومها، حيث قال:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ أي يعبدون الشمس ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي يعبدون ويسجدون لها من دون الله ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ التي هي عبادة الشمس وسجودهم لها، والسير في طريق الضلال ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً:

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أي أيسجدون للشمس، ولا يسجدون لله الخالق العظيم؟ ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، وهو يتناول جميع الأرزاق، والأشياء، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر، لما أنه أرسخ في معرفته تعالى، والإحاطة بكمال القدرة والعلم، بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودع الله في الهدهد من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض، والخَبْءُ: ما خفي في غيره، وإخراجه: إظهاره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن، لا تخفى عليه

خافية، إلى أنه تعالى يخرج ما في الإنسان من الخفايا، كما يخرج ما في العالم من الخبايا، وإلى هنا انتهى حديث الهدهد.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴾؟ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسماوات والأرض، المستحق للعبادة والسجود، فكيف يتركون عبادة هذا الخالق، العظيم الشأن، إلى عبادة الشمس من دون الله؟ وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فهو أعظم من السماوات والأرض وما بينهما، وإذا كان الكرسي قد أحاط بالسماوات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهو بالنسبة إلى العرش كحلقةٍ ألقيت في صحراء، لا يعلم مداها إلا الله، فكيف بالعرش العظيم؟ ولهذا وُصف بالعظيم في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾؟

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ فيما ذكرتَه من النظر بمعنى التأمل أي سنتعرَّف بالتجربة ﴿ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾؟ هل أنت صادق أم كاذب فيما تقول؟ ومساق هذه الأقاويل على ترتيب أنيق، يستميل قلوب السامعين، فكتب سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ، ثم دفعه إلى الهدهد، وقال له:

﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب، وأوصله إلى ملكة سبأ

وجندها، وتخصيصُه إياه بالرسالة، دون غيره من أبناء الجن الأقوياء، لما عاين فيه من مخايل العلم والفراسة، ولئلا يبقى له عذرٌ أصلاً ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب، تتوارى فيه ﴿فَانْظُرْ﴾ أي تأمل وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وصورة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود، إلى ملكة سبأ، بسم الله الرحمٰن الرحيم، السلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعدما ذهب الهدهد بالكتاب، فألقاه إليها، وتنحى عنهم حسبما أُمر به، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى ما أمر به وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره، روي أنه وجدها راقدة في قصرها، وغلّقت الأبواب، فدخل في كوة، وطرح الكتاب على نحرها، فانتبهت فزعة، وكانت قارئة، فلمّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فعند ذلك قالت لأشراف قومها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لكونه من عند ملك كريم.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدَّر، كأنه قيل: ممن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنه من سليمان ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي مكتوب فيه.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك ﴿وَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ ﴾ أي مؤمنين، مستسلمين لدعوة الله، وهذا الكلام في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وكذلك جميع كتب الأنبياء، لأنهم أُعطوا بياناً وحكمة، والمعنى: لا تمتنعوا من الإجابة، فإنَّ تركها من العلوّ والتكبر.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ أي أجيبوني في أمري الذي قد أهمني، وعبَّرت عن الجواب بالفتوى، تهويلاً للأمر ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ أي من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلاَّ بمحضركم قالت ذلك استمالةً لقلوبهم، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ في جوابها ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ ﴾ في الأجساد، والآلات، والعدد ﴿ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكولٌ إليك ﴿ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾؟ نكن في الخدمة مطيعين لأمرك، فلما أحسَّت منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف مقالتهم، المبنية على الغفلة عن شأن سليمان ﷺ.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾ من القرى عنوة على منهاج الحرب

﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بالقتل، والأسر، والطرد من الوطن وغير ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصف من حالهم، بأن ذلك من عاداتهم المستمرة.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ تقرير لرأيها، بعدما زيَّفت آراءهم، أي وإني سأرسل إليهم رسولاً بهدية ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، كانت بلقيس امرأةً لبيبة عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فبعثت «منذر بن عمرو» وضمَّتْ إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وأرسلت معهم هدية ثمينة، جارية وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وقالت: إن كان نبياً ردَّ الهدية ولم يأخذها، ولم نأمنه على بلادنا، وإن كان مَلِكاً أخذ الهدية وسكت.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أي الرسول ﴿سُلَيۡمَٰنَ قَالَ﴾ مخاطباً للرسول، والمرسِلِ، تغليباً للحاضر على الغائب، وتعميمها لبلقيس وقومها، مع تشديد الإنكار ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه، وسعة سلطانه، أي أتصانعوني وتغرونني بالمال؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة والملك ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي من المال الذي أعطاكم إياه، فلا حاجة لي إلى هديتكم ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الأموال، إلى التوبيخ بفرحهم فرح افتخار وامتنان، أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ ٱرْجِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾ أي من سبأ ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أي حال كونهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أي أسارى مُهانون.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام لمَّا دنا مجيء بلقيس إليه، يروى أنه لما رجعت رسلها إليها، وأخبروها بما ردَّ عليهم سليمان، قالت: قد علمتُ والله ما هذا بمَلِك، ولا لنا به من طاقة، وبعثتْ إلى سليمان: إني قادمة إليك بعظماء قومي حتى أنظر ما أمرك؟ فأراد عليه السلام أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده، أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ وأراد بذلك إطلاعها على بدائع المعجزات، في أول مجيئها.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي قال مارد من مردة الجن ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة، وكان يجلس للحكومة، إلى نصف النهار، أي أنا آتي به في أقل من نصف نهار ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ ﴾ لا يثقل عليَّ حمله ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس.

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي قال بعض الصالحين من أتباع سليمان، وهو «آصف بن برخيا» وكان رجلاً صدِّيقاً يقرأ الكتب الإلّهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب: أنا آتيك بعرشها [1] قبل تحريك جفنك للنظر إلى شيء، وهذا غاية في الإسراع ومَثَلٌ فيه، ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة استغنى عن التأكيد، وطوى ذكر الإتيان به، وجيء بالفاء الفصيحة حيث قيل ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي رأى العرشَ حاضراً لديه، ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ أي حضور العرش في المدة القصيرة ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾[2] أي تفضله عليَّ من غير استحقاقٍ منِّي ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ ﴾ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أم أجحد فضله وإحسانه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه، لأنه يستجلب به المزيد كما قال سبحانه: ﴿لئن

---

(١) فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش مع أنه غير نبي؟ الجواب يجوز أن يُخصَّ غيرُ النبي بكرامة، كما خُصت مريم، بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا لم يُرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، مع أن كرامة التبع من جملة كرامة المتبوع.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٢: ومن ههنا يظهر أن سليمان عليه السلام أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من المُلك، وما سخَّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحدٍ من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، قال آصف كاتب سليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فإذا هو حاضر عنده. اهـ.

شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة، وبالإنعام عليه مع ترك الشكر، ولمَّا قرُب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تُغيِّر بعض ملامح عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿نَكِّرُوا﴾ أي غيِّروا هيئته بوجهٍ من الوجوه ﴿لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي أم لا تهتدي إلى معرفة عرشها الذي نقلناه، وأراد بذلك اختبار عقلها وذكائها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيسُ سليمان، عليه السلام، وقد كان العرشُ بين يديه ﴿قِيلَ﴾ من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من مغايرة بعض صفاته مع اتحاد الذات ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأنبأت عن كمال فهمها، ورجاحة عقلها، حيث لم تقل: هُوَ، هُوَ ولم تقطع وتجزم بأنه غيره ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من تتمة كلامها، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك، من قبل هذه المعجزة، التي شاهدناها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من ذلك الوقت[1]، وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ما لا يخفى.

---

(١) هذا القول مرجوح، والأصح والأظهر ما قاله مجاهد، أنه من قول سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة، العلمَ بالله =

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي صدَّها ومنعها من التقدم إلى الإسلام، عن عبادتها القديمة للشمس ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، إلى أن دخلت تحت ملك سليمان.

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾ وهو القصر الفخم، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع يسمى صرحاً، أي قيل لبلقيس: ادخلي هذا القصر المنيف المشيد، روي أنه عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيها السمك ونحوه، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماءً ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ أي ظنته لُجّة ماء، ـ أي ماءً غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه لئلا تبتل أذيالها ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ما توهمته ماءً ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملس مسوًى ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي من الزجاج، والقارورة: إناء من زجاج جمعها قوارير ﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت تلك الخارقة ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بما كنت عليه من الشرك بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ تابعة له، فدخلت في الإسلام، كما أسلم سليمان

= وبوحدانيته وقدرته، وكنا مسلمين لله قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً، وهي كانت قد صدَّها ومنعها من عبادة الله وحده، ما كانت تعبد من دون الله لأنها كانت من قوم كافرين، وهذا ما اختاره شيخ المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن كثير، قال: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. اهـ.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وصفه بالربوبية لإظهار تفرده تعالى لاستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب وهو نبي الله صالح عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله رب العالمين، الذي لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجئوا التفرق والاختصام، حيث آمن فريق، وكفر فريق.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم، بعدما شاهد منهم نهاية العتو والعناد ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي لِمَ تستعجلون بالعقوبة السيئة، فتقولون ائتنا بما تعدنا؟ ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة فتأخرونها إلى حين نزول العذاب؟ وقد كانوا لجهلهم يقولون: إن وقع إيعادُه، تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي هلاّ تستغفرون الله تعالى قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة، إذ لا إمكان للقبول عند نزول عذاب الله.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك وبأتباعك المؤمنين،

وأصله تطيّرنا أي تشاءمنا، وكانوا قد تتابعت عليهم الشدائد، وأصابهم القحط والجوع حتى كادوا يهلكوا، فلذلك تشاءموا من دعوته ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي السبب الذي ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو عملكم السّيّىء المكتوب عنده، فهو سبب شؤمكم لا نحن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم، ولذلك تقولون ما تقولون!!.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ديار ثمود وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أشخاص وهم الذين سعَوْا في عقر الناقة، وكانوا عُتاة مغرقين في الإجرام ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، شأنهم الإفسادُ وإيذاء العباد، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، وبعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض، في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك عندما أنذرهم بالعذاب ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي تحالفوا بالله على قتله، مقول لقالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً لنقتلهم، والبياتُ مهاجمة العدو ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي ولي صالح عليه السلام ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ما حضرنا محل هلاكهم، فضلاً أن نتولى إهلاكهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من تمام القول أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم ليقتلوه، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ ﴾.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا ﴾ أي دبروا مكيدة لقتل صالح عليه السلام ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم[1] ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يحتسبون.

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾.

﴿ فَانظُرْ ﴾ أي فتفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجْر، في شِعْبٍ يصلي فيه، فخرجوا إلى الشِّعْبِ وقالوا: إذا جاء ليصلّي قتلناه، فبعث الله صخرة من الهضاب، فطبّقت الصخرة على فم الشِّعب، فلم يدر قومهم أين هم؟ ولم يدروا ما فُعل بقومهم؟ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ ﴾.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ ﴾ أي خالية وساقطة متهدمة يقال: خوَت

---

(١) المكر من الله بمعنى الجزاء، أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمّاه مكراً بطريق المشاكلة، كقوله سبحانه: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾ مع أن ردَّ العدوان، والانتصاف من الظالم، ليس قبيحاً، فهو مجرد اتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى، قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٥: أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، واتفقوا على قتله غِيلةً ليلاً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. اهـ.

الدارُ، أي خلت من أهلها، وخوت النجوم سقطت ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ من التدمير ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أي لعبرة عظيمة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يتصفون بالعلم والفهم.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي اتقاءً مستمراً فلذا نجوا.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ جملة حالية لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، أي تفعلونها والحال إنكم تعلمون بكونها كذلك، وقيل: يبصرها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ تكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه بطريق التصريح ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أي متجاوزين النساء ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وعاقبته، أو الجهل بمعنى السفاهة، أي بل أنتم قوم سفهاء، لا تميزون بين الحسن والقبيح.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا ﴾ أي قدّرنا إنها ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين في العذاب لأنها كافرة.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء متتابعة، كانت تنزل عليهم كالمطر عند انصبابه، فأهلكناهم بالصيحة والحجارة، فبئس هذا العذاب الذي أمطروا به، وهو حجارة من سجّيل منضود.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ﴾ بعد أن قصَّ الله تعالى على رسوله قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيّن على ألسنتهم حقّية الإيمان، وبطلان الكفر، وأن من اقتدى بهم اهتدى، ومن أعرض عنهم تردّى، أمر رسوله محمداً ﷺ بأن يحمده تعالى، على ما أفاض عليه من تلك النعم فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾؟ أي هل الله الذي ذُكرت شؤونه، الخالق المبدعُ، الحكيمُ، خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها؟ ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟ أي ما يشركونه به تعالى من الأصنام والأوثان؟ والغرضُ تبكيتُ الكفرة، وتسفيهُ آرائهم، إذ من البيِّن أنه ليس فيما أشركوا به شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا

خير إلاَّ خيره، ولا إله غيره، وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله تعالى خيرٌ وأبقى، وأجلُّ وأكرم».

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أم منقطعة، والمعنى: بل أم من خلق السماوات والأرض، وأبدع الكائنات بجميل صنعه، وباهر قدرته؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي ذات حسن ورونق، يبتهج به النُّظَّار ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ أي أإلَه آخر مع الله حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت آخر لهم، حيث يسوُّون بين الخالق الرازق، والصنم الأصم، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل قوم عادتهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن الاستقامة.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ بحيث يستقر عليها الإنسان، والدواب، بإبداء بعضها من الماء، وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم، وجعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ جارية ينتفعون بها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها معادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يُحصى

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة، فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار ماء الأنهار ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ في الوجود، وفي إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحقَّ فيشركون مع الله غيره، ولا يفهمون أن ما هم عليه من الشرك باطل.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجته شدةٌ من الشدائد، ونوازل الدهر، إلى الضراعة إلى الله تعالى، واللام للجنس، لا الاستغراق، حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوء، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما بالإنسان من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة، إلا القادر على كل شيء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تتذكرون.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟ أي في ظلمات الليالي فيهما، في الأسفار والقفار، ومشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء وعمياء، للتي لا منار بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهي المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي دبَّر أمور هذه العوالم بحكمته، وأبدع خلقها بقدرته؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس المنفرد بالألوهية عما يشركون معه من حجارة صماء، لا تسمع ولا تستجيب، وسواء من دعاها أو رجاها.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) ﴾.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾؟ بعد الموت بالبعث؟ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادة، فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ﴾؟ أي بأسباب سماوية وأرضيّة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾؟ حتى يجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؟ في تلك الدعوى.

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) ﴾.

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بعدما حقَّق تفرده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، عقبه بذكر اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي متى يُنشرون من القبور، والضمير للكفرة.

﴿ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾.

﴿ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أصله تدارك ومعناه: تلاحق وتدارك، بمعنى جهلوا علمها، ولا علم عندهم من أمرها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بذلك أصلاً، ثمّ أضرب عن بيان عدم علمهم، إلى بيان ما هو أسوأ منه، وهو حيرتُهم في ذلك حيث قيل ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ من نفس الآخرة كمن تحيَّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هم فيه أشد وأفظع من الشك، حيث قيل:

﴿عَمُونَ﴾[1] بحيث لا يكادون يدركون دلائلها، لاختلاف بصائرهم بالكلية، وفيه نُكتة، وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عدَّاه «بمن» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعماهم عنها، والمراد بهم كفار مكة، ووضعُ الموصول موضع ضميرهم، لذمّهم، والإشعار بعلة حكمهم الباطل في قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾؟ أي أنخرج من القبور إذا كنا تراباً؟.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي لقد وَعَدنا محمد بالبعث، كما وُعد آباؤنا من قبله في الأزمنة المتقدمة، ثم لم يُبعثوا ولن يُبعثوا، ولو كان البعث حقاً لحصل ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلاّ خرافات وأساطير الأولين، سطَّروها وكتبوها كذباً.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩﴾.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي تفكّروا واعتبروا كيف صار مآل المكذبين المجرمين؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟.

---

(١) خلاصة معنى الآية: أن المشركين لا يصدِّقون بالآخرة، وهم شاكُّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عماية وجهلٍ كبير بأمرها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدِّقون بالآخرة؟.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ أي في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم، فإن الله يعصمك من الناس.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي تبعكم ولحقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، و«عسى» و«لعل» و«سوف» في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم، كالتصريح ممن عداهم، وعلى ذلك جرىٰ وعدُ الله ووعيدهُ ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي ما تتعجلونه من العذاب.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعام على الناس، ومن جملة إنعامه تأخير عقوبة هؤلاء، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأفعال والأقوال، التي من جملتها استعجال العذاب، فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكنْ له وقتٌ مقدَّر، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم على الكل.

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾ أي من خافية ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ سمّي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة، وخافية، والتاء للمبالغة، كالعاقبة والعافية ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، ومن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العتوّ والغلوّ، في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم التناكر في أشياء، كأحوال الجنة، والنار، وعزير، والمسيح، حتى بلغ المشاقة، إلى حيثُ لعنَ بعضُهم بعضاً، وقد نزل القرآن الكريم ببيان الحقائق القاطعة.

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وإن القرآن لهداية لقلوب أهل الإيمان، ورحمة لهم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي بحكمته وبعدله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرد حكمه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي هذا شأنه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، والعاقبة لك بالنصر على أعدائك.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالموتى، لا حسَّ لهم ولا فهم ولا عقل، وإنما شُبِّهوا بالموتى، لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييد النفي بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيد النفي، فإنهم مع صَمَمهم معرضون عن الداعي، مولُّون أدبارهم، فسماعهم في هذه الحالة أبعد.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي وليس بوسعك أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم، والآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فإن الاهتداء منوط بصفاء القلب ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما تُسمع سماعاً يُجدي السامع نفعاً ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إلا من يصدِّق وينقاد لأمر الله، ويؤمن بآياته ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون لله جلَّ وعلا من قوله سبحانه: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي أخلص في إيمانه وعمله.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالقول: مجيء الساعة، وما فيها من الأهوال، التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه: قيامها وحصُولُها وقد يراد بالوقوع دنُوُّها، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا دنا وقَرُب وقت قيام الساعة، وظهرت أمارات القيامة، التي كانوا يكذبون بها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجسَّاسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي ﴿دَآبَّةً﴾ من الدلالة على غرابة شأنها، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوعَ الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، أو خاصَّةَ أحدكم، أو أمرَ العامة»[(١)] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الآيات خروجاً، طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثْرِها قريباً[(٢)]» ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله، الناطقة بمجيء الساعة، قيل: تكلمهم بالعربية الفصحى، بلسان عربي فصيح فتقول: ألا لعنةُ الله على الظالمين، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكلّمهم ببطلان الأديان، سوى دين الإسلام، ووصفُهم بعدم الإيقان، مع أنهم كانوا جاحدين بها، للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها، ويعتقدوا بصحتها.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في كتاب الفتن.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤١ في الفتن أيضاً وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٠.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ المراد بهذا الحشر، هو الحشر للعذاب، بعد الحشر لكافة الخلق، أي واذكر لهم وقت جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام، جماعة كثيرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي فوج المكذبين بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ أي إلى موقف السؤال ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى موبخاً لهم ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى ﴾؟ الناطقة بلقاء يومكم هذا؟ ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾؟ جملة حالية مؤكدة للإنكار، أي أكذبتم بها بادي الرأي، غير ناظرين فيها نظراً، يُؤدّي إلى العلم بكنهها؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف، هي الآيات القرآنية، لأنها منطوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أم أيَّ شيءٍ كنتم تعملون في الدنيا؟ كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والتكذيب، مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة، يُخاطبون بذلك تبكيتاً، ثم يُكبُّون في النار.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ أي حلَّ بهم العذاب، الذي كانوا ينكرونه ﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ باعتذار، لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغلٍ من العذاب الأليم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ ﴾ الرؤيةُ قلبية لا بصرية، أي ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل، بما فيه من الإظلام ﴿ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي ليستريحوا فيه بالنوم والقرار ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ في جعلهما كما وُصفا ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ كثيرة عظيمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دالة على صحة البعث، وصدق الآيات الناطقة به، دلالةً واضحة، كيف لا، فإنَّ من تأمَّل في تعاقب الليل والنهار، وشاهد تبدل الظلمة المحاكية للموت، بضياء النهار المضاهي للحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وخصَّ المؤمنين بالذكر ﴿لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بتلك الدلائل الكونية.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ نفخة الفزع[1] ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المراد به ما يعتري الكلَّ عند البعث، بمشاهدة الأمور الهائلة، من الرعب والهول، أي لا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلاَّ خاف وفزع، وإيراد الماضي (ففزع) للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزع من الملائكة، والأنبياء، والشهداء ﴿ وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من المبعوثين عند النفخ ﴿ أَتَوْهُ ﴾ أي حضروا الموقف للسؤال ﴿ دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين، ذليلين.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٦٨٤/٢: وهذه «نفخة الفزع» ثم بعد ذلك «نفخة الصعق» وهو الموت، ثم بعد ذلك «نفخة القيام لرب العالمين» وهو النشور من القبور لجميع الخلائق. أهـ وعلى هذا القول يكون النفخ في الصور ثلاثاً، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتة في مكانها، من جَمَدَ في مكانه إذا لم يبرحه ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي في السرعة، تراها رأي العين ساكنة والحال أنها تمرُّ مرَّ السحاب، تسيِّرها الرياحُ سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركاتها، وهذا ممَّا يقع بعد النفخة الثانية، عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر(١)، وهي وإن اندكت وتصدَّعت عند النفخة الأولى، لكنْ تسييرها بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾(٢) ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صَنَعَ الله ذلك صُنْعاً ﴿ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحكم خلقه، وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة، المستتبعة للغاية الجميلة ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليل لكون ما ذكر صنعاً محكماً له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها،

---

(١) في هذا القول نظر، والصحيح أن هذا إنما يكون في الدنيا لا في المحشر، فالآية الكريمة تشير إلى إبداع الله في صنعه وتدبيره، الكواكب، والأرضُ، والشمسُ، والقمرُ، كلها تسبح في هذا الفضاء الواسع، دون أن تنقلب الأرض بمن فيها، أو تصطدم النجوم بعضها ببعض، بدليل قول الله تعالى ﴿كلٌّ في فلك يسبحون﴾ وقوله ﴿صُنْعَ اللهِ الذي أتْقنَ كُلَّ شَيءٍ﴾ ففي الآية الكريمة إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبق علميٌّ فريد، لم يعرفه البشر إلاَّ في عصر اختراع المراكب الفضائية، التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوَّرت لنا الأرض وهي تشرق وتغرب عليهم، كما تشرق الشمس وتغرب على سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية سبق إليها القرآن» ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للمكتشفات والمخترعات العصرية.

(٢) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٧.

وبيان كيفيتها على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها، بعد بعثهم وحشرهم، أي هو تعالى عليم بما يفعل العباد، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء منكم، يوم القيامة بالحسنة، فله من الجزاء ما هو خير منها، إما باعتبار إضعافها، وإمَّا باعتبار دوامها ﴿وَهُم﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنات ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهم آمنون لا يعتريهم ذلك الفزع، ولا يلحقهم ضرره أصلاً، وأما الفزع الذي يعتري كل من في السماوات والأرض، فإنما هو التهيبُ والرعبُ في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، فلا يكاد يخلو منه أحد.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشركُ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي ألقيتْ فيها على وجوههم في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي هل تعاقبون وتنالون جزاءكم؟ على إضمار القول، أي تقول لهم خزنة جهنم ذلك ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ في الدنيا من سيىء الأعمال.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ ﷺ أن يقول بعد

ما بيَّن لهم، أحوال المبدأ والمعاد، تنبيهاً لهم على أنه قد أتمَّ أمر الدعوة، بما لا مزيد عليه، ولم يَبْقَ له ﷺ بعد ذلك شأن، سوى الاشتغال بعبادة ربه، غير مبالٍ بهم، ضلوا أم رَشَدوا، والبلدة هي «مكة» المعظمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها، وشناعة ما فعلوا فيها، ألاَ ترىٰ أنها مع كونها محرَّمة، من أن تنتهك حرمتها، باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفير صيدها، أنهم قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أنواع الفجور، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا فيها الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً، ومِلكاً، وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد في شيء منها ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي أن أثبت على ما كنت عليه ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾؟.[1]

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أواظب على تلاوته وأن أقرأه على الناس، بطريق تكرير الدعوة، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ حينئذ بالإيمان به والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما منافعُ اهتدائه، عائدةٌ إليه لا إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار، فليس عليَّ من وباله شيءٌ، وإنما وبالُه على نفس المنكر المكذِّب، إذْ ما على الرسولِ إلاَّ البلاغُ المبين.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أفاض عليَّ من نعماء، التي أجلُّها نعمةُ النبوة ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي سيريكم في الدنيا آياته الباهرة، التي نطق بها القرآن، كخروج الدابة، وسائر أشراط الساعة ﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى، حين لا تنفعكم المعرفة، وقولُه تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام من جهته تعالى مقرِّرٌ لما قبله، ومتضمنٌ للوعد والوعيد. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل»

* * *

سُورَةُ القَصَصِ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه.

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، لأنه كان يتلوه على الرسول ﷺ حتى يحفظه، ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً عن التنزيل ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي بعض نبئها ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تجبر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحدود في الظلم ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي فِرَقاً وأصنافاً في استخدامه

وأغرى بينهم العداوة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وذلك أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ، يذهب ملكك على يده، وما ذلك إلا لغاية حمقه، إذ لو صدق فما فائدة القتل؟ وإن كَذَب فما وجهه؟ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الفساد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نتفضل بإنجائهم من بأسه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم في أمور الدين، بعد أن كانوا أتباعاً مسخَّرين للآخرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم، ويسكنون مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي نسلطهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤون ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكن إخفاءه، وفيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك[1] ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي في البحر، وهو نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه من الغرق ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] تعليل للنهي، أي ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية الجبار.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي فألقته في اليمِّ فالتقطه، أي أخذوه أخذ اعتناء به، وصيانةً له، فنظرت آسية فإذا هي بصبيٍّ صغير في مهده، فألقى الله محبته في قلبها، وهَمَّ فرعون بقتله، فاستوهبته آسية فتركه لها ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ اللام لامُ العاقبة، أي ليصير الأمر إلى ذلك، أن يصير عدواً لهم لا لأنهم أخذوه لهذا، كقول القائل: «لِدُوا للموتِ، وابنُوا للخراب» ﴿وَحَزَنًا﴾ أي سبباً لحزن فرعون وهلاكه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون، فلا غرو أن قتلوا لأجله ألوفاً، ثم أخذوه يربُّونه، ويفعل الله بهم ما كانوا يحذرون.

---

(١) فإن قيل: ما فائدة الأمر بإرضاعه، والأم بطبيعة الفطرة ترضع ولدها؟ فالجواب أن الله أمر بإرضاعه حتى يألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها.

(٢) هذه الآية: ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾ من معجزات الإعجاز والإيجاز، لاشتمالها على أمرَيْن، ونهيَيْن، وخبرَيْن، وبشارتين، في أسهل نظم، وأسلس لفظ، وأوجز عبارة، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه، والنهيان: لا تخافي، ولا تحزني، والخبران: أوحينا، وخفت، والبشارتان: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فما أبدع هذا الإعجاز.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أي قالت لفرعون حين أخرجته من التابوت، وخاطبته بلفظ الجمع ﴿لا تقتلوه﴾ تعظيماً، ليساعدها فيما تريده ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم، فيما صنعوا من الالتقاط، وأن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الغلام.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ أي خالياً من العقل لما دَهَمها من الخوف والحيرة، حين سمعتْ بوقوعه في يد فرعون(١)، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ وهو قول صاحب الكشاف، وقيل: فارغاً من الهمِّ والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، وهو قول أبي عبيدة، أو لسماعها أن فرعون عَطَف عليه وتبنَّاه وهو قول أبي مسلم ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ أي إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها، من فرط الحيرة والدهشة ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ بإلهام الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من المصدِّقين بوعد الله، الواثقين بحفظه تعالى لهذا الوليد.

---

(١) وقيل إن المعنى: أن قلبها صار خالياً من كل شيء في الدنيا، إلا من ذكر ولدها موسى، لم يعد في قلبها إلاَّ همُّ أمره ونجاته، وهذا القول مروي عن ابن عباس، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن معنى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أن عقلها طار من فرط الجزع والغمِّ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي كادت تصيح وا ابناه، وهذا القول ذكره القرطبي عن مالك رحمه الله، ولعله هو الأصح والأظهر.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ التعبيرُ عنها بأخوّته دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة لامتثال الأمر ﴿ قُصِّيهِۖ ﴾ أي ابتغي أثره وتتبعي خبره، قصصت الأثر تتبعته ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته عن بُعد، وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله، وأنها أخته.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، وذلك يحتمل أنه تعالى أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، أو وضع لبن أمه لذة فلما تعودها كان يكره لبن غيرها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أثره وقد دخلت بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾؟ أي لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لمّا سمعه منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملكِ ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه، وموسى على يد آسية يبكي، وهي تعلّله، فدفعته إليها، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلاّ ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيّبة الريح، وطيبة اللّبن، لا أوتىٰ بِصبي إلاّ قبلني، فأقرّه في يدها، وأجرى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وذلك قوله تعالى.

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلْف فيه لمشاهدة بعضه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، فيرتابون فيه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي المبلغ الذي تكتمل فيه الرجولة، ويكمل فيه عقل الإنسان، وهو سنُّ الأربعين، ويروى أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس الأربعين، والحكمة فيه ظاهرة لأنه إذا انتهى إلى أربعين تكامل عقلُه وأخذ في الازدياد ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي اعتدل قدره وعقله، فالأشدُّ: عبارةٌ عن كمال القوة البدنية، والاستواء: كمالُ القوة العقلية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم العلماء والحكماء، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه العلم، مجازاة على إحسانه، والنبوة لا تكون جزاءً على العمل.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي مصر من قصر فرعون ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القيلولة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أهل المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي ممن شايعه على دينه، أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي مخالفيه ديناً من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي سأله أن يغيثه بالإعانة، وشيعةُ الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضرب القبطي بجُمْع كفه

وقيل: الوكز ضرب في الصدر، وكزه من باب وعد، أي ضربه ودفعه، وقال الكسائي: وكزه أي لكمه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ فقتله، أصله أنهى حياته ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأً، وإنما عدَّه من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه، جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، وإن كان من محقَّرات الصغائر ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بقتله ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في مغفرة ذنوب عباده، ورحمتهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ هذا استعطافٌ، أي بحقّ إنعامك عليَّ اعصمني، فلن أكون معيناً لمن تؤدي معونته إلى الجرم، وفيه دلالةٌ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ أي بيِّنُ الغواية، تسببتَ لقتل رجلٍ، وتقاتل آخر اليوم!.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي لموسى وللإسرائيلي ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ الإسرائيلي ظاناً أنه عليه السلام سيبطش به، حسبما يوهمه تسميته إياه غوياً ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قالوا: لمَّا سمع القبطي قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى، وقيل: قاله القبطي[1] ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يبطش، ويقتل، ولا ينظر في العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخرها ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يُسرع، وهو مؤمنٌ من آلِ فرعون ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يتشاورون بسببك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي يريدون قتلك، فأنصحك أن تخرج من هذا البلد بسرعة، فأنا لك ناصح أمين.

---

(١) القول الأول أظهر، وهو الذي حكاه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٤ حيث قال: ولمَّا عزم على البطش بذلك القبطي، اعتقد الإسرائيلي لخَوَره وضعفه، أن موسى إنما يريد قتله لمَّا سمعه يقول ﴿إنك لَغويٌّ مُبينٌ﴾ فقال له: ﴿أتُريدُ أنْ تقتُلَني كَمَا قَتَلتَ نفْساً بالأمسِ﴾ فلقفها القبطيُّ من فمه، ثم ذهب إلى فرعون فأخبره بذلك اهـ.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا ﴾ أي من المدينة ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي خلصني منهم، واحفظني من شرّهم.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ نحو مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ توكلاً على الله، وثقة بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرق وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ أي وصل ﴿ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيرها ﴿ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ جماعة كثيفة ﴿ يَسْقُونَ ﴾ أي مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أي أسفل من مكانهم ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعان ما معهما من الأغنام من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، والذَّودُ: الطردُ والدفع ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لهما حين رآهما وما هما عليه من التأخر والذود ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر؟ ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى

﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ حتى يُصدر الرعاةُ مواشيهم عن الماء، حذراً من مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فلا نسقي حتى ينصرف الرعاة بمواشيهم.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمة عليهما لكونهما على الضعف والعفة، وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية، لأنَّ هذا الأمر في نفسه ليس بممنوع شرعاً، وأحوال أهلِ البدو، غير أحوال أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمسٍ، وحر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أيْ أيَّ شيء أنزلتَه إليَّ من خير فأنا محتاج إليه، وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل هي كبراهما، أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، روي أنهما لمَّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما بطانٌ، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي كانت على استحياء، تمشي مشية الحرائر، بخجل وحياء، وتنكير استحياء للتفخيم ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أسندت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه دلالة على كمال عقلها وعفتها، روي أنه عليه السلام أجابها، فانطلقا حتى أتيا دار شعيب عليه السلام

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي ما جرى عليه ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم، أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم، ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهر برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجراً، ألا يرى إلى ما رُوي أن شعيباً عليه السلام لما قدَّم إليه طعاماً، قال: إنَّا أهل بيت، لا نبيع ديننا بجبال الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فتناول بعد ذلك.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليه السلام، روي أن شعيباً عليه السلام قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت ما شاهدت منه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر».

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ في الخدمة ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أي فهو من عندك بطريق التفضل، لا من عندي بطريق الإلزام عليك، وهذا من شعيب عليه السلام عرض رأي على موسى لا

إنشاء عقد ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزام تمام العشر واستيفاء العمل ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة، ولين الجانب، وإيفاء العهد.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ أي ذلك الذي قلته ثابت بيننا لا يخرج عنه واحد منا ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أي أكثرهما أو أقصرهما ﴿قَضَيۡتُ﴾ وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ أي لا عدوان عليَّ بطلب الزيادة على ما أدّيتُ، ولا إثم عليَّ فيه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ والله على ما نقول من الشروط الجارية بينهما شاهدٌ وحفيظ، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أيَّ الأجلَيْن قَضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري، حتى أَقْدُمَ على حَبْر العرب فأسأ له فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال: «قضى أكثرهما ـ يعني العشر ـ وأطيبهما؟ إنَّ رسول الله إذا قال فعل»[1] فالفقهاء استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز من الآية الكريمة.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/٢١٣.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أي فعقد العقد، وباشر موسى ما التزمه، فلما أتمَّ الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ نحو مصر قيل مكث موسى عشر سنين، ثم استأذن العود إلى مصر من شعيب عليه السلام ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من يدلني على الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي عود غليظ وشعلة من النار والجذوة: الجمرةُ الملتهبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ النار التي أبصرها، رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس ﴿ نُودِىَ ﴾ أي أتاه النداء فخوطب بألطف خطاب ﴿ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي جانبه الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ إنما وصف البقعة بكونها مباركة، لأنه حصل فيه ابتداء الرسالة والتكلم ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتمال من الشاطىء لأنها كانت ثابتة على الشاطىء ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الجليل، وهذا وإن خالف لفظاً لما في طه، والنمل، لكنه موافقٌ له في المعنى المراد، وفي النمل: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ وقال في طه: ﴿إِنِيّ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نعْلَيْكَ﴾. فلا منافاة، لأنه تعالى ذكر الكل، إلاَّ أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ ﴾ أي ألقها من يديك، فألقاها فإذا هي حية تسعى

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ في سرعة الحركة، مع عظم جثتها ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ منهزماً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يلتفت، فقيل له ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أي أدخلْ يدك في جيبيك، وفي طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ﴾ وفي النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ﴾ ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي عيب كالبرص ونحوه ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي يديك المبسوطتين استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمَّهما إليه، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، لأن الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني زوال الخوف ﴿ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ أي من الخوف، فالخائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه ﴿ فَذَٰنِكَ ﴾ إشارة إلى العصا، واليد ﴿ بُرْهَٰنَانِ ﴾ أي حجتان نيِّرتان ﴿ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها، يعني ذلك القبطي، الذي قتله في مصر، لمَّا رآه يعتدي على الإسرائيلي.

﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لأنه كان في لسانه حُبسة، إمَّا في أصل الخِلقة، وإمَّا لأجل أنه وضع الجمرة في فيه، عندما كان صغيراً في حجر فرعون ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو اسم لما يُعان به، كالدِّفء اسمٌ لما يُدفأ به، والرِّدْءُ وِزان حِمْل: المعينُ ﴿ يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجة وتوضيحها، المفيد، لا مجرد قوله صدقتك ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي أحد معين أن يكذبوني، لأنهم يكادون لا يفقهون قولي.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ﴾ أي سنقوي ﴿ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وكان هارون بمصر، وقوة الشخص على مزاولة الأمور بشدة اليد، وشدتها بشدة العضد ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي تسلطاً وغَلَبة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح في مواضع أخرى أي اذهبا بآياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أي الغلبة والنصر لكما ولأتباعكما على فرعون وقومه، وقلب العصا كما أنها معجزة، فهي أيضاً تمنع وصول ضرر فرعون إلى موسى، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، والمراد بالغلبة هنا: الحجة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام، والمراد بها العصا، واليد ﴿ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي سحر مختلق، موصوف بالافتراء ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ادعاء النبوة واقعاً في أيامهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ يريد به نفسه عليه السلام ﴿ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ ﴾؟ أي العاقبة المحمودة، وهي الجنة قال الله تعالى: ﴿أولَئِكَ لَهُمْ عُقبىٰ الدَّارِ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ قاله اللعين بعد ما جَمَع السحرة، وتصدَّى للمعارضة، فكان من أمرهم ما كان، وكانت عادة اللعين متى ظهرت حجة موسى عليه السلام، أن يتعلق في دفع تلك الحجة، بشبهة يروِّجها على أغمار قومه، كقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟. على أنه كان عارفاً بالله تعالى: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ أي اصنع آجرّاً، وأول من اتخذ الآجر فرعون ﴿ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا ﴾ أي قصراً رفيعاً ﴿ لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ كأنه توهم أنه لو كان موجوداً لكان جسماً في السماء، يمكن الرقي إليه، والطُّلوعُ، والاطِّلاعُ: الصعود ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ في دعواه أن له إلَهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً، وقد تناقض المخذول، فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلَهاً، قال أهل السير: جَمَع هامان العمال، وطبخ الآجر والجص، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه، حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه سقط على العمال فهلكوا جميعاً.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في أرض مصر ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بغير استحقاق ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث والجزاء.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ ﴾ الذين بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات ﴿ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ وفيه تفخيم شأن الأخذ، كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم، وطرحهم في اليم أي البحر، والفرض منه تصوير أنَّ كل مقدور وإنْ عَظُم، فهو حقير بالقياس إلى قدرته تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؟ تنبيهاً للناس ليعتبروا بها.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي صيرناهم في عهدهم ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ ﴾ الناس ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها، من الكفر والمعاصي، أي قُدوةً يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة، ولعناً من اللاعنين، حيث تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خَلَفاً عن سلف ﴿ وَيَوْمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام، والتعرض لبيان إيتائها بعد إهلاكهم، للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، فإن إهلاك القرون الأولى، من موجبات اندراس معالم الشرائع وأحكامها المؤدي إلى اختلال نظام العالم، وحاجته إلى نظام جديد، كأنه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أنواراً لقلوبهم، تُبصر بها الحقائق، وتُميِّز بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ أي هدايةً إلى الشرائع والأحكام ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليكونوا على حالٍ يُرجى منه التذكر .

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم، واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله، ببيان أن الوقوف على ما فُصِّل من الأحوال، لا يتسنى إلا بالمشاهدة، أو التعلم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما، تبيَّن أنه وحي من علام الغيوب لا محالة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ أي وما كنتَ يا رسولَ الله بجانب الجبل الغربي، الذي وقع فيه الميقات ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمرنا له بالنبوة وبالوحي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي،

وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد من أمر موسى ما تشاهد، فتخبر به الناس.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي ولكنْ خلقنا بين زمانك، وزمان موسى، قروناً كثيرة ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ وتمادى الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، والأخبار، واندرست العلوم، فاقتضى الحال لتشريع جديد، فأوحينا إليك، فحُذف المستدركُ، اكتفاءً بذكر ما يوجبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ﴾ أي مقيماً ﴿ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات، ولولا ذلك لما علمتها أنت ولا قومك.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكنْ أرسلناك بالقرآن، لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ أي لتخوِّف أهل مكة وكفارها عذاب الله ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم ﴾ صفة لقوماً أي لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾ عقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ عطف على أن تصيبهم، أي فيقولوا عند ذلك ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ ﴾ أي هَلَّا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ مؤيداً من عندك بآيات ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بها، والمعنى: لولا قولهم هذا، عند إصابة عقوبة جناياتهم، ما أرسلناك، لكنْ لمَّا كان قولهم ذلك محقَّقاً، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ أهل مكة ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد ﴿ قَالُواْ ﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ من الكتاب المنزَّل جملة وهو التوراة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً مَحْضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق، أي ألم يكفروا ﴿ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا الحق ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هما يعنون ما أُوتي رسولُ الله ﷺ، وما أوتي موسى عليه السلام ﴿ تَظَـٰهَرَا ﴾ تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا وجدناه في التوراة بنعته، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا ذلك ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وقرىء (ساحران).

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ ممَّا أوتياه من القرآن، والتوراة ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي إن تأتوا به أتَّبعه، وهذا من الشروط التي يراد به الإلزام، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين، أمرٌ بيِّنُ الاستحالة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهما سحران مختلَقَان، وفي كلمة ﴿إنْ﴾ مع امتناع صدقهم، نوعُ تهكمٍ بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلَّفتهم من الإتيان ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة، من غير أن يكون لهم تمسك بشيء ما، إذ لو كان لهم ذلك لأتوه، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاري أي لا أضل ممن اتبع هواه، وتقييد اتباع الهوى، بعدم الهدى من الله، لزيادة التقريع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والشهوات، والإعراض عن الآيات الهادية البيِّنات.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي أنزلنا القرآن عليهم، متواصلاً بعضه إثْرَ بعض، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ومتتابعاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعِبَراً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنوا بما فيه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إيتاء القرآن ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأشباهه، قال ابن

عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوا في دعوى الإيمان.

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة أي مؤمنين بأنه سيبعث.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمَنَ بنبِّيه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبدُ المملوك إذا أدَّىٰ حقَّ الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤُها فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها ثم تزوجها، فله أجران»[1] ﴿ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمان بالرسول والقرآن ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي ويدفعون بالطاعات المعصية ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في العتق ٥/١٢٦ ومسلم رقم ١٥٤ في الإيمان.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ ﴾ القول القبيح، وذلك أن المشركين كانوا يسبُّونهم ويقولون: تبّاً لكم، تركتم دينكم ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي عن اللغو تكرماً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ للشاتمين ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ أي لنا طريقتنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من الوقاحة والسفاهة، وكل على طريقته ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة، وليس بتسليم وتحية، بل هو براءة ومفارقة، قال الزجاج، لم يريدوا التحية وإنما أرادوا المتاركة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ وقال بعضهم: نُسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد، لأن ترك المسافهة مندوبٌ، وإن كان القتال واجباً ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي لا نبغي صحبتهم ولا نجازيهم بالباطل.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية المجهود، وقال تعالى: ﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ ولا تنافي بينهما، فإن الذي أضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح القلب للإسلام، وهو نور يُقذف في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه ممن يستأهل فيدخله في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي المستعدين لذلك، عن أبي هريرة قال: «﴿إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية نزلت في رسول الله ﷺ، حيث راود عمَّه أبا طالب على الإسلام» والجمهور على ذلك، فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم: قل: (لا إله إلا الله) كلمة أحاجُّ

بها لك عند الله، قال له: يا ابنَ أخي، قد علمتُ أنك صادق، ولكني أكره أن يقال فزع عند الموت.[1]

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، لكنا نخاف إنِ اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرض مكة، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾؟ أي ألم نعصمهم ونجعل بلدهم حرماً ذا أمنٍ لحرمة البيت الحرام، الذي تتناحر العرب حوله، وهم آمنون؟ ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ أي يجمع ويحمل إليه ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من كل أوب ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكر، وهم عَبَدةُ أصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت العتيق، حرمة التوحيد؟ وكيف يكون الحرم أمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون أمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفطنون له، ولا يتفكرون.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسَعَة العيش والدَّعة، حتى أشركوا فدمَّرنا عليهم، وخرَّبنا ديارهم، فالإصرار على الكفر، يزيل النعم، لا

---

(١) انظر صحيح البخاري ٨/٥٠٦ فقد ذكر القصة كاملة، وأن أبا طالب أبى أن يقول لا إله إلا الله، وفيه نزلت ﴿إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

الإقدام على الإيمان ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة، يوماً أو بعض يوم، ولم يبق من يسكنها إلا قليلاً، من شؤم معاصي المهلكين ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما صح وما استقام في سنته تعالى المبنية على الحِكَم، والمصالح، أن يهلك القرىٰ قبل الإنذار، بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي في أصلها وعاصمتها، وخصَّ الأم أي العاصمة ببعثة الرسل، لأنه يبعث للأشراف وهم سكان المدن، ولكون أهلها أفطن وأنبل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقة بالحق، ويدعو إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبع آياتك؟ والالتفاتُ إلى نون العظمة لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى، بعدما بعثنا رسولاً يدعوهم إلى الحق، في حال من الأحوال، إلا حال كونهم ظالمين، بتكذيب رسلنا، والكفر بآياتنا.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي فهو شيء شأنه أن يُتمتع به، ويتزين أياماً قلائل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب

﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود، فهو مدركه لا محالة، لاستحالة الخُلْف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية، المفيدة لتحققه البتَّة ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام، منغَّصٌ بالأكدار، مستتبع للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ثم أحضرناه يوم القيامة للحساب والعذاب، وتخصيصُ لفظ ﴿مُحْضَرِينَ﴾ بالذين أُحضروا للعذاب، أمرٌ عُرف من القرآن، وصار مقروناً بالعذاب الإلٓهي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أنهم شركائي عبدتموهم من دون الله؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في كل ما أمروهم به، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ﴾ أنه ثبت مقتضاه بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الجنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعينَ﴾[1] ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغويناهم بالوسوسة والتسويل، لا بالإلجاء والإكراه، فغووا باختيارهم ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ إما تهكماً بهم أو تبكيتاً لهم ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي الأصنام لتخليصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من الوجوه، لَمَا لَقُوا ما لقوا من الكرب والبلاء.!

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؟ الذين نهوهم عن الشرك، أي ماذا أجبتم رسلي؟ هل صدَّقتموهم أم كذَّبتموهم؟.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فصارت كالعَمَىٰ عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعمُوا عن الأنباء، وقد عكس للمبالغة، أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فهم حيارىٰ واجمون، لا يعرفون ما يقولون ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضُهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة والفزع.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٩.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، و «عسى» للتحقيق[1] على عادة الكرام، أو للترجي من قِبَل الطالب، أي راجياً الفلاح من ربه الكريم.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما شاء اختياره من غير إيجاب عليه، ولا منع له أصلاً ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار، فهو الخالق المختار، والواحد القهار، فكما أن الخلق إليه، فكذلك الاختيار له ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره، نزلت هذه الآية، جواباً لقول المشركين، حين قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] ؟.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي هو جلَّ وعلا العالم بما تخفيه صدورهم، من الكفر والعداوة للرسول ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن فيه ﷺ.

---

(١) قال ابن كثير ٣/٤٠٨: وعسى من الله موجبة، فإنَّ هذا واقع بفضل الله ومنّته لا محالة. اهـ أقول: الترجي الوارد في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعدٌ كريم من رب رحيم، وهو جلَّ وعلا لا يخلف وعده.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي المستحق للعبادة وحده ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ أي لا أحد يستحقها إلا هو سبحانه ﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ لأنه المُولي للنِّعم كلِّها، عاجلها وآجلها، على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ابتهاجاً بفضله، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ بالبعث إلى حكمه وقضائه.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ ﴾.

﴿ قُلۡ ﴾ تقريراً لما ذُكر ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا ﴾ أي دائماً من السَّرْد، وهو المتابعةُ والاطِّرادُ، والميم زائدة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وواحدٌ فَرْدٌ ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ وعليه يدور أمرُ التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1] ونظائره ﴿ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾؟ هذا الكلام الحقَّ، سماع تدبر واستبصار، حتى تذعنوا له، وتعملوا بموجبه، فالمعنى: أخبروني من يقدر على هذا غير الله تعالى؟.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ ﴾.

---

(١) سورة تبارك الملك، آية: ٣٠.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ أي جعل النهار دائماً مستمراً دون انقطاع، في وسط السماء ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ للاستراحة من متاعب الأشغال، ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه، لكونه مقصوداً بذاته ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ هذه المنفعة؟ وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ و ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ لأن الغرض من ذلك الانتفاعُ، فلما لم ينتفعوا نُزِّلوا مرتبة من لا يسمع ولا يبصر.

> ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نعمة الله في ذلك، فتشكروه عليها.. جمع تعالى الليل والنهار، ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فأعاد السَّكَن إلى الليل، وطلب الرزق إلى النهار، بطريقة «اللفِّ والنشر المرتب»، وهذا من لطيف علم البديع

> ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريع إثر تقريع، للإشعار أنه لا شيء أجلب لغضب الله، من الإشراك بالله.

> ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطف على يناديهم، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقق، أي أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ أي نبياً يشهد

عليهم بما كانوا عليه، أو هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الآلهة المزعومة، من الأوثان والأنداد.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ قيل كان ابن عم موسى عليه السلام وأعلم بني إسرائيل، ولكنَّه نافق كما نافق السامري ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي من جماعته وعشيرته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تطاول عليهم بالكبر والعلوّ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي مفاتيح صناديقه، وهو جمع مِفْتح بالكسر، وهو ما يُفتح به، والمعنى: آتيناه من الكنوز ما إن مفاتيح خزائنه ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ناء به الحملُ: إذا أثقله، والعصبةُ الجماعةُ الكثيرة، أي يثقل على الجماعة أصحاب القوة، حمل مفاتيح خزائنه، لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر، والفرحُ في الدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة جهالة حال الدنيا، أن ما فيها من اللذة زائل لا محالة، والمراد بالفرح هنا: فرح البطر والأشر، والتكبر على عباد الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا، والذين لا يشكرون الله على فضله وإنعامه.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ من الغنى والثروة ﴿ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ﴾ أي ثواب الله، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، بأن تتصدق به على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرفه إلى أبواب الخير ﴿ وَلَا تَنسَ ﴾ أي لا تترك ترك المنسيّ ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ وهو أن تحصّل منها ما يكفيك ﴿ وَأَحۡسِن ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ بما أنعم عليك ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ مجيباً لناصحه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ كأنه يريد الردَّ على قولهم: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليك﴾ أي إنما فُضِّلتُ به على الناس، بالمال والجاه، لمعرفتي بوجوه المكاسب، وبسبب ذكائي ومهارتي ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ توبيخ له من جهته تعالى، على اغتراره بقوته، وكثرة ماله فالمعنى: ألم يقرأ في التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرابه، من أهل القرون السابقة، حتى لا يغترَّ بما اغترُّوا به؟ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ أي لا يُسألون سؤال استعلام، بل يعذبون بها بغتة، فالله عزَّ وجلَّ عالم بجرائمهم، ولا حاجة أن يسألهم عنها، كما قال سبحانه: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾ أي فخرج عليهم في زينته، بأبهى الحلل، وأجمل الخيل، مع خدمه وحشمه، في موكب حافل باهر ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ جرياً على الرغبة في السعة واليسار ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ أي ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ تعليل لتمنيهم وتأكيد له، أي ذو نصيب وافر من الدنيا، ومكانة عظيمة من الجاه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي العقلاء من أهل العلم والفهم، الذين لا تخدعهم المظاهر البرَّاقة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء شاع في الزجر عما لا يرتضى، أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني والكلام الفارغ ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثوابه تعالى في الآخرة ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فلا يليق بكم، أن تتمنوه غير مكتفين بثواب الله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه المنزلة والفضيلة ﴿ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإنه لمَّا أشِر، وبَطِر، وعتا، خسف الله به وبداره الأرض، جزاءً على عتوّه. وطغيانه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ ﴾ أي جماعة مشفقة ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي الناجين من العذاب، الممتنعين منه، لأنه لا نصير لهم ولا معين.

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢) ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وصار ﴿ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ ﴾ منزلته من الدنيا ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ﴾ «وَيْ» كلمة تنبيه على الخطأ والندم، يستعملها النادم بإظهار ندامته، وكأن للتشبيه، والمعنى: ما أشبه هذا الأمر، يعني أن القوم قد تنبَّهوا على خطئهم في تمنيهم، وتندَّموا على ذلك ﴿ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء، يفعل كل واحد منهما بمحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البسط، ولا لِهوانٍ يقتضي القبضَ ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي لولا أن الله لطف بنا بعدم إعطائه إيَّانا ما تمنيناه ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ كما خَسف بقارون ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لنعمة الله تعالى، أي اعجبوا من فعل الله أيها القوم، فإنه لا يفوز ولا يظفر بالسعادة، الكافرون.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها، وبلغك وصفها ﴿ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون ما لا يرضاه الله، من الأفعال، والأقوال.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي مثل ما كانوا يعملون، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة، وأن الحسنة تضاعف أضعافاً كثيرة، مبالغة في التحذير من عمل السيئات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ ﴾ أي أوجب وأنزل ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد تلاوة ﴿ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وتبليغه، والعملَ به، ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي لرادك بعد الموت إلى معادٍ، تمتد إليه أعناق الهمم، وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود، الذي وعدك به، وقيل: هو مكة المعظمة، فقد نزلت عليه في مهاجره، حين بلغ الجُحفة، وذلك أقرب وهو قول أكثر المفسرين[1] ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسه ﷺ، والمشركين، وهو جواب لكفار مكة، لما قالوا للرسول ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، وتقرير للوعد السابق.

---

(١) هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ بفتح مكة، وعودة المصطفى ﷺ إليها بعد أن هاجر منها، وهذه الآية من أعلام النبوة، فإنه خبرٌ عن غيب، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن، حيث رجع رسول الله ﷺ إلى مسقط رأسه، ظافراً منتصراً بعد سنوات قليلة من هجرته، والمعنى: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد، لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك، وهو الأشهر والأظهر، والله أعلم.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي سيردُّك إلى معادك كما ألقي إليك الكتاب، وما كنت تطمع أن تنال النبوة، وينزل عليك القرآن ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولكن ألقى إليك رحمة منه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي معيناً للكافرين بمداراتهم، ولا إجابة إلى طلباتهم.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي الكافرون ﴿ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ وفُرِضت عليك ﴿ وَٱدْعُ ﴾ الناس ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ هذا وما قبله للتهييج، والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته ﷺ لهم، روي عن ابن عباس أنه قال: «الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ، والمراد به أهل دينه» والعصمة لا تمنع أن ينتهى عن القبح من لا يمكن صدوره عنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أي إلا ذاته جلَّ وعلا، فإنَّ كل ما عداه كائناً ما كان، عرضةٌ للهلاك والفناء ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عند البعث للجزاء لا إلى غيره، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»

* * *

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مكية وهي تسع وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ: الظَّن، نزلت في قوم من المؤمنين، كان كفار مكة يؤذونهم ويعذبونهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية، وحكمها عام في جميع البشر ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؟ أي أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة، بقولهم ﴿آمَنَّا﴾ والمعنى: إنكار الحسبان المذكور، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض ما تشتهيه النفس، وفنون المصائب في الأنفس والأموال، ليتميّز المخلص من المنافق، ويجازيهم بحسب أعمالهم.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فالابتلاء سُنَّةٌ قديمة، مبنيّة على الحِكم والمصالح، جاريةٌ بين الأمم كلها فإن الأمم الماضية، قد

أصابها من ضروب الفتن والمحن، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا فمنهم من يوضع المنشار على رأسه، فيفرق نصفين، ومنهم من يُمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ذلك، أي فوالله ليميزنَّ الله بين الصادق والكاذب، بين الذين صدقوا في الإيمان، والذين هم كاذبون فيه، ويرتّب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعمُّ أفعال القلوب، والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾؟ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الذي يحكمونه!؟ فإنه سبحانه يعذب ويثيب، بحكم الوعد والإيعاد، والإمهال لا يفضي إلى الإهمال.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يتوقع ملاقاة جزائه، ثواباً أو عقاباً، وملاقاة حكمه يوم القيامة، والمشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الوقت المضروب للقائه ﴿لَأٓتٍۚ﴾ لا محالة والجواب محذوف، أي فليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحَاً﴾ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة الباطنة، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعته تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أمَرهم بمجاهدة الهوى والشيطان لِمنفعتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي نمحو الكفر بالإيمان، والمعاصي بالتوبة ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام، والآية تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان، لأن تكفير السيئات معلَّق عليها، وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك أن عروقها، وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب حواليها غير داخل فيها، لكنَّ الثمرة لا تحصل إلا بهما.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات، فإن «وصّىٰ» تجري مجرى «أمر» معنىً وتصرفاً، يقال: وصَّيْتُ فَلاناً بكذا، أي أمرته بتعهده ومراعاته ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي بألوهيته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيذان بأن ما لا يُعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه، فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجع من آمن منكم، ومن أشرك، ومن برّوا والديه ومن عقّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر، وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أني غائب عنكم، بل أنا حاضر معكم، وأعلم ما تفعلون، فأنبئكم بجميعه. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لمَّا أسلم، وكان باراً بأبويه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا آكل، ولا أشرب، حتى ترجع إلى ما كنت عليه، ولبثت ثلاثة أيام، فقال لها: «يا أماه والله لو كانت لك مائة نَفْس، فخرجت نَفساً نَفْساً، لا أترك ديني لشيء أبداً، فإن شئتِ فكلي، وإن شئت فدعي، فلما يئست منه أكلت وشربت»[1] ففيه نزلت هذه الآية الكريمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح، وهو منتهى درجات المؤمنين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدة والهول، فيرتدُّ عن الدين، ولا يصبر عليه، وما علمَ أنَّ تعذيب الناس لا يكون مديداً، وعذابُ الله مديد، وأنَّ المشقة إذا كانت

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥ وصفوة التفاسير ٢/٤٥١ وقد روى الترمذي قصة سعد في سننه ٥/٣١٩ وقال: حديث حسن صحيح، وفيه قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يُطْعموها، شَجَروا فَاها ـ أي فتحوا فمه ـ فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بَوالِدَيهِ حُسْناً...﴾ الآية.

مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي متابعين لكم في الدين، فأشركونا في المغنم، وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسَّهم أذى الكفار وافقوهم على الضلال، وكانوا يكتمونه من المسلمين، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي بأعلم منهم بما في صدورهم، من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة، أي قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقنا التي نسلكها في الدين ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها، وهذا قول صناديد قريش لمن آمن، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ «مِنْ» الأولى للتبيين، والثانية مزيدة، والتقدير وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أخبروا بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوهم به.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة، من المضرة لأنفسهم، بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم، والتعبير عن الخطايا بالأثقال، للإيذان بغاية ثقلها، وكونها فادحة، واللامُ جواب قسم محذوف، أي وبالله ليحملنَّ أثقال أنفسهم كاملة، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم، لأنهم تسبَّبوا بالإضلال، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء، وفي الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ سؤال تقريع ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ شروع في بيان فتنة الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم، إثر بيان، فتنة المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا، بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، أي ولقد بعثنا رسولنا نوحاً إلى قومه الضالين ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي أقام ومكث ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا كأنه جلَّ وعلا قال: مكث بينهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذه المدة الطويلة التي عاشها كانت معجزة له عليه السلام، لأن البشر لا يعيشون مثلها، ولمَّا أدركته الوفاةُ، قيل له: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾ عقيب نهاية المدة المذكورة، والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء، على كثرة

---

(١) هذا طرف من حديث طويل في قصة الأعراب الفقراء مجتابي النمار، وحث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة، وقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٧٤ فانظره بكماله هناك.

وشدة، من المسيل، والريح، وقد غلب على طوفان الماء ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم، لم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي الحادثة ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعقلون بها.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على نوحاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه حين تكامل رشدُه، وترقى من مرتبة الكمال، إلى مرتبة التكميل، حيث تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي مما أنتم عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميِّزون ما هو نافع ممَّا هو ضار.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً، هي في نفسها تماثيل وصور مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي لا تقدر على أن ترزقكم شيئاً من الرزق ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كله فإنه هو الرزّاق ذو القوة المتين ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ على نعمائه، متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيّدين لها بالشكر، لأنه المنعم عليكم بالرزق ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي بالموت، لا إلى غيره.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي وإن تكذبوني فيما أخبرتكم من البعث ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ تعليل للجواب، أي فلا تضرونني بتكذيبكم، فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا الرسل، فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم، حيث تسبّبوا لحلول العذاب بهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ الواو للعطف على مقدَّر، أي ألم ينظروا ويعلموا، علماً جارياً مجرى الرؤية في الظهور، كيفية خلق الله تعالى ابتداء للبشر من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ أي ثم يردُّه إلى الوجود بعد الفناء، ليستدلوا بالخلق الأول على الإعادة في الحشر؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ إذ لا يفتقر إلى شيء، فإن من نَحتَ حجارات، ووضع شيئاً بجنب شيء ففرَّقها ثم أراد إعادتها، فإن إعادتها أمرٌ يسيرٌ عليه .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ ﴾ أي سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الله الخلق، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، مع اختلاف الأشكال، والصور، والألوان، ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى، كما بدأهم يعيدهم، والتعبيرُ عن الإعادة بالنشأة الآخرة، المشعرة بكون البدء نشأة أولى، للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى، لا فرق بينهما إلاَّ بالأولية، والآخريَّة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي لا يعجزه شيء، فهو المحيي المميت، القادر القاهر، الذي يقول للشيء كنْ فيكون.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ يُعَذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكرون للبعث ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بلقاء الله ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردُّون أو تُرجعون للحساب والجزاء لا إلى غيره.

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه عليكم ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ ﴾ أي في التواري في الأرض، أو بالتحصن في السماء، التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها؟ كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾[1] ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم بما يصيبكم من بلاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي بالبعث والنشور الذي تنطق به تلك الآيات ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة، فإنهم لما أشركوا، أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيقه ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر وباليأس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يُقادر قدرُه بكفرهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ليس المراد أنه لم يصدر عنهم إلا هذه المقالة، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابهم، بعد الجدال والمحاورة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى، والقائلون هم الرؤساء أي قالوا لأتباعهم ذلك ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِنَ النَّارِ﴾ أي فألقوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها، بأن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، كما بيّنه تعالى في موطن آخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنجائه منها ﴿لَآيَاتٍ﴾ عجيبة، منها حفظُه تعالى من حرِّها، وإخمادها في زمان يسير، وإنشاء

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٣٣.

روضة في مكانها ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي يصدِّقون بكمال قدرة الله، وخصَّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالتأمل فيها، وأما من عداهم فهم عنها غافلون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تنقلب الأمور، فتصبح المودة تباغضاً ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ أي الإنسان يكفر بالأوثان، ويتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم﴾ أي يلعن الأتباعُ ﴿بَعۡضٗا﴾ يعني الرؤساء ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ أي صدَّقه في جميع مقالاته، وأول من آمن له لوط حين رأى النار لم تُحرقه، وهو ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من قومي ومن سواد الكوفة ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ إلى حيث أمرني ربي، يعني توجهي إلى الله تعالى لا إلى الجهة. ولمَّا بالغ عليه السلام في الإرشاد، ولم يهتد قومُه، وحصل اليأس، وجبتْ المهاجرةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة. روي أنه عليه السلام هاجر مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حَرَّان، ثم منها إلى فلسطين، وهنالك استوطن فيها.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً من عجوز عاقر، ولذا لم يذكر إسماعيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ ﴾ بمقابلة هجرته إلى الله ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد، واستمرار النبوة فيهم، والثناء عليه إلى آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح. ولمّا أتى إبراهيم عليه السلام بالتوحيد، دفع الله تعالى عنه عذاب الدنيا وهو الإحراق بالنار، وأعطاه الثواب العاجل جزاء صبره على الابتلاء، وكان وحيداً فبدَّل الله وحدته بالكثرة، حتى مُلِئت الدنيا من ذريته.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وهي اللواطة ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بيانٌ مقرِّرٌ لكمال قبحها، أي ما فعل هذه الفعلة القبيحة أحد من الخلق قبلكم، لأنها تشمئز منها الطباع، وتنفر منها النفوس الزكية حتى البهائم، لا تتعاطاها.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تتعرضون للسابلة بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلون بالغرباء ذلك، ويقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي في مجلسكم الجامع لأصحابكم، والنادي مجلس القوم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه، وإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماع، وحلِّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، وغيرها مما لا خير فيه، من الأفاعيل المنكرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي فما كان جوابهم إلا هذه الكلمة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرة، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً!!.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، ولمَّا يئس عليه السلام من صلاحهم، طلب النصرة، ولأنهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه، وصَفَهم بالمفسدين، إشعاراً بأنهم أحقاء بأن يُعجَّل لهم العذاب، وما طلبَ نبيٌّ من الأنبياء هلاك قوم، إلا إذا علم أن موتهم خير من وجودهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَيَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ۝٣١﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوٓا۟﴾ لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟

ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم والفساد، وحين ذكروا البشرى ما علّلوا، وعلّلوا الإهلاك، لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها، وأنهم مهتمون بشأنه وشأن أهله، حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد بالقَسَم، أي والله لننجّينه ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي الهالكين، الباقين في العذاب، لأنها كانت كافرة.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ الملائكة المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي اعتراه المساءة بسببهم، مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا﴾ أي ضاق صدره بشأنهم، لأنهم حسان الوجوه، جاؤوه بصورة أضياف ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المرسلون حينما شاهدوا عليه مخايل التضجر من جهتهم ﴿لَا تَخَفۡ﴾ من قومك علينا ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي عذاباً مؤلماً من السماء، سُمّي بذلك لأنه يُهلك المعذَّب، من قولهم: ارتجز البعيرُ إذا ارتعش واضطرب ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ﴾ أي من القرية ﴿ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ هي قصتها العجيبة، وآثار ديارهم الخربة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاعتبار.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أي وارسلنا إلى مدين نبياً كريماً، هو شعيب عليه السلام ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بأنواع البغي والعدوان.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الرجفة: الزلزلة الشديدة وفي سورة هود عليه السلام: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، فإنها موجبة للرجفة بسبب تموجات الهواء، وما يجاورها من الأرض ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين باركين على الرُّكب.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ ﴾ أي أهلكنا عاداً وثموداً ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أي قد ظهر لكم إهلاكنا إياهم ﴿ مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾ بالنظر إليها عند اجتيازكم بها، وكان أهلُ مكة يمرون عليها، في أسفارهم إلى الشام، فيبصرونها وهي خراب ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السوي الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال، ولكن لم يفعلوا ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، حتى هلكوا.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن عبادة الله ﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ أي مفلتين من عذاب الله، من قولهم: سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ ﴾ أي فكل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته ﴿ فَمِنْهُم ﴾ تفصيل للأخذ ﴿ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي عاصفاً، وهم قوم لوط أهلكهم الله بحصباء من السماء، فدمَّرهم عن آخرهم، وجعل ديارهم عاليها سافلها ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ

﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وكفرعون وجيشه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك، وتكذيب الرسل، والطغيان، حيث أذلّوا أنفسهم في عبادة الأوثان.

> ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً، في اعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ كمثل العنكبوت بنت لها بيتاً، لا يغني عنها في حرٍّ أو بردٍ، وَنَسَجتْه وهو ضعيف، يكاد يطير من لفحة هواء، ولهذا كان سريع الزوال ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه، في الوهن، والتفاهة، والحقارة، ولهذا يقال في الأمثال «أوهى من بيت العنكبوت» ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، لجزموا أن دينهم أوهن من ذلك، لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلقُ، والرزقُ، ودفع الضُرِّ، وجرُّ النفع، فإن من لا يكون كذلك، فهو والمعدومُ سواء.

> ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي هو تعالى العالم بما يعبدون من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، سواء منهم من عبد الحجر أو البشر ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفيه تجهيلٌ لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر الحكيم.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ ﴾ أي نبيِّنها للناس تقريباً لما بَعُد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، والتمثيل يؤثّر في النفس تأثير الدليل، ودلت الآية على فضل العلم.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي محقاً مراعياً للحِكَم والمصالح، والمقصود من خلقهما إفاضة الخير على العباد ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ دالة على ما ذكر من شؤونه سبحانه، وفيه دلائل على عظم قدرته وعبرة للمعتبرين ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خُصُّوا بالذِّكر لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته، فإن القارىء المتأمل، قد ينكشف له بالتكرار، ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وتذكيراً للناس بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ ﴾ أي من شأنها وخاصيتها، أن تنهى الناس وتمنعهم ﴿ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾

ومعنى نهيها عنهما، لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراضٍ عن كل معاصيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصلاةُ رادعٌ ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم تزده صلاتُه من الله تعالى إلاَّ بُعْداً» والمصلي يناجي ربه، فيستحيل أن يترك طاعة الله ويطيع الشيطان، والمصلي يلبس لباس التقوى فيتجنب قاذورات الفحشاء، ومن أقام الصلاة، عصمه الله تعالى عن المنكر والفحشاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات، فينبغي أن تكون على أبلغ وجوه التعظيم، وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله، هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات، وناهية عن السيّئات، وقيل: معناه ولذكرُ الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلاَّ حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلتْ عليهم السكينةُ، وذكرهُمُ الله فيمن عنده»[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من سائر الطاعات، فيجازيكم أحسن المجازاة.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، على وجهٍ لا يدل على ضعف، وأهلُ الكتاب

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ في الذكر والدعاء والترمذي في الدعوات رقم ٣٣٧٥.

لما آمنوا بالله، وبإنزال الكتب، والحشر، فلمقابلة هذا يجادلُون بالأحسن، بخلاف المشرك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم».[(١)] ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة، وفيه تعريض لحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن العظيم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كعبد الله ابن سلام وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدّقون بالقرآن وبمن أُنزل عليه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من العرب أو أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عبّر عن الكتاب بالآيات، لظهورها وقيام الحجة عليها، بأنها من عند الله ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون بالكفر والتكذيب.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/١٢٩ تفسير سورة البقرة.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي من قبل إنزالنا إليك الكتاب، ما كنت تقدر أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ ﴾ أي ولا تقدر أن تخطَّه﴿ بِيَمِينِكَۖ﴾ حسبما هو المعتاد، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، لارتابوا وقالوا: لعلَّه التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك، لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً، لأن ظهور كتاب جامع لأنواع العلوم الشريفة، من أميٍّ لا يعرف القراءة والكتابة، خارقٌ للعادة.

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحات، ثابتة راسخة ﴿ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب، فمن خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد، بعد وضوح إعجازها.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ ﴾ مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزّلها حسبما يشاء، من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار، وإبانته بما أوتيته من الآيات، وليس لي أن أقول أنزل عليَّ آية كذا.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى، رداً على اقتراحهم، أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات، الكتاب الناطق بالحقّ والصواب ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟ في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب العظيم، الباقي مرَّ الدهور ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لمن همه الإيمان دون التعنُّت كأولئك المقترحين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدر عني وعنكم بتبليغ ما أرسلت به إليكم، ومقابلتكم بالتكذيب، والتعنت، وهذا إنذار وتهديد ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالطواغيت والأوثان والرهبان ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي المغبونون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على طريق الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم، وبيَّنه في اللوح المحفوظ ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به، وقيل المراد بالأجل يوم القيامة ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي وبالله ليأتينَّهم العذاب الذي عين لهم، عند حلول الأجل (بغتة) أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي يستعجلون بالعذاب، والحال أن محل العذاب سيحيط بهم، تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبَّب، لإحاطة الكفر والمعاصي بهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي أشير إليه بإحاطة جهنم، يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا على الاستمرار، التي من جملتها الاستعجال مع الاستهزاء، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملونه للمبالغة، بطريق إطلاق اسم المسبّب على السبب.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾.

﴿يَا عِبَادِيَ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعةٍ من جهة الكفرة، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل

لكم العبادة في بلد، ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فيها، فهاجروا حيث يتسنى لكم ذلك.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على المسارعة في الامتثال بالأوامر، أي كلُّ نفس من النفوس، واجدةٌ مرارة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي فراجعةٌ إلى حكمنا بحسب أعمالها، فمن كانت عاقبته هذه، فلا بدَّ له من التزود والاستعداد لها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ أي لننزلنَّهم ﴿ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أي علالي قصور الجنة، ونسكنهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية أجراً للعاملين.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي صبروا على أذية المشركين، وشدائد المهاجرة، وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيما يأتون ويذرون، ولا يتوكلون إلا على الله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حملها لضعفها لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي إنها لا تطيق الكسب لضعفها ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، لأن رزق الكل بأسباب، هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة، ولولا أن الله يرزقكم لكنتم أعجز من الدواب، التي لا تحمل رزقها [(١)]، قيل: لا يدَّخر من الحيوانات قوتاً: إلاَّ ابن آدم، والفأرة، والنمل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، يسمع قولكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

رُوي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج وليس لنا بها دار، ولا مال؟ فأنزل الله هذه الآية، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزَقكم كما يرزقُ الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطَاناً [(٢)]».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي أهل مكة، إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردُّد فيه، لمَا تقرَّر في

---

(١) القصد من الآية: التقويةُ لقلوب المؤمنين، إذا خافوا الفقر والجوع، عند الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة، مع عجزها وضعفها، كذلك يرزق المؤمنين إذا هاجروا من أوطانهم، نصرةً لدين الله، فلا ينبغي لأحدٍ أن يخاف الفقر، إن هاجر في سبيل الله، فالله هو الخالق وهو الرازق.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٥ في الزهد، ومعنى خماصاً أي جياعاً، وبطاناً أي شباعاً.

العقول من أن كل صنعة لا بدَّ لها من صانع، وكل مخلوق لا بدَّ له من خالق، وهو الله واجب الوجود ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجبه، أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الألوهية، مع إقرارهم بتفرده تعالى بالخلق والتسخير؟.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يقدر ويُضيِّق لمن يشاء أن يقدر له منهم، كائناً من كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له، أو يضيِّق عليه، حسب ما يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاً منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بأن الموجد للممكنات بأسرها، هو الله تعالى، ثم إنهم يشركون به تعالى؟ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده، وأنه تعالى عصمك من أمثال هذه الضلالات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ويعبدون غيره.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية، لامتناع جريان الموت والفناء عليها ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين، لما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي فإذا ركبوا في البحر، ولقوا شدائده ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي لا يدعون غير الله تعالى، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاّ هو سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي آثروا المعاودة إلى الشرك، قيل: كان أهل الجاهلية، إذا ركبوا البحر، حملوا الأصنام، فإذا اشتدت الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يا ربّ، يا ربّ، يا مغيث أغثنا!!.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي يفاجئون الأشراك ليكونوا كافرين بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ ﴾ بسبب الشرك ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم ينظروا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم مكة المكرمة ﴿ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله من كل سوء ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ ﴾ يعني العرب يسبي بعضُهم بعضاً، وكانوا

حوله في تغاور وتناهب ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ أي أبعد ظهور الحق ووضوحه، يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وهي المستوجبة للشكر، وتقديم الصلة في الموضعين، لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

> ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن زعم أنَّ له شريكاً؟ أي هو أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ وفي «لمَّا» تسفيةٌ لهم، بأنهم لم يتأملوا فيه، بل سارعوا إلى التكذيب بدون تريُّث ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾؟ أي ألا يستوجبون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا!؟ فمستقرهم ومسكنهم نار جهنم.

> ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ أي في شأننا ولوجهنا، خالصاً لمرضاة الله سبحانه ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ونثبتهم على الهداية والإيمان ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ معية النصر والمعونة في الدنيا، والمغفرة والثواب في العقبى، والله أعلم بأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»

* * *

سُورَةُ الرُّومِ

مكية وهي ستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾.

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام، أو أدنى أرض الروم إلى فارس ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي من بعد مغلوبيَّتهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس ويقهرونها.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي في فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع، وسبب نزول هذه الآية، على ما ذكره المفسرون، أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارسُ الرومَ، لأن فارس كانوا مجوساً، والمسلمون يودون غلبة

الروم، لكونهم أهل كتاب، فغلبت فارسُ الرومَ، فبلغ ذلك الخبرُ المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة وقالوا: قد ظهر إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم من أهل الروم، فلنغلبنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن أمرٍ غيبي، وشاهدة بكون القرآن من الله تعالى ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما، حين غُلِبوا، وحين يَغْلِبون، فالمعنى: إن كلاً من كونهم غالبين أو مغلوبين، ليس إلاَّ بأمر الله وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذْ يغلب الرومُ، ويحلُّ ما وعد الله به ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من غلبتهم، وقيل: نصر الله: إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارسَ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة، ينتقم من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة لأوليائه وأحبابه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑥﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، كأنه قيل: وَعَدَ الله وعداً بظهور الروم عليهم ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيَّ وعدٍ كان، مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من شؤونه تعالى وحكمته.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ⑦﴾.

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ زخارفها وأحوالها الموافقة لشهواتهم، كأمر معاشهم، كيف يكسبون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وتنكير ﴿ظاهراً﴾ للتحقير، أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا ﴿ وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة، التي هي الغاية القصوى، ومن الناس من ينقر الدرهم بطرف ظفره، فيعرف جيده وزيفه، وهو لا يعرف كيف يصلّي، أي يعلمون ظاهرها ولا يعلمون باطنها، وهي مضارّها وفناؤها، وإيرادها جملة اسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم، وتشبيهاً لهم بالحيوانات، المقصور إدراكها بظاهرها.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومرآة يتجلّى فيها للمستبصر، ما يتجلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقّق له قدرة مبدعها ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ الذي يحقُّ أن يثبت، أي ما خلقهما إلا بالحكمة البالغة، والغرض الصحيح، الذي يدلُّ على وجود صانعها ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي بأجل معيَّن، قدَّره الله تعالى لبقائها، وهو وقت قيام الساعة ﴿وإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِم لَكافِرُونَ﴾ توضيحٌ مقرِّر لما قبله ببيان السبب أي وأكثر الناس غير مقتصرين على الغفلة، وعدم التفكر، بل هم منكرون لقاء حسابه تعالى، يحسبون أنَّ الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون.

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ توبيخ لهم على عدم اعتبارهم، بمشاهدة أحوال أمثالهم، الدالة على عاقبتهم، فقد سافروا في أقطار الأرض وشاهدوا ولم يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي قلبوها للزراعة والحرث. ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بفنون العمارات ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي أكثر من عمارة هؤلاء لها، وفيه تهكم بهم، حيث كانوا مغترين بالدنيا، مع ضعف حالهم، وهم أهل واد غير ذي زرع ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالآيات الواضحات، والمعجزات الساطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم من غير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم كذبوا رسلهم واقترفوا ما يوجب هلاكهم، فدمَّرهم الله ولم تنفعهم قواهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أي عملوا السيئات، وارتكبوا الجرائم في هذه الحياة الدنيا، ووضعُ الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالإساءة وللإشعار بعلة الحكم ﴿السُّوأَىٰ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، ومعجزاته الظاهرة ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي كانوا يسخرون منها ولا يؤمنون.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء، والالتفاتُ للمبالغة في الترهيب.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت الإعادة للحساب ﴿ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يسكتون متحيرين وييأسون، يقال: ناظرته فأبلس، أي أيسَ من أن يحتجَّ، وسكت تحيراً.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣ ﴾.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، كما كانوا يزعمونه في الدنيا ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي سيكونون ﴿ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ أي بآلهتهم ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ أي وكفروا بآلهتهم حين يئسوا منهم.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أعيد لتهويله ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي جميع الخلق، لا المجرمون خاصة، وذلك بعد تمام الحساب.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ المراد بها الجنة، والروضةُ كل أرض ذات نبات، وماء، ورونق ونضارة ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي يُسرُّون سروراً تتهلل له وجوههم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بآياتنا، وكذبوا بالبعث والحساب ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصّل ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أمر سبحانه عباده بتنزيه الله تعالى، عن كل ما لا يليق بشأنه، أي فسبِّحوا الله في هذه الأوقات.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ واحمدوه في المساء والصباح، وفي العشي والظهيرة، فهو سبحانه المحمود بذاته وصفاته، في السماء والأرض، أي يحمده أهل السماء والأرض، وفي الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1] وقيل: المراد به الصلاة أي صلُّوا لربكم في الصباح والمساء، وفي الظهيرة والليل، قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان. والشجرة من النواة، والنواة من الشجرة ﴿وَيُحْىِ

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ١١/ ١٧٥ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٩٤ وقد ختم الإمام البخاري صحيحه بهذا الحديث الشريف.

﴿ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أي بعد يبسها ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي من قبوركم، كما بدأكم يعيدكم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي البراهين الدالة على أنكم تبعثون، دلالةً أوضح مما سبق، فإن دلالة بدء الخلق على الإعادة، أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت، ومن إحياء الأرض، ولهذا قال ﴿ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ أي من تراب لم يشمَّ رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه، في ذاتكم وصفاتكم ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ ﴾ أي فجئتم بعد ذلك، وقت كونكم بشراً ﴿ تَنتَشِرُونَ ﴾ في الأرض، عقلاء ناطقون، آدميون من لحم ودم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ الدالة على ما ذُكر من البعث والجزاء ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ أي لأجلكم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ أي لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، فإن المجانسة من دوام المؤانسة، كما أن المخالفة من أسباب التنافر، والإنسان يجد بين الزوجين من التراحم، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جلَّ وعلا ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي بين الأزواج ﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أي تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا رابطة مصححة للتعاطف ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم، وإلقاء المحبة بينهم ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل، المبنية على الحكم البالغة.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على عظمتها وكثافتها ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم، بأن علَّم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، كما ميَّز بين نطقكم، فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين من كل وجه ﴿ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ كبياض الجلد وسواده، وتخطيطات الأعضاء وهيآتها، بحيث يقع بها التمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين ـ مع توافق موادهما وأسبابهما في التخليق ـ يختلفان في شيء من ذلك، وإن كانا في غاية التشابه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من خلق السموات، واختلاف الألسن، والألوان ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ أي للمتصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي في الزمانين: في الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، لاستراحة القوى النفسانية، والقوى الطبيعية ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي وابتغاؤكم بالنهار من رزق الله(١)، فالليل للراحة والسكون،

---

(١) ينبغي للعبد أن لا يرى الرزق من كسبه ومهارته، بل يراه كله من فضل ربه، ولهذا قرن تعالى الابتغاء في كثير من المواضع بالفضل، منها قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فالرزق رزقُ الله، والخلق خلقُ الله وصدق الله العظيم ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾.

والنهار لطلب الكسب والرزق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام، سماع تفهم واستبصار، حيث يستدلّون بذلك على شؤونه تعالى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث من أجل الزرع ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله تعالى فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها، مجرد العقل، عند استعماله في استنباط أسبابها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بإقامته، وتدبيره، وحكمته قيامهما بأمره تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم، وهو أن يقول: قوموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلاّ قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ والمراد تشبيه سرعة حصول ذلك، على تعلق إرادته سبحانه بلا توقف.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي منقادون خاشعون خاضعون لجلال الله، مقرون له بالعبودية، مطيعون له سبحانه في الحياة والبقاء، والموت والبعث[1]، وإن عصوا في العبادة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ بعد هلاكهم للبعث ﴿ وَهُوَ ﴾ أي البعث ﴿ أَهۡوَنُ ﴾ أي أيسر ﴿ عَلَيۡهِۚ ﴾ أي عندكم، لأنَّ الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة؟ ﴿ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن، كالقدرة التامة، والحكمة العامة ﴿ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه فيه ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أي على ألسنة الخلائق ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ القادرُ الذي لا يعجز عن شيء ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي يُجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ ﴾ منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور

---

(١) ليس على الله عزَّ وجل شيء صعبٌ، وشيء هيِّنٌ، فالكل على الله سهل يسير، ولكنه سبحانه خاطب البشر بما يعقلون ويفهمون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء، في حكمهم وتقديرهم، فليدركوا إذاً أن من قدر على الخلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً، فالبعث أهون عليه حسب منطق البشر، والغرضُ من الآية إلزام الكفار بالحجة حيث يقرّون أن الله هو الخالق، ثم ينكرون قدرته على إحياء الموتى.

إليكم، مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ، لمن جعل له شريكاً من خلقه، ثم بيَّن المثل فقال تعالى ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم يا معاشر الأحرار ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه، هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر أن يشاركوكم ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير تفضيل بين حر، وعبد ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال، تخافون عبيدكم فيها ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني كما يخاف بعضُ الأحرار بعضاً، فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيِّنها، لأن التمثيل يكشف عن المعاني ويوضّحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ولمَّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جاهلين لا يكفُّهم شيء عن ضلالهم ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فمن يقدر على هداية من أضله الله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة، وينجونهم من عذاب الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي فقوِّمْ وجهك له، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، والاهتمام به أي أخلص دينك لله ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خلقهم عليها، فالمعنى: إنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فمن غوى منهم فبسبب شياطين الجن والإنس، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، ثم قال اقرؤوا: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا﴾»[1] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيِّره، قال الزجاج: معناه لا تبديل لدين الله، ويدلُّ عليه ما بعده ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة لا يتفكرون فينحرفون عن دين الله وهدايته.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة، وإخلاص العمل، وهو حال من الضمير في: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن الأمر له ﷺ أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان «البخاري ومسلم» وتمامه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم قال ﷺ: واقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وانظر جامع الأصول ١/ ٢٦٨.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ ﴾ أي صاروا فِرَقاً، كلٌّ واحدة تشايع إمامها، الذي أضلها، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون، راضون بما عندهم، يحسبون باطلهم حقاً، وكل فرقة تزعم أنها على شيء، ونعوذ بالله من تفرق الأهواء.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه سبحانه بالتضرع والدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا بالإشراك؛ وتخصيصه ببعضهم، لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾[1] الآية.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ اللامُ فيه للعاقبة، أي ليكفروا بنعم الله التي أكرمهم بها ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ الالتفات فيه للمبالغة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم بنعيمها الفاني.

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) ﴾.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا ﴾ الالتفات للإيذان بالإعراض عنهم ﴿ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة واضحة قاهرة على شركهم ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى، فالمعنى: أهم يتبعون الأهواء بغير علم، أم لهم دليل على ما يقولون؟.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ أي نعمة من صحة، وسَعَة، ونحوهما فرحوا بَطَراً وأَشَراً، لا حمداً وشكراً ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جدبٌ أو خوف ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا بالقنوط من رحمة الله، وهو خلاف وصف المؤمن لأن المؤمن من يشكر ويرجو، ويعبد الله في الشدة والرخاء، مخلصاً لله تعالى.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيّقه على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة فما لهم لم يشكروا، ولم يكونوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يؤمنون بحكمة الخالق الرازق.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ تخصيص الأقسام الثلاثة، لبيان من يجب الإحسان إليهم، والمقصود ههنا الشفقة بهم، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح له ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ذاته تعالى، ويقصدون بمعروفهم إياه خالصاً لوجهه ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حيث حصل لهم النعيم المقيم.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ليزيد مالكم ويكثر عن طريق الربا ﴿ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يبارك الله فيه ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ أي ذاته خالصاً لوجهه ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أي هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، ونظيرُ المضعف، المقوي، والموسر، لذي القوة واليسار، كأنه قال: هم أهل الإضعاف الذين يستحقون مضاعفة الأجر.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصّها، ونفاها عما اتخذوه من الشركاء، أي الله سبحانه هو وحده الخالق الرازق، خلقكم من العدم، ثم يبعثكم بعد الموت، فهل من آلهتكم المزعومة من يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزّه وتقدس عن أن يكون له مثيل أو نظير، في الخلق والإبداع.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ كالجدب، وكثرة الحَرَق، والغَرَق، ومحقِ البركات، وكثرة المضار، وقلة المطر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ أي بشؤم معاصيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ أي بعض جزائه، وتمامُه في الآخرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي، ثم أكد تسبُّب المعاصي لغضب الله بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أي ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الدين الحق دين الإسلام. خاطب النبي ﷺ، ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلَّف به، فإنه أُمِرَ به أشرفُ الأنبياء ﷺ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ أي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لتعلق إرادته سبحانه بمجيئه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أصله يتصدَّعون أي يتفرقون فريقٌ في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أي وبالُ كفره، وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ولم يقل من آمن لأن العمل الصالح يكمّل الإيمان ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوُّون ويهيئون لهم منزلاً في الجنة، مأخوذ من تمهيد الفراش، وهو فرشُه وتهيئته بما يحقّق الراحة.

﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي ليجزي المؤمنين المتقين أفضل الجزاء، من فضله وكرمه، بسبب صالح أعمالهم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لا يحب الجاحدين لفضل الله، بل يكرههم ويمقتهم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي وليكرمكم بإنزال الغيث الذي يحيي البلاد والعباد، وفي الرياح فوائد: منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، وزكاء الأرض، وغير ذلك ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، والحجج الساطعات فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ أي كفروا، بالإهلاك في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مزيد تشريف للمؤمنين، والإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجلهم، روي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردُّ عن عرض أخيه، إلاَّ كان حقّاً على الله، أن يردَّ عنه نار جهنم، يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية [(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته يبعث الرياح فتحرّك السحاب، وتسوقه أمامها ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾ تارةً ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في جوّها ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ تارة أخرى أي قطعاً ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ أي المطر ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي أصاب المطر بلادهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يُسرُّون ويفرحون بنزول الغيث، وفوجئوا بالاستبشار بمجيء الخصْب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٨٨٤ بلفظ «ما من مسلم يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته.. وما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمته، إلاّ نصره الله في موطن يحبُّ فيه نصرته».

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ تكرير «قبل» للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين من رحمة الله، فإنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا، وإذا نزل المطر بطروا، وتكبَّروا على ربهم.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تبصُّر وتدبر، إلى آثار نعمة الله، المترتبة على تنزيل المطر، من النبات، والأشجار، وأنواع الثمار ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي كيف يحييها الله تعالى ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ بعد يبسها ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لقادر على إحيائهم كما يحيي الأرض الميتة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد خضرته ونموّه، ريحاً ضارة مفسدة، وإنما قال ﴿رِيحاً﴾ لأنها مهلكة ومدمرة، وتسمى النافعة رياحاً، والضارة ريحاً، لأن النافعة كثيرة الهبوب، والضارة قليلة كريح السموم ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ أي فرأوا الزرع والنبات ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ بعد خضرته وانتعاشه ﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ اللام جواب القسم أي لاستمروا أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصَّفار، فرأوه مصفراً ليظلُنَّ ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يجحدون ما سَلَف من النعمة، من غير تلعثم، وفيه

ذمهم لسرعة تزلزلهم، فإن النظر السويَّ يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا ييئسوا من رحمة الله، وأن يصبروا على بلائه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار لأنهم كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به لأن الأصم إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى، لا يسمع ولا يفهم، فقد جمعوا لخصلتي السوء: نبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان أحدهما فيهم لكفاهم ذلك بلاءً.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ ﴾ سمَّاهم عمياً لفقدهم المقصود من الإبصار، أو لعمى قلوبهم ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، ويلقاها بالقبول ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأوامر الله تعالى.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلُم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أي هرماً ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ القيامة ﴿ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ ﴾ أي ما مكثوا في الدنيا ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍۚ ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق ﴿ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا، ويقولون: ﴿ما هي إلاَّ حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعُوثينَ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أي قال العقلاء من أهل العلم والإيمان ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ في علمه وقضائه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه، وأيدوه باليمين، كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود، الذي كانوا ينكرونه، فرد العالمون مقالتهم وبكَّتوهم بالإخبار بوقوعها، حيث قالوا ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق، فتستعجلون به استهزاءً.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي عذرهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يُدعون إلى ما يقتضي استعتابهم، أي فلا يقال لهم أرضوا ربكم بالتوبة والطاعة، كما دُعوا في الدنيا إليه.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي وبالله لقد بينّا للناس في هذا القرآن العظيم، ما يحتاجون إليه من المواعظ، والأمثال، والأخبار، ما يوضّح الحقَّ، ويزيل اللَّبس ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي ما أنتم إلا مزوّرون تدجّلون علينا وتكذبون.

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلبون العلم، ولا يتحرون الحق، بل يصُرّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحقِّ.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما تشاهد منهم من السخرية والتكذيب ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بنصرتك، وإظهار دينك على الدين كله، ولا بد من إنجاز وعده، وإظهار دينه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنَّك على الخفَّة والقلق مما تلقاه منهم من الأفعال السيئة، والأقوال الباطلة ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات، ولا تترك الصبر لتكذيبهم وإيذائهم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»

* * *

سُورَةُ لُقْمَانَ

وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي المحكم من التغيير والتبديل، والمحكم في تشريعه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هداية ورحمة للمؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا واتقوا الله.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ تخصيصُ الثلاث لفضلها، وتكرير الضمير للتوكيد.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الفائزون بجميع أنواع السعادة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي يستبدل ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير فيه ولا فائدة، كالأحاديث المضحكة، والأساطير التي لا اعتداد بها، والغناء الماجن، وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أخبار العجم، ويحدِّث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدِّث بعاد، وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسنفديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، وقيل: هو شراء المغنِّيات، وحملهن على معاشرة من أراد الإسلام لمنعه عن الدخول فيه، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات والمغنيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهنَّ، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، وفي مثل هذا نزلت: ﴿وِمنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث﴾[1]» الآية ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي عن دينه الحق، أو عن قراءة كتابه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بغير حجة أو برهان ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ ويتخذ السبيل سخرية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لإهانتهم الحق، بإيثار الباطل، وترغيب الناس فيه.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٩٣، وابن ماجه في التجارات رقم ٢١٦٨ باب ما لا يحل بيعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي على المشتري ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي آيات القرآن الكريم ﴿ وَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عنها غير معتدٍّ بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغاً في التكبر، لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كحال من لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي مشابهاً بمن في أذنيه ثقل وصممٌ، لا يقدر أن يسمع، والوَقْرُ: الثِّقَلُ والصمم الذي يمنع من السمع ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأنذره بالعذاب المفرط في الألم، والأسلوب أسلوب تهكم وسخريةٍ، لأن البشارة لا تكون بالعذاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي صدَّقوا الله ورسوله، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي فعلوا الخيرات، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة، وفي توحيد العذاب، وجمع الجنات، إشارة إلى أن الرحمة واسعة، أكثر من الغضب.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ ﴾ مصدران مؤكَّدان، لأن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى وَعَدَ اللهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يغلبه شيء، فيمنعه عن إنجاز وعده، ووعيده ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ أي خلقها بغير دعائم، حال كونكم ترونها كذلك ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ أي كيلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ ﴾ أي من كل أنواع الحيوانات.. والدواب ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة، وكأنه تعالى استدلَّ بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهَّد به قاعدة التوحيد، وقرَّرها بقوله سبحانه:

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي ما ذُكر من خلق السماوات والأرض وما فيهما من البدائع ﴿ خَلۡقُ ٱللَّهِ ﴾ أي مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾؟ مما اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة؟ ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال المبين.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ وهو لقمان الحكيم عاش حتى أدرك داود عليه السلام، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام أياماً، وكان يسرد الدروع، فلم يسأله عنها، فلما أتمَّها ولبسها قال: «نعم لَبُوسُ الحرب» ومن أقواله: «الصمتُ حكمةٌ

وقليلٌ فاعله» ومنها «القلب واللسان، هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيءٍ إذا خبثا» قيل له: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: «بصدقِ الحديثِ، وأداء الأمانة، وتركِ ما لا يعني» ومنها قولُه: «ليس مالٌ كصحة، ولا نعمةٌ كطيب نَفس» قيل للقمان: أيُّ الناس أشرُّ؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي اشكر الله تعالى ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعته تعود عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الشكر، حتى يتضرر بكفران الكافر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود يحمده جميع المخلوقات.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي وهو ينصحه ويرشده ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق ورحمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً، بشراً أو صنماً، ولا تعبد غير الله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليلٌ للنهي، وسماه ظلماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها. بدأ بالأقرب وهو ابنه، وبالأهم وهو المنع من الشرك، الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً، وعهدنا إليه بهذه الوصية، وهي الإحسان إلى والديه، وجاء هذا في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصيناه بمثل ما وصّىٰ به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك، فإنهما مع أنهما اقترن ذكرهما مع الله تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز طاعتهما في الإشراك بحالٍ

من الأحوال ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي ضعفاً فوق ضعف، لأنها لا تزال يتضاعف ألمها، إذ الحملُ ضعفٌ، والطَّلق ضعفٌ، والرضاعةُ ضعفٌ ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ وهي مدة الرضاع، أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ تفسير لوصينا أي وصيناه بشكرنا ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي ويشكر والديه، لأن الوجود في الحقيقة من الله تعالى، والوالدان سبب لوجوده، فجعل الشكر بينهما ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي الرجوع إليَّ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، صحبة يرتضيها الشرع، وتقتضيها المروءة ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في الطاعة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ شروعٌ في حكاية بقية وصايا لقمان ﴿إِنَّهَآ﴾ أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان ﴿إِن تَكُ﴾ مثلاً في الصغر ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ أي وزن حبة الخردل ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لو كانت في غاية الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة، أو

كانت السيئة التي يفعلها الإنسان في العالم العلوي، أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يحضرها اللهُ ويحاسب عاملها عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بكنهه، عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

> ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بعدما أمره بالتوحيد، في ضمن النهي عن الشرك، ونبَّهه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمره بالصلاة، التي هي أكمل العبادات، تكميلاً له من حيث العمل، بعد تكميله من حيث الاعتقاد، وهذا دليل على أن التوحيد والصلاة، مأمورٌ بهما في سائر الأمم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أُمرت به ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي مما فرضها الله تعالى، والجملة تعليل لوجوب الامتثال، بما سبق من الأمر والنهي، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضَّ وحثَّ عليها رب العزة والجلال.

> ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمله، ولا تولّهم صفحة وجهك، كما هو ديدن المتكبرين، من الصَّعَر وهو داءٌ يصيب البعير، فيلوى منه عنقه يقال: صعَّر خدَّه أي أماله عن الناس، إعراضاً وتكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو البطر مصدر وقع موقع الحال أي فرحاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يكره كل متكبر يفخر على غيره، وهو تعليل للنهي عن التكبر والخيلاء.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي توسَّطْ بين البطء والإسراع، أما الإسراع فهو من الخيلاء، وأمَّا البطء فهو علامة الضعفِ، وكلا الطرفين مذموم، بل ليكن مشيُكَ بين السكينة والوقار ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ ﴾ أي اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ أي أوحشها، على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالبهائم، وفي الآية إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف، قبل قصة لقمان، من خطاب المكلَّفين، أي ألم تروا أيها الناس رؤية قلبية، كأنها مشاهدة بالبصر، إلى ما أنعم الله به عليكم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾ أي محسوسةً ومعقولة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ في توحيده وصفاته ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بغير علمٍ مستفادٍ من الدليل ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله سبحانه، بل بمجرد التقليد، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾؟ أي أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ما هم عليه من الشرك والضلال؟.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن فوَّض إليه نفسه بكليته، ومعنى التسليم حيث عُدّي باللام قصد معنى الإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي خالصاً له، ومعناه مع ﴿إلى الله﴾ التفويض إليه تعالى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ أي تمسَّك وتعلق ﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي بحبل الله المتين، والآية على التمثيل كأنه تمسَّك بحبل متين لا ينقطع ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ لكل صائر إليه فيجازيه أحسن الجزاء.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي ومن لم يؤمن بالله، ولم يُسلم له وجهه ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونأخذهم بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي لا يخفى عليه سرُّهم وعلانيتهم، فيفعل بهم على حسب ما يستحقون.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً، أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا، إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم تحمُّله، ثقل الأجرام الغلاظ، حيث يُضمُّ إلى الإحراق الشِدَّة، والتضييق، شبَّه تعالى إلزام التعذيب، باضطرار المضطر إلى الشيء المكروه، الذي لا تحبه النفس.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون عظمة الله وجلاله، وقدرته على الخلق والإحياء، فلذلك ينكرون وحدانيته وجلاله.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو جلَّ وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي لو ثبت كون الأشجار التي في الدنيا صارت كلها أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي مداد، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله عزَّ وجل ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لأنها لا نهاية لها، كما في قوله

تعالى: ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ ربي﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفدُ كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أي إلاَّ كخلقها وبعثها، في سهولة التأتي، إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن، لأن مناط وجود كل شيء، تعلُّق إرادته العليا مع قدرته الذاتية، حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كلَّ مسموع، ويبصر كل مُبْصَر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: عامٌّ لمن يصلح للخطاب وهو الأوفق، أي ألم تعلم أيها الإنسانُ علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول، ويُنقص من هذا فيقصر، ولهذا يطول النهار في بعض الفصول وينقص، وتلك آية كونية. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ الله يُولِجُ﴾ داخل معه في حيّز الرؤية، فإن من شاهد مثل هذا الصنع الرائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجل، محيطاً بجلائلِ أعماله، ودقائقها.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي ذلك الوصف الذي وُصف به، من عجائب قدرته وحكمته، التي يعجز عنه الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه تعالى هو الحقُّ الثابتُ إلَهيته، ولأجل بيان بطلان إلَهية ما يدعونه من دونه تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي وبيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، فهو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بإحسانه ولطفه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، فقد سخَّر البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، تجري بهذه السفن الريح، والريحُ من نعم الله تعالى ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي بعض آياته، وبعض دلائل وحدته ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما ذُكر، لآيات عظيمة، ودلائل باهرة، لكل من يبالغ في الصبر على المشاقّ، وفي الشكر على نعمائه تعالى، وهما صفتا المؤمن، فكأنه قيل: لكل مؤمن، صابر شاكر.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم الموجُ ﴿ كَٱلظُّلَلِ ﴾ كما

يُظلُّ الجبلُ، والسحابُ، يعني أن الموج الذي جاءهم كثيف مخيف، كالجبال هولاً وشدة ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي استغاثوا بالله، وأخلصوا الدعاء لله، لزوال ما ينازع الفطرة، من الهوى، والتقليد، وبما دهاهم من الهول والخوف الشديد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي مقيم على القصد السويِّ، الذي هو التوحيد، وفي الآية حذف تقديره: ومنهم جاحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا...﴾.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل، هرب عام الفتح إلى البحر، فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا، لأرجعنَّ إلى رسول الله ﷺ فأبايعه على الإسلام، فسكنت الريح، ورجع عكرمة إلى مكة، وأسلم وحَسُنَ إسلامُهُ[1]. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدَّار، والختر: أشدُّ الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ أي مبالغ في كفران النعمة، يجحد فضل الله، ويكذّب بآياته، وقليل من عباد الله الشكور!!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي خافوا يوماً شديداً عصيباً، لا يقضي عنه شيئاً من التبعات، ولا يدفع عنه مضرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي ولا ولدٌ يدفع ويقضي عن والده شيئاً، ولا يتحمل عنه جنايته، وفيه قطع طمع من توقَّع من المؤمنين، أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه

---

(١) الآية على العموم، فهي تعمُّ كل كافر جاحدٍ لفضل الله وإنعامه، وما ذكر من سبب النزول لا يمنع العموم، فإن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما ذكر في علم الأصول.

أصلاً ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أي فلا تخدعكم الحياة الدنيا بزينتها ومفاتنها ولذاتها، فتشغلكم عن طاعة الله وعبادته، ولا يخدعكم الشيطان المبالغ في الغرور للإنسان، بأن يحملكم على المعاصي، ويقول لكم: إن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فتركنوا إلى وساوسه وأباطيله. والإنسان قد يكون ضعيف العقل، فيغترُّ بأدنى شيء من بهرج، وقد يكون قويَّ الجأش متين العقل، ولكنْ إذا جاءه غارٌّ، وزيَّن وحسَّن له ذلك الشيء قد يغتر، فقال الله تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدرجة الأولى من البشر، وقال: ﴿ولاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ﴾ الإشارة إلى الثانية ليكون الإنسان محفوظاً من الاثنتين: فتنة الدنيا، وفتنة الشيطان اللعين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي علم وقت قيامها، والمراد بالساعة مجيء يوم القيامة، فلا يعلمه أحد إلا الله، عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله» وتلا هذه الآية[1]. يحكى أن أبا جعفر المنصور رأى في منامه صورةَ مَلَك الموت، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها له المعبِّرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، فاستدعى أبا حنيفة رحمه الله وسأله عن الرؤيا، فقال له: هو يشير إلى هذه الأشياء الخمس في الآية التي لا يعلمها إلاَّ الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة..﴾ الآية. ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ في أيامه المقدرة له وبالكمية التي يريدها الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي يعلم سبحانه أذكرٌ أمْ أنثى؟ أتام أم ناقص؟ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٩٥ وفي الاستسقاء.

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، ربما تعزم على شيء فتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقتٍ تموت[1]، ونسبةُ العلم إلى الله، والدراية إلى العبد، للإيذان بأنه وإنْ بذل وسعه في التعرف لم يعرف، لأنه لم ينصب له دليل، ثمَّ لما في معنى الدراية من معنى الحيلة، والمعنى: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلتها، يُقال: دريتُ الشيء أي عرفتُه وعلمتُه، أمَّا المنجِّم الذي يخبر بوقت الغيث، والموت، فإنه يقول ذلك بالقياس، والنظر، وهو كذاب في هذا، ولهذا ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرَّافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها، كما يعلم ظواهرها، لا تخفى عليه سبحانه خافية.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»

* * *

---

(١) فإن قيل: لماذا لم يقل: «وما تدري نفس بأي وقتٍ تموت» وإنما قال: ﴿بأي أرضٍ تموت﴾ مع أن البحث عن وقت موت الإنسان؟ فالجواب: أن وجود الإنسان في مكانٍ ما في وُسع الإنسان واختياره، واعتقاد علم مكان موته أقرب، ومع ذلك لا يعرف الإنسان موطن موته، ولا المكان الذي ستكون منيّته فيه، فكيف يعرف وقت وفاته، هذا من باب أولى مستحيل، وإذا كانت وفاة إنسان في بلدٍ ما قدَّره الله له، جعل الله إليه حاجة في ذلك البلد، حتى يتم القضاء المبرم، والله تعالى أعلم.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف الهجائية المقطَّعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما وضحناه في أول سورة البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيل بمعنى المُنْزِل، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أي هذا القرآن العظيم، لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه؟ وقد ردَّ الله عليهم ذلك، حيث جيء بأم المنقطعة، إنكاراً له وتعجباً منه، لغاية ظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترى، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه، فقال سبحانه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم

الرب إلى ضميره ﷺ تشريفاً له، ثم أيّد ذلك ببيان غايته فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته، مما يقرِّب وجود الشيء ويؤكّده، وقد كانت قريش أضل الناس، وأحوجهم إلى الهداية، بإرسال الرسل، حيث لم يُبعث إليهم رسول قبله، أو قبل زمانه، إذ كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الدين الحقّ، والترجي معتبر من جهته ﷺ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي ما لكم إذا جاوزتم رضاءه، أحد ينصركم أو يشفع لكم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ينجيكم ويخلصكم من بأسه وعذابه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فتتذكرون بها فتؤمنون؟ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الأخبار الموهمة للتشبيه، من الصورة، واليد، والنزول، والاستواء على العرش، وما يجري مجراها، إن الحق فيها هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين، ومن بَلَغه حديثٌ من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أمور: التقديسُ، ثم التصديقُ، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساكُ، ثم الكفُّ، ثم التسليمُ لأهل المعرفة. أما التقديسُ فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديقُ فهو الإيمان بما قيل، وأنه حقٌّ على الوجه الذي قاله سبحانه وأراده، وأما الاعترافُ بالعجز فهو أن يُقرَّ بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من حرفته، وأمّا السكوتُ فأن لا يسأل عن معناه، ويعلم أن سؤاله بدعة، وأن في خوضه مخاطرة في دينه، وأما الإمساك فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف

والتبديل، والزيادة فيه والنقصان، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وأمَّا الكفُّ فأن يكفَّ عنه البحث والتفكر فيه، وأما التسليم لأهله فإن لا يعتقد أن ذلك خفيَ على الأنبياء والعلماء، كما قال الإمام أحمد: آيات الصفات وأحاديث الصفات، تُمرُّ كما جاءت، نؤمن بالآية والخبر، ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم علام الغيوب.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يدبر أمر الدنيا، وينزل ما دبَّره وقضاه، بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة بآثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه ليحكم فيه ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي برهة من الزمان، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، وحدوثها من الزمان وقيل: يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة، ثم يعرج الأمر كله إليه عند قيامها في يوم كان مقداره ألف سنة، وسئل عنها ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أيام سمَّاها اللهُ تعالى، لا أدري ما هي! والله أعلم بمراده».

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الله عز وجل، باعتبار اتصافه بما ذُكر من الخلق، والاستواء والتدبير، أي ذلك العظيم الشأن ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي هو العالم للآخرة والدنيا، ولما هو غائب عن الخلق ومشاهد لهم، فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على عباده، يدبِّر لهم شؤون الحياة.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ أي أتقن وأحكم كلَّ مخلوقٍ خلقه، إذ ما من مخلوقٍ خلقه الله، إلاَّ وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمةُ، وأوجبته المصلحةُ، وقيل: أحسن بمعنى ألهم، فالمعنى: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾ على وجه بديع تحار العقول في فهمه، حيث برأ آدم عليه السلام، على فطرةٍ عجيبة، منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً إجمالياً، فخلقه من تراب مجبول بالماء حتى صار طيناً، ويبس هذا الطين فصار صلصالاً له رنَّةٌ وصوت، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ ﴾ أي ذريته ﴿ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ أي حقير وضعيف، وهو المنيُّ والممتهنُ، السّلالةُ: النَّسلُ والولدُ، سُمِّيت به لأنها تنسل منه أي تنفصل.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ أي عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ ﴾ إضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريفٍ، كبيت الله، والنصارى يفترون على الله الكذب، ويقولون: بأن عيسى روح الله، فهو ابن الله، ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله، أي ونفخ فيه

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

من روحه التي هي ملكه اختص بها علام الغيوب ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي خلق لمنفعتكم تلك الحواس، لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نِعَماً جليلة، وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية، الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خُلق له، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم، على أن القلة بمعنى النفي، أي لا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة، التي تتقلَّبون فيها.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي منكرو البعث، والقائل «أبيُّ بن خَلَف» رأسُ الطغيان، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً وغبنا فيها بالدفن ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ استفهام إنكاري أي أنبعث ويُجدَّد خلقنا؟ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ انتقال إلى بيان ما هو أبلغ، وهو كفرهم بلقاء ربهم، وبجميع ما يكون في العاقبة.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ قُلْ بياناً للحق، وردّاً على زعمهم الباطل: يقبض مَلَك الموت أرواحكم، ويستوفي نفوسكم، هو وأعوانه فلا يترك منكم أحداً، لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان، بموجب الجبلّيَّة، أي يقبض أرواحكم ملك الموت ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بقبض أرواحكم، قال مجاهد: جُعلت له الأرض مثل الطشت يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية،

وبين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ﴾[1] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد سامع ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون. ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ أو جنس المجرمين الذين ارتكبوا صنوف الجرائم في الدنيا ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو رؤوسهم من الحياء والخزي، عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يقولون يا ربّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبلُ عمياً وصماً، لا ندرك شيئاً ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما تقتضيه أوامرك الإلَهية، ونعبدك ولا نشرك بك أحداً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وكلّ ذلك طمعاً للإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأنَّىٰ لهم ذلك؟.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي لو تعلقت مشيئتنا بأن نعطي كلَّ نفس ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح، لفعلنا ﴿لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب إلى الإيمان، والعمل الصالح، لكنْ

---

(١) لا تعارض بين هذه الآيات ولا منافاة، فالله تبارك وتعالى هو المتوفّي، ومَلَك الموت «عزرائيل» يتولى قبضها بنفسه، ومعه أعوانه يساعدونه في الأمر، فصحت الإضافاتُ كلها إلى الله سبحانه، وإلى ملك الموت، وإلى أعوانه.

لم نعطهم ذلك، لمَّا علمنا منهم اختيار الكفر[1] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنمَ بالعصاة المجرمين من الجنِّ والإنس جميعاً، وفي تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته من العصيان، ودخول النيران.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الباء للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد، بل هو بسبب نسيانهم الدار الآخرة، وعدم العمل لها، أي ذوقوا هذا العذاب المخزي الأليم في دار الجحيم، بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسيِّ بالمرة ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد، أي وذوقوا العذاب الخالد الدائم، بسبب ما كنتم تعملونه من فنون الكفر والمعاصي، وتكذيبكم بآيات الله.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إنما يصدّق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي وُعظوا بها ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم سجداً خوفاً من عذاب الله

---

(١) توضيح معنى الآية الكريمة: لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا، لأنّا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان!!.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه عن كل ما لا يليق به، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه، التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات، والتوفيق للاهتداء بها ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ أي والحال هم خاضعون لجلال الله تعالى، لا يستكبرون عن السجود والتسبيح، والتحميد عن ابن عمر قال: «كان رسول الله يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة»[1] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد لها، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلتي أُمر ابنُ آدم السجدة، فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فليَ النَّارُ»[2].

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي ترتفع، وتتنحّىٰ ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي عن الفُرُش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل، وقال عطاء: هم الذين يصلُّون العشاء والفجر في جماعة، بدليل قوله ﷺ: «من صلَّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلَّى الليل كله»[3] وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[4] ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي داعين له تعالى ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير والحسنات.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ باب سجود التلاوة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٨١ في كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٥ في الصلاة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم.

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾.

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ من النفوس، لا مَلَك مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسل، فضلاً عمن عداهم ﴿ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم ﴾ أي لأولئك المتقين الصالحين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ ممَّا تَقَرُّبِهِ أعينهم ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، وَلا خطر على قلب بشر، واقرؤوا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ﴾ الآية»[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ ﴾؟ أي أبعد ظهور ما بينهما من التَّبايُن، يُتوهَّم كونُ المؤمن الذي حُكِيت أوصافه الفاضلة، كالفاسق[2] الذي حكيت أوصافه القبيحة؟ ﴿ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ أي لا يتساوون عند الله في الشرف والمثوبة، والمآل والجزاء.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ ﴾.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتب

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٢٣٠ في بدء الخلق ومسلم رقم ٢٨٢٤ وانظر جامع الأصول ١٠/ ٤٩٤.

(٢) المراد بالفاسق هنا: الكافر، لأنه تعالى قابل به المؤمن، وأخبر أيضاً أنه يُخلَّد في النار، ولا يستحقُّ التخليد فيها إلا الكافر: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النارُ﴾ وأمَّا الفسقة من المؤمنين العصاة، فلا يخلدون في نار الجحيم، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ المراد بالمجرمين الكفار لمقابلتهم بالمسلمين.

الفريقين في الآخرة، وإضافة الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وقيل: هي جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿نُزُلًا﴾ أي ثواباً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي منزلهم ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم، مكان الجنة للمؤمنين ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ اللفظ عبارة عن الخلود فيها، فلا خروج ولا عودة في الحقيقة، وكلمة «في» للدلالة على أنهم مستقرون فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم إهانة لهم، وزيادة في غيظهم ذوقوا عذاب جهنم الدائم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بعذاب النار على الاستمرار في الدنيا، وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر، إذ التكذيبُ يُقابل الإيمانَ.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا، وهو ما عُوقبوا به من القتل، والأسر، والقحط ونحو ذلك، وقيل: العذابُ الأدنى عذابُ القبر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، لأنه شديد ومديد، بخلاف عذاب الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الذين يشاهدون ممن بقي منهم، يتوبون عن الكفر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾؟ استفهام إنكاري أي هو أظلم من كل ظالم، لأنه عرف الحقّ ثم صدَّ عنه ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل من اتصف بالإجرام، وإن هانت جريمته ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن هو أظلم؟.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة، وعبر عنها باسم الجنس ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله ﷺ كإيتائه لموسى عليه السلام، واختار من بين الرسل «موسى» لقربه، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للاستدلال، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأمّا النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فتمسَّك بالمجمع عليه ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ أي من لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن﴾ والمعنى: إنا آتيناك من الكتاب، مثل ما آتيناه لموسى، فلا تكن في شك من أنك لقيتَ مثله ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه لموسى ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي هداية لبني إسرائيل من الضلالة والجهالة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ أي جعلنا منهم قادة يقتدى بهم في فعل الخيرات، ويُهتدى بهم إلى طريق الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي بأمرنا إياهم بذلك، وبتوفيقنا لهم إلى الطاعة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ أي لمّا صبروا جعلناهم أئمة، والمراد صبرُهم على مشاقّ الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة

الدين ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدىً لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيميز بين المحقّ وبين المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ أي أولم يبين الله لأهل مكة؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ هذه الآيات، سماع تدبر وتفكر؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؟ أي التي جُرز نباتها، أي قطع ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء من تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن، والعصف، والورق، وبعض الحبوب المخصوصة

بها ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يقتات بها الإنسان والثمار ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك؟ ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ كان المسلمون يقولون: إن الله تعالى سيفتح لنا على المشركين، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون تكذيباً واستهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ أي النصر علينا أي في أيّ وقت يكون؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ في أن الله ينصركم علينا؟.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وتحقيقاً للحق ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، والعدولُ عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً، وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان، كأنه قيل لا تستعجلوا، فكأني بكم قد آمنتم، فلم ينفعكم إيمانكم في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، رُوي عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ الكِتَابِ﴾ و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنْسَانِ﴾[1] وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٧٩ في الجمعة، وأبو داود رقم ١٠٧٤ في الصلاة.

كـانَ لا ينـام حتـى يقـرأ: ﴿الٓـم تَنـزِيـلُ الكِتَـابِ﴾ و ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهُ المُلْكُ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ناداه بالنبي تعظيماً له، ولتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ والمراد بالتقوى الثبات عليه، والازدياد منه، فإن له ﷺ باباً واسعاً في تقوى الله ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المجاهرين بالكفر ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ المضمرين له، ولا تساعدهم على شيء، واحترز منهم، فإنهم أعداء الله والمؤمنين، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، فهو تحذير للمؤمنين كافة من طاعة أهل الكفر والنفاق. وروي أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور، قدموا المدينة بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فنزلوا على «عبد الله بن أبيّ ابن سلول» وجاء معهم ابن أبيٍّ فقالوا لرسول الله ﷺ وعنده عمر: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندَعك وربك، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي في قتلهم!! فقال ﷺ: «إني أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله، فأمره النبي ﷺ أن يخرجهم من

المدينة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم في فعله وصنعه، إلا بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اعمل بما يوحيه إليك ربك، من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الخطاب للرسول ﷺ والجمعُ للتعظيم، وقيل: الخطاب له وللمؤمنين، والجملة تعليلٌ للأمر، أي لا تخفى عليه خافيه من أعمالكم، يعلم المطيع من العاصي، والبَرَّ من الفاجر، وسيجازيكم عليها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوِّضْ جميع أمورك إليه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً، موكولاً إليه كل الأمور.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى، تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرون مِنهنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾ الآية وتنبيهاً على أن كون المظاهر منها أمّاً، وكون الدَّعِيّ ابناً أي بمنزلة الأم والابن، في الآثار والأحكام في الاستحالة بمنزلة اجتماع القلبين في جوف واحد، وقد كانت العرب تزعم أن اللبيب الأديب الأريب، له قلبان في جوفه، ولذلك قيل لأبي معمر ذو القلبين، فردَّ الله

سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله تعالى قلبين في رجل واحد، وذكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي ما جمع الزوجية والأمومية في امرأة واحدة، ولا التبني والبنوّة في رجل واحد، بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجية، وأحكام الأمومة، ونفي الجمع بين حقيقة الدعوة، وأحكام البنوّة، لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، وإجراء أحكام البنوّة على الولد المتبنى ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما يفهم من الظهار، والتبنّي ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، إذ الابن والأم يكون بالولادة حقيقة، لا بالقول قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي باطل ليس له حقيقة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي المطابق للواقع ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي طريق الحق والاستقامة.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوهم حقيقةً ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدلُ، أي الدعاء لآبائهم بالغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه، فادعوهم بالأخوّة الدينية ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي فيما فعلتم مخطئين، بالسهو أو النسيان، أو سبق اللسان، ومثلُه قولُ القائل لغيره: يا

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

بنيَّ بطريق الشفقة، أو يا أبي بطريق التعظيم ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الجناح والإثم فيما تعمدت قلوبكم بعد النهي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوه عن المخطىء ورحمته بالعباد. روى الشيخان عن ابن عمر قال: إنَّ «زيدَ بن حارثة» مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاَّ «زيد بن محمد»[1] حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ..﴾ الآية، فصرنا نقول بعد ذلك: زيد بن حارثة. ورُوي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنةُ عليه حرام»[2].

> ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقّه آثر لديهم من حقوقها لأنه ﷺ لا يأمرهم ولا يرضى منهم، إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، وفي قراءة ابن مسعود «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» أي في الدين، فإن كل نبي أب لأمته، من حيث إنه أصل فيما فيه الحياة الأبدية، ولذلك صار المؤمنون إخوة، وسبب النزول أن النبي ﷺ كان يخرج إلى الجهاد، ويأمر أصحابه بالخروج، فيقول البعض: نستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٥١٧/٨، ومسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤٦/١٢ في الفرائض ومسلم رقم ٦٣ في الإيمان.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي منزَّلات منزلة الأمهات في التحريم، واستحقاق التعظيم، وأمَّا فيما عدا ذلك، كالإرث، والخلوة، والنظر، فهنَّ كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدَّ التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوراث، وهو ناسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة، والموالاة في الدين ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه، فيما أنزله وفرضه الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي أولى بالميراث من المؤمنين بحقِّ الدين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم، من الفقراء المهاجرين، فلا حرج فيه، وقيل: المراد بفعل المعروف: الوصيةُ، أي إلا أن توصوا إليهم عند الموت ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي مكتوباً ومسطَّراً في اللوح المحفوظ أو القرآن العظيم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم، بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين الحق ﴿وَمِنكَ﴾ أي ومنك يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيصُهم بالذكر، للإيذان بمزيتهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأولو العزم من الرسل، وتقديم نبينا ﷺ عليهم للإبانة عن فضله الجليل وإمامته لجميع الرسل ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً مؤكداً موثَّقاً أن يلتزموا بتبليغ الرسالة، وإنما فعلنا ذلك.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي يوم القيامة، ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سُئلوا عنه،

وإنما السؤالُ لحكمة تقتضيه، أي ليسأل الأنبياء، الذين صَدَقوا عهودهم، عما قالوه لقومهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[1] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهيَّأ الله للكافرين الفجار، عذاباً مؤلماً موجعاً، يذوقونه في نار جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود بني قريظة، والنضير، كانوا زُهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، بإشارة «سلمان الفارسي» رضي الله عنه، فضرب معسكره، والخندقُ بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، واشتد الخوف ونَجَمَ النِّفاقُ، حتى قال «معتّب بن قُشير» المنافق: «كان محمد يَعِدنا كنوز كسرى، وقيصر، وأحدُنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط» ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حرب بينهم إلاّ الترامي بالنَّبْل والحجارة، واشتد الأمر والخوف على المؤمنين، بالغاً ما بلغ، حتى بعث الله على المشركين ريحاً باردة، في ليلة شاتية، فأقعدتهم، وسفَّت الترابَ في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم، وماجت الخيل بعضُها في بعض، فقال «طُليحة بن خُوَيْلِد الأسدي»: أمَّا محمد فقد بدأكم بسحر، فالنَّجاة النَّجاة، فانهزموا، وفرُّوا من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي ريحاً شديدة عاصفة مدمّرة ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، وقذف في قلوبهم الرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وترتيب مبادىء الحرب ﴿بَصِيرًا﴾ إشارة إلى أنه تعالى علم التجاءكم إليه، ولذلك فعل ما فعل.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من أعلى الوادي، من جهة المشرق، وهم بنو غطفان ومن تَابَعهم من أهل نجد، وانضمَّ إليهم يهود بني قريظة وبني النَّضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب، وهم قريش ومن شايَعهم من أوباش العرب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مالت عن سَنَنها، وانحرفت عن مستوى نظرها، حَيْرةً لشدة الرَّوْع ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع، أي زالت عن أماكنها حتى كادت تبلغ الحناجر، والآية تمثيلٌ لاضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقةً ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ أي تظنون بالله أنواع الظنون، حيث ظنَّ المخلصون بالله أنه ينجز وعده، في إعلاء دينه، كما يعرب عنه قولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ والمنافقون خافوا وزلزلوا، وظنُّوا ما حكى عنهم مما لا خير فيه.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الزمان الهائل ﴿ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي عوملوا معاملة من يُختبر، فظهر الراسخ من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من الهول والفزع، والابتلاء ليس لاستبانة الأمر له تعالى، بل لإظهاره لغيره.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي ضعفُ اعتقاد، وهم قومٌ لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليه ﴿ مَّا

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بإعلاء الدين، والظفر على الأعداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وَعْد غرور، والقائل «معتّب بن قُشير» وإخوانه في النفاق والضلال، وهم طائفة كانوا يتظاهرون بالإيمان، وهم يبطنون الكفر، ولهذا صدر عنهم مثل هذا الكلام.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوس بن قيظي وأتباعه، وعبد الله بن أُبيّ وأشياعُه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يثرب اسم المدينة المنورة، أي يا أهل المدينة وقد نهى ﷺ أن تسمى بيثرب كراهة لها، وقال هي: طيبة أو طابة، كأنهم ذكروها بذلك مخالفة له ﷺ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لاموضع إقامة لكم، يريدون معسكر النبي ﷺ ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم بالمدينة، مرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة، معرَّضة للعدوّ والسرَّاق، والعورةُ في الأصل: الخللُ، أطلقت على المحلّ مبالغةً ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ والحال إنها ليست كذلك، بل هي حصينة ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي إلى بيوتهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جميع جوانب المدينة وأطرافها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ أي طُلب منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الرِدَّة، والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين، مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ أي لأعطوها من أنفسهم، غير مبالين بالإسلام وأهله

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ بإجابتها يعني الفتنة وما أخّروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ هم قوم من المنافقين غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولاً عن الوفاء به، وجديراً بالوفاء.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل سيف، في وقت معيّن سبق به القضاء ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً، فتمتعتم بالتأخير، لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً، لأن الموت مآل كل حيٍّ.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؟ أي من يَستطيع أن يمنعكم من الله عزَّ وجل، سواءً قدَّر هلاككم ودماركم، أم قدَّر بقاءكم ونصركم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أي المثبِّطين للناس عن رسول الله ﷺ، وهم المنافقون ﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ من منافقي المدينة الذين كانوا يقولون للأنصار: لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون عن المعسكر ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾ أي الحرب والقتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً، لأنهم يخرجون مع المؤمنين رياء، يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلاَّ شيئاً قليلاً، إذا اضطروا إليه.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء عليكم بالمعاونة، والشفقة، والنفقة في سبيل الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه، من معالجة سكرات الموت، حذراً وخوفاً ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ ﴾ وحُرزت الغنائم ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أي آذوكم ونالوا منكم ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي خاطبوكم مخاطبة شديدة، وقالوا أعطونا قسمتنا، فإنا ساعدناكم، وقاتلنا معكم، والسَّلْقُ: البسطُ بقهر اليد، أو باللسان، وسَلَقه بلسانه خاطبه بما يكره ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ على المال والغنيمة، يعني إنهم قليلو الخير في الحالتين، كثيرو الشر في الوقتين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذُكر من صفات السوء ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ﴿ وَكَانَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّناً وسهلاً على الله، لأنها فقدت عنصر الإخلاص لأنها كبناء على غير أساس.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي هؤلاء لجبنهم، يظنُّون أنَّ الأحزاب لم ينهزموا ولذلك فرُّوا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي تمنَّوا أنهم خارجون إلى البدو، حاصلون بين الأعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء أو خوفاً منكم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي خصلةٌ حسنةٌ حقها أن يُؤْتَىٰ بها ويقتدى -في جهاده، وإخلاصه، وصبره ﷺ-، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، بل هو في نفسه قدوة يحقُّ أن يتأسَّى به ﷺ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي ثوابه أو لقاءه، والرجاءُ يحتمل الأمل والخوف ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي أكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيان لما صدر عن خُلَّص المؤمنين، بعد حكاية ما صدر عن المنافقين، أي ولمَّا شاهدوهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من كثرة الأعداء، وشدة البلاء ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ الآية، وقوله ﷺ: «سيشتدُّ الأمرُ باجتماع الأحزاب عليكم» ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ظهر صدقهما في البلاء والنصرة، والثواب، وإظهار الاسم الجليل للتعظيم، وهو في مقابلة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً﴾ وقولهم: ﴿وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع، فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله، قبل الوقوع، وإنما هي إشارة إلى بشارة صدق الله تعالى لهم، في جميع ما وعد، مثل فتح مكة، وفتح الروم، والانتصار في بدر، فيقع الكل ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ما رأوه من كثرة الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره، ومقادره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ في الحروب، والمقاتلة لأعداء الله، وطلب الشهادة، ومعنى ﴿صَدَقُواْ﴾ أتوا بالصدق، وهم رجال من الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا وقاتلوا مع الرسول ﷺ حتى استشهدوا ﴿فَمِنْهُم﴾ تفصيل لحال الصادقين ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي مات أو قتل في سبيل الله، والنَّحْبُ: النَّذر، استُعير للموت، لأنه كنذرٍ لازم في عُنق المسلم، كحمزة، ومصعب بن عُمير، وأنس بن النضير رضي الله عنهم، فإنهم قد قضوا نذورهم واستشهدوا ﴿وَمِنْهُم﴾ أي بعضهم ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي ينتظر الشهادة كعثمان، وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك، فإنهم مستمرون على نذورهم وهو الثبات مع الرسول ﷺ والجهاد حتى الموت ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ عطف على صدقوا، أي ما

بدلوا عهدهم ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ بل ثبتوا على العهد، مراعين فيه عزة المسلم، وفيه تعريضٌ بأهل النفاق، ومرضى القلوب.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمضمر كأنه قيل: وقع جميع ما وَقَع ليجزي الله ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ أي بما صدر عنهم من الصدق والوفاء، قولاً وفعلاً ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل اليأس من إيمانهم ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي لمن تاب وأناب، وفيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ شروع في حكاية بقية القصة، وتفصيل تتمة النعمة، أي وردَّ الله الأحزاب خائبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ أي غير ظافرين بخير القتال ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ أي لم يحوجهم إلى القتال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريد ﴿عَزِيزٗا﴾ غالباً على كل شيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ أي من حصونهم العتيدة، وهي ما يُتحصن به

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف الشديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهلهم وأولادهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ من غير أن يكون من جهتهم حِراك، فضلاً عن المخالفة، روي أنَّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال له: أتنزع السلاح أنت وأمتك، والملائكةُ ما وضعوا السلاح!! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ إليهم فمزلزل بهم الحصون فأذِّن في الناس أن لا يصلُّوا العصر إلاَّ ببني قريظة، فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال ﷺ: تنزلون على حكمي، فأبوا، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، فقال له ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماواته»!!. فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ يعني وأورثكم أرضاً لم تقبضوها بعدُ، وهي خيبر لأنها فُتحت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل ما أراد، فقد شاهدتم بعض مقدوراته جلَّ وعلا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي أقبلن باختياركن لأحد الأمرين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن المتعة، وتستحب لكل مطلقة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي

أطلقكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي طلاقاً من غير ضِرار وبدعة، روي أنهن سألن النبي ﷺ ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت، وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له، فوجد رسول الله ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ـ ساكتاً ـ فقال: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: لو رأيتَ بنت خارجة ـ يعني زوجة عمر ـ سألتني النفقة ـ أي طلبت مني التوسعة في الإنفاق ـ فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ فقال: هنَّ حولي كما ترى يسألن النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكلاهما يقولان: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً حتى نزلت هذه الآية، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرِض عليك أمراً، أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت: أفيك أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة»[1].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي تردن الرسول ﷺ، وذكرُ الله للإيذان بجلالة قدره ﷺ عنده تعالى ففي مرضاة الرسول رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي نعيمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره وهي الجنة التي فيها ما لا عين

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطلاق رقم ١٤٧٨.

رأت ولا أذن سمعت، و«مِنْ» للتبيين، لأنهن كلهن محسنات رضوان الله عليهن[١].

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ ﴾ بكبيرة ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ظاهرة القبح، والمراد منها كل ما اقترفن من الكبائر، وقيل: عصيانهن لرسول الله ﷺ، ونشوزهن وطلبهن منه ما يشقُّ عليه ﷺ، والغرض مجردُ التحذير لا أن منهنَّ من أتت بفاحشة، فإنَّ الله تعالى صان أزواجِ الرسول ﷺ عن القبائح ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي يعذَّبْنَ ضعفي العذاب لغيرهن، أي مثليه، لأن الذنب منهن أقبح، فإن زيادة القبح تابعة لزيادة فضل المذنب، والنعمة عليه، ولذلك جُعل حدُّ الحر ضعف حدّ الرقيق، وعُوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم، وكون ذلك يسيراً على الله، أي لا يمنعه عن التضعيف كونها من نساء النبي ﷺ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه ﷺ.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أي ومن يدم على

---

(١) سبب نزول آية التخيير أن النبي ﷺ لما نصره الله في غزوة الأحزاب، وفرَّق عنه جموع المشركين، وفتح عليه قريظة والنضير، ظنَّ أزواجه أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، وخشين أن يوزعها بين المسلمين، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحُليِّ والحُلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن قلبه ﷺ بهذه المطالبة وبهذه الكلمات، فنزلت آية التخيير.

الطاعات ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة والتقوى، ومرة على طلبهنَّ رضاء رسول الله، بالقناعة، وحسنِ المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة، زيادة على أجرها المضاعف، أي رزقاً مرضياً جليل القدر.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، في الفضل والشرف ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ أي اتصفتنَّ بالتقوى كما هو اللائق بحالكنَّ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا ترققن الكلام أمام الرجال، ولا تجبن بالكلام الرقيق الليّن، على سنن المريبات الفاجرات[1] ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي فجور وريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي بعيداً عن الريبة بجدٍ وخشونة.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) إذا كان القرآن الكريم يمنع المسلمة، أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب، لئلا يطمع بها الفُسّاق والفُجّار، فكيف بمن تثير الغرائز والكوامن، بالغناء الماجن الخالي من العفة، الذي كله ميوعة وانحلال، ودعوة إلى العهر والفجور، وتختلط فيه أصوات المغنّين والمغنّيات مع آلات الموسيقى والطرب، في الحفلات الساهرة الداعرة، وتنقله الإذاعة والتلفاز، ثم نسمع من بعض أدعياء العلم من يبيح ذلك، بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة، وأن غناء المرأة ليس بحرام!! إذاً فما هو الحرام في نظرهم؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان، الذي فسق فيه كثير من الشبان، وطغت فيه النساء وجاوزن حدَّ الاحتشام، وأصبح فيه المنكر معروفاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمْنَ بيوتكن يا نساء النبي، ولا تتسكعن في الطرقات، وأصله اقرَرْنَ، يقال: قرَّ الشيءُ أي استقرَّ بالمكان وثبت فيه ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي لا تتبخترن في مشيكنَّ، وهو التكسُّرُ والتغنُّج، والتبختر، وإظهار الزينة والمحاسن للرجال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي مثل تبرج نساء الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق، تعرض نفسها على الرجال ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أمَر بهما لفضلهما على غيرهما، وكونهما أصليْ الطاعات البدنية، والمالية ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل الأمور والأحوال، لا سيما فيما أُمرتنَّ به، ونُهيتنَّ عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي الذنب المدنِّس لعرضكم، وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونهيهنَّ ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبي ﷺ، مراداً بهم من حواهم بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغاً، فعِرضُ المقترف للإثم يتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وهذه الآية ـ كما ترىٰ ـ آيةٌ بينة، على كون نساء النبي ﷺ أهل بيته، وقاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم «أهل البيت» بفاطمة وعلي، وابنيهما رضي الله عنهم، وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غَدَاة، وعليه مِرْطٌ مُرَجَّلٌ [1] من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرَاً﴾ إنما يدلُّ على كونهم من أهل البيت، لا على أن ما عداهم ليسوا كذلك، والنصُّ في القرآن قاطع.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) أي كساء أسود فيه بعض النقوش، والحديث أخرجه مسلم.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ أي اذكرن للناس بطريق العِظَة والتذكير ﴿مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله للدلالة على صدق النبوة، وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، وهو تذكير لهنَّ بما أنعم الله عليهنَّ، حيث جعلهن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي، وما شاهدنه من أنوار الوحي، مما يوجب قوة الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، وبواطنها، يعلم ما يصلح في الدين، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ الداخلين في الإسلام، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجب أن يُصدَّق به من الفريقين ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ أي المداومين على الطاعات، القائمين بها ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين بقلوبهم، وجوارحهم ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما يجب في مالهم ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض فرضاً، ونفلاً ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لما اقترفوا من الصغائر،

لأنهن مكفرات بها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات، والآية وعدٌ لهن، أي لنساء النبي ﷺ ولجميع المؤمنين والمؤمنات، عن أم عُمارة الأنصارية قالت: «أتيتُ النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كلَّ شيء إلى الرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية»[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لرجل من المؤمنين، ولا لمرأةٍ من المؤمنات ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاءُ الله تعالى، نزلت هذه الآية في «زينب بنت جحش» بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، فأبت هي وأخوها عبد الله فنزلت، فلما سمعا الآية رضيا، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، فأنكحها زيداً وساق رسول الله ﷺ إليها مهراً عشرة دنانير، وخماراً، ودِرْعاً، وملحفة ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق والسعادة ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ بين الانحراف عن سنن الصواب، لأن ردَّ أمر النبي ﷺ ضلال وفسق.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ في كتاب التفسير وقال: حديث حسن غريب.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ أي اذكر وقت قولك ﴿ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريره وعتقه وهو «زيد بن حارثة» تبناه رسول الله ﷺ قبل النبوة، ثم أعتقه وزوَّجه بزينب رضي الله عنها فكانت تتكبر عليه فجاء ذات يوم إلى الرسول ﷺ وقال له: أريد أن أفارق صاحبتي، فقال ﷺ له: مَا لَكَ أرابك منها شيء؟ قال: لا والله، ما رأيتُ منها إلاَّ خيراً، ولكنها لشرفها تتعظَّم عليَّ فقال له ﷺ: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في أمرها فلا تطلقها تعللاً بتكبرها ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أي وتضمر في نفسك ما سيظهره الله من رغبة الزواج بها بعد أن يطلقها؟ وأصحُّ ما في هذا الباب ما رُوي عن سفيان بن عُيَيْنة عن علي بن زيد قال: سألني زين العابدين «عليّ بن الحسين» قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ﴾ الآية فقال علي بن الحسين إن الله عزَّ وجلَّ قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال ما قال، وقال ﷺ لزيد: ﴿أَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ﴾ فعاتبه الله تعالى، وقال: لم قلت: أمسكْ وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك؟ وهذا أولى وأليق لشأن الرسول ﷺ، وهو مطابق للتلاوة أيضاً، لأن الله تعالى أعلم أنه سيبدي ويُظهر ما أخفاه، ولم يُظهر غير تزويجها منه، فقال تعالى: ﴿زَوَّجناكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره ﷺ إرادة طلاقها وتزويجها منه، كما قيل لكان يظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يُخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وإنما أخفى ذلك رسول الله ﷺ حياءً، لأنه كم من شيء يتحفظ الإنسان منه، ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباحٌ وحلال!! وكم من أمرٍ لا عيب فيه عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سُلَّماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، كإبطال حكم التبنّي وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبني، وإبطال تشريعه الجاهلي كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾

وأما ما ذكره بعض الجهلاء في تفسير هذه الآية، من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ، عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها، فيه أعظم الخطأ، ونسبة ما لا يليق بمنصبه ﷺ من مدِّ عينيه لما نُهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ﴿لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ وإقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفته بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، والحال أنها رضيت له ﷺ قبل تزويج نفسها لزيد، ولو أعجبته لتزوجها في هذا الوقت، ولم يزوجها لزيد، فدعوى وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ دعوى باطلة مكذوبة، وهي من دسائس أعداء الإسلام، والله عزَّ وجلَّ فعل كما أراد، وكان كما يشاء، ولا رادَّ لأمر الله وحكمه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرهم إياك بنكاح مطلقة دعيّه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وحده، ليس هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ خشي الناس، ولم يخشَ الله، بل المعنى: اللهُ أحق أن تخشاه وحده، ولا تخشَ أحداً معه، وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ولاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ الله﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ هي أشد عليه من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لو كَتَم رسولُ الله ﷺ من الوحي شيئاً لكتم هذه الآية»[1] ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجةً، فإذا بلغ البالغُ حاجته من شيء له فيه هِمَّة، قيل: قضى منه وطره، والوَطَرُ: الحاجةُ، والمعنى: فلمَّا لم يبق لزيد فيها حاجةٌ، أي طلَّقها وانقضت عدَّتُها، وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنَّىٰ تحلُّ بعد الدخول بها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ المراد بتزويجها منه ﷺ جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ويؤيد هذا ما روي أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ: إن الله تولَّى نكاحي، وأنتن زوجكُنَّ أولياؤكنَّ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ومشقة ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٠٥.

في حقِّ تزوجهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء، وإشارة إلى أن هذا التزويج منه ﷺ لم يكن لقضاء الشهوة، بل لبيان حكم من أحكام الشريعة الغراء بفعله عليه السلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾ محتَّماً مكوَّناً لا محالة، فقد زوَّجك الله بها، وأبطل حكم التبنِّي بهذا التشريع الإلهي.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام في الحكمة، أن يكون على الرسول ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي فيما قسم له وأمر له وقدَّر، من قولهم فرض له في الديوان كذا، وفرض القاضي النفقة: قدَّرها، والمراد به هو نكاح زينب، وتعدد النساء، وغيره ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنة، والسُنَّةُ: الطريقة والسيرةُ الحميدة جمعها سُنَن، مثل غُرْفة وغُرَف ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء عليهم السلام، حيث وسَّع عليهم في باب النكاح وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي قضاءً مقضيّاً، وحُكماً مبتوتاً.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي يخافونه في كل ما يأتون وما يذرون، لا سيما في أمر التبليغ، حيث لا ينقصون حرفاً، ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي كافياً للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشى غيرُه.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي على الحقيقة، حتى يثبت بينَه وبينَه ما يثبت بين الأب وولده، من حرمة المصاهرة وغيرها، نزلت لما تزوج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية تأكيداً لإبطال شريعة التبني ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي ولكنْ كانَ رسولَ الله، وكلُّ رسولٍ أبٌ لأمته، لكنْ لا حقيقةً بل مجازاً، بمعنى أنه شفيقٌ، ناصح لهم كالوالد، وسبب لحياتهم الأبدية، لا ولادة بينهم وبينه ﷺ، وزيد منهم، وليس للتبني حكم شرعي كحكم الأبناء ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي كان آخرهم الذي ختموا به، فهو خاتمهم وأفضلهم على الإطلاق، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجلٍ بنى بنياناً، فأحسنه وأجملَه، إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون، ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللَّبنة؟ فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين»[1] ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بما هو أهله من التهليل، والتحميد،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٤٠٧ ومسلم رقم ٢٢٨٧.

(٢) فإن قيل: كيف يكون خاتم النبيين، وعيسى عليه السلام سينزل بعده كما ثبت في الصحيحين؟ فالجواب أن عيسى نبيٌّ قبله، وحين ينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعته، فيبقى نبينا خاتم النبيِّين، ومعنى الآية لا يتنبأ نبي بعده ولا ينزل الوحي على أحد بعده، والله أعلم.

والتقديس ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يعم الأوقات والأحوال، فالذكر يحي القلوب، كما تحيا الأرض بالمطر.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزّهوه عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أول النهار، وآخره، واللفظ إشارة إلى المداومة على الذكر، كأنه قال: سبحوا ربكم دائماً وأبداً، في الليل والنهار، والصباح والمساء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي يعتني بكم بالمغفرة، والتزكية، والرحمة، وهو استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله، وتحريض للمؤمنين على الذكر والتسبيح، فإن صلاته تعالى ـ مع عدم استحقاقهم لها ـ ممَّا يوجب عليهم المداومة من ذكره تعالى، وتسبيحه ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا..﴾[1] الآية. والمراد بصلاة الله والملائكة معنى عام مجازي، هو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاحهم، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يعتني بأموركم هو وملائكته، ليخرجكم من ظلمات الكفر والعصيان، إلى نور الإيمان والعرفان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي كان بكافة المؤمنين رحيماً، وفيه بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن الآية غير مختصة بالسامعين وقت الوحي.

---

(١) سورة المؤمن، آية: ٦.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الله لهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يوم لقائه عند البعث، أو عند دخول الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ تسليم من الله عزَّ وجلَّ، تعظيماً لهم، أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] الآية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيأ لهم جزاءً حسناً، وهو دخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم الخالد.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتؤديها يوم القيامة فيما لهم وما عليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة للأبرار ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار للكفَّار الفُجَّار.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الإقرار به، وبوحدانيته، وبسائر ما يجب الإيمان به ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتيسيره وأمره سبحانه وتعالى، لا من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشِّر المؤمنين منهم خاصة ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على مؤمني سائر الأمم، في الرتبة والشرف.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الجاحدين وحدانية الله المتظاهرين بالإسلام كذباً وزوراً، لا تطعهم فيما يدعونك إليه، من المساهلة والملاينة في أمر الدين ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، والمسامحة في الإنذار ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي لا تبال أذيتهم لك، بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فالله يصرف عنك ضررهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ في كل ما تأتي وما تذر فإنه تعالى يكفيك ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولاً إليه الأمور، في كل الأحوال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي تجامعوهنَّ، والخلوة الصحيحة كالجماع ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ بأيام يتربصن فيها بأنفسهن ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ أي تستوفون عددها، والإسناد إلى الرجال، للدلالة على أن العدة حق الأزواج، كما أشعر به قوله: ﴿فما لكم﴾ وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن لا ينكح إلا مؤمنة، وأن يتخير لنطفته امرأة صالحة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها في العقد، فإن الواجب لها حينئذٍ نصف المفروض دون المتعة، فإنها مستحبة عندنا، وقيل: إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أي أخرجوهنَّ من منازلكم ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار، ولا منع حق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع، وإيتاؤها ليس لتوقف الحل عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل، بل لإيثار الأفضل والأولى له ﷺ ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي وأبحنا لك النساء اللاتي تملكهن بطريق الغنيمة «المملوكات» في الحرب ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصة، ويعضده قول أم هانىء بنت أبي طالب: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية، فلم أحلَّ له لأني لم أهاجر معه» ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ﴾ أي وأحللنا لك أيضاً امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أي إن ملّكته نفسها بطريق الهبة، وأراد الرسول ﷺ نكاحها بدون مهر، وهذه من خصائصه ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أي خاصة لك يا محمد، فلا تصح الهبة في النكاح لغيرك ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الإحلال المذكور، غير متحقق في حقهم، وإنما المتحقق في حقهم الإحلال بمهر المثل ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين بالشراء وغيره من وجوه الملك، وخَصَصناك

ببعض الخصائص توسعةً عليك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُر التحرُّز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ ولذا وسَّع الأمر في الحرج.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخّرها وتترك مضاجعتها ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ أي تضمُّ ﴿إِلَيْكَ﴾ أو تطلّق من تشاء منهن، وتمسك ﴿مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي طلبت بالرَّجْعة ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء ممَّا ذُكر، وهذه قسمة جامعة، لأنه ﷺ إما أن يُطلّق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أوِ ترك، وإذا طلّق فإما أن يخلي أو يبتغيها. وقد كانت التسوية بينهنَّ في القسْم، واجبة عليه ﷺ، فلما غار بعضهن على النبي ﷺ، نزلت هذه الآية وسقط عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه ﷺ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من التفويض إليه ﷺ ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي أقرب إلى قرّة عيونهن، ورضاهنَّ، فإن سوَّيْتَ بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك، وإن رجَّحت بعضهنَّ، علمن أنه بحكم الله تعالى، فتطمئن نفوسُهنَّ به ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهد في إحسانها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم ما تُبدونه وتخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع، اللاتي خيرتهن

فاخترنك، ورضاهن بما آتيتهن ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي تتبدل ﴿بِهِنَّ﴾ أي بهؤلاء التسع، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح مكانها أخرى ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئتَ، فأمّا الحرائر فلا، وأراد الله بذلك لهن كرامة، وجزاءً على ما اخترن ورضين، عندما نزلت آية التخيير وهن التسع اللاتي توفي ﷺ عنهن، وهنَّ «عائشة بنت أبي بكر» و «حفصة بنت عمر» و «أم حبيبة بنت أبي سفيان» و «سودة بنت زمعة» و «صفية بنت حُيَيّ»، و «ميمونة بنت الحارث»، و «زينب بنت جحش» و «رملة بنت أبي سفيان» و «جويرية بنت الحارث» رضوان الله عليهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظاً ومهيمناً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس، من حقوق النبي ﷺ، إثر بيان ما يجب مراعاته من الحقوق المتعلقة بهنَّ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات، أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات، إلاَّ وقت أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي إلا أن تدعوا إلى طعام، وفيه إشعارٌ بأنه لا ينبغي المجيء على الطعام بغير دعوة، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نُضجه وإدراكه ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾

أي إذا دعيتم إلى وليمة وأُذن لكم في الدخول فادخلوا، وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي فتفرَّقوا ولا تمكثوا فتثقلوا على أهل المنزل، وهو خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي وغير جالسين بعد الطعام، ليستأنس بعضكم لحديث بعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي ذلك الاستئناس واللبث الذي تفعلونه ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ بتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وصده عن الاشتغال بما يعنيه ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ أي من إخراجكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي لا يترك تأديبكم، وهذا أَدَبٌ أَدَّبَ الله به الثقلاء، فوردت الآية جامعة لآداب الضيافة والوليمة، روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما نزل في متبنَّى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهطٌ عند النبي ﷺ، فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عَتَبَة حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم ظنَّ أنهم قد خرجوا فرجع ورجعتُ معه حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوسٌ لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظنَّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الله آية الحجاب[1]، وهي هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبي ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ ﴿مَتَٰعٗا﴾ أي شيئاً يُتمتَّع به ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ أي المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ أي سترٍ، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي سؤال المتاع من وراء

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم رقم ١٤٢٨ في النكاح، باب زواج النبي ﷺ بزينب.

الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أي أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية ﴿وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي وما صحّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويؤذيه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ الآية ردٌّ عن من قال: لئن مات محمد، لأتزوجنَّ فلانة يعني إحدى زوجاته، فنزلت ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر، من إيذائه، ونكاح أزواجه من بعده ﷺ، ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي أمراً عظيماً وخطأً جسيماً، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله، وإيجاب حرمته حياً وميتاً، ما لا يخفى.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم على المعاصي البادية والخافية، وفيه مزيد تهويلٍ، ومبالغةٌ في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ روي أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب، فنزلت وإنما لم يذكر العم الخال لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم وأباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾ والمراد من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، وإنما قال نسائهن لأنهن من أجناسهنَّ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: من الإماء خاصة ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما

أمرتنَّ به ونُهيتُنَّ عنه، لا سيما عند العبيد، وفيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ أي يعتنون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ أي اعتنوا أنتم أيضاً بذلك، فإنكم أولى به ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي قائلين: اللهمَّ صلِّ على محمد وسلِّم، أو نحو ذلك، والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً، من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه، وقيل: يجب ذلك كلَّما جرى ذكرُه، والمعتمد قولُ الكرخي قال: إنها واجبة مرة، وأمَّا كلما ذُكر فمستحبة، أفاده في مجمع الأنهر. وأما في الصلاة في التشهد فهي واجبة، وقد سأل بعض الصحابة الرسول عن كيفية الصلاة والسلام عليه فقال: قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وإفراد الغير بالصلاة من أهل البيت فمكروه، وهو من شعائر الروافض، كقولهم: عليٌّ عليه الصلاة والسلام، لأنه شعار ذكر الرسول ﷺ، ولذا كُره أن يقال: محمدٌ عزَّ وجلَّ، مع كونه عزيزاً وجليلاً، بل يكتفى بقول محمد ﷺ أو عليه الصلاة والسلام.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أريد بالإيذاء في حق الله تعالى، وصفُه

بما لا يليق به جلَّ وعلا، كنسبة الزوجة والولد، وفعل ما يكرهه من الكفر، والمعاصي، لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى، وقيل هو كقول اليهود: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقول المشركين: الملائكة بناتُ الله، والأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأمّا إيذاء الرسول فهو قولهم: شاعر، مجنون، ساحر، وطعنهم في نكاح صفية، وزينب، والنيل منه ﷺ بالقدح والذم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بحيث لا ينالون فيهما شيئاً من الرحمة والهداية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينهم ويذلهم مع الإيلام الشديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي يقولون فيهم ما يتأذّون به، من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية، للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حقٍّ، وأما أذى هؤلاء، فمنه ما هو حقٌّ كالحدِّ والتعزير، ومنه ما هو باطل ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً بيناً، نزلت في أهل الإفك، وقيل: في الفساق الذين يتبعون النساء، إذا برزن للحاجة، والظاهر العموم، وإذا كان لا يحل لك أن تؤذي كلباً، أو خنزيراً، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾

بعدما بيّن سوء حال المؤذين أمر النبي ﷺ بأن يأمر زوجاته وبناته وسائر نساء المؤمنين، بالتستر والاحتشام، ليدفع عنهن ألسنة الفسقة اللئام، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يغطِّين بها وجوههن، والجلباب هو الرداء الذي يستر جميع بدن المرأة، كالملحفة والعباءة التي تشتمل بها المرأة، وكل ما يُستتر به، أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن، إذا برزن لداعية من الدواعي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من التغطي ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي يعرفن أنهن حرائر وعفائف، فلا يتبعهن الفجار، ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهن لا يزنين، لأن من تستر وجهها، مع أنه ليس بعورة، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن الزنا بهن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم بتشريع ما يحفظ كرامتهم.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي فجور وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من الفريقين من نشر أخبار السوء، وغير ذلك من الأراجيف الملفّقة المستتبعة للأذية ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنحرضنَّك على ذلك ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي ثم لا يساكنونك ولا يعودون إلى مجاورتك ﴿فِيهَا﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً ريثما يتأهبوا للخروج.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أي مطرودين من رحمة الله عزَّ وجل

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ أي أينما وُجدوا وأدركوا قُتّلوا تقتيلاً، لكفرهم ونشرهم أخبار السوء والفساد.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ﴾ في الأمم الماضية، وهي أن يقتل الذين نافقوا وعادَوُا الأنبياء، وسعوا في توهين أمرهم، بالإرجاف ونحوه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي ولن تتغير سنة الله أو تتبدَّل، بل يجريها بمجرى واحد في الأمم، وفي جميع الأزمان.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ أي عن وقت قيامها، كان المشركون يسألونه استعجالاً واستهزاءً ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا يطلع عليه ملكاً مقرَّباً، ولا نبياً مرسلاً ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أيْ أيَّ شيء يعلمك بوقت مجيئها؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؟ أي شيئاً قريباً، وفيه تهديد للمستعجلين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي أبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاتقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ أي مقيمين في نار جهنم أبد الآبدين، وهذا يردُّ على من زعم فناء النار، فإن قوله تعالى: ﴿أبداً﴾ يدل على الدوام والاستمرار ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يخلصهم من عذاب الله.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة، كاللحم المشويّ يقلب على النار، وتخصيص الوجوه بالذكر، لما أنها أكرم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع، فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده، أو يطأطىء رأسه كي لا يصيب وجهه، ولذلك ذكر هنا الوجه تفظيعاً وتشنيعاً ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين على ما فاتهم ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على يقولون وهو ضرب اعتذار للتشفي من الزعماء ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر، والتعبير عنهم بعنوان السيادة لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل، وزيادة الألف لإطلاق الصوت وفائدتها الوقف.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم ضلُّوا أو أضلوا، أي اجعل عذابهم مثل العذاب الذي نحن فيه مرتين ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً وعظيماً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ ﴾ نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من مقالة الناس ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ أي فأظهر براءته مما قالوا في حقه ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا وجاهة ومنزلة عظيمة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي صدقاً وصواباً، قاصداً إلى الحق.

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ بالقبول، ويوفقكم للأعمال الصالحة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي يجعلها مكفَّرة، باستقامتكم في القول والعمل ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ ﴾ في الدارين ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ يعيشُ في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى عِظَم طاعة الله ورسوله، عقب ذلك ببيان عظم شأن التكاليف الشرعية بطريق التمثيل، وعبَّر عنها بالأمانة، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها وأدائها، وعبَّر عن

اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر من السماوات والأرض، بالعرض عليهنَّ لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها، بالإباء والإشفاق منها، لتهويل أمرها وكأنها من الأجسام الثقيلة، التي تستعمل فيها القوى الجسمانية والمعنى: إن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كُلفت هاتيك الأجسام العظام، التي هن مَثَلٌ في القوة والشدة مراعاتها، وكانت ذوات شعورٍ، لأبَيْنَ قبولها، وأشفقن منها، والأمانة جميع ما أُمروا به ونُهوا عنه، وكان العرض تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلُّها خاضعة لله، مطيعة لأمره، ساجدة له تعالى ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ عند عرضها عليه، أي تكلفها والتزمها، مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها، ولم يراعِ حقها ﴿جَهُولًا﴾ بكنه عاقبتها، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار الأغلب.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ أي ليعذب الكفرة من أهل النفاق، والمشركين والمشركات عبّاد الأوثان، الذين ضيَّعوا الأمانة بعدما قبلوها ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والغفران، لأنهم حفظوا الأمانة، وراعوا حقها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث تاب على فرطاتهم، وأثابهم على طاعتهم، فهو سبحانه الغفور الرحيم، البر الكريم، نسأله تعالى المغفرة والرضوان.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»

* * *

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع الموجودات له خلقاً، وملكاً، وتصرفاً فهو الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض. الجميع ملكه وتحت تصرفه وسلطانه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه في الآخرة، لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على عباده بأنواع النعم الجزيلة، والفرق بين الحمدين، مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل، الأول على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذذ، وإنما يحمد أهل الجنة ربهم سروراً بالنعيم، بقولهم: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وعْدَهُ﴾ و ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا، ودبرهما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم سبحانه ما يدخل فيها من الغيث، والكنوز، والدفائن، والأموات والحبوب، ونحوها ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي وما يخرج من الأرض من الزروع، والنباتات، والثمار، والمعادن، ومياه العيون والآبار ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأمطار، والملائكة، والكتب الإلّهية ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي وما يصعد إليها من الملائكة، والأعمال الصالحات، والأرواح الطاهرات ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ﴾ للحامدين على ما ذكر من نعمه ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي وقال المشركون من كفار مكة: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، وإنما عبروا عنه بقولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فاستبطأوا مجيئها بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الوَعْدُ﴾؟ ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم، أي قل لهم يا محمد مؤكداً ومحذِّراً ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أي أقسم لكم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، وهو تأكيدٌ له على أتم الوجوه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، وفائدة اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنهم يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدّقوه، عناداً ومكابرة ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عن الله ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾

أي منه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ والغرض أن الله سبحانه لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف تخفى عليه أحوال البشر؟.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ أي ليثيب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدار الدنيا، ويجزيهم أحسن الجزاء، وهي علة لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما فَرَط منهم، فلما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعب فيه، ولا منَّ عليه، ولا تنغيص ولا كدر.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مسابقين كي يفوتونا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي من سيِّىء العذاب ﴿أَلِيمٞ﴾ شديد الإيلام والإيجاع.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي يعلم أولو العلم من علماء الأمة المحمدية، أو ممن آمن من علماء أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القرآن العظيم الموحى إليك يا محمد ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي هو التوحيد، والتدرع بلباس التقوى.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضُهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير: السخرية، قاتلهم الله ﴿ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي يحدّثكم بأعجب العجائب ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي إذا متم، ومُزِّقت أجسادكم كل تمزيق، بحيث صرتم تراباً ورُفاتاً، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي مستقرون فيه، يعني أنكم تبعثون خلقاً جديداً؟.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾؟ أي أهو مفترٍ على الله كذباً، فيما ينسب إليه تعالى من ذلك؟ ﴿ أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون يوهمه ذلك؟ قال الله تعالى رداً عليهم: ليس بالرسول ﷺ من الافتراء والجنون شيء ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ يعني منكري البعث ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أي بل هم في اختلال العقل، وغاية الضلال، لأن من يسمي المهتدي ضالاً فهو الضال، ومن يسمي الهادي مجنوناً فهو الأجنُّ، والرسول عليه الصلاة والسلام في غاية العقل والكمال.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ استئناف مسوقٌ لتهويل ما اجترؤا عليه، من تكذيب آيات الله، واستعظام ما قالوا في

حقه ﷺ، وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العذاب من غير تأخير، أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل، المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيث لا مفر عنه ولا محيص ﴿إِن نَّشَأْ﴾ على موجب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة بما ارتكبوه من الجرائم، وإنا لقادرون على عذابهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من السماء والأرض، من حيث إحاطتهما بالناظر، وما تدلان عليه من قدرة الله، وعظمته ﴿لَءَايَةً﴾ واضحة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابة إلى ربه، فإنه إذا تأمل فيما يراه، وتأمل قدرة الله، ينزجر عن القبائح، وفيه حث لهم على الإنابة.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي آتيناه لحسن إنابته، وصحة توبته ﴿فَضْلًا﴾ أي نوعاً من الفضل على سائر الناس فيندرج فيه النبوة، والكتاب، والمُلْك، والصوت الحسن ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من آتينا بتقدير قلنا ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب، أي رجِّعي معه التسبيح إذا سبَّح، فكان كلما سبَّح عليه السلام، يُسمع من الجبال ما يسمع من المسبِّح، معجزةً له ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على فضلاً، بمعنى وسخَّرنا له الطير، فعكفت من فوقه تسبِّح معه، وفي تنزيل الجبال والطير، منزلة العقلاء، مطيعين لأمره تعالى، من الفخامة المعبرة عن عظمة شأنه تعالى ما لا يخفى، وإنما ذكر الجبال والطير، لأن الصخور للجمود، والطير للنفور، يستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقاه فغيرُها أولى، ثم إن من الناس من لن يوافقه وهم القاسية قلوبهم، التي هي أشدُّ قسوة من الحجارة ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع، يصرّفه في يده كيف يشاء، من غير إحماء

بنار، ولا ضرب بمطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناه إياها ليناً كالشمع، بالنسبة إلى سائر القوى البشرية، وهو في قدرة الله تعالى يسير، فإن الحديد يلين بالنار، وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به فأي عاقلٍ يستبعد ذلك من قدرة الله؟ قيل: إنه عليه السلام طلب من الله تعالى، أن يغنيه عن الناس، فألان له الحديد، وعلمه صنعة اللبوس، وهي الدروع.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أي أمرناه فقلنا أن أعمل ﴿سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ أي الدروع الواسعة، وهو أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نَسْجُ الدروع، أي اقتصد في نسجها، بحيث تتناسب حِلقها ومساميرها ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ أي وأكثروا من فعل الخيرات، وعموم الخطاب لعموم التكليف له ولأهله، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها، ومن يعمل للملك شُغلاً، ويعلم أنه بمرأى من المَلِك، يحسن العمل ويتقنه.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح، وكانت ريحاً مخصوصة، لا هذه الرياح المعهودة فإنها لمنافع عامة، ويدل عليه أنه لم يُقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي كذلك، وعن الحسن رحمه الله كان

يغدو من دمشق فيَقِيلُ بإصطخر، ثم يروح بكابل ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي النحاس المذاب، وكان ذلك باليمن، أي أذبنا له عين النحاس، أذاب الله النحاس لسليمان، كما ألان الحديد لداود عليهما السلام، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي وسخرنا له من الجن ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتسخيره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به، من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، وقيل: في الدنيا، فمن زاغ منهم يُحرقه الله تعالى.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان لما يشاء أي من قصور حصينة، ومساكن رفيعة شريفة، سُمِّيت بذلك لأنه يُحارب عليها ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ ما يكون في المحاريب من النقوش، وفيها تماثيل وصور لأنواع من المخلوقات، على عادة الملوك والعظماء، قال الحسن: لم تكن يومئذٍ محرَّمة، وقد حرمت في شريعتنا سدًّا للذريعة[1]، لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي قصاع ضخمة جمع جفنة، وهي آلة الأكل ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالحياض الكبيرة جمع جابية، وهي الحوض الكبير الواسع قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل لكثرة جنده ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لعظمتها، ذكر في حق داود آلة الحرب، وفي حق سليمان عليهما السلام آلة السلم، وهي المساكن، والمآكل وذلك لأن داود قتل الملوك الجبابرة، وهيأ لابنه الملك، وجمع له المال فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لما قيل لهم

---

(١) انظر كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» حول حكم التماثيل والصور ٢/ ٣٧٩ ففيه بحث نفيس مفصَّل.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر، بقلبه ولسانه وجوارحه، ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن التوفيق للشكر نعمة أخرى تستدعي شكراً آخر، روي أن داود عليه السلام جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات، إلاّ وإنسان من آل داود قائم يصلي، خاشعاً متضرعاً إلى الله.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت، وأمتناه فعلاً، وإنما حكى تعالى أمر موته، بعد أن حكى عظمة سليمان، وتسخير الريح، والجن، لينبِّه أنه لم ينج من الموت، مع ما أعطي من الملك الباهر، وعلى أن الموت لا بد منه لكل حيّ ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ أي على موت سليمان عليه السلام ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي دويبة تنخر الخشب وتأكله وهي السُّوسة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علماً بيّناً بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون، لعلموا موته، حيثما وقع، ولم يلبثوا بعده حولاً وهم لا يدرون موته روي أنه لمَّا حان أجله، سأل ربه أن يُعَمِّي عليهم موته، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض الله روحه، وهو متكىء عليها، فبقي كذلك، والجنُّ فيما أُمروا به من الأعمال الشاقة، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً، وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي لأولاد سبأ بن يشجب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وهي باليمن، يقال لها «مأرب» بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالة على وجود الخالق جلَّ وعلا وقدرته، المجازي لكل محسن ومسيء ﴿جَنَّتَانِ﴾ المراد بهما روضتان من البساتين ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شمالها، كل واحدة كأنها جنة واحدة، أو بستان كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم، تكميلاً للنعمة، وتذكيراً لحقوقها حيث لم يمنعهم من أكل ثمرها خوف ولا مرض ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ كانت أطيب البلاد هواءً، وأخصبها تربة، ليس فيها بعوض ولا ذباب، ولا ما يعكِّر الصفو ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي وربكم الذي رزقكم ما فيها، رب غفور، يغفر زلة من يشكره.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه، قيل: أرسل الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى، وأنذروهم فكذبوهم، وقالوا ما نعرف لله علينا نِعمة، فقولوا لربكم فليحبسْ هذه النعمة عنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي السيل، المدمِّر المخرِّب، الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرَّق بساتينهم ودورهم، وذلك بثقب السد الذي كان يحبس عنهم السيول الذي بنته الملكة «بلقيس» بين الجبلين بالصخر والقار، فلما هدم السدُّ جاء السيل وعلا على دورهم وأموالهم فغرَّقها ومُزِّقوا كل ممزَّق، حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي أذهبنا جنيتهم وآتيناهم بدلهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأُكُل: الثمرُ، والخَمْطُ: المرُّ البشع أي ثمر بشع، فإن الخمْط كل نبت أخذ طعماً من مرارة، لا يمكن أكله ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

الأثلُ: شجر لا ثمر له، ووصف السدر بالقلة لما أن جناه لا يؤكل أصلاً وهو عارٍ عن النفع، أي وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها، كشجر الأثل والسِّدر، وحاصله كانت أشجارهم خير الأشجار، فصيرها الله تعالى من شر الأشجار، بسبب أعمالهم الخبيثة، وتسمية البدل بجنتين للتهكم، بيَّن الله به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس، تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، وإذا تُركت سنين تصير كالغيضة والأجمة، وتنبت فيها المفسدات، ولا خير فيها.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من التبديل ﴿ جَزَيْنَٰهُم ﴾ أي بذلك الجزاء الفظيع ﴿ بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أي ما نجازي هذا الجزاء، إلا للمبالغ في الكفر، الجاحد لفضل الله.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية، في أسفارهم ومتاجرهم، تكملة لقصتهم، وإنما لم يُذكر الكلّ معاً، لما في التكرير من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لا على ما بعده، أي جعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم، من فنون النعم ﴿ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي القرى الشامية ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي متواصلة يُرى بعضُها من بعض، لتقاربها، ظاهرة للمسافرين، فكانوا في متعة في أسفارهم، كما كانوا في رغد من عيشهم، وهي أربعة آلاف قرية من سبأ إلى الشام ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين، يليق بأبناء السبيل، فقد كان الغادي يقيل في بلدة، والرائح منها

يبيت في الأخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدواً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، ولا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، لكثرة الخيرات والمياه، فكانوا يسيرون آمنين مطمئنّين لا يخافون شيئاً.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي بطروا النعمة، وسئموا طيب العيش، فطلبوا الكدَّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المنِّ والسلوىٰ، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً، ليركبوا فيها الرَّاوحل، ويتطاولوا على الفقراء، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يُسمع فيها داع ولا مجيب ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم، متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي فرقناهم كلَّ تفريق، وشرَّدناهم في البلاد، قيل: لما غرقت بلادهم، تفرقوا في البلاد، حتى لحقت «غسان» بالشام، و «أنمار» بيثرب، و «حزام» بتهامة، و «الأزد» بعمان، وفي عبارة التمزيق من تهويل الأمر، وشدة الإيلام والتأثر ما لا يخفى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من قصتهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي شأنُه الصبرُ على البلاء، والشكر على النعماء.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي حقَّق على أهل سبأ ظنه أنه يغويهم، كما قال اللعين: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾

بيان لذلك، أي فاتبعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة. وكفروا نعمة الله ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إلاَّ فريقاً هم المؤمنون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ أي لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي إلا لحكمة جليلة، هي أن نظهر علمنا للعباد، ليعلموا المؤمن من الكافر، والخبيث من الطيب، وليميزوا بينهما، والمراد بقوله: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلاَّ فالله عزَّ وجلَّ عالم بما كان وما سيكون ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي يؤمن بالآخرة، ممن هو شاك فيها، والمراد من حصول العلم، حصول متعلقه مبالغة ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي محافظ عليه، رقيب على العباد، لا تخفى عليه خافية من أفعالهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِين﴾[2] واعلم أنَّ عِلمه تعالى من الأزل إلى الأبد، محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، ولكنْ هو كاشف يكشف ما خفي على البشر، ولذلك يُقال: هو علم إظهار لا علم بداء أي بداية، فالله يبتلي العباد ليظهر لهم الحقائق، مثاله: إن المرآة يظهر فيها صورة زيد، ثم إذا قابلها عمرو تظهر صورته، والمرآة لا تتغير في ذاتها، ولا تتبدل في صفاتها، وإنما التغير في الخارجات، فكذلك ههنا وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجىء، وإنما هو علامة خلقها الله، ليتبين للعباد ما هو في علمه تعالى.

---

(١) سورة الحِجر، آية: ٤٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٣.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾

﴿ قُلِ ﴾ لما بيّن الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين، عاد إلى خطاب أهل مكة، أي قل للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه ﴿ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أي زعمتموهم آلهة ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع، أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم، إن صحَّ دعواكم؟ ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب فقال ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير أو شر ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أمر من الأمور، في السموات ولا في الأرض، وليسوا بقادرين على شيء في الكون بأجمعه ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أي من شركة، لا خلقاً، ولا مِلْكاً، ولا تصرفاً ﴿ وَمَا لَهُۥ ﴾ أي لله تعالى ﴿ مِنْهُم ﴾ من آلهتهم ﴿ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ يعينه في تدبير أمرهما، يريد أنهم في هذه الصفات من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوْا كما يُدعى، ويُرْجَوْا كما يُرجى؟.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ قاله تكذيباً للكفار، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب الشفعاء، من الملائكة، والرسل، والتفزيعُ: إزالةُ الفَزَع، كأنه قيل: يتربصون في موقف الاستئذان، ويتوقفون على وَجَلٍ وفزع، حتى أزيل الفَزَعُ عن قلوبهم وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾؟ في شأن الإذن ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الشفعاء ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ أي قال ربنا القولَ الحق، وهو الإذن للمستحقين لها ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي وهو المنفرد بالعلوّ والكبرياء جلَّ وعلا.

﴿ ۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞قُلْ ﴾ أمر ﷺ بتبكيت المشركين، بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما، وأن الرزاق هو الله تعالى، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً مخافة الإلزام، قيل له ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾؟ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً، فهم مقرُّون به بقلوبهم. كما أنهم عند الضُرّ يقولون ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهُمْ﴾ وأمَّا عند الراحة فهم غافلون عن الله، فلذلك قال لرسوله ﴿قُلِ الله﴾ ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى المناظرات العلمية، وذلك لأن أحد المتناظرين، إذا قال للآخر: هذا الذي تقول خطأ، أو أنت مخطىء يغضبه، وعند الغضب يكون عنادُ الفكرِ، وأما إذا قال له: أحدنا لا يُشكُّ أنه مخطىء، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن، فإنه لا يغضب، ويجتهد في النظر ويترك التعصب، وهذا أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف، المسكت للخصم الألد، وقد ذكر تعالى في الهدى كلمة (على) وفي الضلال كلمة (في) لأن المهتدي كمن ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يرى شيئاً[1].

---

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم أنَّ من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، ففي قوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ غاية التلطف في الدعوى، والإنصاف مع المعاند، وفيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الردّ بالتصريح، وكذلك في الآية بعدها ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسند الإجرام لنفسه، والعمل إلى المشركين المجادلين، ولله در التنزيل!!.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر. فذكره بلفظ العمل، لئلا يحصل الإغضاب، وقوله: ﴿لا تُسْألُونَ وَلاَ نُسْألُ﴾ زيادة حثٌ على النظر.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة، عند الحشر والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يحكم بيننا بالعدل، بأن يُدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ أي الحاكم الفيصل في القضاء، الذي لا يظلم أحداً، والفتح حقيقة في فتح المغلق، ومجاز في فتح الحُكْم المغلق ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقضي به.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ﴾ أي أعلموني ﴿ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِۦ ﴾ بالله تعالى ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ أريد بأمرهم ذلك إظهار خطئهم العظيم، أي أرونيها لأنظر بأيِّ صفةٍ ألحقتموها شركاء بالله، الذي ليس كمثله شيء، في استحقاق العبادة؟ وفيه مزيد تبكيت لهم، بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة القاهرة، والحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسُّ الأشياء من هذه الرتبة العالية!؟.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ لمَّا بيَّن مسألة التوحيد، شرع في بيان الرسالة، أي وما أرسلناك يا محمد إلا لعموم البشر ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغي والضلال.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾؟ بطريق الاستهزاء، يعنون به العذاب الموعود، الذي كان يخوفهم به سيد الخلق ﷺ ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ مخاطبين لرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ ﴾ أي وعدُ يوم ﴿ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ ﴾ عند مفاجأته ﴿ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ وفي هذا الجواب مبالغة في التهديد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ من الكتب القديمة الدالة على البعث، قيل: إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا فقالوا

ذلك ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي المنكرون للبعث ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في موقف المحاسبة، ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ أي يتخاصمون ويتحاورون، كما يكون عليه حال جماعة، أخطأوا في أمر، يقول بعضهم لبعض: «كان ذلك بسببك». ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ أي يقول الأتباع، بدأ بهم لأن الضال أولى بالتوبيخ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ في الدنيا واستبقوهم في الغي والضلال ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ ﴾ أي لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ ﴾ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين من الأتباع: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾؟ منكرين لكونهم هم الصادون عن الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ أي راسخين في الإجرام لاختياركم، وإيثاركم الضلال على الهدى، ولم تضلوا بسببنا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي لم يكن إجرامنا هو الصادّ لنا عن الإيمان، بل صدَّنا مكركم الدائم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ ﴾ أي وقت أمركم لنا ﴿ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أي حين دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، وزينتم لنا ذلك، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي أضمر

الفريقان النَّدامة، على ما فعلا من الضلال والإضلال، وأخفاها كل منهما عن الآخر، مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وجعلنا السلاسل الحديدية في أعناق الكفرة الفجار، زيادة على تعذيبهم بالنَّار، فتركوا الندم والمحاورة، ودفعوا في نار الجحيم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟ أي لا يجزون إلا بما كانوا يعملونه من القبائح وسوء الأعمال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي متنعّموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ممَّا مُنِيَ به من قومه، وتخصيص المتنعمين، مع أن غيرهم أيضاً قالوا ذلك، لأن الأغنياء المستكبرين، هم الأصل في ذلك، ولأن الداعي إليه التكبرُ والمفاخرةُ، ألا ترى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؟.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي وقال الطغاة المترفون من أغنياء مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين، ولن يعذبنا الله، لأنه أكرمنا في الدنيا، فلا يهيننا في الآخرة على تقدير وقوعها، وقاسوا أمور الآخرة على أمور الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيّق على من يشاء أن يضيقه عليه، من غير أن يكون لأحد دخل، فربما يوسع على العاصي، ويضيّق على المطيع، وربما يعكس

الأمر، وقد يوسّع على شخص تارة، ويضيّق عليه أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيزعمون أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضييق هو الهوان، وكثيراً ما يكون استدارجاً للكافر، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي وليست أموالكم ولا أولادكم تقرّبكم عندنا قربة، وهو رد على قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأولَاداً﴾ فإن المال والولد لا يقرّبان إلى الله تعالى، ولا اعتبار بالتعزز به ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي لا تقرّب أحداً، إلاّ المؤمن الصالح، الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلّم أولاده الخير، وربّاهم على الصلاح، ورشحهم للطاعة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالإيمان والصلاح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ يعني تُضاعفُ حسناتُهم، الواحدة عشراً فما فوقها ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي في غرفات الجنة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع المكاره، وفيه إشارة إلى دوام النعيم، فإن من تنقطع عنه النّعمة لا يكون آمنا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكفار الذين يسعون للصدّ عن سبيل الله، يظنون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فهم في العذاب مخلّدون، لا يجديهم ما عوّلوا عليه نفعاً.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يوسِّع على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله، قليلاً كان أو كثيراً، فإن الله سبحانه يعوِّضه عليكم، إما عاجلاً أو آجلاً، أمّا في الدنيا فبالمال، من حيث لا يحتسب الإنسان، أو بالقناعة وهي كنز لا يفنى، وأما في الآخرة فبالثواب الذي كل خلف دونه، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: «أَنْفِقْ يُنْفَقْ عليك»[1] وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ومَلَكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ ممسكاً تَلَفاً»[2] ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي هو تعالى خير المعطين لعباده، فإن غيره وسط في إيصال رزقه، لا حقيقة لرازقيته، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً، فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سُمي المعطي، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط: فرسٌ، وإنسان.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي المستكبرين، والمستضعفين، وما عبد من دون الله ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٨/ ٢٦٥ ومسلم في الزكاة رقم ٩٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٤١ ومسلم رقم ١٠١٠ في الزكاة أيضاً باب في المنفق والممسك.

نهج قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة، من شفاعتهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للمشركين، والثاني للجن، أي أكثر هؤلاء الكفار، مصدّقون بأقوال الشياطين، يزعمون أن الملائكة تشفع لمن عبدها، وما هو إلاّ ظنٌّ وتخمين.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي ففي يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، إذ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ونقول للمشركين ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدّنيا، فحينئذ يكون من الأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقيَّة التوحيد، وبطلان الشرك ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي ليس إلا بشراً مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان عليه آباؤكم فيستتبعكم بما يستدعيه، من غير أن يكون هناك دينٌ إلهي، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عرق العصبية منهم، مبالغة في تثبيتهم على الشرك ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ أي مكذوب بإسناده إلى الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أي قال الكفرة المتمردون بجرائمهم على الله قالوا عن القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير تدبر، ولا تأمل فيه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ظاهر، لا يخفى على لبيب!! وكلامهم هذا عجيب، فلم يقولوه عن بصيرة، وإنما عن ظن وتخمين، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي يقرؤون فيها ما يقولون ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله، ويعرِّفهم الحقيقة بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الضال؟ وكيف حكموا هذا الحكم الظالم؟ وهذا غاية التجهيل لهم.

ثم هدَّدهم بقوله تعالى:

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدمة كما كذبك هؤلاء الضالون ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة، وطول العمر، وكثرة المال والأولاد ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ

﴿نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم بالهلاك والتدمير؟ ولم يغنِ عنهم ما كانوا عليه من القوة والبأس، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي ما أرشدكم إلا بخصلة واحدة؛ هي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المراد به القيام على القدمين، بل النهوض بالهمَّة أي أن تنصبوا للأمر وتهتموا به، خالصاً لوجه الله، وطلباً للحق، معرضين عن المماراة والتقليد، والحمية والعصبية ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي متفرقين، اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الجمع الكبير يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام، وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنه أوثقُ، وأقرب إلى الاطمئنان، لأنهما يتفكران، ويعرض كل واحدٍ منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه، نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، والفردُ يتفكر في نفسه، بعدلٍ وإنصاف، ويعرض فكره على عقله، فعقله يؤديه إلى الحق، ثم ليفكر في نفسه، هل رأى في هذا الرجل أثر الجنون؟ أو جرَّب عليه كذباً قط؟ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمره ﷺ وما جاء به، لتعلموا حقيقته وحقّيته، وأنَّ مثل هذا الأمر العظيم، الذي تحته ملك الدنيا والآخرة، لا يتصدى لإعادته إلا مؤيّد من عند الله، مرشح للنبوة، واثق بحجته، وإذ قد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشرية، وقد انضم إلى ذلك معجزات، تخرُّ لها صمُّ الجبال، وإذ علمتم ذلك تبين أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي ما بمحمد الذي صاحبتموه، شيء من آثار الجنون، كما افتريتم عليه!! ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ أي ينذركم ويخوفكم بعذاب أليم ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذاب الآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي أيَّ شيءٍ سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً، كقول من لم تعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هو سبحانه مطَّلع على حقيقة الأمر، يعلم صدقي، وخلوص نيتي، وبأني لا أطلب الأجر إلاَّ منه، وكفى به شهيداً!!.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الوحي يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده، ويرمي به الباطل فيدمغه، كقوله سبحانه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهق..﴾[1] ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي هو سبحانه العالم بخفيَّات الأمور.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي الإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي زَهَقَ الشركُ، بحيث لم يبق أثره، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر، لأن كل ما جاء فقد ظهر، والباطلُ خلاف الحق، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يفيد شيئاً في الأولى، ولا في الآخرة، فلا إمكان بوجوده أصلاً.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن طريق الحقّ كما زعمتم ﴿ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ فإن وبال ضلالي عليها، لأنه بسببها، لا يضرّ غيرها، وذلك لأن كفار مكة، كانوا يقولون له: إنك قد ضللتَ حين تركتَ دين آبائك!! ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه، وفيه تقرير الرسالة، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فلنفسه﴾ وقال في حق الرسول ﷺ ﴿وإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إليَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وإذْ أوحى الله إليّ هذا القرآن، فأنا على الهداية التامة بفضل الله ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ يسمع قول كل من المهتدي والضال ﴿ قَرِيبٌ ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ ﴾ عند البعث، وجواب «لو» محذوفٌ للتهويل، أي لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي لا مهرب ولا مخلص ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي من الموقف إلى النار.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ حين عاينوا العذاب ﴿ بِهِۦ ﴾ بالرسول ﷺ وبالقرآن، وقد مرَّ ذكره ﷺ في قوله تعالى: ﴿ما بصاحبكم﴾ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ التناوشُ: التناولُ السهل، أي ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً؟ ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد، فكيف يعودون إليها ليؤمنوا؟ وهو تمثيل حالهم، في الاستخلاص بالإيمان، بعدما فات عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعيد، ويده لا تصل

إليه، وقد بعدت الدنيا عن الآخرة، بمفاوز، فكيف يصلون إلى الإيمان، وهم في عرصات الآخرة؟ والتوبة كانت تقبل في الدنيا وقد ذهبت؟.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي بالرسول ﷺ وبالحقّ الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل ذلك، في أوان التكليف في الدنيا ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي ويرمون بالظنّ في الأمور الغيبية، ويتكلمون بما لم يظهر لهم، في الرسول ﷺ ودعوته، من المطاعن حيث يقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي من جهة بعيدة لا يرون ما يرمونه، وهو تمثيلٌ لحالهم في ذلك، بحال من يرمي شيئاً لا يراه، من مكان بعيد، فكيف يصيبه؟ والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل، لمن يرمي ولا يصيب الهدف.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وحيل بين الكفار وبين ما يشتهون، من نفع الإيمان، والفوز بالجنان، والعودة إلى الدنيا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي كما فُعل بأشباههم وأمثالهم، من كفرة الأمم الدارجة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا في شك وارتياب، من أمر البعث والحساب، موقع لهم في الريبة والتهمة، وقوله: ﴿مريب﴾ من باب التأكيد، أي كانوا في شك واضح جلي، كما تقول: هذا شعر شاعر، وحكمة حكيم. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»

* * *

سورة فاطر

مكية وهي خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما، من الفَطْر بمعنى الشقّ، كأنه شقَّ العدم بإخراجهما منه ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أي جاعلهم وسائط بينه تعالى، وبين أنبيائه، يبلّغون إليهم رسالاته، بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أي ذوي أجنحة يطيرون ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة، متفاوتة في العدد ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يزيد سبحانه في خلق كلٍّ ما يشاء أن يزيده، بموجب مشيئته تعالى، والآية تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وحسن الوجه، والصوت، وحصانة العقل، وجزالة الرأي، وذلاقة اللسان، وما أشبه ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل للحكم المذكور، أي إنه تعالى قادر على كل شيء، له الخلق، والأمر، والسلطان، فلذلك لا يعجزه شيء أراده، من خلق الملائكة بهذه الصور العجيبة، والأجنحة العديدة.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أيْ أيَّ شيء يمنحه الله تعالى، من خزائن رحمته من نعمة، أو صحةٍ، أو أمنٍ، أو علمٍ، أو نبوة إلى غير ذلك ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي لا يقدر أحد على منعها وإمساكها عن عباده ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أي أيَّ شيء يمسكه الله ويحبسه عن عباده ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ أي لا أحد يقدر على إرساله ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إمساكه له جلَّ وعلا ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا رادَّ لما قضيتَ ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ»[1] الجَدُّ: الغِنى، الحديث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إنعامه عليكم، أي راعوها واحفظوها، بمعرفة حقها، والاعتراف بها وشكر المنعم عليها، ولما كانت نعم الله تعالى ـ مع تشعب فنونها ـ منحصرة في نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى، يصدر عنه إحدى النعمتين، بطريق الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي بالمطر والنبات ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله جلَّ وعلا، فاعبدوه واشكروا له

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة رقم ٤٧٨ والنسائي في الافتتاح ٢/١٩٨.

﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ومن أين تكذبون فتزعمون أنَّ الآلهة ترزقكم؟.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي وإن استمروا على أن يكذبوك، بعدما أقمت عليهم الحجة، فتأسَّ بأولئك الرسل، في المصابرة على ما أصابهم من قومهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتنكير الرسل للتفخيم، أي رسل أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلاً بما يستحقه، وهذا مبالغة في الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ تكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير، أي لا تخدعكم الدنيا بزخارفها ونعيمها، ولا يخدعكم الشيطان بوساوسه وأمانيه، فإنه كذَّاب خدَّاع ماكر.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أي عداوته قديمة لا تكاد تزول ﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بمخالفتكم له، وكونكم على حذر منه، فالطريق في عداوته الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته، بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى

اتباع الهوى، ليس لتحصيل منافعهم الدنيوية، كما هو مقصد المتحابين في الدنيا، بل هو توريطهم وإلقاؤهم في العذاب المخلد.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي الذين أطاعوا الشيطان، وصاروا من حزبه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ ﴾ لا يُقادر قدره ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا غاية له، لكبر جهادهم، وهو الجنة دار السعادة والخلود.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ تقرير لما سبق أي أبعد كون حالهما كما ذُكر، يكون من زُيّن له الكفر، من جهة الشيطان، كمن استقبحه واختار الإيمان، والعمل الصالح ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ﴾ بيان أن الكل بمشيئته تعالى فإنه يضل ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يضله، لصرف اختياره إليه، فيرده أسفل سافلين ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ أن يهديه، بصرف اختياره إليه، فيرفعه إلى أعلى عليين ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ أي فلا تهلك نفسك عليهم، حسرةً على عدم إيمانهم، وإصرارهم على التكذيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح والجرائم، ومجازيهم عليها فلا تتأثر على عدم إيمانهم.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وقد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء، وقد يكون نافعاً، وقد يكون ضاراً، فهذه الاختلافات دليل على مدبر ومقدر جليل ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فتهيج وتحرّك السحاب ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ أي فنسوقه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالمطر النازل منه ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي يبسها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات إحياء الأموات، رُوي عن أبي رُزين العُقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك مُمحلاً، ثم مررتَ به يهتزُّ خِضَراً؟ قلت: نعم، قال كذلك يحيي اللهُ الموتى»[1].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ أي الشرف وعزة الدنيا والآخرة، ويريد أن يعلم أن العزة والقدرة والمنعة، لمن هي؟ ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي فلله وحده لا لغيره، فالكفار يتعزّزون بعبادة الأصنام، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾[2] وكانوا يطلبون العزة عند الأصنام فقيل لهم: إن تطلبوا العزة في الحقيقة فهي كلها لله، وأما هذه الأصنام فلا عزة بها، بل عليها ذلة، فمن كان معبوده وربه حجارة أو خشباً، ماذا يكون هو؟ إنه ذليل، لأن ذلة السيد ذلة للعبد ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ بيان لما يطلب به العزة، وهو التوحيد والعمل الصالح، أي من

(١) الحديث أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند ٤/ ١٢.
(٢) سورة مريم، آية: ٨١.

أراد العزة، فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ويشرفه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ السيئات صفة لمصدر محذوف، أي يمكرون المكرات السيئات، ويحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، كما فعلوا في دار الندوة، حيث تآمروا على الرسول ﷺ بالحبس، أو القتل، أو الإخراج، كما قال تعالى: ﴿وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1] الآية ﴿لَهُمْ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم، للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد واشتهارهم بذلك، أي ومكر أولئك المفسدين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي يبطل ولا ينفذ صاحبه ولقد أبادهم الله تعالى ببدر، فجمع عليهم مكراتهم، وحقّق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[2].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا مثبتة بعلمه، تابعة لمشيئته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي وما يمد في عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي لا يجعل من الابتداء ناقصاً، وقيل الزيادة والنقصان في عمر إنسان واحد، مثل أن يكتب إن حج فلان فعمره ستون، وإلاَّ فأربعون، وعن قتادة: المعمَّر من يبلغ ستين سنة، والمنقوص من يموت قبل الستين ﴿إِلَّا فِي

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٠.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ كِتَٰبٍۚ ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقيل: صحيفة كل إنسان ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ من الخلق وما بعده ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه عن الأسباب.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ ﴾ مَثَلٌ ضُرب للمؤمن والكافر، أي كما لا يتساوى ماء البحر وماء النهر، فهذا ماء حلو شديد الحلاوة، وذاك ماء مالح شديد الملوحة، كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر، والفراتُ: الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره، والأُجَاجُ: الذي يُحرق بملوحته ﴿ وَمِن كُلٍّ ﴾ أي ومن كل واحد منهما ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ ﴾ والمراد بالحلية: اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ ﴾ أي في كل منهما ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ جمع ماخرة، أي شواقّ للماء بجريها، يقال: مَخَرت السفينةُ الماءَ أي شقته ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من فضل الله بالسفر والتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لتشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، بتسخير ذلك لكم.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، أي ذلكم العظيمُ الشأن، الذي أبدع هذه الصنائع

البديعة الله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم وموجدكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له المُلْكُ، والسلطانُ، والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، فإذا كان له الملك كلُّه، فلا معبود إلا هو لذاته جلَّ وعلا.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي إن دعوتم هذه الأصنام، لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم، لعجزها عن ذلك، لأنها جمادات ليس من شأنها السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ بالفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعجزهم عن السمع والقدرة لأنها جمادات ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون بإشراككم وعبادتكم إياهم بقولهم: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا ينبئك أيها المخاطب إلا اللهُ الخبير، والمعنى: إن هذا الذي أخبرتكم به، من حال الأوثان، هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أنتم الفقراء على الحقيقة في أنفسكم، المحتاجون إلى الله على الدوام، في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، وتعريف الفقراء للمبالغة، كأنهم لكثرة افتقارهم، هم الفقراء فحسب ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق، المنعم على سائر الموجودات، حتى استحق عليهم الحمد.

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بيان لغناه، وفيه بلاغة كاملة، وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته، سبحانه بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقال فيه: إن يشأ فلانٌ هدم داره، ثم زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ أي ويأتي بقوم آخرين خير منكم، ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على العبادة.

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الإذهاب والإتيان ﴿ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي ليس بصعب، ولا متعسر، لأنه على كل شيء قدير.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي إثم نفسٍ أخرى، كما يأخذ جبابرةُ الدنيا الوليَّ بالولي، والجارَ بالجار، بل إنما تحمل كل منهما وزرَها، ألا ترى كيف كذَّب الله المشركين في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] وأما في قوله تعالى: ﴿وليَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأثْقَالاً مَعَ

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٢.

﴿أَثْقَالِهِمْ﴾[1] فهو حمل أثقال إضلالهم، مع أثقال ضلالهم، وكلاهما أوزارهم، ليس فيها أوزار غيرهم ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي لحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تُجب بحمل شيء منه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ المستغاثُ به ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة من الداعي، كأخ، أو ابن، أو عم، فكل إنسان يريد نجاة نفسه، حتى إن الأمَّ لتتعلق بالابن فتقول: يا بنيَّ احملْ عني بعضَ أوزاري، فيقول: لا أستطيع، نفسي، نفسي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنما تنذر بهذا القرآن والذكر ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو عن الناس في خلواتهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي راعوها كما ينبغي، أي إنما ينتفع من إنذارك هؤلاء من قومك، دون من عداهم من أهل التمرد والطغيان ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من أوضار الأوزار والمعاصي، بالتأثر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعها عليها، كما أن من تدنَّس بها، لا يتدنس إلا عليها ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم.

﴿وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق، وجمعُ «الظلمات» مع إفراد النور، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ أي ولا الثواب ولا العقاب، أو الجنة والنار وإدخال لا على المتقابلين لتأكيد نفي الاستواء، والحَرُورُ من الحرِّ، غلب على السموم، وقيل: السموم ما يهبُّ نهاراً، والحَرُور ما يهبُّ ليلاً.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، فإن الأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت، فإنه لا نفع فيه مطلقاً، فشبه تعالى المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات، لأنهم مثل الأموات لا يسمعون ولا يستجيبون [1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يسمعه، ويوفقه لفهم آياته، والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات، وإقناطه ﷺ من إيمانهم.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي ما عليك إلا الإنذار، وأما الإسماع والهداية فليس من وظائفك، ولا حيلة لك إليه، في المطبوع على قلوبهم.

---

(١) ورد تمثيل المؤمن بالحي، والكافر بالميت، في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وقوله سبحانه: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ وقوله عزَّ وجل: ﴿فإنك لا تسمع الموتى..﴾ الآية، فالميت لا نفع فيه، ولا خير يُرجى منه، كذلك الكافر لا يفقه ولا يفهم الغاية من وجوده، فهو بهيمة في صورة إنسان، وشبح ميت في صورة آدمي يمشي ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بعثناك بالهدى والدين الحقّ ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالوعد الحق للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًاۚ ﴾ بالوعيد الحق للكافرين ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أي وما من أمة من الأمم الدارجة، في الأزمنة الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ أي مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو رسول، ينذر قومه، لئلا يبقى لأحد حجة بعد الرسل.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي استمروا على تكذيبك، فلا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم العاتية ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات، الدالة على نبوتهم ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ كالتوراة، والإنجيل، والفرقان.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ ﴾ أي أخذتهم بأشد أنواع العقاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري بالعقوبة عليهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً؟ وفيه مزيد تهويل للعقاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ ﴾ أي مختلفة الأشكال، والألوان، والطعوم، من تفاح، وعنب، وتين ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ

﴿جُدَدٌۢ﴾ أي طرقٌ مختلفة اللون، ذات حجارة متنوعة ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدَّة والضعف والحمرة، والبياض، والسواد ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ كأنه قيل: من الجبال طرق وحجارة مختلفة اللون، ومنها ما هو لون واحد، ولفظ «غرابيب» تأكيد لمضمرٍ، يفسِّره ما بعده، فإن غربيب تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، يقال أسود غربيب أي شديد السواد، والآية إشارة إلى علم طبقات الأرض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض البشرة، وهذا أحمر، وهذا أسود ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ أي إنما يخشاه تعالى العالمون به عزَّ وجل، لما أن مدار الخشية، معرفة المخشي، والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه، ولهذا قال ﷺ للمتنطعين، المتشددين في أمر الدين: «أمَا واللهِ إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل للخشية، أي أنه تعالى معاقبٌ للمصرِّ على الطغيان، وغفورٌ للتائب عن العصيان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في النكاح ١١/٤ ومسلم رقم ١٤٠١ باب استحباب النكاح.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ١٣/١٢٥ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءة القرآن، ومتابعة ما فيه، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ حثٌّ على الإنفاق كيفما يتهيأ، وقيل: السرُّ في المسنونة، والعلانيةُ في المفروضة ﴿ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ ﴾ تحصيل ثواب الطاعة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد، ولن تهلك بالخسران، جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات، الدائرة بين الربح والخسران، لأنه اشتراء باق بفان، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين، عدَةٌ قطعية بحصُول مرجوّهم.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ ﴾ أي أجور أعمالهم المذكورة ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ تعليل لما قبله، أي إنه غفور لفرطاتهم، شكور لطاعتهم ومجازيهم عليها.

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه أنه كلام رب العزة والجلال، فإنه حق وصدق وتاليه محقٌّ وصادق ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة، لم يُوح إليك مثل هذا الحق، وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي ثم أورثنا القرآن العظيم هذه الأمة المحمدية، التي اخترناها على سائر الأمم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالتقصير في العمل به ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي عمل عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي سبَّاق إلى الخيرات، وعمل الصالحات بتيسره تعالى، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وفي المراتب الثلاثة أقوال: ١ ـ الظالم لنفسه: من رجحت سيئاته وزادت على حسناته، والمقتصد: هو الذي تساوت سيئاته وحسناته، والسابق بالخيرات من كثرت حسناته ورجحت على سيئاته، ٢ ـ وقيل: الظالم صاحب الكبيرة، المقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المحفوظ بحفظ الله عن المعاصي، ٣ ـ وقيل: الظالم التالي للقرآن غيرُ العامل به، والمقتصدُ: الذي يتلو القرآن في بعض الأوقات، ويقصّر في بعض الصالحات، والسابق بالخيرات هو المتمسك في العمل بكتاب الله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي لا ينال إلا بتوفيقه تعالى أو إشارة إلى الميراث، والاصطفاء.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابقين: الجنسُ، وقيل الداخلون

هم الفرق الثلاث، لما روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «هؤلاء كلُّهم في الجنة»[1] والقولُ الأول أقوى، لقرب ذكر السابقين، ولأنه ذكر إكرامهم، فالمكرَّمُ هو السابقُ وتخصيص حال السابقين بالذكر، وإن لم يدلَّ على حرمان الفريقين الآخرين، من دخول الجنة، لكنْ فيه تحريضٌ على السعي في إدراك شأو السابقين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي يزينون في الجنة بأنواع الحلي والزينة، من الذهب، واللؤلؤ، والحرير.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو ما أهَمَّهم من خوف سوء العاقبة، أو من حزن الموت، وأهوال يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من إنعامه إذ لا واجب عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كلال وملل، إذ لا تكليف فيها، والفرق بينهما أن النَّصَب نفسُ المشقة والكُلْفة، واللغوبُ: ما يحدث منه من الفتور والكلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد في المسند، وانظر الأحاديث الواردة في تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فَيَمُوتُوا ﴾ ويستريحوا ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر والإجرام، حتى يتمنون الموت ولا يُجابون كما قال تعالى: ﴿ونَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[1].

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ والاصطراخ من الصراخ، وهو صياح المعذب بجهد ومشقة، استعمل في الاستغاثة، لجهر المستغيث بصوته ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمار القول، أي يقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً، يقولونه للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾؟ جواب من جهته تعالى، والهمزة للإنكار، أي ألم نمهلكم ونعمّركم عمراً طويلاً، يتذكر فيه من تذكّر قيل: هو أربعون سنة، وقيل ستون سنة، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله، حتى بلغ ستين

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٧.

سنة»[1] ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: الشيب والأول هو الأظهر ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنكم، وهو أمر إهانة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا تخفى عليه خافية فيهما ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان أعلم بغيرها، فلو قال قائل: الكافرُ ما كفر إلاَّ أياماً معدودة، فكان ينبغي أن لا يُعذَّب إلاَّ مثل ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كان يعلم أن في قلب الكافر تمكُّنَ الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد، لما أطاع الله وبقي على كفره، فلذلك يستمر عذابه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾ قاله تعالى تقريراً لقطع حجتهم، أي نبَّهكم بمن مضى، وأمركم على لسان الرسل بما أمركم به، وجعلكم خلائف تخلفون من سبقكم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وأباح لكم منافعها، لتشكروا الله بالتوحيد، والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بيان لوبال الكفر، وهو مقت الله تعالى إياهم أي بغضه الشديد لهم ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي خساراً في الآخرة، لأنه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٦٤١٩.

خسر سعادته، والتكرير لزيادة التقرير، فإنَّ العمر كرأس مال، من اشترى به رضاء الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، من غير أن يكون له أصل ما ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أيَّ جزء خلقوا من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي شركة مع الله تعالى، في خلق السماوات، ليستحقوا بذلك شركة الألوهية؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب، وفيه إيماء أن الشرك أمر خطير، لا بد في إثباته من تعاضد الدلائل ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمَّا نفى أنواع الحجج، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع، بأنهم شفعاء يشفعون لهم يوم القيامة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مسوق بيان غاية قبح الشرك، أي يمسكهما كراهة زوالهما، ويمنعهما أن تزولا، لأن الإمساك المنعُ ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة للكفرة

والعصاة، مع استحقاقهم للعقاب ﴿غَفُورًا﴾ يغفر لمن تاب وأناب منهم، ورجع إلى ربه بالصدق واليقين.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، أنه لو جاءهم رسول ليكونن أسبق الناس إلى الإيمان به، وذلك أنه بلغ قريشاً قبل مبعث الرسول ﷺ أن أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذَّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم، أي من أهل الكتاب الذين كذبوا رسلهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو أشرف الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ أي مجيئه ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ تباعداً عن الحق، لأنهم قبل الرسالة، كانوا كافرين بالله، وبعدها صاروا كافرين بالله والرسول، وكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لآمنا به، فلما جاءهم أفضل الرسل كذبوا برسالته.

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي للاستكبار في الأرض ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ وهو جميع ما كان يصدر منهم، من القصد إلى إيذائه، ومنع الناس من الدخول في الإيمان ﴿ وَلَا يَحِيقُ ﴾ أي لا يحيط ﴿ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم، وفي المثل: «من حَفَر لأخيه جُبّاً، وقع فيه منكبّاً» فإن قال قائل: كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل

على عدم ذلك، والجواب أن الأمور بعواقبها، فالممكور به في الحقيقة هو الفائز، والهالك هو الماكر، وذلك مثل راحة الكافر، ومشقة المسلم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يضع موضع العذاب الرأفةَ والرحمة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى العابدين المتقين، فالمعنى: إن سنة الله تعالى، هي الانتقام من مكذبي الرسل، لا يبدّلها في ذاته، ولا يحوّلها عن أوقاتها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى من أهل مكة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي ليسبقه ويفوته شيء ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في العلم والقدرة، يعلم أعمالهم فيعاقبهم بموجبها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي من نسمة تدب عليها، من بني آدم من شؤم معاصيهم ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عند ذلك

بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي قوله تعالى: ﴿ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ تسليةٌ للمؤمنين، يعني إذا جاء الهلاك، فالله بعباده بصير، لا يهلك جميع الخلق، بل يعلم من يستحق العقوبة والجزاء، ومن يستحق الكرامة والنجاة، والله أعلم بمراده، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

* * *

سُورَةُ يسٓ

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

﴿يسٓ﴾ اسم للسورة، وعن ابن عباس أن معناه يا إنسانُ[1]، قالوا المراد به رسول الله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي المتضمن للحكمة، والمحكم الذي أُحكم في نظمه ومعانيه، لأنه كلام الحكيم جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة للرد على قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ وهذه الشهادة من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2].

---

(١) قدمنا في أول سورة البقرة، أن الحروف المقطعة إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن.
(٢) سورة الرعد، آية: ٤٣.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عبارة عن الشريعة بكمالها، أي أنت يا محمد على شريعة واضحة، ودين قويم، هداك ربك إليه، فاثبت على هذا الدين.

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول، أي منزَّل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه، فهو منزَّل من عند الله، لا كما زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي لم ينذر آباؤهم الأقربون، لتطاول مدة الفترة ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرشد.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي والله لقد ثبت وتحقَّق عليهم، لكن لا بطريق الجبر، بل بسبب إصرارهم على الكفر، والمراد بالقول قوله تعالى لإبليس ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يطأطئون رؤوسهم له، لأن المغلول تكون يداه مجموعة في الغل إلى عنقه ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون

رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تتمة للتمثيل، أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، بحيث لا يبصرون شيئاً، فالآية إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يتساوى عندهم إنذارك لهم أو عدمه، لأن قلوبهم ميّتة، فلا يؤثِّر فيها تذكير ولا تخويف.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه، ولم يصر على اتباع الشيطان ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خاف في سريرته ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهار، كما أنه رحيم غفار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[1] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لا يُقادر قدرُه.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٤٩ ـ ٥٠.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي نبعثهم بعد مماتهم، وعن الحسن: إحياؤهم: إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، فهو حينئذٍ عِدَةٌ كريمة بتحقق المبشَّر به ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ التي أبقوها من الحسنات، كعلم علّموه، أو كتاب ألفوه، أو بناء بنوه كالمسجد، والرباطات، والقناطر، وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات، كتأسيس قوانين الظلم، وترتيب مبادىء الشر، والفساد بين العباد، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] وقيل: هي آثار خُطى المشّائين إلى المساجد، ولعل أنها من جملة الآثار ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ أي بيِّنْ لأهل مكة ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أي اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو والكفر، أي طبّق حالهم بحالهم

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ في قصة الضعفاء العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ يلبسون أكسية من الصوف البالية، ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى تقديم العون لهم، فتسارعوا في عمل الخير فقال ﷺ «من سنَّ في الإسلام..» الحديث.

والقرية أنطاكية على المشهور ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ نسبة إرسالهم إليه تعالى، بناءً على أنه كان بأمره تعالى، وهما يوحنا وبولس، وقيل غيرهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قوينا، يقال عزَّز المطر الأرض إذا لبَّدها ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، وذلك أن أهل أنطاكية كانوا عبدة أصنام فأرسل عيسى عليه السلام اثنين من الحواريين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجار، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا نشفي المريض!! وكان له ولد مريض فمسحاه، فبرىء فآمن حبيب، وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى المَلِك، فقال لهما: ألكما آلهة سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك؟ فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام «شمعون» فدخل متنكراً، وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به، وأوصلوه إلى الملك، فآنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبستَ رجلين، قال: فهل سمعتَ ما يقولانه؟ قال لا، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما قالا: الله الذي خلق كل شيء، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام أكمه - أي أعمى - فدعوا الله فأبصر الغلام، فقال له شمعون: أرأيت لو سألتَ إلّهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله شرف؟ فقال الملك: إنَّ إلّهنا لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فدعاه إلى الإيمان، لكنه لم يؤمن، واستمر على تعذيب المؤمنين هو وزبانيته فصاح عليهم جبريل فهلكوا.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي أهل أنطاكية مخاطبين للثلاثة ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، جعلوا كونهم بشراً دليلاً على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ مما تدعونه من الوحي والرسالة ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعوى رسالته، وفيما تزعمونه.

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مجرى القسم، وفيه إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب، لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك.

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ما علينا إلا تبليغ رسالة الله، وخرجنا عن عهدته، فلا مؤاخذة علينا بعد ذلك، وهذه تسلية لأنفسهم، وحث لهم على النظر والاستدلال.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بكم، جرياً على ديدن الجهالة، حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلباً لكل شر، ويتشاءمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة

الدارين، وقد روي أنه حُبس عنهم القطر، فقالوا: أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لنقتلنكم رمياً بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع أليم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الرسل ﴿طَائِرُكُم﴾ سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قبلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقبحُ أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي وعظتم بما فيه سعادتكم، وجواب الشرط محذوف أي أإن ذكرتم تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والتعذيب ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في الكفر والعصيان، ولذلك توعدتم، وتشاءمتم بمن يجب إكرامه.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)﴾.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو «حبيب النجار» وكان في غار يعبد الله، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، فلمَّا بلغه أن قومه كذبوا الرسل، وقصدوا قتلهم جاءهم مسرعاً وقال أتسألون عمَّا جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ تعرضَ لعنوان الرسالة حثاً على اتباعهم، كما أن خطابهم «بيا قوم» لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصحه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١)﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة، وصَفَهم بما يرغِّبهم

في اتباعهم، من التنزه عن الغرض الدنيوي ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ تلطُّف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإخلاص النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم، إلى عبادة غيره، كما ينبىء عنه قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى النصح والتذكير فقال:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟ إنكار ونفيٌ لاتخاذ الآلهة، على الإطلاق وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإلّه، وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى نفي غيره، فتحقق معنى لا إله إلا الله ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنفعني شفاعتهم شيئاً من النفع ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالمظاهرة والنصرة.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر، بالخالق المقتدر، الذي لا قادر غيرُه، ضلالٌ بيّنٌ لا يخفى.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خطاب منه للرسل، بطريق التلوين، وإنما أكَّده لإظهار صدوره عنه، بكمال الرغبة، والنشاط، كأنه قال: ربكم الذي أرسلكم آمنت به ﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله تعالى، وقيل: الخطاب للكفرة، شافههم بذلك، إظهاراً للتصلب بالدين، وعدم المبالاة بالقتل أي آمنت بربكم أيها السامعون فأنا لا أخافكم ولا أخشاكم.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه، إكراماً له بدخولها حينئذ، كسائر الشهداء، وقال الحسن: لمَّا همُّوا بقتله رفعه الله إلى الجنةِ، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ ما أكرمني الله به من النعيم الخالد، في جنة الفردوس الأعلى.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧) ﴾.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سَنَن الأولياء، في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته.

ثم إنه تعالى لما بيَّن حاله، بيَّن حال المخالفين له، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي من بعد قتله، أو رفعه ﴿ مِن جُندٖ

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم بل اكتفينا أمرهم بصيحة مَلَك، وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما صح في حكمتنا أن نُنزل جنداً لإهلاك قوم حبيب، لأنهم أذل وأهون من أن يرسل الله الملائكة لإهلاكهم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ أي ميتون هالكون، وفيه إشارة إلى سرعة الهلاك، أي ميتون خامدون كما تخمد النار، شُبِّهوا بالنار الخامدة، لأن الحيَّ كالنار الساطعة، والميت كالرماد الذي انطفأت ناره فأصبح خامداً، قال لبيد:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهابِ وضَوئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بعد إذْ هو سَاطِعُ

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله، وهذا نداء عليهم كأنما قيل لها: تعالَيْ يا حسرة، فهذه من الأحوال التي حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين، أحقاء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون، وذلك لأن من جاءه مَلِكٌ في بادية، وعرَّفه نفسه، وطلب منه أمراً هيناً فكذَّبه، ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم أُتي به بين يديه، وهو على سرير ملكه، فعرَّفه أنه ذلك الملك، فكيف تكون ندامته؟ فكذلك الرسل، هم ملوكٌ وأعظم منهم، بإعزاز الله تعالى إياهم، جاؤوا وعرفوا أنفسهم، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً، نفعُه عائد إليهم، ثم يوم القيامة عند ظهور البأس، تظهر عظمتهم، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لا وهم لم يقنعوا بالإعراض، حتى آذوا واستهزؤوا واستهانوا!!.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ألم يعلموا ويُخبروا، والخطاب لأهل مكة الذين كذبوا سيد الرسل ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن قبلهم، من المذكورين المكذبين لرسلهم ومن غيرهم من الضالين ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي كونهم غير راجعين إليهم بعد الهلاك، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا، فكذلك هؤلاء يهلكون وينقرضون ثم لا يعودون إلى الدنيا، ألا يتنبهون ويتعظون!!.

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾.

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي محضرون يوم القيامة للعقاب والجزاء، و«لما» بمعنى «إلاّ» والمعنى: ما كلكم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء، فالكل يفيد معنى الإحاطة، والجميع معنى الاجتماع، ولما بيَّن الله الإهلاك، بيَّن أنه ليس من أهلكه الله تَرَكه، بل بعده جمعٌ وحساب، ونعم ما قيل:

وَلَـو أَنَّـا إذا مِتْنَـا تُـركْنَـا ... لَكَـان المَـوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيِّ
وَلَكِنَّـا إِذَا مِتْنَـا بُعِثْنـا ... وَنُسـأَلُ بعـدَهُ عَـنْ كـلِّ شَـيِّ

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) ﴾.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ للكفرة ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أي اليابسة، وهي أدلة تدل على كمال قدرته تعالى على إحياء الموتى ﴿ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ بالمطر ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ جنس الحبوب، يعني الحنطة، والشعير، والعدس، وما أشبههما ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وتقديم الصلة للدلالة، على أن الحب معظم ما يُؤكل ويُعاش به، وإذا قلَّ جاء القحط.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أي وأخرجنا فيها ينابيع من الماء العذب، والتفجير كالتفتيق، شقُّ الشيء شقاً واسعاً ﴿ مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أي بعضاً من العيون.

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات التي فيها من أنواع الحبوب والفواكه ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي وليأكلوا من الذي عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير، والدبس ونحوهما ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾؟ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، والفاء للعطف على مقدَّر، أي أيتنعمون بها ولا يشكرونها؟.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى ﴾ تنزيه لله جلَّ وعلا، أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان، والأشكال، والطعوم، وفي لفظ «سبحان» استعظام لما ذكر، من بدائع آثار قدرته، وتشنيع على المشركين حيث تركوا شكر المنعم، ولم يقنعوا بالترك، بل عبدوا غيره، وأتوا بالشرك فقال: سبحان الذي ﴿ خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي الأصناف والأنواع[1] ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ المراد به كل ما ينبت فيها، من

---

(١) لقد جاء القرآن بالمعجزة الكونية الباهرة، وكشف لنا الستار عن أمرٍ لم يكن يعرفه =

الأشياء المذكورة وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله تعالى بعد عليه، لعدم قدرتهم على الإحاطة به، ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية، وفي الآية معنى لطيفٌ، وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً، لينزِّه الله تعالى عن الشريك، فإنَّ المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، فعلى هذا فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، فإنكم تعلمون أنه مخلوق، ومما لا تعلمون فإنها عنده تعالى مخلوق أيضاً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ تدل على قدرتنا ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نزيله عن مكانه ونكشفه، مستعار من سلخ الجلد، وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب من الشاة، ولما استدل الله بأحوال الأرض، استدل في هذه الآية بالليل والنهار، وفي الليل سكون الناس، وهدوء الأصوات، وفيه النوم كالموت، ويكون بعده طلوع الشمس، كالنفخ في الصور، فيتحرك الناس كما قال تعالى في الأرض: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين

= البشر إلا حديثاً، وهي أن الزوجية منبثة في كل ذرات الكون، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والذرة، والكهرباء، وغير ذلك، وليست قاصرة على الإنسان والحيوان كما هو المعروف، فقد ثبت أن بين النبات أعضاء مذكَّرة، وأعضاء مؤنثة، وأن الذرة مؤلفة من زوجين من الإشعاع الكهربائي، وكذلك الكهرباء فيه الموجب والسالب، وهذا لم يُعرف إلاَّ حديثاً في عصر النهضة العلمية، وقد سبق القرآن إلى هذا حين قال: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ وهو لفظ يفيد العموم، وهنا قال: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فسبحان من أنزل كتابه المعجز، السابق للإكتشافات الكونية، على النبي الأمي، المؤيد بالحجج القاطعات، والمعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

أشبههما بالموت، وهما: الأرض الميتة، والليل المظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة، وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام، والنورُ عارض.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليها دورها وجريانها، وهو يوم القيامة، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الجري البديع، المنطوي على الحِكَم الرائعة، التي تحار في فهمها العقولُ والأفهام ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ أي المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل ليلة في واحدٍ منها، لا يتخطاها ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازله وهي الثامنة والعشرين، يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمراخ المعوج، من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة، والقديم الذي أتى عليه الحول، فإذا قدم يبس، وتقوّس، واصفرّ، فشبّه القمر به في ذبوله، ونحوله، واصفراره.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا﴾ لا يصحُّ لها ولا يتسهل ﴿أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإن ذلك يخلُّ بتكون النباتات، وعيش الحيوانات، ولا في

المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه، فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي ﴿لا الشَّمْسُ﴾ للدلالة على أنها مسخرة، لا يتيسر لها إلا ما قُدِّر لها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر يسيران بانبساط وسهولة، وفق نظامٍ دقيق، وضعه العليم الحكيم.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (٤١)﴾ .

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم وتخصيصهم بالذكر، لما أن استقرارهم في السفن أشق، ولأن منافع ذراريهم نفعٌ لهم، مثالُه من أحسن إلى ولدِ إنسان وفرَّحه، فرح بفرحه أبوه، وقيل المراد سفينة نوح عليه السلام، وحمل الله ذرياتهم فيها إنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم ذرياتهم، وهو أدخل في الامتنان وأدخل في التعجيب، أما إن قلنا: إن المراد جنس الفلك، فهو أظهر، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم، ولم يعلموا من حُمل فيها، وأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾[1] ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي المملوء والشحنُ يدل على كمال المنفعة، وعلى عظم القدرة والإرادة، لأن الفلك المشحون أثقل الثقال، ليس حفظه فوق الماء إلا إرادة الله تعالى.

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ (٤٢)﴾ .

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البرّ، ومما يماثل الفلك من السفن والزوارق، وجعلها أي السفن مخلوقة لله تعالى، مع كونها من مصنوعات البشر، لأن الله علَّم الإنسان

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

صنعها، وأصلها بقدرته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[1].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي لو أردنا لأغرقناهم في البحر، فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2] الآية. وفي الآية إشعارٌ بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم يحرسهم وينجيهم من الغرق، أو يدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي ينجون بعد وقوعه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي لا يُغاثون ولا يُنقذون لشيء من الأشياء، إلاَّ لرحمة عظيمة من قبلنا، داعيةٍ إلى الإغاثة والانقياد ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وتمتيعاً لهم إلى زمان انتهاء آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي وإذا قيل لهم بطريق الإنذار ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي احذروا سخط الله وعذابه، واعتبروا بما حلَّ بالمكذبين من الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذاب المعدِّ في الآخرة!! وجواب «إذا» محذوف تقديره: وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دلَّ عليه قوله

---

(١) سورة هود، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ٣٢.

تعالى بعده: ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ ومن أُخبر بعذاب وإن لم يقطع بصدق المخبر، يتقيه احتياطاً، ومن لم يتق ذلك فهو في غاية الجهل، ونهاية الغفلة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا، فتنجوا بذلك من عذاب الله الشديد.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي و«مِنْ» الأولى مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية تبعيضية، وإضافة الآيات إلى اسم الرب، لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها، والمراد بالآيات، الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات، وغيرها، فالمعنى: ما تظهر آية من الآيات، الشاهدة بوحدانيته تعالى، إلاَّ كانوا عنها معرضين، ومن كذَّب بالبعض هان عليه تكذيب الكل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعض ما أعطاكم الله من فضله على المحتاجين، فإن ذلك يرد البلاء، ويدفع المكاره، عبر عنها بذلك ترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1] فيه إشارة إلى أن البخل قبيح، وأبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالصانع عزَّ وجل، وهم الطغاة الزنادقة، كانوا بمكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿أَنُطْعِمُ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي على

---

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.

زعمكم، إيهاماً بأن الله لما كان قادراً أن يطعمهم، ولم يطعمهم، فنحن أحقُّ بذلك، ولم يقولوا «أننفق» بل قالوا ﴿أنطعم﴾؟ للمبالغة في المنع، كما يقول القائل لغيره: أعطِ زيداً ديناراً فيقول: لا أعطيه درهماً فضلاً عن الدينار، فكذلك ههنا، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله، وأن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي متى إنجازه فيما تعدوننا به، من قيام الساعة، مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هي النفخة الأولى في الصور ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ أي تعمُّهم بالأخذ، تصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها مفاجأة ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يخطر ببالهم شيء من أمرها، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً﴾ فلا يغتروا بعد ظهور علاماتها، ولا يزعموا أنها لا تأتيهم.

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ في شيء من أمورهم، إن كانوا بين أهليهم ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إن كانوا خارج بيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولتقومنَّ الساعةُ، وقد نَشَرَ الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه،

ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يَطْعَمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[1].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[2] أي ينفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وبين الأولى والثانية أربعون سنة، لما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون.. الحديث قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة؟ قال: أبيتُ»[3] ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور جمع جدث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالك أمرهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون الخُطى بطريق الإجبار، دون الاختيار.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾.

﴿قَالُوا﴾ في ابتداء بعثهم من القبور ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ احضر فهذا أوانك ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي مضجعنا وفيه رمزٌ وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم، يظنون أنهم كانوا نياماً، وعن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا وشاهدوا من أهوال القيامة ما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن وأشراط الساعة، ١٣/ ٨٢ ومسلم رقم ٢٩٢٢ في الفتن أيضاً، ومعنى اللَّقحة بفتح اللام: الناقة القريبة العهد من النتاج، ويُليط بمعنى يصلحه ويدهنه بالطين.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٥٥١ في تفسير سورة الزمر، ومسلم ٢٩٥٥ في الفتن.

شاهدوا دعوا بالويل والثبور ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هو جواب من قبل الملائكة تذكيراً لكفرهم، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، دون الباعث أي قالوا: بَعَثَكم الرحمن الذي وعدكم في كتبه، وأرسل إليكم الرسل يخبرونكم عنه، ولكنكم كذبتم به وكفرتم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت النفخة التي حكيت آنفاً ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي جميع الخلائق ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من غير إمهالٍ طرفةَ عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، بَرَّة أو فاجرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الظلم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهذه حكاية لما سيقال لهم، حين يرون العذاب، تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي متنعمون بنعيم دائم خالد من الفكاهة بمعنى النعيم، وهم مشغولون عن أهوال القيامة، باللذة والسرور، لا بالويل والثبور، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداهم بالكلية، لا يفكرون في أهل النار، لئلا يتنغص

نعيمهم، قال ابن عباس: «شغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار، عن أهليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغّصوا»[1].

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، متكئون على السرر المزينة بالستائر الحريرية وهو بيانٌ لكيفية شغلهم وتفكههم، وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الظل والأرائك.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ ﴾ أي لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون، من أسباب البهجة والسرور، وقال الزجاج: هو من الدعاء أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ أي ولهم سلام يقال ﴿ قَوْلًا ﴾ أي قولاً كائناً ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي يُسلم عليهم من جهته تعالى، وهو أكمل الأشياء، لا شيء فوقه، وذلك مطلوبهم ومتمناهم.

﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي تميّزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٤٢.

المجرمين عن عبادي المؤمنين، امتازوا عنهم أيها المجرمون إلى مصيركم المشؤوم، قال الضحاك: «لكل كافرٍ بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يَرَى ولا يُرَىٰ» وهذا على خلاف ما للمؤمنين، من الاجتماع بالإخوان، ولا عذاب فوق الفراق، وقيل: يُميَّزون بسيماهم، كما في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمون بِسيمَاهُمْ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ هذا من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع، والعهدُ: الوصيةُ بأمر فيه خير ومنفعة، والمراد هنا ما كلفهم الله تعالى به على ألسنة الرسل عليهم السلام، من الأوامر والنواهي، والمراد بعبادة الشيطان: طاعتُه فيما يوسوس به، عبَّر عنها بالعبادة للتحذير ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة، تعليل للمنع عن عبادته.

﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ﴾ أي اعبدوني وحدي، ولا تشركوا بعبادتي أحداً، وتقديم النهي على الأمر لما أن حقَّ التخلية التقديم على التحلية، كما أن الطبيب يقول للمريض: لا تأكل من ذا، ثم يقول له: تناول الدواء الفلاني ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ وقوله: ﴿لأقعدنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيم﴾ والتنكير للتفخيم.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ الجِبِلُّ: الخلقُ الكثير، والمعنى: وبالله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، عن ذلك الصراط المستقيم، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبة ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون؟.

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يخاطبون به عند إشرافهم على شفير جهنم، أي كنتم توعدونها على ألسنة الرسل، بمقابلة إطاعة الشيطان الذي أغواكم.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيم﴾ أي ادخلوها وقاسوا فنون عذابها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بكفركم المستمر في الدنيا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ختماً يمنعها عن الكلام، وذلك أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تكفرون﴾ ينكرون كفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين﴾ فيختم الله على أفواههم، فلا يقدرون على الإنكار ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بإنطاقها كما ينطق من كان في المهد، لأن ذلك في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضوٌ متحرّك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها، لأن الله تعالى قادرٌ على

الممكنات، وقد جعل الله الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، لأن الأفعال تستند إلى الأيدي قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كالعاملة، والشاهد ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود على الإنسان، واللسان هو الناطق وقال تعالى: ﴿نَخْتِمُ﴾ ولم يقل: نُنْطِق أيديهم، لئلا يكون النطقُ بالإجبار، وقال: ﴿وتُكَلِّمُنَا﴾ أي باختيارها بعدما يقدِّرها الله تعالى على الكلام، روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند الرسول ﷺ، فضحك فقال: هل تدرون ممَّا أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم!! قال: من مخاطبة العبدِ ربَّه، فيقول: يا ربِّ ألم تُجِرني من الظلم؟ قال يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلاَّ شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كنت أناضل»[1] قوله لا أجيز أي لا أقبل شاهداً سوى نفسي.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يبصرونه فكيف إذا لم يكونوا على الصراط.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وانظر جامع الأصول.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم، أي لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم، لا يقدرون أن يبرحوه، بإقبال ولا إدبار، ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً، فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة، وقدَّم الطمس على المسخ، ليكون الكلام بالتدريج، كأنه قال قائل: الأعمى قد يهتدي إلى الطريق، بأمارات عقلية أو حسية، فارتقى وقال: ﴿وَلَو نَشَاءُ لَمَسَخْنَٰهُم عَلَىٰ مَكَانَتِهِم﴾ وليس الغرض مجرد بيان قدرته تعالى، على ما ذُكر من الطمس والمسخ، بل لبيان أنهم أحقاء بأن يُفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، وأن المانع من ذلك ليس إلاَّ عدم تعلق المشيئة الإلٓهية به، كأنه قيل: لو نشاء عقوبتهم بما ذُكر لفعلناها، ولكنّا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره ﴿ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ التنكيسُ: جعل الشيء أعلاه أسفله، أي نقلبه فيه، ونخلقه على عكس حالته، فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوتُه، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهةٍ بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقِلة العقل ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفيرون ذلك، فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس الإنسان، وإعادته إلى حالة الطفولة، يقدر على ما ذُكر من الطمس والمسخ، وإن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ رد لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقالٌ مزخرف مصنوع،

منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل، المنزَّه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحِكَم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبهت عليهم الشؤون، واختلطت بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتَّىٰ له لو طلبه، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، وأما قوله ﷺ: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ: أنا ابنُ عبدِ المُطّلِبْ» وقوله: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وفي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ» فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد، كما يتفق في كثير في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة، ولا يسميها أحد شعراً، لأن صاحبه لم يقصد الوزن ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى، وإرشاد للثقلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي كتاب سماوي، بيِّنٌ كونه كذلك، فارق بين الحق والباطل، يُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوزُ الدارين[1].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الرسول بهذا القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي من كان مؤمناً عاقلاً متأملاً في خلق الله، فإن الكافر الغافل بمنزلة الميت، فإن الحياة الأبدية بالإيمان ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى

---

(١) كم بين القرآن وبين الشعر من فارق؟ فالشعر أعذبه أكذبُه، وهو قرآن إبليس وكلامُه كما يقولون، وقد كان ﷺ يحب من الشعر ما كان مشتملاً على حكمة، أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، أو نصرة الإسلام والدين، أو ثناء على الله ونصيحة للمسلمين، وكان أبغض الحديث إليه الشعر، أي ما كان فيه كذب وهجوٌ وقبح، وأمَّا ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام كان يضع لحسان في المسجد منبراً فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسولَ الله والمؤمنين، فذلك من قبيل المجاهدة لأعداء الله، لأنه كان أشدَّ عليهم من وقع النبل.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي المصرين على الكفر والعناد، وجعلُهم في مقابلة من كان حياً إشعارٌ بأنهم ـ لكفرهم وعدم تأملهم ـ أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغةً في التفرد في الإحداث والخلق ﴿أَنۡعَٰمٗا﴾ الأنعامُ: هي الإبل، والبقرُ، والغنم، وهي الحيوانات المأكولة، وخصَّها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة، وكثرة المنافع، ولأنها أكثر أموال العرب ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم، حيث خلقناها لمنافعهم ومصالحهم.

﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾.

﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ أي صيرناها منقادة لهم، بحيث لا تستعصي عليهم، في شيء مما يريدون بها، حتى الذبح ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ أي فبعضٌ منها مركوبُهم وعليها تحمل أثقالهم ﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أخر غير الركوب، والأكل، كالجلود، والأصواف، والأوبار، والحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾ من اللَّبَن ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾؟ أي أيتمتعون بها، فلا يشكرون المنعم بها عليهم؟.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، الذي شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة، وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة ﴿ ءَالِهَةً ﴾ من الأصنام، أشار تعالى إلى زيادة ضلالهم، وكان الواجب عليهم عبادة الله، وشكر النعمة، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة؟ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاءَ أن ينصروا من جهتهم، فيما حلَّ بهم من مصائب.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ يشيعونهم عند مساقهم إلى النار كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[1] وهؤلاء المشركون كالجند والخدام للأصنام، يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، وسخريتهم بك، واتهامهم لك بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للرسول ﷺ يسلّيه بها ربه، تخفيفاً عن الآلام والأحزان التي كان يكابدها ﷺ من المشركين والمراد بـ ﴿قَولُهُم﴾ الإلحاد في الدين، أوفيك بالتكذيب ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ في ضمائرهم من المكر، والخيانة،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٨.

والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الأذى، أي نجازيهم بجميع جناياتهم، الخافية والبادية، التي لا يعزُب عن علمنا شيء منها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾؟ أي ألم يتفكر الإنسان، ولم يعلم علماً يقينيّاً، أنا خلقناه من نطفة قذرة، خسيسة خارجة من قناة النجاسة، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة، كأن يقال: العظمُ خُلق من جنس صلب، واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، لَمَا كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء، وهو مختلف الصور؟ فدلَّ هذا على الاختيار والقدرة، وإذا قال الجاهل إنه استحال وتكوَّن جسماً آخر، لكنْ من أين جاءت القوة الناطقة «اللسان» والقوة الفاهمة «العقل»؟ ومن أين تقتضيهما النطفة القذرة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي بيِّنُ الخصومة، أي فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربه، وينكر قدرته على إحياء الميت، بعدما رُمَّت عظامه؟ روي أن «أُبيَّ بنَ خَلَف» أتى النبي ﷺ بعظم بالٍ يفتته بيده، وقال أترى يا محمد الله يحيي هذا بعد ما رُمَّ؟ فقال ﷺ له: نعم ويبعثك ويدخلك النار. وهذا وإن كان سبب النزول، لكنَّ الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فكل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ هو بعدما كان ماءً مهيناً، رجلٌ مميز، ناطقٌ عاقل، قادرٌ على الخِصام، فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلقناهُ﴾ ويكون من تتمات شواهد صحة البعث[1].

---

(١) القول الأول أظهر، بدليل قوله تعالى بعده ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ﴾ فإنه دليل المكابرة والخصومة، والمجادلة بالباطل.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ أي أورد في شأننا قصة عجيبة، هي في الغرابة والبعد عن العقول، كالمثل، وهي إحياؤنا العظام، استبعدها وعدَّها من قبيل المثل، وأنكرها أيَّما إنكار، وقاس قدرتنا على قدرته ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ ﴾؟ أي قال منكراً له أشد الإنكار، مؤكداً له بقوله ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾؟ أي بالية أشدَّ البلاء، بعيدة من الحياة!! والمنكرون للحشر، لم يذكروا فيه دليلاً ولا شبهة، واكتفوا بالاستبعاد، وقالوا: ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ إلى غير ذلك، فكذلك ههنا قالوا: ﴿مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فبدأ الله الردَّ على استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد، فهلاَّ يستبعدون خلق الإنسان الناطق العاقل، من نطفة قذرة، لم تكن محل الحياة أصلاً؟ ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محلٍ كانا فيه؟.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي قل يا محمد لهذا الكافر الفاجر، توبيخاً له وتسكيتاً: يخلقها ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، وأبدع خلقها من غير شيء، يعني: كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً. وأما استبعادهم لمن تفرقت أجزاؤه، في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، كيف يجمع؟ فقال تعالى في الرد على هذا الاستبعاد: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه مبالغ في العلم، بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد، إنشاءً وإعادة، محيطٌ بجميع الأجزاء المتفتة المتبددة، لكل شخصٍ من الأشخاص، أصولها وفروعها، وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال

والانفصال، والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل. ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدَّم من دفع استبعادهم فقال:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ أي الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر ناراً، وهو المرخُ والعُفار، يقطع الرجلُ منهما غصنين، مثل السواكين، وهما خضروان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فتنقدح النار بإذن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية المضادة لها، كان أقدر على إعادة الغضاضة، إلى ما كان غضاً فطراً عليه اليبوسة والبلاء، فالنار في الشجر تناسب الحياة في البشر، فبان لطف قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ثم قال تعالى:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي أليس الذي أنشأها أول مرة؟ وأليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ فإن بديهة العقل، قاضيةٌ بأن من قدر على خلقهما، فهو على خَلق الناس أقدر، كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[1] ﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب من الله تعالى،

---

(١) سورة غافر، آية: ٥٧.

وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغُ في الخلق والعلم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الله إلى أكثر من أن يقول للشيء كن فيكون، وهذا إظهار لفساد تمثيلهم، حيث ضربوا لله مثلاً، وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا، فقاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، عجباً يضربون لله المثل الأدنى وله المثل الأعلى!!.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما وصفوه، وتعجيبٌ مما قالوا في شأنه تعالى معللاً بكونه مالكاً للملك كله، والمَلكوتُ: مبالغةٌ في الملك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى. وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا على موتاكم يسٓ»[1] ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يسٓ»

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وهي مائة وثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ .

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه الأوصاف الثلاثة، صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الملائكة الأبرار الأطهار، وصفوا بالصافات لأنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ وكما قال ﷺ في حديث جابر بن سمرة «ألاَ تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف»[1] وأما وصفهم بالزاجرات فإنهم يزجرون السحاب، أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم، أو عن استرقاق السمع، وأما وصفهم بالتاليات فالمراد به التلاوة على الأنبياء وغيرها من التسبيح، والتحميد، والتقديس. أقسم تعالى بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، التاليات لآيات الله، على أن الله واحد لا شريك له، وفي الحلف بالشيء تعظيم للمحلوف به،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وانظر جامع الأصول ٥/ ٦١٥.

والحكمة في القسم بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها، فإن قيل: الحلف إن كان لإثبات المطلوب عند المؤمن، فهو مقرٌّ به، وعند الكافر لا يقرُّ به، فهذا الحلف عديم الفائدة؟ فالجواب: أنه تعالى قرَّر التوحيد، وصحة البعث بالدلائل اليقينية، فذَكَر القَسَم تأكيداً لما تقدم، لا سيما أنَّ إثبات القضية بالحلف، طريقة مألوفة عند العرب، ولما أقسم على التوحيد، ذكر عقيبه ما هو الدليل وهو قوله: ﴿رب السماوات﴾ الآية كبرهان على قدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ جواب للقسم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾.

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ هو البرهان الناطق، فإن وجودها وانتظامها، على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، ووحدته، والمراد بالمشارق مشارق الشمس في السنة، وهي ثلاث مائة وستون، تشرق كل يوم في واحد، وبحسبها تختلف المغارب، ولذا اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد بهما مشرقا الصيف والشتاء، ومغرباهما.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي القريبة منكم ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ فإن الكواكب بأنفسها، وأوضاع بعضها من بعض زينة، والإنسان إذا نظر في الليلة

المظلمة إلى السماء، ورأى هذه الكواكب، مشرقة متلألئة على سطح أزرق، أبصر غاية الجمال والزينة.

﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب، زينةً للسماء، وحفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي خارج عن الطاعة متمرِّد على ربه، وهو أخبثُ الجنِّ وأشرسُه، لأن الجن فيهم المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، والمارد أخبث أقسام الجن.

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾.

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصل «يسَّمَّعون» يتسمعون، فأدغمت التاء في السين وشدّدت، والتسمع ضُمّن معنى الإصغاء، يقال سمعتُ حديثه، وإلى حديثه، المعدّىٰ بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، والملأ الأعلى الملائكة، لأنهم يسكنون السماوات، والإنسُ والجنُّ هم الملأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض، أي لا يطلبون السماع والإصغاء إليهم ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ ﴾.

﴿دُحُورًا﴾ أي للدحور، وهو الطرد عن السماع مع الإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي عذاب شديد دائم، وهو عذاب الآخرة، ففي الدنيا الرجمُ، وفي الآخرة السعير.

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ الخطف : الاختلاس، والمراد اختلاس كلام

الملائكة مسارقة، يعني أخذ شيء من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ أي تبعه ولحقه، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجوَّ بضوئه، ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصِّرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سل أهل مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى خلقة أو أصعب خلقاً وأشقه؟ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾؟ من الملائكة والسماء والأرض؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ لاصق، لزج، وهذه شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين، غير موصوف بالصلابة والقوة، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه، لاعترافهم بقصة آدم عليه السلام، وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، وهما باقيان، وقدرة الفاعل ذاتية، لا تتغير، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم البعث، وقيل: عَجَبُ النبي ﷺ أنه كان يظنُّ أن كلَّ من يسمع القرآن، يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه، عجب من ذلك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾من تعجبك وتقريرك للبعث والنشور.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ أي دأبهم المستمر أنهم إذا وُعِظُوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتَّعظون، لغاية بلادتهم، وقصور فكرهم، والقومُ كانوا

يستبعدون الحشر، إلى حيث كانوا يسخرون ممن يصدّق به، فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين: أحدهما أن يُذكر الدليل الدال على صحة الحشر، فذُكِر الدليلُ، ولكنهم لشدة بلادتهم وجهلهم، لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان، والوجه الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ رسالته بالمعجزات، لأولئك المنكرين، ولم ينتفعوا بهذا الطريق أيضاً، ولهذا عقَّبه بقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها، لأنهم أَلِفُوا السخرية والتكذيب.

﴿ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا الذي نراه من الآيات الباهرة ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر سحريته، واضح أنه عمل ساحر، لا يخفى على أحدٍ أمره.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ أي كان بعض أعضائنا تراباً، وبعضها عظاماً نخرة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعث بعد موتنا وفنائنا؟ وتكرير الهمزة والتصدير بإن واللام، لتأكيد الإنكار.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي أيبعث أيضاً آباؤنا الأولون؟ أي الأقدمون، فمرادهم زيادة الاستبعاد، بناءً على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ نَعَمْ ﴾ ستبعثون ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون وإنما اكتفى به في الجواب، لقيام المعجزات على صدق المخبِر عن وقوعه، فكان قوله: ﴿ نَعَمْ ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ ﴾.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي تستصعبون البعثة، وما هي إلا صيحة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة، لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أي يبصرون كما كانوا قبل الموت.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ ﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المبعوثون ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ أي يا هلاكنا أُحضُر فهذا أوان حضورك ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي اليوم الذي نُجازى فيه بأعمالنا.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ﴾.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ هو كلام الملائكة جواباً لهم، بطريق التوبيخ، أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تسخرون منه وتكذبون به.

﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ ﴾.

﴿ ۞ احْشُرُوا ﴾ اجمعوا ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا بالله، وهو خطاب من

الله تعالى للملائكة ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم، كعابد الصنم مع عبدته، وأهل الخمر مع أهل الخمر، والزاني مع الزناة﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوها، زيادةً في تحسيرهم، وتخجيلهم، وفيه دليل على أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم المشركون ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي عرفوهم طريق جهنم، ووجِّهوهم إليها، وفيه تهكم بهم، لأن الهداية تكون إلى السعادة والنعيم، لا إلى دركات الجحيم!!.

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف، عند صراط الجحيم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ أي سَيُسْأَلون عن جرائمهم والوقوف ليس لعفوٍ عنهم، ولا ليستريحوا، بل ليسألوا عما ينطق به قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي يقال لهم بطريق التوبيخ: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً، كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ وهو وقت إنجاز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصرة.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون، خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، سؤال توبيخ بطريق الخصومة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه بالقوة والإجبار، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الهدى، كأنكم تنفعوننا، فتبعناكم.

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الرؤساء أوالقرناء ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم نمنعكم عن الإيمان، بل لم تؤمنوا باختياركم مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ من قوة وتسلط عليكم، نسلبكم به اختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي مختارين للطغيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي ثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) سورة ص، آية: ٨٥.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي فدعوناكم إلى الغيِّ، فاستجبتم لنا باختياركم ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتاب علينا في تعرضنا لإغوائكم.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية والضلالة، الجميع في نار جهنم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، وهذا يدل على أن لفظ «المجرم» المطلق، مختص في القرآن الكريم بالكافر، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بالدعوة والتلقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول، وعن قول «لا إله إلا الله» ويعظم عليهم أن يتركوا الأصنام والأوثان.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد عليه السلام بالتوحيد، والإسلام، الذي هو الحقُّ القاطع، الذي أجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الإشراك والتكذيب والاستكبار ﴿ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ والالتفات لإظهار الغضب عليهم.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من الشرك والتكذيب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا، والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب، لكنَّ عباد الله المخلصين ليسوا كذلك.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إليهم، للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص، عمن عداهم ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ فَوَٰكِهُ ﴾أي ذلك الرزق فواكه، وتخصيصها بالذكر، لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه، أي ما يؤكل فيها لمجرد التلذذ، لا لدفع الجوع، لأنهم مستغنون عن القوت، لكون خلقتهم محكمة، محفوظة من التحلل، المحوج إلى البدل ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم الهوان، ويصل إليهم رزقهم بغير تعب ولا نصب.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)﴾.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا نعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤)﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي متواجهين، ينظر بعضُهم إلى وجوه بعض، لدوام الأُنس والسرور.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥)﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ في الخدمة ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمر، فإن الكأس تطلق على نفس الخمر، وعن الأخفش «كل كأس في القرآن فهي الخمر» ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كائنة من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض، تراها العيون، وصف تعالى به الخمر، لأنها تجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[1].

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾.

﴿بَيْضَاءَ﴾ خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ وصفها بلذة للمبالغة، كأنها نفس اللذة، لأن من شربها يلتذُّ بها لَذَّةً غامرة.

---

(١) سورة محمد، آية: ١٥.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمور الدنيا، ومن مفاسد خمر الدنيا صداع الرأس، والقيء، ووجع المعدة، وكثرة البول، والسكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله، لما أنه من معظم مفاسد الخمر.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يَمْدُدْنَ طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون، والنَّجَلُ: سعة العين أي حسان الأعين عظامها، مع غاية الحسن والجمال.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون ومستور، شبهن ببيض النعام، لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض مخلوطاً بأدنى صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان الأبدان[1].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، أنهن عفيفات، قصرن أعينهنَّ عن النظر إلى غير أزواجهن، وهنَّ مع العفة واسعات العيون، جميلات اللون، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ والغرضُ أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّرِّ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة، اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة، ومتعنا بالحور العين، يا أرحم الراحمين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتحادثون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، كما قال القائل:

ومـا بَقِيـتْ مـن اللَّـذَاتِ إلاَّ أحـادِيـثُ الكِـرَامِ عَلـىٰ المُـدَامِ

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿إِنِّى كَانَ لِى﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ أي صاحب لا يؤمن باليوم الآخر.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَقُولُ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان، والتصديق بالبعث ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؟ أي بالبعث، ويقول تعجباً.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي لمبعوثون ومجزيون؟ من الدِّين بمعنى الجزاء، يقول هذا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل، بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه، بمعنى هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين؟.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي القائل لقرينه شامتاً به ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي والله لقد قاربتَ أن تهلكني بإغوائك لي.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب، معك في النار، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخراً، كما كان الكافر يسخر منه في الدنيا فيقول له:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه التشفِّي من ذلك الصديق الكافر، الذي كان يسخر منه في الدنيا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي هو السعادة الكاملة، والفوز بالكرامة، التي لا يوازيها شيء من أمور الدنيا ونعيمها.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي يقول تعالى: لنيل هذا المرام الجليل، يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ أَذَٰلِكَ ﴾ أي أذلك الرزق المعلوم ﴿ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ أي خير ضيافة وتكريماً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن النُّزُل في اللغة: الضيافةُ التي تقدَّم للضيف، وأي ضيافة لمن يكون طعامه الزقوم؟ والزقوم طعام أهل النار، وهي شجرة خبيثة مرة، كريهة الرائحة!؟.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً ﴾ أي محنة وعذاباً ﴿ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنهم لما سمعوا أنها في النار استهزؤوا، وقالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تحرق الشجر؟ وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر، ولم يعلموا أن من قدر على أن يخلق الزبانية ويمنع النار عن إحراقهم، أقدرُ على خلق الشجر فيها، وحفظه من الإحراق!! ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ طَلْعُهَا ﴾ ثمرها سمي طلعاً لطلوعه أول الإثمار ﴿ كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلك، وتشبيه القبيح الصورة بالشيطان، والعربُ إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شيطانٌ، لما استقرَّ في الأذهان، من قبح صورة الشيطان.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي من الشجرة أو من طلعها ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ لغلبة الجوع، أو للقسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك باباً من العذاب.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبيء عنه كلمة «ثم» ﴿ لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب اسم ما يشاب به أي لشراباً من غساقٍ، أو صديد، مشوباً بماء الحميم، يقطع أمعاؤهم، كما قال تعالى ﴿وسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي مصيرهم ﴿ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي إلى دركاتها، فإن الزقوم والحميم نُزُل يقدم إليهم قبل دخولها، وهذا يدل على أن الحميم خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم للاحتراق فيها.

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ﴾ أي وجدوا ﴿ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب بتقليد الآباء، أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق،

أو على الباطل، والإهراعُ: الإسراعُ، ولو لم يوجد في القرآن آية، غير هذه الآية، في ذمّ التقليد لكفى.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم السالفة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، ولكنَّ الضالين لم يلتفتوا إلى الإنذار.

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ من الهول والفظاعة، والخطابُ لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم، أي ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً، ونجعلهم عبرةً للعباد؟.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلاّ الذين آمنوا، بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، وأخلصوا لله دينهم، فأولئك نجوا من العذاب، وهذه الآية لتسلية النبي ﷺ، ليكون له أسوة بالرسل، حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعوة إلى الله.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ أي دعانا مستغيثاً، واللام جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ أي وبالله لقد دعانا نوح، حين يئس من إيمانهم فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص، سبب لحصول الإجابة، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي من الغرق والطوفان، الذي عمَّ قومه الكافرين.

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ أي الذين ركبوا معه في السفينة من أولاده وأتباعه المؤمنين، وكل من سواهم هلكوا وفنوا، وعن سَمُرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ قال: «هم سام، وحام، ويافث»[1].

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨﴾.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ أي أبقينا له ثناءً جميلاً، فيمن بعده من الأنبياء

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٣٠ وقال: حديث حسن غريب، وفي رواية أخرى «سام» أبو العرب، و «حام» أبو الحبش، و «يافث» أبو الروم.

والأمم يسلمون عليه تسليماً ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي باقية ومستمرة هذه التحية أبداً في العالمين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فُعل به من التكرمة السنية، من إجابة دعائه، وإبقاء ذريته، وتسليم العالمين عليه، أي مثل ذلك الجزاء الكامل، نجزي الكاملين بالإحسان.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين، وفي هذا إظهار لجلالة قدر الإيمان.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ وهم كفار قومه.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وممن شايعه في أصول الدين، وسار على منهاجه وسنته، إبراهيم عليه السلام وما كان بينهما، إلاَّ نبيان: هودٌ، وصالح عليهما السلام، وكان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ألفان وستمائة وأربعون سنة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أي حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الشرك،

والشك، ومن كل دنس المعاصي، كالغل، والغش، والحقد، والحسد، يحب للناس ما يحب لنفسه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾؟ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك والكذب والزور؟.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي بمن هو حقيق بالعبادة، لكونه رباً للعالمين، فما ظنكم به، ماذا يفعل بكم، بعد أن أشركتم به وعبدتم غيره؟ هل يترككم بدون عقاب؟.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ حين سألوه ألاَ تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر في النجوم.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ويفرون من المطعون، وأراد عليه السلام القول: إني سقيم القلب لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا فهربوا منه وتركوه وذلك قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي هاربين مخافة العدوى.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أي ذَهَب إليها في خفية ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاءً ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟ أي من الطعام الذي بين أيديكم؟ وكانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم لتبارك لهم فيه.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فمال مستعلياً عليهم ﴿ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أي يضربهم ضرباً شديداً بيده اليمنى، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وقوةُ الآلة تقتضي قوة الفعل، وقيل: ﴿باليمين﴾ أي بسبب الحلف وهو قوله: ﴿وتاللهِ لأَكِيدنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسَّرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون من زفيف النَّعَام، وهو ابتداء عَدْوِها.

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أتوا به عليه السلام وجرى بينه وبينهم من المحاورات ما جرى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي ما تنحتونه من الأصنام؟.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟.

﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة، المستعرة المحرقة، وهي شدة التأجج.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ لمّا قهرهم بالحجة قصدوا ما قصدوا، لئلا يظهر عجزهم للعامة ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي الأذلين، بإبطال كيدهم، بجعل النار عليه برداً وسلاماً، فصار هو الغالب عليهم، وهم الأذلاء المدحورون.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي مهاجر إلى حيث أمرني ربي، لأتجرد لعبادته تعالى، قاله بعد خروجه من النار ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، ودلت الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء يجب المهاجرة منه، فلمّا قدم عليه السلام الأرض المقدسة، سأل ربّه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين، يعينني على الدعوة، ويؤنسني في الغربة، يعني الولد، لأن لفظ الهبة خاص به.

﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾.

﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ فإنه صريح في المبشر به، وعين ما استوهبه، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وحليم، وأنه يبلغ سن الرشد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي فوهب الله له الولد فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾أي أرى هذه الصورة بعينها، وقيل: إنه رأى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره فسمي اليوم يوم النحر، والغلام الذي أمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهب له إثر المهاجرة، وقولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يحسن إلا عند عدم الولد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وإسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المخاطب هو اسماعيل، ومما يدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾. فكيف يؤمر بذبح إسحق وقد وعده بالنافلة أي ولدِ ولدِ فيه؟ ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾؟ أي فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم، ليعلم ما عنده فيما نزل، ويكتسب المثوبة والثناء الحسن في الدنيا، وليظهر صبره في طاعة

الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي ما تؤمر به، وقد علم أن الأنبياء لا يقدمون على مثل ذلك إلاّ بالأمر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، وإنما علّق الأمر بمشيئة الله تعالى، على سبيل التبرك.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى، وانقادا له، يقال: سلَّم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وكان ذلك عند الصخرة من منى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به، أي قد حققت ما أمرناك به في المنام، والسبب في هذا التكليف، إظهار كمال طاعة إبراهيم، فلما ظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كمال الانقياد، قال تعالى له:

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾.

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين، وهو تعليل لتفريج تلك الكربة بإحسانهما.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الابتلاء البيِّن، الذي يتميز فيه المخلص من غيره، والمحنة البيِّنة إذْ لا شيء أصعب من مثل هذا التكليف الشاقّ.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين، يفدي به الله نبياً ابن نبي، من نسله سيد المرسلين ﷺ، وكان كبشاً من الجنة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مقضياً بنبوّته، مقدَّراً كونه من الصالحين، وفي ذكر الصلاح بعد النبوّة، تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل[1].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل، وأفضنا عليهما بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن

(١) فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟ فالجواب: تنبيهاً لنا على جلالة قَدْر الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه.

ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عمله بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلالة، وأن الظلم في أعقابهما لا يعود إليهما بنقيصة.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة، وغيرها من النعم الدينية والدنيوية.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ هو تسلط آل فرعون عليهم بألوان العذاب.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ أي هما وقومهما على عدوهم ﴿ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ عليهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ﴾ بعد ذلك ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة، التي أنزلها الله هدى لبني إسرائيل.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ﴾ بذلك ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي الطريق الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من الأحكام.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ﴾ مرّ تفسيرها.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقال محمد بن إسحق: هو إلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، من نسل هرون عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم غيره؟.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتعبدونه، وتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم لأهل بعلبكّ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾؟ أي وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟.

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي الذي هو خالقكم وخالقُ آبائكم من قبلكم؟ والتعرض لربوبيته تعالى لآبائهم، لتأكيد إنكار تركهم لعبادة الله تبارك وتعالى.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ أي تركنا عليه الثناء العاطر في الأمم بعده، سلام منَّا على إلياس وآله المؤمنين الطيبين، نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين، والباقون إلياسين، والمراد في القراءتين إلياس، قال الزجاج: كما قال ميكال، وميكائيل، كذلك يقال إلياس، وإلياسين.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم أشد الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظُ التدمير يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإن سدوم في طريقهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾؟ داخلين في الصباح.

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ ﴾.

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۚ ﴾ أي ومساء، أو نهاراً وليلاً ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أتشاهدون ذلك فلا تعقلون؟ حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم ما أصابهم؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، لأنه تعالى سلَّم في آخر السورة على جميع الأنبياء المرسلين في قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وسَلَامٌ عَلَى المُرسَلِينَ. والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فأغنى هذا عن السلام عليهما.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ ﴾.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ أي هرب، وأصله الهرب من السيد، لكنْ لمَّا كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حسن إطلاقه عليه ﴿إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ أي المملؤ بالرجال والمتاع.

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ ﴾.

﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي فقارع أهله ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ أي فصار من المغلوبين بالقرعة، روي أنه عليه السلام لما وعد قومه بالعذاب، فتأخر عنهم، خرج من بينهم، قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: فيها عبد آبق، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبقٌ لم تجرِ، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فألقوه في البحر.

﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ ﴾.

﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم الجُثَّة ﴿ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلام عليه.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، مدّة عمره، أو في بطن الحوت.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور، وفيه حث على الإكثار من الذكر، فمن أقبل على الله في السراء، أخذ بيده عند الضراء ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام، قاله مقاتل، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه، بالمكان الخالي عما يغطيه، من شجر أو نبت، روي أن الحوت سار في البحر رافعاً رأسه، يتنفس فيه يونس، ويسبِّح الله، حتى انتهى إلى البر، فلفظه سالماً، لم يتغير منه شيء[1] ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد، من حرارة جسم الحوت.

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

---

(١) سبب ذلك أن يونس عليه السلام ضاق صدره بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغاضباً لهم لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطىء البحر، حيث ركب سفينةً مشحونة، فناوءتها الرياح والأمواج في وسط البحر، فقال الملاّحون: ههنا عبد آبق من سيده، ولا نجاة لنا إلا بإلقائه لننجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، ولم يعرف أهل السفينة قدره وأنه نبي، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت فوراً، قال عطاء: أوحى الله إلى الحوت، أني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء!!.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ وهو كل ما ينبسط على الأرض، والأكثر على أنه الدباء، وقيل: التين، وقيل: الموز يستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وكان ذلك معجزة له، فأنبته الله تعالى لأجله.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، وهم أهل نينوا، والمراد إرساله السابق قوله: ﴿أَو يَزِيدُونَ﴾ أي في مرأى الناظر، والمراد به هو الوصف بالكثرة.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ أي بعدما عاينوا علائم حلول العذاب، إيماناً خالصاً، وجدَّدوا الإيمان بمحضره ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجلهم المسمى، وهو انتهاء أعمارهم.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؟ لما ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء الكرام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، فقال: ﴿فَٱستَفتِهِم﴾ أي فاستخبر قومك على سبيل التوبيخ والتجهيل وسلهم: كيف جعلوا للهِ جل وعلا البنات ولأنفسهم البنين؟ وذلك في قولهم: الملائكةُ بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالة أخرى، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وذلك باطل، من وجهين:

الأول: أن العرب يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق؟ أي فاستخبرهم ألربك البنات، اللاتي هن أوضع الجنسين، ولهم البنون الذين هم أرفعهما؟ فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل.

والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضاً باطل، لأن طريق العلم، إمَّا الحسُّ، وإما الخبر، وإمَّا النظر، أما الحسُّ فمفقود ههنا، لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾؟ أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام، ورذائل الطبائع إناثاً، والأنوثة ـ في نظرهم ـ من أخس الصفات؟ ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ استهزاء بهم، وتجهيل لهم، فإن أمثال هذه الأمور، لا تعلم إلاَّ بالمشاهدة، إذ لا سبيل إلى معرفتها بالعقل، وأما الخبر والنظر فمفقود أيضاً، فثبت بطلان زعمهم.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي إن المشركين من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبة كفرة، يهرفون بما لا يعرفون، والآية مسوقة لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم، فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيِّن الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين، أي هل اختار تعالى لنفسه البنات وفضّلهن على البنين؟.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ بهذا الحكم الظالم الذي يقتضي ببطلانه بديهةُ العقل.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه؟.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾؟ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء، بأنَّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورة أن الحكم بذلك، لا بدَّ له من سند حسِّي، أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما، فلا بد من سند نقلي.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فأتوني بهذا الكتاب المنزل من عند الله إذا كنتم صادقين؟ وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم، وتسفيه أحلامهم، ما لا يخفى.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أي جعل المشركون الفجار بين الله عزَّ وجلَّ، وبين الجنَّة قرابةً ونسباً، حيث زعموا أن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ودعواهم محض الكذب والبهتان، ولذلك ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة والشياطين، أن الله يُحضرهم النار، ويعذبهم بها، ولو كانوا منسوبين له تعالى، لَمَا عذَّبهم!؟.

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزَّه اللهُ وتقدَّس، عمَّا يصفه به هؤلاء الظالمون، فالله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، ولا ذرية، ولا بنين، وليس بينه وبين أحد نسب ولا قرابة.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنَّ عباد الله المخلصين ينزهون الله عما يصفه به هؤلاء الضالون.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ أي فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون، لستم بفاتنين عليه تعالى أحداً، أي لستم بقادرين أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ أي إلا من هو داخلها، لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر، بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل عن إضلالهم.

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ الجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا بذلك أنفسهم للمبالغة في العبودية، للتنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، لأن مبالغتهم في العبودية، تدل على اعترافهم بالمعبود جل وعلا، أي وما منا مَلَك من الملائكة، إلا وله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، منزلة

مقصورة عليه لا يتجاوزها، خضوعاً لعظمته، وخشوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، والآية ردٌّ على من عبد الملائكة، فهم عبيد لله وليسوا شركاء مع الله، فكيف يُعبدون من دون الله؟.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ المقدّسون لله سبحانه وتعالى، عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ إن هي المخففة وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة، أي إن الشأن كانت قريش تقول قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين، كالتوراة والإنجيل.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولَمّا خالفنا

كما خالف اليهود والنصارى أنبياءهم، وهذا كقولهم: ﴿وَأَقْسَموا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نذيرٌ ليكونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾[1].

﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ فجاءهم ذكر عظيم، هو أشرف الأذكار، والمهيمن عليها، وهو القرآن الكريم، فكفروا وكذبوا به، وقالوا عنه أساطير الأولين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم، وما يحلُّ بهم من الانتقام.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وعدنا لهم بالنُّصْرةِ، والغَلَبة.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أي لهم الغلبة على أعدائهم في الدنيا والآخرة، ولا يقدح انهزامهم في بعض المشاهد، فإن قاعدة أمرهم، وأساسه الظفر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، فالحكم للغالب، وإن لم ينصروا في الدنيا، نصروا في الآخرة.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم واصبر على ما ينالك يا محمد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٤٢.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ على ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، وسوء الحال، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يقع حينئذٍ وسوف للوعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن، وسخريتهم من الرسول عليه السلام.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي أيستعجلون عذاب الله؟.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ بفنائهم بغتة، صوَّره كأنه جيش عرمرم قد هاجمهم، فأناخ بفنائهم، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم بالمرة ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي فبئس صباح الكافرين، الذين أُنذروا بالعذاب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فساء صباح المنذرين﴾ قالها ثلاث مرات»[1].

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ كرّره تأكيداً للتهديد.

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية، وتأكيد

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/ ٩٠ من فتح الباري.

لوقوع الميعاد، أي انتظرهم وما يبصرونه من أنواع المضار في الدنيا والآخرة، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ تنزيه لله تعالى عن كل ما يصفه المشركون، مما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ والإضافة لاختصاص العزة به تعالى، إذ لا عزة ولا غلبة إلا لله جل وعلا ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عما يصفه به المشركون من الزوجة والولد.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تشريف لهم، وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره، فائزون بجميع المآرب.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم، وعلى من اتبعهم من النعم، وحسن العاقبة، والغرض منه تعليم المؤمنين أن يقولوه، لما رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أحبَّ أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه، إذا قام من مجلسه ﴿سُبحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى ٱلمُرسَلِينَ، وَٱلحَمدُ لله رَبِّ ٱلعَـٰلَمِينَ﴾»[1].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عن علي رضي الله عنه، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥/٢٩٥.

سُورَةُ صٓ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾.

﴿صٓ﴾ قيل اسم للسورة، وقيل: اسم للحرف، وقيل هو مفتاح اسمه «الصمد»[1] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو للقسم، والذكر بمعنى الشرف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] أي أقسم بالقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة الجليلة وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بالقرآن إنه لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراب عن ذلك كأنه قيل: لا ريب فيه

---

(١) الراجح عند أئمة التحقيق من المفسرين، أن الحروف المقطَّعة ـ حروف الهجاء ـ في أوائل السور الكريمة، إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف التي ينطقون بها، وانظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في كتابنا «صفوة التفاسير» ١/٧.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤.

قطعاً، وليس عدم إذعان الكفرة له، لشائبةِ ريب فيه، بل هم في استكبار وشقاق لله ولرسوله، ولذلك لا يذعنون له، والتنكير في ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، أي هم غطرسة وكبرياء، ومعاداةٍ لله ورسوله شديده.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب مَنْ قبلهم من المستكبرين والمعنى: وكثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا، استغاثة وتوبةً، لينجوا من ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾[1] ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نادَوْا طلباً للنجاة، والحال أن ليس الحين ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نجاة، و «لا» هي المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، وخُصَّت بنفي الأحيان، والمناص: المنجا، والغوثُ يُقال: نَاصَه إذا أغاثه.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم ﴾ أي من أن جاءهم ﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ من جنسهم وهو محمد رسول الله ﷺ، عجبوا من بعثته، وعدُّوا ذلك أمراً عجيباً، خارجاً عن احتمال الوقوع ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون، إلاَّ المتوغلون بالكفر والفسق ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٤.

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾؟ أي أزعم أن الربّ المعبود واحد لا إله إلاّ هو؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب، والعجبُ الذي له مثل، والعُجابُ الذي لا مثل له، فهو أبلغ من العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوه هم وآباؤهم، الذين أجمعوا على ألوهية الأوثان، وواظبوا على عبادتهم، كابراً عن كابر، فكان مدار أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً، روي أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شقّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم، فأتوا أبا طالب، فقالوا أنت شيخنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل إليه أبو طالب يدعوه إلى المجلس، فلما أتى النبيُّ ﷺ، قال له: يا بن أخي هؤلاء قومك، يسألونك العدل فلا تمل كلَّ الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا تسألونني؟ قالوا ارفضنا وارفضْ ذكر آلهتنا، ونَدَعَك وإلٓهك!! فقال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدةً، تملكون بها العربَ، وتدين لكم بها العَجَم؟ قالوا: نعم وعشراً، فقال: قولوا: ﴿لا إله إلا الله﴾ فقاموا وقالوا: ﴿أجعل الآلِهَةَ إلهاً واحِداً﴾[1]؟.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش من مجلس أبي طالب، بعدما أسكتهم الرسول ﷺ بالجواب المفحم، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه من المصالحة على الوجه المذكور، أي خرجوا من المجلس يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ﴾ أي واثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد، أمر مدبَّر، يريد من ورائه

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٧.

أن يصرفكم عن دين آبائكم، لتكون له العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه فيفسد عليكم دينكم.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ (٧).

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي في الملة النصرانية، التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، أو يريدون ليس هذا في الملة التي كان عليها آباؤنا[١] ﴿ إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ (٨).

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿مِن بَيْنِنَا﴾؟ ونحن رؤساء الناس، ومرادهم إنكار كونه منزلاً من عنده عزَّ وجل، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأمثال هذه المقالات، دليلٌ على أن مناط تكذيبهم ليس إلاَّ الحسد، والتكالب على حطام الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي هم في شك من القرآن والوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر، في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقِّيته، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه تبيَّن لهم حقِّيتُه؛ وفي «لمَّا» دلالةٌ على أن ذوقهم على شرف الوقوع.

---

(١) قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية، فليس عندهم التوحيد بل التثليث، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا.

﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴾؟ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون؟ ويتحكمون فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيَّروا للنبوَّة بعض صناديدهم؟ والحال أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له فإنه ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء.

﴿ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ ﴾؟ أي ألهم ملك هذه العوالم، العلوية والسفلية، حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلٰهية، التي استأثر بها رب العزة والجلال؟ ﴿ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن كان لهم ما ذكر من الملك، فلْيصعدوا في المعارج التي يتوصل بها العرش، ويدبِّروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون؟ وفيه من التهكّم بهم، ما لا غاية وراءه.

﴿ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ أي هم جند من الكفار، المتحزبين على الرسل، مهزومون مكسورون عمَّا قريب، فمن أين لهم التدابير الإلٰهية؟ فلا تبال بما يقولون يا محمد، و«ما» مزيدة للتقليل والتحقير، نحو أكلتُ شيئاً ما، والإشارة في ﴿هنالك﴾ إلى فتح مكة، والمعنى سيصيرون مهزومين في مكة.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ ذكر تعالى الأشقياء الفجار ممن كذبوا الرسل، وهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون الطاغية الجبار، ووصف فرعون بذي الأوتاد أي ذي الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة[1]، قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأوتَادِ

وقيل: إنه كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذّب ورجليه إلى تلك الخُشب الأربعة، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً، ويتركه معلقاً في الهواء حتى يموت.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام، وفيه تنبيه على أن مشركي مكة ضرب من أولئك الأحزاب.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، إلا كذب الرسل، لأن تكذيب واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً، لاتفاق الكل على الحق ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي.

(١) هذا القول مروي عن الضحاك، وقد رجحه ابن عطية، ويدل عليه قوله سبحانه ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ فالمراد بالمقام الكريم: الدورُ والقصور الفخمة، وكذلك قال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك، واستشهد بقول الأسود بن يعفر «في ظلّ مُلْكٍ ثابت الأوتاد».

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ .

﴿ وَمَا يَنظُرُ ﴾ أي ينتظر ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي كفار قريش أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة ﴿ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ هي النفخة الثانية، أي ليس بينهم وبين حلول ما أُعِدَّ لهم من العقاب، إلا هي، حيث أخرت عقوبتهم الشديدة إلى الآخرة ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ أي من توقف مقدار فواق، وهو مقدار ما بين الحلبتين، لأن الناقة تُحلب ثم تترك سُويعة يرضعها الفصيل، لإدرار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وهو عبارة عن الزمان اليسير.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ كفار مكة ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب، الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب، والقِطُّ: القطعة من الشيء، والحظُّ والنصيب.

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ أي تذكّر ﴿ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ أي تذكر قصته، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذيتهم ﴿ ذَا ٱلۡأَيۡدِ ﴾ المراد بالأيد: القوة، وهي قوة في الدين، أي ذا القوة على أداء العبادة، والاحتراز عن المعاصي ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحب الصيام إلى الله، صيامُ داود، كان يصوم يوماً،

ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله، صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[1].

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي تسبِّح بتسبيحه، وتسبيحُ الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام ﴿ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أي في المساء والصباح.

﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة حوله، روي أنه عليه السلام كان إذا سبَّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت بتسبيحه، وذلك حشرها ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير، لأجل تسبيحه، رجَّاع إلى التسبيح.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي قوَّيناه بالهيبة والنصرة، وكثرة الجنود ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ أي الكلام البيِّن الفصيح الذي ينبه المخاطب على المرام، من غير التباس.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ استفهام معناه التعجب، والتشويق إلى استماع ما في حيزه من الأنباء البديعة، والخصم يُطلق على الواحد، وما فوقه، كالضيف ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ أي صعدوا عُلْو المحراب من سوره،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ١٣٣١، ومسلم رقم ١٨٩.

والسور الحائط المرتفع، ونظيره تسنَّمه إذا علا سَنَامه، وتذرَّاه إذا علا ذُروته.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، لأنهم نزلوا عليه من فوق، على خلاف العادة، في غير يوم الحكومة، لأنه عليه السلام جزَّأ زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ﴿ قَالُوا۟ ﴾ إزالة لفزعه ﴿ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾ أريد بهما شخصان أي فوجان متخاصمان ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ولا تجاوز الحدَّ في الحكومة ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق، وهو العدل، فقال عليه السلام تكلما فقال أحدهما.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾ أي في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك لبيان قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ وحقيقية اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في الإنكار، ولعله قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو على تقدير صدق المدعي ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي ليتعدى غير مراع لحق الصحبة والشركة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجب من قلّتهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ ﴾ الظن مستعار للعلم لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم الأمر ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه خطأ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة.

«فصل»

وفي هذه القصة ثلاثة أقوال:

القول الأول: وحاصل كلامهم أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه مَلَكَيْن في صورة المتخاصمين، في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبّه لذلك، فاشتغل بالتوبة!! والذي أدين الله به وأذهب إليه، أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس لاستنكف منها،

والرجل الخبيث الذي يقرر تلك القصة، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما يلعن من نسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإفك، بمن خصَّصه الله تعالى بنبوته، وائتمنه على وحيه، وشرَّفه على كثير من خلقه، وأمر أفضل خلقه محمداً ﷺ، بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق.

الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام بالصفات العشرة المذكورة قبل القصة ووصفه بصفات كثيرة بعدها وكل واحدة من هذه الصفات دالة على براءة ساحته عليه السلام عن تلك الأكاذيب.

والثالث: أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود وتعظيمه، ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب، لجرى مجرى أن يقال: فلانٌ عالي الدرجة في طاعة الله، يقتل ويزني، وقد جعله الله خليفةً في أرضه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل، فكذا ههنا.

والرابع: أن داود عليه السلام قال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاَّ الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا: إنه كان موصوفاً بالبغي، لزم أن يقال: إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

الخامس: لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ألاَ لعنةُ اللهِ عَلَى الظالمين﴾ فثبت بهذه الوجوه أن القصة التي ذكروها فاسدة، باطلة، فإن قال قائل: إن بعض المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ **الجواب**: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة، وبين خبر الآحاد، كان الرجوع إلى الدلائل أولى، وأيضاً الأصل براءة الذمة، وأيضاً إذا تعارض دليل التحليل والتحريم، كان جانب التحريم أولى، وفي نوع هذه الواقعة لا يقول الله تعالى لنا لِمَ لَمْ تَسْعوا

في تشهير هذه الواقعة، وأما بتقدير كونها باطلة، فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب.

القول الثاني: في كيفية هذه القصة فيه وجهان:

الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان خطؤه أنْ خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه، ويدل على صحة هذا الوجه قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطابِ﴾ فدلَّ هذا أنه كان بينهما في الخِطْبة.

الوجه الثاني: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلِّق امرأتَه حتى يتزوجها، وكانت عادتهم في هذا معروفة، كما أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى، فطلب داود من أوريا النزول عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فهذان الوجهان لو حملنا هذه القصة على واحد منهما، لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل.

القول الثالث: وهو أن نقول: روي أن جماعةً من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود، وكان له يوم يشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً، فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا خصمان بغىٰ. . . إلخ.

وليس في القرآن ما يمكن أن يُحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة ـ ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ٢ ـ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ٣ ـ ﴿وَأَنَابَ﴾ ٤ ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ نقول: وهذه الألفاظ لا تدل على ما ذكروه إنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلا أنه مال إلى الصفح طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة فتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء، ثم استغفر ربَّه ممَّا همَّ به من

الانتقام، وتاب، فغفر له، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الخ إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه لا يلزم إسناد الذنوب إلى داود عليه السلام، وأما إذا قلنا: الخصمان كانا مَلَكَيْن وما كان بينهما مخاصمة، وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما خصمان بغى الخ كذباً فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: ١ ـ إسناد الكذب إلى الملائكة، ٢ ـ وإسناد القبائح إلى رجل كبير من الأنبياء، فكان قولنا أولى، والله أعلم بأسرار كلامه[1].

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما استغفر منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ أي لقربة وكرامةً بعد المغفرة ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي حسن مرجع في الجنة، ومثلُ هذه الخاتمة، إنما تحسن في حق من صدر منه عملٌ كثير في الخدمة والطاعة، وتحمّل أنواع الشدائد في الانقياد، أما إذا كان المذكور هو الإقدام على الجرم والذنب، فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك ابن دينار: إذا كان يوم القيامة، أُتيَ بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داودُ مجِّدني بذلك الصوت الحسن الذي كنتَ تمجدني به في الدنيا.

---

(١) ما نقله بعض المفسرين من الأخبار الإسرائيلية، كلها أقوال باطلة واهية، لا يصح نسبتها إلى نبي كريم كداود عليه السلام، وخلاصتها أنه رأى زوجة أحد قواده، فأحبها وعشقها، وأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك فلما قتل خطبها وتزوجها، فهذه فرية ما فيها مرية، وكما نقل المؤلف عن الإمام الفخر الرازي بطلان هذه الرواية من عدة وجوه، وهذا هو الذي ندين الله عزَّ وجلَّ به أن القصة كلها باطلة، وقد حققنا ذلك في كتابنا صفوة التفاسير ٣/ ٥٤ ونقلنا عن علي رضي الله عنه قوله: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاصُ ـ يعني أهل القصص والأخبار ـ جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء» وارجع إلى تفسير ابن كثير، والفخر الرازي، فقد أجادا في هذا الموضوع وأفادا.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي قلنا له: يا داود إنَّا قد استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة، كما كانت قبلها، لم تتغير قط، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الأول المشهور، لأن من كان ساعياً في سفك دم المسلم، وراغباً في انتزاع زوجته منه، فتفويضُ خلافة الأرض من جهة الله تعالى إليه بعيدٌ جداً ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ بحكم الله تعالى، فإن الخلافة مقتضية له حتماً ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور الدين والدنيا، وهو يؤيد أن خطأه عليه السلام كان بالمبادرة إلى تصديق المدَّعي، وتظليم الآخر قبل مسألته ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك، عن دلائله التي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تعليل لما قبله، أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه المستقيم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ ﴾ أي بسبب نسيانهم ﴿ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي لهم عذاب شديد يوم الحساب، بسبب تكذيبهم به، وعدم اعتقادهم بلقاء الله، وقيل: المعنى: بما تركوا الإيمان بيوم الحساب، أو عدم العدل في القضاء. روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لبعض أكابر العلماء وهو - أبو زُرعة - هل سمعتَ ما بَلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم، ولا يُكتب عليه معصية؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: الخلفاءُ أفضل أم الأنبياء؟ إن الله جمع لداود بين الخلافة والنبوة، ثم توعَّده في كتابه فقال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة[1].

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٠١ من المختصر.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات، على هذا النظام البديع، الذي تحار في فهمه العقول، خلقاً باطلاً، أي خالياً عن الغاية والحكمة، بل منطوياً على الحِكَم البالغة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما نُفي، أي خلقها باطلاً ﴿ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مظنونهم فإن جحودهم للبعث والجزاء، الذي يدور عليه فلك التكوين، قولٌ منهم ببطلان الحكمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بسبب هذا الظن الباطل ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي فويل لهم من عذاب النار المترتب على ظنهم وكفرهم.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى «بل» لإنكار التسوية بين الفريقين على أبلغ وجه ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين، كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ إضراب وانتقال بلزوم ما هو الأظهر منه استحالة، أي أم نجعل الأبرار الأخيار، كالأشرار الفجار؟ هذا لا يمكن في عدل الله وحكمته؟

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ كِتَٰبٌ ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ كثير المنافع والخيرات ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي أنزلناه ليتفكروا في آياته المعجزة العجيبة

فيقفوا على ما فيها ويعملوا بها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي نعم سليمان كما ينبىء عنه تأخره عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح أي رجّاع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّٰفِنَٰتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر حين عرضت عليه خيله ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿الصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافن الخيل الذي يقوم على ثلاث قوائم، وأقام الأخرى على طرف حافر، وهي من الصفات المحمودة في الخيل، ولا يكاد يتفق إلاَّ في العرابي الخالص ﴿الْجِيَادُ﴾ صفة أخرى، وهو الذي يسرع في جريه، وذكر تعالى الصفون، والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة، وجارية، أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً وخفافاً في جريها، روي أنه عليه السلام غزا وأصاب ألف فرس فقعد يوماً بعدما صلّى الظهر على كرسيه، فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن وردٍ كان له من الذكر، فاغتّم لما فاته، فاستردها فعقرها تقرباً لله تعالى، وقيل: لمَّا عقرها أبدله الله تعالى خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره إلى حيث شاء.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ قاله عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن ذكر الله، وندماً عليه، وتمهيداً

لما يعقبه من الأمر بردِّها وعقرها، والتأكيد للدلالة على ندمه عن صميم القلب ومعنى ﴿أَحبَبتُ﴾ آثرتُ كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»[1] ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبَّأة بحجابها، وإضمارها من غير ذكرٍ، لدلالة العشيِّ عليها، وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت الخيل بحجاب الليل أي بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ من مقالة سليمان عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت إيذاناً لسرعة الامتثال بالأمر، أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها، ويتصدَّق بلحومها على الفقراء، وإنما فعل ذلك كفارة لها، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها، وحبسها في سبيل الله. قال الأكثرون: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر، بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل، استردَّها وعقر سوقها وأعناقها، تقرباً إلى الله تعالى، وعندي أن هذا بعيدٌ، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق قطعها لكان معنى ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ قطعها.

الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ١ ـ ترك الصلاة، ٢ ـ الاشتغال بحب الدنيا، ٣ ـ أنه

---

(١) رواه أحمد في المسند.

خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوهَا عليَّ﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل إلا مع الخادم الخسيس، ٤ ـ عقر الخيل في سوقها وهو منهي عنه، ٥ ـ إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدلَّ على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالرد والإبطال، والتفسير المطابقُ لألفاظ القرآن أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين الإسلام، ثم إنه عليه السلام لمَّا احتاج إلى الغزو أمر بإحضار الخيل، وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا، إنما أحبها لأمر الله تعالى، ثم أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك إمَّا تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، وإما أراد أن يُظهر أنه في ضبط السياسة والملك، يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعاً، أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كلُّ واحدةٍ بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله تعالى، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة بشقِّ رجل، والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1] ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري ولم يذكر أنه تفسير للآية الكريمة، فيحتمل أنه تفسير، ويحتمل أنه قصة.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ بدل من أناب وتفسير له ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أي ما صدر عني من الزلة ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لا يتسهل لغيري، يكون مختصاً بي ليكون معجزة دالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء، تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً.

﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي بأمر سليمان وهو بيان لتسخيرها له ﴿رُخَآءً﴾ أي لينة طيبة، لا تزعج ولا تخالف إرادته ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أي حيث قصد وأراد.

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ أي منهم من يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج الدرر والجواهر.

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين ـ وهم المردة ـ مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان، كأنه عليه السلام، فصَّل الشياطين إلى عَمَلَة، وإلى مَرَدة قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل، لكفِّهم عن الشر والفساد، وإلى غواصين يغوصون البحار، لاستخراج الياقوت والمرجان.

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي الأمر الذي أعطيناك من المُلْك، والبسطة، والتسلط ﴿ عَطَآؤُنَا ﴾ الخاصُّ بك ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد في التصرف بهذا الملك الواسع.

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة، ومنزلة سامية، مع ما له من الملك العظيم الواسع في الدنيا.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحق عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي دعا ربه وتضرع إليه ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ ﴾ بتعب ومشقة ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألم شديد، يريد مرضه، وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فقد حصل عنده نوعان من المكروه: الغمُّ الشديد بسبب زوال الخيرات، والألم في جسمه، ولذا قيل ﴿بِنُصبٍ وَعَذَابٍ﴾ والإسناد إلى الشيطان مراعاة للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خيرُها وشرها من الله تعالى، ولأن الشيطان يغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إليه تعالى في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، ومراعاة للأدب، وليس هذا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته ﴿وأنتَ أَرحمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاكتفى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء، ولما انقضت مدة ابتلائه قلنا له بواسطة جبريل:

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ ﴾ أي اضرب بها الأرض، فضرب بها فنبعت عين فاغتسل منها، وعين باردة فشرب منها، والرَّكضُ: الدفعُ القويُّ بالرِّجْلِ ﴿ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ ظاهرك وباطنك.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ ﴾.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ ﴾ أي فاغتسل وشرب ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ كما في سورة الأنبياء ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ أي بجمعهم بعد تفرقهم ﴿ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾ فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ولتذكيرهم ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يحيق بهم كما لجأ، ويعلموا أن عاقبة الصبر الفَرَجُ.

﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤ ﴾.

﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا ﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عودٍ ﴿ فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ ﴾ أي لتبرَّ في يمينك، روي أن زوجته «رحمة بنت إفرائم بن يوسف» ذهبت لحاجةٍ فأبطأت عليه، فحلف إن برىءَ ضربها مائة[1]، فحلَّل الله يمينه بذلك، ولقد شرع الله سبحانه هذه

(١) سبب حلفه أن زوجته كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتدَّ به البلاء، وطالت المدة، وسوس إليها الشيطان إلى متى تصبرين، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجرُ، فقالت: إلى متى نصبر على هذا البلاء؟ ادع الله أن يشفيك، فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأراد الله أن يعصم نبيه أيوب عليه السلام من الذنبين الظلم، والحنث، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها، وأن لا يكافئها بالخير شراً، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

الرخصة رحمةً عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود عند أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك وأحمد: لا يبرُّ به ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس، والأهل، والمال، وليس في شكواه إخلال بذلك، فإنه كالتمني للعافية، وكمن اشتكى من عدوه إلى حبيبه، والشكاية من العدوِّ إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي أولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا، بخصلةٍ عظيمة الشأن، كما ينبىء عنه التنكير التفخيمي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها، أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً.

قال مجاهد: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها»، وذلك لأن مطمح أنظارهم جوار الله عزَّ وجلَّ، والفوز بلقائه، ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها هي الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين من أمثالهم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ ﴾ أي كلهم ﴿ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ المشهورين بالخيريّة والفضل، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى من الأعداء.

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات، الناطقة بمحاسنهم ﴿ ذِكۡرٞۚ ﴾ أي شرفٌ لهم، وذكرٌ جميل، يُذكرون به أبداً وعن ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب، يرجعون إليه في الآخرة، والمراد بالمتقين الجنسُ، وهم داخلون في الحكم، أو المذكورون من الأنبياء، عبَّر عنهم بذلك، مدحاً لهم بالتقوى، التي هي الغاية من الكمال.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ﴾ أي هي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، وهو بيان لحسن مآب ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ أي قد فُتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم، فيدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] سورة الزمر.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ الاقتصار على دعاء

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الفاكهة، للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لا جوع ولا عطش في الجنة.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي قصرن أنظارهنَّ على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي هنَّ في سنٍّ واحد، سنُّ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين، كما هو سن أزواجهن.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ليوم الجزاء والحساب.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ ما ذكر من النعم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي ليس له انقطاع أبداً بل هو دائم، كلما أُخذ منه شيء، عاد مثله في مكانه.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ۚ ﴾ أي الأمر هذا ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ شروع في بيان حال الأشقياء المجرمين، بعد بيان حال السعداء المتقين.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها ويصلون سعيرها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي

بئست جهنم فراشاً ومهاداً لهم يفترشونه، شبَّه ما تحتهم من النار بالفراش، فهو فراشٌ لكنْ لا راحة فيه، لأنه من نصف جهنم.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقوا هذا، إنه العذاب الأليم فليذوقوه، وليهنأوا به ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ إنه الحميم الذي يقطع الأمعاء بحرارته، والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ ﴾ أي هذا العذاب الذي أُعدَّ لهم هو الحميم، أي الماء الحار الذي انتهى إلى درجة الغليان، والغسَّاق: وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد والدم، ومذاق آخر من مثل هذا المذاق، في الشدة والكدر ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي أجناس، كالزمهرير، والزَّقُّوم، والسَّمُوم.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة للرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج، كانوا يتَّبعونهم في الكفر والضلالة، والاقتحامُ: الدخول في الشيء بشدَّة ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ هو من تمام كلام الخزنة، بطريق الدعاء على الفوج، أي لا رَحُبتْ بهم الدار ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ تعليل لاستحقاقهم الدعاء، وقيل: هذا من كلام الرؤساء الطغاة، للأتباع الأشقياء، إذا قالت لهم الملائكة، هذا فوج من أتباعكم، معكم في نار جهنم، يدخلونها كما دخلتموها، قال الرؤساء: لا أهلاً بهم ولا مرحباً!! فيقول الأتباع:

﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع عند سماعهم ما قيل ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بالخزي واللعنة ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم سبباً فيه ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع أيضاً معرضين عنهم إلى الله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾[1] أي عذاباً مضاعفاً، بأن يزيد عليه مثله.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي الرؤساء الكفرة ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾؟ يعنون فقراء المسلمين، الذين كانوا يسترذلونهم، ويسخرون منهم.

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ صفة أخرى لرجالاً ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ أي مالت ﴿ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلا نراهم أي ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، أم هل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم؟

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٨.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي حُكي من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد من وقوعه البتَّة وهو قوله تعالى ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أي في النار، وإنما سماه تخاصماً، لأن قول القادة للأتباع ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول الأتباع: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ باب المخاصمة، لأن فيه تقبيحاً، وتشنيعاً، وتلاعناً، ودعاء بعضهم على بعض.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة أصلاً ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء سواه، وكونُه تعالى قهاراً، يدلُّ على وحدانيته.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب في أمرٍ من أموره ﴿ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ المبالغ في المغفرة، وفي هذه النعوت الوعدُ والوعيدُ.

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر، للإيذان بأنه أمر جليل، له شأن خطير ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني منذر، وأنه تعالى واحد أحد، متصف بما ذُكر، هو خبرٌ هام، ونبأٌ عظيم الشأن. والأظهر أن الضمير يعود على القرآن،

كما يشهد به آخر السورة، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، هو نبأ عظيم وارد من جهته تعالى.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، ببيان أنهم لا يقدرونه قدره الجليل، حيث يعرضون عنه مع عظمته.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم، لولا الوحي المنزل عليَّ؟ وفي ذلك حجة بينة، دالة على أن ذلك النبأ، بطريق الوحي من عند الله تعالى، لأنه ﷺ لم يسلك طريق العلم، ولا قراءة الكتب ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بحال الملأ الأعلى، وقت اختصامهم، فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا مع الله تعالى بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ قلتُ: لا شكَّ أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة في الحوار، وهو علة لجواز المجاز فعبَّر عن الحوار بالخصام.

﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِن يُوحَىٰ﴾ أي ما يُوحى ﴿إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يُوحى إليَّ ما يُوحى من الأمور الغيبية، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، أرسلني الله إليكم لأنذركم عذابه.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، بأني سأخلق إنساناً من تراب مبلول، وهو الطينُ، والمراد به أبونا آدم عليه السلام.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي اسجدوا له سجود تحية وتكريم.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾ أي تعظَّم ﴿ وَكَانَ ﴾ أي صار بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أصبح كافراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أي لما خلقته بيديَّ فكرَّمتُهُ، ونفخت فيه الروح بنفسي من غير توسط الأب والأم؟ ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾؟ أي المستحقين للتفوق على آدم بمآثر خاصة، تستحق به التكريم؟.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ فأنا أشرف منه وأفضل.

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾ أي اخرج من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ أي مطرود من كل الخير والكرامة.

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ أي إلى وقت النفخة الأولى، وهو الوقت الذي قدَّره الله لفناء الخلائق.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أي فبسلطانك وجلالك، أقسمُ لك يا رب ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ وهم المؤمنون الصادقون، الذين اصطفيتهم لنفسك، فلا قدرة لي عليهم!!.

﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول إلا الحقَّ، فالحقُّ قَسَمي.

﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي لأملأنَّ جهنم من

المتبوعين والأتباع أجمعين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي على تبليغ ما أوحي إليَّ من أجرٍ دنيوي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي المتصنّعين بما ليسوا من أهله، حتى أنتحل النبوة، وأتقوّل القرآن، وكلُّ من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلّف له، روي عن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أيها الناس من عَلِمَ شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؟ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: اللهُ أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾[1] والغرض من الآية: أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، ليس يحتاج في معرفة صحته، إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دينٌ يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، منزهاً عن الشريك والأضداد، ومتصفاً بكمال الصفات، ثم أدعوكم إلى الإقرار بالبعث والنشور، فكل ذلك حقٌّ لا مرية فيه.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الإنس والجن وسائر الخلق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٥٤٧/٨ باب ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ وله تتمة.

﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ أي ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب عند ظهور الإسلام، وبعد الموت، والله تعالى أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ»

* * *

سُورَةُ الزُّمَر

مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا القرآن العظيم تنزيل من الله جلَّ وعلاً ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبر، والتعرض لوصفي العزة، والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في الكتاب، على أساس الحِكَم الباهرة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متضمناً الحقَّ الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا يشوبه هزل أو باطل، والمراد بالكتاب هو القرآن، وإظهاره لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي من شوائب الشرك والرياء. ولفظ «التنزيل» يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً، على سبيل التدريج، ولفظ «الإنزال» يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: أن المعنى: إنَّا حكمنا حكماً كلياً جازماً،

بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه إليك يا محمد نجماً نجماً على وفق المصالح، وهذا هو التنزيل.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾ الخ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذي هو عبارة عن التوحيد، وبطلان الشرك، أي ألا فانتبهوا، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بالألوهية ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالملائكة، وعيسى، والأصنام، يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قربة، ويشفعوا لنا عنده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه، بالتوحيد والإشراك، وادعى كل منهم صحة ما انتحله، وحكمُه تعالى فيه إدخال المخلصين الجنة، والمشركين النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق ولكنه يخذله ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة.

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾.

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ استئناف لتحقيق الحق، وإبطال كذبهم بأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أي لو أراد الله أن يختار لنفسه ولداً ﴿ لَّاصْطَفَىٰ ﴾ أي لاتّخذ ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من جملة ما يخلقه ﴿ مَا يَشَاءُ ۚ ﴾ أن يتخذه، إذ لا موجود سواه، إلاّ وهو مخلوق له، ومن البيِّن أنّ

المخلوق لا يماثل خالقه، حتى يمكن اتخاذه ولداً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه عن ذلك تنزهاً بليغاً ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الواحد في ذاته، القاهر لعباده، فكيف يكون له ولد، والوحدانية تنافي المماثلة، والقهارية تنافي الحاجة إلى الذرية؟.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، والتكويرُ: اللفُّ والليُّ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي الغالب القادر على كل شيء، والمبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وقد اتفق علماء المعقول من المسلمين على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، ويدل عليه تعقيب الليل النهار لأن الأرض تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً، وهذا معلوم بالقطع في هذا العصر[١].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾.

---

(١) انظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه أدلة ساطعة على الموضوع.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ المراد بالنفس: نفسُ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يعني حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة: خلق آدم، وخلق حواء، ثم تشعيب الخلق منهما ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي قضى وأحدث لكم، بأسباب نازلة من السماء كالأمطار، وأشعة الشمس والكواكب ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ ذكراً وأنثى، هي: الإبلُ، والبقر، والضأنُ، والمعز ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ في أطوار مختلفة دالة على القدرة الباهرة ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي خلقا مدرجاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدِّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾ جل جلاله ﴿رَبُّكُمۡ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعده ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾ على الإطلاق، في الدنيا والآخرة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادته تعالى، مع وفور موجباتها ودواعيها، إلى عبادة غيره من غير داع إليها.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه الموجبة للإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ أي فإن الله غني عن إيمانكم وشكركم، ولا يرضى منكم الكفر وهو قول السلف، قالوا: كفرُ الكافر غير مرضٍ لله تعالى، وإن كان بإرادته، والرضا: عبارة عن مدح الشيء، والثناء على فعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد بان الفرق، وعدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ فتؤمنوا ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ أي يرضى الشكر لأجلكم، لأنه سبب

لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، حمل نفس أخرى، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا، أي يجازيكم بذلك، ثواباً وعقاباً، وهذا تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمضمرات قلوبكم، فكيف بالأعمال الظاهرة؟.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ كربٌ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعوه في حالة الرخاء لعلمه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل التخويل والعطاء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أي الناس بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الضال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي من ملازميها والمعذبين فيها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ من تمام الكلام كأنه قيل له تأكيداً للتهديد: أأنت

أحسن حالاً ومآلاً، أم من هو قائم بموجب الطاعات، ودائم على أداء وظائف العبادات؟ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي في ساعاته، حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي جامعاً بين الوصفين المحمودين، وآناء الليل ساعات الليل، أوله، ووسطه، وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل لأنه استر عن العيون فيكون أبعد من الرياء ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي يخاف من عذاب الآخرة ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية الكريمة على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته ويحذر عقابه. روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في حالة الموت، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف»[1] والرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدَّه يكون يأساً، وكلاهما محظور، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ يأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[2] ﴿قُلْ﴾ بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾؟ أي يعلمون حقائق الأحوال، كالقانت المذكور، والذين لا يعلمون شيئاً ما، وقيل هو وارد على سبيل التشبيه، أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون، بدأ الآية بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وأنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل، إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، قال صاحب الكشاف أراد ﴿الذين يعلمون﴾ الذين سبق ذكرهم،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٩٨٣ في الجنائز، وابن ماجه رقم ٤٢٦١ في الزهد.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

وهم القانتون، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يعملون بها، فهم عند الله جهلة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يتعظ بهذا أصحاب العقول، الخالصة عن شوائب الخلل.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أمِرَ رسولُ الله ﷺ بتذكير المؤمنين، وحملهم على التقوى، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به، فإن نقل عين أمر الله تعالى، أَدْخلُ في إيجاب الامتثال به ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ تعليل للأمر، أي لمن أحسن عمله وسار في طريق الهداية ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عبر عنه ﷺ حين سئل عن الإحسان، بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي حسنة عظيمة، وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه، فليهاجر الى حيث يتمكن فيه، كما هو سنة الأنبياء والصالحين، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ترغيب في التقوى المأمور بها، أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يحصى ولا يُحصر.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي عن كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك، قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ما

يحملك على هذا الدين، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات ملتك؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، كأنه ﷺ يقول: إني لست من الملوك الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به، فأنا أول الناس شروعاً فيه، وأكثرهم مداومة عليه.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة، وصف بالعظمة لعظمة ما فيه، من الدواهي والأهوال، والمقصود منه زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ مع جلالة قدره، إذا كان خائفاً من المعاصي فغيره أولى.

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ أمر ﷺ بالإخبار بامتثاله للأمر، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم، وتمهيداً لتهديدهم، فإن قيل: ما معنى التكرير؟ قلنا: هذا ليس بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالعبادة، والثاني إخبار بأنه لا يعبد غير الله، لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني الله أعبدُ لا أعبد أحداً سواه.

﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم ﴾ أن تعبدوه ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾ تعالى، وليس أمراً، بل المراد الزجرُ والتوبيخ، وقيل له ﷺ: خالفتَ دين آبائك، فقد خسرت، فنزلت ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ أي الكاملين في الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالضلال، ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالإضلال، باختيار الكفر بدل الإيمان، أي أضاعوهما ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ حين يدخلون النار، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي هو الخسران الواضح الفادح الذي لا خسران مثله، وفي تصديرها بحرف التنبيه، والإشارة بذلك، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين، مبالغة خالدة للتنفير عن عبادة غير الله.

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ نوع بيان لخسرانهم، بعد تهويله بطريق الإبهام، أي لهم كائنٌ من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة، بعضها فوق بعض، كائنة ﴿ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٌ ﴾ هي في الدركات للآخرين، أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض، والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَهُم مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1] ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي العذاب الفظيع الذي ﴿ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ ويحذرهم إياه، بآيات الوعيد، ليجتنبوا مما يوقعهم فيه ﴿ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٤١.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المراد به الشيطان، وقيل: الأصنام، والأوثان، وكلُّ ما يعبد من دون الرحمن ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إليه معرضين عما سواه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل من الملائكة عند حضور الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الحشر، وعند الدخول في الجنة، بالروح والراحة والريحان، وهذه البشارة تكون بزوال المكروهات، وبحصول المرادات، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم المَلائِكَةُ أَنْ لاَ تَخافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي بشّرهم بالنعيم المقيم في دار الجنان.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وضع عباد موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة إليه سبحانه، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندب اختاروا الواجب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أما في المعاملات مثل أنه تعالى شرع القصاص، والديةَ، والعفو، فيؤثرون العفو، لأنه تعالى قال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث فيه محاسنُ ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ للدين الحق ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي هم أصحابُ العقول السليمة، المستحقون للهداية، لا غيرهم من المكذبين الضالين.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؟ هم عبدة الطاغوت،

كما يلوح به التعبير عنهم بمن ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإن المراد بها قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنم..﴾ الخ وضع موضع الضمير ﴿مَنْ في النَّار﴾ للتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان، سعيٌ في إنقاذهم من النار.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٢٠﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ أي لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، أي لهم علالي بعضها فوق بعض ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ محكمة البناء، يعني الغرف العالية وإن كانت فوق بعضها، لكنها في القوة والشدة متينة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ من غير تفاوت بين العلوِّ والسفل ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدر مؤكد، أي وعدهم الله وعداً ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لأن خُلف الوعد نقصٌ، استحال عليه سبحانه، روي عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة ليتراءَوْن أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءَونَ الكوكبَ الدريَّ، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين»[1] قوله الغابر: أي الباقي في الأفق.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢١﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ تمثيل الحياة الدنيا في سرعة

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٦٦ ومسلم رقم ٢٨٣٠ في الجنة.

الزوال، تحذيراً من الاغترار بزهرتها، بإنزال الماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي فأدخله ﴿يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد، نابعة فيها ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع، والفواكه، والثمار، كما يخرج به أنواع الحبوب، من بر وشعير وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتم جفافه ويشرف أن يثور من منابته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعد خضرته ونضرته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوب الخلل، يتذكرون بذلك فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون على قدرة الله على كل شيء، والحطامُ: ما يجفُّ ويتفتت، ويُكسر من النبت.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحُ الصَّدر: عبارة عن تنوره بنور الإسلام، فإن الصدر محل للقلب، الذي هو منبع الروح، فانشراحه مستدع لاتساع القلب، واستضاءته بنوره ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو اللطف الإلٰهي الفائض عليه، عند مشاهدة الآيات التكوينية، والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجل ذكره، وهو أبلغ من أن يكون «عن ذكرِ الله» لأن القاسي من أجل الشيء، أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه، أي إذا ذُكر الله عندهم أو آياته، اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي بعدٍ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، والنفس إذا كانت خبيثة، فسماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، كحرارة الشمس تليّن الشمع، وتعقد الملح، فكذلك القرآن يليّن قلوب المؤمنين. عند سماعه، ولا يزيد الكافر إلا قسوة وغلظة.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ هو القرآن الكريم أحسن الحديث لفظاً ومعنىً، ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل نوع يخالف الكل، وكل ذي طبع سليم، يستطيبه ويستلذه ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ أي تشابه معانيه في الصحة والأحكام، وتناسب ألفاظه في الفصاحة والبيان، وتكامل نظمه في الإيجاز والإعجاز ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ هو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرَّر، لما ثُنِّي قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين، مثل الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والجنة والنار، ونحو ذلك، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي تضطرب وتفزع خوفاً مما فيه من الوعيد، روي عن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خيفة الله، تحاتت عنه ذنوبُه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي إذا ذكرت آيات الوعيد اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم، قال قتادة: هذا نعتُ أولياء الله، الذين نعتهم الله به، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قُرىء عليهم القرآنُ، خرَّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، رُوي أن ابن عمر مرَّ برجل ساقط، فقال: ما بال هذا قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن يسقط فقال ابن عمر: إنَّا لنخشى اللهَ وما نسقطُ! ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي

الكتاب الذي شرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلصه من الضلال.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حذف الخبر كما حذف في نظائره، والتقديرُ: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب، كمن أَمِنَ من العذاب؟ والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه، والذي يُلقى في النار، يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا قدرة له على الاتقاء أصلاً إلا بوجهه، وهذا أبشع أنواع العذاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جهة خزنة النار ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم، وضعَ المظهر للتسجيل عليهم بالظلم ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام، من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي من قبل كفار قريش، أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبونها، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي الذل والصغار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالقتل

والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور الدين ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كي يتذكروا به، ويتعظوا ببيانه.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي لا اختلال ولا تناقض فيه، فهو أبلغ من المستقيم، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للموحِّد والمشرك، إيراد الأمثال القرآنية، للتذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى أي جعل الله تعالى مثلاً للمشرك ﴿رَّجُلًا﴾ أي عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي يتشارك في هذا العبد جماعة ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازِعون، متخالفون، يأمر هذا بشيء، وينهى ذلك عنه، والشَّكسُ: السيِّئُ الخُلقِ، المخالف للناس، ولا يرضى بالإنصاف، وهذا مثل المشرك، يعبد آلهة شتَّىٰ ﴿وَرَجُلًا﴾ أي وجعل للموحِّد مثلاً عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ لفرد معين ليس لغيره عليه سبيلٌ أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي صفة وحالاً، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما لأن العبد المشترك فيه، لا

يدري أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد، فهو في التحير وتوزع قلبه، ومن كان له سيد واحد، فهمُّه واحد، وقلبه مجتمع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية إنما هو بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، فلا خلود لأحد في الدنيا ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سيموتون، أي إنكم جميعاً في صدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ، وهم قد لجُّوا في المكابرة والعناد في الدنيا، وقيل: المراد الاختصام العام بين الأنام، عن عبد الله ابن الزُّبير رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزُّبير: «يا رسول الله أنكون على الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم»[1] وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول: «ربنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمَّا كان يوم صفين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا».

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي هو أظلمُ من كل ظالم، من

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٣٦ وفيه: فقال الزبير: إن الأمر إذاً لشديد.

افترى على الله سبحانه كذباً، بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق، وهو ما جاء به الرسول ﷺ ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ أي في أول مجيئه، من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب، مأوى ومسكن في جهنم؟ بالصدق في أول الأمر.

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾.

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو الرسول ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي الموصُوفون بما ذكر من المجيء بالصدق، والتصديق به، هم المنعوتون بالتقوى التي هي أجلّ الرغائب.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون، في الآخرة، لا في الجنة كما قيل، لما أن بعض ما يشاؤون من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤون ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أي وعدهم الله زوال المضار، وحصول المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ خصّ الأسوأ للمبالغة، أي أعمالهم السيئة مهما عظمت، ويجوز أن يكون بمعنى السيّىء، أي يكفِّر عنهم الأعمال السيئة ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ

﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أي ويعطيهم ثوابهم، بأفضل محاسن أعمالهم، زيادة للأجر، لفرط إخلاصهم فيها.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات كأن الكفاية من التحقق والظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن ينكرها والمراد بالعبد رسول الله ﷺ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، عما قالت له قريش: إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها، كما قال قوم هود لنبيّهم: ﴿إنْ نَقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوء﴾ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة، من دون الله تعالى ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضلله عن طريق الهدى ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ يهديه إلى الحق.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ يصرفه عن مقصده، إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ﴾ غالب لا يُغالب ﴿ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لوضوح الدليل على تفرده بالخالقية ﴿قُلۡ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ

ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله عزَّ وجلَّ، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر، هل هنَّ يكشفن عني ذلك الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ فيمنعها عني؟ وتعليق الضر والرحمة بنفسه ﷺ، للرد في نحورهم، حيث كانوا خوَّفوه مضرة الأوثان ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في جميع أموري ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه، تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي، فحذف للاختصار، وللإشعار بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوة، بنصر الله وتأييده، ولذلك توعَّدهم بكونه منصوراً عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيُّنا الضالُّ؟.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه، دليلُ غلبته ﷺ، وقد أخزاهم الله تعالى في الدنيا، كما في يوم بدر وغيره ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، وهو عذاب النار، والمقصود التخويف.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً به ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل فيه

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصورٌ عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت، أو ظاهراً فقط كما عند النوم ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو المضروب لموته، قيل: لكل إنسانٍ نَفْسان: نفسٌ بها الحياة، ونَفْسٌ بها التمييز، فالتي تُتَوَفَّىٰ في المنام هي نفس التمييز، لا نفس الحياة، إذ لو زالت لزال معها التنفس، والنائم يتنفس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التوفي ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى، وحكمته، ورحمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في جلال الله وعظمته وقدرته، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، ومثل هذه التدابير لا يمكن أن تكون إلا عن تدبير القادر، العليم، الحكيم.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي بل اتخذ الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دونه تعالى ﴿شُفَعَآءَ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي قل لهم أتتخذونها شفعاء، ولو كانوا لا

يملكون شيئاً من الأشياء، ولا عقل لهم؟ وجواب «لو» محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعة ما، إلاّ أن يكون المشفوع له مرضياً عنه والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تقرير له وتأكيد، أي له ملكهما وما فيهما، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى مع ذكر الله تعالى ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى، ولقد بولغ في بيان حالتيهم حيث إن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً حتى ينقبض جلد وجهه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٤٦﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي التجىء إليه

تعالى بالدعاء، إذا تحيرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة المكابرة والعناد، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وهذا يشمل كل مكابر ومعاند، وكل مؤمن وجاحد، عن أبي سلمة قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها أيَّ شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهمَّ ربَّ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماواتِ والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، فاهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الأرض من الأموال ومثله معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب، وهيهات أن ينفعهم ذلك، وهذا وعيد شديد ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم حين تعرض عليهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم.

صحائفهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده، أي أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي على علمٍ مني بوجوه كسبه، أو أعطاه لما عَلِم أني له أهل ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة، وابتلاء، واستدراج، وهو رد لما قاله، وتغيير السبك للمبالغة فيه، والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن الكرامة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير لقوله: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقارون حيث قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين، أو المفرطون في الظلم والعتو ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب أولئك، والسينُ للتأكيد، وقد أصابهم حيث قُحطوا

سبع سنين، وقُتل صناديدهم يوم بدر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين من عذاب الله، لأن مرجعهم إليه تعالى.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي أقالوا ذلك ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيق على من يشاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على أن كل ما يحدث بتقدير الله جل وعلا، كما قال الشاعر:

فَلاَ السَّعْدُ يَقْضِي به المُشْتَرِي ... ولاَ النَّحْسُ يقضِي عَلَيْنا زُحَلْ
وَلَكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ ... وَقَاضِي القَضَاةِ تَعَالَى وَجَلْ

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد إليه لتخصيص المؤمنين به، على ما هو عرف القرآن الكريم ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن يشاء فيما عدا الشرك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب، والآية دالة على كمال الرحمة والغفران، نسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العصيان بفضله ورحمته.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي اخلصوا له العمل ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ أي تمنعون منه.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والزموا هديه، فهو أحسن كتاب أنزل إليكم من ربكم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه، لتتداركوا وتتأهبوا له.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة، أي، احضري هذا أوان حضورك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في جانبه، وفي حقه وطاعته ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي المستهزئين بدين الله وأهله، أي فرطت وأنا ساخر.

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي الشرك والمعاصي.

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل و«أو» للدلالة على أنه لا يخلو عن هذه الأقوال، تحسراً وتعللاً، بما لا طائل تحته وقوله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ رد من الله تعالى عليه، أي قد جاءتك آياتي، وبينت لك الهداية من الغواية، لكن تركت ذلك، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، فلا عذر لك.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه تعالى كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والهول، والذل والخزي ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؟ أي منزل ومقام ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة؟ بلى لهم مسكن ومأوى في دار الجحيم.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشرك والمعصية أي ينجيهم من جهنم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم وفوزهم بما يشتهون، أي ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين، ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي لا

يصيبهم الهلع والجزع، ولا تمسهم نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يمس أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ أي خالق جميع الأشياء، وموجد جميع المخلوقات، وكل شيء يجري من خير وشر، وإيمان وكفر، بقضاء منه، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي لا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، لأن الخزائن لا يتصرف فيها، إلاّ من بيده مفاتيح الخزائن، والمقاليد هي المفاتيح جمع مقلاد وهو المفتاح ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المعنى: إن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء، والمتصرف فيها كيفما يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، والذين كفروا بآياته التكوينية والتنزيلية هم الخاسرون أشد الخسران، لأنهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾.

﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي أبعد مشاهدة هذه الآيات، غيرَ الله أعبد؟ و ﴿تأمرونّي﴾ اعتراضٌ، للدلالة على أنهم أمروه به، لفرط غباوتهم، وقد وصفهم بالجهل، لأن الدليل القاطع، قد قام بأنه تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره، فمن عبد غيره بعد ذلك فهو جاهل.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الرسل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض، لتهييج الرسل عليهم السلام، وإقناط الكفرة، والإيذان بشناعة الإشراك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الناس، أو أمته الذين آمنوا به، تخويفاً لهم من عقوبة الإشراك.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ردٌّ لما أمروه به ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لإنعام ربك عليك بنعمة الإيمان والقرآن.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى، ولا عظَّموه حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، هذه الأشياء الخسيسة، ووصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾ تنبيه على عظمته، وكمال قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، فالكون كله خاضع لإرادته وتدبيره، كقولهم شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض، وهي المقدار المقبوض بالكف ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنَّزه عن الشريك والنظير، والزوجة والولد.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات، يقومون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ليس هي التي نقعد عليها الآن، بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غير الأرض والسَّموَاتُ﴾ بل هي أرض أخرى، يخلقها الله تعالى، لمحفل يوم القيامة ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه نوراً لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمة، أو بنورٍ خلَقه فيها، بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل، كبيت الله، وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الحساب والجزاء وصحائف الأعمال ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الملائكة والمؤمنين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بين العباد بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاء أعمالها، من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ ﴾ أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة، أفواجاً متفرقة، والزُّمَرُ: جمع زمرة وهي الجماعة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ وكانت قبل ذلك مغلقة، فتحت فجأة لتستقبلهم ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ ﴾ توبيخاً، والخزنة: حفظةُ جهنم وهم الملائكة الموكَّلون بتعذيب أهلها ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾؟ أي من جنسكم من البشر ﴿ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾؟ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، واستعمال لفظ يوم في أوقات الشدة مستفيض، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، لأنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أتونا وتلوا علينا وأنذرونا ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ وقد كنا ممن تبعه، كذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين، عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل: سيقت مراكبهُم، إذ لا يُذهب بهم إلاّ راكبين، ﴿ زُمَرًا ﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلوّ الطبقة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان، وفيه دليل على أن أبواب الجنة، تفتح لهم قبل مجيئهم، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾[1] ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي، أو طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أي ادخلوا جنة النعيم والخلود، ماكثين فيها أبداً دون خروج ولا انتهاء.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ بالبعث والثواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه، أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة، على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردها ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي نعم ثواب المطيعين الجنة.

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة صٓ، آية: ٥٠.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ أي محدقين، محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ بحافته وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واكرامه، تلذذاً به، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين، و أعلى لذائذهم، هو الاستغراق في شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أن الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ﴾ والله أعلم بمراده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه جل وعلا تفسير سورة الزمر»

* * *

سُورَةُ غَافِرٍ

مكية وآيها خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وهو اسم للسورة.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساتر ذنب المؤمنين، الغَفْرُ: هو الستر، أي يستر ذنب المسيء، ويتوب على التائب، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ والتوب مصدر كالتوبة ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ ذي الفضل والإنعام على العارفين، والطَّوْلُ: الفضل بترك العقاب المستحق، والإنعامُ الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، فهو الموصوفُ بالوحدانية، التي لا يوصف بها غيره، فيجب الإقبال على طاعته، في أوامره، ونواهيه ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فحسب، لا إلى غيره، فيجازي كلاً من المطيع والعاصي بما يستحقه.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ ﴾.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بالطعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة، لإدحاض الحق كقوله تعالى بعده ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بها، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة، فضلاً عن الطعن فيها، وأما الجدال فيها بحل مشكلاتها، وكشفِ معضلاتها، واستنباط حقائقها، وتوضيح مناهج الحق، وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال، فمن أعظم الطاعات، وأكبر جهاد في سبيل الله[1] والمقصود بالآية الأول، وهو الاختلاف والطعن في آيات الله بإثارة الشبه، كما روى مسلم عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال ﷺ: «إنما هَلَك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب»[2] ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أي فلا يغررك إمهالهم، وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في أسفارهم بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عن قريب.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ ﴾.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل، وناصبوهم العداء، وهم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم

---

(١) الجدال في القرآن نوعان: جدالٌ في تقرير الحق، وإبطال شبه الضالين، فهو جهاد وعمل ممدوح، وهو حرفة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وجدال لتقرير الباطل، وبثّ الشبه والأباطيل، وهذا هو المراد بالآية هنا، وهو جدال الكفرة في الآيات.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٦٦٦ باب النهي عن المتشابه في القرآن.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه، فيصيبوا به ما أرادوا، ويبطشوا به وبأتباعه، من تعذيب أو قتل، من الأخذ بمعنى الأسر ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا حقيقة له أصلاً ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي ليبطلوا ويزيلوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر، بالهلاك السريع ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم، وجب أيضاً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي كفروا بك وتحزبوا عليك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار أبداً. روي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب يعني الخمر، فقال عمر لمكاتبه: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ. تنزيل الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصيرُ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر مَنْ عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: وعدني الله أن يغفر لي، وحذَّرني من عقابه، فلم يبرح يردِّدها حتى بكى، ثم نَزَع فأحسن النزوع والترك، وحسنت توبته، فلمَّا بلغ عمر أمرَه، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلَّ، فسدِّدوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوان الشياطين عليه»[1].

---

(١) انظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للشيخ الطنطاوي.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ وهم سادة الملائكة، وحملهم إياه حفظهم وتدبيرهم له كما قال سبحانه: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي ينزهون الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، حامدين له على نعمائه، والجملة استئناف مسوق للتسلية، ببيان أن أشراف الملائكة، مثابرون على ولاية الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، كأنه تعالى يقول: إنَّ هؤلاء الكفار يبالغون في العداوة، فلا تبالِ بهم، فإنَّ حملة العرش، ومن حوله معك، ويبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ﴿ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ إيماناً حقيقياً، والتصريح به لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ ﴾ فإن المشاركة في الإيمان، أقوىٰ المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة ﴿ رَبَّنَا ﴾ على إرادة القول، أي يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ أي وسعتْ رحمتُك وعلمك كل شيء، وفي وصفه تعالى بالرحمة والعلم، مزيدُ تعظيم للرب جلَّ وعلا وتقديم الرحمة، لأنها المقصودة بالذات ههنا ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ أي الذين علمت منهم التوبة الصادقة، واتباع سبيل الحق ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ واحفظهم من نار جهنم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ ﴾ عطف على قهم ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ ﴾ أي صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في

الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، أي وأدخل معهم هؤلاء، ليتم سرورهم بهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي العقوبات عقوبات المعاصي، بمعنى احفظهم من فعل المعاصي، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ أي ومن تقه المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى دخول الجنة، والوقاية من نار الجحيم ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار، وهم الذين يجادلون في آيات الله ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي من مكان بعيد، وهم في النار، والمنادي هم خزنة جهنم، يقولون لأهل النار، وقد مقتَ بعضهم بعضاً، بسبب الضلال والإضلال، ولعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بَعْضاً﴾[1] فيقال عند ذلك لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المقت: أشدُّ البغض، أي لبغضُ الله الشديد لكم في الدنيا، أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي حين كنتم تدعون من جهة الأنبياء ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ اتباعاً لأهوائكم، واقتداءً لأخلاّئكم المضلين.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي إماتتين، وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرونَ باللهِ وكُنتُمْ أَمْواتاً فأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[1] وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الحياة الأولى، في الدنيا، وإحياء البعث واحتج أكثر العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر كما نصت عليه السنة النبوية أيضاً ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ فلما شاهدوا البعث، اعترفوا بذنبهم، ليتوسلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم، من الرجعة إلى الدنيا، كما قد صرَّحوا به، حيث قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي هل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ قالوه مع نوع استبعاد له، واستشعار يأس منه، وتنكير ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟.

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ جواب لهم باستحالة ما يرجون، أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿ بِأَنَّهُۥٓ ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ ﴾ في الدنيا، أي عُبد ﴿ وَحْدَهُۥ ﴾ أي منفرداً ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بتوحيده ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي بالإشراك به، وتسارعوا فيه، وحيث كان حالكم كذلك ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ﴿ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨.

ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والمشبِّهة استدلوا بالعلو في الجهة، والكبير في الجثة، وكل ذلك باطل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ من السحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها الدالة على شؤونه العظيمة، الموجبة لتفرده بالألوهية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات، لكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته، الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يريكم﴾ و ﴿ينزّلُ﴾ للدلالة على تجدد ذلك، حيناً بعد حين، فإنَّ أهم المهمات، رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فالله سبحانه راعي مصالح الأديان بإنزال الآيات، ومصالح الأبدان بإنزال الأرزاق، وعند حصولهما يحصل الإنعام التام، على أكمل الجهات ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة، والنعم الكثيرة، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويتفكر فيما أودعه الله في تضاعيف مصنوعاته، من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَنْ ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاعبدوه أيها المؤمنون، مخلصين له دينكم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ذلك، وغاظَهم إخلاصكم.

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي، ويحتمل أن يكون المراد منه الرافع، لأنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ورافعُ درجاتِ العلماء، فللملائكة درجاتٌ معيَّنة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾[1] وقال في حق العلماء: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والذين أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] ﴿ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي مالكه وخالقه، فهو صاحب العرش العظيم الذي لا يعلم سعته إلا الله، ذكره تعالى إيذاناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجبَيْن لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه، فالمراد بالروح «الوحيُ الرباني» سمي روحاً لأنه يسري إلى النفس كسريان الروح في الجسد، ذكره تعالى بعد بيان إنزال الرزق الجسماني، لأنه لا بدَّ من غذاء الروح، وغذاء الجسد، وقوله تعالى: ﴿مِن أمرِهِ﴾ أي بسبب أمره بالخير ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي على أنبيائه ورسله، وهم الذين اصطفاهم للرسالة، وتبليغ أحكامه إلى عباده ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ وهو يوم القيامة، لأنه يتلاقى فيه أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم.

﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ أي خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء،

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٦٤.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١.

كما جاء في الحديث «يحشرون عُراة حُفاة» ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي شيء ما من أعمالهم، وأحوالهم، الجليّة والخفية، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، أي يقال لمن الملك؟ أي ينادي مناد لمن الملك؟ فيجيبه أهل المحشر، لله الواحد القهار، وقيل: المجيب والسائل هو الله تعالى، ينادي الله جل وعلا، لمن الملك اليوم، فيسكت الخلائق هيبةً لله وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً: ﴿لله رب العالمين﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم ـ يوم الحشر بين العباد ـ، تجازى كلُّ نفس من النفوس، البرَّة والفاجرة، بما كسبت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريعٌ حسابهُ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقد ورد في الخبر «لا ينتصف النهار حتى يَقِيل ـ أي يستريح ـ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار»[1].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي يوم القيامة، سميت بها لأزوفها وهو القرب،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ١٥/٣٠١ والقيلولة هي الاستراحة وقت الظهيرة.

غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أَزِف الرحيلُ: أي قَرُب، والإنسانُ عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفُه، فكأنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ولهذا قال: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآزفة، فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي ممتلئين همّاً وحسرة، كاظمين على الغمِّ والكربة ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق أو صديق مخلص ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم، لينقذهم من العذاب.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة بمسارقة النظر، قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارعهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر والأسرار.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلاَّ وهو حقٌّ وعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات، والجماد لا يقال في حقه يقضي، أو لا يقضي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، وهو وعيدٌ للخلق.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وثمود ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَآثَارًا ﴾ مثل القلاع الحصينة، والمدائن المتينة ﴿ فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يقيهم من العذاب، وينجيهم من الهول والكرب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الظاهرات ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه شديد، وعذابه وجيع، لا يؤبه عند عقابه عقابٌ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي معجزاته ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة تدل على صدقه.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فيما أظهره من المعجزات، وفيما ادعاه من الرسالة، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وبيان لعاقبة من هم أشد من كفار مكة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ كما قال فرعون (سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم) وهذا القتل غير القتل الذي وقع في ولادة موسى عليه السلام، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الوِلْدان، فلمَّا بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه وقع ما وقع، أعاده عليهم، غيظاً وحنقاً، زعماً منه أنه يصدهم بذلك عن دين موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع، وفي تخبُّطٍ وخسران، بعيد عن نور الإيمان.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي اتركوني لأقتل لكم موسى، يقوله لقومه كأنه يستشيرهم في قتله، وفي الطاغية خبث وجبروت، فقد كان فرعون سفاكاً للدماء لأهون الأشياء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثُلُّ عرشه؟ والظاهر أن فرعون لعنه الله، كان قد استيقن أنه نبي، ولكنْ كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجله الله بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهاً على قومه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تجلُّدٌ منه، وإظهار لعدم المبالاةِ بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه لعلمه بصدقه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي أن يغيِّر ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عبادة الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي يثير الفتن والأحداث في بلدكم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه حين سمع بما يقوله من حديث قتله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّر كلامه بإن تأكيداً له، وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وخصَّ اسم الرب المنبىء عن الحفظِ والتربية، وإضافته إليه وإلى قومه حثاً لهم على موافقته في العياذة، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة، لأن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة، قوي ذلك جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلاة بالجماعة، ولم يسمّ فرعون لتعميم الاستعاذة من كل طاغية متكبر.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كان ابن عم لفرعون، آمن بموسى سراً وكان من الأقباط ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ من فرعون وملئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي أتقصدون قتله ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي لأن يقول ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي وحده، من غير رويّة وتأملٍ في أمره ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطى كذبه أحداً منكم فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[1] أي ينزل بكم

(١) إنما ذكر البعض تلطفاً بهم، مبالغاً في نصحهم، وإلا فهو موقن بأن العذاب الذي أوعدهم به موسى سينزل بهم كله، وإنما لم يقل يصبكم كل العذاب، لئلا يعلموا أنه على دينه، وأنه متعصب لموسى عليه السلام.

بعضُ ما وعدكم به، إن تعرضتم له بسوء، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف، وعدم التعصب، ولذلك قدَّم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذَّاباً، لما هداه الله إلى البينات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله فلا حاجة إلى قتله، وقد عرَّض به بكلامه على فرعون، بأنه مسرف كذاب، لا يهديه الله سبيل الصواب، ما زاد موسى عليه السلام في دفع فرعون، على الاستعاذة بالله، فقيَّض الله تعالى إنساناً أجنبياً، حتى ذبَّ عنه تلك الفتنة والشر، ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشر، لم أتعرض له، وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله تعالى، فإنه سبحانه يقيِّض أقواماً لا أعرفهم يبالغون في دفع ذلك الشر عني.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩)﴾.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ أي من أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ بقتل موسى ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ بعدما سمع نصحه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أستصوبه من قتله ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي الصواب، يقول ذلك متظاهراً بالجَلد والشجاعة، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلَّد، ولولاه لما استشار أحداً!!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠)﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له بالسوء

﴿مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، كيف أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب، بالفرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، وفيه مبالغة حيث نفى إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن مجرد الإرادة، كان عن الظلم أبعد.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، و ﴿يوم التناد﴾ يوم القيامة، حيث ينادي فيه المجرمون بالويل والثبور.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارين عنها ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضماً إلى تكذيب رسالته، تكذيب رسالة من بعده، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمنِّي، من غير حجة ولا برهان، وجعلوه أساساً في تكذيب الأنبياء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما تشهد به الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي بغير حجة صالحة للتمسك بها، بل بالتقليد الأعمى ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ أي جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عند الله وعند المؤمنين، وفيه ضربٌ من التعجب والاستعظام، كأنه يقول: ما أعظمه؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب، والمجادلة بالباطل، قالوا: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة لخلق الله، والتكبر كالمضاد للتعظيم، والتجبر كالمضادِّ للشفقة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً شامخاً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطُّرق الموصلة إلى السماوات العُلى.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها، أي طرق السموات وما يؤدي إليها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في ادعائه بوجود إله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه وكان لا يرعوي بحال ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ أي سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، والمزيِّن هو الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾(1) وقرىء بالفتح على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسارٍ وهلاك، ونظيره ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي خسران.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون، نادىٰ قومه ثلاث مرات، ناصحاً ومذكراً، وهو إنما تعلَّم هذا من موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال، لأنه إنما يدعو قومه إلى الظلم والطغيان.

---

(1) سورة النمل، آية: ٢٤.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها ﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله، وجعل العمل عمدة، والإيمان أساساً، للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، ولهذا جاءت الجملة اسمية ﴿ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؟ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له.

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه يقول: أنا أعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والسعادة، وتدعونني إلى النار والجحيم، بسبب الكفر بالله العظيم؟ ﴿ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ ﴾ أي بشركته

له سبحانه في المعبودية ﴿عِلْمٌ﴾ أي بربوبيته، والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، الجامع لجميع صفات الألوهية، من كمال القدرة، والإرادة، والتمكن من المجازاة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي حقاً ثابتاً، أنه لا شك في بطلان ما أنتم عليه، من دعوة آلهتكم إلى عبادتها، لأنها جمادات، ليس لها ما يقتضي القدرة على شيء، لا تقدر على تفريج كربة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى بالموت، عطف على ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلال والطغيان، كالإشراك بالله، وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قاله لمّا توعّدوه بالقتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي شدائد مكرهم، وما همّوا به من

إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي نزل بفرعون وقومه، وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك العقاب ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي نزل بهم أسوأ أنواع العذاب، ثم فسَّره بقوله:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ المراد بعرضهم على النار إحراقهم بها، من قولهم: عُرض الأسارى على السيف، إذا قُتلوا به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وذكرُ الوقتين للتأبيد، كأنه يقول: عذابهم مستمر ما دامت الدنيا، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات، عُرض عليه مقعدهُ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة»[1] فدَلّ هذا على أن العذاب مستمر، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يقال لهم: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم ﴿أَشَدَّ العَذَاب﴾ أي هي أشد من كل عذاب نالوه قبل ذلك، وهذه الآية دليلُ على عذابٌ القبر، لأن عرض النار عليهم كان بعد الموت، وقبل البعث.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها

(١) أخرجه البخاري ٣/١٩٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، والترمذي رقم ١٠٧٢ باب ما جاء في عذاب القبر.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساؤهم أكابر مجرميها ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي أتباعاً، كخَدَم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ بالدفع أو بالحمل؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي نحن وأنتم فيها، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا على إزالة العذاب، لرفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً لا مردَّ له، ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً، حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لحرَّاسها، ووضعُ جهنم موضع الضمير للتهويل، ولبيان أنهم في أبعد دركات الجحيم ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ولو مقدار يومٍ واحد من هذا العذاب، واقتصارهم على هذا، دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه، لأن ذلك عندهم شبيه بالمستحيل، ولا يدخل تحت أمانيهم.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الخزنة توبيخاً ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ أي أما كانت الرسل تأتيكم في الدنيا بالحجج الواضحة، الدالة على سوء حال ما كنتم عليه؟ أرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات

الدعاء ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿قالوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[1] ﴿قَالُواْ فَادْعُواْ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء للكاذبين، مما يستحيل منَّا ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يُسمع، لأنه دعاء الكافر الفاجر، وما دعاء الكافر إلاَّ في ضياع وبطلان، وهو من تتمة كلام خزنة جهنم.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفار من صورة الغلبة امتحاناً، إذ العبرةُ إنما هي بالعواقب، وهذا الكلام مسوق من جهته تعالى، لبيان أن ما أصاب الكفرة من لوازم ما تقتضيه الحكمة، وهي نصرة الرسل الكرام وأتباعهم في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي القيامة، عبَّر عنها بذلك، للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي جهنم.

---

(١) سورة الملك، آية: ٩.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدي به من المعجزات، والصحف، والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة التي أنزلها الله على موسى.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي هداية وتذكرة، أو هادياً ومذكراً ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] أو وعده الخاص بك، أو جميع مواعده تعالى ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واعتبرْ بحال موسى وفرعون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي تداركْ لما فرط منك من ترك الأولى، فإنه تعالى كافيك في نصرة دينك، وإظهاره على الدين كله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي دم على التسبيح، ملتبساً بحمده.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١ ـ ١٧٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ في ذلك من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك، للتنبيه على أن التكلم في أمر الدين، لا بد من استناده إلى سلطان مبين، وهذا عام لكل مجادل مبطل، وإن نزل في مشركي مكة ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ أي ما في قلوبهم إلاَّ تكبر عن الحق، وتعظُّمٌ عن التفكر والتدبر، يمنعهم من اتِّباعك، حسداً وبغضاً ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ صفة لكبر، أي ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، ولا بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أي فالتجىء إليه تعالى، من كيد من يحسدك، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحق، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، من أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيۡسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾(1) ؟ وهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولا يؤمنون بالبعث، ولما وصف الله جدالهم، ذكر لهذا مثالاً فقال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ والقادرُ على الأكبر، قادرٌ على الأصغر، لامحالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ خلق الأصغر، أسهل من خلق الأكبر، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم.

---

(1) سورة يسٓ، آية: ٨١.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي الغافل والمتبصر، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي ولا يستوي البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً بمعنى: ما أقلَّ من يتذكَّر منكم؟!.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في مجيئها، لوضوح شواهدها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي الكفار الذين ينكرون البعث ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقصور أنظارهم، وقصرها على ظواهر ما يحسُّون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ أي اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي أثبكم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين، وإن فسر الدعاء بالسؤال، كان الأمر الصارف عنه، منزَّلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه أفضل أبوابها، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

«الدعاءُ هو العبادة، وقرأ ﷺ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم..﴾ الآية»[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ بأن خلقه بارداً مظلماً، ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس، لتستريحوا فيه ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي فضلٍ عظيم، لا يدانيه ولا يوازيه فضل ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم، واعتقادهم أن هذه النعمة ليست من الله، ثم إن النعمة إذا دامت واستمرت نسي الإنسان كونها نعمة، فإذا ابتلي بفقدان شيء منها، عَرَف قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس ـ والعياذُ بالله ـ أن يحبسه بعضُ الظلمة، في بئر عميقة مظلمة، مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان، قدر نعمة الهواء الصافي، والضوء، ورأيت بعضهم يُعذَّب بمنعه عن الاستناد والنوم.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالخلق ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه أخبار مترادفة، أي هو الجامع بين الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والخالقية لكل شيء ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي فكيف ومن أيِّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٤٧٩ في الصلاة، والترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف العجيب، يُصرف عن الإيمان كل من جحد بآياته تعالى، أيَّ آية كانت، ويُصرف عن الهدى والحق، إلى العمى والضلال!!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي جعل الأرض ممهدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل السماء كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، فضلاً منه وكرماً ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبي القامة، ولم يخلقكم منكوسين كالبهائم، وجعل صوركم أحسن الصور ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ﴾ أي اللذائذ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ أي ذلكم الفاعل لِمَا ذُكر ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي مالكهم ومربيهم، والكلُّ تحت ملكوته، مفتقر إليه في ذاته، وسائر أحواله، بحيث لو انقطع فيضه عنه ثانية، لانعدم بالكلية.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، إذْ لا وجود يدانيه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾ أي مخلصين الطاعة والعبادة، من الشرك الجلي، والخفي ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً له على نعمة الخلق والإبداع.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها من الأوثان والأصنام، وذلك حين طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان قيل هذا ﴿ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ من الحجج والآيات الكونية، والتنزيلية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بأن أخلص له ديني.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي هو جل وعلا الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة من الماء المهين، وجعل الإنسان يمرُّ في أدوار وأطوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى اكتمال نمو الطفل، ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً ضعيفاً، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي من قبل الشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعقلوا ما في ذلك من الحكم والعبر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾ أي يُحيي الأموات، ويميت الأحياء، ويفعل الإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه

إلى مُدَّة، وتجشم كلفة، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾؟ تعجب من أحوالهم، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين، المجادلين في آيات الله تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان، كيف يصرفون عن التصديق بها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها؟.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي بالقرآن والكتب السماوية، فإن تكذيبه تكذيب للكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الأولى، للدلالة على تجدد المجادلة ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند عقوبتهما.

﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يسحبون بها.

﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فِي الْحَمِيمِ ﴾ أي يُجرُّون في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون، والمراد بيان أنهم يُعذبون بأنواع العذاب.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين الأوثان التي عبدتموها من دون الله تعالى؟.

﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي غابوا عنّا، بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا عبادتهم لحيرتهم واضطرابهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي الإضلال ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تبصرون وتتكبرون ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بالشرك والطغيان ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تتوسعون في البطر والأشر، وتتكبرون عن عبادة الله.

﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة، قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدَّراً خلودكم فيها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي عن الحق، والتعبير بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود الدائم، فهي المأوى والمسكن لهم.

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٤٤.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي فاصبر يا محمد على إيذائهم، وعلى ضروب ما ترى منهم من بلاء، فعمّا قريب سترى ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ بتعذيبهم ﴿ حَقّٞۚ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ وهو القتلُ والأسر﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، ولن يُفلتوا من عقابنا.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ ﴾ فإنَّ عدد الأنبياء كبير مائة وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الحديث الشريف، والمذكور أفراد معدودة، أي منهم من أخبرناك عن قصصهم وأخبارهم مع أممهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأحوالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي ما صحَّ لرسول من الرسل ﴿ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي أن يأتي قومه بشيء من المعجزات، إلاَّ بأمر الله تعالى وإذنه، فإن المعجزة على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، وهذا ردٌّ على كفار قريش، حيث قالوا للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأجرِ لنا الأنهار في فجاج مكة!! ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل، فيدخل فيه المعاندون، المقترحون للمعجزات على سبيل التعنُّت.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَـٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَـٰمَ ﴾ قيل هي للإبل خاصة، أي خلقها لأجلكم ومصلحتكم، وقيل: هي الأزواج الثمانية «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وهو الأصح ﴿ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا ﴾ كالإبل ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ كالغنم والبقر.

﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ أخر كألبانها، وأوبارها، وجلودها ﴿ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمۡ ﴾ بحمل أثقالكم من بلدٍ إلى بلد ﴿ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون أنتم وذرياتكم، وإنما قرن سبحانه بين الإبل والسفن، لما بينهما من المناسبة المتينة، حتى سميت الإبل «سفن البر».

﴿ وَيُرِيكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَيُرِيكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته، ووفور رحمته ﴿ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة ﴿ تُنكِرُونَ ﴾؟ فإن كلاًّ منها من الظهور، بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل.

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كانوا أكثر عدداً من كفار مكة، وأقوى منهم قوة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي أيّ شيء أغنى عنهم مكسوبهم؟ لم تعصمهم قوةٌ، ولا كثرةٌ، ولا عمرانٌ، يعني لو ساروا لعرفوا، أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك، مع أنهم كانوا أكثر عَدداً وعُدداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي العلم بأمور الدنيا الخالي عن نور الهداية والوحي وهو ما لهم من العقائد الزائغة، وتسميتها علماً للتهكم بهم، والمراد بفرحهم ضحكهم واستهزاؤهم بهم، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي فلما رأوا العذاب آمنوا، وخضعوا، واستسلموا، وقالوا آمنا بأن الله واحد، وكفرنا بما كنا به مشركين، يعنون بذلك الأصنام والأوثان، التي عبدوها من دون الله تعالى.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ لامتناع قبوله حينئذ، لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي سنَّ الله تعالى ذلك، سنة ماضية في العباد ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس والعذاب. يا من تقاصرت عن الإحاطة بجليل أسرار كبريائه أفهام المتفكرين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المخذولين والمحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

* * *

سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ﴾ المراد به المنزَّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر، مجاز مشهور، يقال: هذا الدرهم ضربُ السلطان أي مضروبه، أي هذا القرآن العظيم منزَّل ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته الأكوان، وعمَّ فضله جميع الخلق من إنس وجان، ونسبة التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» للإيذان بأنه محقق للمصالح الدينية، والدنيوية، وواقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ يعني أنه كتاب منزلٌ من ربّ العزَّة والجلال، يمقتضىٰ رحمته للعباد.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي ميزت بحسب النظم والمعنى، في أساليب مختلفة، ومعان متغايرة، من أحكام، وقصص، ومواعظ، وأمثال، ووعد، ووعيد، وبالجملة فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق، كتاب اجتمع

فيه من العلوم المختلفة، مثل ما في القرآن الكريم ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب قرآناً عربياً، واضحاً جلياً، معجزاً في فصاحته وبيانه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم، وقيل: لأهل العلم لأنهم هم المنتفعون به.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره، فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، والقرآن ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، وأصله الثقل ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن إدارك الحقّ وقبوله ﴿فَاعْمَلْ﴾ أي على دينك، وفي إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي مستمرون على ديننا، وقيل: في إبطال أمرك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تلقينٌ للجواب عنه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لستُ من جنس مغايرٍ لكم، حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين، بل إنما أنا

بشر مثلكم مأمور بما أُمرتم به ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد، جامع بيني وبينكم، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ تعالى بالتوحيد، والإخلاص في العمل ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة، وسوء العمل ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك، إثر ترغيبهم في التوحيد، والاستقامة في العمل.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي هلاك ودمار للمشركين، وَصَفهم بذلك لزيادة التحذير عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة، وقيل معناه: لا يفعلون ما يزكِّي أنفسهم، وهو الإيمانُ، والطاعة.

وسعادة الإنسان مربوطة بأمرين: ١ ـ التعظيم لأمر الله. ٢ ـ والشفقة على خلق الله.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي وهم منكرون للآخرة، جاحدون للقاء الله، لا يؤمنون بالبعث والنشور. أثبت تعالى الويل، لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة.

١ ـ أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وويلٌ للمشركين﴾.

٢ ـ كونه ممتنعاً من الزكاة، وهو ضد الشفقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾.

٣ ـ كونه منكراً للقيامة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وإذا كان الإنسان في هذه المراتب الثلاثة؛ كان في نهاية الجهل والضلالة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لا يمنُّ به عليهم، لأنه تعالى لمَّا سمَّاه أجراً، فإن الأجر لا يوجب المنة، وقيل: ﴿غير ممنون﴾ أي دائم غير مقطوع، ومن إكرام الله للمؤمن، أنه إذا مرض، أو عجز عن الطاعة، كتب له أجره كاملاً، لما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً، فشغله عنه مرضٌ، أو سفر، كَتَبَ الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم»[1].

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم، و «إن»، و «اللام» لتأكيد الإنكار، وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بالذي خلق الأرض﴾ لتعظيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم، والتعجيب منه، فكأنه يقول مَنْ قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر، وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعْقل جعلُ هذه الأصنام الخسيسَة نِدّاً له؟ وقوله تعالى: ﴿في يومين﴾ أي حكم وقدَّر بأنها ستوجد في مقدار يومين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي وتجعلون له أنداداً، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ندٌّ واحد ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٩٥ وأبو داود في الجنائز رقم ٣٠٩١.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي كائنة من فوقها، وهي الجبال، مرتفعة عليها، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى خالق، وحافظ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي قدَّر أن يكثر خيرها، بأن يخلق أنواع الحيوانات، وأصناف النباتات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي حكم بالفعل بأن يوجد لأهلها، من الأنواع المختلفة، أقواتها المناسبة لها، على مقدارٍ معيَّن، تقتضيه الحكمة ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدَّر حصول الأمور المذكورة في الأرض في يومين، فصار مع اليومين الأولين في أربعة أيام ﴿سَوَآءً﴾ أي تلك الأيام الأربعة، أيام كاملة مستوية، لا زيادة فيها ولا نقصان ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي لأجل من سأل، في كم خُلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ شروع في كيفية التكوين، إثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها، لاعتنائه تعالى بأمر المخاطبين، وترتيب معاشهم، قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي دخان مرتفع من الماء وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض حين خُلقت، كما ذكره الحافظ ابن كثير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها ﴿ٱئْتِيَا﴾ أي كونا على وجه معين، وفي وقت مقدر، أو استجيبا لأمري طائعَيْن أو كارهتين، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك أي طائعتين أو كارهتَين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي منقادين، تمثيل لكمال تأثرهما بالذات وحصولهما كما أُمرتا به[1].

---

(١) لنقف وقفةً قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإنَّ فيه سراً عجيباً، يفوق الخيالَ في =

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفصيل لتكوين السماء المجمل، أي خلقهن خلقاً محكماً، وأتقن أمرهنَّ، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي في وقتٍ مقدَّر بيومين، فكان خلق الكل في ستة أيام، حسبما نصَّ عليه في مواضع من التنزيل ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منها من الملائكة والنيرات، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأوحى إلى كل منها ما يليق بها من التكليف ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ من الكواكب، فإنها ترى متلألئة عليها، كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة للاعتناء بالأمر ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة للسمع حفظاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة تامة، وعلم محيط.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

= روعة الجمال، فالآية الكريمة، تشير إلى انقياد هذا الكون إلى خالقه ومبدعه، انقياد العبد لسيده، والجندي لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد وكأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي الأمر، ويُكلف بشيء فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب: «قال الحائط للمسمار لِمَ تشقّني؟ قال: سلْ من يدقني» والغرضُ من الآية هنا، تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلُّ ما في الكون من شمسٍ، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار.. إلى آخره مستسلمٌ لأمر الله، منقادٌ لحكمه وتدبيره، ويمكن أن يخلق الله في السموات والأرض القدرة على الكلام والجواب، إن حملنا اللفظ على الحقيقة لا على المجاز، لأن الله على كل شيء قدير، فكما أنطق الإنسان ينطق الجماد والحيوان!.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي عذاباً هائلاً، شديد الوقع، كأنه صاعقة، مثل صاعقة عاد وثمود.

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) ﴾.

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ﴾ أي حين جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الايمان، ويخوفونهم من الكفر والإشراك ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة، من جهات الإرشاد والنصيحة، تارة بالرفق، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق، وأخرى بالترهيب، والتحذير عما سيحيق بهم، من عذاب الدنيا والآخرة ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي إرسال الرسل ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي لأرسلهم، بدلكم، فآمنا بهم، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدِّق أن الله أرسلكم؟ ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كَافِرُونَ ﴾ لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ ﴾ شروع في حكاية ما يخصُّ كلَّ واحدة من الطائفتين، من الجناية والعذاب، أي فأما قبيلة عاد الطغاة الفجرة ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي فتعظَّموا فيها على أهلها، بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿ وَقَالُوا ﴾ معتزين بشدتهم وقوتهم، ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾؟ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام، وشدة القوة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي أغفلوا، ولم ينظروا، ولم

يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة، فإنه تعالى قادر بالذات قوي على ما لا يقدر عليه غيره، ومفيض القوى على الغير ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي أنكروها وهم يعرفون حقيقتها، كما ينكر الإنسان الوديعة، فجمعوا بين الاستكبار وبين الإنكار، فكانوا فسقة كفرة[1].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي باردة تهلك، من الصِرِّ وهو البرد، أي تهلك من شدة بردها، أو شديدة الصوت، تصوِّت في هبوبها، من من الصرير، قيل: إنها الدبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ مشؤومات غير مباركات، جمع

---

(١) روي أن أبا جهل قال ذات يوم في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتانا بخبره، فقال «عتبة بن ربيعة»: والله ما يخفى عليَّ شيء من هذه، فأرسلوني إليه فأنا آتيكم بحقيقة أمره، فأرسلوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فيم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت بما جئت به تريد الرئاسة، عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد النساء زوجناك عشر نسوة من أجمل بنات قريش - ورسول الله ﷺ ساكت - فلما فرغ عتبة قال له عليه السلام: أفرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع - بسم الله الرحمن الرحيم - ﴿حمٓ. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته...﴾ إلى قوله: ﴿فإن تولوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ وأنشده الرحم أن يكف عما يقول، فقد خاف على نفسه الهلاك، ولم يرجع إلى قومه وهم ينتظرون خبره، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ - أي دخل في دين محمد - فجاؤوا إلى منزله وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا؟ فقال: والله لقد كلمته فسمعت منه كلاماً ما هو بشعر، ولا سحر، ولا كهانة، فناشدته الرحم أن يكف، وتعلمون أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب!!.

نحسة من نَحِس نَحْساً، نقيض سَعِد سَعْداً قيل: كن آخر شوال من يوم الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو الذل والاستكانة، لأنهم استكبروا، فقابلهم الله تعالى بالخزي والهوان، والذل والصَّغار ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، وقد وصف به العذابُ للمبالغة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدللناهم على الحق، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الهُون: الهَوَانُ، وصف به العذاب مبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم الضلالة على الهدى.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وهم صالح عليه السلام ومن آمن من قومه، من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ التعبير عنهم بأعداء الله، لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم، من ألوان العذاب، والمراد من النار موقف الحساب، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية، والتعبير عنه بالنار، للإيذان بأنها عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، ثم يساقون إلى جهنم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ إذا حضروها، وشاهدوا أهوالها وسعيرها ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، بأن ينطقها الله تعالى، وعن ابن عباس المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للخزي مما يشهد به السمع والبصر.

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ أي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فإن من خلقكم أولاً وأعادكم ثانياً، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم، وينبغي أن يعلم المؤمن، أن عليه من جوارحه رقيباً، يشهد عليه يوم القيامة.

﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ ﴾ أي يقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع: ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة ﴿ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ ﴾ بذلك، كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ

اَللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح المخفية، فلا يظهرها في الآخرة، ولذا اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم وأذلكم ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظن السوء ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي من الذين خسروا سعادتهم وأهليهم، وذلك تمام الخسران والشقاء.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي محل سكن وإقامة، ومنزل دائم لهم في جهنم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبونه من إرضاء الله عزَّ وجل ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها المرضيّ عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[1] يعني أنهم إذا أرادوا أن يرضوا ربهم، فما هم من المجابين إلى ذلك فقد مضت الدنيا دار التكليف والابتلاء، وقبول الاعتذار.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢١.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا﴾ أي هيأنا ويسّرنا ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قرين أي أخداناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء المالك لعبده ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، حيث أخبروهم أن لا بعث ولا حساب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين﴾[1] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم، من الأشقياء المجرمين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان، كدأب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للفريقين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ لأنهم علموا أن القرآن كلام بليغ مؤثّر، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط فهمه بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق، فدبّروا مكيدة لمنع الناس عن استماعه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته لتشوشوا على القارىء ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على دينه، قال ابن عباس: «قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول».

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يقادر قدره ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم، وعن ابن عباس: عذاباً شديداً في الدنيا، وأسوأ العذاب في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر، أسوأ الجزاء ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي جزاء معدٌّ لأعدائه ﴿ٱلنَّارُ﴾ هو نار جهنم، وهو عطف بيان للجزاء ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في النار، دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا، ويلغون فيها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون فريقي الشياطين، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي من الإنس والجن، والشياطين على ضربين: جنّي، وإنسي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾(١) ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي ندوسهما بالأقدام انتقاماً منهما وتشفياً ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي ذلاً ومهانة، جزاء إضلالهم إيانا.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي قالوه اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ أي ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، واستقاموا على توحيد الله وطاعته. واعلم أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلمِ اليقيني، والعملِ الصالح، ورأسُ المعارف اليقينية ورئيسُها: معرفةُ الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً، غير مائل نحو الإفراط والتفريط، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثم استقاموا﴾ وكان الحسن البصري رحمه الله إذا تلا هذه الآية، قال: «اللهمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة» ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ من جهته تعالى بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء، بتزيين القبائح، وقيل: تتنزل عند الموت بالبشرى، وإذا قاموا من قبورهم، والأظهر العموم ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ أي إن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً ﴿ وَأَبْشِرُواْ ﴾ أي سروا ﴿ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وهذا من بشاراتهم عند الموت، والقبر، والبعث، وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات، كما أن للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس، وولايةُ الملائكة باقية تصير بعد الموت أقوى وأبقى، لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا، ولعل ذلك عبارة عما

يخطر ببال المؤمنين، المستمرين على الطاعة ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ من فنون الطيبات ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنون من أنواع اللذائذ والشهوات، وما تطلبه نفوسكم من كل ما يخطر ببالكم.

﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾.

﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب العزة والجلال، وما يعطونه مما لا يخطر ببالهم، كالنزل للضيف، فما ظنك بما بعده من الألطاف؟.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته، بقوله وفعله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً له.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، في الآثار، والأحكام، والعاقبة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي إذا فعلت ذلك، هنا صار عدوُّك المشاق، مثل الولي الشفيق، قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدواً فصار ولياً بالمصاهرة، واللفظ يقتضي العموم.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه الخصلة، التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير، وكمال النفس.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ أي وإن صرفك الشيطان عما وُصِّيت به، من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ باستعاذتك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيّتِك وأفعالك.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة ﴿ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته، مسخَّرٌ لأمره ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من مخلوقاته مثلكم، وإنما قال ذلك، لأن أناساً يسجدون لهما ويعبدونهما من دون الله، وهم عُبَّاد الشمس ﴿ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة، أي واسجدوا للخالق الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادات، فلا بد من تخصيصه به سبحانه.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الامتثال بالأمر ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾ أي يابسة، مستعارٌ من الخشوع وهو التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ أي المطر ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ﴾ أي تحركت بالنبات، وقيل: تزخرفت ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة، لا يُعجزه شيءٌ من الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة، فالملحد هو المنحرف، وفي العرف اختص بالمنحرف عن الحقّ إلى الباطل، والمنحرف عن الدين ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعن فيها، والتحريف، والتأويل الباطل ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ أي لا يغيب أمرهم عنّا، وهو تهديد فيجازيهم بإلحادهم ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ﴾ الاستفهام بمعنى التقرير ﴿أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ أي كذبوا بالقرآن لأول وهلة، دون

أن يفكرّوا في آياته وإعجازه، وخبر «إن» محذوف للتهويل، كأنه قال: سيجازون جزاءً لا يكاد يوصف لشدته وهوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كثير المنافع، عديم النظير، منيع لا تتأتى معارضته.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، وقيل: معنى (الباطل) الزيادةُ أو النقصان ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو منزَّل من إله حكيمٍ في تشريعه، حميد أي محمود من عباده وخلقه، مستحق للحمد والثناء.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار، أي ما يُقال في شأنك وشأن ما أُنزل إليك، إلا مثل ما قد قيل في حق الرسل من قبلك، مما لا خير فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه وأوليائه المؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، ففوّضْ أمرك إليه، فإنه ينتقم لك منهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ أما لمّا أنزلناه بلغة العرب وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن

قلوبكم في أكنة، وفي آذانكم وقر؟ ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ أي هلاّ بينت آياته بلسان نفقهه؟ ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾؟ والمعنى: أكلام أعجمي، والرسول عربي؟ أو المرسل إليه عربي؟ فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أي وجه جاءتهم، وجدوا فيها متعنتاً وطعناً يتعلّلون به ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ هذا القرآن هادٍ للمؤمنين، يهديهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وشفاء لهم من داء الجهل والضلالة، وكلٌّ من آتاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن القرآن يكون في حقه هدى وشفاء، أما كونه هدى فلأنه دليل على الخير، ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان في بحر الخذلان، وتائهاً في مفاوز الحرمان، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقراً، وعليه عمى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ أي ظلمة وشبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر ﴿يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ هذا تمثيل لهم في عدم استماعهم له، بمن ينادي من مسافة نائية، لا تكادُ تُسْمَعُ من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ تسلية للرسول ﷺ ببيان أن الاختلاف في شأن الكتب، عادة قديمة للأمم، غير مختص بها قومك، أي وبالله لقد آتينا التوراة لموسى، فاختلف فيها، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في أمتك المكذبة، وهي الوعد بتأخير عذابهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنۡ يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الشك والاضطراب.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فنفعُ عمله لنفسه، لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره لا على غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله بتنزيل ترك إثابة المحسن، وتعذيبه بغير إساءة، منزلة الظلم، وما كان الله ليعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يؤاخذه إلاّ بجرمه، لأنه منزه عن الظلم.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إليه سبحانه وحده، معرفة وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِمّ بالكسر، وهو وعاءُ الثمرة، والجمع لاختلاف الأنواع ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها وجنينها في بطنها ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي تلد حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط، أي يعلم سبحانه بجزئياته، مثلاً عدد أيام الحمل، وساعاته، وأحواله من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك، فإن قيل: أليس إن المنجمين قد يتعرفون كثيراً من أحوال العالم؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم، لا يمكنهم القطع، وإنما هم يظنون، والمذكور في هذه الآية الجزمُ واليقين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي بزعمكم، كما نص في قوله تعالى: ﴿أين

شركائي الذين زعمتم﴾ وفيه تهكُّمٌ بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي أخبرناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لمَّا عاينا الحال، وما منا أحدٌ إلاَّ وهو موحِّدٌ لك.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي مهرب.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ﴾ أي لا يملُّ ولا يفتر ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي من طلب السعة في النعمة، وأسباب المعيشة الهنيئة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي العسر والضيق ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده، واليأسُ من رحمة الله كفر.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي حقي أستحقه، لما لي من الفضل والعمل ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأن نعم الآخرة كذلك ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ لا يقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي ذهب بنفسه، وتباعد بكليته، تكبراً وتعظماً، والجانب مجاز عن النفس، ويجوز أن يراد به ثنى عِطْفه ويكون عبارة عن الغطرسة والكبرياء ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي كثير، مستعار مما له عرضٌ متسع، للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾؟ أي من أضل منكم؟ وضع الموصول موضع الضمير، تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ الدالة على حقيته وكونه من عند الله ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ هو ما أخبرهم به الرسول ﷺ من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسَّره الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خارق للعادة فإن قيل: إن استيلاء بعض البلاد، لا يدل على كون المستولي محقاً؟ قلنا: إنا لا نستدل بمجرد الاستيلاء، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر، فهذا إخبار

عن الغيب ومعجزة ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي وفيما حلَّ بين أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ﴾ القرآن ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ لا ريب فيه ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾؟ كلام وارد لتوبيخهم، أي أوَلم يكفهم برهاناً على صدقك، ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؟ أي ألم يغنهم عن إراثة الآيات المبّينة لحقيّة القرآن، ولم يكفهم في ذلك، أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء؟.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ أي في شك عظيم من ذلك، يشكُّون بالبعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ أي عالم بجميع الأشياء، يعلمها بتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم لا محالة، والله أعلمَ بمراده، وأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»

* * *

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة ولذلك فُصِل بينهما، وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من الآيات، أوحى الله إليك في سائر السور، وإلى مَنْ قبلك من الرسل، لدعوة الناس إلى التوحيد، وما فيه صلاح العباد، والنبوة والمعاد، فلا تكن في شك من أمر الدين.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ استئناف مقرر لعزته وحكمته تعالى، أي جميع ما في الكون خلقه وملكه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالعظمة والكبرياء.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشقَّقن من عظمة الله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من دعاء الولد، كما في سورة مريم[1] ﴿ مِن فَوْقِهِنَّۚ ﴾ أي يُبتَدَأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها لما أن أعظم الآيات من تلك الجهة ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به متلبّسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ ﴾ أي يطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين، كما في آية أخرى ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فهو عام يراد به الخاص، وقيل: هو على العموم، طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق، إلا وله حظ عظيم، من رحمته تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازي بها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست بموكَّل بهم، أو بموكول إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) وذلك في قوله سبحانه: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً. .﴾ الآيات.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء البديع ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أهلها وهي مكة، سميت بهذا إجلالاً لها، لأن فيها البيت، والعرب تسمي أصل كل شيء أمّه ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ يعني بلاد الأرض كلها، من العرب والعجم، كما صرح به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاس﴾ الآية ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي يوم القيامة، لأنه يومٌ يجمع فيه الخلائق ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف، ثم يفرقون بعد الحساب إلى النعيم، أو الجحيم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ من يشاء أن يدخله فيها، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه، ومشيئته تعالى تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لاستعداده، فمن علم منه استحقاق الهدى يهديه، ومن علم منه اختيار الضلالة يضله، ولا جبر ولا إكراه على أحد ولا إجبار، بل هناك محض الاختيار ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] ولهذا قال سبحانه ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيذان بأن الإدخال في العذاب بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، والمعنى: لو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ، لقَسرهم على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وتُرك الظالمون بغير ولي ولا ناصر، لسوء اختيارهم.

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ ﴾ أي بل اتخذوا متجاوزين الله، أولياء من الأصنام والأوثان؟ ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن أرادوا ولياً، فالله هو الولي، لا وليَّ سواه ﴿ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دون من لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون، من أمور الدين أو أمور الدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى الله﴾ أي فالحكم فيه إلى الله جلَّ وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بقضاء رسوله ﷺ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الحكيم العظيم الشأن ﴿ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ أي مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في مجامع أموري خاصة، لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع إليه في كل ما ظهر لي من معضلات الأمور، لا إلى أحد سواه.

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ أي خالقها ومبدعها ابتداءً على غير مثالٍ ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أي زوجات من الآدميات ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام أصنافاً، وذكوراً وإناثاً، ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ أي يكثركم بسببه بطريق التوالد، ولذلك خلق الذكر والأنثى، من الذرء بمعنى البث والنشر ﴿ فِيهِۚ ﴾ أي فيما ذكر من التدبير، فإنَّ جعل الناس والأنعام أزواجاً، يكون بينهم توالد، كالمنبع للتكثير

للنسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله، تعالى شيء، في شأنٍ من الشؤون، التي من جملتها هذا التدبير البديع، والمراد من مثله ذاته تعالى، كما في قولهم: «مِثلُكَ لا يفعلُ كذا» على قصد المبالغة، في نفيه عنه، أي ليس كذاته شيء جلَّ وعلا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالغ في العلم، بكل ما يُسمع ويُبصر، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلىٰ﴾ فمعناه: وله الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره مثله، وهو وصف الجلال والكمال.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح أرزاق العباد ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿۞ شَرَعَ﴾ أي بيَّن وأظهر ﴿لَكُم﴾ الخطاب للمسلمين من أمة محمد ﷺ، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، على أن تخصيصهم بالذكر لعلو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليهم، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم، فما من نبي إلا مأمور بما أمروا به، وهو عبارة عن التوحيد، ودين الإسلام، وما لا يختلف باختلاف الأمم والأعصار، ولم يرد الشرائع، فإنها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَاجًاۚ﴾[1] ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا فيه كما اختلف اليهود والنصارى فضلّوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، واستبعدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد، من هو أهل له، وفيه استعداد للخير والإيمان ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أن يجتبيه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يُقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلال، شروعٌ في بيان أهل الكتاب، عقب الإشارة إلى أحوال أهل الشرك، وعن ابن عباس رضي الله عنه هم «اليهود والنصارى» أي ما تفرقوا في الدين، الذي دُعوا إليه، إلاّ من بعدما جاءهم العلم بحقيّته، بما شاهدوا في رسول الله ﷺ والقرآن، من الدلائل الحقة، حسبما وجدوه في كتابهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وحمية، وطلباً للرياسة، لا لأن لهم شبهة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، لاستيجاب

(١) سورة المائدة، آية: ٤٨.
(٢) سورة صٓ، آية: ٥.

جناياتهم لذلك ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن كفار مكة الذين أُورثوا القرآن، من بعد ما أُورث أهل الكتاب كتابهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم في الريبة، ولذلك لا يؤمنون به.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، الذي حدث لأهل الكتاب ﴿فَٱدْعُ﴾أي الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن تفرقهم، وكونهم في شك في الدين، سبب للدعوة إليه ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحي إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيَّ كتاب من الكتب المنزلة، لا كأولئك الضالين الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة، والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم إذا تخاصمتم إليَّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا، لا يتخطانا جزاء أعمالنا، ثواباً كان أو عقاباً ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا محاجة ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، ولا يبقى للمحاجة حاجة، سوى المكابرة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم، فإن قيل: كيف يليق بهذه المجاوبة، ما فُعل بهم من القتل والإجلاء؟ قلنا: هذه كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين، المتفق على صحته بين كل الأنبياء، وفيه التوحيد، والإقرار بنبوة الأنبياء، والتصديق بالكتب المنزلة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي في دين الله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، والمراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: كتابنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، ونبوّة موسى والتوراة، معلومة بالاتفاق، ونبوّة محمد ليست متفقاً عليها ﴿ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ أي زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾ أي عليهم غضب من الرحمن، وعذاب شديد في الآخرة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخباره وتشريعه ﴿ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ والشرع العادل الذي توزن به الحقوق، ويسوى بين الناس ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ أي أيّ شيء يجعلك عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قَرِيبٞ ﴾ أي قريب مجيئها، والمعنى: إنها على جناح الإتيان فاستمسك بالكتاب، واعمل به، وواظب على العدل.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ ﴾ استعجال إنكار واستهزاء ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ أي خائفون منها ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون فيها، من

المِرْية بمعنى الشك ﴿لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فإن قيام الساعة غير مستبعد، عن قدرة الله تعالى، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون ألطافه، ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرزقه كيف يشاء، فيخصُّ كلاً من عباده، بنوع من البر، على ما تقتضيه مشيئته المبنيَّة على الحكم البالغة ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويستعمل في ثمرات الأعمال، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له ثوابه، إلى سبعمائة فما فوقها، ونزد له في تسهيل سبيل الخيرات والطاعات ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي شيئاً منها، حسبما قسمنا له، لا ما يريده، كما قال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، فليس له حظ من الثواب، والنعيم في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾؟ أي بل لهم شركاء من الشياطين، والهمزة

للتقرير وللتقريع ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ كالشرك والعصيان، وقيل: شركاؤهم، أي أوثانهم، وإضافتها إليهم، لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها وهي جمادات إسنادٌ مجازي، لأنها سبب ضلالهم وافتنانهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، لعُجِّلت لهم العقوبة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين، بتعجيل العقوبة للكفار ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي عذاب موجع مؤلم يوم القيامة، والعذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢)﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أي وباله لاحقٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها، وأعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي لهم ما يشتهون من فنون المستلذات، حاصلٌ لهم عند رب كريم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، أي ذلك النعيم ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي أكرمهم الله به، هو النعيم الأكبر، الذي لا يُقادر قدرُه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ (٢٣)﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يبشرهم به ربهم ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إلاَّ أن تودُّوني لقرابتي منكم، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، لكن أسألكم المودة في القربى ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب حسنة، نزد له في الحسنة حُسْناً، بمضاعفة الثواب فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، ويشكر للمحسن إحسانه، والشكور المبالغ في الشكر، الذي يعتدُّ بالطاعة، ويجزل عليها الثواب الكبير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؟ بل أيقولون ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ أي اختلق محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة، وإنزال القرآن؟ والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل أيتجرؤون أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء، لا سيما الافتراء على الله، وهو أعظم الافتراء وأفحشه؟ فمثله لا ينسب إلى الكذب، مع اعترافهم له من قبل بالصدق والأمانة ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله، لمنعه من ذلك قطعاً، كأنه قيل: لو كان هناك افتراء عليه تعالى، وشاء عدم صدوره عنك، يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحيُ، تبيَّن أنه من عند الله تعالى ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ وهذا عِدَةٌ لرسول الله ﷺ بأن الله يمحو الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو القرآن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجري عليها أحكامها من المَحْوِ

والإثبات، والغرض من الآية أنك لو افتريتَ على الله الكذب ـ ـ كما يزعم المجرمون ـ لختمنا على قلبك، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذباً، ولهذا أيَّدناك وسدَّدناك!! ففي الآية تكذيب لدعوى المشركين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي هو سبحانه بفضله وكرمه، يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله بصدق وإخلاص، كما ورد في الحديث الشريف «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]. ﴿ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كان، فهو الرقيب المطَّلع على الأعمال، وسيجازيكم عليها.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أي يستجيب الله لهم دعاءهم، كما استجابوا لطاعته، والمراد بإجابة دعائهم: الإثابة على طاعاتهم ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد، والتخصيص بالمؤمنين هل يدلُّ على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكافر؟ قيل: نعم، لأن الإجابة تعظيمٌ، وقيل: يجوز لقوله تعالى: ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه﴾؟ وفائدة التخصيص، أن إجابة دعاء المؤمنين، تكون على سبيل

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣١ وقال: حديث حسن، والغرغرةُ أن تصل الروح إلى الحلقوم، عند الموت والاحتضار.

التشريف، وإجابة ودعاء الكافرين، على سبيل الاستدارج ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لتكبروا وأفسدوا، ولعلا بعضهم على بعض، بالاستيلاء، كما عليه الجِبلَّةُ البشرية ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أن ينزِّله، مما تقتضيه مشيئته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي محيط بخفايا أمورهم، فيقدِّر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، حسبما تقتضيه الحكمة، وقد قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب، ولذلك خُصَّ الغيثُ بالنافع منه، فإن المطر قد يضرُّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي يئسوا منه، وتقييده بذلك، مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكر كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس أوجب لكمال الفرح، وأدعى للشكر، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان، ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لا غيره، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط، وقنط الناس، فقال: مُطِروا، أراد هذه الآية.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصانع، فإنها تدل على شؤونه العظيمة ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي من حي فيما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، وهذا يشمل الإنس، والجن، والملائكة، وقد يجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصف بالدبيب، والدبيب في اللغة: المشيُ الخفيفُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ أي على حشرهم بعد البعث ﴿ إِذَا يَشَآءُ ﴾ أي في الوقت الذي يشاء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه، لا يعجزه شيء.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أيّ مصيبة كانت، فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، والخطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها، والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخر، منها تعريضه للثواب، بالصبر عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة، لا يعاقب عليه ثانياً.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أي ولستم فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحميكم منها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم وفي الحديث الشريف

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيبُ المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها، إلاَّ رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئة»[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ ﴾ السفن الجارية ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ أي كالجبال وكلُّ شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم.

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ التي تجريها ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ أي فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أي غير جاريات ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر من تسيير السفن الضخمة فوق سطح الماء ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذُكر من شؤونه تعالى ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي لكل مؤمن صابر شاكر، فإن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ أي يرسلها، عواصف فيغرقن مع ركابها ﴿ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ من الذنوب، وإيقاع الإيباق عليهن، مع أنه حال أهلهن، للمبالغة والتهويل ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي ينجي آخرين، بطريق العفو عنهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٠/٩٠ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم رقم ٢٥٧٢.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥ ﴾.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ عطف على علة مقدرة، أي لينتقم منهم ويعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا ملجأ لهم، ولا مهرب من العذاب.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ ﴾.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره، فإنهم يعتمدون على الله وحده.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي الجرائم الكبيرة ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ أي الزنى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي يصفحون عمّن أساء إليهم وأغضبهم، وبناء «يغفرون» على ضميرهم للدلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة، لعزة منالها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي استجابوا لأمر ربهم، بالإيمان

والتوحيد، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا ينفردون برأيٍ حتى يتشاوروا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، من فرط تدبرهم وتيقظهم، كراهة التذلل للأعداء، وهو وصفهم بالشجاعة، بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً منهما فضيلة محمودة في موقع، ورذيلة مذمومة في موقع، فإن الحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتغلّب مذموم، وعليه قول الشاعر:

إذا أنتَ أكرَمتَ الكريمَ ملكته ... وإن أنـتَ أكـرمـتَ اللئيـمَ تمـرَّدا

بيَّن الله تعالى أن هذه الخيرية، إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات عديدة:

١ ـ أن يكون من المؤمنين. ٢ ـ من المتوكلين على الله. ٣ ـ من المجتنبين للفواحش. ٤ ـ من المنقادين لأمر الله. ٥ ـ من المنتصرين لدينه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الفضائل الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادي هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي، وإطلاق السيئة على الثانية،

لأنها تسوء من نزلت به[1] ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمة، منبئة عن عظم شأن الموعود ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة، والمعتدين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد ما ظُلم دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم فعلوا ما أبيح لهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدؤون بالعدوان، أو يعتدون في الانتقام، ويتكبرون على عباد الله، تجبراً وفساداً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الظلم والبغي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه، ولم ينتصر لنفسه، وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من فضائل الأعمال التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، وهذه في الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر، كمن اعتاد العدوان على الناس، فإن

---

(١) مقابلة السيّئة بالسيّئة، لكيلا يتبجّح الشرُّ ويطغى، حين لا يجد من يردعه عن الظلم والعدوان.

العفو عنه يزيد في ضلاله وطغيانه، بل يجب أن يُردع ويُزجر، بعقاب يكفُّه عن الظلم والعدوان.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾ أي من ناصر يتولاه، من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يسألون ربهم، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا قائلين ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ أي إلى رجعة ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾؟ حتى نؤمن، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار، والخطاب في الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي متذللين متضائلين ممَّا دهاهم ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً وفزعاً، يبتدئون نظرهم إلى النار، من تحريكٍ لأجفانهم ضعيف، كالمصبور ينظر إلى السيف، فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: إنهم يُحشرون عمياً؟ قلنا يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عمياً يسحبون إلى جهنم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ أي ضيّعوا أنفسهم وأهلهم بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله تعالى لهم، أي انتبهوا فإن الظلمة المشركين، في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ برفع العذاب عنهم، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ يؤدي سلوكه إلى نجاة في الدارين، لأنه انسدَّتْ عليه طرق النجاة، فكيف يهتدي إلى طريق السعادة، وقد حاد عن هداية الله؟.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ أي أجيبوا ربكم إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه، قبل أن يأتي من الله يوم شديدٌ رهيب ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يردُّه الله بعدما حكم به، وهو يوم القيامة ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من مفرٍّ تلتجئون إليه حينئذ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي من إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد به عليكم جوارحكم، وقيل: المعنى: ليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لا من أنفسكم ولا من غيركم، لأن أحداً لا يملك الاعتراض على الله جلَّ وعلا.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ أي فإن لم يستجيبوا، وأعرضوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي رقيباً أو محاسباً لهم على أعمالهم ﴿ إِنْ

عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾[1] أي نعمة من الصحة، والغنى، والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر وَتكبّر، وأريد بالإنسان الجنسُ، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي بلاء من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الكفران لنعم المولى جل وعلا، ينسى النعمة حالاً، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنه أصابه بغير استحقاقٍ لها.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما كيفما يشاء، بالخلق والإيجاد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مما نعلمه ومما لانعلمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ من الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد أصلاً.

---

(١) أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الجحود لنعم الرحمن، فهو يبطر عند حصول النعمة، ويضجر عند فواتها وزوالها، وفي الآية سرٌّ بديع من لطائف الأسرار البيانية، فإن «إذا» تفيد التحقيق، و «إن» تفيد الشك، فذكر تعالى النعمة بقوله: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان﴾ للإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف النقمة والبلاء فإنه على الشك والتقليل، ولهذا قال سبحانه ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني على فرض حصول السيئة كالمرض، والفقر، والبلاء، فإن الإنسان كافر جاحد لنعمة الله، فالنعمة محققة الوقوع، والنقمة محتملة النزول، ونِعَمُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة وجليلة، ولكنها بالنسبة إلى نعيم الآخرة تافهة وحقيرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمَّاها الله عزَّ وجلَّ ذوقاً ﴿إذا أذقنا الإنسان﴾ فنبه تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الضئيل الحقير في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا، وبحال الآخرة، فافهم أسرار القرآن.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ أي يقرن بين الصنفين، فيهبهما جميعاً، فيجمع للإنسان بين البنات والبنين، والذكور والإناث ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعني يجعل أحوال العباد، في حق الأولاد، مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن، ولعل تقديم الإناث، لأنهن أكثر، لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة(١)، والعقم يطلق على الذكر والأنثى، فقد يكون الرجل عقيماً لا يأتيه أولاد، وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد، وليس العقم خاصاً بالنساء.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ بأن يوحي إليه، ويلهمه ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أم موسى، أو بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامعُ من يكلمه، وهو المراد من قوله: ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيل له بحال المَلِكِ المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه، من وراء الحجاب، يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى، وهذا أيضاً وحي، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أو بأن يكلمه بواسطة المَلك وذلك قوله تعالى:

---

(١) ليست السعادة في أن يرزق الله الإنسانَ ذكراً أو أنثى، وإنما السعادة في صلاح الأولاد ونجابتهن، ليكونوا قرة عين لآبائهن، وقد أحسن الشاعر حين قال:

نِعَمُ الإلهِ على العبادِ كثيرةٌ ... وأجلُهنَّ نجابةُ الأولاد

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي مَلَكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك المَلَك إلى المرسل إليه، الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحى إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى، وبين الأنبياء عليهم السلام، في عامة الأوقات ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم، إلاّ بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، والأخرى بدونها، إما إلهاماً وإما خطاباً، وسبب نزول هذه الآية، أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فنزلت الآية ردّاً عليهم ذلك الافتراء، فما رأى موسى ربه ولا نظر إليه، وإنما سمع كلامه من وراء حجاب ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾ وحين طلب موسى رؤية ربه ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب، بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أيّ أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي الإيمان بتفاصيل الأمور، التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل، لأنه ﷺ قبل النبوة كان يوحّد الله تعالى، ولا يأكل ما ذُبح على النصب، ويُبغض الأصنام، وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يتبين له شرائع دينه، إلا بعد الوحي إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ هو الذي يصرف اختياره، نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي وإنك يا محمد، لتدل وترشد الناس ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الخالد!!.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى ﴾ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنه، وتأكيد وجوب سلوكه ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي له كل ما في الكون ملكاً، وخلقاً، وعبيداً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي أمور ما فيهما، لا إلى غيره، ففيه من الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين الظالمين. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿حمٓ ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالقرآن البيِّن الواضح الجلي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي جعلنا ذلك الكتاب، قرآناً عربياً، لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمَّنه، من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي رفيع القدر، بيِّن الفضل ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، ومكانة فائقة، وفي الإقسام بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، وإيذان بأنه من علو الشأن، بحيث لا يحتاج في بيانه،

إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره، بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك، من حيث الإقسام به، كما أنه كافٍ فيها من حيث إعجازه.

وبعدما بيّن علو شأن القرآن، وحقَّق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقَّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال سبحانه:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي أنهملكم فننحّي الذكر عنكم، ونعتبركم كالبهائم، فلا نعظكم ولا نذكّركم بالقرآن؟ وفيه إشعار باقتضاء الحكمة، توجه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً عنكم ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل إسرافكم في المعاصي والإجرام، ومجاوزتكم الحدَّ في الضلالة، على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير لما قبله، ببيان أن إسراف الأمم السالفة، لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم لهدايتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ، أي هذه عادة الأمم الضالين، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزؤوا، فلا ينبغي أن تحزن وتتأذى من قومك، بسبب تكذيبهم لك.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي من هؤلاء المسرفين، وصفهم بالبطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، أي كانوا أعتى وأطغى من قومك كفار مكة، ومع ذلك أهلكهم الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي سَلَف في القرآن قصتهم، وفيه وعد ووعيد[1].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي يُسندن خلقها إلى من هذا شأنُه، في الحقيقة ونفس الأمر، لا أنهم يعبِّرون عنه بهذا العنوان، وسلوك هذه الطريقة، للإشعار بأن اتصافه تعالى بجلائل الصفات، وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء، أمرٌ بيِّنٌ لا ريب فيه، وأن الحجة قائمة عليهم، شاؤوا أو أبوا، والمقصود بيانُ أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى، يعبدون غيره جهلاً منهم وسفهاً، وينكرون قدرته على البعث والجزاء، فإذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض، اعترفوا بأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون غيره.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) الغرض من الآية أن الله عزَّ وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم، وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، رحمة بهم، وإن كانوا هم معرضين عن الإيمان، مسرفين في العصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع، حين ردَّه أوائل هذه الأمة، لهلكوا جميعاً، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة!!.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسطها لكم تستقرون فيها، وتبنون وتنامون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكر إلى التوحيد الذي هو المقصد الأسمى.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكم والمصالح، وبقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي خالياً عن النماء والنبات، مقفراً من الزروع والثمر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإحياء، وهو إخراج النبات من الأرض ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي تُبعثون من قبوركم أحياء.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي أصناف المخلوقات، من الحيوان والنبات، وكلُّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والذكر والأنثى ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما تركبونه تغليباً للأنعام على الفُلْك، فإن الركوب متعد بنفسه.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه، من السفن والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين

بها، ثم تحمدوا ربكم عليها بألسنتكم ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، قال أبو عبيدة: فلان مقرن لفلان أي ضابط له، أي ما كنتم مطيقين لها وضابطين لحركاتها، لولا تسخير الله عزَّ وجل.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى، التي هي الانقلاب إلى الله تعالى، فيبني أموره على تلك الملاحظة، فإن الإنسان لا يزال في سفر، حتى يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار.

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر، حمد الله تعالى، وسبَّح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهمَّ إنا نسألك في سفرنا هذا، البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنَّا بُعده، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في الأهل والمال»[١].

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي وقد جعلوا له سبحانه، بعد ذلك الاعتراف بخلق السموات والأرض ولداً، وإنما عبر بالجزء، لمزيد استحالته في حقِّ الواحد الأحد، من جميع الجهات، والمقصود منه التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، ولذلك يقولون ما يقولون.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤٢، والترمذي رقم ٣٤٤٤، وأبو داود رقم ٢٥٩٩.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾؟ هذا بيان لبطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفيه في نظرهم، والهمزة للإنكار والتعجيب منهم ﴿ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾؟ أي واختار لكم أفضلهما؟ وتنكير «بنات» وتعريف البنين، لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة، والفخامة، أي هل خصّكم واختار لكم البنين، واتخذ لنفسه البنات؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أي وإذا بشر أحدهم بالأنثى، التي نسبها إلى الله وجعلها له مثلاً ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من سوء ما بُشّر به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الكرب والكآبة كأنه فعل جريمة يستحق العقاب عليها.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ أي أوجعلوا ما شأنه أن يُربَّى في الزينة، وهو عاجزٌ عن أن يتولى أمره بنفسه؟ ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾ أي في الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، لنقصان عقله، وضعف رأيه؟.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور، لكفر آخر، وهو جعلهم الملائكة الذين همْ أكمل الخلق، وأكرمهم

وأكرمهم على الله إناثاً، ونسبتهم إلى الله حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء كفروا بثلاثة أشياء: ١ ـ بإثبات الولد لله، ٢ ـ وبأنَّ هذا الولد بنت، ٣ ـ والحكم على الملائكة بالأنوثة ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾؟ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ وهو تجهيل لهم وتهكم بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذا الكذب والافتراء.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حقٌّ، مرضي عند الله تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما أرادوا بقولهم الباطل ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون لأنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، أو قالوا هذا القول استهزاءً لا اعتذاراً، وجعلوا المشيئة حجة لهم، وظنوا أن الله تعالى لا يعذبهم على أي شيء فعلوه ولما أظهر وجوه فساد دعواهم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم من جهة النقل، فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن، ينطق بصحة ما يدَّعونه؟ ﴿فَهُم بِهِ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معولون.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ

ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، تقليداً أعمى، دون بصر ولا نظر.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كما ذكر من تشبثهم بذيل التقليد ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ استئناف مبيِّنٌ بأن التقليد ضلالٌ قديم، وتخصيص المترفين للإيذان بأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿۞ قَٰلَ﴾ أي قال كل نبي لأمته ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أي أتقتدون بآبائكم الجهلة ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾؟ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على سلك الإنصاف ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قالت كل أمة لنبيّها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قبل أن ينظروا ويتفكروا فيه، إقناطاً للنذير.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم على الكفر والضلال بالاستئصال ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تكترث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أي واذكر لهم وقت قال ﴿ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ براءٌ مصدر نعت به مبالغة، يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، أي إنني بريء من عبادتكم ومعبودكم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء منقطع، أي غير الذي فطرني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ أي يرشدني لدينه، ويوفقني لطاعته، وسيثبتني على الهداية، والسين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي جعل إبراهيم عليه السلام «كلمة التوحيد» التي تكلم بها ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي في ذريته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيم بَنِيهِ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحّد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي جعلها باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من أهل مكة ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ بالمدِّ في العمر والنعمة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، فاغترُّوا بالمُهْلة، وانهمكوا بالشهوات، وغفلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرة، وكان الواجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، فجعلوه سبباً لزيادة الكفر.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ازدادوا كفراً وعتواً، وضمّوا إلى كفرهم معاندة الحق، والاستهانة به، حيث ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فسمَّوا القرآن سحراً، واستحقروا الرسول ﷺ، وكذّبوه.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ ؟ أي من إحدى القريتين مكة أو الطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة من مكة، و «عروة بن مسعود» من الطائف، ولم يتفوهوا بهذه العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ دون عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على هؤلاء، بناءً على أن منصب الرسالة منصب جليل، لا يليق إلا بمن له جلالة، من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها وثبة روحانية، لا يترقى إليها إلاّ خواص المختصين، بالنفوس الزكية، أما المتمتعون بالحظوظ الدنيوية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بآلاف منزل، قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؟.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ ﴾؟ إنكارٌ فيه تجهيلٌ لهم، وتعجيب من تحكمهم في شؤون الوحي ﴿ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؟ أي النبوة يعني أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي أسباب معيشتهم، قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحِكَم والمصالح، ولم نفوّضْ أمرها إليهم، فمن أين لهم أن يتحكَّموا في أمر النبوة، التي

هي أعلى المراتب وأقدسها؟ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوة، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، حتى يتعايشوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لكمال في الموسَّع، ولا لنقص في المقتَّر، ولو فوضنا أمرها إلى تدبيرهم لهلكوا ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، لأن منافع الدنيا على شرف الانقضاء، وثمرات الرحمة تبقى أبد الآباد!!.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره، عنده عزَّ وجلَّ، والمعنى: إن حقارة شأن المتاع، بحيث لولا أن يرغب الناس، لحبهم الدنيا في الكفر، إذا رأوا أهله في سَعَة وتنعم، فيجتمعوا عليه، لأعطيناه بحذافِيره، من هو شرُّ الخلائق، وأدناهم منزلة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي للكفار خاصة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي متخذة منها ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، أي مصاعد إلى المساكن العالية، كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح والعلالي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ تكرير ذكر «بيوتهم» لزيادة التقرير.

﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ ﴾ أي وزينة عظيمة من كل شيء، من الذهب، والفضة وسائر أنواع الجواهر ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ أي وما كل ما ذُكر إلاَّ شيء يتمتع به في الحياة الدنيا عما قريب يزول ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي والآخرة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم للمؤمنين المتقين، الذين يتقون الكفر والمعاصي، فتبيَّنَ بهذا أن المال والجاه، حقيران عند الله تعالى، وأنهما على شرف الزوال، وأن العظيم هو العظيم في باب التقوى، والإيمان، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا عند الله، تزن جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء»[1] فإن قيل: لمَّا بيَّن الله أنه لو فتح على الكافرين أنواع النعم، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر، فلمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين، وكانوا يجتمعون على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير، كانوا يجتمعون لطلب الدنيا، فهذا إيمان المنافقين، فلا بد أن يكون كل من دخل الإسلام، يدخل لطلب رضوان الله تعالى وثوابه، فحينئذ يكون مسلماً صادقاً في دينه، وأما في طلب الدنيا فلا يظهر حقيقة إسلامه.

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعۡشُ ﴾ أي يتعام، يقال: عَشَىٰ يَعْشَىٰ إذا كان في بصره آفة، وعَشَىٰ يَعْشو إذا تعامى بلا آفة ﴿ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، والمعنى: ومن يتعامَ ويُعرض عن القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا، وانهماكه في الشهوات،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أي نضم إليه ونسلط عليه ﴿شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي فهو له ملازم، ومصاحب لا يفارقه، ولا يزال يوسوس إليه ويغويه، والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من حاز المال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وإذا ازداد حبهما زاد العشىٰ حتى يصير كالعمىٰ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين المضلين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي قرناءهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن الكريم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويظن الكفار ﴿أَنَّهُم﴾ أي الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل مستقيم، وإلاَّ لما اتَّبعوهم[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي كلُّ واحد منهم، مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ أي قال الكافر مخاطباً لقرينه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، أي تباعد كل منهما عن الآخر، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، وقوله: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله عز وجل، توبيخاً.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة تمنيكم ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي

---

(١) الأظهر أن الضمير يعود إلى الكفار أنفسهم، أي وإن الكفار يظنون أنهم مهتدون باتّباعهم طريق الشياطين.

لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي اشتراككم في العذاب، كما كنتم مشتركون في سببه في الدنيا، على معنى: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء، لأن المكروب يجد راحة التأسي بغيره، وهؤلاء لا يجدون ذلك، فقد حُرموا أهون أنواع العزاء.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ كان ﷺ يبالغ في المجاهدة لدعوة قومه، وهم لا يزيدون إلا غَيّاً وتعامياً، عما يشاهدونه من شواهد النبوة، فنزلت هذه الآية، وهذا تسلية للرسول ﷺ، لأن اليأس إحدى الراحتين. ثم وعد تعالى أن ينتقم منهم، وذلك أيضاً يوجب التسلية، وقوله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾؟ إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد استغرقوا في الكفر والضلال بحيث صار ما بهم من العَشَى عمى، مقروناً بالصَّمم!! ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ مدار الإنكار، هو تمكنهم في الضلال، المفرط، بحيث لا ارعواء لهم عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي ﷺ، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك، إلا الله تعالى وحده.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي العذاب الذي وعدناهم إيّاه ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم

﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا، ولقد أراه ﷺ بعض ذلك يوم بدر، ويوم أحد.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ أي فتمسَّكْ بالقرآن الذي أنزل عليك، بمراعاة شرائعه وأحكامه، سواءٌ عجَّلنا لك الموعود، أو أخرناه ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي على طريقٍ سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد، ودين الإسلام.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ ﴾ أي القرآن العظيم الذي أوحي إليك، لشرف عظيم ﴿ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي لك يا محمد خاصة، ولأمتك عموماً، إذ أنزل عليهم أشرف الكتب السماوية ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ يوم القيامة عنه، وعن قيامكم بحقوقه.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم، كما في قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ وفائدة هذا التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل قال الفراء: إنما يخبرهم عن أتباع الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل أمرنا بعبادة الأوثان، وهل جاء ذلك في دين من أديانهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على

التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع، حتى يُكذَّب ويُعادى فبيَّن الله تعالى أن إنكار عبادة الأصنام، ليس من خواص دين الإسلام، بل كان جميع الأنبياء مطبقين على إنكاره!!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أريد بذكر قصة موسى تسلية الرسول ﷺ، والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها بل ضحكوا سخرية واستهزاء.

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات الباهرة، من ألوان العذاب كالطوفان، والجراد ﴿ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي إلاَّ وهي في غاية الكبر والظهور ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ أي وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر، إلى دين التوحيد.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علم السحر ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهده عندك من النبوَّة، أو

من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[1].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ عهدهم، مرَّ في الأعراف.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه رؤساء القبط ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجمعهم، بعدما انكشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، نهر طولون، نهر دمياط، نهر تنيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري في جناني وبساتيني ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام ملكه، روي عن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينَّها أخسَّ عبيدي!! فولاها الخصيب وكان خادمه على وضوئه، فخرج إليها فلما شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون، والله إنها أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف، حقير من المهانة وهي القلة، أي لا عزَّ له ولا سلطان ولا مال، يقصد به موسى

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٤.

عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام، قاله افتراءً عليه، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من لُكْنة، وقد كانت ذهبت عنه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ ﴾ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورة من ذهب، كرامة له ودلالة على نبوته، وقد كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوَّروه وطوقوه بطوق من ذهب، وأسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يمشون معه يعينونه، ويصدقونه في دعواه.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ ﴾ فاستفزهم، وطلب منهم الخفة في مطاوعته، واستخف بعقول قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الكبير.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا أشد الغضب، من أَسِفَ إذا اشتد غضبه ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكناهم بالغرق في البحر.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استجلاب غضب الله ﴿ وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾أي عظةً لهم، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ﴾ ضربه ابن الزبعري حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ حيث قال: أهذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: لكم ولجميع الأمم، فقال اللعين: خصمتُك وربِّ الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون معهم!! ففرح قومه وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ ﴾ من أي ذلك المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفع لهم جلبة وضجيج، فرحاً وجدلاً.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ أي كفرة قريش ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾؟ أي عيسى خير من آلهتنا، فإذا كان هو في النار، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا في النار؟ وقد روي أنه ﷺ ردَّ عليه بقوله: ما أجهلك بلغة قومك!! أما تعلم أن «ما» لما لا يعقل!! يعني أن اعتراضه في غير محله، لأن الآية الكريمة وردت بلفظ ﴿إنكم وما تعبدون﴾ و «ما» في اللغة لما لا يعقل، ولو كان النص «إنكم ومن تعبدون» لكان هناك احتمال للاعتراض، على أن الآية بعدها وردت بالاستثناء ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ أي ما ضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك. القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية، والآيات الكثيرة تدل أن الجدل الذي يفيد تقرير الحق ممدوح، وتصرف هذه الآية على الجدل الذي يوجب تقرير الباطل ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي شداد الخصومة، مجبولون على اللَّجاج والعناد، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

قوم بعد هُدىً، كانوا عليه، إلاَّ أُوتوا الجَدَل، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ الآية[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسىٰ ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أمراً عجيباً، حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال، حيث خُلق من أم بدون أب، كما خلق آدم عليه السلام، وفيه تنبيه على بطلان رأي مَنْ رَفعه عن رتبة العبودية، إلى رتبة الألوهية، لأنه مخلوق ومولود كسائر الأولاد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الخ هذه الآية لتحقيق أن مثل «عيسى» ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنْكُمْ﴾ أي وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها، أو لجعلنا بدلكم ملائكة ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم يسكنون في الأرض.

قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي إن عيسى عليه السلام بمنزلة شرط من أشراط

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٥٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٨ باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد في المسند ٥/٢٥٢.

الساعة، لأن الله عز وجل ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فنزوله علامة على قربها، وقرأ ابن عباس «لَعَلَمٌ» للساعة، وهو العلامة ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ أي وقل لهم يا محمد اتبعوا هديي، وشرعي، وما جئتكم به من عند الله ﴿ هَٰذَا ﴾ أي الذي أدعوكم إليه ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي دين قويم موصل إلى الحق.

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ عن اتباعي ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ بيّنُ العداوة، حيث عرّضكم للبلية.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات، وبالشرائع البينات ﴿ قَالَ ﴾ لبني إسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي بالحكمة الإلهية وبالشريعة الواضحة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين، لا بأمور الدنيا، لأن بيانه ليس من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفتي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد لله مأمورون بعبادته،

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٣٦٣ عن عائشة أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يُلقِّحون النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصَلح، فخرج شِيصاً ـ أي رديئاً ـ فقال لهم ﷺ: أنتم أعلم بأمر دنياكم» وانظر جامع الأصول ١١/ ٧٦٤.

وفيه ردٌّ على النصارى الذين اعتقدوا بألوهيته ﴿هَٰذَا﴾ أي التوحيد، والعمل بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي الفِرَقُ المتحزبة بعد عيسى عليه السلام، فصاروا شيعاً وأحزاباً في شأنه ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى فقال اليهود لعنهم الله: زنت أمه فهو ولد الزنى، وقال بعض النصارى: عيسى هو الله، وبعضهم قال: هو ابن الله، وزعم أكثرهم أن الله وعيسى وأمه آلهة، وهو ثالث ثلاثة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولهذا قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي من المختلفين في عيسى عليه السلام الذين قالوا عنه ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم مشتغلون بأمور الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ المتحابون في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا لما كانت في الله، تبقى على حالها، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب، ورفع الدرجات.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تشريفاً لهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي صدَّقوا بالقرآن وآيات الرحمن ﴿ وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أي مخلصين في إيمانهم وطاعتهم، وعن مقاتل، إذا بعث الله الناس فزع كل أحد، فينادي منادٍ يا عبادي فيرفع الخلائق رؤوسهم على الرجاء، ثم يتبعها ﴿الذينَ آمنُوا﴾ فينكّسُ أهل الأديان الباطلة رؤوسهم.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تُسرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ أي بعد دخولهم الجنة ﴿ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ جمع صحفة، والصحفةُ: إناء كالقصعة جمعها صِحَافٌ ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو القدح ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ أي تستلذه وتقرُّ بمشاهدته ورؤيته ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ إتماماً للنعمة، فإن كل نعيم له زوال، ونعيم الآخرة دائم، والالتفاتُ للتشريف.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، شبَّه جزاء الأعمال بالميراث، لأنه يخلِّفه للعامل عليه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي بعضها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، وإنما ذكر تعالى التنعُّم بالمطاعم والملابس، وهو حقير بالنسبة إلى سائر نعم الجنة، لما كان بهم من الشدَّة والفاقة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي الراسخون في الإجرام، وهم الكفار، حسبما ينبىء عنهم إيرادهم في مقابلة المؤمنين.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من النجاة.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا حتى

نستريح، من قضى عليه إذا أماته، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم، لأنه جؤار وتمنٍ للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه، بموتٍ ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،. وهو توبيخ من جهته تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أي أكثركم كاره لدين الله ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ كلام ناعٍ على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار، أي أأبرمَ وأحكم مشركو مكة أمراً، من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم، كقوله تعالى: ﴿أم يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ وكانوا يتناجون في أنديتهم ويتشاورون في أموره ﷺ، فنزل قوله تعالى.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ما صدر عنهم التي من جملتها سرهم ونجواهم، وعن يحيى بن معاذ «من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فهذا من أمارات النفاق».

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي لهذا الولد، لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجبات تعظيم الوالد، تعظيم ولده[1]. والمقصود من هذا الكلام، بيان بأني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، إن قام دليل على ثبوت هذا الولد، إلا أنه لم يوجد، بل الدليل القاطع على عدمه، وفيه من الدلالة على كون رسول الله ﷺ على قوة يقين، في باب التوحيد، ما لا يخفى.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي ممَّا يصفونه به من الزوجة والولد، وفي إضافة اسم الرب إلى العرش أعظم الإجرام، تنبيه على أنها وما فيها تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يُتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه، وفي تكريم اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ حيث لم يذعنوا للحق، بعدما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُوا۟ ﴾ في أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ في دنياهم، فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال، ليست إلا من باب الجهل واللعب ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) الآية الكريمة على الفرض والتقدير، أي إن كان لله ولد، فأنا لا أستنكف عن عبادته، ولكنه سبحانه منزَّه عن الولد، لأنه ليس له صاحبة، كما قال سبحانه ﴿بديع السماوات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؟ ثم الولد ينبغي أن يشبه أباه، فالله لايأكل ولا يشرب ولا ينام، فكيف يكون عيسى ابناً لله، وهو يأكل ويشرب ويحدث الحدث؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً!!.

﴿يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يُفعل بهم، والمقصود منه التهديد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1] أي معبود بالحق في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم بصنعه، العليم بخلقه كالدليل لما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجّد وتقدس الله مالك السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، من الملائكة، والإنس والجن ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد، أي المؤمن الموحّد فهو الذي تنفع شفاعته، لا القسس، والكُهّان، والأوثان ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإخلاص.

---

(١) لا يقتضي هذا تعدد الإله، لأن المراد بالإله هنا المعبود، أي هو جلّ وعلا معبود في الأرض كما هو معبود في السماء، يعبده أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لتعذر الإنكار فيه، من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ مع كونهم يعترفون بكون الكل مخلوقاً له تعالى.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ أي وقول الرسول، بالجر عطف على الساعة، أي عنده علم قوله ﷺ والقول والقال، والقيلُ، كلها مصادر ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بك وبالقرآن فافعل بهم ما شئت، قيل له.

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي أنا هاجر لكم وتارككم، فهو سلام متاركة، لا سلام تحية ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر، وهذا وعيدٌ من الله تعالى لهم، وتسليةٌ للرسول ﷺ، والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

* * *

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أُقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح البيِّن.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب المبين، وهو القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر[1] قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وأطبقوا على أن ليلة القدر في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي

---

(١) أما القائلون بأن «الليلة المباركة» هي ليلة النصف من شعبان، فليس لهم دليل يعوَّل عليه، من كتاب أو سنة، فإن صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ فلا مزيد عليه وعلى الرأس والعين، وإلاَّ فالحقُّ ما عليه الجمهور أنها ليلة القدر، كما صرَّح به الكتاب العزيز، وأنها في شهر رمضان المبارك، والله أعلم.

ابتدأ فيه إنزاله، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، ثم نزل به جبريل عليه السلام في وقت الحاجة إليه ﷺ، وصفها تعالى بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده، لكفى به بركة، وكفى لها شرفاً! وأيضاً لما فيها لما من نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وفضيلة العبادة، وقسمة الأرزاق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبين لما أنزلناه، أي لأن من شأننا الإنذار من العقاب.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف، لبيان فضل هذه الليلة، ففيها تُفصل الأمور المحكمة، والملتبسة بالحكمة، وهذا يدل على أنها ليلة القدر، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم، من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة. وفي الآية بيان لعظم القرآن بحسب ذاته، لأن تعالى أقسم به، ووصفه بكونه مبيناً، وبحسب شرف الوقت أنزله في ليلة مباركة، وبحسب شرف منزله، وهو رب العزة والجلال، لقوله تعالى: ﴿إنا كنا مرسلين﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني أمراً حاصلاً من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾الرسل لهداية البشر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن، لأن من عادتنا إرسال الرسل إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فالأوامر الصادرة منه تعالى، من

باب الرحمة، فإن الغاية من تكليف العباد هو تربيتهم وتعريفهم للمنافع ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يعلم أحوالهم.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي رب الكون كله، سمائه وأرضه ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم مريدين اليقين، فاعلموا أنه الله عزَّ وجلَّ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إذ لا خالق سواه فهو المحيي المميت، خالق الخلق، ربُّ الأولين والآخرين.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ أي غيرموقنين في إقرارهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي لا يقولون ما يقولون عن جدٍّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي يوم شدة ومجاعة، وذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم، فقال: اللهم اشْدُد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأخذتهم سَنَةٌ حتى أكلوا الجِيف، والعظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض مثل الدخان، وذلك قوله تعالى:

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ ﴾ أي يحيط بهم ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي قائلين ذلك، وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو اختيار الفراء، والزجاج، وأكثر العلماء، وعن علي: هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران.

روي أن أبا سفيان ونفراً معه، مَشَوْا إلى رسول الله ﷺ، وناشدوه الله والرحم، إنْ دعا لهم، وكشف الله عنهم العذاب، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى حاكياً قولهم:

﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾.

﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ ومن فسر الدخان من الأشراط، قالوا: تصوَّر المعذبون به من الكفار والمنافقين الدخان، فاستغاثوا وقالوا ربنا... إلخ.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ﴾.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أي كيف يتذكرون ويوفون بما وعدوه من الإيمان، عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيَّن لهم مناهج الحقِّ، بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ ﴾.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ عن ذلك الرسول، ولم يقنعوا بالتولي، ﴿ وَقَالُواْ ﴾ في حقه ﷺ ﴿ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾ قالوا تارة معلم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف،

وأخرى مجنون، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا بالعِظة؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضَفَا، ـ أي تذلل ـ وإذا شبع طغى.

﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ، وما بينهما اعتراض، أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، زماناً قليلاً، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والفساد.

ومن فسر الدخان بأنه من أشراط الساعة قال: فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، وحيثما يكشفه عنهم يرتدون، والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكرى﴾ وقولهم ﴿معلَّم مجنون﴾ يؤيده، واحتج القائلون بالثاني، ببعض الأحاديث الشريفة منها: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»[1] أي قبل ظهور ست آيات وعلامات، وقوله «وخويصة أحدكم» أي ما يختص به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، فيشغله، ويريد بأمر العامة القيامة الكبرى، وقيل الفتنة التي تعم الناس، واستدلوا أيضاً بما روي عن حذيفة بن أَسَيد الغِفاري قال ﷺ: «إنها لن تقوم ـ أي الساعة ـ حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، ونار تخرج من اليمن[2]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في الفتن.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم ٢٩٠١.

مضين: اللِّزامُ، والرومُ، والبطشةُ، والقمرُ، والدخان»(١). عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصّاً يقصُّ، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام، فقال: يا أيها الناس اتقوا الله، من عَلِم منكم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذَّبوه، واستعصوا عليه، قال: اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سَنَةَ حَصّت(٢) كلَّ شيء، حتى أكلوا الجلودَ، والْميتة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين﴾(٣).

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي يومئذ ننتقم منهم أشد أنواع الانتقام.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال موسى يعني عاملناهم معاملة المختبر، وأوقعناهم في الفتنة، بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي كريم على الله، وكريم في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سَرَاة قومه وكرامهم.

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٧٤ في تفسير سورة الدخان.

(٢) أي أفنتْ وأكلت كل شيء.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٧٣.

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل، أي سلموا إليَّ قومي كقوله تعالى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾[1] ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنني الله تعالى على وحيه، وصدَّقني بالمعجزات.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي معجزة العصا واليد.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ أي التجأت إليه، وتوكلت عليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي من أن ترجموني أي تقتلوني، قيل: لما قال: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ توعَّدوه بالقتل، والمعنى: إني عائذ بربي من كيدكم وشرككم، فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه به من الرجم.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي فإن لم تؤمنوا لي فكفُّوا أذاكم عني، ولا تتعرضوا لي بشر وسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بعدما أصروا على تكذيبه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي

---

(١) سورة طه، آية: ٤٧.

مصرُّون على الكفر والإجرام، فانتقم منهم، فإن قيل: الكفرُ أعظم من الجرم، فلِمَ قال ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾ ولم يقل كافرون؟ فالجواب: أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مع كفره مجرماً، مرتكباً لأنواع الكبائر والجرائم، وهؤلاء جمعوا بين الكفر والإجرام، وسرعان ما كانت استجابة الدعاء!! قال تعالى آمراً له:

﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا ﴾ بإضمار القول، أي أجاب الله دعاءه، وأمره أن يخرج ببني إسرائيل بالليل، على غفلةٍ من العدو، لينجوا من شر فرعون وأتباعه ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده، بعدما علموا خروجكم.

﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ ﴾ أي ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ﴿ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ أي سيغرقون في البحر، ولا يستطيعون النجاة.

﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ كَمۡ تَرَكُواْ﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ بساتين وحدائق غناء، وعيون جارية بالماء.

﴿ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ أي مزارع واسعة، فيها أنواع الخضرة والثمار، ومساكن ودور وقصور أنيقة.

﴿ وَنَعۡمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ ﴾.

﴿ وَنَعۡمَةٍ ﴾ أي تنعم، والنَّعمة بالفتح ما يتنعّم به الإنسانُ، وبالكسر من الإنعام ﴿ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعمين، تفكّه بالشي أي تمتع به.

﴿ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَۖ ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ قيل هم بنو إسرائيل، وقيل: غيرهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر[١].

﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩ ﴾.

﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم مخلوق، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاء السماء كناية عن الحزن والتفجع عليهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقدُه، فيقال: بكت عليه السماء والأرض، وقيل: بكاء السماء حقيقة؛ لما رُوي عن أنس رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلاّ وله بابان: بابٌ يصمد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقُه، فإذا مات بكيا عليه، ثم تلا ﷺ ﴿فما بَكَتْ عَلَيهمُ السَّمَاءُ والأرضُ..﴾[٢] الآية، وقيل: تقديره ما بكى عليهم أهل السماء والأرض.

---

(١) القول الأول هو الصحيح، أن الذين ورثوا ديار قوم فرعون هم بنو إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ فالنص صريح في أن الوارثين كانوا بني إسرائيل، والقول بأنهم لم يعودوا إلى مصر غير صحيح، وهي أخبار إسرائيلية.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٣٥٤.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم.

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ أي من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي متكبراً، جبَّاراً، ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرفاً في الشر والفساد.

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ بأنهم أحقاء بالاختيار ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عالم زمانهم.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، وغيرها ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر، لننظر كيف يعملون؟.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلَّ بهم.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ أي ما العاقبة إلا الموتة الأولى، المزيلة للحياة الدنيوية، وليست الموتة إلا هذه الموتة، دون التي تعقب حياة القبر، كما تزعمون، ثم صرّحوا فقالوا ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين.

﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦ ﴾.

﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ خطاب لمن وعدهم بالبعث بعد الموت ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فيما تعدون به من قيام الساعة، فأحيوا لنا من مات من أجدادنا.

﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٣٧ ﴾.

﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ ﴾ ردٌّ لقولهم، وتهديد لهم، والمعنى: هل كفار قريش خيرٌ في القوة والمنعة ﴿ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ ﴾ هو «تُبَّع الحِمْيري» وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم»[1] سُمِّيَ تُبَّعاً لكثرة أتباعه، وقيل لملوك اليمن «التبابعة» لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كل ملك يتبع صاحبه الذي قبله، كما يسمى في الإسلام خليفة ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ والمراد منهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد ﴿ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ ﴾ بيان عاقبة أمرهم ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ تعليل لإهلاكهم حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة، فلأن يهلك هؤلاء أولى.

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ أي للعبث واللهو.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو الإيمان والطاعة، والبعث والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأمر كذلك.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي يوم القيامة لأن فيه فصل الحق عن الباطل، والفصل بين العباد ﴿ مِيقَٰتُهُمْ ﴾ أي وقت موعدهم للحساب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي الأولين والآخرين، برهم وفاجرهم.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى ﴾ أي لا يفيد ولا يدفع ﴿ مَوْلًى ﴾ أي ناصر وولي قرابة أو غيرها ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أي عن أي قريبٍ له ﴿ شَيْـًٔا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقدر على نصرته ولو كان قريبه، ولا ينفعه أيَّ نفعٍ، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن يرحمه من أهل الإيمان.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أي الشجرة اللعينة التي تنبت في قعر جهنم.

﴿ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴾ أي كثير الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده.

﴿ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾ أي كالنحاس المذاب الذي انصهر واشتدت حرارته ﴿ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴾ أي يفور في بطون أهل النار، كغليان القدر بالطعام.

﴿ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ الماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول، والخطاب للزبانية ﴿ فَٱعۡتِلُوهُ ﴾ أي جرُّوه، والعتلُ: الأخذ بمجامع الشيء وجرُّه بقهر وعنف ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي وسطه.

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ ﴾ أي ألقوا الماء الحار ﴿ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ أي فوق رأس ذلك الشقي الفاجر، من هذا الماء الحميم، الذي تناهت حرارته.

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ أي ويقال له على سبيل السخرية

والاستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم، روي أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: علامَ تهددني؟ ما بين بطاحها لا أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعلا بي شيئاً، فقتله الله يوم بدر وأذله، ويقال له في القيامة: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي العذاب ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكُّون فيه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِى مَقَامٍ ﴾ أي في مكان إقامة، وهي قصور الجنة ﴿ أَمِينٍ ﴾ يأمن صاحبه من الآفات، والانتقال عنه، والمسكن إنما يطيب بشرطين: ١ ـ أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف.
٢ ـ وأن تكون أسباب النزهة فيه كاملة.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا يدل على اشتماله على طيبات المآكل والمشارب.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي من أنواع ملابس الحرير، الرقيق منه والسميك ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في المجالس، ليستأنسوا بذلك. فإن قيل الجلوس على هذا الشكل موحش، لأن كل واحد منهم يطَّلع على ما يفعله الآخر، قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرنَّاهم بزوجات من الحور العين، والحُورُ: جمع حوراء وهي البيضاء، والعِينُ جمع عيناء وهي عظيمة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل ما يسوؤهم، ويكدِّر صفوهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل يستمرون على الحياة الأبدية ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي نجّاهم الله من عذاب جهنم الفظيع.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون، الخلاص من عذاب النار، والفوز بالجنة، إنما حصل لهم بفضل الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذْ هو خلاصٌ من المكاره، ونيلٌ لكل المطالب، وذلك النعيم تكرمة من الله عزَّ وجلَّ لهم.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنا أنزلنا الكتاب المبين بلغتك، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويعملوا بموجبه.

﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ إنهم ينتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون العاقبة، ولمن يكون النصر والظَّفَر؟ وفيه وعد للرسول ووعيد للمشركين، والله أعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

* * *

سورة الجاثية

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

مكية وهي سبع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لا كما زعم المشركون أنه من وضع محمد.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللكافرين، إلا أنه لما انتفع المؤمن دون الكافر، أضيف للمؤمنين، ونظيره ﴿هدى للمتقين﴾ فإنه هدى للكل، كما قال سبحانه ﴿هدى للناس﴾ نبّه تعالى على الآيات التكوينية، والأنفسية، والآفاقية، أما السماوات والأرض فإنهما منطويتان على فنون الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار، وأنواع المخلوقات العجيبة، وأما الآيات في الأنفس فقد ذكرها في قوله:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة، ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة، إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي فيما ينشره ويفرّقه وينوعه، من دابة تدب على وجه الأرض ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ دلائل على الصانع المختار ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ إما تعاقبهما وإما اختلافهما طولاً وقصراً ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي من مطر، وهو سبب الرزق، عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة، والرحمة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع، والنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يبسها وعرائها عن آثار الحياة، ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، ولها منافع أخر، ومن جملتها سوق السفن في البحار ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وتنكير آيات في المواقع الثلاثة، للتفخيم كماً وكيفاً.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ ﴾ من الأحاديث ﴿ بَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي بعد آيات الله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدّقون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ ﴾.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والجرائم.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ صفة أخرى لأفَّاك ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه وهي في غاية البيان والوضوح ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره، ويصر على طغيانه ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي مستكبراً عن الإيمان، مستمراً على الطغيان، معجباً بما عنده من الأباطيل، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية وردت بعبارة عامة، ناعية عليه، وعلى كل من يسير سيرة، هذا العمل المشين ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه لم يسمعها، فخفف فحذف ضمير الشأن ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره واستكباره، والبشارة للتهكم.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي الآيات كلها مهزوءاً بها، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء، ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفاك ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب شديد مؤلم، مع الذل والإهانة.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أُعِدَّ لهم ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم ﴾ أي ولا يدفع عنهم ﴿ مَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من الأموال والأولاد ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من عذاب الله ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ما عبدوا من الأصنام، وتوسيط حرف النفي مع أنَّ عدم الإغناء من الأصنام أظهر

مبنيٌّ على زعمهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يُقادر قدره.

﴿ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ أي القرآن الكريم في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أي من أشد أنواع العذاب، وتنوين العذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي لتسير فيه السفن بتدبيره وإذنه وأنتم راكبوها ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بالتجارة، والغوص، والصيد، وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ أي كائناً منه تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَـَٔايَٰتٍ ﴾ عظيمة وكثيرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائع صنع الله تعالى.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ ﴾ أي يعفوا ويصفحوا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾

أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بحساب الله وجزائه، نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن مشركاً من بني غفار شتمه بمكة، فهمَّ عمر أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يصفح عنه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام، وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه، ومن فعل شراً فضرره عائد عليها، لا يكاد يسري إلى غيره، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفصل الخصومات بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كَثُر فيهم الأنبياء، بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين إشارة لفضلهاعلىنعم الدنيا﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾كالمنّ والسلوى، وأنواع اللذائذ، والثمرات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم، فأمة محمد ﷺ أفضل الأمم بالنص القاطع ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، والمقصود أن يبيّن أن طريقة كفار مكة، كطريقة من تقدم في جحود النعم، والتكبر والعناد.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر الدين ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم رؤساء قريش يقولون: ارجع إلى دين آبائك، وهذه آراء الجهلة النابعة من الشهوات.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم إلا من كان مثلهم ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنت قدوتهم، فدُمْ على ما أنت عليه، وأعرض عما سواه بالكلية.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء، وهدى وشفاء، ورحمة لمن آمن به، واستمسك بهدايته.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾ استئناف مسوق لتباين حال المسيئين، وحال المحسنين، إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و «أم» منقطعة وما فيه من معنى «بل» للانتقال من بيان الأول إلى الثاني ﴿ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الاجتراح الاكتساب، ومنه الجوارح ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أي نصيِّرهم في الحكم والاعتبار، وهم على ما هم عليه من مساوىء الأحوال ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾؟ وهم فيما هم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة؟ ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي محيا الفريقين ومماتُهم؟ كلاَّ لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في الكفر والمعاصي في الدنيا، وفي لعنة الله والعذاب في الممات، شتَّان بينهما، فلا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار!! ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وظنهم الباطل، قال الكلبي: نزلت هذه الآية، في عتبة، وشيبة، والوليد، قالوا للمؤمنين: لو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، لأنّا أفضل حالاً منكم في الدنيا!! فأنكر الله عليهم، وبيَّن أنه لا يمكن أن يتساوى المجرم مع المحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟.

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥ ـ ٣٦.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالعدل والأمر الحقّ، فإن خلق الله لهما بالحق المقتضي للعدل، يقتضي تفضيل المحسن على المسيء، في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم، وإذا لم يطّرد ذلك في المحيا، فهو بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ما قبله، أي لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما فعلت في الدنيا، وهذا لا يتم إلا إذا حصل البعث ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها كل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، وتسمية ذلك ظلماً، لبيان غاية تنزهه تعالى عنه.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه عَبَده، أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضى منه العجب!! لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وكسره، وعبد الآخر ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي خذله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً سبحانه باختياره الضلالة، وتبديله لفطرة الله، التي فطر الناس عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟ أي من بعد إضلاله إياه، بموجب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغي؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تلاحظون فتعتبرون وتتعظون؟.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها،

وليس وراء ذلك حياة بعد موتنا، ولا بعث ولا نشور ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلاّ مرور الزمان، وتعاقب الأيام، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس، مرور الزمان، وينكرون قبض الأرواح ويضيفون الحوادث إلى الدهر، وما نالهم من الشدائد إليه كذلك، ويسبون فاعلها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»(1) أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما ذكر من إسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى عقل، أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي قصارى أمرهم الظنّ والتقليدُ، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ آياتنا الناطقة بالحق، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مُطلقاً.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم، فإن من قَدَر على البدء، قَدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجزاء لا محالة، والإتيان بآبائهم حيث كان منافياً

---

(1) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٩٩.

للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه في الحال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا يعلمون قدرة الله على الإماتة والإحياء، ولذلك ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بيان لاختصاص الملك والتصرف فيهما بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون بالبعث، لأن الحياة والعقل والصحة رأس المال، والتصرف فيها لطلب السعادة الأبدية، والكفار قد اتعبوا أنفسهم في هذه الحياة، وما وجدوا منها إلا الخسران.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي باركة على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحيفة أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، من خير أو شر!!.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ من تمام ما يقال لهم، وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ﴿كِتَٰبُنَا﴾ وتهويلاً لأمره، ومن حيث اشتماله على أعمال كل أمة، أضيف إليها ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من خير أو شر.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ أي يدخلهم في جنته التي هي مكان تنزل الرحمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال في الرحمة ﴿ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي السعادة التي لا سعادة وراءها.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ (٣١) ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ كان همكم في الدنيا الإفسادُ والإجرام!؟.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ (٣٢) ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما وعدكم من الأمور الآتية ﴿ حَقّٞ ﴾ واقع لا محالة ﴿ وَٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي أشهر ما وعد به ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعها ﴿ قُلۡتُم ﴾ لغاية عتوكم ﴿ مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي أيَّ شيءٍ هي، استغراباً لها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا ﴾ أي ما نعتقد بها إلا ظنّاً ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾ لإمكانه، ولعلَّ هؤلاء غير القائلين ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾.

﴿ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٣) ﴾.

﴿ وَبَدَا لَهُمۡ ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ على ما هي عليه، من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها، أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي جزاءه.

﴿ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ﴾.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي تركتم العمل له ولم تبالوا به ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر يخلصكم منها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ﴾ أي هذا العذاب بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مهزوءاً بها ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ من النار، والالتفات للاستهانة بهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ خاصة، إذِ الكلُّ منه نعمة، ودالة على كمال قدرته ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تكرير الرب للتأكيد، ولبيان أنَّ ربوبيته لكل منها بطريق الأصالة، ويوحي بالعظمة والجلال، فهو ربُّ الكائنات، وخالق الأرض السموات، الذي تفرَّد بالخلق والتدبير.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لظهور آثارها فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في كل ما قضى وقدَّر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

* * *

فهرس المجلد الرابع

بعون الله تعالى تم انتهاء المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس
ويبدأ بتفسير سورة الأحقاف

المُقتَطَفُ مِنْ عُيُونِ التَّفَاسِيرِ

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حَقَّقَهُ وخَرَّجَ أحادِيثَهُ

خادِمُ الكِتابِ والسُّنَّةِ

محمَّد علي الصَّابوني

المجلّد الخامس

دار القلم
دمشق

الدَّارُ الشَّاميَّةُ
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَحْقَافِ

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى، ينتهي إليه أمر الكل، وهو يوم القيامة، وهذا يدل أن إله العالم، ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل، ثم يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ أي والحال أنهم معرضون عمّا خوِّفوا به، لا يستعدون لحلوله، ولا يتفكَّرون ولا يتدبَّرون!.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ توبيخاً لهم، أي أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدون

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لـ: ﴿أرأيتم﴾ أي أرشدوني وأعلموني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾؟ أي شركة مع الله ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾ أي في خلقها وملكها وتدبيرها؟ فإن البشر بمعزل عن الخلق والتدبير، وإن كانوا من الأحياء العقلاء، فما ظنكم بالجماد؟ ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ﴾ تبكيت لهم، أي ائتوني بكتاب سماوي كائن ﴿مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي بقية من علم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم العبادة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقم عليها برهان.

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، أي هم أضل من كل ضالّ، حيث تركوا خالقهم السميع، القادر، الخبير، المجيب، إلى عبادة مصنوعهم العاجز، العاري عن السمع، والقدرة، والاستجابة، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة، أي لا يستجيبون لهم أبداً ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ﴾ أي لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بهم وبعبدتهم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند القيامة ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي مكذبين، بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام، فتتبرأ عن عبادتهم أو يراد بهم كل من يعبد من الملائكة، والجن، والإنس وغيرهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي مبينات للحق، واضحات ظاهرات أنها كلام العزيز الحميد ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ ﴾ أي قال الكفرة المجرمون عن القرآن المبين ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ في أول ما جاءهم من غير تدبر ولا تفكير ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي هذا سحر واضح، لا شبهة فيه، يسحركم به محمد.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؟ انتقال من شناعتهم السابقة، إلى حكاية ما هو أشنع منها، أي بل أيقولون افترى محمد القرآن؟ ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقدرون أن تردُّوا عني عذاب الله، إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني بالعقوبة، فكيف أجترىء عليه، فأعرِّض نفسي للعقوبة؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي هو جلَّ وعلا أعلم بما تخوضون وتندفعون فيه، من القدح في وحي الله، والطعن في آياته ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالجحود والعناد ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب وأناب، وفيه وعد بالغفران والرحمة لهم إن رجعوا عن الكفر والضلال.

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ البِدْعُ: بمعنى البديع كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة،

ويسألونه عن المغيبات، عناداً ومكابرة، فأُمر ﷺ أن يقول لهم: ما كنت بديعاً من الرسل، قادراً على ما يقدر عليه الله، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ يصيبنا فيما يستقبل من الزمان؟ وعن الحسن أن المعنى: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، من الحوادث والأحداث الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق، بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يُوحِي إليَّ ربي، وهو جواب عن اقتراحهم إخبارهم عن المغيّبات ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما أوحي إلي ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار، بالمعجزات الباهرة، عن خارجة ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بي»(1).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي ما يوحى إليَّ من القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار «قد» وُسِّطت بين أجزاء الشرط، مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي شهد رجل من علماء بني إسرائيل، وهو «عبد الله بن سلام» الواقف على أسرار الوحي، بما أُوتي من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن، من

---

(1) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/ ١١٤ ومناسبته أن «عثمان بن مظعون» لمّا توفي وكُفِّن في أثوابه، قالت أم العلاء: رحمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: وما يدريكِ أن الله أكرمه؟ ثم قال ﷺ: واللهِ ما أدري.. الحديث.

التوحيد، والوعد والوعيد، وغير ذلك، روي أنه لما آمن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهْتٌ، وإنْ علموا بإسلامي بهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أيُّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرنا»[1] ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ جواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بني إسرائيل، فآمن به، واستكبرتم عن الإيمان به، من أضلُّ وأظلم منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[2] ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم، للإشعار بعلة الحكم، فعدم هدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة، في حق القرآن والمؤمنين به ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي قالوا لأجل إيمان المؤمنين ﴿لَوۡ كَانَ﴾ أي ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ فإن معالي الأمور لا ينالها أيدي الفقراء والرعاة!! قالوا: وعامة من يتبع محمداً فقراء، مثل عمار، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم، قالوه زعماً منهم أن الرياسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية كما قالوا: ﴿لولا نُزِّل هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾؟ وغاب عنهم أنها منوطة

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ٧/١٩٧.
(٢) سورة فصلت، آية: ٥٢.

بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، لا بأمور دنيئة دنيوية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ﴾ أي وإذا لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذبٌ قديم، كما قالوا أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو ردٌّ لقولهم ﴿هذا إفك قديم﴾ فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى، مقرر لحقيته قطعاً كأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن، أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى، والتوراة مشتملة على البشارة بمقدم رسول الله ﷺ، فإذا سلَّمتم كون التوراة إماماً فاقبلوا حكمه في النبي حقاً ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من كتاب موسى، أي إماماً يقتدى به في دين الله، كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزله الله بلسان عربي ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي إنذاراً وتخويفاً للظالمين ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين، وبشارة المطيعين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي استقاموا على التوحيد والإيمان، وطاعة الرحمٰن.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة خلّدوا في الجنة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ بأن يحسن ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي يحسن إليهما إحساناً كما أحسنا إليه في صغره ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ دلت الآية على أن حق الأم الفظامُ، لأنه تعالى خصَّ الأم بالكره ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ وهو الفطامُ والمراد به الرضاع ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق لأجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يبعث نبيٌّ قبل أربعين لأنه سنُّ اكتمال العقل ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي نعمة الدين وغيرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، قال ابن عباس: «أجاب الله دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأعتق تسعة من المؤمنين، ولم يُرِدْ شيئاً من الخير، إلا أعانه الله تعالى عليه، وأجاب الله دعاءه في ذريته، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه، وأولاده، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة» ولذلك قيل: إنها نزلت فيه ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بما ذُكر ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي خطيئاتهم ﴿ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ ﴾ أي كائنين في عدادهم ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدٌ من الله لهم بالتقبل والتجاوز، أي وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً ﴿ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ على ألسنة الرسل في الدنيا.

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ لما وصف الله تعالى البار بوالديه وصف العاق في هذه الآية، أي قال لوالديه عند دعوتهما إلى الإيمان ﴿ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة، والآية في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وما روي من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، يردُّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ فإنه رضي الله عنه من أفاضل المسلمين ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أن أبعث من القبر بعد الموت ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أي وقد مضت قرون من الناس قبلي، ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ يسألان أن يغيثه ويوفقه للإيمان ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي قائلين له ﴿ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي البعث، أضافاه إليه تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تكذيباً لهما ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة.

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك﴾ كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخرويَّة.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ مراتب من أجزية ما عملوا، من الخير والشر، والدرجة غالبة في مراتب المثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب[1] ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) الدرجات في اللغة هي الطبقات من المراتب، وغلب استعمال الدرجات في الخير كقوله: ﴿هم درجات عند الله﴾ وقوله: ﴿فأولئك لهم الدرجات العُلى﴾ وفي الآية هنا إضمار تقديره: ولكل فريق منهم درجات أودركات، حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أي قُتِلوا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي بسبب استكباركم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبفسقكم المستمرِّين، ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، آثر النبي ﷺ وأصحابُه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكىءٌ على رمال حصير، قد أثَّر في جنبه، فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلستُ فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، ولا يعبدون الله!! فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب، أولئك قوم عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله..»[(1)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ»[(2)] وروى البخاري عن عائشة أيضاً قالت: «كان يأتي علينا الشهر والشهران، وما يُوقد فيه نار، إنما هو الأسودان: التمرُ، والماءُ»[(3)] إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم، لأنها وردت في حق الكافر، لأنه يتمتع ولم يؤد شكره، بخلاف المؤمن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ نعم إن الاحتراز أولى، لأن النفس إذا اعتادت التنعم، صعب عليها الاحتراز، فربما حمله ذلك على فعل ما لا ينبغي.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٥٠٣/٨ في التفسير ومسلم في الطلاق رقم ١٤٧٩.
(٢) الحديث أخرجه البخاري الأطعمة ٤٧٨/٩ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٧٠.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٨٢/١١.

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ ﴾ لكفار مكة ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ أي هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ جمع حِقْف وهو التل العظيم من الرمل، قال قتادة: كانوا حياً باليمن أهل رمل، بأرضٍ يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر. ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ أي من قبلِ هود، ومن بعده، والجملة اعتراضٌ وُسِّطَ بين «أنذَر» وبين قوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعنى: إن هوداً قد أنذرهم بذلك، وأعلمهم أن الرسل الذين بُعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده، كلهم منذرون نحو إنذاره.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً في كلامك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ هود عليه السلام ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ أي العلم بوقت نزول العذاب ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ حيث تصرُّون على كفركم، وتطلبون العذاب من جهالتكم وسَفَهكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ أي ولما شاهدوا سحاباً يعرض في الأفق ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي متوجهاً نحو أوديتهم، استبشروا ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ قال المفسرون: كان قد حُبس عنهم المطر، فلما رأوه مستقبل أوديتهم، استبشروا، وقالوا: هذا سحاب مبارك ممطرنا، أي يأتينا بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه السلام رداً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل هو ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ريح عاصفة مدمِّرة، فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كلَّ شيءٍ من أموالهم، ونفوسهم، وحيواناتهم، ونباتاتهم، بأمر الله ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، لأن الريح العاتية لم تبق منهم إلا الآثار ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي نعاقب من كان كافراً مجرماً.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ أي ملّكناهم وأقدرناهم ﴿ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي في الذي لم نمكنكم يا أهل مكة فيه، من السَّعة، والبسطة، وطول

الأعمار، وسائر مبادىء التصرفات، كقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي آلات الإحساس والفهم، ليستعملوها فيما خُلقت له، ويستدلوا بها على شؤون منعمها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَا أَبْصَارُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي حيث كانوا يكفرون بآيات الله وينكرونها، وهو كالتعليل لهلاكهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، وأحاط بهم من كل جانب، وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يا أهل مكة كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالشام أهلكناها مع أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ كررناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمَّا هم فيه من الكفر والمعاصي، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ .

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتهم الذين عبدوها من دون الله، واتخذوهم قربة بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ؟ حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾

(١) سورة الأنعام، آية: ٦.

و﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ وفيه تهكم بهم وبآلهتهم المزعومة ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكمٌ آخر بهم، كأن عدم نصرهم لغيبتهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ضياع آلهتهم وامتناع نصرهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم وكذبهم على الله، وهو اتخاذهم إياها آلهة ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطف على إفكهم وأثر افترائهم بقولهم إنها آلهة، وإنها تشفع لهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي وجهناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال الراغب: والجنُّ: مخلوقات مستترة عن الحواس، وهم من الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيارهُم الملائكةُ، وأشرارهم الشياطينُ، وأوساطٌ، فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وقد دلَّ الكتاب وأخبار الأنبياء على وجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة، وغاية ما فيه وجود أشخاص بيننا لا نراهم، وليس ذلك مما يمنع وجودهم، فإن من المقطوع به أن الروح، والعقل في البدن، ولا نراهما [(١)] ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لاستماع القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم ﷺ وفرغ عن تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي

(١) الجنُّ مخلوقات غيبية كالملائكة، يختلفون عنهم في أصل الخلقة، فأصلهم من نار، والملائكة من نور، وهم مكلفون كالإنس بتوحيد الله وطاعته وعبادته، وجميع الجن داخلون في دائرة المسؤولية، وقد بلَّغهم ﷺ دعوة الإسلام، فآمن البعض وكفر البعض، فالإيمان بهم واجب، ولا ينكر وجودهم إلا غبيٌّ جاهل، لأن هناك أشياء كثيرة موجودة ولا نراها كالميكروبات والجراثيم، والروح والعقل كما أشار إليه المصنف رحمه الله.

رجعوا إلى قومهم مصممين إنذارهم عذاب الله، وداعين لهم إلى الإيمان، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، فعند ذلك:

﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ قالوه لأنهم كانوا على اليهودية ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادوا به الكتب السماوية ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه، وهو الشرائع والأعمال.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، والإيمان بالرسول الذي نزل عليه القرآن ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حق الله تعالى، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ينقذكم من عذاب شديد مؤلم، معدٌّ للكفرة، واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلاَّ نجاتهم من النار، والأكثر على أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً، وتمام الكلام في سورة الجن.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بالله، ويستجب لدعوة رسوله ﷺ فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ بيان لاستحالة

نجاته بواسطة الغير، أي وليس له من ينقذه ويخلّصه من عذاب الله تعالى، من أنصار ولا أعوان، ولا من عبدهم من دون الله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي الموصوفون بعدم الإجابة ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن الاستجابة لدعوة الله.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ابتداءً من غير مثال ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعب، ولم يعجز ولم يضعف بذلك أصلاً ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ خبر لأنَّ، كأنه قيل: أوليس الله بقادر ﴿ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ولذا أجيب بقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، أي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أي ذكّرهم يوم يعرضون على نار جهنم ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يقال لهم: أليس هذا العذاب الذي ترونه حقاً؟ وفيه سخرية بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده حيث كانوا يقولون ﴿وما نحن بمعذبين﴾ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أكدوا جوابهم بالقسم، كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما في الدنيا، وأنَّى لهم ذلك؟ ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وجحودكم للحساب والجزاء.

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر، فاصبر على ما يصيبك يا محمد من جهتهم ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾ أي أولو الثبات والحزم ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فإنك من جملتهم، بل من أكابرهم، والمراد بأولو العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقّها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وقال ابن زيد: كلهم ذوو عزم، وحزم، واختاره الرازي على أنّ «مِنْ» للتبيين ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب، فإنه على شرف النزول بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ ﴾ في الدنيا ﴿ إِلَّا سَاعَةً ﴾ يسيرة ﴿ مِّن نَّهَارٍ ﴾ استقصروها لما يشاهدونه من شدة العذاب ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي وُعِظتم به تبليغٌ من الرسل ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾؟ أي الخارجون عن الطاعة وعن الإيمان، وقال الزجاج: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون.

والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه، وعلى العلماء العاملين بسنته، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

* * *

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدُّوا غيرهم عنه، وهو عام في كل من كفر وصدَّ الناس عن دين الله ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وجعلها ضائعة لا أجر لها ولا ثواب، بمعنى أنه تعالى حكم ببطلانها وضياعها، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البرّ، كصلة الرحم، وقرى الأضياف وغيرها، ليس لها أثر في الآخرة، لعدم مقارنتها للإيمان، فإن الإيمان شرطٌ لقبول العمل، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[1] وإذا لم يقبل العمل، لا يكون له وجود بالكلية.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ خُصَّ بالذكر مع اندراجه فيما قبله، تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه أصل في الكل، ولذا أكد بقوله ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، ومحاها وغفرها لهم ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا، بالتأييد والتوفيق، وقيل: قلوبهم، لأن القلوب إذا صلحت صلح الجسد كله.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار، بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي يبيّن للناس ﴿ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي أحوال الفريقين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع الأولين الباطل وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق وفوزهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فإذا لقيتم في المحاربة الكفار أعداءكم وقوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانب المؤمنين، بخلاف إذا لقيكم، ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، ففيه اختصار، وتأكيدٌ بليغ، وتهويلٌ لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وذلك بضرب الرأس، فإذا أُبين عن بدنه، كان أسرع للموت

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي أكثرتم قتلهم، وأثقلتموهم بالقتل والجراح ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، والوَثَاق بالفتح: القيدُ، والحبلُ، وهو اسم لما يوثق به أي يربط به ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداءً، والمعنى: التخيير بين الاسترقاق، والمنِّ، والفداء.

وقال مجاهد: ليس اليوم مَنٌّ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أوزار الحرب: آلاتُها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، من السلاح، والكُراع، وأسند وضعِها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً، والمعنى إنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا تبقى لهم شوكة ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ أي افعلوا ذلك ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي ليختبر إيمانكم وثباتكم، ولذلك أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم، فتستوجبوا ثواب الله العظيم ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي استشهدوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي فلن يضيِّعها، بل يوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب والجنة ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي ويرضى أعمالهم ويقبلها.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ بذكر أوصافها، بحيث يعلم كل أحد منزله، كأنه ساكنه منذ خُلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي دينه ورسوله ﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ الله تعالى على أعدائكم، ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في مواطن الحرب، فالمؤمن ينصر الله بخروجه للقتال وإقدامه، والله ينصره بتقوية قلبه، وتثبيت أقدامه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ⑧ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ التعس: الهلاكُ والعِثَارُ والسقوط، تعِس: أكبَّ على وجهه، وهذا زيادة في تقوية قلوبهم، كأنه قال تعالى: ولكم الثبات، ولهم الزوال به ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ⑨ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الشقاء وضلال الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمۡ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي القرآن لما فيه من التوحيد، والأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي أذهبها وأضاعها.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ⑩ ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾؟ أي أقعدوا في أماكنهم، فلم يسيروا فيها، فينظروا كيف كان من قبلهم من الأمم المكذبة، فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي أهلكهم الله واستأصلهم وخرّب ديارهم ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ أي ولهؤلاء الكافرين أمثال عقوباتهم، وعاقبتهم الوخيمة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ⑪ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلك المذكور من العقوبة بسبب أنه تعالى ناصر المؤمنين بسبب إيمانهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع ما حلَّ بهم من العذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثم رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك، وههنا بمعنى الناصر، فإنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين من جهة الملك والتصرف، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بيان لحكم ولايته لهم، وثمراتها الأخروية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها الفاني، ولذائذها وشهواتها، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ويأكلون ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ أي كالبهائم، غافلين عن عواقبهم ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي ونار جهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ أي وكم من أهل قرية، هم أشد قوة من أهل مكة، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم، وصفُ القرية الأولى بشدة القوة؛ للإيذان بأولوية الثانية بالإهلاك، ووصفُ الثانية بإخراجه ﷺ؛ تلميح لعظم جناياتهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم ينصرهم أحد، ولم يستطع دفع العذاب عنهم، وهذه تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المذكورين، أي هل من هو على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر الدين، وبرهان نيّر، وهو القرآن الكريم ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ الزائغة، وانهمكوا في الضلالات؟.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ بيان محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين، أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المؤمنين المتقين، وأحوالها العجيبة الشأن ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ أي غير متغير الطعم والرائحة، يقال: أسِنَ الماءُ إذا فسد وتغيّر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ أي أنهار من حليب في غاية الجودة والمساغ، لم يحمض بطول المقام، لأن الحليب سريع الفساد ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لذيذة ليس فيها كراهة طعم، ولا غائلة سُكرٍ ولا خُمار، وإنما هي تلذذٌ محض، وإنما قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ طعامٍ يتلذذ به شخص، ويعافه الآخر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لا يخالطه الشمع، وفضلات النحل ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر ﴿ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي من كل صنف من الثمرات، ولما كان في الجنة الأكل للّذة لا للحاجة، ذكر الثمار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ولهم مغفرة عظيمة، فإن قيل: لا يدخل أحد الجنة إلا بعد المغفرة فكيف قال ولهم مغفرة؟ الجواب أن المراد بالمغفرة رفع التكليف عنهم فكل ما تشتهيه نفسه حلال من الجنة ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أَمَن

هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خالد في النار؟ كما نطق به قوله تعالى: ﴿والنَّارُ مَثْوَىً لَهُمْ﴾ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي ماءً حاراً قد بلغت حرارته النهاية، مكان تلك الأشربة اللذيذة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي فقطَّع أحشاءهم من شدة حرارته.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ (١٦) ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون في نفوسهم الكفر والعصيان، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، فيسمعون كلامه، تهاوناً به وتغافلاً عنه، ولا يراعونه حق رعايته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ما الذي قاله محمد الساعة؟ على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممَّا لا خير فيه، والمعنى إنهم لما تركوا اتباع الحق، أمات الله قلوبهم، فلم تفهم، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم الباطلة.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧) ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ أي المسموع لأنهم فهموه وكانوا مهتدين، فزادهم الله هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين، إلى درجة الهادين ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أعانهم على تقواهم وألهمهم رشدهم.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨) ﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي تباغتهم بغتة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتها، جمع شرط وهي العلامة، كمبعثه ﷺ، وانشقاق القمر، وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من أشراط الساعة، أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهلُ، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقلَّ الرجالُ، ويكثر النساء»[1] ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ بيان استحالة نفع التذكر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة!!.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد، ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ بما يصدر عنه من ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولإرشاده إلى التواضع، وهضم النفس ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي لذنوبهم بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي الغفران ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العقبى فإنها مواطن إقامتكم، وقيل: المعنى يعلم جميع أحوالكم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/ ١٤.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ ﴾ أي هلاَّ نُزِّلت سورة فيها ذكر الجهاد، وفريضة الجهاد، لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كلُّ سورة فيها ذكر القتال، فهي محكمة لم تنسخ ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وهَلَعاً، كدأب من أصابته غشية الموت، ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي فويل لهم مشتق من الويل، وقيل معناه: الموت أولى لهم، والأول أصح، لأن الويل معناه الهلاك، أي هلاك لهم ودمار.

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة لك يا محمد، وأمرٌ معروف خير لهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي فإذا جدّ الجِدُّ، وفُرِض القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي فلو أخلصوا في إيمانهم، واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من التقاعس والعصيان.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام، أن

ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟!.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات الكونية.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ أي ألا يلاحظون ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً، و «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على التدبر في الآيات، إلى التوبيخ على ظلمة القلوب وقسوتها، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة متحجرة، كأنها مكبَّلة بأقفال حديدية، فلا يصل إليها نور، ولا ينفذ إليها قرآن، وهذا كما تقول عن إنسان مؤذٍ: هذا ليس بإنسان هذا وحشٌ، وهذا ليس بقلب بل حجر!!.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة، وهم المنافقون، أي من بعد أن وضح طريق الهدى بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الواضحة

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي الشيطان سهَّل لهم ركوب العظائم، من الفواحش والمنكرات ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأماني والآمال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله تعالى، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة عما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين، نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾[1] الآية، وهم بنو قريظة والنضير، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سراً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم، وما دبَّروه من الكيد والدسِّ، والتآمر على الإسلام والمسلمين، قالوا ذلك لليهود سرّاً، فكشفه الله وفضَحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؟ أي فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وجاءتهم ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١١.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأزهقها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلت أحوالهم، وصفوا بوصفهم السابق، لكونه مداراً لما نُعي عليهم، بقوله تعالى ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾؟ جمع ضِغن، وهو الحقد الشديد، مثل حِمْل وأحمال، والمعنى: أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أنه تعالى لن يخرج أحقادهم، ولن يُبرزها للرسول ﷺ وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورة؟ ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ بعلاماتهم التي نَسِمُهم بها، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي من فحوى كلامهم وأسلوبهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعدٌ ووعيد.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي الثابتين الذين لا

يولُّون الأدبار ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها وقبيحها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي حاربوا الرسول وخرجوا عن طاعته، ومنهم الذين أطعموا المشركين يوم بدر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه؛ ومشاقة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطل هؤلاء أعمالهم بالكفر والنفاق، وليس فيه إحباط الطاعات بالكبائر، أي داوموا على ما أنتم عليه ولا ترتدوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ حكمٌ يعمُّ كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب القليب أي قليب بدر لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا يا معشر المؤمنين ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خَوَراً ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن كونهم مؤمنين، وكونه تعالى ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل، وهذا كقوله تعالى: ﴿لأَغْلِبَنَّ أنَا ورسُلِي﴾ وقوله: ﴿وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن يضيعها، من الوتر الذي هو الفرد، أي لن ينقص شيئاً من ثواب أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلاَّ فانية زائلة، لا قرار لها ولا ثبات، تشبه لعب الأولاد، فلا ينبغي أن تكون مانعاً للمؤمن عن الجهاد، خوفاً من فواتها، فما عند الله خير للأبرار. ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وثواب تقواكم كاملاً ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم بحيث يخلُّ أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها، تؤدونها إلى فقرائكم.

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا ﴾ أموالكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يجهدكم بطلب الكلِّ فإن الإحفاء والإلحاف هو المبالغة في الإلحاح ﴿ تَبْخَلُوا ﴾ لو طلبها لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ ﴿ وَيُخْرِجْ

﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي أحقادكم، أي يخرج ما في قلوبكم من البخل، وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبل على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائر نفسه، فمن رحمته تعالى أنه لم يكلفكم بما لا تطيقون.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم هؤلاء المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ والإنفاق في سبيل الله، يعمُّ نفقة الغزو، والزكاة وغيرهما ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق، وضرر البخل، عائد إليه، كمن بخل بأجرة الطبيب، وثمن الدواء، وهو مريض ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي مستغن عنكم وعن إنفاقكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي وأنتم محتاجون إليه، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلف مكانكم قوماً آخرين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ في التولي عن الإيمان، والبخل في الإنفاق، بل يكونوا أسخياء كرماء.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

* * *

سُورَةُ الفَتْحِ

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ المراد به فتح مكة شرفها الله، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحققه لا محالة، تأكيداً للتبشير، وقيل: هو صلح الحديبية، فإنه وإن لم يكن فيه حرب، لكن أصاب رسول الله ﷺ ما لم يصب في غزوة[1]، ووقع في الحديبية معجزة عظيمة، هي أنه كان بها بئرٌ، نُزِح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجَّ فيها، فدرَّتْ بالماء، حتى شرب من كان فيها من الجيش ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أي فتحاً بيِّناً، ظاهراً، فارقاً بين الحق والباطل.

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتَّب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك من أمور عظيمة، وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ غاية الفتح من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميتها ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين، وضم النصر إلى النبوة، وغيرهما مما أفاض الله عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة، وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكنْ حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما جعل كثيرين من المشركين يدخلون في دين الله.

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي نصراً فيه عزَّةٌ ومَنَعة، يجمع لك فيه بين عز الدنيا والآخرة.

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادىء الفتح، من الثبات والطمأنينة، أي أنزلها ﴿ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بسبب الصلح والأمن، إظهار نعمة الله تعالى عليهم، بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ أي يقيناً منضماً إلى يقينهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ يدبّر أمرها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم

بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره، فكان قادراً على إهلاك عدوه، ولم يفعل، بل أهلكهم بأيدي المؤمنين، ليكون لهم الثواب العظيم بقتال المشركين، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي دبَّر ما دبر، من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي يغطِّيها ولا يظهرها ويمحوها عنهم فلا يؤاخذهم بها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الرجال.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وفي تقديم المنافقين، دلالة على أنهم أحق من الكفار بالعذاب، لأنهم كانوا أشد على المؤمنين، بحيث لا يمكن التحرز عنهم ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم فلا يرجعون إلى ديارهم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو نازلٌ بهم، ودائر عليهم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي سخط عليهم أشد السخط، لكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة هي نار جهنم، وبئست جهنم مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ كرر الآية تأكيداً، وفائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة، وجنود العذاب، وأن المراد ههنا جنود العذاب، كما ينبىء عنها التعرض لوصف العزة، فذكرهم أولاً لبيان جنود الرحمة لأن الحديث عن المؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب، لأن الحديث عن المنافقين والكافرين.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك، لقوله تعالى ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا﴾ على المعصية.

﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وأمته ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تقوُّوه بتقوية دينه ورسوله، والتعزيرُ نصرٌ مع تعظيم ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي وتنزهوا ربكم[1] ﴿ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي غدوة وعشياً بمعنى دائماً في الصباح والمساء.

---

(١) على هذا القول تكون الضمائر كلها راجعة إلى الله عزَّ وجل، وهذا اختيار البيضاوي وأبي السعود، واختار جمع من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وتعزّروه وتوقروه﴾ عائد على النبي ﷺ، أي تنصروا الرسول وتقوّوه، وتحترموه وتجلُّوه، والضمير في قوله: ﴿وتسبحوه﴾ عائد على الله عز وجل، وهذا قول الضحاك، واختاره القرطبي وكثير من المفسرين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي أن مبايعتك هي مبايعة الله، لأن المقصود توثيق العهد، بمراعاة أوامره ونواهيه، وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه، من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد، والمراد بهذه البيعة «بيعة الرضوان» بالحديبية، وفي هذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله عزَّ وجلَّ ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم فوق نصرهم إياه، ويد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين كأنها يد الله[1]، كما قال سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فما نكث أحدٌ منا ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي فمن نقض عهده، فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ أي ومن وفَّى بعهده ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هو الجنة.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي

---

(١) قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالىٰ المبايع بواسطة رسوله ﷺ (أنظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢).

المتخلفون عن الخروج معك، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب، ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة، عام الحديبية معتمراً، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب، أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدي، ليعلم أهل مكة أنه لا يريد الحرب، فقال المتخلفون: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنوا أنه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بما قالوا: وبما تعلَّلوا به، ومنه قولهم ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ولم يكن من يخلفنا فيهم ويحميهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى، ليغفر لنا تخلفنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيار، بل عن اضطرار، فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو النفاقُ، والشكُّ في الدين، فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقته ﴿قُلْ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فمن يقدر على شيء من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي ما يضركم من هلاك الأهل والمال، حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي ومن يقدر على شيء من الضرر، إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم؟ فأي حاجة إلى التخلف، لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحق، ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله عالماً بما تعملون، مطّلعاً على أخباركم.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الخ بدل مفسر لما فيه الإبهام، أي بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا

كما ذكرتم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مبالين بهم، لأن الشبهة قد يزينها الشيطان للإنسان كما فعل بكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ المراد به إما الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمُّه وغيره من الظنون الفاسدة ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ومن لم يعتقد بالله وبرسوله بطريق الصدق والإخلاص ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيَّأنا لهم ناراً حامية مسعَّرة، تحرق القلوب والجلود، وإنما وصفهم بالكفر، إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، بيَّن الله تعالى بأن ظنهم الفاسد يفضي إلى الكفر، وحرَّضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن السيِّىء.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ﴾ من غير دخل لأحد في شيء منهما، وجوداً وعدماً، وفيه حسمٌ لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي مغانم خيبر، لتحوزوها، حسبما وعدكم إياها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، حيث كان لهم طمع في الغنيمة، أوضح الله تعالى كذبهم بهذه الآية، حيث لا يشتغلون بأموالهم وأهليهم في هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم، التي خصها أهل الحديبية، فإنه ﷺ لمَّا رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ثم غزا خيبر في أوائل المحرم ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة خصَّها بهم، حسبما أمر الله تعالى، فالمراد وعده تعالى بغنائم خيبر لأهل الحديبية ﴿قُل﴾ إقناطاً لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على حطام الدنيا، وهذا رد لقولهم، ووصفٌ لهم بالجهل في أمور الدين.

> ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ .

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان، مبالغةً في ذمهم، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم، بتكرير التخلف والكذب

في الأقوال. ولمّا نزلت هذه الآية، قال أهل الأعذار كيف حالنا يا رسول الله؟ فأنزل الله.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ أي في التخلف عن الغزو، لما بهم من العذر، فإن التكليف يدور على الاستطاعة ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ وفي نفي الحرج عن الطوائف المعدودة، مزيد اعتناء بأمرهم، لا في سائر الأعضاء، فلا مانع في الكر والفر ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي موجعاً مؤلماً.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ هم الذين بايعوا رسول الله على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وبهذه الآية سميت «بيعة الرضوان» روي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة فأخبرهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت الشريف، فوقّروه وقالوا لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وكانوا ألفاً وخمس مائة وخمسة وعشرين، عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «لا يدخل النار

أحد ممن بايع تحت الشجرة»[1] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الإخلاص لله ولرسوله ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فأنزل الطمأنينة والأمن، وسكون النفس بالربط على قلوبهم، وقيل بالصلح ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر.

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وأكرمهم بغنائم كثيرة من خيبر ينالونها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيعاً لا يُغالب، مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه، وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات التي ستكون.

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهو ما يفيئه الله على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد، وغطفان، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارة يعرفون بها صدق رسول الله ﷺ، في وعده إياهم، ما ذكر من المغانم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقيناً، وثقةً بفضل الله، وللتوكل عليه.

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ أي ومغانم أخرى ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ أي استولى عليها بقدرته تعالى ووهبها لكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ لأن قدرته ذاتية، لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أهل مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي سنَّ الله تعالى غلبة أنبيائه سنة قديمة، فيمن مضى من الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ تغييراً، لأنَّ سنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي في داخلها ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم، والكفُّ عنهم، لتعظيم البيت الحرام ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك ويجازيهم.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ حال من الهدي أي محبوساً ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أي من أن يبلغ مكانه، الذي يحل فيه نحره، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم، روي أن خيامه ﷺ كانت في الحديبية، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم ﴾ أي من جهتهم ﴿ مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي مشقة ومكروه، ويلحقكم ذنب بقتلهم، والمعرَّةُ: الإثم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً من المؤمنين المؤمنات بين الكافرين، لما كَفَّ أيديكم عنهم ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن، وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها، لكنهم قاصرون في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الأخروية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تميز المسلمون من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم.

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾.

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي كفرة قريش، فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة والتكبر، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ بدل من الحمية، أي حمية الملَّة الجاهلية ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الطمأنينة والوقار على قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين؛

روي أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحديبية، بعثت قريش «سهل بن عمير وحويطب، ومكرز» على أن يعرضوا على النبي ﷺ، أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريشٌ مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعلي اكتب: «باسم الله الرحمٰن الرحيم» فقالوا: لا نعرف هذا!! اكتب: «باسمك اللهم» ثم قال له: «اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة»، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة فقال ﷺ، اكتب ما يريدون»، فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحمَّلوا حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي ألهمهم الثبات على كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله» والإخلاص والوفاء لها بطاعة الله والرسول ﷺ، وفي الآية لطائف قال الله تعالى في الكافر: «جعل» وفي حق المؤمن «أنزل» إشارة إلى أن الحمية في نفسها مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية، تزداد قبحاً، وكانت مجعولة في الحال، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها الله فهي حسنة، وإضافة الله فيها أحسن، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين، على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا، ويتحلوا بالصبر، فهو من فضل الله تعالى ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ أي المؤمنون ﴿ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهلين لها، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه، أهل الخير والصلاح ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم كل شيء فيسوقه إلى مستحقه.

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا ﴾ أي صدَّقه في رؤياه ولم يكذّبه، روي أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ولم يعيِّن له وقتاً ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، فلمَّا تأخر ذلك، قال «عبد الله بن أُبَي» وأصحابه المنافقون: ما حلقنا ولا قصَّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؟! فنزلت الآية رداً عليهم أي أراه الرؤيا الصادقة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، ليست من قبيل الأضغاث والأحلام ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتدخلن ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تعليق الدخول بالمشيئة لتعليم العباد الأدب في الحديث ﴿ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ أي بعد ذلك من عدو في رجوعكم، وقوله ﴿آمنين﴾ في حال الإحرام ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ ﴾ أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا أنتم من الحكمة، الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجله ﴿ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من دون تحقق دخول المسجد الحرام ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو فتح خيبر، والمراد إنجازه من غير تسويف، ليستدل به على صدق الرؤيا، ولتستريح إليه قلوب المؤمنين.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي أرسله بالهداية التامة، الشاملة الكاملة، هادياً للناس إلى سبيل السعادة والنجاة ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ وبدين

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وفيه فضل تأكيد، لما وعدهم به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم البلاد، وقد حقق ذلك سبحانه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن محمداً ﷺ رسوله، وعلى أن دين الإسلام حق.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩)﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول، المرسل بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم بالشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين بالرحمة، والرأفة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي ثواباً ورضاء ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ في جباههم ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود، فقد استنارت وجوههم في النهار، من كثرة صلاتهم بالليل، مع الخشوع والتواضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ تكرير المثل لتأكيد غرابته ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي كزرعٍ أخرج فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه حتى صار غليظاً، من

المؤازرة بمعنى المعاونة ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فاستقام على أصوله ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوته، وكثافته، وغلظه، وحسن منظره، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحابه ﷺ، كانوا قلَّةً في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس شأنهم ودينهم، وكامل قوتهم، وجاء في الإنجيل «سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرعِ، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر» ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ علة لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع، من نمائهم واستحكامهم، أي ليدخل الغيظ إلى قلوب الكفار بهم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزة والكرامة، غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«مِنْ» للبنيان وقال ابن جريج: من الشطأ الذي أخرجه الزرع، الداخلون في الإسلام، إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»(١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٢).

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

* * *

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

سُورَةُ الحُجُراتِ

مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وصَفَهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به، وفي هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ أي لا تقدِّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأي من الآراء ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ أي لا تفعلوا شيئاً، ولا تقطعوا بأمر قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ[1] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، من الأقوال والأفعال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم.

---

(١) في الآية الكريمة استعارة لطيفة، حيث شبَّه حال المؤمنين مع رسول الله عليه الصلاة =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إعادة النداء للمبالغة في الإيقاظ، بشأنه ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي لا تبلغوا بأصواتكم حداً يبلغه ﷺ بصوته، بل ينبغي أن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عالياً على كلامكم، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، ومن يرفع صوته عند غيره، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ، وتعهدوا في المخاطبة الحديث القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظَّم، وحافظوا على مراعاة مقام النبوة، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته، بل بالنبي والرسول، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة وتضيع، بسبب عدم أدبكم مع الرسول، المبعوث رحمة للعالمين وعلة للنهي، أي لا تجهروا خشية ﴿أن تحبط﴾، وليس المراد بما نهي عنه ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإن ذلك كفر، بل ما يكون أثناء المحاورة، من الرفع والجهر، حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعضٍ﴾ ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي بحبوطها، وفيه مزيد تحذير لهم مما نُهوا عنه.

= والسلام، بحال ملكٍ عظيم كان يمشي مع الحاشية والأتباع، فتقدم للسير أمامه بعض أفراد الحاشية، وكان الأدب يقتضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهكذا شأن الصحابة مع رسول الله عليه السلام لا ينبغي لهم أن يعرضوا أمراً، أو يقطعوا حكماً في حضرة النبي ﷺ، ولهذا جاء الأمر عاماً يشمل كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي يخفضونها في مجلسه، مراعاة للأدب، أو خشية من مخالفة النهي ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المتخلقين بالأدب من الصحابة الكرام، الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول عليه السلام ﴿ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ أي جرَّبها للتقوى، وأخلصها للتقوى وجعلها صفة راسخة فيها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ﴾ ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يُقادر قدره لغضهم أصواتهم، وسائر طاعاتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾ أي من خارجها ومن خلفها، والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين، ومناداتهم أن جماعة من الأعراب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو راقد وقت الظهيرة، فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم ﷺ ﴿ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ إذ لو كان لهم عقل، لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم ﴿ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي تفاتحهم بالكلام، وفيه بيان لحسن الأدب ﴿ لَكَانَ ﴾ الصبر المذكور ﴿ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبين للثناء والثواب ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة، إن تابوا وأصلحوا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ﴾ المجيء بالنبأ الكاذب، يورث كون الإنسان فاسقاً ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ أي فتعرفوا وتفحّصوا الأمر، روي أنه ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به خرجوا لاستقباله، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا، ومنعوا الزكاة، فهمّ ﷺ بقتالهم، فنزلت ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿ فَتُصۡبِحُواْ ﴾ أي تصيروا بعد ظهور براءتهم ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ ﴾ في حقهم ﴿ نَٰدِمِينَ ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، وتنكير الفاسق، والنبأ للتعميم، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم، بأيّ نبأ فتبينوا، أي تطلّبوا انكشاف الحقيقة وتثبتوا من صحة الخبر.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره فتفتضحوا ﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ أي لو أطاعكم في أغلب ما تشيرون عليه، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدي إلى الهلاك، وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ أي ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ أي وحسّنه في قلوبكم حتى رسخ حبه فيها، وأصبح طبيعة وسجيّة ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ أي وبغّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من المعاصي

والآثام مما لا خير فيه، حتى اجتنبتموها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ الموافقون للرشد الموفقون لفعل الخيرات.

﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ ﴾ أي تفضلاً منه تعالى عليكم حبَّب إليكم الإيمان، وكرَّه إليكم العصيان ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حَكِيمٞ ﴾ يفعل ما يفعل بموجب الحكمة والمصلحة.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ أي تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ ﴾ أي ترجع ﴿ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ إلى حكمه، وإلى ما أمر به ﴿ فَإِن فَآءَتۡ ﴾ إليه واقتلعت عن القتال حذراً من قتالكم ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر، وتقييدُ الإصلاح بالعدل، لأنه مظنة الحيف، لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك حيث قال: ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ ﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء، وفيها دلالة على أن الباغي المقاتل، لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنه يجب معاونة من

بُغي عليه، بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة، ولفظةُ «إن» إشارة إلى ندرة الوقوع بين المسلمين، وإلى أنه ينبغي أن لا يقع منهم، ولم يقل «منكم» تبعيداً لهم عنهم، وقال ههنا (بالعدل) ولم يقل هناك فأصلحوا بالعدل، لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال، وذلك يكون بالنصيحة، أو التهديد والزجر، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل من ضمان المتلفات، وهو حكم، فقال: (بالعدل) لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لأن الأخوة الدينية، موجبة للإصلاح، وتخصيصُ الاثنين بالذكر، لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، فالمعنى: ولو كان بين الرجلين من المسلمين أدنى اختلاف، فاسعوا في الإصلاح ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أُمرتم به من الإصلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم. عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلِمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّجَ عن مسلم كربة فرّجَ الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٣ والترمذي رقم ١٤٨٦ في الحدود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ أي جماعة منكم ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ آخرين منكم، والقوم هنا الرجال خاصة، إذ لو كانت النساء داخلة في قوم، لم يقل ﴿ولا نساء﴾ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منهم عند الله، خيراً من الساخرين، ويمكن أن يقال المراد من قوله: ﴿أن يكونوا﴾ أن يصيروا، فإنَّ من استحقر إنساناً لفقره، أو ضعفه، لا يأمن أن يفتقر هو، ويستغني الفقير، ويضعف هو، ويقوىٰ الضعيف ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ أي ولا تسخر نساء مؤمنات من نساء مؤمنات[1] ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي المسخور منهن ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ أي من الساخرات، فإن مناط الخيرية ليس ما يظهر للناس، من الصور والأشكال، إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علاَّم الغيوب، كما جاء في الحديث الشريف «ربَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه»[2] ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي ولا يَعِبْ بعضكم على بعض، فإن المؤمنين كنفسٍ واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً، كأنما عاب نفسه، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ ولا يدع

---

(١) لم يقل تعالى: لا يسخر رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، وإنما قال: ﴿قوم من قوم... ولا نساء من نساء﴾ أي لا يسخر رجال من رجال، ولا نساء من نساء، للإشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة مستقبح شرعاً، لما يجرُّ إليه من المفاسد، فالمجتمع الإسلامي نظيف، لا اختلاط فيه بين الذكور والإناث كما هو الحال عند غير المسلمين، ولأن الإنسان إنما يعيب من يلابسه ويخالطه، فالرجال يلتقون بالرجال، وربَّما عاب بعضهم بعضاً، والنساء بالنساء، ولذلك جاء التحذير للرجال والنساء، فافهم أسرار الكتاب العزيز.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٢.

بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختصٌ به عرفاً، كمن يعيب غيره بالقصر، أو يهزأ عليه فيقول: يا أقرع أو يا أعرج، فالتلقيب المنهيُّ عنه، هو ما يتداخل المدعو به كراهةٌ، لكونه ذماً له، فأمَّا ما يحبه فلا بأس به، كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه: الصدِّيق، ولعمر رضي الله عنه: الفاروق، ولم يقل تعالى «ولا تلامزوا» لأن اللمَّاز إذا لمَزَ، فالملموز قد لا يجد في الحال عيباً يلمزه به، وأمَّا في النبز وهو الرمي فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالثور، وهو ينبزه بالحمار، وغير ذلك.

﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ الاسم هنا بمعنى «الذكر» يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمعنى: بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، بسبب هذه الأفعال، ويكون كقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وكان بعض الناس يقول في شتمه لمن أسلم من اليهود يا «يهودي» ويا فاسق، فنهوا عنه، وقيل: نزلت في «صفية بنت حُييّ» أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي بنت يهودي، فنزلت الآية[1] ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نُهِيَ عنه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

(١) أشار إلى ما رواه أحمد في المسند ١٢٦/٣ عن أنس بن مالك قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: قالت لي حفصة: أنتِ ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي ـ يريد موسى عليه السلام ـ وعمك لنبيٌّ ـ يريد هارون عليه السلام ـ وإنك لتحت نبيٍّ، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة.. الحديث.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين، وكونوا على جانب منه، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن، فلا يسارع المؤمن بل يتأمل ويتحقَّق، قبل أن يظن السوء بأخيه المؤمن ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أي إن في بعض الظن إثم يلحق صاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، (ويشير إلى صدره) بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم، على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»[1] ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، والتجسسُ: التفتيشُ عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، واغتابه اغتياباً إذا ذكره بما يكره، والاسم الغيبة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قلتُ: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[2] ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾؟ تمثيلٌ وتصوير على أفحش وجه، وأشنعه، طبعاً، وشرعاً، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان[3]، وجعل المأكول أخاً للآكل، وكونه ميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ والبخاري رقم ٦٠٦٥ وروى الترمذي بعضه رقم ١٩٢٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٩ باب تحريم الغيبة، «بهتّه»: أي قلت فيه البهتان وهو الباطل.

(٣) طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨.

فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره، من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان، كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرِج بي مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[2] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر عنكم من قبل ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، وإن كثرت ذنوبه، والكذب والافتراء هما في غاية القبح، فلم ينه عنهما اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان، يمنعهم عنهما، وهما دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي من آدم وحواء، وخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، قيل: لمَّا كان يوم الفتح، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذَّن، فقال بعض الناس: أمَا وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وزجرهم

---

(١) جاء التعبير القرآني بأبدع التمثيل البياني، فقد مثّل تعالى للمغتاب بالشخص الذي جلس على ميتةٍ ينهش من لحمها، وهذا اللحم أولاً لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، ثم هو ميِّت، فإن أكل لحم الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس، ونفور الطباع، ويا له من تمثيل مُريع، بلغ الذروة في القبح والشناعة، والفظاعة.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ في الأدب.

عن التفاخر بالأنساب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشعب: الجمعُ العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد، سميت شعوباً لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، والشعبُ يجمع القبائل، والقبيلة هي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي تجمع البطون والأفخاذ، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، ويعرف الإنسان نسبه فلا ينتسب أحد إلى غير آبائه، لا للتفاخر بالآباء، والتفاضل في الأنساب، والسخرية تفضي إلى التناكر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله هو الأتقى، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، فإنها تكمل النفوس، وبها تتفاضل الأشخاص، وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي يعلم التقيَّ والشقيَّ، والصالح والطالح، فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي بعض الأعراب، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سَنَة جدب، فأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بأثقال وعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصَّدقة، ويمنُّون عليه ﷺ ما فعلوا ﴿ءَامَنَّا قُل﴾ لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ إذ الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم بإيمانكم وأفعالكم!! وهذا كان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلع الله رسوله على الغيب، وذلك كالتاريخ، لنزول الآية، لا للاختصاص بهم، لأن من أظهر فعل المتقين، وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام، لا يحصل له ذلك، لأن التقوى من عمل القلب، والله تعالى خبير بما في الصدور ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان، أي فإن كنتم

تقولون شيئاً، فقولوا أمراً عاماً، لا يلزم منه كذبكم، وهو أسلمنا، فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تذوقوا حلاوته بعد[1]، ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص، وترك النفاق، وفيه تحريض على الإيمان الصادق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من أجورها، يقال: لات يليت، ليتاً: إذا نقص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

> ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على اليقين، فهي كقوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة الله على تكثير فنونها من العبادات البدنية والمالية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم.

> ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم؟ والتعبير عنه بالتعليم لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من مفعول «تُعلِّمون» مؤكدة لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه السورة ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبهم الله في ذلك، ولو كانوا منافقين لعُنِّفوا وفُضِحوا ـ ا هـ.

العلم بجميع الأشياء، التي من جملتها ما أخفوه من غرض إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي يعدون إسلامهم منةً عليك ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أي لا تعدُّوا إسلامكم منة عليَّ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ أي لو صح ادعاؤكم بالإيمان، فلله المنة عليكم، حيث بيَّن لكم الطريق ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف، يدل عليه ما قبله، أي فلله المنة عليكم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما غاب فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم والله أعلم بمراده، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

سُورَةُ قٓ

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ المجيد أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد جلَّ وعلا، فهو ممجَّد.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي لأن جاءهم منذر منهم، أي من جنسهم، وهو إضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف، كأنه قيل: والقرآن المجيد أنزلناه إليك، لتنذر به الناس ولم يؤمنوا به، وهو رجل منهم، عرفوا أمانته، وعدالته، وأصالته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن يناله مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلَّهم، لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم، أي هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي أحين نموت ونصير تراباً، نرجع إلى الحياة مرة ثانية، ونبعث بعد موتنا؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي ذلك رجوع مستحيل، بعيدٌ غاية البعد.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ رد لاستبعادهم، فإن علمه تعالى عام ولطيف، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، ويعلم أجزاء كل واحد منهم، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجع منه ببعيد ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ، الذي أحصى تفصيل كل شيء، مكتوبٌ موتهم، ومكثهم في القبر، ومبعثهم يوم القيامة، والحفيظ بمعنى «الحافظ» قد ورد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِحَفِيظٍ﴾ أي بحافظ.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ إضراب وانتقال، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة، الثابتة بالمعجزات الباهرة، وسخريتهم وتكذيبهم للقرآن الكريم ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ حين جاءهم في أول وهلة، من غير تأمل وتفكر ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي مضطرب، لا قرار له، حيث يقولون تارة: شاعر، وطوراً ساحر، ومرة كاهن، لا يثبتون على شيء واحد، وكان الواجب عليهم أن ينتقلوا من الشك إلى اليقين والقطع بصدقه، لعلمهم بأمانته، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ولظهور المعجزات على يديه، فلما غيّروا حصل الاضطراب.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ ﴾؟ أي أغفلوا ولم ينظروا حين كفروا بالبعث؟ ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أي رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بما فيها من الكواكب المنيرة، المترتبة على نظام بديع ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي فتوق، لسلامتها من كل عيب وخلل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَىٰ﴾[1]؟.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسنٌ يسرُّ به من رآه.

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه، والفرق بين التبصرة والتذكرة، هو أن فيها آيات مستمرة، منصوبة في مقابلة البصائر، كخلق السماء وزينتها، وآيات متجددة عند الناس، كإنبات كل زوج من أنواع الزروع.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أي كثير المنافع، فيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ كثيرة، أي أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي حب الزرع، الذي شأنه أن يُحصَد، البُرّ، والشعير، وأمثالهما.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٣.

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلنَّخْلَ ﴾ عطف على الجنات، وتخصيصها بالذكر لبيان فضلها على سائر الأشجار ﴿ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أي طوالاً مستويات، مرتفعات، يقال: بَسَقَت النخلةُ بسوقاً طالت، فهي باسقة ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ هو ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ متراكب بعضه على بعض، والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر، وفيه استدلالٌ بالأشجار، تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد.

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي لرزقهم، علة لقوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا ﴾ وفي تعليله بذلك، تنبيه على أن الواجب على العبد، أن يكون انتفاعه بذلك، من حيث التذكر والاستبصار، أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق، ولهذا قال أولاً: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ وقال ثانيا: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ مطلقاً، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً، وغيره يأكل كالأنعام ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي أرضاً مجدبة، لا نماء فيها فجعلها بحيث تربو، وتنبت أنواع النباتات، وصارت تهتز بها، بعدما كانت جامدة هامدة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ أي مثل تلك الحياة البديعة، حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج، تهوينٌ لأمر البعث، وتقريب إلى أفهام البشر.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل المشركين ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شيخ الأنبياء، بدأ به لأنه أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم بلاء ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾.

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ﴾ أي فرعون وقومه، ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه عليه السلام صاهرهم وتزوج منهم.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن أسلم دعا قومه إلى الإسلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ فيما أرسل به من الشرائع، أي كل قوم من الأقوام المذكورين، كذبوا رسولهم، وكذبوا جميعهم جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب.

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه، حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي إذا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ أي قريش ﴿ فِى لَبْسٍ ﴾ وشك وشبهة ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في شبهة في خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ أي ما تحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال من حديث النفس ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلم بحاله ممن كان

أقرب إليه، ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والوريدُ: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه الدم ويصل إلى القلب، سمي وريداً لأنَّ الروح ترده، وهو المسمَّى بالشريان الوريدي، والآية تمثيل لشدة قرب الله من عبده، وليس هناك اتحاد وحلول، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧)﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي إنه لطيف، يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب، وذلك حين يتلقى المَلَكان الحفيظان [١] ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكَيْن، فإنه أعلم منهما، ومطّلع على ما يخفى عنهما، لكنَّ الحكمة اقتضت ذلك، لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، فهو كالظل للإنسان، يلازمه حيث كان.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي مَلَكٌ يرقُب ما صدر عنه، لما أن كلاً منهما رقيب لما فوض إليه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي معدٌّ ومهيَّأٌ لكتابة ما أُمر به، يكتبان ما فيه أجر، أو وزرٌ، ويحتمل أن يقال المتلقيان المَلَكان، اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما

---

(١) قال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكَيْن بالليل، وملَكَيْن بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ـ اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

يأخذ أرواح الصالحين، وينقلها إلى دار السرور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين، وينقلها إلى الويل والثبور، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالشهيد هو القعيد، والسائق هو المتلقي.

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بحقيقة الأمر، أي بما يؤول إليه أمره، من السعادة والشقاوة، وسكرة الموت: شدته الذاهبة للعقل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنفر عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ هي النفخة الثانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وقت ذلك النفخ ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد، وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد جوارحه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم..﴾ الآية.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاء: الحجاب

المغطِّي وهو الغفلة، والانهماك في الشهوات، وقصر النظر عليها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي فبصرك اليوم قوي نافذ، لزوال المانع.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهور على أنه المَلَك الكاتب الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ﴾ قال الملك الموكل به، مشيراً إلى كتاب عمله: هذا مكتوب عندي ﴿عَتِيدٌ﴾ أي مهيأ للعرض.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو للملكين من خزنة النار، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي كل كافر معاند للحق.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، والمراد بالخير: الإسلام الذي هو خير محض، كأنه قال: كفر بالله ولم يقنع بكفره حتى منع الخير عن الغير. قيل: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، غشوم ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٌّ في الله، وفي دينه ويوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كل كفار ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تكرير للتوكيد.

﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي الشيطان المقيَّض له، فكأنَّ الكافر قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي ما كان ابتداء الإضلال مني، لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي ضلال بعيد عن الحق، فأعنتُه عليه بالإغواء، من غير قسر وإلجاء.

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ أي في موقف المحاسبة، إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أي سبق أن أنذرتكم على الطغيان، فلا تطمعوا في الخلاص اليوم.

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ أي ما يبدَّل حكمي، ولا يغيَّر كلامي، بعقاب أهل الكفر والإجرام ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل، لتهويل أمرها، والمعنى: إنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها، يُطرح فيها من الإنس والجن حتى تمتلىء ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم، وهذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، ويمكن أن يكون الأمر على الحقيقة، بأن يخلق الله للنار قدرة على الكلام، ويسألها فتجيب، والله على كل شيء قدير.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، أي قُرِّبت للمتقين، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكاناً غير بعيد.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى الجنة أي مقولاً لهم ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لما استودعه الله من حقوقه.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ وصف القلب بالإنابة، لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى خالصاً، أي جاء بقلب طيّب سليم، خالص من شوائب الضلال والإشراك.

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أي ذلك هو البقاء الدائم في الجنة، الذي لا انتهاء له، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم كائناً ما كان ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ أي قبل كفار قريش ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي قوة كعاد وأضرابها ﴿ فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي تفرقوا في البلاد، وجالوا في أكنافها ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي هل من مهرب من الموت؟ أي لم يجدوا محيصاً، بل ماتوا وصاروا إلى أمر الله.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر في السورة ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي قلب سليم يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، فيعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي إلى ما يتلى عليه ليقف على جلية الأمر ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي حاضر الفكر والقلب، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا ﴾ أي خلقناهما مع عظمتهما في مقدار ستة أيام وما أصابنا ﴿ مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب، وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على ظهره على العرش، فهو يوم استراحة الرب، فكذبهم الله تعالى.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الإنكار والاستبعاد، فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم، والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزّهه تعالى عن العجز، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من النبوة والهداية ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ العصر، والظهر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان والتهجد، وقيل: أراد بالتسبيح الصلاة ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ النوافل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سبَّح الله في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زَبَد البحر»(١).

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي لما يوحى إليك، من أحوال القيامة، وفيه تهويلٌ لأمر المخبَرِ به ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ أي إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٩٧.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أي يوم يسمعون الصيحة، ملتبسة بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ أي يُحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرجُ الموتى من قبورهم ﴿ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ مسرعين جمع سريع، كالكرام جمع كريم ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي بعث وجمع ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي هيِّن.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث، وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمتسلط تقسرهم على الإيمان، وإنما أنت مذكِّر ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي فعظْ بهذا القرآن وخوِّف من يخاف وعيدي، وأمَّا من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أعمالهم من فنون العذاب. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

* * *

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ ﴾.

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ أي الرياح التي تذرو التراب وغيره، ذرت الريح الشيءَ نسفته وفرقته.

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ ﴾.

﴿ فَالْحَامِلَاتِ ﴾ أي السحب الحاملة للمطر ﴿ وِقْرًا ﴾ ثقلاً من الماء.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ ﴾.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ أي السفن الجارية في البحر، ويسراً صفة لمصدر محذوف، أي جرياً ذا يسر وسهولة.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ أي الملائكة التي تقسم الأمور، من الأمطار،

والأرزاق وغيرها، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه تعالى، وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي الموعود وهو البعث، وعدٌ صادق وحقٌّ.

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ ﴾.

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي الجزاء على الأعمال، لواقع وكائن، لأن من قدر على إبداع هذه البدائع، فهو قادر على البعث والجزاء.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ ﴾.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ عن ابن عباس: ذات الخَلْق المستوي، وقيل: ذات الطرائق المحكمة، والبنيان المتقن.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون جواب القسم ﴿ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي متخالف ومتناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون، وفي شأن القرآن الكريم: تارة شعر، وأخرى سحر، وأخرى أساطير الأولين.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ ﴾.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن وعن الإيمان بالرسول عليه السلام من صُرِف، إذ لا صرف أفظع منه وأشد.

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ وأصله الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن ﴿الخرَّاصون﴾ الكذّابون، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: قُتِلَ هؤلاء الخراصون الأفّاكون، ولعنوا على ما قالوا من الكذب والبهتان، في حق الرسول والقرآن.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ من الجهل والضلال يغمرانهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي متى يكون يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام، بل بطريق الاستعجال والاستهزاء.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ جواب للسؤال، أي يقع يوم هم على النار، يحرقون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار:

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي عذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بطريق الاستهزاء.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يُقادر قدرها.

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي قابلين لما أعطاهم، راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حَسَنٌ مرضي يُتلقى بحسن القبول ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة فلذلك نالوا ما نالوا، من الفوز العظيم.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، وفيه مبالغة في تقليل نومهم، هجع هُجوعاً: نام بالليل.

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي هم مع قلة نومهم، وكثرة تهجدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أمضوا ليلهم باقتراف الجرائم.

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر قد أوجبوه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً للناس ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً، فيحرم الصدقة لتعففه.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ دلالات واضحة على شؤونه تعالى، حيث إنها مدحوَّة كالبساط الممهَّد، وفيها سهل وجبل، وبر وبحر، وعيون متفجرة، ومعادن دفينة، والنباتات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار، ودواب منبثة، قد رُتِّب كلها ودُبِّر لمنافع ساكنيها ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي للموحِّدين، الذين سلكوا الطريق السويَّ، بعيون باصرة، وأفهام نافذة.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ ﴾ آيات إذ ليس في العالم شيء إلاَّ في الأنفس له نظير، يدل دلالته على ما انفرد به، من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكلمات المتنوعة، وحسبك بالقلب والدماغ، وما ركز فيه من العقل والفكر، وبالألسن والنطق، وما في تركيبها ولطائفها، من الآيات الدالة على حكمة مبدعها، ومدبرها، وقدرة صانعها، فتبارك الله أحسن الخالقين!! ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ أي ألا تنظرون فتبصرون قدرة الله بعين البصيرة؟.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر، فإنه سبب الأقوات ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الثواب، لأن الجنة في السماء.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ أي أقسم لكم برب السماء والأرض إنما

توعدون من الرزق، والبعث، والجنة والنار، لحق ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في حقيته.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ تفخيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي المعظّمين عند الله، وعند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وإكرام إبراهيم عليه السلام لهم، ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع ثانياً، وتعجيل القِرَى ثالثاً.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، أنكرهم عليه السلام لأن أوضاعهم وأشكالهم تخالف أشكال أهل البلدة، إذ قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، خلاف ما عليه الناس، وإنما قاله في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك، لا أنه خاطبهم جهراً لأن فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، ولو سألهم من أول الأمر عن حقيقتهم، لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصدَّ لمقدمات الضيافة، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل لهم ليأكلوا منه.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقِرَى، من غير أن يُشعر به الضيف، حذراً من أن يكفَّه ويمنعه، راغ فلان إلى كذا مال إليه سرّاً ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الفاء

فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت، بدلالة الحال عليها، أي فذبح عجلاً فشواه فجاء به.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ بأن وضعه لديهم، وهذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف، ولا يحوجهم إلى السعي إليه ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ منه؟ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ ﴾ أي أضمر في نفسه ﴿ خِيفَةٗۖ ﴾ لتوهم أنهم جاؤوا للشر، قيل: «من لم يأكل طعامك، لا يحفظ ذِمامك» أي ذمتك وكرامتك ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾ إنا رسل الله، فعرفهم وأمِنَ منهم، وقيل: مسح جبريل عليه السلام العجل، فقام ولحق بأمه ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ في سورة الصافات ﴿وبشرناه﴾ أي بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ وهو إسحق عليه السلام عند الجمهور ﴿ عَلِيمٖ ﴾ أي يكمل علمه إذا بلغ، وفيه بشارة بحياته حتى يكون من العلماء النابغين.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارة رضي الله عنها لمَّا سمعت بشارتهم، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾ أي في صيحة وضجة، من الصرير وهو شدة الصياح ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾ أي لطمته من الحياء، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها، كما يفعله المتعجِّبُ ﴿ وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ أي أنا عجوز عاقر، فكيف ألد؟.

﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي قضى الله وحكم، وإنما نخبرك به عنه تعالى، لا أنَّا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بشؤون خلقه، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحِجْر.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي لإهلاك المجرمين من قوم لوط.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بعدما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل في سورة هود ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أي طين متحجِّر، هو السجيل.

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي المجاوزين الحد في الفجور.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما جرى على قوم لوط، بطريق الإجمال، أي: فباشروا ما أُمروا به فأخرجنا ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي في قوم لوط ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام، وفيه بيان القدرة والاختيار، فإن البلاء والعذاب يصيب البر والفاجر، فلمَّا ميز الله دلَّ على الاختيار.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي غير أهل بيت ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قيل هم لوط وأهل بيته وكانوا نحو ثلاثة عشر شخصاً، وفيه إشارة إلى أن الكفر والفسق إذا فشيا، لا تنفع عبادة المؤمنين عن رفع البلاء، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيه شرذمة يسرفون، فالحكم للغالب في البلاد والعباد.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾ أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، هي تلك الأحجار التي رُمُوا بها، وجعل عاليها سافلها ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم، دون من عداهم، من ذوي القلوب القاسية.

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى آية وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة، هي ما ظهر على يديه من المعجزات الواضحة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي بما يتقوى به من ملكه وعسكره، فإن الركن اسمٌ لما يُركن إليه الشيءُ ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ ﴾ أي هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق إلى الجن، وتردَّد في أنه حصل ذلك بسعيه وباختياره، وهذا التردُّد دليل الافتراء والبهتان.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي فأغرقناهم في البحر، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربَّانية، كأنه قيل: واتخذ أولياءه وأركانه وعساكره فلم ينفعوه، وأخذه الله عزَّ وجلَّ وأتباعه، وألقاهم جميعاً في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آياتٍ بما يُلام عليه، من الكفر والعصيان.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ أي وفي إهلاك عاد آيةٌ وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ وُصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن لهم خيراً، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي النكباء أو الدبور.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أي جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ هو كلُّ ما رَمَّ أي بلي وتفتَّت، من عظم، أو نبات، أو غير ذلك، والمعنى: ما تترك من شيء هبَّت عليه، من أنفسهم وأنعامهم، وأموالهم، إلاَّ أهلكته، وجعلته كالهشيم البالي، فإن قيل: الجبال والصخور أتت عليهما، وما جعلتهما كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصداً، وهو قوم عاد، ودورهم، ومواشيهم، وأموالهم.

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ أي وجعلنا في ثمود وإهلاكهم آية وعبرة ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1] بعد عقرهم الناقة.

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لسبب الإهلاك، أي فاستكبروا عن الإيمان بالله، وطاعة رسولهم، وعقروا الناقة، قيل: قال لهم «صالح» عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرَّة، واليوم الثالث مسودَّة، ثم يصبِّحكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة، صيحة العذاب، والصاعقة: النازلة من الرعد، وكل عذاب مهلك قيل: لما رأوا العلامات التي بيَّنها صالح عليه السلام، عمدوا إلى قتله، فنجاَّه الله من شرّهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها لأنها كانت نهاراً.

﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح وجعلنا هلاكهم عبرة ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ بقوة، وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بياناً للحشر ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة؛ قاله ابن عباس أو ﴿لموسعون﴾ السماء وما بينها وبين الأرض[1].

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي الفارشون لها نحنُ.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس من الإنسان، والحيوان، والنبات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي نوعين، ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا، فتعرفوا أنه خالق الكل، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر للإعادة، فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي فاهربوا إلى الله، الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة، تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه، وقوله: ﴿ففروا﴾ ينبىء عن

---

(١) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق جل وعلا الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ـ على سعتها ـ ما هي إلاَّ ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم ضخامته وسعته إلا الله رب العالمين، خالق الإنسان ومبدع الأكوان، وتمعَّن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿بنيناها بأيد وإنّا لموسعون﴾ عظمة الكون وما فيه من المجرات والكواكب، لتسبِّح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك!!.

سرعة الإهلاك ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، أي إني لكم من جهته تعالى منذر، بَيِّنٌ كوني منذراً، وفي أمره تعالى للرسول ﷺ، بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه، وتعليلُه بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعدٌ كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو صنم، أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الإشراك بعبادة غير الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر واضح أمري، أخوفكم عقابه تعالى، وفيه تأكيد لما قبله، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ هذه تسلية للرسول ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد، فقالوا عنك إنك ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي رموهم بالسحر أو بالجنون، لجهلهم بمقام النبوة.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾؟ إنكار وتعجيب من حالهم، واجتماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بالسخرية والتكذيب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن تواصيهم بذلك، لأنهم لم يتلاق بعضهم مع بعض، في زمان واحد، بل حملهم على ذلك الطغيان والفجور، وهذه الآية دليل على أن كل رسول كُذِّب.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعرض عن جدالهم، فقد كرَّرت الدعوة، فلم يجيبوا عناداً ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي فلستَ على التولي، بعدما بذلتَ المجهود، بمسؤول عند الله ولا ملوم فقد بلغت الرسالة، وهذه تسلية أخرى للرسول ﷺ.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي افعل التذكير والموعظة ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنها تزيدهم بصيرة، وقوة في اليقين.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي وما خلقت البشر والجنَّ، إلا ليعرفوا ربهم ويعبدوه، فالمراد بالعبادة توحيد الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعته سبحانه وتعالى، في كل ما أمر ونهى، وقيل: المعنى إلاَّ ليؤمروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وعن مجاهد واختاره البغوي معناه: إلاَّ ليعرفوه، والمعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ بيان لكون شأنه تعالى متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، أي ما أريد أن أصرِّفهم في تحصيل رزقي، ولا رزقهم، بل أتفضل عليهم برزقهم، وبما يُصلحهم ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادتي، وفي الآية تعريض بأصنام

المشركين، حيث كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ أي المتكفل بأرزاق العباد، الذي يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه تعالى غُنيٌّ عنه وعن العبادة ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ أي شديد القوة، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ ﴾.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، وهم كفار مكة ﴿ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ أي مثل نصيب أسلافهم المجرمين من العذاب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجِّل لهم في المجيء به، فإنه واقع لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً، يقال استعجله، أي حثه على العجلة وأمره بها، وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالكفر، وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعدهم الله عزَّ وجلَّ به في قوله: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾؟ الذين فجروا لهم العذاب الدنيوي، لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع به، لا يحفظ ويخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعاً بها يخلّى عنها المكان

وتذبح، والطعام الذي يتعفن يفرَّغ منه الإناء ويرمى، فكذلك الكافر إذا ظلم فحسن إخلاء العالم عنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، و على آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

* * *

سُورَةُ الطُّورِ

مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ ﴾.

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ ﴾.

﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ الرَّقُّ الجلدُ الذي يُكتب فيه، استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ ﴾.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ أي الكعبة المشرفة، وعمارتها بالحُجَّاج، والعُمَّار، والمجاورين.

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ ﴾.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي السماء المحكمة البناء، ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي المملوء أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذا البحار سُجِّرَتۡ﴾ والمراد به الجنس.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي إنَّ العذاب لنازلٌ حتماً بالكفار، الذي أُوعدوا به.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ من مزيدة للتأكيد، أي ليس هناك من يدفعه عنهم، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها، لما أنها أمور عظام، تنبيء عن عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها المقسم عليها.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩﴾.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ المورُ: الاضطراب، والتردُّدُ في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرك في تموج، أي تتحرك وتضطرب اضطراباً عجيباً، وهو الزلزال الذي يكون عند قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تزول عن وجه الأرض، فتصير هباءً منثوراً، والسبب لمورها وسيرها، قدرة الله، لأن الأرضَ، والسماء، والجبالَ، كلها كان لعمارة الدنيا، والانتفاع منها، ولا عودٍ إلى الدنيا فلم يبق فيها نفع، وتأكيد الفعل ﴿موراً﴾ و ﴿سيراً﴾ للإيذان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيباً، وسيراً بديعاً، لا يدرك كُنهها، وعلماء الطبيعة يقولون: إن زلزلة الأرض، ببخار يجتمع تحت الأرض، فيحرك الجبال، وما عرفوا أسرار القدرة الإلهية في تدمير الظالمين(١).

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم، ففيه إشارة بأمان أهل الإيمان، لأنه لمَّا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ولم يبين بأنه موقعه بمن؟ فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكَذِبينَ﴾ علم المخصوص به، فمن لا يكذب لا يعذب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نذير فكذبنا﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ هذا ليس وصفاً للمكذبين، وإنما هو للذم، كما تقول: «الشيطان الرجيم» ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم.

---

(١) كثرة الزلازل نذيرٌ بقرب الساعة، وخراب الدنيا، كما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال:
«إن من أشراط الساعة ـ أي علاماتها ـ أن يتقارب الزمان، ويفشوَ الجهلُ، ويقلَّ العلمُ، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ، قالوا: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: القَتْلُ، القتلُ»..

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدَّعُّ: الدفع العنيف، أي يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تُغلَّ أيديهم على أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ويدل هذا على هول النار، لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من البعيد، فيقال لهم.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا، ومعنى التكذيب تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وعدم الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾؟ يعني كنتم تقولون للوحي والقرآن: هذا سحر، فهل هذا العذاب الذي تذوقونه سحر أيضاً؟ ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، حيث كنتم تقولون: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾؟ وهذا تقريعٌ، وتهكم بهم، ولا ظلم بعذابهم، فإن الله تعالى قال: من كفر ومات كافراً، أعذبه عذاباً أبداً، ومن آمن أثيبه أبداً، فالكافر اختار الكفر بعدما سمع، فاختار عذابه أبداً.

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدتها ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ على عذابها ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ عليه، فإنه لا محيص عنها ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي الأمران سيان: الصبرُ وعدمه، في عدم النفع، لا يدفع العذاب، ولا يُخفِّفه ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تعاقبون وتعذبون بسبب أعمالكم القبيحة وكفركم بآيات الله، ولما كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، في عدم النفع، لأن الصبر له مزية في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر، ولا عاقبة له هناك، لأنها دار الجزاء، لا دار الابتلاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي في أية جنات، وأي نعيم؟ على أن التنوين للتفخيم، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي ناعمين متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا يفيد زيادة قدر النعم، حيث هي من عند ربهم ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وإظهار كلمة الرب للتشريف والتكريم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي لا تنغيص فيه ولا كدر، وفيه إشارة إلى خلو المأكول والمشروب، عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه وبمقابلته.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وأكرمناهم بزوجات حسان، من الحور العين، بيضٍ واسعات العيون، بيَّن الله تعالى أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش، ثم الزواج، فكلٌّ ذلك مهيَّأ لأهل الجنة، دون تعب.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي لحقهم أولادهم وشاركوهم في الإيمان، والتنكير ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ للإشعار بأنه يكفي في الإلحاق، المتابعة في أصل الإيمان. وإن لم يكونوا كآبائهم في الأعمال الصالحة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي في الدرجة، لما رُوي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه، لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية» شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ولهذا طيَّب الله قلوب عباده بالجمع بينهم، فإن خالف دينُه دين أبيه، صار له من حيث الشرع أب آخر ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي وما نقصّنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ من ثواب عملهم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل[1] ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كلُّ امرىء مرهونٌ عند الله تعالى بعمله، فإن كان عمله صالحاً فكّه، وإلاَّ أهلكه، وقيل: المؤمن لا يكون مرهوناً بعمله، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إلاَّ أَصْحابَ اليَمِينِ﴾[2] وهو قول مجاهد.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من

(١) جمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم بأنفسهم ودخولهم الجنة، وبتزويجهم بالحور العين، وبالمؤانسة مع الإخوان في الجنة، وبالمآكل واللذائذ، والمشارب الهنيئة، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وبالخلود الدائم في دار النعيم كما قال سبحانه: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨ ـ ٣٩.

مبادىء التنعُّم، وقتاً فوقتاً، ما يشتهون من فنون النعماء، من الفواكه، ولحم الطير.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا ﴾ أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم، بكمال رغبة واشتياق، كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمراً تسميةً لها باسم محلها ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في شربها، حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي ينسب إلى الإثم لو فعله، كما هو ديدن الشاربين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحِكَم، وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي مماليك مخصوصون بهم[1]. ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون في الصدف لم تمسه الأيدي.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً آخر، عن

---

(١) أفاد التنكير في قوله سبحانه: ﴿غلمان لهم﴾ أن كل من يدخل الجنة، يجد له خدماً لم يعرفهم، وليس في الجنة من يقوم بالخدمة لِنفسه، فحال أهل الجنة كحال الملوك والعظماء، يجدون من يخدمهم لكنْ هنا بالوظيفة والمال، وهناك بالملك والتشريف، وإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون في البياض والصفاء، فكيف بحال المخدومين؟ اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة.

أحواله وأعماله، وما استحق به نيل هذه الكرامة في الجنة، تلذذاً واعترافاً بالنعمة والفضل العظيم.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي المسؤولون، وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ ﴾ في الدنيا ﴿ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله تعالى، معتنين بطاعة الله، وجلين من العاقبة.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي عذاب النار، النافذة في المسام نفوذ السموم.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ ﴾ في الدنيا ﴿ نَدۡعُوهُۖ ﴾ أي نعبده ونتضرع إليه، ونسأله الوقاية من نار جهنم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ﴾ المحسن العطوف على عباده ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وفيه إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم، في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى النعيم، وحسرة الكافر حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.

﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَذَكِّرۡ ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوّة والعصمة ﴿ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾ كما زعموا.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ بل يقولون هو ﴿ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، وصروفه، حتى يهلك ويموت فنستريح منه، ومرادهم أنهم يتربصون موته عليه الصلاة والسلام.

﴿ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم ﴾ أي عقولهم ﴿ بِهَٰذَآۚ ﴾ أي بهذا التناقض في المقال، فإن الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون مخيل، فكيف تجتمع أوصاف هؤلاء في شخص واحد؟ والمعنى: أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وفيه سخرية وتهكم بهم وبعقولهم ﴿ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ مجاوزون الحد في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد، ولذلك يقولون ما يقولون.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه، والتقوُّلُ: التكلُّفُ في القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل، مع علمهم ببطلان قولهم.

﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثل القرآن في نظمه، وحسنه، وبيانه، مثله من حيثُ النظمُ، ومن حيثُ المعنى ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والبيان.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي أم أُحدثوا من غير محدث، ومن غير رب ولا خالق؟ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله.

﴿أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أم هم الذين خلقوا السمٰوات والأرض؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فما أحد يجرؤ أن يقول هما من خلقي، بل كانوا إذا سئلوا: من خلقكم؟ وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: اللهُ ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي هم غير موقنين بأن الله واحد أحد، فرد صمد، بل لا يوقنون أصلاً بشيء ما.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوة والرزق حتى يقسموا النبوة على من شاؤوا، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبروا أمر الربوبية.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين إلى كلام

الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، إن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة، تصدِّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟ فيه تسفيه لهم، وإشعار بأن من هذا رأيه، لا يُعدُّ من العقلاء، فضلاً عن أنْ يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيوب، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراض عنهم، أي بل تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزامٍ ماليٍّ فادح ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يحكمون فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة بمكة ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم كيدهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله عن إشراكهم، نزَّه تعالى نفسه عما يقولون(1).

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ قدْ رُكِمَ أي جُمع بعضه على بعض، ولم يصدِّقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي حتى يعاينوا يوم هلاكهم، يوم تصيبهم الصعقة، والمراد بها القتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل، إذ لا يصعق بها، إلاَّ من كان حياً حينئذٍ.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من الإغناء، وعدم نفع كيدهم، يستدعي استعمالهم له، طمعاً في الانتفاع به، وليس ذلك إلاَّ ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد، الذي من جملته خروجهم لحربه يوم بدر، أما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعته الكيد والحيل، وقيل: هو يوم موتهم

---

(1) كررت في هذه السورة الكريمة ﴿أم﴾ خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب، وهي في جميع الآيات منقطعة؛ بمعنى «بل» و «الهمزة» أي بل أيقولون شاعر.. بل أيقولون كاهن.. إلخ ومعنى الهمزة الإنكار، فهو استفهام إنكاري، واستفهم تعالى مع علمه بهم وبما يقولون، تقبيحاً عليهم، وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أتعرف هذا أم أنت جاهل؟ مع علمه بجهله، وما أبدع هذه السخرية والازدراء بعقول المشركين!!.

وانتقالهم من النعيم إلى الجحيم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، وما وراءه وهو عذاب القبر، وعذاب الآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كما ذكر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، بإمهالهم إلى اليوم الموعودِ، مع مقاساة الأحزان ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك، وجَمَع العين ﴿بأعيننا﴾ للتعظيم والتفخيم للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿وَسَبِّحْ﴾ نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الجليلة التي لا تُحصى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك «سبحانك اللهم وبحمدك» وعن ابن عباس: حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفرادٌ لبعض الليل بالتسبيح، لما أن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعدُ من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل، أي صلِّ لربك في آخر

الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، للحديث الشريف: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلىٰ آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

* * *

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول ٦/ ١٠.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد به إما نجم الثريا، فإنه اسم غالب له، ومنه قولهم: «إذا طلع النجم عشاءً. ابتغى الراعي كساءً» أو جنس النجوم ﴿إذا هوى﴾ أي إذا نزل، وفي القَسَم بذلك على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية، من البراعة البديعة وحسن الموقع، ما لا غاية وراءه، ومن شأن النجم أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنه قيل: أقسم بالنجم الذي يهتدى به إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ما ضلَّ محمد وما عدل عن طريق الحق، الذي هو مسلك الآخرة، وما اعتقد باطلاً قط، أي هو في غاية الهدى والرشد، وهناك فرق بين الضلال والغي، فالضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد، أي ما ضلَّ في قوله، ولا غوى في فعله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا

سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه ﷺ، وإيراده ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي ما يصدر نطقه بالقرآن، عن هواه ورأيه أصلاً.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما الذي ينطق به ﴿ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ من الله تعالى، قوله ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ دليل على أنه ﷺ ما ضلَّ وما غوى، ردّاً عليهم أقوالهم الباطلة ﴿إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ﴾ أي ما هو إلاَّ وحيٌ من عند الله، ليس بقول كاهن ولا شاعر.

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ أي مَلَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الواسطة بين الله ورسله، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، ثم قَلَبها بهم، وصاح صيحة بثمود، فأصبحوا جاثمين.

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي حصافة في عقله ورأيه، ومتانة في دينه، وقيل ذو منظر حسن ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى

عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنه ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسدَّ الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخرَّ ﷺ مغشياً عليه، فرجع جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، قيل: ما رآه أحد من الآدميين غير النبي ﷺ فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

﴿وَهُوَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي أفق الشمس، أو أفق السماء.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي أراد الدنو من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي استرسل من الأفق الأعلى، فدنا من النبي ﷺ حتى صار أمامه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

﴿فَكَانَ﴾ أي مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقديركم كما في قوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ والمراد تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحي إليه، بنفي البعد الملبس، وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. روي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله تعالى ﴿ثم دنا فتدلى﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته[1].

---

(١) أخرجه الشيخان، ورواية البخاري ٨/٦٠٦ قالت عائشة لمسروق: «من حدَّثك أن محمداً رأى ربَّه فقد كذب، ولكنْ رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين».

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أي إلى عبد الله محمد ﷺ، وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كقوله ﴿ما ترك على ظهرها﴾ ﴿ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى إلىٰ عبده محمد ﷺ.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ ﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿ مَا رَأَىٰٓ ﴾ أي ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، أي لم يشكَّ في أن ما رآه جبريل، لأن الأمور القدسية، تدرك أولاً بالقلب، ثم تنقل منه إلى البصر، فعلم رسول الله ﷺ أنه جبريل وليس بخيال.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾؟ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرةً أخرى في المعراج.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، ثمرها كقلال هَجَر، وورقها كآذان الفيل، تنبع من أصلها الأنهار

التي ذكرها الله تعالى في كتابه، والمنتهى موضع الانتهاء، إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها، من مَلَكٍ أو رسول.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ الغشيانُ بمعنى التغطية والستر، أي ولقد رآه عند السدرة، وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يحيط به الوصفُ، كيفاً ولا كماً، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان بأن استمرار الغشيان بطريق التجدد، كما يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها، ويزورونها كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد من الأمور العجيبة المذهلة، وثبت في ذلك المقام العظيم، الذي تحار فيه العقول.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي والله لقد رأى الآيات، التي هي كبراها، حين عُرج به إلى السماء، فأُرِيَ من عجائب الملك والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ أي أخبروني ألهذه الأصنام كل شيء؟ وهي أصنام كانت لهم «فاللاتُ» كانت لثقيف بالطائف، على صورة رجل كان يلتُّ السويق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وسميت صورته باسمه. و «العُزَّى» تأنيث الأعز كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن وليد فقطعها. و«مناة» صخرة لهزيل وخزاعة، فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها، أي تراق، ثم إنهم كانوا مع عبادتهم لها، يقولون: إن الملائكة، وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: ﴿أفرأيتم﴾ إلخ والهمزة للإنكار، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله تعالى، في ملكه وملكوته، ورأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها، جعلتموها شركاء لله تعالى؟.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول، بنسبتهم إليه تعالى الإناث، مع اختيارهم لأنفسهم الذكور، أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو «الذكور»، وله تعالى النوع المذموم ـ في نظركم ـ وهو الأنثى؟.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة ﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، ضِيزَىٰ من الضَّيْز وهو الجور.

﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ أي ما الأصنام إلا أسماء محضة، ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي جعلتموها آلهة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات، لا تضر ولا تنفع، وما هي إلا أسماء، خالية عن المسميات ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي من برهان تتعلقون به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ألا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ أي ما تشتهيه أنفسهم الأمَّارة بالسوء ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أي جاءهم الرسول من عند الله عزَّ وجلَّ بالبيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن الله واحد لا شريك له، وفيه تأكيد على بطلان اتباع الظن، وهوى النفس، فإن اتباعهما من أي شخص قبيحٌ، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أقبح.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ انتقال من بيان أن ما هم عليه، غير مستند إلا إلى توهمهم، وهوى أنفسهم، إلى بيان أن ذلك ممّا لا يجدي نفعاً أصلاً، أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة التي لا تكاد تكون تحت الوجود.

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أي فالملك كله لله عزَّ وجلَّ فإن أمور الآخرة والأولى لله تعالى، وله الحكم فيهما، وليس لأحد أن يتحكم في شيء منهما.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ أي وكثير من الملآئكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، في وقتٍ من الأوقات ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة، من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان، فهم محرومون من الشفاعة، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنكم بحال الأصنام؟.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ يسمون كل واحد منهم ﴿ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ فإن قولهم: الملائكةُ بنات الله، هي تسمية الأنثى، والعرب الجاهليون رأوا تاء التأنيث في لفظ الملائكة، فقالوا إنها أولاد مؤنثة، وحكموا بأنهم بنات الله.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ ﴾ أي يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ﴿ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ من الإغناء، فإن الحق لا يدرك إلاّ بالعلم، والظنُّ لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية، ولا يقوم مقام العلم اليقيني.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩﴾.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي فأعرض عن عبدة الأوثان، من المشركين الضالين، عمن أعرضوا عن ذكرنا، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ راضياً بها، قاصراً نظره عليها، والمراد النهي عن دعوته إلى الهداية، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، لا تزيده الدعوة إلاّ عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ أي غاية علمهم ورأيهم، لا يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة والإرشاد، والمراد من العلم مطلق الإدراك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بالشقي، والتقي، وهو العالم بمن أصرَّ على الضلال، وبمن هو أهل للهداية، فيعطي كلاًّ بحسبه، وفيه وعد ووعيد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝٣١﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً، وملكاً، لا لغيره أصلاً ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي ليجازي المجرمين بعقاب ما عملوا من الضلال، وبسبب ما عملوا ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي اهتدوا ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، وبهذا يتبيَّن المسيء من المحسن، فمن

لا يجتنب الكبائر هو المسيء، ومن يجتنب الكبائر وما حرّم الله تعالى فهو المحسن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين ﴿ يَجۡتَنِبُونَ ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدُّد الاجتناب واستمراره ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ أي الذنوب الكبيرة ﴿ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أي التي قبحها واضح ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ أي إلا ما قلَّ وصَغُر، فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر، اللمم بفتحتين هو الصغائر من الذنوب، التي لم يذكر الله تعالى عليها حداً، ولا عذاباً، والكبائر هي التي ذنبها عظيم، والفواحشُ: هي التي قبحُها واضح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، على أن إخراج الصغائر عن حكم المؤاخذة، ليس لخلوها عن الذنب في نفسها، بل لسعة المغفرة الربانية ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ﴾ أي بأحوالكم يعلمها على التفصيل ﴿ إِذۡ أَنشَأَكُم ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إنشاءً إجمالياً ﴿ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ ﴾ وقت كونكم مستترين ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، فكيف تخفىٰ عليه أعمالكم في الدنيا؟ فهو تعالى يعلم التقيّ والشقي، والبرّ والفاجر. ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ أي فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوها إلى التقى والصلاح على سبيل الإعجاب، فإن النفس خسيسة، إذا مدحت اغترت وتكبرت، وإذا كان الله أعلم بأحوالكم فأي حاجة إلى تزكية النفس؟ ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن، فاكتفوا بعلمه تعالى عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب، أو للرياء، وأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولم يقصد به

التمدح، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر لله تعالى.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾؟ عن اتباع الحق، والثبات عليه، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقالوا: أتركتَ دين الأشياخ؟ قال: إني خشيت عذاب الله!! فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى للذي عيَّره بعض الذي ضمن له من المال، ومنعه تمامه.

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ أي شيئاً قليلاً مما تعهَّد له به من المال. ﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾ أي قطع العطاء، من قولهم أكدى الحافِرُ إذا بلغ الكُدْية، أي الصلابة من الأرض، كالصخرة، وقيل: نزلت في العاص بن وائل، والأول أشهر.

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾؟ أي أعند هذا الكافر علم بالأمور الغيبية، حتى يعلم أن صاحبه يحمل عنه العذاب؟.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي حقوقه تعالى أي وفَّىٰ وأتم وبالَغَ بالوفاء بما عاهد الله تعالى، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم.

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي لا تؤاخذ ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا تُعاقب بجرم فعله أحد غيرها، إلاَّ إذا كان آمراً به.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة، ودعاء الأحياء للأموات، وصدقتهم عنهم، وغير ذلك من الأمور النافعة للإنسان، مع أنها ليست من عمله قطعاً، فهي ثمرة الإيمان والصلاح، وهذا فضل من الله على المؤمن، ويشهد له ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمي تُوفيت، أينفعها إنْ تصدَّقتُ عنها؟ قال: «نعم»[1] وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون الناوي له كالنائب عنه.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي يعرض عليه، ويُكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، وفيه بشارة للمؤمنين، لأنهم يرون أعمالهم الصالحة، فيفرحون، وعقاب للكافرين، لأنهم يرون ويحزنون، فإن قيل: العملُ كيف يرى؟ قيل: على صورة جميلة أو قبيحة، أو مجاز عن الثواب والعقاب.

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٥/٢٨٩ ورواه مسلم رقم ١٦٣٠ ولفظه عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ «إن أبي مات ولم يوص، أفينفعه أن أتصدَّق عنه؟ قال: نعم».

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه ﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأتم والأكمل.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي انتهاء الخلق، ورجوعهم إليه تعالى، لا إلى غيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ والمخاطب بهذا إمَّا عامٌّ، تقديره: وإلى ربك أيها السامع، فعلى هذا فهو تهديد للمسيء، وحثٌّ للمحسن، وإما الرسول ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية له ﷺ فالمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى والرجوع، فيجازيك على صبرك أحسن الجزاء.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغمَّ، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى.

وقال مجاهد: أضحك المؤمنين، وأبكى الكافرين في العقبى.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيرهُ، فإن أثر القاتل نقض البنية، وإنما يحصل الموت عنده، بفعل الله تعالى على العادة، وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ أي تُدفق في الرحم، وفيه تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة متناسبة الأجزاء، يخلق الله تعالى

منها أعضاءً مختلفة، وطباعاً متخالفة، وخلق الذكر والأنثى أعجب، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء، وإنما هو بقدرة الله، لا بفعل الطبيعة.

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي الإحياء بعد الموت، وفاءً بوعده، وهو قول أكثر المفسرين، كقوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثم رَزَقَكُمْ، ثم يُميتُكم ثم يُحْييكُمْ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي أغنى الإنسان ثم رضَّاه بما أعطاه، قال ابن عباس: أعطى فأرضى. وقيل المعنى: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[1]، وفيه إشارة إلى فساد قول بعض الناس، من أن الغنى بكسب الإنسان وجهده، أو ببخته وطالعه.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحرِّ، وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم عبادتها أبو كبشة رجلٌ من أشرافهم.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسِّع على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء. أقول: ولعل هذا القول أرجح، للتناسق البديع بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر، فيتم التناسق بين الآيات، والله أعلم.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ وهم قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى عاد إرم.

﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴾ أي ما أبقى أحداً من الفريقين، بل أهلكهم ودمَّرهم عن بكرة أبيهم.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ ﴾ أي أهلكهم من قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ أي أظلم من عاد وثمود، لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه، وينفِّرون الناس عنه، ثم عتوهم على الله تعالى بالمعصية والطغيان، وما أثَّر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ ﴾ هي قرى قوم لوط، ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم ﴿ أَهۡوَىٰ ﴾ أي أسقطها إلى الأرض، بعد أن رفعها إلى السماء، وقيل: كانت عماراتهم مرتفعة، فأهواها بالزلزلة.

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ من فنون العذاب، وفيه من التهويل ما لا غاية وراءه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أي تُشكِّك، والخطاب لكل إنسان مشرك، أي فبأي نعم الله، الدالة على وحدانيته وقدرته، تشكّك أيها الإنسان وتكذّب؟، وإسناد تتمارى إلى الواحد، باعتبار تعدده، بحسب تعدد متعلقه، وتسمية الأمور المعدودة آلاء، مع أن بعضها نِقَم، لما أنها أيضاً نِعم، من حيث إنها نصرةٌ للأنبياء، والمؤمنين، وفيها عظات وعبر للمعتبرين.

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ أي ما ذُكر من أخبار المهلكين، إنذار من قبيل الإنذارات المتقدمة، التي سمعتم عاقبتها، وهذا الرسول منذر من المنذرين الأولين علمتم به.

﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴾ أي دنت الساعة، الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقعت الواقعة﴾.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي ليس لها نفس قادرة على كشفها وردِّها إذا غشيت الخلق.

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً وعناداً!!.

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعد شيء من ذلك؟ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرَّطتم من شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي لاهون غافلون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعيرُ إذا رفع رأسه، قال الراغب: السامدُ: اللاهي الرافع رأسه، والسمود: اللهو. قيل: كان المشركون إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن استماعه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ أي اسجدوا لله العظيم الجليل الذي خلقكم، وخصوه بالعبادة بدل أن تسخروا وتضحكوا، فأمامكم أهوال وشدائد، لا ينجي منها إلا الإيمان، والخضوع والخشوع للرحمن!!.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

* * *

سُورَةُ القَمَرِ

مكية وهي خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾.

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي قربت القيامة، التي كل يوم يزداد قربها ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي انشقَّ نصفين، وعن ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر(١).

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة، ويردُّه قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾.

---

(١) قال ابن الجوزي: إن قوماً شذُّوا فقالوا: سيشتقُّ يوم القيامة، وهذا القول الشاذُّ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله تعالى: ﴿وانشقَّ﴾ لفظٌ ماضٍ، وحملُه على المستقبلِ يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا﴾ دل على أنه قد حدث ذلك. اهـ من زاد المسير ٨/٨٨.

والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه «أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين»[1] ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، وأنه حصل في الليل، ومعظم الناس نيام وغافلون، ومما هو المشاهد أن كسوف القمر وغيره يحدث في السماء، ولا يتحدث به إلا بعضُ الناس، ولا علم عند غيرهم بذلك، والمؤرخون تركوه لأنهم قالوا إنه مثل خسوف القمر، والقرآن أثبت وأدلّ دليل، وأقوى مثبتٍ له، وإمكانه لا يُشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه.

﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا﴾ أي وإن ير المشركون معجزة واضحة ساطعة، دالة على صدق الرسول، يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا سحر مستمر، مطرد دائم، يأتي به على مر الزمان، وقولهم ﴿مستمر﴾ يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخر مترادفة، ومعجزات متتابعة، حتى قالوا ذلك.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي الرسول ﷺ، وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات، كما كذبوا بانشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر أعيننا، والقمرُ بحاله[2]، وذكرُهُم بلفظ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٧/ ١٨٢ ومسلم رقم ٢١٥٩ وتتمة الحديث «حتى رأوا حِرَاءَ بينهما».

(٢) طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جلية، تدل على صدق نبوته، وخصُّوا بالذكر أن يشقَّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق على أن يؤمنوا برسالته، ويتبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فدعا رسول الله ﷺ ربه فأجاب الله دعاءه وانشق القمر فلقتين وكانت ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون فيرونه منشقاً إلى نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: =

الماضي، للإشعار بأنها من عاداتهم القديمة، من ردِّ الحقِّ بعد الظهور ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مستقر، أي منتهٍ إلى غاية، يستقرُّ عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أي في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي أنباء القرون الخالية، الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم الوخيمة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم وزاجر عن التمادي في الباطل، وهو أنباء المهلكين بسبب التكذيب.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن العظيم، حكمة بالغة من ربِّ العزة والجلال ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؟ أي فماذا تنفع الإنذارات، والزواجر، عن قوم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلام الله، وهو الحكمة البالغة؟ فالمراد بالنُّذُر الإنذارات، والتخويف بالمواعيد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم حينئذ، فمن ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح، يعرض عنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي يوم يدعو

= سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فإن رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإلا فهو سحر، فلما قدم المسافرون سألوهم فقالوا: رأيناه انشق في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك، فقال أبو جهل اللعين والمشركون معه: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحر مستمر أي دائم، فأنزل الله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي منكر، فظيع، تنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ خشوعُ الأبصار: سكونُها على حال لا ينقلب يمنة ويسرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ وهو كناية عن الذلة والهوان، لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز، تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد مَثَلٌ في الكثرة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي حيارى، فزعين، مسرعين، مادِّي أعناقهم ناظرين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى الحشر، أي إلى صوت الداعي ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي صعب شديد، وفي إسناد القول إلى الكفار، تلويحٌ بأن المؤمنين ليسوا كذلك، بل هو سهل يسير عليهم كقوله تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي فعل التكذيب قبل تكذيب قومك، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي كذبوا عبدنا نوحاً شيخ الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي وزُجر عن التبليغ، بأنواع الأذية، من زجرتُ العبدَ إذا نهرته عن فعل شيء، ولم يكتفوا بذلك بل توعَّدوه بالقتل، رمياً بالحجارة فقالوا: ﴿لَئِنْ لم تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتكونَنَّ مِنَ المَرْجُومين﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أي فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منه، وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبٌ بقوةٍ وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وشدة انصبابها، قيل: لم ينقطع المطر أربعين يوماً.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيونٌ منفجرة ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أي ماء السماء، وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين، لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي على حالٍ قد قدَّرها الله من الأزل، وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمطلوبهم، بالماء الذي به حياة البشر.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ ﴾ أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير، جمع دسار، والدَّسْرُ: هو الدفع الشديد بقهر.

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا، أي محفوظة بحفظنا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي كُفر به، فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام، لأنه كان نعمة كفروها.

﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ ﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ﴾ أي السفينة أو حادثة الطوفان ﴿ ءَايَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، دهراً طويلاً ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ أي هل من معتبرٍ بتلك الآية الجديرة بالاعتبار؟ وأصله مذتكر، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿فهل من مذّكر﴾، فردَّها عليَّ يقول ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكر﴾[1].

﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ ﴾.

﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾؟ استفهام تعظيم ووعيد، أي كان على كيفية هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنُّذُر: أي الإنذارات التي فيها تخويف.

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ ﴾ جملةٌ قسميَّةٌ، وردت في أواخر القصص الأربع، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأنباءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾؟ وتنبيهاً على أن كل قصة منها، مستقلة بإيجاب التذكر والتدبر، كافية في الازدجار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لِقومك، بأن أنزلناه على لغتهم، وشحناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرَّفنا فيه من الوعيد والوعد، للتذكر والاتعاظ ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه، أي فهل من معتبر ومتعظ بما فيه من العبر والمواعظ؟.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٦١٨.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي هود عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له، دوماً للاختصار، ومسارعة إلى ما فيه بيان الازدجار، من العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي أرسلنا إليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، في يوم مشؤوم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمرّ شؤمه، أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم الله.

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي تقلعهم عن أماكنهم، روي أنهم دخلوا الشِّعاب، والحفر، فنزعتهم الريحُ وصرعتهم موتىٰ ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي المنقطع عن مغارسه، وقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيب من أمرهما، أي ألم يكن هائلاً فظيعاً؟.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بزواجر

القرآن؟ وفائدة التكرار، أن يجدِّد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك، وهذا حكمةُ التكرارِ في قوله تعالى: ﴿فبأيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾؟ وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك تكرار القصص في أنفسها، لتكون العبرةُ حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسيَّة في كل أوان.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ أي الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو بالرسل عليهم السلام، فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل، لاتفاقهم على أصول الشرائع.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أي واحداً من جنسنا من آحاد الناس، لا من أشرافهم ﴿ إِنَّآ إِذًا ﴾ أي على تقدير اتباعنا له ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ ﴾ عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي جنون، فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ ﴾ أي الوحي ﴿ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي بطر متكبر، حمله بطره على التعظم علينا بما ادعاه، يقال: أشِرَ أَشراً، أي بَطِر وتكبَّر.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام، وعداً له، ووعيداً لقومه، والمراد بالغد وقت نزول العذاب،

والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، أي سيعلمون البتة عن قريب، من الكذاب الأشر؟

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ أي مخرجوها من الصخرة حسبما سألوا، امتحاناً لهم، فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون؟ ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ على أذيَّتهم فإن الله ناصرك عليهم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أي مقسوم لها يوم، ولهم يوم، و «بينهم» لتغليب العقلاء ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه في نوبته.

﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَنَادَوْا۟ ﴾ نداء المستغيث ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ هو «قدار بن سالف» كان أشجعهم ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هي صيحة جبريل ﴿ فَكَانُوا۟ ﴾ فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ أي كالشجر اليابس، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ أي هل من معتبر ومتعظ؟

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا ﴾ أي ريحاً تحصبهم، أي ترميهم بالحصباء وهي الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ وهو آخر الليل وقت السحر.

﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾ أي إنعاماً منا عليه، فكان الإنجاء فضلاً منه تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة، وذلك الإنجاء كان فضلاً، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً، والعضو الفاسد يُقطع.

﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطۡشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ فكذبوا بالإنذار والوعيد متشككين فيه.

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ ﴾ أي قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ أي أعمينا أعينهم فجعلناهم لا يبصرون، روي أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا، قالت الملائكة: خلِّهم يدخلوا إنَّا رُسُل ربك لن يصلوا إلينا،

فصفقهم جبريل عليه السلام صفقة، فتركهم يترددون، ولا يهتدون إلى الباب عمياناً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي كنتم به تستهزئون.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ حكاية لما قيل لهم، من جهة الله تعالى، تشديداً للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من متَّعظٍ ومعتبر؟.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي، لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لعظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك، أي وبالله لقد جاءتهم الإنذارات.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي لا يُغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾؟ إكفاركم يا معشر العرب خير من أولئك قوة، وشدة وعدة ومكانة؟ والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم، مع ظهور خيرتهم منكم، فيما ذكر، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم أسوأ حالاً منهم، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾؟ انتقال من التبكيت إلى توبيخ آخر، أي أم لكم براءة وأمن من العذاب في الكتب السماوية المنزَّلة ولذلك تصرون على ما أنتم عليه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾؟ تبكيت آخر، أي بل أيقولون نحن جمع كبير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد وصحبه؟.

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ رد وإبطال لذلك أي سيهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار، والتوحيد لإرادة الجنس، وهو من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبةٍ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبد بعد اليوم أبداً، ووَثَب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦١٩.

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه، يعني: إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمامها بالعذاب الدائم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي في أقصى غاية من الداهية والمرارة.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ في هلاك ونيران مسعَّرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرُّون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي حر النار وألمها، و«سقر» عَلَمٌ لجهنم، واسم من أسمائها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي ملتبساً بقدر معيَّن، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين، أو مقدر مكتوب في اللوح قبل وقوعه. عن عبد الله بن عمر وابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادر الخلائق كلها، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي كلمة واحدة سريعة التكوين، وهي قوله

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٣ في القَدَر، والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.

تعالى: كن، فإذا أراد شيئاً قال له: «كن» فهنالك شيئان: الإرادة، والقول، والإرادة قَدَرٌ، والقول قضاء ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ في اليسر والسرعة.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي أشباههم في الكفر من الأمم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ يتعظ بما صنع بهم.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ في ديوان الحفظة.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ من الأعمال مسطورٌ فيها؛ نظيره قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1] ؟

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين وأنهار جارية.

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي مقربين

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

عنده، عند مليك لا يُقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه ما أعظم شأنه، والعندية عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة، والله أعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

* * *

سُورَةُ الرَّحمٰن

مكية وآيها ست وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لما عدَّد في السورة السابقة، ما نزل بالأمم السالفة من النقم، عدَّد في هذه السورة الكريمة، ما أفاض على كافة الأنام، من فنون نعمه الدينية، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب الشكر، وبدأ بتعليم القرآن، فقال تقدست أسماؤه:

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لأنه أعظم النعم شأناً، وأرفعه مكانة، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية، والدنيوية، جمع الله فيه العلوم والمعارف، وبيَّن فيه الهدى والضلال، وشرَّفه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضلها وإمامُها، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته، وجلالة قدره.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الآخرين عن العاطف، لورودها على منهاج التعديد، كما

تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزَّك بعد ذل، كثَّرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والبيانُ هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ أي يجريان بحساب مقدَّر، في بروجها ومنازلها، بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾.

﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ أي النبات الذي ينجم، أي يطلع من الأرض ولا ساق له، وقيل: نجوم السماء، والأول أظهر ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساق ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ أي ينقادان له تعالى فيما يريد بها طبعاً، انقياد الساجدين من المكلفين طوعاً.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي خلقها مرفوعة، محلاً ورتبة، حيث جعلها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته، فنبَّه بذلك على كبرياء شأنه، وعظم ملكه وسلطانه ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي شرع العدل، وأمر به بأن يُوفَّىٰ لكلِّ ذي حق حقه، والمراد به الميزان الذي يعرف به مقادير الأشياء، من وزن ومكيال ونحوهما، فالمعنى: خلقه موضوعاً على الأرض، حيث علق به أحكام عباده، من التسوية والتعديل، في أخذهم وإعطائهم، فالميزان نعمة، وعدمُ ظهور نعمته، لكثرته وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي لئلا تطغوا فيه، ولا تجاوزوا الإنصاف وإنما قال: ﴿في الميزان﴾ ولم يقل في الوزن، ليشمل الأخذ والإعطاء، ولولا التساوي في الحقوق لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي قوّموا وزنكم بالعدل والإنصاف ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوه، والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات، كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة، والثاني بمعنى المصدر، أي لا تطغوا في الوزن، والثالث للمفعول، أي لا تنقصوا الموزون؛ كرَّر لفظ الميزان، تشديداً للتسوية به، وتأكيداً للأمر باستعماله عدلاً.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ أي خفضها وبسطها ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ أي للخلق ليستقروا عليها، وينتفعوا بما فيها من خيرات، بالزراعة، والبناء وإخراج المعادن.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به، من النعم التي لا تحصى ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ هي أوعية الثمر جمع كِمّ بكسر الكاف والكِمُّ وعاءُ الطلع، وغطاء النور، والجمع أكمام، ذكر تعالى النخل، لأنها أعظمها وأكثرها نفعاً، فهو غذاء كامل.

﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡحَبُّ ﴾ هو ما يُتغذَّى به، كالحنطة، والشعير ﴿ ذُو ٱلۡعَصۡفِ ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾ هو الريحانُ المعروف، ذو الرائحة الطيبة، والمراد به كل مشموم طيب الريح، كالورد، والياسمين، والفل، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة الزكية (١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿للأنام﴾ وسينطق به قولهُ تعالى: ﴿أيها الثقلان﴾ والفاء لترتيب الإنكار، على ما فُصِّل من فنون النعماء، الموجبة للإيمان والشكر، والتعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن المالكية، والتربية لتأكيد النكير، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه، كالنعم الدنيوية، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل، فبأي فردٍ من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق، شاهدٌ بالصدق؟ كُرِّرت هذه الآية في هذه السورة، في إحدى وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتنبيهاً على

---

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنواع النِّعم التي خلقها لعباده، فذكر الفاكهة أولاً، ونكَّر لفظها ﴿فيها فاكهة﴾ لأن الانتفاع بها نفسها كالتفاح، والرمان، والعنب، والكمثرى إلخ، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسَعَف، وجريد، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان، من بُرّ، وشعير، وكل ما له سنبل، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، ليجمع بين اللذة بالغذاء، واللذة بالروائح الطيبة، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان!!.

وجوب شكر المنعم، والاعتراف له بالفضل والإحسان، ثم فصَّل هذه النعم الجليلة، وبدأ بخلق الإنسان؛ فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾ الصلصالُ: الطينُ اليابسُ، الذي له صلصلة، وهو الصوت منه إذا نُقر ﴿ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزَفُ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام في أطوار وأدوار، من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حَمَأً مسنُوناً، ثم صلصالاً، ولا اختلاف بين الآيات، لاتفاقهن معنى، فهي مراحل وأطوار.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ أي الجنَّ، أو أبا الجن إبليس ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهب صافٍ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان للمارج، فإنه في الأصل للمضطرب، من مَرَج إذا اضطرب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله ممَّا أفاض عليكما من سوابغ النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة، ربُّ مشرقَيْ الصيفِ، والشتاءِ، ومغربيهما.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ مما في ذلك من فوائد لا تحصى، من اعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته، وغير ذلك.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي يتجاوران.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من الأرض، يعني أنَّ الماءين، من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً، ثم إنهما بقيا في مكانين متميزين، فذلك برهان القدرة، على أن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زماناً، كالماء المسخَّن إذا غمس في ماءٍ بارد، إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد، لكن إذا زاد مجاورتها فلا بد من الامتزاج ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر، بالممازجة وإبطال الخاصية.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ليس منهما شيء يقبل التكذيب.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤُ: الدُّرُّ، والمرجانُ: الخرزُ الأحمر، لمَّا التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغَ أن يقال يخرجان منهما وظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من بعض الناس، ممن لا يوثق بقوله

أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح، والصواب أنه يخرج من بعضها كبعض أنهار الهند ثبت ذلك قطعاً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي السفن الجارية المرفوعات الشراع، أو المصنوعات، اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال الشاهقة، جمع عَلَم وهو الجبلُ الطويل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى[1].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي على الأرض من الحيوانات، أو من الثقلين هالكٌ لا محالة.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته عزَّ وجلَّ، والوجه يستعمل في العرف

---

(١) في الآية إرشاد وتنبيه إلى أن الفلك ـ أي السفن ـ في البحر، لا يملك أمرها في الحقيقة أحد، وكل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعترف بالعجز والضعف، وينتظر رحمة الله عز وجل، فأحوالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله، وقد كانوا يقولون: لك الفُلْكُ ولك المُلْكُ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ثم هم بعد ذلك ينسون نعمة الله!!.

لحقيقة الإنسان ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ذو الاستغناء المطلق، والفضل التام، وهذه من عظائم صفته تعالى، كما رُوي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»[1] ومعنى ألظُّوا، أي الزموا وأكثروا من هذا الدعاء، وفي وصفه سبحانه بعد ذكر فناء الخلق، وبقائه تعالى، إيذان بأنه يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ فإحياؤهم بالحياة الأبدية، والإثابة بالنعيم السرمدي، أجلُّ النعم، وأعظم الآلاء، قال يحيى بن معاذ: حبَّذا الموتُ، فهو الذي يقرِّب الحبيب إلى الحبيب.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه، في ذاتهم، وموجوداتهم وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً، بلسان المقال، أو بلسان الحال، فإنهم كافة لو انقطع ما بينهم، وبين العناية الإلَهية من العلاقة، لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال، والمراد من السؤال ما يدلّ على الحاجة، نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي في كل وقت من الأوقات ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا، فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً ويفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٣. والحاكم في المستدرك ١/٤٩٨ وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

والمصالح، روي أنه ﷺ تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويَضَع آخرين[1].

وفيه ردٌّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع مشاهدتكم لما ذُكر من إحسانه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي ستتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، عند انتهاء شؤون الخلق، فعبَّر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل، وقيل: هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سأفرغ لك، أي سأتجرد للإيقاع بك، والمراد التوفر على النكاية فيه، والانتقام منه ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ هما الإنس والجان لثقلهما على الأرض.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقون يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب والعذاب.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة، فخوطبوا بما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٤/٢٩٣.

ينبىء عن ذلك، لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إن قدرتم ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي، ومن أقطار السماوات والأرض ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ منها، وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل بعيد، وهذا الخطاب الظاهر أنه في الآخرة، روي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الإنس والجن هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدَّم تفسيره.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ هو لهب خالص، وقيل: المختلط بالدخان ﴿مِّن نَّارٍ﴾ والتنكير للتفخيم ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دخان، وقيل صُفْرٌ مذاب يصبُّ على رؤوسهم، ويحتمل أن يكون للاختصاص، فالنار للإنس، والنحاس للجن ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمتنعان، ولا يكون لهم ناصر منه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ فإن بيان العاقبة لطف ونعمة، والانتقام من الكفار من عدد الآلاء.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انصدعتْ، وانفكَّ بعضُها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي كدهن

الزيت، كما قال تعالى: ﴿كالمهل﴾ وهو عكر الزيت، وجواب إذا محذوف، أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مع عظم شأنها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف على اختلاف مراتبهم، وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة، أي لا يُسأل أحد من المجرمين عن ذنبه، لأنهم يُعرفون بسيماهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مع كثرة منافعها، فإن الإخبار بما ذكر مما يزجرهم عن الشر، المؤدي إليه.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي يُعرفون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي يجمع بين نواصيهم وأقدامهم، في سلسلة من وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة؛ تارة تأخذ بالأقدام، وتارة بالنواصي.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كان يكذب بها الأشقياء المجرمون.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)﴾.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي بين النار التي يحترقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بلغ النهاية في الحرارة، يُصبُّ عليهم، ويُسقون منه، وقيل: إذا استغاثوا من النار، أغيثوا بالحميم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشير إلى كون هذه الأمور من الآلاء.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة، أي ولمن خاف قيامه بين يدي ربه جنتان، واعلم أن ما عُدِّد فيما بين هذه الآية، وبين خاتمة السورة الكريمة، من فنون الكرامات، كما هي في أنفسها آلاء جليلة، واصلة إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة، لكونها داعية لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدي إلى نيلها، من الإيمان والطاعة، وأن ما فُصِّل من فاتحة السورة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، وبين هذه الآية، من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة؛ فليست هي من قبيل الآلاء، وإنما الآلاء حكاياتُها، الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها، من الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، يوم يقوم الناس لربِّ العباد، وإضافته إلى الرب للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني، فإن الخطاب للفريقين، أو

لكل واحد جنتان: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يُتفضل عليه بها.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ صفة لـ «جنتان» وما بينهما اعتراض، والأفنان جمع فَنَن، أي ذواتا أغصان، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، وتمد الظل.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ صفة أخرى لجنتان، أي في كل واحدة منهما عينٌ تجري، كيف يشاء صاحبها، وعن ابن عباس والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيمُ، والأخرى السلسبيلُ.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: غريب، ومعروف.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد،

والاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم، وفراغ القلب، لأن العليل يضطجع، أو يستلقي أو يستند على حسب ما قَدَر عليه، وأما الاتكاء فهو علامة الرفاهية والنعيم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي فرش وثيرة بطائنها من ديباج، وهو الحرير السميك، المزيَّن باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، ومتى كانت بطائنها كذلك، فما ظنك بظهائرها؟ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم، والقاعد، والمضطجع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في الجُنان والقصور ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء يقصرن أبصارهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، إنه تعالى لم يذكر النساء، إلا بأوصاف، تارة حور عين، وتارة عرباً أتراباً، وتارة قاصرات الطرف، إشارة إلى تخدّرهنَّ، وإعظاماً لهنَّ في أعين الرجال ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يمسَّ الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنّيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وفيه دليل على أن الجن يُطمثون، والطمثُ: الجماعُ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صفة لقاصرات الطرف، أي مشبهات بالياقوت، في حمرة الوجنة، والمرجان، أي صغار الدُرِّ في بياض البَشَرة وصفائها، فإن صغار الدُرِّ أنصع بياضاً من كباره، ولا يبعد أن يقال: هو مؤكدات لما مضى، لأنهن لما كنَّ ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهن كالياقوت في معدنه، والمرجان في صدفه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين، الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان، لمن دونهم من أصحاب اليمين، ولا شكَّ أن مقام السابقين المقربين أعظم وأرفع.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ صفة لـ «جنتان» أي خضراوان تضربان إلى السواد، من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتات والرياحين.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوارتان بالماء، والنَّضْخُ أكثر من النضح وهو الرش.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيران لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وللرمان فاكهة ودواء.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ ﴾ في الجنان ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ فاضلات الأخلاق، وحسان الخَلْق والخُلُق.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ أي مخدَّرات، يقال: امرأة مقصورة الطرف، قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوَّفة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي لم يغشهنَّ ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة، والوسادة هي المخدَّة ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ العبقري منسوب إلى العبقر، وهي الطنافس الثخان، جمع عبقرية، أي طنفسة سميكة مزينة بأنواع النقوش، قال الخليل: كلُّ شيء نفيس يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقرياً يَفْري فَرْيه»[1].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري ١١/ ٣٦٥ ولفظه «بينما أنا نائم رأيتني على قليب ـ أي بئر ـ عليها دلوٌ، فنزعتُ منها ما شاء الله، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني، فنزع ذنوبين ـ أي دَلْوين ـ وفي نزعه ضعف، واللهُ يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذها منه، فلم أر عبقرياً من الناس، يفري فريه، حتى رَوِيَ الناسُ، =

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨ ﴾ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة، من آلائه الفائضة على الأنام، أي تعالى اسمه الجليل، وارتفع عما لا يليق بشأنه من العجز والضعف وتضييع أجر العاملين ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء، والفضل والإكرام لأوليائه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

* * *

= وضَربوا بِعَطَنٍ» اهـ أي حتى استقى الناس، وأرووا إبلهم، والحديث إشارة إلى الفتوحات الإسلامية التي كانت في زمن عمر، وإلى مدة خلافتهما، فقد قصرت مدة خلافة أبي بكر، وطالت مدة خلافة عمر، حتى تيسرت له الفتوح، وأفاء الله عليه الغنائم، وكنوز كسرى وقيصر.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامةُ، وذلك عند النفخة الثانية، والتعبيرُ عنها بالواقعة، للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، مع قطع النظر عن الوقوع، كأنه قيل حدثت الحادثة، والواقعةُ اسم للقيامة، وانتصاب إذا بمضمر ينبىء عن الهول، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة، يكون من الأهوال، ما لا يفي به المقال.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله، ولا تكذّب في نفيها كما تكذب اليوم.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام، رافعةٌ لآخرين، وهو تقرير لعظمتها، وتهويل لأمرها، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ ﴾.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي زُلزلت زلزالاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء، وجبل، ويندكُّ كل صرح وعمران.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فُتِّتَتْ حتى صارت مثل السويق الملتوت، أو سِيقت وسُيِّرت، من بسَّ الغنم إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾.

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾.

﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَآءً ﴾ أي غباراً ﴿ مُّنۢبَثًّا ﴾ أي منتشراً، متطايراً في الجوّ.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ ﴾.

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ خطاب لجميع الخلائق، السابقين واللاحقين ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثَلَٰثَةً ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج، صنفان في الجنة، وصنف في النار، كما وضحته الآية الكريمة.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ ﴾.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ وهم الذين يؤتون صحائف أعمالهم بالأيمان ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ تعجيب من حالهم في السعادة، وتعظيمٌ لشأنهم، كأنه قيل: ما هم؟ وأي شيءٍ هم، في حالهم وصفتهم؟.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾؟! والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين، في الفخامة والفظاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، سُمُّوا أصحاب اليمين، لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ولأنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، ولعل تأخير ذكرهم، مع كونهم أسبق الأقسام، وأقدمهم في الفضل، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم، أي والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمته، وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى السابقين ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ الذين قربت إلى العرش درجتهم، فهم في ظل العرش وجواره.

﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ﴾.

﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي كائنين في جنات نعيم، يستمتعون بما تشتهيه الأنفس.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ ﴾.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هم جملة من الأولين، وهم الأمم السالفة، من

لدن آدم عليه السلام، إلى نبينا صلواتُ الله عليهم أجمعين، والثُلَّة: الأمة من الناس الكثيرة.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي من هذه الأمة، وقد روي مرفوعاً أن الأولين والآخرين ههنا، متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم، وهذا ظاهر لأن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ الموضونة: المنسوجةُ بالذهب، المشبَّكة بالدر والياقوت، القوية اللحمة والسُّدَىٰ.

﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصفٌ لهم بحسن العِشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إنَّ أحداً لا يستدبر أحداً.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يدور حولهم للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي غلمان، مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم. قيل: هم أولاد أهل الدنيا، وقيل: أولاد الكفار خدَّام أهل الجنة، والصحيح أنهم ولدان خُلقوا في الجنة، لخدمة أهل الجنة، كالحور العين، والعربُ تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ سميت إبريق لبريق لونها، وقيل: لأنها يُرى باطنها كما يرى ظاهرها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي خمر جارية من العيون.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي بسببها، وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يختارونه ويأخذون خيره وأفضله.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يتمنون ويحبُّون، كما ورد في الحديث «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخرُّ بين يديك مشوياً»[1].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي ويؤتون حوراً جميلات، واسعات العيون.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ في الصفاء والنقاء الذي لم تُغيِّر لونَه الشمسُ والهواء.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

(١) أخرجه البيهقي، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/٣٠٨.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، جزاءً بأعمالهم، أما الزيادة فلا يدركها أحد.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ أي باطلاً ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ أي لا يأتون ما هو سبب التأثيم، والمعنى: لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً من الكلام، فحياتهم كلُّها أُنسٌ وسرور، ومُتعةٌ ولذة.

﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾.

﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ أي إلاّ أن يقولوا ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾أي أنهم يفشون السلام بينهم.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟! استفهام للتعظيم لحالهم، وكرامتهم في الجنة.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ أي هم في سدر غير ذي شوك، لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق، كأنه خُضد شوكُه أي قطع.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ الطلحُ: شجر الموز، وله أزهار كثيرة، طيبة الرائحة فإن قيل: ما الحكمةُ، وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، وهو من

أشجار البوادي وله شوك[1]؟ أجيب: بأن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً، وله نفع لهم، أو لأنعامهم، والإشارة إلى جميع ما بينهما كما يقال: فلان مَلَك الشرق والغرب، أي وما بينهما، والأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، وورق السِّدر في غاية الصغر، وورق الطلح في غاية الكِبر، ففي الآية وقعت الإشارة إلى جميع الأشجار، نظراً إلى الأوراق، كما ذُكر النخيل والأعناب لشهرتهما عند العرب.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص، ولا يتفاوت الظلُّ، ولا ينقبضُ، لأنه ليس ظل الأشجار، بل ظلٌّ دائم يخلقه الله تعالى.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل، يجري على الأرض، كأنه شبَّه ومثَّل حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، ومثَّل حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي، إيذاناً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢﴾.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

---

(١) روى البيهقي والحاكم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها؟! فقال: وما هي؟ قال: السِّدرُ، فإن له شوكاً!! فقال رسول الله ﷺ: أليس الله يقول ﴿وسدرٍ مخضود﴾؟ خَضَد الله شوكه ـ أي نزعه وقطعه ـ فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرةً، وإنَّ الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر»!!.

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقتٍ من الأوقات، كفواكه الدنيا، بل دائمة مستمرة دون انقطاع ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه، لقربها منهم.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: الفرشُ: النساء، حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهنَّ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[1] ويدل عليه قوله تعالى بعده.

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ أي خلقناهنَّ خلقاً جديداً.

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي كلما أتاهن أزواجهن، وجدوهن أبكاراً.

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب، وهي المحبَّبة إلى زوجها، الحسنةُ التبعُّل ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السنِّ، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن، لأنه لا هَرَمَ، ولا شيخوخة في الجنة.

---

(١) سورة يسٓ، آية: ٥٦.

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي جعلناهن نساءً لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي هم أمة من الأولين، وأمة من الآخرين، هذا في أصحاب اليمين.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؟! الشمال والمشأمة واحد، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، والاستفهام للتهويل والتفظيع، أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما هو حالهم.

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ أي حرِّ نارٍ ينفذ في المسامِّ، والسموم ريح حارة تهب بالنهار فتمرض، أو تقتل.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي من دخان أسود، وأصله من الحم، وهو الفحم هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يشربونه حميم.

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ كسائر الظلال ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فيه خير ما، نفيٌ لصفتي الظل عنه، يعني أنه ظل حار، وضار، لا نافع، ثم بيَّن تعالى بِمَ استحقوا ذلك العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي منعَّمين ومنهمكين في الشهوات، فلا جَرَم عُذّبوا بنقائضها.

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذنب العظيم، وهو الشرك بالله، لأنه نقض عهد الميثاق.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ لغاية عتوهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾؟ أي هل سنُخلق مرة أخرى؟ وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوصف المذكور، وهو تحول أجسادهم إلى التراب والعظام النخرة، لتقوية الإنكار للبعث، بتوجيهه إليه في حالةٍ منافية له بالكلية، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؟ يعنون أن بعث آبائهم الذين بَلُوا، أبعدُ من الوقوع.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بعد البعث ﴿ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو ما وقَّت الله به الدنيا، وهو يوم القيامة.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ الخطاب للكفرة ﴿ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾ أي الضالون عن الهدى، المكذِّبون بالبعث والجزاء.

﴿ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ لَءَاكِلُونَ ﴾ بعد دخول جهنم ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ مِنْ الأولى للابتداء، والثانية للبيان، أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم.

﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع.

﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ عقيب ذلك ﴿ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي الماء الحار الذي اشتدت حرارته.

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم، وهي الإبل التي بها الهُيَام، وهو داءٌ يصيبها فتشرب ولا تَرْوَىٰ، جمع أهيم، والمعنى: أنه يُسلَّط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم، فإذا ملؤوا منه بطونهم، سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم، فيشربون شرب الهيم.

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ ﴾.

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي هذا الذي ذُكِرَ من العذاب هو ضيافتُهم، فإذا كان نزلهم ذلك، فما ظنك بما لهم، بعدما استقرَّ لهم القرار في النار؟ وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى، فإن النزل معناه الضيافة، وهل الحميم والزقوم ضيافة فيها تكريم؟ فإن النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ ﴾.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، وأوجدناكم من العدم، فهلاَّ تصدّقون بالبعث والنشور؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾؟ أي ما تقذفون في الأرحام من النُّطف؟.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾؟ أي هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سويّاً؟. ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟ له من غير دخل شيء فيه، فَلِمَ لا تصدقون على أنه يعيدكم؟.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ ﴾.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي قسمناه عليكم ووقَّتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يغيّر وقته، وإنَّا قادرون.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي أن نُذهبكم، ونأتي مكانكم بغيركم، في أسرع حين من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار، يعني إنا نقدر على الأمرين على الخلق ممَّا يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقهم من نطفة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتذكرون أنَّ من قَدَر عليها، قدر على النشأة الأخرى؟ فإنه أقل صنعاً لحصول المراد!! وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ ذكر تعالى بعد دليل الخلق، دليل الرزق ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي تبذرون حبَّه.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً، منكسراً، متفتتاً، بعد ما أنبتناه ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على تعبكم فيه، والتفكُّهُ: التنعم بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتفكه بالحديث، فإن قال معاند: نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعاً، لا بفعلنا، ولا بفعل غيرنا، نقول: لو سُلّم هذا الباطل، فما تقول في سلامته عن الآفات التي تصيبه قبل ظهور الحبِّ؟ أوَ تدفعونها عنه، أو هذا الزرع يدفع عن نفسه لو أراد الله تَلَفَه وهلاكه؟

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي قائلين إنَّا لملزمون غرامة ما أنفقنا.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرمنا رزقنا، غرمنا ثمن الحب، وحُرمنا من الرزق، فلا حظَّ ولا نصيب لنا فيه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾؟ عذباً فراتاً، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه، لأن الشرب أهم المقاصد المنوط بها.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾؟ من السحاب، جمع مُزنة وهي السحابة الممطرة ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾؟ له بقدرتنا.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحاً زعافاً لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلاَّ تشكرون ربكم على فضله وإنعامه؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر فتخرج منه النار.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ لها بقدرتنا؟ والتعبير عن خلقها بالإنشاء، المنبىء عن بديع الصنع، المعرب عن كمال القدرة والحكمة، لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر، التي لا تخلو من النار، حتى قيل: في كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعُفار.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم، وفي الحديث الشريف «ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»[1] وقيل: المعنى: جعلناها تبصرةً لأمر البعث، فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي ومنفعة للذين ينزلون القواء، وهو القفر، وتخصيص المسافرين بذلك، لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدّد من بدائع صنعه تعالى، الموجبة لتسبيحه، عما يقول الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، وتعجيباً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة، مع جلالة قدرها، أي فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى العظيم، قل: سبحان الله العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته!!.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣٨/٦ باب صفة النار، ومسلم رقم ٢٨٤٣ باب في شدة حر نار جهنم.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ ﴾.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ أي فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وهو قول أكثر المفسرين، وأما ما قيل: إن المعنى: فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فيأباه تعيين المقسم به، وتفخيمُ شأن القسم به ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصها بالقَسَم، لما في غروبها من الدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو بمنازلها ومجاريها، فإن له في ذلك من الدليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته، ما لا يحيط به البيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراضٌ قُصد به المبالغة، في تحقيق مضمون الجملة القسميّة وتأكيده.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، وكريم عند الله تعالى.

﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ٧٨ ﴾.

﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: مصون من التبديل والتحريف، ويراد به المصحف الشريف.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن. المراد بالمطهرين الملائكة،

فالمراد بهم المطهرون من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى النهي، أي لا ينبغي أن يمسَّه إلاَّ من كان على طهارة.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ صفة للقرآن، أي منزل من عند الرحمن.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ الذي ذكر نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه، وهو القرآن الكريم ﴿ أَنتُم ﴾ يا أهل مكة ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ أي متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي يلين جانبه ولا يتصلب، تهاوناً به.

قال ابن عباس: أي مكذّبون، والمدهن والمداهن الكذّاب والمنافق، والإدهانُ: الجريُ في الباطل، ثم قيل للمكذب: مدهن.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تضعون التكذيب موضع الشكر.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ لولا للتحضيض، أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم، وتداعت إلى الخروج، عند معالجة سَكَرات الموت.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أيها الحاضرون تنظرون إلى ما هو فيه من الغَمَرات، وهو يودِّع الحياة.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ علماً وقدرة وتصرفاً ﴿ مِنكُمْ ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بملائكة الموت ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أي لا تدركون بذلك لجهلكم بشؤوننا.

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مربوبين ومملوكين، من دان السلطانُ رعيته: إذا سَاسَهم، والدينُ الجزاء، أي غير مجزيِّين يوم القيامة، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي إن كنتم غير مربوبين ومجزيّين، فهلاَّ ترجعون الروح إلى مقرِّها، عند بلوغها الحلقوم؟ ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في اعتقادكم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء[1]!! وقال الطبيعي: البقاء بالغذاء، وزوالُ الأمراض بالدواء، فما بال الطبيعي لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم؟.

---

(١) الغرض من الآية: بيانُ عجز البشر عن ردِّ الموت، أو دفعه عنهم، وكأن الآية تقول للمكذبين الكفار: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله يجازي العباد، فهلاَّ تردّون روح من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟! وإذا لم يمكنكم ذلك وهو أمر مستحيل، فاعلموا أن الأمر بيد ربِّ الأرباب.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ ﴾.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ أي فأما إن كان المتوفَّى من السابقين في الخيرات والدرجات، عبر عنهم بأجلّ وأشرف أوصافهم.

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ ﴾.

﴿ فَرَوۡحٞ ﴾ أي فله استراحة، وفسر بالرحمة، أي بالحياة الدائمة ﴿ وَرَيۡحَانٞ ﴾ أي رزق طيب ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴾ أي ذات تنعم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ عبّر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يذكر لهم في ما سبق وصف سواه، كما ذكر للفريقين الآخرين.

﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ ﴾.

﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، والالتفات للتشريف، ويحتمل أن يكون المعنى: فسلام لك يا رسول الله منهم، فإنهم في سلامةٍ، لا يهمُّك أمرهم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال، وصفوا به، ذمّاً لهم، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب.

﴿ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ ﴾.

﴿ فَنُزُلٞ ﴾ أي فله ضيافة كائنة ﴿ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ يشرب منها بعد أكل الزقوم.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي إدخالٌ في النار المستعرة، وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين، لأنهم غير مكذبين.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين، وذلك نوع تأكيد، يقال: هذا من حق الحقّ، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي فنزّه ربك عن الظلم والعجز، فهو الذي يجازي العباد بالحق والعدل. روي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِح بِٱسمِ رَبِّكَ ٱلعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعِكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[1] وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبْه فاقةٌ أبداً»[2]

---

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٢٠٠ وأحمد في المسند ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن عساكر وله قصة لطيفة ذكرها الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٠٢ وهي: أن عبد الله ابن مسعود لمَّا مرض مَرَضه الذي تُوفي فيه، عاده الخليفة عثمان بن عفان، فسأله: ما تشتكي؟ ـ يريد ما هو الداء الذي نزل بك ـ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي، قال: ألاَ آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألاَ آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! ـ وكان عنده خمس بنات ـ فقال له ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي يقرأن كل ليلةٍ =

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة».

* * *

= سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة، كلَّ ليلة، لم تصبه فاقة أبداً» اهـ.

سُورَةُ الحَدِيدِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التسبيح أسند ههنا إلى غير العقلاء، وأريد به معنىً عاماً، شاملاً لما نطقَ به لسانُ المقال، كتسبيح الملائكة، والمؤمنين، ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإن كل فردٍ من أفراد الموجودات، يدلُّ بحدوثه على الصانع القديم، الواجب الوجود، المتصف بالكمال، المنزّه عن النقصان، وهو يسبِّح بطريقةٍ لا نعلمها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب الحكم في صنعه وتدبيره.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي التصرف الكلي فيهما من الموجودات

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي القادر على الإحياء والإماتة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، أي مبالغ في القدرة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ أي السابق على سائر الموجودات، لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ أي الباقي بعد فنائها ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول، لكونه غير مدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بكل ذرة في الكون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ أي يعلم سبحانه كل صغيرة وكبيرة، ما يدخل في باطن الأرض من بذور وأمطار، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ بالعلم والقدرة[1]، وبالفضل والرحمة، وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا، وحيثما ساروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لإحاطة علمه تعالى بأعمالهم.

---

(١) المراد بالمعيَّة هنا معيَّةُ العلم، لا معيَّةُ الذات، كما نبَّه عليه الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٤٥ حيث حكى الإجماع على ذلك.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تكرار للتمهيد لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره مرجع حساب الخلائق.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبِّر للأكوان ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بمكنوناتها، وبما يضمرونه، العالم بالسرائر والضمائر.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي وحِّدوا الله وأطيعوه، وصدِّقوا بالله ورسوله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، عبَّر عما في أيديهم بذلك، تحقيقاً للحقّ وترغيباً لهم في الإنفاق، فالمنفق في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل، يسهل عليه الإنفاق منه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي ثواب عظيم هو الجنة.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لكم، وأيُّ عذر لكم في ترك الأمان؟ ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿لا تؤمنون﴾ لتوبيخهم على الكفر، أي وأيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم،

بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة على وحدانيته ووجوده!! ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مصدِّقين بربكم، فهذا أحرى الأوقات لإيمانكم!!.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ حسبما يعرض لكم من المصالح، نزَّل عليه آيات واضحات ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم الله من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين، بإرسال الرسل، وتنزيل الآيات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به، بعد توبيخهم على ترك الإيمان، بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر، أيْ وأيُّ شيءٍ لكم أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى؟ ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه، في صرفه إلى مستحقيه؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تأكيد للتوبيخ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق، أشد في القبح، وأدخل في الإنكار، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله تعالى؟ وإظهار الاسم الجليل، لزيادة التقرير، وتربية المهابة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾(١) بيان لتفاوت

---

(١) في الآية حذف تقديره: لا يستوي من أنفق وقاتل قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح، وإنما حذفه لدلالة ما بعده عليه.

درجات المنفقين، حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، أي لا يتساوى عند الله من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل أعداء الله نصرة لدينه، قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من أنفق قبل الفتح وقاتل ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي أرفع منزلة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا، قبل عزة الإسلام، وقوة أهله، عند تمام الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، الذين قال ﷺ فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكل واحد من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، لا الأولين فقط ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره، فيجازيكم بحسبه.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى، رجاء أن يعوِّضه، فإنه كمن يقرضه؟ وحسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات والإعطاء بطيب نفسه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي فيعطيه أجره أضعافاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر كريم في نفسه، حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة؟.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٧/ ٢٨ ولفظه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه» أي نصف المُدِّ. . وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٥٣.

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ أي تكون أنوارهم ساطعة، ووجوههم مضيئة كإضاءة القمر، حين يمرون على الصراط، وأنوارهم تتلألأ ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي يقال لهم: بشراكم، أي ما تبشَّرون به اليوم ﴿ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أي ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا ﴾ أي انتظرونا، يقولون ذلك، لما أن المؤمنين يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تُزف بهم، وهؤلاء مشاة ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي نستضيء منه ﴿ قِيلَ ﴾ من جهة المؤمنين تهكماً بهم وسخرية ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ ﴾ أي إلى الدنيا ﴿ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ فالتمسوا النور، بتحصيل مباديه من الإيمان والعمل الصالح، وإنما قالوه تخييباً لهم، وتهكماً بهم ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الفريقين ﴿ بِسُورٍ ﴾ أي حائط ﴿ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ ﴾ أي باطن السور، وهو الجانب الذي يلي الجنة ﴿ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ﴾ من جهته ﴿ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي النار.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء هذا السور ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾؟ في الدنيا، يريدون موافقتهم لهم في العبادات والغزوات ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ محنتموها

بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الفارغة، من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي غركم الشيطان، بأن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي فداء ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ولا من الكفار ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولى بكم، لما أسلفتم في الدنيا، وعن ابن عباس: هي مصيركم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي النار، قرناؤهم الشياطين، وجيرانهم الكفار، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ روي أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق وفتروا عما كانوا عليه فنزلت، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى إلا أربع سنين. والمعنى: ألم يَجِىء وقت للمؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى، وتطمئن به، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه، من غير توان ولا فتور، من أَنَى الأمرُ إذا جاء وقتُه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن، ومعنى الخشوع له: الانقيادُ التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ نهي عن مماثلة أهل الكتاب، في قسوة القلوب، فيما

حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا التوراة والإنجيل، خشعوا لله، ورقَّت قلوبهم، فطال عليهم الزمان، وزالت عنهم الرقَّةُ وقست قلوبهم باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حدود دينهم.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة، والمعنى: اعلموا أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فكما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي القلوب القاسية بالحكمة ونور الإيمان ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي وضحنا وفصَّلنا هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي تصدَّقوا لوجه الله وابتغاء ثوابه، هم الذين يضاعف الله لهم الأجر والثواب، ولهم الجنة دار النعيم جزاء إحسانهم وإخلاصهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال مجاهد: كلُّ من آمن فهو صدِّيق، وقرأ هذه الآية، أي أولئك بمنزلة الصدّيقين ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي والذين استشهدوا في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم مثل أجرهم ونورهم، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لا يفارقونها أبداً.

> ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بعدما بيَّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الدنيا، التي اطمأن بها الكفار، من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي الحُرَّاث، أو الكافرين بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي النبات الحاصل ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يجفُّ بعد خضرته ونضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً وإنما لم يقل فيصفرُّ، إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسراً.

وبعدما بيَّن حقارة أمر الدنيا، تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها، أشار إلى فخامة شأن الآخرة، وعظم ما فيها من اللَّذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها، وتحذيراً من عذابها فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار، لأنه من نتائج الانهماك في شهوات الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة للمؤمنين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لا يُقادر قدره ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

﴿ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ أي لمن اطمأن بها، ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة. الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وهي غير مذمومة، لأنه تعالى عظَّم المنَّة بخلق الحياة فقال: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾؟ فدلّ هذا أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرفها إلى طاعة الشيطان فذلك المذموم.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي سارعوا مسارعة المتسابقين في الميدان ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كعرضهما، وإذا كان عرضها كذلك، فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ فيه دليل أن الجنة مخلوقة بالفعل، وأن الإيمان شرط لدخولها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد من المغفرة والجنة ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كجدب، وزلزال وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ كمرض، وآفة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ إلا مكتوبة، مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي نخلق المصيبة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أخبرناكم بذلك، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرح المختال الفخور[1] ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدَّرٌ، يفوت ما قُدِّر فواتُه، ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزَعه على ما فات، ولا فرحُه بما هو آت، والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مالٍ أو جاه.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بدل من كل مختال، فإن المختال بالمال يضنُّ به غالباً ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي يُعرض عن أوامر الله، ولم ينته عما نهى عنه، ويبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي فإن الله غنيٌّ عنه، وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه، وفيه تهديد، وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

---

(١) ليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فهذا هو الذي نبّه إليه القرآن.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الأنبياء إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والمعجزات الساطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والمراد بإنزال الميزان: إنزال أسبابه، والأمر بإعداده، وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه، تنزل من السماء بوحيه وأمره، وبتعليمه وإرشاده، وبذلك تعلَّم الإنسان إخراج الحديد وصنعته ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، لأن آلات الحروب تتخذ منه ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يُعمل بالحديد آلاتها، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً يتعلق به الجزاء ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح والدبابات، والمدافع، في مجاهدة أعدائه، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي غائباً عنهم وغائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جيء به تحقيقا للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم بالجهاد ليس لحاجته في إعلاء كلمته، بل إنما هو لينتفعوا به، ويصلوا إلى الثواب، وإلا فهو غني بقدرته وعزته، في كل ما يريده.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ تكرار القسم للاعتناء بالأمر، أي وبالله لقد أرسلناهما، خُصّا بالذكر، لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم، وأوحينا إليهم الكتاب

﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ومؤمن بالكتاب والرسل ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى بن مريم، وأنزلنا عليه الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب أتباعه الرِّقَّة والرحمة، للتراحم والتعاطف بينهم، يعني أنهم كانوا متوادين متراحمين بعضهم مع بعض، كأصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي ورهبانية مبتدعة من عندهم، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، والراهب هو الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من خشي، وسبب ابتداعهم إياها، أن الجبابرة ظهروا عليهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخافوا أن يفتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من حيث إن النذر عهدٌ مع الله لا يحلُّ نكثه، لا سيما إذا قصد به رضاء الله تعالى، وأنهم لم يراعوها بل ضيَّعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ إيماناً صحيحاً، وهو الإيمان برسول الله ﷺ، بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها، فإنها بعد البعثة لغوٌ محض، وضلال بحت، وأنى لها استتباع الأمر؟ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي ما يخص بهم من الأجر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي بالرسل المتقدمة ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ أي بمحمد رسول الله ﷺ، وفي إطلاقه إيذان بأنه عَلَمٌ فرد في الرسالة، لا يذهب الفهم إلى غيره ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ ﴾ أي نصيبين ﴿ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ لإيمانكم بالرسول ﷺ، وبمن قبله من الرسل، لكنْ لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُمۡ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مبالغ في الرحمة والمغفرة لكل من تاب وأناب.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية، التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله، يؤتكم كذا، لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي ليعلموا، و «لا» مزيدة كما ينبىء عنه قراءة ليعلم ﴿ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضله، أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة، فيخصّونها بمن أرادوا، فالنبوة فضل من الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ في ملكه وتصرفه ﴿ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ من عباده ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم، برسول الله ﷺ، يؤتكم ما وعد، من آمن من أهل الكتاب من الكفلين، والله أعلم بأسرار

كتابه[1]، وصلوات الله وسلامه على خير خلقه محمد، و على آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

* * *

(١) الآية ردٌّ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الوحي والرسالة في بني إسرائيل، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمدﷺ، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، والزعم الباطل، وبيَّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، حتى يحجبه عن خلقه، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن وحده، يجعلها فيمن يشاء من عباده ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكفى بهذا خزياً للمفترين من اليهود والنصارى!!.

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

مدنية وآيها اثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي تراجعك يا محمد الكلام في شأنه، وفيما صدر عنه في حقها من الظهار ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي تتضرع إلى الله تعالى، وهي «خولة بنت ثعلبة» امرأة أوس بن الصامت؛ راودها فأبت، فغضب فظاهر منها، وكان به إلمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة غنية، ذات أهل ومال، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وكبر سني، ونثرت بطني ـ أي كثر ولدي ـ وتفرق أهلي، ظاهر مني، ولنا أولاد صغار، إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا!! فقال لها ﷺ: «ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه»؟ فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ، فاغتمت وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع، وفي كلمة «قد» إشعار بأن الرسول ﷺ والمجادِلة كانا يتوقعان أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة، ومعنى «سمع» إجابةُ دعائها، لا مجرد علمه تعالى به

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي يعلم تراجعكما الكلام، والجملة جارية مجرى التعليل لما قبله، فإن إلحاحها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى، وعلمه تعالى بحالها من دواعي الإجابة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات، ومن قضيته أن يسمع تحاوركما، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة «خولة» إلى رسول الله ﷺ وكلَّمته في جانب البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قد سمع الله﴾[1] الآية. وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، وكان ذلك أول ظهار في الإسلام، وهذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مهمٍّ أحد سوى الخالق، كفاه الله تعالى وفرَّج كربته.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ شروع في بيان شأن الظهار، وحكمه شرعاً، والظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي أنت حرام عليَّ كما تحرم أمي، وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم منه، وفي «منكم» مزيد توبيخ لعادة أهل الجاهلية، فقد اشتهر هذا عند العرب ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ أي ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي ما هن ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ فلا تُشَبَّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن كالمرضعات، وأزواج النبي ﷺ، وأما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً ١٣/ ٣٧٢ والنسائي ٦/ ١٨٦ وصححه الحاكم في المستدرك.

على أن مناط التأكيد، ليس صدور القول عنهم، فإنه أمر محقّق، بل كونه منكراً، أي عند الشرع، والعقل، والطبع، كما يشعر به تنكيره ﴿ وَزُورًا ﴾ كذباً وباطلاً مجانباً للحق ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة، فيغفر لماسلف بالمتاب عنه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ أي إلى ما قالوا، بالتدارك والتلافي، لا بالتقرير والتكرار، فإن اللام و «إلى» تتعاقبان كقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ وقوله: ﴿وأوحي إلى نوح﴾ ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فتداركُه، أو فعليه إعتاق رقبة، أيَّ رقبةٍ كانت، وعند الشافعي يشترط فيها الإيمان والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير، بتكرر الظهار ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ أي من قبل أن يستمتع كل من المظَاهِرِ والمظَاهَرِ منها بالآخر جماعاً، ولمساً، ونظراً إلى الفرج بشهوة، وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير، يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفّر، وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور ﴿ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أي تُزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور، فإن الغرامات زواجر عن تعاطي الجنايات، والمراد بذكره ليس تعريضكم للثواب، بمباشرتكم لتحرير الرقبة، بل هو لزجركم عن مباشرة مايوجبه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجبه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهرها وبواطنها.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ أي الرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ أي فعليه صيام شهرين ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ ليلاً أو نهاراً، أي من قبل الوطء والاستمتاع بها ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أي الصيام لسبب من الأسباب ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير، ويجب تقديمه على الوطء، لكن لا يستأنف إن مس في خلال الإطعام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من البيان والتعليم للأحكام، والتنبيه عليها، أي فعلنا ذلك ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملوا بشرائعه، وترفضوا ماكنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ لا يجوز تعدِّيها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي الذين لا يعملون بها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عبر عنه بالكفر للتغليظ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾[1].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يعادونهما ويشاقونهما بمخالفة أوامرهما، وورود المحادَّة في أثناء ذكر ﴿حُدودِ الله﴾ من حسن الموقع، ما لا غاية وراءه ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي أُخذوا وقُهروا وخذلوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كما خُذل وأخزي من قبلهم، من كفار الأمم المعادين للرسل عليهم السلام ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادَّ الله ورسوله، دالة على صدق الرسل، وصحة ما جاؤوا به ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يحشرهم كلهم للحساب والجزاء ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح على رؤوس الأشهاد، تخجيلاً لهم، وتشديداً لعذابهم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي ضبطه الله عدّاً لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ أي وقد نسوه لكثرته وتهاونهم به، وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور قط.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أي ألم تعلم علماً يقيناً متاخماً للمشاهدة أنه تعالى يعلم ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الموجودات ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من نجوى ثلاثة، أي من مسارّتهم ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ من حيث إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ مطلعٌ على نجواهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي ولا نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيص العددين بالذكر لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين، وقد عمَّ الحكم بعد ذلك فقيل ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي مما ذكر كالاثنين ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كالستة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ والمراد من كونه تعالى معهم، كونه تعالى عالماً بكلامهم، وضميرهم وسرهم، يعلم ما جرى بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ من الأماكن، فإن علمه تعالى بالأشياء، ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، قرباً وبُعداً ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبة ذاته تعالى إلى الكل سواء، فأين المفرُّ إذا كان الله مع كل إنسان بعلمه، في السرِّ والجهر؟.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فعلهم القبيح، والخطاب للرسول ﷺ، والهمزة للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿يعودون﴾ للدلالة على تكرار عودهم ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أي بما فيه إثم في نفسه ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ للمؤمنين ﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ﷺ وذكره بعنوان الرسالة لزيادة التشنيع عليهم، واستعظام معصيتهم له ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فيقولون: السام عليك، وهو دعاء عليه بالموت ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي هلا يعذبنا الله بذلك، لو كان محمد نبياً؟ قال تعالى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي بئست نار جهنم مسكناً ومأوى لهؤلاء الفجار.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ ﴾ في أنديتكم وخلواتكم ﴿ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ ﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي بما يتضمن خير المؤمنين، وبأداء الفرائض والطاعات ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وحده لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ فإنه المزين لها، والحامل عليها ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي ليحزن المؤمنين، ويسوءهم، ويوهمهم أنها في نكبة أصابتهم ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ ﴾ أي وليس التناجي بضار المؤمنين ﴿ شَيْـًٔا ﴾ أي أيَّ شيء من الضرر ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بمشيئته ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يبالون بنجواهم، فإنه تعالى يعصمهم من شره وضرره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ ﴾ أي توسعوا في المجالس ولْيفسح بعضكم لبعض ﴿ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ والمراد مجلس الرسول ﷺ، كانوا يتضامون تنافساً في القرب منه ﷺ، وحرصاً على استماع كلامه فأُمروا بأن يوسِّعوا لإخوانهم، لأن الرجل الرفيع القدر قد يكون متأخراً عن الصف الأول، والحاجة داعية إلى تقدمه، ثم يُقاس على ذلك سائر المجالس ﴿ فَٱفْسَحُوا۟ ﴾ أي توسَّعوا ولا تتضايقوا ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ في كل ما تريدون التفسح فيه، من المكان، والرزق، والصَّدر، والقبر ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ ﴾ أي انهضوا للتوسعة، أو ارتفعوا عن المجلس ﴿ فَٱنشُزُوا۟ ﴾ أي فانهضوا أو لا تتثبطوا ولا تفرطوا ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ منهم خصوصاً درجات عالية، بما جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل، وفي الحديث الشريف: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1] ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من الخير والشر، وفيه تهديد لمن خالف أمر الرسول.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨٢ باب فضل الفقه على العبادة، وهو حديث =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي إذا أردتم مناجاته في بعض شؤونكم المهمة، ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ أي فتصدقوا قبلها، وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾ الآية، وهو وإن كان متصلاً به تلاوة، لكنه متراخ عنه نزولاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التصدق ﴿ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾ أي لأنفسكم من الريبة، وحب المال، وهذا يشعر بالندب، لكنَّ قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ ينبيء عن الوجوب، لأنه ترخيص لمن لم يجد، وقد كان ذلك عشر ليالٍ ثم نُسخ.

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ﴾ أي أخفتم من تقديم الصدقات ﴿ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ ﴾ جمع الصدقات لجمع المخاطبين ﴿ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ ﴾ ما أُمرتم به، وشقَّ عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف؟ قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن القوم كُلِّفوا به، فمن ترك المناجاة لا يكون مقصراً، أما قوله تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾ فلا يمتنع أنه تعالى علم ضيق صدر كثير منهم لو دام الوجوب ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي فإذا فرَّطتم فيما أُمرتم به من تقديم الصدقات، فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة

= مشهور وطويل، أوّله «من سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله له طريقاً إلى الجنة . . .» الحديث.

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها، كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً، وهذا وعد ووعيد.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب من حال المنافقين، الذين يتخذون اليهود أولياء وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، أي ألم تنظر ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي والوا ﴿ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ هم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ أي يقولون: والله إنا لمسلمون، وقد كانوا يشتمون الرسول، ويكيدون للمسلمين، فإذا قيل لهم إنكم فعلتم ذلك، خافوا على أنفسهم، فيحلفون: والله إنا ما قلنا وما فعلنا ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال من فاعل يحلفون، مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يُعلم أنه كذب، في غاية القبح، كمن يحلف اليمين الغموس.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيما مضى من الزمان، فتمرنوا على سوء العمل، وأصرُّوا عليه.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة ﴿ جُنَّةً ﴾ أي وقايةً وسترة، دون دمائهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا۟ ﴾ أي الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بالتثبيط لمن لقوا لمنعهم من الدخول في الإسلام، وتضعيف أمر المسلمين عندهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيد ثانٍ بوصف آخر لعذابهم، وهو الإذلال

والإهانة، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[1].

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه تعالى ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون لا يخرجون منها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي يحلفون لله تعالى يومئذ أنهم مسلمون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما كانوا عليه في الدنيا، حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم، ويستجرون فوائد دنيوية ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون الغاية في الكذب.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي استولى عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم، ولا بألسنتهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي جنوده وأتباعه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

---

(١) سورة النحل، آية: ٨٨.

حيث فوَّتوا على أنفسهم النعيم المقيم، وأخذوا العذاب الأليم، وعلامة استحواذ الشيطان على الإنسان أن يشغله بأشياء ظاهرة، من الملابس والمآكل، ويشغل قلبه عن ذكر الله، بتدبير الدنيا وجمعها، ولسانه عن الذكر والقراءة، بالكذب وقبيح الأقوال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي يخالفون أمر الله وأمر رسوله، ويعادون دين الله بالإعراض عنه، والاستهزاء به وبأحكامه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ بما فعلوا من التولي، والموادة لأعداء الله ﴿ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ أي في جملة من هو أذل خلق الله.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي قضى وحكم وأثبت في اللوح المحفوظ ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ أي بالحجة، أو بالسيف، وما يجري مجراه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ قويٌّ على نصر أنبيائه وأوليائه، عزيز: أي قاهر لا يُغلب في مراده.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، أي لا تصادف قوماً جامعين بين الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي من حادَّ الله ورسوله ﴿آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي آباء الموادين، فإن قضية الإيمان أن يُهجر الجميع بالمرة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي أثبته، ورسَّخه فيها، فهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب، وتأييد الرحمن. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله عنهم جارٍ مجرى التعليل، لما أفاض عليهم من آثار رحمته ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ تشريف لهم ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في «أبي عبيدة بن الجراح» قتل أباه يوم أحد و «عمر بن الخطاب» قتل خاله يوم بدر، و «مصعب بن عمير» قتل أخاه يوم بدر»[1] قال سهل: من صحَّح إيمانه، وأخلص توحيده، لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه، ويظهر من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعاً لطلب عزِّ الدنيا، أذلَّه الله، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة»

* * *

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٥٢.

سُورَةُ الحَشْرِ

مدنية آيها أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي نزّه الله كل ما في الكون من بشر، ونبات، وجماد، وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى، والضمير راجعٌ إليه تعالى، وفيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة، روي أنه ﷺ لمَّا قدم المدينة صالح بني النضير، وهم رهط من اليهود، وعاهدهم أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما كان يوم أحد نكثوا فخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا قريشاً عند

الكعبة، على قتاله ﷺ، فأمر ﷺ «محمد بن مسلمة» الأنصاري فقتل كعباً غِيلة، ثم صبَّحهم بالكتائب فقال لهم اخرجوا من المدينة، فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فدسَّ عبد الله بن أُبيّ وأصحابه إليهم: ألاَّ تخرجوا من الحصون، فإن قاتلوكم فنحن معكم، فحاصرهم النبي ﷺ إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام، فأنزل الله هذه السورة إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، وهم أول من أُخرج من جزيرة العرب إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم بهذه الذلة، لشدة بأسهم، وقوة منعتهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، لاعتقادهم أنهم في مَنَعة، لا يُبالي معها بأحد ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي أمرُ الله وقَدَرُه المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم، فإنه مما أضعف قوتهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي أثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها فزعاً ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدوا بها أفواه الأزقة، ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم، وتوسيعاً لمجال القتال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة، واتقوا مباشرة ما أدَّاهم إليه من الكفر والطغيان، وفي الآية دليل على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣﴾.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي الخروج عن أوطانهم مع الأهل ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ وهو لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بالجلاء، لا نجاة لهم من عذاب الآخرة بنار الجحيم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما حاق بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ أي خالفوه وفعلوا ما فعلوا مما حكى عنهم والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها مشاقته ﷺ وليوافق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ اللِّينةُ: النخلةُ الكريمة، أيْ أيَّ شيء قطعتم من نخلة كريمة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشيء ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله تعالى وإرادته ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وليذل اليهود ويغيظهم، واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة، وقطع أشجارهم، روي أن اليهود قالوا: يا محمد قد كنتَ تنهى عن الفساد، فما بال قطع النخل، وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي ما أعاده إليه من مالهم، وفيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له ﷺ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق، فأعاده الله تعالى إلى مستحقه، لأنه تعالى خلق الناس، وخلق ما خلق ليتوسلوا به

إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي لم تسرعوا الخيل ولم تتعبوا في تحصيله، من الوجيف وهو سرعة السير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هي ما يركب من الإبل خاصة، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير، وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارساً، ولا واحد لها من لفظها، وإنما الواحدة منها راحلة، والمعنى: ما قطعتم لها شقة بعيدة، ولا لقيتم مشقة شديدة، ولا قتالاً شديداً، وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من المدينة، فمشوا إليها وما كان فيهم راكب إلا النبي ﷺ، فافتتحها صلحاً، من غير أن يجري بينهم مسايفة، كأنه يقول: وما أفاء الله على رسوله منهم، فما حصلتموه بكدِّ اليمين، وعرق الجبين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي سننه تعالى جارية على أن يسلّط رسله على من يشاء من أعدائهم، تسليطاً خاصاً، وقد سلَّط النبيَّ ﷺ على هؤلاء تسليطاً غير معتاد، من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب، فلا حقَّ لكم في أموالهم، فالأمر فيه مفوَّض إليه ﷺ يضعه حيث يشاء، قيل: إن الصحابة طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم الفيء كما قسم الغنيمة، فذكر الله تعالى الفرق بين الأمرين، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلاَّ ثلاثة منهم لفقرهم، وعن بعض المفسرين أن هذه الآية ما نزلت في فيء بني النضير، لأنهم أوجفوا عليهم وحاصروهم، بل هو في «فَدَك» لأن أهل فَدَك انجلوا عنها، فصارت تلك القرى والأموال في يد رسول الله ﷺ من غير حرب، فكان ﷺ يأخذ من غلة فدك نفقته، ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي في السلاح والخيل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أعاد عين العبارة الأولى، لزيادة

التقرير والبيان، أي ما جعله الله غنيمة للمسلمين بغير قتال، وهو ما يسمى بالفيء ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ اختلف في قسمة الفيء، فقيل يصرف حقُّ الله إلى عمارة الكعبة المشرفة، وسائر المساجد، وقيل: يُخمَّس لأن ذكر الله للتعظيم، ويصرف سهم الرسول إلى العساكر والثغور وإلى مصالح المسلمين ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ ﴾ بضم الدال، وهي ما يدول للإنسان أي يدور من المال والغنى والغلبة، أي كيلا يكون محبوساً ﴿ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴾ أي كيلا يكون الفيءُ شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم، فلا يصيب الفقراء منه شيءٌ، كما كان الأمر في الجاهلية، حيث كانوا يقولون: من عزَّ بزَّ، أي من غلب سلب المال والدُّولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي وما أعطاكم الرسول من الأمر ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي فتمسكوا به فإنه واجب عليكم ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أي نهاكم عن فعله ﴿ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ أي فكفُّوا عنه، وعن تعاطيه واجتنبوه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ ﴾ في مخالفته ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فيعاقب من يخالف أمره أو نهيه، والآية عامة في كل ما أمر رسول الله ﷺ ونهى عنه، والفيء داخل فيها.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ أي إنما كان الفيء خاصاً بهؤلاء الفقراء المهاجرين لحاجتهم واضطرارهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من الوطن، فخرجوا منه ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا، ومرضاةً في الآخرة، وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء، من الإخراج من الديار والأموال، وثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده، وهو أن خروجهم لم يكن للدنيا، وإنما كان نصرة للدين وطلباً لمرضاة الله ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما فُصِّل من الصفات الحميدة ﴿ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أي الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً.

إنه تعالى وصفهم بأمور: ١ ـ أنهم فقراء ٢ ـ مهاجرون ٣ ـ أخرجو من ديارهم ٤ ـ يبتغون من فضله تعالى ٥ ـ ينصرون الله ٦ ـ أولئك هم الصادقون.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ كلام مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا، ومعنى تبوئهم الدار أنهم اتخذوا المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ مباءة، وتمكنوا فيها أشد تمكن، على تنزيل الحال منزلة المكان، وقيل المعنى: تبوؤوا دار الهجرة، ودار الإيمان، سمى المدينة بالإيمان لكونها منشأه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هجرة المهاجرين، فإنهم أسلموا في ديارهم، وآثروا الإيمان، وابتنوا المساجد، قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاركوهم أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى يتزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي شيئاً محتاجاً إليه، بمعنى الضيق والنقمة على إخوانهم المهاجرين ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي مما أولي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي يقدِّمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي ولو كان بهم فقر وحاجة، وكان النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلاَّ ثلاثة نفر لفقرهم، قال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقالت الأنصار: بل نقسم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا

نشارككم فيها، فنزلت الآية تثني عليهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ ومن يوق بتوفيق الله تعالى بخل نفسه حتى يخالفها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناها العام ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب والناجون عن كل مكروه، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُحَّ فإن الشُحَّ أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ مسوق لمدحهم لمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوَّةِ في الدين؛ أي يدعون لهم ويقولون ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي لإخواننا في الدين، الذي هو أعزُّ وأشرف عندهم من النسب، وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي حقداً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تجيب دعاءنا، بيَّن الله تعالى أنَّ من جاء بعد المهاجرين والأنصار، يذكرون السابقين بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين، بحسب نص هذه الآية، عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «يا ابنَ أختي!! أُمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٨ باب تحريم الظلم.

الله ﷺ، فسبُّوهم، فأولئك شرار الخلق عند الله»[1] وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة، وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ﴿يَقُولُونَ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والمراد بإخوَّتهم توافقهم في الكفر، وموالاتهم لهم في الضلال ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم قسراً ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم، أي والله لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم أينما ذهبتم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي لنعاونكم على عدوكم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة، وفيه إخبار بالغيب.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٢ وفي رواية للترمذي «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي، فقولوا: لعنةُ الله على شركم».

(٢) الحديث أخرجه البخاري ٧/٢٨ ومسلم رقم ٢٥٤١ في فضائل الصحابة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم على الإجمال ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن سلول وأصحابه أرسلوا إلى «بني النضير» ذلك سراً، ثم أخلفوهم، وفيه حجة بينة لصحة النبوة، وإعجاز القرآن ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي المنافقون بعد ذلك، أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، ثم قال تعالى للمؤمنين:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي أشد خشية وخوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رهبتهم في السر أشد ممّا يظهرونه لكم من رهبة الله، فإنهم كانوا يدّعون عندكم رهبة عظيمة من الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى وجلاله، فيخشوه حق خشيته.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي اليهود والمنافقون، لا يقدرون على قتالكم مجتمعين، في موطن من المواطن ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق لفرط جبنهم وهلعهم ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من وراء الأسوار والحيطان، دون أن يظهروا أمامكم ويبارزوكم، لفرط رهبتهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي ما ذكر من رهبتهم منكم، ليس لضعفهم وجبنهم في

أنفسهم، فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما جبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين ومتفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة، لا ألفة بينهم، لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من تشتت قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً حتى يعرفوا الحق، ويتبعوه، وتطمئن به قلوبهم، وتتحد كلمتهم، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل اليهود كمثل كفار مكة الذين خرجوا لقتال رسول الله ﷺ في بدر ﴿قَرِيبًا﴾ أي في زمان قريب ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فحال اليهود هكذا، وأما حال المنافقين، فهو ما نطق به قوله تعالى.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين الذين غرُّوا الكفَّارَ كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ إغراء على الكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ فهذا التبري يكون يوم القيامة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه، إن كفرتُ به، وهو كاذب في هذا القول، لأنه لو خاف الله لما عصاه.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ

﴿فِيهَاۚ﴾ أي دائمين في النار المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الخلود في النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عقوبة كل ظالم فاجر، منتهك لمحارم الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أيْ أيَّ شيء قدمت من الأعمال، ليوم القيامة، عبر عنه بالغد لدنوّه وقرب مجيئه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرةُ غدُه، وتنكيره للتفخيم والتهويل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكرار للتأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من المعاصي، وفيه تحريض على المراقبة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي نسوا حقوقه وما قدروه حق قدره، ولم يراعوا أمره ونواهيه ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي جعلهم ناسين لها، فعاشوا كالبهائم والأنعام، حتى لم يسمعوا ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلّصها من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسوق والعصيان.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في نار السعير ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ أي لا يتساوى هؤلاء وهؤلاء ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ

﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي هم السعداء، الفائزون بكل مطلوب، فالجملة مبيِّنة لكيفية عدم الاستواء.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أيَّ جبلٍ من الجبال، مع كونه عَلَماً في القسوة، وعدم التأثر مما يصادمه، أي لرأيته متشققاً من خشية الله تعالى، وهذا تمثيلٌ وتخييل، لعلو شأن القرآن الكريم، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تخشعه عند تلاوته، وقلة تدبره فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما غاب عن الحسِّ وما حضر له، وتقديم الغيب لتقدمه في الوجود ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، كرره لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغ في النزاهة، النزاهة في الذات، والصفات والأفعال، والأحكام، والأسماء ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة

من كل نقص ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي واهب الأمن ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيب الحافظ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الزوجة والولد، والشريك والنظير.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئا من التفاوت ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ينزّهه تبارك وتعالى جميع ما في الكون، ناطقُه وجامدُه، بلسان الحال أو المقال، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وَكَلَ اللهُ به سبعين ألف ملك، يصلُّون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان كذلك»[١] والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٩٢٣ وقال: هذا حديث غريب، ورواه الدارمي ٢/٤٥٨ وانظر جامع الأصول ٨/ ٤٨٢.

سُورَةُ المُمتَحنَة

مدنية وآيها ثلاث عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه دليل على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان عن صاحبها ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة» وذلك أنه لمَّا جهز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح، كتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، وأرسله مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام بالخبر على رسول الله ﷺ، روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: بعثني ﷺ أنا والزبير، والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة[1] معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تتعادىٰ بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة فإذا نحن

(١) ظعينة أي امرأة مسافرة.

بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب!! فقلنا: لتُخرجِنَّ الكتاب أو لتلقينَّ الثياب، فأخرجته من عِقاصها ـ ضفائر شعرها ـ فأتينا به النبيَّ ﷺ، فإذا فيه «من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين، لهم قرابات، يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام!! فقال ﷺ: إنه قد صَدَقكم، فقال عمر: دعْني يا رسول الله أضربْ عنقَ هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟! ففاضت عينُ عمر رضي الله عنه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾[1] الآية ﴿تُلۡقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ والتقديرُ: لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أي تطلعونهم وتلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي وقد كفروا بدينكم وقرآنكم ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ تعليل للنهي عن الموالاة، أي يخرجون رسول الله من وطنه، ويخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ كلام وارد على نهج العتاب والتوبيخ، أي تفشون إليهم الأخبار بسبب المودة ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ أي والحال أني أعلم منكم بما أخفيتم، ولم يقل «بما أسررتم» لأن الإخفاء أبلغ من الإسرار، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أيْ أخفى من السرّ ﴿وَمَا أَعلَنتُم﴾ أي وما أظهرتموه، فأنا عالم بسريرتكم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/ ٢٠٠، والترمذي رقم ٣٣٠٥.

وعلانيتكم، ومطلعٌ رسولي على ما تسرون، فأيُّ طائلٍ لكم في الإسرار؟!
﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي إلقاء المودة إليهم، فقد أخطأ طريق الصواب.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي يظهرون لكم ما في نفوسهم من خالص العداوة، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقتل، والشتم، والأسر ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، فإن موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم، وصيغة الماضي لتحقق ودادتهم الكفر قبل ذلك.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجلب نفع، أو دفع ضر ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ من أَخِيهِ﴾ الآية، فما لكم ترفضون حق الله، مراعاةً لحق من يفر منكم غداً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة في التبرؤ من الأهل أي خصلة حميدة، حقيقة بأن يُؤتَسىٰ ويُقتدى بها ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي من أصحابه المؤمنين به ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ المشركين ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم وبمعبودكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بالأفعال ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا﴾ هذا دأبنا لا نتركه ما دمتم على الكفر ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلب العداوة حينئذ ولاية، والبغضاء محبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإن استغفاره لأبيه الكافر، وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً، لوقوعه قبل أن يتبيَّن له أنه من أصحاب الجحيم، كما نطق به النص: ﴿فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه﴾ فهذا ممَّا لا ينبغي أن يُؤتى به أصلاً ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من تمام المستثنى أي أستغفر لك، وليس في طاقتي إلا الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام، أي وقولوا في دعائكم كما قال إبراهيم: ربنا عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي أقبلنا ورجعنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع في جميع أمورنا.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يذل من التجأ إليه، ولا يخيب رجاء من توكَّل عليه، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قدوة حسنة في معاداة الكفار، في إبراهيم ومن معه من المؤمنين، كرره للمبالغة في الحث على التأسي به عليه السلام، ولذلك صدر بالقسم ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان صادق الإيمان، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، وفائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يترك الاقتداء بهم، وأنَّ تركه من مخايل عدم الإيمان بهما، كما ينبيء قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة، ولمَّا نزلت هذه الآية، وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم تعالى في تحول الحال إلى خلافه، فقال سبحانه:

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي من أهل مكة من أقربائكم ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يوفقهم الله للإيمان، فلما يسَّر الله فتح مكة، أسلم قومهم، وتم بينهم التحابُّ، تحقيقاً لوعد الله الكريم، و «عسى» وعدٌ من الله تعالى على عادات الملوك ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تحويل الحال، وتقليب القلوب، وتسهيل أسباب المودة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر لكم ما فرط منكم، في موالاتهم من قبل.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي

تكرموهم، وتحسنوا إليهم، قولاً وفعلاً ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ ولا تظلموهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين، وإذا نهى الله تعالى عن الظلم في المشرك، فكيف في المسلم؟.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي إنما يحذركم الله من موالاة من حاربكم، وقاتلكم، وآذاكم بسبب الدين، وأخرجكم من وطنكم ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ﴾ أي وأعانوا أعداءكم الكفار عليكم أن تتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من بين أظهر الكفار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ﴾ فاختبروهنَّ، بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في الإيمان، سمَّاهن مؤمنات لنطقهنَّ بكلمة الشهادة، يروى أن رسول الله ﷺ كان يقول للتي يمتحنها: «قولي بالله الذي لا إله إلا هو، ما خرجتُ من بغض زوج، وما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجتُ إلا حبّاً لله ورسوله» نزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردَّ على أهل مكة من جاء مؤمناً منهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، بياناً أن

ذلك في الرجال لا في النساء، لأن المسلمة لا تحل للكافر ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ منكم لأنه المطلع على ما في قلوبهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ علماً يمكنكم تحصيله، وتبلغه طاقتكم، بعد الاستدلال بالعلائم والدلائل، وهو الظن الغالب، وتسميته علماً للإيذان بأنه جار مجرى العلم، في وجوب العمل به، وما يفضي إليه الاجتهاد كذلك جارٍ مجرى العلم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إلى أزواجهن الكفرة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي لا حلَّ بين المؤمنة والمشرك، لوقوع المفرقة بينهما، بخروجها مسلمة ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ التكرير لتأكيد الحرمة، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن الصلح جرى على أنَّ من جاءنا منكم رددناه، فلما تعذَّر ردُّهن عليهم لورود النهي عنه، لزم ردُّ مهورهن، روي أنه ﷺ بعد صلح الحديبية جاءته «سُبيعة بنت الحارث» مسلمة، فأقبل زوجها المخزومي طالباً لها، فنزلت الآية، فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوجها عمر رضي الله عنه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفرة ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنَّ، لأن المهر أجر البضع، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع عصمة، أي لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة، ولا علاقة زوجية، والكوافر جمع كافرة، وهي التي بقيت في دار الحرب، أو لحقت بها، نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، قال الزهري: لمَّا نزلت هذه الآية، طلَّق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذُكر ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي شرعه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون، أي وإن انفلت ﴿ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ أي أحد من أزواجكم إلى الكفار فلحقن بهم مرتدّات، وإيقاع ﴿شيء﴾ موقعه للتحقير، ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي فجاءت عُقْبتكم أي نوبتكم، من أداء المهر، والعُقْبةُ بالضم: النَّوبةُ، جمعه عُقَب، مثل غُرفة وغُرَف، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء هؤلاء أخرى، بأمرٍ يتعاقبون فيه، كما يتعاقب الناس في الركوب ﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها، ولا تؤتوا زوجها الكافر، وقيل معناه: إن فاتكم شيءٌ فأصبتم من الكفار عقبى هي الغنيمة، فأتوا بدل الفائت من الغنيمة، روي أنه لما نزلت الآية السالفة أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدُّوا شيئاً من مهور الكوافر، إلى أزواجهن المسلمين، فنزلت هذه الآية ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يقتضي التقوى منه والخوف والحذر، قال ابن عباس: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ستُّ نسوةٍ، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهن من الغنيمة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي قاصدات للمبايعة، نزلت يوم الفتح، فإنه ﷺ لمَّا فرغ من بيعة الرجال، شرع في بيعة النساء، وهو على

الصفا فجاءته النساء فقال ﷺ: أبايعهن ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي لا يفعلن جريمة السرقة والزنى ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أريد به وأدُ البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنَّىٰ عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأنَّ بطنها الذي تحمله بين يديها، ومخرجه بين رجليها ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي فيما تأمرهن بمعروف، والتقييدُ بالمعروف، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، وقال ابن المسيب: ممَّا تأمرهنَّ به، وتنهاهن عنه، كالنوح، وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، ولا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا رحم محرم، ولا تخلو برجل غير محرم، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر، لكثرة وقوعها فيما بين النساء ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي على ما ذُكر وعلى سائر أركان الدين ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة، فإنها عبارة عن طلب الثواب، بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن، إذا وفين بما بايعن عليه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم عامة الكفرة،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٣٦ وفيه قول عائشة رضي الله عنها:
«ما يبايعهنَّ إلاّ بقوله: قد بايعتُكِ على ذلك، ولا واللهِ ما مست يدُه يد امرأة قطُّ في المبايعة».

وقيل: اليهود، لما روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين، كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها، لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي كما يئس منها الذين ماتوا منهم، لأنهم وقفوا على حقيقة الحال، وشاهدوا حرمانهم من نعيمها وقيل: المعنى كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا أو يرجعوا إلى الدنيا أحياء. والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية وآيها أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مجّد اللهَ ونَزَّهَهُ كل ما في الكون من مَلَك، وإنسان، ونبات، وجماد، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ روي أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه، فلمّا نزلت آية الجهاد، تباطأ بعضهم، فنزلت هذه الآية[1] ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أيْ لأيِّ شيء تقولون نفعل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف؟ والتوبيخ في الحقيقة

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٠٩ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ، ورواه أحمد في المسند، وانظر تفصيل الروايات في تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨١.

على عدم فعلهم، وإنما وجهها إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد به أيضاً، ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون، لفُهم منه أن المنكر هو ترك الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ اختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، أي عَظُم فعلكم هذا بغضاً عنده سبحانه، أن تتحدثوا بما لا تعملون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي يصفُّون أنفسهم للقتال صفاً، وهذا صريح في أن ما قالوه، عبارة عن الوعد بالقتال، لا عما يقوله الممتدح أو غيره ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي لاصقٌ بعضهم ببعض كقطعة واحدة[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مقرِّرٌ لما قبله، من شناعة ترك القتال، أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال، وقت قول موسى لبني

(١) شبَّههم تعالى في ثباتهم وصمودهم أمام الأعداء، بالبناء المحكم الرصين، الذي رُصِفت حجارته، فرُصَّ بعضها إلى بعض، حتى صار متماسكاً، كالسدِّ المنيع، الذي لا يتفكَّك ولا يتزعزع، ولا تؤثر فيه الأعاصير، وهو تشبيه رائع بديع ولهذا قال: ﴿كأنهم بُنيانٌ مرصوص﴾!!.

إسرائيل، حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لَكُم﴾ فلم يمتثلوا أمره، وعصوه حيث قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فآذوه كلَّ الأذية ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به؟! هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم، ويرتضيه الذوق السليم، وأما ما قيل إنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من طلبهم رؤية الله، وغير ذلك، فممَّا لا تعلُّق له بالمقام ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم به من المعجزات الواضحة، أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمداً بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات، أني رسول الله إليكم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا﴾ أي أصرُّوا على الزيغ عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرفها عن قبول الحقِّ، لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال، وفيه تنبيه على عظم إيذاء الرسول فإنه يؤدي إلى الكفر، وزيغ القلوب عن الهدى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، ومنهاج الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي أرسلت إليكم حال كوني مصدّقاً لرسالة موسى، ولما جاء في التوراة ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي ومبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول اسمه أحمد، ويسمى أيضاً محمد[1]، وجاء في الإنجيل تسميته **بالفَارَقْليط**

---

(١) ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه الشيخان، ومعنى العاقب الذي لا نبي بعده.

ومعناه الرسول الهادي، ففي إنجيل «يوحنَّا»: «هكذا وأنا أطلب لكم إلى أبي، حتى يمنحكم ويعطيكم «الفارقَليط» وهو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية، وفي مكان آخر: «أمَّا الفارْقَلِيط روح القدس، يرسله أبي باسمي، ويعلّمكم، ويمنحكم جميع الأشياء» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مشيرين إليه ﷺ وتسميتهم سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة ﴿هذا ساحر﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؟ أي أيُّ الناس أشدُّ ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله، بقوله: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾؟ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لظلمهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي يريدون أن يطفئوا دينه، ويبطلوا شريعة الإسلام ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطعنهم فيه، شبهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك، فالإسلام منتصر رغم أنوف الكافرين.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جميع الأديان

له، ولعمري لقد فعل ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك، فقد حقَّق الله وعده، فانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلا فوق جميع الأديان، ولله الحمد والمنَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ عرضٌ في معنى الأمر، كأنه يقول: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله بالأموال والأنفس ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان، وبين الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نزلت هذه الآية، حين قالوا: لو نعلم أيُّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه؟.

ثم بيَّن تعالى تلك التجارة. فقال:

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ والمراد به الأمر، جيء بلفظ الخبر، إيذاناً بأن ذلك لا يُترك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم لما تأخرتم عن البذل والجهاد.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر، المدلول عليه بلفظ الخبر ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي قصوراً عالية مريحة في

جنات إقامة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من المغفرة، وإدخال الجنة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه».

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي تجارة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وفي تحبونها تعريضٌ بأنهم يؤثرون العاجلَ على الآجل ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو ربح التجارة ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ هو فتح مكة، وفتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا رسول الله بشِّرهم، بما وعدتهم على ذلك عاجلاً وآجلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دينه، أمر بإدامة النصرة، والثبات عليه، أي ودوموا على ما أنتم عليه من النصرة ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي من جندي متوجهاً إلى نصرة دين الله والتشبيه باعتبار المعنى، أي انصروا دين الله، كما نصر الحواريون دين الله ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي نحن أنصار دينه ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به عليه السلام ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة القاطعة، أو بالحرب، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين، والله ولي المؤمنين، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»

* * *

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مدنية آيُها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي هو جلَّ وعلا برحمته وحكمته، بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أمياً مثلهم، لا يقرأ ولا يكتب، وسموا أميّين لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسول إلى كافة الخلق، تشريف العرب بأن خاتم النبيّين ﷺ بُعث منهم، وليس من بني إسرائيل ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المبين، من حفظه لا من الكتاب

المنزل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهّرهم من الشرك، وخبائث الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة، الركنان الأصليان للشريعة الإسلامية الغراء، ولو لم يكن سوى القرآن العظيم معجزة معه لكفاه ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وقد كانوا قبل بعثة النبي في ضلال واضح، وكفر وجهالة، وهو بيان لشدة الحاجة إلى نبيّ يرشدهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي وبعث خاتم النبيّين إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم، وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة، والمعنى: لم يلحقوا بهم وسيلحقون بهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو سبحانه القوي الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، حيث اختاره من بين كافة البشر.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الشرف والفضل، الذي خصّ الله به العرب، من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضل الله يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو جلّ وعلا ذو الفضل الواسع، على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثم شرع تعالى في ذمّ اليهود، الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبّقوها، وشبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلِّفوا بالعملِ بها، ثم لم يطبّقوها ولم يعملوا بما فيها ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أي مثلهم كمثل الحمار، الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ولا يناله منها إلاّ التعب والعناء، شبّههم تعالى والتوراة في أيديهم، وهم لا يعملون بها، بالحمار يحمل الكتب، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بئس هذا المثل، الذي ضُرب لليهود، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوته ﷺ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي لا يوفّق للخير، ولا يرشد للإيمان، من كان فاسقاً ظالماً، عاصياً لأمر الله، يضع التكذيب في موضع التصديق.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، الزاعمين أنهم أولياء الله وأحبابه، إن كنتم حقاً أحبابه كما تدَّعون ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم، لِتُنْقَلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، والآية ردٌّ على قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وتكذيب لهم في هذه الدعوى ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في محبتكم وولايتكم لله، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحبَّ لقاء الله، لينال الفوز والسعادة، بجوار مَلِك الملوك، ربِّ العزَّة والجلال.

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي، وتكذيب الرسول عليه السلام، وهذه من معجزات القرآن، حيث أخبر عنهم خبراً جازماً قاطعاً

بعدم تمني الموت، وقد وقع ما أخبر عنه، وفي الحديث الشريف: «لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات». ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عالم بهم، وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد، إن هذا الموت الذي تهربون منه، ولا تجسرون أن تتمنوه، فإنه آتيكم لا محالة، ولا ينفعكم الفرار منه، لأنه قدر محتوم، ولا يغني حذر عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى رب العزة والجلال، الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم القبيحة.

ثم شرع تعالى في بيان أحكام فريضة الجمعة فقال تقدست أسماؤه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي إذا سمعتم الأذان ينادىٰ به لصلاة الجمعة ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي فامضوا وامشوا إلى الخطبة والصلاة، واتركوا البيع والشراء، وسائر الأعمال الدنيوية، لتنالوا رضوان الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك السعي للصلاة، وترك البيع والشراء، والتجارة والعطاء، خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة خير وأبقى، قال الحسن البصري: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والعزائم، والخشوع.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمر إباحة لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي اطلبوا الرزق أو زيارة أخ في الله، وعن بعض السلف أنه كان يقول: «اللهم أجبتُ دعوتك، وصلَّيتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني وأنت خير الرازقين» ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي اشكروه على ما وفقكم لأداء فريضته، واذكروه في مجامع أحوالكم، ذكراً كثيراً وزماناً كثيراً ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين، وتسعدوا بنيل رضوان الله.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي تفرَّقوا عنك إليها وتقديره: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «بينما نحن نصلي مع الرسول ﷺ، إذْ أقبلت عير ـ أي جمال ـ تحمل طعاماً، فانفلتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية»[1].

وقال الحسن: أصاب أهلَ المدينة جوعٌ وغلاءُ سِعْرٍ، فقدم دحيةُ الكلبي قبل أن يُسلم، وكان معه أنواع التجارة من الشام، والنبي ﷺ يخطب، فلمّا رأوه قاموا إليه، وكانوا إذا أقبلت العير، استقبلوها بالطبل، والتصفيق، وهو المراد باللهو هنا ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي على المنبر[2] ﴿قُلْ مَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٦٤٢ باب «وإذا رأوا تجارة».

(٢) هذا إنما حدث منهم، لأن الصلاة كانت قبل الخطبة، كما نبَّه عليه الحافظ ابن كثير =

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإن ذلك نفع محقّق مخلَّد، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهَّم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اطلبوا منه تعالى الرزق، فهو الرزّاق ذو القوة المتين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»

* * *

= رحمه الله، وإلاَّ فمحالٌ على أصحاب رسول الله، أن يتركوا الصلاة، ويخرجوا من أجل التجارة، ثم أصبحت الخطبة قبل الصلاة، كما هو عليه الحال الآن، بأمر الله جلَّ وعلا.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مدنية آياتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ①﴾.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي حضروا مجلسك، وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾ أرادوا شهادة واطأت فيها قلوبُهم ألسنتهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ مؤكدين كلامهم بإن واللام، للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم القلب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم، أي والله يعلم أن الأمر كذلك أنك رسول الله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في ادعاء الصدق، لأنهم لم يعتقدوا ذلك، وأضمروا خلاف ما أظهروا، وهذا يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وكل من أخبر عن شيء واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار، لذمِّهم، وبيان كذبهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ②﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي وقاية من السبي، والقتل، واتخاذها جُنَّة عبارة عن تهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها، ويتخلصوا عن المؤاخذة ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام، بالتنفير، وإلقاء الشُّبَه، ومنع الناس عن الجهاد ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من نفاقهم، وصدِّهم، وفي «ساء» معنى التعجب، الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما وصف من حالهم في النفاق، والكذب، والصد عن سبيل الله ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة، فآمنوا بألسنتهم، وكفروا بقلوبهم، ثم ظهر كفرهم، بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان ولا يتدبرون ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقة الإيمان، لأنهم تمرنوا على الكفر والضلال.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، أي إذا نظرت إليهم أعجبتك أجسامهم، لضخامتها ومناظرها فقد كان عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، وطائفةٌ من المنافقين في مثل صفاته، فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، ويعجب الناس بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتهم، وحلاوة كلامهم ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ شُبِّهوا في جلوسهم، بخُشُب

منصوبة، مستندة إلى الحائط، في كونهم أشباحاً خالية من العلم والخير، والخُشُب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النفاق في حسن صورهم، وقلة جدواهم ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي واقعة عليهم، وضارة لهم، لفزعهم ورعبهم، فقد كانوا على وَجَل من أن يُنزل الله فيهم ما يهتك أسرارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ أي هم الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدوُّ المداجي، الذي يكاشرك، وتحت ضلوعه الداء الدفين ﴿ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ ولا تغترز بظاهرهم، فإنهم وإن كانوا معك، عيون لأعدائك ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي أهلكهم الله ولعنهم، كيف يعدلون عن الحق، إلى الضلال والباطل؟.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي تعالوا إلى رسول الله ﷺ، فاعتذروا لديه ليطلب لكم المغفرة من الله، وذلك حين نزل القرآن بصفة المنافقين، مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين، فقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق، فأتوا رسول الله واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ﴿ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي أداروها وعطفوها استكباراً عن ذلك ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عن الناصح، وعن طلب الاستغفار ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاعتذار، لغاية ضلالهم ونفاقهم.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ ﴾.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ يستوي لديهم إذا جاؤوا معتذرين من جناياتهم ﴿ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إذا أصروا أو لم يأتوا وأصرُّوا على قبائحهم، واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار ﴿ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ما داموا

على النفاق، وإصرارهم على الفسق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، لانهماكهم في الكفر والفسق، والمراد إما هم بأعيانهم، وإما الجنس وهم داخلون فيه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون الفقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وله سبحانه الأرزاق، وبيده تعالى مفاتيح الرزق، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه، ولا يمنعه إلا بمشيئته، وفيه ردٌّ وإبطال لما زعموا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم فيهذون بما يزين لهم الشيطان، رُوي أن «جَهْجَاه» أجير عمر رضي الله عنه و «سنان» أجير عبد الله بن أُبيّ، اقتتلا من أجل الماء، فلطم جهجاه سناناً، فغضب له ابن سلول فقال عبد الله: أفعلوها؟ واللهِ ما مَثَلُنا ومثلُهم إلا كما قال القائل: «سمِّنْ كلبَك يأكُلْك» أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم، حتى ينفضوا عن محمد، ويعتزلوا عن متابعته، فنزلت الآية الكريمة[1].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في كتاب التفسير رقم ٣٣١٥.

﴿ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ عنى بالأعز نفسه، وبالأذل جانب المؤمنين، وإسناد القول المذكور إلى المنافقين، لرضاهم به، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ولله الغلبة والقوة، ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان، للشيطان وذويه، من الكافرين والمنافقين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، ولو علموا ما قالوا هذا الهذيان، قال أصحاب السير: فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات على نفاقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ⑨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ أي لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ أي لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها، والتمتع بها ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ عن الصلاة، أو عن القرآن وسائر العبادات المذكرة بالمعبود، والمراد نهيهم عن التلهي بها، وتوجيه النهي إليها للمبالغة ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي التلهي بها، والتغافل عنها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، حيث باعوا الباقي بالفاني.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ⑩﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أي بعض أموالكم، ادخاراً للآخرة، والمراد الإنفاق الواجب ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييئس، ويتعذر الإنفاق ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ أي هلاً أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي إلى زمان قليل

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي فأتصدق، وهو جواب «لولا» أي فأزكي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المؤمنين المحسنين.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ أي لن يمهلها عن الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ آخر عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازٍ عليها، والله أعلم.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»

* * *

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مكية وآيها ثمان عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾.

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ لا لغيره، إذ هو المبدىء لكل شيء، وهو القائم به، والمهيمن عليه، وهو المولي لأصول النعم وفروعها، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ خلقاً بديعاً، حاوياً لجميع مبادىء الكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ أي فبعضكم مختار للكفر، كاسب له، على خلاف ما تستدعيه خلقته ﴿ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ مختار للإيمان كاسب له، حسبما تقتضيه خلقته، وكان الواجب عليكم جميعاً، أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق، وتقديم الكفر لأنه الأغلب ﴿ وَاللَّهُ

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالم وبصير بكفركم، وإيمانكم، فيجازيكم بذلك، وفيه رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي جعلكم أحسن المخلوقات وأبهاها، حيث زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات، فإن قيل: وقد كان من أفراد هذا النوع مشوَّه الصورة، سمج الخلقة؟ نقول: لا سماجة ثمة، لكن الحسن كغيره من المعاني، على مراتب، فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها، أمرٌ نسبي، لا يخرجه عن الجمال، فهو داخل في حيِّز الحسن، وإذا ما قارنًا صورة أي إنسان بصورة القرد والحمار، كان بلا شك أجمل جميع المخلوقات. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخرى.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو محيط بجميع المضمرات في صدور الناس.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥﴾.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ألم يأتكم أيها الكفار نبأ الذين كفروا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ كقوم نوح، وهود، ولوط ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي جزاء أعمالهم الخبيثة، وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة، لا يُقادر قدرُه.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذُكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُۥ ﴾ بسبب أنه ﴿ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ أنكروا وتعجبوا أن يكون الرسول بشراً، أي قال كل قوم في حقِّ رسولهم: أبعث الله بشراً؟ كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقد أجمل فأسند القول إلى جميع الأقوام وأريد بالبشر الجنس، أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً؟ ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بالرسل ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن الإيمان، وعن التدبر في البيِّنات ﴿ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ ﴾ أي أظهر الله استغناءه عن إيمانهم، حيث أهلكهم ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين ﴿ حَمِيدٞ ﴾ أي مستحق للحمد، وإن لم يحمده حامد.

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ المراد بالموصول كفار مكة ﴿ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ ﴾ أي أنهم لم يبعثوا ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ أكد الإخبار باليمين، لأن التهديد به أعظم في القلب، فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه كائن لا محالة، أُقسِمُ لكم بربي ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ ﴾ أي لتحاسبنَّ ولتجزونَّ بأعمالكم من خير أو شر ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ البعث والجزاء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ لتحقق القدرة.

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ يعني القرآن الكريم، فإنه

بإعجازه بيِّنٌ بنفسه، مبيِّنٌ لغيره، كما أن النور كذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال بالأمر، أو عدمه ﴿خَبِيرٌ﴾ أي مجازٍ لكم عليه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩)﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي ليوم عظيم، يجمع فيه الأولون والآخرون، من الإنس والجن، والسابقين واللاحقين، لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي يوم غَبْنِ الناس بعضهم بعضاً، والغبنُ هو فوت الحظ من السعادة، وضياع ما كان يؤمله الإنسان، وتخصيص التغابن بذلك اليوم، للإيذان بأن الخسارة الحقيقية إنما تكون في الآخرة، فيظهر حينئذٍ غبن كل كافر، اشترى الضلالة بالهدى، وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي عملاً صالحاً إلى أن يموت على ذلك ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، لانطوائه على النجاة من أعظم المهلكات، والظفر بأجلِّ الطلبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٠)﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على البعث ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمسكن نار جهنم، والآيتان بيانٌ لكيفية التغابن، وتفصيلٌ له.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعلمه وتقديره ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ ويرى المصيبة من الله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ للثبات، والرضا، والصبر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن، ويهدي قلبه إلى ما ذُكر.

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر للتأكيد ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إجابة الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي وقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهو تعليل للجواب المحذوف، أي فلا بأس عليه، لأن مهمته التبليغ، وقد أدَّاها امتثالاً لأمر ربه.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة، لا غيره ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي فليعتمد المؤمنون عليه في جميع أمورهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم، وقالوا: لمن تتركوننا؟ فلمَّا أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقُهُوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم،

فأنزل الله هذه الآية»[1] ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي أن تطيعوهم وتتركوا الهجرة ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة، القابلة للعفو، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ أي تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ وتستروا ذنوبهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي يعاملكم بمثل ما عملتم من الصفح والمغفرة.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ أي بلاء ومحنة، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر محبة الله، على محبة الأولاد والأموال، عن بريدة قال: كان ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ عن المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال صدق الله: «﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرتُ إلى هذين الصبيين، يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[2].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي مواعظه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم ربكم، في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها، خالصاً لوجهه الكريم ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها وأنفع، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لكون

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٣١٧ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٧٤ وقال: حديث حسن غريب.

الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب ومحبوب.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بصرف المال فيما أمر به، مقروناً بالإخلاص، وطيب القلب، وذكَرَ القرضَ تلطفاً في الاستدعاء ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ بالواحد عشرة، إلى سبعمئه وأكثر، إلى ما شاء الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي يعطي الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي يعلم ما استتر ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما انتشر وظهر، يعني لا تخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة، والله أعلم.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»

* * *

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ تخصيص النداء به ﷺ مع عموم الخطاب لأمته، لتشريفه، وإظهار جلالة منصبه، أو المعنى: يا أيها النبي قل لهم، فأضمر القول، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي مستقبلات لها، فإن المرأة إذا طلقت في طُهر، يعقبه القُرْءُ الأول من أقرائها، فقد طُلِّقت مستقبلةً لعدتها، والمراد أن يطلقن في طُهر، لم يقع فيه جماع، ثم يُخلَّيْن حتى تنقضي عدتهنَّ، وهذا أحسن الطلاق، عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ منه ﷺ، ثم قال: «مُرْهُ فلْيراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم

تطهر، فإن بدا له أن يطلِّقها، فليطلقها قبل أن يمسَّها»[1] ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي اضبطوها، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل، وخوطب الأزواج لغفلة النساء، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة، ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم، تأكيد الأمر، ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكِنهنَّ عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن، وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي، ببيان كمال استحقاقهن لسكناها، كأنها أملاكهنَّ، وفيه دليل على أن السكنى واجبة لهنَّ، وحكمتها لئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث، وللاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة، فتنكح زوجاً غيره ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهن إنْ أردن ذلك، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنا، فيخرجن لإقامة الحدِّ عليهن، وقيل: إلا أن يفحشن على الأزواج، فيحل حينئذ إخراجهنَّ لسوء خلقهن، فإخراجهن وخروجهن في عدتهن معصية ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي عيَّنها لعباده ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن أخلَّ بشيء منها، على أن الإظهار في موضع الإضمار لتهويل أمر التعدي، والإشعار بعلة الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي أضرَّ بها ﴿لَا تَدْرِى﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يُقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فالظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقها، بسبب تعديه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي، وقوله: ﴿لا تدري﴾ خطاب للمتعدّي بطريق الالتفات، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبي ﷺ كما توهم. عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أبغضُ الحلالِ

إلى الله الطلاقُ»[١] وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألتْ زوجهَا الطَّلاقَ من غير ما بأسٍ، فحرام عليها رائحة الجنة»[٢].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي شارفن آخر عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسـن معاشـرة وإنفـاق وحستن سيـرة ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحقِّ، واتقاء الضرار، مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدتها، أي فأنتم بالخيار، إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف، وإن شئتم المفارقة واتقاء الضرار ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ﴾ عند الرجعة والفرقة جميعاً، قطعاً للتنازع، وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وروي عن الشافعي أنه للوجوب في الرجعة ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ من المسلمين ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ أيها الشهود خالصاً لوجهه سبحانه، لا لغرض من الأغراض، سوى إقامة الحق، ودفع الضرر ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى الحق على الإشهاد ﴿ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ إذ هو المنتفع به، والمقصود تذكيره ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فطلَّق للسُّنَّة، ولم يضار المعتدَّة، ولم يخرجها من مسكنها، واتقى ربه في الأمور التي أمر بها الشرع ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ مما عسى يقع فيه من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢١٧٨ في الطلاق، مرسلاً، وموصولاً.
(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢٢٢٦ والترمذي رقم ١١٨٧ في الطلاق.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي من وجهٍ لا يخطر بباله، ويجوز أن يكون المعنى على العموم، أي ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر، يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، رُوي أنها نزلت في «عوف بن مالك» أسر الأعداء ابناً له، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أسر العدوُّ ابني، وشكا إليه الفاقة، فقال له ﷺ: «اتَّقِ اللهِ واصبِرْ، وأكثِرْ من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل فبينا هو في بيته، إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غنمها من المشركين»[1] ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ يكل أمره إليه ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافيه في جميع أموره ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي يبلغ ما يريده، لا يفوته مراد، ولا يعجز من مطلوب ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ تقديراً وتوقيتاً، وهذا بيانٌ لوجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأن الإنسان إذا علم أن كل شيء، من الرزق ونحوه، لا يكون إلاّ بتقديره، لم يبق أمامه إلا التسليم إليه تعالى.

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ لكبرهنَّ وانقطاع دم الحيض عنهن، وقدَّروه بخمس وخمسين سنة، قيل: لمَّا نزلت: ﴿والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن عدّة اللائي لم يحضن، فنزلت

---

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري، ورواها الحافظ ابن كثير في تفسيره من رواية السدي ٤/٤٠٦.

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أم استحاضة ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ أي فهذا حكمهن ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ لصغرهن فعدتهن أيضاً كذلك، فحذف ثقة بدلالة ما قبله عليه ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي منتهى عدتهن ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ سواء كن مطلقات، أو متوفى عنها أزواجهن، عن سُبيعة الأسلمية أنها ولدت بعد وفاة زوجها بليالٍ قالت سبيعة: «فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إنْ بَدَا لي»[1] وعند علي وابن عباس عدَّتُها أبعد الأجلين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شأن أحكامها ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة، ويوفقه للخير.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الأحكام ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أي أنزله إليكم لتعملوا به ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦﴾.

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ مسكناً ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ أي بعض مكان سكناكم ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ أي ممَّا تطيقونه، والوُجدُ: الوُسْعُ والطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي في

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٦٥٣.

السكنى ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ وتلجئوهن إلى الخروج، ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وأما المتوفى عنهن أزواجهن، فلا نفقة لهن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني هؤلاء المطلقات بعد انقطاع الزوجية ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، وهو دليل على أن اللبن وإن خُلق لمكان الولد، فهو ملك لها، والأم يجوز لها أن تأخذ الأجر، وفيه دليل أن حق الرضاع على الأزواج في حق الأولاد ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً بجميل، في الإرضاع، والأجر، ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاسرة، لأنه ولدهما ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم فلم ترض الأم بما ترضع الأجنبية، ولم يزد الأب على ذلك ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي فستوجد له امرأة أخرى، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة، أي سيجد الأب امرأةً ترضع له ولده، إن عاسرته أمه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه على المطلقات والمرضعات ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أعطاها من الرزق، جلَّ أو قلَّ، فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطييب لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك بالوعد حيث قال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أي عصت وأعرضت

﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ واستمرت على العتوّ والعناد ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ باستقصاء الذنوب، وشدة العقاب ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً عظيماً، والمراد به عذاب الآخرة.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩)﴾.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عقوبة كفرها ومعاصيها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي خساراً وهلاكاً، لا خسران مثله.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠)﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرار للوعيد، وبيان لكونه مترقباً يخوّف الله كفار مكة، أن ينزل بهم ما نزل بالأمم الخالية ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا ذوي العقول السليمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف بيان ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أن أنزل إليكم القرآن الكريم.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا (١١)﴾.

﴿رَّسُولًا﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً هو النبي ﷺ ﴿يَتْلُوا۟﴾ إي الرسول ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿يتلو﴾، أي ليخرج الله الذين عَلِمَ منهم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الضلالة إلى الهدى، ويمكن أن يكون المعنى: ليخرجهم من الظلمات التي تحدث لهم بعد الإيمان ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي يصدّق بوجود الله

ووحدانيته، ويعمل عملاً صالحاً﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في دار النعيم أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم، أي ما أكرمه، وأعظمه من رزق!!.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي مثلهن في العدد أو في الإبداع والإتقان واختلف في كيفية طبقات الأرض، قال الجمهور: إنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، وقال الضحاك: مطبقة من غير فتوق، بخلاف السماوات، ولا يوجد في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع، إلا هذه الآية ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وحكمه بينهن، فينزل المطر، ويخرج النبات، ويخلق الخلق على اختلاف هيئاته ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذُكر، قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ لاستحالة صدور ذلك عن غير الخالق المبدع، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»

* * *

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية وآيها اثنتا عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ اختلفوا في الذي حرَّم النبي ﷺ على نفسه، قيل: حرَّم «مارية» وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة، والشعبي، ومسروق، وقيل: حرَّم العسل!! لما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب فيشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصة، أن أيَّتنا دخل عليها النبي ﷺ، فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شربتُ عسلاً عند زينب، ولن أعود له، فنزلت ﴿يا أيها النبي لمَ تحرِّم﴾ إلى قوله تعالى ﴿إنْ تَتُوبا إلى اللهِ﴾[1] قولها فتواطأت أي اتفقت، مغافير وهو صمغ حلو، وله رائحة كريهة، قال النسائي: هذا الحديث صحيح جيّدٌ غاية الجودة، وقال الأصيلي: هذا أصح وأولى بظاهر كتاب الله

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٦٥٦ في كتاب التفسير، ومسلم رقم ١٤٧٤ في الطلاق.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لتحرم، وهذا التحريم تحريم امتناع عن الانتفاع بذلك، مع اعتقاده أن ذلك حلال، أي تطلب رضاء أزواجك بترك ما أحلَّ الله لك؟ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك هذه الزلّة ﴿رَحِيمٌ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك بها، قال بعض العلماء: الصحيح في نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة «مارية» المروية في غير الصحيحين، من أنه ﷺ أسرَّ إلى حفصة تحريمها على نفسه فأفشت السرَّ.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدَّر الله لكم ما تحلّلون به أيمانكم، وشرع لكم تحليلها بالكفارة، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها ﴿حَدِيثًا﴾ أي حديث تحريم العسل، أو مارية القبطية وأمر الخلافة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي أخبرت حفصة عائشة بالحديث، وأفشته إليها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله النبي ﷺ على إفشاء حفصة للسرِّ على لسان جبريل عليه السلام ﴿عَرَّفَ﴾ أي النبي ﷺ حفصة ﴿بَعْضَهُ﴾ بعض الحديث الذي أفشته، قيل هو حديث الإمامة ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن تعريف بعض، قيل هو حديث مارية، والمعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمَة، وأعرض عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن ينشر في الناس ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي نبأ النبي ﷺ حفصة بما أفشت من السر إلى

﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي أخبرني بذلك الله عزَّ وجلَّ، العليم بالسرائر، الخبير بالضمائر.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، على الالتفات للمبالغة في العتاب، وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين اللتين قال الله تعالى فيهما ﴿إن تتوبآ إلى ٱلله﴾ حتى حجَّ عمر، وحججتُ معه، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا﴾ قال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس ـ قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ـ قال: هما عائشة وحفصة، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم..» الحديث[1] ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت ووُجد منكما ما يوجب التوبة، من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من تكريم رسول الله ﷺ، وحبِّ ما يحبُّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التائين، أي تتعاونا عليه بما يسوءه، من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ﴾ وإنما أفرد جبريل تعظيماً له ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أتباعه وأعوانه، وعن ابن مسعود وأبي بن كعب أراد بصالح المؤمنين أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، وبه قال عكرمة ومقاتل، وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة، فإنه جمع بين الظهير المعنوي، والظهير الصوري، كيف لا وإن جبريل ظهيرٌ له يؤيده بالتأييدات الإلّهية،

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٥٨ ومسلم رقم ١٤٧٩ في الطلاق، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول لابن الأثير الجزري ٢/ ٤٠٠.

وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة، وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأن بيان مظاهرتهما له أشد تأثيراً في قلوب بنتيهما، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين من المؤمنين ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نصرة الله وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي فوج معينٌ له، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ أي يعطيه ﷺ بدلكن ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ خاضعات لله تعالى منقادات له ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدِّقات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصليات بالليل، ومواظبات على الطاعة، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول ﷺ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، سُمي الصائمُ سائحاً، لأنه يسيح في النهار بلا زاد ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي ليس على حسب الشهوة، بل على حسب ابتغاء مرضاة الله تعالى[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بالانتهاء عما نهاكم الله عنه، والعمل بطاعته ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي حطبها

---

(١) إنما دخلت الواو في قوله: ﴿وأبكاراً﴾ دون سائر الصفات، لامتناع اجتماعهما في ذات واحدة، فإن المرأة لا تكون بكراً وثيباً في آن واحد، بخلاف بقية الصفات ولهذا عطفت هنا بالواو ﴿وأبكاراً﴾ فتدبر أسرار القرآن!!.

الحجارة والناس ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها وتعذيب أهلها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم الزبانية ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، أقوياء على البطش ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يخالفون أمر الله جلَّ وعلا ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي ويؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه.

أمر تعالى المؤمنين، باتقاء هذه النار المعدّة للكافرين، كما نصَّ في سورة البقرة، للمبالغة في التحذير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم ذلك، عند إدخال الملائكة إياهم النار، والنهي عند الاعتذار، لبيان أن العذر لا ينفعهم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء أعمالكم القبيحة في الدنيا، من الكفر والمعاصي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي بالغة في النصح، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم، فيأتوا بها على طريقتها، وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمِّين لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون، ويردُّوا المظالم، ويستحلوا الخصوم، ويداوموا على طاعة الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وورود صيغة الإطماع ﴿عسى﴾ للجري على سنن الكبرياء، والإشعار بأنه تفضل منه سبحانه، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغي

أن يكون بين خوفٍ ورجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ظرف ليدخلكم، أي يوم لا يذلهم ولا يهينهم، بل يكرمهم ويرفع مقامهم، عمن أخزاهم الله من الكفار، والفساق، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي على الصراط ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ﴾ إذا طفىء نور المنافقين ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يدعون به تقرباً إلى الله تعالى، مع تمام نورهم، وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي استر ذنوبنا وامحها عنا، فإنك القادر على كل شيء، وأنت يا رب أهل الفضل والغفران.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجة، والوعظ البليغ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي استعمل الخشونة معهم فيما تجاهدهم به من الكلام ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مسكنهم جهنم، وبئس المرجع والمصير نار جهنم، أن تكون مسكنهم ومأواهم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضربُ المثل في أمثال هذه المواقع، عبارة عن إيراد حالة غريبة، ليعرف بها حالة أخرى، مشاكلة لها في الغرابة، مثّل الله عزَّ وجلَّ حال الكفار، في أنهم يعاقبون على كفرهم، ولا ينفعهم ما كان بينهم وبين المؤمنين، من النسب والمصاهرة، وإن كان نبياً، بمثل امرأتي نوح ولوط ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

﴿عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي كانتا في عصمتَيْ نبيين، متمكنين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق ولم تؤمنا بالله، قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ، وخيانتهما في الدين، أنهما أسرَّتا النفاق، وأظهرتا الإيمان». ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا﴾ أي فلم يغن أزواجُهما النبيَّان ﴿عَنۡهُمَا﴾ بحقِّ الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿وَقِيلَ﴾ أي ويُقال لهما يوم القيامة: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي ادخلا نار جهنم مع سائر الكفرة المجرمين، فقطع الله بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية، ويتكل على صلاح غيره[1].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين، في أن صلة الكفر لا تضر المؤمن، إذا كان صادق الإيمان، وذلك في مثل حالة امرأة فرعون، التي كانت تحت أعدى أعداء الله تعالى، وهي في أعلى غرف الجنة ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها لما ظهر موسى عليه السلام، وغلب السحرة، آمنت به، فلما تبين لفرعون إسلامها، أوتد يديها ورجليها بالأوتاد، وألقاها في الشمس ﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾ وهي تعذب ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا﴾ أي ابن لي قصراً في الجنة، أسكنه بعد مفارقتي الدنيا، وأرادت به الدرجة العالية في جنان الخلد ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ روي أنها لما قالت ذلك، أُريت بيتها في الجنة، وانتزع روحها ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي من نفسه الخبيثة، وعمله السيِّىء ﴿وَنَجِّنِي

---

(١) وفي ذلك مبالغة في المعنى المقصود، وهو أن الإنسان لا ينفعه عادة صلاح غيره، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الإيمان والصلاح.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القبط التابعين له في الظلم والطغيان، وفيه دليل أن الالتجاء إلى الله تعالى عند المِحَن، من سِيَر الصالحين.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطف على امرأة فرعون أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا، مريم بنت عمران، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة، مع كون قومها كفاراً ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عفت عن اقتراف الفاحشة مع الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أي فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ الإضافة إضافة تمليك وتشريف، كبيت الله، وناقة الله، أي من روح خلقناه بلا توسط، فحملت بعيسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بالصحف المنزلة على إدريس وغيره ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي المطيعين لله عز وجل، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت صلاح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبُك من نساء العالمين: مريمُ ابنة عمران، وخديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[١] والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٨٧٨ وقال: حديث حسن صحيح.

سُورَةُ المُلْك

مكية وهي ثلاثون آية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك» [١] وعن ابن عباس مرفوعاً: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ اليدُ هنا: كناية عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء[٢] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة عليه، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٩٣ وأبو داود في الصلاة رقم ١٤٠٠.

(٢) الآية الكريمة: ﴿بيده الملك﴾ تمثيلٌ لعزته تعالى وجلاله، وتصرفه الكامل في جميع الأمور، كما نقول: الدولة بيد السلطان، أي هو المتصرف في شؤونها، قال ابن عباس في تفسير الآية: ﴿بيده الملك﴾ قال: يعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. اهـ وهو الصحيح في معنى الآية الكريمة.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك، وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، والمراد بالموت: الموتُ الطارىء، وبالحياة الحياة التي تكون قبل الموت، وقدَّم الموت لكونه السابق، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل، ولأن الأشياء في الابتداء، في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلقة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة، وقيل: أراد موت الإنسان، وحياته بعد البعث من القبور، والموتُ نعمة كالحياة، لأنه الفاصل بين حال التكليف، وحال المجازاة، وهو القنطرة للعبور إلى دار الخلود، فإن الدنيا جسرٌ ومعبرٌ للآخرة ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف بالأوامر والنواهي ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أخلصه وأصوبه، فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السُنَّة، والمقصد الأصلي من الابتلاء، هو ظهور إحسان المحسنين، مع تحقُّق أصل الإيمان، وفيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلوم، ومدارج الطاعات، والزجر عن نواقضها ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أي الذي أبدع خلق السموات، فجعلها سبع سموات ﴿ طِبَاقًا ﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض، سماء فوق سماء ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل مخاطب ﴿ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي من اختلاف، ومن عيب، وحقيقة التفاوت عدم التناسب من

الفوت، وقيل: التفاوتُ: الفطور، بدليل قوله تعالى: ﴿هل ترى من فطور﴾؟ فالمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي كرِّر النظر إلى السماء، فانظر إليها، مرة بعد مرة، متأملاً فيها، حتى يتضح لك ذلك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ؟ أي صدوع وشقوق، جمع فِطْر، وهو الشِقُّ، والمراد به الخَلَل.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل، والمراد بالتثنية التكرار والتكثير، كما في لبيك وسعدَيْك، أي رجعةً بعد رجعة، وإن كثرت ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي بعيداً ومحروماً من إصابته ما التمسه من العيب والخلل، كأنه طُرِد عنه طرداً بالصَّغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة، وكثرة المراجعة، ولم ير فيها خللاً، لأن الله أتقنها وأحكمها.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانٌ لكون خلق السماوات، في غاية الحسن، إثر بيان خلوِّها عن شائبة القصور، وتصدير الجملة بالقَسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي وبالله لقد زينا أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بالكواكب المضيئة بالليل، إضاءة السراج، من النجوم السيارات والثوابت، تتراءى كأنها مركوزة فيها، مع أنها في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعرف مقدار سعته إلا الله رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رجم أعدائكم الشياطين، بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وهي النار الموقدة، فإن

قيل: إن الشهب كانت موجودة قبل بعثة النبي ﷺ، فكيف أصبحت رجوماً للشياطين؟ فالجواب عن ذلك: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي ﷺ قد توجد بسبب آخر، وهو دفع الجن عن استراق السمع، قيل للزهري: أكان يُرمَىٰ في الجاهلية بالشهب؟ قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ قال: غَلُظَتْ واشتد أمرها حين بُعِث النبي ﷺ.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمقرُّ.

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا ﴾ أيْ طرحوا في جهنم ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا ﴾ أي لجهنم ﴿ شَهِيقًا ﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمار ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ أي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه، هذا من فور الغضب، يقال: تركتُ فلاناً يفور غضباً، ويتأكد هذا بقوله تعالى:

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي من شدة الغضب عليهم، يقال: فلان يتميز غيظاً إذا وصفوه بالإفراط فيه، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وهو تمثيل لشدة اشتعالها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾؟ أي ألم يأتكم رسول يخوّفكم من هذا العذاب؟.

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أي قال كل فوج من الأفواج قد جاءنا نذير فأنذرنا، وتلا علينا ما نزّل الله عليه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير، في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ على أحد ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب.

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار من الرسل، فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم من المعجزات ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عقل متأمل، ونفهم ونتفكر في حكمه تفكر المستبصرين ﴿ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الشرع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ بكفرهم، في تكذيبهم الرسل، حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ مصدر وقع موقع الدعاء، أي فبعداً لهم وهلاكاً، سحقهم الله سحقاً، وأبعدهم الله من رحمته، ومن دار كرامته ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ هم الشياطين، والداخلون في عدادهم من الكفار والفجار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، وكفُّوا عن المعاصي، قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يُقادر قدرُه.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ بيان لتساوي السر والجهر، بالنسبة إلى علمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾[1] قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، كي لا يسمع إله محمد، فيخبره بما تقولون، فقيل لهم: أسروا ذلك القول، أو اجهروا به، فإن الله يعلمه، ولا تخفى عليه سبحانه خافية. واللفظ عام لجميع الخلق، أي فاحترزوا من المعاصي سراً، كما تحترزون جهراً، وتقديم السر على الجهر، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر، إذ ما من شيء يُجهر به، إلا وهو مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فيتعلق علمه تعالى به ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بضمائرها، قبل أن تترجم الألسنة عنها، كأنه قيل: إنه تعالى مبالغ بمضمرات جميع الناس، وأسرارهم المستكنّة في صدورهم.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؟ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، أي ألا يعلم السر والجهر، من أوجد جميع الأشياء التي هما من جملتها؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكده للإنكار، اللطيفُ أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائق الأمور.

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٠.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ أي ليّنة سهلة، يسهل عليكم السلوك فيها ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي في جوانبها وفي جبالها وطرقها ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي المرجع، فيسألكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني الملائكة الموكّلين بتدبير هذا العالم، أو الله على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه، وقال ابن عباس: «عقاب من في السماء، وهو متعال عن الخلق»[1] ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أن يغوّر بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً، تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه، لكفرانكم تلك النعمة ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي تضطرب وتتحرك، على خلاف ما كانت ثابتة عليه.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ حجارة من السماء، كما

---

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى ٣/١٤٣: ويُصان جلَّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله تعالى: ﴿ءَأمنتم من في السماء﴾ أن السماء تقلُّه ـ أي هو محصور فيها ـ أو تظلُّه، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيُّه السموات والأرض!!.

فعل بقوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب عند الموت، وفي الآخرة ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف إنذاري وعقابي للمكذبين؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة، كقوم نوح، وعاد، وأضرابهم، والالتفات لإبراز الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ إذْ أهلكتهم بإنزال العذاب، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول ﷺ وتشديد التأكيد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا؟ ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنَّ، وهو السر في إيثار «يقبضن» الدال على التجدد على قابضات، والطيران في الهواء، كالسباحة في الماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الشامل برحمته لكل شيء، وإلاَّ فالثقيل يتسفَّل طبعاً ولا يعلو ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ تبكيت لهم، بنفي أن يكون لهم ناصر من عذابه تعالى، أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد الله تعالى إهلاككم؟ هل آلهتكم المزعومة تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟

و«أم» منقطعة مقدَّرة ببل، المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل، فيما يشاهدونه من أحوال الطير، إلى تبكيتٍ آخر ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ينصركم متجاوزاً نصر الرحمٰن؟ فهو كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُوننا﴾؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما هم إلا في غرور، في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب، بحفظ آلهتهم لهم، وزعمهم هذا ضلال واضح بيّن.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر، وإنبات الزرع، فمن يستطيع أن يمنحكم أسباب الرزق، إن منعها الله عنكم؟ هل هناك إله غير الله يقدر عليه؟ وأسباب الرزق متعددة: الماء، والهواء، والشمس، والريح، والشجر، والثمر، وكلُّها بيد الخلاَّق جلَّ وعلا، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادَوْا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي في عنادٍ واستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا، والنفور بسبب جهلهم بالدين، والمعنى: بل تمادى الكفار في الطغيان، وأصروا على الكفر والعصيان.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمشرك والموحِّد، توضيحاً لحالهما، والفاء لترتيب سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وعدم اهتدائهم إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوعر طريقه، واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمُّه، وهو الكافر الذي أكبَّ على الكفر والمعاصي ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي يمشي قائماً معتدلاً، يبصر الطريق سالماً من العثور والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على

طريق مستو لا عوج فيه، ولا انحراف؟ وهو المؤمن المستمسك بدين الإسلام[1].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي خلقكم خلقاً بديعاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آيات الله، وتتعظوا بمواعظها ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها آثار قدرته، وتروا الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتفكروا بها وتعتبروا، خصَّها بالذكر، لأنها آيات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي باستعمالها فيما خلقت لأجله، فشكرِ نعم الله، صرفها في مرضاته.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وبثكم وكثَّركم فيها لا غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة للجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ أي متى

---

(١) هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة التعبير، وكأنه يقول: هل من يمشي كالدابة، منكّس الرأس، أعمى القلب والعين، لا يبصر يميناً ولا شمالاً، ولا يرى ما أمامه، فهو يخبط خبط عشواء، ويتعثر بين حين وحين في مشيه، لأنه لا يبصر الطريق، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه فهو آمن من العثار، لأنه يمشي في وضح النهار، يسير على طريق مستقيم، لا اعوجاج له ولا التواء؟ أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى!!.

يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿وإليه تحشرون﴾ أو ما وُعدوا به من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، والجواب محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به، فبيِّنوا لنا وقته؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي العلم بوقته عند الله عزَّ وجلَّ، لا يطَّلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ أي مخوِّف أُنذركم عذاب الله، ووقوع الموعود لا محالة ﴿مُّبِينٌ﴾ أي أبيِّن لكم الشرائع.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريباً منهم ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي ساءت رؤية الموعود ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واسودت بأن علتها الكآبة، وغشيتها القَتَرةُ، وظهرت عليها آثار الاستياء من الذل والهوان ﴿وَقِيلَ﴾ تشديداً لعذابهم، والقائلون هم الزبانية ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تسألون تعجيله، إنكاراً واستهزاءً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، والتعبير عنه بالإهلاك، لما أنهم كانوا يدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته،

متربصون لإحدى الحسنيين ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، أي من يحميكم من عذاب الله المؤلم الوجيع؟ ومن الذي يجيركم وينجيكم من غضبه وانتقامه؟ هل تظنون أن الأصنام تخلّصكم من عذاب الله؟.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، مولي النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا به وحده، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي فسوف تعلمون من هم أهل الشقاء والضلالة، منا ومنكم؟ وهذا تهديد شديد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أي ذاهباً في أعماقها ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي جارٍ متدفق، فائض سهل المأخذ، فلا بد أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون الأصنام شريكاً له؟ تليت هذه الآية عند ملحد، فقال: نأتي به بالمعول، فنام تلك الليلة ثم استيقظ وقد ذهب ماء عينه!! والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملكُ»

* * *

سُورَةُ القَلَمِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، من أسماء الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ألف، ولام، وميم، ذُكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر مع ذلك عاجزون عن الإتيان بمثله، وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت، فمشكلٌ ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الواو للقسم، وأُريد بالقلم الجنسُ، لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزية، سوى كونه آلة لتحرير كُتب الله عزَّ وجلَّ، لكفى به فضلاً، وموجباً لتعظيمه[1] ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

---

(١) في القسم بالقلم والكتابة، إشادة بفضل العلم والعلماء، وتنبيه على قيمة الكتابة والدراسة، فإن القلم أخو اللسان، وهو نعمة من الرحمن على عباده، فالإنسان من بين سائر المخلوقات، هو الذي خصَّه الله وشرَّفه بمعرفة القراءة والكتابة، ليفصح عمَّا في ضميره، ولا يمكن لسائر الحيوانات أن تتفاهم عن طريق المراسلة والكتابة، إنما تتفاهم بالأصوات، وحسبك دليلاً على شرف القلم، أن الله عزَّ وجل أقسم به هنا، كما أن أول آيات الوحي المنزَّل فيها إشادة بالقراءة والكتابة: ﴿الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ .

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوّة، أنت يا محمد بريء من الجنون، وهو جواب لقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إنه تعالى وصفه ﷺ بثلاثة أنواع من الصفات:

الأولى: نفي الجنون عنه، بنعمه الظاهرة، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضيّة وللاتصاف بكل مكرمة، فوجود هذه النعم ينافي حصول الجنون.

والثانية: الأجر الكبير الدائم.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ أي إن لك في دعاء الخلق إلى الله تعالى، المنزلة الرفيعة العالية، والثواب الكبير غير المقطوع، وإحراز هذا المقام ينافي الجنون.

والثالثة: الخُلُق العظيم الذي خصّ به الرسول ﷺ.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ أي أنت يا محمد على جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخلق الكريم، ولقد نسبوه إلى الجنون ـ وحاشاه ـ حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية، من حصانة العقل، ورزانة الرأي، ولمّا كانت أخلاقه الحميدة كاملة، وصفها الله تعالى بأنها عظيمة، وفيها دقيقة أخرى، وهي كلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ أنه ﷺ مستعلٍ على خُلُق عظيم، كما رُوي عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً..» الحديث. وحقاً!! لقد تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم

فالصدق، والبرُّ، والحلمُ، والحياء، والصبرُ، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والعفة، والوفاء، كلٌّ أولئك كانت من صفاته البارزة، التي قرَّبته إلى القلوب، فتعلَّق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي عن قريب ترى ويرون من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ وهذا وعدٌ له، ووعيد له، والمراد به يوم القيامة، سيظهر بجلاء أمرك وأمرهم، وقيل: في الدنيا بظهور الإسلام، واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيباً ومعظَّماً في قلوب العالمين.

﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾؟ أي المجنون، والباء مزيدة، أو بأي الفريقين بفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنَ الكَذَّابُ الأَشِرُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لما قبله من ظهور جنونهم، بحيث لا يخفى على أحد، أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال، متوجهاً إلى الشقاوة الأبدية، وهذا هو المجنون الذي لا يفرِّق بين النفع والضرر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء المهتدين إلى سبيله، الفائزين بكل مطلوب، والناجين من كل محذور، فيجزي كلاً من الفريقين، حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هو أعلم﴾ لزيادة التقرير.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كفار مكة، وهذا تهييج له للتصميم على معاداتهم، فقد أرادوا منه أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم!! والمعنى: دم يا محمد على ما أنت عليه، من عدم طاعتهم، وإنما عبَّر بالطاعة للمبالغة في الزجر، والنهي عن مداهنتهم ومداراتهم، استجلاباً لقلوبهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه، وتسامحهم في بعض الأمور، فهم يدهنون حينئذ طمعاً في إدهانك.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وتقديمُ هذا الوصف على سائر الأوصاف، لكونه أدخل في الزجر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير الرأي والتدبير، من المهانة وهي الحقارة، نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي عيَّاب، طعان، مغتاب ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقَّال للحديث على وجه السعاية والإفساد.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيل ممسكٍ عن الإنفاق، ويمنع الناس عن الخير والإنفاق ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز في الظلم حدَّه ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ عُتُلٍّ ﴾ غليظ، جاف، لئيم النفس ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعدما عُدَّ من الصفات المذمومة ﴿ زَنِيمٍ ﴾ هو ولد الزنا، روي أنه دخل على أمه، وقال لها: «إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيَّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاَّ ضربت عنقك!! فقالت: إنَّ أباك عنِّين، وخفتُ أن يموت ويذهب ماله إلى غيره، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي!! ولا غرابة فالنطفةُ إذا خبثت خبث الناشىء منها.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي لا تطعه مع هذه المثالب والمعايب، لأن كان ذا مال وبنين، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي يقول عن القرآن العظيم: إنه خرافات وأباطيل الأولين!!.

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ كنَّى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، لأن الخرطوم للخنزير، أي سنكويه على أنفه، مهانة له، وعَلَماً يُعرف به، وتخصيصُ الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أبشع وأشنع.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي أهل مكة بالقحط، بدعوة رسول ﷺ ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ

﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة، كانت لأبيهم هذه الجنة، قرب صنعاء باليمن، فكان يأخذ منها قوت سنة، ويتصدق بالباقي، وكان ينادي الفقراء وقت الصِّرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل، وما أخطأه القِطاف من العنب، فكان يجتمع لهم شيء كثير، فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا الأمر، فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستثنون حصة المساكين، كما كان يفعله أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ أي فجاءها بلاء من السماء ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من جهته تعالى ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عما جرت به المقادير، والطائف لا يكون إلا ليلاً، أي طرقها طارقٌ من عذاب الله.

قال الكلبي: أرسل الله تعالى عليهم ناراً، فأحرقت الشجر والثمر.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرمت ثماره، بحيث لم يبق منها شيء، فعيل بمعنى المفعول.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ عند الصبح الباكر.

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ ﴾ أي اخرجوا في الصباح الباكر، قبل أن ينتبه الفقراء، ومعنى الغدوّ: الذهاب في الصباح المبكّر ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ يعني الثمار، والزرع، والأعناب ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ قاطعين له.

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقُواْ ﴾ أي ذهبوا ﴿ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، لئلا يسمع المساكين.

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ﴾ أي الجنة ﴿ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي لا تمكنوه من الدخول.

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي على قصد وعزم، وقيل: على نَكَدٍ من حاردت السَّنَةُ إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبلُ إذا منعتْ درّها ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ عند أنفسهم على صرامها.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي أول ما رأوها محترقة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي ضللنا طريق جنتنا وما هي بها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعقلهم وأعدلهم رأياً ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي بمنعنا المساكين، فتكلموا بعد خراب البصرة ـ أي البستان ـ، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت، ومنهم من أنكره، فأصبح كل واحدٍ يحيل باللائمة على الآخر!! ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحدَّ.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي متجاوزين حدود الله، في حق الفقراء والمساكين، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا﴾ أي يعطينا بدلاً منها، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي من هذه الجنة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي طالبون الخير، وراجون العفو منه تعالى.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ ﴾ أي مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي ذكرناه، نعذب من سلك سبيلهم ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ ﴾ أي أعظم وأشدُّ ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ أنه أكبر، لاحترزوا عما يؤديهم إليه.

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ في الآخرة ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي جنات ليس فيها إلاّ التنعُّم، الخالص عن شائبة الزوال، وما ينغّصه من الكدِّ والتعب.

﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ تقرير لما قبله، وردٌّ لما يقوله الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صحَّ أنا نُبعث، لم يكن حالنا وحالهم، إلاّ مثل ما هو في الدنيا، يعطينا الله ويكرمنا، كما أكرمنا في الدنيا.

﴿ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾؟! تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعارٌ بأنه صادرٌ من اختلال فكر وعقل، وهو التسوية بين المطيع والعاصي.

﴿ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴾ أي تقرؤون.

﴿ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ما تتخيرونه وتشتهونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا ﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ بَٰلِغَةٌ ﴾ متناهية في التوكيد ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ إن لكم لما تحكمون أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها، حتى نعطيكم ما تحكمون، أم هو مجرَّدُ الافتراء على الله؟!.

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي سلهم مثبتاً لهم ﴿أَيُّهم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي كفيل وضامن؟.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه تعالى في هذه الآية على أن ليس لهم شيء، يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ الجمهور على أن الكشف عن الساق، عبارة عن شدة الأمر وصعوبته، والمعنى يوم يشتد الأمر ويصعب، ولا كشف ولا ساق، ولكن كنى بها عن الشدة، ومثله قول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيسُ ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ أي يدعى الكفار إلى السجود لله رب العالمين، لا تكليفاً، ولكنْ توبيخاً وتعنيفاً، على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، فلا يقدرون على الانحناء أو السجود.

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ أي يغشاهم وتلحقهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ أي صَغَارٌ وهوان ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ أي وهم أصحاء متمكنون منه، فلا يجيبون إليه، وكذلك يدعون إلى الصلاة، بالأذان والإقامة في الجماعة، فلا يلبُّون إليها، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة.

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينهم، ولا تُشغل قلبك بهم، فسأنتقم لك منهم، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لأكفيك شرَّه. وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج خطوةً خطوة، يقال: استدرجه إليه استنزله درجةً درجة، حين يورِّطه فيه، واستدراجهم بالإمهال، وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إنه استدراج بل يزعمون أنه إيثار على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم فلا أعجلهم بالعقوبة، ليزدادوا إثماً ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي قوي شديد، لا يدفع بشيء، وتسميته كيداً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً، ماكراً، مستدرجاً، لأن صفات النقص لا تنسب إليه تعالى، وأسماؤه توقيفية.

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؟ أي هل تطلب منهم أجراً حتى يثقلهم ذلك ويمنعهم من الإيمان؟.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيَّبات ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وإن أُمهلوا لم يهملوا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي كيونس عليه السلام، في العجلة والغضب على القوم ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت: ﴿لا إله إلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ﴾ ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً، من كَظَم السقاء إذا ملأه، أي لا يكن حالك كحاله وقت ندائه، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلىٰ ببلائه.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي رحمة، وهو التوفيق للتوبة، وقبولها ﴿لَنُبِذَ﴾ أي لطُرح من بطن الحوت ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ بالفضاء الواسع ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ أي وهو ملام على ما ارتكب، يعني لولا هذه النعمة، لنبذ بالعراء مع الذمِّ له، لكنَّ الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذم.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه واختاره لنفسه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي جعله من الكاملين في الصلاح.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي إنهم من شدة عداوتهم لك، ينظرون إليك ويكادون أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكونك بنظرات مسمومة قاتلة لشدة بغضهم، والإصابة بالعين حق، ومن الناس من أنكر ذلك، ولا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، فالاحتمال العقلي قائم، والدلائل السمعيّة ناطقة بذلك، روى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيء سابق القَدَر سبقته العين»(١) وقيل: العين حقٌّ تدخل الرجل القبر، والجمل القِدْر، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ عليه هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي وقت سماعهم القرآن تتلوه عليهم، لأنهم كانوا يكرهون سماعه أشد الكراهية، ويحدُّون النظر إليه ﷺ بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أمره ﷺ، وجهلهم بحاله ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنفير الناس عنه، وحيث كان مدار حكمهم الباطل، ما سمعوه منه ﷺ، ردَّ الله ذلك ببيان علو شأنه، فقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وليس هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي موعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن للجنون؟ والآية مفيدة لبطلان قولهم، وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوّه ذلك، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

* * *

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٨٨ في باب الطب، والترمذي رقم ٢٠٦٣.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكية وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ ﴾.

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ الساعة الواجبة الوقوع يعني القيامة، التي هي آتية لا ريب فيها، التي تتحقق فيها الأمور، من الحساب والجزاء.

﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ الأصل الحاقة ما هي؟ أي أيُّ شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير، لزيادة التهويل.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ أي أيَّ شيء أعلمك ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ تأكيد لهولها، ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها وشدتها، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد لأنها أعظم من ذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ أي بالحاقة، فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال،

فلمَّا ذكرها وفخَّمها، ذكر من كذَّب بها، وما حلّ بهم، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم، من انتقام الله عزَّ وجل منهم، لتكذيبهم سيد المرسلين.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، وهي الصيحة الشديدة، كما قال سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي ريح شديدة العصف، كأنها عتَتْ على خزنتها، فلم يستطيعوا ضبطها.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلَّطها عليهم بالقدرة القاهرة ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وهي أيام العجوز سميت بذلك لأن عجوزاً من عاد، توارت في سرب، فانتزعتها الريح فأهلكتها ﴿ حُسُومًا ﴾ أي متتابعة متوالية، لا تفتر ولا تنقطع، تستأصل الناس استئصالاً ﴿ فَتَرَى ﴾ أيها المخاطب ﴿ ٱلْقَوْمَ ﴾ إذا كنت حاضراً حينئذ ﴿ فِيهَا ﴾ في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَىٰ ﴾ موتى قد صرعهم الموت، فأصبحوا جثثاً هامدة، جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي يشبهون ﴿ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ ﴾ جمع نخلة ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ بالية وساقطة على الأرض.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم، أو من نفسٍ باقية؟.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي من تقدَّمه من الأمم ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي قوم لوط، وهم الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ولذا سميت بالمؤتفكات ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالأفعال ذات الخطأ العظيم، وهي الشركُ، والتكذيب بالبعث.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله عز وجل ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي زائدة شديدة، كما زادت قبائحهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي ارتفع وزاد عن حدّه وقت الطوفان، بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، والمراد بحملهم فيها، رفعهم فوق سطح الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، إنما السفينة سببٌ صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي عبرة

وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكّره وإشاعته، والتفكير فيه، والوعيُ: أن تحفظ الشيءَ في نفسك، والإيعاءُ أن تحفظه، في غيرك، وَعَيْتُ العلم والحديث وعياً، أي حفظته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى، وهو شروعٌ في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عِظم شأنها.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي قلعت ورفعت عن أماكنها، بمجرد قدرة الله تعالى، وارتطم بعضها ببعض ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي دُقّتا وكُسرتا، أي فضربت الأرض والجبال إثر رفعهما، بعضُها ببعض، ضربة واحدة، فيصير الكل هباءً منبثاً، وذرات متناثرة، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف بحال الرجال في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي نزلت النازلة، وقامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي فُتحت أبوابها لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة، ساقطة القوة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي والملائكة على جوانبها، جمع رجا بالقصر:

الناحية، وجمعه أرجاء، مثل سبب وأسباب، قال الضحاك: تكون الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الرب تبارك وتعالى، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ من الملائكة، روي أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية وعن ابن عباس والضحاك ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال بعضهم: وجود العرش لبيان عظمته تعالى، لا لاحتياجه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش، فالعرش والكرسي مظاهر عظمة الله وجلاله، فعلمنا أنه تعالى خاطبهم فيما يتعارفون، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه هو الكعبة المشرَّفة، وجعل في ركن البيت حَجَراً، وهو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس أنه عز وجل مسكنه في البيت، ويمينه فيه، وهو تمثيل لعظمته تعالى، بما يشاهد من أحوال السلاطين، يوم خروجهم على الناس، للقضاء العام، وإلاَّ فشؤونه سبحانه أجلُّ من كل ما تحيط به تلك العبارة والإشارة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، أي تسألون وتحاسبون، عبَّر عنه بذلك، تشبيهاً بعرض السلطان العسكر، لتعرُّف أحوالهم، وهذا ـ وإن كان بعد النفخة الثانية ـ لكنْ لمَّا كان اليوم، اسماً لزمانٍ متسع، تقع فيه النفختان، والصعقة، والنشورُ، والحساب، صحَّ جعلُه ظرفاً للكل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على ملك الملوك جلَّ وعلا، غير خاف عليه تعالى سرٌّ من أسراركم، وإنما العرض لإفشاء الحال، والمبالغة في العدل، وفيه أعظم الزجر والوعيد، وهو خوف الفضيحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيل للعرض ﴿فَيَقُولُ﴾ سروراً به

وابتهاجاً، لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته وأقربائه ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر أي خذوا ﴿اقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ﴾ والهاءُ فيه وفي حسابيه، وماليه، وسلطانيه، للسكت، تثبت في الوقف، وتسقط في الوصل، واستحسن الوقفُ عليها.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب، يقوم مقام العلم، في العبادات والأحكام، أي إني كنتُ أظن أني ألاقي حسابي، فيؤاخذني ربي بسيئاتي، فقد تفضّل عليَّ بالعفو، ولم يؤاخذني بها، فخذوا اقرأوا كتابيه، قال تعالى:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا، يرضى بها صاحبها، لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، فالشيء إنما يكون مرضياً به، إذا كان مشتملاً على هذه الصفات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة لأنها في السماء، أو الأبنية.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قِطف، وهو ما يجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة من مريدها، ينالها القائم، والقائد، والمتكىء، ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ والجمع باعتبار المعنى ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً وشرباً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة، وكلُّ عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك فهو سلف ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، ولما حصل من الخجل والافتضاح ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ وهذا ينبِّهك أن العذاب الروحاني، أشدُّ من العذاب الجسماني.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليت الموت منها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه والضمير في ﴿يا ليتها﴾ يرجع للحياة الدنيا، أي يا ليت الحياة الدنيا، كانت الموتة النهائية، ولم أخلق حياً، تمنى الموت لأنه رأى تلك الحالة، أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ أي لم ينفعني ما جمعتُه في الدنيا من المال والأتباع، على أن «ما» نافية، أو استفهامية للإنكار، أيْ أيَّ شيءٍ أغنى عني ما كان لي من اليسار؟.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ أي زال عني سلطاني، فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي شدُّوه بالأغلال، فاجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس، ليكون الجزاء على وفق المعصية.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ وهي حلقات منتظمة، كلُّ حلقة منها في حلقة ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ أي طولها بذراع المَلَك، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول، كما قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد به مرات كثيرة، قال الحسن: الله أعلم بأيِّ ذراع ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ أي فأدخلوه فيها، بأن تلفوه على جسده، وهو مرهق لا يقدر على حركة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ تعليل، وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة، فمن تعظَّم على الله، استوجب أعظم العقوبات.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله، وذكرُ الحضِّ للإشعار بأن تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف تارك الفعل وتخصيص الأمرين بالذكر، لأن أقبح الذنوب: الكفر بالله، وأشنع الرذائل: البخلُ وقسوة القلب، وفيه دلالة على عظم جرم حرمان المساكين، لأنه تعالى عطفه على الكفر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يحميه ويرفع عنه ما يحترق له قلبه، لأن الأولياء يفرُّون منه، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار، من الغسل، والنونُ زائدة، وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم[2]، وقيل: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي الكافرون، الذين يتعدون حدود الله.

---

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) إن قلت: كيف قال هنا ﴿ولا طعامٌ إلا من غسلين﴾ وقال في موضع آخر ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي آخر ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فالجواب: إن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم من يكون طعامه الغسلين، ومنهم من يكون طعامه الزقوم ومنهم طعامه الضريع، ويمكن أن يكون طعامهم جميع ذلك، فتارة يأكلون من هذا، وأخرى من ذلك، والله أعلم.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ بالمشاهدات والمغيَّبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ على الله، هو محمد ﷺ يبلِّغه عن الله، فالمراد بالرسول هنا النبي ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، على معنى أن الذي نزل بالقرآن من عند الله هو جبريل، والقول الأول هو الأظهر، لأن الله تعالى ذكر بعده، أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر، والكهانة، بل كانوا يصفون به الرسول ﷺ، فهو كلام الله أظهره في اللوح المحفوظ، وكلام الرسول ﷺ بمعنى أنه أظهره، وقرأه على الخلق.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ ﴾ كما تدَّعون تارة ﴿ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ إيماناً قليلاً.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ ﴾ كما تدعون تارة أخرى ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً، والقلة في معنى العدم، يقال: هذه الأرض قلما تنبت، أي لا تنبت أصلاً والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون أصلاً.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي تنزيل من عند الرحمٰن، رب الخلق أجمعين.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ أي ادعى علينا شيئاً لم نقله، سمَّى الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه. .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك، وهو أن يأخذ الجلَّاد بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه، وقال ابن عباس ﴿باليمين﴾ أي بالقوة والقدرة.

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ الخطاب للناس ﴿ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن المقتول ﴿ حَٰجِزِينَ ﴾ أي دافعين، أي ليس أحد منكم يحجزه ويمنعه منَّا.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي نعلم من يكذب بالقرآن من المجرمين، فيجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة إذا رأوا ثواب المؤمنين وسعادتهم في الجنة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ لعين اليقين لا يحوم حوله ريب.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فسبح بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له تعالى عن افتراءات أهل الضلال، وعما يقوله هؤلاء السفهاء، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

* * *

سُورَةُ المَعَارِج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ①﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استدعاه، والسائل هو «النضر بن الحارث» فإنه قال: ﴿اللهمَّ إن كانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو أبو جهل فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء[1]، وصيغة الفاعل للدلالة على تحقق وقوعه.

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ②﴾.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي دعا للكافرين واستعجل بعذاب واقع على الكفار ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي ليس لذلك العذاب رادٌّ إذا نزل.

---

(١) استعجل مشركو قريش نزول العذاب عليهم، وطلبوا من الرسول ﷺ حين خوَّفهم عذاب الله، أن يعجّل لهم العذاب، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء كما قال سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ فنزل أول هذه السورة، رداً على أولئك السفهاء.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ③﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي واقع من عند الله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، بالأوامر والنواهي، وتنزل بأمره سبحانه ووحيه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④﴾.

﴿تَعْرُجُ﴾ أي تصعد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام زعيم الملائكة ورئيسهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه سبحانه، ومهبط أمره، وقيل هو من قبل قول إبراهيم عليه السلام ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي﴾ أي إلى أمر ربي ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدُّه الناس، وهو بيان لغاية طوله، بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: ﴿في يوم﴾ متعلقٌ بواقع، فالمراد به يوم القيامة، واستطالتُه إمَّا لأنه كذلك في الحقيقة، لأن يوم القيامة له أولٌ، وليس له آخر، أو لشدته على الكفار، وأيًّا ما كان، فذلك في حق الكافر، أمَّا في حق المؤمن فلا، لما روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا»(1).

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ متعلق بسأل سائل، لأن استعجال العذاب من الكافرين،

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٥ والبيهقي، وابن حبان، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٦٤.

على وجه الاستهزاء والتكذيب، وكان ذلك يضجر رسول الله ﷺ، فأُمر بالصبر عليه ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولا شكوىٰ.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾.

﴿إِنَّهُمۡ﴾ الكفار ﴿يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ مستحيلاً أو بعيداً عن الإمكان، فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ أي كائناً لا محالة، هيناً في قدرتنا، والجملة تعليلٌ للأمر بالصبر.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه يوم تصبح السماء سائلة كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، ويكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا فُتّت وطُيِّرت في الجو، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾.

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ أي لا يسأل قريب قريباً عن أحواله، ولا

يكلّمه، لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه وأمه وأبيه﴾ الآية.

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يبصر بعضُهم بعضاً، فيرى الرجل أخاه وصديقه، فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم من التساؤل، إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي يتمنى المشرك وقيل كل مذنب، وهو مستأنف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه، فضلاً أن يهتم بحاله، ويسأل عنها ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ.

﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ أي أخيه الذي ولدته أمه.

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الأدنين ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي تضمه في النسب إليها.

﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ثم للاستبعاد، يعني لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك لفعله، وهيهات.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم وتأنيب له، ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار، دلَّ ذكر العذاب عليها ﴿لَظَىٰ﴾ وهي عَلَم للنار، منقول من اللَّظى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿نَزَّاعَةً﴾ قلاَّعة ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ أي أطراف الإنسان كاليدين، والرجلين، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تَدْعُواْ﴾ بأسمائهم يا كافرُ، يا منافقُ، إليَّ إليَّ[1] ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة، فكان عاصياً فاجراً.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدِّ حق الله فيه، وتشاغل به عن الدين، وعبادة ربِّ العالمين.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي شديد الحرص، قليل الصبر، ويفسّره الآتي، وهو قوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح فصيح، تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ ـ اهـ تفسير ابن كثير.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الضُرُّ ﴿جَزُوعًا﴾ أي يكثر الجزع والضجر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ السعة ﴿مَنُوعًا﴾ أي كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل الله عليه، فيشح ويبخل.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء من المطبوعين على القبائح الماضية.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ أي الصلوات الخمس المفروضة ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي نصيب معيَّن، هي الزكاة لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤديها في أوقات معلومة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل لحاجته ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، يصدِّقون بأعمالهم بالطاعات البدنية والمالية، طمعاً في المثوبة الأخروية.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ألاَّ يتقبل الله عملها الصالح.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا ينبغي لأحدٍ أن يأمن عذابه جلَّ وعلا، فالأمور بخواتيمها، والخشية من الله دليل الإيمان ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ يحفظونها عن الزنى والفواحش.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي غير مؤاخذين لأنها فيما أباحه الله لهم.

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين، فأولئك هم المعتدون، المجاوزون الحدَّ في الطغيان والإجرام.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ يقيمونها بالعدل، بلا ميل إلى قريب أو شريف، ولا يكتمونها، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، لإبانة فضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعون شرائطها، ويكمّلون فرائضها، وسننها، وآدابها، كرَّر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم العبادات، وتكرار الموصولات، لتنزيل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذات، إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة، نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أصحاب هذه الصفة ﴿ فِي جَنَّٰتٍ ﴾ أي مستقرون في قصور عالية في جنان النعيم ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ فيها بأنواع الإكرام.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كتب مفصولاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ﴿ قِبَلَكَ ﴾ أي حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهزئون به ويكذبونه.

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي عن يمينه ﷺ وعن شماله ﴿ عِزِينَ ﴾ أي فرقاً شتَّى جمع عِزَة، وأَصلها عزوة والعِزَةُ وزان عِدَة: الطائفةُ من الناس يأتون متفرقين، يقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم، فنزل قوله تعالى:

﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمان؟ وهو إنكار لقولهم المذكور.

﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ من نطفة قذرة، لا تناسب عالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بالأخلاق الملكية، لم يستعدَّ لدخولها، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة، وهم مكبون على الكفر والفسوق والفجور؟.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ مطالع الشمس ﴿ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ مغاربها، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكر، فأقسم برب المشارق والمغارب.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ ﴾ أي على أن نهلكهم، ونأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى، ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك.

﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي دعهم في غيهم وضلالهم، يتلهون بالدنيا الفانية، حتى يُلاقُوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي ينتظرهم، وهو أمر يحمل بين جنباته الوعيد والتهديد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي مسرعين إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وهو كل ما نُصب وعُبد من دون الله تعالى[1]، أو إلى شيء منصوب كالعلم والراية ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون الخُطا.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي ذليلة أبصارهم، يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي وُعدوا به في الدنيا، وهم يكذبون به ويهزؤون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم. والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

* * *

---

(١) في هذا التشبيه تهكمٌ وسخرية لاذعة، تتناسق مع وصفهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب والأصنام في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى نار الجحيم ليقتحموها ﴿كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾ أي يسرعون، فما أروعه من تصوير؟!.

سُورَةُ نُوحٍ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن قلنا له: أنذر وخوِّفْ قومك الكافرين.

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو عذاب الآخرة، أو الدنيا.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي أنا لكم منذر، موضح لحقيقة الأمور، أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة عليهم.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وذروا عبادة الأوثان، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما سبق، فإن الإسلام يمحو ما قبله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لهم بشرط الإيمان والطاعة، أي يمهلكم إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبة ولا عذاب، وأما العمر فمحدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما المراد تأخيرهم لاستكمال أعمارهم، دون عقاب ولا عذاب ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما قُدِّر لكم، على تقدير بقائكم على الكفر ﴿ إِذَا جَآءَ ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ أي لا يتأخر نزوله. فبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان!! ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو عرفتم ما يحلُّ بكم من الندامة، عند انقضاء الأجل، ما عبدتم هذه الأوثان.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى ﴾ أي قال نوح مناجياً ربه، حاكياً ما جرى بينه وبين قومه، بعدما بذل في الدعوة غاية المجهود، قال يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي دائماً بلا فتور، في الصباح والمساء، والليل والنهار.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلاَّ نفاراً وإدباراً.

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ لكيلا يسمعوا كلامي ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني، أولئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ عن اتباعي ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي شديداً، وذكرُ المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي دعوتهم دعاء جهاراً.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، أي فدعوتهم تارة بعد تارة، على وجوه متخالفة من السر والعلن.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ للتائبين، وكأنه لما أمرهم بالعبادة، قالوا: إن كنا على حقٍّ فلا نتركه، وإن كنا على باطل، فكيف يقبلنا الله؟ فأمرهم بما يمحو معاصيهم، ويجلب إليهم الخير، ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم، وأحب إليهم، من الفوائد العاجلة.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ ﴾ أي المطر ﴿ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ كثير الدرّ، أي غزيراً متتابعاً.

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾ أي يزدكم ويكثركم بالرزق ﴿وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ أي بساتين وحدائق غناء ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ فيها ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم وهذا كله مما يميل إليه طبعُ البشر، وقيل: لمَّا كذبوا بعد تكرار الدعوة، حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، والعيش الرغيد، ويدفع عنهم ما كانوا فيه من الضيق.

﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾﴾.

﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾؟ أي ما لكم أيها القوم لا ترهبون عظمة الله وجلاله؟ وهو إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله وقاراً.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ الطَّوْرُ بالفتح: الحالةُ والهيئة، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين في أطوار متباينة، عناصر، ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم عظاماً ثم لحماً، ثم أنشأكم خلقا آخر، فإن التقصير في توقير من هذه شؤونه مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ أي بعضها فوق بعض، كتطابق بناية ذات أدوار.

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي في السماء الدنيا منوّراً لوجه الأرض، في ظلمة الليل، ونسبته إلى الكل مع أنه في السماء الدنيا، لما أنها محاطة

بسائر السماوات[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها وجه الأرض، ويشاهدون الآفاق، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي أنشأكم منها، كما يخرج النبات من الأرض، فاستعير الإنبات للإنشاء، لكونه أدل على الحدوث، والتكون من الأرض، ولم يقل إنباتاً، لأن الإنبات صفة لله تعالى، غير محسوسة لنا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققاً لا ريب فيه، أكّده بالمصدر، دلالةً على أن الإعادة محقَّقة، لا شك فيها.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها كما يتقلّب الرجل على بساطه[2]، فهي فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالفراش والبساط.

---

(١) صحّ كون القمر في السماوات مع أنه ليس داخلها، بل تحت السماء الأولى، بدليل قوله سبحانه ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وأقربُها إلينا القمر، ذلك لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، كما نقول: عليٌّ في المدينة، وهو في جزء منها، وليس في جميع أنحاء المدينة، فالقمر تحت السماء الأولى، وهو مع جميع الكواكب محاط بالسماوات السبع، فكأنه فيها، ولهذا نقول: إن وصول الإنسان للقمر ممكن، وقد حدث فعلاً، وليس فيه اختراق للسماوات، فتنبه إلى معاني الآيات رعاك الله.

(٢) ليس معنى الآية أن الأرض منبسطة غير كروية، بل المعنى أن الله سبحانه قد جعلها فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالبساط الذي يفترشه الناس، ليست كلها جبالاً =

﴿ لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا ﴾ أي طُرُقاً ﴿ فِجَاجًا ﴾ أي واسعة أو مختلفة تنتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾ مناجياً له تعالى ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي تمادوا على عصياني وتكذيبي، مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي استمرَّ فيهم السفلة والفقراء، على اتباع رؤسائهم، الذين أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي كبيراً في الغاية، متناهياً في المكر والدهاء، ومكرُهم احتيالُهم في الدين، وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام، وصدُّ الناس عن الإيمان به.

= ووديانا، بل فيها السهول الفسيحة، ليبني عليها الإنسان ويزرع، وكروية الأرض أمر مقطوع به، عرفه علماؤنا الأقدمون، وقد سئل ابن تيمية كما في الفتاوى ٦/٥٨٨ عن السماوات والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب لا أعلم في علماء المسلمين المعروفين، من أنكر ذلك، إلا من لا يؤبه له من الجهال، واستدل بآية ﴿كل في فلك يسبحون﴾ وبآية ﴿يكور الليل على النهار﴾ وقال: التكويرُ هو التدوير.. الخ وقال الألوسي ٢٩/٧٦: وكرويتها، كالأمر اليقيني، والكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، أهـ.

﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي عبادة آلهتكم على وجه العموم ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ صنم على صورة رجل ﴿ وَلَا سُوَاعًا ﴾ صنم على صورة امرأة ﴿ وَلَا يَغُوثَ ﴾ وهو على صورة أسد ﴿ وَيَعُوقَ ﴾ على صورة فرس ﴿ وَنَسْرًا ﴾ هو على صورة نسر، أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما «وَدٌّ» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأمّا «نسر» فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين من قوم نوح..»[1] الحديث.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ ﴾ أي الرؤساء ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ أي هلاكاً ودماراً.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ أي بسبب خطيئاتهم المعدودة ﴿ أُغْرِقُوا۟ ﴾ بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ المراد عذاب القبر فهو عقب الإغراق، وإن كانوا في الماء،

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/ ٦٦٧.

فالآية دالة على إثبات عذاب القبر، لأن فاء التعقيب تدل على هذا، ولا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلاّ بطل معنى الفاء، التي تفيد معنى الترتيب والتعقيب، فإن قيل: إنا نشاهد أنهم ماتوا في الماء؟ فالجواب إن هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ، لما أن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول العمر، ثم أجزاؤه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير متبدل، فالإنسان عبارة عن ذلك الباقي، وتنكير النار لتعظيمها وتهويلها ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يجد أحد منهم، واحداً من الأنصار، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وهذه الآية حجة على كل من عوَّل على شيء غير الله تعالى.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً يدور في الأرض، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال ما بالدار ديَّار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي إن تركتهم يا رب ولم تهلكهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحق ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي إلا من سيفجر، وسيكفر، وإنما قاله لاستحكام علمه، بما يكون منهم، ومن أعقابهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ توجَّه نوح عليه السلام لربه، بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فبدأ بالدعاء لنفسه

أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم لمن زار بيته ثالثاً، ثم عمَّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا توجيه لكل مسلم أن يدعو بالمغفرة لنفسه، ولوالديه، ولجميع إخوانه من المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي إلا هلاكاً وخساراً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم جميعاً. والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

* * *

سُورَةُ الجِنِّ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن ﴿اسْتَمَعَ﴾ أي القرآن كما ذكر ﴿نَفَرٌ﴾ أي جماعة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أي المخلوقين المستورين عن الأنظار، المكلفين كالإنس بالإيمان والعبادة، وفيه دلالة على أنه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، ولم يشعر باستماعهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، فسمعوها، فأخبره الله بذلك، والحاصل من الكتاب والسنة، أن الجن موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسولٌ إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه، فهو من المؤمنين، ومن كفر به فهو من الشياطين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في صلاة الفجر ﴿قُرْآنًا﴾ كتاباً مقروءاً ﴿عَجَبًا﴾ أي عجيباً، بديعاً، مبايناً لسائر الكتب، في حسن نظمه، وصحة معانيه، والعجيبُ ما يكون خارجاً عن العادة، وعجباً مصدر يوضع موضع العجيب، وهو أبلغ من العَجَيب[١].

---

(١) لمَّا حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، رجعوا إلى قومهم=

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي يهدي من تمسك به إلى الحق والصواب، وإلى التوحيد ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ بالقرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ﴾ بالله ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه، أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به، وهذا يدل على أنهم كانوا من المشركين.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي عظمته وجلاله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تعالتْ عظمته من أن يتخذ زوجة، ولا ولداً، لأنهم لمَّا سمعوا القرآن، ووفّقوا للتوحيد والإيمان، تنبهوا فيما اعتقده كفرة الجن، من تشبيه الله تعالى بخلقه، من اتخاذ الصاحبة والولد، فنزهوه عنه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي جاهلنا إبليس، أو مردة الجن ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحدِّ، يريدون به الكفر، لبعده عن الصواب.

= فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، قالوا: فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا نحو تهامة ـ يعني مكة ـ فرأوا رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، واستمعوا إلى الرسول وهو يقرأ القرآن، فتأثروا به بالغ التأثير، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾ وأنزل الله عز وجل على نبيه هذه السورة الكريمة ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن..﴾ السورة..، وانظر تمام الحديث في صحيح البخاري ٨/ ٦٧٠ من كتاب التفسير.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ٥﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهو اعتذار منهم عن تقليدهم سفيههم، أي كنا نظن أن لن يكذب أحد على الله تعالى أبداً، ولذلك اتبعناهم، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله، ونسبوا إليه ما لا يليق به سبحانه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ كان الرجل من العرب، إذا نزل بمخوفٍ من الأرض، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد به كبير الجن ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي فزاد الرجال العائذون الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾ أي كبراً وعتواً، والرَّهق: الإثم والطغيانُ.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ٧﴾.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ أي الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجن، على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم يا معشر الجن.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ٨﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي طلبنا بلوغ السماء ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ أي حراساً اسم جمع، ولذلك قيل ﴿شَدِيدًا﴾ ولو نظر إلى معناه لقيل: شِدَاداً، وهم الملائكة الذين يمنعونهم عن استراق السمع ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب أي شُهباً محرقة تقذف من يحاول الاقتراب منها.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ أي قبل هذا ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من السماء ﴿ مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ ﴾ لاستماع أخبار السماء، خالية عن الحرس والشهب ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي يجد شهاباً راصداً له، يصدُّه عن الاستماع بالرجم، وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث رسول الله ﷺ، ولكنْ لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه، في شدة الحراسة، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بُعث ﷺ مُنعوا من ذلك أصلاً.

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾.

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾ بهذا، أي بعدم استراق السمع ﴿ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾؟ خيراً ورحمة، ونسبةُ الخير إلى الله، دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، نطق بها الجن، حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه[1]، كقول إبراهيم عليه السلام ﴿والَّذي هو يُطْعِمني ويَسْقِين. وإذا مرضْتُ فهو يَشْفين﴾[2].

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ ﴾.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ أي الموصوفون بالتقوى، المائلون إلى الخير

---

(١) الخير ينسب إلى الله خلقاً وتقديراً، والشرُّ لا ينسب إليه أدباً وإجلالاً، وإن كان كلٌّ من الخير والشر، بتقدير من الله سبحانه: ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾ وكما ورد في الحديث الشريف «وأن تؤمن بالقَدَر خيره وشره من الله تعالى».

(٢) سورة الشعراء، آية: ٧٩ ـ ٨٠.

والصلاح، حسبما تقتضيه الفطرة السليمة، لا إلى الشر والفساد، كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قوم أشرار دون ذلك، فيدخل فيه الكافر وغيره، وهذا بيان حالهم قبل استماع القرآن، وأما حالهم بعد الاستماع فسيُحكى ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ أي مذاهب ﴿قِدَدًا﴾ أي متفرقة ومختلفة، جمع قِدَّة من قَدَّ إذا قطع، والقِدَّةُ: الطريقةُ والفرقة من الناس.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ الظنُّ هنا بمعنى العلم واليقين، أي علمنا وأيقنَّا الآن، بعد سماعنا القرآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لن نعجزه كائنين في الأرض، أينما كنا فيها، إن أراد بنا سوءاً أو مكروهاً ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي ولن نعجزه هاربين منه إلى السماء، فنحن في قبضة الله وسلطانه حيثما كنا، ولن نفلت من عقابه إن كفرنا به.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا بالله تعالى من غير تردد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ أي نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ظلماً أو مكروهاً يغشاه، وفيه دليل على أن من حق الإيمان أن يجتنب المظالم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن طريق الحق،

وهو الإيمان والطاعة ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أي طلبوا هدى، والتحري طلب الأحرى أي الأولى، أي توخَّوْا رشَداً عظيماً، يبلّغهم إلى دار الثواب.

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي وقوداً لجهنم، وفيه دليل على أن الجن يُعذَّبون في النار، واللهُ قادر أن يعذب النَّارَ بالنار.

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) ﴾.

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ أي وأنه الحال والشأن أن لو استقام الإنسُ والجنُّ ﴿ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ طريقة الإسلام، وأطاعوا الله ورسوله ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أي كثيراً وافراً، ينبت لهم الزرع، ويخرج لهم الضرع، وتخصيصهُ بالذكر، لأنه أصل المعاش والسعة.

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾.

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾ أي لنختبرهم ونبتليهم في هذه التوسعة، أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ ﴾ عن القرآن أو التوحيد ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ أي ندخله ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي شاقّاً، صعباً، شديداً، يعلو المعذَّب ويغلبه، لا يجد معه الإنسان الراحة والسعادة، يقال: تصعَّدني الأمرُ، أي شقَّ عليَّ، ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ هذا من جملة الموحَىٰ به، أي المساجد مختصة به تعالى، وبعبادته[1] ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ أي لا تعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي غيره، فهي بيوت الله، بنيت لذكره وعبادته وتوحيده، لا ليمدح فيها الملوك والعظماء.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ وهو الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يعني الرسول ﷺ، وإنما ذكر لفظ العبد للتواضع، فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، وللإشعار بما هو المقتضي لقيامه وعبادته، ولأنه أحب الأسماء إليه ﷺ وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ﴿كَادُواْ﴾ أي الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي متراكمين من ازدحامهم عليه، حرصاً على استماع القرآن، وتعجباً مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به قياماً، وركوعاً، وسجوداً، ولأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا بنظيره.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي أعبد ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي بربي في العبادة ﴿أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع، ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عداوتي.

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) كما روي في الحديث الشريف «إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يُكرم من زاره فيها» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود مرفوعاً، كما في الفتح الكبير ١/ ٣٨٥.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي مضرة ولا نفعاً، وإنما الضارُّ والنافع هو الله تعالى.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أرادني بسوء ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُلْتَجأً التجيء إليه، وهذا بيان لعجزه ﷺ عن شؤون نفسه، بعد بيان عجزه عن شؤون غيره، والمُلتحَدُ: اسم الموضع وهو الملجأ.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، لكنْ أبلّغ بلاغاً فإنما أنا مرسل ومبلّغ، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ التي أرسلني بها ربي ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مخلدين في النار بلا نهاية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ من فنون العذاب في الآخرة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون؟.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥﴾.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي غايةً بعيدة، فإنه رد لما قاله المشركون عند سماعهم

ذلك متى يكون ذلك الموعود؟ إنكاراً له واستهزاءً به، فقيل: قل لهم إنه كائن لا محالة، وأما وقته فما أدري متى يكون؟.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي هو سبحانه عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ أي فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه اطلاعاً كاملاً موجباً لعين اليقين.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا من ارتضاه من رسله الكرام، فيطلعه على بعض الأمور الغيبية، كما أَطْلَع عيسى عليه السلام على بعض المغيبات لمعجزة له ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ وفي هذا إبطال الكهانة والتنجيم ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ أي يدخل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي من بين يدي المرتَضىٰ ﴿رَصَدًا﴾ أي حفظة من الملائكة، يحفظونه من الشياطين، ويعصمونه من وساوسهم، حتى يُبلِّغ الوحي الإلهي.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَعْلَمَ﴾ أي ليعلم الله تعالى ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي الرسل ﴿رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كاملة بلا زيادة ولا نقصان، ورسالات ربهم عبارة عن الغيب والوحي، والمعنى: ليعلم الله موجوداً حال وجوده، كما كان يعلمه قبل وجوده ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط علم الله تعالى بما قام به الرسل، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي وأحصى الله وضبط ما خلق، وعرف كل شيء

خَلَقه، حتى القطرُ والرمل، فلم يخف عليه شيء في هذه الكائنات، والله بكل شيء عليم، على وجه الدقة والتفصيل. والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»

* * *

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه، أي تلفَّف بها، وكان ﷺ نائماً بالليل فأمر بالقيام للصلاة، وذلك أول ما جاء جبريل عليه السلام بالوحي عليه، فرجع إلى خديجة وهو يقول: زملوني، زملوني، وتخصيص وصف التزمل بالخطاب، للملاطفة والتأنيس.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي قم إلى الصلاة وداوم عليها، وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام عليه ﷺ، روى مسلم عن سعد بن هشام قال: «انطلقتُ إلى عائشة، فقلت: «أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فقلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألست تقرأ المزمِّل؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني

عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة»[1] ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي إلا القليل منه.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من الليل الباقي، أي قُمْ نصف الليل لعبادة ربك ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي انقص القيام من النصف إلى الثلث ﴿قَلِيلًا﴾ أي نقصاً قليلاً، بحيث لا ينحطُّ إلى نصف النصف.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى: تخييره ﷺ بين أن يقوم نصفه، أو أقل منه، أو أكثر ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في أثناء القيام، أي اقرأه على تؤدةٍ، وتبيين حروف، بحيث يتمكن السامع من عدِّها ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغاً يعين الإنسان على فهم كلام الله، والترتيل: تنسيقُ الشيء، أمره تعالى بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل، في حقائق تلك الآيات، فعند ذكر الله يستشعر عظمته، وعند ذكر الوعد والوعيد، يحصل الرجاءُ والخوفُ، وحينئذ يستنير القلب بنور المعرفة والمناجاة، عن سهل بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقام السهم، يتعجل أجرَه ولا يتأجله»[2] وفي رواية «لا يجاوز تراقيهم».

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم ٧٤٦، وهو طرف من حديث طويل، فيه أحكام شرعية كثيرة.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ٨٣١ باب ما يجزىء الأميَّ والأعجمي من القراءة، ولفظه كما في أبي داود: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترىء - أي نتبارى في القراءة فقال: الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر وفيكم الأبيضُ، وفيكم الأسود، اقرؤوه قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقوم السهم. . » الحديث.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ ﴾ سننزل عليك يا محمد قرآناً عظيماً جليلاً، وإيثارُ الإلقاء لقوله تعالى ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي كلاماً جليلاً، عَظُم قدرُه، وكَبُرَ خطرهُ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: كلاماً عظيماً، ووجهُ النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل، فكأنه قال إنما أمرتك بصلاة الليل، لأنا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بدَّ أن تسعى في جعل نفسك، مهيأة مستعدة، لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلاّ بصلاة الليل، ولقد كان رسول الله ﷺ يلاقي عند نزوله شدة، لأنه كلام الجبار جلَّ وعلا، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً» قولها «فيفصم» أي ينفصل، و «يتفصَّدُ» أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفصد.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ أي العبادة التي تنشأ بالليل، أي تحدث، أو ساعات الليل، وكان زين العابدين يصلي بين العشائين ويقول: هذه ناشئة الليل وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي، وقالوا: لأن ناشئة الليل التي منها يبتدىء سواد الليل ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ أي هي أشد كُلفةً على المصلي من صلاة النهار، فلا بد من الاعتناء بالقيام، ثم أهي أشد موافقة من الخشوع والإخلاص، فكأنه تعالى قال: أمرتك بصلاة الليل، لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، والخواطر إلى المكاشفات الروحانية أتم ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي وأشد مقالاً، وأثبت قراءة لحضور القلب، وهدوء الأصوات، والحاصل أن عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك، واشتغالاً بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي إلى قيام الليل.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي دم على ذكره ليلاً ونهاراً، على أيِّ وجهٍ كان، من تسبيح، وتهليل، وتحميد، وصلاة، وقراءة، ودراسة علم ﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ أي انقطع إليه تعالى بمجامع الهمة، واستغراق العزيمة في مراقبته تعالى، والتبتلُ: الانقطاع إلى الله تعالى، وطلب الخير منه دون غيره، وحيث لم يكن ذلك إلاَّ بتجريد نفسه ﷺ عن العلائق الصادَّة عما سواه قيل: تبتيلاً.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي هذا الخالق هو المالك لمشارق الأرض ومغاربها ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ أي إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب ولا معبود إلا هو، فاتخذه كافياً لأمورك، واعتمد عليه جلَّ وعلا.

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾.

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المجرمين، على ما يقولون في ذات الله من الصاحبة والولد، وفيك من الساحر والشاعر ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ بأن تجانبهم وتداريهم، وتكل أمورهم إلى ربهم، كما يعرب قوله تعالى:

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾.

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي دعني وإياهم، ووكِّل أمرهم إليَّ فإني أكفيكهم

﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي أرباب التنعم يريد صناديد قريش ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي أمهلهم زماناً قليلاً.

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢﴾.

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ للكافرين ﴿أَنكَالٗا﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل ﴿وَجَحِيمٗا﴾ أي ناراً محرقة.

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾.

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي تضطرب وتتزلزل وهو يوم القيامة ﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا﴾ رملاً مجتمعاً من كثب الشيء إذا جمعه الفعيل بمعنى المفعول ﴿مَّهِيلًا﴾ منثوراً.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ يا أهل مكة ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ وهو موسى عليه السلام، وعدم تعيينه لعدم دخوله في التشبيه، وكونه معلوماً من سياق الآيات.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ كما عصيتم الرسول محمداً ﷺ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء، ما حاق بأولئك لا محالة، والوبيلُ: الوخيمُ وزناً ومعنى.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ إن بقيتم على الكفر ﴿ يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ ﴾ من شدة هوله ﴿ شِيبًا ﴾ شيوخاً جمع أشيب بطريق التمثيل، فهو كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم، يجعل الولدان شيباً حقيقة، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان، غير جائز يوم القيامة، فالموضوع من باب التشبيه، والهموم والأحزان، إذا تفاقمت على المرء أضعفت قواه، وأسرع فيه الشيبُ.

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ أي منشقٌّ بشدة ذلك اليوم، أي السماء على عظمها وإحكامها، تنفطر لشدة ذلك اليوم، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أي وعد الله تعالى يكون لا محالة.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ أي الآيات الناطقة بالوعيد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة بليغة ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ أن يتعظ ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ بالتقوى والخشية والعمل الصالح، فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته سبحانه وتعالى.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي أقلَّ منهما، فاستعير الأدنى وهو الأقرب، للأقل، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت، قلَّ ما بينهما ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ أي تقوم نصفه، وثلثه ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي جماعة من أصحابك ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي والله جلَّ وعلا هو العالم بمقادير ما تقومون وما تنامون، لا يعلم مقادر ساعاتها كما هي إلا الله ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي علم أن لن تطيقوا قيامه على هذه المقادر، إلاَّ بشدة ومشقة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، والتخفيف، برفع التبعة كما رفع عن التائب، فإذا كان الأمر كما ذكر ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ ﴾ في الصلاة، والأمر للوجوب ﴿ مَا تَيَسَّرَ ﴾ عليكم ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أو فصلُّوا ما تيسَّر عليكم من صلاة الليل، عبّر عن الصلاة بالقرآءة كما عبَّر عنها بسائر أركانها، قيل: كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعَسُر عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ أي من يشقُّ عليه قيامُ الليل، وهي حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يسافرون للتجارة وطلب الرزق ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يطلبون رزقه بالتجارة ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الغزاة والمجاهدين، سوَّىٰ بين المجاهد والمكتسب، لأن كسب الحلال جهاد، روي عن ابن مسعود أنه قال: «أيمّا رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عند الله بمنزلة الشهداء،

ثم قرأ: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾ الآية ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم، وللتأكيد ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوا الصلوات الخمس المفروضة عليكم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاقات في سبيل الخيرات، وإنما أضافه إلى نفسه، لئلا يمنَّ على الفقير فيما يتصدق به ﴿قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ من الحلال، والإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ مما خلفتم ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مجامع أحوالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ يستر ويخفف، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمّل»

* * *

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: فبينا أنا أمشي، سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء، جالسٌ على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئثت منه رُعْباً، حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ أهلي فقلتُ: زمِّلوني، زمِّلوني، فدثِّروني، فأنزل الله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ أي يا أيها المتلفِّفُ بثيابه، من الدِّثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الملابس الداخلية، وأصله المتدثر، فأدغم.

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾.

﴿ قُمْ ﴾ من مضجعك قيام عزم وتصميم ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ أي فحذّر قومك من عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أو مطلق للتعميم، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ والمراد فاشتغل بفعل الإنذار.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي خُصَّ ربك بالتكبير، وهو التعظيم، ويروى أنه لمّا نزلت قال ﷺ: «الله أكبر» وأيقن أنه الوحي، لأن الشيطان لا يأمر بذلك، فإن قلت: وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت، قلنا: لا يبعد أنه ﷺ كانت له تطوعاً فأمر بأن يكبّر فيها، أو للدلالة على أن المقصود أولاً أن يكبّر ربه وينزّهه من الشرك، فإنه أول ما وجب.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ وذلك بصيانتها عن النجاسة، وغسلها بعد تلطخها، وبتقصيرها، فإن طولها يؤدي إلى جر الذيول على القاذورات، وهو أول ما أمر به ﷺ من رفض العادات المذمومة، وقيل: هو أمرٌ بتطهير النفس، مما يستقذر من الأفعال، يقال: فلانٌ طاهرُ الثوب والذيل، إذا وصفوه بالنقاء عن المعائب ومدانس الأخلاق.

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ .

﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ أي عبادة الأوثان وما يؤدي إليها ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ اثبت على هجره، لأنه ﷺ كان بريئاً من ذلك، وأصلُ الرجزِ: العذابُ، سميت الأوثان رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب، وقال الفخر الرازي: الرجزُ اسم للقبيح المستقذر.

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ ﴾ .

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تعط مستكثراً، أي رائياً لما تعطيه كثيراً،

لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً، وقيل: معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره[1].

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ أي لأمره ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على أذية المشركين لأجل أمر ربك.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ ﴾.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ أي نفخ في الصور، وهو من النقر بمعنى التصويت، والفاء للسببية، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل، يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك.

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ ﴾.

﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ذلك اليوم الشديد ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي فيوم الحساب يوم عسير.

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيد لعسره عليهم، مشعرٌ بيسره على المؤمنين، واختلف في كون المراد به النفخة الأولى أو الثانية، والحق أنها الثانية إذ هي التي يختص عسرها بالكافرين.

---

(١) هذا قول الحسن البصري واختاره ابن جرير الطبري، وروي عن ابن عباس أن المعنى: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وهذا وإن كان حلالاً بالنسبة لعامة المسلمين، لكنه مخلٌّ بمنصب النبوة، لأن هدف الأنبياء أسمى وأعلى من أن تكون الدنيا غاية وهدفاً لهم، وأما غير الأنبياء فذلك جائز لهم للحديث الشريف «تهادوا تحابوا».

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ نزلت في «الوليد بن المغيرة» أي ذرني وحدي معه، فإني أكفيكه، أو هو حال من العائد المحذوف، أي من خلقته فريداً لا مال له، ولا ولد، وكان يقول: أنا الوحيد وليس في العرب نظيري.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أي مبسوطاً، كثيراً، واسعاً، فقد كان له الزرع، والضرعُ، والتجارة.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أي أولاداً حضوراً معه بمكة، لا يفارقونه، ولا يحتاج أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، و كان له عشرة بنين، فأسلم منهم ثلاثة: خالد، وعمارة، وهشام.

﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ وبسطت له الجاه والرياسة حتى لُقِّب «ريحانة قريش» والوحيد.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ على ما أوتيه و «ثم» ههنا معناه التعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك، ثم أنت تشتمني!؟ وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر.

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع له وقطع لرجائه، فلم يزل بعد نزول الآية، في نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي معانداً للقرآن وجاحداً، وكان كفره كفر عناد، وهو أن يعرفه بقلبه وينكره بلسانه، وهذا أقبح الكفر.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ أي سأغشيه عقبة شاقة المصعد، بدل ما يطمع فيه من الزيادة في العطاء، وهو مثل لما يلقى من الشدائد.

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ ﴾ أي فكّر ماذا يقول في شأن القرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ في نفسه ما يقول وهيأه.

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقُتِلَ ﴾ أي لُعن ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾؟! تعجيب من تقديره، أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمات السفيهة التي ردَّدها في نفسه، والغرض منه الاستهزاء به، على كلامه السخيف. روي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، فقالت قريش والله لقد صبأ الوليد، والله لو صبأ لتصبأنّ قريش كلُّها فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده حزيناً، وكلمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه

شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر فقال ما هو إلا ساحر، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرقوا معجبين بقوله، فنزلت فيه الآيات.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ كرره للتأكيد، و «ثُمَّ» يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول أي قاتله الله ما أروع تفكيره؟.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي أجال النظر في القرآن مرة بعد مرة.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطّب وجهه، لمّا لم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول؟ ﴿ وَبَسَرَ ﴾ زاد في التقبض والكلوح، قال الليث: عبس إذا قطّب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك وفكّر فيه قيل: بسر.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي أدبر عن الحق والإيمان ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أي تكبر عن قبول ما جاء به الرسول ﷺ وعن اتباعه، وإيراد «ثم» في المعطوفات، لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي يُروى عن السحرة والفاء للدلالة على أنه خطرت هذه الكلمة بباله، فتفوَّه بها، من غير تلبث وتفكر.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ما هذا القرآن إلا كلام البشر، تأكيد لما قبله، ولذلك لم يعطف عليها.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿سَأُصْلِيهِ﴾ أي سأدخله ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم وقيل آخر دركاتها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ؟ أي وما أعلمك أي شيء هي؟.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لَا تُبْقِي﴾ أي هي لا تبقي لحماً ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عظماً إلا أهلكته.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي هي لواحة للبشر جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد، أي مسودة للجلود ومحرقة لها، وقيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل، وقيل تلوح للناس[1]، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِينِ﴾.

---

(١) هذا القول هو الأظهر والأرجح أي أن نار جهنم تلوح وتظهر لأنظار الكفار والفجار، من مسافات بعيدة كما قال سبحانه: ﴿وبُرِّزت الجحيم للغاوين﴾ وأما القول الأول =

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي ملكاً يلي أمرها، وهذا العدد إنما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين: ١ - يستهزئون ويقولون: لمَ لم يكونوا عشرين ٢ - ويقولون كيف يكونوا وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من أول الخلق إلى يوم القيامة، فمدار هذين السؤالين عدم الاعتراف بكمال قدرة الله تعالى ومن آمن واعترف بكونه قادراً على جميع المقدورات، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا، زال عن قلبه هذه الاستبعادات!! وقد كان ﷺ يعلم من حال كفار قريش، أنه متى أخبرهم بهذا العدد يستهزئون به، فلما ذكره علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو التبليغ، وأنه لا يبالي في ذلك بتكذيب المكذبين.

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي المدبِّرين لأمرها، القائمين بتعذيب أهلها ﴿ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ليخالفوا جنس المعذبين، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة، ولأنهم أقوى الخلق، وأشدُّهم بأساً، روي أنه لما نزل قال أبو جهل لقريش: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشدّ:

= أنها محرقة للجلود، مسوّدة لها، وأن البشر جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فأيُّ فائدة في هذا بعد قوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ إذا كانت تأكل اللحوم والعروق والعظام والجلود؟.

أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين؟ فنزلت الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما جعلنا عددهم، وهو تسعة عشر، وليس المراد مجرد جعل عددهم، ذلك العدد المعين، بل ذكره في القرآن، إذ بذلك يتحقق افتتانهم، باستبعادهم واستهزائهم به، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته ﷺ، وصدق القرآن، لموافقته لما في كتابهم، فأهل الكتاب يقرؤون في كتابهم أن عدد الزبانية تسعة عشر، لكنهم ما كانوا يعوّلون على ذلك، لعلمهم تطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، قوي إيمانهم بذلك ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي يزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم، وهو تأكيد لما قبله من الاستيقان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شبهة ما ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك أو نفاق فيكون إخباراً بما سيكون بعد الهجرة، وعلى هذا تصير الآية معجزة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المصرُّون على التكذيب ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أيْ أيَّ شيء أراد الله بهذا العدد، المستغرب استغراب المثل، والذي يشبه المثل في الغرابة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدَّق به كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، لصرف اختياره، إلى جانب الضلال ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته، لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات، إلى جانب الهدى، وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله تعالى بالهداية والإضلال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه، وكأنَّ القوم استقلوا ذلك العَدد، فقال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك﴾ فهب أن هؤلاء تسعة عشر، ولكل واحد منهم من الأعوان والجنود، ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وفي هذا العدد حكمة لا يعلمها إلا هو ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيل لأحد حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي وما سقر وصفتها وعدة الخزنة ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي تذكرة وموعظة للناس.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لمن أنكرها، أي ليرتدع هؤلاء السفهاء عن السخرية والاستهزاء، فليس كما زعموا أنهم يصارعون الملائكة، ثم أقسم لهم ببعض الآيات الكونية فقال ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ أي أقسم به لعظم منافعه.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ ولى وذهب.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أضاء وكشف.

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي جهنم ﴿ لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ أي لإحدى البلايا، أو الدواهي الكبرى، ومعنى كونها إحداهن، أنها من بينهن واحدة في العظم، كما تقول: هو أحد الرجال.

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾ تمييز، أي لإحدى الكبر إنذاراً، تنذرهم بما وراءهم من خطر.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضله، وقد تمسك بهذه الآية،

من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل، وأنه متمكنٌ من فعل نفسه، وهم المنكرون للقَدَر، وجوابه أن فعل العبد، معلَّق على مشيئته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ التاء ليست بتأنيث رهن، لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، لا تدخله التاء، وإنما هي اسم بمعنى الرهن، والمعنى: كل نفس مرهونة عند الله تعالى.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.

﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي هم في جنات النعيم، في حدائق وبساتين، يتساءلون عن الكفار والفُجّار.

﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسألونهم عن أحوالهم، وعن سبب دخولهم النار، وسؤالهم لهم إنما هو سؤال تعنيفٍ وتوبيخ، لإدخال الحسرة على قلوبهم، لا سؤال استفسار، فهم عارفون بالسبب الذي أدخلهم نار جهنم، وهذا كما يقال لإنسان قاتل أو سارق: ما الذي أدخلك في السجن؟.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ أي يسألونهم قائلين: أيّ شيء أدخلكم في نار جهنم؟ ولماذا صرتم من أهل الجحيم؟.

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ لله تعالى في الدنيا.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ كما يطعم المسلمون، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي نشرع بالباطل مع الشارعين فيه.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي نكذّب بيوم الجزاء والحساب.

﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت، أي وكنا مع ذلك كله مكذبين بالقيامة إلى آخر العمر.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لو شفعوا لهم جميعاً من الملائكة، والنبيين، والصالحين، لأنها للمؤمنين دون الكافرين، وقال ابن مسعود

رضي الله عنه: تشفع الملائكة، والنبيون والشهداء والصالحون فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا: ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ الآيات.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ وهي القرآن، أي فإذا كان الأمر على ما ذُكر، فأيُّ شيءٍ حصل لهم، معرضين عن القرآن، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ أي حمر الوحش ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي شديدة النفار.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ القسورةُ: الأسد، وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى، فقد شبَّههم بالحمر الوحشية النافرة، التي هربت من الأسد، من شدة الخوف والفزع، فكذلك ينفرون من الداعي محمد ﷺ الذي يدعوهم إلى الخير والفلاح.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يريد كل واحد منهم، أن يُؤتى قراطيس تنشر وتقرأ، كما قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ نُؤمر فيه باتباعك.

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة، وزجر عن اقتراح الآيات ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حقاً ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ انتفع به، وحاز بسببه سعادة الدارين.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ وهو تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يُتقى عقابُه، ويؤمن به ويُطاع ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وحقيق بأن يغفر ذنوب عباده، سيما المتقين منهم.

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»

* * *

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ إدخال «لا» النافية، على فعل القسم للتأكيد، شائع في كلامهم، كقولك: لا والله ما ذاك، كما تقول: والله ما ذلك، لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها، وقيل: هي للنفي لكن لا لنفي الإقسام بل لنفي ما ينبىء هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء، وهو يوم الحشر الأكبر، كما قال سبحانه: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنه قسم آخر، وعن الحسن أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، أي النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى، قال ابن عباس رضي الله عنه: إن كل نفس تلوم صاحبها يوم القيامة، سواء كانت برة، أو فاجرة، أما البرَّةُ فتلوم صاحبها

لِمَ لمْ يزد من فعل الخير، وأما الفاجرة لِمَ لمْ تشتغل بطاعة الله، والمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة، لأن المقصود من القيامة، إظهار أحوال النفوس، أعني سعادتها أو شقاوتها، وجواب القسم «لتبعثُنَّ» يدل عليه قوله تعالى.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافر المنكر للبعث والنشور ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ بعد تفرقها، ورجوعها رفاتاً، مختلطاً بالتراب وبعدما نسفتها الريح، أو ألقتها في البحار.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال أي نجمعها قادرين على جمعها، وإعادتها كما كانت ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ كما كانت في الدنيا، بلا نقصان وتفاوت مع صغرها، فكيف بكبار العظام؟.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عطف على أيحسب ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي ليدوم على فجوره فيما يستقبل من الزمان، ولا يرعوي عنه.

﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟ أي متى يكون يوم القيامة؟ استبعاداً أو استهزاء.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي تحيَّر فزعاً، مأخوذ من بَرِق الرجلُ، إذا نظر إلى

البرق فدُهش بصرُه، ثم يستعمل في كل حيرة، ومتى تحصل هذه الحالة؟ قيل: عند البعث، وقيل: عند رؤية جهنم، قال تعالى: ﴿ليومٍ تشخص فيه الأبصار﴾.

﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوؤه وأظلم.

﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي التقيا في الطلوع من المغرب.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الكافر المكذب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ تقع هذه الأمور ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾؟ أي أين المهرب؟.

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ لكلامه السابق وهو طلب المفر، أي لا ملجأ لهم يهربون إليه ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ هو اسم للملجأ، ومعنى الآية: أنه لا شيء يعصمهم من أمر الله تعالى.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ خاصة ﴿ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ مستقر العباد من الجنة أو النار.

﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي يخبر كل امرىء براً كان أو فاجراً، بما قدَّم قبل موته، وما أخَّر بعد موته، من سنة حسنة، أو سيئة يُعمل بها.

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ شاهد والهاء للمبالغة.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي ولو أتى بكل معذرة، وجادل عن نفسه، لأنه لا ينفعه ذلك، أي ينبأ الإنسان بأعماله، وهو شاهد على نفسه، لأن جوارحه تنطق بذلك.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ أيها الرسول ﴿ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ بالقرآن قبل أن يتم وحيه، مخافة أن ينفلت منك.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي.

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ بلسان جبريل عليه السلام، وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في ايجاب التأني ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي فأنصتْ إلى قراءته، واستمع إليه، حتى يفرغ جبريل من التلاوة.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي فاتبع قراءته، وتفكَّرْ فيه، حتى يرسخ في ذهنك، ثم نبين ما أشكل عليك من معانيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان ممَّا يحرك به شفتيه[2]»، قال ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحرّكُهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك﴾ الآية قال: فاستمعْ وأنصتْ، ثم علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام بعد ذلك استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه»[3].

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن إنكار البعث ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي بل أنتم يا بني آدم لما خُلقتم من عجل، وجُبلتم عليه، تعجلون في كل شيء، ولذلك تحبون عاجلة الدنيا وشهواتها.

﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فلا تعملون لها.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) أي كان كثيراً ما يفعل ذلك، ويلقى من ذلك صعوبة وشدة.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة القيامة ٨/٥٢٣ وفي بدء الوحي ١/٢٨ ومسلم في كتاب الصلاة رقم ٤٤٨.

﴿وُجُوهٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي حسنة ناعمة، بهيّة مضيئة، يشاهد عليها نضرة النعيم، يقال: نضرُ الوجه بالضم نضارة وهي الحسنُ.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى ربها عياناً، بلا كيفية، ولا جهة ولا ثبوت مسافة، تراه مستغرقة في مطالعة جماله، وجمهور أهل السنة، يتمسكون بهذه الآية، في إثبات أن المؤمنين، يرون الله تعالى يوم القيامة، والمعتزلة قالوا: معناه منتظرة إلى إنعامه، ورُدَّ بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه، مع أن الانتظار لا يليق في دار القرار، وقال الأزهري: العرب لا تقول: نظرتُ إلى الشيء بمعنى انتظرته، وإنما تقول نظرتُ فلاناً، أي انتظرته، ومما يشهد لقول أهل السنَّة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته..»[1] الحديث.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي كالحة شديدة العبوسة، وهي وجوه الكفرة، أظلمت ألوانها، وعدمت آثار السرور، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل بها.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٥٤ ومسلم رقم ٢٨٢٩ وهو حديث طويل في رؤية المؤمنين لربهم في جنة النعيم.

﴿تَظُنُّ﴾ أي تتوقع وتستيقن، والمراد بالوجوه أربابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ أمر عظيم من العذاب ﴿فَاقِرَةٌ﴾ تقصم فقَار الظهر.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من المخاطر والأهوال ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي العظام المكتنفة لثغرة النحر.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي قال من حضر: من يرقيه؟ أيْ أيّ طبيبٍ يداويه وينجيه مما نزل به؟.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن المحتضر أنه سيفارق الأهل والمال والولد، وعبَّر بالظن لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقاً ببدنه، فإنه يطمع في الحياة ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا، والآية دالة على أن الروح باقية بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموتَ فراقاً، والفراقُ صفةٌ تستدعي الموصوف.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي التوت ساقه بساقه عند حلول الموت فلا يقدر على تحريكهما، لأن الموت قد دبَّ فيهما، قال الحسن البصري: «ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوالاً».

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أي إلى ربك المرجع والمآب، لا إلى غيره.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ أي فلم يصدّق بالقرآن ولم يؤمن بالرسول ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ ولم يصلِّ للرحمن ما فرض عليه، والضمير للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان﴾ وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة.

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي ويل لك أيها الشقيُّ الفاجر على هذا الطغيان، وهو دعاء عليه بالهلاك.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي ثم ويل لك على طغيانك وفجورك، وفيه تكرار الدعاء عليه.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي أيظن الإنسان أن يترك مهملاً، فلا يكلَّف، ولا يجازى، ولا يعاقب؟.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أي أما كان هذا الإنسان نطفة حقيرة، يُراق ويُصبُّ في الرحم؟.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي قطعة دم جامد ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فخلقه الله بقدرته ﴿ فَسَوَّىٰ ﴾ أي فعدَّله وكمَّل نشأته، وجعله إنساناً سويّاً؟.

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ أي فجعل هذا المخلوق صنفين اثنين: ذكراً وأنثى.

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ ﴾ العظيم الشأن، الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؟ أي بقادر على إعادة الإنسان بعد فنائه، وهو أهون من البدأ، في قياس العقل؟ بلى إنه على كل شيء قدير. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿والتين والزيتون..﴾ فانتهى إلى آخرها، فليقل: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ

القِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى آخرها فليقل بلى، وعزة ربنا، ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾ فليقل آمنا بالله»[1]

والله اعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»

* * *

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٨٨٧ في الصلاة، والترمذي في التفسير رقم ٣٣٤٤.

سُورَةُ الإِنسَانِ

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي قد مضى ومرَّ، وهو استفهام للتقرير والتقريب، فإن «هل» بمعنى «قد» والأصل أهل أتى؟ كما تقول: هل رأيت صنيع فلان؟ وقد علمتَ أنه قد رآه ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي طائفة محدودة من الزمن، بعيدة الأجل ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً لا يفطن له، والمراد بالإنسان الجنس، والغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدثٌ، فلا بد له من محدثٍ قادر، وهو الخالق، المبدع، الحكيم!.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ فالإظهار لزيادة التبيين والتقرير ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط، من ماء الرجل وماء المرأة، مأخوذ من مشجتُ الشيء إذا خلطته، وصف تعالى النطفة به، لما أن المراد بها مجموع المائين، ولكل منهما أوصاف مختلفة، من الرقة، والغلظ، واللون ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي مريدين

ابتلاءه بالتكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي الإلهية ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيليه، ومشاهدة الآيات التكوينية، وإنما خصهما بالذكر، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بإنزال الآيات، ونصب الدلائل، والآية دالة على أن إعطاء الحواس، كالمقدَّم على إعطاء العقل، والأمر كذلك، والمراد بالسبيل ههنا: سبيلُ الخير، والشر، ومعنى هديناه أي عرَّفناه ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إمَّا مؤمناً أو كافراً، أي مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق، الموصل إلى البغية في حالتيه، وإيراد الكفور لمراعاة الفواصل، والإشعار بأن الإنسان قلَّما يخلو من كفران، وإنما المؤاخذة عليه الكفر المفرط.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا في جهنم ﴿لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا﴾ أي يقادون بالسلاسل، فتشد بها أرجلهم، وبالأغلال تشد أيديهم إلى رقابهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي ناراً موقدة يحرقون بها، وهذا من أعظم أنواع الترهيب، وتقديم وعيدهم لأن تصدير الإنذار أهم وأنفع، وختمه بذكر المؤمنين أحسنُ وأوقع.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين، وإيرادهم بعنوان البِرّ، للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي كأس من الخمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما يُمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا﴾ هو

اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور، هي كافور لذيذ ليس فيه مضرة، وليس ككافور الدنيا.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿عَيْنًا﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عين جارية في الجنة ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو هو محمول على المعنى، أي يتلذذ بها، وقيل: الضمير للكأس والمعنى: يشربون من العين بتلك الكأس ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أهل الإيمان ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم.

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿يُوفُونَ﴾ تفصيل لما ينبيء عنه اسم الأبرار، كأنه قيل ماذا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجب الله تعالى عليهم؟ ﴿بِٱلنَّذْرِ﴾ ما نذروه في طاعة الله ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي شدائده وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشياً منتشراً، ممتد البلاء، من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم، واجتنابهم عن المعاصي.

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الطعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أو على حب الله وهو الأنسب لما سيأتي لوجه الله ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أيّ أسيرٍ كان فيدخل فيه المملوك، والمسجون، وإطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين، بأيّ وجه كان، وتخصيص الطعام لأنه أشرف أنواع الإحسان، لأن قوام الأبدان بالطعام، ولا حياة إلا به.

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ على إرادة القول أي قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال، وهو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم، لأن الله علمه منهم فأثنى عليهم[1] ﴿ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أي لطلب ثوابه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ أي مكافأةً تجازوننا به ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ محمدة تحمدوننا به، وهو تقرير وتأكيد لما قبله.

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه الوجوه وتكلح، من فظاعة أمره، وشدة هوله، أو يشبه الأسد العبوس في الشدة ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ أي شديداً، فلذلك نفعل بكم ما نفعل، رجاء أن يقينا ربنا بذلك الإحسان شرَّه.

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أي صانهم من شدائده، وحماهم من عذابه، بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حُسناً في الوجوه ﴿ وَسُرُورًا ﴾ فرحاً في القلوب.

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ على الطاعة واجتناب المعصية، وعلى الفقر والجوع، مع الوفاء بالنذر ﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً فيه مآكل هنيئة، يأكلون منه ما شاؤوا ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ملبساً بهياً من الحرير، يلبسونه ويتزينون به.

---

(١) قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكنَّ الله علم بما في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسرة، المزينة بأفخر الزينة والستور، جمع أريكة وهي السرير المزخرف ﴿ لَا يَرَوْنَ ﴾ أي لا يصيبهم ولا يمسهم ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ الزمهرير أشد البرد، والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل، لا حار محمٌّ، ولا بارد مؤذٍ.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ﴾ أي قريبة منهم ﴿ ظِلَـٰلُهَا ﴾ ظلال أشجارها زيادة في نعيمهم، على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية، لكانت أشجارها مظلة عليهم مع أنه لا شمس ولا قمر، وإنما هي أنوار تتلألأ ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي سخرت ثمارها للقائم، والقاعد، والمتكيء أي سهل أخذها، ليسهل قطفها دون عناء وتعب، من غير تسلق للأشجار، وتعرض للأخطار.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ أي يدور عليهم خدمهم ﴿ بِـَٔانِيَةٍ ﴾ جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ وهو جمع كوب، وهو إبريق لا عروة له، ولا أذن له.

﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة، وشفيفها، وجمال الفضة وبياضها، والغرض من ذكر هذه الآية، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة، إلى قارورة الدنيا، كنسبة الذهب إلى رمل الدنيا، وأن المراد بالقوارير ليس هو الزجاج، فإن العرب تسمي ما استدار، ورقّ

وصفا، من الأواني التي تجعل فيها الأشربة قارورة. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي إنهم قدّروها في أنفسهم، وأرادوها على مقادير وأشكال معينة، موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدّروها.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي ما يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيبه العرب وألذّ.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ﴾ أي يشربون في الجنة من عين تسمى ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بالسلسبيل، لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها، ليس فيها لذعة الزنجبيل، فيشعر الشاربون بطعمه، ولكنهم لا يشعرون بحرقته ولذعته.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ شبهوا لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم، وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، باللؤلؤ المنثور أي المتفرق[١]، فإن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً كان أجمل وأحسن.

---

(١) الحكمة في تشبيههم باللؤلؤ المنثور أن اللؤلؤ إذا لم يُثقب، يكون أشد صفاءً وأحسن منظراً، وأجمل ما يكون إذا كان منثوراً أي متفرقاً هنا وهناك، لوقوع شعاع بعضه على بعض، فإذا كان الخادم كاللؤلؤ، يشع بالجمال والبهاء، فكيف يكون المخدوم من أهل الجنة؟! اللهمّ لا تحرمنا الجنة ونعيمها.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي إن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ أي أبصرت نعيماً لا يكاد يوصف ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ واسعاً لا غاية له ولا نهاية.

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أي تعلوهم ثياب الحرير، الرقيق منه والثخين ﴿ وَحُلُّوا ﴾ أي ألبسوا للزينة والبهجة ﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي أساور فضية لا تشبه فضة الدنيا، مع أنواع أخرى من الحلي من ذهب ولؤلؤ ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين، ووصفه بالطهورية، فإنه يطهر باطنهم من الأخلاق الذميمة، والعادات القبيحة، كالحسد، والغِلّ، والبغضاء، كما قال سبحانه: ﴿ونزعنا ما في صدروهم من غل﴾ الآية، ولذلك ختم به مقالة ثواب الأبرار ﴿ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ طاهراً من الأقذار والأدران، لم تمسه الأيدي.

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي يقال لهم إن هذا الذي نُعِّمتم به من فنون الكرامات ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ لأعمالكم الحسنة ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي محموداً مرضياً عندنا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، والغرض من ذكر هذا أن يزداد سرورهم بالنعيم الدائم في دار الخلود.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ أي مفرقاً ومنجمّاً لِحكَمٍ بالغة تقتضي تفريقه، كما يعرب عنه تكرير الضمير، مع إنَّ المفيدة للتأكيد.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ باحتمال الأذى منهم، فإن له عاقبة حميدة ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الكفرة ﴿ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم والكفر، «أو» بمعنى «ولا» أي ولا تطع آثماً ولا كفوراً.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي داوم على ذكر ربك في جميع الأوقات في الصباح والمساء، وصلّ له، وأكثر من عبادته وطاعته في كل وقت وحين.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ أي تقرَّب إلى ربك بقيام الليل، مستغرقاً في مناجاته، وأكثر من العبادة في جناح الظلام ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أي وتهجد له زماناً من الليل طويلاً، فهو الزاد لك لنصرك على الأعداء، فمن كان الله معه فهو الغالب.

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي الكفرة ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ ﴾ أي أمامهم لا يستعدون لذلك اليوم العصيب، وينبذون وراء ظهورهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ أي شديداً، عسيراً، هو يوم القيامة، فلا يستعدون له ولا يعملون، وهو كالتعليل لما أُمر به ونُهي عنه.

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ لا غيرنا ﴿وَشَدَدْنَآ﴾ أي أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي خلقهم فربطنا مفاصلهم بالأعصاب ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إهلاكهم أهلكناهم ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أمثالهم في الخلقة ممن يطيع الله، كقوله تعالى: ﴿وإن تَتولَّوا يَسْتَبدِلْ قَوماً غَيرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أمثَالَكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي الآيات تذكير وعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي تقرَّب إليه بالطاعة، واتباع الرسول.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ اتخاذ السبيل، ولا تقدرون على تحصيله، في وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم، إذ لا دخل في مشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق بمشيئة الله تعالى، وإنما يشاء الله ذلك ممن علم الله منه اختياره ذلك، وهذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر، والقدر، فالقدري يتمسك بقوله تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ والجبري يقول: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، فلا يشاء إلا ما يستدعيه علمه، وتقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يدخل في رحمته وجنته من يشاء أن

---

(١) سورة محمد، آية: ٣٨.

يدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة، من الإيمان به والطاعة ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ الظالمون هم الفجَّار الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذُكر، أي ويعذّب الظالمين عذاباً شديداً مؤلماً في دركات الجحيم.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنسان»

* * *

سُورَةُ المُرسَلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾.

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * ﴾ ذكر المفسرون في هذه الكلمات الخمس وجوهاً:

الأول: المراد بأسرها الملائكة، الذين أرسلهم الله تعالى بأوامره، فعصفن في مضيِّهن عصف الرياح، في امتثال أمره سبحانه، ونشر الشرائع في الأرض، ففرقن بين الحقِّ والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، إعذاراً وإنذاراً للخلق، تتنزل بالوحي للإعذار للعباد، لئلا يبقى لأحد حجة عند الله.

الثاني: أن المراد بأسرها آيات القرآن، المرسلة بكل عرف وخير إلى الرسول ﷺ، فعصفن سائر الكتب والأديان، بالنسخ ونشرن آثار الهدى في قلوب العالمين، وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين.

الثالث: المراد بأسرها الرياح، أرسلن متتابعة، فعصفن بالمشركين، وهي رياح العذاب، ورياح الرحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي تسبَّبن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها، ذكر الله تعالى.

الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات شيئاً واحداً بعينه، فعلى هذا ﴿والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفاً. والناشرات نشراً﴾ الرياح ﴿فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكراً﴾ الملائكة، ويمكن أن يقال: والمرسلات ملائكة الرحمة، والعاصفات ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية الآيات القرآنية، والله أعلم[1]، ومعنى ﴿عُرْفاً﴾ أي متتابعة، ﴿وعُذْراً﴾ من عذر إذا محى الإساءة، و ﴿نُذْراً﴾ من أنذر إذا خوَّف، وهذه كلها أقسام، وجوابه قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي إن الذين توعدونه من مجيء القيامة، كائنٌ لا محالة ثم ذكر متى يقع فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ ﴾.

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي محيت، ومُحقتْ وذهب بنورها.

---

(١) اختلف علماء السلف اختلافاً كبيراً في تفسير هذه الآيات الخمس، فبعضهم حملها جميعاً على الرياح ـ رياح الرحمة، ورياح العذاب ـ وبعضهم حملها جميعاً على الملائكة، وبعضهم فصَّل فيها، فجعل الآيتين الأوليين في الرياح، لأن وصف الريح بالعصف ـ وهو شدة الهبوب ـ حقيقة لغوية، يقال: عصفت الريح إذا هبَّت مع صوتٍ شديد، ولا يقال في الملائكة عصفت، والآيات الثلاث الباقية ﴿والناشرات نشراً..﴾ الخ فهي في الملائكة التي تنزل بالوحي على رسل الله، فتفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وهذا ما رجحه الحافظ ابن كثير، وهو الأظهر والأقرب، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ أي صدعت وفتحت فكانت أبواباً.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أي جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أي وُقّتت ومعنى توقيت الرسل، تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ ﴾.

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل، أي لأيِّ يوم عظيم أُخِّرت وأُمهلت الرسل؟ ثم بيّن ذلك فقال:

﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ ﴾.

﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ ؟ أي أيَّ شيءٍ جعلك دارياً ما هو؟ فوضع الظاهرَ موضع الضمير لزيادة التهويل.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح، وعاد، وثمود، لتكذيبهم للرسل؟.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧)﴾.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ من نظرائهم السالكين لمسلكهم، في الكفر والتكذيب، كقوم شعيب، ولوط، وهو وعيدٌ لكفار مكة.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي نفعل بكل من أجرم، لأن عموم العلة يقتضي عموم الحكم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله، وأنبيائه، والمعاد، وليس فيه تكرار، لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا، مع أن التكرار للتوكيد حسن شائع في كلام العرب[١].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من نطفة قذرة، مهينة حقيرة؟.

---

(١) كررت هذه الآية: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في هذه السورة عشر مرات، لمزيد التخويف والترهيب، والتكرار في مقام الترغيب أو الترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرات المكرَّرة كما هنا.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١﴾.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ هو الرحم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢﴾.

﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي إلى مقدار معلوم من الوقت، قدَّره الله تعالى وهو تسعة أشهر أو أقلّ منها، أو أكثر بقليل.

﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾.

﴿فَقَدَرۡنَا﴾ أي قدرنا على خلقه وتصويره، والمراد بالقدرة إيجاد المقدور بالفعل ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ أي فنعم القادرون نحن على الخلق والإعادة، حيث خلقناهم في أحسن صورة وهيئة.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة التوحيد، وقدرة الجبار.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥﴾.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ وعاء، والكَفْتُ الجمعُ والضم، أي ألم نجعلها تجمعكم وتحتضنكم.

﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾.

﴿أَحۡيَآءٗ﴾ أي تجمعكم أحياء على ظهرها ﴿وَأَمۡوَٰتٗا﴾ وتحتضنكم في بطنها أمواتاً، والتنكير فيهما للتفخيم، بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حياته، من المآكل والمشارب، والأبنية، لأن كل ذلك من

الأرض، وفي مماته حيث تضمه في بطنها بعد الموت، فهي كالأم تحتضن أولادها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ أي عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي عذباً بأن خلقنا فيها أنهاراً، ومنابع عذاباً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون في الدنيا من العذاب، ثم فسره بقوله:

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي ظل دخان جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي يتشعب لعظمه ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم.

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي لا مظل من حر ذلك اليوم، وحرِّ النار، وتسميتُه ظلاً من باب السخرية والتهكم ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي غير مغنٍ لهم من حر اللهب شيئاً.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿ كَالْقَصْرِ ﴾ كالبناء العظيم، والقصر الشامخ.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ ﴾ أي كأن شرر جهنم الإبل الصفر، ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر، أي كأن الشرر يشبه الجمل الأصفر في اللون وسرعة الحركة، فإذا كان هذا حال الشرر، فكيف يكون حال النار، الملتهبة في فظاعتها وشدتها؟.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للكفرة الفجار، المكذبين بيوم القيامة، ذلك اليوم العصيب الرهيب.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار ﴿ يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ فيه بشيء، لما أن السؤال والجواب قد انقضى قبل ذلك، ويوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت، ينطقون في وقت دون وقت، أو لا ينطقون بحجة تنفعهم.

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يكون لهم إذن واعتذار، ليعتذروا، فقد مضى وقت الاعتذار، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الجبار.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ بين الحق والباطل، وبين أهل الجنة وأهل النار ﴿ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي جمعناكم فيه يا معشر المكذبين، مع من تقدمكم من الأمم السالفة، ممن كذبوا رسلهم، لنحكم بينكم جميعاً.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ أي إن كان لكم حيلة في دفع العذاب، فاحتالوا على تخليص أنفسكم من العذاب، وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم في الخلاص.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الذين خافوا ربهم، واتقوا عذابه، بطاعته وامتثال أوامره، وهم في مقابلة المكذبين ﴿ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ في ظلال الأشجار الوارفة، والعيون الجارية، في جنات النعيم.

﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي لذيذة ومشتهاة، مستقرون في أنواع الترف، وفنون التنعم، يتنعَّمون بأنواع الفواكه والثمار.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي مقولاً لهم ذلك ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي نجازي من أحسن عمله، وأخلص نيَّته، والغرض منه تحسير الكفار على ما فاتهم من النعم العظيمة، بأنهم لو كانوا من المتقين، لفازوا بمثل ذلك الجزاء الكريم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة ونعيمها.

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين على وجه التهديد، أي كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي كافرون ومكذبون، تستحقون العذاب والإهانة، شأنكم كشأن البهائم، ملء بطونها، ونيل شهواتها.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالنعم حيث عرَّضوا أنفسهم للعذاب الدائم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴾ أي اسجدوا وصلُّوا لله لا يقبلون، يسجدون للأصنام والأوثان، ويأبون السجود للرحمن.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين، وأخبار النشأتين، على نمط بديع، ودلائل لطيفة ﴿يُؤۡمِنُون﴾؟ أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن فبأي شيء يؤمنون؟.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»

* * *

سُورَةُ النَّبَإِ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿عَمَّ﴾ أصله «عن» ما، حُذفت الألف تخفيفاً وما فيه من الإبهام، لفخامة شأن المسؤول عنه، أيْ عن أيِّ شيءٍ عظيم يتساءلون؟ ومعنى ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، والمراد بهم الكفرة من أهل مكة، بطريق الاستهزاء، كانوا يتساءلون عن البعث، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كلاَّ سيعلمون﴾ لأنه تهديد، والتهديد للكفار، أو السائل والمجيب هو الله عز وجل، نظيره: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليومَ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[1] وإيراد الكلام في معرض السؤال والجواب، أقرب إلى التفهيم والإيضاح ثم قال تعالى:

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم، قال الأكثرون: هو

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

البعث، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(١)]؟. وقيل: عن محمد ﷺ.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمن جازم باستحالته، يقول: ﴿إِنْ هي إلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا﴾ ومن شاك يقول: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ومنهم من ينكر المعاد الجسماني، كجمهور النصارى الذين يقولون: إن النعيم والعقاب روحاني، ولا بعث للأجساد.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا صريح في أن المراد اختلاف الجاهلين به والمنكرين له، وهو أمر البعث بعد الموت ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر عن التساؤل والسخرية ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً، أن ما يتساءلون عنه حق، وهذا تعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، والمعنى: ليرتدعوا عما هم عليه، فإنهم سيعلمون عمَّا قليل حقيقة الحال، إذا حلَّ بهم العذاب.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرره للتشديد، وثم يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد، وقيل: الأول عند النزع، والثاني عند البعث.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

---

(١) سورة المطففين، آية: ٤.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق النبأ، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو «البعثُ» والمعنى: قل لهم يا محمد: ألم يخلق الله هذه الخلائق العجيبة؟ فلمَ تنكرون قدرته على البعث؟ وما هو إلاّ اختراع كهذه الاختراعات؟ والهمزة للتقرير ﴿مِهَادًا﴾ أي فراشاً، فرشناها لكم حتى سكنتموها.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي غرائز تشبه الأوتاد للأرض، لئلا تميد بكم.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي ذكراً وأنثى، ليسكن كلٌّ من الصنفين إلى الآخر، وينتظم أمر المعاش، ويتسنى التناسل، أو المراد منه «متقابلين» كالحسن والقبيح، والطول والقصر، والأضداد، وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة، والإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وقدر الأمن عند الخوف، وذلك أبلغ في تعريف النعم.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم، قاطعاً لأعمالكم، والنوم يشبه الموت لما بينهما من المشاركة التامة، في انقطاع أحكام الحياة[1] كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ قال الزجاج: لا يليق الموت بهذا

---

(١) جعل الله النوم راحة لأبدان البشر، وغذاءً لأرواحهم، وبدون النوم يهلك الإنسان، وتخور قواه، وفي النوم تذكير للعباد بالموت، كما أن في اليقظة بعد النوم تذكير لهم بالبعث من القبور!.

المكان، لأن الأشياء المذكورة من جلائل النعم، وقال ابن الأعرابي: أي نوماً منقطعاً لا دائماً، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي سبباً لتحصيل الكسب والمعاش، تبعثون فيه من نومكم، كما في قوله تعالى: ﴿وجعل النهار نشورا﴾ ينتشر فيه الناس للعمل.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي وشيّدنا فوقكم سبع سماوات، قوية الخلق، محكمة البناء، والتعبير عن خلقها بالبناء، مبنيٌّ على تنزيلها منزلة القباب المضروبة فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع سماوات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة أي محكمة قوية.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق، خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والوهّاجُ: الوقّاد المتلألىء، الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، والمراد به الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السماوات بالبناء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي السحائب إذا أُعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي ماء دافقاً، منصباً بكثرة، وشدة يقال: ثجَّ الماءُ إذا تدفق بكثرة وغزارة.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ أي بالماء، لننبت حباً يُقتات به، كالبُرِّ، والشعير، والعدس، والذُّرة ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأً يُعتلف، وأنواع الزروع، غذاءً للإنسان والحيوان.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي الأشجار المتكاثفة المظللة بالتفاف أغصانها ﴿أَلْفَافًا﴾ وهي جمع لف، أي ملتفاً بعضها على بعض من كثرة أغصانها.

واعلم أن فيما ذكر من أفعاله عزَّ وجل، دلالة على صحة البعث والنشور من وجوه:

الأول: باعتبار قدرته، فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة، كان على الإعادة أقدر.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات، على نمط رائع، لغاية جليلة، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم، أنموذج للبعث بعد الموت، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال البديعة العجيبة، الدالة على حقيَّة البعث، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتتساءلون عنه استهزاءً؟.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، وفيه تفصيل لكيفية وقوعه، وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب ﴿ كَانَ ﴾ في علم الله تعالى ﴿ مِيقَـٰتًا ﴾ أي وقتاً محدوداً، ومنتهىً معلوماً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ بدل من يوم الفصل، ولا ضير في تأخير الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد، يقع في مبدئه النفخ، وفي بقيته الفصل ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ الفاء فصيحة أي فتخرجون من قبوركم، فتأتون إلى الموقف، عقيب ذلك، من غير لبث أصلاً ولا إمهال ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي أمماً، كل أمة مع إمامها، أو زمراً وجماعات مختلفة، حسب اختلاف أعمالهم.

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أي تشققت السماء وتصدّعت، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أي كثرت أبوابها المفتحة، لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد، كأن الكل صار أبواباً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائكةُ تنزيلاً﴾.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي نسفت في الجو بعد قلعها من مقارها، فصارت كأنها هباء، وذلك أن الأجسام العظام، إذا تحركت لا تكاد تبين حركاتها، وإن كانت في غاية السرعة، لا سيما من بعيد، فتبدل الأرض، وتُسيَّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية

ليشاهدوها، ثم تُفرَّق في الهواء ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي فصارت بعد تسييرها مثل السراب في عين الناظر، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها وتسوية الأرض، إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً. فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً. لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً. يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾[1] الآية، والداعي إسرافيل عليه السلام، فإن اتباعه لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار، وخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عندها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾.

﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ أي كائناً للطاغين، والمراد منهم من تكبَّر على ربه وطغى ﴿مَـَٔابًا﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه.

﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ أي دهوراً متتابعة، كلما مضتْ حقبة تبعتها حقبةٌ أخرى، إلى غير نهاية، فإن «الحقب» لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد به تتابع الأزمنة، فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحقب ثمانون سنة، أو سبعون ألف سنة، فإن هذا إن دلَّ فمن قبيل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال على

(١) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٨.

أبدية خلود الكفار في النار، والحِقْبُ: الدهر جمعه أحقاب، مثل قفل وأقفال.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ في النار ﴿ بَرْدًا ﴾ أي ماءً بارداً، أو هواءً بارداً، وقال ابن عباس: البردُ: النومُ، وهو قول الأخفش، والكسائي، والفراء، وقطرب، وإنما سُمِّي النومُ برداً، لأنه يبرِّد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد، ومن أمثال العرب «منع البَرْدُ البردَ» أي أصاب من البرد ما منع النوم، والقول الأول أولى، لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ بارداً يسكن عطشهم.

﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ أي لكنْ يذوقون فيها ماءً حاراً، يحرق ما يأتي عليه ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ أي ماء منتناً يسيل من صديد أهل النار.

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ جَزَاءً ﴾ أي جُوزوا جزاءً ﴿ وِفَاقًا ﴾ أي موافقاً لأعمالهم. فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب الأبدي، البالغ في الشدة، وفاقاً للإتيان فترة من الكفر؟ والجواب: لأنهم كانوا مصرين على الباطل، ولو خلّدوا في الدنيا لبقوا على الكفر، فلما كانت أفعالهم وإصرارهم كذلك، كان اللائق بهم العقوبة العظيمة.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لا يخافون محاسبة الله تعالى إياهم، تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام، وصيغة فِعال» بمعنى تفعيل مطّردٌ في كلام الفصحاء، أي تكذيباً مفرطاً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ أي ضبطناه ﴿كِتَـٰبًا﴾ مؤكد لأحصيناه، لما أن الإحصاء والكتابة من باب واحد، بمعنى مكتوباً في اللوح، أو في صحف الحفظة، والمعنى: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وأجازيهم جزاءً، وفاقاً.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا۟﴾ متسبِّبٌ عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، والالتفاتُ شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ كلمة لن للتأكيد في النفي دالة على المبالغة في التعذيب، قيل هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار، كلما استغاثوا من نوعٍ من العذاب، أُغيثوا بأشدَّ منه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، أي الذين يتقون عن الكفر، وسائر أعمال الكفرة ﴿مَفَازًا﴾ أي فوزاً وظفراً، ونجاة من كل مكروه، ويصح أن يراد به هنا الجنة، أي لهم الفوز بجنات النعيم، لأنه تعالى فسّر المفاز بما بعده، وهو قوله تعالى:

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ ﴾.

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾ أي لهم بساتين ناضرة، فيها من جميع الأشجار والثمار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ ﴾.

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب، وهنَّ النواهد اللَّواتي تكعبت ثُدْيُهنَّ، أي استدارت وبرزت حتى صارت كالكعب ﴿ أَتۡرَابٗا ﴾ أي مستويات في السن، متقاربات في الجمال، على ثلاثة وثلاثين سنة.

﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤ ﴾.

﴿ وَكَأۡسٗا ﴾ أي كأساً من الخمر ﴿ دِهَاقٗا ﴾ ملآناً، يقال: أدهق الحوضَ: ملأه، وقيل: صافية.

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥ ﴾.

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة في حالة شربهم ﴿ لَغۡوٗا ﴾ أي باطلاً ﴿ وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ أي لا ينطقون بلغوٍ، ولا يُكذِّب بعضُهم بعضاً.

﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦ ﴾.

﴿ جَزَآءٗ ﴾ كائناً ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بمقتضى وعده الكريم، والتعرُّضُ للربوبية مع الإضافة إلى ضميره مزيد تشريف له ﷺ ﴿ عَطَآءً ﴾ تفضلاً منه إذْ لا يجب عليه شيء[1] ﴿ حِسَابٗا ﴾ صفة لعطاء أي كافياً وافياً، يقال: حسبُكَ درهمٌ أي

---

(١) كونه «جزاءً» يستدعي الاستحقاق، وكونه «عطاء» يستدعي عدم الاستحقاق، فكيف =

كافيك ومنه قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» قال ابن قتيبة: يقال: أعطيتُ فلاناً عطاء حساباً أي أكثرت له، وأصل هذا أن يعطيه حتى يقول: حسبي[1].

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿رَّبِّ﴾ بالجرّ بدل من ربك أي خالق ومبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والأشياء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِۖ﴾ أي الذي عمَّت رحمته كل شيء، وهي صفة الرب وفي ذكر ربوبيته تعالى للكل، ورحمته الواسعة، إشعار بمدار الجزاء المذكور ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير لأهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، لغاية العظمة والكبرياء، من غير إذنه سبحانه، لأن اليوم رهيب وعصيب، وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه تعالى.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام عند الجمهور، وهو المختار لأن القرآن الكريم، دلَّ على أن هذا الاسم اسم جبريل، لقوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ والذي نزل بالوحي على رسل الله هو جبريل عليه السلام، والكلام صحيح من جبريل، ويصحُّ أن يُؤذن له، لأنه رئيس الملائكة وكبيرهم، ولهذا عطف عليه الملائكة،

= التوفيق بينهما؟ والجواب أن ذلك الاستحقاق صدر بحكم الوعد، لأن الله لا يخلف الميعاد، فصار كأنه واجب عليه، ونظراً لأنه لا يجب على الله شيء أخبر تعالى أنه عطاء محض من خالق الأرض والسماء، فتنبه رعاك الله!!.

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٥١٠.

وهو من باب عطف العام على الخاص، تنبيهاً على جلالة قدر الخاص ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، وقال بعضهم: يقومون صفوفاً، لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وذكر قيامهم واصطفافهم، لتحقيق عظمة سلطانه وكبريائه، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي الخلائق في ذلك اليوم، خوفاً وإجلالاً لعظمته تعالى، والمعنى: أن أهل السماوات والأرض، إذا لم يقدروا يومئذ أن يتكلموا بشيء، فكيف يملكون خطاب ربِّ العزة والجلال؟ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إظهاره في موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنَّ أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلمون إلا عند حصول الشرطين ١ ـ الإذن ٢ ـ بأن يكون المشفوع له ممن يقول صواباً في الدنيا، بأن قال «لا إله إلا الله» فكان مؤمناً موحّداً، ومات على التوحيد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، أي ذلك ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ العظيم، الذي يقوم فيه الروح والملائكة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة أنه حق، لأنه يحصل فيه أداء جميع الحقوق إلى أصحابها، ويزهق كل باطل، وفيه تبلى السرائر ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف، كأنه قيل: وإذا كان الأمر كذلك فمن أراد ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذكر شأنه العظيم ﴿مَـَٔابًا﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفار بما ذُكر في السورة، من الآيات الناطقة بالبعث، وما بعده من الدواهي، وبسائر القوارع في القرآن، وإنما ذكر

الإنذار، لأنه تعالى بهذا الوصف، قد خوف وهو معنى الإنذار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾[1] هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقق إتيانه حتماً، لأن كلَّ ما هو آتٍ قريب، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي عذاباً كائناً يوم ينظر المرء أي يبصر الكافر والمؤمن، وكلُّ إنسان ما فعل في الدنيا، فاللفظ عام يشمل كل إنسان ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من خير أو شر، وتخصيصُ الأيدي بالذِّكر، لأن أكثر الأعمال تقع بها ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للذمِّ ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ أي في الدنيا فلم أُخلقْ، ولم أُكلَّفْ، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، ونظيره ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَة﴾ أي موتته في الدنيا ولم يُبعث، وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ وقيل: تحشر الحيوانات، يوم القيامة، فيقتص للجمَّاء من القرناء، ثم يردُّها الله تراباً، فيودُّ الكافر حينئذٍ أن يكون كالبهائم تراباً، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

* * *

---

(١) أشار إلى الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء التي لا قرون لها، والقرناء التي لها قرون.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية، وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾.

لا وقف إلى هنا، ولزم هنا، لأنها لو وصلت لصار ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفٌ للمدبِّرات، وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم!! واختلفت عبارات المفسرين في هذه الآيات هل هي صفات لشيء واحد، أم لأشياء مختلفة؟ واتفقوا على أنَّ المراد بقوله: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ وصفٌ لشيء واحد، وهم الملائكة، وفي الآيات وجوهٌ:

الأول: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة وعنف، أغرق في الشيء: بالغ فيه.

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ أي الملائكة تنشط نفس المؤمن بسهولة ولين، نشط في عمله خفَّ وأسرع، وإنما خصَّ النزع بنفس الكافر، والنشط بنفس المؤمن، لأنَّ النزعَ جذبٌ بشدة، والنشط جذبٌ برفق.

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه، يقال له: سابح.

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ هم الملائكة تسبق بالأرواح إلى محلها.

الوجه الثاني: هي الأرواح.

الوجه الثالث: النجوم تنزع من أفق إلى أفق.

الوجه الرابع: خيل الغزاة.

الوجه الخامس: النازعاتُ: ملكُ الموت، الناشطات: الأرواحُ، السابحاتُ: السفنُ، السابقاتُ: نفوس المؤمنين إلى الخيرات.

هذه الوجوه المنقولة عن المفسرين، غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصاً، بل ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، والذي يليق بشأن التنزيل هو القول الأول.

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الموكَّلون بتدبير شؤون الكون والناس.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ الرجفُ: شدةُ الحركة، والراجفة التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ﴾ وهي النفخة الأولى، التي يموت منها جميع الخلق.

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولىٰ، وهي النفخة الثانية، والأولى تميت الخلق، والثانية تحييهم، وبينهما أربعون سنة، واليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان، واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية، لتهويل اليوم، ببيان كونه موقِعاً لداهيتَيْنِ عظيمتَيْن، لا يبقىٰ عند وقوع الأولىٰ حيٌّ إلاّ مات، ولا عند وقوع الثانية ميْتٌ إلاّ بُعث.

﴿ قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ ﴾.

﴿ قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ ﴾ أي قلوب منكري البعث في ذلك اليوم، أي يوم البعث ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي مضطربةٌ، خائفة، فزعة.

﴿ أَبۡصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ ﴾.

﴿ أَبۡصَـٰرُهَا ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ أي ذليلة لهول ما ترى.

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ ﴾.

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴾؟ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، أي يقول هؤلاء الكفرة الآن - أي في الدنيا - إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، منكرين له، متعجبين منه، أنردُّ بعد الموت، فنرجع كما كنا أحياء بعد الفناء؟ والمراد بالحافرة الحالة الأولى، يعنون الحياة، أي أنردُّ إلى الحياة، من قولهم: رَجَع فلانٌ في حافرته، أي في طريقته التي جاء منها فحفرها، أي أثَّر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة لأنها تُعيد البشر إلى حياتهم الأولى، ومعنى الآية: أنرد إلى أول حالنا؟ ثم زادوا استبعاداً فقالوا:

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ ﴾.

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴾ أي بالية، والمعنى: أنرد إلى الحياة بعد إذ صرنا عظاماً بالية؟ نَخِر العظم نخراً إذا بلي وتفتَّت، أي أئذا كنا عظاماً بالية، نردُّ ونُبعث من جديد، مع كونها أبعد شيء من الحياة؟.

﴿ قَالُواْ تِلۡكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء، مشيرين إلى ما أنكروه من الرَّدة

في الحافرة ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعةٌ ذات خسران، أو خاسرٌ أصحابها، والمعنى: إنها إن صحَّتْ فنحن إذاً خاسرون، لتكذيبنا بها.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى، فإنها سهلة في قدرته تعالى، فما هي إلا صيحة واحدة، يريد النفخة الثانية، من قولهم: زَجَرَ البعيرَ إذا صاحَ عليه، عبَّر عنها بها، تنبيهاً على كمال اتصالها بها، كأنها عينها.

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا أمواتاً في جوفها، قال الراغب: الساهرةُ وجهُ الأرض، وهي أرضٌ بيضاء مستوية، سُمِّيت ساهرة، لأن من شدة الخَوف يطير النوم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنف واردٌ لتسليته ﷺ بطريق التشويق والترغيب لسماع القصة، كما يقول الإنسان لآخر: هل تدري ما حدث؟ يريد لفت انتباهه، وترغيبه لسماع القصة والخبر، كأنه قيل: أليس قد أتاك حديثه ؟.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ نَادَاهُ﴾ أي حين ناداه ﴿رَبُّهُ﴾ أي دعاه وكلَّمه ربُّه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ أي المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول، أي قائلاً له: اذهب إلى فرعون ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ ﴾؟ أي بعدما أتيته هل لك رغبة وتوجه ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان، بالطاعة والإيمان؟ بحذف إحدى التاءين من تتزكى، وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه، لأن المراد: هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل ما لا ينبغي.

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي أرشدك إلى معرفته عزَّ وجل فتعرفه؟ وهذا هو المقصود الأعظم من البعثة، ودلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فتتقيه وتخشى عقابه، جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاكُ الأمر، من خشي الله أتى منه كلُّ خير، ومن لا يخاف اجترأ على كل شر، أُمر عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام، الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف بالقول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي المعجزة الكبرى، والفاء فصيحةٌ تفصح عن جُمَلٍ قد طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السورة الأخرى، فإنه عليه السلام ما أراه إيَّاها عقيبَ هذا الأمر، بل بعدما جرى من المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والإراءة بمعنى التبصير أو التعريف، فإن اللعين حين أبصرها عرفها، وادعى سحريتها، ونسبتها إلى موسى بالنظر إلى الظاهر، كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنا﴾ بالنظر إلى الحقيقة، والمراد بالآية الكبرى: قلبُ العصا حية.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى عليه السلام وسمَّاه ساحراً، وسمى ما جاء به سحراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى، وأصرَّ على إنكار وجود رب العالمين، كذَّب باللسان والجَنَان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولّى مدبراً فزعاً مرعوباً من هول ما رأى ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يجتهد في مكايدته، وكان طياشاً خفيفاً، سقيم الفهم.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي فجمع السحرة والجنود، والأتباع، وقام فيهم خطيباً ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجمع بنفسه.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا رب فوقي، وكانت لهم أصنام

يعبدونها، واللعين كان دهرياً، منكراً للصانع والبعث، وقيل: إنه بعد انقلاب العصا صار كالمعتوه لا يدري ما يقول.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ النَّكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيب، أي فأهلكه الله وقصمه، ونكَّل به تنكيلاً، عقوبة له على مقالته الفاجرة، الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ والآخرة وهي قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في الذي فَعَل فرعونُ، وما فُعِل به ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لعظةً عظيمة ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ أي لمن من شأنه أن يخشى، ويخاف عقاب الله!!.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ لما ختم هذه القصة، رجع إلى مخاطبة منكري البعث، والخطاب هنا لأهل مكة، المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ، أي أخلقكُم بعد موتكم أشقُّ وأصعب في تقديركم؟ ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع، التي تحار فيها العقول؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟ ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ أي الله عز وجل، وفي عدم ذكر الفاعل، فيه من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه ما لا يخفى.

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى العلو، مديداً ورفيعاً، وامتداد الشيء إذا أُخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمْقاً، وإذا أُخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكاً ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فسوَّاها على أبدع نظام مستوية، وتمّمها بما يتم به كمالُها، من الكواكب، والنجوم وغيرهما، من قولهم سوَّى فلان أمره إذا أصلحه، قالوا: وهذا يدل على كون السماء كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة، وأيُّ ضررٍ في الدين كونها كرة؟.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعلـه مظلمـاً، وإنمـا أضيـف إليهـا لأن الليـل والنهار، إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أبرز نهارها، عبَّر عنها بالضحى، لأنه أشرفُ أوقاتها وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، لأن النهار ينبثق من ظلمة الليل، فكأنه يخرج من وكره.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسطها ومهّدها للسكنى، وأصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال إن الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن الأرض خُلقت بعد السماء؟ والجواب: خلق الله الأرض أولاً مجتمعة، ثم رفع السماء ثانياً، ثم دحا الأرض ثالثاً، وذلك لأنها كانت كرة مجتمعة، ثم إنه تعالى بسطها مهيأة لنبات الأقوات وهو الذي بيّنه بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١﴾.

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ وهذا الاستعداد لا يحصل للأرض، إلاَّ بعد وجود السماء، لأن الأرض كالأمِّ، والسماءَ كالأب، وما لم يحصلا لم تتولد الأولادُ، والحيوانات والنباتاتُ والمعادن، وقيل: معناه: والأرضَ مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي مع ذلك فالأقرب أن يحمل بعدية الدحو عنها، على البعدية في الذكر ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون وإجراء الأنهار ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي كلأها ونباتها، طعاماً للإنسان والحيوان، والسكنى لا تتأتى بمجرد البسط، بل لا بدَّ من تسوية أمر المعاش، من المآكل والمشارب.

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ أي أثبتها وأثبت بها الأرض، وفي هذا تحقيق للحق، وتنبيه على أن الرسوَّ، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه عزَّ وجلَّ، ولولاه لما ثبتت في نفسها، فضلاً عن إثباتها للأرض، ثم بيَّن تعالى الصلة والحكمة فقال:

﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي تمتيعاً لكم ولأنعامكم، لأن فائدة ما ذُكر، واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم، والمراد بالمرعى ما يعمُّ ما يأكله الإنسان والحيوان.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ الطامَّةُ: الداهيةُ التي تطمُّ، أي تعلو على سائر الدواهي، وهي القيامة.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ تفسير للطامة، أي يتذكر فيه كل أحد ما عمله، من خيرٍ أو شر، بأن يشاهده مدوَّناً في صحيفة أعماله، وقد كان نسيه من فرط الغفلة، وطول الأمد.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) ﴾ .

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ ﴾ أي أُظهرت إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحد ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴾ لكل راء من المجرمين، فرأوها رأي العين.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي فأما من عتا وتمرَّد عن الطاعة، وجاوز الحدَّ في العصيان.

﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) ﴾ .

﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة، باتباع الشهوات المحرَّمة، ولم يستعد للآخرة بالعبادة، وتهذيب الأخلاق.

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) ﴾ .

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي مأواه ومرجعه نار جهنم، لا مسكن ولا مأوى له سواها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) ﴾ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي مقامه بين يدي ربه، لعلمه بالمعاد ﴿ وَنَهَى

﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ الأمّارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ عن الميل إلى المحارم والشهوات، بحكم الجِبلَّة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا، ولم يغترَّ بزخارفها، علماً منه بوخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾.

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ ليس له سواها، وانظر إلى المقابلة اللطيفة، فقد ذكر تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ مقابل قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإنها من محاسن علم البديع.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ المشركون كانوا يسمعون القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها صاخة، طامة، قارعة، فقالوا على طريق الاستهزاء ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ أي متى إرساؤها؟ أي متى إقامتها؟، يريدون متى يقيمها الله تعالى؟ ومتى تقع وتكون؟.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣﴾.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي في أيّ شيءٍ أنت يا محمد، حتى تذكر لهم وقتها؟ ليس علمها عندك حتى تخبرهم عن وقتها، والآية إنكار وردٌّ لسؤال المشركين عنها، فإنها مما استأثر الله بعلمه؟.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها، أي العلم بكنهها وتفاصيل أمرها، ووقت وقوعها إلى الله عزَّ وجل، لا يعلم متى تكون إلاَّ هو، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل لهم بمبعثك.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥ ﴾.

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ أي لم تبعث لتعليمهم وقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من يخاف شدائدها، والآية تقريرٌ لما قبله، وتحقيق لما هو المراد منه، وبيان لوظيفته ﷺ في ذلك الشأن، لأن إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها، ممَّا يوهم بظاهره أن ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزاح ذلك، ببيان أن المنفي عليه ﷺ ذكرها لهم بتعيين وقتها، حسبما كانوا يسألونه، فالمعنى: إنما وظيفتك ما أُمرتَ به، من بيان اقترابها، وما فيها من صنوف الأهوال، كما تحيط به خُبْراً.

﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا ﴾ تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار، من سرعة مجيء المنذَر به، أي كأنَّ هؤلاء الكفار حين يشاهدون أهوال القيامة ﴿ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ أي إلا عشية يوم، أو ضحاه، فلما ترك اليومُ أضيف ضحاه إلى عشية، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم أو ضحى يوم، من هول ما يرونه، وزمان المحنة يُعبَّر عنه بالعشية، وزمان الراحة يُعبَّر عنه بالضحى، فيقولون: كأن عمرنا في هاتين الساعتين، نظيره قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾[1] !! والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

* * *

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها إحدى وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

﴿عَبَسَ﴾ أي كَلَح وقطَّب وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض بوجهه.

﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ أي لأن جاءه الأعمى، أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ، والأعمى هو «ابن أم مكتوم» واسمه «عبد الله بن شريح بن مالك» أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش «عتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأمية بن خَلَفَ، والوليد بن المغيرة» يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: يا رسول الله أقرئني وعلمني ممَّا علَّمك الله تعالى!! وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره الرسول مجيئه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان ﷺ يكرمه بعد ذلك ويقول له إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» واستخلفه على المدينة مرتين، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين وقيل: قُتِلَ شهيداً بالقادسية، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أُنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، الحديث[1].

---

(١) رواه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٢٨ وذكر تمام القصة، وقال: حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان رقم ١٧٦٩.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أيْ وأيُّ شيءٍ يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى، حتى تعرض عنه؟ ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه منك من العلم والمعرفة، وكلمة «لعلَّ» مع تحقق التزكي، واردة على سَنَن الكبرياء، على أن الإعراض عنه عند كونه مرجوَّ التزكي ممَّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً به؟.

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتعظ بالقرآن ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ أي موعظتك، أي إنك لا تدري ما هو مترقب منه تزكٍ أو تذكر، ولو دريتَ الحقيقة ما فرط ذلك منك.

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعما عندك من العلوم، التي ينطوي عليها القرآن.

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي تتصدَّى وتتعرض بالإقبال عليه، والاهتمام بإرشاده، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبِر، ليس من شيم الكرام، وفيه إشارة إلى أن من تصدَّى لتزكيتهم من الكفرة، لا يرجى منهم التزكي.

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامهم، إلى الإعراض عن الأعمى ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فليست مهمتك إلاَّ تبليغ دعوة الله، لا تطهيرهم من دنس الشرك.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ أي حال كونه مسرعاً، طالباً لما عندك من أحكام الرشد.

﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي يخشى الله تعالى، ويتقي محارمه.

﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل!! يلهيك شأن الصناديد، ومثلك لا ينبغي أن يتصدى للمستغني، ويتلهى عن الفقير، الطالب للخير، روي أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير، ولا تصدى لغني قطُّ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع، أي لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي السورة، أو الآيات موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي اتعظ بالقرآن، والضميران للقرآن، وتأنيث الأول

لتأنيث خبره، والضمير في «ذَكَره» عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، قال صاحب النظم: التذكرةُ: القرآن، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

ثم وصف جلالة القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي كائنة في صحف، منتسخة من اللوح المحفوظ والقول الثاني: أنها صحف الأنبياء عليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني إن هذه التذكرة، مثبتة في صحف الأنبياء ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله تعالى.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عما ليس من كلام الله.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة من الملائكة الأبرار، جمع سافر من السفر وهو الكتب.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى ﴿بَرَرَةٍ﴾أتقياء جمع بار، أي مطيعين له تعالى.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، قال المفسرون: نزلت الآية في «عتبة بن أبي لهب» والمراد ذمُّ كل غني ترفَّع على فقير بسبب الغنى ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾! تعجب من إفراطه في الكفران، وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي من شيء حقير مهين، كأنه قيل: أي سببٍ في هذا العجب والترفع، أوله نطفة قذرة، وآخره جيفةٌ مذرة وفيما بين الوقتين حمال للعذرة، وهو استفهام ومعناه التقرير والتحقير ولذلك أجاب عنه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء، والأشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم سهَّل خروجه من بطن أمه، وبيَّن له سبيل الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي جعله ذا قبر يُوارى فيه تكرمة له، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض، ملقى للسباع والطير، كسائر الحيوانات يقال: قَبَر الميِّت إذا دفنه، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكَّن فيه، وعدَّ الإماتة من النعم، لأنها وُصلة ـ في الجملة ـ إلى الحياة الأبدية.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي أحياه بعد موته، وفيه إشعار بأنَّ وقت البعث غير متعين في نفسه، وإنما هو موكولٌ إلى مشيئته تعالى.

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع للإنسان عن ترفعه وتكبره، وعن كفره ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ بيان لسبب الرّدع، أي لم يقض ما أمره الله به، من الإيمان والطاعة، ولم يفعل ما كلف به من العبادات وعمل الصالحات، ومساق الآيات الكريمة، لبيان غاية جناية الإنسان، وتحقيق كفرانه المفرط، المستوجب للسخط العظيم، ويراد به الإنسان الكافر، لأنه هو الذي جحد فضل الله.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه، بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه، أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد لفضل ربه وإنعامه، نظر تفكر واعتبار، إلى أمر معاشه وحياته.

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ يعني المطر من السحاب صبًّا عَجيباً.

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي بالنبات شقاً بديعاً، لائقاً بوضعها بما يشقها من النبات، صغراً وكبراً، وشكلاً وهيئة.

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴾ أي فأخرجنا من الأرض المشقوقة بالنبات، أنواع الحبوب التي يتغذى بها الإنسان، حباً يقتات الناس به ويدّخرونه.

﴿ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ ﴾.

﴿ وَعِنَبٗا ﴾ أي وعنباً شهياً لذيذاً يأكلونه، وهو غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحب ﴿ وَقَضۡبٗا ﴾ أي رطباً من أنواع الخضار، تقطع مرة بعد أخرى كالسبانخ، والبقدونس، والنعنع، سميت بمصدر، «قضَبه» أي قطعه مبالغةً، كأنها لتكرر قطعها نفس القطع.

﴿ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ ﴾.

﴿ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴾ شجرة الزيتون ﴿ وَنَخۡلٗا ﴾ شجرة النخيل، وخصّ الزيتون والنخل بالذكر، لكثرة فوائدهما.

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ ﴾.

﴿ وَحَدَآئِقَ ﴾ جمع حديقة بساتين، وهي كل ما أحيط عليه من الشجر ﴿ غُلۡبٗا ﴾ عظاماً، وصف به الحدائق، لتكاثفها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ.

﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ ﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةٗ ﴾ أي أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيه النفوس من المأكولات ﴿ وَأَبّٗا ﴾ أي مرعى لدوابكم، ويراد به العشبُ، رطبُه ويابسه.

﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢ ﴾.

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ أي منفعة لكم، والالتفاتُ لتكميل الامتنان ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي لمواشيكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مَبْدَئِهم ومعاشهم، والصاخةُ: صيحة القيامة، لأنها تصخ الآذان، أي تصمها، وهي الداهية العظيمة التي تعمُّ الناس ويراد بها النفخة الأخيرة.

قال الزجاج: الصخُّ: الطعنُ، والصكُّ، لأنها تصخُّ الآذان بشدة صوتها.

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي يعرض عنهم ولا يصاحبهم، ولا يسأل عن حالهم لتبعاتٍ بينه وبينهم، أو لاشتغاله بنفسه، وتأخير الأحبِّ فالأحب، كأنه قيل: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه، والمراد من الفرار التباعد.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ﴾ في نفسه ﴿يُغۡنِيهِ﴾ أي يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره، وقد ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تحشرون حفاةً، عراةً، غُرْلاً، فقالت امرأة: يَرَىٰ بعضُنا عورةَ بعضٍ؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٢٥ وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري في=

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ بيانٌ لانقسامهم إلى السعداء والأشقياء، بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوههم مضيئة مشرقة، من أسفر الصبح إذا أضاء، عن ابن عباس أنه من قيام الليل، وعن الضحاك من آثار الوضوء، وقيل: لِمَا اغبرّت في سبيل الله.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه وهم المؤمنون، ضاحكون مستبشرون عند الفراغ من الحساب.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة، أي سوادٌ ودخانٌ من لفح جهنم، للهمِّ الذي نزل بهم.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي سواد وظلمة، جَمَع اللهُ في وجوههم بين السواد والغَبَرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

= الرقاق ١١/ ٣٣٤ باب الحشر، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة، عراة، غرلاً ـ أي غير مختونين ـ فقلت يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» وفي رواية للنسائي ﴿لكلِّ امْرِيءٍ منهُمْ يَوْمئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور، الكفر في حقوق الله، والفجور في حقوق العباد، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس»

* * *

سُورَةُ التَّكوِير

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾.

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ أي لفت، من كورت العمامة إذا لففتها. كار الرجل العمامة كوراً أدارها على رأسه، وكورها بالتشديد مبالغة، على أنَّ المراد بذلك، إمَّا رفعها وإزالتها من مقرّها، أو لف ضوئها، كما وصفت النجوم بالانكدار، ونحوُه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر يكوَّران يوم القيامة»(١).

---

(١) جاء في الحديث الشريف، أن من علامات الساعة الكبرى، طلوع الشمس من مغربها، كما ورد في الصحيحين، وقد يتساءل الإنسان كيف تطلع الشمس من مغربها؟ والجواب أن ذلك غير ممتنع على قدرة الله تعالى، بل هو أمر منطقي معقول عند علماء الفلك، فإن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق، فإذا انعكس دورانها، فأصبحت تدور من الشرق إلى الغرب، صار طلوع الشمس من المغرب بدل المشرق، وفي هذا إيذان بانتهاء الحياة، على ظهر هذا الكوكب الأرضي، فسبحان من كوَّرها ودوَّرها، وحديث طلوع الشمس من مغربها لعله من أدل البراهين على حركة الأرض ودورانها، وانظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن».

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أي انقضَّتْ، وقيل تناثرتْ وتساقطت، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ وقيل: انكدارها انطماسُ نورها، من كَدِر الماءُ من باب تعب زَالَ صفاؤه.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض أي عن أماكنها، بالرجفة الحاصلة، لا في الجو، فإن ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ ﴾ جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما تكون عند أهلها ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ أي تُركت مهملة، عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ ﴾ أي الدواب دواب البر ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت من كل ناحية، قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردت تراباً، والمراد أنها تتجمع من الهول، وقد كانت شاردة في الشعاب والجبال، فأصبحت لا تأوي إلى أوكارها.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي أُحميت وأوقدت فأصبحت ناراً تضطرم،

وأصبحت مياهها نيراناً تحيط بالبشر، أو ملئت بتفجير بعضها بعضا، حتى تعود بحراً واحداً[1].

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قرنت الأرواح بأجسادها، أو قرنت كل نفس بشكلها، ونفوسُ المؤمنين بالصالحين، ونفوس الكافرين بالشياطين، وقيل: كل امرىء بشيعته، المسلمون بالمسلمين، والنصارى بالنصارى، واليهود باليهود.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾ أي المدفونة حيّة، وكانت العرب تئد البنات مخافة الفقر، أو لحوق العار بهم من أجلهن، فقد كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت، ذهب بها إلى الصحراء، وقد حفر لها حفرة، ويلقيها فيها، ويهيل عليها التراب، وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها، وإن ولدت ابناً حبسته ﴿ سُئِلَتْ ﴾ سؤال تلطف بها وتوبيخ لقاتلها، لتقول: وُئدتُ بلا ذنب.

﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾.

﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ لتدل على قاتلها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ ﴾.

---

(١) القول الأول هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ أي الموقد ناراً.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ يعني صحائف الأعمال، فإنها تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿في جنة عالية﴾ وتقع صحيفة الكافر ﴿في سموم وحميم﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ أي قلعت وأزيلت، كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاءُ عن الشيء المستور به.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ أي أوقدت إيقاداً شديداً.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ قُرِّبت من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ جواب «إذا» على أن المراد بها زمان واحد ممتدٌّ، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء، أي كل نفس برة أو فاجرة ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ من خير أو شر، والمراد بحضورها: حضور صحائفها، وما فيها من خير أو شر، كما ينطق عنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ الآية، وتنكيرُ النفس للإيذان، بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ بالكواكب الرواجع، من خَنَس إذا تأخر، أي أقسمُ بالنجوم الساطعة المضيئة، التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل، سميت خُنَّساً لأنها تختفي عن الأبصار، وهي ما سوى النيرين، من السيارات، ولذا وصفها بقوله.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الوحشُ إذا دخل كناسه، وهو بيته، تستتر كما تستتر الظباء في كهوفها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي أقبل بظلامه، أو أدبر، وهو من الأضداد وقيل إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى:

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ لأنها أول النهار، والصبحُ إذا أقبل، يقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نَفَساً له مجازاً (١).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن الكريم، الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة

---

(١) انظر إلى روعة الإبداع في التعبير ﴿والصبح إذا تنفَّس﴾ ففيه تشبيه النور الذي يأتي به الصبح، بنسمات الهواء العليل، التي تحيي النفس، فالصبح حيٌّ يتنفس، أنفاسه النورُ، والحركة، والضياء، وكأنه نائم يغطُّ في سبات عميق، ثم يستيقظ فيستنشق الهواء العليل، وإنما جاءت روعة التعبير، من جمال الاستعارة البديعة.

﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي جبريل عليه السلام، وإنما أضيف إليه، لأنه هو الذي نزل به، وأنه قاله عن الله تعالى ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه، ومن تكريمه أنه تعالى جعله.. واسطةً بينه وبين رسله.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أي قدرة على ما يكلّف به، لا يعجز عنه ولا يضعف، لقوله تعالى: ﴿شديد القوى﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه صاح صيحةً بثمود، فأصبحوا جاثمين ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عند الله تعالى عندية إكرام، لا عندية مكان ﴿مَكِينٍ﴾ أي ذي جاهٍ، ومنصب ومكانة.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿مُّطَاعٍ﴾ في ملائكته ﴿ثَمَّ﴾ أي في هناك السماوات، يطيعه من فيها ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي ورسالات السماء.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني الرسول ﷺ، والتعرض لعنوان المصاحبة، للتنبيه على شناعة الافتراء، كأنه يقول: هذا الذي تزعمون أنه مجنون، هو صاحبكم الذي صاحبتموه أربعين سنة، وعرفتم عقله وفضله، فكيف تزعمون أنه مجنون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ أي على الوحي، وغيره من الغيوب ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي ببخيل، من الضنّ وهو البخل، ضنَّ بالشيء بخل، فهو ضنين، أي لا يبخل بالوحي، كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان، بل يعلّمه كما عُلِّم.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وقيل: كانوا يقولون إنّ شيطاناً يلقيه على لسانه، فنفى الله تعالى ذلك عنه ﷺ.

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي فأيّ طريق تسلكونه في تكذيبكم للرسول؟ كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً: أين تذهب؟ أي أين تذهب عقولكم بهذا المنطق السخيف؟.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي للخلق أجمعين.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ﴾ بدل من العالمين ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي لمن شاء الاستقامة، ويتحرى الحقَّ، وإبداله من العالمين، لأنهم هم المنتفعون بالتذكير.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩ ﴾.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ الاستقامة ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة، بدون مشيئته تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ مالك الخلق كله، ومربيهم أجمعين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

* * *

سُورَةُ الانفِطَار

مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ انشقت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة على وجه الأرض.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها على بعض، فصار الكلُّ بحراً واحداً، فاختلط العذبُ بالأجاج، أو تفجرت فاشتعلت بألسنة النيران كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي اشتعلت نيرانها، من السَّجْر بمعنى الالتهاب، والاحتراق.

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أي قُلب ترابها وأُخرج موتاها، ونظيرهُ بُحثر لفظاً ومعنى.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كلُّ نفسٍ برُّها وفاجرها، وجواب إذا ﴿ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي ما أسلفت من عملٍ خير أو شر، علمت ذلك عند نشر الصحف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قيل الخطاب لمنكري البعث، أو يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أيْ أيَّ شيء خدعك وجرَّأك على عصيانه، وقد علمتَ ما بين يديك من الدواهي وما سيكون؟ قال عمر: غرَّه جهله، وغرَّه حمقه، وعن الحسن: غرَّه شيطانه، والتعرض لعنوان كرمه تعالى، للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره، حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئتَ فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك؟ وذِكْرُ «الكريم» للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية المطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام!!.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية، منبهة على أن من قدر على ذلك بدءاً قدر عليه إعادة، والتسويةُ جعلُ الأعضاء سليمة سوية، معدة لمنافعها وعدَّل بعضها ببعض، بحيث لم تتفاوت، أي صيَّرك متناسب الخلق، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، وإحدى العينين أوسع، يمشي قائماً لا كالبهائم، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرَّك بالإيمان، وشرَّفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ما زائدة للتوكيد، أي ركَّبك في أي صورة اقتضتها مشيئته، من الصور المختلفة في الحُسْن، والطول، والقِصَر، واختلاف الصور والهيئة، يدل على قدرة الصانع تعالى.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله وعن الاغترار بكرم الله ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضراب عن جملة مقدرة، كأنه قيل: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجرؤون على أعظم من ذلك، حيث ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي بالجزاء والبعث والنشور، وهذه علة الغرور.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ يحفظون أعمالكم وأقوالكم من الملائكة وهو تحقيق لما يكذبون به، وردٌّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال، أي تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافظين.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كراماً عند الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، وفي تعظيم الكاتبين تفخيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، حيث يستعمل هؤلاء الكرام، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف بالمتقين، وهي أشد آية على الغافلين، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ بيان لما يكتبون لأجله ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي لفي الجنة دار السرور والحبور، يتنعَّمون فيها بما لذَّ وطاب.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ أي الكفار ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي لفي النار، وفي تنكير النعيم والجحيم، من التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها ويقاسون سعيرها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها بل يجدون سمومها في

قبورهم حسبما قال ﷺ «القبر إمَّا روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النَّار»[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؟ خطاب للنبي ﷺ، لأنه ﷺ ما كان عالماً بذلك قبل الوحي، وفيه تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به، أي أيَّ شيء جَعَلك دارياً ما يوم الدين؟ لو لم نعرفك أحواله.

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾.

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ كُرِّر للتأكيد والتهويل.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجهٍ من الوجوه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، وفيه بيان إجمالي لشأن يوم الدين، قال ابن عباس: كلُّ ما في القرآن من قوله: ﴿وما أدراك﴾ فقد أراه، وكلَّ ما فيه من قوله: ﴿وما يدريك﴾ فقد طوى عنه ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلا لله دون غيره، وفيه تقريرٌ لشدة هوله، أي الحكم والقضاء بين الخلائق يومئذ بيد الله لا يملكه غيره. والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة بلفظ «إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار».

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ①﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس طفيف، أي حقير، روي أنه ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ②﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذا اشتروا من الناس، وكالوا لأنفسهم، أو وزنوا، وهي صفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم، والاكتيالُ: الأخذُ بالكيل، والاتِّزانُ: الأخذُ بالوزن ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونها وافية، والمراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً، بل أخذ الوافر حسبما أرادوا، بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتيال.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③﴾.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا للناس، أو وزنوا لهم، فحذف

الجار ﴿يُخۡسِرُونَ﴾ أي ينقصون وعدم التعرض للمكيل والموزون، لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم، في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصية المأخوذ. واختلف العلماء في مقدار التطفيف، فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلاّ إذا بلغ نصاب السرقة، وقال الآخرون: بل ما يصغر ويكبر داخل تحت الوعيد، وهذا هو الأصح حتى إن العزم عليه أيضاً من الكبائر، أمر المكيال والميزان عظيم، لأن عامة الخلق يحتاجون في المعاملات إليهما، فلهذا عظَّم الله تعالى أمره. قال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؟ أراد بذلك قد توجه على المطفِّف الوعيد العظيم في أخذ الطفيف، فأنت تأخذ الكثير، بلا كيل ولا وزن!!.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؟ يعني يوم القيامة، أدخل الهمزة على «لا» النافية توبيخاً، وفيه إنكار وتعجيب من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، ولو ذرة، فإن من يظن ذلك، وإن كان ظناً خفيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن تيقَّنه!!.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقومون من قبورهم لحكمه وقضائه، وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصفه تعالى برب العالمين، ووصف اليوم بالعظيم، من البيان البليغ لعظم الذنب، في التطفيف وأمثاله، ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التطفيف، والغفلة عن البعث، ثم أتبعه وعيد

الفجار ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ أي صحائف أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين، وأصله من السجن وهو الحبسُ والتَّضييقُ، لأنه سبب الحبس في جهنم، فالمعنى إنَّ كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أي كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون، وفيه قبائح الشياطين والكفار من الثقلين.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾؟ إنما قال ذلك تعظيماً لأمر السجِّين وتهويلاً له.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي مسطور أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ أي متجاوز للحد في الطغيان، غالٍ في التقليد الأعمى، حتى استبعد قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ أي منهمك في الشهوات، بحيث شغلته عما وراءها، وحملته على الإنكار.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة للبعث والحساب والجزاء.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للفاجر الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه ﴿بَلْ ۜ رَانَ﴾ أي بل طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ على قلوب المكذبين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والفضائح وفيه بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة، أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقالات الباطلة، بل ركب على قلوبهم، وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصي، حتى صارت كالصدأ في المرآة، فَحالَ ذلك بينهم وبين معرفة الحق، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَع، واستغفر، وتاب، صُقِل قلبُه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الرَّانُ الذي قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾[1]، والرَّينُ: الصدأ، ران الشيء على فلان غلبه، ثم أطلق على الغطاء، فمراتب الظلمة على القلب مختلفة، فبعضها يكون رَيْناً، وبعضُها طبعاً، وبعضها إقفالاً.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الغي والضلال ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المكذبين ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ أي عن النظر إلى ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي لممنوعون، فلا يرونه بخلاف المؤمنين، قال الزجاج: والآية دليلٌ على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً!.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٤٠٤ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند.

قال مالك: لمَّا حجب أعداءه لا بد أن يتجلى لأوليائه.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن الله، لداخلون النار.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ إذا دخلوها توبيخاً من جهة الزبانية ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا فذوقوا عذابه.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن التكذيب أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار. ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ما كتب فيه أعمالهم الصالحة، والأبرار المطيعون لله، المتقون لمحارمه ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ هو علم لديوان الخير، الذي دُوّن فيه كل ما عملته الأبرار، وصلحاء الثقلين، من العلو، لأنه سبب لارتفاع الدرجات في الجنة.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي تحضره الملائكة، ويشهدون على ما فيه يوم القيامة.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ينظرون إلى كرامة الله ونعمه، وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ تَعۡرِفُ ﴾ يا رسول الله ﴿ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم، وبريقه وطراوته، والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب.

﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ يُسۡقَوۡنَ ﴾ في الجنة ﴿ مِن رَّحِيقٖ ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ ختم على ذلك الشراب، ومنع أن تمسه الأيدي، تكريماً له، وهناك خمر آخر، تجري في الأنهار، كما قال تعالى: ﴿وأنهار من خمرٍ﴾ إلاّ أن هذا المختوم أشرف من الجاري.

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ ﴾ تختم أوانيه بمسك، ولعله تمثيل لكمال نفاسته ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ الرحيق ﴿ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ فليرغب الراغبون، كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس.

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِزَاجُهُۥ ﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق ﴿ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ سميت بالتسنيم، لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق، وتنصبُّ في أوانيهم.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي يشربون منها، قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صِرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ أي كفروا، يعني رؤساء قريش أبا جهل، والوليد، والعاص، وأصحابهم ﴿ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ على الذين آمنوا، مثل عمار وخباب وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ ﴾ أي فقراء المؤمنين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بالمشركين وهم في أنديتهم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم إليهم سخرية.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ ﴾ من مجالسهم أي رجعوا ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ أي رجعوا فرحين، متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي المؤمنين أينما كانوا ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني الكفار ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ لَضَآلُّونَ ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلُّوا، وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة، نسبوا المسلمين إلى الضلال.

﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ ﴾.

﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ ﴾ أي وما أرسل الكفار ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ على المؤمنين ﴿ حَٰفِظِينَ ﴾ أي يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم؟ وهذا تهكم بهم، وسخرية واضحة، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتهم وكلاء ورقباء على عبادي.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ ﴾.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ برسول الله ﴿ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ على الكفار ﴿ يَضۡحَكُونَ ﴾ كما ضحكوا منهم في الدنيا، مجازاةً لهم، حين رأوهم أذلاء مغلولين في النار، قد غشيهم فنون الهوان والصغار، بعد العزة والكبرياء، التي كانوا عليها في الدنيا.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي هم جالسون على أسرة الذهب، المكللة بالدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار، ويضحكون عليهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ ﴾.

﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾؟ والتثويب والإثابة بمعنى: المجازاة، والثواب: الجزاء، أي هل جوزوا ﴿مَا كَانُوا يَفعلُونَ﴾ بالمؤمنين في الدنيا؟ بمعنى: هل نالوا جزاءهم بأفعالهم وإجرامهم؟ والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»

* * *

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أي تصدعت وتشققت بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماءُ بالغمام﴾ وذلك عند قيام الساعة، وهي من علاماتها.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ سمعت وأطاعت، وأجابت ربها إلى الانشقاق، ولم تمتنع، أي انقادت لتأثير قدرته من غير ممانعة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي جُعِلت حقيقة بالاستماع والانقياد، والمعنى: انقادت لربها، وهي جديرةٌ بذلك، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وسويت باندكاك جبالها وآكامها، بحيث صارت ﴿قاعاً صفصفاً. لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾ أوزيدت سعة، ولا بد

من الزيادة في طولها وعرضها، لأن الخلق الأولين والآخرين سيحشرون على ظهرها.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ من الكنوز والموتى، كقوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾ والتحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء، والأرضُ وُصفت بذلك على سبيل التوسع ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي خلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء من باطنها، كأنها تكلفت في ذلك.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء والتخلي ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وهي حقيقة بذلك، وجوابه محذوف للتهويل، أي لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يتصوره الخيال!!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ خطاب للجنس ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي جاهدٌ إلى لقاء ربك، وهو الموت وما بعده، والكَدْحُ: جهدُ النفس في العمل، بحيث يؤثر فيها ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ المراد جزاء الكدح، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي ستلقى جزاءك على عملك كاملاً وافياً، فإمَّا أن تكون من أهل النعيم، أو من أهل الجحيم. إن الإنسان لا ينفكُّ في هذه الحياة، من أولها إلى آخرها، عن الكدح والمشقة، ولما كانت كلمة «إلى» لانتهاء الغاية، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة، بانتهاء هذه الحياة، فنرجو من فضل الله تعالى، أن يكون الانتهاء، إلى السعادة والرحمة بعد الموت.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ ﴾ أي أعطي ﴿ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ كتاب حسناته.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هيناً، لا مناقشة فيه ولا عذاب، و «سوف» من الله تعالى واجب، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب» فقلت: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ فقال: إنما ذلك العَرْضُ، ولكنْ من نوقش عُذِّب»(1).

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ ﴾.

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ المراد من أهله: أهل الجنة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ ﴾ أي أعطى كتاب سيئاته ﴿ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقال في سورة الحاقة: ﴿فأما من أوتي كتابه بشماله﴾.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ ﴾.

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/٢١٣ ومسلم رقم ٢٨٧٦ وهذه رواية أبي داود في الجنائز رقم ٣٠٩٣ ورواية البخاري بلفظ «إنما ذاك العرضُ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ يقول: يا ثبوراه، والثبورُ: الهلاكُ لأنه يعلم أنه من أهل النار، فيدعو بالهلاك على نفسه، قال تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي يدخل ناراً مسعَّرة، فإنه يدعو الثبور، ثم يدخل النار وهو في النار أيضاً يدعو الثبور.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ⑬﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا مسروراً مترفاً، بطراً كديدن الفجار، الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي ظنَّ أنْ لن يرجع إلى ربه، تكذيباً منه بالبعث والحَوْرُ: هو الرجوعُ، ومنه حديث «أعوذ بك من الحَوْر بعد الكور» أي الرجوع إلى النقص بعد الكمال.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ⑮﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما ظن، بل سيرجع إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأعماله، فلا يهمله بل يجازيه، ولا بدَّ من رجوعه وحسابه، وجزائه عليها، فهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ الشَّفَقُ: الحمرةُ من بعد غروب الشمس التي ترى في الأفق، وهذا هو المشهور في اللغة وقال مجاهد: الشَّفَقُ: النهار كله، لأنه عطف الليل عليه.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ أي اجتمع وتمَّ نوره، وذلك في الأيام البيض، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ أي لتلاقنَّ حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفظاعة، أولها الموتُ، وما بعده من مواطن القيامة، وقيل: الطبق جمع طبقة، وهي المرتبة وهو الأوفق للركوب، أي لتركبن أحوالاً بعد أحوال.

﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ فَمَا لَهُمۡ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ برسول الله، ويوم القيامة، أيْ أيُّ شيء يمنعهم عن الإيمان مع تعاضد موجباته؟!.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ أي لا يخضعون لله تعالى بالتوحيد ولا يسجدون لتلاوته؟ فهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وعند سماعهم القرآن لا بدَّ أن يعلموه معجزاً، وإذا علموا ذلك لا بد أن يخضعوا، قيل: قرأ النبي ﷺ ذات يوم ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفّر، فنزلت هذه الآية، وعن رافع قال: «صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العَتَمَةَ - يعني صلاة العشاء - فقرأ ﴿إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ فسجدَ، فقلتُ: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم، فلا أزال أسجدُ فيها»[1] وبه احتج أبو حنيفة على وجوب السجدة، قال ابن عباس والحسن: المراد من السجود الصلاةُ، وقال أبو مسلم: الخضوعُ، وقال الآخرون: المراد نفس السجود.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي كفار مكة ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث والقرآن، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، فالمعنى: إن الدلائل الموجبة للإيمان وإن كانت ظاهرة، لكنَّ الكفار يكذبون بها، فكيف يكذّبون وبين أيديهم هذا الكتاب المعجز؟.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٨ في المساجد والموطأ ١/٢٠٥ في القرآن.

من الكفر والحسد، والتكذيب وأصل الكلمة من الوعاء، يقال: أوعيتُ المال إذا جمعته.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ أي فبشر هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون به ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي وجيع مؤلم، في غاية الشدة والغلظة.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة دائم غير مقطوع.

والله أعلم بمراده والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

* * *

سُورَةُ البُرُوجِ

مكية وهي اثنان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ①﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وهي البروج الأثنا عشر، وقيل: النجوم سميت بروجاً لظهورها، وأصل التركيب للظهور، وإنما حَسُن القسمُ بالبروج، لما فيها من عجيب حكمة الباري، وفيها سير الشمس والسيارات.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ②﴾.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③﴾.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي شاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه، وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أو للمبالغة، وقيل: الشاهد الرسول ﷺ، والمشهود يوم القيامة، قال الله تعالى عن القيامة: ﴿ذَلِكَ يومٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ وذلكَ يوم مَشْهودٌ﴾.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ﴾.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ أي لُعن، والأظهر أنها دعائية، دالة على الجواب، كأنه قيل: أُقسم بهذه الأشياء أنكم؛ أي يا كفار مكة ملعونون، كما لُعن أصحاب الأخدود، لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين، على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفار، وتذكيرهم بما جرى على من تقدَّمهم من التعذيب، حتى يتأسَّوْا بهم ويصبروا، والأخدود هو الشقُّ العظيم في الأرض جمعه أخاديد، وفي قصتهم روايات مختلفة، إلاَّ أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم، أو ملكاً كافراً، فألقاهم في الأخدود[1]؛ وتلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر

(١) القصة كما وردت في مسند أحمد، وصحيح مسلم «أن مَلِكاً جباراً ظالماً، ادَّعى الربوبية، وكان له ساحر يستعين به، فلما كبر الساحر، طلب من الملك أن يأتيه بغلام شاب ليعلمه السحر، حتى لا يذهب ملكه، فبعث له غلاماً، وكان هذا الغلام يمرُّ في طريقه على رجل عابد زاهد، فتعلَّق قلب الغلام به، فأسلم على يديه، ووصل الصلاح بالغلام إلى درجة عظيمة، حتى صار مستجاب الدعوة، لا يأتيه مريضٌ فيدعو الله له إلاَّ شفاه، وصار من شدة صلاحه يبرىء الأعمى والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأمراض، وكان للملك وزيرٌ أعمى، سمع بأمر هذا الغلام، فأتاه بهدايا ثمينه عظيمة، وقال له: هذه الهدايا كلها لك إن أنت شفيتني!! فقال له الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ربُّ العالمين، فإن أنت آمنتَ بالله ربِّي، دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله تعالى، فدعا الله له فشفاه الله تعالى، فأصبح بصيراً، فجاء الوزيرُ إلى الملك وعيناه تبصران، فتعجَّب الملك منه وقال له: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: وهل لك ربٌّ غيري!؟ فقال له: أنت عبد مثلي ضعيف لا تقدر على شيء، وربي وربُّك هو الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك قد بلغ من سحرك أنك تُبرىءُ الأعمى والأبرص، فقال له الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله رب العالمين، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دلَّ على العابد فجيء بالعابد فقيل له: إرجع عن دينك؛ فأبى، فأمر الملك به فنشر بالمنشار حتى صار شقتين، ثم أُتي بالغلام فطلب منه أن يرجع =

الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله، تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾.

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصف لها بأنها عظيمة، لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾.

﴿إِذْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهَا﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ أي جلوس على الكراسي في مكان مشرف عليها، وكانوا يعرضون المؤمنين على النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن يصبر على دينه ألقوه في النار.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

﴿وَهُمْ﴾ الكفار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهدون على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، وهم حضور لا يرقُّون لهم، لغاية قسوة قلوبهم، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطق به الروايات المشهورة، وقد روي أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم حولها، عَلِقتْ بهم النار، فأحرقتهم، ونجّى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بنُ أنس، والواحدي، وعلى هذا حَمَلا قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب الحريق﴾.

= عن دينه فأبى، فأمر الملك أن يصعدوا به على رأس جبل عال فيلقوه منه، فلما صعدوا به الجبل، دعا الغلام ربه فقال: اللهم اكفني من شرهم بما شئتَ، فتزلزل بهم الجبل فماتوا وجاء الغلام يمشي إلى الملك..» الخ وانظر تمام الحديث في صحيح مسلم.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ من المؤمنين، أي وما أنكروا وما عابوا منهم ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر، أي وما كان لهم ذنب أو جرم عند هؤلاء الفُجّار، إلاَّ لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذا فضيلة وليس بذنب.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ هذا تأكيد للاستثناء بمناط إيمانهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعدٌ لهم، ووعيد شديد لمعذبيهم، فإن علمه تعالى بجميع الأشياء، التي من جملتها أعمال الفريقين، يستدعي توفير جزاء كل منهما.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي امتحنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد إمّا أصحاب الأخدود، وإما على الإطلاق، وهذا أولى، لأن اللفظ عام، فالتخصيص ترك للظاهر ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ لم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يُتصور عن غير الكافر ﴿ فَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي الزائد في الشدة، وفي الحرارة، وهي نار أخرى بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي الذي يصغر عنده الدنيا وما فيها.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ ﴾ استئناف خوطب به النبي ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية، مع إضافة لضميره ﷺ، البطشُ: الأخذ بعنف ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي بالغ أقصى أنواع الشدة، ووصفه بالشدة، فقد تضاعف، وهو أخذه بالظلمة والجبابرة أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ ﴾ الخلق ﴿ وَيُعِيدُ ﴾ بعد الموت، من غير دخل لأحدٍ في شيء منهما، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه.

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي الساتر للعيوب، والعافي عن الذنوب ﴿ ٱلْوَدُودُ ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي خالقه، أي صاحب العرش العظيم، المحيط بالسماوات والأرض، خلقه ليدل على وجوده، دون احتياج إليه، ولهذا قال بعده ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ أي العظيم في ذاته وصفاته.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد، وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أي قد أتاك يا رسول الله، وهو تقرير لشدة بطشه بالظلمة العصاة، والكفرة العتاة، متضمّنٌ لتسليته ﷺ بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرٌ كذلك ﴿ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون قومه، والمعنى: قد عرفت بتكذيبهم للرسل وما حاق بهم، فتسلَّ واصبر وأنذرهم أن يصيبهم مثل الطغاة المجرمين.

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قومك ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ لا يَدْعون عنه، إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم كفراً فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الكريم، مع وضوح أمره.

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى، بقوم أحاط بهم العدو من كل جانب، فسدَّ عليهم المسالك، والمراد من هذه الإحاطة بيان قرب هلاكهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي مصون عن التبديل والتحريف، ووصول الشياطين إليه! والله أعلم بمراده.

والصلوات والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ ﴾.

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ الكوكب البادي بالليل، والمراد به كواكب السماء النيرة، يقال: طَرَق النجم طروقاً طَلع، وكل ما أتى ليلاً فقد طرق، وهو طارق.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ ﴾.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام، أيْ أيَّ شيءٍ أعلمك ما الطارق؟.

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ ﴾.

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ أي المضيء كأنه يثقب الظلام، فينفذ فيه، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار.

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة أو فاجرة ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم، و «إنْ» نافيه و «لمَّا» بمعنى إلاَّ، أي ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظ، مهيمن، رقيب، وهو الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم الحفظة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥)﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الآية للتنبيه على أن كل نفس عليها حافظ، يحصي عليها كل ما يصدر عنها، من قول وفعل، وأنه ينبغي على الإنسان أن يتفكر في مبدأ فطرته حق التفكير، حتى يتَّضح له، أنَّ من قدر على إنشائه من مواد، لم تشمَّ رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، فيعمل ليوم الإعادة، ما ينفعه ويجديه، ولا يملي على حافظه ما يرديه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ من أي شيءٍ خلقه ربُّه، استفهام وجوابه قوله تعالى:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦)﴾.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ والدَّفقُ صبٌّ فيه دفع، والمراد بالماء الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبيء عنه قوله تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧)﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، وقيل: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، لأنه تعالى بيَّن أن الإنسان مخلوق من ماءٍ دافق، والذي يوصف بذلك ماء الرجل، ثم هو يلتقي بماء المرأة «البويضة» في الرحم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨)﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للخالق تعالى، وقوله ﴿خُلِقَ﴾ يدلُّ عليه، أي إن الذي خلقه ابتداءً مما ذُكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي على إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾ لا يعجز عنه، فالذي بدأ خلقه يعيده.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي تكشف ما أسرَّت به القلوب، من العقائد والنيات، وما أخفي فيها من الأعمال ويميز ما طاب منها وما خبث.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي المطر، وسمي به لعوده كل حين، ويجوز أن يراد بالسماء السحاب، والعرب كانوا يعرفون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما يتصدع عنه من النبات، والله تعالى جعل كيفية خلق الحيوان، دليلاً على المبدأ والمعاد، وذكر في هذا كيفية خلق النبات، فالسماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وكلاهما من النعم العظام.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ يفصل بين الحق والباطل، مبالغ في ذلك، كأنه نفس الفصل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ إنه جِدٌّ كله، وليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، ومن حق البشر أن يهتدوا به.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾.

﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله، يعني يحتالون بالمكر، وذلك في دار الندوة حيث تشاوروا في صدِّ الناس عن رسول الله، وتآمروا على قتله.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أجازيهم جزاء كيدهم، باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله إلا على وجه الجزاء.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدعُ عليهم بالهلاك، فَعَمَّا قليل سترى ما يحلُّ بهم ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي إمهالاً يسيراً وفي تقييده برويداً، من تسليته ﷺ ما لا يخفى!! والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»

* * *

سُورَةُ الأَعْلَى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ ﴾.

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ أي نزّه ربك عزّ وجلّ عن صفات العجز والنقص، وعما يقوله الظالمون مما لا يليق به سبحانه من النقائص، والقبائح، كالزوجة، والولد، وجعل الملائكة بنات الله، فهو العلي الكبير الذي لا أحد أكبر منه ولا أعلى، فإنه تعالى أعلى وأجلُّ وأعظم من إدراكنا، فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي خلق كل شيء فسوى خلقه، بأن جعل له ما به يتأتى كمالُه، ويتسنَّى معاشُه على إحكام واتساق، لأنه صادر عن عالم وحكيم.

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾.

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ ﴾ أجناس الأشياء، وأنواعها، وأفرادها ومقادرها وصفتها

وأفعالها وآجالها ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فوجَّه كلَّ واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، طبعاً أو اختياراً، ويسَّره لما خلق له، بخلق الميول والإلهامات، ولو تتبعتَ أحوال النباتات والحيوانات، لرأيتَ في كل منها ما تحار فيه العقول.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَآءً﴾ أي يابساً، هشيماً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي أسود بالياً، بعد أن كان أخضر زاهياً، وفي الآية تمثيل للحياة الدنيا، فإنها بعد هذا الجمال والزهاء، ستصير إلى الزوال والفناء.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة، والآية بيانٌ لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله ﷺ، إثر بيان هدايته العامة للمخلوقات، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن، والسين للتأكيد، أي سنجعلك تقرأ القرآن فلا تنساه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصلاً من قوة الحفظ، ليكون ذلك آية أخرى لك، وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

١ ـ أنه كان أمياً فحفظُه لهذا الكتاب من غير دراسة وكتبة، معجزة واضحة.

٢ ـ هذه أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمرٍ عجيب، سيقع في المستقبل، وقد وقع.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ ﴾.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ نسيانه أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً، إلاَّ ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن تُنسخ تلاوته، وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلة والنُّدرة، كما روي أنه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيٌّ أنها نُسخت، فسأله فقال ﷺ نسيتها، وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ بسورة بالليل، فقال: «يرحمُه اللهُ، لقد أذكرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنسِيتُها من سورة كذا وكذا»[1]. وقيل هذا الاستثناء لم يقع ولم يشأ الله تعالى أن يُنسيه شيئاً، وفائدة هذا الاستثناء أن يعلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ تعليل لما قبله، أي يعلم ما ظهر وما بطن، من الأمور التي من جملتها ما أُوحيَ إليك، فينسي ما شاء إنساءه، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه، لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ ﴾.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ أي نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى، في كل باب من أبواب الدين، علماً وتعليماً، واهتداءً وهداية، فيندرج تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فذكر﴾ ودلت هذه الآية على أنه سبحانه، فتح عليه ﷺ من أبواب التيسير، ما لم يفتحه على أحد غيره، كيف لا، وقد كان صبياً لا أبَ له ولا أمَّاً، نشأ في قوم جُهَّال، ثم إنه تعالى جعله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ ﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي عظْ بالقرآن الناس، حسبما يسرناك بما يوحى إليك، واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله ولما تكمّل ﷺ أُمر بدعوة الخلق بقوله: ﴿فذكِّر﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قيل: هو أمرٌ بالتذكير على الإطلاق، والمعنى: عظْ أنت إن نفعت أو لم تنفع، أو الإشعار بأن التذكير إنما يجب إن ظن نفعه، ولذلك أُمر بالإعراض عن من تولى.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ ﴾.

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ أي سيتعظ وينتفع بها ﴿مَن﴾ من شأنه أن ﴿يَخْشَىٰ﴾ الله في الجملة، فيزداد خشيةً بالتذكير، فيفكّر في أمر ما تذكر به، فيقف على حقيقته فيؤمن به.

والناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام:

١ ـ من قطع بصحته.

٢ ـ من ظن.

٣ ـ من أنكر، فالأولان تكون الخشية لهما، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على الخشية في القلب، وصفات القلب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله تعالى، وجب تعميم التذكير تحصيلاً للمقصود.

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ﴾.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافر أو الأشقى من الكفرة، لتوغله في عداوة النبي ﷺ، قيل: نزلت في الوليد، وعتبة، والعبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ﴾.

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ نار جهنم، والصغرى نار الدنيا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً يتلذذ بها، بل هو في عذاب دائم لا ينقطع، وإنما قيل «ثم» لأن هذه الحالة أفظع من دخول النار نفسها، والعرب تقول للمبتلَى «لا هو حيٌّ ولا ميّت».

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهّر من أدناس الكفر والمعاصي، وروي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿قَد أَفلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر، وخرج إلى العيد فصلّى، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدَّق ثم صلّى، ثم يقرأ هذه الآية، وفيه إشكال، فالسورة مكية، ولم يكن في مكة عيد، ولا زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه، وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الصلوات الخمس قاله ابن عباس، واختاره ابن جرير، وعن الضحاك «ذكر اسم ربه» في طريق المصلى ﴿فصلّى﴾ صلاة العيد، والصحيح قول ابن عباس، لأن أصل الصلاة مشروع من بدء الإسلام.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ إضراب عن مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والمخاطب به

الكافرون، أو الناس جميعاً فإن السعي للدنيا أكثر، والمراد بإيثار الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[1].

﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي الآخرة أفضل في نفسها وأدوم، ونعيمها لذيذٌ بالذات، خالصٌ عن الغوائل، وعدم التعرض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغصات، لغاية ظهوره.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي مثبتةٌ في الصحف القديمة، المنزَّلة على إبراهيم وموسى، والقرآن جامع لشؤون الدنيا والدين، وخلاصة الكتب المنزَّلة على رسل الله.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ بدل من الصحف الأولى، وفي إبهامها، ووصفها بالقدم، ثم بيانها وتفسيرها، من تفخيم شأنها ما لا يخفى، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

* * *

(١) سورة يونس، آية: ٧.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ استفهامٌ أُريد به التعجيب بما في حيِّزه، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة، التي حقُّها أن يتناقلها الرواةُ، من كل حاضر وبادٍ ﴿حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها كقوله تعالى: ﴿يومَ يغشاهم العذاب﴾ يعني القيامة.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي وجوهُ الكفار[1]، وهو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال، نشأ عن الاستفهام، كأنه قيل من جهته ﷺ: ما أتاني؟ فقيل: وجوه يومئذٍ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان.

---

(١) المراد بالوجوه الأعيانُ والذوات، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما يقال: جاءك وجوه القوم أي أعيانهم ورؤساؤهم.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

﴿عَامِلَةٌ﴾ أي تعمل في النار، وهو جرُّها السلاسل والأغلال، والصعود والهبوط في تلال النار ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ قيل هم أصحاب الصوامع «الرهبان»[1] ومعناه: نصبتْ في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجد الواصب.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل ناراً متناهيةً في الحر.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي تسقى ماءً حاراً من عين متناهية الحرارة، وصَلَ حرُّها درجة النهاية.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ هو نبت يكون بطريق مكة تسميه قريش الشبرق، إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، والعذاب ألوان والمعذبون طبقاتٌ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات، وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده، ويتضرّعون إلى الله طلباً للخلاص منه.

---

(١) قال البخاري قال ابن عباس ﴿عاملة ناصبة﴾ يعني النصارى، انظر كتاب التفسير ٨/ ٧٠٠ ومراد ابن عباس أن الرهبان منهم يجهدون أنفسهم في العبادة ـ بزعمهم ـ ثم يَصْلَوْن نار جهنم في الآخرة.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وصف للضريع، أي منفعةُ الغذاء منتفية عنه وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله، وتحقيق ذلك أنَّ جوعهم وعطشهم، ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة، بل جوعهم أنه تعالى يسلِّط عليهم الجوع، بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلَّط عليهم العطشُ، فيضطرهم إلى شرب الحميم، كما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في حديث أهل الجنة، وتقديم حكاية حال أهل النار، لأنه أدخل في تهويل الغاشية ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، وإشراق ونضارة.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي رضيت بعملها وطاعتها، لمَّا رأت ما أدَّاها إليه من الكرامة، وأورثها الفردوس الأعلى، فحُقَّ لها أن ترضى.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي هم في حدائق وبساتين، مرتفعة قدراً ومكاناً.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ أي الوجوه ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي في الجنة كلمةً ذات لغو، فإن كلامهم أذكارٌ وحِكَم، والجنة دار الطهر والسلام.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي فيها عيون كثيرة، يجري ماؤها ولا ينقطع.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعة القدر، مكلَّلة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين ينتظرن أزواجهن.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم معدة للشرب.

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أي وسائد يستندون إليها للراحة، جمع نُمرقة ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جنب بعض، مساند ومطارح، أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة، واستند إلى أخرى.

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ أي بُسُطٌ عِرَاضٌ فاخرة جمع زربية وهي شبه الطنافس ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي مبسوطة في أنحاء الجنة.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾؟ لمَّا نعت الله تعالى ما في هذه السورة، عجِبَ من ذلك الكفرةُ وكذَّبوه، فذكَّرهم الله عجائب صنعه فقال: ﴿أفلا ينظرون﴾ أي نظر اعتبار، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالاً

على قدرته تعالى، معدولاً به عن سنن خلقه سائر الحيوانات، في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيئتها، يتأتى ما يصدر عنها، من الأفاعيل الشاقة، كحملها الأحمال الثقيلة، والقيام بها بما يعجز عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش، وتحتمل العطش إلى عشرٍ فصاعداً، واكتفائها باليسير، ورعيها بكل ما يتيسَّر، وانقيادها للإنسان، حيث يستعملها كل صغير وكبير.

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ أي بلا عمد بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴾ نصباً رصيناً لا تميل ولا تميد.

﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ تمهيداً وتسويةً، حسبما يقتضيه صلاح أمور الخلائق، والمعنى: أفلا ينظرون نظر التدبُّر والاعتبار، إلى كيفية خلق هذه المخلوقات، الشاهدة بحقيقة البعث والنشور، ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار، وتخصيص هذه الأربعة بالاعتبار، لأن هذا خطاب للعرب أولاً، وأكثرهم يكون في البوادي، لا يرون سوى هذه الأشياء.

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَذَكِّرۡ ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوِّفهم بآي الذكر الحكيم، واقتصر على التذكير، ولا تلحَّ عليهم، ولا يهمنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد.

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ من تولى منهم، وأعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ أي عذاب الآخرة، ويُحرقه بنار جهنم الكبرى.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم بعد الموت لا إلى أحدٍ سوانا.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ فنحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم جزاء أمثالهم، و«على» لتأكيد الوعيد، لا للوجوب، إذ لا يجب على الله شيء والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

* * *

سُورَةُ الفَجْرِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، أو بصلاة الفجر، وهذا كقوله تعالى: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ ﴿والصبح إذا تنفس﴾ ﴿والنهار إذا تجلّى﴾ أقسم الله به، لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس والحيوانات، في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي عشر ذي الحجة، أو العشر الأوائل من محرم، أو العشر الأواخر من رمضان، وتنكيرها للتفخيم.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها، والشَّفع معناه: الزوجُ، والوترُ: الفردُ، والأشياء كلُّها إمَّا شفعٌ، وإمَّا وتر، فكأنه تعالى أقسم بجميع الأشياء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ إذا يمضي، والتقييد بذلك، لما في التعاقب من قوة الدلالة، على كمال القدرة ووفور النعمة، وقيل معنى ﴿يَسۡرِ﴾ يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم أي ينام فيه.

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ ﴾.

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء، وهذا تحقيق وتقدير لفخامة شأن المقسم به، وتنبيه على أنه خليق بأن يؤكد به الإخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ ﴿ قَسَمٞ﴾ أي مقسم به ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي عقل، سمي به لأنه يحجر صاحبه، أي يمنعه عن فعل القبيح، كما سمي عَقلاً، ونُهية، أي هل في القسم بهذه الأشياء، قسم مقنع لذي عقل؟ والمقسم عليه محذوف وهو «ليعذبن» يدلُّ عليه ﴿ألم تر كيف فعل﴾ إلى ﴿فصبَّ عليهم﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وإن كان في الظاهر خطاباً للنبي ﷺ، لكنه عام لكل من عَلِم ذلك، أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً يقينياً، كيف عذب ربك عاد، فيعذب هؤلاء أيضاً؟ وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم، لأن أخبار عادٍ، وثمود، وفرعون، كانت منقولة بالتواتر، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية ﴿ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أي صنيع ربك ﴿ بِعَادٍ﴾ يعني قوم عاد الجبارين.

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ﴾.

﴿ إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، على تقدير مضاف، أي سبط إرم، للإيذان بأنهم عاد الأولى، الأقوياء الأشداء ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أي ذات البناء الرفيع الطويل، القائم على الأعمدة الضخمة.

﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم وشدتهم، وضخامة أجسامهم، روي أنه كان لعاد ابنان «شديد» و «شدَّاد» فمَلَكا ثم مات شديد، وخلص الأمر لشدَّاد، فسمع بذكر الجنة، فبنى إرم في صحارى عدن، وسماها إرم، فلمَّا تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم، بعث الله صيحة من السماء فهلكوا.

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَثَمُودَ ﴾ عطف على عاد ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ ﴾ أي قطعوا صخور الجبال، واتخذوه بيوتاً، قيل: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، كقوله تعالى: ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾. ﴿ بِٱلۡوَادِ ﴾ أي نقبوا الصخر بوادي القرى.

﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ﴾ أي وكيف أهلك فرعون ﴿ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها، كما فعل بآسية حين آمنت.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أي طغى كل واحد منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى:

﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فَصَبَّ ﴾ أي فأنزل عاجلاً ﴿ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ وهو عبارة عما حلَّ بكل منهم من فنون العذاب، وتسميته سوطاً، للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أُعدَّ لهم في الآخرة، بمنزلة السوط عند السيف، والتعبير عن إنزاله بالصبِّ، للإيذان بكثرته، واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ المِرْصادُ: هو المكان الذي يترقب فيه الإنسان عدوه، ويرصده للفتك به، واسم الفاعل راصد، وهو تمثيل لإرصاده العباد وأنه عالم بما يصدر منهم، وحافظه ويجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه إشارة إلى أن كفار قومه ﷺ، سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب.

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ ﴾ متصل بما قبله كأنه قيل: إنه تعالى بصدد مراقبة عباده، فأما الإنسان فلا يهمه ذلك، وإنما مطمح أنظاره الدنيا ولذائذها ﴿ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ﴾ اختبره بالغنى واليسر ﴿ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالمال ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بما وسَّع عليه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فضَّلني بما أعطاني من المال والجاه[1]، حسبما كنت أستحقُّه، ولا يخطر بباله، أنه فضلٌ تفضَّل به عليه، ليبلوه أيشكر أم يكفر؟.

---

(١) لا يقول ذلك شكراً لله، واعترافاً بالنعمة، وإنما يقوله مفتخراً به على غيره، ومستدلاً به على علوّ منزلته، كما قال قارون ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ فهو قول يراد به الاعتزاز والافتخار، لا شكر الجبار.

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ﴾ بالفقر ﴿ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ ﴾ فضيّق عليه ﴿ رِزۡقَهُۥ ﴾ معيشته ﴿ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ بالفقر، وضيق المعيشة، ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، بل التقتير والتضييق قد يؤدى إلى كرامة الدارين، والتوسعة وقد تفضي إلى خسرانهما، وحصول النعمة في الدنيا وآلامها، لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيراً ما يوسِّع على العصاة والكفرة، على سبيل الاستدراج، وقد يضيِّق على الصدِّيقين لما ادَّخره لهم في الآخرة، والحقيقة لا يطّلع عليها إلا الله.

﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ كَلَّاۖ ﴾ ردعٌ للإنسان عن مقالته المحكية، وتكذيب له في كلتا الحالتين، أي ليس الإكرام والإهانةُ في كثرة المال وقلَّته، بل الإكرام في التوفيق للطاعة، والإهانة في الخذلان ﴿ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ الالتفاتُ إلى الخطاب، للإيذان باقتضاء جنايته لمشافهته بالتوبيخ، وتشديد التقريع، أي بل لكم أحوال أشدُّ شراً مما ذكر، وأدل على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم.

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾ ولا تحثون أنفسكم وغيركم ﴿ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ أي على إطعامه.

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ أي الميراث ﴿ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ اللَمُّ مصدر بمعنى أكلاً لاماً، أي أكلاً بشره وأصلُ اللمِّ الجمعُ، ومنه قولهم: لمَّ الله شمله

أي جمع عليه شمله، أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً، تجمعون فيه بين الحلال والحرام، فقد كانوا لا يورِّثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون ميراثهم مع ما ورثوه من أقاربهم، وآكل اللمم هو الذي يأكل كل شيء يجده، لا يسأل أحلال أم حرام؟ وهو ذمٌّ لهم على الشراهة على المال.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشهرة، وقصر الهمة على تحصيلها والاتكال عليه، يقال: جمَّ الشيء: كثر، فهو جمٌّ، ومال جمٌّ أي كثير.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك، وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي إذا زلزلت دكاً بعد دك أي كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً، وذلك عند النفخة الثانية، أي إذا دُقَّت وكسرت مَرّة بعد مرة أخرى.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي تنزل ملائكة السماء، فيصطفُّون صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي يوم القيامة ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ قيل إنها برزت لأهلها، كقوله تعالى: ﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي

يتذكر ما فرط منه بمشاهدة آثاره، فيقول: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وأين له منفعة الذكرى وقد فات أوانها؟.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يقول يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة أنتفع بها اليوم.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي كعذابه ﴿أَحَدٌ﴾ أي لا يتولى عذاب الله أحد، لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي كعذابه تعالى في الشدة، والضمير لله تعالى، أو للإنسان وهو الكافر، أي لا يُعذب أحد من مثل ما يعذبه الكافر، فإن عذاب الله له شديد ﴿والله شديد العقاب﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله تعالى، إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة التي سكنها ثلج اليقين، فلا يخالجها شك، وصفت هنا بالاطمئنان، لأنها تترقى في معارج الأسباب، إلى ربِّ الأرباب، فتكون بجوار قدسه، أي يقول الله تعالى ذلك على لسان الملك عند تمام الحساب، واعلم أن الله تعالى ذكر النفس في القرآن تارة مطلقاً، وتارة وصَفَها بالسوء، وتارة باللَّوامة، وتارةً بالمطمئنة.

﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي ارجعي إلى ثواب ربك وجنته، حال كونك ﴿ رَاضِيَةٗ ﴾ من الله تعالى بما أوتيتِ من النعيم المقيم ﴿ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ عند الله تعالى بما عملتِ.

﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴾ أي في زمرة عبادي، أي انضمي إلى عبادي المقربين.

﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم وانتظمي في سلك المقرَّبين ﴿مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾ واستضيئي بأنوارهم القدسية، وهذا تكريم لهم من الله عظيم، بدخول جنات النعيم، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»

* * *

سُورَةُ البَلَدِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ اقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام وهي مكة في قول جميع المفسرين، لأن الله تعالى جعلها حرماً آمناً، وجعل البيت قبلة لأهل المشرق والمغرب، وأمر الناس بحج ذلك البيت، وحرّم فيه الصيد، فهذه الفضائل لمَّا اجتمعت في مكة أقسم الله بها.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قيّده بحلوله ﷺ، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأنَّ شرف المكان بشرف أهله، ولبيان أنه ﷺ مع جلالة قدره، وعظم حرمته، قد استحلوا إيذاءه في هذا البلد الحرام، وتعرضوا له بما لا خير فيه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته وقيل:

المراد العموم، أيّ أقسم لكم بكل والد ومولود، وهذا حسنٌ لأنه مضمون الجواب، من حيث شموله للكل أقسم تعالى بآدم وذريته، إذ هم أعجب خلق الله على وجه الأرض، لما فيهم من البيان، والنطق، والتدبير، واستخراج العلوم والفنون.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي في تعبٍ ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي فنون الشدائد، والكَبَدُ بفتحتين: المشقَّةُ، وهو تسلية لرسول الله ﷺ ممَّا كان يكابده من كفار قريش والإنسان لا يزال في الشدائد، مبدؤها الرحم، ومنتهاها الموت.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والضمير لبعض صناديد قريش، الذين كان ﷺ يكابد منهم ما يكابد، كالوليد وأضرابه، وقيل: يراد به أبو الأشدِّ بن كِلْدة، وكان شديد القوة، مغتراً بقوته وكان يبسط له الأديم ـ الجلد ـ فيقوم عليه، ويقول من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة فينقطع الأديم قطعاً ولا تزلُّ قدماه، والمعنى: أيظن هذا الأحمق أن لن تقوم القيامة ولن يقدر أحد على الانتقام منه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

﴿يَقُولُ﴾ أي يقول ذلك الصنديد ﴿أَهْلَكْتُ﴾ أنفقت ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثيراً، جمع لبدة، وهو ما تلبَّد من شعرٍ أو صوف والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة ومعاداةً للرسول ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق، يعني أيظن أنَّ الله لم يره، ولن يسأله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾؟ يبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلِسَانًا﴾ يعبّر به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ، وغيرها.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي طريق الخير، والشر، المفضيَيْن إلى الجنة أو النار، وهذه الآية كالآية ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ الاقتحامُ: الدخول في الأمر الشديد، أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، عبَّر عنها بالعقبة، وهو الطريق في الجبل، لصعوبة سلوكها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ أي أيَّ شيءٍ أعلمك ما اقتحام العقبة؟.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هو إعتاق رقبة، فككت الأسير إذا خلصته من الرق، وكانت عادة العرب في الأسارى، شد رقابهم وأيديهم، فسمي إطلاق الأسير فكاكاً.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي ذا مجاعة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابة، اجتمع حق اليتيم، والقرابة، فإطعامه أفضل.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره، فالمعنى: إن الإنفاق على هذا الوجه، مرضي نافع عند الله، لا أن يهلك ماله في الرياء والفخار.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي كان مع ذلك مؤمناً، صادق الإيمان، فإنه إن لم يكن منهم، لم ينتفع بهذه الطاعات ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على الطاعات، وعلى المِحن التي تصيب الإنسان في حياته، فالدنيا ابتلاء ومحن، ولا يصبر على البلاء إلاَّ صادق الإيمان، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ تحاثوا

﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ بالترحم على عباده فيما بينهم، إشارة إلى الشفقة على خلق الله، قال بعض المحققين: إن الأصل في التصوف أمران: صدقٌ مع الحق، وخُلُق مع الخلق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ١٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ١٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بآيات القرآن، وكذبوا الرحمن، واستهزؤوا برسوله ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ٢٠﴾.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة، من أوصدتُ الباب إذا أطبقته وأغلقته، أي عليهم نار مغلقة مطبقة، لا يستطيعون الخروج منها، ولا الفكاك عنها، والله أعلم.

والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

* * *

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ .

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي ضوءها إذا أشرقت وهو أول وقت ارتفاع النهار، والضَّحوة مثله، جمعه ضُحى، مثل قرية وقرى.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ .

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها في الضياء والنور، وذلك بعد غروبها في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، ثم يكبر ويكبر حتى يصبح بدراً منيراً.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي جلَّى الشمسَ: أظهرها للرائين، أو جلَّى ظلمة الليل بنوره وضيائه الباهر، فجعل الأرض منيرة ساطعة، بعد أن كانت مظلمة قاتمة والظاهر أنَّ الضمير في ﴿جَلَّاهَا﴾ عائد إلى الشمس، لأن

النهار عبارة عن نور الشمس، فكلما كان النهار أوضح كانت الشمس أجلى ظهوراً، لأن قوة الأثر تدل على قوة المؤثر.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها، أو الآفاق أو الأرض.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي ومن بناها، وإنما أوثرت «ما» على «من» لإرادة معنى الوصف كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها، فإن قيل: ما الفائدة في ذكره هذه الأوصاف؟ فالجواب أنه تعالى لما وصف الشمس بالصفات التي تدل على عظمتها، أتبعه بيان ما يدلُّ على حدوثها، وحدوث جميع الأجرام السماوية، فنبه تعالى على تلك الدلالة بهذه الأوصاف.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي بسطها وسطحها، فجعل فيها السهول الفسيحة، وجعلها ممتدة ممهَّدة صالحة لسكنى الإنسان مع أنها كروية الشكل.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي عدَّل خلقها، وتنكير نفس للتكثير، وقيل «ما» بمعنى المصدر، أي والسماء وبنائها، والأرض وبسطِها، والقول الأول هو الأصح والأظهر، لأن الله أقسم بالمخلوق والخالق، فأقسم بهذه الأشياء العظام لأنها تدل على عظمة خالقها.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي فأعلمها طاعتها، ومعصيتها، أي أفهمها أن أحدهما حسن، والآخر قبيح، ومكَّنها من اختيار أيهما شاءت، وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل، والتعليمُ والتفهيم غير الإلهام، فالإلهام مستعملٌ فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد، لأنه كالإبلاغ، فالإلهام أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ أي فاز وأفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وأعلاها بالتقوى، وهو جواب القسم.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي خسر وخاب، وتكرار «قد» لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه ﴿ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي من نقَّصها وأخفاها بالفجور، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها»(١).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي بطغيانها، إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الذكر رقم ٢٧٢٢ ولفظه «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها..» الحديث، وأخرجه النسائي في الاستعاذة ٨/ ٢٦٠ والترمذي في الدعوات رقم ٣٥٦٧.

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ ﴾ .

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ أي حين قام بعقر الناقة ﴿ أَشۡقَىٰهَا ﴾ أشقى ثمود وهو «قُدار بن سالف» ويُضرب به المثل يقال: أشأمُ من قُدار، وهذا يتأكد بقوله تعالى: ﴿فتَعَاطَىٰ فعَقَرَ﴾ هو ومن تصدّى معه لعقر الناقة من الأشقياء، فإن أفعل التفضيل إذا أُضيف، يصلح للواحد والمتعدّد وهذا يؤكد بقوله تعالى: ﴿فعَقَرُوهَا﴾ .

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ ﴾ .

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي رسول الله صالح عليه السلام، لمَّا همُّوا بعقرها، قال لهم ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي احذروا ناقة الله فلا تمسُّوها بسوء، وأضيفت إلى الله، لأنها آية دالة على توحيده، وعلى نبوة رسوله صالح عليه السلام ﴿ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ أي واحذروا أن تمنعوها من شربها ﴿لها شِرْبُ ولكم شربٌ يوم معلوم﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ ﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي في وعيده بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ أي ضربوا قوائمها بالسيف فقتلوها، وأسند القتلُ إليهم لرضاهم به ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم ﴾ أي فأطبق الله عليهم العذاب، ويقال: دمدمت عليه أي سوَّيتُ عليه، الأرض، أي أهلكهم الله هلاك استئصال ﴿ بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ بسبب ذنبهم المحكي عنهم، والتصريحُ بذلك، مع دلالة الفاء عليه، للإنذار بعاقبة الذنب، ليعتبر به كل مذنب ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي الدمدمة بينهم، فلم يفلت منهم أحد، من صغير وكبير.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ أي عاقبتها، كما يخاف سائر المعاقِبِين، وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلا إلاّ بحق، وكلٌّ من فعل بحقّ، فإنه لا يخاف عاقبة فعله، ثم إنه تعالى عظيم كبير يفعل ما يشاء ﴿لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهم يُسْألونَ﴾، والله أعلم بمراده.

وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

* * *

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وهي إحدى وعشرون آية

قيل نزلت هذه السورة في أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره لكن معانيها عامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ ﴾.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ أي يغشى الشمس أو النهار، أو كل ما يواريه ظلامه، أقسم الله بالليل لأنه سَكَنٌ لكافة الخلق.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ تبين بطلوع الشمس.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ أي والقادر العظيم القدرة، الذي قدر على خلق الذكر والأنثى، من ماء واحد، والذَّكرُ والأنثى يتناول جميع ذوي الأرواح، لأن كل حيوان إما ذكرٌ أو أنثى.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم، وشتَّى جمع شتيت، مثل مرضى ومريض، أي مختلفة في الخير وفي الشر.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ أي أعطى حقوق ماله ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ ربه فاجتنب محارمه.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، وآمن بلقاء الله والجنة.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ وهو العمل بما يرضاه ربه، وللخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة، والأعمال بالعواقب، فكلُّ ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة، فإن ذلك من اليسرى، وكلُّ ما أدت عاقبته إلى عسر فهو من العسرى.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بماله فلم يبذله في سبيل الخير ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ أي زهد فيما عنده تعالى، كأنه مستغنى عنه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة.

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها وبلقاء الله.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، كدخول النار ومقدماته لاختياره لها، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة فقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة»، فقالوا: يا رسول الله: أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا، ونَدَع العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فيصير لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتَّقىٰ. وصَدَّق بالحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَىٰ...﴾»[1] الآيات.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ أي أيُّ شيء يغني عنه ماله؟ وهو استفهام إنكاري ﴿مَالُهُ﴾ الذي يبخل به ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي إذا هلك وتردى في قعر جهنم؟ ما الذي ينفعه ماله الذي بخل به وتركه لوارثه؟ كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينا أن نبين لهم طريق الهدى، وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنّا حال من سلك طريق الهداية، وطريق الضلالة، ترغيباً وترهيباً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/٢١٦.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، والتصرف فيهما، كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي خوفتكم ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أي تتلظى، يعني تتلهّب وتتوقّد.

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ أي لا يلزمها مقاسياً شدتها ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أي الكافر، فإن الفاسق وإن دخلها لم يلزمها.

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي كذب الرسل، وأعرض عن الإيمان والطاعة.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ وسيبعد عنها ﴿ الْأَتْقَى ﴾ أي المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلاً عن دخولها.

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ﴾ للفقراء ومصارف الخير ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء، وسمعة.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ ﴾.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴾ أي ليس لأحد عنده نعمة، من شأنها أن تُجزى وتُكافأ، فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاتها.

﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ استثناء منقطع، أي إلا أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربه، فيجازى عليه، أي ما ينفق إلا ابتغاء وجه الله وطلباً لمرضاته.

﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾.

﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه وهو كقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي وبالله لسوف يرضى، وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه، على أكمل الوجوه، إذ به يتحقق الرضا. وأجمع المفسرون من أهل السنة، على أن المراد من الأتقى هو «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، والشيعة بأسرهم يقولون هو «علي بن أبي طالبٍ»، ولا يمكن حملها على علي، لأنه قال في وصف هذا الأتقى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ وهذا لا يصدق على علي، لأنه كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه، ويكسوه ويربيّه، وكان ﷺ منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها، أما أبو بكر فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبي بكر لا في علي رضي الله عنهما جميعاً، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

* * *

سُورَةُ الضُّحَىٰ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ①﴾.

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ المراد به وقت الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس، وصدر النهار وقيل: أريد به النهار، بدليل قوله تعالى: ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ في مقابلة ﴿بياتا﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا اشتد ظلامه، وغطَّى كل شيء بظلامه، وهدأت فيه الأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم أي ما تركك ربك منذ اختارك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أبغضك منذ أحبك، روي أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إن محمداً ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت السورة رداً عليهم، وتبشيراً له ﷺ بالكرامة، روي عن جندب بن سفيان البَجَلي قال:

اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أنْ يكونَ شيطانك قد تَرَكك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى﴾[1] السورة.

والمرأة في الحديث هي العوراء امرأة أبي لهب، وتُدعى أم جميل.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي ما وعد الله لك في الآخرة، من المقام المحمود، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا، فإنها باقية خالصة عن الشوائب، وهذه فانية مشوبة بالمضار، ثم ما أُوتي ﷺ من شرف النبوة لا يعادله شرف، ولا يدانيه فضل، وقيل: المراد بالآخرة عاقبة أمره ﷺ، أي نهاية أمرك خيرٌ من بدايته، لا تزال تتزايد قوة، كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزّاً إلى عزّه[2].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ عِدَةٌ كريمة، شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا، من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٣/٢١٧، وقد ذكر اسمها الحافظ ابن كثير في تفسيره، وهي في رواية ابن أبي حاتم.

(٢) انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن، فيه لطفٌ بالنبي الكريم، كما أن انقطاع نور الشمس بالليل عن الناس، فيه لطف بالبشر، حيث يخلد الناس إلى الراحة والهدوء، وكما أن غياب الشمس لا يكون على الدوام، بل يعقبه نور الصباح، كذلك أمر الوحي، فهو إبطاء يعقبه عود وازدياد، فلذلك أقسم الله بالضحى، وهو وقت الإشراق والنور، وبالليل وهو وقت اشتداد الظلام، ووقت التهجد والتقرب من الحيّ القيوم، فالأمر إذاً علوُّ شرف، وازدياد حب، وإشراق بعد ظلمة ليل دامس، ليشرق قلب النبي عليه الصلاة والسلام بأنواع الوحي الإلهي، ونوره الوضّاء، ويزداد شوقاً إلى اللقاء.

وإعلاء الدين، بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ، وفي أيام خلفائه وفشو الدعوة والإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، وفي الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، والأحاديث الواردة في الشفاعة، دالة على أن رضى الرسول ﷺ إنما هو في العفو عن أمته المذنبين.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾؟ ألم تكن يتيماً حين مات أبوك فآواك؟ فقد مات أبوه عبد الله فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب، كفله عمه «أبو طالب» إلى أن قوي واشتد، وتزوَّج خديجة رضي الله عنها، وذلك إيواؤه تعالى له.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ أي غير عالم، ولا واقف على معالم النبوَّة، وأحكام الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكِتاب﴾ الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ضلَّ في شعاب مكة، وهو صبي صغير، فرآه أحد الناس فردَّه إلى جده، ولا يجوز أن يفهم به عدول عن الحق، ووقوع في غيٍّ، لأنه ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ فعرَّفك القرآن والشرائع.

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾.

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي فقيراً والعَيْلةُ بالفتح: الفقر، وهي مصدر يعيل، فهو عائل، فقد أغناه الله بمال خديجة، وبما حصل من ربح التجارة.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ ﴾ فلا تغلبْه على مالِهِ لضعفه، ولا تحقره.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ فلا تزجره فابذل قليلاً، أو ردًّ جميلاً، قال ابن أدهم: نِعْمَ القومُ السائلون، يحملون زادنا إلى الآخرة، وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم، فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وقيل: المراد بالسائل ههنا الذي يسأل عن الدين.

﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾.

﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ أي بشكرها وإشاعتها، وإظهار آثارها، وأحكامها[1]، وأريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه، من فنون النعم، التي من جملتها ومعظمها «نعمة النبوة» فقد اندرج تحت الأمر تعليمه للشرائع والأحكام، حسبما هداه الله تعالى إليه، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى»

* * *

---

(١) أنعم الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بنعم ثلاثة، وأوصاه بوصايا ثلاث مقابلها:
الأولى: قوله سبحانه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وقابلها بالوصية بقوله: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾.
الثانية: قوله سبحانه: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدِّث﴾.
الثالثة: قوله سبحانه: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وأمّا السائل فلا تنهر﴾. وكأن الآيات الكريمة تقول: كنت يتيماً، وضالاً، وعائلاً، فآواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطَّفْ على اليتيم، وترَّحمْ على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الرشاد!!.

سُورَةُ الشَّرْحِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ لمَّا كان الصدر محلاً لأحوال النفس، ومخزناً لسرائرها، من العلوم والإدراكات، عبَّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها، بتأييدها بالقوة القدسية، وتحليتها بالكمالات الإنسية، أي ألم نفسحه حتى حوى عالمي الغيب والشهادة، وجمع بين ملكتَيْ الاستفادة، والإفادة، وقيل أريد به ما روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في صباه، فاستخرج قلبه، فغسله! الحديث. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج منه عَلَقة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده إلى مكانه»[1] الحديث، لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى، وزيادة الجار والمجرور «لك» للإيذان بأن الشرح لمنافعه ﷺ ومصالحه، فكأنه قيل

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٦١.

شرحنا، فإن قيل: هذه من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته ﷺ؟ فالجواب: تقديم المعجز على زمان البعثة جائز، وهو المسمى بالإرهاص، والقول الأول أن الشرح هو تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، هو المراد بالآية الكريمة على ما ذهب إليه الجمهور.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة، عطف على ما أشير إليه، كأنه قيل: قد شرحنا صدرك، ووضعنا عنك وزرك أي الحمل الثقيل.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه، وهو صوتُ الرَّحْل عند الانتقاض من ثقل الحمل، مثَّل به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه ويغمُّه، من هموم وأكدار، بسبب تفجعه على عدم إيمان قومه، بالحمل الثقيل الذي يُقصم له الظهر.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بأن قرنَّاه بذكر الله في كلمة الشهادة، فلا يُذكر الله إلا ويذكر معه الرسول، وملأنا العالم من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويحفظون سنتك، فذكرك وشرفُك باقٍ إلى يوم القيامة.

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ ﴾.

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ تقرير لما قبله، ووعدٌ كريم، بتيسير كل عسير له ﷺ، وللمؤمنين، وفي كلمة «مع» إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارنٌ للعسر.

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ تكرار للتأكيد أو عدة مستأنفة كثواب الآخرة.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من دعوة الخلق إلى الله ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي فاجتهد في عبادة ربك، شكراً لما عدَّدنا عليك من النعم السابقة، وقيل إذا فرغت من صلاتك، فاجتهد في الدعاء.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وحده ﴿ فَٱرْغَب ﴾ بالسؤال منه ولا تسأل غيره، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشراح»

* * *

سُورَةُ التِّينْ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ ﴾.

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار، التين فاكهة طيبة لا فاضل لها، وغذاء لطيف، سريع الهضم، ودواء كثير النفع، أما الزيتون فهو فاكهة وإدام، ودواء، وقيل: هما جبلان من الأرض المقدسة، والصحيح هو الأول، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه، يقال: سينين، وسيناء، عَلَمان للموضع الذي هو فيه، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء.

﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ ﴾.

﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ أمانته أنه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما

يُؤتمن عليه، وهي مكة شرفها الله تعالى، وحرسها، كما وصفها الله تعالى بقوله ﴿حرماً آمناً﴾ بمعنى ذي أمن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ جواب القسم، أي جنس الإنسان في أحسن ما يكون، من التقويم والتعديل، صورة ومعنى حيث برأه الله تعالى: مستوي القامة، متناسب الأعضاء، متصفاً بالحياة والعلم، وعن يحيى بن أكثم أنه فسر «التقويم» بحسن الصورة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ في الآخرة ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي جعلناه من أهل النار، الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل، لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات، وقيل: رددناه إلى أرذل العمر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهم لا يُردُّون إلى أسفل السافلين ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع، على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم، أو لا يُمنُّ به عليهم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك أيها الإنسان بالبعث؟ ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي بعد ظهور هذه الدلالة الناطقة بالحساب والجزاء؟ وظهور الدلائل والبراهين عليه؟.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أليس الذي فعل ما ذُكر، بأحكم الحاكمين، صنعاً، وتدبيراً، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء؟ فهي وعيد للكفار، وأنه تعالى يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»

* * *

سُورَةُ العَلَق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

﴿ٱقْرَأْ﴾ أي ما يوحى إليك، فإن الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً وهذه السورة أول ما نزل من القرآن، إلى قوله تعالى ﴿علَّم الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما ينطق به حديث عائشة المتفق عليه المشهور ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ مفتتحاً باسمه تعالى، أو مستعيناً به، كأنه قيل: قل باسم الله ثم أقرأ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي الذي حصل منه الخلق، لا خالق سواه، أو خلق كل شيء، وصف الرب بهذا الوصف، لتذكير الناس، أول النعماء الفائضة، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان، على ما هو عليه من الحياة، وما يتبعها من الكمالات، قادر على تعليم القراءة للحيّ، العالم المتكلم.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إفراد ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتدبيراً، لاستقلاله ببدائع صنعه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي دم جامد يشبه الدودة الصغيرة «العلقة»، وتخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة،

والتراب، أدل منه، لبيان كمال قدرته تعالى، بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة، من التباين البيِّن، ولمراعاة الفواصل، ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه ﷺ منه تعالى، وأقدم الدلائل الدالة على وجوده تعالى، وصف ذاته بذلك، فقال تقدست أسماؤه ﴿الَّذي خَلَقَ﴾ أي خلق جميع المخلوقات.

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾.

﴿اقْرَأْ﴾ تكرار للمبالغة ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي وربك العظيم الجليل الكريم، الذي لا يوازيه ولا يدانيه كريم، وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً: إمَّا مدحاً، أو ثواباً، أما الرب تعالى فإنه لا يفعله إلا لمحض الكرم.

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ ﴾.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علَّم بواسطة القلم، فكما علَّم القارىء بواسطة الكتابة والقلم، يعلمك بدونهما. والقلم صياد يصيد العلوم، يبكي ويضحك، بركوعه يسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الأيام، القلم قِوام الإنسان، وقوام العالم، فسبحانه من قادر بسوادِهِ جعل الدين منوّراً، كما أنه جعلك بالسواد مُبْصِراً.

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي علم الإنسان به وبدونه، من الأمور الكلية والجزئية، والجلية والخفية، ما لم يخطر بباله، وفي حذف المفعول من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال كرمه، والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم، ما لا تحيط به العقول، وما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله، للمبالغة في الزجر، وقوله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ بيان للمردوع، وهذا إلى آخر السورة نزل في «أبي جهل» وهو الظاهر ﴿ليطغى﴾ أي ليجاوز الحَدَّ، ويستكبر على ربه، ويروى أنه قال: ليس بمكة أكرم مني، رداً لقوله تعالى: ﴿وربُّكَ الأكْرَمُ﴾ فبدل أن يشكر، يطغى ويفجر، وهذا شأن الكافر.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي يطغى لأنه رأى نفسه مستغنياً عن الله بالمال، وتعليل طغيانه برؤيته، لا بنفس الاستغناء، للإيذان بأن مدار طغيانه زعمُهُ الفاسد، بأن الله كما أغناه في الدنيا، سوف يغنيه في الآخرة، إن كان هناك عودة ورجوع.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان، والالتفات للتشديد في التهديد، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، كالبشرى، أي إن إلى ربك رجوع الكل، بالموت والبعث، لا إلى غيره، فسترى حينئذ عاقبة الطغيان. فإن قيل: قال الله لموسى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ وذكر في أبي جهل ﴿ليطغى﴾ فأكّده باللام فما السرُّ؟ الجواب: إن فرعون بسلطنته ما كان ليتعرض لقتل موسى، وأما أبو جهل مع قلة جاهه كان يقصد قتل الرسول ﷺ فزاد في الطغيان على فرعون الأحمق.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أي أرأيتَ أبا جهل ينهى النبي ﷺ عن الصلاة؟ وهذا تقبيح لحاله، وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة، بحيث يجب أن يراها كل من يأتي منه الرؤية، ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه ﷺ، والرؤية هنا بصرية، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال «أبو جهل» لئن رأيتُ محمداً يصلّي عند البيت، لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»[1] وهذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة، روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى في المصلى أقواماً، يصلُّون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم عن هذا؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدَاً إِذَا صَلَّى﴾ وقال أبو يوسف لأبي حنيفة رحمه الله: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لي» قال: يقول «ربنا لكَ الحمد» ويسجد، ولم يصرِّح له بالنهي خشية النهي عن الخير.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي إن كان ذلك العبد على طريقة سديدة، فيما ينهى عنه من عبادة الأوثان، والدعوة لعبادة الرحمن.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى، داعياً إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه؟.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٧٢٤.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي أخبرني إن كان ذلك الناهي مكذباً بالحق، متولياً عنه، والرؤية في الآيتين قلبية، معناها أخبرني، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، والمعنى: أخبرني عن شأن ذلك الشقي الذي ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعن الطاعة كيف يكون مصيره؟.

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله، فيجازيه بها، حتى اجترأ على ما فعل؟.

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل، عن نهيه عن عبادة الله ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي عما هو فيه، واللام للقسم، أي والله لئن لم ينته عن إجرامه وطغيانه ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنأخذنَّ بناصيته ولنسحبنَّه بها إلى النار، والسفعُ: القبضُ على الشيء، وجذبه بعنفٍ وشدة.

﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من الناصية ﴿ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ على الإسناد المجازي، أي صاحب هذه الناصية كاذب، فاجر، خاطىء أي كثير الذنوب والإجرام.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أي فليدع هذا الشقي أهل ناديه ليعينوه، قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أي سندعو نحن خزنة جهنم ليجروه إلى النار، وهي في الأصل الشُّرَط، واحدها زبنية من الزبن، وهو الدفع، والمراد ملائكة العذاب.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع للناهي أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ واثبت أنت على طاعتك لله ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك، غير مكترث به ﴿ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود، روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»[1]، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق»

* * *

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٤٨٢ في الصلاة، وأبو داود رقم ٨٧٥، والنسائي ٢/٢٢٦.

سُورَةُ القَدْرِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ①﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم، إجلالاً لمحله، بإضماره كأنه حاضر في جميع الأذهان، وأسند إنزاله إلى نون العظمة المنبىء عن كمال العناية به، وتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي ليلة تقدير الأمور وقضائها، والقدر بمعنى التقدير، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان، لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرَّوا ليلة القدر، في العشر الأواخر من رمضان[1]» وقال الحسن: هي ليلة سبعة عشر من رمضان، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر، والجمهور يرى أنها مختصة برمضان، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ واختلفوا في تعيينها قيل: هي الليلة

---

(١) أخرجه البخاري في التراويح والاعتكاف، ومسلم في الاعتكاف رقم (١١٨٣) ومالك في الموطأ ٣١٦/١.

الأولى، وقال الحسن السابعة عشرة، وعن أنس الحادية والعشرون، وقال محمد بن إسحق الثالثة والعشرون وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون، وهو المشهور. والمراد بإنزاله فيها، إما إنزاله كله إلى السماء الدنيا، كما روي عن ابن عباس، وإما ابتداء إنزاله كما نقل عن الشعبي.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾؟ أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها، لأن علوّ قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، ولا يدريها إلا علاّم الغيوب.

﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ أي ليلة القدر أفضل وأكبر عند الله من عبادة ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، روي لرسول الله ﷺ أن رجلاً لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون منه، فأعطوا ليلةً هي خير من مدة ذلك الغازي.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ إلى الأرض في تلك الليلة ﴿ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِم ﴾ بأمر ربهم ﴿ مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ من الخير، والبركة، قضاه الله عز وجل لتلك السنة إلى قابل.

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ ما هي إلا سلامة، أي لا يقدر الله تعالى فيها إلا السلامة والخير، أو ما هي إلاّ سلامٌ، لكَثرة ما تُسلِّم الملائكة فيها على المؤمنين

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر، فكلها خير وبركة، ورحمة وأمان، يحفظ الله فيها العباد من الشرور والآفات، إكراماً لتنزل كتابه العظيم، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر»

* * *

سُورَةُ البَيِّنَةِ

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى، وإيرادهم بذلك العنوان، للإشعار بعلة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق، فإنَّ مناط ذلك، وجدانهم له في كتابهم ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عَبَدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر[1]، ومنتهين عنه، أو عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق، والإيمان بالنبي المبعوث في آخر الزمان، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون: «اللهمَّ انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان» ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حتى أتتهم الحجة الواضحة، وهي بعثة الرسول ﷺ فإنه مبين للحق.

---

(١) أي ما كانوا منتهين عمَّا هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي بعثة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث الرسول الكريم، اضطربت الخواطر والأفكار، وتشكَّكَ كل في دينه ومذهبه، ودلَّ على هذا قوله تعالى بعده: ﴿منفكين حتى تأتيهم البينة﴾.

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ رَسُولٌ ﴾ بدل من البيِّنة، عبَّر عنه ﷺ بالبينة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين، وأن ذاته كانت بيِّنة على نبوته، وأن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً حد الإعجاز، وإن معجزاته في غاية الكثرة والظهور، ولذلك سماه الله سراجاً منيراً ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي رسول كائن من عند الله تعالى ﴿ يَتْلُواْ ﴾ أي يقرأ عليهم ﴿ صُحُفًا ﴾ أي أوراقاً ﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ منزهة عن الباطل.

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا ﴾ أي في الصحف ﴿ كُتُبٌ ﴾ مكتوبات، وقيل: الكتب الأحكام، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي حكم، وفي الحديث «لأقضين بينكما بكتاب الله» أي بحكم الله تعالى ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والصواب، مستقلة بالحجة والدلالة.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ في أمر الرسول ﷺ، والكلام مسوقٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب ببيان أنَّ ما نُسب إليهم من الانفكاك، لم يكن لاشتباه ما في الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، وهو السرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب، المنبيء عن تمكنهم من مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها نعوت النبي ﷺ ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أي إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتابهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، بغياً وحسداً.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي والحال أنهم ما أمروا بما أمروا في كتابهم، إلا لأجل أن يعبد الله ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من غير شرك ونفاق، أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى، ففعل اليهود والنصارى، ليس بعبادة، وإن تضمن نهاية التعظيم، لأنه غير مأمور به ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام مؤمنين بجميع الرسل الكرام ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ أي يؤدوا الصلاة بشروطها، ويدفعوا الزكاة إلى مستحقّيها من الفقراء والمساكين ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ أي دين الملة القيمة. بيَّن الله تعالى في هذه الآية، أنه لا بدّ من العلم، والإخلاص، والعمل، ثم قال: وذَلِكَ المجموع هو ﴿دينُ القَيِّمة﴾، أي البيّنة المستقيمة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة، بعد بيان حالهم في الدنيا، وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم لأهل الكتاب، ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، وإيراد الجملة الاسمية للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ﴾ واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب، لا ينافي تفاوت عذابهم، فإن جهنم دركات، وعذابها ألوان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه ﴿ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أي هم شر الناس، وشر الخليقة على الإطلاق، فيكون في حيّز التعليل لخلودهم في النار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بيانٌ لمحاسن أحوال المؤمنين، إثْرَ بيان حال الكفرة، جرياً على السُّنَّة القرآنية، من شفع الترهيب بالترغيب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المنعوتون بما هم عليه من الإيمان والطاعة ﴿ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله، وهم السعداء الأبرار.

﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي ﴾ بغير أخدود ﴿ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ متنعمين بفنون النعم، الجسمانية والروحانية وفي تقديم مدحهم بخير البرية، في مقابلة ما وصفوا به، وبيان كونه من عند الله، وتأكيد الخلود بالأبدية من الدلالة على حسن حالهم ما لا يخفى ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول أعمالهم التي قدّموها ابتغاء وجه الله ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، والثواب العظيم في دار النعيم، حيث أعطوا ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذُكر من الجزاء والرضوان ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير، وهو من خصائص العلماء بشؤون الله تعالى، ووصفُهم بأنهم ﴿خير البرية﴾ يدلُّ على فضل المؤمنين من البشر، على الملائكة، لأن البرية: الخلقُ، فكأن الآية تقول: إنهم خير المخلوقات على الإطلاق، ويدخل في المخلوقات الملائكة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البيّنة»

* * *

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ﴾.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي حركت الأرض تحريكاً عنيفاً متكرراً متداركاً، أي الزلزال المخصوص، على مقتضى المشيئة الإلّهية، وذلك عند النفخة الثانية، لقوله تعالى:

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) ﴾.

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي كنوزها وموتاها، وإظهار الأرض لزيادة التقرير، أو الإيماء بتبدل الأرض غير الأرض.

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) ﴾.

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ لما بهرهم من الأمر الفظيع، أي قال كل فردٍ من أفراد الناس، المؤمن بقوله بطريق الاستعظام للخطب، والكافر بالتعجب من أمر القيامة وأهوالها.

﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ ﴾.

﴿ يَوۡمَئِذٖ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب ﴿ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ أي تشهد بما فُعل على ظهرها، حيث ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عمل عليها من خير أو شر، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عَبْدٍ، أو أَمَةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»[1].

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ ﴾.

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾ أي تحدّث الأرض بما جرى بسبب إيحاء ربك لها، بأن أمرها أن تنطق بكل ما حدث وجرى فوق سطحها.

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ ﴾.

﴿ يَوۡمَئِذٖ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذُكر ﴿ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ من القبور إلى الموقف، ثم ينصرفون عنه يقال: صَدَر القومُ صدوراً، أي انصرفوا ﴿ أَشۡتَاتٗا ﴾ أي متفرقين- بحسب مراتبهم- بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين، كما في قوله تعالى: ﴿فتأتون أفواجاً﴾ ﴿ لِّيُرَوۡاْ ﴾ أي لكي يروا ﴿ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي جزاء أعمالهم.

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٣٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٢ وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٠.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ أي فمن يفعل من الخير، ولو شيئاً قليلاً مثل وزن الذرة من التراب، يجد ثوابه عند الله في الآخرة.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ أي ومن يفعل من الشر ولو شيئاً قليلاً وزن الذرة، يجد جزاءه عليه[1]، والمراد بالرؤية وجود ما يعادلها من خيرٍ أو شر، فـ «مَنْ» الأولى مختصة بالسعداء، والثانية بالأشقياء، وحسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»

* * *

---

(١) وقيل: معنى الآية أن من يعمل مثقال ذرة من فريق السعداء خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة من فريق الأشقياء يره.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ①﴾.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة، التي تعدو نحو العدوِّ عدواً [١]، والضَّبحُ: صوتُ أنفاسها إذا عدت وأسرعت في الجري، وهو صوت ليس بصهيلٍ، ولا حمحمة، ولكنه صوت نَفَسٍ، والمراد بالعاديات عند أكثر المحققين، أنها الخيل، لأن ألفاظ هذه الآية تنادي أن المراد بها الخيل، أقسم الله تعالى بفرس الغازي، لما فيه من منافع الدنيا والدين، وتنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله، وإنما قال: «ضبحاً» لأنه أمارة يظهر به التعب على الخيل، فكأنه قال إن الفرس مع ضعفه لا يترك طاعتك، فلتكن في طاعة مولاك كذلك.

---

(١) الحكمة من القَسَم بالخيل المذكورة لينوّه بشأنها، ويعلي بقدرها في نفوس المؤمنين، ليعتنوا بتدريبها على الكرّ والفرّ، وليعتنوا بالفروسية التي هي درع الحرب، ليكون كل واحد مستعداً للجهاد، ولهذا قال المصطفى ﷺ: «الخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ الإيراء: إخراجُ النار، والقدحُ: الصكّ يقال: قدح فأورى، أي فالتي توري النار من حوافرها.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ والإغارة سرعة الهجوم على العدوّ وقت الصبح، وهو الوقت المعتاد في الغارات، يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون عليهم صباحاً لأخذهم على غفلة وعلى حين غرة.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فيهجن بذلك الوقت غباراً، وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه لا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا ظهر أن الإيراء واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ ﴾ أي فتوسطن بذلك العَدْو والجري ﴿ جَمْعًا ﴾ أي توسَّطن جموع الأعداء، ووسطه بمعنى توسطه.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ أي لكفور جاحد لإنعام الله، أي إنه لنعمة ربه لشديد الكفران، وأصل الكنود منعُ الحق والخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، والمراد بالإنسان الكافر بدليل قوله: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ الإنسان على كنوده وجحوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه، لظهور أثره عليه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي شديد الحب للمال، حريص على جمعه، مجد في طلبه، ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح، بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور، الداعية للمنافقين إلى النفاق، حب المال، لأنهم بما يظهرون من الإيمان، يعصمون أموالهم، ويحوزون من الغنائم نصيباً.

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي الإنسان الكافر ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ إذا أُثير وبُعث ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي من في القبور من الموتى، و «ما» بمعنى «مَنْ» وفيها تهديد ووعيد، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدَّر، أي أيفعل ما يفعل من القبائح، ولا يلاحظ ما سيحلُّ به إذا بُعثر ما في القبور؟.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون، والتحصيل في اللغة: تمييز ما يحصل، ومعنى حصل، أي أظهره محصلاً مجموعاً.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ أي المبعوثون كنى عنهم بضمير العقلاء، بناءً على تفاوتهم في الحالين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاضلها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهر ما عملوا، وبواطنه، علماً موجباً للجزاء، متصلاً به، كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم، وإلاَّ فمطلق علمه تعالى محيطٌ بما كان وما سيكون، والله أعلم بمراده، وبأسرار كتابه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»

* * *

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ ﴾.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ القرعُ: هو الضرب الشديد، بحيث يحصل منه صوت شديد وقوارع الدهر شدائده، والقارعة من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع، بفنون الإفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال.

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾.

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مدار إفادة الهول ههنا هو كلمة ما القارعة أيْ أيَّ شيء عجيب في الفخامة والفظاعة هي؟ ووضعَ الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ أي هل تعلم وهل تدري ما هي القارعة؟ إنها أمر عظيم، وكرب جسيم، لا يعلم حقيقتها إلاَّ علاَّم الغيوب.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ شبَّههم بالفَراش في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والفراش هي التي تراها تتهافت في النار، وفي آية أخرى شبه بالجراد المنتشر.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي الصوف المندوف في تفرق أجزائها، وتطايرها في الجو، وكلا الأمرين من آثار القارعة، بعد النفخة الثانية، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها، وتسوية الأرض، بعد النفخة الثانية.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فأما السعداء الأبرار، الذين رجحت حسناتهم فهم في معيشة طيبة، وسعادة كاملة مرضية، يرضاها صاحبها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي زادت سيئاتهم بأن لم يكن لهم حسنة يُعبأ بها، أو ترجحت سيئاته.

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ فَأُمُّهُۥ ﴾ أي فمأواه، وعبَّر عن المأوى بالأم، لأن أهلها يأوون

إليها، كما يأوي الولد إلى أمه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ هي من أسماء النار، من هوى، يهوي من باب ضرب سقط من أعلى إلى الأسفل.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ الضمير يعود إلى الهاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارىء حذفها، ثم فسَّرها فقال:

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ أي نار بلغتْ النهاية في الحرارة، وهو تقريرٌ لها بعد إبهامها، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة، نعوذ بالله منها، ومن جميع أنواع العذاب، ونسأل الله التوفيق وحسن المآب، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»

* * *

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي شغلكم، وأصله الصرفُ إلى اللهو، ألهاني الشيء شغلني ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرة، في الأموال والأولاد عن طاعة الله، عن مطرف بن عبد الله عن أبيه، قال: «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقال: يقول ابنُ آدم: مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقت فأمضيتَ»[1]؟ أي أنفذت العطاء وبذلته.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدركتم الموت على تلك الحالة،

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٥١ في التفسير وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم ٢٩٥٨ بلفظ يقول العبد: «مالي، مالي، وإنما له من ماله ثلاث..» الحديث. وأخرجه النسائي في الوصايا ٦/٢٣٨.

وأصبحتم من أهل القبور، فمتُّم ودفنتم في المقابر، أو عدَّدوا أسماء الموتى، روي أن بني عبد المناف، وبني سهم من قريش، تفاخروا فقال كل من الفريقين: نحن أكثر منكم سيداً، وأعظم نفراً، فكثَّرهم بنو عبد مناف - أي زادوا عليهم في الكثرة - فقال بنو سهم: إن البغي أفنانا في الجاهلية، عدُّوا مجموع أحيائنا وأمواتنا، مع مجموع أحيائكم وأمواتكم، ففعلوا فزاد بنو سهم، فعبَّر عن بلوغهم ذكرَ الموتى، بزيارة القبور، تهكماً بهم[1]، وإنما حذف الملهيُّ عنه للتعظيم، أي ألهاكم التكاثر عن الدين، هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع؟.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر أن تكون الدنيا جميع همّه، والمعنى: ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء من أن السعادة بكثرة العدد، قال الحسن: لا يغرنَّك كثرةُ من ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك، وتقريره ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ في القبور، قال علي رضي الله عنه: هذه الآية تدل على عذاب القبر.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي «ثُمَّ» دلالةٌ على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول في القبر، والثاني عند النشور.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ تكرار الردع للإنذار والتخويف ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ جواب لو

---

(١) القول الأول هو الأظهر وهو الصواب أي حتى جاءكم الموت وأصبحتم في عداد الموتى، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٢.

محذوف، أي لو تعلمون ما في أيديكم ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور، لشغلكم ذلك عن التكاثر بزخارف الدنيا، ولما خُدعتم بها عن الآخرة.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي والله ستشاهدون الجحيم عياناً ويقيناً، وترونها رأي العين بأبصاركم بعد الموت.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرار للتأكيد، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ والخطاب لكل من ألهته دنياه عن دينه، كمن قَصَر همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب، ويلبس الليّن، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، فأما من تمتع بنعمة الله، وتقوَّىٰ بها على طاعته، فهو بمعزل من ذلك، وفي الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التفاخر من الآفة، لتركوا، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً بعلمه، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

* * *

سُورَةُ العَصْرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾.

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى ﴿والصلاة الوسطى﴾[1] وقيل: ورب العصر، وعن ابن عباس هو الدهر، وقيل: أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ لفضله على سائر الأعصار، وجواب القسم، قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي جنس الإنسان، ويدل عليه الاستثناء، ﴿إلا الذين آمنوا﴾ والمعنى: أقسم لكم على شقاء البشر وخسرانهم، وهذا حكم ظاهر، ولنجعلْ الدنيا في هذا دليلاً، فالأرض يسكنها نحو ألف ألف مليون من البشر، أربعون في المائة منهم وثنيون، يشركون بالله، ويعبدون

---

(١) وفي الحديث الصحيح «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وُتر أهلُه، وماله» أي أصابته داهية عظيمة كحريق أو غرق، ففقد الأهل والمال.

الأصنام، ويقدمون أعز ما لديهم من نفسٍ ومال في سبيلها، وثلاثون في المائة مسيحيون، يخلطون في دينهم، ويؤلّهون البشر، وواحد منهم في المائة يهود، وهم يظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقد ران على قلوبهم الغلظةُ والقسوة، واستولى عليهم الحرص والشهوة، وأكثر من عشرين في المائة منهم المسلمون، الجمهرةُ منهم يخالفون الله ورسوله، ويسيرون في طريق التقليد، ويبتعدون عن تعاليم دينهم الخالد، فالإنسان حقت عليه كلمة الله، وصار في خسر وفساد، وبعدٍ عن الإيمان، وضياء الإسلام، فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة التين ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم﴾ فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال إلى النقصان، وههنا يدلّ على أن الابتداء من النقصان إلى الكمال ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾؟ والجواب المذكور في التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس، وعن بعض السلف قال: تعلمتُ معنى السورة من بائع ثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأسُ ماله، فقلت هذا معنى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فإن الإنسان لا ينفك عن خسران، والخسرانُ تضييعُ عمره.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وهم في تجارة لن تبور، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم[1] ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ بيانٌ لتكميلهم لغيرهم، أي وصّى بعضهم بعضاً

(١) في هذه الآيات وعيدٌ شديد للبشر، لأنها حَكمت بالخسران على جميع الناس، إلاّ من كان آتياً بهذه الأمور الأربعة: وهي: ١ ـ الإيمان ٢ ـ العمل الصالح، ٣ ـ التواصي بالحق، ٤ ـ التواصي بالصبر، وأنه كما يلزم المكلّف تحصيل ما يخص نفسه من فعل الخير، فكذلك يلزمه الدعاء إلى الدين، والنصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب لغيره ما يحبه لنفسه.

بالاستمساك بالحق، وهو الدين أجمعُه، والخير كلُّه، من توحيد الله وطاعته، والالتزام بشريعته ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ أي تحاثوا وأوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة، التي يشق على النفس أداؤها، وعلى ما يبلو الله تعالى به عباده، وتخصيصُ هذا بالذكر، مع اندراجه تحت التواصي بالحق، لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة، التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضاء بما فعله الله تعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه، من فعل أو ترك، بل هو الرضا بما ورد منه تعالى ظاهراً وباطناً، وإنما ذكر سبب الربح دون الخسران، اكتفاءً ببيان أن ما عداه يؤدي إلى الخسران والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

* * *

سورة الهمزة

مكية وهي تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾.

﴿ وَيْلٌ ﴾ أي شدة عذاب ﴿ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿ لُّمَزَةٍ ﴾ أي من يعيبهم مواجهة، وبناء فُعَلَة للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة، وكذلك اللُّعَنة، والضُّحكة، قيل: نزلت في «الأخنس» فإنه كان ضارياً بالغيبة، وقيل في الوليد، واختصاص السبب، لا يستدعي خصوص الوعيد بهم، بل كل من اتصف بوصفهم القبيح، فله ذنوب مثل ذنوبهم، والمغتاب، والعيَّاب، والمستهزىء، والمقلد بأقوالهم وأصواتهم ليضحكوا، هذه الوجوه متقاربة، راجعة إلى أصل واحد، وهو الطعن، وإظهار العيب قد يكون باللفظ، وقد يكون بالإشارة، وكلها داخلٌ تحت النهي.

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ بدل من كل، وإنما وصفه الله بها لأنه يجري

مجرى السبب، لأن ظنه أن الفضل في المال، ولأجل ذلك يستنقص غيره. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي جعله عدة لحوادث الدهر، أو عدَّه مرة أخرى.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي تركه خالداً في الدنيا لا يموت، قال الحسن: ما رأيت يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسبانه ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي والله ليطرحن بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي في النار المؤججة، التي تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها، كما أن شأنه كسر أعراض الناس.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾؟ تعجيب وتعظيم لشأنها.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ أي هي نار الله ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عز سلطانه، وفي إضافتها إليه سبحانه، ووصفها بالإيقاد، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي تعلو أوساط القلوب، وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر، لأن الفؤاد ألطف ما في البدن، وأشد تألماً، ولأنه محل العقائد الزائغة.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾.

﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي توصد عليهم الأبواب، وتمدد على الأبواب العُمُد، استيثاقاً في استيثاق، إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية اللهم أجرنا منها يا خير مستجار، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

* * *

سُورَةُ الفِيل

مكية وهي خمس آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ①﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته والرؤية علمية أي أسمعتَ الأخبار به متواتراً فقامت لك مقام المشاهدة ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ تعليق الرؤية بكيفية فعله عزَّ وجلَّ، لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك الخ، لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة عجيبة، دالة على عظم قدرة الله تعالى، وعزة بيته، وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات، لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها ﷺ، وتفصيلها أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى بصنعاء كنيسة، وأراد أن يصرف إليها الحجَّاجَ، فخرج رجل من كنانة، فدخل فيها ليلاً، وتغوَّط ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة، فقال: من اجترأ عليَّ، فقيل: صَنَع ذلك رجلٌ من العرب، فحلف أبرهة ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها، فخرج مع جيشه ومعه فيل، كان قوياً عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيره، فلما بلغ المغمَّس أمر بالغارة على إبل الناس، فجمع أنعام أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليه عبد المطلب، فعظم

في عين أبرهة، لأنه كان جسيماً وسيماً، فأكرمه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له عبد المطلب: حاجتي أن تردَّ عليَّ مائتي بعير، فلما ذكر حاجته قال: سقطتَ من عيني!! جئتُ لأهدم البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، وشرفكم، فألهاك عنه ذَودٌ أُخذ لك؟ فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت ربٌّ سيحميه، فأمر بإبله فردت عليه، فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس، وقد تهيأ بالدخول، فأرسل الله عزَّ وجلَّ طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلاَّ هلك، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾؟ بيان لما فعله الله تعالى بهم، والهمزة للتقرير، ﴿ كَيْدَهُمْ ﴾ في تخريب الكعبة ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي في تضييع وإبطال، بأن دمَّرهم وأفناهم[1].

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ ﴾.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ جماعات، جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعات من الطير في تضامها.

---

(١) كان إهلاك أبرهة الأشرم وجيشه عام مولد النبي ﷺ السعيد، إرهاصاً بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المذكور، من خوارق العادات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أهلك الله أبرهة وجيشه بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليس من عادتها أن تقتل، كما أهلك عاداً بالريح العقيم، وفي ذلك عبرة للمعتبرين!!.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ ﴾.

﴿ تَرْمِيهِم ﴾ أي ترمي عليهم ﴿ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كزرع أكله الدود، أو كورقٍ أكلته الدواب ثم راثته. ولا يمكن أن يقال: إنه من الأخبار الضعيفة، لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول ﷺ إلا نيِّفٌ وأربعون سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه السورة، كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب، ولمَّا لم يكن كذلك، علمنا أنه لا سبيل للطعن فيه والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»

* * *

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ①﴾.

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لإيلافهم، وقيل: بمضمر تقديره: فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل، لإيلاف قريش، أي من أجل ائتلافهم واجتماعهم على شكر الله

﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾.

﴿ إِيلَافِهِمْ ﴾ بدل من الأول، تفخيماً لأمر الإيلاف، وتعظيم المنة فيه، والاسم الألفة، تألف القوم: اجتمعوا وتحابوا، والمعنى: إن هذه الألفة إنما حصلت بتدبير الله تعالى، فمن أجل تيسير الله وتسهيله على قريش رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وكانت لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله، فلا يتعرض لهم أحد بسوء، فلما

أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد موقع أهل مكة في القلوب هيبةً واحتراماً، ولذلك لم يتعرض لهم أحد بسوء، فذكَّرهم تعالى بهذه النعمة الجليلة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ يعني الكعبة المشرفة، وفي الكلام معنى الشرط، إذ المعنى: إنَّ نعم الله تعالى عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة.

والإنعام على قسمين: ١ ـ دفع الضر ٢ ـ جلب النفع، والأول أهم، بيّن الله الأول في سورة الفيل، والثاني في هذه السورة.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم ﴾ أي أغدق عليهم النعم، بعد شظف العيش، وشدة الفقر ﴿مِّن جُوعٍ﴾ شديد قبلهما ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ عظيم، وهو خوف التخطف في بلدهم وأسفارهم، فقد ذكّرهم تعالى بنعمتين عظيمتين هما: نعمة الغنى واليسار، ونعمة الأمن والاستقرار، فإن لم يكن لهم سوى هاتين النعمتين لكفاهم ذلك اعترافاً بفضل الله عليهم، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»

* * *

سُورَةُ الماعُون

مختلف فيها وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ①﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهامٌ أريد به تشويق السامع، إلى معرفة من سيق الكلام له، والتعجيب منه ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء والحساب، والخطابُ لرسول الله ﷺ، وقيل: لكل عاقل، والرؤية بمعنى المعرفة، أي هل عرفتَ الذي يكذب بالحساب والجزاء؟ هل عرفت من هو، وما هي أوصافه؟.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ②﴾.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالدين؟ إن لم تعرفه، فهو الذي يدفع اليتيم، دفعاً عنيفاً، قيل: هو أبو جهل، كان وصيّاً ليتيم، فجاءه يسأله من مال نفسه، فدفعه، وقيل: في رجل من المشركين، نحر جزوراً، فسأله يتيم لحماً فقَرَعه بعصاه، وإذا كان الإنسان منكراً للقيامة، لم يترك شيئاً من المشتهيات، فإنكار القيامة كالأصل لجميع الكفر والمعاصي.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يحثُّ غيره على إطعام المسكين، الذي عضَّه ألم الجوع، لعدم اعتقاده بالجزاء، وإذا كان هذا حال من ترك حثَّ غيره، فما ظنُّك بحال من ترك ذلك، مع القدرة عليه؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي غافلون عنها غير مبالين بها يؤخرونها عن أوقاتها، وتلك هي صلاة المنافقين؟.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أي هم المرائون بأعمالهم، يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم المنافقون، يتركون الصلاة إذا غابوا، ويصلون في العلانية، والمؤمن قد يسهو في صلاته، فيتداركها في الحال والمنافق لا يبالي.

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾.

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي الزكاة أو ما يتعاور عادة من القِدْر، والدلو، والمقدحة، ونحوها، وهو قول أكثر المفسرين عن ابن مسعود، قال: «كنا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو، والقِدْر»[1] والله أعلم بمراده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون»

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم ١٦٥٧ في الزكاة، وإسناده حسن.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾.

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ أي الخير المفرط، والكثرة الكثيرة، من العلم والعمل، وشرف النبوة، الجامعة لخير الدارين، والكوثر نهر من أنهار الجنان، وخير كثير جمعه كواثر، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما لكوثر؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ»[1].

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ②﴾.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أي فاعبد ربك الذي أعزَّك بإعطائه، خالصاً لوجهه، أداء لحقوق شكرها، فإنَّ الصلاة جامعة على جميع أقسام الشكر، وقيل المراد بها صلاة العيد «يوم النحر» ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ لوجهه وباسمه مخالفاً لعبدة

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٥٦٣ ومسلم في الصلاة رقم ٣٣٥٧.

الأوثان، انحرْ البُدْن التي هي خيار أموال العرب، وتصدق بها على المحاويج.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي إن مبغضك يا محمد من قومك بمخالفتك لهم من أولئك الفجرة ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي المنقطع عن كل خير، لا أنت، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين أولادك، فتبقى ذريتك وحسن صيتك، وآثار فضلك إلى يوم القيامة، نزلت في «العاص بن وائل» وذلك أنه رأى النبي ﷺ خارجاً من المسجد، وهو داخل، فالتقيا وتحدثا، وأناس من صناديد قريش، جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا: من هذا الذي كنت تحدثت معه؟ فقال: ذلك الأبتر، يعني به النبي ﷺ، وكان قد توفي إبراهيم لرسول الله من خديجة رضي الله عنها، فقال الأشقياء: إن محمداً هو الأبتر، لأنه لا عقب له، فنزلت هذه السورة توضح أن مبغضيه ﷺ هم المبتورون من كل خير، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»

* * *

سُورَةُ الكَافِرُون

ترتيبها ١٠٩

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد: هلمَّ فاتَّبعْ ديننا سنة، ونتبع دينك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه ملأ من قريش فقرأها عليهم فأيسوا من مسايرته، وانقطع طمع الكافرين الفاجرين.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم. أي لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؟ فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③﴾.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقتٍ من الأوقات إلهي

الذي أنا على عبادته، فأنتم لا تزالون على ضلال، فلا مساومة بيننا ولا وفاق.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ في الحال، والمراد لا أعبد ما تعبدونه أبداً حييتُ، لا أعبد آلهتكم الآن، ولا في ما يُستقبل من الزمان.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي ولا أنتم في المستقبل عابدون إلهي الحقَّ، فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة[(١)].

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الذي أنتم عليه ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ولي توحيدي وإخلاصي، فليس فيه إذن في الكفر، بل المقصود التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ كأنه يقول: لكم شرككم وأصنامكم، ولي توحيدي وإيماني، فدينكم الكفر والإشراك، وديني التوحيد والإخلاص، والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

* * *

---

(١) السورة وردت بصيغة التأكيد عن طريق التكرار، لأن الكفار راجعوا النبي ﷺ مراراً، فحسن التوكيد والتكرار في هذا الموطن، والقرآن نزل بلسان العرب، على أساليب كلامهم وخطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز.

سُورَةُ النَّصرِ

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ المراد بالنصر: الظفرُ وإعانة الله، والإظهار على العدو ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ يعني فتح مكة، وقيل جنس نصر الله، ومطلق الفتح وإنما عبَّر بالمجيء تجوزاً، للإشعار بقرب النصر، فكن مترقباً لوروده، مستعداً لشكره، روي أنها نزلت قبل الفتح، وعليه الأكثر، وكان فتح مكة لعشرٍ مضين من شهر رمضان، سنة ثمان من الهجرة، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، وحين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صَدَق وعدَه، ونصر جنده، وهزم الأحزابَ وحده، ثم قال: يا أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» فأعتقهم، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم، فعفا عنهم، ثم بايعوه على الإسلام.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أبصرتهم أو علمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي في ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي جماعات جماعات كثيفة، كأهل مكة، والطائف، واليمن، وسائر قبائل العرب، روي أنه ﷺ لما فتح مكة، أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم، فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل سبحان الله حامداً له، أي فتعجَّبْ لتيسير الله تعالى، ما لم يخطر ببال أحد، وأحمده على جميل صنعه ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً له ودم على الاستغفار، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلَّى رسول الله ﷺ بعد ما نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾ إلاَّ ويقول: سبحان الله وبحمده، أستغفر اللهَ، وأتوب إليه» وقال الحسن: إنه تعالى أعلم رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمره بالتسبيح والاستغفار، ليختم بالزيادة في العمل الصالح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ لمن استغفر، والتواب كثير القبول للتوبة، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

* * *

سُورَةُ المَسَدِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

﴿تَبَّتْ﴾ أي هلكت أو خسرت، والتبابُ: الخسرانُ كما قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلاَّ في تباب﴾ وتباً له، أي هلاكاً ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ هو «عبد العُزَّى بن عبد المطلب» وإنما كناه والتكنيةُ تكرمة لاشتهاره بكنيته، أو استكره ذكر اسمه، وإيثار التباب على الهلاك لما روي في الصحيحين عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا بني فهر، يا بني عديّ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم ما جرَّبنا عليك إلاَّ صدقاً، قال ﷺ: فإني لكم نذيرٌ بيْنَ يدي عذاب شديد!! فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبت يدا أبي لهب[1] السورة ﴿وَتَبَّ﴾ أي وهلك كلُّه، ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾ وكان ذلك وحصل له الهلاك والدمار، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٢٢.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي لا يغني عنه حين حلَّ به الهلاكُ مالُه وما كسبه، من الأرباح والمنافع، وعن ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولدُه، وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقاً، فأنا أفتدي منه نفسي، بمالي، وولدي!! وقد خاب أمله، وما حصل ما تمناه، فافترس ولدَه أسدٌ في طريق الشام، وقد كان ﷺ دعا عليه وقال: «اللهمَّ سلِّطْ عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد، وكان أبو لهب قد هلك نفسه بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوىٰ، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن، فهو إخبارٌ بالغيب، طابقه وقوعه.

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾.

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ سيدخل نار جهنم لا محالة، بعد هذا العذاب العاجل، فالنار ذات اللهب، للشقي أبي لهب.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ ﴾.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ هي أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية، كانت تحمل حزمةً من الشوك، والحسك، والسعدان فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ، وقيل: كانت تمشي بالنمائم، فتفسد بين الناس، أي توقد بينهم النار ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وعن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥ ﴾.

﴿ فِي جِيدِهَا﴾ أي في عنقها ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أي حبلٌ من ليفٍ

وشوك، تُعذّب به يوم القيامة، لوضعها الشوك في طريق الرسول ﷺ فإن قيل: إن رسول الله ﷺ كان نبيَّ الرحمة، وصاحب الخُلُق العظيم، فكيف يليق أن يشافه عمه بهذا؟ فالجواب: كان ﷺ لا يسامح أحداً في شيء من باب الدين، ولو كان يداهن أحداً في باب الدين، لفَعَلَه مع عمه، فلما لم تحصل معه، انقطعت الأطماع، وعلم كل أحد أنه ﷺ لا يسامح أحداً في شيء يتعلق بالدين أصلاً، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

* * *

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو ضمير الشأن، ومدار وضعه مع عدم ذكره، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أن الله واحد، لا ثاني له، ولا يحتاج إلى شريك، والذي سألتموني عنه هو الله أحد، إذ روي أن قريشاً قالوا يا محمد: صفْ لنا ربكَ، أمن ذهبٍ هو؟ أم من فضة، أم من ياقوت؟ فنزلت، ولفظ «الأحدُ» يدلُّ على مجامع صفات الجلال، كما دلَّ لفظ «الله» على جميع صفات الكمال وقال ثعلب: إن «أحد» لا ينبيء عليه العدد ابتداءً كما يقال واحد، واثنان ولا يقال: رجل أحد، كما يقال رجل واحد، ولذا اختص به تعالى، فالأحديَّة تتضمن نفي الوالد والولد، ونفي النظير والشبيه، ونفي الكثرة والعدد، فهي صفة الذات الإلهية.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ②﴾.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو فَعَل بمعنى المفعول من صمد إليه إذا قصده

وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، والمعنى: وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق وقيل الصمد الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال، وقيل: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وتكرار الاسم الجليل، للإشعار بأنه من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، بيَّن أولاً ألوهيته عز وجل، المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد، ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، وروى البخاري في إفراده عن أبي وائل قال: الصمد هو السيد الذي انتهى سؤدده، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾؟ ولعل الاقتصار على لفظ المضارع لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، أو يطابق قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم، وهو تعالى قديم ليس بجسم، لا أول لوجوده.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولم يكافئه أحد، أي لا يماثله أحد، وقوله تعالى ﴿أحد﴾ يبطل مذهب النصارى في التثليث، والصابئين في النجوم، ويبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله تعالى، وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[1] وعن سهل بن سعد قال: جاء رجل

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٩/ ٥٣ ولفظه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً =

إلى النبي ﷺ، وشكا إليه الفقر، فقال: إذا دخلت بيتك فسلم، إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد، فسلِّمْ على نفسك، واقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة واحدة، ففعل الرجل، فأدرَّ الله عليه رزقاً» والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك، العاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المكرمين بلقائك آمين يا معين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

* * *

= سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يردّدها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ـ وكان الرجل يتقالُّها ـ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

سورة الفلق

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الصبحُ، وهو قول الأكثر، والفَلَقُ: بفتحتين ضوء الصبح، وقيل: كل ما يفلقه الله تعالى، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك، وفي العياذ باسم الرب، المضاف إلى الفلق، المنبىء عن النور، عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، عدةٌ كريمة بإعاذة العائذ، مما يعوذ منه، وتقوية لرجائه، بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب في الجد والاعتناء، بقرع باب الالتجاء إليه تعالى.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم، خص عالم الخلق بالاستعاذة منه، لانحصار الشر فيه، فإن عالم الملكوت خير كله وعالم الخلق وشرُّه اختياري، كالكفر، والظلم، والطغيان.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ الغاسقُ: الليل ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي اعتكر ظلامه، وأصله الامتلاء، يقال غسقت العينُ: إذا امتلأت دمعاً، والغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه، عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» وقيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ دخل في المحاق وهو آخر الشهر، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي دخل ظلامه في كل شيء، وتقييده به، لأن حدوثه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ولذلك قيل: «الليل أخفى للويل»، وإنما أمر بالاستعاذة من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع والهوام، والسارق والمكابر، ويقع الحريق، وتنتشر الأرواح المضرة، الجنُّ والشياطين.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ النفاثات النساء السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، ويرقين، وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر، والنفث: النفخُ مع ريق، ومنهم من قال النفخ فقط، ومنه قوله ﷺ: «إن جبريل نفث في روعي» والعُقَد جمع عقدة، وإنما جمع لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد، كان التأثير أكثر وأشد، وتعريفها للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي مربيهم ومصلحهم، ودافع ما يضرهم.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ②﴾.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق، ملوكاً وأتباعاً، وهو عطف بيان، جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم، ليست بطريق تربية سائر الملوك لما تحت أيديهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الكلي.

﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ③﴾.

﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ أي هو تعالى ربهم ومعبودهم، الذي لا ربَّ لهم سواه وتخصيص الإضافة بالناس، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته، وملكوتيته، وألوهيته، للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضية عنده تعالى.

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④﴾.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، والمراد به «الشيطان» سُمي بفعله مبالغةً، كأنه نفسُ الوسوسة ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر، إذا ذكر الإنسانُ ربه، لما رُوي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه، خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي قلبهم، يغريهم بالكفر والمعاصي والفجور، ليوقعهم في نار الجحيم، وفي الحديث الشريف «إن الشيطان واضع خطمه ـ أي خرطومه ـ على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»[(١)].

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، أي هذا الوسواس الخناس هو من شياطين الإنس والجن، ليفتنوا بني آدم ويضلوهم، كما قال الله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض﴾ والجنّة بكسر الجيم بمعنى الجن، نعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، وعصمنا الله من الغفلة عن ذكره إنه سميع مجيب الدعاء.

«ما ورد في فضل المعوذتين»

١ ـ روى مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ألم ترَ آيات

---

(١) أخرجه الحافظ الموصلي، وأخرجه البخاري تعليقاً عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٦١٥.

أُنزلت هذه الليلة، لم يُر مثلهنَّ قَطُّ؟ ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[1].

٢ - وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم ينفث فيهما فيقرأ قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[2].

٣ - وعن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتدَّ وجعُه، كنتُ أقرأ عليه، وأمسحُ عنه بيديه، رجاء بركتيهما»[3].

٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل، وأطراف النهار»[4].

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شر ما علمنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ونبيه وصفيه، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وصلى الله على محمد، وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا وليَّ العصمة والإرشاد، وهادي الغواة إلى سنن الرشاد، بارىء البرية، مالك الرقاب، عليك توكلي، وإليك متاب، أنت المغيث لكل حائر ملهوف، والمجير من كل هائل مخوف، أحتمي بحرَمِك

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٨١٤ في المسافرين، والترمذي رقم ٢٩٠٥ في ثواب القرآن.

(٢) أخرجه البخاري ٩/٥٦ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٢١٩٢ في السلام.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل ٩/٦٠ ومالك في الموطأ ٢/٩٤٣.

(٤) أخرجه الشيخان البخاري ٩/٦٥ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٨١٥ في المسافرين.

المأمون، من غوائب ريب المنون، وألتجىء إلى حرزك الحريز، وآوي إلى ركنك العزيز، وأسألك من خزائن برك المخزون، في مكامن سرك المكنون، خير ما جرى به قلم التكوين، من أمور الدنيا والدين، وأعوذ بك من فنون الفتن والشرور، لا سيما الاطمئنان بدار الغرور، والاغترار بنعيمها وزهرتها، والافتتان بزخارفها وزينتها، فأعذني بحمايتك، وأعني بعنايتك، وأفض عليّ من شوارق الأنوار الربانية، وبوارق الآثار السبحانية، ما يخلّصني من العوائق الظلمانية، ويجردني من العلائق الجسمانية، وهذب نفسي من دنس الطبائع والأخلاق الردية، ونور قلبي القاسي بلوامع الإشراق، ليستعد للعبور على سرائر الإنس ويتهيأ للحضور في حظائر القدس، وثبتني على مناهج الحق والهدى، وأرشدني إلى مسالك البر والتقى، واجعل أعز مرامي ابتغاء رضاك، وأشرف أيامي يوم لقاك، يوم يقوم الناس لرب العالمين، واحشرني مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله على التمام، والصلاة والسلام على أفضل الرسل الكرام بعون الله العزيز الجليل، وعليه الاعتماد والتعويل، إنه قريب قدير مجيب، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وقد انتهى تحرير هذا المقتطف بفضله عزَّ وجلَّ في بلدة «صوفيا» من بلاد بلغاريا في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة الشريفة لسنة ثلاث وثمانين وثلاث مائة وألف من هجرة من له العز والشرف، وأنا الفقير المحتاج إلى عفو به. ولطفه الكثير، المصطفى الحصن المنصوري، والحمد لله في البدء والختام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

«تم تفسير القرآن الكريم بعونه تعالى»

* * *